بسم الله الرحمن الرحيم

اشترِ كتابا

القارئ الكريم :

بين يديك كتاب "أمِّي كاملةُ عقلٍ ودين" كامل ولا يختلف عن الكتاب الورقي إلا في التصميم والإخراج الفني

هذا الكتاب أخذ مِن وقت الكاتب أكثرَ مِن ألفَي ساعة عمل مِن بحوثٍ ومناظرات ومراجعات وكتابة، بالإضافة لتجاربِ حياة تجاوزت الثلاثين عاما، والوقت مِن ذهب. وطباعتُه تكلّف الناشرَ أكثر مِن 5 دولار لانتاج النسخة الواحدة، ثم تأتي بعدها الضرائب وتكاليف الترحيل والتوزيع وغير ذلك. لكنه بين يديك مجانا؛ لأننا نعلم أن توصيل الكتاب الورقي لكل الناس أمرٌ مستحيل، ولأننا في سباقٍ مع الزمن في نشر العِلم، ولأننا نؤمِن أن العِلمَ ليس للبيع.

ولم يكن الهدف من الكتاب الثراء على الإطلاق، إذ إن تجارة الكتب ليست مما يجلب الثراء، بل تكلّف أكثر مما تربح ماليا.

فإنْ كنتَ لا تستطيع شراءَ الكتاب الورقي أو إنزال التصميم الإلكتروني مِن متصفح الأمازون على الآيباد وغيره فعليك دَيْنٌ أن تشتري كتابا مقابل هذا الكتاب مِن أقرب مكتبة حتى تساهم في إحياء ثقافةِ الكتابة والقراءة. ليس مهمًّا أي كتابٍ تشتري، وليس مهمًّا لأي كاتب ومِن أي ناشر، لكن المهم أن تعطي القيمة المادية لِما وصَلك مجانا، وتشجِّع دورَ النشر على البقاء، وتشجِّع أصحابَ الفكر على مواصلة العطاء...

يطلب الكتاب الورقي من "دار الوطن" في الرباط ومن "دار إبداع" في القاهرة

واللهُ مِن وراء القصد

الدكتور عماد محمد بابكر حسن

من وحي نظرية "آذان الأنعام"

الكتاب الأول

أمي كاملة عقل ودين

شكر وعرفان

كلُّ الشكرِ والعِرفان لعشراتِ المئاتِ مِن الأصدقاءِ والصديقاتِ على (الفيس بوك) الذين عاصَروا معي كلَّ مراحلِ بناءِ هذا الكتاب، حيثُ كنتُ أطرح فيه الأفكارَ بالتدريج على مدى عامٍ للحوار وتبادلِ الآراء وتمحيص الأدلة، وقد تعلَّمتُ منهم الكثيرَ وساهَموا معي بلا كَلَلٍ أو مَلَلٍ في تنسيق الأفكار التي أقدِّمها للناس في هذا الكتاب. كتاب "أمّي كاملةُ عقلٍ ودينٍ"، كتابٌ كتبَتْه الجماهيرُ وإنْ كان يحملُ اسمَ كاتبٍ واحدٍ وبعضَ أسماء المساهِمين.

كلّ الحبِّ والتقديرِ لأمِّي الحبيبةِ السيّدةِ: "**ليلى عبد العزيز موسى**" التي وقفتْ معي طوالَ كتابةِ هذا الكتابِ، وأذِنتْ أنْ نأخذَ صورةً معًا في بيتِنا الريفيّ في ضاحية أُمّ القرى شمالَ (الخُرطوم بَحْريّ) لتكون غلافًا للكتاب، لكنّي آثرتُ حذفَ صورتِها صونًا لها وأبقيتُ ساحة المنزل في الغلاف للذكرَى.

وأخُصُّ بالشكرِ صديقي وأخي الحبيب الشاعرَ المصريّ: "**أشرف البولاقي**" مِن قِنا بصعيدِ مصر على مراجعتِه لُغة الكتاب وتصويبِ ما استطاع تصويبَه مِن أخطائي الإملائيّة الكثيرة. كما أشكرُ الإخوةَ المسيحيّين الذين تكرَّموا بمراجعة الأبواب التي تُناقِش فِكرًا مسيحيًّا من منظورٍ إسلاميٍّ حتى أطمئنّ إلى أنّ ما قدَّمتُه ليس إلا وجهة نظرٍ مختلفةٍ لِما ألِفوه لا سبَّ فيها ولا تَقليلاً مِن شأن أحدٍ ومِنْ مُعتَقدِه.

كما أخصُّ بالشكر أخي الحبيب العلّامة دكتور: "**عدنان إبراهيم**" الذي مَنَحني الكثيرَ مِن وقتِه القيِّم لمناقشة فكرةِ الكتاب ومُحتواه مِن ضربة البداية وجهًا لوجهٍ في (فيينا) ثمّ بالمراسلة أثناء الكتابة وإنْ لم يسمح وقتُه أن يُراجِعه كاملاً قبل الطباعة.

نحن جميعًا على مِلّة إبراهيمَ، وحربُنا هي هدم الأصنام:

{قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67)} الأنبياء.

تــــمهيــد:

وقفَتُ -والخوفُ بعيني- أتأمّلُ مظروفًا مَقلوبًا... كان واضحًا أنّـه مِن خـارج البلادِ فضْلاً عنْ أنّ عنوانَ المُرسِلِ على ظهْرِ المَظروف كان مِن الهند... !

شعرتُ للحظاتٍ برعشةِ خوْفٍ ممزوجةٍ بسرورٍ... فلمْ يكُنْ لـي فـي الهند مَن يراسِلُني حينِها إلّا هـي... وهـي قدْ وعَدَتني أنْ يَنقطِعَ التواصلُ بينَنا حتى تعودَ مِن رحلتِها بعْدَ ثلاثةِ أشـهرٍ، لكنْ لمْ يَمْضِ علـى رَحيلِها إلّا أسبوعان وها هي تفاجِئُني برسالةٍ مِنها.

حملتُ المظروفَ وصعدتُ الدَّرَجَ إلى الصالة بهدوءٍ، وذِهني شاردٌ يَبحثُ بيْنَ أحداثِ الشهورِ الأربعةِ الماضيةِ عمَّا يُطمئِنُني في محتوى هذه الرسالة، لكِنَّ كلماتِها الأخيرةَ لي وإصرارَها ألّا تَركعَ للهِ ما لم يَستجِبْ لشروطِها لم يترُكْ لي مجالاً للتفاؤل...

جلستُ على الكَنَبةِ حيثُ كنتُ قدْ أعدَدْتُ إفطاري قبْلَ أن يُلقيَ ساعي البريدِ الرسالةَ. وكانت السماءُ ما تزالُ تُمطِر بغزارةٍ مُرعِبةٍ في ذلك الصباح مِن أيّام شهرِ (يونيو) سنة 1998 في مدينة (بيرمنجهام). وسرعانَ ما نسيتُ نفسي وعُدْتُ إلى مكالمتِها الأخيرةِ قبْلَ أسبوعين، حينما رَنَّ جرسُ الهاتفِ الأرضيّ:

"عماد؟"... "نعم يا (كاثرين)"... كان صوتُها مرتَبِكًا على غيرِ عادتِها، وصَمَتتْ طويلاً قبْلَ أنْ تواصِل: "لقد أكملتُ إجراءاتِ المغادَرة وأنا الآنَ في الصالة الأخيرة في انتظارِ الإقلاع... لكنّي خائفة"... فقلتُ لها مُطمئِنًا: "هي رحلةُ طائرةٍ كَكُلِّ الرحلات، وإنْ شاء الله تَصحبُك السلامة"... فأجابَتني بصوتٍ مُضطربٍ: "لا يا أخي، سأستقِلُّ الطائرةَ مِن (مانشستر) إلى دُبَي، ومِن دُبَي طائرةً أُخرى إلى (نيودلهي)، ومِنها طائرةً ثالثةً إلى المدينة الهنديّة التي سأدرسُ فيها.."

"ولِمَ الخوفُ يا كاثرين؟"... .سألتُها بصوتٍ هادئٍ... .فأجابَتني بارتباكٍ: "لديَّ شعورٌ أنّ اللهَ سينتقِمُ مِنّي... و أُحِسُّ بذنبٍ على ركّابِ الطائرات التي سأستقِلُّها".... وأنا أفهمُ ما كان يدورُ في ذهنِها لكنّي سألتُها للاستدراج: "ولِمَ ينتقِمُ اللهُ منكِ؟" فأجابتْني بحِدّةٍ: "لأنّي عزمتُ ألّا أركعَ ولا أسجدَ له إلّا أنْ يأتِيَني بآيةٍ بيِّنةٍ".... كنتُ تائهًا في تلك اللحظات لأنّي لا أجِدُ الكلامَ المناسبَ الذي يجعلها تَعدِلُ عن رأيها، ولا أدري كيف أطمئِنُها.. فقلتُ لها: "أنا أحترِمُ رأيَكِ وأشعرُ بالمرارةِ التي تشعرين بها، لكنّي على ثقةٍ أنّ عدالتَه أوسعُ مِن مقدرتِنا على الاستيعاب..." فسألَتْني بصوتٍ مكسورٍ: " أتظنُّه يَشملُ برحمتِه أبي وأُمِّي وجَدِّي الذي مات على المسيحيةِ وهو يَظنُّ بهِ خيرًا؟".... فقلتُ لها: "ما أعلمُه هو أنّ الله لا يَظلِمُ أحدًا، ولعلّ توجيهَه لكِ نحوَ الإسلامِ هو بدايةُ هذه الرحمةِ لهم.... توكّلي على اللهِ واحسمي أمْرَكِ".. فردَّتْ عليَّ بصوتٍ مرتفِعٍ: "أنا أمْري محسومٌ بالعقلِ ولا رَجْعة عنه، لكنّي أريدُ مِنه آيةً، وإلّا فلن أركَعَ له.." ثم ضحكتْ بسخريةٍ ممزوجةٍ بمرارةٍ: "على أيّ حالٍ سأتَّخِذُ هذه الشهورَ الثلاثة للسياحةِ مع أديانِ الهندِ وآلهتِها، وربّما أكتشِفُ اكتشافًا جديدًا أكبرَ مِن الإسلام، وحينَها سيكونُ لي رأيٌ آخر.. وربّما أسجُدُ للبقرةِ قبْلَ الله".. كانت تلك الثواني تساوي الفَرْقَ بيْنَ الجنةِ والنار حينَها؛ لأنّ الخَطَّ يمكِنُ أن يَنقطِعَ في أيّة لحظة.. فسألتُها: "أيَّ نوعٍ مِن الآياتِ تَنتظرين يا (كاثرين) وأنتِ تَعلمين أنّه لا وحيَ بعد النبي -صلى الله عليه وسلم-...؟ هل تكتفينَ برؤيا في المنامِ تُطمئِنُكِ؟"... فجاءَني ردُّها ساخِرًا ضاحِكًا: "رؤيا في المنام؟؟ أتَسخَرُ مِني يا عماد بعدَ كلِّ ما دار بينِنا مِن حواراتٍ؟ هل تظنُّني تركتُ المسيحيّة في الطريق إلى دمشقَ لأعتنِقَ الإسلامَ بنفس الطريقِ إلى دمشق؟ هو أدرى بالآياتِ ولا يُعجِزُه شيءٌ.. وإلى ذلك الحِين فلن أركَع"..... ثمّ خَتَمتْ قبْلَ أنْ أردَّ عليها: "عماد يا أخي سامِحْني فالهَمُّ يُمزِّقُني، لكنّي أطالِبُ بعدالةٍ إلهيةٍ هيَ مِن حقي... وعلى أيّةِ حالٍ أتركُكَ في سلامٍ، ولن أراسِلَكَ مِن الهند، ولنا لقاءٌ بعد عودتي..... إلى اللقاء"...... وانقطَع الخَطّ......

خرجتُ مِن شرودي لأجِدَ المَظروفَ بين يدَيّ على غيرِ ميعادٍ، رغمَ أنّها غادرتْ قبلَ أسبوعين فقط... فتحتُه بأناملَ مُرتعشةٍ.... وكانت فيه إحدى أجملِ المفاجآتِ في حياتي...

كان مُروّسًا بالعربيّة الواضحة:

{بسم الله الرحمن الرحيم: مِن (كاثرين) في الهند إلى أخي في الإسلام عماد.. أمّا بعدُ فإنِّي أُشهِدُكَ وأُشهِدُ اللهَ أنّي أَشْهَدُ أنْ لا إله إلّا الله وأنّ مُحمّدًا رسولُ الله....}

ومَضَتْ (كاثرين) تَقُصُّ عليَّ بتفصيلٍ دقيقٍ كيف كانت الرحلةُ، وكيف أنّ اللهَ صَعَقَها بآيةٍ ما كانت لتخطرَ على بالِها قبل أنْ تشرق شمسُ الهندِ الحارقة في أوّل يومٍ لها هناك... وأنّ أولَ ما فعلتْهُ في الهندِ هو أنّها اغتسلتْ وتوضأتْ وصلّتْ الفَجْرَ حاضِرًا... كانت دموعي تَسيلُ أكثرَ مِن المَطرِ الغزير الذي يَنهمِرُ على واجهةِ الصالة الزجاجيّة لشقّتي حينذاك، وأنا ألتَهِمُ قصةَ تَحدّيها للهِ، ثمّ الآية التي غيَّرتْ مَسارَ حياتِها، والتي سأقصُّها بالتفصيل في كتابي القادم -بإذن الله- في مسلسل "مِن وحي نظريّة آذان الأنعام" وهو يَحكي قصة (تري سيدني كيسي) القسيس الذي أسلمَ قبلَ ستةِ أسابيعَ مِن موتِه.

اتَّخذتُ هذه القصة مدخلاً لأنّها تَعكِسُ مَرارةَ الشعورِ بالخيانةِ والصدمة التي يتلقاها المرءُ حينما يَكتشِفُ أنّ حياتَه كانت أكاذيبَ في أكاذيب.

فعنوانُ هذا الكتابِ قد يبدو للبعض رومانسيًّا عاطفيًّا متحدِّيًا للمُوَرّثات، لكنّ محتواه يَتركُ في الحلق مَرارةَ العلقم، مرارةَ الشعورِ بالخيانة... ولا أعني بها مرارةَ الخيانةِ الزوجيّة؛ لأنّ هذه إنْ وقعتْ فغالبًا ما تؤدِّي إمَّا إلى نهايةِ المؤسسة الزوجية التي هي أصلاً عليلةٌ ويبدأ كلّ طرفٍ مِن جديدٍ، وإمّا تؤدي إلى عفوٍ وإعادةِ تَفاهُمٍ وإصلاحٍ للخلل الذي تجاهله الطرفان. أيضًا لا أعني بها "الخيانة العظمى" بالمفهوم السياسيّ كأنْ يتخابر أحدُهم مع دولةٍ عدوّةٍ، لأنّ هذه ظواهرُ تَقع باستمرار.. لكنْ أعني بها "الخيانة الأعظم"... الخيانة في الدين والعقيدة، وهي أشدُّ مرارةً على نفس الإنسان مِن أيِّ خيانةٍ أخرى. أنْ تَكتشِفَ فجأةً زَيْفَ ما تؤمِنُ بأنّه طوْقُ النجاةِ وصِمامُ الأمان في الآخرة يومَ لا رجعة لتصحيح الماضي، ولا منطقةَ وسطى بين الجنة والنار، ولا هروب مِن الحياةِ بموتٍ جديد.. إنّ مفهومَ الخلودِ إمَّا في الجنة أو في النار مفهومٌ مرعِبٌ، لذلك فالخيانةُ في الدين مرعِبةٌ.

ولقد عاصرتُ -بحمدِ الله وتوفيقِه- أيامَ ومراحلَ الانتقالِ مِن المسيحيّةِ أو اللادينيّة إلى الإسلام مع الكثيرين في أوروبا. وفي كثيرٍ من الأحيان كان الشعورُ بمرارةِ الخيانةِ حاضرًا وعاملاً مُهمًّا في التذبذب في اتخاذ القرار الأخير. وكلّما كان إيمانُ المرءِ بمسلّماتٍ لا تَقبَلُ النقاشَ راسخًا، كلّما كان الشعورُ بمرارةِ الخيانةِ أشدَّ، حينما يَكتشفُ المرءُ أنه خُدِعَ وعن قصْدٍ. ورغمَ أنّي عايشتُ الشعورَ مع غيري، إلّا أنّه ما كان ليخطر على بالي يومًا أنّي سأتجرَّعُ المرارةَ نفسَها وإن اختلفت الحيثياتُ والتفاصيل.

ولعلَّ أكثرَ القصص التي عَلِقتْ بذاكرتي في هذا السياق هي قصة "(كاثرين) أميرة الهند"، كما أشرتُ إليها في كتابي القادم إنْ مَدَّ اللهُ تعالى في الأعمار.

(كاثرين) كانت طالبةً جامعية في الحاديةِ والعشرين مِن عمُرها. مِن أُسرةٍ مسيحيّةٍ كاثوليكيّةٍ متزمِّتةٍ جدًا، ولم تُفكّرْ يومًا في مراجعةِ عقيدتِها الموروثةِ طوالَ سنواتِ عمرها هذا، إذ آمنَتْ أنّ المسيحَ هو الله، وأنّ عقيدةَ الثالوثِ هي الأصلُ، وأنّ دَمَ المسيح هو الطريقُ إلى الخلاص، تمامًا كما يؤمِنُ المسلِمُ أنْ إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسولُ الله، وأنّ القرآن هو كتابُ اللهِ، وسُنّةَ رسولِه مكمِّلةٌ له، وأنّ المسلمين في الجنة.. والكُفّارَ في النار.

ثم تَنزلُ عليها صاعقةٌ على غير ميعادٍ..

ففي يومٍ مِن الأيام كانت (كاثرين) تتناول طعامَ الغداء مع مجموعةٍ مِن الطلبةِ في مطعم الجامعة. وكان قُرْبَها طالبان يتحاوران فذَكَر أحدُهما "المسيحَ عليه السلام"... فتوقَّفتْ (كاثرين) عن الطعام وسألته باستغرابٍ: أظنُّكَ مُسلِمًا، لماذا تقول "عليه السلام" مع المسيح؟ فأجابَها بهدوءٍ: "نَحنُ لا نَذكرُ أسماءَ الرُّسُلِ إلا بالتعظيم، والمسيحُ هو ثاني أعظمِ رسولٍ في الإسلام"... قالتْ لي (كاثرين) في بدايةِ تعارُفِنا إنّها شعرتْ بضآلةِ نفسِها لدرجةٍ دَفَعَتها لترْكِ الطعامِ والصعودِ مباشرةً إلى مكتبةِ الجامعة. فكَوْنُ الإسلامِ الدين الذي يقيم الدنيا ولا يقعدها كلَّ يومٍ يَعترفُ بالمسيح ويُجِلُّه، هذه صدمةٌ كبيرةٌ لها ما خَطَرت ببالها، أشْعَرَتْهَا بعِظَمِ جهلِها.... وهناك في المكتبة بدأتْ تَقرأ عمَّا يُسمَّى الإسلام الذي لم تَكُنْ تَعلمُ عنه شيئًا، وما فكّرتْ يومًا أنْ تَسألَ عنه، إلّا مع هذه الصدفةِ الغريبةِ

كَوْنَ أحدِ المسلمين قال: "المسيح -عليه السلام-". قرأتْ عن تاريخ الإسلام من الموسوعة البريطانيّة في جامعة (مانشستر) لتنقلِبَ حياتُها رأسًا على عقِبٍ في بضعةِ أسابيع. فقد اكتشفتْ واقتنعتْ بلا دعوةٍ مِن أحدٍ أنْ لا إله إلا الله، وأنّ محمّدًا رسولُ اللهِ، وأنّ القرآنَ هو كلامُ اللهِ الوحيدُ المحفوظُ، وأنّ الأناجيلَ التي كانت تتعبَّدُ بها إلى الله مزوَّرةً، وأنّ المسيحَ لم يُقتَل، وأنّ الخلاصَ بدمِ المسيح أسطورة، وأنّ المسيحَ ليس اللهَ ولا ابنَ الله.... الصدمةُ كانت قويةً على الفتاةِ في سِنِّها وتجربتِها المحدودة في الحياة. والمرارةُ كانت أشدَّ لأنّها رأتْ بأُمِّ عينِها الحقيقة واقتنعتْ بها مِن غير مؤثرٍ خارجيٍّ. وهنا بدأ الشعورُ بمرارةِ الخيانةِ يحرقُها. فحكومةُ بلادِها خانتها لأنّها لم تُخبرها الحقيقة. وإعلامُ بلادِها خائنٌ، وأساتذتُها عبْرَ السنين خَوَنَة. والقَساوسَةُ الذين كانت تَتبرَّكُ بأيديهم وملابسهم بكل حُسْنِ نيّةٍ خَوَنَة. بل وأبوَاها اللذان نَشأتْ بين أيديهما خائنان أيضًا... مَرَّتْ "(كاثرين) أميرةُ الهندِ" بأيامٍ عصيبةٍ كادت تَكْرَهُ فيها كلَّ مَن عَرَفتْ وظنّتْ فيهم خيرًا طوالَ حياتِها. وسرعانَ ما توجَّهتْ أصابعُ اللومِ في تلك الخيانة مِن الناس الذين حمَّلتهم المسئولية أولاً، إلى اللهِ الذي كان وما زال يعلمُ الحقيقة ويُخفيها عنهم وعنها لتكتَشِفَها هي صدفةً. وبدلاً مِن أنْ تؤمِنَ باللهِ إلهًا وربًّا، آمَنتْ به عدوًّا خانَها وما زال يخونُ أهلَها والإنسانية التي تحيط بها وتنتمي إليها. كانت (كاثرين) لا تشكُّ أدنى شكٍ أنّ اللهَ حقٌّ والقرآنَ حقٌّ ومحمّدًا هو خاتم الأنبياء والمرسلين، لكنّها لم تَجِدْ المعادلة السليمة التي تُبرِّر بها خيانة العليم الخبير لها ولغيرِ المسلمين. وهنا بدأتْ رحلةُ صدامٍ وتَحدٍ مع الله، ليس لعدم إيمان به، وإنّما لشعورٍ مريرٍ بأنّه خانَها وخان أبويْهَا وأخاها الصغيرَ وجَدَّها الذي مات قبلَ عامٍ على أملِ أنْ يَنجوَ بدمِ المسيح.

عاصرتُ معها أسابيعَ عصيبةً وهي تطرحُ أسئلةً وأفكارًا أراها موضوعيّة، لكنْ لا أملِكُ الإجابة عنها. فقدْ وِلِدتُ أنا في أُسرةٍ مسلِمةٍ وتحدَّثتُ العربيّة منذ طفولتي، فهل هذه حَسَنةٌ أنالُ بها الجنة خالدًا مخلَّدًا فيها أبدًا، بينما وِلِدتْ (كاثرين) في أسرةٍ إنجليزيّةٍ مسيحيّةٍ مِن غير حوْلٍ لها ولا قوةٍ؟ فهل هذه جريمةٌ تعاقَبُ عليها بالخلود في نارِ جهنّمَ أَبَدَ الآبدين؟ المعادَلةُ لا تستقيم. وإنْ لم يكن لديَّ تفسيرٌ حينَها عن كيفية تحقيق العدالة الإلهية في هذه المسألة، إلّا أنْ السؤالَ كان مَنطقيًّا وأدْخَلني في دوامةٍ مِن الصراع النفسيّ القاتل خاصةً وأنّي كنتُ أتعاملُ مع شخصيةٍ رائعةٍ في كل شيءٍ، غاية في النضج رغمَ حداثةِ السنّ، وكنتُ أحاورُ إنسانًا يَعقِلُ كلّ ما يقول، وقد قَبْلتْ الحقَ بلا ترددٍ حينما ثبتَ لها، لكنّ معادلة العدالة الإلهية والشعور بمرارة الخيانة كان يحتاج لمَخرجٍ منها قبْلَ أن تُسلِمَ أمْرَها لله. وهكذا انتقلتْ مِن مرحلةِ جهلٍ بالله إلى موقفٍ أشبه بموقفِ إبليسَ الذي كان يؤمِنُ بعزة الله لكنْ أعماه الكِبْر. (كاثرين) لم تكُنْ تَنطلِقُ مِن منطلق كِبْرٍ، لكنّها مرارة الشعور بالخيانة في حقّها وحقّ أهلها وقومها، وكانت تَحتاج إلى آيةٍ ليطمَئِنَّ قلبُها... ومِن دونِها لن تُسلِمَ للهِ ربِّ العالمين.

ودخلتُ أنا نفسي في بلبلةٍ نفسيّةٍ، إذ إنّ تلك التجربة كانت سنة 1998 قبْلَ أن أمْتَهِنَ عِلمَ النفسِ والأمراض العقليّة، وهو العلم الذي أعانني كثيرًا في تفسير ما كان يَصعبُ تفسيرُه عليَّ في الماضي. وكنتُ حينَها أتسوَّقُ في مَتاجرِ الهنودِ والباكستانيّين الذين يمثلون معظمَ الجاليةِ المسلِمة هنا، فلا أجِدُ عندَهم إلا التخلُّفَ والجهلَ والعفنَ الفكريَّ والجسديّ وكلَّ صفات النفاق، بينما أتسوَّقُ في مَتاجرِ الإنجليز، نَصارى كانوا أمْ لا دينيين، فلا أجِدُ عندهم إلا الرقيَّ الإنسانيَّ والفكريَّ والنظافة الجسديّة وكلَّ صفاتِ المؤمنين مِن صدقٍ وأمانةٍ وتَسامُحٍ ووفاءٍ بالوعد.. وبدأتْ مقولةُ الفيلسوف تروقُ لي: "إنّ طقسَ الجنةِ أجملُ، لكِنَّ رفقة أهلِ النارِ أطيب"، فلو كان هؤلاء المسلمون بالميلاد هُم أهل الجنة و"الفِرقة الناجية" وأولئك غيرَ المسلمين بالميلاد هُم أهل النار، فإنّ هذه المعادلة تحتاج أيضًا إلى حَلٍّ.

لم أصِلْ مع (كاثرين) إلى حلٍّ. فهي مؤمِنةٌ باللهِ ورسولِه والقرآن، لكنّها اختارتْ ألّا تُسلِمَ إلّا إذا أتاها اللهُ بآيةٍ تَخصُّها هي تُطمْئِنُ قلبَها أنّ العدالة الإلهية لا يَعلمُها إلّا الله لكنّها عدالةٌ عادلةٌ حقًا. كانت تريد أن تُسلِمَ في اليقظة بكامل عقلها ووعيها بآيةٍ تخصُّها تضمِّدُ جراحَها وتُطيِّبُ خاطرَها وتخفِّفُ عنها الشعورَ بمرارة الخدعة والخيانة في المسيحيّة التي وِلِدتْ ونشأتْ فيها وما زال كلُّ أهلِها ومَن تُحِبُّ يؤمِنُ أنّها طريقُ الخلاص.

وقررتْ (كاثرين) في مَسارِ تَحدّيها للهِ أن تُسافِرَ إلى لهندِ لمدة ثلاثةِ أشهرٍ كجُزءٍ مِن دراستِها الخارجيّةِ في عِلم الآثار الذي كانت تدرسه في الجامعة. واختارت الهندَ لأنّ فيها مِن الآلهة والأديان ما لا يُعَدُّ ولا يُحصَى. وكان مَنطِقُها هو أنّها اكتشفتْ أنّ الإسلامَ هو الحقّ بالمقارنة والدراسة، فمَن يدري لعلّها لو بحثتْ بين آلهة الهند

ودياناتها فستَكتشِفُ اكتشافًا آخرَ أكثرَ إقناعًا من الإسلام؟ مَنطقٌ لا يمكن محاجَجتُه خاصة وأنّها كانت تُصِرُّ على أنّها أتَتْ للإسلام بعقلِها وليست على استعدادٍ أنْ تُلْغِي العقلَ نفسَه الذي دَلَّهَا على الإسلام.

وكان يومُ سفرها عصيبًا عليها وعليَّ. كان هذا قبْلَ انتشارِ التليفونات الجوّالة، وكان ما كان ممّا رَوَيْتُه أعلاه عن المكالمةِ الأخيرة التي تركَتني خلالها في حزنٍ، وحاولتُ جاهِدًا أن أنساها وأنسى الزلزالَ الفكريّ الذي أدخلته في حياتي عن موضوع العدالة الإلهيّة ومصيرِ مَن ولِدَ في أُسرةٍ ومجتمعٍ غيرِ مسلِمٍ وهو يفعلُ كلَّ خيرٍ، وموضوع الخيانة ومرارتها حينما يكتشفُ المرءُ فجأةً أنّ ما وَجَد عليه آباءَه ليس الحق. ولم يَمضِ أسبوعان حتى فوجئتُ بالرسالةِ التي قفلتْ الملفّ لتفتح "(كاثرين) أميرةُ الهندِ" صفحاتٍ جديدةً مع الله، ولأفتح أنا أيضًا صفحاتٍ جديدةً مع التراثِ الإسلاميّ وفَهْمِ القرآن.

القارئُ الكريمُ: مسلِمًا كنتَ أم مسيحيًّا.........

الكتابُ الذي بين يديكَ سيُذيقُكَ قدْرًا كبيرًا من مرارة الشعور بالخيانة في الدين. هذا نصيبُنا من تلك المرارة، وربما هو أيضًا جزءٌ من العدالة الإلهيّة، أنْ لا جنّة ولا نارَ بشهادة الميلاد. لقد تَعرَّضتْ (كاثرين) لامتحانٍ عسيرٍ واختارتْ ما عَقِلتْه وفتَح اللهُ عليها به أبوابَ رحمتِه. بين يديك كتابٌ يتطلّبُ أنْ تعقِلَه، وإنْ عَقلتَه فسوف يذيقُكَ بعضَ العلقمِ من مرارة الخيانة في الدين، لكِنَّ الحقَّ أحَقُّ أن يُتَّبَع.

اليوم: المسلِمون في كلِّ المساجد مِن (ترنيدادَ) إلى الصين لا يردِّدونَ إلّا "قال رسول الله وقال فلان وثبتَ في الصحيحين وأجمعت الأمّة"، هذا هو دينُنَا. لأنّ القرآنَ كتابُ طلاسِمَ لا يمكننا فهْمُه إنْ لم نكُن مِن أهل "الاختصاص". وفجأةً تَكتشِفُ أنّ البخاريَّ أقربُ للأسطورةِ، وما يُسمَّى بالسُّنَّةِ بدعة، وأنّ رسولَ اللهِ ما قال، ومَن تقوَّلَ عليه فليتبوَّأ مقعدَه من النار. وأنّه على "السُّنّة" الوهميّةِ قامت كلّ كتُبِ التفسير وقام عليهما كلّ الفقه الإسلامي "شيعيًّا" كان أم " سُنِّيًّا". لقد تمّ تزوير الإسلام تمامًا كما تمّ تزوير المسيحيّة قرونًا قبْلَه.

إنْ كان ما قرأتَ مزعِجًا، فاعْلَمْ أنّ دعوةَ غيرِ المسلمين للإسلام ليست حلوةً كما نتذوقها نحن ونكبِّرُ اللهَ كلّما سمِعنا بشخصٍ أسلَمَ، فإسلامُهم يعني قلْبَ كيانِهم وتكذيبَ كلِّ ما وَجَدوا عليه آباءَهم. وعلى الأقلّ تَحَلَّ بالصبرِ وطالِع هذا الكتابَ ولو مِن باب تذوُّق الشعور بمرارة الخيانة التي يتجرَّعُها كلُّ مَن يعتنِقُ الإسلام.

"أُمِّي كامِلةُ عقلٍ ودينٍ" كتابٌ فُرِضَ عليَّ أنْ أكتبَه، وأنْ أكتبَه بالطريقةِ التي كتبتُه بها. وقد بذلتُ قصارى جهدي أنْ أجعلَه كتابًا جماهيريًّا ساهَمَ فيه بكلمةٍ أو فكرةٍ أو بحثٍ كلُّ مَن كان لديه ما يقدمه، وأنا أعرضُ أفكارَ الكتابِ على صفحاتِ (الفيس بوك) لأكثر مِن عامٍ.

وقصةُ هذا الكتابِ نَتَجتْ مِن تبعات انتشار "نظرية آذان الأنعام في الخلق والتطور". فبعدَ انتشارِ النظرية وتداولِ الحوار حولها في وسائل الإعلام المختلفة انهالت عليَّ أسئلةٌ كثيرةٌ مِن جيل الشباب الحيارَى الذين يَشعرون بالفطرة أنّ الأمَّة تَهوي في هاويةٍ سحيقةٍ، لكنّهم لا يَدرون مِن أين يبدؤون البحث. فقدْ سألني كثيرون عن كيفية دراسة مقارنة الأديان، وسألني بعضُهم عن طلاسم "الحديث" ومدلولِ المسميّات التي تتجاوز الستين مِن تصنيف درجاته ورجاله، وعن التاريخ الإسلاميّ وعلوم القرآن وكلِّ ما يَشْكُلُ على المسلِمِ استيعابُه في هذا الزمن العصيب. وظنّ كثيرون بي خيرًا فصنَّفوني عالِمًا وفقيهًا، وما أنا بعالِمٍ أو فقيهٍ، وإنّما باحثٌ وأشاركُ الناسَ في اجتهاداتي للمراجعة مِن غير تنطُّعٍ أو إصرارٍ على الخطأ. فتراكمت الضروراتُ أنْ أكتبَ كتابًا مبسَّطًا يَشرح للجيل الجديد ما خَفِي عنهم في تاريخ الإسلام، ويغطي معظمَ الأساسيّات التي يَحتاج المسلِمُ البسيط الإلمامَ بشيءٍ من العِلم بها. على أنَّ ضربة البدايةِ كانت صدفةً حينما أطلَّ عليَّ صديقٌ مِصريٌّ في (الفيس بوك) يصارِحُني بعد أن تَبادَلنا حواراتٍ مطوَّلةً أنّ عمره 15 سنةً فقط. وسألني حينَها أنّه فوجئَ بحديثٍ يقول إنّ المرأةَ والكلبَ والحمارَ تقطع الصلاة، عِلمًا بأنّه يتيمٌ وتعلّمَ الصلاةَ مِن أمِّه، ولمْ يأخذِ الحوارُ طويلاً لنتّفِقَ أنّ هذه مِن الأكاذيبِ المنسوبة للنبيّ. وشاءَ الله أن يحاوِرَني شابٌّ مَغربيٌّ في الأسبوع نفسِه، قبلَ عامٍ مِن كتابة هذا الكتاب، وسألني عن حديث المرأة ناقصة عقلٍ ودينٍ. فكان أنْ خَلَصْنَا إلى أن أُمِّي وأُمَّه كاملتا عقلٍ ودينٍ، والرواية ليست إلا كذبًا

قبيحًا على رسول -الله -صلى الله عليه وسلم- -. وهكذا أصبح لديَّ اسمٌ لكتابٍ يمكن أن أُجمِلَ فيه كلّ ما كان يُطرَح عليَّ من أسئلة، وكان اسمه "أُمِّي كاملةُ عقلٍ ودينٍ".

إنَّ العالَمَ الإسلاميَّ اليومَ يتفكَّكُ ما بَقي منه حيًّا بعد أن بادت دُوَلٌ وشعوبٌ إسلاميّةٌ طحنتها الحروبُ الأهليّةُ التي غالبًا وقودُها الاندفاع الأعمى لتطبيق الشريعة الإسلاميّة. وقد ظلّ بعضُهم يَقتلُ بعضًا عقودًا ولا يَفهم فرْدٌ مِنهم ما هي الشريعة الإسلاميّة. ففي زمنٍ تتوحد فيه الشعوبُ وتتكتلُ الأمم، يتقاتل و يتمزق المسلمون، وفي زمنٍ تتعاظم فيه العلومُ وتتباهى بها الأمم، ينحدِرُ المسلمون من جهلٍ شنيعٍ بالدين والدنيا إلى جهلٍ أشنعَ منه. وهنا أصبح السؤالُ منطقيًّا ومُلِحًّا: هل سوء حالنا الذي لا يَخفى على أحدٍ نتاجُ دينِنا أم نتاج سوءِ فهْمِنا للدين؟ فكلّ الحروب التي تمزّق بلدانَنا لا تخلو مِن صراعاتٍ دينيةٍ مذهبيّةٍ وطائفيّةٍ بصورةٍ لا يمكن معها دفنُ الرؤوس في الرمال وإنكار أنّ الدينَ هو وقودُها. وكلّ المظالم الاجتماعيّة والسياسيّة والفشل الاقتصاديّ والإبحار خلفًا إلى عصورِ تَخلُّفِ الإنسانيّة لها غطاءٌ دينيٌّ إمَّا كان الدافع الأول لها أو أُضيف وقودًا لها. فكان لا بدّ مِن كتابٍ يرفع صرخة لاجئٍ في قَرْنٍ مِن "شر القرون" يودُّ المرءُ فيه لو ماتَ قبْلَه وأصبح نَسْيًا مَنْسِيًّا، صرخة من خارج المؤسسات الكهنوتية تنادي الشبابَ ألّا يتركوا دينَهم، ولكنْ عليهم أنْ يتركوا بكلّ تحدٍ وجَراءةٍ الانسياقَ وراءَ كهنةِ العصر الذين نَصبوا أنفسَهم أربابًا من دون الله وساروا في الطريق ذاتِه التي سار فيها أهلُ الكتابِ مِن قبلُ، يَفتحون أبوابَ الجحيم على الغالبيّة العظمى من الناس ويوزّعون صكوكَ الغفران "للفِرقة الناجية" فقط، والتي تتقلّص مساحتُها وعضويتُها كلّما أشرقت شمسٌ ببدعةٍ جديدةٍ، ولا شيء يقدمونه للناس إلا تلحينَ القديمِ بأصواتٍ نشازٍ، وإنَّ أنكَرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير.

فكَمْ مِن نَفْسٍ أُزْهِقتْ تحت المطالبة بتطبيق "حدود الله" التي حرّم الله أنْ نتعدّاها، وكَمْ مِن جاهلٍ يَظنّ أنّ حدود الله هي العقوبات المشار إليها في القرآن مِن قطعِ يدِ السارق أو جَلْدِ الزاني مضافًا إليها عقوباتٌ مُبتدَعةٌ من رجمٍ وقتلٍ للمرتدّ، والجميعُ لم يطالعوا القرآن لأنّهم لو فعلوا لعلِموا أنّ "حدودَ الله" المنصوصَ عليها حرفًا ولفظًا مرتبطةٌ بـ "الطلاق" و"الميراث" و"الظِهار" فقط، وليس ما يظنونه مِن عقوباتٍ. يا لَنَا مِن أُمَّةٍ ضَحكتْ مِن جهلِها الأُمَمُ!

إنَّ "مؤسسة عبد الله بن سبأ" لصناعة الأديان قد بدأتْ أعمالها -أغلب الظن- قبل الميلاد. لكنّ أكبر إنجازٍ سجّله التاريخ لها كان حينما تَجلّى عيسى باسم الربِّ للقديس (بولس) في الطريق إلى دمشقَ وأمَره بتعطيل شريعة موسى تحت مُسمّى "العهد القديم" ثمّ ألهَمَه "العهدَ الجديد" مِن ربٍّ جديدٍ، وبعد أنْ أعماه ثمّ رَدَّ عليه بصرَه برؤيا كآيةٍ منه على يد (حنانيا) في بيت (يهوذا) الذي في شارع المستقيم في دمشق، باركت "الأناجيلُ الأربعةُ" عهدَ اللهِ الجديد. وسرعانَ ما بَرَكت الإمبراطوريةُ الرومانية بهدوءٍ تحت أقدامهم نتيجة خَطَلِ الرومان باستعباد عقولهم بعبادة "ربٍّ يهوديٍّ". بعد هذا النجاح الباهر وضعت المؤسسةُ أقدامَها في أرض تيماءَ "يثرب" تَرقُّبًا لهجرةِ نبيّ آخِرِ الزمان التي كانت و ما زالت مكتوبة عندَهم في التوراة، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم. وكانت "بَدرٌ" الأولى شاهدًا على مصداقية تلك النبوءة بحذافيرها فاتّخذتها المؤسسة لبِنةً لصناعة الدين الجديد. وبعد الفشل في استمالة النبيّ لِهَواهُم، ثمّ الفشل في قتلِه، والفشل في تحريف كتابه، أعادت المؤسسةُ تنظيمَ صفوفِ أبناءِ المشركين في بدرٍ فكانت أولى إنجازاتِها قتْلَ عثمانَ بنِ عفان وبين يديه المصحفُ الذي كَتَبَه النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- بيمينِه وهو خرّيج جامعة "أمّ الكتاب" لعلوم الكون الإلهيّة بعد أن أوْهَموا الناسَ أنّ "النبيّ الأُمّيّ" تَعني الجاهلَ بالقراءة والكتابة حتى يكون هذا التزييفُ لبِنةً أساسيّةً لتقديس الجهل مستقبَلاً. وبعد قتْلِ عليٍّ والحُسين هيّأت المؤسسةُ بقايا الطُّلَقاء - الذين أسلموا مع الواقع الجديد ولـمَّا يدخُلِ الإيمانُ في قلوبهم- للانتقام من أهل بدْرٍ ومَن تَبَقّى مِن السابقين الأوّلين مِن المهاجرين والأنصار، فكانت "مذبحة الحَرّة" التي ما زال مَن يكتب التاريخَ يتستَّرُ عليها. وبعد إبادة مَن تَبَقّى مِن أصحاب النبيّ في المدينة وهدْم الكعبةِ في مكة في "خير القرون" فُتِحَ البابُ على مصراعيه مِن دمشقَ الأمويّة لصناعة الدين المحمديّ. فتَمَّ تقديسُ البخاري كـقُدْسيّة القدّيس (بولس)، وأُعيد له بصرُه برؤيا شبيهةٍ ورأى النبيَّ في المنام يأمره بما نَهَى عنه في اليقظة وهكذا أُعيد سيناريو صناعة الأديان مع تعديلٍ طفيفٍ في الأسماء فأصبح القرآنُ "عهدًا قديمًا" مصداقًا لقوله تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30)} الفرقان، وحلّ محلّه "عهد الحديث" الذي سرعانَ ما باركته "المذاهب الأربعة" مهيمِنًا على القرآن لتَبْرُكَ الأمَّة منذ ذلك التاريخ إلى اليوم تحت أقدامهم وهي تدين بـ "فقه

الكلب".... حاليًا وبعد موتِ الأمّة فمؤسسة عبد الله ابن سبأ أصبحت لا تُرهِق نفسَها في تخطيطٍ سِريٍّ أو تغييرٍ جذريٍّ في التحريف كما نلاحِظ الفرْقَ البسيطَ بين داحس والغبراء وداعش الغبراء وكلاهما لإبادة البَشر.

ورغم أن الكتابَ يناقِشُ معظمَ جوانبِ التراثِ الإسلاميّ إلّا أنّه كان طبيعيًّا أنْ يميل نحو القضايا المرتبطة بالمرأةِ في الإسلام، ليس لأنّ هناك إشكالاً في الإسلام مع المرأة ولكن لأنّ هذا المدخلَ غالبًا ما يكون مدخلَ بناءٍ أو هدمٍ، لذلك وعلى امتداد الحضارات الإنسانيّة والأديان التي دان بها الإنسان كان وما زال تعامُلُ الدين مع المرأة مِرآةً تَعكِسُ حضارةَ الفلسفةِ أو الدين سَلْبًا وإيجابًا. وإنْ كانت المرأةُ هي الأخت و البنت و الزوجة وغيرهنّ مِن أفراد الأسرة الإنسانيّة إلّا أنّ القاسمَ المشترَكَ هو أنّ كلَّ مَن يمشي على الحَصى فهو ابنُ أنثى، ولا بَشر بلا أُمّ حتى المسيح -عليه السلام- كان استثناءً في عدم وجود الأب لكن كانت له أُمّ. لذلك كان اختيار العنوان، وكان أنْ قررتُ أنْ يكون بسيطًا مبسَّطًا يخاطِبُ جيلَ الشبابِ فيما هُم دونَ سِنّ العشرين. فهذا الجيلُ اليومَ وغدًا جيلٌ تائِهٌ منفتِحٌ على العالم من خلال وسائل اتصالٍ قلَّ ما يفهمها آباؤهم، وحتمًا لا يفهمها مَن لا يدينون إلّا بما وجدوا عليه آباءَهم مِن المشايخ الذين أصبحت خرافاتُهم تنتشر في (الإنترنت) انتشارَ النارِ في الهشيم تُزكِم الأنوفَ و تؤذي اللهَ ورسولَه، وتزيد الفجوةَ بين الشبابِ الحائر وكتابِ الله، فدَخَلْنَا عصرًا يَخرج الناسُ فيه من دين الله أفواجًا. وقد صَدَق فيهم قولُ الإمام الغزالي -رحِمَه الله- إنَّ نِصفَ الكُفْرِ في العالم مسئوليةُ رجالِ الدين الذين يُبَغِّضون اللهَ لعبادِه بأقوالِهم وأفعالهم.

إنْ كان إثباتُ كذبِ عددٍ من الروايات في صحاح البخاريّ ومسلِم وما دونهما يُسقِط تلك المراجعَ فلتَسقُطْ وليبقَ القرآنُ شاءَ مَن شاء وأبى مَن أبى. على أنّ إسقاط عددٍ من الروايات في هذه المراجع لن يُسقِطها إلّا في ظنّ مَنْ قدَّسَها أصلاً، لكنّها ستظلّ كُتُبَ تاريخ كما كان يجب أنْ تكون، لها ما لها وعليها ما عليها. ولعِلمِ القارئ، فإنّ إسقاطَ روايةِ "المرأة ناقصة عقل ودين" ليس هو الزلزالَ على كُتُبِ البخاريّ ومُسلمٍ في هذا الكتاب، فقدْ قالا بتحريف القرآن وخاضا في عِرض النبيّ وقالا على عائشة بهتانًا عظيمًا وهذه هي الكارثة. وهنا أعني الكتب ولا أعني محمدًا بنَ إسماعيل البخاريّ، ولا أبا الحسن مسلم النيسابوريّ؛ لأنّ مصداقية نسبة هذه الصحاح إليهما مشكوكٌ فيها أكثر من الشك في نسبة كتاب "الإمامة والسياسة" لابن قتيبة الدينوريّ.

وفي هذا السياق لا بدّ مِن قولها صريحة: إنّ تراثَ الشيعةِ والسُّنّة لا يختلفان في حربهما على القرآن وعلى الإنسانية والإنسان بترسيخ مفاهيمَ مُنَفِّرةٍ ومغلوطةٍ عن الله ورسوله في كلّ جوانبِ الحياة بعد أن اتّفقوا جميعًا على مصدرٍ واحدٍ للخرافات جعل مِن "الصراط المستقيم" خيطًا وهميًّا بين الجنّة والنار يستعيذ الناسُ مِن السقوط عنه وهُم لا يشعرون كم ابتعدوا عن الصراط المستقيم في منهج حياتهم التي هي كتابُ آخرتِهم. وكان لظلمِ المرأةِ وجعلِ الأنثى مخلوقًا نشازًا في الحياة يُلصَق به كلُّ عيبٍ وسوءٍ، نصيبُ الأسدِ من "فقه الكلب" الشيعيّ والسنيّ.

ولعلّ أفضلَ فاتحةٍ لموضوع الكتاب هو تسليط بعض الضوء على تناول الله في أحسن القصص لصراع الذكورة والأنوثة مُمَثّلة في شَخْصَيْ ملكةٍ عظيمةٍ لكنّها مُشركة، ومَلِكٍ نبيٍّ رسولٍ أعظمَ منها، لكنّ الله رسم رجاحة العقل والحكمة معها مصورًا انتصارَ الأنوثةِ بالفطرة رغم أنّها كانت مشركة:

{وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19)} النمل.

هذه الآياتُ في مُجملِها تصوِّرُ لنا عظمة مُلْكِ سليمانَ، ولِمَ لا؟ فقدْ سأل اللهَ أن يؤتيَه مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ مِن بعده. وهكذا خَطَا ملكُ الملوكِ في عرشه بعد أن ورث مُلكًا أعظمَ مِن أبيه الذي كان أعظمَ ملوكِ زمانِه لكنّه باستجابة دعوة الله له الضمنيّة فها هو مُلكُه الأعظم ليس فيما مضى وإنّما فيما هو آتٍ من مستقبل الإنسانية. ونلاحظ سطوة المُلك في دقة الألفاظ التي يرسم به بديعُ السموات والأرض أحسنَ القصص وهو الذي خلق الإنسانَ وعلّمَه البيان في اختيار لفظ "حُشِرَ". اللفظ ارتبط بكلِّ ما هو بَشِع من "الحشرات" في الدنيا التي يتقزز منها عامة الناس، إلى "الانحشار" في طريقٍ ضيقٍ أو ورطةٍ كبيرةٍ، إلى "يوم الحشر" والهول المرعب. إذن، فاللفظ يرسم حال جنودِه في حالة "حشر" تحت سلطانٍ عظيمٍ. ومِن الطبيعي أن يستهين المرءُ بجنودٍ يحشرهم بَشَرٌ فيَتَوَهّمَ أنّهم نفرٌ قليلٌ

مغلوبون على أمرهم، لكنْ يفاجئنا التصويرُ أنّ هؤلاء الجنودَ المحشورين هُم مِن الإنس والجنّ ومِن الطير وربّما من غيرهم ممّا لا نعلمه مِن قوّات الطبيعة الخارقة. إذن، فتصوير "الحشر" -ويفيد قمّة السطوة مع هذا النوع المرعب من الجنود- يصوّر لنا مَلَكًا مِن ملوك الدنيا لا يقهر.

ولأنّ سليمانَ -عليه السلام- كان نبيًّا رسولاً فقدْ عرّجت اللوحةُ لرسم الجانب النبويّ الروحانيّ فيه في تفاعُلِه مع قصة النملة وشكره لنعمة الله عليه وعلى والديه.

إذنْ: نحن أمام مَلكٍ عظيمٍ فوق مقاييس البَشر، لكنّه نبيٌّ ورسولٌ عظيمٌ أيضًا.

وتعرّج اللوحة مرةً أخرى على سلطان المَلِك لتوحيَ لنا -بالمقارنة لاحقًا- وَحيًا يميز بين الذكورة والأنوثة في التعامل مع السلطة:

{ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21)} النمل

نلاحظ هنا أنّ سليمانَ تَسرَّعَ في الحُكم على الهدهد بسبب غيابه فقط، فأصدر عليه حُكمًا قاسيًا بَشِعًا إلا أنْ يأتيَه بسلطانٍ مبينٍ. ولفظ "السلطان" في القرآن يردُ بمدلولاتٍ كثيرةٍ غير السلطة، منها العِلم، ومنها الدليل، ومنها العُذر وغير ذلك. و"مبين" تعني الوضوح التام. إلى هنا، والقارئ لا يجد مصيرًا للهدهد الضعيف أمام هذا المَلك العظيم والسلطانِ المَهيب، إلا أنّه مَهْمَا أتى بعذرٍ فلن يكون بمستوى مُلك سليمان، وعليه، فمصيرُه -لا محالة- العذابُ الشديد والذبح. لكنْ تأتي المفاجأة:

{ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)} النمل

هنا يرسم البديعُ لنا بُعدًا آخرَ مِن سلطان سليمانَ لكنْ بمنطق الهدهد؛ فلفظ "مَكَث" لا يعني "وقف" أو "توقف" ببلاهة، ولكنّه يعني الوقوفَ مع الحذر والترقب وقراءة الخارطة التي أمامه. إذنْ، فالهدهدُ كان على علمٍ مسبقٍ أنّه ارتكبَ حماقةً مصيرَها الذبح، وعليه أنْ يتّخذ استراتيجية أمنيّة مُحكَمة قبل أن يُقدِّم "سلطانَه المبين"، وإلا قُتِلَ قبلَ أن ينطق. لذلك جاء تحديد موضع مكوثِه بـ " غَيْرَ بَعِيدٍ"!

قد يبدو للقارئ البسيط أنّ " غَيْرَ بَعِيدٍ " تعني أيضًا "غير قريب"، لكنّ الفرْق بينهما ليس في قياس المسافة وإنّما في قراءة نفسيّة مَن اتّخذ ذلك الموقع. فالهدهد كان يحمل رسالةً جدُّ خطيرةً يريد توصيلَها لسليمان، لكنّه أيضًا ارتكَبَ جُرمًا سيُقتَلُ بسببه قبل توصيل الرسالة. ليوصِّلَ الرسالة فلا بدّ أن يحمي نفسَه أولاً، ولِيحققَ هدفَ الحماية الأمنيّة لنفسه فلا بدّ أن يمكث بعيدًا عن مرمَى نيران كلِّ جنود سليمان. لكنّه لو وقف بعيدًا جدًا فلن يَسمعه سليمان، وبالتالي لن تَصِل رسالتُه فيكون مصيره الموت. هنا نفهم أنّه مكَثَ بعيدًا في حالة ترقُّبٍ لِمَا حولَه من مخاطرَ، لكنّه لم يقترب إلّا بمقدار المسافة التي يمكن أن يَسمعه منها سليمان. إذنْ، فالبُعد في استراتيجيته كان الأساسَ، لكنّه يجب إلّا يكون بُعدًا مُخِلاً بالهدف، لذلك مَكَثَ " غَيْرَ بَعِيدٍ" وليس "غير قريب". وفورَ مكوثِه بهذه الاستراتيجية الأمْنيّة التي جعلته في مدى سَمْعِ وبَصَرِ سليمانَ بدأ بإطلاق نارٍ كثيفٍ على شخصية سليمان يدلّل عليها حرفُ العطف "فـــ" في "فقال"! هذا يعني تسارعَ الأحداث: مَكَثَ غيرَ بعيدٍ وفقًا لاستراتيجيةٍ مرسومةٍ مُسبقًا ثمّ هاجم سليمانَ بصورةٍ هزّت عرشَه الذي لا يُقْهَر ممّا فَرَض عليه أنْ يستمع لِمَا يقول هذا "المفعوص" الذي لا يساوي شيئًا في حجمِه أمام بقيةِ الطير ناهيك عن الإنس والجنّ:

{أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ}: يا مَلِكَ الملوكِ الذي يَملكُ الإنسَ والجنّ والطير والريح غُدوّها شهرٌ ورَواحُها شهرٌ، عِلمُكَ ناقصٌ وأنا الآن أعلمُ أنّ هناك ما لم تُحِط به عِلمًا، ثمّ يخبط عرشَه بخبطةٍ أخرى سريعةٍ: {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}!

لو كان سليمانُ يعلم عن "سبأ" شيئًا لوَصَلَها منذ زمنٍ قبل الهدهد، لكنّ تسميتها هنا فيه قمة الاستفزاز لسليمانَ؛ لأنّها مكانٌ غريبٌ عنه، وهذا مدلول لفظ "نبأ" وهو الخبر المهمّ الجديد. الآن، أصبح في علمه مِن هذا الهدهد الضعيفِ مكانٌ اسمُه "سبأ" ويزعم أنّ معه نبأً يقينيًّا منه. هنا يُصدِر سليمانُ بمرارةٍ أوامرَه لجنوده من الإنس

والجنّ أن يتراجعوا خوفًا من ارتكاب حماقةٍ تَقتل الهدهدَ الذي هو طرفُ الخيطِ الوحيد لهذا النبأ الذي هَزّ عرشَه، وينتقّس الهدهدُ الصعداءَ إذ إنّه كسبَ الجولةَ الأولى، ففَرَض على سليمانَ حمايتَه على مضضٍ. وعليه، فلا بدّ من ضربةٍ ثانيةٍ سريعةٍ، هذه المرّة ليست في عرشه فقط وإنّما في ذكوريّتِه:

{إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ...} الله! هذه قمّة الوقاحة! تملكهم امرأةٌ وسليمانُ لا يعلم عنها شيئًا؟؟ وتستمرّ الوقاحة في المقارنة بين مُلكِها وعرشِها ومُلكِ سليمانَ وعرشِه: {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ --- وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} لم يحدّد الهدهدُ مقدارَ ما أوتيت، لكنّه وللاستفزاز عَمَّمَه بـ "مِنْ كُلِّ شَيْءٍ" ووَصَفَ عرشَها بالعظيم.

وهنا يصوّر لنا القرآنُ الهدهدَ كأنّه أحسَّ بسليمانَ والدمُ يغلي في عروقه، وربّما أحسّ بالخطر مِن جديدٍ أنْ يفقِدَ أعصابَه فيقتله، فتأتي خطوةُ التراجع عن الضربات فيبدأ بنقدٍ لاذعٍ لتلك المرأة:

"إنها مشركة": {وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّـهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ}، ثمّ يستلطف سليمانَ النبيَّ ويذكّرُه أنّه مؤمنٌ مثله:

{أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّـهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)}

إلى هنا، أصبح سليمانُ في موقفٍ لا يُحسَد عليه؛ فلا بدّ له مِن البحث في خطورة هذا النبأ. لكنّه لا يعلم أين هي سبأ وليس بينَه وبينَها خيطٌ إلّا هذا الهدهد الجريء، لذلك عَيَّنَهُ سفيرًا ليقوم بمهمة التواصل مع ملكة سبأ، وإنْ كان غيرَ مصدِّقٍ لهذه الصدمات: وهكذا أرْسَل الهدهدَ على مضضٍ سفيرًا ورسمَ له مهمةً محددةً لا يتجاوزها على أنْ يترك باقي الأمر لِمن هُم أكبرُ مِنه شأنًا:

{ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28)}

إلى هنا يُسدَل الستارُ على هذا الجزء من قصة سليمان. ربّما يظنّ البعض أنّ هذا التحليلَ ليس بعده تحليل، لكنْ يفاجئنا اللهُ ببُعدٍ آخرَ للقصة منذ بدايتها يضطرنا إلى العودة إليها من جديد لنقارن بين تعامُلِ المَلك النبي "الذَّكَر" مع طارئٍ بسيطٍ، مُقارَنًا مع تعامُل المَلكة المُشركة "الأنثى" مع طارئٍ أعظم، وهكذا يُدخِلُ اللهُ ملكةَ سبأ في القصة تُزيّنُها حلاوةُ الأنوثةِ ورقتُها:

{ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32)}

نلاحِظُ أنّ الكتابَ كان مفاجِئًا لها، إذ إنّه أُلقِيَ داخلَ عرشِها ممّا يعني اختراقًا أمْنيًّا خطيرًا. أيضًا نلاحظ أنّ الكتابَ كان بَشِعَ المحتوى، إذ إنّه يُنذِرُ بإسقاط عرشِها واحتلالِ بلدِها وزوالِ سلطانِها، بينما كان النبأ الذي أغضبَ سليمانَ فقط هو وجود ملكةٍ عظيمةٍ على بُعد أكثر مِن ألف ميل عن مُلكِه. رغم الفارق بين الحدثيْن، فإنّ القرآنَ يرسم هدوءَ الملكةِ في تعاطيها مع التحدي، بل وحكمتَها في السيطرة على مشاعر جُندِها خوفًا من اندلاع حربٍ لا رابح فيها، وهي لا تعلم بعدُ مَن هو سليمان هذا، ولا كَمْ هو عظيمٌ سلطانُه، لذلك شاورت المجلسَ الأعلى لقوّاتها المسلحة وزَيَّنتْ خطابَها لهم بصورةٍ رقيقةٍ رسمَتها الكلمات الوديعة عن كتابِ سليمانَ بلحنٍ سيمفونيٍّ موسيقيٍّ حتى تمتصّ غضبَ الجُند. إذن، فإنّ اللهَ هنا يدعونا إلى العودة لمقارنة ألفاظِ سليمانَ وألفاظِ ملكةِ سبأ:

سليمان: حُشِر / جنوده من الجنّ والإنس والطير / تفقَّدَ / لأعذبنّه / أو لأذبحنه / سلطان مبين / سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين؟ / تولّ عنهم / لا تعلو علي / أتوني مسلمين.

ليس من لفظٍ رقيقٍ واحدٍ في أسلوبه كما صوَّره القرآن، أمّا هي:

ملكة سبأ: "يا أيّها الملأ"، مدخلٌ رقيقٌ محترمٌ مقارنةً مع "حُشر" / "كتابٌ كريمٌ"، وليس تهديدًا خطيرًا / "من سليمان"، ليس من مَلِكٍ متجبّرٍ / وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم. ثم اختصرت الكتاب -غالبًا ما احتوى على كل الهول والويل- في بضع كلمات، ثم أخضعت الأمر للشورى بكلّ تواضع.

إنّها -بلا شكٍ- لوحةٌ لمقارنةِ تَعاطي الذكورةِ والأنوثة مع حالات الطوارئ، وهنا يأتي ردّ الجند وهُم أيضًا ذكورٌ ليؤكّد ما ذهبنا إليه من ملاحظات:

{ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33)}

لاحِظْ أنّ الرجالَ لا يتحدثون إلّا لغة البطش، لكنّ الأمر كان بيدِها الرقيقةِ وليس بأيديهم، فاختارت الملكةُ راجحةُ العقلِ الدبلوماسية لحقن الدماء واستجلاء الأمر:

{ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35)}

ويعود السياقُ مرةً أخرى لسلطانِ سليمان، فبعدما تأكّدَ له صدقُ الهدهدِ لم يشكره على هذا الكشف الكبير، ولا هو شَكَر الهدية مِن ملكة سبأ، بل رَدَّها بأسلوبٍ مُستفزٍ ثم عَمدَ إلى لغةِ البطش والقوة:

{ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37)}

ثم خاطَبَ المجلسَ الأعلى لقواته المسلّحة:

{قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39)}

نلاحظ أنه قررَ انتزاعَ مُلكِها بأسره والإتيانَ بعرشِها بلا مفاوضاتٍ ولا استلطافٍ رغم أنّها ما جَنتْ أيّةَ جنايةٍ سوى أنّها فقط وُجِدتْ وأُدخِلتْ في علمِه عن طريق هدهدٍ بسيطٍ. ولا بدّ مِن التنبيه إلى أنّ لفظ "عفريت" يَعني الجانّ العظيم وليس الصغير كما نتصور من وصفنا للصغار المشاغبين بأنّهم عفاريت. لكن كان واضحًا أنّ قدرةَ العفريتِ محدودةٌ بزمنٍ، إذ إنّه لن يستطع الإتيانَ بعرشِها إلا قُرْبَ نهايةِ الاجتماع، وهنا تَدَخَّلَ مَن كانت له قوةٌ أعظمُ مِن قوة الجنّ، إنّها قوةُ العقل والعلم:

{ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)}

هنا نلاحظ حقيقةً علمية غامضة: يبدو أنّ الذي عنده علمٌ من الكتاب كان إنسيًّا وَلَدَيْهِ علمٌ بطيّ الزمانِ والمكان، لذلك أتى بالعرش قبل أن يَسمع إجابة سليمانَ، وقبل أن يرتدَّ إليه طرْفُه. ولا بدّ من إفادة القارئ هنا بأنّ بعض المفكرين والباحثين في القرآن اليوم يظنون أنّ منسأةَ سليمانَ التي أشار إليها القرآن كانت "آلة " أو "سلطانًا" على الزمن بحيث يمكنه السفر إلى الماضي أو المستقبل بها:

{فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِين (14)} سبأ

فمنسأتُه ليست عصًا كان يتكئُ عليها مَلكُ الملوك، وإنّما آلةٌ ملّكها اللهُ له، كان يَطوي بها الزمانَ والمكان، فلمّا مات ماتت معه وتآكلت مع دبيب الأرض فَخرَّ مُلكُه، وحينَها فقط تبيَّنت الجنُّ أنّه عصرٌ قدْ ولّى.

نعود للآيات: حيث لا ينسى سليمانُ أنْ يَشكر نعمة اللهِ عليه بالطبع، لكنّه يعود لسلطته ونبرةِ الذكورة الخَشنة فلا يكتفي بعرشها بين يديه ولكن يأمر بتنكيره، وكأنّ الدعوةَ إلى الله أيضًا عنده بالقوة:

{قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41)}

وهنا تنتهي القصةُ بعيدًا عن صدام الملوك إلى مشهدٍ آخرَ يقارنُ بين رقةِ الأنوثةِ التي تسيطر على المشهد الأخير وتكسب كلَّ الصراع:

{ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43)}

نلاحظ كبرياءَ الملكةِ والأنثى؛ فهي كانت تعلم أنّه هو عرشها، لكنّها أرادت نوعًا من التمنّع فوصفته بـ "كَأَنَّهُ هُوَ"! وراجعتْ نفسَها ودينَها، ثمّ كان مِسْكُ الختامِ حينما دعاها سليمانُ لدخول عرشه هو:

{ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)} سورة النمل

ما كان اللهُ محتاجًا ليصِفَ لنا أنّها كشفتْ عن ساقيها، إلّا لأنّه لا بد من طغيان تصوير انتصار الأنوثة على الذكورة تصويرًا جماليًّا مجسَّمًا. فقدْ انتصرت بدبلوماسيتها، وانتصرتْ في حقن الدماء، وانتصرتْ بكبريائها بأن اعترفت بأنّه كأنّه عرشُها، ثم كان أنْ راجعتْ دينَها، وفرضتْ أنوثتَها في صرح سليمانَ بأن كشفتْ عن ساقيها، ثم حافظتْ على كبريائها فلم تُسلِمْ "لـ" سليمانَ، وإنّما أسلمتْ "مع" سليمانَ للهِ ربِّ العالمين، وكأنّها تقول له: لا أستسلِمُ لسلطانِك، ولكن أُسلِمُ معك للذي أعطاك هذا السلطان، الله رب العالمين! فسبحانَ الذي خَلَق الذَّكَرَ والأنثى وخَلَق الهدهدَ وأنزل القرآنَ هُدىً للناس وبيناتٍ مِن الهُدَى والفرقان!

كتابُ "أُمِّي كاملةُ عقلٍ ودينٍ" يَدخل في "بيت العقارب"، فتدبُّرُ القرآن عذبٌ حلوٌ سلِسٌ، وقلَّ ما يقود إلى خلافاتٍ مهما كانت الاستنتاجات، لكنّ مراجعة التراث بكلّ مكوناتِه مِن قصصٍ نشأنا نصدِّقُها، وتفاسيرَ فُرِضتْ علينا لأنّها أتتنا ممّن نتوهم أنّهم "أكثرُ عِلما مِنَّا"، وأقاويلَ يقوم عليها تديننا وتعبُّدُنا مِن استيقاظِنا إلى منامِنا وتسمّى "الحديث"، ثمّ التراث الذي لا حدود له والذي يَندرج تحت مسمى "الفقه الإسلامي"، كلّ هذه الموروثات لا يحتمِلُ كثيرون تعريضَها للنقد مهما كانت مفضوحة التزوير ولا تحتاج لنقد أصلاً، وهذا هو موضوع الكتاب. لذلك فتَلَقّي القارئ له لن يكونَ سهلاً مَهْمَا اجتهدتُ أن أجعل الأسلوبَ سَلِسًا سهلاً. فالكتابُ يبدو للقارئ مِن عنوانِه أنه يثبتُ عدمَ مصداقيةِ القولِ المكذوبِ على رسول الله المتداوَلِ تحت مسمى " المرأة ناقصة عقلٍ ودين"، وهذه حقيقةٌ، بل إنّ هذا الكتابَ ليس أولَ مَن يسعى لتبرئة النبي الكريم منه لكنّه -بإذن الله- سيكون الأخير. وفي سعيهم لإثباتِ حقيقة كذبِ هذه الرواية لأمَّةٍ تَجهل الكثيرَ جدًا عن تاريخها ودينِها، فشلَ كثيرون لأنهم استعملوا المعاول نفسَها التي بَنَتْهَا فَمَنَحوا ما يسمى "علم الحديث" مصداقية ليس أهلاً لها. فكان مثلهم كمثل مَن حاول إزالة الطابق العاشر في عمارةٍ لأنّه غير قانونيٍّ، معطيًا بذلك كلّ العمارةِ شرعية البقاء، أمَّا في هذا الكتاب فإننا لن نزيل الطابقَ العاشر وحدَه، ولن نزيل العمارةَ كاملةً، وإنما سنزيل -بإذن اللهِ- الأرضَ التي بُنيَتْ عليها مِن غير وجه حقٍّ.

في هذا السياق، كان لا بدّ من تشخيص كلّ العِلل التي أدّت إلى بقاء هذه الأكاذيب طوالَ القرون عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فكان لا بدّ من مراجعةٍ للحرب على الإسلام التي تُدرَّس اليوم في مناهج المسلمين وهُم نيامٌ في الباب الأول "حليمة بائعة اللبن". وكان لا بدّ من تفجير العقول التي تم تعطيلُها بثقافة النقل الأعمى والخلط بين "العقل" و"الهوى" في باب " أفلا تعقلون"، وكان لا بدّ من إعادة التعرف على الأنثى بعد طمْس هويتِها تحت ركام الفقه الذكوريّ والثقافات الإنسانية المختلفة التي ساهمت في الجرم نفسه في باب "ملكة النحل"، ثمّ كان لا بدّ نقف أمامَ سؤالٍ محيِّر: مَن المسئول عن كلّ هذا الانحراف في فكر الإنسانية وأديانها؟ فكان لا بدّ من ضرب مثالٍ كبيرٍ جدًا بصناعة المسيحية من تراث عيسى بن مريمَ في باب "في الطريق إلى دمشق". وهنا نبدأ ملاحظة التشابهِ بين بصمات مَن ضَحِكَ علينا وعلى مَن قَبْلَنا. وهكذا نتعرف على "مؤسسة عبد الله بن سبأ" لصناعة الأديان ونحن نراجع التاريخ في "خير القرون"، ذلك المفهوم الذي يرسخ في أذهاننا مركّبَ النقص في حتمية التدهور الأخلاقيّ والعقديّ مع تقدُّم الزمن كلما ابتعدنا عن قرون السلف الأولى، ومِن هنا نحتاج لتفكيك التراث إلى مكوناته فنراجع ما يُعرَف بـ "علوم القرآن" و "علوم الحديث" لنرى بصماتِ الفاعل في "الطريق إلى دمشقَ" وقد كرَّرَ المسرحية نفسَها بعد أن آلت دمشقُ للمسلمين. وبعد أن تتضح الرؤيا نعود للمقارنة بين حَدَثَيْن كبيرَين في تاريخ الإنسانية: أولُهما كان "قولهم على مريمَ بهتانًا عظيمًا" لنرى كيف صاغت "مؤسسة عبد الله بن سبأ" لصناعة الأديان قصة البهتان على مريم، وهذا الباب يفتح أذهاننا لتلقي أكبر صدمةٍ في الكتاب وهي أننا شَرِبنا مِن الكأس ذاتِها في "وقولهم على عائشة بهتانًا عظيمًا"، حيث تمّ تحريفُ سورةِ النور من الخارج بعد أن فشلوا في تحريف القرآن مِن الداخل. وهنا فقط، وبعد أن يفيق القارئُ من هذه الصدمات المتتالية، يصبح نقضُ أكذوبةِ "المرأة ناقصة عقلٍ ودينٍ" أمرًا سهلاً على الجميع، ولا يحتاج لكثيرِ عناءٍ لإخراجها من التراث الإسلاميّ وتبرئةِ محمد بن إسماعيل وأبي الحسن مسلِم النيسابوريّ "البخاريّ ومسلِم" وغيرهما، ومِن قَبلِهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مِن هذا البهتان.

ولأنَّ التراثَ الذي ورثناه باسم الدين ثقيلٌ ومتشعبٌ ومعقَّدٌ، وتَفرَّقَ إلى سُبُلٍ كثيرةٍ منها سبيلٌ اسمها" أهل السُّنَّة"، وسبيلٌ أخرى اسمها المذاهب، ثم سبيلٌ اسمها "الشيعة"، كما تَفرَّق إلى مذاهبَ أخرى تجعل الباحثَ عن الحقيقة في تِيهٍ مِن أمره بعد أن تفرقت بهم السُّبُل عن سبيل الله والصراط المستقيم، لذا، فقدْ اختَصَرتُ كلَّ الضلالات الموروثة -بغضّ النظر عن السبيل التي أتت منها- في سلةِ مهمَلاتٍ واحدة أسميتُها " فقه الكلب" حتى نختصِرَ الطريقَ في ختام الكتاب للبحث عن "البداية والنهاية" من جديدٍ.

لا بدّ من الاعتراف أنني أَمَلُّ قراءةَ الكتبِ القديمةِ، وأعلمُ أن كثيرين يَمَلُّونَها، لذلك أميل للأسلوب القصصيّ في الكتابة مهما كان الموضوع علميًا، ولله المَثَلُ الأعلى في أحسن القصص.

ولا بدّ من التصريح أيضًا، أننا نعيش في عصرٍ أصبحتْ فيه المِلكيةُ الفكرية أمرًا مُشَاعًا بين الناس نتيجة تبادُلِ المعلومات على (الإنترنت) بين الناس مِن غير ذِكْرِ صاحِبِ الفكرةِ الأول، هذا بالإضافة إلى أن معظمَ محتوى هذا الكتاب ليس فيه ابتكارُ جديدٍ غير أسلوب العرض وتسلسل مناقشة الأفكار وتشخيص الأدواء وعرض الأدلة، لكنَّ الثورةَ على التراث المغلوط أصبحت واقعًا يتناوله الكثيرون إمّا في كُتُبٍ بأسمائهم أو مقالاتٍ في (الإنترنت) أو حواراتٍ في (اليوتيوب) وغيرها من الوسائل الإعلامية. وقد ساهَمَ معي في تجميع موادّ الكتاب جَمْعٌ غفيرٌ مِن الناس مِن أقصى غرب المغرب إلى أقصى شرق المشرق العربي، لكني آثرتُ أن أُخفي الأسماءَ إلّا مَن كَتَبَ مقالاً مطوَّلاً يُنسَبُ إليه في الكتاب، ليس تقليلاً مِن شأنهم ولكن خوفًا عليهم لأنّ بعضَهم ساهَم بالكثير وفضَّلَ ألّا يُذكَرَ اسمُه، إذ إنّ حرية الفكرِ غيرُ متاحةٍ في معظم بلداننا، ومِن الحكمة أن يتحمَّلَ الكاتبُ وحدَه كلَّ المسئولية عن محتوى الكتاب، لكنَّ اللهَ تعالى لا يَبْخَسُ الناسَ أشياءَهم، وكلُّ صاحِبِ جهدٍ سواءٌ أكان كلمة أو فكرةً أو بحثًا سَيَجِدُ أجرَه عندَ اللهِ بقدْرِ فائدةِ الناس منه.

وفي هذا السياق، فإننا لن نستطيعَ إفاقة مِن ماتوا تحتَ (البنج) الشامل، لكن يمكن أنْ نجتهدَ في إنقاذِ الأجيال القادمة من عقيدة أنّ المسيحَ ماتَ مِن أجْلِنا، وأنّ البخاريّ ثاني أصَح كتابٍ بعد كتابِ الله الذي صنف مع الصحاح، وأنّ سورةَ النور نَزَلتْ في براءة عائشة، فكلّها عقائدُ فاسدةٌ نتجتْ عن مصدرٍ واحدٍ.

ولا أُخفي أنّ كتابة هذا الكتاب سبَّبتْ لي معاناةً نفسية كبيرةً؛ لأنني وقفتُ على الكثير من الحقائق المريرة في تاريخنا المزيف، وأصبحتُ بين نارَيْن: إمّا أن أنشَرها كما هي فيصاب بعضُهم بزلزالٍ في دينِهم، وإمّا أن أتَّبِعَ سبيلَ المُدلّسين وأبارك كلّ ما جاءنا مِن شرورٍ مِن "خير القرون". وعزائي أنّي أُهدي القليلَ الذي استطعتُ أن أضَمِّنَه هذا الكتابَ، إلى أسماءَ خَطَّتْهَا الملائكةُ في تاريخ الإنسانية بأحْرُفٍ مِن نورٍ فدَنَّسَهَا مِن بعدِهِم أهلُ الظلمِ والجور:

يا سيِّدَيْ شبابِ أهلِ الجنّة "الحَسَن والحُسَيْن"، وسيِّدَيْ ضحايا غدْرِ الشيعةِ وأهلِ السُّنَّة، طوالَ الزمن الحزين، اليومُ يومُ الثأر...

يا سيدةَ نساءِ العالمين مريم بنت عمران، رفيقة الملائكةِ في المحراب، وضحية أعظم بهتانٍ تَجاهلناه بعد أن فَضَحَه اللهُ في القرآن، اليومُ يومُ الثأر...

يا عائشة الصدِّيقة بنتَ الصدِّيق سيدةَ نساءِ المسلمين، لقد كنتِ ضحية أخطرِ بهتانٍ على مَرِّ السنين، معذرةً يا أُمَّنَا وأُمَّ المؤمنين على التأخير، فاليومَ تُشرقُ مِن جديدٍ سورةُ النور، اليومُ يومُ الثأر...

لكِنْ، لأننا قدْ كَبِرْنَا وهَرِمْنَا في انتظارِ هذا اليومِ فلا خيار لنا إلا التعامل بلغةِ العصر، فلْنُمَهِّدْ للبحثِ في خرافةِ إرضاع الكبير، ونبدأ كتابَنا مِن ثَدي "حليمة بائعة اللبن".

عماد حسن

كتبتُ التمهيدَ على ارتفاع 38 ألف قدَم في طائرةِ الخطوط الملكيّة المغربية بين (لندن) والدار البيضاء يوم 1 مايو 2014 م.

حليمة بائعة اللبن

هذا البابُ بابٌ قصيرٌ مِن حيثُ تنوع المواضيع وعدد الكلمات، لكنَّ لـه أهميـة قُصوى فـي الكتـاب لتشخيص الداء الذي تعاني منه أُمَّتُنا. ليس سِرًا أن القارئَ يعلمُ أن محتوى الكتاب في النهايـة يصب فـي إصدار حُكمٍ علـى روايـةٍ تاريخيةٍ منسوبةٍ للنبيّ -صلى الله عليه وسلم- فالأمرُ واضحٌ مِن اسم الكتاب. وقد يكون بعضهم قد قرر مسبَّقًا أنّ الكاتبَ دَرَس في بلاد الفرنجة، وتثقَّفَ بثقافتهم وعاد كغيره يحارب الإسلام. وقد يظنّ بعضهم أنّ الكاتبَ بطبعه علمانيٌّ ويريد أن يزيد مِن تشكيك المتشككين في التاريخ الإسلاميّ حتى يبعدهم عن "السُّنَّة النبويّة المطهَّرة". وقد يظن بعضٌ أنّ الكاتبَ ساذجٌ تمّ استغلاله لتمرير مخطَّطٍ أجنبيٍّ يحارب به دينَه ويسيء به إلى النبيّ الكريم. كثيرةٌ هي الظنون التي تخطر على بالنا بعد أن أدْمَنَّا التبعية وأصبح آخر ما نستدعيه للعمل هو العقل، إذا سمِعنا رأيًا يهدد مِن مصداقية ما وجدنا عليه آباءَنا، وهكذا كان حال كل الأُمَم التي أخذها الله أخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

هذا الباب يشرح للقُرَّاء -وبالدليل الدامغ- أنّه ما حارب النبيَّ الكريمَ قومٌ مثلَ ما حاربَه المسلِمون، وأنّه لا توجد "رسومات" أو كتابات مسيئةٌ للنبيّ -صلى الله عليه وسلم- أكثر ممّا هي كائنةٌ في بلاد المسلمين وتراثهم المقدس، وأنّها مِن وضْع أُناسٍ اسمُهم محمد، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وخديجة، وفاطمة، وعائشة، وزينب.

إنَّ أقبحَ أنواع الكذب هو الكذب الذي يصدِّقه صاحِبُه. وهذا ما آلتْ إليه حالنا، وما لم نشخِّص أصلَ هذا الداءِ فلن يمكننا دراسة أيّ موضوعٍ علميٍّ أو فكريٍّ أو تاريخيٍّ دراسةً موضوعيّةً.

"حليمةُ بائعةُ اللبن"، بابٌ يشرح أنّ البلدانَ الوحيدةَ التي يُحارَبُ فيها النبيُّ والإسلام رسميًّا مِن داخل المناهج ،التعليمية الرسمية والدينية منها على وجه الخصوص، هي بلاد المسلمين على امتداد رقعتها الواسعة مِن "همجستان الشرقية" إلى "همجستان الغربية".

ولأنّ الموضوعَ جدُّ حساسٍ، ولأنّ كثيرين مِنّا لم تتم تنشئتُهم في بيئة تحتمل النقدَ الذاتيّ، ناهيك عن أن تحترمَه وتبحث عنه، فقد آثرتُ أن أضع المناهجَ الدراسية السودانية التي دَرَستُها في طفولتي في بلدي الأم السودان موضعَ النقد حتى لا يظنّنَ ظانٌّ أنّ الكتابَ مقصودٌ به زيد أو عبيد. وحتى يعلم الناسُ جميعًا حينما يراجعون السمومَ التي دُسَّت لهم في مناهجهم التعليمية في أيّ بلدٍ كانوا، أننا وعلى امتداد تاريخنا الذي نتباهى به ونَحِنُّ إليه، نختلف في كل شيءٍ واتفقنا في شيئيْن فقط: اتفقنا على ألّا نتفق، أيضًا اتفقنا جميعًا على بذْر بذور الكراهية للنبي -صلى الله عليه وسلم- في مناهجنا الدراسية ومِن فوق منابرنا الدينية، وأعني بها منابرَ خُطَبِ الجمعة وليس الكنائس.

في مناهج اللغة العربية في السودان، في فترة السبعينيات وحتى منتصف الثمانينيات، كانت دراسة اللغة العربية مِن الصف الثاني الابتدائي إلى المرحلة المتوسطة تشتمل على مادة "المطالعة". وهذه تهدف إلى تعليم النشء فنونَ القراءةِ، ومن ثم كتابة المقالات الإنشائية. وكانت المطالعة عبارةً عن كتابٍ يُدرَّس خلال العام، يحتوي على قصصٍ متنوعةٍ تبدأ مِن قصصٍ بسيطةٍ وقصيرةٍ وتزداد طولاً وتعقيدًا مع تطوّر عُمُر التلاميذ.

وفي كلّ قصةٍ مفرداتٌ لغويّةٌ جديدةٌ غيرُ مألوفةٍ يتمّ استخراجُها وشرح معانيها وتدريب الأطفال على استعمال الكلمة نفسها في جُمَلٍ جديدةٍ وهكذا ينتهي الدرس. والقصصُ بطبيعة الحال تحتوي على مواضيعَ شائقةٍ للأطفال، غالبًا ما تترك أثرًا على سلوكهم، وتُنحَت كما النحت على الصخر في ذاكرتهم البريئة؛ لتشكل مرتكزًا أساسيًّا في سلوكهم الاجتماعيّ والأخلاقيّ والدينيّ والسياسيّ والوطنيّ وغيرها حسْبَ القصص التي يطالعونها.

ومِن ضمن القصص التي كانت قد أعدَّتها وزارةُ التربيةِ والتعليم السودانية على أيدي مختصين مسلِمين بعد رحيل الاحتلال الإنجليزي وعلى مرأى ومسمَعٍ مِن كلّ المجتمع السودانيّ المسلم، قصص وضِعتْ بحِرْفِيةٍ فائقةٍ لتنحت أقبحَ الرسومات المسيئة للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- في ذاكرة الأطفال، وهُم في سنٍّ أقلّ مِن عشر سنوات. وهنا سأذكِّر جيلَنا الذي نشأ في السبعينيات وحتى منتصف الثمانينيات حيث تغيرت المناهجُ إلى ما هو أكثر فسادًا، أذكِّرُهم بقصص "حليمة بائعة اللبن" و"طه القرشي" و "محمود الكذاب". وعلى القُرّاء الكرام مِن

الدول العربية الأخرى مراعاة فروق الثقافةِ والبيئة، والبحث في مناهجهم عمّا يشبه هذه القصصَ المسيئة للنبي -صلى الله عليه وسلم-. لكن، حتى أُسهِّل مهمة البحث فإنّي سأقدِّم لهم قصة لا أشكُّ لحظةً واحدةً في أنها يتم تدريسُها بالتفصيل المملِ لكلّ الطلاب المسلمين على امتداد العالم وبكل اللغات، وما زالت تمثل مادةً أساسيةً في الدراسات الدينية، وأكاد أُجزم أنه لا يوجد مسجدٌ قائمٌ يُصلَّى فيه على امتداد الكرة الأرضية اليوم إلا وناقشَ خطيبُه يومًا هذه القصة التي قصَد حابكوها جعْلَ المسلمين على امتداد التاريخ ألدَّ أعداءِ النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وهُم لا يعلمون.

حليمة بائعة اللبن:

عجزتُ عن الحصول على كتاب المطالعة لأنقلَ كلَّ القصص حرفيًا، لكني كما أسلفتُ فهي منحوتة في ذاكرة الطفولة. وما يهمنا هو مضمونها وليس تفاصيلها.

(كانت حليمةُ امرأةً قرويةً ساذجةً، تفتقرُ للكثير مِن مظاهر الحضارة والسلوك الراقي. وكانت تمتلك بعضَ الأغنام. ومرّت الأسرة بحالةٍ من الفقر فقررتْ حليمةُ أن تحلِبَ الأغنامَ وتبيع اللبنَ في المدينة المجاورة لتساعد أسرتها. وهكذا بدأتْ عملها في اليوم الأول وحلبت اللبنَ وحملته في قِدْرٍ قبيحٍ متسخٍ، وذهبتْ مع صديقتها التي كانت تبيع اللبنَ أيضًا. وانتظرتْ حليمةُ بائعةُ اللبن ساعاتٍ ولم يقربْها أيٌّ مِن الناس، بينما كانت صديقتُها يتسابق الناسُ على لبنِها حتى نفَد. وعادت حليمةُ بائعةُ اللبن إلى بيتها حزينةً ولا تدري لِمَ خسرتْ لبنَها، بينما صديقتُها نجحت في بيع كلّ اللبن. ولأنّها كانت ساذجة لم تلاحظ كمية الذبابِ الذي يطير حولها ويسقط على قِدْرِها. وتكرّرَ الأمر في كلّ يوم. وذاتَ يومٍ قررت حليمةُ أن تسألَ صديقتَها عن سرّ نجاحها. فعلّمَتها صديقتُها قواعدَ النظافة، وعلّمَتها كيف تنظّف القِدْرَ حتى لا يتجمع حوله الذبابُ، وعلّمَتها كيف تَلبس ملابسَ نظيفة تلفت النظرَ وتشجع المشترين أن يثِقوا بها. وهكذا تحوّلت حليمةُ بائعةُ اللبنِ مِن امرأةٍ متّسخةٍ فاشلةٍ إلى بائعةِ لبنٍ ناجحةٍ بفضلِ جارتِها.)

ويناقِشُ معلّمُ اللغةِ العربيةِ مع الأطفال الألفاظ الجديدة في القصة، ويناقِشُ معهم المعانيَ والقيمَ الأخلاقية المستفادة معهم. وعادةً ما يكون لبِقَ اللسانِ حلوَ الكلامِ مما ينحت القصة في ذاكرتهم، ويَخرج بعد أن ألقى الدرسَ في نصف ساعة، وقد نَحَتَ في أذهانهم أهمية النظافةِ وحُسنَ المظهر، ونَحَت معه اسمَ "حليمة بائعة اللبن" بصورةٍ مشوّهةٍ مقزّزة في أذهانِهم.

ويَخرج معلّمُ اللغةِ العربية بعد أن يُصلّي على الحبيب محمدٍ وأصحابه وآلِ بيتِه ليدخُلَ معلّمُ التربيةِ الدينية، الذي غالبًا ما يكون أقلَّ المعلّمين جاذبيةً للأطفال مِن حيث المظهر والأسلوب والشخصية. ويبدأ متأخرًا جدًا بعد فوات الأوان ليقُصَّ عليهم قصة "حليمة السعدية" تلك القرويّة مِن باديةِ بني سعد التي كانت تُرضِعُ النبيَّ محمدًا. وتتزاحم الحليمتان و"الحلمات" في مستنقع الألبان في ذاكرة الصغار التي استوطنها الذباب. وغالبًا ما تنتصر قصة "حليمة بائعة اللبن" لأنّ تقديمَها كان شائقًا وعرضَها كان عمليًّا يشاهده الصغارُ كلما ذهبوا إلى السوق فرأوا بائعًا متّسخًا فيقولون: "لا تشترِ منه لأنه متسخ مثل حليمة بائعة اللبن".

ويُلقِي المعلّمُ الدرسَ في نصف ساعة: ستنمو السنابل، وتأتي البلابل، تغردُ مِن جديد في أرضنا في وداعةٍ. ويكتبُ الصغارُ بكلّ طاعة: ستلقي القنابل، وتأتي البراكين والزلازل، ثم تمضي الرسائل، تقصُّ على أهلِنا الهاربين أنباءَ المجاعة.

" طـــه القرشي":

في وسط السودان بين النيليْن: الأبيض الذي ينسابُ بهدوءِ وكبرياءِ الأسد من قلب أدغال إفريقيا من بحيرة (فيكتوريا) في (يوغندا)، والنيلِ الأزرق الدفّاق الذي ينحدر من مرتفعات (أثيوبيا) وبحيرة (تانا) حاملاً معه ذراتٍ زرقاءَ من صخور الجبال، مما يجعل ملتقى النيليْن عند الخرطوم منظرًا بديعًا مِن تداخل الأمواج الزرقاء مع البيضاء كما هو اسم النيليْن لينحدرا نهرًا واحدًا نحو مصرَ، لا يلتقي به رافدٌ آخر إلا نهر عطبرة. بين النيليْن الأبيض والأزرق تقع أرضٌ شاسعةٌ يُطلَق عليها "إقليم الجزيرة"، لأنها تبدو كأنها جزيرةٌ وسط نهرٍ واحدٍ ذي فرعيْن، وتعتبر أرض الجزيرة مِن أخصب الأراضي الزراعية في العالم، حيث رسَّبَتْ فيها عواملُ الطبيعة خلال

ملايين السنين كلَّ خيرات الأرض، وهي أرضٌ لو ألقي فيها حجرٌ لنمى شجرًا يحمل أطيبَ الثمر. في تلك المنطقة أقام الإنجليزُ مشروعًا ضخمًا لإنتاج القطن الذي كانت تحتاجه بريطانيا أيامَ الثورة الصناعية، حيث كانت مصانع (مانشستر) و (لانكاشير) للغزل والنسيج تقوم على قطن السودان الذي ينتجه مشروع الجزيرة. وقد نمى عددٌ كبيرٌ من القُرى في إقليم الجزيرة مع ذلك المشروع الذي تم تدميرُه الآن منذ الاستقلال تدميرًا وطنيًا بامتياز. وكانت القرى تحمل أرقامًا وأسماء. ومِن بينها كانت قرية "24 القرشيّ". والقصةُ القادمة يجب ألا يساءَ بكاتبها أيُّ ظنٍ إذ إنها عن طفلٍ اسمُه "طه القرشيّ" لأنه مِن أطفال قرية "24 القرشي"، ولا علاقة له بأي "طه" آخر أو "قرشيّ" آخر في التاريخ، وإنّما محض صدفة. وقد نقلتُها حرفيًا من الكتاب:

(1) طه القرشيّ مريضٌ:

طه القرشيّ تلميذٌ مجتهدٌ. يحبه إخوانُه والمدرِّسون. وفي صباح يومٍ شَعَر بالمرض. وكان عنده إسهالٌ وألمٌ في بطنِه. فشكا لوالده. فقال الوالد: لا تذهبْ للمدرسة اليوم. انتظرْ حتى يراك الطبيب. اكتبْ لمدير مدرستِك وأخبرْه بحالِك. فكَتَب طه القرشي الخطابَ الآتي:

الدويم في 18 صفر 1392 هـ

2 أبريل 1972 م.

سيدي المحترم مدير مدرسة بخت الرضا الابتدائية،

السلام عليكم ورحمة الله،

أشعر بألمٍ في بطني، وعندي إسهالٌ شديدٌ. وأنا الآن في الفراش، وسأذهب إلى الطبيب مع والدي. وسيخبركم الطبيب بعد الكشف. أرجو قبول عذري. وتقبلوا احترامي الزائد.

تلميذكم المخلص: طه القرشيّ

(2) طه القرشيّ عند الطبيب:

ذهب طه القرشيّ مع والده إلى المستشفى. فسأل الطبيبُ طهَ القرشيّ عن مرضه فقال طه: عندي إسهالٌ، وأشعر بألمٍ عند البراز. أخذ الطبيب جزءًا من البراز لفحصه في المعمل ثم قال لطه بعد معرفة النتيجة: عندك (دوسونتاريا). طلب والد طه من الطبيب أن يعطيه الدواء. فأبى الطبيب وقال: إن (الدوسونتاريا) مرضٌ معدٍ، وتحتاج للملاحظة، ولا بدّ أن يبقى طه في المستشفى للعلاج. قبِل والدُ طه أمرَ الطبيب، وترك ابنَه في المستشفى. ثم أرسل الطبيبُ طه إلى حجرة المَرضَى وكَتَب للمدرسة يخبرها بحاله.

خطاب الطبيب:

رقم 72:

الموضوع: تقرير مَرَضي صباح يوم 2 أبريل سنة 1972م

حضرة مدير مدرسة بخت الرضا الابتدائية،

التلميذ طه القرشيّ حضر اليوم للعيادة. وبالكشف عليه تبين لنا أنه مريض بـ(الدوسونتاريا). ويحتاج علاجًا في المستشفى بين ثمانية إلى عشرة أيام. وقد حجزناه من هذا اليوم. وهذا للعلم بحاله.

حكيمباشي مستشفى الدويم.

(3) طه القرشيّ في المدرسة:

خرج طه القرشيّ من المستشفى. ونصحه الطبيب بعدم الذهاب إلى المدرسة مدة يومين، لأنه كان ضعيفًا. ولما ذهب طه إلى المدرسة قابله أصدقاؤه مسرورين. وحمدوا الله على شفائه. وبعد يومين كتب طه القرشيّ الخطابَ الآتي:

حضرة المحترم طبيب مستشفى الدويم،

السلام عليكم ورحمة الله،

أشكركم كثيرًا على علاجي ومساعدتي مدة مرضي. وأنا الآن بصحة جيدة والحمد لله. وتقبلوا احترامي الزائد.

المخلِص،

طـــه القـرشـــي.

مِن الطبيعي أنّ الكلماتِ الجديدةَ لطفلٍ في الثامنة مِن عمره غالبًا ما ستكون:

البراز – الإسهال- الدوسنتاريا – العدوى – وهكذا يُرسَم اسم "طه القرشيّ" في ذاكرة النشء مدعومًا بالصور التي ليس مِن الممكن نقلُها هنا، ليبدو اسمًا لصبيّ مريضٍ هزيلٍ، وترتبط ألفاظ "البراز" و"الإسهال" و"الدوسنتاريا" بالاسم في ذاكرة الصغار إلى آخر العمر. عِلمًا بأن السودانَ بلدٌ مَدَاري وتكثر فيه (البلهارسيا) و (الدوسنتاريا) لطبيعة المناخ، وعليه فإنّ اسم "طه القرشي" يبقى دائمًا في كلّ بيتٍ مرتبطًا بالمرحاض.

ويَختِمُ معلّم اللغةِ العربية درسَه في نصف ساعة، ويحمد اللهَ ثم يصلّي على النبي المصطفى، وخيرِ مَن مشى على الحصى بكلّ طاعة، أنْ أدَّى ما عليه مِن دور وعلَّمَ الصبيانَ علمًا مفيدًا يكون له يومَ القيامة شفاعة.

ويَدخلُ معلّمُ التربيةِ الدينية يتوكأ على عصاه ويهُشُّ بها على غنمِه، لكن عيون الصغار زائغة مِن الخوف؛ لأنهم يعلِمون أنّ له فيها مآربَ أخرى أهمها ضربهم ضربًا مبرحًا إنْ هُمُ نسوا الدروسَ الماضية. فيبدأ ليحدِّثهم عن قصة "طه القرشيّ" الذي كان يختلي في غارِ حِراء، فيتضاحك الصبيانُ بلا حياء، ويسألون مولانا هل غارُ حِراء بالحاء أم بالخاء؟ ولِمَ لا؟ فقد فات الأوان ونُحِتَ اسم "طه القرشيّ" في ذاكرتهم حيث أُريد له، مِن... المستعمِر؟ هل ما زلنا نلومُ المستعمِر؟

محمود الكذّاب

تقول القصة:

(كان محمودٌ شابًا فاشلاً، عجز والدُه أن يجد له عملاً بعد أن فشل في دراسته. ولكنّ أهل القرية الطيبين اتفقوا على أن يجعلوه يرعى أغنامَهم مقابلَ أجرٍ بسيطٍ. وخرج محمودٌ بالأغنام خارجَ القرية، و قبْلَ الغروب فكّر في أن يضحك على أهل القرية، فصرخ محمودٌ بأعلى صوتٍ: "هَجَم النمر.. هجم النمر". وخرج أهل القرية بحِرابهم وسيوفِهم لكنهم وجدوا "محمود الكذّاب" ومعه الأغنام، ولم يجدوا نمرًا. وضحك محمودٌ عليهم.

وفي اليوم الثاني قبْل الغروب صرخ محمودٌ الكذّاب مرةً أخرى: "هَجَم النمر.. هجم النمر". فخرج أهل القرية بحِرابهم وسيوفِهم لكنهم لم يجدوا نمرًا، فعلِموا جميعًا حينها أنّ "محمودًا كذّابٌ" وقد ضحك عليهم للمرة الثانية.

وفي اليوم الثالث وقبْل الغروب صرخ "محمودٌ الكذّاب": "هَجَم النمر.. هجم النمر"، لكن لم يخرجْ أحدٌ؛ لأنهم قد علِموا جميعًا أنّ محمودًا كذّابٌ. وكان النمر قد هَجَم حقيقةً وقتَل محمودًا والغنم.)

ويَخرج معلّمُ اللغةِ العربية بعد أن يشرح للأطفال الكلماتِ الجديدة، ويزيدهم فضلاً مِن عنده، فيحذِّرهم مِن عاقبة الكذب تحذيرًا شديدًا، وينصحهم ألا يتخذوا مِن أمثال محمودٍ الراعي الكذابِ صديقًا، بل عليهم أن يتركوه لمصيره المشئوم وحيدًا.

ويدخل مولانا، مدرِّس التربيةِ الدينية مرتديًا جلبابًا وسروالاً، ليقُصَّ عليهم اليوم قصة أغربَ مِن الخيال، بطلُها راعٍ اسمُه أيضًا محمود، لكن كان أهل القرية يصفِونه بالصادق الأمين في هذه الحال، فيتبادل الصغارُ النظراتِ باستغرابٍ مِن هذا الاستهبال، بعد أن نُحِتَ في ذاكرتهم أنّ مَن كان اسمُه "محمود" و كان "راعيًا" لا بدّ أن يكون كذابًا دجالاً.

قد يظنّ ظانٌّ أنّ هذه المناهجَ كانت مِن مخلّفات الاحتلال الإنجليزي، لكني واللهِ أشكّ في أنّ الإنجليزَ لو ظلوا في السودان لمنعوها، ليس احترامًا منهم للنبيّ الكريم، ولكن فقط احترامًا لأنفسهم. أمَّا الحقيقة التي لا جدال حولها ولا يعلمها غير السودانيين أنّ ضاحية "بخت الرضا" في قصة "طه القرشيّ" هي جزءٌ مِن مدينة الدويم. وأنها مقرُّ معهدِ المعلّمين العالي الذي كان مركزَ تدريبِ المعلّمين في السودان، وتحول إلى جامعةٍ الآن. وأنّ الإنجليز غادروا السودانَ في أول يناير 1956 بينما قصة "طه القرشيّ" كُتِبت بتاريخ 2 أبريل 1972، أي بعد 16 سنة كاملةً من استقلال السودان.

هذه القصص ربما تصيب بعضَهم بالدهشة لأنهم مروا عليها ولم يخطر على بالهم أن المقصودَ بحليمة بائعةِ اللبن هو حليمة السعدية، وطه القرشي هو طه القرشي -عليه أفضل الصلاة والتسليم-، وأن محمود الراعي الكذاب هو محمد الراعي الصادق الأمين.

إن الإسلامَ أبدًا ما هُزِم مِن الخارج، لكنَّ الهزائمَ منذ نزل الرماةُ مِن جبل أُحُدٍ إلى اليوم، كانت مِن بني جِلْدتِنا ومِن إنتاجنا، ولا شك أننا بالفعل نعيبُ زمانَنا والعيبُ فينا وما لزمانِنا عيبٌ سِوانا.

ظلت هذه القصصُ غُصَّةً في حلقي منذ أن كنتُ طفلاً؛ لأنها قصصٌ لا تفارق الذاكرةَ أبدًا، ولأن القلبَ لا يمكن خداعُه بأن العقولَ السودانية التي جلستْ وناقشت واختارت هذه المناهجَ كانت كلها مِن الغباء بحيث تبدو القصصُ مقصودةً تمامًا. ومرارةُ الفكرةِ في أن مَن قصَد أن يَسُبَّ رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قد خرج مِن الملّة كما تَخرج الشَّعرةُ مِن العجين.

تدي بير محمد:

دارت الأيامُ والسنون بتقدير العزيز الحكيم، وشاءَ الله أن ألقتْ بي الأمواجُ في بريطانيا أقضي فيها ما تبقَّى مِن عُمُرٍ. وفي سنة 2007 وقعتْ أزمةٌ بين السودان وبريطانيا بسبب قصةِ معلّمةٍ لغةٍ إنجليزيةٍ بريطانية الجنسية كانت تعلّم في مدرسة أطفال في الخرطوم. ومِن ضمْن المنهج كان أن علّمَتهم كيف يخيطون "تدي بير" – دُمية أطفال في شكل الدب القطبيّ – ولأن الأطفالَ أحبوا " التدي بير" فقد طلبتْ منهم أن يختاروا له اسمًا يحبونه، فسمَّاه الأطفال بكل براءةٍ "تدي بير محمد". فالمذموم يحمل اسمًا مذمومًا، والمحبوب يحمل اسمًا محبوبًا في قانون الأطفال. هذه سُنَّة الله التي لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، ولأن المُدرِّسة البريطانية كانت تريد أن ترسِّخ في عقولهم أن يجمعوا بين الحُسن والحَسن فقد أجازت بحُسن نية اختيارَهم. عِلمًا بأن اللغة العربية أصلاً تَستعمل أسماءَ الوحوش للرجال، وما حمزةُ وهِزَبْر وضِرغام وغضنفر وحتى أسامة الذي تبدو عليه الوداعة إلا أسماء الأسد، ولو كان الدب يعيش في الصحراء لسمِعنا بالكثير مِن الدببة في بلادنا. ولأننا نحب رسول الله جدًا ولا نرضى فيه أبدًا أن يمسه أحدٌ بسوء فقدْ تم اعتقالُ المعلّمة وخرج المئاتُ يطالبون بإعدامها بحجة: "كله إلا رسول الله"! سبحان الله! وكلكم قد درستم حليمة بائعة اللبن، وطه القرشي، ومحمود الكذاب، وأنتم تنطقون العربية، ولم يكن رسول الله له حرمة، فلما أجازتْ ضيفة أجنبية لا تَعلم حبَّنا لرسول الله اسمًا اختاره الأطفال لأنهم جمعوا الحُسنَ مع الحَسن، رأينا منكم الغيرة؟

شاء الله أن شعرتُ بغثيان مِن هذا النفاق حينما سمعتُ خبرَ اعتقال المعلّمة في السودان وأنا أقود سيارتي إلى العمل في ذلك الصباح. و تذكرتُ مناهجَ التعليم التي نشأنا عليها. فدخلتُ موقعَ هيئةِ الإذاعة البريطانية على الإنترنت وعبَّرتُ عن استيائي مما تعرضتْ له المعلّمة البريئة، وما تَعرَّض له رسولُ اللهِ نفسُه مِن إساءةٍ على أيدٍ لا ترى العيبَ إلا في سِواها، وشاء الله أن طُلِبَ مني أن أساهِم في حملة الدعوة لإثبات براءة المعلّمة والمطالبة بإعادتها لبلادها سالمة، فتحدثتُ في تليفزيون البي بي سي مدافِعًا عن حُسن نيتها، ومدافعًا عن النبي الكريم الذي

لو أحصينا أعداءَه اليوم فسوف نجد أغلبَهم يحمل اسمَ محمد وأحمد ومحمود، ويمكن للقُرَّاء الاستماع لتلك النشرة على صفحتي في جوجل.

عِرض النبي:

القصص أعلاه مِن المنهج السوداني في السبعينيات والثمانينيات. وحتى أختصر على غير السودانيين مِن المسلمين عربًا كانوا أو عجمًا مشقة البحثِ عن قصص شبيهة، أطرحُ على القارئ سؤالاً قد يبدو ساذجًا: ما هو موضوع قصة الإفك في سورة النور؟ الإجابة التي تدرس في كل مدارس المسلمين على امتداد العالم الإسلامي هي واحدةٌ تستحق لقب "أجمعت الأمّة" إنها قصة اتهام عائشة بنتِ أبي بكر الصدِّيق بالزنا بعد أن فُقِدت في الصحراء وأتى بها أعرابيٌّ، إلى آخر القصة المقززة.

ما زالت هذه القصةُ الملفَّقة تدرس اليوم وغدًا في مناهج التربية والتعليم، بل وتتصدر تفاسيرُ سورةِ النور كل كُتُب التفاسير. وهي قصةٌ موضوعةٌ بامتيازٍ قُصِد منها أن نقع وأن نخوض كُلنا في عِرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتلوكَ اسمَ زوجتِه المصون وابنة حبيبه الصدِّيق ألسنُ بلايين المسلمين التي تصلّي عليه وتسلّم صباحًا ومساءً، وهُم لا يفكرون أبدًا مِن أين أتت هذه القصة؟ وما علاقتها أصلاً بسورة النور؟ الإجابة هي أنه المنهج الذي كُتِب لنا وفُرِض علينا قبل قرونٍ طويلةٍ وأصبح مِن المقدسات التي لا تناقش لدينا. إنها النسخةُ القديمة من "حليمة بائعة اللبن" فقط أُحيطت بقدسياتٍ كثيفةٍ مِن كثرة مَن أكد على أنها موثّقة في أصحّ كتابٍ بعد كتاب الله تحت أديم السماء.

لنعالج هذه الأزمة: لا نحتاج إلى قدراتٍ خارقةٍ ولا إلى نبيٍّ جديدٍ. نحتاج فقط إلى أن نتعلم كيف نعقل ما نقرأ، "أفلا تعقلون"!

الباب الثاني

أفلا تَعْقِلُونَ

تَحتوي الروايةُ، المنسوبةُ زورًا وبهتانًا، إلى النبيّ -صلى الله عليه وسلم- الذي أوتِي جوامعَ الكَلِم، على مفرداتٍ يحتاج المرءُ للإلمام بمدلولاتها قبل القفز البهلوانيّ لقبول الرواية، أو السعي لإيجاد مبرراتٍ فلسفيةٍ لتمريرها كما يفعل بعضُهم رغم قناعتهم الفطريةِ أن الراوية لا تتناسب مع روح النبوة، لكنَّ تربيتَهم المغلوطة تجعلُهم يَخشون كلَّ الخشية مِن تخطئة المصادر التي نقلتها حتى إنْ كان الثمنُ هو الإساءةَ للنبي -صلى الله عليه وسلم-. ومِن أبْرز تلك المفردات العَصيِّة على الفهم لفظ "العقل" ولفظ "المرأة" وما شابههما مِن "نساء" و"أنثى". هذا فضلاً عن أن فَهْمَ مفاهيم "الدين" ثم "تمامه" و"نقصانه" تحتاج لتدبُّرٍ عميقٍ قبْلَ الزجِّ باسم النبي فيما لم يَقُل.

في هذا الباب سنتناول مفهومَ "العقل" مِن جوانبَ عديدةٍ تُعينُنا على فهم ما يُسَمَّى بـ "العقل" مِن ناحية، وتُعيننا على أن نعْقِل ما نقرأ في هذا الكتاب وغيره من ناحيةٍ أخرى. فتكريمُ اللهِ تعالى للإنسان بنعمة العقل كان المنزلَقَ الذي دَفع إبليسَ للتكبُّر:

{قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً (62)} الإسراء

والعقلُ هو الهبَة الإلهية الوحيدة التي ميَّزت الإنسانَ عن بقية الخَلق، ومَنَحته وظيفة الاستخلافِ في الأرض:

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70)} الإسراء

والعقلُ هو مَناط التكليفِ الذي يقود إلى الحساب في الآخرة، ويُحدِّد مصيرَ العِباد إمَّا في الجنةِ أو في النار:

{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (72)} الأحزاب

وبرغم أهمية "مفهوم العقل" في تاريخ الخَلق، وحضاراتِ الإنسان، إلا أنّه أكثرُ المفاهيم تعقيدًا مِن ناحيةٍ لُغويةٍ و فقهيةٍ وطبيةٍ وفلسفيةٍ؛ فعلى امتدادِ التاريخ خَلَط بعضُ الناس بين مفهوم "العقل" ووظائفِ مكوِّنات الدماغ "المخ" الذي يحتوي على مراكز الحواس والحركة والذاكرة. وهناك خَلْطٌ بين "العواطف" و "الذكاء" الذي تتمتع به الكثيرُ مِن الحيوانات غيرِ العاقلة، و"العقل" الذي يميز الإنسانَ وحدَه مِن ناحيةٍ أخرى. ثم إنّ القرآن لم يربط قط خاصية عقْل الأمور إلا بالقلب، بينما القلبُ في فهْم الطب ليس إلا عضلاتٍ تَضُخ الدم.

في الماضي لم يكنْ فهْمُ مدلولِ "العقل" مَصدرَ مشكلةٍ للطب أو للدين، لأنّ الجميعَ كانوا يتعاملون مع المفهوم الخاطئ بسلامٍ تامٍ، إذ يروْن أنّ عملية العقل مِن خواص المخ الذي في الدماغ. ومع تطور العلوم الإنسانية في العصر الحديث أصبح التمييزُ واضحًا بين تلك الأخطاء الموروثة وحقيقة مفهوم" العقل" الغيبية التي أصبحتْ تؤرِّق أصحابَ الأديان والفلاسفة كما تؤرِّق الأطباء.

ففي طب الأمراض العقلية مثلاً، كانت كلّ الاضطرابات في تفكير أو سلوك الإنسان يتم تفسيرُها على أنها نِتاجُ خَللٍ في وظائفِ المخ الذي في الدماغ، وعليه فقد قامت معظم البحوث والدراسات القديمة على هذا العضو مِن الإنسان، وكانت، وما زالت كل العلاجات والعقاقير توجَّه لإعادة الوظائف الافتراضية المختَلة في المخ. لكن مع تطور البحث العلمي بدأ التمييز بين الخلل في "المخ" و"الخلل النفسي" يأخذ مساحةً أكبرَ مِن اهتمام العلماء، فظَهَر "الطب النفسي" منفصِلاً عن "الطب العقلي"، وإنْ ظَل العقل مصدرَ إشكالٍ مِن حيث طبيعته ومكانه في جسد الإنسان. وتَزامَن مع هذا التطور في الفهم التمييزُ بين "العلوم الإنسانية" و"العلوم البَشرية". فالطب يُسَمَّى "طبًا بشريًّا" وليس طبًّا إنسانيًّا، لأنه معنِيٌّ بالجسد وبمكوناته المادية المحسوسة مِن كُلْيَتَيْن ووظائفهما، وجهازٍ هضميٍّ وكبدٍ وعظامٍ، وكلِّ مكونات الجسد البشري التي يتشابه فيها مع غيره في المملكة الحيوانية، لذلك كان

التمييز بين "الطبيب البشري" و "الطبيب البيطري". أمَّا مناشط الإنسان التي يدخل فيها العقلُ وتعكس سلوكَ الفرد فقد أصبح لها مُختصّوها تحت مسمى "العلوم الإنسانية"- وليس البشرية - التي تَشمل كل إبداعات "النفس" و "العقل"، وهو ليس عضوًا ماديًا في جسد البَشر، وإنما خاصيةٌ كَرَّم اللهُ بها الإنسان. وفي هذه المتاهة ظَل القرآن مصدرَ إلهامٍ للباحثين يتقدم فهمَهم له بتقدم العلم المادي. وأصبح جليًّا لنا اليوم أنّ الله تعالى قد مَيز ثلاثة مفاهيمَ غامضةٍ في تكوين الإنسان: فلفْظ "العقل" ومشتقاته اللغوية في القرآن له مدلولاتٌ محددةٌ. بينما لفظ "النَّفْس" له مدلولات مختلفة تمامًا عن لفظ "العقل"؛ وهنا أيضا ظَهَر الإشكال في فهْم ماهية "الروح" التي كان يُظَن أنها سرّ الحياة، إذ إنها تَرِد في القرآن في سياقٍ لا يمت للحياة بأيّة صلة، بينما النفْس هي اللفظ الذي ارتبطَ بالحياة والموت والبعث.

في هذا الكتاب لا أدَّعي عِلمًا أكثرَ مِن علمي المحدود، ولا أدَّعي أننا وصَلنا إلى نهاية المطاف وحللنا كل شفرات غموض الإنسان، لكن بحمد الله استطعنا أن نسلّط الضوءَ بصورة مستقلة على هذه المفاهيم، كلٍّ على حدة: "العقل"، "النفْس" ثم "الروح".

ولأنّ هذا الكتابَ أصلاً يسعى لتوضيح ماهية العقل وهل ينقص أو يزيد؟ وهل يَختلف مِن شخص إلى آخر ومِن ذكَرٍ إلى أنثى أم لا؟ فقد آثرتُ أن أجعلَ له بابًا منفصِلاً، ثم تطرّقتُ إلى بقية المفاهيم التي تتداخل معه حسْبَ الضرورة هُنا أو في الأبواب اللاحقة. وأفْضَلُ مدخلٍ لمناقشة أي موضوع قرآني هو البحث في مدلول اللفظ في اللغة العربية أولاً قبل أن نرى كيف يَرِدُ في القرآن، ثم ننظر في بعض الجوانب المرتبطة بالعقل في الطب والعلوم الحديثة.

العقل في اللغة:

اللغة العربية أغنى اللغات بالجذور اللغوية، والاصطلاحات فيها تُشتَق مِن الجذور مع تطور علْم الإنسان بالكون مِن حوله لتعني معانيَ ترجع إلى الجذر الذي اشْتُقّ منه اللفظ أوّلَ مرة. والجذور ترجع إلى المعاني الصوتية للحروف الأولية التي نَطَق بها الإنسان في بداية تفاعله مع الكون مِن حوله، و كل هذا مِن تدبير العليم الخبير الذي خَلَق الإنسانَ وعلَّمَه البيان.

لفظ "عقل" في معجم مقاييس اللغة يفيد "حَبْسة" في الشيء أو ما يشابه "الحبسة"، ومِن هذا المعنى أصبح العربُ يُسَمّون مَن يَحبس نفسَه في المجتمع عن ذميم القول والفعل "عاقلاً" بمعنى: حابسٌ نفسه عن الشر. وقياسا على هذا الاشتقاق أُطلِق لفظ "الأحمق" على الذي لا يَحبس نفسَه عن ذميم القول أو الفعل، فقيل إنَّ الأحمقَ هو كاسِد العقل.

لكن مع تطور العلوم الإنسانية أصبح لفظ "عاقلٍ"، مِن هذا الاشتقاق، يوصَف به الإنسان الذي ليس به مَسٌّ مِن الجنون. وعليه أصبح الأحمقُ عاقلاً لكنه ذميمُ الخلق أو السلوك، بينما اختُصِر لفظ "عاقل" على مَن ليس بمجنونٍ. والجنونُ مشتَقّ في لغة العرب من الأصل "جَنَّ" وتَعني التغطية أو الإخفاء. واسْتُعمِل لفظ الجنون لوصف مَن يتصرف تصرفاتٍ نشازًا لا تستقيم مع السلوك المفهوم لعامة الناس. فسُمِّيَ بالمجنون لظنّ الناس أنّ هناك خاصيةً ما فيه قد تمت تغطيتُها أو إخفاؤها بداءٍ مجهولٍ.

ومع تداخل الشعوب والثقافات غَلَب استعمال لفظ "العقل" ليفيد الخواصَّ العليا في الدماغ البشري أو المخ مقابلا للفظ (Mind) في اللغة الإنجليزية. وهذا هو الاستعمال الشائع لدينا اليوم على ما فيه مِن غموضٍ وأخطاءٍ كثيرةٍ.

على أننا لو رجعنا للمزيد مِن استعمالات العرب قديما للفظ "العقل"، نجد أنّ له مدلولاتٍ أخرى كلها كانت اشتقاقًا من الأصل الأول وهو "الحبس" أو "الحفظ". فقد اشتُهرتْ بيننا روايةُ الرَّجُلِ الذي سأل رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- عن ناقته: "يا رسولَ الله أأعقِلُها وأتوكل أم أُطلِقُها وأتوكل؟ قال له: اعقلها وتوكّلْ." أي قُم بما عليك من أسباب الحفظ ثم توكلْ على الله. أتينا بهذه الرواية للاستدلال بها من كلام العرب، لكن الرواية منكرةٌ ولا أصل للحديث من الصحة. ما يهمنا هو أن لفظ "أعقلُ" الناقة كان يعني "أحبسُها" أو "أحفظُها" و ذلك بأنْ تربطَها بالرباط في قدميْها وهو الذي يُسمى "عقال البعير".

ولعلَّ مِن أشهرِ الروايات القديمة ذلك الأثَر المنسوب لأبي بكرٍ الصدِّيق حينما قال: " واللهِ لو منعوني عقالَ بعيرٍ كانوا يؤدّونه لرسول الله لقاتلتُهم عليه". وعقال البعير هو الحبل الذي يُعقل، أي يُحبَس أو يُربَط به البعير.

ومن الاستعمالات القديمة أيضًا التي اشتُقتْ مِن القياس على "الحفظ"، استعمل لفظ العقل ليعني "الدِّيَة"، وهي المَبْلَغ مِن المال الذي يُدفع تعويضًا لأهل القتيل. فقد وردتْ رواياتٌ كثيرةٌ في هذا المعنى أنقلُ منها رواية البخاري في الحديث المرسَل عن جرير بن عبد الله، أنّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- بَعثَ سريةً إلى خثعم، فاعتَصَم ناسٌ بالسجود فأسَرع فيهم القتل، فبَلَغ ذلك رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- فأمر لهم بنصف "العقل". والعقل هنا تعني الدِّية. ولعلّها سُميت "عقلاً" لأنها تحفظ للناس حقوقهم أو بعضَ حقوقهم. ولأن الديّة ليست إلا تعويضًا ماليًا أو ماديًّا لأهل القتيل، فإن قيمة الدية أو "التعويض" الذي تدفعه شركات التأمين اليوم في كل الثقافات، يختلف وفقًا للعُرف السائد في تقييم الخسارة وملابسات الحادث الذي أدّى للخسارة. فيما يخص الفَرْقَ بين الذَّكَر والأنثى، ففي العصر الجاهلي كانت المرأة تعتبر إنسانًا غيرَ منتِج، لذلك كانت قيمتها الاقتصادية أقلَّ مِن قيمة الرجل. بغضّ النظر عن قبول أو رفض الفكرة فإنّ ديَّة المرأةِ القتيلة كانت أقلَّ مِن قيمة الرجل القتيل. ولذلك فإن تعبيرًا مثل "المرأة أقل عقلاً من الرجل" في ذلك الزمان كان يعني أنها أقل ديةً أو تعويضًا إذا قُتِلت، لكن لم يكن الاستعمال له علاقة مِن قريب أو بعيد بالوظائف العليا للدماغ كما يتوهم بعضُهم اليوم. وحتى يَسهلُ على بعضهم التمييزُ بين استعمال اللفظ نفسِه في زمانيْن مختلفين، أضربُ مثالاً بلفظ "السفر". السفر في الماضي والحاضر والمستقبل يعني الترحالَ أو الانتقال من مكان إلى آخر، إلا أن لفظ السفر في زمن نزول القرآن كان يُفهَم منه الانتقال على ظهر الخيل أو الإبل أو الحمير أو حتى مشيًا على الأقدام لأيامٍ أو أسابيعَ حسْبَ المسافة. السفرُ اليوم يعني الانتقالَ في ساعاتٍ بالطائرة من مشرق الشمس إلى مغربها. نلاحظ أن اللفظ واحدٌ وأن المدلولَ واحد لكن تغيُّر الزمان جعل ما يخطر على البال من اللفظ نفسه اليومَ يختلف اختلافًا كبيرًا مقارنةً بالأمس وكأنّ الألفاظ قد اختلفت. وسأشرح هذا الاختلافَ بمزيد من التفصيل تحت عنوان: "اتساع العقل مع اتساع الكون".

ولعل مِن أشهر الاستعمالات الشائعة اليوم مِن اشتقاقات العقل بمعنى الحبس أو الحفظ هو لفظ "العقال" الذي يضعه الأعرابُ فوق رؤوسهم ليحفظ "الشماغ" عن الانزلاق.

وهكذا: بَيْنَ "عقال البعير" في غابر الزمن و"عقال الأعراب" في زمن المحن، ظلّ لفظ "العقل" مصدرَ اشتقاقاتٍ، ترجع كلها إلى الأصل اللغوي الذي يفيد حبسَ الشيء أو حفظَه من الضياع. وظلّ الحديثُ المكذوب على رسول الله في كلِّ حرفٍ من حروفه، وهو موضوع هذا الكتاب، مصدرَ إشكال للمسلمين: فبيْنَ مقدِّسٍ لكل ما وَرَد في كتب المحدثين يصرّ أن يجد مبرراتٍ لكل ما لا يستسيغه العقلُ في زماننا خوفًا من نتيجة "أخطأ البخاري" حتى وإنْ كان فيها تبرئةٌ لرسول الله من قولٍ مغلوطٍ لم يَقُله، وبيْن منكرٍ للإسلام يبحث عن مَنْقَصة يذم بها رسولَ الله فيروِّج لهذا الحديث بشدة، وكأن الرسولَ ما قال غيره. الطريفُ في هذا الصراع أنّ كِلا الفريقين لا يَعقلون، إذ إنهم اتخذوا مِن "الدماغ" أو "المخ" محورًا لبحوثهم واستدلالاتهم سلبًا أو إيجابًا وتجاهلوا عن جهلٍ أو عن عمْدٍ أن القرآن ربط عملية العقل ومشتقاتِها في أكثر من 123 آية فيها إشارةٌ مباشِرةٌ أو غير مباشرةٍ إلى أنّ القلب هو الذي يَعقِل وليس الدماغ.

وهنا لا بدّ مِن توضيح حقيقةٍ: فالقرآن هو كلام الله في عقيدة المسلمين فقط، ومَن لا يؤمن بذلك فلا إلزام عليه أن يَقبل أن القلوبَ هي التي تعقل. لكن مما لا شك فيه أن القرآن كتابٌ قد غيَّرَ مسارَ التاريخ الإنساني وما زال يقيم حضاراتٍ ويُسقِط أخرى. وعليه فإن مَن أراد أن يَسخر مِن رسول الإسلام محمد -صلى الله عليه وسلم- في محتوى هذه الأكذوبة التي نُسبت إليه وهو منها براءٌ، فعليه أولاً أن يتجرأ ويناقِش متاهة: "أين العقل" كما وصَفها القرآن القطعيّ وليس الحديث الظنيّ، لأن القرآن هُنا سَبق في الإجابة عن هذا السؤال كلَّ الاكتشافات العلمية المتفَق عليها حتى هذه اللحظة. هكذا يكون النزالُ لقومٍ يَعقلون.

ولأن الله تعالى لم يتعلم اللغة العربية مِن شاعرٍ جاهلي كما قدَّمنا في نظرية آذان الأنعام، فإن استعمالَه سبحانه وتعالى لألفاظ اللغة يتجاوزُ ما تَعارف عليه العربُ في أشعارهم ونثرهم مما كان مصدرًا أساسيًا لكُتُب المعاجم وقواميس اللغة ومصدرًا لقواعد اللغة العربية التي اسْتُنبطت منها ومِن القرآن لاحقًا. بيْدَ أن الرجوعَ للقرآن لاستنباط قواعد اللغة كان محدودًا بقدْر محدوديّة فهْمِ الأولين لمدلول الألفاظ القرآنية في زمن وضْع تلك القواعد،

لذلك نجد أن الرجوعَ لتفسير القرآن بالقرآن وتفسير مدلول ألفاظه من استعمالات تلك الألفاظ في القرآن نفسِه، أشملَ في تعريف مدلول اللفظ، وهذا كان هو المنهج الذي اتبعناه في "نظرية آذان الأنعام في الخلْق والتطور" ونتبعه في هذا الكتاب أيضًا.

العقل في القرآن:

وَرَدَ لفظ " ع ق ل" ومشتقاتُه في القرآن (49) مرةً. والملاحَظ أن كل تلك المشتقات ليست إلا أفعالاً، إمَّا "فعلاً ماضيًا" أو "فعلاً مضارعًا"، لكن لم يَرِد على الإطلاق لفظ "العقل" كمفهومٍ أو اسمٍ قائمٍ بذاته كما وردت ألفاظ "السمْع" و"البصْر" مثلاً. هذه الملاحظة تتطابق مع العلم الحديث تطابقًا تامًا إذ إن عملية "العقل"، بمعنى فهم وإدراك الأشياء والأحداث والأقوال ومِن ثم صناعة الأفكار ليست إلا "مجموعة أفعالٍ متداخلةٍ" (Process)، أو تفاعلاتٍ بين أدواتٍ مختلفةٍ منتشرةٍ بين الدماغ "المخ" و"القلب" أو "الفؤاد"، وربما غيرها مما لم يصل العِلمُ إليه بعد. لكن القرآن أبدًا ما استعملَ لفظ "عقل" ليشير إلى خاصيةٍ محددةٍ في مقدرات الإنسان، أو عضوٍ محددٍ في جسم الإنسان كما استعمَل لفظ العين واللسان والشفتين كأعضاءٍ ماديةٍ مجسدةٍ لها وظائفُ محددة. استعمال مشتقات لفظ "العقل" في القرآن تَرِد لتَصِف مقدرةَ الإنسان في إدراك وفِقه وفهم الأمور وتكوين الأفكار الراقية، وبهذه الخاصية تم تكريمه على بقية الخلق ومِن ثم تكليفُه بحمْل الأمانة. من هنا يمكننا أن نفهم أن "العقل" في القرآن ليس إلا منظومة تُنَسِّق بين وظائف أعضاءٍ مختلفةٍ تؤدي في النهاية لحدوث عملية "عَقَلَ" "يَعْقِل" "عَقلاً" فيُسَمَّى مَن تَكتمل عنده المنظومة إنسانا "عاقلاً"، ويُسمّى مَن تَختل عنده المنظومة إنسانًا غير عاقل، ولا توجد مرحلةٌ وسطى بين العاقل وغير العاقل كما سنرى. وحتى تتضح لنا هذه الرؤيا لا بد مِن تدبّر بعض الآيات التي وردت فيها مشتقاتُ اللفظ في القرآن، ثم نعقل كُلّاً منها في السياق:

{قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16)} يونس

نلاحظ في هذه الآية أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يحاجج قومَه بأنه لبثَ فيهم عمرًا قبل أن يعلِن أنه نبيٌّ مرسَلٌ، وهُم يعلمون هذه الحقيقة، لذلك يدعوهم لأن يعقلوا اتهامَهم الباطلَ له بأنه افترى القرآن. فهو يُرجِع مصدرَ القرآن للمشيئة الإلهية وليس لاختياره الشخصي وإلا لكان قد ادَّعى النبوةَ زمنًا قبل ذلك. " أَفَلَا تَعْقِلُونَ" هنا تعني ألا تفكرون بصورةٍ سليمةٍ وتَصلون إلى نتائجَ منطقيةٍ.

وقد جعل القرآن عملية عقل الأمور هي المدخل الأول للإيمان؛ لأن مَن يفكر ويحلل الأمورَ تحليلاً سليمًا ويمحص الأدلة حتمًا سيصل إلى نتيجةٍ صحيحةٍ ويكون إيمانُه قائمًا على عِلمٍ وليس هوًى. لذلك فالعقل لا يمكن أن يكون مصدرَ ضلال.

{الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2)} يوسف

يتفق كل المسلمين والعرب على تفسير هذه الآية بأنها تعني أن اختيارَ اللغة العربية لتكون لغة الرسالة الأخيرة كان لأنها أقدرُ اللغات على الفصاحة والتفصيل الذي يعين عملية العقل على فهم مقاصد الكلام. نلاحِظ أن عملية العقل وردت كفعلٍ مضارعٍ لأن القرآن باقٍ إلى يوم الدين وضرورة عقله مستمرةٌ معه إلى يوم الدين أيضًا. فكل الناس في كل زمانٍ ومكانٍ مكلَّفون بأن يعقلوه بما آتاهم اللهُ مِن عِلمٍ ومعرفة؛ لذلك جاء الفعل مضارعًا وليس ماضيًا. فما فهمه الأولون في القرآن وفقًا لمعرفتهم الكونية وتجاربهم في الحياة كان يخصهم ويكفيهم، لأن الحي الذي لا يموت كان معهم قبل أن نُخلق نحن، وقد حدّ مِن آفاق إدراكهم بقدر ما حدّ من آفاق مقدرتهم على تأويل القرآن. ولأن الحي الذي لا يموت معنا اليوم فإن علينا أن نعقل القرآن بقدْر ما فتَح اللهُ علينا من آفاقٍ في فهم الكون، ولا يزيد ما نصل إليه مِن فضلنا على مَن سبقنا كما لا يزيدهم فضلاً قربُهم مِن العصر النبويّ وخير القرون. تدبُّرُ وعقلُ القرآن علاقةٌ مباشِرةٌ بين العبد وربه في كل زمانٍ ومكانٍ ولا يمكن أن يختص بها أحدٌ دون آخر ولا جيلٌ دون جيلٍ. لكن مِن المنطقي أن قدراتِ الأشخاص في الزمن الواحد والمكان الواحد تختلف لذلك نقول إن العلاقة بين العبد والله وعقل القرآن هنا علاقةٌ شخصيةٌ جدًا لم يفوِّض اللهُ أحدًا مِن خلْقِه ليحتكرها. لذلك فإن فعْل "تعقلون" هنا لا يمكن أن يكون ماضيًا.

وفي آيةٍ أخرى يصف اللهُ قومًا توفرتْ لديهم مصادر المعرفة في زمانهم لكنهم لم يعقلوا ما أتاهم به الرسل:

{قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11)} الملك

هؤلاء جَنَوْا على أنفسهم لأنهم تجاهلوا ما أتاهم مِن علمٍ ولم يتدبروا ويتفكروا ويفقهوا ما فيه، فكان اللومُ عليهم لأنهم ما كانوا أصلاً يستمعون للرسل، ومن ثم ما كانوا يعقلون ما يقال لهم. لاحِظْ اللطيفة البلاغية هنا: فبرغم أنّ أحسنَ الحديثِ هنا يَروي لنا رواية مِن يوم الندم بعد فوات الأوان، إلا أن الله تعالى لم يجعل فعْلَ العقل ماضيًا لأنه ما كان ليمضي، وإنما جعل الزمان فقط ماضيًا، لكنه أتى بفعل العقل الذي لم يقع في الماضي بصيغة مضارعة: لو كنا نعقل.. ولم يقُل: لو عقلنا.

من هنا يمكن التمييزُ بين أن أقول: عقلتُ الناقة: أي ربطتُها وانتهى الأمر، وبين أعقلُ الفكرةَ، بمعنى أني أفهم وأفسر وأدرك محتواها. فعملية العقل يجب أن تكون حالة مستمرةً ما دامت نبضاتُ القلب تنبض، فإذا توقف القلبُ ورُفعت الأقلام وجفت الصحف أصبحت الإشارة للفكر والعقل فعلاً مضارعًا في الماضي: كنا نعقل. لذلك فإن اللفظ في القرآن يَرد فقط كفعل مضارع أو عمليةٍ مستمرةٍ سواءٌ أكانت مستمرةً في زمن مضى أم هي مستمرةٌ الآن، وليس اسمًا لعضوٍ أو وظيفة محددةً.

{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43)} العنكبوت.

الأمثال في القرآن تَرِد لتعين مراكز المعرفة المختلفة مِن سمْعٍ وبصرٍ وذاكرةٍ لتتفاعل فتستنبط الحكمة مِن المَثَل. نلاحظ أن اللفظ جاء فعلاً "مضارعًا" ليفيد أن عملية إدراك الحكمة من الأمثال عملية مستمرةٌ متطورةٌ مع تطور العِلم. فلا يكفينا أن عالِمًا قبْلَ ألف عامٍ قد فَهِم مِن المَثَل كذا أو كذا، لنظن أن فهْمَه هو عين ما عَناه الله، وإنما لا بد أن نعِيَ أن عملية العقل هي عمليةٌ مستمرةٌ مع استمرار تطور العِلم وتجدد العلماء، لذلك تَرِد كفعلٍ مضارعٍ يهمّك الآن بِغَض النظر عن رأي الأقدمين. وهكذا يَرِد الفعل مضارعًا متى ما كان الحدث:

{وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (58)} المائدة.

هؤلاء لم يتدبروا في حكمة الصلاة وإنّما اتبعوا أهواءهم فسخِروا منها لأنهم لا يعقلون. لاحِظ أن الله لم يقُل "لأنهم ليس لديهم عقول"، فالعقل كما قلنا ليس عضوًا يكون أو لا يكون، وإنما عمليةٌ ووظيفةٌ تستثمر عددًا كبيرًا من مَلَكات الإنسان التي تؤدي في نهاية تفعيلها إلى خلاصة فِقْه الأمور أو عقلها. لذلك نجد اللهَ تعالى يصِف الذين لا يعقلون بأنهم لا يستعملون الوظائفَ التي تقوم بعملية العقل وكأنهم لا يملكون تلك الوظائف:

{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22)} الأنفال.

فالصمَم يعطل السمعَ، والبكم يمنع الكلام، وعليه فإن عملية العقل لن تتم. والإنسانُ آتاه الله هذه الآلياتِ التي تؤدي إلى العقل في النهاية. لذلك يصِف مَن لا يعقل كأنه أصبح كالدواب التي لا تمتلك آلياتِ العقل مِن كلامٍ وسمْعٍ بطبيعة خلقها. لاحِظْ أن الفعلَ مضارع وهذا يعني أن محتوى الفكرة ساري المفعول متى وأينما تُليَت هذه الآيات.

{وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6)} الجاثية.

هنا نلاحظ أنّ الله يصف الآياتِ الكونية التي يراها الإنسان ويسمعها ويتذوقها ويتفاعل معها، كعلاماتٍ يجب أن تلفت انتباهَه ليتدبر أسرارَها ويهتدي لمَن خلقها ونسقها فيعقل وجودَ الخالق وعظيمَ سلطانه وملكوته.

لا بد من التنبيه إلى أن لفظ "آية" في القرآن لا يَعني النص الذي بين رقميْن كما نسمي بيتَ الشعر. آيةٌ تعني علامة أو دلالة. والآيات في القرآن ليست النصوصَ المنطوقة وإنما المحتوى الفكري والدلالات التي تحتوي عليها. لذلك فمَن يتلو كتابَ الله ولا يعي ماذا يقرأ لأنه لا يعقل ما يقرأ فمثله كمثل الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يحملوها، ومثلهم جميعًا كمثل الحِمار يحمل أسفارًا.

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)} الحج

هنا نلاحِظ أن اللهَ ربط بين القلوب التي في الصدور وبين عملية العقل. فالقلب ليس هو نفسه العقل، لكنه عضوٌ معلومٌ بوظيفة حركية هي ضخ الدم في الأوردة والشرايين، لكن الله هنا يصفه بأنه يقوم بتنسيق عملية العقل. ويفصّل في وصف الخواص التي تغذي عملية العقل بالمعلومات وهي الآذان التي تنقل الأصوات من الخارج إلى الدماغ، والأعين التي تنقل منظرَ الكون الخارجي إلى الدماغ، لكن الذي يقوم بعملية العقل في النهاية هو القلب الذي في الصدر. لذلك فالأعمى والأصم مِن ناحية طبية ربما تكون لديهم عِلةٌ في العين أو الأذُن، لكن قلوبهم يمكن أن تعقل إذا وصلتها المعلومةُ بوسائلَ أخرى، لكن الأعمى عن الحق وهو مبصِرٌ بعينيه وسامعٌ بأذنيه، هذا عَمِيَ قلبُه عن أن يفقه و يعقل ما تراه العينُ وتسمعه الأذُن.

وهكذا نجد أن لغة القرآن تختلف في تعاملها مع مفهوم العقل عمـــا كان سائدًا لدى العرب حين التنزيل، وعمّا هو سائدٌ في عموم المجتمعات اليوم. في القرآن، العقلُ المقصودُ هو وصفٌ لعمليةٍ تقع كفعلٍ وليس عضوًا أو اسمًا لحدث. أيضًا فإن العقلَ ارتبط بوظائفَ فسيولوجية تمده بالمعلومات. كل تلك الوظائف ترتبط بالدماغ مِن سمْعٍ وبصَرٍ وغيرهما، لكن عملية العقل تتم في القلب حسْبَ النص القرآني. مِن هنا يمكننا أن نعقل، على الأقل، أن مفهومَ العقل مفهومٌ غامضٌ جدًا من ناحية الوصف القرآني، وهو غامضٌ أيضًا من الناحية الطبية كما سنرى. ومهما يكُن مِن أمرٍ فإنّ العقلَ هو مناط التكليف، وتعطيلُ العقل مدخلٌ لمهلكة، ولا عذر لمَن أُنذِرَ وخَلط بين "العقل" و"الهوى" كما ميَّز الله في هذه الآية التي اتخذها مدخلاً للحديث عن الهوى:

{أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)} البقرة.

لاحِظْ أن هذه هي الآية الوحيدة التي ورَدَ فيها اللفظ كفعلٍ ماضٍ. ولعل المقصودَ هنا هو التمييز بين مرحلتين في سلوك أولئك الكفار. فقد عقلوا كلامَ الله أي فهموا محتواه ومدلوله فهْمًا سليمًا وانتهى الأمر. لكن لقسوة قلوبهم وعشْقهم لاتّباع الهوى، فقد انتقلوا إلى فعلٍ آخر وهو تعطيل عملية العقل عن الاستمرارية، ثم بعد ذلك اتبعوا الهوى وحرَّفوا كلامَ الله عن علمٍ وإدراكٍ تامٍّ لِما يفعلون، وهذا ما يميز العقلَ عن الهوى، وحتى أُسهِّل فهْمَ الفرْق، أخْتَصِرُه بين "العقل" و"الهوى" في مَثَلٍ واحدٍ بسيطٍ: مَن عَلِم أنّ الضوءَ الأحمر في إشارة المرور يعني التوقف، فقد عقل الأمر. لكنه إنْ تجاوزه رغم عقله فقد اتبع هواه بعدما عقله ولا يلومنّ إلا نفسَه حينما تقع كارثة.

العقل ليس الهوى:

لا يوجد كتابٌ يُنسَب إلى الله في الأرض، يدعو الإنسانَ لإعمال العقل بقدْر ما دعا القرآن إلى ذلك. والمتدبر للآيات التي جعلتْ معيارَ العقل معيارًا فاصلاً بين الحق والباطل وبين الهُدى والضلال وبين الخير والشر يلاحِظ أنها لا تدعو العربَ فحسب، ولا تدعو المسلمين فقط، وإنما تخاطب كل الإنسانية العاقلة. وكأني بهذه الآيات تعلن أن كتاب الله تعالى له ربٌّ يحميه من التحريف كما أن له آلياتٍ تحميه من سوء الفهم وهي تلك النفخة الروحية الإلهية الفاصلة في تاريخ الإنسان التي كَرَّم الله بها مجموعة آدمَ العنصر المتطور فنَقَلهم بها من حياة الغاب إلى حياة ناطحات السحاب سواءٌ أعبدوا ربَّهم أم جحدوا فضلَه وكفروا به.

ونفخةُ العقل تلك كانت هِبةً غيرَ مشروطة، وفيها يشترك الكافرُ والمؤمن. وهنا لا بد أن أشير إلي أن وصْفَ الكفار بأنهم لهم قلوب لا يعقلون بها لا تنفي أن لديهم قدراتٍ عقلية وإنما تستنكر عدمَ استعمالهم لها، فإنْ هُم فعلوا، أي عقِلوا، لمَا ضلوا:

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)} الحج

وهكذا نسمع اليوم وكلَّ يومٍ عن عشرات مِن غير المسلمين يعتنقون الإسلامَ فقط حينما يُعمِلون عقولَهم، فكيف يُطلَبُ منهم بعد اعتناقه ألّا يسألوا وألّا يعقِلوا خوفًا عليهم من الضلال بعد الهدى؟ لعَمْري فإن هذا هو حضيض الهوى الذي انحدرنا إليه في خلط المفاهيم والمصطلحات القرآنية.

إن الذين أشاعوا بين الناس أن العقلَ يقود إلى الضلال ليسوا أولَ مَن ينكر فضلَ الله ونعمته على الإنسان فحسب، وإنما أيضا هُم أول مَن يهجر كتابَ الله ويستنكر دعوة دعوتَه للإنسان ليعقل. ذلك لأن "العقل" ليس "الهوى". العقل هو أن تضع الأمورَ في نِصابها وتزنَها بميزانٍ راجحٍ يرجّح الأدلة ويمحصها، ولا يقبل ومن ثم لا يتبع إلا أكثرَها سلامة، سواءٌ أوافقت النتيجةُ هواك أم لا. العقل هو معيار علم الرياضيات الذي يعلّم التلميذَ أن 1+ 1 = 2 سواءٌ أكان أبواه يَعبدان البقرةَ أو المسيح أو الله أو كانا ملحديْن. والعقل هو الذي يخبرنا أن الشمسَ تشرق في المشرق لأن الأرض دارت حول نفسها حتى واجَهَ مَوضِعُ المشرق منها الشمسَ. العقل هو الذي يضبط الحركة في ذهن المتفكر في خلق السموات والأرض ويشرح له بالضبط كيف حدث ما حدث مهما اختلفت عقائدُهم وبيئاتهم ومصالحهم وأهواؤهم.

أما الهوى فهو إنكار الحقائق التي لا يريدها الإنسان واتّباع شهواتِه ورغباته حتى وإن كانت عكس ما يقبله عقلُه، لأنها تُرضي مصالحَه الضيقة. العقل هو الذي يخبر السائقَ أن الإشارةَ الحمراء تعني ضرورةَ التوقف واحتمال الخطر إن لم يتوقف، أما الهوى فهو الذي يدفعه لتجاوز قانون المرور مِن بعد ما عَقَلَه فيتبع هواه ويتخطى الإشارةَ الممنوعة.

الهوى في اللغة:

الهوى في اللغة له مدلولان: "الخلو" أو "السقوط": الخُلوّ بمعنى الفراغ أي لا محتوًى فيه، والسقوط بمعني الانحدار من علٍ إلى أسفل، وكلاهما لا يدل على خير. و"هوى النفس" يجمع بين المدلولين لأنه "هبوط" في مستوى التفكير "يخلو" من الخير، لذلك يُسمَّى الحب الأعمى والعشق بـ "الهوى"، حينما يفقد المرءُ صوابَه ورجاحة عقله ويتبع رغبتَه وشهوته التي ارتبطت بالمحبوب من غير حساب للتبعات والنتائج.

القرآن يستعمل لفظ "الهوى" ليشير إلى الضلال بعد العِلم، أو للميل عن الحق والعدل نحو الظلم عمْدًا إشباعًا للرغبة المسبقة في هذا الطريق وإن جانَبَه الصواب. لذلك فالعقل أبدًا لا يقود إلى ضلال. محاولةُ عقلِ الغيب تقود فقط إلى العجز حين يعلَم العقلُ حدودَه، لكن اتّباع الهوى هو الذي يقود إلى الضلال.

بمعادلةٍ حسابيةٍ: العقل يَحسب (5+5 = 10)، بغَض النظر عن دِين وعِرْق القارئ. أما الهوى فهو الذي يزوِّر النتيجة إرضاءً لزيدٍ أو عُبيدٍ، عِلمًا بأنها تعارض العقل. أيضًا فإن العقلَ يقول إن: (س + ص = ع) معادلةٌ لا يمكن حلها إلا إذا عَرَفنا قيمتيْن من القيم الرمزية في المعادلة. العقل هنا يحدد مكانَ العجز ويقترح حلولاً للعجز. أما الهوى فيمكن أن يجعل كل حرفٍ في المعادلة يساوي ما يهوى الوزير أو الرئيس أو الشيخ المَعني.

وفي سياق الهدف مِن كتابنا هذا: فإن العقلَ هو الذي يدفعنا لمراجعة الرواية المنسوبة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- التي تصِف أن المرأةَ ناقصةُ عقلٍ ودِينٍ. العقل هو الذي حدد خطورةَ هذا الكلام اليوم وخطورةَ نسبتِه للنبي وضرورة البحث في مصداقيته من حيث المتن أولاً ثم السند ثانيًا (سأشرح الفرْقَ بين المتن والسند في باب "الحديث")، أما الهوى فهو الذي يدفع بعضَهم للزعم أن الرواية وردت في صحيح البخاري وعليه- شاء رسول الله أم أبى- فهو مسئول عنها رغم أنفه!

وقبلَ أن نتقدمَ أكثرَ في هذا الكتاب أيها القارئ الكريم، لا بد أن تحدد خيارَك: إنْ كنتَ مع كَوْن "عقل" الأمور لا يقود إلى ضلال، فنرحب باطّلاعك على هذا الكتاب ونرحب بنقدك الموضوعي أيضًا، حتى إن استطعتَ أن تثبت أننا أخطأنا في كل بابٍ فيه. أما إنْ كنتَ مع "الهوى" الذي يقدم كلَّ ما فيما يسمى بكتب "الصِّحَاح" والتفاسير على مصداقية النبي مِن غير تدبرٍ أو مراجعة، فاعلمْ أن الرواية موضوعُ الكتاب لم تَرد في البخاري مرةً واحدة فحسب وإنما مرتيْن. ثم إنها وردتْ في صحيح مسلِم مرة، ووردتْ في مسند الإمام أحمد مرةً واحدة أيضًا. كما أنها وردت مرةً في كلٍّ مِن سُنن الترمذي وسُنن أبي داوُد. أيضًا وردت مرتين في صحيح ابن خزيمة، ومرتين في صحيح ابن حبان. وأخيرًا فقد وردت مرةً واحدةً في سُنن ابن ماجة. رغم ذلك فإن هذا الكتابَ يثبت أنها لم تَرد

على الإطلاق على لسان النبي -صلى الله عليه وسلم-. وأنها جزءٌ مِن حملة تلفيق الأقاويل المشينة والقصص المهينة كافتراء قصة الإفك وربطِها بعائشة لجعْل مليارات المسلمين يلوكون عِرْضَ النبي وهُم لا يعلمون. الخيارُ هنا بين "العقل" وبين "الهوى".

والهوى لم يكن الدافعَ للكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فحسب بل بنص القرآن كان الهوى دافعًا لتحريف كلام الله تعالى نفسِه:

{أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)} البقرة.

تحريفُ كلامِ الله هنا لم يَنتج عن جهل، وإنما لأن حُكْم اللهِ لم يُرضِهم لذلك حرَّفوه إشباعًا لرغباتهم مع العِلم التام بجريمتهم. ومَن يحرِّف كلامَ الله نفسه فلن يتورعَ عن أن يروي قصصًا مكذوبةً عن رُسُلِ الله كما سنرى في أبواب: "في الطريق إلى دمشق" و "قولهم على مريمَ بهتانًا عظيمًا" و باب " قولهم على عائشة بهتانًا عظيمًا".

وتمضي الآياتُ التي تنهي عن الهوى تشرح نفسَها بنفسها ولا تحتاج لمختصين في علم اللاهوت لتمييز "العقل" من "الهوى":

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135)} النساء.

لاحِظْ أن التحذيرَ مِن اتّباع الهوى في الآية أعلاه جاء مرتبطًا بالعدل ومحذِّرًا مِن الظلم، وهذا مِن أكثر المجالات التي يتم فيها اتّباع الهوى عن عِلم.

وهكذا يَسَّرَ اللهُ القرآن للذِّكْر فهل مِن مُدَّكِر؟ فكل الآيات التي تحذّر مِن اتّباع الهوى لا تحتاج لأهلِ اختصاصٍ لشرحها ولا يمكن أن يلتبس فيها لفظ "هوى" مع لفظ "عقل" إلا لمَن اتبع هواه وهو يعلم وتَرَك عقله:

{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26)} ص.

فالهوى هو الذي يضل عن سبيل الله وليس العقل.

{مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)} النجم

لا بد مِن التنبيه إلى أن المَعنى هُنا هو النطق بالقرآن وليس كل ما دار في حياة النبي اليومية قبْل البعثة أو بعدها. فقد سَعى البعض إلى تحميل معنى الآية أعلاه ما لا تحتمل مِن معنًى فزعموا أن كل ما نَطَق به محمد بن عبدِ الله وحْيٌ مِن الله، حتى يَسْهل لهم الكذبُ على الله بوضع الأحاديث ونِسْبتها إلى الرسول المعصوم في كل ما نَطق به حسْب تحريفهم لمدلول هذه الآية. وسوف نتطرق في باب "الحديث" لتاريخ وأبعاد ظاهرة الكذب على رسول الله.

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28)} الكهف.

لو استعملَ قلبَه لعقِل واهتدى، لكن لأن اللهَ أغفل قلبَه أي عقله عن ذِكره فقد اتبع هواه وكان أمرُه فُرُطًا. العقل مع الهُدى بينما الهوى مع الضلال.

{فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16)} طه.

{قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150) الأنعام.

في الآية أعلاه نلاحظ أن اتّباع الهوى يرتبط بالكذب والكفر، ونلاحظ في الآية التالية تحذيرًا شديدًا للنبي -صلى الله عليه وسلم- ألا يتبع أهواءَ اليهود والنصارى، بعد أن جاءه العِلم مِن الله:

{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120)} البقرة.

أمَّا في هذه الآية فإن التحذيرَ كان مِن اتّباع "الذين أوتوا الكتاب" وليس اتّباع "أهل الكتاب"، إذ إنّ الفرْقَ كبير بين التعبيرين:

{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145)} البقرة.

بعد هذا التمييز بين "العقل" و"الهوى"، نحتاج لأن نفصِّل في ماهية "العقل" و أداوته وكيف اكتسبه الإنسان.

أدوات العقل في القرآن :

مِن الظواهر التي غابت عن كثير مِن الناس أن القرآن الذي أفْصَح بضرورة إعمال العقل في عبادة الله بتدبّر آياته الكونية والمنزَّلة في الكُتُب السماوية، قد سبق العلمَ الحديثَ في تحديد أدوات عقل الأمور، كما قلنا سابقًا؛ ففي الـ 49 مرة التي وَرَدت فيها مشتقات لفظ العقل في القرآن لم يَرِد كاسمٍ على الإطلاق وإنما ورَدَ فقط في صيغة أفعال: "مرة واحدة فعلاً ماضيًا و48 مرة فعلاً مضارعًا"، مما يدلل على أن العقلَ ليس إلا عمليةً ووظيفةً تقوم بها مجموعة من الأعضاء اختصها الله بتلك الخاصية، لكنه ليس عضوًا محددًا في جسد الإنسان. بيْدَ أن فعل العقل نفسه يَنتج عن مجموعة من الأفعال تعمل مجتمِعة للوصول إلى النتيجة النهائية التي يطلق عليها "عقل يعقل فهو عاقل". وقد وردت تلك الأفعال منفردةً في آياتٍ كثيرة نذكر منها على سبيل المثال:

التفكُّر: اللفظ في المعجم يفيد تقليبَ الشيء أو المعلومة مِن جوانبَ كثيرة لاستيعابها حدثًا كانت أم حديثًا، مثلاً:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219)} البقرة.

نلاحظ هنا أن الله تعالى يجيب عن سؤالٍ طُرح على النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الخمر والميْسِر، وقد كانا شائعيْن في المجتمع العربي كما هو الحال في كل المجتمعات الإنسانية. القرآن لم يقفز إلى الحُكم النهائي فيهما وإنما استدعى إحدى آليات العقل "التفكر" لتقليب الموضوع مِن جوانبه المتعددة فقط. فأقرّ المولى -جل وعلا- أنّ فيهما "إِثْمٌ كَبِيرٌ" مِن ناحية، لكن مِن ناحية أخرى ففيهما "مَنَافِعُ لِلنَّاسِ"، على أنّ التفكر مطلوبٌ وفقًا للخبر الإلهي في حقيقة أنّ " وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا". وفي هذا المدخل حكمتان: الأولى أن الله يعلمنا أنه ليس كل ما نهانا عنه خبيثًا في ذاته وإنما الحُكم الشرعي يتم بناءً على تغليب المنفعة أو الضرر في أحدهما على الآخر. الثاني هو أن الله قال في الخمر ما لم يبتدعه مالِكٌ فيها، وهو أنها ظاهرةٌ بيولوجيةٌ حيويةٌ نتيجة تعاطي مادةٍ كيميائيةٍ طبيعيةٍ تنتج مِن تحلل السكريات الموجودة في معظم الفواكه الطبيعية، وتلعب دورًا مهما في الهضم وفي تحليل الدهون وحماية الأوعية الدموية من التجلط وغير ذلك مما أثبَته الطب الحديث. فالكحول وهو المادة التي تخامر العقلَ بكميةٍ كبيرةٍ، بطبيعته فيه منفعةٌ حينما يكون جزءًا من الطعام أو الشراب الطبيعيّ أو يدخل بنِسَبٍ ضئيلةٍ في العقاقير الطبية. لكن الخمر حينما تُتعاطَى لذاتها تغطي فعالية عقلِ الأمور مما ينتج عنها أضرارٌ صحيّةٌ وسلوكٌ همجيٌّ يوقِع المخمورَ في آثامٍ كثيرةٍ. وعليه فإن ترجيحَ الضرر على المنفعة هو الحكمة من التشريع الذي لم تصدره هذه الآية بلا تفريطٍ أو إفراطٍ، وإنما استدعت إحدى أدوات عقل الأمور "التفكر" للعمل في هذه المرحلة. بل، إن القرآن وصَف الخمرَ كمحفزاتٍ للجنة في قوله:

{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15)} محمد.

هذا يعني أن الله يدعونا إلى التفكر في المصلحة والضرر في الخمر، لكنه لم ينصب حربًا لا معنى لها ولا عداءً مع مادةٍ اسمها الكحول.

أيضًا فإن الميْسِرَ ربما يغني أحدَهم بضربة حظ، لكن امتهانه وإدمانه يدمر المجتمعاتِ، لأنه يوهِم الناسَ بالثراء السريع بلا مقابلٍ فيتوقف العملُ وإعمار الأرض والحياة. أيضًا فإن الميْسر قد يغني المحظوظين وهؤلاء قِلة، بينما يُفقِر الغالبية مما ينتج عنه خلل في تداول الثروة في المجتمع بلا مقابلٍ. إذن: الدعوة للتفكر هنا دعوةٌ عملية تدريبية للأجيال، تجعل مصدرَ التشريع وهو الله تعالى في موضع الحكمة حيث سيصدر الحُكم الأخير بناءً على ترجيح الضرر والإثم فيهما لاحقًا، وإنْ كان فيهما منافعُ قليلة، فلا تفريط ولا إفراط في التعامل مع الخمر والميْسر. وسنناقش بشيءٍ من التفصيل خطورةَ التفريط أو الإفراط في تهويل المحرمات أو المنهيات في باب: "فقه الكلب" إن شاء الله.

ولعلّ مِن الحكمة هُنا ومِن دواعي التفكر في آيات الله تقديمَ مثالٍ يقرِّب للناس هذه الحكمة في التشريع. فتحديد سرعة المرور أمرٌ ضروريٌّ حفاظًا على أنفُس وممتلكات الناس من حوادث التصادم. ففي بريطانيا مثلا الحد الأقصى للسرعة في الطريق السريع هو 70 ميلاً في الساعة، لكن القانون ربما يتجاوز عن زيادة السرعة إلى 80 ميلاً. و ربما يستطيع بعضهم قيادةَ السيارة بأمان بسرعة 120 ميلاً في الساعة فيختصر الزمنَ والجهد ويحقق مصالحَ مِن ذلك، لكن لأن ارتفاعَ احتمال الحوادث الكارثية مع زيادة السرعة هو الغالب، فإن تحديد السرعة بـ 70 ميلاً بناءً على بحوثٍ علميةٍ وتجاربَ عمليةٍ يظل هو التشريع الذي يعاقِب مَن يتجاوزه مِن غير إنكارٍ لحقيقة أن السرعة فيها مصالح. مِن هنا نخلُص إلى أن الدعوةَ للتفكر في محتوى الآية فيها تدريب للعقل ليعمَل ويتعلم التشريع الحكيم، لكن محتوى الآية ليس مرحلة من مراحل "أفكار الله" التي بَدَّلَ رأيَه فيها لاحقًا كما زعم المبطِلون ممن ابتدعوا ما يسمى بعلم "الناسخ والمنسوخ"، وما هو بعِلمٍ وإنما جهلٌ قصد منه تحريف القرآن من الخارج بعد أن فشلوا في تحريف نصه، كما سنرى في باب "علوم القرآن". فهذه الآية ليست منسوخةً بالحُكم الأخير مِن النهي عن الخمر والميْسر كما زعم بعض الفقهاء وإنما هي دعوة للتدبر قبل إصدار الحُكم النهائي. هي مرحلة من مراحل تنزيل الفرقان مفرَّقًا كما سنرى.

{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46)} سبأ.

الجنونُ داءٌ لا يَخفى على العاقل، لأن المجنونَ يتخبط في أفكاره وأفعاله بصورةٍ يلاحظها الصبي قبْلَ البالغ. واتهام النبي بالجنون كان وسيلة عاجزٍ أراد بها تنفيرَ الناس عنه. الآية هنا تدعو الناسَ دعوةً هادئةً بعيدةً عن فوضى الإشاعات والقيل والقال، تفكروا مثنى وفرادى، لأنه كلما قلّ عدد المتحاورين كانوا أقربَ للاتفاق على الحقيقة البينة، وهي أنه نذيرٌ وليس مجنونًا، وكلما زاد عدد المتحاورين دخل الهوى والغرور والعزة بالنفس في تحديد النتيجة الأخيرة للنقاش. التفكرُ هنا يتطلب استرجاعَ كل التهم التي أُلصِقت بالنبي وتمحيصها بهدوء، والنتيجة ستكون واضحة إنه " مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ".

{وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)} الأعراف.

هنا نجد فائدةً كبيرةً في المقارنة بين "الهوى" و"العقل". فالكافرُ المقصود بالآية قد قرر مسبقًا أنه يعشق الحياةَ الدنيا، وكلُّ همِّه هو هذه الأرض وليس لديه استعداد للتفكير. هكذا يكون الهوى. وهنا يقارن اللهُ بين حالة تعطيلِ عقله وحالة الكلب الفسيولوجية وهو يلهث تحت كل الظروف لأنه يعرق بلسانه وهي خاصية ثابتة فيه لا تتغير مهما تغيرت الظروف. فالمثال هنا لنا للتفكر في حقيقةٍ كونيةٍ علميةٍ تشابه حالة عدم التفكير التي يكون مصدرُها العنادَ والإصرار على اتّباع الهوى مهما كانت الأدلة والبراهين واضحة. كون الكلب يلهث ليس ذمًا له وإنما استفزازًا للعقل ليبحث في سر لهاث الكلب ليصل إلى أن مَن ضرب هذا المثلَ لا بد أن يكون الله. وسوف نناقش هذه الظاهرةَ في باب "فقه الكلب".

{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)} ال عمران

هنا نرى أن التفكر في عظمة الكون مدخلٌ للإيمان بعد عَقْلِ النتائج، ولا يمكن للتفكر والعقل أن يكونا مصدرَ ضلالٍ للإنسان كما يروِّج دعاةُ الجهل والتبعية العمياء.

{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)} الحشر.

هذه الآيةُ فيها أعماق علمية تنتظر بحوثَ الباحثين إذ إن القرآن هو كلام الله الذي خاطب به وفيه كل الكون، وربما قراءة القرآن لها تأثيرٌ فعالٌ على الجمادات كما هو الحال على نفس الإنسان. هي دعوةٌ للتفكر.

ومِن أفعال العقل في القرآن "التدبر"، وهو يَعني في اللغة: تعقب الأحداث والأفكار المتتابعة، وهذا ما يتم عند ترتيل القرآن: أي جمع الأرتال المتشابهة معًا ثم الاجتهاد في فهم مدلولها كقصةٍ واحدةٍ. وقد وردت الدعوةُ للتدبر في آياتٍ كثيرةٍ أنقلُ منها:

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)} النساء.

هذه الآية كانت سببًا كافيًا لإيمان الكثير مِن المفكرين الغربيين بأن القرآن ما كان له أن يكون إلا مِن عند الله. فلم يُعرَف كاتبٌ في تاريخ الإنسانية يكتب كتابًا ثم يتحدى فيه القرَّاءَ غير المؤمنين به أن يجدوا اختلافاتٍ فيه، اللهم إلا إذا كان الكاتب هو الإله الحق الذي لا يخطئ. فهي دعوةٌ هادئة تحترم العقلَ السليم والمنطقَ تدعو القارئ غيرَ المسلِم أن يقلّب الكتابَ في أي زمان ومكان بحثًا عن تناقضاتٍ فيه أو اختلافاتٍ بعد تدبّر كل موضوع مع ما يشابهه في مواضع الكتاب المختلفة. النتيجةُ الحتمية هي سقوط كل الافتراضات عن أصل القرآن غير الحقيقة التي أقرَّها القرآن نفسُه أنه مِن عند الله وحدَه. ولا بد من توضيح أن لفظ " كثيرًا" لا يعني أنه بالإمكان وجودُ اختلافٍ يسيرٍ في القرآن، وإنما "كثرة الاختلاف" ظاهرةٌ تتصف بها كُتُب البشر. بمعنى أن أي كتاب مِن عند غيرِ الله ستجد فيه اختلافًا كثيرًا وليس قليلاً فقط.

وقد ورَدَتْ في إحدى طبعات الموسوعة الكاثوليكية الحديثة فقرةٌ مفادها: "عبْر العصور وضِعتْ نظرياتٌ كثيرةٌ لتفسير ظاهرة القرآن ومصدره، لكن اليوم لا يصدق أي عاقل أيًا مِن تلك النظريات". فقد سقطتْ تهمةُ الكذب والجنون والعبقرية وغيرُها مما نُسِب إلى النبي في تأليفه للقرآن، وثبت أن كل تلك الاتهاماتِ حينما توزَن بميزان العقل تسقط.

ومن أفعال العقل "التذكر" ومِن آلياته "الألباب" وتكفينا هذه الآية التي تجمع "التدبر" و"التذكر" و"الألباب" معًا:

{كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)} ص.

اللُّبُّ: في المعجم يدل على اللزوم والثبات، ويعني أيضًا الخلوص والجودة.

ولُبّ الفاكهةِ هو جوهرها الخالص الثابت في وسطها. وفي الاستعمال الفكري، فاللُّبُّ يعني الذاكرةَ لأنها هي الخازنة للثابت من المعلومات والتجارب.

في هذه الآية يدعو الله تعالى الناسَ لـ "تدبر" آيات القرآن أي متابعة المواضيع المتشابهة فيها لـ "يتفكروا" في محتواها ويقارنوها بما هو معلوم لديهم في "الذاكرة" مِن عِلمٍ كونيٍّ، لأن النتيجة ستكون حتمًا هي القناعة أنّ مصدرَ الكتاب ليس إلا الله تعالى.

وقد ورَد لفظ "الألباب" مع "التذكر" في عددٍ من الآيات مما يرجِّح أن الألبابَ المعنية هي الذاكرة:

{يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269)} البقرة.

لاحِظْ أنّ الحكمة غيرُ العِلم، فالكثير من علماء التاريخ لم يكونوا حكماءَ، والكثير من الحكماء لم يكونوا علماءَ في مجالٍ محددٍ لكنهم يستفيدون ويفيدون بعِلمهم القليلِ وحكمتِهم الكبيرةِ أكثرَ مما يفيد صاحب العلم الغزير الذي لا يدري كيف ينقل عِلمَه للناس، راجِعوا ذاكرةَ التاريخ يا أولى الألباب لتفهموا الفرْقَ بين العلم والحكمة.

لفائدة القارئ: فإن التمييزَ بين "البصل" و"التفاح" يحتاج إلى عِلمٍ، أما استعمال البصل في الطهي، والتفاح كفاكهة فهذه هي الحكمة. كثيرٌ مِن الناس علماءُ لكنهم يفتقدون الحكمة كيف ينقلون عِلمَهم لغيرهم وكيف يفيدون الناسَ به.

وقد ورَد لفظُ الألباب مِن غير دعوةٍ للتذكر لكنه ارتبط بقصصٍ تاريخيةٍ مما يرجح أيضًا أنها الذاكرة:

{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179)} البقرة.

ولعل مخاطبة أولى الألباب هنا بأهمية القصاص، هي الرجوع لتجاربِ التاريخ الإنساني منذ قتْل أحد ابنَيْ آدمَ لأخيه. أما سورة يوسفَ فكلها سياقٌ تاريخيٌّ لتؤخذ منه العِبَر مما يؤكد أن ختامَ السورة بدعوة أولى الألباب للاعتبار هو أنها تعني ذاكرةَ الإنسان أو ذاكرة التاريخ والإنسانية:

{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)} يوسف.

مِن الأمثلة السابقة، وفي القرآن الكثير مثلها، نخلُص إلى أن القرآن يحث على عقل الأمور ويفصل في الحث على استعمال الأفعال التي بدورها تقود إلى اكتمال عملية العقل. فالإيمان بالله يتطلب العِلمَ وإعمالَ الفكر والتدبر في كتاب الله وفي الكون، وكل هذه الخواص متاحة للجميع ما داموا معافين مِن الأمراض العقلية التي بطبيعة الحال تُسقِط التكليفَ وتَرفع القلم.

وقبل الانتقال لبحث موضوع العقل في الطب، مِن الحكمة مراجعةُ الآيات التي تجمع بين العقل وبعض الأعضاء المادية الملموسة في جسم الإنسان.

القرآن كما هو معلوم يربط العقلَ بالقلب، لكن هذه الملاحظة تضعنا أمام امتحانٍ آخر داخل القلب نفسه وهو أن الله يسمي القلبَ أحيانا بالفؤاد. على أن لفظ الفؤادِ ورَد في سياقيْن متميزين في القرآن أحدهما هو سياق برمجة العقل، والثاني هو سياق الخوف، وسأناقش هذا الموضوعَ في باب "ملكة النحل" الذي يدرس خلْق الأنثى لارتباطه بالخلق. أما الربط بين عملية العقل والقلب على عموم اللفظ فقد ورَد أكثر من مائة مرةٍ، خاصة لو جمعنا بين القلب والصدر باعتبار أن الإشارةَ للصدر هي في الحقيقة إشارةٌ لِما في الصدر وهو القلب. فالقلب هو كل تلك العضلة المعروفة في وسط الصدر وتضخ الدم، لكن يبدو أن الفؤادَ هو حالة يكون فيها جزءٌ من القلب في حالة دفءٍ وسخونةٍ؛ لأن لفظ "فأد" يدل على حرارة واتّقاد. لذلك نجد التباينَ بين الآيات التي تربط العقلَ ومكوناتِه بالقلب، والآياتِ التي تربطه بالفؤاد. وبعيدًا عن التفاسير، أتركُ القارئَ الكريم يتدبر ويتفكر في هذه الآيات، لكن سنرجع لآيات الفؤاد بشيءٍ من التفصيل في الباب القادم إن شاء الله.

آيات القلب:

الآيات التي تربط العقلَ بالقلب كثيرةٌ جدًا أتطرقُ لبعضها هنا فقط:

تنزيل القرآن كان على قلب الرسول:

{قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97)} البقرة.

الاطمئنان في القلوب:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)} البقرة.

{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126)} آل عمران.

{قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113)} المائدة.

الإثم واللهو والغفلة في القلوب:

{.... وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (283)} البقرة.

{لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3)} الأنبياء.

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28)} الكهف.

أمراض العقل وسلامة العقل في القلب:

{فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10)} البقرة.

{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125)} التوبة.

{إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)} الشعراء.

{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84)} الصافات.

آيات الصدر:

كما أسلفتُ، فإن القرآن أحيانًا يعمِّم موضعَ العقل فيشير للصدور أو ما في الصدور كما في هذه الآيات:

{كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2)} الأعراف.

{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)} الأعراف.

{فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (125)} الأنعام.

{لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13)} الحشر.

مما سبق لا يمكننا تجاهل الحقيقةِ القرآنية أن كل "منظومة العقل" ترتبط بالقلب الذي في الصدر، لكن لم تَرِد الإشارةُ لأي علاقة بين الرأس والعقل في القرآن.

آيات الرأس:

وحتى لا ننسى إخوتَنا الذين يظنون أن العقلَ في الرأس وبذلوا مجهودًا كبيرًا في المقارنة بين "رأس المرأة" و "رأس الرجل" في محاولاتٍ مستميتةٍ لتبرير الحديث المكذوب، يستحسن إفادتهم ببعض "القمل" من آيات "الرأس" في القرآن:

{وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ (196)} البقرة.

{يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41)} يوسف.

{قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) مريم.

قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)} طه.

{ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحَمِيمِ (48)} الدخان.

{ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65)} الأنبياء.

مما سبق نلاحظ أنّ الله تعالى لم يُشِر إلى الرأس إلا في السياق الظاهري المعروف لكل الناس وهو إصابة فروته بالأذى أو تنكيسه عند المذلة، لكنه سكت عمــا بداخل الرأس على عكس الإشارة إلى القلب أحيانًا أو إلى ما بداخل الصدور.

ما قدَّمناه إلى الآن ليس نهاية لبحثٍ، وإنما هو دعوةٌ لبداية لبحوث في موضوع العقل ومكانه كيفما يصفِه القرآن. لكن لا بد لنا أن نتطرقَ لمفهوم العقل في التراث الإنساني وهو بطبيعة الحال يستحسن تناوله مِن ناحية طبية.

العقل في الطب:

الطبُّ عمومًا، وطبُّ الأمراض العقلية خصوصًا ما زال لديه مشكلةٌ في تعريف العقل. باختصار شديد وفي جملةٍ واحدةٍ فإنّ الطبَّ حتى اليوم ليس لديه تعريفٌ واضح للعقل ولا مكانه في جسم الإنسان. قديمًا كان "الدماغ" هو المكان الأول الذي يظن الأطباءُ أنه مركز العقل. لكن مع تطور العلوم الطبية ظهرتْ إشكالاتٌ كبيرةٌ تزعزع هذا الافتراضَ لأن الأمراضَ التي تصيب الدماغ من جلطاتٍ وأورامٍ والتهاباتٍ تؤدي إلى تعطيل المراكز الحركية والحسية لدى الإنسان، لكن لم يثبتْ أن لديها تأثيرًا مباشرًا على سلامة العقل أو عدم سلامته بصورة مباشرة. بينما ثبت حديثًا جدًا تسجيلُ حالةِ جنونٍ مفاجئٍ لم يُفهَم سببها لكنها تزامنت مع ظهور ورَمٍ في جزءٍ من القلب فلما أزيل زال الجنون.

يبدو أنّه في هذا المجال سرٌ جعله الله من نصيب مَن يتدبرون القرآن وليس سواهم من العلماء، لأن الإشاراتِ القرآنية تربط عملياتِ العقل بـ "القلب" و"الفؤاد" أكثر مما تربطها بالدماغ.

على أن طب الأمراض العقلية يتعامل مع ظاهرة العقل مِن غير أن يستطيع حسمَ مصدرها. وقد تطور عِلم الأمراض العقلية اليوم لدرجة أصبح التمييز فيها بين خواص "النفس" وخواص "العقل" كبيرًا وواضحًا جدًا، لذلك فهناك فَرْق كبير بين "الأمراض النفسية" و"الأمراض العقلية":

الأمراض النفسية هي التي تؤثر على عمل الانفعالات والعواطف مع سلامة العقل: مثال لذلك الخوف والقلق والوسواس والاكتئاب وغيرها. هنا يكون المريض عاقلاً وقادرًا على تمييز وإدراك الحقائق لكنه مضطربٌ عاطفيًّا في مقدرته على اتخاذ القرار السليم.

أما الأمراض العقلية فهي التي تؤدي لفقدان المقدرة على التصرف السوي والفهم الصحيح للأحداث أو الحديث، وبها يوصَف المريض بالجنون. وسنتحدث عن "النفس" مع "الروح" في باب: " ملكة النحل"، لكننا هنا نركز على العقل وحدَه.

فحص العقل في الطب:

في طب الأمراض العقلية فإننا نكشف على سلامة العقل (الذي يجب معه التكليف) أو اضطرابه (الذي يسقط التكليف) بخطواتٍ كثيرةٍ ألخِصُها في النقاط التالية قبل أن نعود فنضرب مثالاً لإعمال مفهوم العقل الطبي في آيات القرآن:

هناك ثلاثةُ محاورَ رئيسيةٍ تتم بها عمليةُ عقل الأمور في الإنسان السليم:

المحور الأول:

هو محور المقدرة على الانضباط مع "الحدث" أو "الحديث"، ويقوم على آليتيْن هُما

"الانتباه" و"التركيز":

الانتباه يعني: مقدرةَ الإنسان على التقاط بداية الحدث أو الحديث والتفاعل معه تفاعلاً منطقيًا: مثلاً، تبدأ حديثًا عن الظرف السياسي الراهن وتراقب هل انتبه المريض للموضوع المطروح للنقاش؟ أم أنه مشغول بما داخله من صراعاتٍ ولا ينتبه لِما يدور حوله؟

التركيز: يعني مقدرةَ الإنسان على مواصلة ومتابعة الحوار أو تتابع الأحداث لفترةٍ طويلةٍ من الزمن. الإنسان يمكن أن يكون سليمًا في محور "الانتباه" لكنه سرعان ما يَفقد "التركيز" ويَخرج عن الموضوع.

مثال للأعراض التي تصيب هذا المحور: المريض بداء "انفصام الشخصية" (الشيزوفرينيا) يمكن أن "ينتبه" في بداية مشاهدة مباراة في كرة القدم، لكنه سرعان ما يَفقد "التركيز" ويصاب بالرعب لأنه يظن أنها مشاهِدُ عِراك أو حرب.

المحور الثاني:

يمكن أن نسميه محورَ " إدراك الواقع" وهو أخطر مكونات عملية عقل الأمور. ويفيد المقدرةَ على تمييز"الأحداث" أو "الأفكار" في إطارها الصحيح. هذا المحور هو المحور الذي به يتحرك خيالُ الإنسان داخل وخارج إطار الزمان والمكان المعلوميْن ويعين العقلَ على الابتكار والإبداع. ويقوم على ثلاثة مكونات:

"إدراك الزمان" - "إدراك المكان" - "إدراك الأشياء".

لشرح المقدرة على إدراك هذه المكونات الثلاثة أضربَ مثالاً بسيطًا يجمعها معًا:

إذا طلبْنا مِن المريض أن يصِف لنا مدينة القاهرة قبل 500 سنة: فإذا ذَكَر الأهرامات وسط الصحراء والمباني الصغيرة متباعدة حول النيل، ثم وصَف وسائلَ المواصلات من خيْلٍ وحميرٍ وإبلٍ، فقد استطاع أن ينتقلَ بخياله إلى "مكان" الحدث الصحيح في "الزمان" الصحيح ويتصور صورةً واقعيةً تصِف الأشياءَ المرتبطة بالزمان والمكان موضوع السؤال ويكون قد أتى بإجابةٍ سليمةٍ.

لكن: لو وصَف الأهراماتِ وحولها السياح الأجانب ومترو الأنفاق والجسور فوق النيل، فهو مختَلٌ في "المكون الزماني"، لأنه لم يستطعْ أن يتصور "الزمان" قبل 500 سنة، لكنه سليمٌ في "المكون المكاني" و "مكون الأشياء" إذ إنه أتى بصفاتِ ومعالمِ القاهرة المعلومة اليوم وليس قبل 500 عام.

أمّا إذا ذكَر "الكعبة" و"تاج محل" من معالم القاهرة فهو مختَلٌ في "المكون المكاني" لأنه لم يستطع أن يضبطَ خياله ليبحث في "المكان" المحدد، بمعنى أنه يخلط معالمَ حقيقيةً في زمانٍ محددٍ لكنها في أماكنَ مختلفةٍ.

أما إن كان مختَلاً في مكون "إدراك الأشياء"، فإنه غالبًا ما يَذكر في إجابته أشياءَ لا علاقة لها بصفاتِ ومعالمِ أي مدينة. "إدراك الأشياء" نقصد به المقدرةَ على تمييز الطبيب من المُمرض والمدرسة من المستشفى والشجر من الحَجر وهكذا.

لا بد من التنبيه إلى أن الوصفَ أعلاه مبسَّط جدًا، لكن الأمراض العقلية غالبًا ما تصيب المريضَ باضطراباتٍ شديدةِ التعقيد تحتاج لخبرة أهل الاختصاص في تشخيصها. أيضًا فإن الإنسانَ السليم ربما تختلط عليه الأشياءُ والأزمنة والأماكن اختلاطًا عابرًا لكنه لا يشكل صفة ثابتة من شخصيته تكفي لأن يوصَف باضطرابٍ عقليٍّ.

المحور الثالث:

هذا المحور هو محور "الذاكرة". والذاكرة من ناحيةٍ طبيةٍ موضوعٌ معقّد جدًا إذ إن الإنسان السليم يبدأ في تخزين المعلومات في ذاكرته وهو جنينٌ في بطن أمِّه. فالذاكرة ليست فقط المقدرةَ على استرجاع المعلومات، وإنما تشمل سلامة المقدرة على "حفظ" المعلومات و"تصنيفها" تصنيفًا سليمًا يمكن معه الرجوعُ إليها حين الضرورة. والذاكرةُ بحرٌ عميقٌ من المصنفات، إذ إن الأصوات لها ذاكرة، والألوانَ لها ذاكرة، والروائحَ لها ذاكرة، والأفراح لها ذاكرة، والأحزان لها ذاكرة، وهكذا. في مسار الحياة فإن كل ما نتعرض له يدخل الذاكرةَ المختصة به فيظل هناك وربما لا نحتاج لاسترجاعه أبدًا، لكن تطور عِلم الإنسان في أي منحًى مِن مناحي الحياة يحتاج للرجوع إلى الذاكرة التي خَزَّنتْ معلوماتٍ شبيهة بالعِلم الجديد لتضيفه للقديم وتفسِّره به.

أهمية الذاكرة في "عقل الأمور" ليست فقط لنتذكر الماضي من باب الدردشة، لكن العقل لا يمكنه إدراك كُنه وحقيقة الأشياء والأحداث إلا إذا كانت لديه سابقُ معرفةٍ بها أو بما يماثلها من مخزونٍ في الذاكرة البعيدة. لذلك فالتعليم يبدأ بتخزين معلوماتٍ بسيطةٍ مرتبطةٍ بالطبيعة في ذهن الطفل: (أ ، ب ، ت ، ث)، هذه يعقلها الطفلُ بمقارنتها بما خزنت ذاكرتُه من أصواتٍ سابقةٍ من خلال احتكاكه بالناس، وتعلُم الكلامِ الذي يبدأ بتمييز الأصوات ومخارج الحروف. بعد أن يذهب إلى لمدرسة تصبح الحروفُ ذاتَ مدلولٍ له، فيبدأ تجميعَها في كلماتٍ بسيطةٍ تصف صورًا وأحداثًا يعلمها من حياته اليومية، وهكذا يتطور العِلم، كلُّ مرحلةٍ تبني على المخزون السابق في الذاكرة وتضيف إليه.

في الطب نكشف على سلامة الذاكرة مِن جانبيْن:

الذاكرة القصيرة: وهي المقدرة على تسجيل واسترجاع تفاصيل الأحداث التي وقعتْ قبل قليل. مثلاً: حينما يدخل المريضُ عليّ في العيادة أعرِّفه بنفسي ذاكِرًا الاسمَ والوظيفة وأشرح له شرحًا مبسطًا عما سيدور بيننا من نقاش. بعد ربع ساعة مثلاً أفاجِئه بالسؤال عن اسمي أو مهنتي. لو كان لديه عطلٌ في الذاكرة القصيرة غالبًا ما يكون قد نَسي مَن أنا ولماذا هو هنا.

الذاكرة البعيدة: وهذه تفيد المقدرة على استرجاع معلوماتٍ قديمةٍ ما عادت من أحداث اليوم أو الأمس القريب، كذكريات الطفولة والمدرسة والجامعة وغيرها (لشخص في الأربعينات فما فوق مثلاً).

مِن المفيد للقارئ هنا أن أعطيه فكرةً بسيطةً عن مرض "الزيهايمر" الذي يصيب الذاكرةَ أولاً، ثم يؤدي إلى حالةٍ أشْبَه بالجنون أشار إليها القرآن ويتعرض لها الكثيرون لكن الثقافة العامة عنه قليلة.

مرض "الزيهايمر":

الأمراض العقلية المعروفة طبيًا كلها تدور حول اختلالٍ في المَحاور أعلاه، على أنَّ تَقدُّمَ السن ربما يؤدي إلى خللٍ في المحور الثالث وهو محور "الذاكرة" وتكون النتيجة اختلالاً تدريجيًا في المَحاور السابقة، رغم سلامتها في الصِّغَر، مما يقود إلى حالةٍ أشبه بالجنون، يُرفَع معها القلم وإن لم يكن الإنسان مصابًا بالجنون من قبل، كما قال الله تعالى:

{وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68)} يس.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)} الحج.

مع تقدُّم العمر تَضعف كل المكونات الجسدية للإنسان بما فيها خلايا الدماغ التي تُخزن المعلوماتِ ويشار إليها قرآنيًا بـ "الألباب" وطبيًّا بـ " الذاكرة". وأول أعراض الزيهايمر تظهر بملاحظة نسيان الأحداث القريبة. مثلاً، يَنسى الأب أن ابنَه زاره أمس فيسأله: " لِمَ أركْ منذ زمن؟". وتبدأ الأسرة ملاحظة تكرار النسيان للأحداث القريبة. ومع تقدُّم المرض يصبح الإنسان وقد فقد فترةً من حياته لم يسجل فيها جديدًا في ذاكرته؛ لأن الأحداثَ اليومية يعيشها في لحظتها لكنها لا تلتصق بالذاكرة. لكن لأن السكينة النفسية تتطلب أن يعيش الإنسان في تفاعُلٍ مع الواقع مِن حوله، فإن المريضَ هنا يبدأ في اجترار الأحداث البعيدة في ذاكرته ليملأ بها فراغَه اليومي، وهذه غالبًا ما تظل سليمة ومحفوظة لمدة أطول ويمكن الرجوع إليها لأنها حفرت في الذاكرة حينما كان المريض شابًا. هذه الحالة تقود بطبيعة الحال لانعزال المريض اجتماعيًا وفشلِه في مجاراة الحياة اليومية، ورجوعِه للحياة في الماضي أكثرَ مِن الحاضر. مع تقدُّم المرض يصبح الماضي هو الواقع اليومي للمريض فيتحقق ما وصفه الله تعالى بـ: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68)} في سورة يس. وهذا التنكيس يأخذ مجراه في اتجاهٍ عكسيٍّ مع تقدُّم السن، بمعنى أنه كلما طال عمر المريض رجع لسنٍ أصغرَ حتى يزول كل العِلم الذي تعلَّمَه في الحياة ويعود في بيئته الداخلية طفلاً صغيرًا لا يعلم مِن بعد علمٍ شيئًا، فيتحقق قوله تعالى: {.... وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} الحج.

مرض "الزيهايمر" مرتبطٌ بتقدُّم السن في غالب الأحيان، لكنه في النهاية يقود إلى تعطيل كل المقدرات العقلية فيرفع معه القلم وتنتهي رحلة التكليف في الحياة مهما طال عمر المريض. لكن في الأمراض العقلية الأخرى التي تصيب الصغارَ والشباب فإن الذاكرةَ أصلاً تفشل نتيجة الخلل في تغذيتها بالمعلومات مهما كان المريض صغيرًا في السن.

هناك نوعٌ آخر من "الخرَف" أو أرذل العمر غير "الزيهايمر" تتسبب فيه تجلطاتٌ مفاجئةٌ في أوعيةٍ دمويةٍ دقيقةٍ في الدماغ، أو انفجاراتٍ في الشعيرات الدموية. على عكس مرض "الزيهايمر"، فهذه الحالة تحدث فجأةً وبلا مقدمات. أيضًا فإن الذاكرةَ ربما لا تضيع معها إلا إذا كان النزيف قريبًا من خلايا الذاكرة، لكن أي انسداد في الدورة الدموية في الدماغ يتسبب في فوضى نقل المعلومات من مكان لآخر وقد يتصرف المريض تصرفاتٍ فيها قدْرٌ كبيرٌ من الجنون بصورةٍ مفاجئةٍ كأن يهلوِس ويرى أشياءَ غير موجودةٍ أو يتحدث وحدِه كلامًا غير مفهوم، وغالبًا ما يتصرف بعنفٍ وسبٍّ وربما استعمل الضرب؛ لأن الدماغ كله يكون في حالة أزمة تَناقُل معلومات. في كلا الحالتين فإن القلم يَرفع عن المريض. والخرف نتيجة التجلطات يمكن أن يقع في سنٍّ أصغر بكثيرٍ من سن مرض "الزيهايمر".

انفصام الشخصية "شيزوفرينيا":

انفصام الشخصية مِن أشهر الأمراض العقلية التي يحدث فيها تداخل في الخلل بين وظائف الدماغ ووظيفة العقل الغامض.

ويُسَمى المرض بانفصام الشخصية لأن المريض في أسوء الحالات يعيش بشخصيةٍ مختلفةٍ تمامًا عن هويته الحقيقية مما يجعله مجنونًا حسب التعريف العام للجنون.

من أبرز الأسباب الكيمائية للمرض هو اضطرابٌ -وغالبًا- ارتفاعٌ في معدل إفراز خلايا الجهاز العصبي المركزي في الدماغ لمادة "الدوبامين". هذه المادة عبارةٌ عن ناقلٍ كيمائيٍّ ينقل المعلوماتِ بين المراكز المختلفة في الدماغ حسْبَ طبيعتها ووجهتها. فهو الذي يستقبل الأصوات من العصب السمعي ويحولها لرسائلَ كيمائيةٍ تنقّل إلى مركز السمع حتى تُعقَلَ كصوتٍ معلومٍ. وينقل الصور من العصب البصري إلى مراكز الصور في الدماغ، وهكذا. في الإنسان المعافى فإن "الدوبامين" هو الرسول الكيميائي "مسنجر" الذي ينظِّم عمل الدماغ ويرتب المعلومات كُلّاً في مكانه الصحيح. ارتفاع "الدوبامين" يؤدي إلى اضطراب في هذه الوظيفة، وغالبًا ما يقوم الفائض فيه بنقل معلوماتٍ غير موجودةٍ إلى مراكز السمع أو البصر فيصاب المريض بالهلوسة لأن الدماغ يبدأ برؤيةِ أشياءَ غير موجودةٍ أو يسمع أصواتًا غير حقيقيةٍ، فيبدأ بالتفاعل معها كأنها حقيقةٌ. وفي كثيرٍ من الأحيان يقوم فائض "الدوبامين" بنقل معلوماتٍ من الذاكرة وتصويرها كأنها تقع الآن. وفي أسوأ الحالات فإن اضطرابَ نقل المعلومات يتسبب في أن تتكون شخصيةٌ غيرُ حقيقيةٍ يعيش بها الإنسان وغالبًا لا يستطيع أن يتعايش بها مع الواقع. فهو يكلم أصواتًا غير موجودةٍ وينفعل مع أهوامٍ غير حقيقيةٍ حتى تزول شخصيته تمامًا وهذا ما يُعرَف بالانفصام.

وغالبًا ما تتكون الشخصية الوهمية إمّا من مخزون المعلومات في الذاكرة " الألباب" فيجترُّ المريض شخصية غير شخصيته ويتوهم أنها هو، أو يبدأ في تداخل الشخصيات التي يتعامل معها في المجتمع أو من السينما والتلفاز فتصبح بعضها هو.

المخدرات مِن حشيشٍ و(كوكايين) وغيرها تلعب دورًا في زيادة أو اضطراب (الدوبامين) مما ينقل المتعاطي مِن واقعٍ مريرٍ يعيشه إلى حالة من الهلوسة الجميلة فيعيش بعضَ الأحلام في اليقظة وهو الجانب الممتع الذي يستسيغه المتعاطي في البداية، لكن مع كثرة التعاطي تعتاد الخلايا على إنتاج عالٍ من (الدوبامين) مما قد يؤدي إلى انفصام الشخصية.

وقبل أن أقدم نموذجًا عمليًا للانفصام يُستحسَن أن أشرح مكونات "الفكرة السليمة" حتى نستطيع استيعابَ الخلل العقلي. فأيُّ فكرةٍ لها مكونات كالأفعال وردود الأفعال. أضربُ مَثَلاً هنا:

لو سألتَ أحدَهم: ما اسمك؟ ففي السؤال فكرةٌ محددةٌ مطلوبة وهي الاسم. الإنسان الطبيعي يَفهم بعقله السليم مضمونَ السؤال ويمكن أن يجيب باسمه أو لا يجيب. في بعض الأمراض يحدث خللٌ في استيعاب "تركيب الفكرة" وفي بعضها يحدث الخلل في استيعاب "محتوى الفكرة". مثلا: يمكن أن يَرُدَّ المريضُ باسمِه الحقيقي وهنا يكون على الأقل استطاع استيعابَ تكوين الفكرة " سؤال عن الاسم"، ومحتواها " فيأتي بالاسم". لكن أحيانًا يمكن للمريض أن يفهم تركيبَ الفكرة لكنه يجيب باسم آخر. هنا يكون الخلل في أن "محتوى الفكرة" هو المختل وليس تركيبها. مثلاً أن يجيب: اسمي "مايكل جاكسون" أو "هتلر". في حالة مايكل جاكسون يمكن أن تكون الإجابة فيها إشارةٌ لنوعٍ من جنون العظمة، وفي حالة هتلر يمكن الإجابة أن توحي بالعنف والدموية. لكن إذا سألتَ مريضًا عن اسمه فأجاب أن الساعة الآن العاشرة ليلاً، فهو مختَل في فهم تركيب الفكرة، لكنه ربما أجاب إجابة صحيحة عن الزمن لو كانت الساعة العاشرة ليلاً حقيقةً. في الاضطراب الكبير يمكن أن يَرُد المريض بجُملة لا معنى لها على الإطلاق، وهُنا يكون مختلاً في فهم تركيب الفكرة وفي محتوى التفكير. هذا تبسيطٌ كبيرٌ للأعراض التي تَظهر نتيجةً للأمراض العقلية.

الانفصام أحيانًا يكون خطيرًا جدًا إذا تَوَهّم المريضُ أنه شخصٌ آخر له وظيفة خطيرةٌ في المجتمع، فيبدأ في التعامل وكأنه ذلك الشخص الوهمي، رغم أنه ظاهريًا يبدو عاديًا لمن لا يَعرف هويته، إلى أن تَحدث كارثةٌ نتيجة تصرفه وفقًا للشخصية الوهمية. وحتى أشرح طبيعة وخطورة المرض أقدِّم مثالاً لحالة مَرَضية تعاملتُ معها.

جورج بوش:

كنتُ أعمل قبل سنوات مضت في العناية المكثّفة للأمراض العقلية في واحدةٍ مِن أقدم مستشفيات لندن، وكنتُ الطبيبَ المشرف عليها. جيء لنا ذاتَ يوم بشابٍ في بداية الثلاثينات معتقلاً تحت المادة الثانية مِن قانون الأمراض العقلية أرمزُ إليه هنا بـ " جورج بوش". وقِصته كانت أنه يَسكن في حيٍّ هادئٍ في شقته وحدَه ولم

يُعرف عنه أي سوءٍ أو داءٍ. في ذلك اليوم كان بعض العمال يقومون بحفرياتٍ لمد أنابيبِ ماءٍ في الحي، فأزعجه صوت الحفارات فخرجَ وتعاركَ معهم من غير مبررٍ، فقط بحُجة أنهم اخترقوا "مجاله الخاص". حينما استدعي البوليس أحس أن تبريره للعِراك غريبٌ لأنه لم يستطع أن يشرح ماذا يعني بمجاله الخاص. فاستدعي طبيب الأمراض العقلية الذي أحس أن هناك غموضًا يحتاج لتشخيصٍ في سلوكه، فلمَّا رَفض الذهابَ للمستشفى تم اعتقاله تحت المادة الثانية وهي تعني أنه يمكن أن يظل في المستشفي لمدة تصل إلى 28 يومًا يتم خلالها إما تشخيص مرضٍ عقليٍّ، أو يُطلَق سراحه ليواجه القانونَ على مشاجرته.

في الأسبوع الأول لم نلاحِظ عليه شيئًا مريبًا غير أنه شابٌ انطوائيٌّ ليس له أصدقاء ولا أهل، إذ إن والدَيْه متوفيان حسْبَ قصتِه. لكنه كان يتعامل مع الناس تعاملاً عاديًا في الأكل والشراب والحمَّام والملابس واللعب في ميدان التنس وغيره. وكان مُلِحًّا على إطلاق سراحه. وكان قد رَفض أن تُجري عليه الكشفَ الطبي المعتاد لأي مريضٍ يدخل المستشفى من تحاليل الدم والبول وكشْف على القلب والجهاز التنفسي وغيرها، ومِن حقه أن يرفض. وحينما ألحّ عليّ بأن أكتبَ تقريرًا أنه معافًى عقليًا، حتى يُطلَق سراحه، استدرجتُه بأنني لا أستطيع أن أفعل ما لم يكن التقرير كاملاً مقنِعًا، و عليه أن يتجاوب معي قليلاً حتى يعينني ويعين نفسه. فوافَق على الكشف الطبي.

أخذتُه إلى العيادة ليرقد على الكاوتش - طاولة الكشف- وبدأتُ آخذ عيناتِ الدم وأنا أدردش معه. وكانت فرصة مناسبة أن أدخله في حالة استرخاء باستعمال مدخل من مداخل التنويم المغناطيسي حتى أختَرق ما ظلّ يسميه "مجاله الخاص". ولمّا أحسستُ أن الحوارَ بيننا أصبح سَلِسًا ألححتُ عليه أن يُعرِّفني بصديقٍ فقط يشهد أنه طبيعيٌّ، فأنْكَر أن لديه أصدقاء. فقلتُ له بصورةٍ مازحةٍ فيها روح الشباب أن يُعرِّفني بإحدى صديقاته إذ إنه شاب وسيمٌ ولطيفٌ وبالتأكيد كانت له علاقاتٌ سابقةٌ كما هي العادة هنا. فاضطربَ جورج وردَّ عليَّ بحزم: أنا لم أمارس الجنسَ في حياتي أبدًا، وليس لي صديقةٌ بعد. فتلعثمتُ قليلاً ثم سألتُه: هل لأسبابٍ دينيةٍ أم هل يعاني من مرضٍ عضويٍّ؟ فردَّ عليَّ بحزمٍ: لا هذا ولا ذاك، لكن أنا لم أكمل الخامسة والثلاثين بعدُ، وغير مسموح لي بممارسة الجنس قبل عيد ميلادي الخامس والثلاثين. هنا أحسستُ أنني دخلتُ إلى "المجال الخاص الغامض"، فتظاهرتُ بالغباء أنني حقًا لم ألاحِظ تاريخَ ميلاده، ثم استدرجتُه في دردشةٍ جانبيةٍ خاصةٍ عن حياة الشباب لمزيد من الاسترخاء ثم عدتُ للموضوع: "جورج، سامِحْني لأني لم أفهم ما علاقة الخامسة والثلاثين بممارسة الجنس؟" فأجابَني بثقة أنه مُجَنَّد في منظمة الـ إم آي ون (Mi1) ونظام المنظمة لا يسمح بذلك إلا في عيد ميلاده، وحينها فقط تُقدّم المنظمةُ له فتاتَه الأولى وبعدها يستلم العملَ وينفذ الأوامر.

المخابرات البريطانية تنقسم إلى قِسميْن: (Mi5,Mi6)، إحداهما مختصة بالأمن الداخلي والأخرى بالأمن الخارجي، لكن لا توجد منظمة اسمها "الـ إم آي ون". جلستُ حينَها بهدوءٍ على المقعد المقابل حتى يبحر في استرخائه ويُدخِلني إلى عالمه الخاص. فنَسي حينَها أنه وقَع في الشَّرَك وأن ما سيصرِّح به مِن أخطر أنواع انفصام الشخصية. وقصَّ عليَّ بهدوءٍ أنه تم تدريبه على كل وسائل القتل، وأن مُنَظَّمَتَه هي أُم المخابرات في العالم، ووظيفتها الأساسية هي إبادة البشرية. وقال إنه في يوم 19 مارس 2003 سيكمل الخامسة والثلاثين وسيذهب إلى بيتٍ مظلمٍ وصَفه لي حيث سيلتقي أولاً بصديقته الأولى التي ذَكَرها بالاسم، وبعد تلك الليلة سيستلم السلاحَ ويبدأ في تنفيذ الأوامر حرفيًا، وهي الإبادة العشوائية لكل البشر مِن حوله. وقال إن العُمَّال الذين أزعجوه اخترقوا مجاله الأمني الخاص، وظنّ أنهم جواسيس، لذلك تعاركَ معهم. وواصلَ جورج قصتَه الغريبة، فصارَحَني بأن تجنيدَه للمنظَّمَة تم عن طريق خالِه. وحينما سألتُه أن يعرِّفنا بخاله قال إن مِن قوانين المنظمة إعدامَ كل عميل تنتهي مهمته بتقديم عميلٍ جديدٍ، وخاله تم إعدامه. وأخبَرَني حينَها عن وفاة والدَيْه فقال إن والدتَه اغتُصِبَتْ والدَه وحَمَل منها، لذلك كان مولودًا خاصًا قدَّمَه خالُه للمنظمة وتم بعدها إعدامُ والدَيْه أيضا حفاظًا على سرية التجنيد. بطبيعة الحال لم أُصَب بالدهشة لأن هذا تخصصي، وقد نجحتُ في اختراق المجال الخاص للمريض، لكن شعرتُ بخطورة الانفصام لأن مِثله هُم مَن نسمع عنهم في الأخبار بين الحين والآخر أن شابًا حَمَل رشاشًا وقتَل العشراتِ في مدرسةٍ أو ميدانٍ عامٍّ. عِلمًا بأن المرضَ لا منطق فيه، وقد تأتيه الأوامرُ فجأةً فيدفع مجموعةً مِن الناس تحت عجلات القطار. وبطبيعة الحال لم أعِدْه أن أُخرجَه مِن الاعتقال، لكن سأكتبُ تقريرًا وستتحقق مِن قانونية هذه المنظمة وستأتي لجنةٌ قانونيةٌ خارجيةٌ تُراجِع التقريرَ وتتخذ القرار.

القانونُ هنا يعطي المعتقلين الحقَّ في رفع دعوى ضد المستشفى مفادها أن الاعتقالَ غير مبرَّر، ويُعيَّن لـه محامٍ خاص وتَفصِل في القضية مَحكمةٌ خاصةٌ.

في جلسة المَحكمة التي يُقدِّم فيها الطبيبُ تقريرًا، ويَقدم المُمرضون والباحثُ الاجتماعي تقارير، كان يومًا عصيبًا لأن الرَّجُلَ جاء ببدلة وكرافتـه فـي منتهى الأناقة، ولا يبدو عليـه أي مَظهرٍ من مظـاهر الجنون التـي وصَفها تقريري. ونَجَح المحامي في إقنـاع القاضـي ومعاونيـه أن المـرضَ وهْمـيٌّ لا يشكل خطـورةً وطالـب بـإطلاق سراحه. وهنا طلبتُ من القاضي أن يأذنَ لي بإجراء فحص لعقله أمام الجميع لأثبت صحة تقريري، فاعترضَ المحامي بحُجة أن الطبيبَ يقدِّم تقريـرًا مكتوبًا فقط، وليس مِن الإجراء المتعارف عليه أن أكشف على عقل المريض في المَحكمة. فأعدتُ الطلبَ محذِّرا المِحكمة أنهم مسئولون عن جريمة قتلٍ جماعيٍّ وشيكةِ الوقوع. فوافقَ القاضي على طلبي.

فتحدثتُ معه بهدوءٍ وأعدته لحالة الاسترخاء السابقة وسألتُه: جورج، ماذا سيحدث يوم 19 مارس يوم ميلادك؟ فأجابَني بهدوء: "ستتم صناعتي في ذلك اليوم" فسألتُه: "وهل ستنصاع للأوامر؟" فأجاب بثقةٍ: "هذه مهنتي وعليَّ الطاعة". فسألتُه: "لو كان أول أمرٍ صادرٍ لك هو أن تَقتل المحامي والقاضي وهيئة المَحكمة التي أمامك ماذا ستفعل؟" فأجاب: "سأنفِّذ الأوامر!" فشكرتُ القاضي الذي لم يستطعْ هو وزملاؤه إخفاءَ رُعبهم مِن هذا الإصرار على القتل. بالطبع خسر القضية وتم رفع الاعتقال لمدة ستة أشْهر ليتعرض للعلاج المكثف.

أتيتُ بهذه القصةِ الحقيقية حتى يفهم القارئُ الكريم أنّ الأمراضَ العقلية أمرُها غامضٌ جدًا لا علاقة لها بما يتوهَّمه "غير أهل الاختصاص" مِن رجال الدين الذين يخلطون بين الدماغ والعواطف وبين مفهوم العقل. وسنعود لهذه القصة من ناحيةٍ أخرى أثناء مناقشتنا لِما تعرضتْ له الأمّة من انفصامٍ مفتَعلٍ في الشخصية جعلها أكثرَ أمّة تعشق القتلَ وجَزَّ الرؤوس في انتظار الحور العين.

وطالما تعرضتُ لظاهرة التنويم المغناطيسي فمِن المفيد للقارئ بعض العلم عن هذه الظاهرة الغامضة، لكن قبل مناقشتها مِن المهم أن نتعرض للمفاهيم المغلوطة عن الأمراض العقلية وأتَّخِذ جنونَ البقر مَثلاً لذلك.

جنون البقر:

جنون البقر اسمٌ مجازيٌّ لمرضٍ يصيب الجهازَ العصبي للأبقار فيتسبب في اضطرابٍ في الحركة والتصرفات، مما يُظهر البقرةَ المصابة كأنها في حالة جنونٍ مقارنَةً ببقية القطيع. لكِن بطبيعة الحال فإن وصْفَ "الجنون" وصْفٌ غير علميٍّ؛ لأن الجنونَ يتطلب وجودَ "خاصية العقل" أولا، واضطرابُها او تعطلُها هو الجنون. ولمّا كان العقلُ هِبةً من الله للإنسان وحدَه، فإنَّ غَيْرَ الإنسان لا يصاب بالجنون. لتوضيح هذا الموضوع أضربُ مثالاً بكسْر جناح الطير. الإنسانُ يمكن أن تُكسَر رجْلُه أو يدُه لكن لا يمكن أن يُكسَر جناحُه لأنه لا أجنحة لـه. وإنْ كُنا نسمع بمفهوم مَهيض الجناح الذي يفيد الهزيمة والانكسار فما هو إلا مفهومٌ مجازيٌّ أدبيٌّ وليس علميًا.

لا بد مِن الإشارة إلى أن العقلَ لا يزول. لأن الجنونَ نفسَه يحتاج لوجود خاصية العقل لكنها تعمل بصورةٍ مغلوطةٍ. لو رجعنا لحالة (الشيزوفرينيا) أعلاه نلاحظ أن المريض كان يعيش بشخصيةٍ وهميةٍ وعلى وشك أن يقوم بمهامٍ مدمرةٍ للمجتمع، كلها تحتاج لعمل وظائفِ العقل لكن بصورةٍ مختَلةٍ ومغلوطةٍ. الجنونُ حالةُ اختلالٍ في عمل العقل وليس زواله. ولأسَهِّل فهْمَ المقارنةِ هُنا يمكننا أن نتصور خاصية "العقل" كخاصية "الحركة" في السيارة. ففي الحالة الطبيعية فإن السيارةَ تسير وفقًا للسرعة التي يتحكم فيها السائقُ بالمسار الذي يحدده هو. لو فَقَد السائق السيطرةَ عليها فإن "الحركة" و"السرعة" ربما يَخرجان عن التحكم، فتؤدي لحادث حركة قاتل. الذي يحدث هنا ليس غيابَ "الحركة" أو "السرعة" في السيارة وإنما خروجها عن المسار السليم مما يجعلها كارثة بدلاً مِن أن تكون منفعةً ونعمةً للإنسان. كذلك العقل فإنه في حالة السلامة يصنع الحضارةَ الإنسانية، وفي حالة الجنون يتسبب في كوارثَ لكن الجنون يتطلب وجودَ خاصية العقل مع اضطرابٍ في أداء وظيفتها السليمة.

مِن هنا يمكننا استيعابُ المدلولِ اللغوي للفظ "الجنون". فهو اشتقاقٌ من اللفظ " جن" الذي يعني التغطية والإخفاء. ومِن الجذر نفسه اشتقتْ لفظة "جنَّة" التي تعني بستانًا وارفَ الأشجار يُخفي ما بداخله. ومنه أيضًا

اشتُقّ لفظ "الجنين" الخَفي في رحِم الأم. وأخيرًا اشتقّ لفظ "الجان" لأنه مخلوق موجود لكنه خَفي عن العيان. إذًا فالمجنون يجب أن يكون له خاصية العقل لكنها تَخفى أو تتم تغطيتُها بداءٍ ما. وعليه فلا جنون إلا في الإنسان.

وهُنَا لا بد مِن إشارة بسيطة لحالة التخلف العقلي التي تَنتج من الطفولة وتُعرَف بـ "المنغول" لأن الطفلَ غالبًا ما يكون مصابًا ببعض التشوهات التي تَظهر في تصميم وجهه وتعابيره فتجعل ملامحَه تشابه ملامحَ المنغوليين. هذه الحالة، وإنْ كانت من ناحيةٍ طبيةٍ تدخل تحت طب الأمراض العقلية، إلا أنها لا تَنتج مِن تعطلٍ في عقلٍ عمل مسبقًا، و إنما هي نِتاج عدم تكوّن منظومةِ العقل منذ نشوء الطفل. وهؤلاء الأطفال غالبًا ما يتّصفون بالوداعة الشديدة والطيبة وحُسن الظن والنية، وتحلو معاشرتُهم لأن الواحد فيهم يظل طفلاً وديعًا مهما تَقدَّمتْ به السن. الفرْقُ بين الـ "منغول" و "المجنون" هو أن الأول لم يكن له عقلٌ مِن الأساس لذلك يظل مسالِمًا بريئًا، لكنه يحتاج لرعايةٍ كبيرةٍ تمامًا كالأطفال، أما الثاني فله عقلٌ يعمل بصورةٍ خاطئةٍ لذلك يمكن أن يكون مصدرَ كوارثَ على نفسِه ومَن حوله.

مما سَبق يمكننا أن نلاحظ أن مفهومَ العقل في الطب "بسيطٌ" جدًا و"معقّدٌ" جدًا. فهو بسيطٌ لأنه يثبت باختباراتٍ بسيطةٍ لا تحتاج لعِلم ابن تيمية ولا ذكاء اينشتاين، لكنه معقّدٌ لأنه خاصيةٌ تتداخل فيها مجموعةٌ كبيرةٌ من العوامل، وقد يفوت على عديم الخبرة أن يميز فيها بين جنونٍ خطيرٍ أو حالة نُعاسٍ تؤدي لاضطرابٍ عابرٍ في الحواس.

ولأنَّ القرآن يدعونا لنعقله، فلنأخذ الآنَ آية قرآنية نطبِّق فيها كيف يمكننا أن "نعقل" محتواها، وكيف أن العقلَ يقود للإيمان وليس الضلال، مستلهمِين بما سبق مِن معلوماتٍ طبيةٍ مُبسّطةٍ عن كيفيه عمل العقل:

{وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)} الأنعام.

نلاحظ هنا أن الآية طويلةٌ نسبيًا وتَرسم لوحةً معقّدةً للطبيعة تنتقل فيها الأحداث بسرعةٍ فائقةٍ من زمنٍ إلى زمنٍ، وتتغير فيها الأشياء مِن حالٍ إلى حالٍ. وحتى نعقلها نحتاج أن "ننتبه" لبدايتها لأنها تدور حول الماء، ونحتاج أن "نركز" معها للنهاية لأن الأحداثَ تتغير بسرعة من ماء إلى تراب غير مذكورٍ يتحول بالماء إلى طينٍ يَخرج منه النباتُ الأخضر، ثم سرعان ما يكبر النبات مع عامل "الزمن" فيتحول إلى أنواع مختلفةٍ من الأشجار ثم يثمِر الشجر، ويتنوع هذا الشجر بين نخيلٍ و أعنابٍ وزيتونٍ ورمانٍ، ثم يدعونا الله في النهاية لنُعمِل العقلَ بسؤال أنفسنا عن سر الخالق الذي نَسَّق وأبدع هذا الخلق. أيُّ خللٍ في أيٍّ مِن المكونات والمَحاور المذكورة سابقًا سيجعل القارئَ يتوه مع مفردات الآية ولا يستطيع في النهاية أن يعقل محتواها.

لاحِظْ رغم طول الآية، فقد يُسِّر القرآنُ للذّكر ولا يحتاج قارئ هذا الكتاب أن يكون مِن أهل الاختصاص في أي عِلمٍ حتى يُعمِل عقلَه في الآية. ولعل مِن المفيد أن أشيرَ هنا إلى أننا في "نظرية آذان الأنعام" قد خلُصنا إلى أن الحَبَّ المتراكب لا يَعني الذي يَرْكَب بعضُه فوق بعض وإنما لفظ "ركب" تعني خاصية التوالد. وعليه فالآية تفاجئ القارئَ أن مُنَزِّلها لم يخطئ رغم كثرة مفرداتها وتباينِها، فقد وضَع الحمضَ النووي المسئول عن توالد النبات في الحَبِّ -وليس الثمار أو الينع- فكان الحَب متراكبًا.

رغم بساطة التمييز بين "العاقل" و"غير العاقل" فيما سبق، يمكننا أن نخلُص إلى أن مفهومَ "عقل يعقل عقلاً فهو عاقل" الذي نتداوله في حياتنا اليومية مفهومٌ معقَّدٌ جدًا، وتقوم به أعضاءٌ مختلفةٌ في جسد الإنسان بين "المخ" في الدماغ و"القلب" في الصدر، وأنه في حقيقة الأمر مجموعةٌ عملياتٍ متداخلةٍ يقوم بعضها على بعض لتكون المحصلة الأخيرة هي ما نسميه إما "العقل" أو "الجنون".

لا بد هنا أن أنوِّه إلى أنه لا يوجد مصطلح "نقصان أو زيادة في العقل"، من ناحيةٍ طبيةٍ ولا قانونيةٍ ولا شرعيةٍ لسببٍ بسيطٍ وهو أنه أصلاً لا يوجد مسمًى في الوجود اسمه "العقل" حتى يزيد أو ينقص، يكبر أو يصغر. خاصية عقل الأمور خاصية فيها تداخلُ أفعالٍ كثيرةٍ، والنقصان أو الزيادة يمكن أن تتم في بعض الأدوات التي تقوم عليها إحدى عمليات العقل، وعادةً ما يستعيض الإنسانُ العاقل بأدواتٍ أخرى لتعويض النقص إنْ كان. لكن

الحُكم الطبي والشرعي والقانوني هو إمّا أن يكون الإنسانُ "عاقلاً" فهو مكلّف شرعًا وقانونًا، أو "غير عاقل" فهو يحتاج لرعايةٍ وحمايةٍ. على أن هناك عواملَ خارجية تدخل في التأثير على أداء عملية العقل يتعرض لها كل البشر. فبعضهم قد يكون ضعيفَ الذاكرة لكنه يعلم ذلك ويستعين بوسائلَ أخرى للاستذكار. وقد يكون مشغولَ البال وقليلَ الانتباه لكنه يعلم ذلك ويدبِّر أمورَه وِفقًا لقدراته لكنه في النهاية يعقل الأمور. والأعمى يستعين بغيره للرؤية، والأبكم يتخاطب بالإشارة، والأصم يستعين بحواسَ أخرى للتعويض، لكنهم جميعا في النهاية يعقِلون الفرْقَ بين الليل والنهار، والحَر والبرد، والإنسان والكلب، واليوم والغد والأمس، فيضعون الأمورَ في نِصَابها العقلاني ما دام مجموع ما يتوفر لديهم مِن عِلمٍ وتفاعلٍ مع الحياة يكفيهم لإكمال عملية عقل الأمور. "العقل" يقاس بمجموع عملٍ وتداخل المَحاور أعلاه لتمييز العاقل مِن غير العاقل. لذلك نجدُ في الشرع والقانون التمييزَ بين القتل العمْد مع سبق الإصرار، والقتل الخطأ، وكلاهما يوجِبُ الدية مع اختلاف مقدار العقوبة. لكن غير العاقل يَسقط عنه التكليف مطلقًا، وتَجب له الرعاية والعناية.

ولأسَهِّل فهْمَ هذا الموضوع أضربُ مثالاً بحالات تعطل العقل: إذا وقَعَ حادثُ حركةٍ وقفز أحدُهم مِن النافذة مِن غير تفكيرٍ ليموتَ تحت عجلات سيارة أخرى لم ينتبه لها، فهذا الشخص لم يستعمل عقله بصورةٍ سليمةٍ نتيجة الانفعال أو الخوف، لكنه يظل عاقلاً.

لا بد مِن توضيح أن العقلَ يختلف عن الذكاء: فـ "الذكاء" في اللغة يَعني "الحدّة". من ناحيةٍ علميةٍ فالذكاء لدى الإنسان يفيد المقدرةَ على استعمال كل أدوات العقل والنفس والدماغ (الحواس الخمسة: السمْع والبصر والشم والتذوق واللمس) للتعامل مع الظروف والأحداث، وفي ذلك يتفاوت الناسُ باختلاف أجناسِهم ومعتقداتهم وأعمارهم وظروف حياتهم ذكورًا كانوا أم إناثًا. "الذكاء" خاصيةٌ موجودةٌ لدى الحيوانات غير العاقلة، لكن العقل صاحب الخيال الذي يقرأ الماضي ويرسم المستقبلَ لم يَهبه اللهُ إلا للإنسان.

الكلبُ مَثلا أشدُّ حِدّةً في حاسة الشم، لذلك يمكن وصفُه بأنه ذكيٌّ في الشم، أي حادٌّ. وكذلك الصقر ذكيٌّ في النظر لكن كلاهما غير عاقلٍ. الإنسان يستعين بحدَّة أو ذكاء الكلب في شم المخدرات مهما كانت مخبأة في مكان بعيد، لكن الكلب لا يعقل موضوعَ المخدرات وضررَها ولا الحكمة مِن استخراجها.

ولعلّ وصْفَ الأديب توفيق الحكيم للخيال في كتابه "عصفور الشرق" شيءٌ من تقريب مفهوم العقل الذي اختص اللهُ به الإنسان:

(إن الفاصلَ الوحيد بين الإنسان والحيوان هو الخيال. إن اليوم الذي يستطيع فيه الحيوان أن يحيا دقيقةً واحدة خارج الواقع والمادة.. اليوم الذي يستطيع فيه الحيوان أن يحلم في غابته المقمرة بدلاً من مطاردة الفريسة، هذا اليوم يكون آخر عهده بالحيوانية، ((الحلم هو العالم العلوي الذي لا يدخله حيوان)). الخيال هو تاج السيادة والسمو الذي تميز به الإنسان..... الخيال هو ليل الحياة الجميل، هو حِصننا وملاذنا من قسوة النهار الطويل. إن عالم الواقع لا يكفي وحده لحياة البشر.. إنه أضيق مِن أن يتسع لحياة إنسانية كاملة..)

خلاصةُ القول: إن مفهومَ العقل الذي يتعامل معه الشرعُ والقانون مفهومٌ بسيطٌ جدًا ويخلُص إلى تحديد قدرة الإنسان في: التمييز بين الليل والنهار، والصيف والشتاء، والقرد من الأسد والرَّجُل من المرأة. لذلك فغير العاقل يُرفع عنه القلم لأنه لا يميز بين أخته وجارته (يختلط عليه الناس)، ولا يميز بين الخمر والشاي (لا يستطيع فهْمَ الحلال من الحرام)، ولا يميز بين الفَجْر والعِشاء (يختلط عليه الزمان)، لذلك تَسقط عنه التكاليفُ الشرعية وتَجب له الرعاية والحماية.

وهنا لا بد من مراجعةٍ سريعةٍ لمفهوم العقل في الإسلام ألخصها في نقطتين:

الأولى: هي أن الكُفّارَ لديهم قدراتٌ عقلية سليمةٌ لكنهم تجاهلوا استعمالها، وإلّا لسَقَط عنهم التكليف كما يَسقط عن النائم وعن المجنون وعن الطفل حتى يبلغ الحلم. ففي قول الله تعالى:

{أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)} البقرة.

هؤلاء اختاروا الكُفرَ بعد أن عقلوا كلامَ الله. الحال هنا حال اتّباع الهوى وليس عدم المقدرة على عقل الأمور.

وفي قوله تعالى:

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)} الحج.

هؤلاء لهم قدراتٌ عقلية سليمةٌ، وأدوات تغذيتِها بالمعلومات أيضًا سليمة لكنهم تقاعسوا عن استعمالها.

النقطة الثانية: في كل الآيات التي يدعو الله تعالى الناسَ فيها للتفكر والتدبر والفقه والتذكر ويدعو أولي الألباب وأولي النُّهَى، تلك الآيات كلها تدعو الإنسانَ لشيءٍ واحدٍ: هو إعمال العقل في فهْم القرآن والكون لتحقيق العبودية الصحيحة لله تعالى.

وطالما أن هناك متاهةً بين الطب و القرآن في تحديد مكان العقل هل هو في الدماغ الذي في الجمجمة؟ أم في القلب الذي هو في الصدر؟ كان لا بد من إفادة القارئ الكريم بمقارَنةٍ علميةٍ مبسطةٍ بين "الدماغ" و"القلب"، وعرْض آخر بحوثِ علماء المسلمين التي وقفت عليها في هذا المجال، حتى تكون لَبِنَة للأجيال القادمة التي تبحث في هذا المجال الذي أهمله رجالُ الدين والمفسرون وخلطوا فيه خلطًا كبيرًا. وحتى نفتح البابَ للتدبر في هذا الأمر - ولا أقول نقفله - نحتاج لفكرةٍ مبسطةٍ عن "المخ" وعن "القلب" ثم المقارنة بينهما.

الدمــاغ:

دَرَجْنا على إطلاق لفظ "المخ" على كل ما داخل الجمجمة نتيجة ترجمةٍ غير سليمةٍ للفظ الإنجليزي (Brain) - وللفائدة العامة أقولُ إن القرآن لم يوردْ لفظ "مخ" إطلاقًا وإنما وصَف الدماغ:

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)} الأنبياء.

الدماغ في اللغة: يَعني ما هو داخل الرأس. ويدمغه تعني يهشم رأسَه فيبلغ دماغَه. وهو تعبيرٌ ربما يوحي بأهمية المخزون في الدماغ من خواصَ يتعامل بها ومعها العقل، لكن لم تَرِد الإشارةُ للدماغ في كل القرآن إلا هُنا.

من ناحيةٍ تشريحيةٍ طبيةٍ، فكل ما هو داخل الجمجمة يتكون من الآتي- منقولاً من كتاب "العقل والقلب في الطب والقرآن والسُّنَّة" للبروفيسور عمر عبد العزيز موسى أخصائي علم وظائف الأعضاء في جامعة الرباط في الخرطوم:

(المخ: Cerebrum)، (المهاد:Thalamus) ، (الوطاء:Hypothalamus) (المخيخ:Cerebellum)، (المخ المتوسط:Mid Brain)، (النخاع المستطيل:Medulla Oblongata)، (الجسر: Pons).

وقد أتيتُ بالاسم اللاتيني لكل مكونات الدماغ أعلاه حتى يَستزيد علمًا مَن يريد، مِن الإنترنت أو من المراجعَ الطبية. ما يهمنا في هذه العجالة أن الدماغَ البشري أكثرُ أعضاء الجسد تعقيدًا وغموضًا في وظائف بلايين الخلايا التي يحتوي عليها. وقد خلُصَ بروفيسور عمر عبد العزيز في كتابه إلى أن كل مكونات الدماغ لها وظائفُ "حركية" و"كيميائية" يمكن التأكيد عليها، لكن لا توجد منطقة في الدماغ لها علاقة بصناعة أو تحليل "الأفكار" أو "الخيال" وهي المكونات الأساس للعقل. ولأسَهِّل هذه المعلومة أقول إنه بالتجربة العملية يمكن أن تضغط على مكان ما في الدماغ بدبوس أو إبرة (في الحيوانات) فتَنتج حركة في مكان ما، سواء رفْع اليد أو حركة الرِّجْل أو الأمعاء أو هكذا، أو تنتج إفرازات كيميائية من الغدد الصماء وغيرها، لكن لا توجد منطقةٌ داخل الدماغ لها علاقة بإنتاج فكرة أو فقدانها. في الأمراض التي تصيب ما بداخل الجمجمة فإن الإنسانَ يمكن أن يَفقد

وعيَه بأن يُشَلّ جسديًا عن الحركة أو التفكير أو كليهما، لكن بمجرد زوال المرض أو النزيف فإن المقدرةَ على التفكير وعقل الأمور تعود كما كانت.

وللتبسيط يمكننا أن نَصِف الدماغَ بأنه كجهاز التلفزيون الذي يَعرض ما تراه من صوتٍ وصورةٍ مهما كانت متعددة الأبعاد ومعقدة الأصوات والألوان، لكنك تعلم حقَّ العِلم وعلمَ اليقين أن التلفزيون ليس إلا صندوقًا يحتوي على مكوناتٍ تعكس ما يصل إليه من معلومات لكنها لا تُصنَع فيه.

بمعنًى آخر، فإن الدماغ هو المسئول المباشر عن حركة اليد التي تَتَصدق وتسبِّح بحمد الله، وأيضًا هو مسئول عن حركة اليد التي تَسرق والتي تَقتل النفسَ التي حرَّمَ الله. حركة اليد بكل مهاراتها الميكانيكية تحت سيطرة الدماغ، لكن "فكرة" العبادة أو "فكرة" السرقة والقتل لا علاقة لها بالدماغ، وإنما هي أوامرُ تَصله من مكانٍ آخر فيقوم بتنفيذها.

لا بد من التنويه إلى أن "الذاكرة" (الألباب في الاصطلاح القرآني) في الدماغ، لكن مكانها مبهَمٌ ولم يستطع الطب حسمَه بعدُ. فضلاً عن أن عِلمَ وظائفِ الأعضاء (الفسيولوجي) حاليًا بدأ يكتشف ما يُعرَف بالذاكرة الخلوية، وهي تعني أن كل خليةٍ في جسم الإنسان لها مخزن تخزن فيه معلومات عن تجاربها السابقة. إلا أن داءَ الخرف " الزيهايمر" الذي يبدأ أصلاً بضعف في الذاكرة، ما زال مِن ناحيةٍ طبيةٍ يعتبَر من أمراض الدماغ. أيضًا فإن داءَ الخرف يمكن أن يَحدث نتيجة نزيفٍ أو جلطاتٍ تصيب أماكنَ محددةً في الدماغ فتؤدي إلى محو الذاكرة. ورغم أن المريض في الحالتيْن يُرفع عنه القلم، لأنه يفقد المقدرةَ على عقل الأمور، إلا أن فقدانَ العقل ليس بالضرورة ناتجًا عن المرض الموجود في الدماغ، وإنما ناتجٌ عن فشل العقل الذي هو في القلب مِن الوصول إلى المخزون في المعلومات في الذاكرة.

يتصل الدماغُ في أسفله بالنخاع الشوكي الذي يمر داخل العمود الفقري، وتَخرج منه أعصابٌ جانبية عند كل فقرة تنتشر في المساحات الموازية لها من الجسم لتنقل الأحاسيسَ من وإلى الدماغ، وأيضا تنقل الوظيفة الحركية وغيرها. لكنَّ هناك اثنَي عشرَ عصبًا أساسيًا في الإنسان تنبع من الدماغ مباشرة وهي المسئولة في مجملها عن معظم الخواص التي تميز الإنسانَ في وظائفه عن بقية الحيوانات. تُسمَّى هذه الأعصاب بالأعصاب الدماغية (Cranial nerves). وأهمها هي الأعصاب التي تحمل الحواسَ الخمسة المعلومة:

حاسة السمع من العصب الثامن، البصر من العصب الثاني، الشم من العصب الأول، الذوق من العصب السابع، بينما الإحساس واللمس ينتقل عبْرَ قطاعٍ واسعٍ جدًا من النهايات العصبية التي ترسل رسائلها عبْرَ النخاع الشوكي أو الأعصاب الدماغية.

ما يهمنا هنا هو العصب السمعي والبصري، لأن فشلهما يؤدي إلى تعطيل عملية نقل المعلومات المرئية والمسموعة مِن وإلى الدماغ، وغالبا ما يصاب المريض إما بتخلفٍ عقليٍّ، إنْ كان العطل من الطفولة، أو تعطُّلٍ عقليٍّ إن تَم الداء بعد النضج. وذلك لأن "السمع" و"البصر" يمثلان الصوتَ والصورة في مثال التلفزيون، وتعطيلهما يعني فشلَ الصندوق عن أداء وظيفته مهما كان الإرسال مِن الدِّش والستلايت سليمًا وقويًا.

مِن هنا يمكن أن نجتهدَ في فهم الآية التالية ومنها ننتقل للحديث عن "القلب" و "الفؤاد":

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) } الحج.

كما أسلفتُ، فإن وظيفة الدماغ ومكوناته ليست فكرية تحليلية، وإنما حركية حسية أو تخزينيةٌ. حينما ترى العينُ الكعبة البيت الحرام، فإن عينَ المؤمن تدمع بينما عين الكافر تضحك من منظر المتعلقين بأستار الكعبة يطلبون من صندوقٍ أسودَ أن يحقق لهم أمانيَّهم. ما تراه العين هنا وهناك واحد، لكن ما يعقله هذا الشخص يختلف عما لا يعقله ذاك. إذن ما تَصِفه هذه الآيةُ ليس العمى بالمفهوم الطبي وإنما العمى الفكري، أي فهْم مدلول ما تراه العين. والعكس يمكن أن نمثل له بعينٍ تُسَر بمنظرٍ خليعٍ وأخرى تَستحي منه. المنظر واحد لكن "الفكرة" المرتبطة بما

تراه العين تختلف من شخص إلى آخر وفقًا لمعاييرَ ليست في العين وليست في الدماغ، وإنما في القلب بنص القرآن .

القلب:

في السنواتِ الأخيرة حينما شكلت ثورةُ التكنولوجيا وسائلَ الاتصال ونشْر العِلم تحديًا لـ "رجال الدين" الإسلامي في تبريرهم للحديث موضوع الكتاب، سارَع الكثيرون منهم إلى القنوات الفضائية والإنترنت وأوجعونا بالمقالات والخُطَب عن الفرْق بين "مخ الأنثى" و "مخ الرَّجُل". وما نَسِيَه هؤلاء الذين اتخذوا القرآنَ مهجورًا، وأصبح ما يُعرَف بـ "الحديث" هو دينهم، هو أنهم لم يرجعوا للقرآن ولم يبدؤوا البحثَ حيث كانت الآيات والإشارات القرآنية لموقع العقل في القلب وليس الدماغ.

يتكون القلبُ من أربعةِ تجاويفَ أو غُرَف هي بالترتيب مِن اليمين إلى اليسار تبعًا للدورة الدموية:

الأذَيْن الأيمن وتحته البطين الأيمن.

الأذَيْن الأيسر وتحته البطين الأيسر.

وعن وصْف القلب أنقلُ مِن كتاب بروفيسور عمر عبد العزيز:

{ إن القلبَ المعروف لدى الإنسان يعمل أساسًا كمضخةٍ للدم، حيث يستقبل الدمَ الوريدي ويرسله إلى الرئتين ليؤكسج، أي يحمل الأكسجين الذي يدخل الرئتين مع عملية الشهيق، بينما يتخلص من ثاني أكسيد الكربون الذي يأتي من احتراقاتِ وتفاعلات الجسم فيخرج مع عملية الزفير}.

عملية انتقال الدم من "الأذين الأيسر" لـ "البطين الأيسر"، ثم منه إلى الرئتين عن طريق الشريان الرئوي ثم العودة إلى "الأذين الأيمن" عن طريق الوريد الرئوي ومنه إلى "البطين الأيسر" ومن ثم يضخ للجسم عن طريق شريان الأورطي، عملية معقَّدة لا نحتاج للدخول فيها إذ إنها ميكانيكا وكيمياء حيوية بحتة. ما يهُمّنا هنا هو البحث عن موضع العقل في القلب. يمضي بروفيسور عمر عبد العزيز ليصِف النظامَ العصبي للقلب:

{ وللقلب نظامٌ عصبيٌّ منفصلٌ حيث تبدأ إشاراتٌ داخل الأذين الأيمن في عقدة تسمى العقدة الجَيْبِيّة الأذينية وتقع بين مدخل الوريد الأجوف العلوي والوريد الأجوف السفلي، وتطلق خلاياها إشاراتٍ أسرعَ مِن أي عقدةٍ أو جزءٍ آخر من القلب لتنتقل عبْرَ ثلاثة طرق محددة في الأذين الأيمن للعقدة الأذينية البُطَيْنِيّة ومنها خلال طريق واحد عبْرَ حلقة ليفية لعضلات البطينين.}

هذه العقدة العصبية في أعلى الأذين الأيمن هي التي تطلق تيارًا كهربائيًا يؤدي إلى انقباض وانبساط عضلات القلب، ويَظهر سريان التيار الكهربائي في الرسم المعروف بـ "رسم القلب" (Electrocardiogram or ECG) .

ومضي بروفيسور عمر عبد العزيز في كتابه الذي كَتَبه سنة 2009 يصف أنه في عمليات نقل القلب فإن قلبَ المريض لا يُزال كله، وإنما يُتْرَك الجزءُ الخلفي من الأذينين بما فيه جدار الأذين الأيمن ومعه العقدة العصبية المسئولة عن توزيع الكهرباء في القلب. بينما يُنْقَل القلب السليم من المتوفَّى ويتم خياطته على تلك الأجزاء المتبقية من قلب المريض. وكان بروفيسور عُمر يَظن أن "العقل" مرتبطٌ بهذه الحزمة العصبية في الأذين الأيسر.

في سنة 2011 ذهب بنفسه إلى ماليزيا بعد إقناع القائمين على أحد المراكز الطبية المتقدمة هناك بإجراء أول تجربةٍ من نوعها في تاريخ العالم للبحث عن مكان العقل.

فكانت الخلاصة أن عرّضَ بروفيسور عمر عبد العزيز نفسَه لعملية بنجٍ تامٍّ لعددٍ من الساعات بعد أن تم حقْنُه بمادةٍ مشعّةٍ تلتقطها الخلايا في حالة النشاط. والجهاز يستعمل عادة للكشف عن مناشط محددةٍ في المخ وليس

القلب، لكن في هذه الحالة الاستثنائية فقد كانت التجربة للبحث عن نشاطٍ غامضٍ في القلب وما حوله. وكانت النتيجة أن كل قلبه ظل في حالة نشاط حين اليقظة والنوم، لكن هناك منطقة في أعلى الأذين الأيمن اختفي منها الإشعاعُ فورَ النوم دليلاً على تعطُّل نشاطها، رغم أن القلبَ يعمل كقلب أي نائم، وعاد النشاط إليها فورَ استيقاظه.

ورغم أنها تجربةٌ وحيدةٌ ولا يمكن اتخاذها حقيقة علمية، إلا أنها أولُ سابقةٍ مِن نوعها تُسلِّط الضوءَ على وجود مكانٍ ما في القلب يتعطل مع النوم. والمعروف شرعًا أن النائم يُرفع عنه القلم ويَسقط عنه التكليف مما يفيد أن عملية العقل لا تعمل أثناء النوم.

هذه التجربة التي يمكن متابعتها عمليًّا في موقعي على اليوتيوب في اللقاء التلفزيوني الذي أجرته قناة الشروق السودانية مع بروفيسور عمر عبد العزيز (ابحثْ في جوجل عن Dr Imad Hassan ثم انظرْ الفيديوهات) تجعل السؤالَ عن مكان العقل أكثرَ إلحاحًا من ناحيةٍ دينيةٍ وطبيةٍ. من ناحيةٍ دينيةٍ، لأن إثبات أن العقل في القلب سيكون ثورةً عالميةً فكريةً إذ إن القرآن لم يربطِ العقلَ إلا بالقلب، بينما كل العالم يظنه في الدماغ إلى اليوم. أما من ناحيةٍ طبيةٍ، فإن تحديد موضع الداء يمكن أن يُسهِّل كثيرًا في علاج الأمراض العقلية المستعصية والتي غالبًا ما تعالج فقط بالمسكنات نتيجة غموض الأعراض وعدم المقدرة على الوصول إلى مصدرها.

فإنْ كان الأذين الأيمن هو المكان الذي يرجَّح أن عملية العقل تتم فيه، وإنْ كان الأذين الأيمن يحتوي على العقدة العصبية التي تولد كهرباء القلب، فما هي العلاقة بين هذه الكهرباء والعقل؟ الإجابة عن هذا السؤال ستكون ثورةً علميةً جديدةً في ظاهرةٍ قديمةٍ جدًا ولم يتم الاعتراف بها كظاهرةٍ علميةٍ إلا في بداية هذا القرن وهي ظاهرة التنويم المغناطيسي.

التنويم المغناطيسي:

التنويم المغناطيسي ظاهرةٌ قديمةٌ جدًا عُرفت منذ ما قبل التاريخ الفرعوني، لكن تم الاعتراف بها كعِلم يُدَرَّس كالعلوم الأكاديمية فقط في بداية هذا القرن. وشاء الله أنْ كنتُ في أول دفعة نالتْ درجة الدبلوم فيه مِن "كلية لندن للعلاج المغناطيسي" في الكلية الإمبراطورية في لندن سنة 2003. والدبلوم لم يكن إلا دراسة أكاديمية لكل ما يُعرَف عن الظاهرة والتفسيرات التي قدمت لها عبْرَ العصور والتطبيقات العملية لها. لكن القدرة على ممارسة الظاهرة ليست أمرًا يمكن أن يدرسه الطالب أو يتعلمه بالممارسة، وإنما هي موهبة يَهَبَها الله بعضَ الناس. ولله الحمد والمنة فقد كنتُ أمارس التنويمَ المغناطيسي منذ طفولتي رغم أني لم أكن أفهم ما أفعل، ولم أربطْ بينه وبينه التنويم إلا بعد دخولي كلية الطب في جامعة الخرطوم سنة 1981 حيث بدأتُ ممارستَه بصورةٍ أكثرَ عمقًا وهدفًا، وكان أن توجت هذه الهبة بالدبلوم ولكنه لم يزد كثيرًا لخبرتي فيه.

عبْرَ العصور وجدت 18 تعريفًا أو تفسيرًا لِما يُسمَّى بالتنويم المغناطيسي، لكن غالبية الذين مارسوا هذه الظاهرةَ لا يقتنعون بأيٍ مِن هذه التفسيرات اليوم. وقد سعيتُ لتقديم التفسير رقم 19 للنادي الأوربي لأخصائيي التنويم المغناطيسي، لكن الطريق كان مسدودًا لأن دليلي عليه من القرآن ولم يكن مِن الممكن إثباتُه عمليًا ومعمليًّا.

التنويم المغناطيسي هو ظاهرةٌ يَفقِد فيها الإنسانُ العاقل كلَّ وعيه أو جزءًا منه، ويصبح تحت سيطرة عقلٍ خارجيٍّ يتحكم في خياراته وتصرفاته. ويتراوح عمقُ السيطرة من تأثيرٍ غير محسوسٍ على المزاج والذوق والتفكير كما يمارَس في الدعايات التجارية أو الإعلام السياسي والفني وغيره مِن وسائل التسويق، إلى الفقدان التام للعقل والذهابِ في شِبه نومٍ عميقٍ يمكن للضحية فيه أن يفعل كل ما يستحيل فِعلُه وهو مستيقظ. فضلاً عن كون التنويم المغناطيسي في درجاتٍ أعمقَ يمكن أن يؤدي إلى تعطيل القلب والدماغ وموت الإنسان.

ويُستَغَل التنويم المغناطيسي في علاج بعض العِلّات النفسية التي غالبًا ما يتم فيها إما الإيحاء بالنفور عن سلوك معين كالتدخين أو بعض أنواع القلق والخوف، وإما في مسح ذكرياتٍ أليمةٍ من الذاكرة، كما يمكن أن يُستَغل في الإجرام بكل أنواعه، كما يُستَغل بصورةٍ واسعةٍ جدًا في الإعلام والدعايات التجارية. والاسم المقابل له في الإنجليزية هو (Hypnosis).

قُلنا إن الأُذَيْن الأيمن يحتوي على عقدةٍ من الأعصاب تنتج شحناتٍ كهربيةً تنتشر في عضلات القلب فتؤدي لحالة الانقباض والانبساط المستمرة والتي يستشعرها الإنسان فيما يُعرَف بنبضات القلب. مِن تلك الحزمة تنتشر في كل عضلات القلب نهايةٌ عصبيةٌ كثيفةٌ يمكن تسميتُها بـ "الجهاز العصبي القلبي" إذ إنها منظومةٌ عصبيةٌ مختصةٌ فقط بوظائف القلب.

هذا الجهازُ العصبي القلبي بدأ يشغل بالَ العلماء إذ إنه يقوم بوظائفَ غامضةٍ أكبر من عملية إنتاج التيار الكهربائي الذي يقوم بعملية الانقباض والانبساط التي يتعرض لها القلب لأداء وظيفته المعلومة من استقبال وضخ الدم. والمعلومُ في الفيزياء أن أي تيارٍ كهربائيٍّ يتكون حوله مجالٌ مغناطيسيٌّ. وكهرباءُ القلبِ ليست استثناءً في ذلك. هنا أُضيفُ أن العضويْن الوحيدين في جسم الإنسان اللذيْن ينتجان كهرباءَ هُما القلب الذي في الصدر والدماغ الذي داخل الرأس. لذلك فالطب يَعرف "رسم القلب" و "رسم المخ"، ولكن لا يوجد رسم كهربائي للكليتين أو الكبد مثلاً.

فإذا افترضنا أن القلبَ ينتج مجالاً مغناطيسيًا ينتشر حول الإنسان إلى أعلى وأسفل، فإن تداخلاً بين المجال المغناطيسي "القلبي" و"الدماغي" لا بد أن يحدث ولا بد أن يطغى أحدُهما على الآخر.

في عالم اليوم، فإنَّ التحكمَ في معظم الآلات أصبح عن طريق الذبذبات الكهرومغناطيسية أو ما يُعرَف بـ "الريموت كنترول" أو جهاز التحكم البعيد. هذا التحكم البعيد هو الذي يتحكم في الطائرات مِن غير طيار، ويطلق منها الصواريخ التي تصيب أهدافًا محددة، كما يتحكم في التلفزيون والستلايت ومكبِّرات الصوت وأجهزة التصوير وحتى مكيفات الهواء ومفاتيح السيارات أصبحت لاسلكية أو هوائية، وكلها تعمل بإرسال ذبذبات كهرومغناطيسية تتحكم في الجهاز المَعني وتأمره كيف يعمل.

فهل يكمُن "العقل" في "القلب" ويرسل رسائل كهرومغناطيسية للدماغ ليخضعه بكل خواصه لسلطان العقل؟ فيأمر اليدَ أن تبطش أو تسبِّح بحمد الله، تسرق أو تتصدق، وهي لا تملك حرية القبول أو الرفض وإنما تخضع لهذه البرمجة الربانية التي تنبع حرية الاختيار والقرار فيها من القلب وليس مِن داخل الدماغ؟

وحتى يَسهل التصور: تخيَّلْ أن فأرةَ الكمبيوتر هي "العقل" حُر الإرادة والاختيار والتصرف، بينما الكمبيوتر هو "الدماغ" الذي يحتوي على الذاكرة ومراكز الحركة والإحساس وغيرها. الفأرةُ هي التي تحدد أيَّ ملف يفتح، أو أي وظيفةٍ يقوم بها الكمبيوتر من غيرها، فالكمبيوتر ليس إلا مخزنًا ميتًا لمعلومات مهما كانت مهمة وخطيرة فهي ميتة، ولا يمكن الوصول إليها والاستفادة منها إلا بأمرٍ من الفأرة. وفي أجهزة اليوم فإن الفأرةَ تعمل لاسلكيًا أي هوائيًا، بمعنى أنها غيرُ موصلة بالكمبيوتر بسلك، وإنما تتواصل معه بذبذبات كهرومغناطيسية. وعليه فكون الكمبيوتر يرفع صوتَ الآذان أو يتواصل مع الإنترنت ويتصفح مواقعَ إباحية، كلها لا إرادية فيه وإنما هو خاضع لاختيار "العقل" الحُر الذي في الفأرة.

لنفترضْ أن أحدَهم استطاع أن يفصل الفأرةَ من جهازك ويوصل الجهاز بفأرة أخرى هوائية يتحكم فيها من بعيد. في هذه الحالة فإنك تفقد المقدرةَ في التحكم بجهازك بينما يخضع الجهاز لسلطان وإرادة الفأرة المعتدية أو المغتصبة في هذه الحالة. ما يحدث في ظاهرة التنويم المغناطيسي هو شيءٌ من هذا القبيل، حيث يُقْحِم الذي يقوم بالتنويم طاقاتٍ مغناطيسية نابعة من قلبه هو في دماغ الضحية، فيتحكم بها في حركة الدماغ وفتح أسراره، فيصبح الضحية يتصرف وفقًا لإرادة عقلٍ خارجيٍّ تواصَلَ معه مغناطيسيًا في ظروفٍ محددةٍ لا يجيدها إلا مَن وهبَهم الله هذه الموهبة الغامضة فيسَخِّرونها للخير أو الشر. هذه الفكرة كنتُ بصدد تقديمها للنادي الأوروبي لأخصائيي التنويم المغناطيسي باسم " نظرية البُعد التاسع عشر" كتفسيرٍ جديدٍ لظاهرة التنويم المغناطيسي، لكن لأن الدليل ليس إلا تأويلاً القرآن ما كان يمكن أن تُقَدَّم كورقة علمية. فضلا عن كونها تحتاج لتجاربَ عمليةٍ يتم فيها قياسُ للمتغيرات في المجال المغناطيسي حول النائم والمنوِّم، ورسمٍ مستمرٍ للقلب والدماغ أثناء عملية التنويم والاستيقاظ. وهذه المتطلبات لإثبات نظريتي لا أملك لها لا الإمكانيات التقنية ولا الحماية القانونية لِما فيها من مخاطر.

وقد ناقشتُ دكتور شهاب عثمان خوجلي أستاذ عِلم وظائف الأعضاء في كلية الطب البشري في جامعة دندي باسكوتلاند، وهو مختص في وظائفِ القلب، حول أسرار الجهاز العصبي القلبي مراتٍ عديدة. وقد اتفقَ معي على أن أسرارَها غامضة، وقال لي مراتٍ عديدة إنه لو كان يدرس الطب في بلدٍ مسلمٍ كان سيكون استدلاله من القرآن مساويًا لاستدلاله المَعملي في تدريسه لخصائص الجهاز العصبي القلبي وما حوله من كهرومغناطيس، لكن لم يتوفرْ بعدُ الدليلُ العلمي الكافي الذي يقدمه على أنه يحمل سر العقل.

أختِمُ هُنا بأن ظاهرةَ التنويم المغناطيسي ليست بالضرورة عملية نومٍ كما نفهم النوم، وإنما هي ظاهرة سيطرةٍ على العقول، وإنها يمكن أن تشمل الملايين من البشر في لحظة واحدة، حيث يتم توجيهُ تفكيرِ ومشاعر الناس حبًا أو كراهية لشخص أو فكْر ما بوسائلَ بسيطةٍ لكنهم في عمىً تامٍ عنها فيصبحون كالقطيع يَخضع لراعيه.

اتساع أدوات العقل باتساع الكون:

قُلنا إن عملية العقل تتكون من تداخل مجموعة من الأفعال وليس فعلاً واحدًا. فـ "التدبر" و"التفكر" و "التقليب" و "التذكر" و"الاسترجاع" و"الفِقه" وغيرها من الاصطلاحات القرآنية كلها من الأفعال التي في مجموعها تجعل العقلَ يخلص بفكرةٍ محددةٍ أو نتيجةٍ يطمئن إليها أو يؤمن بها. أيضًا فإن هذه الأفعالَ يتم تفعيلُها وتغذيتها بالمعلومات عن طريق أدواتٍ بيولوجيةٍ هي "السمْع" و"البَصر" و"الشَّم" و"الذوق" و "الإحساس". مثلاً: حينما يتذوق الطفلُ مِلحًا لأول مرة سيتقزز منه، لكن الطعم يلتصق بالذاكرة ثم يَعرف من أهله أن هذا مِلح فيخزِّن هذا الطعم مع هذا اللون والشكل من المادة في الذاكرة تحت اسم الملح. هنا يتحول الطعم إلى "فكرة". فإذا طُلِب منه في المستقبل أن يشتري مِلحًا من البقال، فإن العقل يبدأ بالرجوع "للفكرة" ومن ثم يسترجع تجربتَه مع الملح من الذاكرة فيذهب ويشتري المادة نفسها التي تم تخزينُها أولَ مرةٍ تحت اسم ملح في ذاكرته.

ظروفُ وبيئات الناس تختلف، لذلك فالمخزون في ذاكرة أي إنسان يختلف عن الآخر. هناك ثقافة مشتركة في كل مجتمع، وهناك ثقافة عامة مشترَكة في كل المجتمع الإنساني في كل فترة زمنية محددة. وعليه فإن مقدرة الناس على عقل أشياءَ مختلفةٍ أمرٌ طبيعي لا علاقة له بزيادة أو نقصان عقلِ أحدِهم عن الآخرين، وإنما الفارق هنا في المخزون من معلومات سابقة متاحة للعقل ليتذكرها ويتدبر فيها. ولعل أبسطَ مثال لذلك هو اختلاف لغات الناس وهو آيةٌ مِن آيات الله، إذ إن خاصية العقل لا لون لها ولا طعم ولا رائحة ولا لغة، تماما كشاشة التلفاز التي تَعرض ما يصلها من إرسال لكنها لا تتدخل في نوعيته. فالصيني يفهم اللغة الصينية بالفِطرة، والهولندي يتحدث الهولندية بسهولةٍ تمامًا كما تفهم أنت بالعربية ما أكتبُ الآن. الفرْق هنا ليس في حجم أو قدرات العقل، وإنما في طبيعة الذاكرة والتجارب التي خُزِّنتْ فيها. وكلما اتسعت تجارب الإنسان اتسع الحجم المتاح له ليعقل قدْرًا أكبر من الأحداث أو الأحاديث. فالذي يتحدث أربعَ لغاتٍ سيعقل الحديثَ مع أربعة أجناس من البشر، لكن هذا لا يعني أن عقله أكبرُ مِن غيره. والعكس صحيح لمن لم يتعلم إلا لغةً واحدة.

وحتى أسهِّل فهْمَ ما أرمي إليه دعوني أضرب مثالاً بالمتاح ماديًا للعقل التعامل معه. مَن يَسكن قريةً صغيرة لن يخزِّن في ذاكرته إلا شوارعَها وأزقَّتَها البسيطة، مقارنةً مع سائق تاكسي يعمل في مدينة كبيرة ويحفظ كل شوارعها. الفرْقُ هُنا ليس في مستوى الذكاء وليس في حجم العقل، وإنما في المتاح من معلومات خُزِّنتْ في الذاكرة من تجاربَ سابقة

لو سار الإنسان في زقاق ضيق فإن بصَره لن يرى إلا الحيطانَ والمباني المحيطة بها إلى نهاية الشارع أمامَه. لكن لو صعد إلى سطح عمارة عالية فإن المنظرَ المتاح له ليراه سيكون أوسعَ وأشملَ باتساع دائرة الأفق التي يتاح له النظرُ فيها. وحينما يركب طائرةَ فإن الأفقَ يتسع اتساعًا كبيرًا لدرجةٍ تمكّنه مِن أن يرى عددًا من المُدن بنظرة واحدة. ولقد رأيتُ ما بين الإسكندرية والقاهرة بنظرة واحدة من نافذة الطائرة، وما بين مراكشَ والدار البيضاء والرباط مِن فوق مدينة طنجة. ما حدث هنا هو اتساع الأفق المتاح للعين النظر فيه. هذا الاتساع الكوني يوسِّع المتاحَ للعقل التدبر فيه. هنا لا نقول إن العقل قد زاد أو نقص، وإنما الذي يزيد وينقص هو المساحة المتاح للعقل العمل فيها.

وعليه؛ فإن مقدرةَ أي مسلِم غيرِ متعلم - من ناحية أكاديمية- اليوم، على تدبر القرآن واستنباط أسراره وأحكامه الشرعية، تفوق قدراتِ سلفِ الأمَّة في خير القرون مجتمعين. وهذا لأن كل الناس حينها كانت تظن الشمسَ عبارة عن فانوس في حجم البطيخة إذا سقط في بيت الجيران لن يضرنا، لكن هذه الفكرة الساذجة لا يمكن أن تخطر على بال أي إنسان سليم العقل يتفرج على التلفاز اليوم، إذ إنها أصبحت من الثقافة العامة المشترَكة بين كل الناس. وعليه فإن ما يمكن أن يعقله العاميّ اليوم في أيّة آية ورد فيها لفظ "الشمس" أو "القمر" اليوم لا شك هو أوسع وأشمل وأقرب للتأويل السليم للآية مما كان متاحًا لكل الأئمة في القرن الرابع الهجري أن يخطر على بالهم. الاختلافُ هُنا ليس اختلافَ عقيدةٍ أو درجة إيمان، وإنما هو فقط اختلافٌ في اتساع السقف المعرفي والأفق العلمي الذي يمكن للعقل أن يسترجع منه المعلوماتِ قبل أن يعقلها.

وأعطي مثالاً أخيرًا للتبسيط أكثر: تخيَّلْ العقلَ كعدسة كاميرا. إذا ألصقتَها على الحائط فلن تلتقط إلا حلقةً مستديرة بحجم العدسة. لكن إذا صعدتَ بها أعلى عمارة فإنك يمكنك أن تلتقط صورةً للمدينة بأسرها. الذي زاد ونقص هنا هو الأفق المتاح أمام الكاميرا، لكن حجم العدسة ومقدرتها ظلّا ثابتيْن. بالمنطق نفسِه، فإن منظومة العقل لا تزيد ولا تنقص وإنما الذي يزيد وينقص هو الأفق العلمي والفكري المتاح للعقل العمل فيه. هذا الأفق له حجم مشترَك بين كل جيلٍ يتوقف على حجم العِلم الكوني المتاح لذلك الجيل. وفي كل جيل فإن حجم الأفق المعرفي يختلف مِن شخص إلى شخص حسْب علمهم وتجاربهم في الحياة ذُكرانًا كانوا أو إناثًا.

مِن هنا يمكننا القول إن مفهومَ زيادة ونقصان العقل لا يصدر إلا عن جاهلٍ بماهية العقل. فالناس يتفاوتون في حدّة حواسهم مِن سمْعٍ وبصَرٍ وشمٍ ولمسٍ وتذوقٍ، ويتفاوتون في مستوى علْمِهم وتجاربهم في الحياة وفي مقدرتهم على الاستذكار، لكن هذه الأشياء كلها ليست إلا الأفقَ الذي يعمل مِن خلاله العقل. وعمليةُ العقل نفسُها لا تزيد ولا تنقص وإنما توجد أو لا توجد. لذلك فالشرْع كان واضحًا في أن القلم رُفِع عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يبرأ، لكن لا يوجد إنسان بنصف عقل أو ثلاثة أرباع عقل.

وصية للأجيال القادمة:

القارئ الكريم: لا تَستبعد أبدًا أن تَسمع قريبًا جدًا أن أحد المشايخ يُطلِق فتوى مفادها "يُحَرَّم على الأنثى لفُّ أوراق العنب في عمل المَحشوّ، خشية أن تتعود على اللف والدوران في أشياءَ أخرى"، فالأمَّة اليوم في أسوأ حالاتها العقلية طوال التاريخ الإسلامي. السوءُ هنا ليس ناتجًا عن خلل في العقل، وإنما ناتجٌ عن كوننا ننظر للكون اليومَ بعدسة ضيقة جدًا هي العدسة نفسها التي كانت متاحة للسلف قبل ألف عام.

ما طرَحْناه في هذا الباب يُمَهد لفَهْمٍ ولو محدود لماهية العقل، لنثبت في نهاية الكتاب أن الحديثَ المَعني مكذوبٌ وموضوع على رسول الله. لكن طالما قد طرحنا موضوعَ "عقل يعقل عقلاً" للتدبر فإن مِن المفيد أن يقوم القارئ بالآتي:

أولاً: مستعينًا بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن يَرجع لكل الآيات التي ورَد فيها لفظ عقل ومشتقاته، ولفظ قلب، ولفظ فؤاد، وكل الألفاظ التي تفيد حركة العقل مِن تذكُّر وتفكر وتدبر وفِقه وغيرها، وأن يكوِّن رأيَه الشخصي فيها، لأن التلقينَ كان هو الداءَ الذي أوصلنا لهذه الحال، ولن يكون تلقيني في هذا الكتاب دواءً وإنما فتْح بابٍ للبحث.

ثانيًا: في هذا الباب طرَحنا نظريتيْن عمليتين تحتاجان للمزيد من البحث العلمي من أهل الاختصاص العلمي - مسلِمين وغير مسلمين- وهُما:

مكان القلب: هذه التجربة التي قدَّمَها البروفيسور عمر عبد العزيز وتحتاج للمزيد من البحوث خاصة لمن تتوفر لديهم الإمكانيات التقنية والمادية.

"نظرية البعد التاسع عشر": وهي تفسير ظاهرة التنويم المغناطيسي حسْب استنباطي لها من إشارات القرآن أن العقلَ في القلب. وخطورةُ هذه الظاهرة أننا نعيش في زمن أصبح فيه تنويم الناس مغناطيسيًا يمارَس يوميًا ويَساق الآلافُ والملايين كالنعاج إلى حتفهم في قضايا لا يفهمونها، لكنهم فقط يتَّبِعون فيها سادتَهم وكبراءَهم. وسيتضح

للقارئ خطورةُ هذه الظاهرة حينما أطرحُ ما أظن أنه أخطرُ فكرةٍ فلسفية دينية تُطرَح في الثلاثة ألف سنة الماضية على امتداد العالم في باب: "في الطريق إلى دمشق".

خلاصةُ القول في هذا الباب: يمكن تشبيه الإنسان العاقل وغير العاقل بسيارتيْن يمكنهما الانطلاق بسرعة 200 كلم في الساعة. إحداهما فيها عطل يمنعها من الحركة، والأخرى سليمة. السيارتان في حالة التوقف لا يمكن التمييز بينهما لأن العطل يَظهر فقط حين استعمال خاصية الحركة. لا بد من الانتباه إلى أن "حركة السيارة" ليست إلا وظيفة أو خاصية (Process) تَنتج من تفاعل كل مكوناتها، لكنها ليست عضوًا في السيارة. السيارة السليمة يمكنها أن تتحرك بأي سرعة كما يشاء سائقُها، إلى الحد الأقصى لسرعتها حسْب التصميم، والثانية لن تتحرك لأنها "مختلة". العقل، قياسًا على هذا المثال، ليس إلا خاصية أو وظيفة تتشابك في تحقيقها أجهزةٌ متعددة في الإنسان السليم. الإنسان المعافى عقليًا يمكنه أن يعقل إن شاء، ويمكنه أن يظل في حالة تعطل اختياري إن شاء. أما الإنسان المجنون فالأمر ليس بيده لذلك رُفِع عنه القلم. الإنسان المعافى ليس لديه حد أدنى للعقل، وإنما لديه حد أقصى لا يمكنه أن يتجاوزه بحُكم التصميم. وعليه فالسيارةُ السليمة التي يقودها سائقها بسرعةِ عشرين كيلومترًا في الساعة لا تُسمَّى ناقصة سرعة، وإنما تسير بسرعةٍ بطيئة سواء لأسباب اختيارية أو لظروف الطريق.

هذا البابُ ليس إلا مقدمة عن "مفهوم العقل" لكنه ليس مرجعًا طبيًا أو فلسفيًا؛ لأن الموضوعَ كبيرٌ جدًا وشائكٌ، وما يهمنا فيه هو الوصولُ في نهاية الكتاب لمدى مصداقية ما نُسِبَ للنبي -صلى الله عليه وسلم- من قولٍ في حق المرأة.

يلاحِظ القارئُ أنني لم أتطرقْ هنا لكيفية ظهور العقل في الإنسان. وقد ناقشْنا هذا الموضوعَ باستفاضة في كتاب (نظرية آذان الأنعام) في باب: "الحلقة المفقودة" إذ إن ظهورَ الإنسان العاقل على الأرض فجأة ظلَّ معضِلةً أمام فلسفة التطور. لكن نحتاج للعودة ولو باختصارٍ لتلك اللحظةِ الفاصلة في تاريخ البشر. ولمَّا كان هذا الكتابُ أصلاً يدرسُ أمرًا يخص المرأةَ، فقد رأيتُ أن أناقِشَ نفخَ العقل في البَشر في الباب التالي: "مَـلِـكَة الـنَـحْـل" الذي يتطرق بشيء من التفصيل لخَلق الأنثى، فنتطرق لأول مرةٍ للكيفية التي صنَع اللهُ بها موسى لنفسِه، وكيف جعلَ فؤادَ أمِّ موسى فارغًا، ولماذا جعل الله على النحل ملكةً وليس ملكًا!

الباب الثالث

مـلِكَـة النـحْل

هذا البابُ يناقِشُ الخلْقَ عمومًا مع التركيز على خلق الأنثى في البَشَر وفي الطبيعة. وقد عدلتُ عن العنوان الأول الذي كان "خلْق الأنثى" لأنه عليل مِن ناحية علمية وقرآنية. فالخلْقُ في القرآن يشمل خلْقَ "البَشر" و"الإنسان"، وكِلا اللفظين يشملان الذَّكَرَ والأنثى بطبيعة الحال. لكن لأن الجهلَ الذي ران على قلوبنا قد فَصَل بينهما نتيجة الموروثِ التوراتي الذي ندينُ به، فكان لا بد مِن تصحيح هذا الخطأ الشائع في بحثٍ مستقلٍ عن موضوع الخلْق عمومًا، مع تجنب استعمال مصطلح "خلْق الأنثى"، وفي هذا اقتضتِ الضرورةُ المقارَنة بين "الخلْق في الكتاب المقدس" و "الخلْق في القرآن".

لا بد أن ننوِّهَ إلى أن موضوعَ خلْق الإنسان في الكتاب المقدس عمومي جدًا، إذ إنه ابتدأ مباشرةً بوصف خلْق "آدمَ" الذكر ثم بعدَه خُلِقت "حواء" مِن ضلعه -كما سنرى بالتفصيل-، لكن الخلْق في القرآن يشمل ثلاثة مواضيعَ منفصلةٍ تمامًا عن بعضها. فهناك الخلْق من "النفس الواحدة" الذي يتميز به القرآن وحدَه، والذي يشمل خلْقَ كلِّ الأحياء مِن نباتٍ وحيوان بما فيه الإنسان. ثم هناك الخلْق الجسدي لـ "البَشر" أو "الإنسان" وهو ما يتشابهُ مع قصة آدمَ وحواءَ التوراتيةِ ظاهريًا. ثم هناك هِبَةُ "العقل" التي كرَّمَ اللهُ بها الإنسانَ، ومِن ثم جعله خليفة في الأرض وهي مرحلةُ تطويرٍ في الخلْق وليس بداية له. لكن لأن الموروثَ الثقافي اليهودي قد خلَطَ بين المحاور الثلاثة فإننا غالبًا ما نتجاهل تدبرَ التمييز القرآني مكتفين بالقصة التوراتية.

في هذا البحث يستحسَن أن نتطرقَ لأصل الداء أولاً، وأعني به مناقشة قصةِ الخلْق التوراتية التي تمثل ثقافتَنا العامة، ثم مقارنة ذلك بموضوع خلْق الإنسان في القرآن مِن جوانبه الثلاثة: "الجسد" و"النفس" و"العقل".

الخلْق في الكتاب المقدس:

لا بد هُنا مِن توضيح معلومةٍ قد تبدو بسيطة لأهل الاختصاص في مقارنة الأديان لكنها تغيب على العامة. وهي أن اليهودَ والنصارى يشتركون في كون الكتاب المقدس لليهود يمثل جزءًا لا يتجزأ مِن الكتاب المقدس لدى النصارى، مما يوهِمُ البعضَ أن ما تَشابه فيه النصارى مع اليهود يمثل مصدريْن: أحدهما توراة موسى والآخر إنجيل عيسى، لكنَّ الحقيقة غيرُ ذلك.

اليهودُ لديهم كتابهم المقدس المستقل بهم. وأشهرُ النسخ المعتمدة لديهم هي ما يُعرَف بـ: (TANKH THE HOLLY SCRIPTURES [JPS1985])، وهذا يمثل ما يظنون أنه توراةُ موسى مضافًا إليه زبور داوُد وكُتُب بعض النبيين قبْلَ وبعدَ داوُد. والكتابُ المقدس اليهودي يبدأ بـ "سِفر التكوين"، وهذا هو السِّفْر الذي يصِفُ قصة خلْق الكون وخلْق الحياة.

والكتابُ المقدس لدى النصارى يتكون مِن جزأيْن: الجزء الأول هو ما يسمى لديهم بـ "العهد القديم"، وهذا الاسم أطلقوه على الكتاب المقدس اليهودي أعلاه بكل حذافيره، إذ إنهم - أي النصارى- يؤمنون أن الله خاطب الناسَ بالعهد القديم وفيه الشرائع السماوية القديمة مِن توراةٍ وزبور وكُتُبِ النبيين، لكنه أرسلَ ابنَه الوحيد عيسى بنَ مريمَ-عليه السلام- بشريعة جديدة سموها "العهد الجديد"، وهذه تشمل الأناجيلَ المعتمدة مضافًا إليها بعض كُتُب القسيسين بعد المسيح وعلى رأسهم "بولس" الذي يعتبر المؤسسَ الفعلي للمسيحية الحديثة بعد العهد الروماني، كما سنرى بالتفصيل في باب "في الطريق إلى دمشق". إذن، فالكتاب المقدس المسيحي يتكون من " العهد القديم" والعهد الجديد". وعليه فإن قصة الخلق التي يؤمن بها النصارى اليومَ لم تَرِدْ لا بتفصيلٍ ولا حتى بإشارةٍ إليها في العهد الجديد، وإنما تؤخَذ بحذافيرها من "العهد القديم". خلاصةُ القولِ إن اعتقادَ النصارى في قصة الخلق بما فيها خلق آدمَ من تراب ثم خلق حواءَ من ضلعه وقصة الخطيئة الأولى لم تَردْ عندهم في العهد الجديد المنسوب للمسيح، وإنما هي مأخوذةٌ حرفيًا من سِفر التكوين في توراة موسى. وعليه فإنَّ تطابُقَ فهْم اليهودِ والنصارى لقصة الخلق لا يعني أنها وردت من مصدرين منفصلين، وإنما المصدرُ واحدٌ مشترَك بين الديانتيْن. لذلك فإنه في

مقارنة الأديان تتم المقارنة بين قصة الخلق في "سِفر التكوين" التوراتي المشترَك بين اليهود والنصارى من ناحية، وبين القرآن المستقل الذي يؤمن به المسلمون. هذا يعني أنه غير معقول مقارنة الخلق من ثلاثة وجوه: يهودي ونصراني وقرآني. لذلك فعنوان "الخلق في التوراة" يعني بطبيعة الحال: قصة الخلق لدى اليهود والنصارى معًا لأن المصدرَ واحدٌ هو "سِفر التكوين".

خلْق الأنثى في سِفر التكوين:

هذا المبحث هو سبب كل المآسي التي تعرضتْ لها الأنثى في العالَم منذ العصور الأولى لبَني إسرائيلَ من بعد موسى إلى اليوم.

وسِفر التكوين -كما هو واضح من الاسم- هو الكتاب الذي يصِفُ كل تفاصيل خلق الكون والحياة. في بدايته يصِفُ الكتابُ مراحلَ خلق الكون التي تنتهي بـ:

{وهكذا اكتملت السموات والأرض بكل ما فيها، وفي اليوم السابع أتم الله عمله الذي قام به، فاستراح فيه مِن جميع ما عمله. وبارك الله اليومَ السابع وقدَّسَه، لأنه استراح فيه من جميع أعمال الخلق} (سفر التكوين 2: 1-3).

نلاحِظ في النص أعلاه أن بصماتِ اليهودِ قد دخلت في تأويل الأصل الذي وصَفَ خلق السموات والأرض في ستة أيام، فافترضوا أن الربَّ لا بد وقد أُنهِكَ من هذا العمل لذلك خلطوا بين تحريم يوم السبت عليهم وبين الأيام الستة التي ظنوها أيامَ الأسبوع، فجعلوا السبتَ راحة للرب. وللمقارنة فإن القرآن قد نفى هذه الشبهة عِلمًا بأن الأيامَ الستة لا تعني أيامَ الأسبوع، وإنما مراحل أو أطوار الخلق المتميزة:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38)} سورة ق.

وتحت عنوان "آدم وحواء" يواصل سِفر التكوين:

{هذا وصف مبدئي للسموات والأرض يوم خلقها الربُّ الإله. ولم يكن قد نبت بعدُ في الأرض شجرٌ بري ولا عشبٌ بري. لأن الربَّ الإله لم يكن قد أرسل مطرًا على الأرض. ولم يكن هناك إنسان ليفلحها. إلا أن ضبابًا كان يتصاعد من الأرض فيسقي سطحها كله. ثم جبل الرب الإله آدم من تراب الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسًا حية. وأقام الرب الإله جنة في شرقي عدن ووضع فيها آدم الذي جبله. واستنبت الربُّ الإله من الأرض كل شجرة بهية للنظر، ولذيذة للأكل، وغرس أيضا شجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر في وسط الجنة. وكان نهر يجري في وسط الجنة، وما يلبث أن ينقسم من هناك إلى أربعة أنهُر: الأول منها يدعى فيشون، الذي يلتف حول كل الحويلة حيث يوجد الذهب. وذهبُ تلك الأرض جيد. وفيها أيضا المُقْلُ وحجر الجَزْع. والنهر الثاني يدعى جيحون الذي يحيط بجميع أرض كُوش. والنهر الثالث يدعى حِدَّاقل وهو الجاري في شرقي أشور. والنهر الرابع هو الفرات.} (سِفر التكوين: 2: 4-14).

مِن هنا جاء الخلطُ بين الوصف القرآني: "نفخ فيه مِن روحه" الذي برمج العقلَ و بين "ونفخ في أنفه نسمة حياة" التوراتي، ليصبح نفْسًا حية. وسنعيد لاحقًا بشيء مِن التفصيل النظرَ في هذه القضية التي ناقشناها سابقًا في كتاب " نظرية آذان الأنعام" للتمييز بين الفكرتين. ويمضي سِفر التكوين يصِفُ تحريمَ الشجرة على آدم "الذَّكَر" قبل خلق الأنثى:

{وأخذ الربُّ الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليفلحها ويعتني بها. وأمر الرب الإله آدم قائلاً: " كل ما تشاء من جميع أشجار الجنة، ولكن إياك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر لأنك حين تأكل منها حتما ستموت.} (سِفر التكوين 2: 15-17).

نسجّل هنا عددًا من الملاحظات:

أولاً: أن آدمَ وضِعَ في وسط جنة عدن ليفلحَها ويعتني بها. هذا الوصف ينطبق على جنة في الأرض (حديقة وارفة أو بستان)، لأن جناتِ الخلد للنعيم المقيم وليست للعمل المجهد ولا تحتاج لعناية الإنسان.

ثانيًا: أن الرب الإله قد حرَّمَ على آدمَ - الذَّكَر- قبْلَ خلق الأنثى الذي سيأتي لاحقًا، "الأكلَ" مما يسمى بـ "شجرة معرفة الخير والشر"، بينما السياق القرآني، الذي غالبًا ما يختلط مع هذه الفكرة التوراتية قد حرَّمَ عليهما معًا الاقترابَ منها وليس الأكل:

{وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19)} الأعراف.

وقلنا في نظرية " آذان الأنعام " إنه حسْبَ السياق القرآني فإن "آدمَ" المَعني لفظٌ يرمز للعنصر الملائم للتطوير والتغيير ذُكرانًا وإناثًا، لذلك جاءت صيغةُ النهي في القرآن بلفظ المُثنَّى: " وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ " ولم تشِر لآدمَ و "حواء" إذ إنه لا حواء في القرآن، وإنما لتشير لمجموعتي "الذكور" و"الإناث" في العنصر الآدمي.

ثالثًا: نلاحظ هنا أن الربَّ الإلهَ حذَّرَ آدمَ "الذَّكَر" مِن أنه سيموت فورَ الأكل من "شجرة معرفة الخير والشر"، بينما القرآن فقط وصَفَ الاقترابَ منها بأنه معصية: {فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}.

ويمضي سِفر التكوين ليصِفَ خلق الأنثى بعد أن تمت تلك التعليماتُ لآدمَ الذَّكَر وحدَه:

{ ثم قال الربُّ الإله : "ليس مستحسَنا أن يَبقى آدمُ وحيدًا. سأصنع له معينًا نظيره". وكان الربُّ الإله قد جبل من التراب كل وحوش البرية وطيور الفضاء وأحضرها إلى آدمَ ليرى بأي أسماءَ يدعوها. فصار كل اسم أطلقه آدم على كل مخلوق حيٍّ اسمًا له. وهكذا أطلق آدمُ أسماءَ على كل الطيور والحيوانات والبهائم. غير أنه لم يجِدْ لنفسه معينًا نظيره. فأوقع الربُّ الإله آدمَ في نوم عميق، ثم تناول ضلعًا من أضلاعه وســدَّ مكانَها باللحم، وعمل من هذه الضلع امرأةً أحضرها إلى آدم. فقال آدم: هذه الآن عظْم مِن عظامي ولحم من لحمي. فهي تدعى امرأة لأنها من إمرئٍ أخذت. لهذا، فإن الرجل يترك أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويصيران جسدًا واحدًا. وكان آدم وامرأته عريانيْن، ولم يعرهما الخجل.} (سِفر التكوين 2: 18-25).

نلاحظ هنا نقاطًا مهمة:

أولاً: أن خلقَ الأنثى وفقًا لتوراة اليوم، وهو المرجع المشترك لليهود والنصارى في قصة الخلق كما أسلفت، قد جعل خلقَها ناتجًا ثانويًّا تابعًا لخلق الذَّكَر، بعد أن لم يستحسِن الربُّ الإله وجودَ آدمَ وحيدًا.

ثانيًا: نلاحظ أن التوراةَ قد وصفتْ أن جميع الأحياء أيضًا قد خُلِقتْ من تراب الأرض، الشيء الذي لم يصرِّحْ به القرآن وإنما اكتفى بقوله :

{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)} الأنعام.

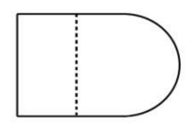
وقد ذهبنا في نظرية " آذان الأنعام" في تفسير النفس الواحدة، بأنها أول نفس حية خرجتْ منها النباتاتُ والحيوانات ومن ثم الإنسان، أي أن الجميع يرجع إلى أصلٍ واحدٍ نبت من الأرض نباتًا كما سنشير إلى ذلك لاحقًا تحت عنوان "ســر النفس".

ثالثًا: نلاحظ قصة تعليم آدمَ الأسماءَ كلها وهي التي أخَذ بها المفسرون في تفسير:

{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32)} (31-32) البقرة.

وقد قلنا في نظرية " آذان الأنعام " في تأويل هذه الآية أن لفظ "اسم" من "وسم" أو سِمة الشيء، وهذا ربما يعني أن اللهَ تعالى علَّمَ آدمَ "المجموعة" سماتِ وخواصّ الأشياء حتى يستطيع عقلُه أن يتحرك بها بين محورَي الزمان والمكان وهي خاصية العقل الإنساني التي لا تملكها الملائكة - لكن الأسماء لا علاقة لها بتسمية الدواب، حيث لم تصرح التوراةُ ولا الذين يفسرون القرآنَ بالإسرائيليات بأي لغةٍ سَمَّى آدمُ هذه المخلوقات؟

رابعًا: نلاحظ أن عملية خلق الأنثى مِن ضلع آدمَ قد وصِفتْ وصفًا تجسيديًا جراحيًا حيث أنامه الربُّ الإله نومًا عميقًا - بنج شامل- لينزع ضلعه ويكسوها باللحم فتكون أنثى. هذا الوصف انزلق الكثيرون فيه بتفسيرٍ خاطئٍ لحديث: "استوصوا بالنساء خيرًا فإن المرأةَ قد خلقت من ضلع أعوج." وقلنا إن صح هذا الحديث لفظًا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإن ضلع الشيء هو جانبه، و"المرأة" هنا ليست حواء كما يتوهم الناس، والضلع الأعوج ليس ضلع آدم. ولو صدق الحديث فإنه يعني أنه في مرحلة تميز الخلق الأول إلى "ذَكَرٍ" و"أنثى" فقد أَخَذت الأنثى الجوانبَ الرقيقة المرنة من أصل الخلق (وليس مِن ضلع آدم) كما يوضح هذا الرسمُ البياني التقريبي، (تصميم ومراجعة الدكتور "هوار بلو" مِن كردستان العراق):



خامسًا: نلاحظ أن السياقَ التوراتي - أو الوهم الإسرائيلي - قد تكرَّرَ بوصف آدمَ وامرأتِه بأنهما عاريان من الملابس. وهذا الوصف يمهد لوصف ما حدث بعد الأكل من "شجرة معرفة الخير والشر".

ويمضي سِفر التكوين (3) ليصِفَ المعصية الأولى التي أصبحتْ ركنًا أساسيًا في العقيدة المسيحية كما سنرى في باب "في الطريق إلى دمشق".

وتمضي التوراة تحت عنوان "سقوط الإنسان":

{وكانت الحيّة أمكرَ وحوش البرية التي صنعها الرب الإله، فسألت المرأة: "أحقًا أمركما الله ألا تأكلا من جميع شجر الجنة؟" فأجابت المرأة: "يمكننا أن نأكل من ثمر الجنة كلها، ما عدا ثمر الشجرة التي في وسطها، فقد قال الله: لا تأكلا منه ولا تلمساه لكي لا تموتا". فقالت الحية للمرأة: "لن تموتا، بل إن الله يعرف أنه حين تأكلان من ثمر هذه الشجر تتفتح أعينكما فتصيران مثله، قادريْن على التمييز بين الخير والشر". وعندما شاهدتِ المرأةُ أن الشجرة لذيذة للمأكل وشهية للعيون، ومثيرة للنظر قطفتْ من ثمرها وأكلت، ثم أعطت زوجها أيضا فأكَل منها، فانفتحت للحال أعينهما، وأدركا أنهما عريانان، فخاطا لأنفسهما مآزر من أوراق التين.} (سفر التكوين: 3:1-3).

حتى لا تختلط على الناس الأمور، فلفظ "حية" أغلب الظن أنه نتاج فسادِ ترجماتٍ متلاحقة مِن غير فهْم. لفظ "شيطان" في اللغة العربية يعني المتمرد الذي تصعب السيطرةُ عليه، لذلك فالله تعالى يصِف البَشرَ بأنهم شياطين:

{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112)} الأنعام.

ومِن استعمالات لفظ شيطان في لغة العرب وصفُ الثعبان أو الأفعى بأنه شيطان. وهذا غالبًا ناتج من سرعة حركته بصورة ملتوية يزيغ معها البصر. ويبدو لي أن لفظ "شيطان" في التوراة الأصلي كان مشتركًا بين العربية والعِبرية القديمة التي نزلت بها التوراة. لكن لسوء الفهم فقد ترجم لفظ شيطان إلى "حية" أو "أفعى" إلى اللغات اليونانية واللاتينية القديمة التي كُتِب بها الكتابُ المقدس أولاً، ثم تمت ترجمةُ الكتاب المعرَّب من تلك اللغات فعاد "الشيطان" إلينا كـ "أفعى" في بعض الترجمات أو "حيَّة" كما هو واضح في هذه القصة.

نلاحظ أن قصة إغواءِ الشيطان "الحية هنا" للبَشر في المعصية الأولى قد تميزت بالآتي:

أولاً: الشيطان استدرجَ المرأةَ وليس الرجل. مع العِلم أن التحريمَ قد تم على آدمَ الذَّكَر حسْبَ الفهمِ التوراتي زمنًا قبْل أن تُخلَق الأنثى مِن ضلعه.

ثانيًا: نلاحظ أن الشيطانَ قد وعد المرأةَ وزوجها بالخلود وكذّبَ تحذير الرب الإله لآدمَ أنه فورَ الأكل منها فإنه سوف يموت.

ثالثًا: نلاحظ أن المرأةَ أكلت وحدَها أولاً ثم أعطت زوجها فأكل مِن ثمار الشجرة المحرَّمة.

رابعًا: بعد أن أكلا منها، فـُتحتْ أعينُهما وأدركا أنهما عاريان: وهُنا تحقق وعد الشيطان أنهما لن يموتا وأن أعينَهما ستتفتح، بينما كذب الرب الإله في تحذيره لآدم أنه حتمًا سوف يموت.

وتمضي القصة :

{ثم سمع الزوجان صوتَ الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبآ مِن حضرة الرب الإله بين شجر الجنة. فنادى الربُّ الإله آدمَ: "أين أنت"؟ فأجاب: " سمعت صوتك في الجنة فاختبأتُ خشيةً منك لأني عريان". فسأله: " مَن قال لك إنك عريان؟ هل أكلتَ من ثمر الشجرة التي نهيتك عنها؟" فأجاب آدم: " إنها المرأة التي جعلتَها رفيقة لي. هي التي أطعمتني من ثمر الشجرة، فأكلتُ". فسأل الربُّ الإله المرأةَ: " ماذا فعلتِ؟" فأجابت: " أغوتني الحية فأكلتُ". فقال الرب الإله للحية:" لأنكِ فعلتِ هذا، ملعونةٌ أنتِ مِن بين جميع البهائم ومِن جميع وحوش البرية، على بطنك تَسعين، ومِن التراب تأكلين طوال حياتك، وأثير عداوة دائمة بينك وبين المرأة، وكذلك بين نسليْكما. هو يسحق رأسك وأنتِ تلدغين عقبه". (سفر التكوين 3: 8-15)

لا أحتاجُ هنا للتعليق على التصوير المجسد للرب الإله الذي إنْ دَل على شيء فإنما يدل على ضيق أفق وخيالِ مَن ألّفَ القصةَ أو حرَّفَها مِن الأصل الذي نزلت به. لكن هناك ملاحظات جدُّ مهمة في بحثنا لا بد مِن الانتباه إليها:

أولاً: نلاحظ الجبنَ الذي أصاب الزوجيْن "حواءَ" و"آدمَ" في تحمل المسؤولية. فآدمُ وجَّهَ اللومَ لزوجته، ووجَّه لومًا غير مباشر للرب الإله وكأنه يحمله المسؤولية في خلق الأنثى: "إنها المرأة التي جعلتَها رفيقة لي". أما الأنثى فقد ألقتِ اللومَ على الحية.

على النقيض من ذلك لا نجد صورةً تجسيدية لمعرفة الله تعالى أنهما ارتكبا المعصية في القرآن، إذ إن السياقَ القرآني مضى مباشرةً ليروي أن الله ناداهما معًا بصيغة اللوم:

{فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22)} الأعراف.

قلنا في نظرية " آذان الأنعام" إن لفظَ التثنيةِ في الآية يفيد مجموعتَي "الإناث" و"الذكور" وليس فرديْن هُما آدم وحواء.

أيضًا فإن الزوجين في القرآن اعترفا بذنوبهما مِن غير تبادل لومٍ وسألا اللهَ المغفرةَ.

ثانيًا: تعامُلُ الربِّ مع الحية يفضح ضحالة تفكير مَن توهَّمَ القصة. إذ لا نعلم كيف كانت الحية أصلاً تسعى إنْ لم تكن تسعى على بطنها مِن قبل، وماذا كانت تأكل إنْ لم تكن تأكل من نتاج الأرض؟

ثالثًا: نلاحظ أن الرب قد لعن الحية ثم جعل اللعنة والعداوة بينها وبين المرأة ليوم القيامة. لو ترجمنا هذا الخيالَ لقصة موضوعية فإن المؤلّفَ قد أسس لأمرٍ كارثيٍّ في سيكولوجية الشعوب "التنويم المغناطيسيّ". فهو أولاً قد توهم أن اللهَ في بداية الخلق قد أراد لنا النعيمَ الأبدي في جنات عدن. وهو ثانيًا أوهم الناسَ أن تلك الخطة الإلهية قد تم تغييرها بأرض الآلام والعذاب والشقاء والموت. وحتى بعد الخروج الكارثي من الجنة فهو يضع في أذهان الناس أن كل المعاصي والآثام اللاحقة في الأرض ناتجةٌ من علاقة الشيطان الأبدية بالمرأة.

هذه القصةُ هي الأساس لكل المآسي التي تتحمل وِزرَها النساءُ في كثير من الحضارات الإنسانية اللاحقة، وهي الأساس للكثير من الشطح في الفقه الإسلامي الذي عجز عن فهْم الظاهر مِن القرآن، أو لعلّ بعضَهم آثَرَ اتباعَ

الهوى فتجاهَلَ القرآن واكتفى بكلامِ وأوهام الأحبار في حق أخواتِهم وبناتهم وأمهاتهم اللائي ولدْنَهم، بل وفي حق أنفسهم؛ لأن تدميرَ المرأةِ يعني تدميرَ كل مَن ولدته ورعته امرأةٌ، وهو أشبه بإسقاط "ملكة النحل" التي بسقوطها تسقط كل المملكة.

مهما كان الدافع، فإن الفِقهَ الإسلامي قد تأثر تأثرًا كبيرا بالتراث اليهودي في الترسيخ لكراهية الأنثى والتضييق عليها في الدنيا والآخرة كما سنرى في هذا الكتاب، وإن اقتضى ذلك تمريرَ الأحاديث المكذوبة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم- لتكون مرجعًا شرعيًا لأهواء الفقهاء الذكور، وهكذا مضت القصة التوراتية تُفصِح عن حقدِ مؤلِّفِ القصة على النساء:

{ثم قال للمرأة: "<u>أكثر تكثيرًا أوجاع مخاضك فتنجبين بالآلام أولادًا، وإلى زوجك يكون اشتياقك وهو يتسلط عليك</u>". وقال لآدمَ: "لأنك أذعنتَ لقول امرأتك، وأكلتَ من الشجرة التي نهيتُك عنها، فالأرض ملعونة بسببك وبالمشقة تقتات منها طوال عمرك. شوكًا وحَسَكًا تُنبت لك، وأنت تأكل عشب الحقل. <u>بعرق جبينك تكسب عيشك حتى تعود إلى الأرض</u>، فمِن تراب أُخِذت، وإلى تراب تعود". (سِفر التكوين 3: 16-19).

نلاحظ هنا مفارقة غريبة في حُكم الرب الإله على الرجل والمرأة. بينما كان الاقترابُ مِن الشجرة قد تم تحريمُه على آدمَ زمنًا قبْل خلق الأنثى، وبينما كانت الأنثى أصلاً قد خُلقت لتكون رفيقًا لآدمَ وليس لضرورة وجودها بصورة مستقلة، وأنها قد خُلِقتْ مِن جزء صغير منه، إلا أن كل هذه التبعات لم تشفع لها. بل نلاحظ هنا أن الربَّ يصوَّر وكأنه فقد صوابه و فَجَرَ في كرهه للمرأة ولعنتِها لدرجة أنه جعل مِن المخاض الذي هو "سُنَّة اللهِ في استمرارية الحياة"، جعل منه عقابًا أبديًا لكل أنثى على ما جَنَته - زعما- المرأة الأولى والتي أصلاً لم يحرِّم الرب عليها ما فعلتْ. بينما لا يَخفى علينا أن "آدمَ" الذي كان مَن تَلقَّى أمرَ التحريمِ وحدَه زمنًا قبْل خلق الأنثى مِن ضلعه، قد عوقِبَ عقابًا لا معنى له تمامًا، كما كان عقاب الحية لا معنى له كما رأينا سابقًا. فكونُ آدمَ يكسب عيشه بعرق جبينه هذا ليس عقابًا، بل تمت مكافأته بأن شَرَعَ له الرب الإله أن يتسلط على المرأة ليوم القيامة.

{ وسَمَّى آدمُ زوجتَه "حواء" لأنها أُم كل حي. وكسا الرب الإله آدمَ وزوجته رداءيْن مِن جِلد صنعهما لهما.} (سِفر التكوين 3: 20-21).

وهكذا ظهر اسمُ "حواء" في الثقافة التوراتية لتشغل مساحة كبيرة جدًا في تفاسير القرآن أيضا رغم أنها ليست إلا شخصيةً وهمية، لم يكن لها أصلٌ من الوجود. ولتكونَ نواةً لمآسي البلايين مِن نساء العالمين ظُلمًا وتسلطًا وعدوانًا باسم مختلَفِ الأديان على امتداد التاريخ البَشري الذي تأثر بالفكر التوراتي.

{ثم قال الرب الإله: "ها الإنسان قد صار كواحد منا، يميز بين الخير والشر. وقد يمد يده ويتناول من شجرة الحياة ويأكل فيحيا إلى الأبد". فأخرجه من جنة عدن ليفلح الأرض التي أخذ مِن ترابها. وهكذا طرد الله الإنسانَ من جنة عدن، وأقام ملائكة الكروبيم وَسَيْفًا ناريًا متقلبًا شرقي الجنة لحراسة الطريق المفضية إلى شجرة الحياة".} (سِفر التكوين 3: 22-24).

وهكذا انتهت قصة خلق البشر حسْبَ التوراة لتصبح المرجعَ الوحيد لليهود والنصارى بهذا الصدد. ثم لتصبح المرجعَ الأساس الذي فسَّرَ به كل المفسرين آياتِ الخلق فطمسوا علومًا كونية عظيمة في القرآن.

(أثناء نقلي لهذه القصة من التوراة كنتُ "أدردش" على الفيس بوك مع صديقة عربية عمرها 19 عاما، طالبة جامعية على قدْر عالٍ من الذكاء وقوة الشخصية التي صنعتها الظروفُ بعد وفاة والدها الذي وَلد أي أنجب في حياته بنتيْن، عرفتُها منذ أربع سنوات وكانت تقص عليَّ كيف أن أهلَ والدِها أخذوا معظمَ التركة او الميراث وفرضوا عليهم بيعَ البيت لأخذ حصة الأسد مِن قيمته مما كاد يعرضهم للتشرد والضياع بحجة أن والدَها "ليس له ولد" يرثه، شعرتُ بمرارة حينَها وأنا أقرأ القصة مصدرَ الظلم الاجتماعي التي قام عليها الكثيرُ من الفِقه الإسلامي، وأنا أستشعِرُ معاناةَ يتيمتيْن ظنَّتَا أن مصدرَ الظلم هو الله، لأن والدَهما ليس له "ولد". فقلتُ لها حينَها إن الفِقهَ الإسلامي شرع الكثير من المظالم ونَسَبها لله، بينما مصدرُها الحقيقي هو فهْم اليهود لتوراتهم، إذ إنهم قد رسخوا لقهر وعبودية وظلم المرأة وِفق قصة الخلق التوراتية أعلاه، وإن كان اسمُ دينِنا هو "الإسلام"، فالوَلد هو كل من وُلِد، وليس له ولد في آية الكلالة {إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ

لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ} 176 النساء، تعني إن لم يكن قد وَلَدَ ذرية، لأن الأنثى تُولد كما يُولد الذَّكَر، وكلاهما ولَـدٌ في لغة القرآن، وقياسًا على ذلك فكونُ اللهِ ليس له ولد لا تعني احتمالَ أن له بنات، وعدتُها أن أوثِّق الحوارَ بيننا في الصفحة نفسها التي أكتبُها الآن (يوم 12- 10- 2013 السبت السابع من ذي الحجة، الساعة 22:23 توقيت لندن.)، وسأناقش معضلة التركة في باب "فقه الكلب".

أكتفي بهذا القدْر عن قصة الخلق في سِفر التكوين، لكن حتمًا سنعود لتبعات القصة وتأثيرها على التراث الإسلامي في الأبواب القادمة إن شاء الله.

الخلْق في القرآن:

هنا لا بد مِن تسميةِ الأشياء بأسمائها الحقيقية. فبينما سِفر التكوين، وبالتالي الاعتقاد "اليهودي والمسيحي" يَروي قصة خلق "آدم" منفصلة عن خلْق "حواء"، فإن القرآن قد تميز بوصفه لخلْق "البَشر" و"الإنسان" كعنصرٍ واحد. وما كانت الإشارةُ للذكورة والأنوثة في سياق الخلق إلا بما يقتضيه التمييز بين دور كل منهما في الحياة وليس في أصل الخلق. أمَّا "آدم" في القرآن فكان "اسمَ جنس" مشترك بين الذَّكَر والأنثى، وصَفَ اللهُ به حالَ المجموعة التي تطورت فأصبحتْ آدمًا أي ملائِمة وموافِقة للتغيير، قبل أن ينفخ فيهم مِن فضله وسعته ليبرمج العقل، وكانوا اثنيْن وثلاثين فردًا ذُكرانًا وإناثًا، كما شرحنا بالتفصيل في كتاب "آذان الأنعام" أما " حواء" فهي شخصية وهمية هلامية نَقَلها المفسرون القدامى مِن خرافات الأحبار إلى كُتُب التفسير، ثم أضافوها لتفسير كل آية ورَد فيها لفظ "آدمَ" أو لفظ "النفْس الواحدة" لدرجة جعلت المسلمين يتوهمون أن قصة الخلق في التوراة و القرآن متشابهة بينما الحقيقة غير ذلك لدرجةٍ بعيدةٍ جدًا.

أيضًا فإن القرآن تعامَلَ مع خلق "الجسد"، وهو المكوِّن الطيني في الخلق بصورة مستقلةٍ عن "النفس" مما يستدعي الفصلَ بينهما في البحث العلمي. أمَّا "العقل" فقد ورَد كقاسم مشترك بطبيعة الحال مرتبط بالنفس الحية من ناحية، ومرتبط بحواس الجسد "الدماغ" لذلك تَرِد الإشارة إليه مع كليهما.

الطين والتراب:

لنبدأ بالنظر في بعض الآيات التي تحسم دورَ "التراب" و"الطين" في خلق الإنسان، مع العِلم البديهي وبالسهل الممتنع أن "الطين" ليس إلا "ترابًا" أضيف إليه "ماء". والآيات المعنية كثيرة ننقل منها:

{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ } 7 السجدة.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ } 26 الحجر.

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ } 28 الحجر.

{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ } 71 ص.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ}

2 الأنعام.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} 12المؤمنون.

{فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ} 11 الصافات.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} 5 الحج.

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا} 11 فاطر.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ} 67غافر.

{خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} 14 الرحمن.

في كل الآيات أعلاه نلاحظ أن المقصودَ بالخلق إمَّا "الإنسان" وإمّا "البَشر" أو "الناس"، أو يأتي الوصفُ بصيغة خطاب جماعي كـ: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ..."، وكل هذه الاصطلاحات تشمل بالضرورة "الذَّكَر" و"الأنثى" كمكوِّنيْن متكاملين لا يستقيم لفظ "بَشر" أو "إنسان" أو "ناس" أن يكون مخصَّصًا للذَّكَر دون الأنثى فيهم. وحتى حينما ورَد لفظ الخلق متصلاً بالرجل، كان السياق في حوار بين رَجليْن وليس تمييزًا لخلق الرجل وحدَه مِن طين كما في قوله تعالى:

{قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً} 37 الكهف.

أيضًا لا بد من ملاحظة الفوارق بين أنواع الطين في الآيات المختلفة؛ لأن هذا التباينَ يستدعي تدبرًا علميًا يقودنا لنتيجة منطقية عن علاقة الطين بالخلق:

1- البداية كانت من طين: {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} 7 السجدة

2- {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ} 11 الصافات.

3- {مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} 28 الحجر.

4- {صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} 14 الرحمن

وقد فصَّلنا في كتاب "آذان الأنعام" في علاقة الخلق بالتراب والطين وشرحنا أنها علاقةٌ بنائية وليست نحتية. فمكونات الوحدة الحية الأولى كانت من تراب. وما زال استمرار المكونات الجسدية في كل وحدة حية سواءٌ أكانت خلية حيوانية أم نباتية تأتي من التراب سواءٌ مباشرة من الأرض كما في النباتات، أم عن طريق الغذاء الذي هو إمّا نبات أو حيوان أو كليهما في مختلف أعضاء المملكة الحيوانية بما فيهم الإنسان.

لا بد مِن استيعاب هذه الحقيقة قبل التقدم نحو تفاصيلَ أكثر دقة وتعقيدًا. القرآن لم يَصِفْ على الإطلاق أن الله خَلَق فردًا واحدًا باسمه مِن كتلة طين أو تراب، وإنما أشار في آيات عديدة للعلاقة المباشرة بين التركيب الجسدي لمكونات الأحياء وعلاقة ذلك بالتراب كمصدر أساسي في مكوناتها. بطبيعة الحال فإن العلاقة بين التراب والطين لا تَخفى على مَن يفكر في سُنَّة الله التي خَلَق عليها الكون. فالتراب - مضافا إليه الماء- يصبح طينًا بالمفهوم العام. لكن الله خصص "الطينَ اللازب" الذي يمثل أشد أنواع الطين خصوبة وهو الطين الناعم "اللزج" على ضفاف الأنهار. على أن القرآن وصف أن ذلك الطين اللازب قد تعرض إلى حرارةٍ لمدة طويلة "حمأً مسنونًا" مما جففه فأصبح كالفخار، وكل هذه الأطيان عبارة عن مراحلَ بينيةٍ أو مرحلية لأطوار البيئة التي نبتت فيها أول "نفْس حية" ومنها خرجت الحياة في الأرض.

مما سبق نلاحظ الفرْقَ الكبير بين الوصف التوراتي المغلوط لقصة خلق آدم من طين، والوصفِ القرآني المفصل لخلق البَشر والإنسان من مكونات متنوعة كلها ترجع للأصل الأرضي مِن تراب وطين لكن مع توضيح عواملَ بيئيةٍ وفيزيائية لعبت دورا في تهيئة تلك البيئة الطينية لاحتضان أول نفْسٍ حية.

ولا يَخفى على أي منصِفٍ الكمُّ الهائل من المعلومات المتباينة التي تحتويها الآيات القرآنية في بضع كلمات، مقارنة بالخيال القاصر الذي أسهَب فيه مَن كَتَب التوراةَ في عصور سحيقة ولم يأتِ بمعلومة مقنِعة للعقل. ما يهمنا في هذه المقارنة هو أنّه ليس هناك في القرآن مجالٌ لتفسير يوهِم القارئَ بتصوير "نحتي" لخلق إنسان مفرَد، سواءٌ أكان ذكَرًا أو أنثى، مِن كتلة طين في شكل تمثال كما توهَّمَ اليهودُ، واحتاج الله أن ينفخ نسمة الحياة في أنفه ليصبح نفْسًا حيةً. أيُّ تفسيرٍ يحمل تلك المعاني ليس إلا محاولةً لتحريف القرآن من الخارج بعد أن

عجزوا عن تحريف نصه وحرفه المحفوظ. وهو كذب وافتراء على الله تعالى قبل أن يكون كذبًا على رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

تطور الخلق:

بالإضافة للخلاف الجوهري بين القصة التوراتية التي توهِم القرَّاءَ أن الله خَلَق آدمَ الذَّكَر مِن تمثال من طين ونَفخ في أنفه سرَّ الحياة، ثم خلق حواءَ من ضلعه لاحقًا، عن القصة القرآنية التي تبرز مكوناتِ الطين والتراب كمكون أساسي لخلق الحياة الأولى ومكون أساسي لاستمرارية الحياة حتى اليوم، فإن القرآن قد تميز بوصف مراحلِ تطور وجود الإنسان على الأرض وصفًا علميًا دقيقًا جَهِلَه السلفُ لأنه احتاج لعِلم كوني لاستيعابه، ولا ينقص جهلهم به مِن أقدارهم عند الله شيئا، لكن لا عذرَ اليوم لمَن ينظر للكون بعدسة السلف الضيقة نفسِها ظنًا منه أن التبرك بقصور عِلمهم مِن القُربَى إلى الله.

وقد ناقشْنا في كتاب "آذان الأنعام" في باب "الحلقة المفقودة" الأطوارَ الثلاثة التي مرّ بها خلْقُ "الإنسان" مِن طور الطين البدائي إلى طور العقل الذي استحق به الاستخلاف في الأرض. وقد ورَد ذلك الوصف في بضع كلمات فقط لكنها كلماتٌ عجز المفسرون على مرّ العصور أن ينتبهوا لِما تحتويه من عِلم كوني يشرح أصلَ خلق الإنسان. هذا العِلم الذي وُضِعتْ فيه نظرياتٌ و كُتِبت فيه آلاف الكُتُب والبحوث العلمية التي ما زالت تتخبط بين الموروث التوراتي الذي يعكس قصورَ الخيال الإنساني في عصور سحيقة تم فيها تحريفُ كلامِ الله، وبين الحقائق العلمية التي تتراكم كل يوم تترى لتؤكد مصداقية القرآن الذي ما كان له أن يُفتَرى مِن دون الله. وسأعيد شرحَ هذه الآيات باختصار فقط هنا:

{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (9) وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)} السجدة.

قلنا: الآيات أعلاه تصِف ثلاثة أطوار في مراحل تطور خلق الإنسان:

الطور الأول: طور الطين:

في هذا الطور تفرض الآية رقم (7) على عقل المتدبر ثلاثة أسئلة مشروعة لكن لا تجيب عنها:

أولاً: هل كان الإنسان المَعني في بداية الخلق من طين "حيًا" أم هل كان "جمادًا"؟

ثانيًا: هل كان الإنسان في هذا الطور يتكاثر؟

ثالثًا: هل كان الإنسان المعني "ذكرا" أم "أنثى" أم هل كان "لا ذكَر ولا أنثى"؟

الإجابة عن هذه الأسئلة الكبيرة جدًا في عِلم الأنثروبولوجي وعلوم التطور أجابت عليها الآية رقم (8) ببضع كلمات معجزات، وهي تنقلنا بحرف العطف "ثـــم" الذي يفيد وقوعَ الحدث بعد فترةٍ زمنيةٍ بعيدةٍ نسبيًا إلى الطور الثاني:

الطور الثاني: طور التكاثر الجنسي:

قُلنا إن استعمالَ لفظِ "جعل" يعني أنه حصل تغييرٌ في وسيلة التكاثر. إذ إن "الجعل" يفيد تغييرًا في وظيفة موجودة ولا يعني خلقًا جديدًا. وطالما أن الله ".. جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ"، فهذا يعني أن الإنسانَ في الطور الأول كان يتناسل لكن بوسيلة أدنى من "الماء المهين" الذي يفيد التكاثرَ الجنسي. وهذا المَعنى البسيط لآيات سورة السجدة ينطبق مع الوصف نفسه في سورة "المؤمنون": {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} 12 المؤمنون. بمعنًى آخرَ: فإن الإنسان قد أتى عليه حينٌ مِن الدهر كان يتناسل من سلالة من طين، وهو تناسلٌ

لا جنسيٌّ ما زال قائمًا لليوم في المخلوقات أحادية الخلية التي تشهد على وجود هذا التناسل وتشهد على عظمة الخالق.

وعليه فقد خلُصنا إلى أنه في طور الطين الأول كان الإنسان مخلوقًا حيًّا، لأن التكاثرَ أولُ صفات الحياة، وأنه كان يتكاثر بطريقة لا جنسية تتناسب مع الطور الطيني، وهذا يعني أنه كان "أحاديَّ الجنس" لا "ذكَر" ولا "أنثى". إذ إن التكاثرَ مِن ماءٍ مهين هو الذي يدلل على وجود "الذَّكَر" و"الأنثى" كمكونين منفصلين وهذه جُعِلَت في الطور الثاني وليس الأول. وهكذا تتركنا هذه الآيات مع الحقيقة الصادمة للفكر التوراتي الموروث، لكنها حقيقةٌ علميةٌ بسيطةٌ وهي أن الإنسان كان يتناسل تناسلاً لاجنسيًّا في بداية خلقه.

وبهذا يكون القرآن قد حَسَم إحدى أكبرِ القضايا الجدلية في التراث الإنساني وهي أن (الذَّكَر والأنثى) قد خُلِقَا معًا من أصلٍ طينيٍّ واحدٍ، وأنهما تكاثرا لا جنسيًّا لفترةٍ طويلةٍ تحت مسمى "الإنسان"، قبل أن يجعل الله فيهما الإنسانَ "الذَّكَر" والإنسان "الأنثى" لينتقل الإنسان للطور الثاني كما في الآية (8) من سورة السجدة أعلاه.

إلى هنا والنص القرآني يصف خلقَ "الإنسان" الذي ينتمي بخواصه البيولوجية الحيوية إلي المملكة الحيوانية، لكن لا دليل على أنه مخلوق عاقل بعدُ.

الطور الثالث: طور العقل "الروح":

هذا الطور ترسمه الآية (9) بصورةٍ علميةٍ مدهشةٍ، لكنها غالبًا ما تَشْكُل على مَن أعمى الله بصرَه، ألا يرى في آيات الطين والتراب أعلاه، أن الله لا يتحدث عن آدمَ ولا عن ذكَرٍ أو أنثى.

فالعقل كما شرحنا في الباب الثاني "أفلا تعقلون"، ليس عضوًا ماديًّا محسوسًا في جسد الإنسان، وإنما منظومة غيبية تنسق بين الحواس في "الدماغ"، وبين خواص في القلب ما زالت تحت البحث العلمي.

في هذه الآية نلاحظ أنها ابتدأت بحرف العطف "ثـم" كسابقتيْها، مما يدلل على أنها تصِف مرحلة لاحقة وقعتْ بعد فترةٍ زمنيةٍ طويلةٍ من الطور الثاني. ونلاحظ أن الآية مهَّدتْ للحدث الكبير بعملية "تسوية"، وهذه تفيد تحسينًا في التركيب الجسدي ليلائم الحدثَ القادم. ثم وصفت الآيةُ الحدثَ مقدمة له بحرف العطف "الواو" الذي يفيد تقاربَ وقوعِ الحدثيْن. وكان الحدث هو: " النفخ فيه مِن روحه"، وليس "نفخ فيه روحه" كما نتوهم. وقلنا إن تعبير " نفخ فيه من روحه" يفيد أنه منحه أمرًا خاصًا "مِن سعته وفضله" خارجًا عن المألوف في قانون الخلق أو "سُنَّة الله".

فلفظ "الروح" أصلاً من الراحة والسعة و يعني سعة الله وفضله، وليس سر الحياة كما نتوهم. الحياة سرها في "النفس" لذلك نجد الله له "نفْس" كما أنَّ كل حي له "نفْس" لكن ليس كل حيٍّ نفخَ الله فيه مِن روحه كما سنناقش هذا لاحقًا حينما نتطرق لخلق النفس.

وتمضي الآية لتُفصِح عن هذه الهبة الربانية بحرف العطف " الفاء" الذي يفيد التتابعَ السريع لتصِف جَعْل "السمع" و"الأبصار" و"الأفئدة". وقلنا إن لفظ "جعل" هنا تفيد أن "أداةَ" السمع كانت موجودة وهي "الأُذُن" لكن خاصية "السمع" لم تكن موجودة، وأن أداةَ البصر كانت موجودة وهي "العين"، لكن خاصية الإبصار لم تكن موجودة، وأن "القلب" كان موجودًا لكنه لم يقُم بوظيفة "الأفئدة" بعدُ ، فكانت تلك النفخة الإلهية التي نُسِّقتْ بين وظائف "الدماغ" أو "الجهاز العصبي المركزي" من حواسَ ماديةٍ تشمل السمعَ والبصر، وبين "القلب" الذي أصبح "الفؤاد" لتبدأ عمليةُ عقل الأشياء التي لم تَرِد في القرآن إلا كـ "فعل مضارع"، وليس عضوًا أو خاصية منفصلة. وعليه فقد أصبح الإنسان "ذُكرانًا وإناثًا" إنسانًا عاقلاً مع تلك النفخة الإلهية! ثم تمضي الآية (10) لتتحدث عن إنكار الكافرين لمسؤولية التكليف والحساب مع الضلال والبعث بعد الموت وهي كلها مفاهيم تطلبتْ وجودَ العقل أولاً كما وصفته الآية (9).

الآياتُ أعلاه تطرقتْ للتكوين الجسدي للإنسان الحي (ذكَرًا كان أم أنثى) وتطرقت للعقل الذي استحق به الإنسانُ التكريمَ والاستخلاف. لكنها لم تشرح لنا ما هو سر الحياة وكيف أصبح الطين نفْسًا حيًّا. مِن الأخطاء الشائعة جدًا

أننا نظن أن سببَ الحياة هو "الروح"، وأنها هي التي تَخرج مِن جسد الإنسان حين الموت. وفي هذا السياق انتشرت الأساطير عن الأرواح الشريرة وغير الشريرة، وكل هذه الأخطاء ليست إلا ثقافاتٍ غربيةً قديمة انتقلت إلينا ثم أصبحت تلعب دورًا في عدم فهمنا القرآن. لذلك وجَب علينا أن نلقي ولو نظرة سريعة على سر الروح.

عالم الأمـــــر:

"عالم الأمر" هو عالم الملكوت الأعلى الذي لا يعلم سرَّه إلا "القدوس" تعالى، ويعلو درجاتٍ بعيدةً عن "عالم الخلْق". و"الروح" تنتمي إلى عالم الأمر وليس "الخلق" .

حينما نراجع كُتُبَ السلف واجتهاداتِهم، لا بد من الانتباه إلى أن معرفة تفاصيل الحياة المادية التي تبدو لنا مِن المُسلَّمات اليوم في علوم الطب البشري والبيطري وعلوم الزراعة والصيدلة، كانت شيئًا بعيدًا جدًا عن خيالهم، ناهيك عن أن يراودهم الفضولُ للبحث فيها. ففي زمنٍ كان الناس عامة يظنون أن الجنينَ مثلاً يُخلَق بعد أن يحتضِن رحمُ الأنثى كلَّ "ماءِ الرجل" لفترة محددة، فإنّ الافتراضَ أن أولئك القومَ كان لهم مقدرةٌ على التفكير في ماهية الحياة وما الذي يجعل ذاتَ الجسد حيًّا حينًا ثم يجعله ميتًا حينًا آخر، ضربٌ من المبالغة والظلم لسلف الأمة.

اليوم: نكاد نسمع يوميًا حديثًا عن جرائم التجارة بالأعضاء البشرية، مِن كُلى وكبد وقلب وغيرها، ولا يكاد إنسان يبدي استغرابًا أو دهشة عن فكرة "نقل الأعضاء البشرية"، إذ إنها أصبحت مِن المسلَّمات اليومية التي تجري في معظم مستشفيات العالم. ويكون الاستنكار عادةً لجريمة الاتِّجار فيها وليس فكرة نقل الأعضاء نفسها. لكن تخيَّلْ أن يُبعَث الإمامُ مالك أو الشافعي أو ابن حنبل ويَسمع أحدَهم يستفتيه في نقل قرنية العين أو القلب مِن ميت إلى حي! بالتأكيد لن يَمد أبو حنيفة ساقيْه في استرخاء لسذاجة السؤال وإنما سيسلم ساقيْه للريح هربًا مِن هذا المعتوه الدموي!

هناك نسبية حتمية في تطور المعرفة الإنسانية التراكمية. و"المعرفة التراكمية" أعني بها المعرفة الشائعة التي يتساوى فيها العالِمُ والجاهل، والغني والفقير، طالما أنهم يعيشون في الحقبة الزمنية نفسِها. مثلاً: اليوم لا تحتاج لأن تكون طبيبًا لتفهم ماذا يعني إزالة الزائدة الدودية أو اللوزتين. ولا تحتاج لأن تكون مهندسًا زراعيًّا لتعرف ماذا تعني " البذور المحسنة"، كما لا تحتاج لأن تكون مهندسًا لتمتلك تليفونا جوالاً، ولا تحتاج لأن تكون محاسبًا لتعرف ماذا يعني "الاقتراض مِن البنك". هذه المعرفة شائعة بين كل الناس وهي في تطور وتراكم مستمر، وهي مِلكٌ مشاع بين كل البَشر ما داموا يعقِلون ويعيشون في الحقبة الزمنية ذاتِها. ومِن أوجهِ الإعجاز في القرآن أنه محفوظ في لفظه وحرفه ولحنه، لا يزيد ولا ينقص، لكن كلمات الله نفسها توحي بمعانٍ جديدة لا تتناسب مع التطور في المعرفة التراكمية لكل جيل فحسب، ولكن غالبا ما تسبقها وتستفز العقولَ للبحث في أمرٍ جديد لم يصلوا إليه بعد. وعليه فإن الجمودَ في كُتُب التفسير ليس جريمة مَن فَسَّر القرآن سابقًا وفقَ ما وصل إليه عِلمُهم بالكون والحياة حينَها، ولكنه جريمةٌ لاحقة ارتكبها مَن أضفى قدسيةً على تفاسيرِ مَن سبقنا، فعطَّلَ العقولَ وحَكَم على القرآن أن يدخل متحفَ التراثِ الفكري كغيره مِن الكتب التي طالتها يدُ التحريف ففقدت القابلية للتطور مع تراكم المعرفة.

وحتى يتضح ما أرمي إليه بالدليل، أسوق مقارنتيْن هنا تُعينان على استيعاب المستوى الفكري والتطور العلمي للإنسانية في حقبة مِن الحِقَب الزمنية يَظن الكثير مِن الجهلاء بأن مَن عاصرها لا شك كان أكثرَ فهمًا للقرآن مِنا، وعليه فاجتهاداتهم كانت أكثرَ صوابًا من اجتهادنا في فهْم القرآن. ونحن هنا لا نظلم السلفَ في أخطائهم التي كانت مقبولة في زمانهم، لكن ترديدها الآن والإصرار على أنها مرجعٌ لتفسير القرآن ليس عيبًا كبيرًا وعارًا علينا فقط، وإنما جريمة قد تصل إلى مستوى تحريف القرآن.

ففي تفسير: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2)} في بداية سورة التكوير، أورَد ابنُ كثيرٍ الكثيرَ من الاجتهادات التي تعكس المستوى الفكري في ذلك الزمان لابن كثير نفسِه، ولِمَن نَقَل عنهم، ولِمَن كَتَب لهم أيضًا، أنقلُ حرفيًا منها:

{... فمعنى قوله تعالى (كورت) جمع بعضها إلى بعض ثم لُفَّتْ فرُمِيَ بها وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله الأودي حدثنا أبو أسامة عن مجالد

عن شيخ مِن بجيلة عن بن عباس (إذا الشمس كورت) قال يكور الله الشمسَ والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحًا دبورًا فتضرمها نارًا وكذا قال عامر الشعبي.}!

اليومَ لا يستطيع أي واعظٍ أو خطيب مهما كان جاهلاً أن يردِّد هذا القولَ في منبر عام أو خاص. هذا لأن "المعرفة التراكمية اليوم" لم تَستثنِ أحدًا مِن معرفة أن أصغرَ النجوم يساوي مئاتِ الآلاف حجم الأرض، وأن بحار الأرض مجتمعة أصغرُ مِن حجم القمر وحدَه. قد يسارع التكفيريون إلى اتهامي بالإساءة لسلف الأمة هنا بنقل هذا الرأي من أحد أشهر كُتُب التفسير التي تم تقديس ما فيها، لكن وأيّم اللهِ إننا ندافع عن سلف الأمة. فاجتهادهم ذاك يعكس المستوى المعرفي في زمانهم، وربما كان يمثل قمة الخيال العلمي والفلسفي، ولهم عليه أجر الاجتهاد، لكنْ علينا إثم عظيم أن نشير لمثل هذه الكتب ونسميها كتبَ تفسير القرآن المعتمدة.

المقارنة الثانية هي ما أورده الإمامُ محي الدين بن عربي في كتابه "عقلة المستوفز" مِن وصفِه لاحتمال وجود ديدان تعيش في السحاب ولا يمكن إلا لأصناف نادرة من الطيور الوصول إليها، وقد اقترحَ أن طائرًا ضخمًا في الهند يقال له "السمندل" ربما يكون أحد تلك الطيور!

إنْ كانت تلك هي ثقافة العلماء والفلاسفة عن الجانب المرئي من الحياة المادية في تلك الأزمنة، ولا عيب فيها ما دُمنا نعقلها في زمانها ومكانها الصحيحين، فليس مِن المنطقي أن نتوقع مِن القوم أن يميزوا بين "النفس" و"الروح" في عالم ما وراء المادة. الكارثة ليست في أنهم كانوا يظنون أن "الحصان" هو أسرع وسيلة مواصلات، لأن هذه كانت حقيقةً في زمانهم، ولكن الكارثة فينا نحن الذين نظن أن حُبَّ السلفِ وتوقيرَهم يتطلب منا تقديسَ أخطائهم النسبية في فهْم الكون والقرآن، بينما نتبادل البريدَ حول الكون في الإنترنت في جزءٍ مِن ثانية.

اليومَ الأطباءُ لا يتعاملون مع الحياة كجسد، بل لا نتعامل معها كخلايا حية، وإنما نتعامل مع المكونات الذرية للخلية الحية سواءٌ أفي تشخيص الأمراض أم في علاجها أيضًا. فالجسد الحي، نباتًا كان أم حيوانًا بما فيه الإنسان، ينتهي في تكوينه إلى ملايين الذرات التي تكوِّن العناصرَ والمُرَكَّبات الكيميائية التي تتكون منها الخلايا الحية. إذن، فالحياة في حقيقتها ما زالت تقوم على عناصر "عالم الموت" لأن الذراتِ أصلاً جماداتٌ بالمفهوم الفيزيائي، سواءٌ أكانت كالسيوم أو بوتاسيوم أو كربون وهيدروجين وأكسجين. هذه الجمادات الذرية، وفي نسق محدد، تُشكل الوعاءَ الذي يصبح حيًّا، لكنها تظل جماداتٍ لا تختلف عن نظائرها التي توجد في الطبيعة خارجَ المنظومة الحية.

واليومَ نعلم أن سر الحياة ليس في الجسد المادي وإنما في "أمـر" آخر خارجٍ عن عالم المادة. هذا العِلم ليس نتاجَ وسوسةٍ علمانية أو مؤامرة ماسونية كما يسميه بعض "رجال الدين" الذين يتقمصون دورَ الكهنة ويروجون لخرافات الأحبار ليحافظوا على جهل المسلمين، وإنما نتاج التطور العلمي الذي وصلت إليه الإنسانيةُ مجتمعةً في مسارها لتحقيق مفهوم الاستخلاف في الأرض والتحكم في كائناتها ومكوناتها. اليومَ يعلم جميع المختصين في عِلم الأحياء، وغير المختصين أيضًا، أن الإنسانَ ليس جسدًا ماديًّا فقط، لكنه "نفْسٌ حيّةٌ" في "جسدٍ" قابلٍ للحياة. لكن ما لا يعلمه الكثيرون هو أن "النفس" هي سر الحياة وليس "الروح" الوهمية.

وقد يصاب بعضهم بالرعب إنْ قلتُ إن الجسد الذي خرجت منه النفس، فصُنِّفَ ميتًا، يمكن إعادة "النفس" إليه تمامًا كما تعيد توصيلَ التيار الكهربائي بعد انقطاعه أو تعيد التواصلَ في الإنترنت. كل السر يكمن في فك "شفرة الحياة" التي تنسق بين "الجسد" و"النفس" وإعادة التوفيق بينهما. نعم: أعني أنَّ إحياء الموتى أصبح في متناول الإنسان الوصول إليه، وإن شاء الله نُساهِم لو مدَّ الله في أعمارنا في فك شفرة "الموت" و "الحياة" في القرآن. وفي حقيقة الأمر فإن العِلم قد خطى خطواتٍ بعيدةً في انتزاع الحياة من براثن الموت اليوم، لكن الناس لا يشعرون بذلك. فلا يخلو مستشفى متواضع في أي مكانٍ من العالم من أجهزة التنفس الاصطناعي، وأجهزة الاستعاضة عن القلب التي تؤخر تحريرَ شهادةِ الوفاة أسابيعَ وربما شهورًا وسنين، حيث يظل الإنسان بين الحياة والموت كل هذه المدة. ما ينقص العِلمَ المادي في هذا المجال هو أن الوجه الآخر من العُملة قد تَركه الله شفرةً في القرآن. فقد مَنح الله الإنسانَ هبة العقل بأن نفخ فيه من روحه، وقادته تلك النفخةُ الإلهية لمشارف كشف السر في إحياء الموتى، لكنه تَقدَّسَ وتعالى قد ترك الجزءَ الآخر من شفرة "الموت" و"الحياة" في القرآن، وإنها مِن "عالم الأمر"، وهذه تنتظر بحثَ الباحثين من علماء المسلمين وحدَهم الذين يتعبدون إلى الله بالشكر على نعمة الحياة

والحفاظ عليها وتطويرها، بعيدًا عن خرافات رجال الدين الذين أبدعوا في الحديث عن "عذاب القبر"، وبعيدًا أيضا عن إهدار قيمة الحياة و مجازر "داعش والغبراء".

وحتى لا يسارع البعض فيستخدم ضدنا آياتِ القرآن جهلاً ليقفل هذا الباب، أسوق مثلاً آخرَ للتطور النسبي في تأويل وتفسير القرآن. في كل كُتُب التفسير تقريبًا تجد تفسير:

{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)} سورة لقمان

"ما في الأرحام" تعني معرفة الذَّكَر مِن الأنثى. هذا التفسير كان كافيًا جدًا في زمنٍ كان الزوج ينتظر مولودَه بقلق شديد ليَخرج فيعرف هل رُزِقَ ذكَرًا أم ابتلاه الله بأنثى ثم يقرر أيتزوج على زوجته التي لا تلِد إلا إناثًا أم لا. اليومَ نعلم أن أيَّ عاملٍ في عيادة "نساء وتوليد" ربما يعلم كيف يستعمل جهازَ الكشف لمعرفة ما في الأرحام هل هو ذكَر أم أنثى. وبالطبع فإن غالبية الناس يعلمون أن تحديد الذكورة أو الأنوثة تحدده الكروموزومات التي يحملها الحيوانُ المنوي وليس بويضة الأنثى التي غالبًا ما تُلام على ولادة الإناث، كما سنرى لاحقًا.

فإنْ كان التفسير في هذه الآيات قد تغيَّرَ على استحياء رغم أن بعضهم ما زال يصر على قدسية اجتهادات المفسرين القدامى - فإن تفسيرَ الآيات التي تصف مقدرة الله على إحياء الموتى تحتمل متسعًا من التفسير، وإن إعادة الحياة لبعض الموتى ستصبح من قدرات الإنسان قريبًا ولن يتعارض ذلك مع تفاسير القرآن حين الحدث.

مِن هنا يمكننا نحن والأجيال القادمة فقط، وليس السلف، أن نستوعب الكثير من المفاهيم التي وردت في القرآن أو على لسان النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يكن بمقدور مَن سبق استيعابها فيما يخص أسرار "الموت" و"الحياة".

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يُقسِم بــ: " والذي نفس محمد بيده" وليس "الذي روح محمد بيده". لأن "النفس" هي سر الحياة وليس "الروح".

ومِن هنا أيضًا يمكننا استيعاب مدلولاتٍ أوسعَ للآيات الكثيرة التي تحدثت عن "خلق النفس الواحدة" أكثرَ مما كان متاحًا لسلف الأمة. وحتى نفصل "النفس" من "الروح" لا بد من مناقشة كلٍ على حدة.

فقد ذهب الكثيرون لقفل باب التفكير في "الروح" بناء على التأويل الخاطئ لقوله تعالى:

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً} (85) الإسراء.

في واقع الأمر فالآية تشتمل على "سؤال" منطقي وموضوعي"، وعلى "إجابة بسيطة جدًا"، بصيغة السهل الممتنع، لكن مِن بساطتها فقد ظنَّ أغلب المفسرين أن الله نَهى عن السؤال عن الروح، ومن ثمَّ أصبح "عالم الأرواح" الشريرة وغير الشريرة عالمًا مُرعِبٌ التفكير فيه، ومحرَّمٌ بنص القرآن محاولة فهمه، بناء على قول الله تعالى في إجابة صريحة بسيطة جدًا: {...قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...}. مرةً أخرى أعود فأقول إن التأثيرَ الإسرائيلي في تفسير قصة الخلق في سِفر التكوين، وكونَ الرب الإله خلق آدمَ مِن طينٍ ثم نفخ في أنفه روحَ الحياة قد لعب دورَ التنويم المغناطيسي في ترسيخ هذه الأساطير وبيوت الأشباح في عقول الناس. وحتى أسهِّل فهْمَ الآية كما أراها، أقدِّم جملةً شبيهة يمكن أن يساء فهمُها:

(يسألونك عن الدولار، قل الدولار من "العملات الصعبة" وما أوتيتم منها إلا قليلاً)

في هذه الجملة، واضحٌ أن هناك سؤالاً وهناك إجابةً شافية، لكن لو كان السائل لا يفهم ماذا تعني "العملات الصعبة" ففهم أن "موضوع الدولار صعب الفهم"، لظنّ أن الإجابة غيرُ متوفرة، وعليه يظل السؤال عن الدولار والسعي لامتلاكه أو التفوق عليه مِن المنسيات المستحيلات.

هكذا فهم السلفُ الآية، أن الروحَ مِن الأمور الخاصة بربنا وأن عِلمنا قاصرٌ عن فهمها. ثم ورثنا نحن المفهومَ الخطأ رغم أن الاكتشافاتِ العلمية بدأت تقترب من العالم الذي تدخل الروحُ في إطاره وهو "عالم الأمـــر". وقد ميز الله بين "عالم الخلق" و"عالم الأمر" ببساطة لا تحتاج لكثير ذكاء لملاحظتها في عالم اليوم، لكنها تحتاج لتحررٍ تام عن كُتُب التفسير القديمة التي أدّت دورَها في زمانها وانتهت صلاحيتُها الفكرية والعلمية. لنتدبر كيف وصف الله "عالم الخلق" و"عالم الأمـر":

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57)} الأعراف.

من آية الأعراف أعلاه نخلُص إلى أن الوجودَ يدخل ضمنَ عالميْن: "عالم الخلق" و"عـالـم الأمـر"، وكلاهما لله رَبَّ الْعَالَمِينَ: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}.

الإجابة في آية الروح تقول بكل بساطة: الروحُ مِن أمر ربي، أي من "عالم الأمر". ونلاحظ أيضًا في آيات الأعراف أعلاه أن الكونَ المادي خلق بسلطة العرش كما شرحنا في كتاب "آذان الأنعام" لكن الله استوى على العرش حتى يستقر الكون بالحق، فكان الاستواء بين عالم "الخلق" و عالم "الأمر". ونلاحظ أيضًا أن الشمسَ والقمر والنجوم، وإنْ كانت مِن "عالم الخلق"، فهي مُسَخَّرة للإنسان بـ "عالم الأمر"، وتبارَك الله رب العالمين.

فيما يخص الإنسانَ فإن خَلقَه المادي مِن عالَم الخلق وهو "جسد ميت" و"نفس حية". ويظل جسد الإنسان طوالَ حياته ميتًا ومرتبطًا ارتباطًا لا ينفك عن "منظومة الموت" في كل مكوناته التي تدخل ميتة، وإخراجاته التي تخرج ميتة. ما يجعله حيًّا هو اتصال "الجسد الميت" بـ "النفس" وهي سر الحياة وليس "الروح". وفي هذا يشترك الإنسان مع الحيوان والنبات إذ إنها جميعًا أجساد ميتة لكنها تتحرك بأنفس حية. ويؤسفني أن ألفت انتباهَ القارئ الكريم إلى حقيقة أن جسدك، كما هو جسدي الآن ميتٌ تمام الموت، ويتكون من ملايين الذرات الجمادات التي تدخل جمادًا وتخرج جمادًا. فالطعام الذي نأكله لا بد أن يكون ميتًا تمام الموت. إن كان حيوانًا ذبحناه ثم طهيناه على النار حتى تموت فيه آخر خلية. والخضار نطهوه حتى تتمزق كل خلاياه التي ربما قاومت الموتَ بعد قطعها من الشجرة الأم. والفاكهة لا تحلو إلا بعد تمام موتها وبداية تخمرها. إذن، فأجسادنا الميتة لا تتغذى إلا على ما هو ميت مثلها. ما يجعلنا نكتسب صفاتِ الحياة هو سريان "النفس الحية" في هذا الجسد الميت لكنه ما زال قابلاً على تحميل النفس الحية. فإذا خرجت النفسُ منه ظلَّ جسدي ميتًا و ظلّ جسدك ميتًا كما هو حاله الآن.

ما مَيز الإنسانَ المكلّف عن بقية الخلق هو أن الله منحه نفخة مِن "عالم الأمر"، فأصبح عاقلاً، وليس حيًّا. لأن الروحَ هي التي مِن "أمر الله"، وليس النفس. وعليه فكل الأحياء من نبات وحيوان بما فيهم الإنسان لهم نفْس حية ويشتركون في أصل الخلق من نفس حية واحدة كما شرحنا بالتفصيل في موضوع النفس الواحدة في كتاب "آذان الأنعام" لكن الإنسان وحدَه هو الذي ميزه الله على بقية الأحياء بتلك النفخة الإلهية من روحه فأصبح له نفس تربطه بعالم الأحياء وله روح تخصه وحدَه يتواصل بها مع "عالم الأمر" القدسي. فالكلاب والدواب والنبات ليس لها أرواح وإنما أنفسٌ حيةٌ فقط.

ولأن الإنسان كان مخلوقًا حيًّا تكاثر لا جنسيًّا في طورٍ، ثم تكاثر جنسيًّا في طورٍ لاحق قبل أن ينفخ الله فيه "مِن روحه" فيصبح عاقلاً وليس حيًا، فإن نصيبه من "عالم الأمر" هو "خاصية العقل" التي تمت بنفخةٍ من روح الله. ولمّا كانت "الروح" مِن أمر الله وليس "خلقه" فكان منطقيًّا أن ما سخَّرَه الله في هذا الكون بـــ "أمـــره"، يستطيع الإنسانُ كشفَ أسراره بـ "العقل" الذي هو نتج عن نفخة من "روح الله" التي هي أيضا من "عالم الأمر". فلما

سألوا الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن "الروح" كانت الإجابة مباشرة وبسيطة: "قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي"، أي إنها من "عالم الأمر" الرباني، لكن تم تفسير الإجابة خطأ وتعطلت عقولنا في هذا المجال قرونًا طويلة.

لا بد من الانتباه للبُعد الكبير بين خلْق الإنسان و"عالم الأمر": فالله نفخ فيه من روحه ولم ينفخ فيه روحه، وكان نتاج تلك النفخة "التبعيضية" هو المقدرة العقلية. ولأن العقل بعضٌ "من روحه" التي هي بعض من "عالم الأمر"، فإن مقدرتنا على اختراق ذلك العالم محدودة وليست مستحيلة، لذلك انتهت الآية نهاية منطقية تنسجم مع هذه التباعد في المفاهيم {... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً...}. إذن، الله لم يرفض الإجابة في السؤال عن الروح، وإنما شرح وأوفى. ثم إنّه لم يقفل البابَ أمام اختراق العقل لعالم الأمر، لكن عِلمنا به سيكون محدودًا بمحدودية العقل الذي ليس إلا بعضًا من روحه التي هي بعض من "عالم الأمر".

مِن هنا أقول إن جميع الأحياء لها نفسٌ حيّة، لكن ليس لها "روحًا"، ما عدا الإنسان فله "نفس حية" تجمعه مع الحيوان والنبات، لكن فيه نفخة إلهية من "روح الله"، هي مصدر العقل وهي التي تربطه بـــ: "عالم الأمر" وهو عالم النور القدسي، ومَن تعطل عقله ابتعد عن عالم الأمر القدسي و بقي في ظلام دامس.

إن شاء الله سأناقش "عالم الخلق" و"عالم الأمر" بشيء من التفصيل في كتاب قادم باسم "الكرسي والعرش"، إذ إننا نحتاج لاستيعابِ تفاصيلَ كثيرةٍ عن أداتَي حكم الوجود المادي والمحسوس وهُما "الكرسي" و"العرش"، قبل أن نكتسب خيالاً علميًا واسعًا يسمح لنا باختراق عالم ما وراء المادة وهو عالم الروح التي هي من "عالم الأمر" وليس "عالم الخلق". لكن في هذه العجالة من المفيد النظر في الآيات التي ورد فيها لفظ "الروح" في القرآن:

{فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)} مريم.

ورود الروح في خلْق عيسى عليه السلم يفيد دخول "عالم الأمر" في خلقه المتفرد.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87)} البقرة.

هنا نلاحظ وصْفَ الروح بالقدس مما يدلل على أن الروحَ أمرُها لصيقٌ بالملكوت الأعلى وليس بالكون المعلوم لدينا.

{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102)} النحل.

"روح القدس" توحي بأن عالم الروح ينبع مباشرة من القدوس حيث لا أسباب ولا مسببات كما هو الحال في عالم الخلق الذي يرتبط بمنظومة العرش الذي تحكمه قوانين الكون المادية التي نعرفها.

{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)} المجادلة.

هنا نلاحظ أن الروحَ لا يُشترَط صلتُها بالأنبياء والمرسلين وإنما بعامة البشر. وربما تكون الروح المعنية هنا مرتبطة بالنفخة التي مَنحت كل البشر المقدرة على العقل.

{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52)} الشورى.

الآية هنا تُبعّضُ الروحَ من عالم الأمر وكأن لها وظيفة محددة ألمحتْ إليها الآية. ولعلّ في هذه الآية دليلاً على أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- أصبح عالمًا بفن الكتابة فور أن أوحى الله إليه "رُوحًا من أمره"، وأن كتابة القرآن كله حرفًا ورسمًا مِن الله تعالى أوحاها للنبي، وما أُمّية النبي وأساطير كَتَبة القرآن والرسم العثماني إلا شيء آخر سنتطرق له في باب علوم القرآن إن شاء الله.

{تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)} القدر.

لاحظْ ارتباطَ لفظ "الروح" بلفظ الـ "أمــر" في الآية السابقة والتالية:

{رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15)} غافر.

ما يهمنا هنا هو أن السؤال عن "الروح" ليس منهيًا عنه، وأن الإجابة عليه قد تمت، لكن لسوء الفهم الذي توارثناه مِن سلفنا فقد تعطل البحث والتدبر فيها. والروح ليست سر الحياة وإنما هي مِن "عالم الأمر" اللصيق بالملكوت الأعلى والعالم القدسي الذي سنعلم عنه القليلَ فقط، لأن علاقتنا به تتم عن طريق "العقل" الذي هو نفحة من روح الله. ومَن عطل عقله فقد انفصل عن عالم الروح وعالم الأمر فتَدَنَّى مِن مرحلة الإنسان إلى البشرية الحيوانية فقط وأصبح كالأنعام.

وأختمُ هنا بهذه الآية التي سأناقشها في بحث آخر لكنها أيضًا تجمع بين "الروح" و"الأمر" وتأتي بالأنعام مباشرة لأن السر في "آذان الأنعام" هو الطاقة التي أنتجت هذا البحثَ من الأساس:

{أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5)} النحل.

نلاحظ أن الآياتِ ميزت ثلاثة مصنفات من الخلق: السمواتِ والأرضَ اللتيْن تشكلان الكونَ المعلوم لنا، والإنسانَ خليفة الله الذي نفخ الله فيه من روحه "من عالم الأمر" فسخَّرَ له ما في السموات والأرض بتلك النفخة، ثم يأتي بالأنعام كخلق منفصل وكأنها متميزة في خلقها عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان.

ما يهمنا في هذا البحث علاقة "النفس" بخلق "الذَّكَر" و"الأنثى"، وليس "الروح"، إذ إن بحْثَنا عن خلق الإنسان في "عالم الخلق" وليس "عالم الأمر".

ســــر النفس:

رأينا حتى الآن أن القرآنَ لا يميز بين "الذَّكَر" و"الأنثى" في الجانب المادي من الخلق " التراب والطين"، ثم رأينا أن العقلَ منظومةٌ روحية غامضةٌ وهَبَها الله للعنصر المتطور من البشر أو الإنسان مِن غير تمييز ذكورة أو أنوثة فيه. ثم رأينا أن "الروحَ" مِن "عالم الأمر" يتواصل بها الله مع مِن يشاء مِن عباده مِن غير تذكير أو تأنيث.

لكن سر الحياة كما قدمنا يكمن في "النفس" وليس "الروح" كما هو الخطأ الشائع. هنا سنبحث في سر النفس لنرى علاقتَها بالذَّكَر والأنثى في السياق القرآني.

تعريف لفظ "النفس" صعبٌ جدًا، وربما يتطلب مجهوداتٍ مِن الأجيال القادمة لكشف سرها، لكن القرآن يصفها كأنها المكوِّنُ الأساس لهوية كل الحي، وكأنها تحمل شفرةَ الحياة من ناحية، وتحمل شفرةَ الهوية الشخصية لكلِّ حيٍّ مفردٍ من ناحية أخرى. فهي التي تحيا وتموت. وهي التي تعصي وتطيع، وهي التي تبدع أو تفشل وهي التي تُبعَث بعد الموت، وهي التي تَفرح بما قدَّمتْ وتندم على فرطتْ فيه، وهي التي تَدخل الجنة أو النار، وما الجسد في هذا السياق إلا وعاءٌ ميتٌ تسكنه النفس حينًا وتغادره مع الموت.

على أن النفْسَ ارتبطت بكل حيٍّ، إنسانًا كان أو حيوانًا أو نباتًا، خالقًا أو مخلوقًا وكأنها شفرة الحياة الإلهية التي أحيا بها اللهُ الموتى ويعيدهم إلى عالم الموت بعد خروجها. وهنا لا بد من التنبيه إلى أن السياقَ القرآني يرتب الوجودَ ترتيبًا غير ما تعارفنا عليه وهو أن "عالم الموت" قد سبق " عالم الحياة" في الوجود:

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2)} الملك.

مِن الآية أعلاه ومِن نظيراتها نفهم أن الموتَ "مخلوق" مستقل عن خلق الحياة، لكنه عالم غامض لا يمكننا كشف أسراره قبل ظهور الحياة في الكون، ولا يمكننا تتبعه بعد زوال الحياة عن الجسد الحي.

ولقد تتبعتُ بإسهابٍ في كتابي باللغة الإنجليزية " لا شيء: نظرة من خلال عيون الموتى" أسرارَ عالمِ الموت بعيدًا عن الحياة بصورة لا يمكن إيجازُها هنا، لكن مِن المفيد فقط التنويه إلى أن الحياةَ لها صفات نعرفها بها. فالمخلوق الحي هو الذي يتحرك ويتكاثر ويتغذى وهكذا. أيضًا فالحياة يمكن تقييمها بدرجات متفاوتة حيث يمكن وصْفُ المريض بأنه في حالة متأخرةٍ جدًا مِن المرض لكنه حي. لكن الموت هو حالة واحدة ولا أحدَ ميتٌ ميتةً عميقةً أو ميتةً بسيطةً. الميت هو مَن غادرت النفسُ جسدَه. مَن مات اليوم ميتٌ كموت فرعون قبْلَ آلاف السنين، لا فرق بينهما إلا في تاريخ الوفاة وليس في عمق الموت أو شدته.

وعليه فسنركز هُنا على مفهوم "النفس" التي خُلِقنا منها بعيدًا عن عالم الموت.

وَرَد مفهوم " خَلَقكم مِن نفسٍ واحدة" أربعَ مراتٍ في القرآن، في كلٍّ مدلولٌ غامضٌ يحتاج لكثير مِن التدبر وكثيرٍ مِن العلم الكوني، لكن المفسرين قديمًا درجوا على فهْم أن النفس الواحدةَ هي نفس "آدم"، وعليه فكلما ورَد ذِكْرُ "زوجها" قالوا إنها "حواء"، ثم تركوا بقية الآية مِن غير تدبر. وكمدخل للبحث في سر "النفس الواحدة" يُستَحسن أن نسلّط الضوءَ على معضلة "الذكورة" و"الأنوثة" في عقلية المفسرين معتمدين أولاً على هذه الآية في سورة الأعراف:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190)} الأعراف.

المعلومُ في اللغة أن لفظَ "نفْس" مؤنثٌ سواءٌ أكانت نفسَ ذكَرٍ أو أنثى أو نفس الله. التأنيث مِن أصل اللفظ ولا علاقة له بصاحب النفس المعنية في السياق. أيضًا فإن لفظَ "زوج" مذكّر. فالرَّجُل "زوجُ" المرأةِ والمرأةُ "زوجُ" الرجُل. وعليه فإن بداية هذه الآية لا تفيدنا كثيرًا في معرفة هوية النفس الواحدة التي جعل الله منها زوجَها. لكن لو تدبرنا السياقَ لنهاية الآية نفاجأ بأن " زوجَها " تم تذكيره في لفظ "لِيَسْكُنَ"، وأيضًا أن النفس الواحدة تم تأنيثُها في " إِلَيْهَا" و يتضح تذكير الزوج وتأنيث النفس الواحدة في "تَغَشَّاهَا" ثم يقطع الشك باليقين وصْفُ أن النفس الواحدة أنها "حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا". هذا يعني أن النفس الواحدة التي بدأ منها الخلق في هذه الآية هي نفس أنثى تحْملُ وتَضع مولودَها، وهذا يعني أن زوجَها الذي جُعِل منها في بداية الآية "ذكَر". مِن هنا نقول- والله أعلم- إن الفرضية التي ذهَب إليها كل المفسرين في هذه الآية وهي أن النفس الواحدة المعنية هنا هي نفس "آدمَ" وأن زوجَها هو "حواء" الوهمية، فرضيةٌ ساقطةٌ لغويًا. أيضًا فإن الآية تمضي لتُسقِط الفرضية مِن ناحية عقائدية لأنها تَصِف أن هذيْن الزوجيْن قد أشركا بالله تعالى، ولا يستقيم أن يكون نبي الله آدمَ - حسْبَ ظن المفسرين - قد أشرَك بالله فور أن حملت "زوجته"، والشِّرْك أكبرُ الكبائر التي لا يغفرها الله تعالى. هذه الملاحظات تستوجب علينا مراجعة المدلولات البعيدة التي غابت عن المفسرين في بقية الآيات التي ورَد فيها مفهوم "النفس الواحدة" بما آتانا الله تعالى مِن عِلم لم يتوفر لِمَن قبْلَنا.

وقد شرحنا بشيءٍ مِن الإسهاب في نظرية " آذان الأنعام" علاقة النفس الواحدة بالخلق، لكن نشيرُ إليه باختصار هُنا فقط لتأكيد أنه لا يوجد شيء اسمه خلق الأنثى في القرآن، لا مِن حيث "الجسد الميت"، ولا مِن حيث "النفس الحية" ولا مِن حيث "العقل" الذي هو "نفخة مِن روح الله" ولا مِن حيث "الروح" التي هي مِن "عالم الأمر"، وبالتالي فإن قيمة الحياةِ في الإنسان وعلاقة الإنسان بـ "عالم الأمر" علاقةٌ متساوية متطابقة مِن كل الوجوه في الزوجيْن الذَّكر والأنثى.

لنتدبرْ هذه الآيات:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)} ق.

الإنسان، ذكَر وأنثى، له نفسٌ واللهُ يعلم ما توسوس به نفسُه، ذكَراً كان الإنسانُ المَعني أم أنثى.

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)} الشمس.

هنا لا بد من التريث قليلاً ومراجعةِ كُتُبِ المفسرين. فقد فَهِمَ الناسُ في الماضي أن اللهَ أَلْهَم النفسَ الطريقَ إلى الفجور - بمعنى المعاصي- وألهمها التقوى بمعنى الطاعات - ثم خيَّرها أن تختار ما تشاء وتتحمل مسؤولية اختيارها. هذا المعنى عمومًا مقبول لو كان الحديث عن حرية الاختيار بين الخير والشر فقط. لكن كون الله يلهمُ النفسَ الفجور، فهذا أمر غير مقبول عقائديًا، بل ويتناقض مع القرآن نفسه لأن كل القرآن ليس إلا إلهامًا للنفس للخير و تحذيرًا لها من الشر. إن كان المُلهِم هو الله، فلا بد لموضوع الإلهام أن يكون كله خيرًا.

وقد كَتَب أخي علاء الدين كتابًا بعنوان "نظرية الفجور والتقوى" قدَّمَ فيه تأويلاً جديدًا يليق بمضمون الآية ويَفتح بابًا واسعًا للبحث في أسرار النفس الغامضة.

فقد قامت "نظرية الفجور والتقوى" على أن "الفجور" مِن التفجير والانفجار، وتعني قمة الاندفاع في إخراج كل طاقاتها ومقدراتها ومواهبها وإبداعاتها. بينما "التقوى" هي التحكم في ذلك الاندفاع حسْبَ المدلول اللغوي لجذور الألفاظ "فجر": وتفيد إخراج كل ما بداخلها من طاقات، و"وقى" التي تفيد التحكم في الاندفاع.

مِن هُنا تقول النظريةُ إن الله قد سوَّى النفسَ البشرية، ثم ألهمها آلياتِ تفجير الطاقات في كل الاتجاهات، وألهمها آلياتِ التحكمِ في هذا الانفجار، وبين الآليتيْن يتفاعل الإنسان مع الكون فإمّا أن يبحِر في عالم الإبداع والابتكار فيفجِّر كلَّ طاقاته في الخير، وإمّا أن يبحِر في عالم الخراب والدمار ويفجِّر كلَّ طاقاته في الشر. "آلية الانفجار" هي التي ألهمها اللهُ للنفس كما ألهمها "آلية التحكم"، لكن نوع الانفجار خيْرًا كان أو شرًا فهذا ليس مِن الإلهام الفطري وإنما الهداية التي أنزلها مع الرسُل، وعليه فإن الله لا يلهم النفسَ الفجورَ بمعنى المعاصي، وإنما ألهمها المقدرةَ على الانفجار لأقصي طاقاتها، ثم وجَّهَها لاستغلال تلك الطاقات في الخير وحذَّرَها مِن الشر. مهما يكن مِن أمر، فالنفس المعنية هي نفس الإنسان ذكَرًا كان أو أنثى.

{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30)} آل عمران.

هنا نلاحظ أن النفسَ هي المسئولة عما فعلتْ مِن خير أو شر وليس الجسد. أيضًا نلاحظ أن السياقَ لا يُذكّر ولا يؤنّث وإنما المسؤولية مسؤولية فردية تخص كلَّ نفسٍ حية.

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185)} آل عمران.

هنا نلاحظ أن النفسَ هي التي تذوق الموتَ وليس الجسد.

ومِن هذا المنطلَق فسَّرنا هذه الآياتِ المحورية في نظرية "آذان الأنعام" كما يلي:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)} النساء.

فقُلنا في هذه الآية إن اللهَ خَلَق نفسًا حيَّة واحدَة في بداية بث الحياة في الأرض. منها خلَق زوجَها، أي انقسمتْ على نفسها كما تنقسم البكتريا فأصبحت نفْسيْن متساويتين لهما الخصائص ذاتها. وقُلنا إن هذه كانت المرحلة الأولى في خلق كل الأحياء مِن نباتٍ وأسلاف الحيوان والإنسان. أما فيما يخص الإنسانَ فـ "خَلَق زوجَها منها" يمثل طورَ التزاوج اللاجنسي الذي تطابق مع الطور الأول مِن مراحل تطور خلْق الإنسان في سورة السجدة أعلاه، لأن النفسَ الزوجَ هُنا قد خُلِقتْ مِن النفس الأولى بكل خصائصها. أما الآية التالية فتتطابق مع الطور الثاني مِن أطوار تطور الخلق:

{خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)} الزمر.

وقُلنا إن لفظ "جعل" يفيد تغييرًا في وظيفة أحد الزوجيْن ليصبح مختلِفًا عنه لكنه مكملٌ له، وهذا يمثل مرحلة ظهور الذَّكَر والأنثى كزوجيْن متكاملين خرجا من نفسٍ واحدة. وقلنا: لأن النفسَ الواحدة المقصودة هنا هي الأم لكل الأحياء في الأرض، فقد اعترض السياقَ نزولُ ثمانية الأزواج، الثمانية الأولى من الأنعام، ففهمنا أنها مستثناةٌ مِن الأصل المشترك مع أحياء الأرض "النفس الواحدة"، وهي الركيزة التي تقوم عليها نظرية "آذان الأنعام" في الخلق والتطور.

"النفس": ماهيتها وخصائصها والمتغيرات التي تطرأ عليها بين الدنيا وهي نفس مفردة لكل حي، وهي عالمٌ واسعٌ جدًا مِن عالم الغيب النسبي يحمل بين طياته أسرارَ الموتِ والحياة، ولا يَسَعُنا المجالُ هنا للإسهاب فيه. لكن ما يهمنا مِن كل ما سبق هو أن القرآنَ لم يميزْ بين "ذكَرٍ" و"أنثى" لا في الخلق من تراب وطين وماء، ولا في هِبة العقل الذي هو نفخة روحية من عالم الأمر ولا في أيٍّ مِن خصائص النفس التي تحمل شفرةَ إحياءِ الموتى في الدنيا وشفرةَ الخلود في الآخرة.

وهنا أنتقِلُ لموضوع آخر حساسٌ جدًا في موضوع النفس وهو التغيير في طبيعة النفوس يوم القيامة، فقد وصَفَ اللهُ تعالى: { وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7)} في سورة التكوير، وأظن أن التزويج هنا بالحور العين.

الحور العين:

مِن العقبات التي حالت بين السلَف والخَلَف الذين ينقلون مِن كُتُبهم، وفهم الكثير من آيات الله الكونية أنهم يُسقِطون المفاهيمَ الدنيوية المحدودة على الاصطلاح القرآني فيفقد الكثيرَ من مدلوله مهما كان واضحًا.

الإشكال هُنا ناتجٌ عن سوء فهْم حقيقة القرآن وأنه حديث الله الأزلي الذي ليس له لغةٌ معروفة في "أم الكتاب"، لكن تم تعريبُه حينما أنزله الله قرآنًا عربيًّا حتى نعقل مضمونَه. فتعريبُ القرآن في لغتِه في مرحلة التنزيل الأخيرة لا يعني تعريبَه فِكرًا وثقافة، وإلا لأصبح كتابًا مِن كُتُبِ الثقافة العربية، وليس كتابَ خالق الكون وخالق الأزواج كلها، مما تنبت الأرضُ ومِن أنفسِهم ومما لا يعلمون.

القرآن فيه خبْرُ مَن قبْلَنا وخبْرُ مَن بعدَنا، وهو صالح لكل زمانٍ ومكانٍ، ويخاطِب كلَّ أمّةٍ بلسان حالها ومستوى عِلمها ومقدرتها على فهم أسرار الكون. لذلك فهو حديث بل هو أحسن الحديث؛ لأنه يقدِّم عِلما مستحدثًا مهما تقدم الزمن، ولا يصيبه القِدَمُ كما سنقارن بين لفظ "جديد" و"حديث" في باب " الحديث". والقرآن كله "آيات" بمعنى علامات دالة على وجود الله، لكن لا يمكن أن يفقه مدلولَ آياتِه جيلٌ واحد، وإنما يتطور الفهم مع تطور المعرفة التراكمية للإنسانية بما آتى اللهُ كلَّ جيلٍ مِن عِلم كما سنتطرق لذلك بشيء من التفصيل في باب "علوم القرآن".

ما نحتاج التنويهَ إليه هُنا هو أن القرآن يَقُص أنباءَ مِن "عالم الغيب" و"عالم الشهادة". عالم الشهادة هو العالم المشهود لنا الذي يمكننا أن نبحث فيه، أما عالم الغيب فهو درجات متفاوتة كثيرة يصعب استيعابُها إلا في زمان محدد.

فهناك غيب الماضي:

{تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)} هود.

غيب الماضي كان معلومًا في "عالم الشهادة" لمَن عاصروه، لكنه غيب على الأجيال اللاحقة إلا إذا أتاهم نبأ يقين عنه.

وهناك غيب في عالم الشهادة: فكل إنسان يعلم عن نفسه ما لا يعلمه غيرُه. وما أعلَمُه عن نفسي غيبٌ على غيري، وما يعلمه غيري عن نفسه غيبٌ عليَّ، لكن كله معلوم لعلام الغيوب. وهناك الغيب الحالي عن كل الإنسانية من العلم بأسرار الكون البعيدة التي هي كائنة الآن، لكن الإنسانية مجتمعة لا تصل إليه. وهناك غيب المستقبل في عالم الشهادة الذي ستشهده الأجيال القادمة فلا يكون غيبًا عليهم حينَها، ولكنه غيب علينا اليوم.

وهناك الغيب المطلَق وهو غيب الآخرة الذي لن يمكننا استيعابه إلا في زمانه وهو الآخرة. وفي هذا الإطار تقع كل صفات أحداث الآخرة، مِن ضمنها الحور العين.

وفي هذا السياق، فالقرآن في صورته العربية يصِف لنا أحداثًا سوف تقع في الآخرة بألفاظ عربية لها مدلولها الدنيوي، لكن مدلولاتها الحقيقية في الآخرة لن تُعلَم إلا حينئذٍ، لأن قوانين الكون كلها ستتغير. وحتى نخطو خطوة منطقية في محاولة فهْم غيب الآخرة المطلق أقدِّم مثالاً شبيهًا بمثال وصْفِ مدينة القاهرة قبل 500 سنة الذي أتيتُ به في باب "أفلا تعقلون":

هَبْ أن أحدَهم طَلبَ مِنك أن تصف مدينة " الغزلان" في دولة "الشروق" التي ستظهر بعد 500 عام. هُنا يَصطدم العقل بحقيقة موضوعية هي أن الذاكرةَ ليس فيها أي معلومة عن هذه الدولة التي لم توجَد بعدُ. وعليه فإن "الألبابَ" لا تسعف في الإجابة. لكن الألبابَ نفسها لا ترفض السؤالَ لأن في مخزونها قصصًا كثيرةً عن دوَلٍ ودويلات سادت ثم بادت، وطالما أن الزمانَ مستمِرٌ فليس هناك ما يمنع أن توجَد هذه الدولة وهذه المدينة. العقل لا يجد السؤالَ غير منطقي، وإنما فقط يعجز عن الإجابة لأنه ليس لديه مرجعية تاريخية ولا فكرية ليبني عليها الإجابة. على أن العقل نفسَه يمكنه أن يَستنبط بعضَ المؤشرات فقط من اسم الدولة " الشروق" فيفترض أنها دولة ستتكون يومًا ما في المَشرق، ثم يستنبط مؤشراتٍ عن طبيعة هذه الدولة من اسم المدينة " الغزلان" فيفترض أنها ربما تنشأ في أرض تكثر فيها الغزلان، وعليه يبدأ في رسم صورة خيالية فقط عن أين يمكن أن تنشأ مثل هذه الدولة أو المدينة. هذا كل ما يمكن أن يصل إليه العقلُ السليم في الإجابة على سؤال مثل هذا في عالم الغيب الذي لم يقع بعدُ. وفي المقدرة على الخيال يختلف الناسُ حسْبَ مرجعياتهم الفكرية والثقافية، لكن لا توجد إجابة صحيحة وإجابة خطأ.

لا تَنْسَ أن الافتراضَ في هذا السؤال يقوم على إمكانية نشوء هذه الدولة وهذه المدينة داخل إطار الزمان والمكان المعلوميْن لدينا، وعليه فإن الخيالَ يمكنه أن يزيد في تصور المدينة بشوارعَ ومبانٍ وحدائقَ وهكذا، لأن هذا ينتج مِن معرفتنا السابقة المخزونة في الألباب عن مفهوم الدوَل والمُدُن على امتداد التاريخ. لكن حينما يزول الزمان والمكان، فإن العقلَ هنا يتعطل تمامًا ولا يمكنه وضع أي تصور خيالي للإجابة على السؤال. فيوم القيامة، والدار الآخرة يقعان خارجَ الزمان والمكان المعلوميْن لدينا:

{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48)} إبراهيم.

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)} الزمر.

فإنْ كان الله قد أخبرنا أن الأرضَ لن تكون هي الأرض التي نألفها ولا السموات، فإنَّ كل ما يمكننا استنباطه مِن الآيات التي تَصِف الدارَ الآخرة يجب ألا يتجاوز مفهومَ تقريبِ الوصف لخيالنا، وتشويقنا لنعيمها وترهيبنا مِن عذابها، لكن ليس تحديدَ صفاتٍ محددة للآخرة. بل إن القرآن نفسَه ينفي لنا أن نعيمَ الآخرة له شبيه في الدنيا:

{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17)} السجدة.

هذا يعني أنه لا توجد نفس حية في الدنيا قادرة على خلق تصور عن نعيم الآخرة الخَفي.

مِن هذا المدخل فقط يجب علينا تدبر وصْفِ الدار الآخرة بما فيها الحور العين:

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35)} ق.

مِن هذا المنطلَق فإن طبيعة وتفاصيلَ أحداثِ الآخرة الموصوفة في القرآن كلها غيب مطلَق؛ لأنها تقع خارج إطارَيْ الزمان والمكان اللذيْن يعمل بينهما العقل البشري.

فإنْ كان العقل لا يستطيع فهْمَ "الخلود"، فلن يستطيع أن يتخيل كيف يكون البَشر خالدًا في نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، ولن يستطيع بطبيعة الحال أن يتخيل نعيمَ أهلِ الجنة التي وصَفها النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن فيها ما لا عين رأت ولا أذُن سمعت ولا خَطَر بقلب بَشر! وعليه فلا يمكن للعقل فهْمُ مدلولاتِ ألفاظ "الزواج" و"الحور العين" في عالم ليس كعالمنا. المؤسف في الثقافة الإسلامية هو أن أدعياءَ "العلم الديني" أنفسَهم الذين يدْعون لتعطيل العقل في فهْم مدلول آيات القرآن في عالم الشهادة المعلوم لنا بحجة أنه لا يعلم تأويلَه إلا الله، نجدهم ينزلِقون فيسهبون في تفسير نعيم الآخرة الغيبي المطلَق وِفقا لأهوائهم حيث لا يعمل العقل أصلا، فجعلوا كلَّ مُتَع ونعيم الآخرة شكلاً مِن أشكال الهوس الجنسي لإشباع شهوات الذكور الحيوانية الدنيوية.

الإشكال في تشخيص "الحور العين" بأنهن إناثٌ عذارى أُعدِدن لإشباع شهوات الذكور مِن المؤمنين ناتجٌ عن خلل عام في فهْم أن "الدار الآخرة" هي عالم كعالم "الدنيا" يَشترك في نعيمها وعذابها المؤمنون والمؤمنات و الكافرون والكافرات. الخلل أيضا ناتج عن سوء فهْم أن اللغة العربية ليس فيها صفة لغوية للتذكير، وإنما فيها علامات مفهومة تدل على التأنيث، وما لم يؤنَّثْ فهو مذكّر بالاستثناء. وعليه فإن "التذكيرَ" في لغة القرآن يغلب على الوصف العام للإنسان والبَشر بزوجيْه "الذَّكَر" و"الأنثى". ولعل التدبّرَ في هذه الآيات يعين القارئَ على تصحيح الفهْم المغلوط لـ "التذكير" اللفظي لكل ما يخص الإنسانَ ذكَرا كان أم أنثى:

{فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)} الطور.

نلاحظ هُنا أن الوصفَ عن " المكذِّبين"، وهو لفظ مذكّر، لكن لا يُنكِر أيُّ ناطقٍ بالعربية أنه يشمل المكذِّبين والمكذِّبات أيضًا طالما لم يَرِدْ فيه تخصيص. اللفظ هنا يَصِف الإنسانَ الذي كَذَب، ذكَرا كان أو أنثى. ودعاةُ الفِقهِ الذكوري بالطبع لن يبخلوا على الإناث أن يشملهن لفظُ التذكير هنا طالما أن الآية تَصِف مصيرَ أهلِ الجحيم. لكن العقل الذكوري نفسه يفشل في فهْم أن الحكمَ يجب أن ينطبق على الآيات التالية أيضا والتي تصف "المتقين" ذُكرانًا وإناثا:

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24)} الطور.

بعيدًا عن الحور العين في الآية، دعونا نتدبر في نعمة "الفاكهة" و"اللحم". هذه الألفاظ نفهم منها أنها ترمز للمعلوم لدينا مِن فاكهةِ ولحومِ الدنيا. لكن لو قبِلنا هذا الافتراضَ بظاهره فقط، فإن الفاكهة واللحوم تتحول إلى فضلات تحتاج لتبرز وتبول. فهل هذا يعني أن في الجنة مراحيضَ وصرفًا صحيًا كما هو حال تعامُلِ الجسد مع الطعام في الدنيا؟. إن ذِكْرَ الطعامِ في الدنيا تعبيرٌ لبق استعمله القرآن ليلفت الذهنَ لحقيقةِ أن المسيحَ-عليه السلام- وأُمَّه كانا بَشَرَيْن بكل خصائصهم البشرية بما فيها التبول والتغوط الذي لا يليق بجلال الله تعالى:

{مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75)} المائدة.

وتَعجَّبَ الكفار مِن أن الرسولَ -صلى الله عليه وسلم- كان بَشَرًا يأكل الطعام:

{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7)} الفرقان.

ففي هاتيْن الآيتيْن ليست العِبرة بالطعام نفسِه وإنما بكون الطعام من الصفات البشرية الحيوانية الدنيوية التي يتبعها التغوط والتبول. وسَنرى كيف أن المسيحَ-عليه السلام- استعمل هذه الخاصية لينفي عن نفسه للحواريين أنه إله أو شبَح بُعِث مِن موت في "قصة الغداء الأخير" في باب "في الطريق إلى دمشق".

فإنْ كان العقلُ النوراني يستنكر فكرةَ البول والغائط في الجنة، فإنَّ ألفاظًا مِثل "الفاكهة" و"اللحم" لا بد وأن لها مدلولاً حقيقيًا آخرَ هو غيبيٌّ وخفيٌّ عنّا، وما ذِكْرُه هُنا إلا مِن باب التقريب والتحفيز بما يمكننا فهمُه، وليس بالضرورة وصفًا حرفيًا لِما سيكون في الجنة. قبْلَ أن نقفز بشهوات الذكور لتفسير الحور العين بأنهن إناثٌ لمتعة الذكور الجنسية لا بد أن نتقي اللهَ ونراجع قوله:

{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195)} آل عمران.

إذن، فالذكورُ والإناث بصريح اللفظ متساوون في نعيم الجنة، وهذا بالضرورة ينفي أن الحورَ العين إناثٌ لمتعة الذكور، مهما كانت أماني الفقهاء وأماني أهل الكتاب:

{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124)} النساء.

فلا تمييز بين مَن يدخل الجنة مِن ذكَرٍ وأنثى، وهكذا:

{مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)} النحل.

{يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40)} غافر.

حينما نجتهد كي نعقل هذه الآياتِ نجد أنفسَنا عاجزين عن فهْم هوية "الحور العين" هنا، لأن الآية تتحدث عن تزويج المتقين "ذُكرانًا وإناثًا" بالحور العين. وعليه لا يعقل أن تكون الحورُ إناثًا تُزَوَّج إناثًا ما دمنا نعقل. مِن حتميات العقل هنا أن نقول "الله أعلم" ولا نتخطى بأهوائنا حدودَ العقل لتأويل تفاصيلَ في عالم لا يصل إليه خيالُنا، لأننا حينَها حتمًا سنفسد بذلك كل معنى الآية الغيبية.

وطالما كان أمْر "الحور العين" مِن نعيم الجنة التي هي خارج "الزمان" و"المكان" وهي في الآخرة يوم تُبَدَّل الأرضُ غير الأرض والسموات، وطالما كان نعيم الجنة خفيًا على كل الأعين، وما رأته عين ولا سمعتْ به أُذن ولا خَطَر بقلب بَشر، فعلينا أن نستحضر هذه الحقائقَ ونحن نقف عاجزين عن فهم عند هوية الحور العين:

أولاً: إنَّ ذِكرَهُن لا علاقة له بالشهوة الجنسية؛ لأن الجنسَ معلومٌ لدينا ويمارسه الإنسان ويدخل في إطار معرفته اليومية.

ثانيًا: افتضاض الأبكار شهوة جنسية ربما تروق لبعض الذكور وليس كلهم، لكنها ليست من فطرة الإناث وهي فكرة مقززة لهن، وعليه فإن الآياتِ التي تَعِدُ الذَّكَرَ والأنثى بنعيمٍ متساوٍ في الجنة وتَعِد بتزويج كل المتقين ذُكرانًا وإناثًا بحور عين تتعارض مع كون الحور العين إناثًا لمتعة الذكور الجنسية. إلى هُنا ونحن لا نستطيع فهْمَ كُنهِ الحور العين، لكن بمقدورنا نفيُ ما لا يمكن أن يكونَ كُنْهَهن.

رغم هذه الآيات البينات يصاب المرءُ بالحيْرة حينا يجد في كُتُبِ التفسير هذا الشطحَ في تفسير مثل هذه الآية:

{فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)} يس.

أنقلُ مِن تفسير ابن كثير ما يلي:

{..قال عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما وسعيد المسيب وعكرمة والحسن وقتادة والأعمش وسليمان التيمي والأوزاعي في قوله تبارك وتعالى: {إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون} قالوا: شغلهم افتضاض الأبكار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عنه {في شغل فاكهون} أي بسماع الأوتار، وقال أبو حاتم: لعله غلط من المستمع، وإنما هو افتضاض الأبكار..}.

وكذلك قال الطبري:

{..وقوله: إنّ أصحَابَ الجَنّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ اختلف أهل التأويل في معنى الشغل الذي وصف الله جلّ ثناؤه أصحاب الجنة أنهم فيه يوم القيامة، فقال بعضهم: ذلك افتضاض العذارَى. ذكر من قال ذلك:
22340- حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا يعقوب، عن حفص بن حميد، عن شَمِر بن عطية، عن شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود، في قوله: إنّ أصحَابَ الجَنّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ قال: شغلهم افتضاض العذارى.
22341- حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: حدثنا المعتمر، عن أبيه، عن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس إنّ أصحَابَ الجَنّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ قال: افتضاض الأبكار.

حدثني عبيد بن أسباط بن محمد، قال: حدثنا أبي، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس إنّ أصحَابَ الجَنّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُون قال: افتضاض الأبكار.
حدثني الحسن بن زُرَيْق الطّهَوِيّ، قال: حدثنا أسباط بن محمد، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله.

22342- حدثني الحسين بن عليّ الصّدائي، قال: حدثنا أبو النضر، عن الأشجعيّ, عن وائل بن داود، عن سعيد بن المسيب، في قوله: إنّ أصحَابَ الجَنّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ قال: في افتضاض العذارَى...}.

لاحِظْ أن جميعَ التفسيرات أعلاه ليس فيها رواية واحدةٌ منسوبة للنبي -صلى الله عليه وسلم-. ولقد فات على هؤلاء وأمثالهم أن "أصحابَ الجنة" هُم "ذكور" و"إناث"، والآية ذكرت "هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ" فكيف يكون نعيم النساء في الجنة هو افتضاض بكارة العذارى؟؟ وإنْ كانت " أزواجهم" هنا تَعني زوجاتَهم (وهي لا تعني ذلك وإنما تعني الأزواجَ المتشابهة سواءً بين أهل الجنة أو أهل النار لأن زوجة فرعونَ لن يكون مصيرها معه وكذلك زوجة لوط)، فهل تستمتع الزوجاتُ بأزواجهن الذكور وهم يفضون أبكار العذارى؟ أم أن أهلَ أصحابِ الجنة مِن المؤمنات سيُبْعَثن سِحاقيات؟؟ وحتى لو سَلّمنا بهذه الفكرة الشاطحة، فهل افتضاض أبكار العذارى متعةٌ يتوق لها كل الذكور؟؟ إنَّ الفكرةَ ليست مقززة فحسب، ولا تحط مِن قدْر كلام الله تعالى فقط ولكنها لا تدع مجالاً للشك أن مَن كَتَب كُتُبَ التفسير هذه ونَسَبها للمفسرين أصحابِ الاسم، ساقطُ العدالة إمّا لأنه لا يعقل ما يقرأ، أو لأنه يبث عمدًا سمومًا في كُتُب العلماء تحط مِن قدْرهم وقدْر أصحاب النبي الكريم وتحط مِن قدْر كلام الله.

لو كنا لا نعلم، فالتفسير البسيط كان يجب أن يكون: "إن اللهَ يصف نعيمًا لا عين رأته ولا أذُن سمعته ولا خَطَر بقلب بَشر، لكن لا يمكننا عِلمه إلا يوم القيامة لأنه وصفٌ لحدث في عالم الغيب المطلق". هذا التفسير كان أسلَمَ لقلوبهم وأكثرَ أمانةً في التعامل مع كتاب الله تعالى.

وهنا لا بد من توضيح حقيقة مهمة: إنَّ مَن كَذّب على الله وحرّف كلامَه بعد ما عقله، لَهُوَ أسرعُ في الكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. ومَن كَذّب على الله ورسوله فهو أسرعُ في الكذب على أصحابه. ومَن كَذّب على الله ورسوله وأصحابَ رسوله لن يتورع عن الدسّ في تفاسير ابن كثير والطبري والبخاري غيرهم؛ لأن هذه الكُتُبَ ما وعَدَ اللهُ بحفظها، وليس لها أصولٌ موثوقٌ بها كما سنناقش ذلك بشيء من التفصيل في باب "علوم القرآن" و"الحديث". ما يهمنا هو أن نرفض هذه التُّرَّهات ونَنسبها للكذابين الذين دسوا السمَّ للمسلمين في تراثهم قرونًا طويلة.

لقد أغفلَ مَن افترى التأويلَ أعلاه أن الآياتِ أعلاه بدأتْ بالحديث عن "النفس" بصيغة النكرة التي تفيد كلَّ نفسٍ حية، سواءً أكانت نفسَ أنثى أم نفسَ ذَكَر: {فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. لكن لو سلّمْنا جدلاً أن لفظ "نفس" كان صعبَ الاستيعاب، فلا يمكننا الصفْحُ عمَّن يقدس هذه المنزلقاتِ التي تجاوزتْ أن

مدلولَ لفظِ "زوج" يشمل "الذَّكَر" و"الأنثى" أيضا. بل إن لفظ زوج يفيد مفهومَ الزوجية فقط ولا يقتصر استعماله على العلاقات بين الذكور والإناث. لكن كلما وَرَد لفظ "زوج" في القرآن طاشَ الخيالُ ليوم الزفاف، وفسر "التزاوج" كأنه زواجٌ بين عريس وعروسِه. إن الذين عطّلوا العقلَ في أمور الدنيا المألوفة في "عالم الشهادة"، هُم أنفسُهم الذين يتخطون حدودَ العقل ويَدخلون مشمِّرين عن سراويلهم إلى "عالم الغيب المطلق" بشهواتهم الحيوانية الجنونية لتفسير آيات الله بالخصيتيْن بدْلَ العقل.

لفظ "زوج" في لغة القرآن كما هو في لسان العرب يعني شِقًا يكمل الشق الآخر في وحدة مِن شقين. الأحذيةُ فيها زوجان اثنان أيمن وأيسر. كل إنسان له زوجان مِن الأيدي يمينًا ويسارًا وهكذا. فلفظ زوج يفيد تكاملاً بين شقيْن لا يقوم أحدُهما إلا بوجود الآخر، ولذلك فإن الزواجَ (العُرس) لا يَتِم إلا بوجود زوجيْن. بل إن اللغة لم تؤنِّثْ لفظ "زوج" وإنما المرأةُ زوجُ الرجل، والرجلُ زوجُ المرأةِ لأن لفظ "زوج" يفيد خاصية التزاوج التي تفرز وحدةً مستقلة لا توجد إلا بوجود الزوجيْن فيها.

لإعادة الاجتهاد في تفسير آيات "الحور العين" لا بد أن نعترف أولاً أن الحدثَ يقع خارجَ الزمان والمكان بصورة مطلقة ولا يمكن للعقل استيعابُه، وما كان ذِكْرُه في القرآن إلا مؤشراتٍ لنعيم غيبي سينال المؤمنين والمؤمنات في الجنة، وأن وصْفَه كان فتنة للذين آمنوا ليعلم اللهُ مَن يقول "الله أعلم"، ومَن يتجاوز حدودَ عِلمِه فيحرِّف كلامَ الله إشباعًا لشهواته المريضة. فالتفسيراتُ أعلاه في كل كُتُب التفسير المتوارثة تُقِر بظلم الله لأنفُس أكثر مِن نِصْفِ الإنسانية، لأن عدد النساء في أي مجتمع أكبرُ مِن عدد الرجال، ولو كانت الحور العين فتيات قاصرات عذارى لإشباع شهوات الذكور مِن أهل الجنة فإن مِن حق الأنثى أن تَسأل: وماذا أعَدَّ اللهُ لنا في الجنة؟.

لنترك هذا الهراءَ ونتخذ مدخلاً علميًا لفهْم حال الناس - كل الناس - في الآخرة، ولنبدأ بهذه الآية التي تسقط ضوءًا على مفهوم "التزاوج" في الآخرة:

{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7)} التكوير.

الذي لا خلاف عليه هو أن "النفوسَ" هنا شاملة لكل نفوس البَشر. وهذه الآية ورَدَتْ بعد ستِ آياتٍ في سورة التكوير كلها تشير إلى متغيرات جذرية ستحدث في المخلوقات في الدار الآخرة. هذا يعني أن طبيعة "النفس" يوم القيامة ستتغير بتزاوجها بـ "أمـرٍ" آخر ربما يكون السبب في أنها لن تموت في يوم الخلود، وأن ما تزوج به " فعالية" من "عالم الأمر" الذي أشرنا إليه سابقًا، تجعل للنفس إمكانية الخلودِ الذي هو صفة أساسية في عالم الآخرة. ويمكن تشبيه هذا التزاوج بتزاوج الكمبيوتر مع "المودم" فيصبح الجهاز الصغير أمامك وسيلة اتصالٍ وتواصُلٍ تتجاوز حدودَ الزمان والمكان في طرفة عين. أو كتزاوج الكمبيوتر مع التلفزيون فيصبح الآخر شاشة كبيرة تَعْرِض ما يُكتَب على الكمبيوتر الصغير. التزاوج هنا يضيف خاصيةً جديدة للجهاز الأول تنقله مِن طورٍ إلى طورٍ جديد غيرِ محدود، يتلاءم مع الظرف الجديد وهو التواصل مع عالم غير محدود بالزمان والمكان وكل قوانين الكون "العرش" المعلومة لنا.

لا بد مِن ملاحظة اللفظ في الآيات: الآية تقول "وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ" وليس: " وزوجناهم حورا عين"! ولتسهيل فهْم الفرْق بين "زواج مِن" و "زواج بـ" أضربُ مثالاً بالزواج بين الرجل والمرأة بالمأذون المعروف من ناحية، وزواج البويضة بـالحيوان المنوي من ناحية أخرى. زواج الأب والأم علاقة شرعية اجتماعية يَظل فيها كلُّ فردٍ مستقلاً بنفسه ما دامت العلاقة، ويذهب كل في حاله ليبحث عن زوج آخر إذا انفضَّتِ العلاقة. أما زواج البويضة بالحيوان المنوي فهو عملية "اندماج" يزول بعدها كلا الزوجيْن، فينتج جنينٌ جديد يحمل صفاتِ الزوجيْن ولا يمكن بعد عملية الاندماج فكُّ التزاوج الذي تم بين البويضة والحيوان المنوي. فإذا تم الطلاقُ بين الأبويْن لا يمكن أن يطالِبَ أيٌّ منهما في نصيبه مِن الابن أو الابنة لأن هذا اندماجٌ أبدي لا رجعة فيه.

إذا قبلنا هذا الافتراضَ في مفهوم تزاوج النفوس يوم القيامة، وأنه يفيد اندماجًا وليس "عُرسا"، فإننا يمكننا ببساطة أن نَقبَل أنَّ هذا التزويجَ هو ما يتم بـــ "الحور العين". مِن هُنا يمكننا أن ننقل هذا المفهومَ الغامض "الحور العين" مِن إناثٍ هُنَّ آية في الجَمال يضاجِعُهن الذكورُ المؤمنون في الجنة كما هو السائد في "فِقه السراويل" الذي يخوض في تفاصيلِ غيْبِ الآخرة وِفقا لشهوات الفِقه الذكوري الدنيوي، إلى حدثٍ كوني لا يصل

إليه خيالُنا في الدنيا. لا بد أن نتذكر أن تزاوجَ النفوس المذكور في سورة التكوير أعلاه سيحدث بعد النفخة الثانية في الصور كما شرحنا في باب "سِدرة المنتهى" في كتاب "آذان الأنعام"، يومَ تُبَدَّل الأرضُ غير الأرض والسموات، وهي مرحلة تتبع انهيارَ عرش الرحمن "منظومة حُكم الوجود" وزوال الكرسي، يومَ يصبح الكونُ في قبضة الله الواحد القهار خاضعًا لـ "عالم الأمر" وحدَه.

مِن هُنا يمكننا التوفيقُ بين تزاوج النفوس وهذه الآيات التي تنطبق على الذَّكَر والأنثى مِن المتقين:

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (53) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54)} الدخان.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20)} الطور.

لاحِظْ أن النصَّ القرآني يتحدث عن المتقين ذكورًا وإنــاثا، وأن علاقتَهم بالحور العين وصِفتْ بــ " وَزَوَّجْنَاهُمْ بِــــحُورٍ عِينٍ" و" ليس: "زوجناهم حورًا عينا". فالزواج بمعنى العُرس لا يقدَّم له بحرف الجر "البـــاء" كما في قوله تعالى:

{... ..فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (37)} الأحزاب. لاحظ أنّ الله لم يقل عن زينب بنت جحش: زوجناك بــــــها، وإنما قال: زوجناكها.

مِن هُنا يمكننا أن نفهم أن زواجَ فلانٍ وفلانة هو تكاملٌ بين زوجيْن يظل كل منهما زوجًا مستقلاً عن الآخر ومعًا يمثلان العلاقة الزوجية ما داما زوجيْن. فإنْ تم الطلاقُ انفضَّتْ صفةُ الزوجية عنهما. لكن "الزواج بـــ " يعني اندماجَ شيئيْن معًا لينتج عن الاندماج شيءٌ واحدٌ جديدٌ له صفات جديدة تشمل خصائصَ الزوجيْن لكن في حال جديد. ومِن هنا يمكن افتراض أن: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7)} التكوير، أن كلَّ "نفوس البَشر" إناثًا وذكورًا، سوف يتم تزويجُها بــ خاصية تجعلها نفسًا جديدة مُعَدَّةً للحياة الأبدية في عالم الخلود الغيبي. وهذه النفوس هي نفوس أهلِ الجنة وأهلِ النار جميعًا ذكورًا وإناثًا. وفيما يخص أهلَ الجنةِ فسيتم تزويجُ نفوسِهم بما وصفه الله تعالى: " وَزَوَّجْنَاهُمْ بِــــحُورٍ عِينٍ"، وهذا يُخرج "الحورَ العين" مِن فِقه السراويل، إلى عالمٍ جديد يحتاج لخيال علمي خِصب لا يتوفر لدينا في الدنيا، وعليه فلن ننجح في اختراق حجاب "الزمان" و"المكان" لنستطيع تعريفَ "الحور العين" إلا يومَ تُزَوَّج أنفسُنا بإذن الله بها، ذُكرانًا كُنَّا أم إناثًا.

التزويج بـــ الحور العين لا يعني الزواجَ بالمأذون والشهود كما هو فهْمُنا للزواج في الدنيا، وإنما يفيد ظاهرةَ تزاوج الأنفس المفردة لتصبح مزدوجة: نفسٌ تقية مزدوجة مع حور عين، مما ينقلها مِن نفسٍ دنيوية محكومة بمنظومة العرش بين محورَي الزمان و المكان، والأسباب والمسببات، مسئولة عن أفعالها خيرًا كانت أم شرًا، إلى نفسٍ مطلقة حُرة مزدوجة بـ "حور عين" لا تذوق الموتَ إلا الموتة الأولى، مما يتيح لها الاستمتاعَ بنعيمٍ مقيم أبدي، فيه ما لا عين رأت ولا أُذن سمعتْ ولا خَطَر بقلب بَشر، وفي ذلك يشترك الذَّكَر والأنثى مِن المتقين.

بناءً على هذا التأويل نعود فنتدبر آياتِ سورة الدخان مرة أخرى:

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (53) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)} الدخان.

الآنَ يمكننا أن نلاحظ أن المتقين ذكورًا وإناثًا يتم تزويجُ أنفسهم بـــ "حور عين" ربما تكون هي العامل الغيبي مِن "عالم الأمر" الذي يبطل الموتَ ويجعل النفسَ خالدةً ويتيح لها أن تتمنى ما تَشتهي فتتحقق أمانيها بلا أسباب.

لا بد مِن ملاحظة أن وصْفَ نعيم الجنة بما فيه التزويج بــ الحور العين في السياق قد تَبِعَته آيتان تَشرحان ما ذهبنا إليه: { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59) }. وهذا يفيد أن الوصفَ هُنا للتيسير فقط؛ لأن العقلَ لا يمكنه استيعابُ ما لا عين رأت ولا أُذُن سمعتْ ولا خَطر بقلب بَشر. أما الحقيقةُ فعلينا ارتقابُها يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غير الأرض والسموات وليس الآن.

لا بد مِن تذكير القارئ الكريم أنني لا أدَّعِي تأويلَ الآيات هُنا بما سبق، وإنما فقط أبعِدُ عن الأذهان التأويلَ الشاطح القاصر حتى أفتح بابًا واسعًا من الخيال يستوعب العدلَ الإلهي في مساواة كل المؤمنين والمؤمنات بنعيم الآخرة الأبدي، وحُجتي في ذلك هي التدبر العاقل لكل المفردات في اللسان القرآني. بناءً على هذا الخيال يمكننا أن نتدبر بحذرٍ بقية الآيات التي ورَد فيها مفهومُ "الحور العين":

{فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (71) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (72) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (74)} الرحمن.

نلاحظ في آيات سورة الرحمن هنا أن اللهَ لم يَصِف عملية التزاوج مع الحور العين وإنما يَصِف ما في الجنة مِن نعيم، فأتى بصفات إضافية عن الحور. كونهن مقصوراتٍ في الخيام لا يعني بطبيعة الحال أن الجنة معسكرٌ للاجئين أو "العَرب الرُّحَّل" يسكنون الخيام. فكلُّ لفظٍ هنا: "حور"، "مقصورات" و "خيام" له مدلولٌ غيبيٌّ لا يصل إليه خيالُنا بعدُ، لكنه يلمِّح فقط إلى أن هذه "الحور" لها مكانٌ عظيمٌ في تغيير طبيعة النفوس يومَ القيامة مِن الطبيعة الدنيوية المحدودة إلى الطبيعة الحرة المطلقة لتستمتع بكل ما تشتهيه الأنفسُ التي تزوج بها. أما قوله: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} فيمكن فهمُه أنه يُعلِي مِن شأن هذه الحور العين إذ إن خيالَ الإنس والجن لا ينالها ناهيك عن أن يمسها، وإنما هي خاصية من خاصيات "عالم الأمر" و لن تُعْلَم إلا حينئذ.

{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24)} الواقعة.

"السابقون" و"المقربون" هُنا لفظان يشملان المؤمنين والمؤمنات. ولقد سبقتْ سمية بنت الخياط -رضي الله عنها- وهي أول نفسٍ قُتِلتْ في سبيل الله، سبقتْ كلَّ المؤمنين والمؤمنات بتأهيل زواج نفسِها "السابقة" "المقربة" بالحور العين. أما وصْفُ "الولدان المخلدون" فأمرُهم لا يعلُمه إلا الله، وسنعلمه حتمًا في حينه يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غير الأرض والسموات، ولا نحتاج للتنطع والوهم أنهم غلمان لممارسة اللواط كما لم يتحرج الكثير مِن مَرْضى النفوس في الذهاب إليه في هذا الزمن الذي أصبحتْ فيه فضائحُ بعض الخُطَباء وشطحاتُهم تزكم الأنفَ وتصيب الناسَ بالغثيان. أيضًا فقد جاء وصْفُ طبيعةِ الحور العين مِن غير أن تربط بزواج مع المؤمنين او المؤمنات.

فإنْ كانت كُتُب التفسيرِ القديمة لم تستحِ من تفسير: { إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) } بأنه فضُّ أبكار العذارى، وأن بعض مشايخ اليوم لم يتطور فهمهُم إلا إلى المزيد مِن الانحطاط بتأويل الولدان المخلدين بأنهم لإشباع شهوات اللواط، فإني لا أجد حَرَجًا من التفسير الآتي :

في معظم مطارات العالم اليوم، بل وفي معظم الفنادق والمطاعم الراقية والتجمعات التجارية توجد شبكات "واي في" مجانية لمَن شاء أن "يزوِّج" جهازَه بالإنترنت لينطلق خارج الزمان والمكان المحدوديْن في لمْح البصر. أنا أرى في هذه الآية الأخيرة تقريبًا لحقيقةٍ إضافية عن الحور العين، وهي وجود المزيد منها في كل مكان في الجنة مِن غير تزاوج مع الأنفس التي زوِّجتْ مسبقًا بحور عين. بمعنى أن هناك المزيدَ من الحور لمَن أراد أن يَخرج إلى عوالمَ أخرى كيفما تَشتهي نفسُه ويسرح خياله والله اعلم.

موضوع الحور العين فَرَضَ نفسَه عليّ هُنا نتيجة الخلطِ بينَه وبين الإناث. لكن ما قدَّمناه فيه ليس إلا فتحًا لبابٍ واسع للتدبر والبحث بعيدًا عن الأفكار المنتنة. لكن موضوعنا هو الأنثى في الأرض في هذه الحياة الدنيا. ونحن نبحث في خلق الأنثى، لعلنا نجد ما يميز الذَّكَرَ عنها في الخلْق، نفاجأ بالعكس تمامًا إذ إن الدورَ الأكبر في

استمرارية الخلْق مِن خصائص الأنثى وليس الذَّكَر كما نتوهم. ختامًا: لو كـان التأنيثُ وحدَه يَكفي لإدخـال الحورِ العين في زمرة النساء فهنيئًا للمهووسين جنسيًا بتأنيث "الشمس".

استمرارية الخلق:

رأيْنَا أن بداياتِ خلْقِ الحياة في الأرض غامضة ويصعب التفصيل فيها، لكن استمرارية الحياة وخلْق نفسٍ مِن نفسٍ حيّةٍ أمرٌ يوميٌّ نعايشه وندرسه ونعدل فيه بما آتانا الله مِن نفخة روحية بالعقل. وفي هذا السياق فقد طَفَر العِلمُ الحديث طفراتٍ واسعة للتعرف على أسباب ومسببات استمرارية الحياة، التي أصبحت من المعاملات اليومية في عِلم الجينات وعِلم "التكاثر" أو ما يُعرَف بطب النساء والتوليد.

في هذا المجال قد أصبح معلومًا للعامة والخاصة أن كلَّ حياةٍ جديدةٍ تبدأ بتزاوج مكوِّنيْن مِن الذَّكَر والأنثى هُما الحيوان المنوي والبويضة.

ما لا يعلمه العامةُ هو أن الحيوانَ المنوي لا قيمة له تُذْكَر، لذلك استحقّ أن يسمِّيَه اللهُ في القرآن "ماء مهين" شاء الفِقهُ الذكوريّ أم أبى.

والماء المهين مقصود به السائل المنوي فقط وليس الإفرازاتِ الجنسية مِن الذَّكَر والأنثى كما ذهب البعض حديثًا، إذ إن اللهَ يقول:

{ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8)} السجدة.

تتكون الحيوانات المنوية في الخصيتيْن بعدَ سِن البلوغ. وتختزن إلى أن تَخرج عشوائيًا في الاحتلام ليلاً أو الاستمناء المفتعَل أو الجِمَاع. مِن ناحية علمية فإن الذَّكَرَ حينما يَقذف فإن الماءَ المهين الذي يفرزه في لحظة النشوة تلك، يَحتوي في المتوسط على مائة مليون حيوان منوي، كلها تذهب سُدىً وتُغسَل مع ملابس الصبي. وتتكرر هذه العملية باستمرارٍ في حياة الرجُل ربما إلى أرذل العمر، إذ إنه لا حدود معلومة لنهاية قدرة الذَّكَر المعافَى على الإمناء. الكثير من الذكور يظنون أن هذه مزية وَصِفَة إيجابية تجعل الذَّكَرَ أكثرَ قيمة في الحياة مِن الأنثى، لكن القرآن يرسم واقعًا عكس ذلك تمامًا.

بالمقابل، فإن البويضاتِ التي ينتجها مبيضا الأنثى لها شأن آخر أقل ما يوصف به أنه شأن رفيع جدًا. فالأنثى المعافاة تولَد بمبيضيْن يحتويان معًا على حوالّي 500 بويضة فقط، يتم اكتمال خلْقِها مع ميلاد الصبية، لكنها تظل كامنة، أي ناقصة النضج إلى أن تَدخل الأنثى سِنَّ البلوغ، فتبدأ المبايض بإنضاج بويضة واحدة مِن أحد المبيضيْن بالتبادل كلَّ ثمانيةٍ وعشرين يومًا. وتَخرج البويضة الناضجة مِن أحد المبيضيْن في فترة الإخصاب بكبرياء، تَظل معلقة بأهداب رفيعة تربطها بالمبيض تنتظر وصولَ حيوانٍ منويٍّ واحدٍ ليلقحها. بعد أسبوعيْن من الانتظار، إنْ لم يحدث التخصيب، يقوم الرَّحِم بتغييرات هرمونية كبيرة تُنهي حياةَ البويضة وتزيل جزءًا كبيرا مِن أغشية الرحم المخاطية، فينزل الجميع فيما يُعرَف بـ "الحيض" في حدثٍ كبيرٍ له تبعاته البيولوجية والنفسية والشرعية على الأنثى والذَّكَر وكلِّ الأسرَة والمجتمع.

ولو أجرينا عمليةً حسابيةً بسيطةً للمقارنة بين عدد الحيوانات المنوية التي يضيِّعها الذَّكَر في قذفةٍ واحدةٍ، مع عدد كل البويضات التي يَختزنها مبيضا الأنثى طوالَ حياتها، لكانت النسبة بويضة واحدة مقابلَ كل مائتَي ألف حيوانٍ منوي. لكن هذه المقارنة أبعدُ ما تكون عن الحقيقة، إذ إن عددَ البويضات ثابتٌ طوالَ حياة الأنثى، ولا تتناقص إلا بالحيْض أو الحمْل، بينما إنتاج الحيوانات المنوية لا حدود له، وقد يَفقد الذَّكَر مِن الحيوانات المنوية عشراتِ المئات من الملايين في اليوم الواحد لو احتلمَ عددًا من المرات أو مارس الاستمناءَ أو الجِماع. الخلاصة: فإن عدد البويضات المعدة لخلق حياة جديدة في مبيضَي الأنثى، مقارنًا بعدد الحيوانات المنوية التي تنتج يوميًا طوال حياة الرجل البالغ ربما يفوق التريليونات أو الأرقام الفَلكية التي لا يمكن كتابتها.

قد لا يسر هذا الوصفُ مَن نشأ في وهْم العلو الذكوري، لكن هذه سُنَّة الله في الخلق نَصِفُها كما كَشَفها الطب الحديث. لا بد أن نتذكر أن الأنثى هي أُمُّك التي أنجبتك وليست "باميلا أندرسون" أو "جوليا روبرت" كما يحلو

لخُطَباء الفقه الذكوري إسقاط لفظِ أنثى على ملكات الإغراء الجنسي في الإعلام الغربي حتى يبرروا كلَّ امتهانٍ لأمهاتهم اللائي ولدنهم ورعينهم.

وقد دَرَج هؤلاء على تصوير الحيض بأنه نجاسة وحالةُ قذارةٍ قام عليها الكثير من الفقه الجاهلي باسم الدين لجهلهم بالدين وجهلهم بـ "سُنَّة الله" في الخلق أيضًا. فقد تم سوء فهْم قول الله تعالى:

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ (222)} البقرة.

لقد فهم الفقهُ الذكوري لفظ "أذى" على أنه مصيبة تحل بالرجُل، وفهموا "وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ" أنه طلبٌ مِن الله للرجُل المكرم أن يهين زوجتَه ويبتعد عن شرها وهي حائض، ثم فهموا مِن "حَتَّى يَطْهُرْنَ " أن الأنثى تكون نجِسة أثناء الحيض، وأن الاقترابَ منها يصيب الرجُلَ بالنجاسة. لا بد أن نذكر هنا أن المؤمنَ ذكَرًا كان أم أنثى لا ينجس في نفسه، إذ ربط الله النجاسة في النفس بنجاسة العقيدة، حيث ورد لفظ "نجس" مرةً واحدة فقط في القرآن:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا المُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28)} التوبة.

لكن أي إنسانٍ يمكن أن يلتصق بجسده أو ملابسه أوساخٌ أو ما يُعرَف بالنجاسات المادية التي تَستوجِب الطهارةَ قبْل الصلاة مِن بول وغائط ودم، وفي هذا يَشترك الذَّكَرُ مع الأنثى في مفهوم النجاسة المادية وليس النفسية. وبما أن الحيضَ فيه عمليةُ نزيفٍ مستمر فهو نجاسة مادية، لذلك نَهى اللهُ عن الاقتراب بمعنى المباشَرة الجنسية حتى تَطهُر الأنثى مِن الدم. أما الأذى فله على الأقل مدلولان: المدلول المادي ينتج من أن رحِمَ الأنثى في حالة الحيْض يكون مكشوفًا عن الأغشية المخاطية التي تحتوي على الكثير من دفاعات المناعة ضد الأمراض. وعليه فإن الجِمَاع أثناء الحيض يعرِّض الطرفيْن لانتقال الأمراض التي تنتقل بواسطة الدم. إذن، فالأذى المادي قد يقع على الأنثى مِن الذَّكَر الذي يجامِعها، إذ إنه يمكن أن يصيبها بداءٍ في فترة يكون رحِمُها فيه معرضًا لالتقاط الجراثيم. بمعنى أن الرجُلَ هو في الغالب مصدرَ الأذى للأنثى وليس العكس. المدلول الثاني هو الأذى النفسي: فعملية الحيض عملية قاسية جدًا على الأنثى ليس نتيجة الجراح والنزيف الذي يجري داخل رحمها فقط، ولكن لأن الهرموناتِ التي تقوم بهذه العملية غالبًا ما تسبب اضطراباتٍ نفسية وقلاقلَ وربما تشنجات لا يمكن للرجل أن يتصورها، وهي بذلك تكون أكثرَ ما تحتاج للحنان والرعاية وليس التعرض لرغبات حيوانية مِن زوج مجردٍ من الإحساس والإنسانية. ولعِلْم الله بمقدار الأذى والألم الذي يتبع الحيضَ فقد نَهى الذكورَ عن الاقتراب من النساء حمايةً لهُن من المضايقة في فترة هُن أحوج ما يكُنَّ للراحة فيها.

وحتى ننظر للحدث مِن منظور علمي فسيولوجي، لا بد من نظرة عميقة في شرح ظاهرة المحيض:

قلت: إن الحيضَ يحدث نتيجةً لإفراز هرمونات تدمِّرُ البويضة غيرَ الملقَّحة التي انتظرتْ خارجَ قناة فالوب لمدة أسبوعيْن تقريبا. هذه الهرمونات تميت البويضة وتزيل الأغشية المخاطية الكثيفة التي تغطي جدار الرحم استعدادًا للحمْل فينزل الجميع في شكل دمٍ متقطع لمدة 3-5 أيام في المتوسط، حتى تلتئم الجراح وتبدأ دورة جديدة لتجهيز بويضة جديدة استعدادًا لاحتمال حَمْلٍ في الشهر القادم.

لو قارنّا بين موت البويضة الواحدة كلَّ شهرٍ مع موت مليارات الحيوانات المنوية لدى الذَّكَر كل شهر، لا يمكننا إلا أن نَصِفَ موتَ البويضةِ الوحيدة بأنه تشييع جنائزيّ مَلَكيّ بكل المقاييس لنفسٍ كان يمكن أن تكون لكنها ما كانت. بينما موت مليارات الحيوانات المنوية في الماء المهين لا قيمة له، بل ولا يمكن بأي حال من الأحوال إحصاؤها، ناهيك عن تشييع لها.

هذا الوصف ليس مِن باب التحيز للأنثى التي هي أُمي في خاطري وأنا أكتب هذا الكتاب، وإنما قراءةٌ في آيات القرآن العظيم التي تجاوَزَها الفِقهُ والتفسير الذكوري تجاوزًا بَشِعًا.

فقدْ وَصَفَ الله تعالى ماءَ الرجُل بأنه ماءٌ مهين كما سبق، ثم أشار للمكون للحياة في هذا الماء المهين بلفظ "نطفة" الذي له تبعات أخرى كما سنرى:

{وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46)} النجم.

ذهبَ بعضُهم حديثًا لتأويل "النطفة" بأنها ماء الذَّكَر والأنثى، ولكن هذا التفسير خاطئ. فالآية أعلاه تَصِف خلْقَ الزوجيْن الذَّكَر والأنثى مِن هذه النطفة التي تُمْنَى. وقد ثبت حديثًا أن الحيوانَ المنوي هو الذي يحدد كونَ المولودِ ذكَرًا أم أنثى، إذ إنه يحمل كروموزومات (XY) بينما تحمل البويضةُ كروموزومات (XX). فإذا اجتمع (X) مِن الذَّكَر مع (X) مِن الأنثى كان المولودُ أنثى، وإذا اجتمع (Y) مِن الذَّكَر مع (X) مِن الأنثى كان المولودُ ذكَرًا. وعليه فإن "النطفة" التي تُمْنَى ومنها يخلق الزوجيْن الذَّكَر والأنثى هي اسم ينطبق على الحيوان المنوي فقط وليس البويضة. وهذا يعني أن الماءَ المهين المَعني هو ماء الرجل فقط.

أيضًا، فإن الإفرازاتِ والسوائلَ التي تنزل من الأنثى في حالة الإثارة الجنسية أو الجماع لا تحتوي علي بويضات كما يحتوي السائلُ المنوي على الحيوانات المنوية. إفرازاتُ الأنثى لها عدد من الوظائف الصحية منها تليين جدارِ الفرْج والمهبل حتى لا تصيبه القروح، وأيضا تحتوي على كميات كبيرة من المضادات الحيوية الطبيعية لمنع انتقال الأمراض، لكن البويضة تظل في مكانها المَصُون في المبيض في حالة الكمون، أو خارجه في فترة القابلية للحمْل، لكنها لا تنزل مع إفرازات الأنثى. وعليه فإن الماء المهين هو ماء الرجُل وحدَه.

مِن هنا يمكننا أن نفهم أن الوصف "العدائي" في هذه الآية يشير لـ "النطفة" التي هي المكون الذكوري للجنين كما أسلفنا:

{خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4)} النحل.

وهذا يتناسق تناسقًا موسيقيًا ولفظيًا وعلميًا مع نفي الصفة العدائية نفسها عن الإناث:

{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18)} الزخرف.

فالخصام والعنف مِن طبيعة الذَّكَر وليس الأنثى. وهذه الخاصية محمولة في أدنى مكونات الذكورة، ومنفيةٌ عن أدنى مكونات الأنوثة. وقد ثبتَ طبيًا أن الهرمون الذكوري الأساسي وهو هرمون "التستسترون" مسئول عن العنف الفكري والنفسي والجسدي للذَّكَر، بينما الهرمونات الأنثوية مسئولة عن الرقة والحنان والنعومة. وأنصحُ القارئَ هُنا أن يعيد قراءةَ المقارنة بين المَلك سليمان ومَلِكة سبأ في مقدمة الكتاب.

وأختمُ الحديثَ عن استمرارية الحياة بواحدة مِن أكثر آيات القرآن إبداعًا في الصياغة، وقد أصابتني بالدهشة في سنوات دراسة الطب حينما علمتُ أن كل عِلم "النساء والتوليد" قد لخصه الله تعالى في لفظيْن فقط في القرآن:

{أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23)} المرسلات.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13)} المؤمنون.

الآية (12) في سورة " المؤمنون" تصِفُ الطورَ الطيني من سلالة الإنسان قبْلَ ظهورِ الذَّكَر والأنثى حينما كان التكاثرُ لا جنسيا كمًا وصفنا أطوار الخلق أعلاه. لكن الآية (13) وصفتْ وظيفة النطفة من ماء الرجل المهين، الذي أشير إليه لفظيًا في سورة المرسلات أيضًا، ثم وصفتْ ما يحدث لهذه النطفة من تكريم حينما ينجح حيوانٌ منويٌّ واحدٌ فقط من مئة مليون في تلقيح البويضة التي تنتظره في "قناة فالوب" بلفظيْن اثنيْن غاية في الروعة " قَرَارٍ مَكِينٍ"!

"قرارٌ" تفيد: المَقر الثابت والاستقرار. أما "مكين"، فكلمة دسمة تعني امتلاك كل أسباب الأمن والمنِعة والسلطة. وقد وصفَ الله تعالى حالَ يوسفَ-عليه السلام- بعد أن خَرج مِن ابتلاءاته الكثيرة باللفظ نفسه:

{وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56)} يوسف.

هذه الآياتُ تَصِف لحظة التمكين المهيبة ليوسفَ -عليه السلام-، وتضع الحدَّ الفاصلَ لكل مآسي حياته من طفولته وحسدِ إخوتِه له، إلى نجاته من البئر ثم بيعه بثمنٍ بخسٍ لعزيز مصر، ليبدأ رحلة مآسٍ جديدةٍ مِن فِتَن تَعرَّضَ لها في القصر ثم السجن سنينَ عددًا، ثم أخيرًا براءته وتمكينه في الأرض. ولم يصبح يوسفُ حينَها مكينًا في القصر، وإنما أصبح ملكًا على مصرَ العظيمةِ حينَها ثم ملكًا مِن أعظم ملوك الأرض والتاريخ البشري الذي تناقلته الأديان مِن بعدِه. إذن، فلفظ "مكين" في القرآن له مدلولٌ عظيمٌ جدًا، فما هو مدلوله في علاقة الحيوان المنوي المهين حينما يصبح نطفة في قرار مكين؟ هنا نحتاج لتتبع مبسط بعيد عن التعقيدات العلمية لفهم عملية الإخصاب ومن ثم الحمْل:

حينما يَقذِف الذَّكَرُ السائلَ المنوي في فرْج الأنثى، سواءٌ أكان زواجا شرعيا أم غيرَ شرعي -لأن الحديث هنا عن عملية بيولوجية حيوانية وليس وصفًا فقهيًا للحلال والحرام- فإن السائلَ يحتوي على مئة مليون حيوان منوي. يتم القذف داخلَ فرْج الأنثى حيث يكتظ هذا المكان بالسوائل والإفرازات الكيمائية والمخاطية التي تلعب دورًا مهمًا في حماية الأنثى من الأمراض، كما تلعب دورًا في تمحيص هذه الملايين من المخلوقات المجهرية في مقدرتها على التحدي، وقدرتها على تحمل رحلة طويلة وشاقة جدًا في انتظارها. وعليه فإن عشراتِ الملايين من الحيوانات المنوية تنتهي حياتُها هنا في فرْج الأنثى، بينما تنجح عشرات الملايين في اختراق عنق الرحِم لتجد نفسَها في بحرٍ لُجِّيٍّ متلاطم الأمواج من السوائل والظلام الدامس، وهي لا تَدري أين تتجه، لكنها تجري بسرعة خاطفة في محاولة النجاة بحياتها. ولتتصور خطورة الرحلة لا بد أن تعلم أن حيوانًا منويًا واحدًا فقط من هذه الملايين سينجو وذلك يتم فقط بالوصول إلى مقر البويضة الناضجة التي تنظر بكل كبرياء في طرف أحد المبيضيْن.

يرسل المبيضُ الذي يحمل البويضة الناضجة إشاراتٍ كيميائية (Chemotactics) تنتشر في سوائل الرحم تلعب دورًا في توجيه الحيوانات المنوية لمكان البويضة، لكن هذه الإشارات مبهمة ولا يفهمها إلا الأقوى من الحيوانات المنوية. وعليه فإن الملايين منها تتوه في اتجاهاتٍ مختلفةٍ وتموت. ينجح بعض الملايين في التقاط الإشارات فتصل إلى أعلى الرحم، ثم ينجح بعضها في تحديد اتجاه تواجد البويضة الناضجة، بينما تموت الملايين التي تضل الطريقَ في الاتجاه نحو المبيض الآخر. في النهاية ينتهي السباق بين الملايين المتبقية نازلة في قناة فالوب في أعظم مارثون سباق في الطبيعة، إلى أن ينجح حيوانٌ منويٌّ واحد فقط في اختراق الغشاء الخارجي للبويضة وتموت الملايين الباقية في قناة فالوب. بعد عملية الاختراق تقوم البويضة بإفراز غشاءٍ سميكٍ يقطع ذيلَ الحيوان الفائز، ويسمح فقط بدخول رأسه المقطوع إلى داخلها. هذا الرأس يتم تفكيكه وإخراج شريط الحمض النووي منه الذي يحمل شفرةَ الحياة، ليتم دمجُه مع الحمض النووي في نواة البويضة، فيتكون شريطٌ نووي جديد يحمل الصفاتِ الوراثية للجنين المرتقب مِن مكونات الزوجيْن الذَّكَر والأنثى. هُنا تكون النطفة قد وصلت للقرار والمَقر النهائي: واحد فقط مِن مئة مليون.

في الطب البشري فإن العِلم المختص بالأنثى دون الذَّكَر يسمّى عِلم (النساء والتوليد). وهو يتكون مِن شِقيْن: "عِلم النساء" يختص بالتركيب البيولوجي والفسيولوجي والخصائص النفسية والهرومونات التي تؤثر على الأنثى في حياتها العادية من غير حمْل. رحلة الحيوانات المنوية المهينة أعلاه يتحكم فيها كل خصائص "عِلم النساء" ابتداءً من الصدمات الكيميائية في الفرْج التي تَقتل الملايين منهم فورًا، إلى السباق المستميت بحثًا عن عنق الرحم، ثم الرحلة المرعبة داخل بحار الرحم بحثًا عن خيارٍ واحدٍ لا ثاني له: إما الوصول إلى "القرار" الذي تقف عنده البويضة أو الموت. وتنتهي هذه الرحلة التي ربما تمثل أعظمَ رحلة مهانة خلقها الله في الطبيعة، بنجاة واحدٍ فقط من مئة مليون من الحيوانات المنوية، حيث ينجو برأسه فقط حينما يصل إلى القرار أو المقر المقصود. بعد هذه

العملية المذهلة تبدأ المرحلة الثانية في عِلم النساء والتوليد وهي مرحلة الحمْل التي عبَّرَ عنها الله أيضًا بلفظ واحد فقط "مكين":

فورَ عمليةِ الإخصاب يرسِلُ المبيض إشارةً كيميائية عاجلة لغدة السيادة في جسم الإنسان، وهي الغدة النخامية (pituitary gland). الغدة النخامية في حجم حبة الفاصوليا، وتوجد أعلى العنق وأسفل المخ. وظيفتُها الأساسية إرسال شفراتٍ كيميائية للتحكم في وظائفِ معظمِ الغدد الصماء في جسم الإنسان. فورَ استلامِ الغدة النخامية لرسالة الحمْل من المبيض تصدر إعلانًا بحالة الطوارئ القصوى في جسم الأنثى معلِنة "حدوث حمل"، وأنَّه مِن الآن فصاعدًا فإن كل جسد الأنثى يصبح تحت سلطان الجنين، ويرضخ تمامًا لتوفير كل احتياجاته إلى ما بعد الولادة. وأول الإشارات غالبًا تكون إصدارَ تعليماتٍ للغُدد التي تنتج هورمون "الريلاكسين" أو "الاسترخاء" الذي يقوم بإرخاء جميع عضلات الجسم ليمهد لتضخم الرحم والحوض، ومِن أعراضه الجانبية أن البلعومَ والمريء يسترخيان أيضًا، فتصاب الأنثى بالغثيان، وأيضًا استرخاء العضلات والأوعية الدموية يصيب الأنثى بالدوخة أو الدوران نتيجة انخفاض ضغطِ الدم. أيضا ترسِل الغدة النخامية إشاراتٍ للثدييْن لتبدأ عملية التضخم وإنضاج الغدد اللبنية. وترسِل أوامرَ للقلب والرئتيْن والكُليتَيْن لتزيد مِن معدَّل إنتاجهما اليومي بصورة متصاعدة تَفي بحاجيات الجنين وهو ينمو. وهكذا تتمكن تلك البويضة الملقَّحة مِن فرْض سُلطانها على كل العمليات الحيوية في جسد الأنثى.

فورَ ظهورِ أعراض الحمْل تتغير حياة الزوجيْن إلى الأبد. فمع أولِ أعراض الغثيان (الوحم) والإصابة بالدوار والدوخة، يذهبان للطبيب لتأكيد الحمْل. وما هي إلا ساعات قليلة حتى ينتشر الخبرُ بين عائلة الزوج والزوجة وتبدأ ترتيبات كل العائلتيْن في انتظار المولود الجديد الذي يأخذ تسعة أشهرٍ في حالة "تمكُّن" وسلطان تام على جسد الأم وعلى ظروف الزوج وعلى كل اجتماعيات العائلتيْن.

لا أحب أن أطيلَ في وصف تبعات الحمْل سواءٌ أكان شرعيًا يُحتفَى به، أم غيرَ شرعي يقود لكارثةٍ اجتماعية، لكن المتغيرات التي تحدث فورَ الحمِل عبَّرَ عنها القرآنُ أروعَ تعبيرٍ بلفظٍ واحدٍ فقط: " مكين"، كما عبَّرَ عن رحلة المهانة لمئة مليون حيوان منوي في رحلة البحث عن النجاة بلفظ واحد أيضا "قرار". بين الوصفيْن فالحُكم متروك للقارئ ليحكم: أيهما أعظمُ في عملية الخلق: الأنثى أم الذَّكَر؟

وإنْ كان الوصفُ القرآني والطبي أعلاه لا يروق لعشاق الفقهِ الذكوري، فقد تَرَك اللهُ لنا آياتٍ أخرى في الطبيعة تمايز بين الذَّكَر والأنثى بعيدًا عن الإنسان.

آية إناث "النحل" و "النخل" و "الأنعـــام":

لا بد أن ننتبه إلى أن لفظ "آية" في النص القرآني لا يعني الجملة أو النصَّ الذي يحمل رقمًا محددًا، وإنما يعني المحتوى الفكري والآية الكونية التي تهدي لوجود الله وعظمة الخلق في سياق النص القرآني. فالقرآن كتابٌ، كله هُدى ونور وآيات تَهدي للحق في كل لفظ فيه. "آية" بمعنى دلالة وبيِّنة تثبت وجودَ الخالق وتَهدي إليه. ومِن عجائب القرآن التي لا تنتهي أنه "مثاني" بمعنى له أبعاد وثنيات وأعماق تكشف عن نفسها كلما غاص المتدبر فيه بعقله، وكلما اتَّسَع العقلُ مع اتِّساعِ الكون في كل جيل:

{وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآَنَ الْعَظِيمَ (87)} الحجر.

{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)} الزمر.

لا بد من ملاحظة أن القرآن يصِف كلامَ اللهِ بـ "الحديث"، وسنتطرق للفظ "حديث" بشيء من التفصيل في باب "عِلم الحديث" و"علوم القرآن". من هذا الأمثلة أسوق القارئَ لعمقٍ مدهشٍ لبعض آيات سورة النحل ترتبط بموضوعنا. فقد ساق القرآنُ هذه الآياتِ واصفًا حالَ الذين يقللون مِن شأن الأنثى:

{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64)} النحل.

كالعادة يَذهب المفسرون لربط الآيات بحال العرب قبْلَ الإسلام، وكأن القرآن كتابٌ أدبيٌّ نَبَع من البيئة العربية كالمعلَّقات العشر. هذا الجهل مِن سلبيات ما يسمَّى بعِلم "أسباب النزول" الذي خَلَط بين المناسبات والأسباب، فصوَّر القرآن كأنه انفعالاتٌ وردودُ أفعالٍ تتابع حالَ النبي مع قومه في زمانه ومكانه، وتنزل وِفْق أسبابٍ ارتبطتْ بتلك البيئة وذلك الزمان، مما يُفقِد الآياتِ أبعادَها الكونية والعالمية. وسنناقش "أسباب النزول" في باب "علوم القرآن".

فإنْ كان المجتمع العربي قبْل الإسلام قد حقَّر الأنثى، فإنه لم يكن نشازًا عن بقية المجتمعات الإنسانية. بل إن المجتمع الهندوسي الذي يُعَد بمئات الملايين اليوم ما زال ينظر للأنثى النظرة الدونية ذاتَها لدرجة أن المرأةَ الصبية تُحرَق حيةً مع زوجها المُسِن حين موتِه؛ لتكون معه حيث يذهب حسْبَ معتقدِهم إلى اليوم. إذن، فالآيات أعلاه تَذُمّ سلوكًا شائعًا في الكثير من المجتمعات الإنسانية، والقرآن هنا يعالج هذا المشكِلَ العالمي وليس العربي. بعد عرض المشكل الاجتماعي الذي يرفع مِن قدْر الذَّكَر ويقلل مِن شأن الأنثى جهلاً منهم، يفاجئنا القرآن بضرب أمثلة بعلو ثلاث إناث من الطبيعية - غير البَشر - ليلفت نظرَ المتدبرين في "مثاني" القرآن لدور الأنثى في الحياة على إطلاقها، وما الإنسان استثناء في ذلك، وهي أبعاد تَقشَعِر منها الأبدان:

{وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65).}

بعد أن قدَّم أنّ سر الحياة في الأرض مرتبطٌ بالماء، مضى ليضرب أمثالاً في سر الحياة:

{ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66)}

صحيح أن العِبرةَ في الأنعام، لكن البعد المَعني في تلك العِبرة في إناث الأنعام وحدَها، إذ إن اللبنَ يَخرج من بطون "النعجة" و"المعزة" و"الناقة" و"البقرة"، وهي إناث الأنعامِ المعنية هنا، بينما لا عِبرة محددة في ذكورها "الخروف" و"التيس" و"الجمل" و"الثور". والذين يعملون في الرعي والطب البيطري يعلمون أن الثروةَ الكبرى للرعاة تكمُن في الإناث، ليس لأنها منتِجة للألبان فقط، وإنما لأنها تنتج المزيدَ من القطعان فتزيد الثروة. والمتعارَف عليه أن الذكور مصيرها الذبح في سِن مبكرة حتى لا تكون عالة من حيث الرعاية والغذاء، إذ لا فائدة فيها وهي حية إلا القليل القوي منها الذي يُحفَظ لتلقيح الإناث.

قد يبدو هذا المثال واضحًا لكن المثال الآتي مدهِش لمَن يتدبر:

{وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67)}

ثمرات النخيل من نتاج النخلة الأنثى فقط. إذ إن شجرةَ النخلِ هي الشجرة الوحيدة التي فيها "نخلة ذَكَر" منفصلة عن "نخلة أنثى"، وما دور النخلة الذَّكَر إلا إنتاج اللقاح الذي ينقله الإنسان إلى النخلة الأنثى التي تنتج الثمرَ المَعني. ورغم أن الله تعالى قد ذَكَرَ الأعنابَ معها، فهذا لا يغير الحقيقة أن الآياتِ ترجِّح الدورَ الأنثوي في هذا السياق من غير إشارة للدور الذكوري. وربما في ذِكْر "الْأَعْنَابِ" هنا دعوةٌ للبحث العلمي لتخرج لنا مفاجأة لم نعلمها في الفرْق بين التكوين الذكوري والأنثوي لنبات العنب الذي ربما يتفق مع السياق العام في هذه الآيات.

ويختم هذا السياق بصاعقة "مملكة النحل" التي تسودها "ملكة لها عرش عظيم" بلا منازع فيه:

{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)} النحل

إنَّ نداءَ اللهِ للنحل بصيغة المؤنث هي صيغة عملية مقصودة تتناسب مع مهام الأنثى في عالم النحل. ومِن المعروف علميًا وحتى بالمشاهدة المباشِرة لأيّة "خلية نحل" فإن الإناثَ هُنّ المحرك الأساسي لخلية النحل، وعليهن عاتق الخلية، وهي المخلوق الأقوى في الخلية. وبإمكانكم الاطلاع على أي بحث يوضح لكم حياةَ النحل في الخلية. ومن هنا لا نشك في أن توجيه الله تعالى الوحي للأنثى هنا إلا إشارة لضآلة دور الذَّكَر.

ذكورُ النحل تتميز بوجود شَعرٍ في المؤخرة، ويوجد في الخلية عددٌ مِن الذكور عند توافر الرحيق، حيث تقوم الشغالات الإناث ببناء عيونٍ سداسية واسعة في الخلية ينتج عنها ذكور، والسبب هو أن الملكة لا تضغط بطنَها عند وضع البيض في العيون الواسعة. وقد ثبت أن البيضَ غير الملقّح ينتج ذكورًا، ولا عمل للذَّكَر سِوى تلقيح العذارى، وعند انتهاء موسم الرحيق يلاحظ النَّحّالُ اختفاءَ الذكور من الخلية؛ لأن الشغالاتِ تقتل جميعَ الذكور لأنها تأكل ولا تفعل أي شيء، وانتهت مهمتُها التناسلية. ذكورُ النحلِ قصيرةُ الجسم، ولكنها عريضة، وهي أكبر من الشغالات، وبطونُها ليست مدببة، ولا تمتلك آلة لسْع، وإنْ كان لها طنين مزعج.

وفي المناحل يقوم النَّحّال بهدم بيوت الذكور للحد من استهلاكها للعسل. و يمكن تمييز بيوت الذكور بارتفاع غطائها عن بيوت الشغالات، ويكون الغطاء على هيئة قبة مما يسهل تمييزه وهدمه للتخلص من الذكور للفائدة الاقتصادية.

مِن هنا نفهم أن للنحل مملكة آية في الإبداع، وأن هذه المملكة تسودها "ملكة" أنثى ذاتُ كبرياء، وأن حرَسَها وخَدَمها كلهم من الإناث، وأن إنتاجَ العسل والشهد والشمع وعملية البناء كلّها مِن إبداع الإناث. ونذكّر نقطة أخيرة هي أن ملكة النحلِ قوية جدًا وتطير في ارتفاع عالٍ حين التلقيح، مما يَفرض على الذكور التنافسَ في الوصول إليها، ولا ينالُها إلا أقواهم وأقدرُهم على الطيران العالي. وبعد أن يقوم الذَّكَر المميز بتلقيح الملكة فإنه يموت فورًا. فسبحان الذي خَلَقهم وجعل مِن ملكة النحل آية للإنسان.

مِن مثال مملكة النحل نعلم أن مَن أدخَل فكرَه الذكوري فيها فقتل ملكة النحل أو عطّلَ وظيفتَها فقد دمَّرَ كل المملكة. وهكذا فإن إسقاطَ دورِ الأنثى في أي مجتمع في الطبيعة بما فيه الإنسان يعني دمارَ المجتمع بأسره.

بَقي أن أختِم بالتنبيه إلى أن الله وصَف آية الأنعامِ بأنها "عِبرة"، أما آية "النخل" فقد انتهت بالخطاب لـ "قوم يعقلون"، بينما انتهت آيةُ النحل بـ "لقوم يتفكرون"، وكل هذه الاصطلاحات من مكونات عملية: "عقل يعقل فهو عاقل".

بعد هذه السياحة العلمية والفكرية في عالم الخلق التي لا تترك لنا مجالاً للشك في أن خلقَ الأنثى ودورَها في استمرارية الحياة في كل الطبيعة أعظمُ مِن خلق الذَّكَر، سواءٌ أفي عالم الحيوان أم النبات أم الإنسان، ويُستَحسن أن أختم بسياحة من نوع آخر في تصوير القرآن وهو يروي لنا أحسنَ القصص لدور الإناث في صناعة اثنيْن مِن أعظم رُسُل الله في الإسلام وفي تاريخ الإنسانية: عيسى بن مريم، وموسى -عليهما السلام-.

دور الأنثى في خلق الإنسانية:

إن مهمة المرأةِ ليست ولادةَ الأطفالِ مِن رحِمِها، وإنما ولادةُ الرجال مِن رحِم الحياة. وهذا عينُه ما يجعل مفهومَي "الولادة": "ولد - يلد –ولادة: فهو والد ووالدة"، ومفهوم "الخلق"، مفاهيم وجودية لا تكوينية فقط، ولكن هذا الخلق والإبداع لا يكون إلا بالآلام وحدَها كما هي آلام الطلق. وهو ما علمته المرأة للحياة في منطق الولادة، وإشارتها التكوينية.

وعليه، فإنا في هذه السياحة لا أقصد تتبعَ دورِ الأنثى في الخلق البيولوجي للحياة كما سبق، ولكن أتتبع فيها دورَ المرأةِ في صناعة الإنسانية والأجيال كما صوَّرَه الله تعالى لنا، ضاربًا مثالاً بنشأة عيسى وموسى -عليهما السلام- ، حيث كان الدور الأنثوي في مراحل تكوينهما الإنساني ظاهرًا جدًا، مع غيابٍ تامٍّ لدور الذَّكَر، بل وفي بعض الأحيان يظهر لنا فقط الدور السلبي للذَّكَر في حياتيْهما.

عيسى بن مريم:

{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35)} آل عمران.

نلاحظ هُنا أن اللهَ تعالى قد قدَّمَ لمولِد المسيح -عليه السلام- بتسليط ضوء كثيف على مولد أُمِّه، صوَّرَه على لسان جَدَّته امرأةِ عمران. فقد قدَّم لنا النسبَ الشريف لمريمَ بنتِ عمرانَ التي انحدرت مِن نَسَبِ المصطفين الأخيار واصفاً إياهم بأنهم ذرية بعضها من بعض. ثم مضى السياقُ مباشَرةً للحديث عن امرأة عمران وليس عن عمرانَ نفسِه. وعمران هذا سرُّه غامض، إذ إن القرآن لم يتحدث عنه شخصيًا رغم أن السورةَ تحمل اسمَ آل عمران. ورغم أن المجالَ ليس مجال البحث في أنساب الأنبياء والمرسَلين في بيت إسرائيل، إلا أنه مِن المفيد القول إن بعضَ المفكرين يرَوْن أن اسمَ "عمران" أصلاً يفيد طولَ العمر. وأن عمران المَعنِي هو مَن سمَّاه اللهُ "ذا الكفل" و هو نفسُه والد هارونَ وأُختِه، وهو الذي كَفَل موسى عليهما السلام، وقد عُمِّر إلى أن أنجب مريمَ أُمَّ المسيح-عليه السلام- لتكون شجرةُ الرسُلِ شجرةً واحدة متصلة مِن ذرية إبراهيمَ عليه السلام. وهذا الرأي يفسر قولَهم لمريمَ كما سنرى لاحقًا: " يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ".

لفظ " امرأة " يفيد استقلالَ الشخصية وحرية الإرادة لدى الأنثى كما أسلفنا. وهُنا كان الحديث عن امرأةِ عمرانَ بشخصيتِها المستقلة بغض النظر عمَّن هو زوجها. فقد نذرتْ امرأةُ عمرانَ بِحُرِّ إرادتِها ما في بطنها محررًا لله، ولم تَصِفْ ما في بطنها بذكورةٍ أو أنوثة، وإنما كان الموهوبُ لله مهما كان، قبل أن تعرفه. وهذا ينفي إنها فوجئتْ بها أنثى كما فسَّر البعض ردَّ فعلِها حينما وضعتها أنثى:

{ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36)}

أنا أرى أنها قالت: {..رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى... وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} أما بقية الآية التي دخلت كجملة اعتراضية، فمِنَ اللهِ تعالى: { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى}.

امرأةُ عمرانَ كانت امرأةً حُرة مؤمنة عزيزةَ النفس مِن سلالة كريمة، ويكفيها شرفًا أن المسيحَ-عليه السلام- مِن رَحِمِ ابنتِها. وعليه فإني لا أرى في قولها إلا صلابةً في الموقف وثباتًا على المبدأ أنها أصلاً قد نذرتْ ما في بطنها محررًا لله ولم تكن تحتاج لأن تَصِفها بأنها أنثى وأن الذَّكَر ليس كالأنثى كما فسَّرَ البعض. لكن الله سبحانه وتعالى هو الذي قال إنه أعلمُ بما وضعتْ، إذ إنها كانت تعلم فقط أنها أنثى، لكن الله يعلم أن هذه الأنثى لها شأن عظيم لا يعلمه إلا هو، وأنها مصطفاةٌ على نساء العالمين، وهو ما لم تكن تعلمه امرأةُ عمرانَ حينَها. ثم مضى الله تعالى يُقِر حقيقةً يظن الناس دوما عكسَها وهي أنّ الذَّكَر ليس كالأنثى، ولم يَقُلْ إن الأنثى ليست كالذَّكَر. فالصيغة هنا تفيد أن للأنثى شأنًا أعظمَ مِن شأن الذَّكَر. بناءً على هذا التقديم الأنثوي مضى السياقُ القرآني يصِف نشأةَ مريمَ عليها السلام:

{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)}

نلاحظ أن السياقَ ينتقل بالتقديم لمولد عيسى-عليه السلام- بالحديث عن فضل جَدَّتِه ثم فضل أُمِّه. فلما أدخل السياقُ ذَكَرًا في القصة، كانت كرامات مريمَ هي مصدر الإلهام لزكريا -عليه السلام- على نبوته وصلاحه ليراجع نفسَه ويسأل الله مَن فضله أن يرزقه ذريةً صالحةً رغم يأسِه:

{ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (41)}

وهكذا كان إلهامُ مريمَ -عليها السلام- لزكريا سببًا في إصلاح زوجه، ثم ميلاد يحيى -عليه السلام-. ثم عاد السياق لمريمَ ليُعلِي مِن شأنها علوًا لا يضاهيه علوٌّ:

{وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)}

نلاحظ هنا حلاوةً موسيقية وروحية عظيمة في علاقة الملائكةِ بمريمَ لم يَرِد في القرآن لها مثيل وما كان الله يحتاج أن يُخبِر مريمَ بقدْرها، وما كان يحتاج ليعلِمَنا بذلك لكن لأنها عليَّة عند الله فكانت صلتُها المباشِرة مع الملائكة، وليس ملكًا واحدًا، تَرْقى لمقام التخليد في القرآن، مما يرفع مِن شأنها عند الله تعالى وعند الناس ليوم القيامة، والمسيحُ لم يأتِ ذِكرُه بعدُ. وقد رَفع ذلك مِن شأنها بين الصالحين من قومها أيضا:

{ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44)}

وما كان الله يحتاج ليخبرنا أن القومَ تنافسوا في كفالتها، ولكنه إعلاءٌ لشأنها حتى قبْلَ عِلمها بأنها أمّ المسيح المرتقَب. أيضًا فإن توثيقَ اختصامِهم وتنافسهم في كفالة مريم يمهد لحقيقةٍ مهمة، وهي عِلمهم المسبق أن مريمَ هذه كانت معلومة لهم أنها أم المسيح المرتقَب، الحقيقة التي تنكروا لها لمَّا بُعِث المسيح فانتكسوا على أعقابهم وأنكروا فضلَها ونسبَها وقالوا عليها بهتانًا عظيمًا سنناقشه في باب "وقولهم على مريمَ بهتانا عظيما" الذي يمهد لباب "وقولهم على عائشة بهتانا عظيما". وتمضي الآيات تقص الصلة الوطيدة بين مريمَ والملائكة:

{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45)} آل عمران.

وما كان الله يحتاج ليخبر مريمَ بأنها ستحمل المسيحَ، لكن إخبار الملائكة لها قبْلَ الحدث فيه تخصيص واضح لمكانةِ -مريمَ عليها السلام- عند الله مِن غير وجود المسيح نفسِه. فالله لا يحتاج لمقدمات لِمَا يشاء، ولكن الخبر هنا ليعيننا أن ننتبه لعظمة شأن مريمَ عند الله أولاً، ثم كانت تلك المرأة هي أُم المسيح -عليه السلام-.

نلاحظ في قصة مريمَ أن الله لم يُدْخِل أيَّ اسمِ مذكّرٍ فيها إلا اسمَ زكريا –عليه السلام- الذي ورَد وكأنه تتلمذ على يدَيْ مريمَ عليها السلام.

وفي سورة مريم بُعد آخر للقصة:

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)}

أتوقفُ هُنا عند لفظ "حجاب" فالحجاب هو الساتر أو العازل عزلاً تامًا كأن يكون حائطًا أو جبلاً، لكنه ليس لباسًا ترتديه المرأة كما سنناقش ذلك في باب "فِقه الكلب". وما كان الله يحتاج لأن يرسِل لها "روحَه" ليبشرها بمقدِم المسيح، ولكن علو الشأن يستدعي علوَ شأن الرسول الذي يحمل لها النبأ.

{ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ

النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)}

وما كان الله يحتاج ليخبرنا بكل هذه التفاصيل عن تفاعلِ مريمَ مع الحدث إلا إذا كان إعلاءً للشأن حتى تحفر كلماتها القوية مع أنوثتها الفياضة في قلوب المؤمنين، وهي تحاور "روح الله"، ويصوِّر الله لنا مشاعرَ الأنثى العفيفة الرقيقة وهي تتمنى الموتَ على هذه المسؤولية رغم أنها قد علِمتْ مِن "روح الله" أن مولودَها سيكون آية للناس، فأراد الله ألا يجعلها نسيًا منسيًا كما تمنت حينذاك، بل جعلها وابنَها آية للعالمين، وجعل قصتَها مِن أروع قصص القرآن التي تبكي قساة القلوب من حلاوة الكلمات التي صيغت بها. وانصاعت مريمُ لأمر ربها وواجهتْ قومَها بالحدث الغريب:

{ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29)}

هُنا قال بعض المفكرين إن قولهم: " يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا" فيه إشارةٌ إلى أن عمرانَ هو والدُ هارونَ المعمر عبْرَ الأجيال في بني إسرائيل، وكان ختام ذريته مِن امرأةِ عمرانَ هو مريم -عليها السلام- لتكون أختَ هارونَ، والله أعلم. وقد قُلنا في نظرية " آذان الأنعام" إن عيسى -عليه السلام- كان في مهده في سِنٍ مساويةٍ لسِن مريمَ، ولكنه ما كان في مهده صبيًا كما يظنون. وكان هذا تأويلنا لقول الله تعالى: "ويكلم الناس في المهد وكهلا". فكان كلامُه كهلاً حينما صَدح بالرسالة في الثلاثين من عمره الظاهري، لكن عمره البيولوجي كان في آخر الأربعينات وهو سِن الكهولة، لتتحقق بذلك المعجزة الثانية في كلامه. أما أولى معجزاته التي انفرد بها القرآن ولم توثقها الأناجيل فكان دفاعه عن أُمِّه الطاهرةِ المصطفاة على نساء العالمين:

{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35)} مريم.

ولم يغفل اللهُ أنْ يجعلَ عيسى في مهده وهو يكلّم الناسَ يعلنُ علوّ شأن أُمِّه. فها هو ذا المسيح المرتقب قد ولِدَ ونَطَق وكان أولَ مَن كرَّمَه بلسانه المعجز حينها هو أمّه الطاهرة.

مما سبق نلاحظ أن القرآن قدَّمَ لنا مولِدَ عيسى ومقدمَه للدنيا وهو مِن المقربين بتقديم سيرة النساء اللائي لعِبْن الدورَ الأساس في صناعته كآخر نبيٍّ ورسولٍ في بيت إسرائيل، مع إغفالٍ تامٍّ لذِكْر الذكور في حياته. وسنرى في باب " في الطريق إلى دمشق" دورَ النساء في حمايته من مؤامرات اليهود، ثم كشف شبهة موته، ثم في باب "وقولهم على مريمَ بهتانا عظيما" كيف طمسَ اليهودُ هذه القصة النِّسَوِيَّة الرائعة ببهتانهم على مريم، ذلك الذي تقشعر منه الأبدان.

ولنا في قصة صناعةِ موسى -عليه السلام- مع النساء مثَلٌ آخرُ أكثرَ تفصيلاً:

صناعة موسى:

"صناعة موسى" عنوانٌ مقتبَسٌ مِن النص القرآني، وقد استلهمت الفكرة وتوسعت فيها من مقال للكاتب الفلسطيني أحمد أبو رتيمة، إذ إن حياةَ موسى كان فيها مِن التقلبات ما فيها، لكن كانت يدُ اللهِ في الخفاء تصنعه صناعة، وتدبر الأقدارَ له حتى يكون الرسولَ المَعنِي في نهاية المطاف فيكلمه الله تكليمًا. فقد ورد لفظ "صنع" مرتيْن في سورة طه وهي تروي القصة مختصرة، لكن إذا فصلناها مقروءةً مع سورة القصص نفاجأ بالعجب العجاب حينما نكتشف سرَّ الصانعين:

تبدأ قصة موسى بالخطاب الرباني لأمِّه مع إغفالٍ تام لهوية الأب وأي دور له في صناعته:

{ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)} طه.

وقصة الكفالة هذه وردت بصيغةٍ أخرى في سورة القصص:

{وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12)} القصص.

ويبدو مِن تتبع قصص الأنبياء أن مَن كَفَل موسى كان زوجَ أُمِّه والدَ هارونَ وأُختِه وليس والدَ موسى نفسه، لذلك نجد ذِكْرًا لنبي غامضٍ اسمُه "ذو الكفل" ورَد أكثرَ مِن مرةٍ مِن غير تفصيل:

{وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85)} الأنبياء.

وذو الكفل هذا ربما كان هو نفسه "عمران" الذي عُمِّر طوالَ القرون إلى أن أنجب مريمَ في آخر المطاف فسمَّاه الله حينَها فقط "عمران" للتنبيه على طول تعميره في الأرض. وهذا التناسق بين الإشارات القرآنية ربما يفسر لنا لماذا نادى هارونُ أخاه موسى بلفظ غريب هو ابن أُم وليس ابنَ أمي:

{ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) } طه.

فموسى -عليه السلام- كان نِصْفَ أخٍ لهارونَ وأختِه يشترك معهما في الأم وليس الأب "عمران" الذي كَفَله ولم ينجبه، لذلك وصفه بلفظ "ابْنَ أُمَّ" للتمييز أنه الأم هي المشتركة بينهما، وبينما حينما لَامَ اليهودُ مريمَ على إنجاب المسيح قالوا لها يا أختَ هارون، لأنها تشترك مع هارونَ في الوالد المعمر ذي الكفل أو عمران، والله أعلم.

ما يهمنا هنا هو أن موسى-عليه السلام- قد صُنِع صناعة رغم الظروف القاهرة، فما هي الأنامل الربانية التي صَنَع اللهُ بها كليمَه؟ قصته في سورة القصص تفصل تفصيلا:

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7)}

بِغَضِّ النظرِ مَن هو والد موسى، عمران كان أو غيره، فقد أخفاه القرآن ليبدأ الوحي لأُم موسى مباشرةً وهي تعلم الخطرَ الذي كان ينتظر مولودَها الذَّكَر مِن بطش فرعونَ الذي كان قد قرر قتلَ الولْدَان في بيت إسرائيل جميعًا بعد أن عَلِم منهم أن مولِدَ مُخلِّصِهم الذي سينهي مُلكَه قد آنَ، فبدأتْ صناعةُ اللهِ لموسى بالوحي أعلاه لأُمِّه مع إغفالٍ تام لوالده ولأخيه الأكبر هارون، ومضى التابوتُ مع الأمواج في عرض النيل بأمر الله وعلى عينه:

{ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)}

لا يَخفى علينا أن ذِكْرَ "فرعونَ" و"هامانَ" و"جنودَهما" وكلهم ذكور جاء اعتراضيًا ووصِفوا بالخاطئين، ليعود السياقُ لتتبع الأناملِ الرقيقة التي تَصنع موسى في مهده:

{ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)}

نلاحظ هُنا أن السياقَ القرآني الذي وَصَف آلَ فرعونَ سابقًا بأنهم أعداءُ موسى ومصدرُ حزنِهم، يَستثني امرأةَ فرعونَ مِن ذلك العدوان، لذلك يصفها بأنها "امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ"، وليس زوجَ فرعون: فهي كانت زوجَه حسْبَ شرعِهم، لكنها كانت امرأةً ذاتَ شخصيةٍ مستقلةٍ، شاء الله لها أن تكون مِن سيدات نساء العالمين اللائي ضَرَب الله بهنّ مَثَلاً للعالمين:

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)} التحريم.

فكانت امْرَأةُ فِرْعَوْنَ هي اليد الحنون التي فرضتْ رأيَها على زوجها الظالم فانتشلتْ موسى مِن اليم ومِن براثن القتل على أيدي جنودِ زوجها، وهكذا انتقل موسى على عين الله مِن يدِ أُمِّه إلى يدِ امرأة فرعون:

{ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10)}

يعود السياق ليكشف لنا سرًا من أسرار الغيب في فؤاد أُم موسى حينَها، يقدم لنا به إشارةً للتمييز بين لفظ "الفؤاد" وبين لفظ "القلب" كما ألمحنا لذلك في باب "أفلا تعقلون". فالسياق هنا يوحي لنا أن عاطفة أُمِّ موسى كادت تَفضح أمرَه، لولا أن "فرغ الله فؤادها" ثم "ربط على قلبها". فكيف أصبح فؤادُ أُمّ موسى فارغًا؟

قُلنا في باب "أفلا تعقلون" إن الفؤادَ لفظٌ مِن الألفاظ التي تَصِف إحدى آليات عملية عقل الأمور في القلب. والفؤادُ مصدر المشاعر مِن حزنٍ وفرح وخوف وأمان وقسوة ورحمة، لكن الله حينَها جعله فارغًا. وحتى نستوعب مدلولَ الفراغ هنا نحتاج لمقارنة سريعة بين القلب والفؤاد. فقد أصبح فؤادُها فارغًا حينما امتثلتْ لأمر الله في حدثٍ جللٍ:

فهي لم تُحِب فكرةَ إلقاءِ رضيعِها في اليم، وعكْس الحبِ الكراهية، لكنها لم تكره الفكرةَ لإيمانها بأن مصدرَ الأمر لا يريد به إلا خيرًا. إذن، تَم تفريغُ فؤادِها من الضديْن "الحب والكراهية".

ثم إنها لم تصدق أنها قد ألقتْ رضيعَها حقيقةً في اليم؛ لأن الإنكارَ هُنا أمرٌ فطري، لكنها أيضا لم تكذِّبْ نفسَها وقد ألقته بكامل وعيها وهو ذا أمامَها تتقاذفه الأمواج. إذن، تم تفريغ فؤادها من الضديْن: " التصديق والتكذيب".

ثم هي لم تَخَف حينما ألقته لأنها كانت تعلم أن الخطر عليه أكبرُ إنْ لم تفعل، لكنها بالطبع لم تمتلك الشجاعة لتصديق أنها ألقته بيديها في اليم. إذن، تم تفريغ فؤادها من الضديْن: "الخوف والشجاعة".

ثم هي لم تَفرحْ بطبيعة الحال مِن هذا الفعل الجلل لأنه ليس مما يُفرح الأم، لكنها لم تَغضب أيضا لأنها كانت تطيع أمر ربها. إذن، تم تفريغ فؤادها من الضديْن:"الفرح والغضب".

مِن هنا يمكننا القولُ إن الله جَعَل قلبها فارغًا من الأحاسيس والمشاعر حين الحدث. لأن أي إحساس أو انفعال عاطفي حينها كان سيكشف أمرَها. كان هذا هو حالها المتبلد الأحاسيس لحظة التنفيذ، لكن بطبيعة الحال سرعان ما اشتعل الفؤاد نارًا وكادت الأحاسيس الطبيعية أن تكشف أمرَها بأن تصرخ من الخوف والغضب والحزن بعد أن صدَّقتْ أنها فعلاً قد فعلتْ، فتدخلت يدُ اللهِ لتربط على قلبها:

{إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10)}

مِن هنا يمكننا التمييز الدقيق لاستعمال لفظ القلب والفؤاد في القرآن. فالفؤاد أصله مِن "فَأَد" وهي الحرارة، وربما يستعمل اللهُ اللفظ ليشير إلى أنه موطن المشاعر الملتهبة، بينما يستعمل لفظ القلب على عمومه ليصف أنه موطن العقل الهادئ الذي يرجِّح الأدلة ويتفاعل بحكمة خالية من الانفعالات. لذلك حين الحدث الجلل فرغ فؤادها من المشاعر الملتهبة لأنها كانت خطرًا عليها وعلى موسى، لكن قبْل أن يلتهب الفؤاد وكاد يفضح أمرها ربط الله على قلبها، أي مَكَّنَه من التفكير العقلاني للتعامل مع الحدث رغم مرارته، فطغى القلبُ على الفؤاد فكان التصرف الحكيم حينَها. وهكذا تمالكت الأم المكلومة عواطفَها وأطلقتِ العنانَ لعقلها فقط، لتخطط وتدبر ثم تدخل الأنثى الثالثة في صناعة موسى:

{ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11)}

كان مِن الطبيعي أن ترسل الأم رجُلاً مِن الأهل ليكون أكثرَ حذرًا وقوةً في الدفاع عن نفسه إنْ ألَـمَّ به خطر، لكن صنعة الله اقتضتْ أن تتلقفه أيدي النساء فقط. ولا يَخفى على عاقل أن تلك المرحلة مِن حياة موسى-عليه السلام- وهو رضيع في مهدِه لا حولَ له ولا قوة، ويواجه خطرَ الموت المحقق لو انكشف أمرُه، ليس لأنه مِن ولْدان بني إسرائيل المهددين بالموت فقط، وإنما لأن الموتَ أصلاً فرْضٌ على كل الولدان حينِها خوفًا مِن موسى وحدَه. ها هو الآن في بيت عدوه اللدود، وها هي صنعة الله تَكِلُه فقط لأيد النساء، ومَن أحسنُ مِن اللهِ صنعة! ويبدو مِن السياق أن أختَه استطاعت أن تجد طريقَها إليه في القصر وتابعت أخبارَه لكنها ما تهورت في فضْح سره إلى أن جاءت اللحظة المناسبة:

{وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13)}

هنا نلاحظ جيشًا جرَّارًا مِن النساء قد دخلن في صناعة موسى: فأمُّه ترسِل أختَه لتتبعَ أثرَه مِن غير أن تفضح أمرَه، ثم يحرِّم اللهُ عليه عددًا غيرَ محدود من أثداء المَراضِع حتى يصبح أمرُ رضاعتِه مشكلةً في قصر فرعون، بينما أمُّه الثانية آسيا امرأة فرعونَ متشبثة به، فتَظهر هنا أختُه في الصورة لتعيدَه إلى أمِّه وهُم لا يشعرون.

نلاحظ أن اللهَ تعالى قد اختصر القصة في سورة طه أعلاه، لكنه ذكَر لفظَ الصناعةِ مرتيْن، وكأنَّ موسى بدأت صناعتُه على يد النساء، ثم وقعتْ انتكاسةٌ في منتصف الطريق، ثم عادت الصناعة مِن جديد على يد النساء، فكيف كانت الانتكاسة في مسار القصة كما رواها الله في سورة القصص:

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)}

نلاحظ هنا مقارنة لا تَخفى على الأعمى أنه فورَ نُضجِه وخروجِه مِن القصر ومِن رعاية النساء، احتَكَّ موسى- عليه السلام- بالذُكران مِن أهل المدينة، ليقع ما لم يكن في الحسبان مِن قتْلِ نفسٍ أُولى، وكاد يبطش بنفسٍ أخرى، لينتهي به الأمر للهروب من المدينة بعد تم تدبيرُ المؤامرة لقتلِه، وكل الأبطال في هذه القصة الدموية كانوا ذكورًا، وكأنّ انحرافا كان قد وقع في مسار صنعته، لكن عين اللهِ الراعية له أخرجته مِن المدينة على حين غفلةٍ مِن أهلِها لتتلقاه أيدي النساء مِن جديد لتكون المرحلة الأولى من الصناعة الثانية:

{وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)}

كلُّ حَدَثٍ كان مِن تدبير العليم الخبير. لاحِظْ أن الأمَّةَ مِن الناس هُم رجال ذكور لكنهم لم يلعبوا دورًا في صناعة موسى غير أنهم ظلموا الفتاتيْن، مما أتاح لموسى فرصة طبيعية للتعرف بهن. فكان لقاؤه بالمرأتيْن لامتحان رجولته وشهامته وبابًا للتوبة عن فِعلته السابقة وعودةً لله وحدَه وهو في وحدته تلك، فكان ظهورُ الفتاتيْن في رحلة العودة للطريق المرسوم، وقد نجح في الامتحان. ثم كانت المرحلة الأخيرة من الصناعة الثانية على أيدي النساء أيضًا:

{فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(25)}

القرآن يترك لنا فجواتٍ بين السطور لنكملها بخيالنا. مِن الطبيعي أن الفتاتيْن كانتا تعودان متأخرتيْن منهكتَيْن كلَّ يوم، والسببُ هو انتظارُهما حتى يذهب الرعاء، لكن في ذلك اليوم عادتا مبكرتَيْن وعليهما علامات السرور والبهجة، وبطبيعة الأنثى ربما صرَّحَتا بإعجابهما بشهامة وأدبِ وورَع هذا الفتى الذي فعل ما فعل بلا مقابل وأجرُه على الله، وأبوهما كما يصوره السياق رجلٌ حكيم معزول في الصحراء مع ابنتيْه، وربما أحسَّ بأن إحداهن قد أبدت إعجابًا بموسى، فلم يَجرحْ مشاعرَها، بل فتح لها البابَ لتكمل الاختبار، ولِمَ لا؟ فهو رجلٌ حكيم لا يرى ابنتَه إلا امرأةً كاملة عقلٍ ودِين، ولها حقُّها المشروع في الحياة، لذلك أرسَلها هي دونَ أختِها لتدعوه للتعارف، وبطبيعة الحال جاءته تمشي على استحياء لكن مِن غير حجاب، إذ إن لفظ حجاب يعني "حاجز مادي يغطي كل ما خلفَه، أو حاجز كوني لا تخترقه الأبصار". والقصة هنا صرحتْ بأن موسى وجَد مِن دونهم امرأتيْن في البداية، مما يدلل على أنه رآهما وميزهما كنساء مِن بين الرجال وخاطبَهما مباشرةً سائلاً عن حالهما. فلما عادت إليه الفتاةُ منفردة وصَفَ اللهُ حياءَها لكنها بطبيعة الحال كانت مَرئية لموسى وخاطبته بصوتها. وتكتمل

علاقةُ موسى بالفتاة التي وصفها الله بأنها "امرأة" أي لها شخصية ناضجة مستقلة لتَصِف لنا أنها لمَّا أحستْ بأن أباها قد شارَكها الإعجابَ به لم تَستحِ أن تطلبَ المزيد، وهو التلميح بخِطبتِه:

{ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28)} القصص.

وفَهِم الأبُ الحكيم رغبة ابنتِه أنها تَخطِبه لنفسها، فتَم لها ما أرادت وتمت صناعة موسى على أيدي النساء لتنتهي به الحال في بيت رجلٍ صالحٍ يُظَن أنه نبي ليعده في بيته للقاء الموعود مع رب العرش العظيم:

{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) القصص.

وكان آخر مَن فارَقَ موسى قبْلَ لقائه برب العالمين عند البقعة المباركة مِن الشجرة في الوادي المقدس هو أهله، لتكتمل بذلك رائعةٌ مِن روائع أحسن القصص في القرآن وهي صناعة موسى على عين الله، تتلقفه أيدي النساء واحدة تلو الأخرى مِن لحظة إلقائه في التابوت في اليم إلى أن فارق أهله ليجد نفسَه مع الله الذي لا إله إلا هو يكلمه تكليمًا.

إنَّ دلالة هذا الحضور المكثف في قصة محرر بني إسرائيل للأم والأخت وامرأة فرعونَ الرحيمة، ثم ظهور بعض الذكران بصورة نكِرة وارتباطهم بوقوع كارثة في حياته اضطرته للهرب من المدينة لِتَتَلَقَّفَه أيدي النساء من جديد، هو أن المرأةَ هي المَحْضَن التربوي والنفسي والعاطفي الأول للرجل في كل مراحل حياته، وهي صانعةُ جيلِ التحرير والموجِّه لبأس الرجال في ساحات المواجهة حتى وإنْ كان الرجلُ المَعنِي رسولاً مِن أعظم رُسُل الله تعالى.

القارئ الكريم:

إنَّ هذا الكتابَ كما يوحي اسمُه وكما ألمحتُ في مقدمتِه لم يُكتَبْ لمناقشة قضية الأنثى في الإسلام أو الحضارة الإنسانية، وإنما للدفاع عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، ودفْع الأذى عنه مِن قول مسموم لم يقله أصبح يشكل حَرَجًا كبيرًا للمسلمين الذين يستنكرونه بفطرتهم السليمة ولا يدرون كيف يخرجونه مِن التراث الذي تم تقديسُه وفرْضُه علينا وعلي النبي مهما كان عليلا. وما هذا الباب الذي يَطرح مؤشراتٍ فقط عن كيف عَرَض القرآن مكانة الأنثى في مسار الخلق وفي بناء الحياة الإنسانية إلا مدخلٌ لمناقشةِ محتوى الحديث المُعنِي لاحقًا إن شاء الله. ولا يَخفى الآنَ على أي منصفٍ أن القرآن واللهَ ورسوله براءٌ مِن التأويلات الظالمة والأقاويل المفتراة التي شكّلتْ ثقافة المجتمع المسلِم بعد عصر النبي في حق المرأة. فمِما لا شك فيه أنه بعد انهيار الخلافة الإسلامية الراشدة كان المجتمع المسلم قد ابتلع كَمًّا هائلاً من الثقافات المجاورة من فُرسٍ وروم وهنود وغيرهم، وكلها كانت ظالمة للمرأة تتحكم فيها الثقافةُ الذكورية أيّما تحكُّم. وسرعان ما تزاوجت تلك الأهواءُ التي أصبحت جزءًا مِن نسيج المجتمع المسلم حينَها مع أهواء العرب قبل الإسلام وتآمرت معًا لإعادة المرأة لوضع مهين لا يمُت للقرآن ولا النبي بصِلة، فكان ما كان من ابتكار الأقاويل التي شوّهت التصوير القرآني للمرأة ودورها في الحياة، ثم سرعان ما أصبحت الصورةُ المشوهة هي الموروث الذي تناقلته الأجيالُ إلى يومِنا هذا. لكن لأن القرآنَ ظل محفوظًا على عكس الحديث، فإنَّ الرجوعَ إليه يظل هو المعيار الذي يجب أن نقيس عليه مصداقية المستجداتِ في تراث الأمة مهما تطور الزمن ولا يكذّبُ بآيات الله إلا المجرمون:

{إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41)} الأعـــراف.

لا شك أن مَن يطّلِع على تعامل القرآن مع كل مكونات المجتمع الإنساني ذكورًا وإناثًا يصاب بالحيْرة من الحال التي وصلنا إليها، إذ إننا ندين بالإسلام ونزعم أن القرآن هو كتاب الله الذي نرجع إليه، لكن حالنا لا علاقة له بالقرآن، إذ إننا نعاني انفصامًا مريرًا بين التراث وبين القرآن الذي اتخذناه مهجورًا. هذا الانفصام لم يتم عشوائيًا،

وإنما خَططتْ له عقولٌ ودبرته أيدٍ سهرتِ الليالي وتعاونت فيها أجيالٌ مع أجيال لإبعاد المسلمين عن دِين الله، وإن ظَلَّ اسمهُم "المسلمون".

لكن قبْلَ الولوج في ذلك العالم المعقد جدًا الذي صُنِعتْ فيه الأكاذيب على النبي الكريم بمراجعة موضوعية ووقفةٍ عقلانية لفهْم طبيعةِ المجتمع النبوي والفترة التي تلته، تلك التي تُعرَف بـ "خير القرون"، قبل ذلك من المهم جدًا أن نفهم كيف تم تحريف الأديان السابقة لأن بصمات التحريف هنا وهناك واحدة وبينة وهذا ما يمهد له الباب التالي "في الطريق إلى دمشق" لنرى كيف تم تحريفُ رسالةِ المسيح مِن قبْلَ بالصورة نفسها فنتَج عنها دينٌ جديد اسمه المسيحية لا علاقة له بدعوة المسيح الأصلية.

الباب الرابع

في الطريق إلى دمشق

{ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} الحديد27.

ربما يظن البعضُ أن العنوانَ مِن باب الإثارة الفنية، ولكن المُطَّلِع على فلسفة مقارنة الأديان يعلمُ أن تلك الرحلة كانت حدثًا فاصلاً في تاريخ العالم. وبعد الإطلاع على هذا الكتاب ستصبح تلك الرحلة حدثًا فاصلاً في تاريخ المسلمين أيضًا إن شاء الله.
حَسْبَ أشهرِ الروايات فإن أهلَ الكهفِ كانوا بين المسيحية والإسلام. وقد لبث أهلُ الكهف في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا، وكان أتباع المسيح-عليه السلام- وأنصارُه تحت القهر إلى أن أعلنَت الإمبراطوريةُ الرومانية دِينَها الرسميَّ المسيحية في عهد الإمبراطور قسطنطين سنة 312 ميلادية.
تَروي كُتُب التاريخ أن أتباعَ وأنصار المسيح في بادئ الأمر كانوا مِن العبيد والفقراء الذين كانوا لا يملكون شيئًا في الإمبراطورية - وتَروي أن أسبابَ تعذيبهم كانت ترجع إلى رفضهم تقديمَ القرابين والعبادة للإمبراطور الإله، وإصرارهم على اتباع تعاليم المسيح أو رب المسيح. ولأن الإمبراطورية الرومانية كانت تَدين بدينٍ مكوَّنٍ مِن أخلاط أديان مستوردة، كانت قبضة الإمبراطور على الشعب باسم الدين غيرَ واضحة المعالم. فإلهُهم الأكبرُ كان "ميثرا" - إله الشمس- وهو إله فارسي أصلاً، بينما الكثير مِن تعاليم الإمبراطورية كانت مستمدَّة مِن آلهة المصريين وعلى رأسها إيزيس. و يبدو أن الإمبراطورَ وَجَد في طبيعة المسيحية بما فيها من كتاب مقدس، وإله أجرى المعجزات، وأنبياءَ ورسُلٍ سابقين، وتاريخ البشرية وتعاليم اجتماعية وأخلاقية واضحة، وجد فيها دينًا يمكن أن يوحِّد الإمبراطورية المتهالكة ويخلق لها دستورًا يثبت حُكمَه ويزيد من قبضته المتدهورة على الشعب. اعتناق قسطنطين للمسيحية كان مفاجئًا ومحيرًا للمؤرخين، وأغلب الظن أن دوافعَه كانت سياسية. لكن أي مسيحية اعتنق؟ فقد كان نظام الحكم يدور حول الكهنة ورجال الدين، والسلطة الدينية المطلقة للإمبراطور وحاشيته، بينما تعاليم المسيح الأساسية أصلاً ستَسلب منه كلَّ سلطان وتهبه لله تعالى.
في هذا الباب سنتتبع الخطواتِ التي اتبعها اليهود في تحوير رسالة المسيح-عليه السلام- بما يوافق هوى الإمبراطورية الرومانية ويوافق هوى اليهودِ أنفسِهم. ففي نهاية المطاف تم بيع دين جديد للرومان، يقوم على تراث المسيح، وبالتالي التراث اليهودي، لكنه دين جديد باسم جديد يعيد للإمبراطورية مجدَها الذي كاد يزول، لكنه سيجعل منهم عبيدًا لليهود وهُم لا يشعرون، لأن الإلهَ الذي سيعبدونه في هذا الدين إلهٌ تجلَّى في جسدِ ودم ولحم يهودي، مما سيرسخ من عقيدة شعب الله المختار، فيصبح اليهود رغم قلتهم متحكمين في عقيدة الرومان ومَن تَبِع الرومانَ إلى يوم القيامة.

هذا العمل المذهل، وهو صناعة دينٍ جديد من تراث ديانة حقيقية، لم يكن يحتاج لقوى خارقة أو عقول جبارة، فقط احتاجَ لوضوح الهدف لدى اليهود وتضافر الجهود البشرية المحدودة، لكنه استغرق ثلاثة قرونٍ لتَظهر أولُ الثمرات. والقصد من هذا الباب بالإضافة للثقافة العامة هو المقارنة بين "صناعة المسيحية" مِن "إسلام المسيح" مع "صناعة المحمدية" مِن "إسلام محمد" -عليهما السلام- لاحقًا، وكلاهما تم في "الطريق إلى دمشق".

المعلوم لنا أن المسيحَ-عليه السلام- كان رسولاً فريدًا في تاريخ الرُّسُل. فقد ظلّ في معاناة ورفضٍ مِن قومه إلى آخر أيامه، حتى الذين اتبعوه كانوا في شكٍ مستمر مِن حقيقته، إذ إنهم كانوا بطبيعة الحال مِن عامة اليهود، لكن كِبار اليهود وعلماءَهم أجمعوا على أن عيسى ليس المسيحَ المرتقَب، ثم إن نهايتَه في الأرض كانت غامضة، فهو الرسول الوحيد الذي اختفى من الأرض ولا قبر له، فضلاً عن أن قصة قتلِه مصلوبًا كانت وما زالت حدثًا اختَلَف الناسُ عليه، بدليل أن القرآن ما وصَفَ الحدثَ بأنه محض افتراء وإنما "شُبِّهَ لهم"، والشبهة تعني أن حدثًا شبيهًا بالإعدام صلبًا قد وقع، مما زاد بلبلة أتباعه وأتاح لأعدائه فرصةً جديدة لخلق أسطورة حول طبيعة خلقه وحياته ووفاته، بعد غيابه المفاجئ الغامض.

ويرى الكثيرون أن دعوةَ المسيح-عليه السلام- قد انتشرت خارج بيت إسرائيل في القرن الأول. فالعرب واليهود كانوا عنصرًا واحدًا مِن حيث التعايش وتشابه اللغة. لذلك انتشرت دعوتُه وسط الكثير من قبائل العرب خارج بلاد الشام إلى شمال إفريقيا. وكان كل أولئك موحدين وآمنوا به كرسول "المسيح"، وكانوا على علمٍ بمقدم رسول مِن بعدِه خارج بيت إسرائيل. فلما جاء محمدٌ -صلى الله عليه وسلم- كان اعتناقُ معظم أتباعه الموحدين تلقائيًا

للإسلام.

لكن في محيط فلسطين التي فَرَض اليهودُ رأيَهم فيها كانت القصص المحرفة هي التي غلبتْ على سيرة المسيح، لذلك فالتاريخ هناك غامضٌ جدًا، وفيه الكثير من التناقضات، خاصة وأن الكثير مما كُتِب عنه في تلك القرون الأولى تم حظْرُه بعد اعتناق الرومان للمسيحية. وقد كُتبتْ أناجيلُ كثيرة لكن الرومان اعتمدوا منها فقط الأربعة المتداولة حاليا: (متَّى) و(مرقس) و(لوقا) و (يوحنا). وتجدر الإشارة إلى أنه كانت هناك صحفٌ أو أناجيلُ أخرى حَمَلتْ رواياتٍ مختلفةً عن حياة المسيح ورسالته رفضتها الكنيسةُ الرومانية وسُمِّيت (الأناجيل المخفية) (Apocrypha)، وأشهرُها حاليا هو "إنجيل برنابا" الذي يرجع إليه بعضُ المفكرين المسلمين باعتبار أنه يروي قصة المسيح بصورةٍ أقربَ لقصته في القرآن. لكن الدلائل تشير إلى أن إنجيل برنابا لم يوجَدْ حتى القرن الرابع عشر، ويقال إنه كتابٌ وَضَعه أوروبي في القرن الخامس عشر، لذلك لم أرجع إليه نهائيًا في هذا البحث.
على أن المسيحية الحالية كدينٍ عالمي بدأت معالمُها تتكون بعد قصة القديس بولس ورحلته الشهيرة إلى دمشق. ورغم أن عددًا مِن المفكرين ينسبون صناعة المسيحية لبولس، إلا أنني أرى أنه مِن الإجحاف تحميله كل المسؤولية، إذ إن صناعة المسيحية قد بدأت على يد اليهود أنفسِهم وفي حياة المسيح -عليه السلام-. ربما عاصر بولس بعضًا مِن حياة المسيح-عليه السلام- إذ إن ميلادَه مُختَلفٌ على أنه كان قبل ميلاد المسيح بخمس سنوات، أو كان بعد رفع المسيح بخمس سنوات، لكن ما لا خلاف عليه أن بولس كان يهوديَ الأصل روماني الانتماء والولاء، نشأ وعاش في "تارسس" الرومانية حينذاك وهي بوسط تركيا حاليًا. هذا يعني أن بولس قد أكمَلَ صناعة المسيحية لكنه لم يساهم في بداية صناعتها.
وعليه فسأقدِّم هذا البابَ في قِسميْن: "الإعداد" و "الصناعة". الإعداد تم في عصر الأقاويل، أما الصناعة فتمت بعد رفع المسيح -عليه السلام-.

عصر الأقاويل:

عصر الأقاويل، أرمُزُ به لفترةِ رسالةِ المسيح-عليه السلام- بين بَني إسرائيلَ وسعيهم الدؤوب لإلصاق قصص ملفقة عنه تُسقِط عنه مصداقيتِه بأنه المسيح المرتقب.
سأتطرق للأسباب التي رَفَض علماءُ بني إسرائيلَ بناءً عليها رسالة المسيح منذ ميلاده في باب "وقولهم على مريمَ بهتانًا عظيمًا"، لكن ما يَجب ذِكرُه هنا هو أن المسيح -عليه السلام-، مِن منظور إسلامي، قد ولِدَ نبيًا مِن أول يوم، إذ إنه نَطَق بإعلان نبوته في مهده:

{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34)} مريم.

{قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)} آل عمران.

نلاحظ مِن مجمل الآيات أعلاه أن المسيح نَطق بنبوته يوم ميلاده، أيضًا نلاحظ أنه كان رسولاً لبني إسرائيلَ في المقام الأول. هذا يعني أن المسيح ما أتى بدين جديد ولا أُرسِل إلى قوم غير قومه بني إسرائيل. وعليه فإن مفاتيح فهْم رسالته والتصديق بها كانت متاحة لبني إسرائيلَ أكثرَ مِن غيرهم، إذ إن مولدَه وبعثَتَه كانا امتدادًا لنبوءات سابقة معلومة لبني إسرائيل وحدَهم، وعليه فإن تصديقَهم له أو رفضَهم لرسالته كان يقع على كاهلهم وليس على كاهل العرب والرومان الذين يجاورونهم الأرضَ لكن لا يدينون بدينهم، ولم يكن متوقَّعًا لديهم ظهورُ المسيح.
أيضًا: لا بد مِن التنويه أنه في زمن المسيح-عليه السلام- لم يكن هناك دينٌ اسمُه المسيحية ولم يدعُ عيسى لذلك، تمامًا كما لم يكن هناك دين اسمه الداوُدية في زمن داوُد عليه السلام. فاليهود دينهم اليهودية وشريعتهم مستمدة من توراة موسى منذ أن خَرجوا من مصر. وعليه فإن اسمَ المسيحية هو اسم الدين الذي استقل عن اليهودية على يد الرومان بعد ثلاثة قرون مِن رفع المسيح، لكن كل الحوار الذي تم بين المسيح واليهود أثناء حياته كان حوارًا داخليًا يهم بيتَ إسرائيل، ودين اليهود بلا اسم جديد وإنما رسالة جديدة.

المسيح-عليه السلام- نَطق في مهده معلِنا نبوءَته، لكن رسالته ابتدأتْ بعد ثلاثين عامًا من مولده حسب إنجيل (لوقا):

{ولمَّا بدأ يَسُوعُ (خدمته)، كان في الثلاثين من العمر تقريبًا، وكان معروفًا أنَّه ابنُ يُوسُفَ بن هالي، بن متَّثاتَ بن لاوِي، بن مَلْكِي بن ينَّا، بن يُوسُفَ.} (إنجيل لوقا 3: 23).

وحينما أقول "اليهود"، فإن المعنيين باللفظ هُم علماء بني إسرائيل، وهؤلاء كانوا في زمن المسيح أربعَ فئاتٍ حسْبَ التراث اليهودي:

الكَتَبَة: هؤلاء كانوا فئة الفقهاء المختصين في تفسير وفرض شريعة موسى.
الفريسيون: هؤلاء كانوا كهنة يمثلون اليهودية كتراثٍ شعبي في بيت إسرائيل "شيوخ الشعب".
الصَّدوقيون: هؤلاء كانوا كبارَ الكهنة الذين يمثلون الطبقة الأرستقراطية الثرية وسط اليهود.
الهيردوسيون: هؤلاء كانوا مجموعة سياسية نشِطة مناصرة لفكرة اندماج اليهود في الثقافة الهلينية وهُم يتبعون لأسرة هيرودس الذي كان حاكمًا على اليهود.
وما يهمنا في هذا البحث هو أن جميع هذه الطبقات على تناحرها، اتفقتْ على رفض عيسى بن مريم كونه المسيح المرتقَب. وعليه فقد تعاونوا معًا على مضايقته بالأسئلة المستفزة حتى يحرجوه أمام عامة الشعب، ومن ثم لينزعوا عنه صفة "المسيح المرتقب"، وأخيرا تآمروا جميعًا على قتله. لكن لأن اليهودَ كانوا تحت حُكم الرومان فإنه لم يكن بيدهم تنفيذ حُكم الإعدام أنفسهم. وعليه فقد مرّ مخطط إعدامه بمرحلتيْن:
المحاكمة الدينية: هذه هدفت لإقناع العامة أنه كذاب ويستحق الموت .
المحاكمة السياسية: هذه هدفت لاستدراج الحاكم الروماني ليقوم بمسرحية قتلِه بتهمة سياسية.
وعليه: فلما استعملُ لفظَ "اليهود" في هذا الباب أعني هذه الطبقاتِ الكهنوتية. أما عامة بني إسرائيل فسأشير إليهم بـ "عامة اليهود" أو "الشعب" حسب السياق.

وكان التخطيطُ لتداخل المرحلتيْن ماكرًا جدًا حيث مهدتْ مرحلة المحاكمة الدينية لتسويق معجزات المسيح للرومان باعتبار أنه "إله" أو "ابن إله" حتى تتحول الإشاعات إلى أسطورة، ثم يقع الرومان أخيرًا في الشَّرَك وتصنع الديانة المسيحية. وحتى نستوعب تلك الصناعة يستحسن مناقشة الجانب الديني منها منفصلاً عن الجانب السياسي.

المحاكمة الدينية:

قلتُ إن الهدفَ من المحاكمة الدينية كان إسقاطَ رسالة المسيح ونبوءته في نظر عامة الشعب إن استطاعوا، حتى يبرروا للعامة أنه يستحق القتلَ مرتدًا، لكن لمّا كان اليهود لا يملكون سلطةً رسمية للحُكم بالإعدام، ولمَّا كان جرمُ الردة ليس مما يثير غضبَ الرومان الذين كانوا يحكمون فلسطين، فكان لا بد من تهمة أخرى تبرر للرومان قتلَه. "المحاكمة السياسية" كانت قصيرة لأنها كانت مسرحية مطبوخة وتمثل نهاية المؤامرة، أمّا "المحاكمة الدينية" فقد كانت في شكل مطاردات مستمرة سعيًا للحصول على زلّة لسانٍ منه على ملأ من الناس يمكن تأويلها بالكُفر، من ناحية أخرى نجد المسيحَ-عليه السلام- قد دافَع عن نفسه من تهمة الردة طوال عمر رسالته لكنه لم يعبأ كثيرا بمحاكمة الرومان لأنها كانت تحصيلَ حاصلٍ، وكان يعلم أن أوانَ رفعه قد آن، مصداقًا لقول الله تعالى:

{ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54) إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (55) آل عمران.

و يبدو أن اليهودَ الذين كانوا يعلمون حق العلم أن عيسى بنَ مريمَ هو المسيح المرتقَب منذ ميلاده، قد مهدوا للتخلص منه من أول يوم. و لعل أبلغَ دليلٍ على ذلك -على الأقل من وجهة نظرٍ إسلامية- هو أن أُولى معجزاته، وهي كلامه في المهد دفاعا عن أُمِّه الطاهرة، لم يوثق لها أي إنجيل من كل الأناجيل المتداولة اليوم، بينما نجد أن أولى الإشارات إليه في الأناجيل هي تلفيق قصة زواج مريم العذراء من يوسف النجار في بداية إنجيل (متّى) وإنجيل (مرقس)، وهذا هو محور باب "وقولهم على مريمَ بهتانًا عظيمًا". ولعل هذه الحُجة لا تكون مفيدة مع النصارى، لأنهم أصلاً لا يعلمون أن عيسى تكلم في المهد وبالتالي سينسبون المعجزةَ لمصدر القرآن الذي لا يؤمنون به، لذلك كان مدخلي لهذا الحوار هو البحث في ذات الموضوع لكن من زاوية تلويث شرف مريم العذراء بتزويجها من يوسف النجار صاحبِ الأنساب التي انحدرت من الزناة والمغتصبين كما سأناقش ذلك بالتفصيل في

باب " وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا".
الدليل الثاني على تمهيدهم للقضاء على رسالة المسيح كان تصفية الأنبياء الذين وُجدوا معه وبَشَّر على الأقل أحدُهم بمجيئه، و هو يحيى بن زكريا -عليهما السلام-، وهنا نجد تشابهًا بين القرآن والكتاب المقدس في كون يحيى إنّما كان نبيًا مبشرًا ومصدقًا **بكلمة الله** عيسى عليه السلام:

{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء (38) فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَـى **مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ** وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (39)} آل عمران.

فكلمة الله التي صدّق بها يحيى، أي آمن وبَشَّر بها، كانت هي المسيح-عليه السلام- (كلمته التي ألقاها إلى مريم) كما شرحنا مدلول "الكلمة" في نظرية "آذان الأنعام"، لذلك نجد اليهودَ قد عرَّضوا يحيى-عليه السلام- مبكرًا للمساءلة وأنكروا نبوءته، وقتلوه فور إعلان عيسى أنه المسيح، فأسكتوا صوت يحيى وصوت زكريا -عليهما السلام-:

{وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم بعض الكهنة واللاويين يسألونه: " مَن أنت؟" فاعترف ولم ينكر، بل أكد قائلا:" **لستُ أنا المسيح**". فسألوه: "ماذا إذن؟" هل أنت إليا؟" قال: " لست إياه!"، " أو أنت النبي؟" فأجاب: "لا!" فقالوا: " فمَن أنت، لنحمل الجواب للذين أرسلونا؟ ماذا تقول عن نفسك؟" فقال: " أنا صوت منادٍ في البرية: اجعلوا الطريقَ مستقيمة أمام الرب، كما قال النبي إشعيا". وكان هؤلاء مرسلين من قِبَل الفريسيين، فعادوا يسألونه: "إن لم تكن أنت المسيح، ولا إليا، ولا النبي، فلماذا تُعمِّد إذن؟" أجاب: " أنا أعمِّد بالماء! ولكن بينكم مَن لا تعرفونه، وهو الآتي بعدي، وأنا لا أستحق أن أحل رباط حذائه". هذا جرى في بيت عنيا، فيما وراء نهر الأردن، حيث كان يوحنا يعمد } (إنجيل يوحنا: الإصحاح الأول: 19-28)

و لعله مِن المفيد أن أعلّق هنا على طبيعة هذه المساءلة. الواضح أن كهنة اليهود كانوا يترقبون ظهور رسولَيْن تبقيا من قائمة الرسل الذين تنبأ بهم من قبلهم، أحدهما هو المسيح، والآخر أسموه فقط "النبي" (في الكتاب المقدس الإنجليزي أشاروا إليه مرتين بـ: (That Prophet) ذلك "النبي". أمَّا يحيى-عليه السلام- فيبدو أنه لم يكن متوقعًا، إذ إنه كان استجابة لدعاء زكريا -عليه السلام-، لذلك كان مجهولاً لديهم، مما يبرر المساءلة أعلاه. و يرى الكثيرون من المختصين بفلسفة مقارنة الأديان أن (ذلك النبي) الغامض لديهم هو محمد-صلى الله عليه وسلم-، إذ إن المسيح كان عيسى بن مريم، بينما نفى يحيى أن يكون هو "ذلك النبي"، هذا يعني أن هناك نبيًا غامضًا ما زال متوقعًا ولا يعرفونه، أمّا السؤال عن (إليا) وهو إلياس فناتج من كون إلياس حسب فهْم اليهود كان قد رُفِع من الأرض ولم يره أحد بعدها حسب ما ورد في: (سفر الملوك الثاني: 2: 10-13)، لذلك ظنوا أن يحيى هو إلياس قد عاد. وقد كتبتُ كتابًا في نبوءات محمد في الكُتُب السماوية القديمة بالإنجليزية اسمه: (أميرة مصر و"ذلك النبي" الغامض).

المغالطة الأخرى في هذه المساءلة هي أن صفاتِ المسيح المعلومة لهم كانت أنه سيولد من أمٍّ عذراءَ - وكان اليهود أصلاً على علم بميلاد عيسى من أم عذراء - بدليل أن الكتاب المقدس قد وثق هذه الحقيقة ولفقوا لها لاحقًا زوجًا ينسب إليه ابنها. لذلك كان اليهود على علم بالمسيح حتى قبل رسالته، وهذا يثير شكوكًا في طبيعة مساءلة يحيى، علمًا بأن يحيى كان معلومًا لديهم أنه ابن زكريا من أب وأم معلوميْن صالحيْن، وهذا يتنافى مع احتمال أن يكون يحيى هو المسيح من حيث المبدأ. إذن، فالمساءلة لم تكن من أجل العلم بالمجهول، وإنما كانت من باب إحداث بلبلة في فهم العامة وأيضا تمهيدًا لتجريم يحيى وبالتالي التخلص منه مبكرًا.

المهم: أن يحيى تمت تصفيته في حادثة مقززة سأنقلها لاحقًا. إذ إنه لمّا بدأ المسيح دعوتَه كان يحيى غائبًا عن الساحة مما يؤكد أنه كان قد اغتيل، هذا ما يوحي به تسلسل الأحداث ويوحي به رد المسيح-عليه السلام- في الحوار أدناه:

{ولما وصل إلى الهيكل وأخذ يعلم، تقدم إليه رؤساءُ الكهنة وشيوخ الشعب، وسألوه:" بأي سلطةٍ تفعل ما تفعله؟ و مَن منحك هذه السلطة؟" فأجابهم يسوع قائلا: "وأنا أيضا أسألكم أمرا واحدا، فإنْ أجبتموني، أقول لكم أنا كذلك بأية سلطة أفعل ما أفعله: مِن أين كان معمودية يوحنا؟ مِن السماء أم من الناس؟" فتشاوَرَ القوم فيما بينهم قائلين: "إنْ قُلنا له إنها من السماء، يقول لنا فلماذا لم تصدقوه؟ وإنْ قلنا: مِن الناس، نخشى أن يثور علينا جمهور الشعب، لأنهم كلهم يعتبرون يوحنا نبيا". فأجابوه: "لا ندرى!" فرد عليهم قائلا: "ولا أنا أقول لكم بأي سلطة أفعل ما أفعله."} (إنجيل متّى- الإصحاح 21: 23-27)

أما مقتل زكريا-عليه السلام- فقد صرح به المسيح نفسه في هذا الهجوم:

{أيها الحيات، أولاد الأفاعي! كيف تفلتون مِن عقاب جهنم! لذلك: ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماءَ ومعلّمين، فبعضهم تَقتلون وتصلبون، وبعضهم تجلدون في مجامعكم، وتطاردونهم مِن مدينة إلى أخرى. وبهذا يقع عليكم كل دمٍ زكي سفك على الأرض: مِن دم هابيل البار إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح. الحقّ أقول لكم: إن عقاب ذلك كله سينزل بهذا الجيل.} (إنجيل متّى- الإصحاح الثالث والعشرين: 33-36)

مِن هنا نخلص إلى أن المحاكمة الدينية والسعي الدؤوب للحصول على "كلمة كفر" مِن فم المسيح قد كان القصد منها بلبلة أفكار العامة وثقتهم فيه، بعد أن تمت تصفية الأنبياء الذين كان يمكن أن يقفوا معه ويدفعوا عنه. و لعلّ أولى المحاولات لإحراج المسيح كان السؤال عن أخطر مقومات العقيدة اليهودية: التوحيد:
{وتقدَّمَ إليه واحد مِن الكتبة كان قد سمعهم يتجادلون، ورأى أنه أحسنَ الرد عليهم، فسأله:" أية وصية هي أولى الوصايا جميعا؟" فأجابه يسوع:" أولى الوصايا جميعا هي: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا ربٌّ واحد فأحبب الربَّ إلهك بكل قلبك وبكل نفسك وبكل فكرك وبكل قوتك. هذه هي الوصية الأولى. وهناك ثانية مثلها، وهى أن تحب قريبك كنفسك. فما من وصية أخرى أعظم مِن هاتيْن". فقال له الكاتب:" صحيح يا معلم! حسب الحق تكلمت. فإنّ الله واحد وليس آخر سواه. ومحبته بكل القلب وبكل الفهم وبكل القوة، ومحبة القريب كالنفس، أفضل من جميع المحرقات والذبائح!" فلما رأى يسوع أنه أجاب بحكمة، قال له:" لست بعيدا عن ملكوت الله!" و لم يجرؤ أحد بعد ذلك أن يوجه إليه سؤال.} (إنجيل مرقس- الإصحاح الثاني عشر: 28-34)

وهنا لا بد مِن ملاحظة أن المسيح قد أجاب بـ: "الرب إلهنا" وليس بـ: "الرب إلهكم" مما يؤكد أنه كان جزءٌ منهم يعبد إله إسرائيل. إنّ المسيح هنا يبرئ نفسه من الكفر ويؤكد أنه يدعو إلى التوحيد وعبادة الله الذي لا إله إلا هو كما دَعا إلى ذلك كل الأنبياء والمرسلين - وهذه هي الوصية الأولى من الوصايا العشر في توراة موسى الذي كان يمثل المرجعَ العقائدي الأساسي لليهود.
المتدبر في الكتاب المقدس المسيحي يلاحظ الكَمَّ الهائل من محاولات الإيقاع بالمسيح في زلة لسان، حتى ولو لفظية، حتى يبرروا كفرَه. ولعل هذا الحوارَ حول مفهوم لفظ "الأب" يوضح تلك المعركة الفكرية. فقد وجهوا إليه اللومَ لأن أتباعه أشاروا إليه بلفظ "الرب"، والمسيح كان قد استعمل اللفظ كما نستعمله في العربية والعبرية إلى اليوم ليعني الراعيَ أو المعلّم أو صاحب المسؤولية كما نسمي "رب الدار"، لكنهم أرادوا الإيقاعَ به فيها فنفد منهم بذكاء النبوة وعلم المرسلين:

{وفيما كان الفريسيون مجتمعين، سألهم يسوع:" ما رأيكم في المسيح: ابن مَن هو؟" أجابوه:" ابن داؤد!" فسألهم:" إذن كيف يدعونه داؤد بالروح ربًّا له، إذ يقول: "قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئًا لقدميك؟ فإن كان داؤد يدعوه ربه، فكيف يكون ابنه؟" فلم يقدر واحد منهم أن يجيبه ولو بكلمة. ومنذ ذلك اليوم، لم يجرؤ أحد أن يستدرجه بسؤال.}

(إنجيل متّى- الإصحاح الثاني والعشرون 41-46)

لا بد من التنبيه هنا أن عيسى يسألهم عما يعرفونه وينتظرونه من المسيح المرتقب، إذ إنهم كانوا ينكرون على عيسى أنه ذلك المسيح. وللعلم بأصل الحجة اللغوية التي أقامها المسيح عليهم أنقل النص الذي يُظَن أن المسيح قد أشار إليه في زبور داؤد:

{قال الرب لربي: "اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك.} (المزامير- 110: 1)

من هذا الحوار يمكننا أن نستقي هذه المعلومات:

أولاً: أن المسيح كان يعلم أن مدخلهم للتشكيك فيه كان التلاعب بالألفاظ، لذلك يرد عليهم بذات الحجة؛ أن الألفاظ تحتمل معانيَ متعددة منذ زمن داؤد.

ثانيًا: لو صدقت الرواية، فيبدو أن استعمال لفظ "رب" كان مستعمَلاً كثيرًا بين اليهود ليعني "المعلم الأكبر" أو "السيد الأعظم" كما تعني الخالقَ أيضا. فـ "رب العالمين" هو الله، لكن كل إنسان يمكن أن يصف مَن هو أرقى مقامًا منه بأنه ربّه.

ثالثًا: النص الذي ورد في زبور داؤد يعتبره اليهود إحدى نبوءات المسيح المرتقب وأن داؤد ينظر للمسيح المرتقب على أنه أعظم منه (ربه)، لكنه يميز بين ربوبية الله "رب العالمين" وربوبية "المسيح" على مَن هو

أدنى منه مقامًا.

رابعًا: لم يتحرج اليهود في فهم أن المعنى والمقصود في قول داؤد: "قال الرب"، هو الله، وأنّ "الربي" التي وردت بعدها أنها تشير إلى المسيح، أي أن المسيحَ أرفعُ مكانًا من داؤد، لكنهم لم يتهموا داؤدَ بالكفر، لكن لمّا وصف الحواريون المسيحَ بأنه "ربهم" أي "سيدهم" و"معلمهم" اتهمه اليهود بإدعائه الألوهية.

خامسًا: هذا الحوار يوضح لنا مقدارَ البلبلةِ التي كان يتعرض لها الحواريون، فهُم مِن ناحية صدّقوا أن عيسى هو المسيح المرتقب، لكن من ناحية وجدوا صعوبة في فهم موقف الكهنة منه.

على أن التُّهَم التي وجهت للمسيح دار أكثرُها حول كونه ادَّعى أنه (ابن الله)، وكونه ادَّعى أنه (الله). ويبدو لي أن الذين كتبوا الأناجيل، أو لعلهم الذين أضافوا وحذفوا منها، قد حذفوا الكثير من المواقف الصريحة التي سُئِل فيها المسيحُ عن كونه (ابن الله)، لأن "كلمة الكفر" هذه قد تحولت إلى أهم ركن من أركان "العقيدة المسيحية" لاحقًا، لذلك تم حذفُها ولم يَبق منها إلا القليل غير المفهوم الذي يدور في هذا الإطار. وأنقلُ موقفًا آخر يؤكد هذا التحليل حتى نرتب الأفكار. ففي إحدى المضايقات بحثوا عن شهود ليشهدوا أنه زعم أنه "ابن الله":

{ولكن في هذا أيضا، كانت شهاداتهم متناقضة. فوقف رئيس الكهنة في وسط المجلس وسأل يسوع:" أمَا ترد شيئا؟ بماذا يشهد هؤلاء عليك؟" ولكنه ظل صامتًا ولم يرد شيئا. فعاد رئيس الكهنة يسأله، فقال:" <u>أأنت المسيح، ابن المبارك؟"</u> فقال يسوع:" <u>أنا هو</u>. وسوف ترون <u>ابن الإنسان</u> جالسا على يمين القدرة، ثم آتيًا على سُحُبِ السماء!"

فشق رئيس الكهنة ثيابَه، وقال:" لا حاجة بنا بعدُ إلى شهود. فقد سمعتم تجديفَه: فما رأيكم؟" فَحَكم الجميع بأنه يستحق الموت. فبدأ بعضهم يبصقون عليه، ويعطون وجهه ويلطمونه ويقولون له:" <u>تنبأ!</u>" وأخذ الحراس يصفعونه.} (إنجيل مرقس -الإصحاح 14: 53-65)

نلاحظ هنا أن كبير الكهنة قد لجأ إلى حيلةٍ خبيثة لخداع العامة، فسأل عيسى سؤالاً من شقيْن: الشق الأول كانت الإجابة عليه بـ: "نعم"؛ لكن لو قال "نعم" عن الشق الأول فالشق الثاني يدينه بالموت:
"أأنت المسيح؟ الإجابة: "أنا هو"، لكن الكاهن كان قد جعل السؤال: أأنت المسيح، ابن المبارك "الله"؟
فلو قال نعم (يعنى أنا المسيح) يتهمه بأنه قال: نعم، أنا ابن الله.
لكن المسيح كان أكثر ذكاءً منه فأجاب إجابة مِن شقيْن أيضًا:
أنا هو (المسيح) وسوف ترون (ابنَ الإنسان) جالسًا على يمين القدرة" -القدرة الإلهية أو الملكوت-.
إذن، فقد أكَّدَ أنه المسيح، وفي السياق نفسه نَفى أنه ابن الله، وذلك بأن أتى بالوصف الذي يصف به نفسه دائمًا -**ابن الإنسان**- حتى ينفي التهمة التي تدينه بالكفر ومن ثم الموت.

إنَّ تكرارَ مصطلح " ابن الإنسان " منسوبًا للمسيح في الأناجيل دليلٌ قاطع على أن المسيح كان على علم بالمؤامرة التي تحاك حوله لتكفيره، لذلك ما وجد فرصة يؤكد فيها بشريّته إلا وسمى نفسه "ابنَ الإنسان. أنقلُ منها هنا بعض المواقف:

{وقال: لا بد أن يتألم **ابن الإنسان** كثيرا ويرفضه الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة.}
(إنجيل لوقا - الإصحاح التاسع 22)

{ولما أنهى يسوع هذه الأقوالَ كلها، قال لتلاميذه:" أنتم تعرفون أنه بعد يوميْن يأتي عيد الفصح. فسوف يسلَّم **ابن الإنسان** ليصلب} (إنجيل متّى - الإصحاح السادس و العشرون: 1-2)

{فاسهروا إذن وتضرعوا في كل حين، لكي تتمكنوا من أن تنجوا من جميع هذه الأمور التي هي على وشك أن تحدث، وتقفوا أمام **ابن الإنسان}** (إنجيل لوقا - الإصحاح الحادي والعشرون: 36)

{ثم رجع في المرة الثالثة و قال لهم:" ناموا الآن واستريحوا. يكفي**!** أقبلت الساعة. ها إن **ابن الإنسان** يسلم إلى أيدي الخاطئين} (إنجيل مرقس الإصحاح الرابع عشر: 41)

{وإنما أي مَن أراد أن يكون عظيما بينكم فليكن لكم خادما، وأي من أراد أن يصير أولا فيكم، فليكن للجميع عبدا. فحتى **ابن الإنسان** قد جاء لا ليُخدم، بل ليَخدِم ويبذل نفسه فدية عن كثيرين} (إنجيل مرقس- الإصحاح العاشر:

(45-43

{عندئذ قال بطرس: "ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك، فماذا يكون نصيبنا؟" فأجابه يسوع: " الحق أقول لكم: إنه عندما يجلس **ابن الإنسان** على عرش مجده في زمن التجديد، تجلسون أنتم الذين تبعتموني على اثنَي عشرَ عرشا لتدينوا أسباط إسرائيل الاثني عشر. فأي مَن ترك بيوتا أو إخوة أو أخوات أو أبا أو أمّا أو أولادا أو أراضى من أجل اسمي، ينال مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية. و لكِنْ أولون كثيرون يصيرون آخرين، و آخرون كثيرون يصيرون أولين} (إنجيل متّى - الإصحاح التاسع عشر: 27-30)

نلاحظ في النص أعلاه أن المسيحَ يحدد رسالتَه بالاثني عشر سبطًا من أسباط بني إسرائيل، وأنه سيشهد عليهم فقط وليس سواهم يوم القيامة "زمن التجديد".

{فلما سمعه كثيرون من تلاميذه قالوا:" ما أصعبَ هذا الكلام! مَن يطيق سماعه؟" فعلِم يسوع في نفسه أن تلاميذه يتذمرون، فسألهم:" أهذا يبعث الشكوكَ في نفوسكم؟ فماذا لو **رأيتم ابنَ الإنسان صاعدا** إلى حيث كان قبلا؟} (إنجيل يوحنا - الإصحاح السادس:60-62)

مما سبق يتضح لنا أمرٌ بديهي كان يجري على لسان المسيح يوميًا: لا أحد كان يشك في أن عيسى بن مريم الذي كان يقف بينهم ويمشي في الأسواق ويأكل ويشرب وينام إنما هو بَشَرٌ (ابن الإنسان). إذن، فلم يكن بحاجةٍ على الإطلاق إلى أن يشير إلى أنه بَشر، لأن هذه الحقيقة كانت هي الواقع المرئي الذي لا خلاف حوله. فلو كان حقيقة هو (ابن الله) أو (الله) نفسه في صورة بشر، أمَا كان الأجدر أن يركز على المعلومة التي تحتاج للتأكيد، لأنها غيبية وخارقة، بل ومخالفة لعقيدة اليهود، بدلاً من التكرار لمعلومة أصلاً لا خلاف حولها؟ أو على الأقل كان يجب ألا يزيد الناس تيهًا بأن يكرر أنه (ابن الإنسان) لأن هذا التكرار -لا محالة- سيزيد من عدم تصديق أنه "ابن الله". كان يمكن أن يشير إلى نفسه بـ (المسيح) مثلا فيكفي الناسَ شر البلبلة. التفسير المنطقي الوحيد من هذا التكرار غير الضروري هو أنه كان على علمٍ تام بالشائعات والاتهامات في "عصر الأقاويل" الموجهة إليه وأنه متهم بأنه زعم أنه (ابن الله)، لذلك اجتهد في نفي هذه التهمة بكل ما أوتي من جهد، لذلك أشار إلى نفسه بـ " ابن الإنسان" كلما أتيحت له الفرصة حتى ينفي الشائعات.
بطبيعة الحال هذه قراءةُ مسلِمٍ للكتاب المقدس المسيحي، لكن المسيحيين لديهم استدلالات أخرى يرجعون إليها في فهمهم أن المسيح أيضًا قال ما يوحي بأنه الله في صورة إنسان. ومِن أشهر تلك المواقف كان رده في حوار طويل مع الكهنة حول هويته، حيث شكك اليهودُ أمام الملأ بأنه ليس حتى مِن نسْل إبراهيمَ-عليه السلام- الذي يفخرون بالانحدار منه. فكان ختام حوار المسيح معهم ما يلي:
{... "أبوكم إبراهيم ابتهج لرجائه أن يرى يومي، فرآه وفرح" فقال له اليهود: " ليس لك من العمر خمسون سنة بعدُ فكيف رأيتَ إبراهيم؟" أجابهم " الحقَ الحقَ أقول لكم: " إنني كائن من قبل أن يكون إبراهيم". فرفعوا حجارة ليرجموه، ولكنه أخفى نفسَه وخرج من الهيكل} (إنجيل يوحنا، الإصحاح الثامن: 56-59)
هذه المقولة بالطبع لا تعني أن المسيح كان دمًا ولحمًا قبل إبراهيم، وإنما تعني أنه كائنٌ كمسيح في علم الله وقدَره قبل أن يولد إبراهيم الذي يفتخرون بالانتماء إليه. لأنه لو كان المقصود من وجود المسيح قبل إبراهيم هو ألوهيته، فكان الأجدر أن يقول لهم إني كائنٌ قبل أن يوجَد الكون وليس فقط إبراهيم. فهذا الرد المجازي كان في سياق احتجاجهم بنَسَب المسيح لإبراهيمَ ليس إلا.

ويؤكد الكتاب المقدس أن المسيح لم يكن إلّا نبيًا رسولاً:

{وخاطَبَهم يسوع أيضا فقال: " أنا نور العالم. مَن يتبعني فلا يتخبط في الظلام بل يكون له نور الحياة". فاعترضه الفريسيون قائلين: "أنت الآن تشهد لنفسك، فشهادتك لا تصح". فأجاب: " مع أنى أشهد لنفسي فإن شهادتي صحيحة، لأني اعرف مِن أين أتيتُ وإلى أين أذهب، أما أنتم فلا تعرفون لا مِن أين أتيتُ ولا إلى أين أذهب. ولذلك تحكمون عليّ بحساب البَشر، أمَّا أنا فلا أحكم على أحد، مع أنه لو حكمتُ لجاء حكمي عادلا، لأني لا أحكم بمفردي، بل أنا والأب **الذي أرسلني**. ومكتوبٌ في شريعتكم أن شهادة شاهديْن صحيحة: فأنا أشهد لنفسي، ويشهد لي الأب **الذي أرسلني**".} (إنجيل يوحنا - الإصحاح الثامن: 12-18)

أتوقف قليلاً هنا في لفظ "الأب" مرة أخرى: المعلوم أن الكتاب المقدس، بأيّة لغة نقرؤه اليوم، ليس إلا ترجمة مِن اللغة الأصلية التي كُتِب بها، وهذه غير موجودة اليوم -لا الكتب ولا اللغة نفسها- و أغلب الظن أن اللفظ الذي يترجَم إلى "الأب" هنا إنما هو لفظٌ يحتمل "الأب" و"الرب" في اللغة الأصلية. فكلمة "رب" نفسها مستعملة في القرآن بمعنى الراعي أو الأب الذي يربي، كما ورد في سورة يوسف: { وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي

عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) }، إذن، فوجود لفظ الرب هنا لا يفيد أن المسيح يزعم أنه "ابن الله" بدليل أنه عمَّمَ مفهومَ الأب ليشمل كل الناس. ففي خُطبةٍ طويلةٍ حذَّر فيها تلاميذَه مِن معلّمي الشريعة ونفاقهم، نُسِب إليه أنه قال:

{أما أنتم، فلا تَقبلون أن يدعوكم أحد: يا معلّم! لأن معلمكم واحد وأنتم جميعا إخوة. ولا تدعون أحدا على الأرض أبًا لكم: لأن أباكم واحد، وهو الأب الذي في السماوات. ولا تقبلون أن يدعوكم أحدٌ رؤساءَ لأن رئيسكم واحد، وهو المسيح} (إنجيل متّى- الإصحاح الثالث والعشرون: 8-10)

أيضًا حينما خرج من المكان الذي اختبأ فيه بعد الصلب كما سنرى لاحقًا، قال لمريمَ المجدلية التي كانت أولَ مَن رآه:
{فقال لها :" لا تمسكي بي! فإني لم أصعد بعدُ إلى الأب. بل اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إني سأصعد إلى أبي **وأبيكم**، وإلهي **وإلهكم!**"} (إنجيل يوحنا- الإصحاح العشرون: 17)

إذن، فلفظُ "الأب" مرادفٌ للرب الإله في لغته، كما أن أباه هو أبو الجميع وهو إلههم جميعًا.

أمَّا كونه نبيًّا مرسَلاً فقد تكرر مرارًا، أنقلُ مِن ذلك بعض المقاطع للمثال:

{وكانت الجموع التي تقدمت يسوع والتي مشت خلفه تهتف قائلة: "أوصنا لابن داود! مبارك الآتي باسم الرب! أوصنا في الأعالي!" ولما دخل يسوع أورشليم، ضجت المدينة كلها، وتساءل أهلها:" مَن هو هذا؟" فأجابت الجموع:" هذا هو **يسوع النبي** الذي مِن الناصرة بالجليل"}

(إنجيل متّى- الإصحاح الحادي والعشرون: 9-10)

{ولكن يسوع قال لهم:" لا يكون **النبي** بلا كرامة إلا في بلدته، وبين أقربائه، وفي بيته"}
(إنجيل مرقس- الإصحاح السادس: 4)

{ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون المثَلَيْن الذيْن ضَرَبهما يسوع، أدركوا أنه كان يعنيهم هُم. ومع أنهم كانوا يسعون إلى القبض عليه، فقد كانوا خائفين من الجموع لأنهم كانوا **يعتبرونه نبيا**.} (إنجيل متى- الإصحاح الحادي والعشرون: 45-46)

وكذلك كونه رسولاً لا يملك مِن أمره شيئًا:

{وأنا لا يمكن أن أفعل شيئا مِن تلقاء ذاتي، بل أحكم حسبما أسمع، وحكمي عادل، لأني لا أسعى لتحقيق إرادتي بل إرادة الذي أرسلني} (إنجيل يوحنا: الإصحاح الخامس: 30)

{فالذي يرفضني ولا يقبل كلامي، له مَن يحكم عليه: فإن الكلمة التي قلتها هي تحكم عليه في اليوم الأخير، **لأني لم أتكلم بشيء من عندي**، بل أقول ما أوصاني به الأب **الذي أرسلني** وأنا أعلم أن وصيتَه هي حياة أبدية: فإن ما أقوله مِن كلام، أقوله كما قاله لي الأب}
(إنجيل يوحنا- الإصحاح الثاني عشر: 48 -50)

مما سبق يمكننا القول بثقة إن المسيح عيسى بنَ مريمَ -عليه السلام-، ووفقًا للأناجيل المعتمدة اليوم، وفي كل الترجمات، كان يصف نفسه بأنه " ابن الإنسان" وليس "ابنَ الله" وأن أتباعه كانوا يرونه "نبيًا" وليس إلهًا، وأنه كان يتصرف كرسولٍ مرسَلٍ وليس وفق إرادته الشخصية. وعليه فلا غرابة في أن معجزاتِه لا تختلف عن معجزات الأنبياء والرسل مِن قبله:

معجزات النبي الرسول:
معجزاتُ المسيح كثيرةٌ بلا شك، ولا خلاف حول ذلك في القرآن والأناجيل، لكني انتقيتُ اثنتيْن من معجزاته في الإنجيل لندلل بهما على كونها "معجزات رُسُل" وليست "أعمالَ إلهٍ" مطلَق القدرة والإرادة من ناحية، ومن ناحية أخرى تعكس السعيَ الدؤوب لليهود للإيقاع بعيسى بن مريم وإنكار أنه المسيح والتخلص منه ومِن رسالته:

معجزة إبصار الأعمى:

{وفيما كان يسوع مارًّا، رأى رجلا أعمى منذ ولادته، فسأله تلاميذه:" يا معلِّم، مَن أخطأ: هذا أمْ والدَاه، حتى وُلد أعمى؟" فأجابهم يسوع:" لا هو أخطأ ولا والدَاه، ولكن حتى تظهر فيه أعمال الله. **فعلَيَّ أن أعمل أعمال الذي أرسلني** ما دام الوقت نهارا.."} (إنجيل يوحنا - الإصحاح الثامن: 1-4)

هنا نلاحظ أن المسيح قبْلَ أن يُقدِم على علاج الأعمى يعلن صراحة أنه "رسول" يقوم بأعمال الذي أرسله وليس عمله هو، وبعد أن أبصر الأعمى ثار غضب اليهود:

{فذهبوا بالرجل الذي كان أعمى إلى الفريسيين. وكان اليوم الذي جبل فيه يسوع الطين وفتح عينَي الأعمى، يوم سبت. فسأله الفريسيون أيضا كيف أبصر. فأجاب:" وضع طينا على عيني، واغتسلتُ، وها أنا أبْصِر!" فقال بعض الفريسيين:" لا يمكن أن يكون هذا الرجل مِن الله، لأنه يخالف سُنَّة السبت" ولكن بعضهم قالوا:" كيف يقدر رجل خاطئ أن يعمل مثل هذه الآيات؟" فوقع الخلاف بينهم. وعادوا يسألون الذي كان أعمى:" وما رأيك أنت فيه ما دام قد فتح عينيك؟" فأجابهم:" **إنَّه نبي"}** (إنجيل يوحنا - الإصحاح التاسع:13-17)

فإنْ كان الأعمى قد أبْصَر ورأى المسيح نبيًا، فمن العيب أن نصاب نحن بالعمى وندّعي أن إعماله لقدرة الله كرسول إنما هي دليل على ألوهيته.

لكن اليهود كان لهم موقف آخر:

{ ورفض اليهود أن يصدقوا أنه كان أعمى فأبصر، فاستدعوا والديْه و سألوهما:" أهذا ابنكما المولود أعمى كما تقولان؟ فكيف يبصر الآن؟" أجابهم الوالدان:" نعلم أن هذا ابننا وأنه ولِد أعمى. ولكننا لا نعلم كيف يبصر الآن، ولا مَن فتح عينيه. إنه بالغ الشد، يجيبكم عن نفسه، فاسألوه!"} --{ وقد قال والداه هذا لخوفهما مِن اليهود، لأن اليهود كانوا قد اتفقوا أن يَطردوا مِن المجمع كل مَن يعترف أن يسوع هو المسيح. لذلك قالا:" إنه بالغ الشد فاسألوه}
(إنجيل يوحنا - الإصحاح التاسع: 22-23)

هنا لا بد مِن ملاحظة مهمة: مَن كَتَب هذه الرواية -مهما يكن- يوثق أن كهنة اليهود كانوا يعلمون أن عيسى هو المسيح، لكنهم أرْهَبوا عامة اليهود من الاعتراف بذلك، فإنْ كان الكهنة يقرون أنه المسيح، فالمسيح المرتقَب حسْبَ اليهود رسول وليس إلها أو ابنَ الله! بمعنى آخر: فإنَّ عداءَهم له ليس كما يزعمون لأنه ادَّعى أنه "ابنَ الله"، ولكن لأنهم أرادوا التخلصَ من المسيح نفسه والقضاء على رسالته، وسنرى دوافعَهم لذلك لاحقًا، بعد معجزة إحياء الموتى، لكن مشكلتهم مع إبصار الأعمى لم تنتهِ:

{ثم استدعى الفريسيون، مرة ثانية الرجلَ الذي كان أعمى، و قالوا له:" مجِّد الله! نحن نعلم أن هذا الرجل خاطئ". فأجاب:" أخاطئ هو، لستُ أعلم! إنَّما أعلم شيئا واحدا: أني كنت أعمى والآن أبصر!" فسألوه ثانية:" ماذا فعلَ بك؟ كيف فتح عينيك؟" أجابهم:" قد قلتُ لكم و لم تسمعوا لي، فلماذا تريدون أن تسمعوا مرة ثانية؟ ألعلكم تريدون أنتم أيضًا أن تصيروا تلاميذ له؟" فشتموه وقالوا له:" بل أنت تلميذه! أمَّا نحن فتلاميذ موسى. نحن نعلم أن موسى كلّمه الله، أمَّا هذا فلا نعلم له أصلا!" فأجابهم الرجل: **" إن في ذلك عجبا! إنه فتح عيني وتقولون إنكم لا تعلمون له أصلا! نحن نعلم أن الله لا يستجيب للخاطئين، ولكنه يستمع لمن يتقيه ويعمل بإرادته،** ولم يسمع على مدى الأجيال أن أحدا فتح عينَي مولودٍ أعمى! فلو لم يكن هو مِن الله، لَمَا استطاع أن يعمل شيئا". فصاحوا به:" أنت بكاملك ولِدتَ في الخطيئة وتعلّمنا؟!" ثم طردوه خارج المجمع.} (إنجيل يوحنا - الإصحاح التاسع: 24-34)

هذا الحوار نجد له الكثيرَ من النظائر اليوم بين المسلمين الذين أصبحت المذهبيةُ والعنصرية والتفكير الكهنوتي عقيدتَهم مهما توافرت لديهم الأدلة أنهم مخطئون. بعد هذا الحوار فإن الخيار أصبح واضحًا أمام المبصرين: إمّا اتّباع حكمة الأعمى الذي أبصَر على يدَيْ المسيح الذي عمل المعجزة بأمر الله الذي أرسله كما قدم لذلك، أو اتّباع الكهنة الذين كانوا يعلمون حق العلم أنه المسيح لكنهم كفروا به عنادًا وغرورًا.
فإنْ كانت معجزة إبصار الأعمى قد أصابتهم بذلك القدْر مِن الخوف من انتشار رسالة المسيح وافتضاح أمرهم، فإن معجزة إحياء الموتى كانت هي قاصمة الظَّهْر.

قاصمة الظهر: معجزة إحياء الموتى:

قصةُ إحياءِ الميت ارتبطت بشخص اسمه "لِعَازر" مِن قرية مريمَ المجدليةِ صديقةِ مريمَ العذراء. وقد مَرض عدة أيام ثم مات والمسيح بعيد عن القرية. فلما شاع الحزن على موته عاد المسيح إلى القرية لإحيائه بإذن الله بعد أربعة أيام مِن دفنه:

ففاض قلب يسوع بالأسى الشديد مرة ثانية. ثم اقترب إلى القبر، وكان كهفا على بابه حَجَر كبير. وقال: " ارفعوا الحجر!" فقالت مرثا: " يا سيد، هذا يومه الرابع، وقد أنتن". فقال يسوع: " ألم أقل لك: إنْ آمنتِ تري مجدَ الله؟"}

{فرفعوا الحَجر، ورفع يسوع عينيه إلى السماء و قال: "أيها الأب، أشكرك لأنك سمعتَ لي، وقد عَلِمتُ أنك دوما تسمع لي. و لكني قلتُ هذا لأجل الجمع الواقف حولي ليؤمنوا أنك أنت أرسلتني". ثم نادى بصوت عالٍ: " لِعَازر اخرجْ!" فخرج الميت والأكفان تشد يديه ورجليه، والمنديل يلف رأسه. فقال يسوع لمَن حوله: " حلوه ودعوه يذهب!" } (إنجيل يوحنا- الإصحاح الحادي عشر: 38 -44)

وكان لهذه المعجزة صدىً كبيرٌ هدد مخطط اليهود في التخلص من المسيح -عليه السلام-:

{وآمن بيسوعَ مِن اليهود الذين جاءوا ليعزوا مريم، عندما رأوه يعمل ذلك. على أن جماعة منهم ذهبوا إلى الفريسيين وأخبروهم بما عمله يسوع. فعقد رؤساء الكهنة والفريسيون مجلسا، وقالوا: "ماذا نفعل؟" هذا الرجل يعمل آياتٍ كثيرة. فإذا تركناه و شأنه يؤمن به الجميع، فيأتي الرومانيون ويدمرون هيكلنا المقدس وأمتنا!" فقال واحد منهم، وهو قيافا الذي كان رئيسا للكهنة في تلك السنة: إنكم لا تعرفون شيئًا ألا تفهمون أنه مِن الأفضل أن يموت رجل واحد فدى الأمة، بدلا من أن تهلك الأمة كلها؟". ولم يقل قيافا هذا الكلام من عنده، ولكن إذ كان رئيسٌ للكهنة في تلك السنة تنبأ أن يسوع سيموت فدى الأمة، وليس فدى الأمة فحسب بل أيضا ليجمع أبناء الله المشتتين فيجعلهم واحدا. } (إنجيل يوحنا- الإصحاح الحادي عشر: 45-52)
هنا نتوقف قليلاً: واضحٌ أن اليهود لم تكن مشكلتهم مع المسيح عقائدية، ولكن لأن الكهنة كانوا مستعبَدين مِن الرومان وباعوا دينَهم لهم، كانوا يخشون أن تـُثير دعوة المسيح غضبَ الرومان فيخسر اليهود مصالحهم الدنيوية. أيضًا فإن مفهوم (أن يموت رجل واحد فدى الأمة) لا يعني بأي حال من الأحوال أنه يموت ليغسل خطايا الناس، ولكنه تعبيرٌ سياسيٌّ يعني: أن الأفضل التضحية بشخص واحد بدلاً من تعريض كل الأمة للموت. هذا الفهم المغلوط لهذه الجملة يعتمد عليه المسيحيون كثيرًا في أن المسيح كان مقدَّرًا له أن يموت فداءً للعالم. وأخيرًا نلاحظ أن الإضافة التي أضيفت لتفسر قول الكاهن لم تكن من قوله هو، وإنما إضافةٌ متأخرةٌ من كاتب الإنجيل أو ممن تبعه في التحريف لتوهم القارئ أن المقصود من "موت فرد واحد" هو موت المسيح من أجل الناس؛ المحور الأساس في العقيدة المسيحية اللاحقة.

و أختِمُ وقائعَ المحاكمةِ الدينية ودفاع المسيح عن نفسه بقصة طريفة توضح مدى حقد كهنة اليهود على المسيح ومدى حرصهم على ألا يؤمن به الناس، وهي أنهم فكروا في "إعدام لِعَازر" في "بيت عنيا" وهو المكان الذي كان فيه بعد أن بُعِثَ من موته:

{وعلم كثيرون من اليهود أن يسوع في بيت عنيا، فجاءوا لا ليروا يسوع فقط، بل ليروا أيضا لِعَازر الذي أقامه مِن بين الأموات. فقرر رؤساء الكهنة أن **يقتلوا** لِعَازر **أيضا**، لأن كثيرين من اليهود كانوا يهجرونهم بسببه و يؤمنون بيسوع}. (إنجيل يوحنا- الإصحاح الثاني عشر: 9-11)

ورغم ورود هذا النص إلا أن الأناجيل والمصادر المسيحية لم تثبت أنهم قتلوه، وإنما كان هذا تعبيرًا عن مدى خوفهم من معجزات المسيح والتفاف الناس حوله.

وتداخلت البلبلة الدينية مع البلبلة السياسية للإيقاع به:

{فجعلوا يراقبونه وبثوا حوله جواسيسَ يتظاهرون أنهم أبرار كي يمسكوه بكلمة يقولها فيسلموه إلى قضاء الحاكم وسلطته. فقالوا يسألونه:" يا معلّم نعلم أنك تتكلم وتعلم بالصدق فلا تراعي مقاماتِ الناس بل تعلم طريق الله بالحق: أَفَيَحِلُّ علينا أن ندفع الجزية للقيصر؟ أم لا؟"... . فأدرك مكرَهم وقال لهم: " أروني دينارا: لمِن الصورة والنقش عليه؟" فأجابوا: " للقيصر!" فقال لهم:" إذًا أعطوا ما للقيصر للقيصر وما لله لله. فلم يتمكنوا من الإيقاع به أمام الشعب بكلمة يقولها فسكتوا مدهوشين مما سمعوا.} (إنجيل لوقا-الإصحاح العشرون: 20-26)

وأخيرًا أصبح أمر التخلص من المسيح لا مفر منه:

{**<u>من ذلك اليوم قرر اليهود أن يقتلوا يسوع</u>**. فلم يعد يتجول بينهم جهارا، بل ذهب إلى مدينة اسمها أفرايم، تقع في بقعة قريبة من البرية، حيث أقام مع تلاميذه.

وكان عيد الفصح اليهودي قد اقترب، فتوافد كثيرون من القرى إلى أورشليم ليقوموا بطقوس التطهر السابقة للعيد. وكانوا يبحثون عن يسوع، ويتساءلون وهُم مجتمعون في الهيكل: " ما رأيكم؟ ألعلّه لا يأتي إلى العيد؟ و كان رؤساء الكهنة والفريسيون قد أصدروا أمرًا بأنَّ على كل مَن يجد يسوع أن يبلغ عنه ليلقوا القبضَ عليه} (إنجيل يوحنا-الإصحاح الحادي عشر: 45-57)

القبض على المسيح:

لا بد من التنويه إلى أن الأناجيلَ الأربعة المعتمدة روت قصة المسيح، كلٌّ مِن وجهة نظره وحسب ترتيب الأحداث لديه. وما نقلتُه تحت هذه العناوين هو اجتهاد مني في ترتيب الأحداث في سياق تاريخيٍّ منطقيٍّ منذ بدء رسالته إلى رفعه. وعليه فإن وضع المحاكمة الدينية سابقا للمحاكمة السياسية ليس إلا ترتيبًا منطقيًا لتدرج الأحدث رغم أن الأدلة مبعثرة في الأناجيل المختلفة.

بعد أن قرر الكهنة قتلَ المسيح، عَلِمَ هو بقرب هذه النهاية وبدأ يتخفى ويستعد للمعركة الأخيرة. وعلى عكس ما صوَّر الفكرُ المسيحي من كونه استسلم طائعًا للموت من أجل غسل خطايا الناس، نجد المسيح كان قد أعدَّ عدة للمواجهة. إلا أن الوشاية به وتسليمه للكهنة تمَّتَا بخيانة أحد الحواريين له واسمه يهوذا، وتم القبض عليه لينتقل الصراعُ من صراع عقدي إلى صراع سياسيّ يفصل فيه الحاكم الروماني. هذه المرحلة وثقها إنجيل متّى كما يلي:

{ولما طلع الصباح، عقد رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب اجتماعا آخر، وتآمروا على يسوع لينزلوا به عقوبة الموت. ثم قيدوه وساقوه فسلموه إلى بيلاطس الحاكم}

{ فلما رأى يهوذا مسلّمه أن الحكم عليه قد صدر، ندم ورَدَّ الثلاثين قطعة من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ وقال: " قد أخطأتُ إذ سلمتكم دمًا بريئًا". فأجابوه: " ليس هذا شأننا نحن، بل هو شأنك أنت!" فألقى قطع الفضة في الهيكل وانصرف، ثم ذهب فشنق نفسه. } (إنجيل متّى-الإصحاح السابع والعشرون: 1-4)

ملخص هذه القصة أن يهوذا الحواري الذي يحمل الرقم "13" (الحواريون كانوا 12 مضافا إليهم المسيح كانت المجموعة 13)، كان قد قبل رشوة ثلاثين قطعة فضة ليشير للمسيح وهو متخفٍ بين بقية الحواريين، فتم القبض عليه. وهذه الحادثة ما زال لها أثرٌ سلبي في التراث الغربي المسيحي إذ إن الرقم "13" هو رقم التشاؤم. ولمَّا كان يوم الصلب هو يوم الجمعة فإن معظم المجتمعات الغربية وإلى عهد قريب كانت تتشاءم من يوم الجمعة إذا كان 13 في الشهر. بل إن الكثير من خطوط الطيران الغربية لم يكن لديها إلى عهدٍ قريب مقعد رقم "13" في الطائرات.

بعد أن تم العزم على قتل المسيح (بحُجج دينية وهمية)، كان لا بد من تلفيق تهمة سياسية توقع بينه وبين الرومان حتى يقتلوه لهم. وهنا لا بد من توضيح بعض النقاط قبل أن ننتقل للمحاكمة السياسية:

أولاً: واضحٌ أن عزم الكهنة على قتل المسيح ليس لأنه "كَفَر" بدينهم، لكن لأنهم رفضوا رسالته وهُم لا يشكُّون أبدًا أنه المسيح عيسى بن مريم رسول الله المرتقب.

ثانيًا: الأسئلة الكثيرة المحرجة التي نقلنا بعضَها أعلاه لم تكن لاختباره في دينه، وإنما لإشاعة البلبلة في أفكار عامة الشعب حتى يبتلعوا تهمة كُفر "عيسى"، وبالتالي قبول الحكم عليه بالموت مرتدًا.

ثالثًا: اليهود كان بوسعهم الإقدامُ على قتله كما قتلوا يحيى و زكريا من غير الرجوع للحاكم الروماني، لكن لعِلمهم اليقيني أن المسيح لن يموت على أيديهم ما كان لهم أن يُقدِموا على مقامرة خاسرة تفضحهم أمام عامة الشعب. فهم يعلمون أنه رسول وأن الرسل لا تقتل. ويعلمون أنه المسيح حقًا وأنه سيُرفع مِن الأرض. لذلك قرروا تعريضه لعملية إعدام صورية تُحدِث "شبهة موت"، مع علمهم التام أنه لن يموت، حتى يفرضوا على الرأي العام كذبًا أنه مات. وهذه الإشاعة نفسها تزيد العامة يقينًا أنه لم يكن المسيحَ المرتقب في بيت إسرائيل، لأن العامة يعلمون أن المسيح المرتقب لن يموت.

من هنا لا بد أن نقرأ "المسرحية الملفقة" بين السطور في قصة موته التي قُصِد منها إيهام العامة من ناحية أنَّ مَن مات على الصليب حقًا ما كان ليكون المسيح، وبذلك يضمنون تبعية عامة الشعب ويتم التخلص من عيسى بن مريم نهائيًا. من ناحية أخرى فإنَّ إقحام الحاكم الروماني في الصراع كان القصد منه بداية بيع قصة المسيح للإمبراطورية الرومانية ليكون إلهًا يهوديًا يستعبدون به عقول الرومان ومَن تَبعهم. وهذا هو محتوى المحاكمة

السياسية وقصة الصلب كما سنرى.

المحاكمة السياسية:

وقائعُ صلبِ المسيح أو "شبهة قتلِه" كما سمّاها القرآن قصةٌ معقدةٌ جدًا في الأناجيل والتراث المسيحي. قصةٌ معقدة من ناحية عقائدية لأنها تشكل الحد الفاصل بين المسيحية والإسلام في عقيدة الطرفيْن في رسالة المسيح ونهاية رسالته في الأرض. ومعقدةٌ من حيث الكيفية التي وثّق بها المؤرخون تلك الوقائعَ وما أضيف إليها عبْر القرون من تعديلات لترجح فكرة القتل والصلب. و يزيد التعقيد أن مؤامرةً سرية قد تمت بين كهنة اليهود والحاكم الروماني لإخراج مسرحية الإعدام صلبًا، حتى يتم خداع عامة الشعب أنه مات حقيقة، وبالتالي تسقط رسالته، بينما يعلم الكهنة حق العلم أنه لم يَمُت وما كان له أن يموت وبالتالي ما كان له أن يُصلَب. ولأن الذين كتبوا الأناجيلَ إنما كتبوا "الأقاويل" و "الأحاديث" والإشاعات التي انتشرت حينذاك، فإنّ فَهْمَ ما حدث بالضبط يتطلب قراءة الأحداث بعقليةِ (جيمس بوند) في كشف الجرائم الغامضة، لذلك سيكون هناك شيء من التكرار في مراجعة النصوص لمحاولة قراءة ما لم يوثق بين السطور.

هنا أناقش كيفية تعامل الحاكمان الرومانيان مع ضغط كهنة اليهود وإلحاحهم على قتل المسيح. بعد أن تمت خيانة يهوذا للمسيح (الحواري رقم 13) وإلقاء القبض عليه من قِبَل اليهود، وبعد أن حققوا معه في المحكمة الدينية أعلاه، ساقوا المسيح-عليه السلام- إلى الحاكم الروماني في أورشليم لإقناعه بقتله:

{فقامت جماعتهم كلها و ساقوا يسوعَ إلى بيلاطس. وبدأوا يتهمونه قائلين: " تبين لنا أن هذا يضلل أُمَّتَنا، ويمنع أن تدفع الجزية للقيصر ويدَّعى أنه المسيح الملك!" فسأله بيلاطس: " أأنت مَلِك اليهود؟" فأجابه: " أنت قلت!" فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجموع: " لا أجد ذنبًا في هذا الإنسان!" ولكنهم ألحوا قائلين: " إنه يثير الشعب، معلمًا في اليهودية كلها، ابتداء من الجليل حتى هنا!" فلما سمع بيلاطس ذِكْرَ الجليل استفسر: " هل الرجل مِن الجليل؟" وإذ علم أنه تابع لسلطة هيرودس، أحاله على هيرودس، إذ إنه كان في أورشليم في تلك الأيام.}

(إنجيل لوقا- الإصحاح 23: 1-7)

قلتُ سابقًا: إن الكهنة اتهموا المسيح أمام شعب اليهود بأنه كَفَر بزعمه أنه "ابن الله"، وقد أنكر المسيحُ ذلك مرارًا وتكرارًا مسمِّيًا نفسه "ابنَ الإنسان"، لكنهم سعوا لتقليب كلامه وفرضوا رأيهم من غير دليل رغم تناقض أقوال الشهود. لكن لما كان (بيلاطس) لا يهمه أن يرتد اليهودي أو لا يرتد، فقد تغير الاتهام هنا إلى اتهام سياسي قصد منه الإيقاع بينه وبين الرومان، فاتهموه أنه يزعم أنه "مَلِك اليهود" و يرفض دفعَ الجزية للقيصر. إلا أن المسيح قد أنكر التهمة السياسية أيضًا، ولم يجد (بيلاطس) ذنبا يعاقبه عليه. ويبدو أن وضْعَ كهنةِ اليهود كان قويًا ويهدد استقرار المنطقة، لذلك فقد سعى (بيلاطس) للتخلص من المشكلة بإرسال المسيح إلى (هيرودس)، حاكم الجليل، بمجرد أن وجد هذا المَخرج.

وأرسل المسيح إلى عدوه (هيرودس) حاكم الجليل:

{في تلك الساعة نفسها، تقدم إليه بعض الفريسيين، قائلين له: " انجُ بنفسك! اهرب من هنا، فإن هيرودس عازم على قتلك" فقال لهم: " اذهبوا، قولوا لهذا الثعلب: ها أنا أطرد الشياطين وأشفى المرضى اليوم وغدًا. وفى اليوم الثالث يتم بي كل شيء"} (إنجيل لوقا- الإصحاح الثالث عشر: 31-32)

هذا النص يوحي بأن (هيرودس) كانت له مشكلة مع المسيح مسبقًا، وحسب علمي فإن المشكلة غالبا كانت هي قتل (هيرودس) ليحيى بن زكريا التي أدت لتأزم العلاقة بينه وبين المسيح. وكان اليهود يظنون أن (هيرودس) كان ينوي قتل المسيح نفسه ليتخلص من الفتنة قبل وقوعها، لكن كانت هناك مفاجأة تحتاج لتأويل جديد. فحينما وصل المسيح معتقَلاً إلى هيرودس في الجليل:

{ولمَّا رأى هيرودس يسوعَ فرح جدا، لأنه كان يتمنى من زمان طويل أن يراه بسبب سماعه الكثير عنه، ويرجو أن يرى آية تجرى على يده. فسأله في قضايا كثيرة، أما هو فلم يجبه عن شيء. ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يتهمونه بعنف. فاحتقره هيرودس وجنوده وسخر منه، إذ ألبسه ثوبا براقا و ردَّه إلى بيلاطس. وصار بيلاطس و هيرودس صديقيْن في ذلك اليوم، وقد كانت بينهما عداوة سابقة.} إنجيل (لوقا- الإصحاح الثالث والعشرون: 8-12)

لا نفهم، أكان (هيرودس) عازمًا على قتل المسيح أم لا؟ فقد جاءه محكومًا عليه بالموت فأعاده إلى (بيلاطس)، ورغم أن المسيح وصَفَه بأنه ثعلب إلا أن (هيرودس) أبدى إعجابه به وطلب منه معجزاتٍ أولاً، فرفض المسيح،

فأهانه لكنه لم يقتله وأعاده إلى (بيلاطس)، ولا نفهم ما هو سبب المودة المفاجئة التي نشأت بين (هيرودس) و(بيلاطس) بهذه المناسبة؟

لنحاول فهْمَ هذا التناقض في موقف (هيرودس) الذي كان يبحث عن المسيح ليقتله سابقا، فلمّا جيء به وسنحت الفرصة ليقتله تغير الموقف وأبدى إعجابه به، نحتاج لإلقاء بعض الضوء على شخصيته ونفسيته حينذاك.

تحليل شخصية (هيرودس):

ذكرتُ سابقًا أن هيرودس كان هو الذي قطع رأس يحيى بن زكريا-عليه السلام- (يوحنا المعمدان). لنقرأ تفاصيل هذه الواقعة في إنجيل متّى ثم نتدبر فيها:

{في ذلك الوقت سمع هيرودس حاكمُ الربع بأخبار يسوع. فقال لخدّامه: " هذا هو يوحنا المعمدان، وقد قام مِن بين الأموات. ولذلك تجرى على يده المعجزات!"}

{فإن هيرودس كان قد ألقى القبضَ على يوحنا وكبَّله بالقيود، وأودعه السجن من أجل هيروديا زوجة فيلبس أخيه، لأن يوحنا كان يقول له: " ليس حلالاً لك أن تتزوج بها!" ولما كان هيرودس يريد أن يقتل يوحنا، خاف من الشعب، لأنهم كانوا يعتبرون يوحنا نبيا. وفي أثناء الاحتفال بذكرى ميلاد هيرودس، رقصت ابنة هيروديا في الوسط، فسرت هيرودس، فأقسم لها واعدًا بأن يعطيها أي شيء تطلبه. وبعد استشارة أُمِّها، قالت: " أعطني هنا على طبق رأس يوحنا المعمدان!" فحزن الملك، ولكنه أمر بأن تعطى ما تريد، من أجل ما أقسَمَ به أمام المتكئين معه. وأرسل إلى السجن فقطع رأس يوحنا. وجيء بالرأس على طبق، فقدم إلى الصبية، فحملته إلى أُمها. و جاء تلاميذ يوحنا، فرفعوا جثمانه، و دفنوه. ثم ذهبوا وأخبروا يسوع.}

(إنجيل متى- الإصحاح الرابع عشر: 1-12)

لا بد من التنبيه هنا إلى أن (هيرودس) كانت أمه عربية و أبوه رومانيًا، ويبدو أنه كان يعاني صراعًا بين عقيدة الرومان وعقائد العرب التي تنتمي إليهم أمه، لكن بطبيعة الحال كان يمثل السلطان الروماني في الجليل، وفوق ذلك فقد كان ماجنًا ولا يخضع لأخلاق العقيدة اليهودية، ورغم أنه حزن لقتل يحيى "يوحنا المعمدان"، ربما لعلمه بأنه مظلوم، ولعلمه أنه قتله تلبية لرغبته الحيوانية في الزواج من زوجة أخيه فيلبس وهي جريمة أخلاقية، إلا أنه رضخ أخيرًا لشهوته فقطع رأس يوحنا الذي أفتى بحرمة ذلك الزواج، ويبدو أن اليهود، في تلك الأيام، كانوا قد أشاعوا الكثير من الإشاعات وأطلقوا الأحاديث وقالوا الأقاويل بحق المسيح-عليه السلام- لتعمية العامة وإقناعهم أنه ليس المسيح - ويبدوا أن كثرة الإشاعات مع حقيقة آيات الأنبياء التي كان يراها (هيرودس) أمامه قد خلطت الأمور في ذهنه، فظن أن المسيح ليس إلا "يوحنا النبي" الذي قتله ظلمًا قد بُعِث من موته كما أحيا المسيح الموتى، لذلك كان أولاً عازما على قتل المسيح (ظنًا منه أنه يوحنا قد بعث)، لكن لما تبين له أنه شخص مختلف (استقى معلوماته من اليهود طبعًا) تغير موقفه وسعى للاستفادة من آياته و معجزاته وتسخيره لرغباته. المسيح من ناحية أخرى كان يعلم كل تلك المؤامرات والشائعات لذلك رفض الانجراف وراء رغبة (هيرودس) في إجراء آيات أمامه، لذلك لم يجبه بشيء، بعدها اكتفى (هيرودس) بإهانة المسيح وأرجعه إلى (بيلاطس).

هنا أيضًا يطرأ سؤال: علمًا بضغط اليهود وإصرارهم على قتل المسيح، وعلمًا بأن (بيلاطس) كان أصلاً قد أحاله إليه وأعطاه مطلق الصلاحية في الحكم عليه، لماذا لم يقدم (هيرودس) بقتل المسيح لينتهي الأمر؟؟؟

يبدو أن اجتماعاتٍ ومفاوضاتٍ سرية تمت بين بعض الكهنة و(هيرودس) قد أرهبته من محاولة الإقدام على قتل المسيح، لذلك آثر السلامة وأعاده للحاكم الأعلى في القدس، وسيتضح لنا هذا التحليل حينما ندرس شخصية ونفسية (بيلاطس) لاحقًا.

قبل الرجوع مع المسيح من الجليل حيث الحاكم الأصغر (هيرودس) إلى أورشليم "القدس" حيث (بيلاطس)، اتبع أسلوب البحث العلمي في الطب الشرعي و أطرحُ أسئلة منطقية نجيب عليها لاحقًا:

السؤال الأول: لماذا لم يُقدِم اليهود على قتل المسيح بأنفسهم، علمًا بأن الحاكميْن الرومانيين ما كان يهمهم الأمر، وهُم قتَلة أنبياء وغير أنبياء؟؟؟؟

السؤال الثاني: لماذا لم يَقتل (هيرودس) المسيحَ ويحل الإشكال على مرؤوسه (بيلاطس) وعلى اليهود، علمًا بأنه قتَل يحيى قريبًا جدًا؟؟؟

المهم، رفض هيرودس قتلَ المسيح و تمت إعادته إلى الحاكم الأعلى في أورشليم:

(بيلاطس) يرضخ لليهود:

تحت هذا العنوان وصَفَ إنجيل (لوقا) كيف تطورت الأحداث في أورشليم بعد أن أعيد المسيح مقبوضًا عليه من (هيرودس) في الجليل:

{فدعا بيلاطس رؤساءَ الكهنة والقوادَ والشعب. وقال لهم: " أحضرتم إليَّ هذا الإنسان على أنه يضلل الشعب. وها أنا، بعدما فحصتُ الأمر أمامكم، لم أجد في هذا الإنسان أي ذنب مما تتهمونه به، و لا وجد هيرودس أيضا، إذ ردَّه إلينا. وها إنه لم يفعل شيئا يستوجب الموت. فسأجلده إذن وأطلقه. وكان عليه أن يطلق في كل عيد سجينا واحدا"} .

هذا العيد هو عيد الفصح - الذي كانت فيه قصة "العشاء الأخير" الشهيرة التي خلدها الرسام ليوناردو دافنشي، وسنتطرق للقصة في "الطريق إلى دمشق" لاحقا إن شاء الله- وكان الرومان يطلقون سجينًا في العيد هدية سياسية لليهود.

نلاحظ هنا أن الإنجيل يوثق براءة المسيح من كل التهم بشهادة الحاكميْن الرومانيين. لكن ضغط اليهود استمر:

{ولكنهم صرخوا بجملتهم: "اقتل هذا، وأطلِق لنا باراباس!" وكان ذاك قد ألقى في السجن بسبب فتنة حدثت في المدينة وبسبب قتل. فخاطبَهم بيلاطس ثانية وهو راغب في إطلاق يسوع. فردوا صارخين: " اصلبه! اصلبه!" فسألهم ثالثة: " فأي شر فعل هذا؟ لم أجد فيه ذنبًا عقوبته الموت. فسأجلده إذًا وأطلقه!" فأخذوا يلحون صارخين بأصوات عالية، طالبين أن يصلب! فتغلبت أصواتهم، وحكم بيلاطس أن ينفذ طلبهم. فأطلق الذي كان قد ألقى في السجن بسبب الفتنة والقتل، ذاك الذي طلبوا إطلاقه. وأما يسوع فسلمه إلى إرادتهم} (إنجيل لوقا- الإصحاح الثالث والعشرون: 13- 25)

السياسة في كل العصور سياسة؛ لعبة قذرة (طبعًا إلا سياسة الأنبياء والمرسلين ومَن سار على نهجهم).

واضحٌ أن وقائع المحكمة أعلاه لا ترقى إلى أي مستوى من المنطقية. ولا أتحدث عن عدالة هنا، لأن الحاكم أو القاضي مقتنع ببراءة المتهم، رغم ذلك يرضخ لإرادة المتهِمين. عدم المنطقية الذي أعنيه هو أن هذه المحاكمة لا تتناسب مع نظام الإمبراطورية الرومانية حينها، إذ كانت إمبراطورية منظمة، بنْتَ حضارةٍ عظمى وسلطان مهيب، وكان لها قوانين ونُظُم حُكم وموظفين وقضاة ومهندسين و.. و.. و.. إلخ. إذن، لا يُعقَل أن يكون قرار الإعدام صلبًا قد تم فقط استجابة لجمهرة من المشاغبين اليهود يُرغِمون الحاكمَ الروماني بكل هيبته أن يقتل لهم من يعلم حق العلم أنه بريء من كل التهم الدينية والسياسية معًا.

هنا لا بد من افتراض وجود حلقة مفقودة لم تسجلها الأناجيل: تلك هي سلسلة الاجتماعات بين الحاكم الروماني وجنوده وكهنة اليهود التي انتهت –غالبًا- بالاتفاق على إخراج مسرحية القتل والصلب إرضاء لكهنة اليهود وخداعًا للعامة - بشرط أن يحتفظ (بيلاطس) بحقه في أن يحافظ على حياة المسيح إلى أن يرفع عن الأرض ويختفي. وحتى نستوعب تلك المؤامرة نحتاج لدراسة شخصية ونفسية (بيلاطس) وذلك بالنظر في وقائع ذات المحكمة كما وثقت في الأناجيل المختلفة:

دراسة نفسية (بيلاطس):

وثَّقَ إنجيل متَّى قصة تعامُلِ (بيلاطس) مع المسيح كما يلي:

{ فسأل الحاكم: " وأي شر فعل؟" فازدادوا صراخا: "ليصلب!" فلما رأى بيلاطس أنه لا فائدة وأن فتنةً تكاد أن تنشب بالأحرى، أخذ ماء وغَسَل يديه أمام الجمع، وقال "أنا بريء من دم هذا البار. فانظروا أنتم في الأمر!" فأجاب الشعب بأجمعه: " "ليكن دمُه علينا وعلى أولادنا!" فأطلق لهم باراباس، وأما يسوع فجلده ثم سلَّمَه إلى الصلب.} (إنجيل متّى- الإصحاح السابع والعشرون: 23-27)

هنا نلاحظ أن إنجيل متّى قد وثق هذه الحقائق:

أولاً: إصرار (بيلاطس) على براءة المسيح من كل التهم.

ثانيًا: أن بيلاطس كان يخشى حدوثَ فتنةٍ وسط المجتمع اليهودي، وعليه أن يتجنبها سياسيًا.

ثالثًا: أنه، ورغم وثنيته، فقد وصف المسيح بأنّه "بارٌّ"، بمعنى له أخلاق وقيم روحية. وهذا الاعتراف غالبًا ما يخيفه إن هو أقدَم على قتله.

رابعًا: أنه غسل يديه وأعلن براءته على الملأ من دم المسيح حتى قبْلَ الإقدام على صلبه.

خامسًا: أنه ترك الأمر لليهود ليقرروا كيفية نهاية الأمر.

سادسًا: أن عامة الشعب لم يقولوا (ليكن دمه كفارة لذنوبنا) كما تقول العقيدة المسيحية اليوم، وإنما تحمَّلوا مسئولية الجريمة، وحملوا اللعنة إلى أولادهم.

هذه النتائج نستنتجها من تصور الواقع حينذاك بناءً على المقتطفات المتناثرة في الأناجيل المختلفة، خاصة حينما نقارنها ببعضها. أما إنجيل مرقس فقد وثق المحاكمة نفسها كما يلي:

{وكان مِن عادته أن يطلق لهم في العيد أي سجين يطلبونه. وكان المدعو باراباس مسجونا عندئذ مع رفاقه المشاغبين الذين ارتكبوا القتل في أثناء الشغب. فصعد الجمع وأخذوا يطالبون بأن يفعل بيلاطس ما كان يفعله لهم دائما. فكلمهم بيلاطس سائلا: " هل تريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟" لأنه علم أن رؤساء الكهنة كانوا قد سلّموه عن حسد. ولكن رؤساء الكهنة حرضوا الجمع على أن يطالبوا، بالأحرى، بإطلاق باراباس. فعاد بيلاطس يسألهم: " فماذا تريدون أن أفعل بمن تدعونه ملك اليهود؟" فراحوا يصرخون مرة بعد مرة: " اصلبه! " فسألهم بيلاطس: " وأي شر فعل؟" إلا أنهم أخذوا يزدادون صراخا: "اصلبه!" و إذا كان بيلاطس يريد أن يرضي الجمع، أطلق لهم باراباس، وبعد ما جلد يسوع، سلمه ليصلب.} (إنجيل مرقس- الإصحاح الخامس عشر: 6-15)

هنا نلاحظ أن (بيلاطس) كان يسخر منهم، مما يدل على علمه بما يدور في أذهانهم، وربما يلمح للاتفاق السري الذي تم بينه وبين الكهنة ولا يعلمه العامة؛ فهو:

أولاً: سمّاه ساخرًا "ملك اليهود": لقد رأينا أن المسيح أنكر هذه التهمة أمام (بيلاطس) سابقًا، و(بيلاطس) هنا فقط يسخر منهم بهذه التسمية.

ثانيًا: أنه كان يعلم أن المشكلة مشكلة "حسد" وليس جريمة ارتكبها المسيح، إذن، فقد علم منهم وراء الكواليس دوافعَهم الشخصية، وربما علم منهم أنه رسول والرسل لا تموت حسب عقيدة اليهود.

ثالثًا: أنه تصرف تصرفًا سياسيًا مِن شأنه أن يرضي جميع الأطراف، وبالطبع فإنه لن ينسى إرضاء نفسه بأن يتجنب قتل رجلٍ يراه بارًّا إرضاءً لحسد اليهود فقط.

وهنا يكشف لنا إنجيل متّى سرًا أخير يقلب كل الموازين، وهو دخول جنود لا يراها اليهود، بعثها الذي بعث المسيح والذي يحفظ الرسل كيف يشاء:

{ففيما هُم مجتمعون، سألهم بيلاطس: "مَن تريدون أن أطلق لكم: باراباس، أم يسوع الذي يُدعى المسيح؟" إذ كان يعلم أنهم سلموه عن حسد. وفيما هو جالس على منصة القضاء، أرسلت إليه زوجته تقول: " إياك وذلك البار! فقد تضايقت اليوم كثيرا في حلم بسببه".} (إنجيل متّى- الإصحاح 27: 17-19)

هنا نلاحظ الآتي:

أولاً: التأكيد على أن القضية قضية حسد من كهنة اليهود.

ثانيًا: أنه كان على علم بأن يسوع هو المسيح المرتقب في بني إسرائيل. وطالما علم أنه المسيح، فهو إذن يعلم (ولا يشترط أن يؤمن) أن المسيح لن يموت وفقًا لعقيدة اليهود.

ثالثًا: أن الله قد قذف الرعب في قلب زوجته فسارعت لتحذيره من محاولة قتل المسيح.

لا أظن أن أي عاقل له خبرة بالقانون أو الطب الشرعي أو علم االنفس سيشك لحظة أن (بيلاطس) قد قرر قتل المسيح حقيقة، ولكن لمّا كان عليه أن يرضي الجميع درءًا للفتنة، فكان لا بد من "مسرحية سياسية" تحقق لكل طرف ما يريد.

وحتى نستطيع استيعاب هذه القصة المعقدة جدًا، دعوني أضعها في شكل حالة جنائية، وننظر في كل مكوناتها نظرة موضوعية:

البحث الجنائي:

أي جريمةٍ لها مقومات ومكونات تدرس من كل جوانبها. هذه تشمل: المتَّهَم - المدَّعي- الجريمة أو التهمة- القاضي - الشهود - وأخيرا مسرح الجريمة. في قصة قتل المسيح وصلبه يمكننا حتى الآن التدبر في هذه النتائج:

المتهم:

هو رسول الله المسيح عيسى بن مريم-عليه السلام- باتفاق المسلمين والنصارى وكهنة اليهود أنفسهم. ولما كان المسيح رسولاً إلى بني إسرائيل، فإن الرسل لا تقتل حسب عقيدة اليهود، التي انتمى إليها المسيح وكانت دعوته امتدادًا لها.

المدّعي:

اليهود تاريخهم حافل بقتل الأنبياء، وتعذيب الرسل والصالحين لذلك لا يستغرب أنهم تآمروا على المسيح من باب الحسد كما وثق الكتاب المقدس.

الجريمة:

اليهود هُم الذين وجهوا اتهاماتٍ متناقضة للمسيح، وقد أنكرها جميعًا وفشلوا في إيجاد شاهدٍ واحدٍ ضده. وقد رأينا كيف برّأ المسيحُ نفسَه بتكرار أنه "ابن الإنسان" وأنه مرسلٌ بفعل إرادة مَن أرسله. وأيضا برًّأ نفسه من التهمة السياسية أنه "ملك اليهود"، وقبِلَ (بيلاطس) براءته.

القاضي:

(هيرودس) لم يجد فيه جُرمًا يستحق العقاب - ورغم أن يده ملطخة بالدماء، إلا أن قُدرةً ما قذفت الرعب في قلبه فلم يُقدِم على قتله، واكتفى بإعادته إلى الحاكم الأعلى (بيلاطس). أما (بيلاطس) فقد كان جريئًا في إعلان براءة المسيح من كل التهم ووصفه بأنه رجل بارّ وأبدى علمه بأنه المسيح المرتقب لدى اليهود وبرًّأ نفسه من دمه، وفوق ذلك قذف الله في قلب زوجته الرعب من الإقدام على قتله.

هنا يسجل التاريخُ لنا حدثًا غريبًا يؤكد أن صلب المسيح لم يكن إلا مسرحية تم حبكها بين كهنة اليهود الذين يعلمون أن الله لن يسمح لهم بقتله، وبين الحاكم الروماني الذي كان مرعوبًا من مجرد فكرة الإقدام على صلبه. هذا الحدث هو اختيار يوم الجمعة وليس الأحد ليكون ميقات الصلب. وحتى أسهِّل على القارئ الكريم فهْمَ الأدلة حينما نناقشها، يستحسن أن ألخص تفاصيل المؤامرة التي اتفق كهنة اليهود عليها مع (بيلاطس) درءًا للفتنة وإرضاءً للجميع. لا بد من توضيح أن الحوار القادم حوارٌ افتراضيٌّ لم يسجله أيٌّ من الأناجيل أو كُتُب التاريخ، لكن الأدلة على وقوعه كثيرة كما سنرى لاحقًا.

ملخص مؤامرة يوم الجمعة الحزينة:

هذا الحوار الافتراضيّ مبنِي على المعرفة المسبقة لعلماء بني إسرائيل (المشار إليهم بالكهنة والكَتَبة والفريسيين في الأناجيل) بأنّ عيسى بن مريم هو رسول الله المسيح المرتقب، وعليه فإن الله حافظه منهم ورافعه إليه. وأيضًا كان أولئك القوم يعلمون أن عيسى هو آخر المرسلين في بيت إسرائيل وستنقل الرسالة الأخيرة إلى بني عمهم العرب وأن عيسى سيتنبأ بذلك.

ولعلمهم أن المسيح لن يقتل، فقد قرروا أن يقتلوه –وهْمًا- حتى يحافظوا على اليهودية كدينٍ مستقلٍّ مستمرٍ، ويظل العامة في وهْم انتظار ظهور مسيح آخر إلى آخر الزمن. إذن، فسعيهم لصلب المسيح لم يكن ناتجًا عن غباءٍ أو جهلٍ بأنهم سينجحون في صلبه حقيقة، وإنما كان القصد منه إخراج مسرحية تخدع العامة أنه قُتل، ومن ثمّ تقنعهم أن المدعو عيسى ما كان المسيح.

لتحقيق ذلك، ومن تحليل الأحداث التي وثقتها الأناجيل، لا بد أن هذا الحوار قد دار بين كهنة اليهود والحاكم الروماني وحاشيته وراء حجاب:

الكهنة: تعلم أننا نخضع للإمبراطور ونتعاون معكم في حفظ الأمن والاقتصاد وليس لدينا طموحٌ في معارضة الرومان، لكن لدينا مشكلة نحتاج إلى عونكم فيها!

بيلاطس: نعم، نقدر تعاونكم وسأفعل ما بوسعي. ما هي المشكلة؟

الكهنة: ظهر بيننا رسولٌ يدعو عامة اليهود إلى العودة لأصول التوراة التي حرفناها وجعلنا منها نظامًا يحكم حياتنا كيف نشاء، وهو سينزع منا تلك السلطة ونفقد سلطاننا على عامة اليهود!

بيلاطس: وما شأني أنا بذلك؟

الكهنة: هذا الرسول يدعو للمساواة بين العبيد والعامة ويبشِّر برسول يأتي من بعده من العرب ستؤول إليه مقاليدُ القبائل في كل المنطقة مما سيهدد حتى استقرار الإمبراطورية الرومانية.

بيلاطس: هذا حسب معتقدكم وليس معتقدي، وليس لي الحق أن أعادي أحدًا قبل أن يبادر بالعداء.

الكهنة: لا يهم أن تعتقد بما نعتقد، لكن انظرْ إلى مصداقية الرجل في أنه تجرى على يديه المعجزات فيعالِج المَرضى ويحيي الموتى. أليس في ذلك ما يؤكد خطورة الموقف لو التفّ حوله العامة؟

بيلاطس: لقد سمعتُ الكثيرَ عنه حقًا، لكني لم أفكر في خطورة الموقف كما ترونه من قبل.

الكهنة: إذن، يجب أن تقتله ونتخلص جميعًا منه.

بيلاطس: ولِمَ لا تقتلونه أنتم ونصمت نحن كما صمتنا كثيرًا على جرائمكم؟.

الكهنة: تعلم أنه لا يحق لنا أن نَقتل أحدًا ونحن تحت رعاية جلالتكم!!

بيلاطس: أعلى هامان يا فرعون؟ أعلم أنّكم قتَلة أولاد قتَلة، فلماذا تحمَّلوني دمَ هذا الإنسان من دون سائر قتلاكم؟

الكهنة: لأننا نعلم أنه لن يموت، لذلك لن نحاول ونفشل لأن ذلك سيؤكد للناس أنه المسيح، ونحن نسعى لإشاعة العكس تمامًا.

بيلاطس: وهل حسب شريعتكم أن المسيح يمكن أن يموت إنْ كان القاتل غيرَ يهودي؟

الكهنة: لا، نحن نعلم أنه لن يُقتَل مطلقًا بل سيرفع حيًا عن الأرض؟

بيلاطس: لا أفهم، إنْ كانت شريعتكم تعلمكم أنه حتى أنا لن أستطع قتل المسيح، فما هو المطلوب منِّي بالضبط؟

الكهنة: نحن نريد إخراج مسرحية إعدام، يشتبه على العامة فيها أنه مات. لكن الواقع أنه سيظل حيًا، لكن تخفيه أنت عن الناس حتى يرفع ويزول. وهنا يصدق العامة أنه مات وينتهي خبره وتزول رسالته.

بيلاطس: هذا حسب عقيدتكم. لكن لو ضربته بالسيف وانقطع رأسه أو شنقته فمات، أأكون قد تحملتُ مسؤولية قتل رجل بريء؟

الكهنة: نطمئنك أنه لن يموت، وأيضًا نحن لا نطلب لا السيف ولا الشنق، لأن كليهما لا يحقق لنا ما يريد.

بيلاطس: إذن، كيف أقتله، لو وافقتُ على طلبكم؟

اليهود: نحن سنصدر عليه حكم الردة ونطالب بصلبه. وسنجعل العامة يصرخون بصوت واحد: اصلبه! وأنت تنصاع لذلك وتصلبه.

بيلاطس: الصلب أبشع مِن القتل بالسيف، أتريدونه أن يظل معلقًا على الصليب أيامًا وتتساقط أعضاؤه أمام الناس وتزعمون أنكم تعلمون أنه لا يموت؟

الكهنة: هذا لن يحدث لأنك لن تصلبه أيامًا بل ساعات.

بيلاطس: لكن جرت العادة عندنا أن الصلب يتم يوم الأحد ويظل المجرم مصلوبًا طوال الأسبوع، ولا ننزل المصلوبين إلا ليلة السبت احترامًا لمعتقدكم.

الكهنة: هذا لن تصلبه يوم الأحد ولا الاثنين ولا الثلاثاء ولا الأربعاء ولا الخميس، وإنما نهار الجمعة.

بيلاطس: لا أفهم.

الكهنة: نحن نريد خداعًا للعامة فقط. سنعتقله يوم الخميس، و نحكم عليه بالردة، ثم نقدمه لكم يوم الجمعة لتحكموا عليه بالإعدام صلبًا، ثم نتركه معكم على الصليب قبل غروب الشمس ونأمر العامة أن يفرنقعوا، وتتولون أنتم إنزاله وإخفاءه بعد ذلك.

بيلاطس: يا أولاد الأفاعي! إذن ستتركونه تحت رحمتي إلى أن يرفعه ربكم كما تعتقدون؟ وماذا إن لم يرفعه حسب معتقدكم؟

الكهنة: نحن سنأتي به قبيل موعد الرفع بقليل حتى لا تطول عليكم المسؤولية في إخفائه عن العامة.

بيلاطس: لكن كيف نقنع العامة أنها ليست مسرحية علمًا بأننا عادة نصلب يوم الأحد أو الاثنين وليس الجمعة لأنه أقصر أيام الأسبوع في شريعتكم؟

الكهنة: هذا سهل. تصلب معه لصَّيْن في اللحظة ذاتها، فيظن الناس أن الأمر لا يخص مَن زعم أنه المسيح وحده، وإنما هو تغيير في توقيت الأحكام يشمل كل المحكومين.

بيلاطس: لكن لو لم يمُتْ اللصان حتى غروب الشمس، هل ستسمح شريعتكم أن ننزل المسيح ونترك اللصَّيْن على الصليب ليلة ويوم السبت؟

الكهنة: لا، سنكسر ساقيْ اللصَّيْن إن ظلَّا حَيّيْن، حتى لا يهربا، ويعاد صلبهم يوم الأحد، بينما يشاع أن عيسى قد مات ودُفن.

بيلاطس: وبماذا أحاكمه؟ ماذا فعل حتى أبرر للعامة أنه يستحق القتل؟

الكهنة: نحن سنشيع بين العامة أنه ادَّعى أنه "ابن الله" وهذا يكفي للموت حسب شريعتنا.

بيلاطس: ابن الله؟ يا مرحبًا بأبناء الآلهة. حسب عقيدتنا فالآلهة لهم زوجات وأبناء وبنات وأحفاد ويحيون ويموتون، فكيف أقتل "ابن الله" إنْ كان حقيقة؟

الكهنة: أنت لن تحكم عليه بالموت لأنه زعم أنه "ابن الله"، ولكن سنقدمه إليك متهمًا بأنه رفض دفع الجزية للقيصر وادَّعى أنه ملك اليهود؟

... ..

ويحتدم النقاش، (بيلاطس) و(هيرودس) يشعران بالرهبة لأن الرجل قد يكون حقيقة "ابنَ الله"، وحسب عقيدتهم فإن لعنة الآلهة ستحل بهم لو كان هذا الاتهام حقيقة، خاصة وأنهما كانا على علمٍ بمعجزات المسيح، ولكن أخيرًا يصل الطرفان إلى اتفاق:

بيلاطس: سأنفذ لكم ما تريدون يا أولاد الأفاعي، لكني سأتكفل بحمايته والحفاظ عليه بعد أن تحققوا ما أردتم من خداع عامتكم.

الكهنة: إنْ شئتَ فخُذْه وليكن ابنًا لآلهتكم في روما، المهم أن يزول عن مجتمعنا ويصدق العامة أنه مات، ومن ثم يؤمنون أنه كان كاذبًا وأنه ليس المسيح. المهم ألا يظهر بعد مسرحية الصلب وإلا وقعت فتنةٌ أكبر.

بيلاطس "على مضض": لكم ما أردتم، لكن قلبي غير مطمئن لهذه المؤامرة الغريبة، وأنا أكثر حرصًا على حياة هذا الرجل حتى نفهم من أين أتى بهذه المعجزات، بدل من قتله إرضاء لحسدكم وأطماعكم.

******

أكرر: الحوار أعلاه حوارٌ افتراضيٌّ، لكنه يشرح بقية القصة بصورة سلِسة.

******

وصاح الديك :

من ناحيةٍ نظريّةٍ، نفترض أن وقائع ساحة الإعدام قد رواها أقربُ المقربين للمسيح عليه السلام، وإلا فلا معنى للقصة ولا الديانة كلها لو كان هناك شك في مصداقية الشهود الذين نُقِلتْ عنهم أهم مقومات العقيدة المسيحية الحالية وهي موت المسيح من أجل ذنوب الناس، ثم بعثه من موته بعد ثلاثة أيامٍ وثلاث ليالٍ، علمًا بأن مقوماتِ العقيدة المسيحية كلها تقف نشازًا في مسلسل الرسالات السماوية في بيت إسرائيل كما هو حال تعارضها مع العقيدة الإسلامية من تأليه المسيح، وموته ثم قيامته.

وحسْبَ ما يستشفّ القارئ للأناجيل والتراث المسيحي فإن المسيح-عليه السلام- كان محاطًا بحلقتيْن من المقربين الذين يمكن أن يكونوا الشهودَ على أيامه الأخيرة:

الحلقة الداخلية الخاصة: هذه بطبيعة الحال تمثلها سيدةُ نساءِ العالمين مريم -عليها السلام-، وصديقتها مريم المجدلية وصبيٌّ يشار إليه بـ " التلميذ الصغير الذي يحبه المسيح"، لكن لم يُعرَف عنه الكثير. وتقول بعض المصادر المسيحية إن هذا التلميذ هو أحد الحواريين ويعرف بـ "يوحنا الحبيب".

الحلقة الخارجية: هذه طائفة الحواريين الذين دار معظم التراث المسيحي حولهم ونقلت عنهم - افتراضًا- معظم الروايات عن حياة المسيح، والتي انتهت بتدوين الأناجيل. فإنْ كان هناك شهود لتفاصيل موت المسيح وبعثه فإنَّ هاتيْن الحلقتين يجب أن تكونا مصدرَ الخبر الأول.

لننظر أولاً في أهلية الحواريين لينقلوا قصة المسيح -عليه السلام-:

لا بد أن نتذكر دائمًا، ونحن نبحث في الكتاب المقدس، أننا لا نبحث في كتاب الهندوس أو البوذيين أو أي ديانة وثنية. بل نحن نبحث في كتاب يُظن بأنه يحتوي على ما تبقى من التوراة والإنجيل والزبور! تلك الكُتُب التي لا يكتمل إسلامُنا ما لم نؤمن بنسختها الأصلية وفقًا لهذه الآية:

{آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285)} البقرة.

كونُها حُرِّفتْ أو تَغيرت أو حتى زالت تمامًا، فهذا يجب ألا ينقص من احترامنا لِمَا يُظَن أن فيه بعضَ كلامِ الله الذي أوحاه للمرسَلين مِن قبْل محمدٍ -عليهم جميعا أفضل الصلاة والتسليم-. احترامُ المسلِمِ للكتاب المقدس بشقيْه: "العهد القديم" الذي يمثل التراثَ اليهودي ويشتمل على ما يُظَن أنه التوراة و الزبور وبعض كتب أنبياء بني إسرائيل، و"العهد الجديد" الذي يمثل التراثَ المسيحي، ليس مجاملة للمسيحيين ولا خوفًا من اليهود، وإنما هو من متطلبات العقيدة الإسلامية نفسِها.

وكما أننا نبحث في القرآن ونعرضه للامتحان والتمحيص الدقيق – لأن الله أمرنا أن نثبت أنه ما كان له أن يكون إلا من عند الله – فإننا نتبع المعيار ذاته لنثبت أن ما يَنسَب للمرسلين من قبْل محمدٍ قد حدث فيه خلل، أضيف إليه أو حُذِف منه – أو ضاعت الأصول، وما لدينا كُتُبٌ يُفترضُ أنها تعكس تلك الأصولَ أو بعضًا منها. إذًا فنيّتُنا في البحث يجب أن تكون سليمةً خالية من المهاترات والغلوّ. ما يتفق مع القرآن نقبَلُه مع التحفظ في الألفاظ، لأن النصارى واليهودَ أنفسَهم لا يدَّعون أن كُتُبَهم تمثل الكتبَ الأصلية حرفيًا. وما يتعارض مع القرآن نناقشه بالمنطق والحكمة لنثبت أنه لا يعقل أن يكون من عند الله تعالى أو ينسب إلى رُسُلِه.

أيضًا: لا بد أن نتذكر دائمًا أن أصحاب عيسى-عليه السلام- مِن المفترض أنّهم كانوا في مقامٍ أشبه بمقام أصحاب محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- . وما يُنسَب إليهم أو يروَى عنهم –لو وجدنا أنه ينتقص مِن أقدارهم- علينا أن نُحسِن الظن ونضع اللوم على ضعف الرواية وغياب الدليل القطعي الذي يثبت أنه هكذا كان حالهم، قبل الظن السيّء بهم.

فكما أننا لا يحل لنا أن نفرق بين أيٍّ مِن رسله فإننا لا نفرق بين أيٍّ من أتباع الرسل، وإلى الله مرجعهم جميعًا فيحكم بينهم فيما اختلفوا فيه.

وقبل فتح ملف عدالة الحواريين في الرواية عن عيسى-عليه السلام-، حسبما وثقت الأناجيل، لا بد من ملاحظة أخرى مهمة، نصطحبها ونحن نبحث في سلوكهم وتعاملهم مع المسيح مقارنةً بتعامل أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- معه.

حينما نزل القرآن على محمد -صلى الله عليه وسلم-، كان الكفر والإيمان نقيضين لا يلتقيان. الإسلامُ دعا إلى التوحيد وعبادة الله الذي لا إله إلا هو، في مجتمعٍ وثنيٍّ كان يعبد الحجارة وغيرها. هذه الحقيقة البينة جعلت مَن اتبع محمدًا يقطع صلته نهائيًا، ليس بالوثنية فحسب، بل بالمشركين ومصادر تشريعهم وتعاليمهم، وإنْ كانوا أقربَ أرحامهم إليهم. لذلك فقد كان مصدر التشريع الوحيد لدى أصحاب محمد هو القرآن والتأسّي والاقتداء الحرفي بالنبي -صلى الله عليه وسلم- .

بالمقابل: فالمسيح-عليه السلام- لم يأتِ بدينٍ جديدٍ على المجتمع اليهودي. بل على العكس كان من ضرورات إثبات عيسى بن مريم لنبوءته وأنه المسيح، أن يؤكد لكبار الكهنة وللعامة أنه يدعو إلى ما دعا إليه داؤد وموسى وإبراهيم من قبل. هنا نجد فارقًا كبيرًا بين موقف أصحاب محمد الذين ما كان أبو جهل وأبو لهب في نظرهم إلا حطبَ جهنمَ بعد اعتناقهم الإسلام، وبين أصحاب عيسى الذين ظل كهنة اليهود مصدرًا للتشريع لديهم في تفاصيل وأحكام الديانة اليهودية التي ما نقضها عيسى، وإنما نقّاها من الشوائب وأعاد إليها رونقها وأصولها. هنا نفهم لماذا كان أصحاب عيسى في حالةٍ من الاضطراب في تصديقهم للمسيح الذي أنكره كهنتهم، ومعرضين لتصديق الشائعات التي يثيرها الكهنة ضد المسيح.

المسيح كان على علمٍ بهذا التحدي، لذلك نلاحظ حكمته في التعامل مع الكهنة، من ناحيةٍ، بأسلوبٍ يدحض حججهم، ومع الحواريين، من ناحيةٍ أخرى، بأسلوب يثبِّت إيمانَهم به، كما في هذه الرواية:

{ثم توجه يسوع وتلاميذه إلى قُرى قيصرية فيلبُّس. وفى الطريق، سأل تلاميذَه: مَن يقول الناس إني أنا؟" فأجابوه:" (يقول بعضهم) إنك يوحنا المعمدان، وغيرهم إنك إليا، وآخرون إنك واحد من الأنبياء". فسألهم:" وأنتم، مَن تقولون إني أنا؟" فأجابه بطرس:" أنت المسيح!" فحذرهم مِن أن يخبروا أحدا بأمره.} (إنجيل مرقس- الإصحاح الثامن: 27- 29)

تحذيره لهم ألا يخبروا أحدًا بذلك ليس إلا تحذيرًا ظرفيًا حين الحدث، لأن المسيح كان مطارَدًا ويتحرك بحسابات أمنية. هنا نلاحظ أن الحواريين كانوا على علم بالإشاعات الدائرة، لكن على الأقل أقرّ أحدهم أنه المسيح! لا بد أن ننتبه أيضًا إلى أن بطرس يهودي، ويعلم كما يعلم اليهود أن المسيح المرتقب رسول وليس إلهًا وأنه لن يموت. بل إن شبهة احتمال موت عيسى كان الكهنة قد استعملوها ضد المسيح في إحدى الحوارات إذ إنهم أرادوا إيهام العامة أن عيسى كان يتحدث عن موته مما ينفي أنه المسيح الذي سيُرفَع عن الأرض:

{نفسي الآن مضطربة، فماذا أقول؟ أيها الأب أنقذني من الساعة القادمة عليّ؟ لا! فمِن أجل هذه الساعة أتيت. أيها الأب مــّجد اسمك!"

فإذا صوت من السماء يجيب: " قد مجدته وسأمجده أيضًا".

فقال بعض الحاضرين ممن سمعوا الصوت: "هذا صوت رعد!" ولكن غيرهم قالوا: " حدّثه ملاك". فأجاب يسوع: "لم يكن هذا الصوت لأجلي بل لأجلكم. الآن وقت الحكم على هذا العالم! الآن يطرد سيد هذا العالم خارجًا! وحين أعلق مرفوعًا عن الأرض أجذب إليّ الجميع".

قال هذا مشيرًا إلى الميتة التي سيموتها. فقال بعض الحاضرين: <u>"علمتنا الشريعة أن المسيح يبقى حيا إلى الأبد</u>، فكيف تقول إن ابن الإنسان لا بد أن يعلق؟ مَن هو ابن الإنسان هذا؟" فقال لهم يسوع: " النور باقٍ معكم وقتًا قصيرا. فواصِلوا سيركم ما دام النور يشرق عليكم، لئلا يطبق عليكم الظلام. فإن الذي يمشي في الظلام لا يعلم أين يذهب. آمِنوا بالنور ما دام النور معكم، فتصيروا أبناء النور". وبعدما قال يسوع هذا، ذهب وأخفى نفسه عنهم. }

(إنجيل يوحنا- الإصحاح الثاني عشر: 27- 36)

نلاحظ في الرواية أعلاه أن المسيح يصف نهايته بأنه سيعلق مرفوعًا عن الأرض، لكنه لم يقل أموت أو أقتل. و نلاحظ أن كاتب الإنجيل قد أضاف تفسيرًا من عنده " قال هذا مشيرا إلى الميتة التي سيموتها"، ونلاحظ أيضا أن

الكهنة قلبوا كلامه ليوهموا العامة أن "التعليق" هو "الموت". لكن الملاحظة الأهم هي أن الشريعة الموسوية التي تنبأت بالمسيح تقول إنه لن يموت وإنما سيبقى للأبد، مما يتعارض مع العقيدة المسيحية اللاحقة.

فبرغم وضوح تعاليم المسيح إلا أن الحواريين كانوا دائمًا في حالة اضطراب بين ما يسمعونه من المسيح نفسه وما يسمعونه عنه من كهنتهم، مما جعل إيمانهم ضعيفًا مهزوزًا كما تؤكد هذه الواقعة:

{ولما وصلوا إلى الجمع، تقدم رجل إلى يسوع، وجثا أمامه، وقال:" يا سيد، ارحم ابني لأنه مصاب بالصرع، وهو يتعذب عذابًا شديدًا. وكثيرا ما يسقط في النار أو الماء. وقد أحضرته إلى تلاميذك، فلم يستطيعوا أن يشفوه". فأجاب يسوع قائلاً:" أيها الجيل غير المؤمن والأعوج، إلى متى أبقى معكم؟ إلى متى أحتملكم؟ أحضروه إليّ هنا!" و زجر يسوع الشيطان، فخرج من الصبي، وشُفي من تلك الساعة. ثم تقدم التلاميذ إلى يسوع على انفراد وسألوه:" لماذا عجزنا نحن أن نطرد الشيطان؟" أجابهم: " لقلة إيمانكم. فالحق أقول لكم: لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك، فينتقل، ولا يستحيل عليكم شيء. أما هذا النوع من الشياطين، فلا يُطرَد إلا بالصلاة والصوم"}

(إنجيل متّى- الإصحاح السابع عشر: 14-21)

التلاميذ (كما يسميهم الإنجيل) أو الحواريون كما سماهم القرآن، كانوا (13) حسب أشهر الروايات. وهؤلاء كانوا رسل المسيح إلى الفئات المختلفة من الشعب اليهودي. وليس هناك دليل قطعيّ على هويتهم، وحتى لا يوجد دليل على أن إنجيل متّى الذي ينسب إلى أحد الحواريين كان حقيقة من إنتاجه. على أن "سمعان بطرس" يبدو من الأناجيل أنه كان أكثرهم ملازمة للمسيح وأقربهم إليه. رغم ذلك كان للمسيح موقف خاص جدًا مع بطرس. ففي أيام المسيح الأخيرة روى إنجيل متّى هذه الرواية:

{مِن ذلك الوقت بدأ يسوع يعلن لتلاميذه أنه لا بد أن يمضى إلى أورشليم، ويتألم على أيدي الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، ويقتل، وفى اليوم الثالث يقام. فانتحى به بطرس جانبا، وأخذ يوبخه، قائلا:" حاشا لك يا رب أن يحدث لك هذا!" فالتفتَ يسوع إلى بطرس و قال له:" اغرب من أمامي يا شيطان! أنت عقبة أمامي، لأنك تفكر لا بأمور الله، بل بأمور الناس")

(إنجيل متى- الإصحاح السادس عشر: 21- 23)

طبعًا، الرواية لا يمكنها أن تنسب القول حرفيًا إلى المسيح وإنما المؤرخ مجهول الهوية، وفيها خللٌ وتحتاج توثيقًا لأن لفظ " ويقتل" هنا يتعارض مع كثير من الروايات التي تحدث فيها المسيح فقط عن أنه سيتألم، أو (سيحدث بي ما هو مقدر) أو(أعلق مرفوعًا عن الأرض)، كما رأينا أعلاه أو شيئًا من هذا القبيل، لكن لمّا طغت فكرة موته بالطبع أضيفت الألفاظ هنا وهناك ونسبت إليه لتؤكد شبهة القتل!

المهم:

وصْفُ بطرس بأنه شيطان سابقة خطيرة. فهو من المسيح كما كان أبو بكر من النبي-صلى الله عليه وسلم- من حيث الملازمة. سواءٌ أكان الوصف حقيقة من المسيح أم كان إضافة ممن أتى بعده، فهو يعكس ثقة ضعيفة من المسيح في أقرب الحواريين إليه، والحكم متروك لأهل الكتاب ليفتوا في مدى صحة هذه الرواية على خطورتها.

قلة إيمانهم تلك كانت السمة الغالبة على سلوكهم إلى آخر أيام المسيح بينهم، وفي أحلك ظروفه. فعندما حان وقت اعتقاله كانت مواقفهم التي ترويها الأناجيل لا ترقى إلى مستوى المسئولية أبدًا. رغم أن المسيح سعى لتقوية إيمانهم حتى يصبروا ويواجهوا المحنة الأخيرة معه كما في هذا النص:

{فاسهروا إذن وتضرعوا في كل حين، لكي تتمكنوا من أن تنجوا من جميع هذه الأمور التي هي على وشك أن تحدث، وتقفوا أمام ابن الإنسان} (إنجيل لوقا - الإصحاح الحادي والعشرون: 36)

لكن مواقفهم كانت أبعد ما تكون عن السهر والتضرع:

{ووصلوا إلى بستان اسمه جثسيماني، فقال لتلاميذه: " اجلسوا هنا ريثما أصلّي". وأخذ معه بطرسَ ويعقوب ويوحنا، و بدأ يشعر بالرهبة والكآبة. وقال لهم :" نفسي حزينة جدا حتى الموت. ابقوا هنا واسهروا". ثم ابتعد

قليلا، وخـرّ على الأرض، وأخذ يصلّي لكي تعبر عنه الساعة إن كان ممكنًا. وقال:" أبـا، يا أبي، كل شيء مستطاع لديك. فابعد عني هذه الكأس، ولكن ليكن لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت!"} (إنجيل مرقس- الإصحاح الرابع عشر: 32-36)

لا أظن أن أي عاقل ينكر أن هذه صلاة رسول يواجه محنة ولا يمكن أن تكون صلاة إلهٍ يتضرع إلى نفسه! وواضح أن المسيح على علمه بأنهم لن يقتلوه، إلا أن أنه كان يعلم أنه سيتعرض لتعذيب عظيم منهم لذلك كان يدعو الله إحدى الحُسْنَيَيْن إمّا أن يرحمه عن هذه المحنة التي رمز لها بـ "الكأس" أو يعينه على الصبر. ولكن ماذا كان حال الحواريين حينما كان المسيح في هذا التضرع في آخر أيامه؟:

{ثم رجع فوجد تلاميذه نائمين، فقال لبطرس:" هل أنت نائم يا سمعان؟ ألم تقدر على أن تسهر ساعة واحدة؟ اسهروا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربة. إن الروح نشيط، وأما الجسد فضعيف". ثم ذهب وصلّى ثانية، فردد الكلامَ نفسه. ولما رجع، وجدهم أيضا نائمين لأن النعاس أثقلَ أعينهم، ولم يدروا بماذا يجيبونه. ثم رجع في المرة الثالثة وقال لهم: "ناموا الآن واستريحوا. كفى! أقبلت الساعة. ها ابن الإنسان يسلَّم إلى أيدي الخاطئين. قوموا لنذهب. ها قد اقترب الذي يسلمني!"} (إنجيل مرقس- الإصحاح الرابع عشر: 37-42)

الراوية تعكس مستوى مسؤوليتهم ولا تحتاج لشرح، لكني فقط أوضح أن تعليقه الأخير كان تعليقًا غاضبًا: ناموا الآن واستريحوا! يعنى أنكم لا خير فيكم... و **(كفى!)** لا بد وقد قيلت بغضب من استهتارهم وخذلانهم!

الغريب في الأمر، أن مَن كَتَب الأناجيلَ اجتهد في أن يبرر تخاذلهم: فمرقس أعلاه وصف أن **النعاس قد أثقل أعينهم**، وكأنّ هذا عذرٌ يبرر موقفهم المتخاذل وهُم نيام (لو صدقت الرواية)، أما كاتب إنجيل لوقا فقد روى الحادثة بألفاظ أكثر تأثيرًا، لكنه أتى بتبرير طريف لنومهم:

{ثم انطلق وذهب كعادته إلى جبل الزيتون، وتبعه التلاميذ أيضا. ولما وصل إلى المكان، قال لهم: "صلّوا لكي لا تدخلوا في تجربة}

{وابتعد منهم مسافة تقارب رمية حجر وركع يصلّي قائلا: " يا أبي، إن شئت أبعد هذا الكأس. ولكن لتكن لا مشيئتي بل مشيئتك". و ظهر له ملاك من السماء يشدده. وإذ كان في صراع، أخذ يصلى بأشد إلحاح، حتى أن عرقه صار كقطرات دم نازلة على الأرض. ثم قام من الصلاة وجاء إلى التلاميذ، فوجدهم نائمين من الحزن. فقال لهم: "ما بالكم نائمين؟ قوموا وصلّوا لكي لا تدخلوا في تجربة"!} (إنجيل لوقا- الإصحاح الثاني والعشرون: 39 -46)

توقفتُ كثيرًا في هذا التبرير الغريب! فالحزن من أكثر العوامل التي تسبب القلق وعدم النوم. ومن كان حزينًا أو مرعوبًا – كما يفترض حينما كان عرق المسيح يتصبَّبُ كقطرات الدم– كان ينبغي أن يجافي النومُ عينيه نهائيًا. الواقع أن نومهم كان من عدم المسئولية وليس الحزن بطبيعة الحال، لو صدقت الرواية.

اللحظات أعلاه توثق للحظات التي سبقت اعتقاله من قِبَل الكهنة وتقديمه للمحاكمة السياسية التي ناقشناها سابقًا. هذا يعني أن سلوك الحواريين ذاك لا يعكس أيامهم الأولى وهُم حديثو عهد بالمسيح، وإنما آخر أيامهم على الإطلاق وقمة نضج علاقتهم به وثقتهم فيه.

وجاءت الساعة الحاسمة، عندما باع يهوذا المسيحَ وسلمه إلى أعدائه:

{عندئذ ذهب واحد من الاثني عشر، وهو المدعو يهوذا الإسخريوطي، إلى رؤساء الكهنة، وقال: "كم تعطونني لأسلمه إليكم؟ "فوزنوا له ثلاثين قطعة من الفضة. ومن ذلك الوقت، أخذ يهوذا يتحين الفرصة لتسليمه**}**

(إنجيل متّى- الإصحاح 26: 14-16)

وتم القبض على المسيح -عليه السلام-، فكان موقف البقية لا يحسدون عليه، وإن اختلفت التفاصيل في الأناجيل المختلفة. ولعلّي أبدأ برواية إنجيل يوحنا لأنه عادةً أكثر تفصيلاً ويظن البعض أنه أقرب الروايات إلى إنجيل برنابا المحظور:

{... فذهب يهوذا إلى هناك آخِذا معه فرقة الجنود وحرسَ الهيكل، الذين أرسلهم رؤساء الكهنة والفريسيون، وهم يحملون المشاعل والمصابيح والسلاح. وكان يسوع يعرف كل ما سيحدث له. فتقدم نحوهم وقال: " مَن تريدون؟" فأجابوه" يسوع الناصري"، فقال لهم: " أنا هو". وكان يهوذا الذي خانه واقفا معهم. فلما قال لهم: "أنا هو" تراجعوا وسقطوا على الأرض! فعاد يسوع يسألهم: " مَن تريدون؟" أجابوه: يسوع الناصري". فقال لهم " قلت لكم: أنا هو، فإن كنتم تريدونني أنا، فدعوا هؤلاء يذهبون". وذلك لتتم الكلمة التي قالها: " إن الذين وهبتهم لي لم يهلك منهم أحد!"

و كان مع سمعان بطرس سيف فاستلّه و ضرب به عبد رئيس الكهنة، فقطع أُذنه اليمنى. وكان اسم العبد مَلْخُس. فقال يسوع لبطرس: " أعد السيف إلى غمده! الكأس التي أعطاني الأب، ألا أشربها؟" } (إنجيل يوحنا- الإصحاح الثامن عشر :2-11)

هنا افترضَ إنجيل برنابا أنهم حينما سقطوا، قاموا فقبضوا على يهوذا ظنًا منهم أنه المسيح بعد أن غيَّر الله شكله وقتلوه وصلبوه بدلاً من المسيح. لكن هذه الرواية في وجهة نظري الشخصية لا تتفق مع السنن الإلهية في حماية المرسلين. ولا دليل يجعلها أكثر حجة من بقية روايات الأناجيل الأخرى. وكما أسلفنا فإنجيل برنابا مشكوك في أصله.

أعلق على نهاية رواية يوحنا: "الكأس التي أعطاني الأب، ألا أشربها؟"، هنا بالطبع يتحدث عن الألم والتعذيب وليس بالضرورة الموت كما يفترض النصارى، أو كما أضيف لفظ "فيقتل" في الرواية التي وصف فيها بطرس بـ: "شيطان" أعلاه!

أما رواية متّى فكما يلي:

{ثم وجه كلامه إلى الجموع قائلاً:" كأنه على لص خرجتم بالسيوف والعصي لتقبضوا علي؟ كنت كل يوم بينكم أعلم في الهيكل، ولم تقبضوا علي! ولكن، قد حدث هذا كله لتتم كتابات الأنبياء!" <u>عندئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا!</u>"} (إنجيل متّى- الإصحاح السادس والعشرون: 55-56)

هنا أنبه إلى أنه أيضًا تحدَّثَ عن **إتمام كتابات الأنبياء** وليس الموت! على أن "متَّى" صرح بأن **<u>التلاميذ كلهم هربوا</u>!!** وهنا لا يسعنا إلا أن نحكم عليهم، إن صحت رواية هروبهم، بما حكم به المسيح نفسه على من خلص نفسه بعد تلك النومة العميقة:

{فأي مَن أراد أن يخلص نفسه يخسرها، ولكن من يخسر نفسه لأجلى، فإنه يجدها}

(إنجيل متى- الإصحاح السادس عشر: 25)

تُرى، فكم واحدٍ منهم لم يخسر نفسه ترى حين هربوا جميعا؟ و يؤكد رواية الهروب مرقس بمزيد من التفاصيل:

{فما إن وصل يهوذا، حتى تقدم إليه، وقال:" سيدي! وقبَّله بحرارة. فألقوا القبض عليه. ولكن واحدا من الواقفين هناك، استلَّ سيفَه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه. وكلمهم يسوع قائلا: " كأنه على لص خرجتم بالسيوف والعصي لتقبضوا علي؟ كنت كل يوم بينكم أعلم في الهيكل، ولم تقبضوا علي. ولكن هذا يجرى إتماما للكتاب". <u>عندئذ تركه الجميع وهربوا</u>. وتبعه شاب لا يلبس غير إزار على عريه، فأمسكوه. **<u>فترك الإزار وهرب منهم عريانا</u>**.}

(إنجيل مرقس- الإصحاح الرابع عشر: 45- 52)

أعلّق هنا مرةً أخرى على قول المسيح "ولكن هذا يجرى إتمامًا للكتاب" ولم يذكر أنه سيموت! مما سبق نخلص إلى أن الحواريين وفي قمة نضج علاقتهم معه، وفي أحلك أيامه باعه أحدهم بثلاثين درهمٍ فضة، و فرّ البقية هاربين!

لكن للأمانة أقول، إن إنجيل لوقا لم يصِف هروب الجميع وإنما وصف الآتي:

{وإذ قبضوا عليه، ساقوه حتى دخلوا به قصر رئيس الكهنة. وتبعه بطرس من بعيد.}

(إنجيل لوقا- الإصحاح الثاني والعشرون: 54)

ولكن يبدو أن بطرس كان فضوليًا فقط، إذ عرَّضَ نفسه لبعض المخاطرة عندما دخل بين الجموع بعد أن أُخِذ المسيحُ إلى معتقله، لكنه لم يتردد في أن يخلص نفسه حينما كاد أمره أن يفتضح:

{ولما أشعلت نار في ساحة الدار وجلس بعضهم حولها، جلس بطرس بينهم. فرأته خادمة جالسا عند الضوء، فدققت النظر فيه وقالت: "وهذا كان معه!" و لكنه أنكر قائلا: " يا امرأة لست أعرفه!" وبعد وقت قصير رآه آخر فقال: " وأنت منهم!" و لكن بطرس قال: " يا إنسان ليس أنا!" وبعد مُضي ساعة تقريبا، قال آخر مؤكدًا: " حقا إن هذا كان معه أيضا، لأنه من الجليل!" فقال بطرس: " يا إنسان، لست أدرى ما تقول!" وفى الحال، وهو ما زال يتكلم، صاح الديك. فالتفت الرب ونظر إلى بطرس. فتذكر بطرس كلمة الرب إذ قال له: " قبل أن يصيح الديك تكون قد أنكرتني ثلاث مرات". وانطلق إلى الخارج وبكى بكاء مرًا.}

(إنجيل لوقا- الإصحاح الثاني والعشرون: 55- 62)

للتوضيح: فقد تظاهر بطرس بقمة الإيمان والتضحية من أجل المسيح في حوار سابق، لكن المسيح تنبأ له بأنه سيخذله في أحلك لحظات حياته قبل أن يصيح الديك، وسأنقل تلك القصة تحت عنوان "العشاء الأخير" لاحقًا.

كما قدمت: فإننا هنا لا نحكم على الحواريين لا بالخير ولا بالسوء، وإلى الله مرجعهم فيحكم بينهم فيما اختلفوا فيه. ما يهمنا ونحن نقترب من ساحة الإعدام وشبهة القتل صلبًا، هو أنه لو كان هذا حال الحواريين –أقرب المقربين إلى المسيح عليه السلام- فإن شهادتهم، لو شهدوا، لا تُقبَل في أيّة محكمة على امتداد التاريخ الإنساني في كل الأديان والأعراف والقوانين!

إذن، فمَن الذي شهد شبهة الإعدام صلبًا ثم "القيامة" بعد الموت التي تمثل حجر زاوية في العقيدة المسيحية؟

مَن الذي روى أن المسيح مات حقيقة على الصليب وبعد ثلاثة أيام وثلاث ليال قام من موته؟؟؟

هل هم أعداؤه اليهود؟ أم الرومان؟ أم عامة الشعب الذين لم يؤمنوا به أصلاً كما آمن الحواريون، ثم فروا؟؟؟؟

فبعد أن سقطت كل مقومات الإعدام من تناقض الاتهامات وتناقض أقوال الشهود وبراءته أمام القاضي الذي عزم ألا يقتله –ولكنه فقط سعى لإرضاء الجميع- ثم أخيرا فرار الشهود وسقوطهم في ميزان العدالة لابسين كانوا أو عراة، سيق المسيح إلى ساحة الإعدام. ولأن القصة تنقسم إلى أحداث مختلفة، فسأناقشها تحت عنوان "شبهة موت وصلب المسيح".

شبهة موت وصلب المسيح

إلى ساحة الإعدام:

حتى ألتزم الموضوعية، لا بد من النظر في قصة الصلب من زوايا مختلفة حسب الأناجيل المختلفة. فقد رأينا بالدليل القاطع حسب كل الأناجيل أن أقرب الشهود إلى المسيح قد فروا منذ اعتقاله. وهنا ضاع الخيط الافتراضيّ الذي افترضنا أنه كان الوصلة بين من كَتَب الأناجيل المختلفة، ومَن عاصر المسيح وقصّ قصصه- رغم أنه أصلاً خيطٌ واهنٌ جدًا.

وقد اخترتُ أن أقدِّم القصة بكاملها من إنجيل يوحنا أولاً، لأنه أكثر الأناجيل تفصيلاً فيها، وقد احتوى على وقائعَ خلت منها الأناجيل الأخرى، تهمنا جدًا في محاولتنا لتمييز القصة الحقيقية مما أضيف إليها من تأويلات وتحريفات وإضافات، لتخدم أغراضًا كثيرةً منها سياسيةٌ ومنها عقائديةٌ نسبت إلى المسيح وهو منها براء.

مَن هو يوحنا؟:

طالما أن الرواية أدناه رواها يوحنا عن راوٍ آخر مجهول، فقد آن الأوان أن نسأل مَن هو يوحنا نفسه؟! المؤسف أنه لا إجابة على هذا السؤال. فقد اختلفت الروايات بين النصارى كون إنجيل يوحنا كُتِب بين سنة 65-80 بعد المسيح أو بين 90-120. وأيضا اختلف في كونه يهوديًا ممن عاصر المسيح، أو أنه يوناني كتب الإنجيل كوثيقة تاريخية للإمبراطورية الرومانية، علمًا بأن اللغة الأصلية التي كتب بها هي اليونانية القديمة. وتقول بعض المصادر المسيحية إن الكاتب الأصلي لإنجيل يوحنا هو " لِعـَازر " الرجل الذي أحياه المسيح بإذن الله، بينما تذهب آراء أخرى إلى أن يوحنا شخصيا هو "التلميذ الصغير الذي يحبه المسيح"، وقد أشير إليه مراتٍ عديدةً في الأناجيل بهذا الوصف لكن مِن غير اسم. الخلاصة أن يوحنا شخصيًا مجهول الهوية وأن إنجيله كُتِب أولاً باليونانية القديمة، ولا أحد يدري مَن روى ليوحنا ما كَتَب!

وحتى تتضح القصة حسب يوحنا بصورة سلِسة، آثرتُ أن أبدأ من محاكمة (بيلاطس) للمسيح - هذه المحاكمة السياسية تعرضتُ إليها سابقًا، لكن مِن الأناجيل الأخرى-:

وتبدأ هذه القصة بعد أن اعتَقَلَ اليهودُ المسيحَ وفر الحواريون ثم أتى به أعداؤه إلى (بيلاطس):

{وخرج بيلاطس مرة أخرى إلى الجمهور وقال لهم: "سأخرجه إليكم لتروا أني لا أجد فيه ذنبًا !" فخرج يسوع وعليه إكليل الشوك ورداء الأرجوان. فقال لهم بيلاطس:" ها هو الإنسان!" فلما رآه رؤساء الكهنة والحرس صرخوا: " اصلبه! اصلبه!" فقال لهم بيلاطس:" بل خذوه أنتم واصلبوه فإني لا أجد فيه ذنباً!" فأجابه اليهود:" لنا شريعة. و بحسب شريعتنا يتحتم عليه الموت، لأنه جعل نفسه ابن الله. فعندما سمع بيلاطس هذا الكلام اشتد خوفه، فدخل إلى قصره وسأل يسوع:"مِن أين أنت؟" فلم يجبه يسوع بشيء. فقال له بيلاطس:" أما تكلمني؟ ألا تعلم أن لي سلطة أن أطلقك، وسلطة أن أصلبك؟" فأجابه يسوع: "ما كان لك عليّ سلطة قط، لو لم تكن أعطيتْ لك من فوق. لذلك فالذي سلمني إليك له خطيئة أعظم... "

مِن أجل ذلك سعى بيلاطس أن يطلقه، ولكن اليهود صرخوا:" إنْ أطلقتَ هذا، فلستَ محبا للقيصر. فإنَّ كل مَن يجعل نفسا ملكا، يعادى القيصر".} (إنجيل يوحنا- الإصحاح التاسع عشر: 5-12)

نلاحظ إجماعَ الأناجيل على أن (بيلاطس) لم يجد في المسيح ذنبًا يستحق العقاب ناهيك عن الإعدام. ونلاحظ أيضًا أنه سعى لإطلاق سراحه مرات عديدة في كل الروايات، ونلاحظ أيضًا أنه كان مصابًا بالخوف منه.

بالمقابل نلاحظ تناقضَ مشكلةِ اليهود معه. ففي بداية القصة كانت التهمة أنه ادَّعى أنه "ابن الله" وقد أنكر هذا الاتهام كما قدمنا سابقًا في مداخلة المحاكمة الدينية. لكن نلاحظ كيف تغير الاتهام في اللقاء ذاته إلى اتهامٍ سياسيٍّ يوقِع بينه وبين القيصر، وكيف أن اليهود تظاهروا بحبهم للقيصر أكثر من (بيلاطس نفسه). وتمضي القصة:

{فلما سمع بيلاطس هذا الكلام، أمر بإخراج يسوع، وجلس على كرسي القضاء في مكان يسمى "البلاط" وبالعبرية "جباثا". وكان الوقت نحو السادسة في يوم الإعداد للفصح. وقال بيلاطس لليهود:" ها هو ملككم!" فصرخوا:" خذه! خذه! اصلبه!" فسألهم بيلاطس: " أصلب ملككم؟" فأجابه رؤساء الكهنة: " لا ملك لنا إلا القيصر". فسلمه بيلاطس إليهم ليصلب؟}

(إنجيل يوحنا- الإصحاح التاسع عشر:13-15)

هنا لا بد أن ننتبه للتوقيت الذي بدأت فيه محاكمة الصلب. فيوم الإعداد للفصح هو يوم الجمعة. هذا يعني أن المحكمة نفسها عقدت يوم الجمعة الساعة السادسة صباحًا. وهو يومٌ ينشغل فيه عامة اليهود بتعاليم دينهم تجهيزًا لعيد الفصح الذي يبدأ حسب التوقيت اليهودي فور غروب الشمس من يوم الجمعة. (تمامًا كالتوقيت الإسلامي، لأن الليل سابق النهار في شريعة الإسلام الإبراهيمية).

و نلاحظ أيضًا نبرة التهكم والازدراء باليهود من (بيلاطس) رغم أهمية الحدث. فرغم إصرارهم على أنّ المسيح ادَّعى أنه ملك اليهود، ظنا منهم أنها ستغضب (بيلاطس)، كان (بيلاطس) يعلم أنهم كاذبون، وأنه رجلٌ بارٌّ صالحٌ وأن الكهنة حسدوه كما أوردنا الدليل من الإنجيل سابقًا. وأنا أتخيل أن (بيلاطس) كرّر هذه الجملة "أصلب ملككم؟" وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، فلو كان المسيح حقًا قد ادعى أنه ملك أو يسعى لملك، لكان (بيلاطس) هو أول من يعاقبه قبل اليهود، ولكن تكرار الجملة هنا يوحي بالسخرية منهم.

لا بد أن نستحضر هيبة الحدث. فحاكم القدس "أورشليم" باسم الإمبراطورية الرومانية كانت له هيبته وسطوته، وهو يعلم حق العلم دواخل اليهود وعقيدتهم وصراعاتهم السياسية وعقدهم. وهو سياسي محنك تحركه مصلحة الإمبراطورية وليس حماقة كهنة اليهود. إذن، فهذه السخرية لها مدلولٌ مهمٌّ في تنفيذ الصلب لاحقًا كما سنرى.

أيضا أذكر هنا، أنه في تلك الجلسة، وبينما (بيلاطس) على منصة القضاء، قد أرسلت له زوجته رسالة تحذره من أن يؤذي هذا الرجل البارّ لأنها رأت في منامها رؤيا أزعجتها، كما أوردنا الدليل في قصة المحاكمة السياسية أعلاه (إنجيل متى- الإصحاح 27: 17-19 .)

وهنا لا بد لنا من وقفة أخرى مع عقيدة (بيلاطس) نفسه. الرومان كانوا مجتمعًا عقائديًا يقوم على الإيمان بآلهة متعددة. كونه لم يكن يهوديًا لا يعني أنه لا يؤمن بوجود قوة روحانية خفية تحرك الأحداث وفقا لعدالة سماوية. زوجته كانت السيدة الأولى في الدولة وليست امرأة ساذجة من عامة الشعب. كل الناس ترى كوابيس في المنام وسرعان ما تنساها بعد الاستيقاظ. لكن كون زوجته أرسلت إليه رسالة عاجلة وهو على منصة إصدار حكم الإعدام في قضية رجل يظنه بارًّا وصالحًا ومظلومًا، ومتهمٌ بأنه زعم أنه "ابن الله" - والرومان يؤمنون بآلهة لهم أبناء وزوجات - لا بد وقد ترك في نفسه أثرًا عميقًا أن تلك الرؤيا ليست كابوسًا عاديًا وإنما تحذير من قوى إلهية خفية. إن لم تكن من الله الذي يؤمن به اليهود، فهي من الآلهة التي يؤمن بها هو شخصيًا.
أهمية توثيق هذه الحادثة تكمن في أن (بيلاطس) لا بد وقد دبَّر أمرًا ما، يُرضي كهنة اليهود المنافقين من ناحية، ويرضي ضميره هو من ناحية أخرى، ويحميه من الخوف الذي قذفه الله في قلبه وقلب زوجته إنْ هو أقدَمَ على قتل المسيح حقيقة.

لكن يمضي ظاهر القصة هكذا حسب الراوي المجهول عن المصدر المجهول ليروي لنا مراسم الصلب.

المسيح على الصليب:
كما قدمت سابقًا فمصداقية الأناجيل لا تحتاج إلى القرآن ليثبت أنها لا ترقى لمستوى الأحداث. فقد تركتْ معظمُ الشعوب المسيحية دينَها لأنها اصطدمت بأسئلة كثيرة لا إجابة عليها بعد أن أصبح الكتاب المقدس دولة بين الناس. لكن ما نلاحظه في هذه الدراسة هو أن الأناجيل أوحت بمصدرٍ ما، مهما كان واهيًا لكن يُظَن أنه الحواريون، لتنسب إليه رواياتها في وصف تفاصيل حياة المسيح -عليه السلام-. لكن بعد أن فرّ الحواريون، أصبح الشاهد مجهولاً تمامًا، وهذا يجعل تناقضاتِ الأناجيل في رواية قصة موت وصلب المسيح دليلاً قاطعًا على أن الحدث نفسه مشكوكٌ في وقوعه. سأنقل بعض التناقضات للمقارنة هنا ثم ألحق ذلك بتحليل منطقي لِما حدث حسب تقديري:

المسيح على الصليب حسب إنجيل يوحنا:

{فأخذوا يسوع. فخرج وهو حامل صليبه إلى المكان المعروف بمكان الجمجمة, وبالعبرية "جُلجُثة", وهناك صلبوه وصلبوا معه رجلين, واحد من كل جانب, ويسوع في الوسط.}
(يوحنا-الإصحاح 19: 17-18)
هنا لا بد أن نتوقف قليلاً. كون المسيح خرج حاملاً صليبه أمرٌ غريب. فقد رأينا أنه كان يصلّي ويدعو الله أن يبعد عنه هذا الكأس حتى أصبح عرقه كقطرات دم، فكيف يحمل صليبه بيده؟ ما يزيد الأمرَ غرابةً أن بقية الأناجيل قد وصفت أن الصليب كان يحمله رجلٌ آخر من القيروان اسمه سمعان - كما سنرى حينما نقارن تناقضات القصة-.
الملاحظة الثانية هي أن الإنجيل يستعمل لفظ صلبوه ليعني: علقوه على الصليب وهو حيٌّ. فصلبوه هنا لا تعني أنهم قتلوه وإنما فقط وضعوه على الصليب كما سنرى أنه ظلّ حيًا على الصليب لساعات طويلة.

وتمضي الرواية:
{وعلق بيلاطس لافتة على الصليب مكتوبا عليها:" يسوع الناصري ملك اليهود". فقرأ اللافتة كثيرون من اليهود، لأن المكان الذي صلب يسوع فيه كان قريبا من المدينة، وكانت اللافتة مكتوبة بالعبرية واللاتينية واليونانية. فقال رؤساء كهنة اليهود لبيلاطس:" لا تكتب: ملك اليهود، بل إنّ هذا الإنسان قال:" أنا ملك اليهود". فرد بيلاطس: "ما كتبت فقد كتبت"}

لا يَخفى علينا أنّ (بيلاطس) كان يستهزئ بهم حتى في لحظة الصلب الصورية. فاليهود كانوا يفضّلون أن يقتل لأنه زعم أنه "ابن الله"، حتى يبدو للعامة أنّ الإعدام تم وفقًا لشريعتهم كما زعموا سابقًا. هكذا كانوا يحبون أن يخدع العامة، أو على الأقل أن يعدم إعدامًا سياسيًا حقيقيًا لأنه "زعم أنه ملك اليهود" في إمبراطورية لا مُلك فيها

إلا لقيصر، لكن رغم ذلك أصرَّ (بيلاطس) على إهانتهم بأنْ أسماه حقيقة "ملك اليهود"، مِن هذه العبارة نفهم أنَّ (بيلاطس) قد علم حقيقة أن الرجل مظلوم، وأنّه لم يدَّعِ مُلكًا ولا ألوهية، لذلك جعله ملكًا حقيقيًا عليهم، كنوع من الإهانة لهم. وقد أصرّ على ما فعل رغم أنفهم "ما كتبت فقد كتبت"!
الملاحظة الأخيرة: (بيلاطس) كان الحاكمَ الأعلى في أورشليم " القدس" وكل فلسطين. كونه كان موجودًا شخصيًا في لحظة الصلب يوحي بأن الصلب تم بصورة تحقق له أهدافه هو شخصيًا، وهي حماية المسيح من الموت مع إظهار المسرحية إرضاءً لكهنة اليهود فقط من أجل الحفاظ على الأمن. وجوده يدل على حرصه على مراقبة تنفيذ خطته حرفيًا حتى لا يحدث خطأ من أحد الجنود.

وتمضى القصة في إنجيل يوحنا:

{ولما صلب الجنود يسوع أخذوا ثيابه وقسموها إلى أربعة أقسام، فأخذ كل جندي قِسمًا. وأخذوا القميص أيضًا، وكان منسوجا كله من قطعة واحدة، بغير خياطة}
(إنجيل يوحنا- الإصحاح التاسع عشر: 17-23)

ويمضي الإنجيل ليؤكد أن لفظ "صلب" تعني أنّه وضع على الصليب، لأنه ما زال حيًا وللقصة بقية!

{وهناك، عند صليب يسوع، وقفت مريم أمّه، وأخت أمه مريم زوجة كلوبا، ومريم المجدلية. فلما رأى يسوع أمه، والتلميذ الذي كان يحبه واقفا بالقرب منها، قال لأمه:" أيتها المرأة، هذا ابنك!" ثم قال للتلميذ :"هذه أمك". ومنذ ذلك الحين أخذها التلميذ إلى بيته.}
(إنجيل يوحنا- الإصحاح التاسع عشر: 25-27)

هذا النص يضع كل رواة الأناجيل على الصليب نفسه. فبينما روت الأناجيل قصة المسيح بناء على افتراضٍ مقبولٍ وإنْ لم يكن عليه دليل، وهو افتراض أن القصة رواية عن الحواريين، هنا نجد أن شهود العيان قد تقلصوا فقط إلى الحلقة الداخلية جدًا حول المسيح كما وصفتها سابقًا. إذ لم يُعرَف أبدًا أن أيًّا من رواة الأناجيل قد روى عن مريم العذراء شيئا من قصة المسيح. لكن لما كانت حادثة الصلب والموت المتوهم (والبعث كما سنرى في قصة الغداء الأخير، إن شاء الله)، كان الشهود هُم مريم العذراء -عليها السلام-، وصديقتها مريم المجدلية ومعهم مريم الثالثة. بغض النظر عن مصدر الرواية، هؤلاء فقط هًم الشهود الذين سماهم إنجيل يوحنا ممن كان يحب المسيح! أما التلميذ الذي يحبه، فلم يسمِّه أيٌّ من الأناجيل ولم يذكر التاريخ له وجودًا بعد رفع المسيح، إلا أنّ متأخري النصارى اتخذوا من وجوده مَخرجًا في إشاعة أنه هو نفسه يوحنا الذي كتَب الإنجيل، وهذا الافتراض لا دليل عليه أبدًا، ولم يّدَّعِه إنجيل يوحنا نفسه!
ولمن ظنّ أن لفظ صلب يعني مات على الصليب، نواصل الرواية بعد تسع ساعات من صلبه. فتحت عنوان "موت يسوع" يروي إنجيل يوحنّا:

{بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد اكتمل، فقال:" أنا عطشان"، ليتم ما جاء في الكتاب. وكان هناك وعاء مليء بالخلِّ، فغمسوا في الخل إسفنجة وضعوها على زوفا، ورفعوها إلى فمه. **فلما ذاق يسوع الخل**، قال: "قد أُكمل!" ثم نكس رأسه وأسلم الروح}

(إنجيل يوحنا- الإصحاح التاسع عشر: 28-30)
إنجيل يوحنا لم يحدد الساعة، ولكن بقية الأناجيل روت أن هذا حدث بعد تسع ساعات من صلبه أي حوالي السادسة مساء قبيل غروب الشمس.
شيءٌ جدُّ محير! نذكر أن المسيح وبَّخ بطرس توبيخًا شديد اللهجة حينما كان يصلّي فعاد ووجدهم نيامًا، فقال له "ألم تستطع أن تسهر ساعة واحدة يا سمعان؟!" أيضًا فقد قال لبطرس يوم حاول توبيخه في فكرة الصلب والألم الذي سيتعرض له: "اغرب عنّي يا شيطان، أنت عقبة أمامي، فأنت لا بأمور الله تهتم بل بأمور الناس!" هل هذا هو النبي نفسه الذي كان يعلّم تلاميذه الصبر، ينادي: "أنا عطشان" في لحظة موته من أجل خلاص البشرية؟
ما يزيد الأمرَ غرابةً أن بقية الأناجيل وصفت أنّه قال شيئًا آخر، وأنهم قدموا له خمرًا فرفض أن يشرب! السؤال الأهم هو: مَن الشاهد الذي روى كل هذه التفاصيل الغريبة المتناقضة؟ وأتوقف عند: أسلم الروح!
أنا طبيب منذ أربعٍ وعشرين سنة. توفي في وجودي العشرات وحررت لهم شهادات الوفاة الشرعية. بعضهم كان في العنبر العام يحتضر وبعضهم جيء به إلى غرفة الحوادث وبعضهم مات تحت البنج في غرفة العمليات، لكن لم أرَ في حياتي شخصًا "أسلم الروح"! مفهوم "الروح" مفهوم فلسفي وديني وليس جسديًا. على امتداد التاريخ

البشري لم يعرف الإنسان وسيلة يثبت بها الموت أو حتى يصفه. ما يقوم به الأطباء هو إثبات زوال صفات الحياة الظاهرة وليس إثبات علامات الموت، لأن الموت عالم غامض لا تـَعْريف له ولا صفات له. ما نثبت به زوال الحياة هو توقف التنفس وتوقف القلب. في العصر الحديث أضيف إثبات موت الدماغ، وهذا يتم الكشف عليه بتسليط ضوء متقطع على إنسان العين. في وجود حياة فى الدماغ، حتى لو توقف التنفس والقلب، فإن إنسان العين يضيق مع الضوء ويتسع فى الظلام. حين الموت، فإن إنسان العين يتوقف في حالة اتساع قصوى ودائمة حتى لو عرض إلى ضوء كثيف، مما يفيد أن الدماغ قد تعطل. هكذا تحرر شهادة الوفاة.
لكن لا يوجد وصف طبي أو شرعي اسمه: "أسلم الروح"! لأنه لا أحد يدري ما هي الروح وما هي علاقتها بالموت والحياة!
في قصةٍ كثيرةِ التناقضات والغموض كالتي نبحث فيها، فإن وصف "أسلم الروح" لا يعني أكثر من كونه افتراضًا ظنّه المشاهِدون المجهولون، ربما لأنه توقف عن الحركة أو الكلام. هذا لو ثبت وجود شهود يثبتون ذلك، وهذه تحدث مع حدوث إغماءة أو غيبوبة نتيجة للألم. لكن: مَن الذي وصف هذا المشهد؟ بالتأكيد ليست مريم أمه ولا مريم زوجة كلوبا ولا مريم المجدلية، ولا ذلك التلميذ الذي كان قد أخذ مريم العذراء إلى بيته حين جعله المسيح ابنَها!
هذه الأسئلة المشروعة تكشف لنا أولى معالم الخطة المتفَق عليها بين كهنة اليهود و(بيلاطس):

{ولما كان الإعداد يتم في ذلك اليوم، طلب اليهود من بيلاطس أن تكسر سيقان المصلوبين، فتؤخذ جثثهم لئلا تبقى معلقة على الصليب يوم السبت، ولا سيما لأن ذلك السبت كان يوما عظيما. فجاء الجنود وكسروا ساقي كلا الرجليْن المصلوبين مع يسوع. أما يسوع، فلما وصلوا إليه وجدوه قد مات، فلم يكسروا ساقيه. وإنما طعنه أحد الجنود بحربة في جنبه، فخرج في الحال دم وماء. والذي رأى هذا هو يشهد، وشهادته حق وهو يعلم تماما أنه يقول الحق لكي تؤمنوا أنتم أيضا. و قد حدث هذا ليتم ما جاء في الكتاب: " لن يكسر له عظم!" وقد جاء أيضا في موضع آخر من الكتاب: " سينظرون إلى الذي طعنوه.} (إنجيل يوحنا- الإصحاح التاسع عشر: 31 -37)

هنا نحتاج لعقلية المخبر السري الذي يقرأ مقتطفاتٍ تم تحويرها من قصة ما، وينجح في إخراج القصة الحقيقية.
هناك تأويل لسبب كسر سيقانهم يمكن أن يكن مقبولاً، وإن لم يكن منطقيًا: وهو أنّ كسر سيقانهم تم من أجل تخليص الجثث المثبتة على الصليب بالمسامير. لكن هذا التأويل لا منطق فيه لأن نزع المسامير أسهل من كسر السيقان.
لكن: حتى مع غرابة هذا التأويل، نجد تناقضًا آخر يكشف لنا جزءًا مهمًا من الخطة المشتركة بين كهنة اليهود و(بيلاطس)، تخفي افتضاحَ أمرهم أن المسيح لا يموت على الصليب بعد خداع العامة بشبهة القتل:
أغلب الظن أن الأمر بكسر سيقانهم كان لأنهم ما زالوا أحياء، وهبط الظلام، حيث لا يجوز حسب شريعة اليهود أن يظل أحد معلقًا على الصليب مع دخول ليلة السبت، حيًا كان أو ميتًا. ولمّا كانوا يخشون أن يهرب اللصان الحيَّان قبل يوم الأحد، حيث يمكن إكمال الصلب حتى الموت، فقد اقترحوا كسر السيقان لتحقيق تلك الغاية.
هذه الحقيقة نستنتجها من التناقض في الرواية. فقد كسروا ساقيْ اللصين (هذا يعني أنهما ما زالا حيّيْن)، ولكن تأتي المفاجأة: لما وصلوا إلى المسيح، امتنع الجندي الروماني (بأمر بيلاطس طبعًا) من كسر ساقيه، فجاء الذي روى القصة فأضاف تبريرًا أكثر غرابة من وصف الحواريين بأنهم "كانوا نائمين من الحزن" (يوم صاح الديك)، فقال: إنهم لم يكسروا ساقيْ يسوع لأنهم وجدوه قد مات!
هنا يصلب راوي الإنجيل نفسه حتى الموت:
إن كانت ساقا اللصين قد كُسِرتا حتى تنزل الجثث (يعني ماتا)، فما الذي يجعل جثة المسيح معفيّة من الكسر إن كان ميتًا أيضًا؟ الحجة التي أتى بها مِن كَتب إنجيل يوحنا هي: لأنهم وجدوه قد مات! فلو افترضنا أنّ هذه الجملة حقيقية، وأنه تم استثناؤه من كسر الساقين لأنه قد مات، فهذا يعني أن اللصين اللذين كسرت سيقانهما كانا حيّيْن، لذلك كسرت سيقانهما منعًا للهرب، فلو كان اللصان ما زالا حيّيْن، فمِن باب أولى أن نبيّ الله الذي أحيا الموتى بإذن الله كانت له قوةٌ أكثر لاحتمال الألم ومقاومة الموت. هذا الغموض والتناقض يتركنا أمام افتراضيْن لا ثالث لهما:

الافتراض الأول: لو كانوا جميعًا جثثًا ميتة، ما كان هناك مبرر منطقي يميز جثة المسيح من جثتَيْ اللصين بضرورة كسر الساقين! وبما أنّ الحجة التي قدمها الإنجيل هو أنه قد مات لذلك لم يكسروا ساقيه، فهذا يعني أن الكسر كان ضروريًا مع الأحياء وليس الأموات!
الافتراض الثاني: لو كانوا جميعًا أحياء، فهنا يكمن التمييز:
اللصان كان حكمها: "الإعدام صلبًا حتى الموت". ولما كانا ما زالا حيّيْن والشمس كادت تغرب، فقد كسرت سيقانهما حتى لا يهربا، فيتم صلبهم حتى الموت من الأحد إلى الجمعة القادمة.
أمَّا المسيح، فقد كان حكمه المتفق عليه هو: "التعليق على الصليب حتى غروب الشمس فقط"!

اللصان كان إعدامهما حتى زوال الحياة منهما - أما المسيح فكان حكمه الإعدام من حياة الناس "وهو حيٌّ" ثم الإخفاء عن أعين الناس إلى أن يرفع فيظن العامة أنه مات حقيقة!

وهنا نفهم لماذا طعنه الجندي الروماني بالحربة: فقد كان في حالة غيبوبة، والأوامر الصارمة من (بيلاطس) كانت ألا يموت وألا تكسر ساقاه. فطعنه الجندي على جنبه ليفيقه من الغيبوبة، لأنه كان يعلم أنه حيّ.
لكن لأن القصة تعرضت لمحاولات إلباس عقائدي لا علاقة له بالواقع فقد أضيفت قصة نزول الدم والماء.
ختامًا، قبل أن نَقبل شهادة الشاهد الذي روى كل تلك التفاصيل وهو بالتأكيد ليس أحد الاثني عشر الذين فروا يوم صاح الديك، فإننا نحتاج للتعرف عليه. وهذا ما عجز عنه فلاسفة المسيحية على مدى ألفَي عام. لا أحد يجزم مَن الذي كَتَب إنجيل يوحنا ومَن هو يوحنا أصلاً، ناهيك عن قبول شهادة الحق في حق هذا الشاهد الذي روى عنه!

مِن هنا يتضح لنا جليًا سبب اختيار يوم الجمعة ليكون يوم الصلب إذ إنه أقصر أيام الأسبوع عند اليهود. وبهذا يمكنهم تعليق المسيح على الصليب ساعاتٍ بسيطة، ثم إنزاله قبل غروب الشمس بحجة دخول ليلة السبت حيث لا يجوز الصلب، ثم إشاعة أنه مات وزال بعد ذلك. ستتضح هذه الخطة التي طُبِخت بين (بيلاطس) والكهنة أكثر حينما نرى ماذا حدث يوم الأحد.

المسيح على الصليب حسب إنجيل لوقا:

لمعرفة مَن هو لوقا يمكن الرجوع إلى الموسوعة الحرة، لكن يمكن أن نلخص عنه بعض النقاط:

أولاً: كاتب إنجيل لوقا غير معروف.

ثانيًا: هناك شِبه إجماع بين المؤرخين أن كاتبه شخصٌ يوناني مجهول الهوية.

ثالثًا: أن لغتَه الأصلية هي اليونانية، لكن لا أحد يدري مَن هو المترجم المجهول عن الشاهد المجهول الذي نَسب الإنجيل إلى المجهول لوقا!

رابعًا: هناك آراءٌ ترجح أن كاتب إنجيل لوقا هو نفسه مَن كَتَب أعمال الرسل، وهي الرسائل المنسوبة إلى شاول، مؤسس المسيحية الرومانية التي سنناقشها في الطريق إلى دمشق.

خامسًا: لا يدرى أحد متَى كُتِب إنجيل لوقا.

كَتَب هذا الكاتب المجهول ما يلي:

{وفيما هُم يسوقونه (إلى الصلب)، أمسكوا رجلا من القيروان اسمه سمعان، كان راجعا من الحقل، ووضعوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع. وقد تبعه جمع كبير من الشعب ومن نساء كُنّ يولولن ويندبنه. فالتفت إليهن يسوع، وقال: " يا بنات أورشليم، لا تبكين عليّ، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن! فها إنّ أياما ستأتي فيها يقول الناس: طوبى للعواقر اللواتي ما حملت بطونهن ولا أرضعت أثداؤهن! عندئذ يقولون للجبال: اسقطي علينا، وللتلال: غطينا! فإن كانوا قد فعلوا هذا بالغصن الأخضر فماذا يجرى لليابس؟" و سيق إلى القتل مع يسوع أيضا اثنان من المجرمين.} إنجيل لوقا- الإصحاح 23: 27 -32

نلاحظ هنا أن لوقا اختلف مع يوحنا في أن الصليب كان يحمله رجل من القيروان اسمه سمعان - وليس يسوع كما زعم يوحنا -

أيضًا نلاحظ أن لوقا أورد هذا التحذير شديد اللهجة من المسيح إلى بنات أورشليم من مصيبة على وشك أن تحل بهم، هذا التحذير حذفه يوحنا ولوقا ومرقس ومتَّى.

والسؤال هو: مَن الشاهد هنا وهناك؟

{ ولما وصلوا إلى المكان الذي يدعى الجمجمة، صلبوه هناك مع المجرمين، أحدهما عن اليمين والآخر عن

اليسار. وقال يسوع: " يا أبي اغفر لهم، لأنهم لا يدرون ما يفعلون!" واقتسموا ثيابه مقترعين عليها.} إنجيل لوقا- الإصحاح الثالث والعشرون: 33-34

نلاحظ هنا أيضًا أن لوقا أورد هذا الدعاء الذي يتّسق مع روح النبوة وهو الدعوة لقومه بالغفران رغم معصيتهم، بينما لم تذكره بقية الأناجيل.

{ووقف الشعب هناك يراقبونه، وكذلك الرؤساء يتهكمون قائلين: "خلّص آخرين! فليخلص نفسه إن كان هو المسيح المختار عند الله!" و سخر منه الجنود أيضا، فكانوا يتقدمون إليه ويقدمون له خلاً، قائلين" إن كنت أنت ملك اليهود، فخلّص نفسك" وكان معلقا فوق لافتة كتب فيها: "هذا هو ملك اليهود". وأخذ واحد من المصلوبين يجدف عليه فيقول:" ألست أنت المسيح؟ إذن خلّص نفسك وخلصنا!" ولكن الآخر كلمه زاجرا فقال: "أحتى أنت لا تخاف الله، وأنت تعاني العقوبة نفسها؟ أما نحن فعقوبتنا عادلة لأننا ننال الجزاء العادل لقاء ما فعلنا. وأما هذا الإنسان، فلم يفعل شيئا في غير محله!" ثم قال: " يا يسوع، أذكرني عندما تجئ في ملكوتك!" فقال له يسوع :" الحق أقول لك: **اليوم ستكون معي في الفردوس!**"

(إنجيل لوقا- الإصحاح الثالث والعشرون: 35-43)

نلاحظ أيضًا أن لوقا أتى بالحوار التفصيلي للمجرمين مع المسيح بينما حذفه يوحنا. أيضًا لوقا أتى بورطة كبيرة وهي أن المسيح وعَد المجرم الذي تعاطف معه أنه يكون معه في الفردوس اليوم، بينما كل الأناجيل أجمعت أنه رُفِع بعد أيام من هذا الحدث.

ونلاحظ أن لوقا اتفق مع يوحنا في أنهم قدَّموا له خلّاً - وإن لم يحدد هل ذاقه أم لا -بينما قال مرقس إنه خمر كما سنرى-. وتمضي الرواية:

{ونحو الساعة السادسة حلّ الظلام على الأرض كلها حتى الساعة التاسعة. وأظلمت الشمس، و انشطر ستار الهيكل من الوسط. وقال يسوع صارخا بصوت عظيم: " يا أبي في يديك أستودع روحي!" وإذ قال هذا، أسلم الروح. فلما رأى قائد المئة ما حدث، مجَّد الله قائلا: " بالحقيقة كان هذا الإنسان بارا". كذلك الجموع الذين احتشدوا ليراقبوا مشهد الصلب، لما رأوا ما حدث، رجعوا قارعين الصدور. أما جميع معارفه، بمن فيهم النساء اللواتي تبعنه من الجليل، فقد كانوا واقفين من بعيد يراقبون هذه الأمور.}

(إنجيل لوقا- الإصحاح الثالث والعشرون: 44-49)

لا بد من توضيح أن " الساعة السادسة" و "الساعة التاسعة" هي قياس للفترة الزمنية التي قضاها على الصليب منذ بداية الصلب الساعة التاسعة صباح الجمعة. وعليه فإن الساعة السادسة هي "الثالثة ظهرا" والساعة التاسعة التي أسلم فيها الروح حسب الرواية هي "السادسة مساء". أي مع مغرب الشمس ودخول ليلة السبت المحرَّم.

هنا لوقا أتى بآخر دعاء للمسيح وهو: "يا أبى في يديك أستودع روحي"، بينما لم يأتِ به يوحنا. أما مرقس فقد أتى بدعاء آخر كما سنرى.

أيضا لوقا روى عن قائد المئة وهو روماني أنه وصف المسيحَ **بأنه بارّ**، ولم يورد هذا يوحنا بينما مرقس نَسب إليه أنه قال: حقيقة كان هذا الإنسان ابن الله!

ولا ننسى بالطبع الحقيقة البارزة في الرواية أن النساء هُنَّ الشهود على الحدث.

المسيح على الصليب حسب إنجيل مرقس:

يرجح معظم المفكرين أن إنجيل مرقس كُتِب بين سنة 60-70- بعد المسيح، ويتفق الجميع أن لغته الأولى كانت اليونانية، لكن لا يدري أحد مِن الذي ترجمه لليونانية، وأيضًا لا ندري مَن هو مرقس أصلاً. على أية حال فقد وثّق مرقس القصة كما يلي:

تحت عنوان: "يسوع على الصليب":

{وسخروا واحد من المارة ليحمل صليبه، وهو سمعان من القيروان، أبو إسكندر وروفس، وكان آتيا من الحقل. وساروا به إلى مكان الجلجثة، أي مكان الجمجمة. وقدموا له خمرا ممزوجا بمرّ، فرفض أن يشرب. و بعدما صلبوه تقاسموا ثيابه، مقترعين عليها لمعرفة نصيب كل منهم. وكانت الساعة التاسعة صباحا حينما صلبوه. وكان عنوان تهمته مكتوبا "ملك اليهود". وصلبوا معه لصَّيْن، واحدا عن يمينه، وواحدا عن يساره. فتمت الآية القائلة: "وأحصي مع المجرمين".}

(إنجيل مرقس- الإصحاح الخامس عشر:21-28)

نلاحظ أن مرقس اتفق مع لوقا على أن مَن حمل الصليبَ كان سمعان مِن القيروان، خلافًا ليوحنا الذي زعم أن المسيح حَمَل صليبه. أيضًا مرقس اختلف مع يوحنا ولوقا في أنهم قدموا له خمرًا، واختلف مع يوحنا في أنه رفض أن يشرب! بينما لم يذكر لوقا أشَرِبَ أم لا.

{وكان المارة يشتمونه وهُم يهزون رؤوسهم قائلين: " هه! يا هادم الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام، خلّص نفسك، وانزل عن الصليب!" كذلك كان رؤساء الكهنة أيضا يسخرون منه مع الكتبة قائلين بعضهم لبعض:" خلّص غيرَه، وأما نفسه فلا يقدر أن يخلص. لينزل الآن المسيح ملك إسرائيل من على الصليب، لنرى ونؤمن!" وعيَّره أيضا اللصان المصلوبان معه.}

(إنجيل مرقس- الإصحاح الخامس عشر:29-32) .

مرقس وصَف أن اللصين عيَّرَاه، بينما لوقا وصف حوارًا طويلاً بين اللصين وأن أحدهما زكاه المسيح ووعده بأن يكون معه في الفردوس اليوم.

لا بد أن ننتبه لحقيقة أن مَن تم تعليقه على الصليب لا يعتبر مصلوبًا إلا إذا مات عليه. والفقرات أعلاه تشتمل على حوار بين أحياء معلقين على الصليب لكن لم تكتمل فيهم صفة الصلب ما داموا أحياء. نلاحظ أيضًا أن الكهنة أرادوا إسماع العامة أن واقعة صلبه تنفي أنه المسيح لأن هذا أصلاً هو الهدف الأساس من المسرحية. وتمضي القصة:

{ولما جاءت الساعة الثانية عشرة ظهرا، حلّ الظلام على الأرض كلها حتى الساعة الثالثة بعد الظهر. وفى الساعة الثالثة، **صرخ يسوع بصوت عظيم" إلوي إلوي، لِما شبقتني؟" أي: " إلهي إلهي، لماذا تركتني؟"** فقال بعض الواقفين هناك لما سمعوا ذلك:" ها إنه ينادى إليا!" وإذا واحد قد ركض فغمس إسفنجة في الخل وثبتها على قصبة وقدمها إليه ليشرب، قائلا: "دعوه! لنر هل يأتي إليا لينزله!"}

(إنجيل مرقس- الإصحاح الخامس عشر33-36)

هنا أتى مرقس بما لم يأتِ به يوحنا ولوقا: وهو الصرخة الأخيرة: "إلهي إلهي لماذا تركتني." وهذه يمكن تأويلها أنَّ أصلَها قولُ الرسول: "متى نصر الله"، ألا إن نصر الله قريب! وقد اتفق معه في ذلك فقط متَّى.

{فصرخ يسوع بصوت عظيم، وأسلم الروح. فانشق ستار الهيكل شطريْن من أعلى إلى أسفل. فلما رأى قائد المئة الواقفة مقابله أنه صرخ وأسلم الروح، قال: " حقا كان هذا الإنسان ابنَ الله!" ومِن بعيد كانت نساء كثيرات يراقبن ما يجري وبينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسي، وسالومة، اللواتي كنّ يتبعنه ويخدمنه عندما كان في الجليل، وغيرهن كثيرات كنّ قد صعدن معه إلى أورشليم.}

(إنجيل مرقس- الإصحاح الخامس عشر: 37-41)

هنا نلاحظ أن مرقس نَسب إلى قائد المئة قوله: "حقًا كان هذا الإنسان ابن الله"، بينما روى عنه لوقا أنه قال: بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًّا، والفَرْق كبير بين "البِرّ" وبين ادِّعاء أنه "ابن الله". السؤال: مَن هو الشاهد؟

ولمصلحة مَن كُتِبتْ هذه الروايات المختلفة؟

المسيح على الصليب حسب إنجيل متَّى:

لتكتمل الصورة انظرْ تاريخَ متَّى في الموسوعة الحرة، وهو مجهول الهوية أيضًا، والذي يظن أنه كتَب كتابه باليونانية أيضًا بين سنة 60 -65 ، أو 80- 100 بعد المسيح -عليه السلام-.

مقدمة متَّى للقصة تشابه مقدمة يوحنا، غير أنه اتفق مع البقية في أن مَن حمل الصليب كان سمعان من القيروان وليس المسيح نفسه. ومضى متَّى يصف قصة موت المسيح بصورة فريدة:

{ومن الساعة الثانية عشرة ظهرا إلى الساعة الثالثة بعد الظهر، حلّ الظلام على الأرض كلها. ونحو الساعة الثالثة صرخ يسوع بصوت عظيم:" **إيلي، إيلي، لما شبقتني؟" أي: " إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟"** فلما سمعه بعض الواقفين هناك قالوا: " إنه ينادى إيليا!" فركض واحد منهم، وأخذ إسفنجة وغمسها في الخلِّ، وثبتها على قصبة وقدم إليه ليشرب، ولكن الباقين قالوا: " دعه وشأنه! لنر هل سيأتي إيليا ليخلصه!" فصرخ يسوع مرة أخرى بصوت عظيم وأسلم الروح.}

(إنجيل متَّى- الإصحاح السابع والعشرون: 45-50)

{ وإذا ستار الهيكل قد انشق شطرين، من الأعلى إلى الأسفل، وتزلزلت الأرض، وتشققت الصخور، وتفتحت القبور، وقامت أجساد كثيرة لقديسين كانوا قد رقدوا، وإذ خرجوا من القبور، دخلوا المدينة المقدسة بعد قيامة يسوع و رآهم كثيرون. وأما قائد المئة وجنوده الذين كانوا يتولون حراسة يسوع، فقد استولى عليهم خوف شديد حينما رأوا الزلزال وكل ما جرى، فقالوا:" حقا كان هذا ابنَ الله!" ومن بعيد، كانت نساء كثيرات يراقبن ما يجرى، وكنَّ قد تبعن يسوع من الجليل ليخدمنه، وبينهن **مريم المجدلية**، و **مريم أم يعقوب** و يوسي، وأم ابني زبدي.}

(إنجيل متّى- الإصحاح السابع والعشرون: 51-56)

بطبيعة الحال، في روايةٍ مجهولة المصدر منسوبةٍ إلى أشخاص مجهولين، فإن وصف انشقاق الهيكل والزلزال يمكن نسبته إلى تهويلٍ مِن أحد الشهود الذين أصيبوا بنوع من الهستريا أو الانفعال من رؤية دمٍ يسيل ورجلٍ بارٍ يتعذب. خاصة لو كان ذلك الشاهد المجهول له عقيدة تجعله قابلاً لأن يتوهم ما يرى في مثل هذه الظروف التي تغلب العواطف فيها على العقل. لا شك أن المسيح في رسالته قد أصاب العامة بالحيْرة؛ فهؤلاء كانوا مذبذبين بين تصديق الكهنة الذين يمثلون المرجعَ الديني الأعلى لليهودية التي كان المسيح امتدادًا لها رغم إنكارهم له، وبين المسيح الذي أجرى معجزاتٍ كإحياء الموتى ورغم ذلك أنكر نبوته أولئك الكهنة. من هنا لا نستغرب أن إحدى الروايات التي وصلت إلى كاتب إنجيل متَّى (إن كان حقيقة وُجِد) كان فيها مزيد من التهويل كقيامة القديسين من قبورهم ودخولهم المدينة. الغريب أن متَّى يزعم أنه رآهم كثيرون، بينما لم توثق بقية الأناجيل هذه الرواية الغريبة!

خلاصة القول: لا بد وأن المسيح-عليه السلام- قد تعذب كثيرًا وزُلزل حتى دعا الله: "متى نصر الله؟" كما في الآية أعلاه! لكن كل هذه الروايات لا يمكن تسجيلها إلّا ضد مجهولين، ولا يمكن الأخذ بها حتى في كتب التاريخ ناهيك عن الأديان.

شهادة مريــم المجدلية:

الكتاب المقدس عمومًا كتابٌ ذكوريّ، يغلب فيه ذِكر أخبار وأسماء الذكور على أسماء الإناث. وهنا لا بد أن ننتبه إلى أن القرآن الذي ورد فيه اسم أنثى واحدة هي مريم بنت عمران لا يمكن وصفه بأنه ذكوري، لأن القرآن أصلاً لا يذكر أسماء الناس ولا يدخل في تفاصيلَ شخصيةٍ. فأسماء البَشر المتكررة في القرآن محدودة جدًا تشمل

فقط أسماء الأنبياء والمرسلين وبعض الأفراد مثل زيد بن حارثة، فالقرآن يشير إلى الأشخاص من منظور فكري، مثلاً: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ...(40)} التوبة.

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ...(32)} الكهف.

و {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا...(259)} البقرة.

وهكذا...

لكن لأن الكتاب المقدس يذكر أسماءً كثيرةً جدًا معظمها ذكورية، فإن تكرار اسم "مريم المجدلية" مع المسيح- عليه السلام- جعل منها المرأة المتميزة الوحيدة في "العهد الجديد". وقد أدَّى هذا الاهتمام النسبي إلى أن يقول كاتب قصة (شفرة دافنشي) عليها وعلى المسيح بهتانًا عظيمًا، إذ إنه زعم أنه كانت بينهما علاقة جنسية وأنه تزوجها سرًا.

وعلاقة المسيح بمريم المجدلية ابتدأت حسب إنجيل لوقا حينما طَرد المسيح منها سبعة شياطين:

{بعد ذلك أخذ يتجول في كل مدينة وقرية واعظا ومبشرا بملكوت الله وكان يرافقه تلاميذه الاثنا عشر، وبعض النساء اللواتي كن قد شفين من أرواح شريرة وأمراض، وهنّ: مريم المعروفة بالمجدلية، والتي طرد منها سبعة شياطين، ويونا زوجة خوزي وكيل هيرودس، وسوسنة، وغيرهن كثيرات ممكن كنّ يساعدنه بأموالهن.}

(إنجيل متّى- الإصحاح الثامن:1-3)

نلاحظ من هذه الرواية أن النساء لعبن دورًا مهمًا لكنه غير معلن في الأناجيل وهو الرقابة المستمرة على تطورات قصة المسيح والمساعدة المالية لنشاطه، وأخيرا كنّ الشاهداتِ الوحيدات في قصة صلبه وقيامته كما سنرى.

على أن اسمَ مريمَ المجدلية أصبح له مكانة خاصة في العقيدة المسيحية في آخر أيام المسيح لأنها كانت الشاهد الثابت الوحيد المذكور بالاسم في قصة صلبه ودفنه، وكانت أول من رآه حيًا بعد شبهة الموت. ولأننا هنا نناقش شبهة دفن المسيح، فقد آثرتُ أن أبرز اسمَها حتى يعرفها و يذكرها مَن يدخل في حوار مع المسيحيين، لأنها كانت تعتبر التلميذة الوحيدة المعروفة من تلميذات المسيح. ويقال إنها كانت صديقة لمريم العذراء -عليها السلام- وكانت تقوم نيابة عنها بمراقبة الأخطار التي تحيط بالمسيح، فلما فرّ الحواريون جميعًا يوم صاح الديك، بقيت مريم المجدلية الاسمَ البارز من "الحلقة الداخلية" حول المسيح والتي كانت تمثل أمّه الصدّيقة ومَن معها من النساء بالإضافة للتلميذ الذي يحبه يسوع كما أسلفنا.

بطبيعة الحال فهذا بحث أكاديمي في محتوى الكتاب المقدس الحالي، ولا يشترط أصلاً أن تكون شخصية مريم المجدلية شخصية حقيقية. فإن كان "متّى" و"مرقس" و"لوقا" و"يوحنا"، وهُم كُتّاب الأناجيل المختلفة، أنفسُهم مشكوكًا في أنهم وجدوا أصلاً، فمِن المنطقي جدًا أن تكون بعض الشخصيات فص هذه الكتب شخصياتٍ افتراضية.

المهم:

بعد أن افرنقعَ الناسُ مساءَ الجمعة السعيدة بأمر الكهنة، استعدادًا للسبت المقدس، وبعد أن كُسرت ساقا اللصَّيْن حسب إنجيل يوحنا وبقي المسيح سالمَ الجسد، مضى كُتَّاب الأناجيل يصفون الأحداثَ كما يلي، كلٌّ مِن وجهة نظره أو ما وصله من خبر:

تحت عنوان موت يسوع:

1- كتب يوحنا ما يلي:

{بعد ذلك طلب يوسف الذي من الرّامة إلى بيلاطس أن يأذن له بأخذ جثمان يسوع، وكان يوسف هذا تلميذا ليسوع ولكن في السر، لأنه كان خائفا من اليهود، فأذِن له بيلاطس. فجاء يوسف وأخذ جثمان يسوع. وجاء أيضا نيقوديموس الذي كان قد أتى من قبل إلى يسوع ليلا، وأحضر معه حوالي ثلاثين لترا من طيب المرّ المخلوط بالعود. فأخذا جثمان يسوع ولفّاه بأكفان مع الطيب، كما كانت عادة اليهود في الدفن. وكان في المكان الذي صلب فيه يسوع بستان، وفي البستان قبر جديد، لم يسبق أن دفن فيه أحد. فدفنا يسوع في ذلك القبر لأنه كان قريبا، ولأن ذلك اليوم كان يوم الإعداد عند اليهود}

(إنجيل يوحنا- الإصحاح التاسع عشر: 38- 42)

مما سبق يمكننا أن نفترض الآتي:

يوسف كان تلميذًا للمسيح، لكنه لم يكن معروفًا مع الحواريين. ولا يدري أحد كيف كانت علاقته بالمسيح وماذا كان دوره في حياته، إذ إن اسمَه لم يظهر إلا بعد الموت الافتراضي للمسيح. يوسف هذا كان أولَ مَن أنزل جسد المسيح من الصليب بإجماع الأناجيل.

إلا أن يوحنا قد تفرد بإضافة (نيقوديموس) مع يوسف. و(نيقوديموس) هذا كان عضوًا في المجلس الأعلى للفريسيين وهُم طائفة متطرفة من اليهود في زمن المسيح، ويقال إنّه أيضًا كان مؤمنًا أن عيسى هو المسيح المرتقب، وقد ذكَر يوحنا أنه التقى المسيح سرًا وأصبح أيضًا من تلاميذه غير المعلنين:

{غير أن إنسانا مِن الفريسيين اسمه نيقوديموس، وهو عضو في المجلس اليهودي، جاء إلى يسوع ليلاً وقال له: "يا معلّم، نعلم أنك قد جئت من الله معلمًا، لأنه لا يقدر أحد أن يعمل ما تعمل من آيات إلا إذا كان الله معه. فأجابه يسوع: "الحق الحق أقول لك: لا أحد يمكنه أن يرى ملكوت الله إلا إذا وُلِد من جديد". فسأله نيقوديموس: كيف يُمكن للإنسان أن يولد وهو كبير السن؟، ألعله يستطيع أن يدخل بطن أمه ثانية ثم يولد؟" أجاب يسوع: "الحق الحق أقول لك: لا يمكن أن يدخل أحد ملكوت الله إلا إذا ولد من الماء والروح} (إنجيل يوحنا- الإصحاح الثالث: 1 – 5)

من هذا نفهم أنّ مَن أنزل جسد المسيح كانا اثنيْن من تلاميذه غير المعلنين، وكلاهما كان عضوًا في المجلس الأعلى لليهود. نلاحظ أيضًا أن (نيقوديموس) قد وصفه بـ: (إلا إذا كان الله معه) وليس: "إلا إذا كان هو الله"! فإن كان حقًا مِن تلاميذه سرًا، فهُما إذن، كانا يعلمان أن عيسى بن مريم هو المسيح عبد الله ورسوله، وأنّه ما كان له أن يموت حسب شريعة اليهود. هذا الافتراض المنطقي يدعونا للتدبر في سر "الخل" و"الطيب" الذي أتيا به.

"الثلاثين لترًا من طيب المُرِّ والعُود" فيها تفاصيل افتراضية، فقد اختلفت الأناجيل في لغات مختلفة بنوعية ما أحضر يوسف، لكننا يمكن أن نفترض أنه أحضر معه "مواد كيميائية" لحكمةٍ ما. حسب إنجيل يوحنا أعلاه، فالدفن كان في بستان قريب "في قبر جديد لم يدفن فيه أحدٌ من قبل"!

نتوقف عند هذا التعبير: فالمعروف أن أي ميت يُدفن في قبر جديد لم يدفن فيه أحد من قبل! تداول القبور يتم بعد سنوات طويلة تقارب المائة عام عادة. هذا في زماننا يوم ضاقت الأرض بأهلها، لكن لا أظن أن اليهود قبل ألفي عام كانوا يدفنون موتاهم مترادفين في قبر واحد!

لا بد أن نتذكر دائمًا أن ما كُتِب هنا ليس إلا ترجمة من لغة سادت ثم بادت، ولا توجد صحائف أصلية يمكن العودة إليها لمعرفة النص الحقيقي لهذا التعبير. في تقديري فإن هذه ترجمة لتعبيرٍ يفيد أنه: (دفن في قبر فريد لم يدفن في مثله أحد). فلفظ "جديد" في اللغة الانجليزية (new) تفيد "جديدًا" من حيث الصناعة، وأيضًا تفيد "جديد" من حيث النوعية، هذا مجرد افتراض للخروج من هذا المأزق اللغوي، ومن كان لديه افتراضٌ آخر فنرحب به، لكن هناك المزيد من الأدلة على أنه لم يكن قبرًا مألوفًا!

2- أما إنجيل لوقا فقد روى القصة كما يلي:

{وكان في المجلس الأعلى إنسان اسمه يوسف، وهو إنسان صالح وبار لم يكن موافقا على قرار أعضاء المجلس وفعلتهم، وهو من الرّامة إحدى مدن اليهود، وكان من منتظري ملكوت الله. فإذا به تقدم إلى بيلاطس وطلب جثمان يسوع. ثم أنزله (من على الصليب) وكفنه بكتان ووضعه في قبر منحوت (في الصخر) لم يدفن فيه أحد من قبل. وكان ذلك النهار يوم الإعداد للسبت الذي كان قد بدأ يقترب. وتبعت يوسف النساء اللواتي خرجن من الجليل مع يسوع، فرأين القبر وكيف وضع جثمانه. ثم رجعن وهيأن حنوطا وطيبا، واسترحن يوم السبت حسب الوصية} (إنجيل لوقا- الإصحاح الثالث والعشرون: 50 -56)

من لوقا يمكننا أن نفترض الآتي:

يوسف هذا كان بارًا وصالحًا وأيضًا كان عضوًا في المجلس الأعلى لليهود. هذا يعني أنه كان على علم بتفاصيل المؤامرة بين (بيلاطس) والكهنة، لكنه كتم إيمانه وانتظر الوقت المناسب ليؤدي دوره، كونه كان آخر مَن بقي من اليهود وأول مَن أنزل المسيح فهو إذن، الشاهد الوحيد على حال المسيح حين نزوله، حيًّا كان أو ميتًا. وكونه ظهر فقط في تلك اللحظة، يعني أنه كان يعلم أن وجوده هنا كان ضروريًا جدًا لأمر يعلمه هو ولا يعلمه غيره.

نلاحظ أن لوقا قد اختلف مع يوحنا في أن القبر كان منحوتًا في صخر وليس في بستان، وشتان ما بين الصخور والبساتين! لكن أيضًا نلاحظ التعبيرَ الغريب: "لم يدفن فيه أحد من قبل"! ونلاحظ ملاحظة غريبة أخرى: أن يوسف هنا قد "وضعه" ولم يدفنه!

هنا يمكننا أن نفترض افتراضيْن:

الافتراض الأول: تكرار تعبير :"لم يدفن فيه أحد من قبل" يفيد أن شخصًا ما قد أعدّ موضعًا خاصًا للمسيح لهذه اللحظة، هذا الموضع غريبٌ أو جديدٌ على من يروي هذه الروايات، طبعًا الاختلاف بين النحت في الصخر والدفن في أرض البستان يجعل مصداقية القصة كلها موضع تساؤل، لكن نحاول أن نخرج ببعض الملاحظات فقط.

الافتراض الثاني: أن يوسف هذا كان على علمٍ بمخطط اليهود والرومان، وربما كان قد أعدّ هذا المرقد " **ليضع** " فيه جسد المسيح المجرَّح الدامي (وليس يدفنه) حسب لوقا.

فلو صحت هذه الافتراضات فإننا يمكن أن نفترض أن "الثلاثين لترًا من طيب المرّ والعنبر" لم تكن إلا موادّ مطهرة لغسل ومداواة الجروح، وليست لتحنيط الميت كما ظنّ الرواة (المجهولون) الذين روى عنهم يوحنا ولوقا (المجهولان أيضًا).

نلاحظ أن لوقا قد ركز على مفهوم **الوضع**، حيث شاهدت النساء كيف وضع، وليس كيف دفن! أيضًا نُفاجأ أنهُنّ رجعن ليجهزن حنوطًا وطيبًا!

هذا يعني أن يوسف لم يحنطه و لم يدفنه، لأن الميت لا يخرج من القبر ويحنط بعد أيام، حسب شريعة اليهود كما هو الحال عند المسلمين فالقبور لا تفتح. فإنْ كان يوسف حقيقة قد حنّطه بطيب المرّ والعنبر، قبل دفنه المتوهَّم، إذن، فلا داعي أن تجهِّز النساء حنوطًا بعد ذلك. لكن لمّا كان لوقا قد حَذَف الثلاثين لترًا من قصة يوسف ونسب تجهيز الحنوط للنساء، فيبدو أنّ ما حدث كان أقرب إلى علاج مريض مجرَّح، وليس تحنيط ميتٍ. لذلك فقد اختلفت الروايات نتيجة لسوء الفهم أو نتيجة لمحاولة الغلوّ في إثبات موته من المتأخرين! الميت لا يحنَّط مرتين لكن المجرَّح يحتاج لتطهيرٍ مستمرٍّ يوميٍّ لجروحه إلى أن تطيب وتلتئم!

3- لننظر كيف وثّق مرقس قصة موت المسيح:

{وإذ كان المساء قد حلّ، واليوم يوم الإعداد، أي ما قبل السبت، جاء يوسف الذي من الرّامة، وهو عضو محترم في المجلس الأعلى، وكان هو أيضا ينتظر ملكوت الله، فتجرأ ودخل على بيلاطس، وطلب جثمان يسوع. فدهش

بيلاطس من أنه قد مات، واستدعى قائد المئة واستفسره: هل مات منذ وقت طويل؟ ولما أخبره قائد المئة بذلك وهب يوسف الجثمان. وإذ اشترى يوسف كتانا وأنزل الجثمان، لفَّه بالكتان، ودفنه في قبر كان قد نحت في الصخر، ثم دحرج حجرا على باب القبر. وكانت مريم المجدلية ومريم أم يوسي تنظران أين دُفِن}

(إنجيل مرقس- الإصحاح الخامس عشر: 42-47)

مرقس أضاف إضافةً مهمةً جدًا: كون (بيلاطس) دُهِش من سماع أن المسيح قد مات حقًا يعني أنه لم يكن في حسبانه أن يموت! إذ كيف يعقل أن يندهش مَن نفَّذ حكم الإعدام من أنّ المحكوم عليه قد مات؟ الطبيعي أن يصاب بالدهشة إذا لم يمُت! هذه الدهشة لا تعقل إلا إذا كان المخطَّط له ليس إلا مسرحية، وأن (بيلاطس) كان يتوقع ألا يموت!

نلاحظ أيضًا أن مرقس أكد على أن القبر كان قد نحت خصيصًا في الصخر، مرقدٌ جديدٌ غير مألوف للناس، والنحت في الصخر يخلق كهفًا ذا جدران صلبة يمكن أن يرقد فيه الحي. وأيضًا أنّ له بابا، قفله بالصخر، وأخيرًا أفصح مرقس عن أنّه على رأس النسوة اللائي كُنَّ يرقبنه كانت مريم المجدلية!

4- لنرَ كيف وثق متَّى القصة:

{ولما حلّ المساء جاء رجل غني من بلدة الرّامة، اسمه يوسف، وكان أيضا تلميذا ليسوع. فتقدم إلى بيلاطس يطلب جثمانَ يسوع. فأمر بيلاطس أن يعطى له فأخذ يوسف الجثمان، وكفنه بكتان نقي، ودفنه في قبره الجديد الذي كان قد حفره في الصخر، ودحرج حجراً كبيرا على باب القبر ثم ذهب. وكانت هناك مريم المجدلية ومريم الأخرى جالستيْن تجاه القبر.}

(إنجيل متّى- الإصحاح السابع والعشرون: 57-61)

إذن، فقد أجمعت ثلاثة من الأناجيل أن القبر كان قد نُحت في الصخر، وأجمع الأربعة على وصفه بأنه "قبر جديد"، وأكد إنجيل متّى ما ذهب إليه مرقس ولوقا من أن القبر له باب كبير بدليل أنه دحرج عليه حجرًا كبيرًا.

لكن مضى إنجيل متّى متفردًا ليضيف بُعدًا صاعقًا للقصة، فتحت عنوان "**حراسة القبر**" تفرد إنجيل متَّى بالآتي:

{وفى اليوم التالي، أي بعد الإعداد للسبت، تقدم رؤساء الكهنة والفريسيون معا إلى بيلاطس، وقالوا:" يا سيد، تَذكَّرنا أن ذلك المضلل قال وهو حي: إني بعد ثلاثة أيام أقوم. فأَصْدِر أمرا بحراسة القبر بإحكام إلى اليوم الثالث، لئلا يأتي تلاميذه ويسرقوه، ويقولوا للشعب: إنه قام مِن بين الأموات، فيكون التضليل الأخير أسوأ من الأول". فأجابهم بيلاطس: " عندكم حراس! فاذهبوا واحرسوه كما ترون". فذهبوا وأحكموا إغلاق القبر، وختموا الحَجر، وأقاموا حراسا}

(إنجيل متّى- الإصحاح السابع والعشرون: 62- 66)

نتوقف هنا عند هذه الظاهرة الغريبة جدًا، وحتى تتضح أضرب مثالاً يعين القارئ على قراءة ما بين الكلمات:

لو كان في سفينة تكاد تَغرق أو طائرة على وشك السقوط، مسيحي ومسلِم جنبًا إلى جنب، الطبيعي أن المسيحي ربما يُخرِج صليبًا يتبرك به ليكون آخر أعماله في الدنيا، لكن بطبيعة الحال فإن المسلِم ربما يُخرِج مصحفًا يتلو منه أو يتلو مِن ذاكرته ما يسعفه الله به من القرآن. المثال هنا ليس لتحديد أيهما على حق، وإنما فقط للمقارنة بين تعامل أصحاب العقائد المختلفة مع الموت، كلٌّ يتعامل معه وفق معتقده.

لو عدنا إلى إليهود وبيلاطس في الرواية أعلاه:

اليهود كانوا على علمٍ تامٍ أنّ عيسى هو المسيح وأنه لن يموت، وهنا كانوا يطالبون بحراسة "رجلٍ حيٍّ" حتى لا يخرج على الناس قبل أن يُرفَع فيفتضح أمرهم، "فيكون التضليل الأخير أسوأ من الأول"، لكن لنفترض جدلاً أنهم صدَّقوا أن عيسى ما كان المسيح حقيقة، وأنه قد مات حقًا، فهنا لا يعقل أنهم يتوقعون قيامة رجلٍ ضالٍ

مضلّلٍ كما أسموه، لأن المعجزاتِ لا تجري على أيدي الضالين. فلو جاء تلاميذه وسرقوا جثته وعرضوها على كل شعب أورشليم ميتًا، فهُم بذلك يؤكدون لشعب الله المختار أن عيسى كان حقيقة كذابًا ولو كان المسيح حقًا لما مات.

إذن، فحرصهم على حراسته دليلٌ قطعيٌّ على علمهم بأن مَن بداخل هذا الكهف رجلٌ حيٌّ مجرَّحٌ وليس جثةً هامدةً!

ما يؤكد هذا الافتراض هو أن (بيلاطس) لم يستنكر عليهم كيف تحرسون جثة ميت، وإنما فقط رفض مجاراتهم في طلباتهم المملة، وترك أمر الحراسة لهم! (بيلاطس) كان على عقيدةٍ مختلفةٍ تمامًا، ولا يؤمن بالأنبياء ولا المرسلين، وآلهة الرومان لا تقدم معجزات، والأمر برمّته لا يهمه. كل ما كان يهمّه هو الحفاظ على الأمن وإرضاء كهنة اليهود في مطالبهم. فإن كان (بيلاطس) صاحبُ هذه العقيدة لم يستنكر طلبَ حراسةِ ميت، فهذا يعني أنه يعلم كما كان اليهود يعلمون أن الحديث هنا عن فتنةٍ لم تنتهِ، بطلُها رجلٌ ما زال حيًا! يبدو أن (بيلاطس) قد سئِم هذه المسرحية الطويلة المعقدة لذلك ترك لهم الأمر، لكن لا يعقل أنه يردُّ بهذه البساطة على طلب حراسة قبر رجلٍ ميتٍ لا يؤمن هو بإمكانية قيامه من الموت!

من كل ما سبق، رغم ما فيه من تناقضات – يمكننا أن نفترض- أن رواياتٍ مختلفةً قد تم توارثها إلى أن وصلت إلى مَن كَتَب الأناجيل المختلفة، وأن هذه الرواياتِ اشتملت على مقتطفات من القصة فهمَها كل واحد حسب معتقده، أو هواه، وربما تمت إضافات لها في عصورٍ لاحقةٍ كلما تطور وتغيَّر المعتقد. لكن مِن هذه القصاصات يمكننا أن نتصور ما تم كالآتي:

أولاً: يوسف الرجل البارّ كان شخصية محترمة في المجلس الأعلى للفريسيين، وهؤلاء كما أسلفنا كانوا كهنة الفقراء وعامة الشعب. وكان يوسف على علم بمخطط كبار الكهنة مع الرومان ودبّر خطة لعلاج المسيح بعد مسرحية صلبه.

ثانيًا: كونه كان أول من أنزل المسيح بإجماع الأناجيل دليل على اتفاق بينه وبين الرومان – ربما من وراء ظهر الكهنة – أن يتكفل هو بعلاج المسيح من جروحه. وعاونه في ذلك تلميذ خفي آخر هو"نيقوديموس".

ثالثا: بيلاطس كان جزءًا من المخططين، وعلى علمٍ بأن المسيح لن يموت، ليس من باب الاعتقاد، وإنما لأنه أصلاً لم يمُتْ على الصليب حسب المخطط وكان الاتفاق أن ينزل حيًا، فقط يشتبه العامة في موته. لذلك حينما فَهِم مِن يوسف أنه يطلب جثمان المسيح وليس جسده المجرَّح، أصابته الدهشة، لأنه ما كان يتوقع أن يكون ميتًا.

رابعًا: يوسف كان قد نحت كهفًا كبيرًا في الصخر ليكون عيادة أو غرفة عمليات تتم فيها مداواة المسيح من جروحه.

خامسًا: لأن هذا الكهف لم يكن قبرًا أصلاً، فقد أجمعت الأناجيل على وصفه بـ "قبر جديد لم يدفن فيه أحد من قبل": أي أنه كان مكانًا ما اعتاد الناس على دفن الموتى في مثله.

سادسًا: هذا الكهف كان كبيرًا وله باب، وليس مجرد حفرةً، واحتاج لحجر كبير ليقفله به.(سنرى أنه كان غرفة كبيرة لاحقًا إن شاء الله).

سابعًا: يوسف كان قد أعدّ موادّ كيميائية لعلاج الجروح، ظنّ المتوهمون أنها كانت حنوطًا، لكن هذه الفكرة لم تُجمِع عليها الأناجيل، وتناقضت مع كون مريم المجدلية كانت قد رجعت بعد أن رأت أين "وُضِع" لتجهز موادّ كيميائية أخرى لمزيد من العلاج، إذ لا يعقل أن تفكر مريم المجدلية في إخراج جثة ميت بعد يوم لغسله وتحنيطه. وقد ورد في بعض الأناجيل أنها أتت بتوابل (spices) باللغة الانجليزية.

ثامنًا: (بيلاطس) كان على علمٍ أن كل ما كان يدور كان حول "رجل حي" وليس جثة ميتة، وإلا لمَا استجاب لطلب اليهود بأن يحرسوا القبر، ببساطة لأن الروماني كان سيسخر من حراسة قبرِ ميتٍ مهما كانت عقيدة اليهود فيه.

هنا ينتهي دور يوسف الرجل البارّ – تلك الشخصية الغامضة التي لم تظهر إلا هنا ثم تختفي مِن كُتُب التاريخ والدين– ويظهر دورٌ جديد لمريم المجدلية -نناقش ذلك إن شاء الله على مائدة الغداء الأخير-، ذلك الغداء الذي لم يخلده " ليوناردو دافنشي" كما خلد العشاء الأخير.

لكن خلده القرآن إلى يوم القيامة:

(أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76)) المائدة

ذات النـــطاقيـــن:

قصدتُ أن أُشَبِّه مريمَ المجدلية بذات النطاقين هُنا، حتى أتفادى عنوان "قيامة المسيح"، رغم علمي أن مَن تدفعهم العاطفة الحمقاء أولاً ربما يستنكرون التشبيه. هنا لا بد لنا من وقفة تأمل:

المسيح-عليه السلام- رسولٌ لا يتم إسلامنا إلا بالإيمان به كسائر الرسل. ولمّا كان لكلّ نبي حواريون كما نُسِب للنبي-صلى الله عليه وسلم-، فمِن الأدب احترام أصحاب الأنبياء والرسل أجمعين. صحيح أنه لا يوجد دليلٌ نقلي قاطع حتى على أنَّ شخصية مريم المجدلية كانت حقيقية، نسبةً إلى أن الأناجيل جميعًا مجهولة المصدر من ناحية تاريخية، لكن يوجد دليلٌ عقليٌّ ونقليٌّ على أنّ المسيح كانت حوله فئةٌ صالحة لم يوثقها التاريخ المسيحي. تناقضُ الأناجيلِ لا يمنعنا من الافتراض أن بعض ما ورد فيها ربما يقصّ بعضَ الحقيقة، ومن ذلك البعض ربما كانت مريم المجدلية، ولو صدقت الرواية فهي إذن، كانت مِن أقرب النساء إلى رسول الله عيسى ابن مريم كما كانت أسماء بنت أبي بكر في غار ثور.

التسمية هنا للمقارنة بين الأدوار التي لعبتها النسوة في حياة رسل الله -عليهم الصلاة والسلام جميعًا-. السيرة تقصّ علينا أنه لما اختبأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر الصديق "ثاني اثنيْن إذ هُما في الغار"، كانت أسماء بنت أبي بكر "ذات النطاقين" تحضر لهما الطعام سرًا، وتمحو آثارها من الرمال حتى لا يصل أحدٌ من المشركين إليهما.

فلعلّ الله تعالى أراد أيضا أن تكون اللحظات الحرجة التي تجاهلها التاريخ من حياة المسيح -عليه السلام-، لا شاهد عليها إلا النسوة، وعلى رأسهنّ كانت مريم المجدلية! فلو صدقت الرواية، فقد كانت الشاهدَ الثابت الوحيد لحظة وضعِه على الصليب، ولحظة إنزاله وإدخاله غرفة المستشفى الخاصة به (الكهف)، وكانت الشاهد الأول على خروجه حيًا من الكهف، ثم كانت أول مَن لقيه فَجْرَ الأحد. وكانت بذلك كما كانت ذات النطاقين من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، ولا حرج في المقارنة!

آية يونان:

في حوار لهم مع المسيح، يبدو مِن محتواه أن اليهود كانوا يسألون المسيح أن يأتيهم بدليل أو آية أنه لن يموت إنْ حاولوا قتله، فكانت إجابته هي ما يُعرَف بآية يونان "يونس عليه السلام":

فتحْتَ عنوان: الفريسيون يطلبون آية، ورد في إنجيل متّى ما يلي:

{عندئذ أجابه بعض الكتبة والفريسيون، قائلين:" يا معلّم، نرغب في أن نشاهد آية نجربها!" فأجابهم:" جيل شرير خائن يطلب آية، ولن يعطى آية إلا آية يونان النبي. فكما بقي يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، هكذا سيبقى ابن الإنسان في جوف الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال. سيقف أهل نينوى يوم الدينونة مع هذا الجيل ويدينونه، لأنهم تابوا لمّا أنذرهم يونان. وها هنا أعظم من يونان! وستقوم ملكة الجنوب يوم الدينونة مع هذا الجيل تدينه، لأنها جاءت من أقصى الأرض لتسمع حكمة سليمان. وها هنا أعظم من سليمان! } (إنجيل متّى- الإصحاح الثاني عشر: 38- 42)

لو سألنا المسلمين والمسيحيين واليهودَ على امتداد الأرض عن طبيعة يونان في بطن الحوت في تلك الأيام الثلاثة، والليالي الثلاث لأجابوا جميعا أنه كان حيًّا يسبِّح الله، وهذا مغزى آية يونان على لسان المسيح عليه

السلام.

نلاحظ هنا أن المسيح-عليه السلام- لم يتنبأ فقط بأنّه سيتعرض لِما يشبه الموت لكنه لا يموت كما لم يمت يونس بن متّى، ولكنه أيضًا تنبأ بكفر قومه بهذه الآية، مقارنةً بقوم يونس الذين آمنوا به بعد خروجه من جوف الحوت حيًّا وعودته إليهم، وكذلك ضرب لهم مثالاً يؤكد عنادهم وهو أن ملكة سبأ على كبريائها قد آمنت بنبوءة سليمان لمّا رأت منه الآيات، والمسيح أعظم من يونس وأعظم من سليمان لكن قومه كفروا به.

لكن: لمّا كانت الأناجيل قد أجمعت على أن المسيح قد علق على الصليب يوم الجمعة، فوفقًا لآية يونان فإن خروجه (سواءٌ أكان قبلها مع الأحياء أم الأموات) كان من المفترض أن يتم ليلة الثلاثاء – بعد غروب شمس الاثنين – لتتم الأيام والليالي الثلاث.

هنا تسقط آية يونان فجْرَ الأحد، أول أيام الأسبوع حسب اليهود، على يد مريم المجدلية. أو: تبقى آية يونان، وتسقط العقيدة المسيحية في موت وبعث المسيح. فتحْتَ عنوان: "قيامة يسوع من الموت":

1- كتب يوحنا ما يلي:

{وفى **اليوم الأول من الأسبوع**، بكّرت مريم المجدلية إلى قبر يسوع، وكان الظلام ما زال مخيما، فرأت الحَجر قد رُفِع عن باب القبر.فأسرعت وجاءت إلى سمعان بطرس والتلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبه وقالت لهما:" أخذوا **الرب** من القبر، ولا ندرى أين وضعوه!"

فخرج بطرس والتلميذ الآخر و توجها إلى القبر. وكانا يركضان معا. ولكن التلميذ الآخر سبق بطرس فوصل إلى القبر قبْله، وانحنى فرأى الأكفان ملقاة على الأرض، ولكنه لم يدخل. ثم وصل سمعان بطرس في إثره إلى القبر ودخله، فرأى أيضا الأكفان ملقاة على الأرض. والمنديل الذي كان على رأس يسوع وجده ملفوفًا وحده في مكان منفصل عن الأكفان. عند ذلك دخل التلميذ الآخر، الذي كان قد وصل إلى القبر أولا، ورأى فآمن. فإن التلاميذ لم يكونوا حتى ذلك الحين قد فهموا أن الكتاب قد تنبأ بأنه لابد أن يقوم من بين الأموات}

(إنجيل يوحنا- الإصحاح العشرون: 1-9)

اليوم الأول من أيام الأسبوع عند اليهود هو يوم الأحد.

لفظ "الرب" كما ذكرتُ في مداخلات سابقة يحتمل معنى "السيد" أو "المعلم" تمامًا كما هو الحال في العربية.

لكن السؤال الأهم هو: إنْ كان المسيح حقًا قد تنبأ بموته وبعثه بعد موت حقيقي، فإن ذلك يتناقض مع "آية يونان" الذي كان حيًا في بطن الحوت. أيضًا: لماذا أُصيبت مريم المجدلية بالقلق على جثمانه؟ قلقُها هنا لا معنى له إلا أنها كانت تعلم أنه بشرٌ وما زال حيًّا ومجرَّحًا وتحت العلاج، وقد خشيت أن تكون أيادي أعدائه ما زالت متعطشة لمزيد من التعذيب، لكن لا يعقل أن تكون قلقة على إلهٍ قام من موته الافتراضي، ولا على جثة ميت! فقد قالت ذات النطاقين عن ابنها يوم رأته مصلوبًا: أمَا آن لهذا الفارس أن يترجل؟ لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها!

ولنا أن نسأل أيضًا: بماذا آمَن التلميذ؟ نحن مؤمنون أن المسيح-عليه السلام- ما قُتِل وما صُلِب، وما حدث ليس إلا شبهة، وقد شَبّه المسيح حاله في جوف الأرض بحال "يونان" يونس-عليه السلام- الذي ظل في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ حيًّا يسبِّح الله، فهل آمَن التلميذ بالحدث الطبيعي أن الله حفظه من الموت وقد قام معافًى؟ أم آمن بقصة وهميةٍ خارقةٍ لا المسيح تنبأ بها ولا استطاعت الأناجيل إبراز دليل قطعيٍّ عليها؟ في تقديري فإنّ الصيغة البسيطة لهذا الوصف لا تحتمل إلا إيمانه بالواقع البسيط وليس الخرافة البعيدة. ولا بد أن ننتبه إلى أن وصْفَ القبر يشبه غرفة كبيرة منحوتة في الصخر كما سيتضح ذلك لاحقًا.

ومضى يوحنا يصف ما حدث:

تحت عنوان: المسيح يظهر لمريم المجدلية:

{ثم رجع التلميذان إلى بيتهما. أمّا مريم فظلت واقفة في الخارج تبكي عند القبر. وفيما هي تبكي، انحنت إلى القبر. فرأت ملاكيْن بثياب بيض، جالسيْن حيث كان جثمان يسوع موضوعًا، واحدا عند الرأس والآخر عند القدمين. فسألاها: "يا امرأة، لماذا تبكين؟" أجابت: " أخذوا سيدي ولا أدري أين وضعوه". قالت هذا والتفتت إلى الوراء، فرأت يسوع واقفا، ولكنها لم تعلم أنه يسوع. فسألها: " يا امرأة، لماذا تبكين؟ عمَّن تبحثين؟" فظنت أنه

البستاني، فقالت له: " يا سيد، إنْ كنتَ أنت قد أخذته فقل لي أين وضعته لآخذه". فناداها يسوع:" يا مريم!" فالتفتت وهتفت بالعبرية: " ربوني" أي يا معلم. فقال لها:" لا تمسكي بي! فإني لم أصعد بعدُ إلى الأب. بل اذهبي إلى إخوتي و قولي لهم: " إني سأصعد إلى أبي وأبيكم و إلهي وإلهكم!" فرجعتْ مريم المجدلية وبشَّرَت التلاميذ قائلة:" إني رأيت الرّب!" وأخبرتهم بما قال لها.} (إنجيل يوحنا- الإصحاح العشرون: 10- 18)

هنا نحتاج لوقفاتٍ طويلةٍ:

مريم المجدلية شهدت وضْعَ المسيح على الصليب وغيبوبتَه التي ظنها بعضهم موتًا، ثم تكفينه مِن قِبَل يوسف ووضعه في الكهف. لكن لم يسجل أيٌّ مِن الأناجيل أنها بكت!

لماذا؟ لا تبرير إلا لأنها كانت تعلم أنه رسولٌ حيٌّ وصابرٌ والله ناصره لا محالة. لكن لمّا غابت عن مسرح الأحداث، ثم عادت فلم تجده، شعرت بالذنب أنها تركته لمزيد من التعذيب بعيدًا عن عينيها، هذا شعور طبيعيٌّ. إذن، هي لم تبكِ عند صلبه المزعوم لأنها كانت صابرة معه، لكنها بكت على نفسها عندما ظنت أنها خذلته.

ثم: لماذا تسأل البستاني: "أين وضعته لآخذه"؟ أتأخذ جثة ميت؟ مريم هنا تسأل عن شخص رسول الله المجرَّح لتأخذه للعلاج عندها أو في مكانٍ آمنٍ، إذ لا يعقل أن تأخذ جثة ميتٍ، نبيًا كان أم ضالاً!

نلاحظ أيضًا أن يوحنا قد تكفل بشرح لفظ "ربوني" وتعني يا معلم وليس يا رب العالمين ! ولنا وقفة أخرى مع المسيح:

لماذا طلب منها ألا تمسك به؟ لو صدقت الرواية، فالمسيح كان يعلم أن مريم تؤمن أنه سيُرفع عن الأرض حيًا. ولكن لأنها ما كان لها أن تعلم متَى ولا كيف يتم الرفع، فقد خشي المسيح أن تظن مريم أن مَن يقف أمامها ليس إلا روحًا أو خيالاً (لأنه لا أحد يعرف كيف ستكون هيئة المسيح عند الرفع)، لكن لمَّا كان هو نفسه الرجل الحي، فقد طلب منها ألا تمسكه لأنه ما زال هو بلحمه ودمه وأن جسده مجرَّح ويؤلمه، لذلك خشي أن تمسّ جراحه بحُسن نيةٍ فيزداد ألمه!

وأخيرًا نلاحظ تأكيدَ المسيح على أنّ الأب أباهم أيضًا (مهما كان مدلول اللفظ) وأنه إلهه وإلههم! أما قصة الملكيْن فسيشرحها لنا لوقا!

2- قصة القيامة حسب لوقا:

{ولكن في اليوم الأول من الأسبوع، باكرا جدا، جئن إلى القبر حاملاتٍ الحنوطَ الذي هيأنه. فوجدن أن الحَجر قد دُحرج عن القبر. و لكن لمّا دخلن لم يجدن جثمان الرب يسوع. وفيما هُن متحيرات في ذلك، إذا رجلان بثياب براقة قد وقفا بجانبهن. فتمكن منهن الخوف ونكسن وجوههن إلى الأرض. عندئذ قال لهن الرجلان:" لماذا تبحثن عن الحي بين الأموات؟ إنه ليس هنا، ولكنه قد قام! اذكرن ما كلّمكن به إذ كان بعدُ في الجليل فقال:" إن ابن الإنسان لا بد أن يسلم إلى أيدي أناس خاطئين، فيصلب وفي اليوم الثالث يقوم". و إذ رجعن من القبر، أخبرن الأحد عشر والآخرين كلهم بهذه الأمور جميعا. وكانت اللواتي أخبرن الرسل بذلك هنّ مريم المجدلية، ويونا، ومريم أم يعقوب، والأخريات اللواتي ذهبن معهن. إلا أن بطرس قام وركض إلى القبر، وإذ انحنى رأى الأكفان الملفوفة وحدَها، ثم مضى متعجبا مما حدث.}

(إنجيل لوقا- الإصحاح الرابع والعشرون: 1- 12)

قبل المُضي قُدُمًا، أنقلُ النصَّ الإنجليزي المقابل في موضوع الحنوط، من الكتاب ذاته الذي أنقل منه وهو يحتوي على عربي وإنجليزي:

(On the first day of the week, very early in the morning, the women took **the spices** they had prepared and went to the tomb)

Luke: 24: 1---(King James' Bible 1611)

كلمة (سبايسس) الإنجليزية ترجمتها الحرفية هي: "توابل" أو "بهارات" أو "أعشاب طبيعية"، لكنها لا تعني أبدًا حنوط الميت!

الكتاب المقدس الإنجليزي كُتِب سنة 1611 وهو المرجع الأساسي للكنيسة البريطانية الإنجيلية! أمّا ما يقابله

بالعربية فقد تُرجِم حديثًا إليها. ويبدو أن المترجِم وَجد أن ترجمة اللفظ الإنجليزي إلى "توابل" لا معنى له حسب معتقده في أن المسيح كان ميتًا وأن مريم إنما جاءت لتحنيطه، فتكرم بالتحريف العربي! لكن لفظ " توابل" لها معنًى مهمٌ إذا كان المسيح حيًّا لأن الأعشاب والملح هُما الدواء المتعارَف عليه للجروح.

ولنا أن نسأل:

لو كانت مريم على العقيدة المسيحية اليوم، أي تَعتقد أن المسيح كان حقيقة ميتًا حينَها، فلماذا كانت تحتاج لتحنيطه؟ ببساطة لأنها كان يجب أن تعلم أن موتَه مؤقتٌ بثلاثة أيام وثلاث ليال! أمّا لو كانت على عقيدة الحاكم الروماني الذي ما كان يصدق أن الموتى يبعثون، فما كان لها أيضًا أن تحنط ميتًا لن يقوم إلى يوم القيامة بعد أن كُفّن ودُفِن قبل يوم وليلتيْن، إذن، ماذا كانت ستفعل بالتوابل؟

الواقع: أنها كانت تتصرف وفق الوصف القرآني في أنه كان حيًّا، لكنه عُذّب وجُرح وما زال يحتاج لمزيد من العلاج، وما تلك الأعشاب إلا العلاج المتعارف عليه للجروح حينها!

لمّا دخلن: تفيد أنه كان في كهفٍ كبيرٍ وليس "لحدًا" ضيقًا لا يتسع إلا لجثة الميت.

رَجُلان بثيابٍ براقة: هؤلاء ربما كانوا جنودَ الحاكم الروماني، فهوّلَ إنجيلُ يوحنا القصة وجعل منهما "ملكيْن"، كما فعل إنجيل متى أيضًا!

وقفًا بجانبهن: تأكيد على أن الكهف يتسع لوقوف أربعة أشخاص على الأقل. ولنا أن نتوقف مرة أخرى عند سؤال الحرس :

" لماذا تبحثن عن الحي بين الأموات؟ إنّه ليس هنا، ولكنه قد قام!

لو كان حقيقةً مات، فطبيعي أنهن يبحثن عنه بين الأموات ما لم يثبت لهنّ العكس! لكن لمّا كان الرجلان من الحرس الروماني، وربما عرفا مريم المجدلية، فكان السؤال البديهيّ البسيط: "موش أنت أصلا عارفة إنه حي؟ ليه تبحثي عنه بين الأموات؟ لقد انتهت المسرحية يا مريم وطابت جراحه وقام...!!

ختامًا: بطرس فقط تعجب! هذه ظاهرة غريبة جدًا! كم منكم رأى ميتًا يمشي؟ وكيف يكون شعورنا لو دخل أحدنا المشرحة أو المقابر ووجد أحد القبور قد انفتح وخرج مَن فيه ،يمشي فقط متعجبًا؟ سبحان الله!

الواقع أن بطرس ببساطة تعجب من قدرة الله ومن خذلانهم له، القصة لا تحمل أي نبرةِ ظاهرةٍ خارقةٍ للمألوف، ناهيك عن انفعال شخص أصيب بصاعقةِ أنَّ مَن كان ميتًا قد بُعث!

نلاحظ أيضا تناقضَ لوقا مع يوحنا في بداية القصة أن مريم ما رجعت وأتت ببطرس والتلميذ الذي يحبه!

3- أما مرقس فقد روى الآتي:

{ولمّا انتهى السبت، اشترت مريم المجدلية وأم يعقوب وسالومة طيوبا عطرية ليأتين ويدهنه. وفى اليوم الأول من الأسبوع، أتين إلى القبر باكرا جدا مع طلوع الشمس. وكنّ يقلن بعضهن لبعض:" مَن يدحرج لنا الحجر من على باب القبر؟" لكنهنّ تطلعن فرأين أن الحجر قد دحرج، مع أنه كان كبيرا جدا. وإذ دخلن القبر، رأين في الجهة اليمنى شابا جالسا، لابسا ثوبًا أبيض، فتملّكَهُنّ الخوف. فقال لهن:" لا تخفن. أنتن تبحثن عن يسوع الناصري الذي صلب. إنه قام! ليس هو هنا! ها هو المكان الذى كان موضوعا فيه. لكن اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس، إنه سيسبقكم إلى الجليل، هناك ترونه كما قال لكم". فخرجن هارباتٍ من القبر، وقد استولت عليهن الرعدة والدهشة الشديدة. ولم يقلن شيئا لأحد لأنهن كن خائفات} (إنجيل مرقس- الإصحاح السادس عشر: 1-8)

هنا أذكر فقط أن مرقس أيضا استعمل لفظ (سبايسس) بالإنجليزية وتَرَجمه المترجِم إلى "طيوبا عطرية" ليتماشى مع معتقده!

وأيضًا يصف أنهنّ دخلن القبر: أيْ أنه غرفة تتسع للدخول!

وأيضًا يختلف مع لوقا في أن الحرس كان شابًا واحدًا – ومع يوحنا في أنهما لم يكونا ملكيْن! ويختلف مع يوحنا في أنهن لم يرجعن فورًا ويستدعين بطرس والتلميذ الذي يحبه! أما الخوف الذي تملكهن حينما رأين الشاب، الذي

هو غالبًا من الحرس الروماني، فطبيعي أن يخفن من أن يُفتَضح أمرُ تعاونهن مع المسيح، لكن قصة الدهشة والرعدة والخوف الأخيرة فغالبًا تصف حالة الانفعال وقد ذهبن مسرعاتٍ لإخبار الحواريين حسب الأناجيل الأخرى رغم أن مرقس هنا نفى أنهن أخبرن أحدًا.

وتحت عنوان "يسوع يظهر لمريم المجدلية" مضى مرقس:

{وبعدما قام يسوع باكرا في اليوم الأول من الأسبوع، ظهر أولا لمريم المجدلية التي كان قد طرد منها سبعة شياطين. فذهبت وبشَّرت الذين كانوا معه، وقد كانوا ينوحون ويبكون. فلما سمع هؤلاء أنه حي وأنها شاهدته لم يصدقوا.} (إنجيل مرقس- الإصحاح السادس عشر: 9-11)

كونُهم كانوا ينوحون ويبكون فقد تفرد مرقس بهذه الرواية..لكن وصْف " أنه حي" يختلف تمامًا عن وصْف أنه "بُعث من الموت". "أنه حيّ" تعنى أنه ما زال حيًّا ولم يمُت، ولكن لمّا كانوا هُم على وهْمٍ أنه قُتِل، فلم يصدقوا أنه نَجا حقيقةً من الموت! وسنرى كيف حسمهم المسيح في شكوكهم هذه تحت عنوان "الغداء الأخير" لاحقًا -إن شاء الله-.

4.أمّا متَّى فكان في قصته مزيد من التهويل:

{وفى اليوم الأول من الأسبوع، بعد انتهاء السبت، ذهبت مريم المجدلية ومريم الأخرى تتفقدان القبر. فإذا زلزال عنيف قد حدث، لأن ملاكا من عند الرب نزل من السماء، وجاء فدحرج الحجر وجلس عليه. وكان منظر الملاك كالبرق، وثوبه أبيض كالثلج. ولما رآه الجنود الذين كانوا يحرسون القبر، أصابهم الذعر وصاروا كأنهم موتى. فطمأن الملاك المرأتيْن قائلا:" لا تخافا، فأنا أعلم أنكما تبحثان عن يسوع الذي صلب. إنه ليس هنا، فقد قام، كما قال. تعاليا وانظرا المكان الذي كان موضوعا فيه. واذهبا بسرعة وأخبرا تلاميذه أنه قد قام من بين الأموات، وها هو يسبقكم إلى الجليل، هناك ترونه. **ها أنا قد أخبرتكما!**" فانطلقت المرأتان من القبر مسرعتيْن، وقد استولى عليهما خوف شديد وفرح عظيم، وركضتا إلى التلاميذ تحملان البُشرى.

و فيما هُما منطلقتان لتبشِّرا التلاميذ، إذا يسوع نفسه قد التقاهما وقال:" "سلام!" فتقدمتا وأمسكتا بقدميه، وسجدتا له. فقال لهما يسوع:" لا تخافا! اذهبا وقولا لإخوتي أن يوافوني إلى الجليل، وهناك يرونني!"} (إنجيل متّى- الإصحاح الثامن والعشرون: 1-10)

نلاحظ هنا أن إنجيل متّى قد أفصح عن وجود الجنود الرومان، لكنه أضاف وجود ملك واحد وأن الجنود أصبحوا كالموتى من الخوف. يبدو من هذا الخلط أن الملك الأبيض لم يكن إلا كبير الحرس الروماني، أمّا بقية الجنود فربما لم يكن لهم عِلم بتفاصيل المؤامرة لذلك تملكهم الرعب من افتضاح الأمر. أيضا نلاحظ أن إنجيل متّى قد وصَف أنهما أمسكتا قدميْه، وهذا ربما لأن باقي جسده كان مجرّحًا. لكن هذه التفاصيل المبعثرة ومتناقضة في دقة الوصف، لا تدل إلا على أن القصة وصلت إلى كتاب الأناجيل مضافا إليها تهويلات مختلفة، كلٌّ رَوى حسب هواه ووهمه!

ولا بد من التوقف عند قول مَن وصفه إنجيل متّى بأنه ملاك: " **ها أنا قد أخبرتكما!**". هذا التصريح من كبير الحرس الروماني "وليس الملاك" لا يدل إلا على أنه ينفذ أوامرَ عُليا ويبرئ ذمته هنا أنه قد بلغ الوصية لمريم المجدلية.

ومضى متّى متفردا ليضيف بُعدًا آخرَ للقصة يؤكد أن الجنود لم يكن لهم عِلم بتفاصيل المؤامرة. فتحْتَ عنوان "تضليل اليهود" كَتب:

{وبينما كانت المرأتان ذاهبتين، إذا بعض الحراس قد ذهبوا إلى المدينة و أخبروا رؤساء الكهنة بما جرى. فاجتمع رؤساء الكهنة والشيوخ وتشاوروا في الأمر. ثم رشوا الجنود بمال كثير، وقالوا لهم:" قولوا: إن تلاميذه جاءوا ليلا وسرقوه ونحن نائمون! فإذا بلغ الخبر الحاكم، فإننا ندافع عنكم، فتكونون في مأمن من أي سوء". فأخذ الجنود المالَ، وعملوا كما لُقِّنوا. وقد انتشرت هذه الإشاعة بين اليهود إلى اليوم} (إنجيل متّى- الإصحاح الثامن والعشرون: 11-15)

ولنا أن نسأل سؤالاً مشروعًا هنا: لماذا تمت رشوة الجنود لإشاعة الأكذوبة؟ وكيف ضمن الكهنةُ حمايتَهم من

الحاكم؟ هل لأنهم على تنسيق معه وهو الذي أخرجه بعد أن تم علاجه وسئِم هذه الخرافة التي لم تكن جزءًا من عقيدته ولا مصلحة له فيها؟

ثم: لو صدَّق شعبُ اليهودِ الإشاعة، فمِن المفترَض أن يصدقوا أن التلاميذ قد سرقوا "الجثة" إذن، أين ذهبت الجثة؟ أمَا كان الأسهل لليهود البحث عن الجثة وإحضارها بدلاً من رشوة الجنود الرومان لإشاعة الأكذوبة؟ كونُ الجنودِ أخذوا الرشوة وأطلقوا الإشاعة لا يعنى إلا أنهم جميعا كانوا يتحدثون عن شخص حيٍّ معتقلٍ وهَرَب، وليس جثة سُرقت! مما سبق يمكننا أن نخرج ببعض النقاط المنطقية :

أولاً: تناقضات الأناجيل في الكثير من التفاصيل تحتمل أن تكون كلها مخطئة، لكن لا يمكن أن تكون كلها صحيحة.

ثانيًا: وفقًا لكل الأناجيل فإن "مريم المجدلية" كانت هي الشاهد الوحيد على الحقيقة.

ثالثًا: القبر المزعوم كان غرفة كبيرة منحوتة في الصخر تتسع لوقوف أربعة أشخاص على الأقل.

رابعًا: مريم المجدلية كانت تُعِد لمواصلة العلاج بالأعشاب الطبيعية، بعد أن تكفل يوسف بتطهير جروحه بالحامض بعد إنزاله من الصليب كما رأينا سابقًا.

خامسًا: الجنود الرومان كانوا تحت أوامر (بيلاطس) إلى النهاية يحرسون المسيحَ ويتعاونون مع المقربين إليه.

سادسًا: كل الأناجيل وصَفت القصة بألفاظ تحتمل أنه كان حيًّا تحت العلاج، أكثر من كونه ميتًا وبُعِث.

سابعًا: لأن قصة البعث من الموت قد اُختُلِقتْ اختلاقًا، فقد تناقضت الروايات فيها تناقضًا كبيرًا.

بعد أن وصل الخبر للحواريين، كانوا في حيْرة من أمرهم، نسبة لكثرة التناقضات والإشاعات، لكن كانت حادثة "الغداء الأخير" هي قاصمة الظهر في أن المسيح لم يُصلب ولم يَمُت، ومن ثم لم يُبعَث وإنما ظلّ كما هو بدمه ولحمه إلى أن رُفِع.

الغـــداء الأخيـــــــر:

اُشتُهر مفهوم "العشاء الأخير" لأنه اُتفِقَ على أنه كان بمثابة الدرس الجامع الأخير للتلاميذ قبْلَ صلب المسيح، لكن لم يُعرَف أن تَحدَّث علماءُ النصارى عن "الغداء الأخير". و حتى أرتِّب الأحداثَ ترتيبًا دقيقًا كيفما روتها الأناجيل فقد رأيتُ تسليطَ الضوء على هذه القصة.

العشاء الأخير تم تحويله "في الطريق إلى دمشق" إلى أسطورة ترسِّخ عقيدة الثالوث المختلَقة، وكون المسيح ابن الله وأنه مات من أجل خلاص البشرية. أمّا "الغداء الأخير" فهو الواقعة الموثقة في الأناجيل – على ضعف رواياتها– التي تؤكد أن المسيح عيسى بن مريم كان عبدَ الله ورسوله وأنه ما قُتِل ولا صُلِب، ولكنه شُبِّه لهم. لكن لمّا طغت عقيدة عبادة المسيح من دون الله طغت قصة "العشاء الأخير" وتم تجاهل "الغداء الأخير" على ما فيه من دليل دامغ يدحض ما أُضِيف لتعاليم المسيح -عليه السلام-.

"الغداء الأخير" يوثق لحادثة لقاء المسيح بتلاميذه قبْل أيامٍ مِن رفعه. وقد ورد في الأناجيل تحت عنوان ظهور المسيح لتلاميذه:

تحت عنوان "ظهور المسيح لتلاميذه" كَتَب إنجيل يوحنا:

{ولمّا حلّ مساء ذلك اليوم، وهو اليوم الأول من الأسبوع، كان التلاميذ مجتمعين في بيتٍ قد أغلقوا أبوابه خوفًا من اليهود، وإذ يسوع يحضر وسطهم قائلا:" سلام لكم!" وإذ قال هذا، أراهم يديه وجنبه، ففرح التلاميذ إذ أبصروا الرب. فقال لهم يسوع :" سلام لكم. كما أن الأب أرسلني، أرسلكم أنا". قال هذا ونفخ فيهم وقال لهم:" اقبَلوا الروحَ القدس. من غفرتم خطاياه غـُفِـرت لهم، ومن أمسكتم خطاياهم أمسكت!".} (إنجيل يوحنا- الإصحاح العشرون: 19-23)

اليوم الأول من الأسبوع لدى اليهود هو يوم الأحد. وأتباع المسيح كانوا يهودًا مِن حيث العنصر والعقيدة إذ إن المسيحية لم تُصنَع بعد.

نلاحظ هنا أن المسيح أراهم يديْه وجنبَه، فماذا أراهم في يديه وجنبه؟ ولماذا في تلك اللحظة فقط أراهم يديه وجنبه؟

نلاحظ أيضًا أنه، وإلى آخر أيامه يحدِّثهم كرسول مرسَلٍ مِن عند الله، ويرسلهم كرسل من رسول الله إلى مَن كانت رسالته موجهة إليهم.

ويمضي يوحنا: تحت عنوان: لقاء المسيح بتوما:

{ولكن توما أحد التلاميذ الاثني عشر، وهو المعروف بالتوأم، لم يكن مع التلاميذ، حين حضر يسوع. فقال له التلاميذ الآخرون: " إننا رأينا الرب!" فأجاب: " إن كنت لا أرى المسامير في يديه، وأضع إصبعِي في مكان المسامير، وأضع يدي في جنبه، فلا أؤمن!"}

مِن هنا نفهم لماذا أراهم المسيح يديه وجنبه: كان يريهم آثارَ الجراح والمسامير ليؤكد لهم أنه هو نفسه ذات الرجل الذي تركوه بعد أن اعتقله الرومان فهربوا جميعًا يوم صاح الديك، ثم صدَّقوا إشاعة صلبه فظنوا أنه قد مات، ما زال حيًّا بجراحه البيِّنة على جسده. وهذا ما لم يصدقه توما وجعله شرطًا لإيمانه. وقد فهمه المسيح وأراه ما أراد :

{وبعد ثمانية أيام، إذ كان التلاميذ مجتمعين ثانية داخل البيت وتوما معهم، حضر يسوع والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط وقال: " سلام لكم!" ثم قال لتوما: " هاتِ إصبَعَكَ إلى هنا، وانظر يديّ، وهات يدك وضعها في جنبي. ولا تكن غير مؤمن بل كن مؤمنًا!" فهتف توما: "ربي وإلهي!". فقال له يسوع:" ألأنك رأيتني آمنتَ؟ طوبى للذين يؤمنون دون أن يروا}

(إنجيل يوحنا- الإصحاح العشرون: 24-29)

اللهم آمنا دون أن نرى! ولكن بماذا؟

هل كان توما مختصًا في تحسس الأشباح والأرواح؟

أوَ لم يشترط توما أن يرى ويتحسس أثر المسامير في جسد المسيح ويتحسس جنبه المجرَّح؟ هل كان توما يود التأكد من أن مَن يراه "شبح" بُعِث من الموت؟ أم أنه الرجل نفسه الذي ظنوه قد مات يوم فروا جميعًا؟ ها هو نفسه بعظمه ولحمه حيٌّ أمامهم وعليه آثار الجروح ما زالت محسوسة ومرئية؟

لا بد أن أعلّق على: (ربي وإلهي!) التي وردت متبوعة بعلامة تعجب! بعض المسيحيين في الغرب اتخذوها دليلاً على أن توما آمن أن المسيحَ ربُّه وإلهه، لكن هذا جهلٌ في فهْم الحوار. توما هنا فقط يُكبِّر اللهَ تعبيرًا عن دهشته كما يفعل أي إنسان حينما يرى أمرًا مُذهلا، لكنه لا يعني أن مِن أمامِه هو ربُّه وإلهه.

ومضى يوحنا يصف لقاءَ المسيح الثالث مع التلاميذ:

{بعد ذلك أظهَر يسوعُ نفسَه للتلاميذ مرة أخرى عند شاطئ بحيرة طبرية. وقد أظهر نفسه هكذا: اجتمع سمعان بطرس وتوما، المعروف بالتوأم ونثنائيل، وهو مِن قانا بمنطقة الجليل، وابنا زبدي، وتلميذان آخران. فقال لهما سمعان بطرس:" أنا ذاهب للصيد!" فقالوا: " ونحن أيضا نذهب معك". فذهبوا وركبوا القارب، و لكنهم لم يصيدوا شيئا في تلك الليلة. ولما طلع الفجر، وقف يسوع على الشاطئ، ولكن التلاميذ لم يعرفوا أنه يسوع. فسألهم يسوع:" يا فتيان، أما عندكم سمك؟" أجابوه: "لا!" فقال لهم:" ألقوا الشبكة إلى يمين القارب، تجدوا" فألقوها، ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها لكثرة ما فيها من السمك! فقال التلميذ الذي كان يسوع يحبه، لبطرس: " إنه الرّب!" وكان بطرس عريانا، فما إن سمع أن ذلك هو الرّب، حتى تستر بردائه، وألقى نفسه في الماء سابحًا. وجاء باقي التلاميذ بالقارب وهُم يجرون شبكة السمك، إذ كانوا غير بعيدين عن الشاطئ إلا نحوَ مئتي ذراع. فلما نزلوا إلى

الشاطئ، رأوا هناك جمرا وسمكا موضوعا عليه، وخبزاَ. فقال لهم يسوع:" هاتوا من السمك الذي صدتموه الآن!". فصعد سمعان بطرس إلى القارب وجذب الشبكة إلى البر، فإذا فيها مئة وثلاث وخمسون سمكة من السمك الكبير، ومع هذه الكثرة لم تتمزق الشبكة. وقال يسوع للتلاميذ:" تعالوا كُلوا". ولم يجرؤ أحد من التلاميذ أن يسأله: مَن أنت؟ لأنهم عرفوا أنّه الربّ. ثم تقدم يسوع وأخذ الخبز وناولهم، وكذلك السمك. هذه هي المرة الثالثة التي ظهر فيها يسوع نفسه لتلاميذه بعد ما قام من الأموات} (إنجيل يوحنا- الإصحاح الحادي والعشرون: 14-1)

هنا نلاحظ ملاحظاتٍ جدُّ غريبة: فكاتِب الرواية كان مِن الدقة والحرص في روايته أن يذكّرنا أن بطرس كان عريانًا، وأنّ السمك كان مئة وثلاث وخمسون سمكة، وأنّ حجمه من الحجم الكبير، وأن الشبكة لم تتمزق، لكنه نسي أن يخبرنا هل أكل المسيح معهم أم لا!

لو أكل، فهو إنّما كان يخبرهم أنه بَشَر لم يتغير في بشريته بعدُ، وأغلب الظن أن هذا هو كل مغزى القصة من دعوته للصيد وإحضار السمك، المسيح كان رسولاً وليس سمّاكًا، والحكمة من القصة كانت "دحض شُبهة" موته و "إثبات حقيقة" أنه ما زال هو نفسه المعلم الذي عرفوه، فهل نسي كاتبُ كِتابِ يوحنا أن يخبرنا هل أكل المسيح السمك؟ أم أنهّ أكل، لكن هذا الجزء حُذف بعد أن تم تأليه المسيح؟ هذه الأسئلة غالبًا ما يجيب عليها الاختلاف بين الأناجيل لأن لوقا كان له رأيٌ آخر. وفي تقديري فإنّ رواية إنجيل لوقا كانت قاصمة الظهر، لكن حتى نفهمها أقدِّم لها بِمَثَليْن:

المَثَل الأول: تَخَيَّلْ أن سفينة غرقت أو طائرة سقطت في المحيط، واعتُبر كل مَن فيها في عِداد الموتى، فلو كان لك مَن تحب مِن ضمن الركاب، حتمًا سيظل الأمل موجودًا لسنوات، إنْ لم يكن إلى آخر العمر، أن مَن تحب قد نَجا وسبح إلى جزيرة صغيرة وعاش إلى أن تأتي سفينة عابرة تأخذه إلى البَر، فإنْ ظَهَر مَن كان في عداد الأموات (لكن لا يقين على موته) وطَرَق بابَ منزلكم فستُصاب بالغِبطة وتنطلق زغاريد الفرح، لماذا؟ لأن العقل الذي لم يَقبَل احتمال الموت نسبة لغياب اليقين في موته سيفْهَمُ الحادثَ على طبيعته من غير تعقيد، أي أن مَن تحب قد نَجا بأعجوبة وها هو ذا يعود!

المَثَل الثاني: تَخَيَّلْ أن حبيبًا لك قد مات يقينًا، وغسَّلتَه وكفَّنته ودَفنتَه وبكيتَ عليه أيامًا وأسابيعَ وشهورًا، ثم فجأة طَرَق بابكم ووجدته أمامك، كيف تتفاعل مع الحدث؟ بالتأكيد ستصاب بالذعر والرعب مهما كان حبك للميت، ومهما كان حزنك على فراقه، لماذا؟ لأن العقل الذي تيقن من موت الحبيب، لا يمكنه أن يَقبَل فكرة عودة الموتى، إلا في صورة أشباح،، وكل البشر على امتداد التاريخ يصابون بالرعب من أيّة حركة غريبة في المقابر أو المشرحة.

في المَثَل الأول: لم يكن الموت يقينًا، لذلك يكون الفرح حينما يثبت العكس، ف المَثَل الثاني كان الموت يقينًا، لذلك يكون الرعب إذا خرج الموتى من قبورهم.

الآن نرى كيف روى لوقا ذلك اللقاء:

{وفيما هُما يتكلمان بذلك، وقف يسوع نفسه في وسطهم، وقال لهم:" سلام لكم!" ولكنهم، لذعرهم وخوفهم، توهموا أنهم يرون شبحاَ. فقال لهم:" ما بالكم مضطربون؟ ولماذا تنبعث الشكوك في قلوبكم؟ انظروا يدي وقدميَّ فأنا هو بنفسي. المسوني وتحققوا، فإن الشبح ليس له لحم أو عظام كما ترون لي". و إذ قال ذلك، أراهم يديْه وقدميه. وإذ ما زالوا غير مصدقين من الفرح ومتعجبين، قال لهم:" **أعندكم هنا ما يؤكَل؟**" فناولوه قطعة سمك مشوي. **فأخذها أمامهم وأكل**} (إنجيل لوقا- الإصحاح الرابع والعشرون: 36- 43)

مِن هنا نفهم الآتي:

أولاً: ذعرهم وخوفهم: يدل على أنهم كانوا أقربَ لتصديق قصة موته مِن نجاته.

ثانيًا: توهموا أنهم يرون شبحًا: دليل على أن عقولهم لم تَقبَل فكرة عودة الميت إلى الحياة إلا في صورة شبح

مرعبٍ، مهما كان حبهم له!

ثالثًا: المسيح عَلِم أنهم كانوا يشكون في موته (شُبِّه لهم موته).

رابعًا: أكد لهم المسيح أنه هو نفسه بدمه ولحمه وعظمه لينفي لهم أنه شبح، أيْ ما قام مِن موت.

خامسًا: أصابهم الفرح والعجب، مِمَّ؟ هل لأنهم تأكدوا أنه شبح، أم لأنهم تأكدوا أنه ما مات يقينًا، وإنما ظلّ حيًّا حينما ظنوه قد مات!

سادسًا: كونُه أكل السمك أمامهم لا يدل على أنه كان جائعًا، وإنما للمزيد من التأكيد أنه ما زال البشريَّ نفسَه الذي عرفوه لأن الأشباح لا تأكل سمكًا!

ومضى المسيح يشرح لهم:

{ثم قال لهم: " هذا هو الكلام الذي كلمتكم به و أنا ما زلت بينكم: أنه لا بد أن يتم كل ما كُتب عني في شريعة موسى وكُتُبِ الأنبياء والمزامير". ثم فتح أذهانَهم ليتفهموا الكُتُب، وقال لهم:" هكذا قد كُتُب، وهكذا كان لا بد أن يتألم المسيح ويقوم مِن بين الأموات في اليوم الثالث. وأن يُـبَشَّر باسمه بالتوبة وغفران الخطايا في جميع الأمم انطلاقا من أورشليم. وأنتم شهودٌ على هذه الأمور. وها أنا سأرسل إليكم ما وعَد به أبي. ولكن أقيموا في المدينة حتى تُلبَسوا القوة من الأعالي!"} (إنجيل لوقا- الإصحاح الرابع والعشرون: 44-49)

نلاحظ أنه قال: "وأنا ما زلت بينكم"، وليس عندما كنت حيًّا، لأن الذي حدث فقط هو أنهم فرّوا وتركوه يوم صاح الديك، ثم توهموا موتَه وصلبَ جثته. وأيضًا وصف أن ما كُتِب في الكتب السماوية السابقة أن المسيح فقط سيتألم ويوضَع جسده المجرّح **بين** الأموات..لكنه ما كان **من** الأموات!

وأخيرًا نلاحظ أنه بعثهم إلى جميع الأمم – أسباط بني إسرائيل – كرسُلٍ مِن عند رسول الله.

هنا أذكر: حينما نقرأ قصصَ التاريخ لا بد أن نقرأها في إطار الزمان الذي وقعت فيه؛ فكما فهمنا قصص الإنسان الأول في "نظرية آذان الأنعام" وفقًا للواقع الزمني حينذاك، فإن الحواريين هنا كانوا في زمنٍ سابقٍ لظهور عقيدة موت وبعث المسيح من أجل خلاص البشرية. تعامُلُهم مع شُبهة موته كان تعاملَ بَشرٍ عادي، يحِب سيدَه ومعلّمَه لكنه لا يرى فيه إلا البشرية، لذلك لمّا شُبِّه لهم أنه مات، أصابهم الخوف أولاً حينما رأوه فظنوه شبحًا، وما كان لهم أن يظنوا أنه بُعِث من أجل خلاص الناس، لأن هذا المعتقَد لم يكن قد اختُلِـقَ بعدُ. لذلك، ولذلك أيضًا كان توضيح المسيح الدقيق لحقيقة نجاته من الموت الذي لم يكن لهم عليه يقين، وأكد لهم أنه ما زال هو بأن أكل معهم السمك.، ولذلك كان أخيرًا فرحُهم وعجبهم من قدرة الله عندما صحح المسيحُ سوءَ ظنهم.

أمّا مرقس فقصته مختلفةٌ تمامًا. فتحْتَ عنوان: "يسوع يظهر لتلاميذه" كتب مرقس الآتي:

{وبعد ذلك ظهر بهيئة أخرى لاثنيْن منهم وهُما سائران منطلقان إلى إحدى القُرى. فذهبا وبشَّرا الباقين، فلم يصدقوهما أيضاً} (إنجيل مرقس- الإصحاح السادس عشر: 12-13)

نلاحظ هنا أن مرقس لم يوثّق أيَّ نوع من الذعر أو الشك أو العجب، ولكن عدم التصديق أمرٌ طبيعيٌّ لأن القلب لا يطمئن إلا إذا رأى:

{أخيرا ظهر للأحد عشر تلميذا فيما كانوا متكئين، ووبخهم على عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم، لأنهم لم يصدقوا الذين شاهدوه بعد قيامته. وقال لهم: " اذهبوا إلى العالم أجمع، وبشروا الخليقة بالإنجيل: مَن آمن وتعمَّد، خلص، ومَن لم يؤمن فسوف يُدان. وأولئك الذين آمنوا، تلازمهم هذه الآيات: باسمي يَطردون الشياطين ويتكلمون بلغات جديدة عليهم، ويقبضون على الحيات، وإنْ شربوا شرابا قاتلاً لا يتأذون البتة، ويضعون أيديهم على المرضى فيتعافون"}

(إنجيل مرقس- الإصحاح السادس عشر: 14-18)

نلاحظ أنّ مرقس اختَصَر القصة كثيرًا جدًا وحذف الغداء الأخير، ثم أضاف شيئًا جديدًا وخطيرًا: وهو أنّه نَسب إلى المسيح-عليه السلام- عالمية دعوتِه ونَشر الإنجيل على كل الخليقة.

لو قارنّا ذلك بما وصفه لوقا، نلاحظ أن لوقا نَسب إلى المسيح: (وان يـُبـَشَّر باسمه بالتوبة وغفران الخطايا في جميع الأمم انطلاقا من أورشليم)

وجميع الأمم في عُرف اليهود تعني جميعَ أسباط بني إسرائيل، لكنها لا تعني العالمَ أجمع، ولا تعني كلَّ الخليقة كما زعم مرقس!

هذه ملاحظة، لكن شَهد شاهدٌ مِن أهله أنّ الإصحاح السادس عشر في إنجيل مرقس الأصلي كان قد انتهى في النصّ رقم 10 وأن النصوص من 11 إلى 18 تمت إضافتُها لاحقًا في العصر الرومانيّ. فقد صدر سنة 1976 في الولايات المتحدة إنجيلٌ ينتهي بالنص رقم عشرة، وبعده أُضيفت هذه الجملة:

(Some manuscripts and ancient translations have this shorter ending in the Gospel, in addition to the longer ending "verses 9-20")

Good News Bible 1976

وفي سنة 1995 صدر إنجيلٌ آخر يؤكد هذا الاعتراف:

(The most reliable early manuscripts and other ancient witnesses do not have Mark 16: 9-20)

The New International Version (RSV) 1995

لا يهم كم مِن حكماء النصارى يعترف بعدم صحة الأناجيل حرفيًا عمّن كتبها أول مرة، فالحقيقة واضحة. لكن ما يهم أنه في كل الأناجيل مجتمعة لم يُنسَب إلى المسيح أنه أمَرَ تلاميذه أن ينشروا الإنجيل على كل العالم، ويبشروا به كل الخليقة، بهذه الألفاظ، إلا هنا في نهاية إنجيل مرقس الذي ثبت تزويره في العصر الروماني، هذه الاعترافات لم تُشِر بصراحة إلى الفاعل أو الحقبة الزمنية التي أضيفت فيها هذه الإضافات إلى إنجيل مرقس، لكن مَن يهتم بمقارنة الأديان يعلم أن هناك صحائفَ مَا قبل العصر الرومانيّ وما بعده. وهذه الإشارة توجه الاتهامَ إلى الرومان، وهذه يؤكده اعترافٌ آخر صريحٌ في إضافة نصٍ آخر يمثل الفارقَ العقائديّ الأساسي بين المسلمين والنصارى في اعتقادهم عن المسيح، وهو النص الوحيد الذي بُنيتْ عليه عقيدة الثالوث.

كِتاب "أعمال الرسل" الذي ينتهي به الكتاب المقدس المسيحيّ، احتوى على رسائلَ كثيرةٍ بعَثَها القديسون إلى فئاتٍ مختلفة من شعوبٍ مختلفةٍ، وقد اختلفت الروايات في أصلها وصحّة نسبتها لمن نُسِبت لهم أكثر من الخلاف حول الأناجيل نفسها. وفي رسالة يوحنا الأولى الإصحاح الخامس ورَد الآتي:

{ "6" فيسوع المسيح وحده جاءنا بالماء والدم. لا بالماء فقط، بل بالماء والدم معا. هذه الحقيقة، يشهد لها الروح القدس، لأنه هو الحق ذاته."7" فإن هناك ثلاثة شهود < في السماء، الأب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هُم واحد>. 8 والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة: الروح والماء والدم. وهؤلاء الثلاثة هم في الواحد} (أعمال الرسل- رسالة يوحنا الأولى: 5: 6-8)

هذه النصوص منقولةٌ من كتاب الملك جيمس 1611 وهو الكتاب المقدس المعتمد لدى الكنيسة الإنجيلية، لكن في سنة 1966 صدر إنجيل: (The Good News Bible) وقد حُذف منه النص الذي تحته خط وانتهى النص عند: "فإن هناك ثلاثة شهود".

وفي سنة 1975 صدر (The New International Version) في بريطانيا وأُعيدت طباعتُه في أمريكا سنة 1995، وقد احتوى على التعليق التالي في أسفل الصفحة بعد أن حُذفت آية الثالوث هذه تمامًا:

The manuscripts of the **Vulgate** testify in heaven:"7" the father, the world and the Holy Spirit, and these three are one. "8" And there are three that testify on earth: the….not found in any Greek manuscript before the sixteen century)

وهذا يعني أن هذا النص الذي قامت عليه عقيدة الثالوث ظهر فقط في كُتُبِ الرومان، لكنه لم يوجَد في أي إنجيل غيره قبل القرن السادس عشر.

إذا جمعنا هذيْن الاعترافيْن معًا: فإنّ نصوص مرقس من 9-20 قد أضيفت إليه وقد احتوت على النص الوحيد في الكتاب المقدس الذي يجعل رسالة المسيح لكل العالم وكل الخليقة، ثم الاعتراف الثاني أن النص الوحيد في الكتاب المقدس الذي قامت عليه عقيدة الثالوث، أنهما أضيفا لاحقًا لكُتُبِ مِن كَتَبَ الأناجيل القديمة، فإن هذه الحقائق تُسقِط كل مقومات علاقة العقيدة المسيحية الحديثة بالمسيح عيسى بن مريم، باعتراف هؤلاء الشهود!

نعود إلى قصة ظهور المسيح لتلاميذه:

أما متَّى فقد اختَصَر القصة تمامًا؛ فتَحْتَ عنوان: "المسيح يظهر لتلاميذه كَتَب متَّى":

{وأمّا التلاميذ الأحد عشر فذهبوا إلى منطقة الجليل، إلى الجبل الذي عينه لهم يسوع. فلما رأوه، سجدوا له. ولكن بعضهم شكُّوا، فتقدم يسوع وكلمهم قائلا:" دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا إذن، <u>وتلمذوا جميع الأمم</u>، وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس، وعلّموهم أن يعملوا بكل ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انتهاء الزمان!"}

(إنجيل متَّى- الإصحاح الثامن والعشرون: 16- 20)

هنا يجب أن نفهم الترجمة على عِلّاتها؛ فلفظ الأب لا شك أنه تُرجِم من لفظ يعني الرب والأب معًا، ولفظ الابن شائع في الكتاب المقدس يوصف به المقربون إلى الله، جميعهم أبناء الله. وهنا لا نجد إشكالاً في وجود "الروح القدس" معهم لأن الله صرح بأنّه أيّد المسيح بروح القدس، ويبدو أنه في الإنجيل الأصلي كان "الله تعالى" و"الرسول عيسى بن مريم" و"الروح القدس" الذي يؤيده بالمعجزات مصطلحات متداولة كثيرًا، لكنّ كلّاً منها يشير إلى نفس مختلفة، فلما حرَّفَ الرومانُ العقيدةَ واختلقوا قصة موت وبعث ابن الله من أجل الغفران جمعوا الثلاثة في شخص واحد في ذلك النص اليتيم الذي شهد أهله مؤخرًا أنه مزوّر وما كان له وجود قبل العصر الروماني.

ختامًا: لا يَخفى علينا اختصارُ الأناجيلِ لقصة "الغداء الأخير". فقد اختصرها يوحنا (حَذف منها أن المسيح أكل معهم)، وتجاهلها مرقس ومتَّى تمامًا، مما يؤكد أنها كانت تتعارض مع المعتقَد الجديد، لذلك تم حذفها قبل أن تُجمَع الأناجيل معًا لتكون كتابًا واحدًا فيَفضَح بعضُها بعضًا.

ومع "الغداء الأخير" تَسقط كل مقومات العقيدة المسيحية الحالية من داخل الأناجيل. وهنا يمكننا فقط استيعابُ خطورةِ قصة الطريق إلى دمشق. بعد الغداء الأخير رفِع المسيحُ-عليه السلام- إلى السماء وانتهت رسالته في الأرض. إنجيل متّى ويوحنا لم يوثقا الرفعَ، أما مرقس فقد ختم إنجيله هكذا:

{ثم إن الرب بعدما كلمهم، رُفــع إلى السماء، وجلس على يمين الله. وأما هُم فانطلقوا يبشرون في كل مكان، والربُّ يعملُ معهم ويؤيد الكلمة بالآيات الملازمة لها.} (إنجيل مرقس- 16: 19-20)

أما لوقا فقد ختم إنجيله هكذا:

{ثم اقتادهم إلى خارج المدينة إلى بيت عَنْـيَا. وباركهم رافعا يديه. وبينما كان يباركهم، انفصل عنهم وأُصــعد إلى السماء فسجدوا له، ثم رجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم، وكانوا يذهبون دائما إلى الهيكل، حيث يسبِّحون الله

ويباركونه} إنجيل لوقا- 24: 50-53.

أمّا القرآن فقد لخَّص كل قصة المسيح مع قومه اليهود في "عصر الأقاويل" في بضع كلمات:

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً (155) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (159)} النساء

رُفِع المسيح-عليه السلام- من الأرض وبقيت قصته غامضةً على الذين آمنوا به وعلى الذين كفروا به على علمٍ من حقيقته، وعلى الرومان الذين أُقحِموا في حياته ونهاية رسالته لأسباب سياسية. ومضت سُنَّة الله في الناس أن "الأقاويل" و"الأحاديث" سرعان ما تتحول إلى أساطيرَ تختلط فيها الحقيقة مع الخيال، وانتشرت تعاليم المسيح في قطاع واسع من أرض الشام وشمال إفريقيا لدرجة أصبحت تهدد استقرارَ الإمبراطورية الرومانية التي كانت آلهتها الميتة أصلاً قد ماتت في قلوب الناس، وكان لا بد مِن دِينٍ جديدٍ تستعيد به سطوتَها وسيطرتَها على المنطقة. وهُنا ظهرت رحلة شاول، الرومانيّ المولد والمنشأ، يهوديّ العقيدة، لإبادة كل مَن تبع المسيح رغم التناقضات بين أتباعه حول هويته. وفي الطريق إلى دمشق حدثَ حدثٌ غيَّرَ مسار التاريخ البشري إلى يوم القيامة.

صناعة المسيحية في عصر الأساطير

بداية تـأليـه المسيح :

علاقة المسيحيين باليهود فيها متناقضات لا يمكن حلها، لذلك فالدين المسيحيّ يقدِّم الإيمانَ بحرفية الكتاب المقدس على البحث في منطقية مكوناته التي يعزون الكثير منها لعلم الله الذي يفوق علم البشر. ولعلّ مِن أهم تلك التناقضات أن أعظم الجرائم في تاريخ اليهود تُعَد أعظم الحَسَنات عند النصارى؛ عامة اليهود فرحوا بمقتل عيسى بن مريم لأن ذلك أثبت لهم أنه رسول دعِيٌّ ولا يمكن أن يكون المسيحَ المرتقب، وبذلك تخلصوا من شره (حكم الإعدام بسبب الردة)، بينما المسيحيون يتغنون بموته (الله أو ابن الله) لهم من أجل الخلاص.

المسيحيون كانوا يقرأون الكتابَ المقدس بالعاطفة لا بالعقل لعقود طويلة لمَّا كان الكتاب المقدس حكرًا على القساوسة فقط. ويمكن تشبيه ذلك الماضي بحال المسلمين اليوم حيث يحتكر الرواية عن رسول الله مَن يسمون أنفسَهم أهلَ الاختصاص فيما يُسمَّى عِلم الحديث، ولعلّ اطلاعَ عامةِ المسلمين على أسرار تاريخ "الحديث" يقود للنتيجة نفسِها التي مرت بها الشعوب الأوربية.

فقد وثق التاريخ أنه لمّا جاء عصر الانفتاح في أوروبا أدَّى الاطلاع على تفاصيل الكتاب المقدس لانحسار المسيحية في الغرب، الشيء الذي نراه اليوم، وأصبحت المجتمعات الغربية أكثرَ تحررًا في البحث والتفكير من المجتمعات الشرقية، وهذا هو موضوع الجزء الأخير من هذا الباب.

وقبْلَ الدخول في موضوع "العشاء الأخير" لا بد من شرحٍ للفرْق بين مصطلح "نَصارى" ومصطلح "مَسيحيين" مِن ناحية تاريخية. في حياة المسيح-عليه السلام- كانت دعوته كما هو واضح في هذا الباب موجهةً لبني إسرائيل، لذلك فهو لم يأتِ بدِين جديد يُنسَب إليه وإنما أتى ليكمل الرسالاتِ السماوية في بيت إسرائيل. وعليه فلم يكن أتباعه مسيحيين، كما لم يكن اليهود في عصر داوُد "داوُديين" وإنما ظلوا يهودًا على شريعة موسى عليه السلام. وقد وَصَفَ القرآنُ مَن تبع المسيحَ في بيت إسرائيل باسم النصارى:

{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52)} آل عمران.

مِن هنا نفهم أن مصطلح النصارى إنما هو اصطلاح قرآني فيه تشريف لمن ناصَرَ المسيحَ على أعدائه في داخل بيت إسرائيل. لكن لمّا خرجت تعاليمه خارج البيت ثم تم تحوير رسالته وأصبح المسيح هو مركز العقيدة، ظهر اسمُ "المسيحيين" ليشير للذين اتبعوا الدينَ الذي أصبح المسيحُ محورَه الأساس. على أن المسيحيين اليوم حينما يستعملون لفظ "النصارى" إنما يرمزون به لأصل المسيح مِن "الناصرة"، وليس للمدلول القرآني أعلاه.

لا بد أن أقدِّم أن أسلوبي هنا ليس استفزازًا ولا تهكمًا – فالمسيح-عليه السلام- ثاني رسول في الإسلام من حيث الأهمية والذِّكْر في القرآن، لكن مشكلة الكتاب المقدس أنه كتاب مجهول المصدر – معظم كُتَّابه غير معروفين-، وكثير مِن محتواه منسوب إلى كتاب بالاسم، لكن لا دليل يثبت أن الشخص المَعني قد كَتَب ما يُنسَب إليه. فضلاً

عن أن الكتاب المقدس اليوم تتم قراءته بكل لغات العالم إلا اللغة الأمّ التي نَطق بها المسيح وأتباعه، وبالتالي فإنّ ما نتدبره ليس إلا ترجماتٍ لا يدري أحد مَتَى تُرجِمت بالضبط، ولا مِن أي لغةٍ، ولا مَن الذي ترجمها وماذا كانت دوافعه. وما أقدّمه هنا ليس إلا بحثًا فيما يُنسَب إلى مَن كَتَب تلك الكتب.
نحن نبحث في القرآن بالحرف والرافع والمرفوع والناصب والمنصوب، وما بحثُنا في الكتاب المقدس بالأسلوب ذاتِه إلا محاولة لفهْم الحقائق وتوضيح الحق. لقد مضت عصور التعمية والخداع في كل الأديان وهذا هو عصر البحث والتفكير، وكل فردٍ حرٌّ فيما يصل إليه من نتائجَ وما يعتقد، ما دام يطرح رأيَه بأدب ويحترم الرأيَ الآخر.

مِن أكثر الترانيم التي يتغنَّى بها المسيحيون في الكنائس اليوم هي تلك التي تمجِّد المسيحَ-عليه السلام- في اللحظات الأخيرة، وهو يتقدم ثابتًا حسب ما يؤمنون، نحو الموت، من أجل خلاص البشرية من المعصية الأولى، ولعل أشهرَ تلك المقاطع في تأليه المسيح ما ورد في رسالة القديس شاول، المؤسس الفعلي للمسيحية، إلى مؤمِني فيلبي:

{إذ إنه، وهو الكائن في هيئة الله، لم يعتبر مساواته لله خلسة، أو غنيمة يتمسك بها، بل أخلى نفسه، متخذا صورة عبد، صائرا شبيها بالبَشر، وإذ ظهر بهيئة إنسان، أمعن في الاتضاع، وكان طائعا حتى الموت، موت الصليب... } (رسالة شاول إلى مؤمِني فيلبي- الإصحاح الثاني: 6-8)

ويظن المسيحيون أن هذه المقولة هي تأكيد لنبوءة وردت في كتاب إشعياء عن مَقدَم المسيح وموته، وكتاب إشعياء هو أحد كُتُب النبيين المضافة إلى توراة موسى في "العهد القديم"، وموجودٌ في الكتاب المقدس الذي يعتمده اليهود –عِلما بأن اليهودَ لهم كتابهم الخاص الذي لا يحتوي على الإرث المسيحيّ؛ لأنهم أصلاً ما اعترفوا بالمسيح- وهذا يعني أن اليهود لهم تأويل مختلف لهذه النبوءة وأنها لا تشير لا إلى عيسى ولا إلى موته المزعوم، لكن عند المسيحيين فالمقصود بها هو عيسى بنُ مريم:

{لكنه حمل أحزاننا وتحمل أوجاعنا، ونحن حسبنا أن الرب قد عاقبه وأذله، إلا أنه كان مجروحا من أجل آثامنا ومسحوقا من أجل معاصينا، حلّ به تأديب سلامنا، وبجراحه برئنا. كلنا كغنم شردنا، مِلنا كل واحد إلى سبيله، فأثقل الرب كاهلَه بإثم جميعنا. ظلم وأذل، ولكنه لم يفتح فاه، بل كشاةٍ سيق إلى الذبح، و كنعجةٍ صامتة أمام جازيه لم يفتح فاه..} (كتاب إشعياء- الإصحاح: 53 -: 4-7)

بغَضِّ النظر عن اللغة التي تثير حفيظة المسلمين – أن يوصَف المسيحُ بأنه كالنعجة – فإن النعجة تستسلم "لجازيها" ليس طاعةً واستشهادًا، ولكن لأنها مخلوق لا عقل له، خُلِق بقدرة الله ليكون مسخَّرًا للإنسان، وهذا هو أحد المحاور الرئيسية في "نظرية آذان الأنعام في الخلق والتطور". إذن، فالمقارنة هنا تَفتقد للحكمة لأن النعاجَ والخِراف تُذبَح وهي لا تدري أنها ستُذبَح، فهل كان المسيح في "عمى" وجهلٍ بما سوف يحل به كحال النعاج؟
مَن يقرأ هذه الترانيمَ يَظن أن المسيح-عليه السلام- تَقدَّم نحو الاستشهاد بكل ثبات وهدوء و"لم يفتح فاه"، لكنْ، هل هذه هي الحقيقة التي وثَّقها الذين كتبوا الأناجيلَ على ما فيها من عِلّات وتناقضات ؟

"التضحية" أم "القـــتل"؟

حتى نتدبر النصوص الآتية بحكمة، دعونا أولاً نميز بين مفهومين: (أموت من أجلكم) و (تسعون لقتلي)!
لو كان المسيح-عليه السلام- قد وُجِد ليموت مِن أجل خلاص البشرية، فإن ذلك سيكون أساس رسالته، ولكان قد تكرر في سيرته أنه أتى ليموت من أجل الناس أو شيءٍ مِن هذا القبيل، لكنّ الباحث في الكتاب المقدس يجد هذا هو ظن الذين اتبعوه متأخرًا (يرددون أنه مات من أجلهم)، لكن ما نُسِب إلى المسيح نفسه كان بتعبير(تقتلوني) أي أن المسيح كان ينظر إلى اليهود كقَتَلة أنبياء سابقين، وأن سعيَهم لقتله ليس إلا امتدادًا لجرائم القتل السابقة. ولم يُنسَب إليه أبدًا أنه إنما أُرسِل ليموت من أجل خلاص العالم (مثل هذه التعابير دائما يضيفها الراوي)، لنتدبر النصوصَ التي ارتبطت بقتله:
أولاً: أنّ اليهود قرروا قتله لأسباب تخصهم ولم يرد أنهم إنما كانوا يمهدون لواجبٍ ربانيٍّ وهو موت ابن الله أو الله من أجل الإنسانية:

{... منذ ذلك اليوم قرر اليهود أن **يقتلوا** يسوع. فلم يعد يتجول بينهما جهارا، بل ذهب إلى مدينة اسمُها أفرايم، تقع في بقعة قريبة من البرية، حيث أقام مع تلاميذه} (إنجيل يوحنا- الإصحاح الحادي عشر: 53-54)
هنا نلاحظ أن المقصود هو جريمة قتل وليس تقديم شهيد، وهذا يؤكده ما نُسِب إلى المسيح شخصيًا:
{أنا أعرف أنكم أبناء إبراهيمَ لكنكم تسعون إلى قتلي، لأن كلمتي لا تجد لها مكانا في قلوبكم} (إنجيل يوحنا-

الإصحاح الثامن: 37)

ألم يكن الأجدر أن يقول: ولكن سأموت من أجلكم وأغسل خطاياكم؟ المسيح هنا يحاور مَن يسعون لقتله وليس مَن يسعى للموت من أجلهم، ويكرّر اللفظ نفسه مؤكدًا أنّ سعيهم لقتله، ليس إلا لأنهم كفروا بالحق الذي أتى به:

{ولكنكم تسعون إلى **قتلي** وأنا إنسان **كلّمتكم بالحق** الذي سمعته من الله....} (إنجيل يوحنا- الإصحاح الثامن: 40)

هل ورد عن المسيح-عليه السلام- أي شيء يدل على أن ذلك الحق الذي سمعه من الله وكلّمهم به أنه إنما بُعِث ليموت مِن أجلهم؟ إنه هنا يصف جريمة قتل وليس استشهاد، نلاحظ أيضًا أنه يقول: "تسعون لقتلي" ولم يَقُل: "ستقتلونني" لأن الجريمة هي محاولة الاغتيال، لكنها لم تتحقق.
حتى الحاكم الروماني سعى لإثنائهم عن جريمتهم و حذَّرَهم مِن مغبة قتل هذا الرجل الصالح وتبرًّا مِن مسؤولية دمه، لكن كان ردهم:

{فأجاب الشعب بأجمعه:" ليكن دمُه علينا وعلى أولادنا!".}
إنجيل متّى - الإصحاح السابع والعشرون:25.
التعبير أعلاه لا ينتج إلا ممّن كان واثقًا أنه يَقتل مجرمًا جزاءً عادلاً لذلك يتحمل مسئولية دمه لثقته أنه على حق في قتله.

وفي خُطبةٍ مشهورة، تُعَد مِن أقوى ما تحدّى به المسيحُ-عليه السلام- قَتَلَة الأنبياءِ، فَضَح المسيحُ نوايا كهنةِ اليهود وجرائمَهم التي لا تُعَد ولا تُحصى في حق الناس والأنبياء، بصورة تنفي نفيًا قاطعًا أنّ موته من أجل خلاص الناس كان جزءًا من دعوته أو رسالته التي أُرسِل بها. لنتدبر هذه الخُطبة المدوّية في إنجيل متّى، التي ربما تنطبق أيضًا على أسلوب الكثير من خطباء المسلمين اليوم:

{لكن الويل لكم أيّها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم تغلقون ملكوت السماوات في وجوه الناس، فلا أنتم تدخلون، ولا تدعون الداخلين يدخلون! الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم تلتهمون بيوت الأرامل وتتذرعون بإطالة صلواتكم. لذلك ستنزل بكم دينونة أقسى! الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم تطوفون البحر والبرَّ لتكسبوا متهودا واحدا، فإذا تهود جعلتموه أهلا لجهنم ضعف ما أنتم عليه! الويل لكم أيها القادة العُميان! تقولون" من أقسم بالهيكل، فقسَمُه غير ملزم، أما فمن أقسم بذهب الهيكل، فقسمه ملزم!" أيها الجهال والعُميان! أي الاثنين أعظم: الذهب أم الهيكل الذي يجعل الذهب مقدسًا؟ وتقولون: من أقسم بالمذبح، فقسمه غير ملزم، أما من أقسم بالقربان الذي على المذبح، فقسمه ملزم! أيها العُميان! أي الاثنين أعظم: " القربان أم المذبح الذي يجعل القربان مقدسا؟ فإن من أقسم بالمذبح، فقد أقسم به وبكل ما عليه، ومن أقسم بالهيكل، فقد أقسم به وبالساكن فيه، ومن أقسم بالسماء، فقد اقسم بعرش الله وبالجالس عليه!}
{ الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم تؤدون حتى عشور النعنع والشبت والكمون، وقد أهملتم أهم ما في الشريعة: العدل والرحمة والأمانة. كان يجب أن تفعلوا هذه ولا تغفلوا تلك! أيها القادة العـُميان! إنـَّكم تُصَفون الماء من البعوضة، ولكنكم تبلعون الجمل! }

{الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم تنظفون الكأس والصحفة من الخارج، ولكنهما من الداخل ممتلئتان بما كسبتم بالنهب والطمع! أيها الفريسي الأعمى، نظف أولاً داخل الكأس ليصير خارجها أيضا نظيفا!}
{الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم كالقبور المطلية بالكِلس: تبدو جميلة من الخارج، ولكنها من الداخل ممتلئة بعظام الموتى وكل نجاسة! كذلك أنتم أيضا، تبدون للناس أبرارا، ولكنكم من الداخل ممتلئون بالرياء والفسق!}
{الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الأبرار، وتقولون: لو عِشنا في زمن آبائنا لمَا شاركناهم في سفك دم الأنبياء. فبهذا تشهدون على أنفسكم بأنكم أبناء قاتلي الأنبياء! فأكمِلوا ما بدأه آباؤكم ليطفح الكيل!}
{أيها الحيَّات، أولاد الأفاعي! كيف تفلتون من عقاب جهنم! بذلك: ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء ومعلّمين، فبعضهم تقتلون وتصلبون، وبعضهم تجلدون في مجامعكم، وتطاردونهم من مدينة إلى أخرى. وبهذا يقع عليكم كل دم زكي سُفك على الأرض: من دم هابيل البار إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح. الحقّ أقول لكم: إن عقاب ذلك كله سينزل بهذا الجيل.} (إنجيل متّى- الإصحاح الثالث والعشرون: 13-36)

هل يعقل أن يدَّعي أي كائن أن المسيح هنا كان يبشرهم بموته من أجل خلاص البشرية؟ وهل يعقل أن نصِفَه في هذه الخُطبة بأنه كان مستسلمًا للموت كالنعجة ولم يفتح فاه؟؟
لو بحثنا في خطوات المسيح كما دوَّنَها مَن دوَّنَها في الأناجيل، نجد أنه كان يعلم بمحاولة الاغتيال، وقد تعامل معها بكل أساليب المقاومة المتاحة له، وسعى لأن يثنيهم عن جرمهم وفمه مفتوح على الآخر – من ناحيته فقد هيأ نفسه وأتباعه لابتلاء ومعاناة كبيرة-:
{ثم انطلق وذهب كعادته إلى جبل الزيتون، وتبعه التلاميذ أيضا. ولمّا وصل إلى المكان، قال لهم: "صلّوا لكي لا تدخلوا في تجربة}

{وابتعدَ منهم مسافة تقارب رَمية حَجر وركع يصلّي قائلا: " يا أبي، إنْ شئتَ أبعد هذا الكأس. ولكن لتكن لا مشيئتي بل مشيئتك". و ظهر له ملاك من السماء يشدده. وإذ كان في صراع، أخذ يصلّي بأشد إلحاح، حتى أن عَرَقه صار كقطرات دم نازلة على الأرض.}إنجيل لوقا: الإصحاح الثاني والعشرون: 39 -44.
ويعجب الإنسان من الإدعاء بأنه أتى إلى الموت مستسلما كالنعجة، بينما الإنجيل يوثق أنه حتى اتخذ إستراتيجية دفاعية:

{ ثم قال لهم:" حين أرسلتكم بلا صرة مال ولا كيس زاد ولا حذاء، هل احتجتم إلى شيء؟" فقالوا: "لا" فقال لهم:" أمّا الآن، مَن عنده صرة مال، فليأخذها، وكذلك مَن عنده حقيبة زاد. ومَن ليس عنده، فليبع رداءَه ويشتر سيفا. فإني أقول لكم: إن هذا الذي كُتِب عُدّ مع المجرمين لا بد أن يتم فيّ؛ لأن كل نبوءة تختص بي لها إتمام!" فقالوا: " يا رب ها هنا سيفان". فقال لهم: "كفى!"} (إنجيل لوقا- الإصحاح الثاني والعشرون: 35-38)

النبوءة بطبيعة الحال هي الابتلاء والتعذيب والمعاناة، وليس الموت كما يظن مَن أوَّلوا هذه المقتطفات المنسوبة إليه. ورغم علمه أن الله عاصِمُه من الموت لكنه لم يَسُنّ سُنَّة الاستسلام الذليل لأيدي الظالمين، وإنما أعد سيوفًا ليعبِّر عن رفضه لجريمتهم وحقه في الدفاع عن نفسه. وإلى أن اقتربت الساعة فإنه كان يصف مَن يسعى لقتله بالخطيئة:

{.....أقبلت الساعة. ها إن **ابنَ الإنسان** يُسلم إلى أيدي **الخاطئين**. قوموا لنذهب. ها قد اقترب الذي سيُسلّمني} (إنجيل مرقس- الإصحاح الرابع عشر:42)

نلاحظ أنه يتحدث عن نفسه كإنسان يُسلَّم لأيدي الخاطئين، ولكن ليس على أنّه ابن إلهٍ يموت من أجل خلاص الناس. وفي الطريق إلى ساحة الإعدام قال قولة مدوية أخرى موجهة لبنات أورشليم (القدس):

{وفيما هُم يسوقونه (إلى الصلب)، أمسكوا رجلا من القيروان اسمه سمعان، كان راجعا من الحقل، ووضعوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع. وقد تبعه جمع كبير من الشعب ومن نساء كن يولولن ويندبنه. فالتفتَ إليهن يسوع، وقال: " يا بنات أورشليم، لا تبكين عليّ، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن! فها إن أياما ستأتي فيها يقول الناس: طوبى للعواقر اللواتي ما حملت بطونهن ولا أرضعت أثداؤهن! عندئذ يقولون للجبال: اسقطي علينا، وللتلال: غطينا! فإنْ كانوا قد فعلوا هذا بالغصن الأخضر فماذا يجري لليابس؟} إنجيل لوقا- الإصحاح 23: 27 -31.
المسيح كان رسولاً، والرسل لا تُقتل، لذلك لم يكن بحاجة لمن يبكي عليه، لكن جرمهم كان آخر جرائم اليهود في حق الأنبياء والمرسلين، وبعدها جفت الأقلام ورُفِعت الصحف فكان آخر المرسلين في بيت إسرائيل، أمّا اليهود فقد كانوا مَن يستحق البكاء لِما سينالهم مِن غضب على جريمتهم تلك. وحين وُضِع على الصليب قال (مِن غير أن يفتح فاه طبعًا):

{وقال يسوع: " يا أبي اغفرْ لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون!} إنجيل لوقا- الإصحاح الثالث والعشرون:34.

ممّا سبق نلاحظ التناقضَ بين ما قامت عليه أسس العقيدة المسيحية اللاحقة وبين الواقع في حياة المسيح. هذا التغيير المفاجئ كان مصدره الأول هو القديس بولس المؤسس الفعلي للمسيحية.

القديس بولس:

قلتُ سابقًا: إن اعتناقَ قسطنطين للمسيحية كان مفاجِئًا ومحيرًا للمؤرخين، وأغلب الظن أن دوافعَه سياسية. لكنْ، أي مسيحيةٍ اعتَنَق؟ فقد كان نظام الحكم يدور حول الكهنة ورجال الدين والسلطة الدينية المطلقة للإمبراطور

وحاشيته. إذن، كان لا بد من تحوير تعاليم المسيح إلى صورة تتناسب وحاجة الإمبراطورية السياسية، وكان اليهود على علمٍ بهذه الضرورات السياسية، وكانوا جزءا من المستضعَفين تحت حكم الرومان، وهنا كانت بداية قصةِ مَن يُعرَف بـ "القديس بولس".

وبولس هذا كان اسمه "سول" حسب النطق العبري الذي يستبدل الشين بالسين، هو يهوديّ العنصر لكنه ولِد ونشأ في تركيا (أرض الرومان حينئذٍ) وكان يعتبر رومانيًا أكثر من كونه يهوديًا. وكان شديد الكراهية لأتباع المسيح، وقد تعاون مع الإمبراطورية في تعذيب وتقتيل الرعيل الأول منهم، وقد هاجر من تركيا أولاً إلى أورشليم "القدس" ليباشر إبادة أتباع المسيح ، ثم كانت رحلته إلى دمشقَ مِن أجل إبادة فئةٍ منهم هناك. وفي الطريق إلى دمشق حدث له تحولٌ فكريٌّ وعقديٌّ غيَّرَ مسارَ التاريخ الإنساني إلى يوم القيامة.

في الطريق إلى دمشق:

يصف كتاب أعمال الرسل قصة القديس بولس (معرب شاول) في الإصحاح التاسع هكذا:

{أمّا شاول فكان لا يزال يفوز بالتهديد والقتل على تلاميذ الرب. فذهب إلى رئيس الكهنة، وطلب منه رسائل إلى مجامع اليهود في دمشق لتسهيل القبض على أتباع هذا الطريق من الرجال والنساء حيثما يجدهم، ليسوقهم مقيدين إلى أورشليم. وفيما هو منطلِق إلى دمشق، وقد اقترب منها، لمع حوله فجأة نورٌ من السماء، فوقع إلى الأرض وسمع صوتا يقول له:" شاول! شاول! لماذا تضطهدني؟" فسأل:" مَن أنت يا سيد؟" فجاءه الجواب:" أنا يسوع الذي أنت تضطهده، صعب عليك أن ترفس المناخس". فقال وهو مرتعد ومتحير:" يا رب ماذا تريد أن أفعل؟" فقال له الرب:" قُم، وادخلِ المدينة فيقال لك ما يجب أن تفعله". وأمّا مرافقو شاول فوقفوا مذهولين لا ينطقون، فقد سمعوا الصوتَ لكنهم لم يروا أحدا. وعندما نهض شاول عن الأرض، فتح عينيه فوجد أنه لا يبصِر، فاقتادوه بيده وأدخلوه إلى دمشق، حيث بقى ثلاثة أيام لا يبصِر ولا يأكل ولا يشرب.}

{وكان في دمشق تلميذ للرب اسمه حنانيا، ناداه الرب في رؤيا:" يا حنانيا!" فقال:" لبيك يا رب!" فقال له الرب:" اذهب إلى الشارع المعروف بالمستقيم واسأل في بيت يهوذا، عن رجل من طرسوس اسمه شاول. إنه يصلّي هناك الآن. وقد رأى في رؤيا رجلا اسمه حنانيا يدخل إليه ويضع يده عليه، فيبصر". فقال حنانيا للرب:" ولكنى، يا رب، قد سمعت من كثيرين بالفظائع التي ارتكبها هذا الرجل بقديسيك في أورشليم، وقد خوَّله رؤساء الكهنة السلطة ليلقي القبضَ على كل من يدعو باسمك". فأمره الرب:" اذهب! فقد اخترت هذا الرجل ليكون إناء يحمل اسمي إلى الأمم والملوك وبني إسرائيل. وسأريه كم ينبغي أن يتألم من أجل اسمي!". فذهب حنانيا ودخل بيت يهوذا، ووضع يديه على شاول وقال:" أيها الأخ شاول، إنّ الرب يسوع، الذي ظهر لك في الطريق التي جئتَ فيها، أرسلني إليك لكي تبصر وتمتلئ من **الروح القدس**". وفى الحال تَساقط من عينَي شاول ما يشبه القشور، فأبْصَر، ثم قام فتعمد. وتناول طعاما فاستعاد قوته وبقى بضعة أيام مع التلاميذ في دمشق.} (أعمال الرسل- الإصحاح التاسع: 1-19)

هذا الحدث كان ميلاد المسيحية الحالية.؛ فعلى الفور تحولت جريمة الادعاء بأن المسيح ابن الله -تلك التهمة التي سعى اليهود إلى إلصاقها بالمسيح فأنكرها كثيرًا كما رأينا، ووصف نفسه بأنه "ابن الإنسان"، تحولت على يد شاول إلى حقيقة دينية:

{وفى الحال بدأ يبشر في المجامع بأن <u>يسوع هو **ابن الله**</u>. فأثار كلامُه دهشة السامعين فتساءلوا:" أليس هذا هو الذي كان يبيد جميع الداعين بهذا الاسم في أورشليم؟ أمَا جاء إلى هنا ليلقى القبض عليهم ويسوقهم مقيدين إلى رؤساء الكهنة؟"} (أعمال الرسل- الإصحاح التاسع: 20-21)

هنا أتوقف قليلاً للتوضيح: رأينا فيما سبق كيف أن اليهود حاولوا اتهام المسيح بأنه ادَّعى أنه "ابن الله" أمام العامة، بينما كان المسيح يصف نفسه بأنه ابن الإنسان، كانت تلك دعوته إلى أنْ رُفِع، فلمّا تجلى مَن تجلى لـ "شاول" مدعيًا أنه المسيح، ظهرت فجأة مفاهيم جديدة في التراث المسيحيّ، فتحولت جريمة الأمس إلى عقيدة اليوم. وهكذا بدأ الاعتقاد في حقيقة المسيح ينحرف على يد مَن يدَّعون أنهم أتباعه وليس على يد أعدائه. أمّا ظاهرة تجلي المسيح لشاول في طريقه إلى دمشق فقد انتشرت بين الأتباع ورأى الكثيرون منهم "الروح القدس"

وجرت على أيديهم معجزات تساوي معجزاتِ المسيح نفسِه حسب زعمهم. أنقل منها هنا واحدة فقط:

{ وكان في مدينة يافا تلميذة اسمها طابيثا، ومعنى اسمها: غزالة، كان يشغلها دائما فعل الخير ومساعدة الفقراء. وحدث في ذلك الوقت أنها مرضت وماتت فغسَّلوها ووضعوها في غرفة بالطبقة العليا. وسمع التلاميذ في يافا أن بطرس في لدة. وإذ كانت يافا قريبة من لدة، أرسلوا إليه رجُليْن يطلبان إليه قائليْن:" تعال إلينا ولا تتأخر!" فقام وذهب. ولمّا وصل قادوه إلى الطبقة العليا، فتقدمت إليه جميع الأرامل باكياتٍ، يعرضن بعض الأقمصة والثياب مما كانت غزالة تخيطه وهي معهن. فطلب بطرس إلى جميع الحاضرين أن يخرجوا من الغرفة، وركع وصلّى، ثم التفت إلى الجثة و قال:" يا طابيثا قومي!" ففتحتْ عينيها. ولمّا رأت بطرس جلست. فمد إليها يدَه وساعدها على النهوض، ثم دعا القديسين والأرامل، وردها إليهم حية. وانتشر خبر هذه المعجزة في يافا كلها، فآمَن بالرب كثيرون. وبقي بطرس في يافا عدة أيام عند دباغ اسمه سمعان.} (أعمال الرسل- الإصحاح التاسع: 36-43)

ثم حلّ الروح القدس على غير اليهود من المسيحيين:

{وبينما كان بطرس يتكلم بهذا الكلام، حل **الروح القدس** على جميع الذين كانوا يسمعون. فدهش المؤمنون اليهود الذين جاءوا برفقة بطرس، لأن هبة الروح القدس فاضت أيضا على غير اليهود، إذ سمعوهم يتكلمون بلغات، ويسبّحون الله. فقال بطرس: "أيستطيع أحد أن يمنع الماء فلا يتعمد أيضا هؤلاء الذين نالوا الروح القدس مثلنا؟" وأمَر أن يتعمدوا باسم يسوع المسيح، ثم دعوه أن يقيم عندهم بضعة أيام.} أعمال الرسل- الإصحاح العاشر: 44-48.

وهكذا أصبح الكتاب المقدس يحتوي على مفاجآت يصعب التوفيق بينها؛ فتراثُ اليهودِ كان يشمل توراةَ موسى وزبور داؤود وبعض كُتُب الرسل ثم ما لبث التراث اليهودي أن اتسع ليصبح ما يسمى حاليًا بـ "العهد القديم"، وظهر "العهد الجديد" الذي يشتمل على الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى الكنيسة: "متَّى" و "مرقس" و "لوقا" و "يوحنا". ما بعد إنجيل يوحنا في "العهد الجديد" توجد كُتبٌ تحكي قصة المسيحية الجديدة التي أسسها "شاول" وتحتوي على مجموع الرسائل التي أرسلها إلى الفئات المختلفة من المسيحيين يدعوهم بدعوته التي أصبحت هي "المسيحية" التي استمرت حتى اليوم. وكان مِن أخطر ما قام به "شاول" - منسوبًا لـ "الروح القدس"، أنه أجرى تعديلاً جذريًا في العقيدة، فألغى أحكام شريعة التوراة من حياة المسيحيين، وأدخلَ مفهوم الوصول إلى الله بالإيمان بموت ودم المسيح بدلاً عن العبادات:

{... نحن يهودٌ بالولادة، ولسنا أُمَمًا خاطئين. ولكننا، إذ علمنا أن الإنسان لا يتبرر على أساس الأعمال المطلوبة في الشريعة، بل فقط بالإيمان بيسوع المسيح، آمَنا نحن أيضا بيسوع المسيح، لنتبرر على أساس الإيمان به، لا على أساس أعمال الشريعة، <u>لأنه على أعمال الشريعة لا يبرر أي إنسان.</u> ولكن وإنْ كنا ونحن نسعى أن نتبرر في المسيح، قد وُجدنا خاطئين أيضا، فهل يكون المسيح خادما للخطيئة؟ حاشا! فإذا عدت أبني ما قد هدمته، فإني أجعل نفسي مخالفا. فإنني، بالشريعة، قد مِتّ عن الشريعة، لكني أحيا لله. مع المسيح صُلبت، وفيما بعدُ لا أحيا أنا، بل المسيح يحيا فيّ. أما الحياة التي أحياها الآن في الجسد، فإنما أحياها بالإيمان في <u>ابن الله، الذي أحبني وبذل نفسه عني.</u> إني لا أبطل فاعلية نعمة الله، <u>إذ لو كان البر بالشريعة، لكان موت المسيح عملا لا داعي له</u>} (الرسالة إلى مؤمِني غلاطية- 2: 15-21)

طبعًا مغالطته للمسيح واضحة لأن المسيح قد حسم قضية الإيمان من قبل:

{فقال يسوع بصوت عال:" مَن يؤمن بي، <u>فهو يؤمن لا بي أنا ولكن بالذي أرسلني</u>..} (إنجيل يوحنا- الإصحاح الثاني عشر: 44)

تعليمُه أيضًا جاء مناقِضًا لقول المسيح في الشريعة (التوراة)، فتَحْتَ عنوان: "موقف المسيح من الشريعة كَتَب إنجيل متَّى":

{لا تظنوا أنى جئت لألغي الشريعة أو الأنبياء. ما جئت لألغي بل لأكمل. فالحق أقول لكم: إلى أن تزول الأرض والسماء، لن يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الشريعة، حتى يتم كل شيء. فأي مَن خالف واحدة من هذه

الوصايا الصغرى، وعلّم الناس أن يفعلوا فِعله، يدعى الأصغر في ملكوت السماوات. وأما من عمل بها وعلّمها، فيُدعى عظيما في ملكوت السماوات. فإني أقول لكم: إن لم يزد برّكم على برّ الكتبة والفريسيين، لن تدخلوا ملكوت السموات أبدا} (إنجيل متّى- الإصحاح الخامس:17-20)

وهكذا ألغى بولس شريعة موسى وأقام المسيحية. وكان مما حرَّفه أيضًا هو قصة العشاء الأخير.

العـــــشاء الأخــــــير:

رغم وضوح الحقيقة فيما سبق إلا أن القديس شاول حينما حرّف المسيحية وأتى بدينٍ جديدٍ، تجاهل كل قصة حياة المسيح أعلاه وفيها تفاصيل أكثر اختصرتُها لصعوبة النقل، ثم اتخذ من قصة العشاء الأخير محورًا أساسيًا لنشر عقيدته هو في المجتمع المسيحيّ بعد رفْع المسيح -عليه السلام-. لنقارن بين ما حدث في العشاء الأخير حسب إنجيل يوحنا، ثم نعود فنرى كيف حوّره شِاول:

{وقُبيْلَ عيد الفصح، ويسوع عالمٌ أن ساعته قد حانت ليرحل من هذا العالم إلى الأب، فإذا كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم الآن أقصى المحبة: ففي أثناء العشاء، وكان الشيطان قد وضع في قلب يهوذا بن سمعان الإسخريوطى أن يخون يسوع، وكان يسوع عالما أن الأب قد جعل كل شيء في يديه وأنه مِن الله خرج وإلى الله سيعود، نهض عن مائدة العشاء، وخلع رداءه وأخذ منشفة لفَّها على وسطه، ثم صب ماءً في وعاء للغُسل، وبدأ يغسل أقدام التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي على وسطه.}
{ فلمّا وصل إلى سمعان بطرس، قال له سمعان: "" يا سيد، أنت تغسل قدمي!" فأجابه يسوع: " أنت الآن لا تفهم ما أعمله، ولكنك ستفهم فيما بعد". ولكن بطرس أصرَّ قائلا: " لا لن تغسل قدمي أبدا!" فأجابه يسوع: " إنْ كنتُ لا أغسلك، فلا يكون لك نصيب معي!" عندئذ قال له سمعان بطرس: " يا سيد، لا قدمي فقط، بل يدي ورأسي أيضا!" فقال يسوع: " مَن اغتسل صار كله نقيا، ولا يحتاج إلا لغسل قدميه. وأنتم أنقياء، ولكن ليس كلكم". فإن يسوع كان يعلم مَن الذي سيخونه، و لذلك قال: " لستم كلكم أنقياء".}

{ وبعد أن انتهى من غسل أقدامهم، أخذ رداءه واتكأ من جديد، وسألهم: " أفهمتم ما عملتُه لكم؟ أنتم تدعونني معلّما وسيدا، وقد صدقتم، فأنا كذلك. فإن كنتُ، وأنا السيد والمعلم، قد غسلت أقدامكم، فعليكم أنتم ايضا أن يغسل بعضكم أقدامَ بعض. فقد قدمتُ لكم مثالا لكي تعملوا مثل ما عملت أنا لكم. الحقّ الحقّ أقول لكم: ليس عبدٌ أعظمَ مِن سيده، **ولا رسول أعظم مِن مُرسِله**. فإن كنتم قد عرفتم هذا، فطوبى لكم إذا عملتم به. وأنا لا أقول هذا عن جميعكم، فأنا أعرف الذين اخترتُهم. ولكن لا بد أن يتم الكتاب حيث أقول: آلآكل من خُبزي، رَفَعَ على عَقِبَه! وإني أقول لكم ما سيحدث، قبل حدوثه، حتى متَى حدث تؤمنون إني هو. الحقّ الحقّ أقول لكم: مَن يَقبل الذي أرسله، يقبلني، **ومن يقبلني، يقبل الذي أرسلني**".}

{ولما قال يسوع هذا اضطربتْ نفسه وأعلن قائلا:" الحقّ الحقّ أقول لكم: إنّ واحدا منكم سيسلمني!" فتبادل التلاميذ نظراتِ الحيْرة وهُم لا يدرون مَن هو الذي يعنيه. وكان التلميذ الذي يحبه يسوع متكئًا على حضنه، فأشار إليه سمعان بطرس أن يسأل يسوع من هو الذي يعنيه. فمال على صدر يسوع وسأله:" من هو يا سيد؟" فأجاب يسوع: " هو الذي أعطيه اللقمة التي أغمسها". ثم غمس اللقمة وأعطاها ليهوذا بن سمعان الإسخريوطي". وبعد اللقمة، دخله الشيطان. فقال له يسوع:" أسرعْ في ما نويتَ أن تعمله!" و لم يفهم أحد من المتكئين لماذا قال ذلك، بل ظنّ بعضهم أنه يأمره أن يشتري ما يحتاجون إليه في العيد، أو أن يعطي الفقراءَ بعض المال، لأنه كان أمينا للصندوق. وما إنْ تناولَ يهوذا اللقمة، حتى خرج وكان الليل قد أظلم.}

{ولمّا خرج يهوذا، قال يسوع:" الآن **تمجَّد ابن الإنسان** وتمجَّد الله فيه. ومادام الله قد تمجد فيه، فإنه سيمجده في ذاته، وسريعا سيمجده. يا أولادي الصغار، سأبقى عندكم وقتا قصيرا بعدُ، ثم تطلبونني، ولكن أقول لكم ما سبق أن قلتُه لليهود:"إنكم لا تقدرون أن تأتوا حيث أنا ذاهب. وصية جديدة أنا أعطيكم: أحبّوا بعضكم بعضا، كما أحببتكم أنا، تحبون بعضكم. بهذا يَعرف الجميع أنكم تلاميذي: إن كنتم تحبون بعضكم بعضا".}
{فسأله سِمعان بطرس: " يا سيد أين تذهب؟" أجابه يسوع:" لا تقدر أن تتبعني الآن حيث أذهب، و لكنك ستتبعني فيما بعد". فعاد بطرس يسأل:" يا سيد، لماذا لا أقدر أن اتبعك الآن؟ إني أبذل حياتي عوضا عنك!" أجابه يسوع:" أتبذل حياتك عوضا عني؟ الحقّ الحقّ أقول لك: لا يصيح الديك حتى تكون قد أنكرتني ثلاثَ مرات!"} (إنجيل يوحنا- الإصحاح الثالث عشر: 1-38)

نلاحظ في وثيقة العشاء الأخير الآتي:

أولاً: أنّ موضوعَه كان تعليم الحواريين أسسَ دينِهم الاجتماعية والأخلاقية والعقائدية.
ثانيًا: المسيح يشير إلى نفسه بـ (ابن الإنسان) وليس (ابن الله).
ثالثًا: الحواريون كانوا يسمّونه: معلّمًا و سيدًا، ليس إلهًا ولا ابنَ إله.
رابعًا: المسيح ركز على أنه رسول من عند الله ومن اتبعه فقد أطاع مَن أرسله.
خامسًا: أنه لم يتحدث عن موته وإنمّا عن رفعه لمكان لن يتبعه إليه أحدٌ الآن، في إشارةٍ إلى أن دخول الصالحين للجنة سيكون في الآخرة.
خامسًا: أنه تنبّأ بخيانة يهوذا له وأيضا إنكار بطرس له يوم المحنة!

فلمّا جاء شاول، وتوهم أنه رأى المسيح في الطريق إلى دمشق، وكلفه بإلغاء الشريعة ونشر العقيدة الجديدة، حور شاول مضمون العشاء الأخير في رسالته إلى مؤمِني كورنثوس إلى عبادة المسيح وانتظار الخلاص بدمه.

عشاء الرب حسب شاول:

{فإني قد تسلمتُ من الرب ما سلمتكم إياه. وهو أن الرب يسوع، في الليلة التي أُسلم فيها، أخذ خبزا، وشكر، ثم كسر الخبز وقال: " هذا هو جسدي الذي يكسر من أجلكم اعملوا هذا لذكري". وكذلك أخذ الكأس بعد العشاء، و قال:"هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي اعملوا هذا، كلما شربتم لذكري". كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس، **تعلنون موت الرب،** إلى أن يرجع. فمَن أكل الخبز، أو شرب كأس الرب بغير استحقاق، يكون مذنبا تجاه جسد الرب ودمه.}
(الرسالة الأولى إلى مؤمني كورنثوس- 11:-23-27)

لا بدّ من ملاحظة أنّ المسيح في العشاء الأخير قد غمس الخبزَ وأعطى اللقمة للخائن يهوذا ليخبره أن الله قد أخبره بأمر خيانته، لكنه لم يقُل للتلاميذ هذا دمي أو لحمي، ولم يزعم أنه يموت من أجل أحدٍ. موضوع العشاء الأخير حسب الإنجيل كان تعليم التلاميذ آخر دروس دينهم وأهمها أنّ مَن أحب المسيحَ فيجب أن يحب الذي أرسَل المسيح. بينما شاول حوّل قصة الخيانة إلى قصة استشهاد وحوّل دم المسيح إلى وسيلة نجاة في الآخرة وأخرج الذي أرسل المسيح "الله" من العقيدة وجعل المسيح هو الله نفسه.

القديس بولس والقديس يزيد:

هنا لا بد من كلمة أعلمُ خطورتَها لكنها كلمة حق يجب أن تقال مهما كان الثمن. فقصة الطريق إلى دمشق هي القصة التي تم فيها صناعة الديانة المسيحية الحديثة على أيدي اليهود المندسين بين الرومان، وأخيرًا تم تسليم الإمبراطورية الرومانية دينًا جديدًا أنقذها من الانهيار، لكنّه رسخ في أذهانهم أنّ الله تجسّد في جسدٍ يهودي، مما جعل اليهودَ يحكمون الرومان ومن انحدر من سلالات الرومان إلى اليوم. وقد تمت الصناعة بالسهل الممتنع وليس بقوى خارقة. فقد أكثروا من التشكيك في المسيح وإطلاق الأقاويل والإشاعات في حياته لدرجة جعلت أقرب المقربين إليه متشككين في هويته. هذه الأقاويل أصبحت لاحقًا أساطيرَ ثم تحولت إلى مسلّمات ثم إلى عقيدة جديدة بعد أن ابتكرت قصة مخاطبة المسيح للأجيال القادمة عن طريق الرؤيا. فأصبح مصدر الدين الجديد هو المزيج بين أقاويلِ وأحاديث الأولين بعد إضفاء القدسية عليها برؤيا منامية يظهر فيها المسيح ليبارك كل تحريف جديد. وأصبحت الشامُ عمومًا ودمشق خصوصًا هي البقعة المبارَكة الحاضنة لهذه النقلة النوعية في صناعة المسيحية ثم السيطرة على عقول القائمين على الإمبراطورية الرومانية.
وظلت أصداء القصة، وتكرار الأحلام برؤية المسيح من أناسٍ كُثر، ليكلفهم بتعاليمَ جديدةٍ تناقِضُ ما علمه في وجوده تتردد أصداؤها بين جدران دمشقَ إلى أن ظَهر القديس معاوية ثم ابنه يزيد بن معاوية، وكان له مستشارون مسيحيون ويهود لم يُعجِزهم كثيرًا أن يصنعوا له دينًا جديدًا يبعد المسلمين عن القرآن فيدينون بدين الأقاويل. ولم يحتَجْ الصُّنَّاعُ فكرةً جديدةً لصناعة الدين الجديد. فالروايات الكثيفة جدًا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت بمثابة الأقاويل التي سيقوم عليها التحريف. وإبادة مَن تبقى مِن أصحاب النبي كانت بمثابة إبادة أصحاب المسيح على يد القديس شاول، حيث استباح يزيدُ المدينة المنورة في مجزرة "الحرة"، التي يستحي "أهل السُّنَّة والجماعة" من الحديث عنها، ثلاثةَ أيامٍ قُتِلَ فيها كلُّ مَن بقي حيًّا من أهل بدر، ثم إنّ رؤية المسيح "في الطريق إلى دمشق" استُبدِلتْ لاحقًا برؤية الرسول-صلى الله عليه وسلم- في المنام يبارك مَن يكتب الأقاويل عنه، رغم أنه نَهى عن ذلك في حياته. وحتى يكتسب التناقضُ قدسية، فكان من السهل إعطاء حديث: "مَن رآني في المنام فقد رآني لأن الشيطان لا يتمثل صورتي" (سأناقشه في باب "الحديث") قدسية ثم تفسيرًا خاطئًا ليصبح جسرًا بين النبي الذي مات بعد أن خُتِمتْ الرسالة وأتم الله دينه ونوره وبين الأجيال اللاحقة من الكهنة الذين تواصلوا معه في المنام ليبارك لهم ما حرمه في حياته. وهكذا ضجت دمشق في عصر القديس يزيد بدينٍ جديدٍ

عطّل القرآن وشرع الأقاويل "باسم البخاري" وما زال أتباعه ينتظرون نزول المسيح من مئذنة مسجدٍ أبيضَ في شرق دمشق. وتفاصيل التشابه كثيرةٌ جدًا لدرجةٍ مقززةٍ، كما أنّ الفريسيين والكهنة لم يبذلوا مجهودًا كبيرًا لصناعة قصة بهتانٍ على عائشة بتعديلٍ طفيفٍ عن قصة البهتان على مريم كما سنرى لاحقًا.

الطريق إلى أرض تيمان:

وبعد أن خرج أهل الكهف من كهفهم ووجدوا أن الحال قد تغير ثم أماتهم الله، كان اليهود على علمٍ بخطرٍ محدقٍ بهم أشدٍّ عليهم من رسالة المسيح ويحتاج لإعداد كبير. ولأنهم كانوا على علمٍ دقيقٍ بتفاصيلِ رسولٍ ونبيٍّ آخر الزمان لدرجة وصفها القرآن أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم:

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146)} البقرة.
{أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197)} الشعراء.

فقد كان من ضرورات البقاء لديهم، كـ "شعب الله المختار" شدٌّ الرحال، لا إلى مكة، رغم علمهم بمولده وبداية دعوته في مكة، وإنما إلى يثربَ التي ستكون مقره ومنتهى رسالته. فاستقرت قبائل بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع في "أرض تيمان" في انتظار رسولِ آخر الزمان ولديهم أربع استراتيجيات:

الخطة (1): محاولة استمالته واستعباد الناس به، إذا فشلت الخطة (1) يحاولون الخطة (2).

الخطة (2): محاولة اغتياله، في حالة الفشل محاولة الخطة (3).

الخطة (3): محاولة تحريف كتابه، في حالة الفشل، تطبق الخطة (4) وهي أضعف الإيمان.

الخطة (4): صناعة دين موازٍ لدينه "نسخة صينية تقليد" يمكن التلاعب بها كيف شاءوا إلى آخر الزمن.

فشلت الخطط (1- 2-3)، لكنّا ما زلنا ندين بدين التقليد حسب الخطة (4)، التي تمت صناعتها أيضًا في دمشق.

لنفهم ذلك التاريخَ الممنوعُ البحثُ فيه، نحتاج لإلقاء نظرة سريعة على الأسس التي مهدت لصناعة الدين المحمدي من رسالة النبي على غرار المسيحية من رسالة المسيح. وسنكتفي بإشاراتٍ عن الحِقبة الزمنية تحت عنوان " خير القرون" لكننا نمهد لذلك بإلقاء نظرة على عصر الأقاويل في باب "علوم القرآن" ثم "الحديث".

الباب الخامس

خــيــر القــرون

مُدْخَلَ ومُخْرَجَ صِدْقٍ:

مِنَ القِيَم القرآنية التي لا يمكِن إنكارُها والتي تَجذَّرتْ في كل حضارةٍ إنسانية، الدعوةُ المستمرة للصدق والمكانة الرفيعة التي مَنَحها الله للصادقين. بغض النظر عن الموضوع؛ لأن الصدقَ مع النفس يُشخِّص العِلات ويُعين على الحلول على عكس الكذب الذي لا يؤدي إلا إلى تراكم الأخطاء ثم إلى الإنفجار. الصدقُ لا يعني الكمالَ ولا يعني أن تَفضح المستور، وإنما أن تَعترف بالحقيقة كما هي، وتتعامل معها بحكمة. الصدقُ مع النفس ومع الأسرة والجيران وزملاء العمل وطبيعة المهنة، ومع عموم المجتمع ومع الإنسانية جمعاء. الصدقُ هو عماد الإصلاح والتقدم والبناء، بينما الكذب هو قاصمة الظَّهْر للفرد والأسرة والمجتمع. لذلك جاءت التزكية المتكررة للصدق والصادقين والصدِّيقين في القرآن :

{وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)} الإسراء.

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (32) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34)} الزمر.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119)} التوبة.

{وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)} مريم.

وإذا أردنا أن نتدارس أيَّ تاريخ فإن الصدق في نقلنا وفهْمِنا للتاريخ كما كان هو أهم ما نحتاجه؛ لأن التاريخَ لا يمكن تغييرُه. ما قد مَضى فقدْ مضى، لكنَّ الخلافَ الذي يدمر المجتمعاتِ يقع حول قراءتنا وفهْمِنا للتاريخ. والتاريخُ عادةً يكتبه ثلاث:

المنتصِر: يَكتب تاريخَ البطولات والانتصارات، لكنه أبدًا لا يوثِّق عددَ القتلى والضحايا، ولا المُدن التي دُمِّرت ولا الأشجار التي اجتثت، ولا النساء التي ترملت ولا الأيتام الذين سُحقوا ولا الثروات التي نُهبت. أمريكا ما زالت تحتفل بانتصارها على اليابان لكن قلَّما تتحدث عن الدمار الذي خلَّفته قنابُلها النووية.

المهزوم: عادةً ما يتباكى علي الظلم الذي لحق به وبأهله وماله ومحرماته ومقدساته وأنفُس بنيه التي أُزهِقت، لكنه لا يتحدث عن ضعفه وفشله وربما تآمَر الخونةُ بين صفوفه مع مَن هزمه. ثم إن المهزومَ لا يُشترَط أنه مظلوم بطبيعة الحال.

العدو: في كل حرب يوجد طرفٌ ثالثٌ ليس ضالعًا فيها، لكنه يتربص بالمتحاربين وغالبًا ما يَكتب التاريخَ بالطريقة التي تحقق له أهدافَه هو، فيصوِّر الشجاعَ جبانًا والجبانَ شجاعًا والظالمَ مظلومًا والمظلومَ ظالمًا.

التاريخُ نادرًا ما يكتبه محايد. وعليه فإننا في هذا الباب لا ندَّعي وحيًا جديدًا يلهمُنا حيادًا لم يعرفه الأولون، ولا ندَّعي خروجًا على سُنَّة الله في الكون، وإنما نحاول جاهدين أن ننظر في تاريخ الأمة المسلِمة بأكبر قدْر من المصداقية بعيدًا عن دموع التماسيح الزائفة التي يذرفها المنهزمُ الفاشل، وبعيدًا عن البطولات الوهمية التي يزهو بها الظالمُ المتكبر، آخذين بعين الاعتبار أيضًا الدورَ الفعال للعدو في كتابة تاريخنا. والحمد لله أن بين أيدينا كتابَ اللهِ الذي لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا مِن خلفه نحتكم إليه في منهجنا.

رأينا في الباب السابق " في الطريق إلى دمشق" أن صناعة الأديان أمرٌ شديد التعقيد ويقوم في المقام الأول على "بث الأقاويل" و "حرب المصطلح" التي تؤدي بدورها إلى اختلاق مفاهيمَ جديدةٍ سرعان ما تصبح من ثقافة المجتمع، ثم يتم تقديسُها فتصبح مِن الدين، ثم تصبح هي الدين نفسه. ورأينا أيضًا أن صناعة الأديان غالبًا ما تقف خلفها مؤسساتٌ سياسية تبتكِر مقدساتٍ يتم ترسيخ الاعتقاد فيها بين العوام مما يسهل على السلطة أن تقودهم بسلطان الرب كيف تشاء.

ورأينا أيضًا أن صناعة الأديان لا يُشترَط فيها "الخرافة" وإنما "الأسطورة". بل إن جودة الصناعة نفسها تتطلب أن يكون فيها الكثيرُ جدًا من الحقيقة، فقط يضاف إليها القليلُ من الانحراف الذي يَخفى على الناس مِن كثرة الحقيقة التي تحيط به. وهذا ما سنسعى لاستكشافه في الفترة المعروفة بخيرِ القرون في التاريخ الإسلامي.

وفي هذا السياق فإننا نبحث في التاريخ الإسلامي مِن بين ثلاث فُكُوكٍ مفترسةٍ:

"خير القرون" في عيون "الشيعة": هؤلاء يزعمون حبًا عميقًا لآل بيت رسول الله أعماهم أن يروا الخير إلا في آل البيت وسمح لهم سبّ وتكفير كلّ أو معظم أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-، ولدى بعض متطرفيهم فالنبي نفسه مذموم عندهم.

"خير القرون" في عيون "السُّنّة": هؤلاء ورثوا القطاعَ الأكبر من الرقعة الإسلامية بكل ما فيها مِن موروثات ثقافية وسياسية وفكرية، لذلك يَجنحون في الكثير من الأحيان إلى إضفاء القدسيات على مَن لا قدسية له، مع إنكار الحقائق التاريخية المشينة ظنًا منهم أن النقدَ الموضوعيّ للتاريخ والاعترافَ بالعيوب يتعارض مع الكمال الوهمي الذي بُني عليه ماضي آبائهم.

"خير القرون" في عيون "العدو": هؤلاء يقفون بين هؤلاء وهؤلاء، وكانوا يُمسِكون ببعض أوراق اللعبة في الماضي التي أصبح معظمها في أيديهم اليوم.

الزمان والمكان:

هذه عودةٌ سريعة جدًا لِما ناقشناه في باب "أفلا تعقلون" وهي أن عقلَ الأمور يتطلب وضعَها في إطار "زمانٍ" و"مكانٍ" صحيحين. فمَن أراد أن يقرأ أيّ تاريخ لا بد أن يُمرِّنَ ذهنَه تمرينًا قاسيًا على أن يتمكن من السياحة في الماضي ورؤية الأحداث هناك على حقيقتها مِن غير أن يُصدِر حُكمًا على الناس الذين عاشوا في ذلك الزمان وذلك المكان إلا بالمعايير التي حَكَمَتهم حينها، وليس بمعايير زمانه ومكانه هو. وحتى أُسهِّل على القارئ ما أعنيه بالتمرين الذهني سأضرب مثاليْن هنا:

هل يمكنك أن تتصور عمرَ بن الخطاب يسجد لوثن مِن "عجوة" صنَعه بيده، ثم أكله حين جاع؟ هذا كان تصرفًا عاديًا جدًا ومألوفًا مِن غالبية أصحاب رسول الله في الجاهلية.

هل يمكنك أن تتصور خالدَ بن الوليد "سيفَ الله المسلول" وسيفه يقطُر مِن دماء شهداء أُحُد، وهو ينظر إلى هند بنت عتبة تبقر بطنَ حمزةَ بن عبد المطلب وتمضغ كبدَه؟

هل يمكنك أن تتصور "أدولف هتلر" يرضع مِن ثدي أُمِّه ثم طفلاً يحبو؟

إنْ كنتَ تتصور هتلر فقط في عنفوان جبروته وسطوته كوحشٍ طاغية مستبد فأنت مختلٌّ عقليًا في محور التعامل مع الزمن في حياة الأفراد، وعليه لن يمكنك قراءة تاريخ أيٍّ مِن الأمم ولا أن تَبني مستقبلاً.

وإنْ كان وهْمُك الديني قد أضفى قدسية أزلية على عمرَ بن الخطاب وخالد بن الوليد لدرجة تَحول بينك وبين قبول -ومِن ثم فهم- حياتِهم في الجاهلية فإن هذا العقل لا يصلح أيضًا لفهْم حياتهم وواقعِهم بعد الإسلام. فَهْمُكَ لمجتمع النبي هنا سيكون وثنيًا وليس واقعيًا.

هل فكرتَ يومًا أنّ الأسرة المتوسطة اليوم تملك مِن وسائلِ الراحة والرفاهية عشراتِ أضعاف ما كان في مُلك كِسرى وقيصر زمنَ النبي-صلى الله عليه وسلم-؟ على الأقل لدينا مكيِّفات هواء تبرِّد وتدفئ حسْبَ الضرورة، لكنهم كانوا يستجيرون عن الحرّ بمراوحَ يحملها الخَدَم مِن ريش النعام، ويتدفأون بنار الحطب. وكانوا يُرسِلون الرسولَ برسالة عاجلة تأخذ فيها الرحلةُ أسابيعَ ذهابًا وإيابًا، بيْنَا نحن نتحاور في لحظةٍ واحدةٍ، وكلٌّ مِنا في مكان مختلف حول العالم. بل: هل فكرتَ يوما أنك وبضغطةٍ على زرٍ واحد على الكمبيوتر يمكنك الاطلاعُ على كل كُتُبِ الصحاح والمقارنة بينها في موضوع محدد، بينما العمل نفسه كان يحتاج لعُمرٍ كامل، إنْ لم يكن مستحيلاً في القرون الأولى؟

إنَّ فهْمَ متغيرات المعطيات الإنسانية من فكر وعقيدة وسلوكٍ اجتماعي ومواقفَ سياسيةٍ مع متغيرات الزمان الحقيقية مِن أهم إنْ لم تكن أهمَّ عاملٍ في بناء الحضارات. ومَن لا يَفهم التاريخَ كما هو، أو أقرب للحقيقة فلن يفهم حاضرَه ولن يَبني مستقبلاً.

سنناقش رواية وواقعَ "خير القرون" لاحقًا، لكن ما أسعى إليه في هذا المدخل هو إعانة العقل على ترتيب آلياته، كيف يمكنه تدبر ما سأكتب حتى يخلص منه بأكبر فائدةٍ مرجوةٍ سواءٌ تم الاتفاق معي أو الاختلاف. وقبْلَ الانتقال للموضوع فضَّلتُ أن أناقشَ موضوعًا شبيهًا لكنه حديثٌ جدًا حتى نرى كيف نُخطئ في تقدير الماضي دفاعًا عن قدسياتٍ وهميةٍ ورثناها.

اختلاط مفاهيم الزمان:

قبْلَ فترةٍ من الزمن، وفي فيينا عاصمةِ النمسا، تَحدَّثَ الدكتور عدنان إبراهيم عن حديثٍ وَرَد في الصحيحيْن، وقال بكل جرأة إنه مكذوبٌ على رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، كان ذلك ضمْنَ مساعيه الطيبة في تبرئة الرسول مما نُسِب إليه في بعض كُتُبِ الصحاح. بالطبع فإن مَن لا يَقبلون هذا النقدَ قد ردوا عليه، لكن بكل أسف اختلطت عليهم مفاهيمُ "زمانية" لذلك اتخذتُ هذا الحدثَ مدخلاً. فروايةُ الحديثِ في صحيح مسلِم كما يلي:

رَوَى أنسُ رضي الله عنه أن رَجُلا سأل النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال: متى تقوم الساعة؟ فسكَتَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم نَظَر إلى غلامٍ بين يديه مِن أزْدِ شنوءةَ فقال: { إنْ عمِّرَ هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة}. وقد وردت رواية شبيهة المعنى في صحيح البخاري.

مضمونُ الحديثِ مِن ظاهره هو أن السائلَ يَسأل عن موعد "قيام الساعة" التي تحدَّثتْ عنها كلُّ الكتبِ السماوية بما فيها القرآن. والظاهر مِن الرد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد حدَّدَ "قيامَ الساعة" قبْلَ أن يهرم الغلامُ الفارسي أو الرومي الذي كان أمامه. وتعقيبُ عدنان إبراهيم أن مثل هذه الأقاويل لا نحتاج للدفاع عنها؛ لأنها سَقطت بعِلم الفلك والحساب والرياضيات، ولا يمكن أن تكون في الأصل قد صَدَرت عن رسول الله حتى لو تضمنتها كتبُ الصحاح، إذ إن الغلامَ لا شك قد مات قبل 1300 سنة ولم تَقُم الساعةُ حتى اليوم.

طبيعي أن الوضع مُحرِجٌ جدًا خاصة حينما تتضمن الروايةُ أرقامًا؛ لأن لغة الأرقام لا تكذب. وقد اشتُهر عن الشيخ أحمد ديدات رحمه الله أنه كان يُحرج النصارى دائمًا بنقده لتناقضات "الكتاب المقدس" مع المنطق والواقع في رواياتٍ غالبًا تدخل في الأرقام والتواريخ التي تكثر في الكتاب المقدس، على عكس القرآن الذي لا يدخل في تفاصيلَ رقميةٍ إلا نادرًا. مِن المنطقي أن تتوقع أن غالبية المسلمين يضحكون ممن وضعَ الحديثَ مِن غير حرج أو كبيرِ عناء في السؤال عن سندِه؛ لأن الساعة لم تقُم ولا نحتاج لمضيعة وقت في النقاش حول الرواية. والمتدبِّرُ لها يلاحظ أن الغلام الذي اتخذه النبي، حسْبَ توهّمِ مَن صَنَع القصة، كان "خواجة" فارسيًا أو روميًا وهو ما كان يمثل عقدةَ "مركّب النقص" لدى العرب حينَها، إذ إن الرومَ والفُرس كانوا أعظمَ منهم حضارةً، وطبيعي أن يتصور الواحدُ أنهم يعمرون أكثرَ من العرب.

رغم عدم حاجة القصة لجدال، لم يكن مستغربًا أنْ ظهَر حزب "التبرير الإسلامي" الذي لا يَقبل مِن حيث المبدأ أن يُخطئ البخاري ومسلِم، ويزعم أنه لا يَقبل أن يخطئ رسولُ الله أيضًا، ولا ينكر بطبيعة الحال أن الغلامَ قد هرم ومات ولم تقُم الساعة منذ 1300 عام. فكان ردُّهم هو أن دكتور عدنان إبراهيم لم يفهم مضمونَ الحديث، وبعْدَ سَبِّه ولعنِه واتهامه بالعلمانية والماسونية والرافضية والرويبضية والاعتزال والتشيع وكل ما يمكن أن

يُشعِر القارئَ أنه لا مكان له مِن الإعراب، قدَّموا تبريرًا مضحكًا اختلَّ فيه لديهم محورُ الزمان مُثبتين سوءَ فهمِهم للقرآن وعدم تدبرهم لنص الرواية التي نقلتُها حرفيا أعلاه مِن صحيح مسلم. فقالوا إن الرسول-صلى الله عليه وسلم- كان يعلم أن الغلام ربما يموت قبْل قيام الساعة، لكنه قصد أن يُخبر الرجلَ أن "ساعتَه هو"، أي يوم موته، ستأتي قبل أن يهرم هذا الغلام ويكمل مئة عام، لذلك لا داعٍ للسؤال عن الساعة. وعليه فالحديثُ عندهم مِن أصح الصحاح وأجمعت الأمة على صحته وصحَّحه الشيخان ومَن سار على نهجهما. أمَّا عدنان فقدْ كَشَفَ –عندهم -عن جهلِه وعدائه المبيت للإسلام والتشكيك في أصح الصحاح بالخوض في هذا الحديث. وبالطبع لم ينسوا الدفاعَ عن البخاري ومسلِم والنووي والعسقلاني، إذ إنهم جميعًا صححوا هذا الحديثَ مئاتِ السنين بعد موت الغلام والساعة لم تقُم. لذلك كانت حُجتهم للخروج من المأزق هي أن الرسول كان يقول للرجل إن "ساعتك" أنت ستقوم قبل أن يهرم الغلام. أمثالُ هؤلاءِ عادةً لا ينتبهون إلى أن الدفاع عن كذبٍ قديم بكذبٍ جديد غالبًا ما يوقِع في مصيبة أكبرَ مِن الاعتراف بالحقيقة البسيطة وهي أن الحديثَ في الغالب مدسوسٌ حتى على البخاري ومسلم.

لقد استمعتُ للطرفيْن بعقلٍ متفتح، وشعرتُ بأسفٍ أن فات على هؤلاء أن مِن أوتِي جوامعَ الكلِم لا يخطئ في المصطلح القرآني. فلفظ "الساعة" مُعرَّفة بالألف واللام ليست مِن إفرازات الشِّعر الجاهلي، وإنما هي مِن اصطلاحات القرآن ومِن قبلِه التوراة والزبور والإنجيل. و"الساعةُ" لم تكن مِن ثقافة العرب قبل الإسلام. و"الساعة" حدثٌ كونيٌّ وليس إنسانيًا ولا علاقة للناس بها أفرادًا كانوا أو جماعات. "الساعة" هي لحظةٌ خاطفةٌ في تاريخ الكون ستقع والأرض مليئة بالأحياء الذين سيشهدونها ويَذهلون منها. "الساعة" مِن أكثر الغيبيات التي سُئِل عنها رسول الله-صلى الله عليه وسلم- كما سُئِل عنها النبيون مِن قبله، وفي كل مرة يسألونه عنها يتكفل القرآن بالرد أنَّ عِلْمَها عند الله وحدَه. وعليه فإن اختلاقَ مفهومِ "ساعتي" و"ساعتك" لتعني يومَ موتي ويومَ موتِك لتَبريرُ قولِ منسوبٍ لرسول الله أثبتَ التاريخُ أنه كذب، يحتاج لصدقٍ مع النفس ومراجعةِ تناولِنا للتراث الإسلامي.

فالقرآن قد ميَّز بين "الموت" كظاهرةٍ كونية وبين "الموتى في القبور" كعظام نخِرة. وميَّزَ بين "قيام الساعة" وبين "البعث" وبين "يوم القيامة" وبين "يوم الحساب" وبين "الدار الآخرة". لكلٍّ مِن هذه المفاهيم مدلوله القرآني المحدد، وآخر مَن يخطئ في فهمها هو النبي-صلى الله عليه وسلم-. ما يهمنا هنا هو أنّ الكونَ له نهاية صاعقة سمّاها القرآن "الساعة" مُعرَّفة بالألف واللام ستقع حين النفخة الأولى في الصور كما شرحنا في باب سِدرة المنتهى في كتاب "آذان الأنعام":

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68)} الزمر.

هذه النفخة هي التي تحدِّد وقوعَ "الساعة" ونهاية الكون. وسيشهدها الأحياءُ مِن البَشر بنص القرآن:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)} الحج.

هذه الآية ترسم لوحة بينة المعالم لهول "زلزلة الساعة" إذ إنها كارثة كونية لا منجى منها لمن عاصرها. فهي ليست كزلزالٍ أو بركانٍ أو فيضانٍ يمكن أن يهرب منه الناسُ لبلدٍ آخر ويستجيرون منه بإغاثات غيرهم، وإنما هي لحظةُ نهايةِ الكون بأمر خالقِه، ولا مفرّ ولا منجى منها حينئذ إلا إليه، ولا حتى بالهروب إلى القمر أو المريخ. وعليه فليس لي ولك ساعة وإنما "الساعة" حدثٌ كوني لم يقع بعد.

وقد تكرر سؤال النبي عنها فكانت الإجابة في القرآن واحدةً تأتي كأمرٍ مِن الله للنبي ليقُول كذا وكذا:

{**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ** أَيَّانَ مُرْسَاهَا **قُلْ** إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا **قُلْ** إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187)} الأعراف.

لاحِظ أن النبي هنا، مأمورٌ أن يقول فقط ما أمره به ربُّه ولا مجال للزيادة أو النقصان.

{**يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ** إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63)} الأحزاب.

{**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ** أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)} النازعات.

مِن هنا نلاحظ أن محاولة تبرير كذبٍ قديمٍ على رسول الله بكذبٍ جديدٍ لن يُجدي وإنما يفاقِم سوءَ الوضع ويزيد من اتساع نطاق الفضيحة. وقد سُئِل عنها المسيحُ عليها السلام فردَّ ردًا قاطعًا شبيهًا:

{وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفهما أحد، لا الملائكة الذين في السماء ولا الابن، إلا الأب. فانتبهوا وأشهروا لأنكم لا تعرفون متى يحين الوقت} (إنجيل مرقس- 13: 32-33).

وقد حَسَم القرآن أمرَ الساعةِ حسمًا لا يدع مجالاً للأوهام معها. فهي حدث كوني وقد ثقلت في السموات والأرض مما يفيد أن بداية تصدع الكون قد ظهرت، وأن أوانها قد اقترب، لكن الحديث هنا بعدد الحساب الفلكي وليس بالأيام ولا الأسابيع. ما لا يعقل هو الإتيان بأن كل مَن يموت فتلك ساعتُه، لأن في هذا التبرير إمَّا جهلاً بحقيقة الساعة البينة في القرآن وإما إنكارًا لها، وكلاهما لن يجعل الحديثَ صحيحًا:

{وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ **السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ** أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77)} النحل.

{وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ **وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ** فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (21)} الكهف.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) **وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا** وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)} الحج.

{إِنَّ اللَّهَ **عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ** الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)} لقمان.

{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا **السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً** وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66)} الزخرف.

من هنا نخلُص إلى أنه لا مجال للعبث مع لفظ "الساعة" في القرآن، وأن الرواية المنسوبة لرسول الله بحرفها في البخاري ومسلم رواية موضوعة مكذوبة ما كان يمكن أن تخرج من فمِ مَن أوتي جوامعَ الكلم، ولا نحتاج للتبرير. فالساعة حدثٌ كونيٌّ وصِفَ من نواحٍ كثيرةٍ في القرآن:

{إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5)} الانفطار.

مِن ناحيةٍ أخرى، فإن السؤالَ عنها أصلاً كان شَرَكًا للإيقاع بكل الأنبياء، لذلك تَكَفَّل اللهُ بالرد نيابة عن النبي بصيغة " قُل". بينما الموت هو زوال النفس الحية من الجسد. أما الموتى فهُم عظام رميمة إلى يوم القيامة. لا يَسمعون ولا يشعرون بالزمن:

{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145)} آل عمران.

{فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23)} مريم.

{أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37)} المؤمنون.

{وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22)} فاطر.

الموتُ هو نهاية الحياة، ولأن الميتَ لا يشعر بالزمن بعد موته، فإنه سيظن أنه مات قبل ساعةٍ أو بعض ساعة حينما يبعث يوم القيامة مهما طال الزمن بينه وبين القيامة.

ومَن مات قبل وقوع الساعة فلن يشهدها، وإنما سيبعث "يوم القيامة" بعد النفخة الثانية في الصور وليس الأولى. و"عالم الموت" بينه وبين الأحياء برزخٌ أو حاجز لكن لا علاقة لموت الإنسان بالساعة، لأن الساعة حدثٌ كونيٌّ وليس شخصيًا. وعليه فحين موتِ أبي -رحمه الله- كان أجَلُه قد جاء، لكن الساعة لم تأتِ بعدُ؛ لأن السماءَ والأرضَ ما زالتا في مكانهما. وعليه فإن مَن وَضَع الحديث بأثرٍ رجعيٍّ ربما بعد زمن البخاري ومسلم نفسيهما إنما أراد إحداثَ بلبلةٍ في فكر المسلمين وإحراجهم مع النبي. فكان الدكتور عدنان إبراهيم صادقًا مع نفسه فاختار صفَّ النبي، ونفى عنه أن يقول مثل هذا الكلام، بينما وقف غيرُه مع تقديس كل ما وصلنا من "خير القرون" لذلك لجأوا إلى أساليبَ لا يقبلُها الدين والمنطق لتبرير ما لا يمكن تبريره. هنا يكون الامتحان العسير في المصداقية والصدق مع النفس والناس والله ورسوله. وهذا يَفرض علينا حينما نمر بمثل هذه الأقاويل منسوبةً لمَن أوتي جوامعَ الكلم الاعتراف بإحدى هذه الحقائق المريرة:

أولاً: إمّا أن رسول الله قد تجرأ وأتى بإجابةٍ أثبت التاريخُ خطأها عن سؤالٍ قد تكفل الله بالإجابة عنه (3) مرات وأمَرَه حرفيًا ماذا يقول: "قل": ليس بينها هرم الغلام ولا ساعة الرجل.

ثانيًا: وإمّا أن البخاري ومسلِم قد أدخلا في صحيحيهما كلامًا يرفضه العقل، إذ إنه في زمانهما كانت المئة عام قد مضت، وأثبت الزمان عدم صحة الحديث، ولو كان احتجاجهما أن النبي يقصد "ساعة" الرجل وليس "الساعة" الكونية التي وصفها القرآن فإنهما يوهِمان الناسَ أن الرسول كان يخلط على الناس المفاهيمَ القرآنية ويتقوَّل على الله ما لم يقله في حدثٍ كونيٍّ غيبيٍّ ورد في القرآن مراتٍ عديدة بصيغةٍ صارمةٍ أنه مِن علم الغيب المطلق.

ثالثًا: وإمّا أن الرواية أضيفت لاحقًا لكتب الصحاح مِن ضمن ما أضيف لفتح بابٍ للسخرية من عقول المسلمين وزرع بذور الشك في مصداقية تراثهم الديني. وعليه فالرسول والبخاري ومسلم كلهم منها براء. علمًا بأن الرواية موجودةٌ في "كتاب الفتن" في البخاري ومسلم، والذي اشتمل في الصحيحين على الكثير من الأساطير الإسرائيلية منقولة حرفيًا ومنسوبة لرسول الله، أُدخِلت في كتب الحديث خصيصًا لتقوم ببث الفتن.

اختيارُ أيٍّ مِن الخيارات أعلاه يتوقف على مدى مصداقية القارئ، إنْ كان يحب أن يدخل مُدْخَلَ صدقٍ ويخرج مُخْرَجَ صِدْقٍ، لكن لا يوجد شيءٌ اسمُه ساعتي وساعتك وإنما هناك يوم موتي ويوم موتِك، بينما الساعة حدثٌ كونيٌّ سيقع وعلمُه عند الله وحدَه.

مِن هذا المدخل، فإن وصْفَ "القرون الأولى" بالخيرية أو ترتيب الخيرية في التاريخ الإنساني ترتيبًا مكانيًا أو زمانيًا تنازليًا كان أو تصاعديًا أمرٌ يحتاج لمراجعة لأنه يتعارض مع العدالة الإلهية من ناحية، ويتعارض مع النصوص القرآنية ويتعارض مع الحقائق التاريخية التي ننظر إليها اليوم بمصداقية بعد كل تلك القرون التي خلت من ناحية أخرى. وقد ساهم في تجميع مادة الباب معي الأخ محمد عمر موسى بابكر - باحث سوداني - والأخ "محمد سليم" الحشيم فلسطيني من القدس مقيم في رومانيا. ولأن مفهوم "خير القرون" مِن أخطر الاصطلاحات التي أُدخِلت على الفكر الإسلامي بعد عصر النبي لفتح أبواب كثيرة للفتن فنحتاج لفهم كيف تقوم حرب المصطلح.

حرب المصطلح:

"حرب المصطلح" أعني بها تحميلَ المصطلحاتِ القرآنية مدلولاتٍ لا تحتملُها اللغة، أو استعمالها عن قصد في مدلولات غير التي أُريدت منها في بادي الأمر، أو ابتكار مصطلحات جديدة وإعطائها مكانة قدسية في نفوس الناس حتى تصبح مِن الثوابت التي يصعب انتزاعُها. وقد وصف الله تعالى التحريفَ بوصفٍ دقيقٍ هو تحريف الكلم عن مواضعه:

{مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ...(46)} النساء.

{...يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ...(13)} المائدة.

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (41)} المائدة.

نلاحظ مِن هذه الآيات أنّ التحريفَ لا يعني الإتيانَ بكتابٍ جديدٍ، وإنّما تغييرٌ في بعض الكلمات أو الجُمَل عن مكانها حتى يتغير المعنى. ولعل لفظ التحريف نفسه يدل على أن التغيير يمكن أن يتم في حرف واحد فيقلب المعنى. وسنعود لمناقشة دورِ المنافقين في اختلاق الأقاويل عن النبي لاحقًا، لكن ما يهمنا هنا هو أن نستوعب أن حربَ الأديان تقوم في الأساس على تغيير المفاهيم بدقة فائقة إما بتغيير بعض الحروف أو الكلمات، ولذلك تظل الأمة مخدوعةً أن كل شيء على ما يرام طالما أن 90% أو يزيد لم يمسه تحريف. لكن الحكماء يقولون إنه يكفي أن تقطر قطرة سُمٍ واحدة فتسمِّم بركة ماءٍ كاملة. وسنمُر في هذا الكتاب بالكثير من المصطلحات التي تبدو لنا مفهومة ومِن المسلَّمَات للوهلة الأولى، لكن سنفاجَأ بأننا تم تنويمُنا قرونًا طويلة، وخيرُ ما نبدأ به هو مصطلح "خير القرون"

نقطةٌ مهمة أخيرة لكنها في غاية الخطورة: نلاحظ أن القرآن كان ينبِّه النبيَّ لوجود منافقين يسعون للتحريف، فهل كان يحذِّره مِن احتمال تحريفِهم للقرآن؟ هذا التحذير لا داعٍ له إذ إن الله قد تكفل بحفظ كتابه كما سنرى في باب "علوم القرآن". إذن، التحذير له مدلولٌ وحيدٌ هو أنهم سيحرِّفون كل ما هو خارج القرآن من أقوال النبي وأحداث التاريخ وغيرها. وقد كان منذ "خير القرون".

خير القرون:

مِنَ المفاهيم التي قام عليها التراثُ الإسلامي هو أن كل ما وصلنا مِن "خير القرون" لا بد وأنَّ فيه خيرًا حتى وإنْ كان سُمًّا زعافًا. ومفهومُ "خير القرون" تَرسَّخَ في أذهان الناس عامةً كانوا أم علماء، مِن تكرار القول المنسوب للرسول-صلى الله عليه وسلم- الذي مفاده:

مِن صحيح مسلم: (2535) في كتاب فضائل الصحابة: رواية عبد الله بن حصين أنه سمع رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: {إنَّ خيرَكم قَرْني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم} قال عمران: فلا أدري أقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، بعد قرنه، مرتيْن أو ثلاثة: {ثم يكون بعدَهم قومٌ يَشْهَدون ولا يُستَشهدون، ويخُونون ولا يُؤتمنون، ويُنذِرون ولا يُوفون، ويظهر فيهم السِّمَن}.

وورد برواية شبيهة في البخاري في كتاب الشهادات رقم 2651.

وقد وردت رواياتٌ مختلفةٌ للحديث نفسه في الصحيحين كلها تصب في خيرية أهل القرون الثلاثة الأولى وإن اختلفتِ الألفاظ. حين قولِ الرواية كانت القرون القادمة مستقبلاً وغيبًا لا يعلمه إلا الله. أمّا اليوم فتلك القرون الأولى بعيدةٌ عنا في الماضي ووقع فيها ما وقع، وبوسعنا النظر فيها والبحث عن مصداقية الخيرية في الرواية ليس علما للغيب وإنما قراءة للتاريخ.

قبل الدخول في تحليل هذا الحديث لا بد من التنبيه إلى أنه يُعَد في الفكر الديني مِن الأحاديث الإستراتيجية التي تَأسَّستْ عليها حزمةٌ من المفاهيم كمفهوم "مجتمع الصحابة" ثم "عدالة الصحابة"، ومفهوم "الإجماع"، ومفهوم "سُلطة السلف" في الفهم والتنزيل. لا بد من التأكيد على أن بحثَنا هذا لا تدنيس ولا تقديس فيه مهما كان مريرًا، وإنما هو دارسةٌ موضوعيةٌ تسعى لتحليل النص قرونًا بعد نهاية فترة تحقيق النبوءة، من خلال تحكيم القرآن، والعقل، والواقع، بغية تحرير قيم الوحي مِن قيود و إكراهات التاريخ ليتمكن الفكر من الانطلاقة النهضوية والمشاركة الإيجابية في صناعة الحياة والحضارة والرقي القيمي والأخلاقي والمعرفي

في المجتمع المسلِم والإنساني. وللموضوعية سنناقش الرواية من وجوه عدة: مِن ناحية تراثية، ومِن ناحية قرآنية، ومِن ناحية تاريخية.

الفهم التراثي لهذا الحديث:

تناولتِ المدرسةُ التراثية التي تقوم أساسًا على "النقل" هذا الحديثَ بمنهجها المعتاد وبطريقتها المعهودة من الاهتمام بسلسلة الرجال وتقديس المتون (وسنناقش مدلولَ السند والمتن في باب "الحديث")، دون الرجوع إلى نص الحديث أو محاكمته عن طريق محاور النقد الثلاثة: العقل، والقرآن، والتاريخ. لذلك ليس مستغرَبًا أن تخبطت أقوالُهم عن "الخيرية" المقصودة في الحديث، فمِنهم مَن قال إن الأفضلية والخيرية حاصلة لأفراد القرن الأول وليست لمجموعهم، ومِنهم مَن ذهب إلى أن الأفضلية والخيرية لمجموع كل ما في القرن الأول، ومِنهم مَن قال إن خير القرون تفيد تخصيصَ السابقين الأولين مِن المهاجرين والأنصار ومَن سلك مسلكهم، فهؤلاء أفضل الأمة، وهُم المرادون بالحديث. ومِنهم مَن أحصى بداية كلِّ قرنٍ ونهايتَه مِن الناحية الزمنية دون استنطاقٍ للسياق التاريخي والسياق الثقافي والسياسي المنتِج لهذا الحديث. لكن ليس منهم مَن توقَّفَ ثم سأل نفسه: هل قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم- هذا الكلامَ حقيقة؟؟؟

ومهما يكن مِن أمرٍ، فإنّ المدرسة التراثية بحثتْ وما زالت تبحث عن مبرراتٍ وتفسيرٍ للحديث على ضوء مناقضته للتاريخ الذي نعلمه الآن؛ لأن فِكرها أصلاً يقوم على الصحة الحرفية لكل ما في البخاري ومسلم رغم أنف التاريخ والعلم والكون والرسول والله تعالى.

في فِكرٍ عقيمٍ كهذا، كان طبيعيًا أن المنهجَ التراثي قد انتهى به المطافُ إلى التسليم المطلَق بمنطوق متن "نص" الحديث، ومِن ثم تأسيسُ سلطةٍ استدلاليةٍ لأفعال وأقوال عامةِ أهل القرون الثلاثة الأولى بلغت مرتبة العصمة والنبوة عمليًا، وإنْ كان أهلُ السُّنَّة ينكرون ذلك حين النقاش والحوار. فالمذهب الشيعي مثلاً، لا ينكِر أن فكرَه يقوم على عصمةِ سلسلةٍ مِن الأئمة مِن آل البيت مهما كانت هذه الفكرة نشازًا، لكن المذهب السُّنّي يقوم فِكرُه على العصمة المطلقة لكل أهل القرون الأولى وإنْ كانوا ينكِرون هذه الحقيقة حينما تقال هكذا مِن غير حجاب. والإشكالُ هنا ناتجٌ عن ترسيخ "عقلية التبرير"، وفي هذا السياق فإن مَن يسمون "أهل السُّنّة" يرددون أن السلف الصالح يستحيل أن يُجمِعوا على ضلالة، لذلك فكل ما توهَّمْنا أنهم قد أجمعوا عليه أصبح مستحيلاً نقدُه. وما وقع منهم أو بينهم مِن سوء يستحيل دراستُه ومناقشته، أمّا نحن الخَلَف فعلينا لعنةُ التخلف مهما كان التطور حليفَنا إذا لم يأتِ الشرع بأيّ ثناءٍ علينا، بل جاء الذم وكل الذم في جماهيرنا، وحال الأجيال القادمة مِنا أمام الله سيكون أسوأ مِن حالنا بحُكم بُعدِهم عن "خير القرون".

وهكذا أنتج العقلُ التراثيّ أو الكلاسيكيّ مِن هذا الحديث سلطةً معصومةً وهي سلطة السلف، فصار لا يستقيم فهْم القرآن إلا بفهم السلف، ولا يجوز أن يكون لك قولٌ ليس عندك فيه سلف، بل وصل الأمر إلى الإكثار من طَرْق مقولات قديمة ربما كان لها مقصدٌ حَسَن كمقولة الإمام مالك " لا يصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"، التي يظن الكثيرون اليوم أنها قولٌ للنبيّ، وكأنّ كلّ أولها كان صالحًا بأكمله. ولعل أخطرَ المفاهيم التي أفرزها هذا الحديث "خير القرون" المنسوبُ لرسول الله-صلى الله عليه وسلم- والمختلَف على مصداقيته ناهيك عن مدلوله، هو عقيدةُ حتميةِ التدهور التاريخي لهذه الأمة. إنَّ إقناعَ الناس بعقيدة أنَّ غدَهم لا محالة أسوأُ مِن أمسهم بسلطةٍ دينيةٍ، مسئول عن خَلْق أمّة تمشي إلى الأمام بظهرها، بينما وجهُها ينظر إلى الماضي ويحِن إليه، لذلك أصبحنا حثالة الشعوبِ والأمم.

خلاصةُ القول، أنَّ الرواية وجِدت منسوبة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- . وأن السلف رسخوا مصداقيتَها مع فشلهم التام في شرح مدلولها. وكلما تقدم الزمن ازددنا تخلفًا بطبيعة الحال لبُعد الهوة بيننا وبين قرون الخير التي لا خير بعدها. أمّا مناقشة مصداقية الرواية نفسها فلم تُعرَض للامتحان، وهذا ما نحتاج النظر فيه بعيدًا عن هوس الأسانيد والعنعنات المنسوبة لرجال بعضُهم لم يوجد أصلاً، كما سنناقش علم الحديث بالتفصيل في حينه. لنمتحن هنا مصداقية الرواية مع القرآن أولاً.

المفهوم القرآني للخيرية:

لا بد من البدء بصدمةٍ قويةٍ بكلماتٍ وجيزةٍ: منذ نهاية عصر الخلفاء الراشدين والأمة المسلِمة تعبد "إله التوراة" المُدمـِّر، وإنْ كانت تتعبد إليه "بسم الله الرحمن الرحيم". فإلهُ التوراةِ كما صوَّرَه اليهود إلهٌ عنصريٌّ يفضِّل بعضَ الناس على بعض بناءً على انتمائهم القَبَلي والعِرقي، ويفضِّل بعضَ الأزمان على بعض بناءً على أهواء أهلها، وليس لديه سُنَّةٌ ثابتة يقوم عليها مفهومُ العدالة والمساواة والرحمة بين العالمين وفي الكون. لقد عادت الجاهلية إلى المسلمين لكن في ثوب إله التوراة فقط تحت مسميات جديدة لا أسميها إسلامية لأنها لم تكن إسلامية حين ابتداعها، لكن تمت أسلمتُها قسْرا مع تطور الزمن، إذ إننا كلما أبحرنا في قرون الشر المفروضة علينا أصبحت مصطلحات من سلفنا أقربَ إلى روح الإسلام حسْبَ الوهم الذي توارثناه.

لكن لو عُدنا لإله القرآن، اللهِ ربِّ العالمين: ربِّ مَن آمن به ومَن كفر به، نجده قد قفل هذا البابَ تمامًا ليس مع أهل الكتاب فقط، وليس مع العرب عمومًا، وليس مع أتباع النبي وإنما مع النبي والأنبياء مِن قبلِه عليهم أفضل الصلاة والتسليم: معلِنًا لكل العالمين ألا محسوبية لديّ ولا قُربى عندي إلا بالعمل الصالح. لنتدبر هذه الآيات:

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17)} المائدة.

{لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (172)} النساء.

المسيحُ هو ثاني أعظمِ رسولٍ في العقيدة الإسلامية، ومِن أقرب المقربين إلى الله لكن الله تعالى هو مالك الملك الذي خَلَق المسيحَ وأُمّه وسيفعل بهما ما شاء، بل والملائكة أنفسهم مقهورون بسلطان الله. هكذا يتحدث القرآن عن السيادة الإلهية والملكوت الأعلى. ويستعمل اللغة نفسها مع النبي-صلى الله عليه وسلم-:

{وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75)} الإسراء.

لاحِظ التحذيرَ المغلَّظ للنبي-صلى الله عليه وسلم- إنْ هو خرج عن إطار الرسالة التي فُرضت عليه. هذا لم يكن وحيًا سريًّا للرسول أو تحذيرًا بصوت الهمس خوفًا من الفضيحة أو حفاظًا علي هيبة النبي، بل هو قرآن أُنزل عليه وفَرَض عليه أن يعلمه للناس إلى يوم القيامة. ومَن كان خطابُه لنبيِّه الذي أحب بهذه اللهجة السيادية فليس لديه قرونٌ خيِّرة وقرونٌ شريرة.

وقد حذر النبي أن يتقوَّل على الله خارج إطار الوحي:

{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43) <u>وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ</u> (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48)} الحاقة.

ولم يَنسَ أن يحذر أهلَّ خير القرون أنه يمكن إزالتهم من الوجود:

{نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَنْ <u>نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ</u> فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62)} الواقعة

{فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40) <u>عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ</u> وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (41) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42)} المعارج.

قد يندفع الدم في عروق "حزب التبرير" فيقولون إن المقصودين كانوا هُمُ الكفار، لكن الآية التالية تخاطب الذين آمنوا مِن أصحاب النبي باللهجة نفسها:

{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا **وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ** وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)} التوبة.

لا أدري كيف يمكن التوفيقُ بين قدسية "خير القرون" وتحذيرِ الله لهم في زمانهم بأن عليهم أمانة وأمامهم منهجًا إمّا أن يتَّبِعوه أو يستبدلهم بقوم آخرين. وهل حين الاستبدال سيصبح الجُدد هُم خير القرون؟ ويمضي القرآن في آياتٍ كثيرةٍ جدًا يناقض مفهومَ الخيرية المرتبطة بالزمان أو المكان:

{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37) هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)} محمد.

نلاحظ أيضًا أن التحذير هنا للذين آمنوا، وبالتخصيص لأصحاب النبي أو مَن تمت تسميتُهم لاحقًا بـ "الصحابة" في حرب المصطلح كما سنرى لاحقًا. ما يهم هو أن الله لم يخاطبهم أبدًا أنهم "خير القرون" بل يحذّرهم أنه يمكنه أن يلغي وجودَهم ويأتي بغيرهم.

إنّ القرآن ما زكّى أحدًا من باب القُرب مِن الله بأي وسيلة غير الوسائل المتاح للجميع -عبْر كل الأزمان وكل الأماكن- التنافس فيها و بها وعليها مما ينفي أي خيرية لأي زمن على زمن أو جيل على جيل أو مكان على مكان إلا وفقًا لمبادئَ ثابتةٍ تَساوَى الجميعُ في الوصول إليها، وهكذا فقط تكون العدالة الإلهية مطلقة ويكون هناك يومُ حسابٍ واحدٌ للأولين والآخِرين: "إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم":

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)} الحجرات.

وعليه فقد حذر أهل القرن الأول من الردة بعد موت النبي؛ لأن ارتدادهم أو ارتداد بعضِهم للجاهلية التي كانوا عليها كان احتمالاً واردًا قد تَحقق بعد موت النبي:

{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144)} آل عمران.

ومفهومُ الردةِ ينطبق كمفهومٍ فقط على مَن نشأ غيرَ مسلِمٍ ثم أسلم ثم ارتد عن الإسلام لِما كان عليه. أمّا مَن ولِدَ في أسرة مسلِمة ثم ترك الإسلام فمِن السذاجة وصفُه بالمرتد. وسأناقش ما يسمى بـ "حد الردة" في باب " فقه الكلب".

لا يَعجَزُ الباحثُ في القرآن عن تحديد معايير العدالة المطلقة التي لا يحدها زمان أو مكان، لكن العجز كل العجز لمن يبحث عن أفضلية لأهل القرون الأولى:

{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195)} آل عمران.

الآيات أعلاه ترسي حُكمًا عامًّا ساريًا إلى يوم القيامة. فَتَدَافُعُ الناس ماضٍ، والهجراتُ ماضيةٌ، والقتالُ واقعٌ، والجزاء يوم القيامة و لكل نفسٍ بما كسبت وليس متى ولا أين خُلقت. تلك كانت أمانيَّ اليهود "شعب الله

المختار" فنقلوها لنا لكن بصورة ترسخ في أذهاننا حتمية التدهور الأخلاقيّ والعقديّ والبعد عن الله كلما ابتعدنا عن القرون الأولى:

{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (125)} النساء.

{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)} النحل.

بل إن فكرة الخير في أمةٍ محددة لم ترِد في القرآن على الإطلاق، ولكن الخيرية دائمًا مرتبطة بأعمالٍ متاحٌ للجميع التنافس عليها باختلاف أزمنتهم وأماكنهم:

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112)} البقرة

{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30)} آل عمران.

{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)} آل عمران.

{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (127)} النساء.

{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31)} النحل.

ورغم أن القرآن قد ذكَر قصص الأنبياء مِن قبلِ محمدٍ، فإنه دائمًا يقفل البابَ أنه لا علاقة بينكم وبينهم لأن لكلِ أمةٍ ما كسبت:

{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)} البقرة

{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)} البقرة.

إنَّ تصنيفَ الناس قُربًا أو بُعدًا مِن الله وفقًا لتاريخ ومكان ميلادهم يتعارض مع العدل الإلهي، ويتعارض مع النص القرآني، ولا نحتاج للبحث عن أي مبررات لأي مقولة تناقِض هذه القواعدَ الأساسية في وصف العدالة الإلهية وما كان للنبي -صلي الله عليه وسلم- أن يكون مصدرها:

{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286)} البقرة.

وهكذا يمضي القرآن يرسخ للقيم الخيرة وليس "خير القرون":

{التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112)} التوبة.

ويؤكد أن التفضيل مطلقًا بيدِهِ يهبه كيف يشاء لمن يشاء:

{وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74)} آل عمران.

ختامًا: فإن سيادةَ وعدالة ورحمة الرحمنِ الرحيم تتطلب المساواةَ المطلقة في نيل الخير أو الشر بين كل الناس في كل زمان ومكان. هذه مسألةُ سيادةٍ ومُلك وملكوت، وليست مزاجَ أفرادٍ أو قبائلَ ولا حتى أنبياءٍ أو رسلٍ:

{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)} الحشر.

إذن، فإن فكرة أيِّ خيريةٍ أو قربٍ مِن الله، أو شرٍّ وبُعدٍ عن الله بناءً على معاييرَ زمانيةٍ ومكانية عقيدةٌ باطلة تتعارض مع صريح القرآن في مئات الآيات مما يجعل مضمونَ حديث "خير القرون" بمعناه المتداوَل كذبا وافتراءً على مَن أوتي جوامعَ الكلِم .

"خير القرون" في ميزان العقل:

مِن حيث المبدأ فإن العقلَ لا يرفض قولاً مِن النبي يزكّي فيه فئةً مِن أصحابه، أو يصف الزمانَ الذي نزل فيه القرآن وأتم الله نعمتَه على الناس بالخير. لكن كون مثل هذه الفكرة يتم تحريفُها - إن قيلت- لتخلق أفضلية لبَشر على بَشر فهذا هو المرفوض. فالحديث ظنّيّ الثبوت كأيّ حديث. والأحاديثُ أصلاً نَقلت المعاني وليس النص الحرفي لكلام النبي إلا فيما نَدَر. والمعاني تتوقف على فهْم مسلسل الناقلين لِما ينقلون قبْل السؤال عن حُسن أو سوءِ نيَّتِهم ومصداقيتهم. وعليه فإنه لو كانت هناك خيريةٌ في زمانٍ على زمان فهذا أمرٌ لا نجادل فيه؛ لأن الزمان لا يحاسَب ولا يَدخل الجنة ولا النار. المرفوضُ هو تفضيلُ أهل زمنٍ على أهل زمن فقط لأنهم ولِدوا في ذلك الزمن أو هذا.

المؤلِم في الأمر هو أن اليهودَ الذين ابتدعوا مفهومَ أنهم "شعب الله المختار" وجعلوا الخيرية فيهم ولهم في كل زمان ومكان هُمُ الذين زرعوا "مركّب النقص" المدمِّر في المجتمع المسلِم الذي ورث حتمية التدهور والبُعد عن الله كلما أشرقت شمسُ يومٍ جديد. فقدْ وصفوا هاجرَ جَدَّةَ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- أنها كانت جارية مصرية، بينما في تفسير التوراة مكتوبٌ بالحرف أنها كانت أميرةً مصرية كما نقلتُ في كتاب "آذان الأنعام" تحت عنوان "أميرة كل الأزمان هاجَر". وسنرى في أبواب هذا الكتاب أن مركّب النقص هذا قد خدم ضرورة خَلْق وهْم "مجتمع مقدس" اسمُه السلف خَرَج منه إلينا قرآنٌ أو ما يشبه القرآن الموازي، وبذلك لم يحتاجوا لتحريف كتاب الله المعصوم من التحريف، لكنهم بمركّب النقص هذا يَسوُقون القرونَ المغضوب عليها من أُمة محمدٍ إلى هاوية سحيقة ببث خرافاتٍ وأقاويلَ وأباطيلَ منسوبةٍ إلى "خير القرون" بعد أن تم تقديسُ تلك الفترة ولعن كلما بعدها.

إنَّ كل مَن يؤمن بحرفية هذه الروايات لا شك يؤمن بأن غدَه أسوأُ مِن أمسِه وذريته أكثر شرًا من أسلافه.

أنا أكتبُ هذه الكلماتِ اليومَ وأنا أنتحِبُ؛ لأني أبذل قصارى جهدي لتشخيص حالةٍ مَرَضيةٍ لأمة بأسرها: "الشعور بالهزيمة الحتمية بأمر إلهي". الشعور بأنك فاشلٌ لأنك أسودُ، أو لأنك أبيضُ، أو لأنك هِندي أو صيني، هذا الشعور لو تمكَّنَ مِن الإنسان نفسه فلن ينجح. الشعورُ بأن الشمس إذا طلعت فإننا ابتعدنا يومًا جديدًا عن "خير القرون" وأننا نغرق أكثر في "شر القرون"، بينما الحقيقة القرآنية التي نتلوها صباحَ مساءَ تؤكد أن البُعد من الله متساوٍ مِن حيث الزمان والمكان والعِرق واللغة وإلا اختَلّ مفهومُ العدالة الإلهية.

لكن: لنفترضْ أن النبي وصَفَ أن في زمنه اجتمعَ عددٌ كبير من أهل الجنة، هذا المعنى لا مانع فيه ولا يعارض لا نقلاً ولا عقلاً، لكن أفضلية القرن الأول فقط ناهيك عن الثلاثة قرون تحتاج لإيفاء هذه الحقائق حقها:

أولاً: تعريف معنى "الخيرية" وهذا ما فشل فيه السلف ومَن يقدِّس السلف مِن الخلف، بل تناقضت تعريفاتُهم في ذلك.

ثانيًا: كل زمان له معاييره فقدْ كان في "خير القرون" قومٌ سمَّاهم الله أو وصَفَهم بأنهم مِن أهل الجنة، أيضًا كان فيهم قومٌ سمَّاهم الله أنهم أهلُ النار. إذن، كان فيه قمة الخير وحضيض الشر.

ثالثًا: في خير القرون عاش مَن أحب النبيَّ ممن عاصره، وأيضا عاش مَن كرهه وقاتَله ومَن نافقه. إذن، اجتمَعَ فيه الخيرُ والشر معًا لأننا أصلاً ورثنا تاريخًا آمَنّا به لكننا لم نَرَ النبيَّ وما صحِبناه.

رابعًا: لو كنا نتوهم أن مَن عاشوا في خير القرون كانوا أصحابَ النبي فقط، فهؤلاء أنفسهم قتَل بعضُهم بعضًا بعد موتِه -كما سنرى-.

وهكذا فإنه مِن "خير القرون" ورثنا القرآن، وأيضا ورثنا أكبرَ قدْرٍ مِن الكذب على رسول الله، إذ إن تجارةَ وضْع الأحاديث وتلفيق القصص والخرافات ما راجت في أي قرن أكثر مما راجت في "خير القرون"، وكانت عاملاً مهمًا في ظهور ما يسمى بعلم الحديث -كما سنناقش لاحقًا-. ومِن خير القرون ورثنا أيضًا كلَّ الفتن التي ما زالت تفتِكُ بالأمة إلى اليوم، إذ لم يُبتَدعْ مذهبٌ أو طائفة جديدة بعد القرون الثلاثة الأولى.

وهكذا فإن مركَّب النقص المدّعي أن "خير القرون" هي القرون الأولى، واللعنة حتمية على القرون المتأخرة قد نجح في أن يُخرج لنا جيلاً لا يرى القربى من الله إلا بهدم المُدن وإبادة البَشر وإعادة الغِربان تنعق في الخرابات لأنها تذكّرهم بصورة "خير القرون" في أذهانهم.

وفقا لسُنَّة اللهِ في الكون (وسنناقش الفرْقَ بين "سُنّة الله" و"سُنّة النبي" في باب الحديث) فإن أطيبَ الثمر لا يَظهر يوم بذْر البذور أو نبْتِ النبتة أو نمو الشجرة، الثمارُ الطيبة تنتج بعد سنوات في بعض الأشجار التي تحتاج لفترة نضج، وفي بعضها بعد عقود، وفي بعضها بعد قرون كشجر الصمغ العربي لدينا في غرب السودان حيث ينتج الصمغ اليوم، وبعض الأشجار عمرُها تجاوز الألفَي عام. فهل الخير كان في قرونها الأولى أم الأخيرة؟

بل إن القرآن قد حسَم موضوع الأفضلية مع تطور الزمن في هذه الآية:

{قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (38) وَقَالَتْ **أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ** فَمَا **كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ** فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (}40 الأعراف.

مما سبق، لا نجد مكانًا في القرآن يسمح بمصداقية أفضلية أو خيرية تقوم على شهادة الميلاد مِن عِرقٍ أو زمن. على أننا ونحن نعيش بعد ألف عام من مقولة "خير القرون" المزعومة يمكننا أن نحسم مركَّب النقص هذا بعرض "خير القرون" على مقصلة التاريخ:

خير القرون في مقصلة التاريخ:

هنا نحتاج لعقلٍ متفتحٍ لا يقدِّس ولا يدنِّس، ولا يشطح في قراءة التاريخ حيثما كان وكيفما كان. مِن الطبيعي هنا أن نتناول المجتمعَ المسلِم بعد الهجرة، إذ إنه في مكة قبل الهجرة لم يكن هناك مجتمعٌ مسلم، وإنما كان المسلِمون أفرادًا وجماعاتٍ مضطهَدين ومقهورين بآلة البطش الوثنية المكية. وعليه فإن الفترةَ المكية لم يكن فيها حتى منافقون؛ لأن اعتناقَ الإسلام كان وبالاً على صاحبه. بل إن العكس كان هو السائد، إذ إن الكثيرين اعتنقوا الإسلامَ لكنهم أخفوه خوفًا من بطش قريش، بمعنى أنهم نافقوا سلطانَ قريش، لكنَّ مَن أشْهَرَ إسلامَه حينها فقدْ كان أصدقَ الصادقين.

في المرحلة المدنية تكوَّنَ المجتمعُ المسلم من هذه المكونات التي سنناقشها كُلاً على حِدة: "النبي والرسول"، "المهاجرين"، "الأنصار"، "اليهود"، "المنافقين"، ثم نناقش مرحلة ما بعد النبي، وتنقسم لفترة الخلفاء الراشدين وفترة ما بعد الخلافة.

سأنظر في كل حِقبة أو حدث من النقل والعقل والقرآن والتاريخ معا، إذ إن التقسيم هنا يلعب فيها تطور الزمن دوره.

"النبي" و"الرسول":

النبوءةُ مِن "نبأ" وهو الخبر العظيم، وكل مَن أنبأه اللهُ أصبح نبيّا، لكنَّ الرسالة منهجٌ كبيرٌ مفصَّلٌ يتنزل مفرَّقًا وفقًا لعلم العليم الخبير. وعليه فقد اكتملت نبوءةُ محمدٍ -عليه أفضل الصلاة والتسليم- مِن "اقرأ" الأولى، لكنَّ الرسالة نزلت متفرقة واستمر التنزيلُ إلى أن اخبره ربُّه بأن "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا".

مِن المؤسف أن الكثيرين يخلِطون بين "النبي" و"الرسول" جهلاً منهم، ومِن الأكثر أسفًا أن بعض مَن يعلمون يتعمدون الخلطَ؛ لأنه يُرضي أهواءَهم في التحريف والتلاعب بالقرآن.

محمدُ بن عبدِ الله كان بَشرًا اسمه محمد، ثم أنبأه الله وكلَّفَه بالرسالة الخاتمة للناس كافة. وعليه فإن الخطابَ القرآني يميِّز بين "محمدٍ" وبين "النبي" وبين "الرسول". نحن - أهلَ القرونِ المغضوب عليها- لم نَرَ محمدًا لا قبل ولا بعد البعثة، وبالتالي لسْنَا أصحابَ محمدٍ ولا قومَ أو أُمّة النبي؛ لأن النبي قد مات، لكننا أتباعُ وأُمَة الرسول-صلى الله عليه وسلم-، وعلينا واجبُ الرسالةِ وليس تاريخَ النبوةِ، ونشهد أن محمدًا "رسولُ الله" وليس "نبيَّ الله" وإنْ كانت النبوءةُ مُتضمَّنةً في الرسالة بالضرورة، لكنَّ تكليفَنا مرتبطٌ بالرسالة فقط. للتمييز بين النبوة والرسالة يُستحسَن مناقشة بعض الآيات:

{يَا أَيُّهَا **النَّبِيُّ** حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64) يَا أَيُّهَا **النَّبِيُّ** حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (65)} الأنفال.

نلاحظ أن لفظ النبي يأتي مرتبطًا بالأحداث اليومية في حياته، وهو ما أصبح تاريخ لا يخصنا إلا العلم به، لكن لا يمكننا المساهمة فيه. فالنبي هو شخصُ الرسولِ في زمانه وبيئته مع قومه وأعدائه، لذلك فالرسالة أشمل مِن النبوة، وإنْ كان كل منها يلعب دورًا في الآخر.

{يَا أَيُّهَا **النَّبِيُّ** جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73)} التوبة.

من الآية أعلاه نفهم أن الغِلْظة المَعنية موجهةٌ للنبي مع فئة من الكفار والمنافقين عاصروه، لكنها ليست حُكمًا رساليًا يأمرنا أن نغلظ على كل مَن نَصِفُه بالكُفر أو النفاق في أي زمان. طالما التوجيه ورد بصيغة النبوة فهو محدود بزمان ومكان النبي ولا يتعداه. وهذا يتضح أكثرَ في مثل هذه الآية:

{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى **النَّبِيِّ** وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117)} التوبة.

فالهجرةُ قد انتهت منذ أن فُتِحت مكة. إذن، الآية تصف فئة محددةً بالزمان والمكان مِن المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا النبيَّ في ساعة العُسرة. لا بد أن نتذكر أن مفهوم الهجرة ومفهوم المناصرة ساريان إلى يوم القيامة، لكن طالما ورد لفظ "النبي" في الآية فمضمونه مرتبط بحياة النبي-صلى الله عليه وسلم- . وهكذا نجد الآياتِ التي تخاطب "النبي" أو تتحدث عنه كلها لا يمكن استنساخُ محتواها لأنها تخص زمنَ وقومَ وبيتَ النبي:

{**النَّبِيُّ** أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (6)} الأحزاب.

{يَا أَيُّهَا **النَّبِيُّ** قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (28)} الأحزاب.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا **بُيُوتَ النَّبِيِّ** إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي **النَّبِيَّ** فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53)} الأحزاب.

{يَا أَيُّهَا **النَّبِيُّ** قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59)} الأحزاب.

على عكس ذلك، إذا تحدَّث القرآن عن "الرسول" فهذا حديثٌ يخص كل العالمين طالما أنه مرسَلٌ للناس كافة، لذلك نجد طبيعة المحتوى يختلف عن محتوى الآيات التي كان الخطابُ فيها للنبي:

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ **رَسُولَهُ** بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33)} التوبة

هنا نلاحظ بوضوح عالمية الخطاب لذلك كان الحديثُ عن الرسول وليس النبي. والرسولُ بطبيعة الحال لمن عاصره ومن بعده ليوم القيامة لذلك فالخطاب في الآية التالية تشترك فيه كل القرون:

{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ **رَسُولاً** مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151)} البقرة.

فما زال القرآن يعلّمنا ما لم نكن نعلم. وقد تجمع الآية الواحدة بين خطابٍ نبويٍّ وخطابٍ رسوليٍّ كما في هذه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ **اللَّهِ وَرَسُولِهِ** وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ **النَّبِيِّ** وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ **رَسُولِ اللَّهِ** أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)} الحجرات.

الحُكم الأول نَهى عن التسرع في إصدار الأحكام قبل معرفة حُكم "الله ورسوله". لاحِظ أن الصيغة ليست "يدي الله... ويدي رسوله" إذ إننا لا نتلقّى وحيًا مِن الله وإنما الرسول هو سفيرُ اللهِ إلينا، لذلك فإن الخطاب الرسالي خطابٌ من الله ممثلاً في شخص رسوله. ثم مضت الآية تنهى مَن عاصَر النبي مِن أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته أثناء الحوار معه، ولأن هذا النهي موجهٌ للذين عاصروا النبي فقدْ ورد الخطابُ بصيغة النبوة. لكن رسول الله له حُرمة حيًّا وميتًا، لذلك لما كان الأمر فقط بغض الصوت عند رسول الله فقد جاء بصيغة الرسول ليشمل غض الصوت حتى عند قبره توقيرًا وتكريمًا له حيًّا وميتًا. وتمضي آيات "الرسول" تشرح عالميتَها مِن غير غموض:

{وَمَا **أَرْسَلْنَاكَ** إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107)} الأنبياء.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي **رَسُولُ اللَّهِ** إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)} الأعراف.

{وَمَا **أَرْسَلْنَاكَ** إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28)} سبأ.

لاحِظ أن الآية التالية اشتملت على حكم خصّ قوم النبي ويخصنا أيضًا لذلك جاء الخطاب خطابًا رساليًّا وليس نبويًّا:

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ **الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ** شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ **الرَّسُولَ** مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)} البقرة.

فتغييرُ القِبلة إلي بيت المقدس كانت امتحانًا لمَن كان قلبُه معلقًا بمكة في حياة النبي، لكن التوجه نحو مكة أصبح قِبلة عالمية لكل القرون، لذلك خرج الحديث من خصوصية النبوة إلى عالمية الرسالة.

يختلط على بعضهم أن طاعة الله تَعني القرآن، بينما طاعة الرسول تعني السنة. من سوء فهم هذه الآية ومثيلاتها قليل:

{قُلْ أَطِيعُوا **اللَّهَ وَالرَّسُولَ** فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32)} آل عمران

{وَأَطِيعُوا **اللَّهَ وَالرَّسُولَ** لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132)} آل عمران.

الآية تقول: أطيعوا "اللهَ والرسولَ" ولم تقل: أطيعوا "اللهَ" وأطيعوا "رسوله". فمركَّب **"الله ورسوله"** مصدرٌ واحدٌ للتشريع هو القرآن الذي وصلنا عن طريق الرسول. وما ذُكِر الرسولُ هنا إلا تذكرةً للناس أن هذه الرسالة لها مصدرُها المحدد وهو قرآن محمدٍ ولا رسولَ بعده كما ادَّعى الكثيرون، لكنها لا تعني أن طاعة الله شيءٌ وطاعة الرسول شيءٌ آخر. وهكذا يمكننا ملاحظة مركَّب: "الله ورسوله":

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ **لِلَّهِ وَالرَّسُولِ** فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا **اللَّهَ وَرَسُولَهُ** إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1)} الأنفال.

الأنفال ليست لله وللرسول وإنما: لـ "الله والرسول"!

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا **اللَّهَ وَالرَّسُولَ** وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) الأنفال.

لاحِظ الفصلَ بين "الله والرسول"، والأمانات. إذن، "الله والرسول" مركَّبٌ واحدٌ.

أمَّا الآية التالية فلها مدلولٌ واضحٌ من السياق، لذلك فرَّقتْ بين طاعة الله وطاعة رسوله ثم طاعة أولي الأمر:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا **اللَّهَ** وَأَطِيعُوا **الرَّسُولَ** وَ**أُولِي الْأَمْرِ** مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى **اللَّهِ وَالرَّسُولِ** إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (59)} النساء.

الآية أعلاه تتحدث عن الطاعة في نظام الدولة والحُكم والقضايا القومية. في هذا السياق فإن الطاعة لله، لكن لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان هو الحاكم ورأسَ الدولةِ فإن طاعتَه الشخصية كانت من طاعة الله، وفي غياب الرسول كرأسٍ للدولة، فإن الأمر موجهٌ لنا لطاعة "أولي الأمر" ما داموا في طاعة "الله ورسوله"، بمعنى عدم خروجهم عن أسس الرسالة. إذ إن الآية مضت تشرح ذلك بالتركيز على رد النزاع ليس "إلى الله" و"إلى الرسول" وإنما إلى مركَّب "الله ورسوله" كمصدرٍ واحدٍ للتشريع. وهكذا يمكننا ملاحظة مركَّب "الله ورسوله" وليس "الله" و "رسوله".

لا بد من استيعاب أن الحُكم الذي يرد فيه لفظ "الرسول" حُكمٌ يخص كل الناس في كل الأزمان؛ لأننا جميعا مكلفون بالرسالة. لكن لو كان الكلام عن "النبي" فهو محصور بمجتمعه ويمكننا أخذ العبرة منهم وليس

التشريع. وهذه الحالة يمكن تمييزها في زماننا لأننا نتبع الرسالة، لكننا ما عاصرنا النبي، لكن الذين عاصروا النبي كان الوضع مختلفًا عندهم لأنهم مكلفون بطاعة الرسول كما نحن، ومكلفون بالتعامل والتعايش مع النبي وهو حيٌّ بينَهم، الوضع الذي لا ينطبق علينا. لذلك نجد آياتٍ تتحدث عن الرسول لكن ترد في الآية أو السياق قرائنُ توضِّح أنها مرتبطةٌ بقوم النبي ممثَّلاً في شخص الرسول، مثلاً:

{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا **لِلَّهِ وَالرَّسُولِ** مِنْ بَعْدِ مَا **أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ** لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172)} آل عمران.

هؤلاء استجابوا للمركَّب " الله والرسول" لكن الحديث كان عن موقعة مَرّ بها الرسول وقومُه. لذلك نفهم من هذه الآية أن أولئك القوم كانت طاعتهم "الله والرسول" وليس مجاملة أو عنصرية مع النبي. بمعنى أن منطلقهم كان تعبديًّا وطاعة لمضمون الرسالة. لذلك كان الأجر العظيم والخلاصة أننا لنا الأجر نفسه إنْ أطعنا "اللهَ ورسولَه" لكن بطبيعة الحال سيكون الرسول ممثلاً في رسالته وليس بدمِه ولحمه. مِن هنا نفهم لماذا فصَلَ اللهُ بين طاعة الله وطاعة رسوله في الآية التالية:

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12)} التغابن.

وحتى أُقرِّب المعنى: تصور الأيامُ التي كانت القِبلةُ فيها قد حوِّلتْ من الكعبة إلى بيت المقدس. هذا تم قبل الهجرة. وحينها كان الأمر شاقًّا على النبي نفسه، لكن تخفيفًا على أصحابه فقدْ كان يصلِّي متوجها إلى الكعبة من الركن الجنوبي الغربي بحيث يكون في خط مستقيم مع بيت المقدس. وعليه فلم يكن أصحابُه يشعرون بحرج لأنهم يواجهون الكعبة في كل الأحوال. لكن لمَّا هاجَرَ للمدينة أصبح بيت المقدس شمالاً ومكة غربًا ولا يمكن جمعهما في خطٍ واحدٍ. هنا التزَمَ "الرسول" بأمر الله وصلَّى تجاهَ بيتِ المقدس فشقّ الأمرُ على أصحابه، فكان امتحانًا لهم في طاعتهم لأمر "الله" الذي خضع له "رسوله" مِن غير حولٍ له ولا قوةٍ ولا خيارٍ. لذلك نبَّهَهم اللهَ أن طاعة الرسول وهو بينَهم طاعةٌ لله، ففصل بينهما في السياق. وهذا ما تشرحه هذه الآية، إذ إن المعبود هو الله في النهاية والمطاعَ هو الله، لكن الرسول هو سفيرُه إلينا، وطاعة الله تتمثل في طاعة رسوله (وليس نبيه). الآية التالية موجهة لقوم النبي لكنها تأمرهم أن ما يقوم به هو أمر رسالي واجب الطاعة وليس اجتهادًا نبويًّا، لذلك فرَّقَ بين الله والرسول:

{وَأَطِيعُوا **اللَّهَ** وَأَطِيعُوا **الرَّسُولَ** وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92)} المائدة.

والقاعدة الباقية لنا هي طاعة الله متمثلة في رسالته إلى رسوله:

{مَنْ يُطِعِ **الرَّسُولَ** فَقَدْ أَطَاعَ **اللَّهَ** وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80)} النساء.

لاحظنا في آيات "النبي" أعلاه أنها تدور حول شخص النبي وبيته وآله ومَن حوله في زمانه، لكن الرسالة مِن الله ولا علاقة لها ببيئة النبي، وموجهة لكل الناس وهذا كان دور الرسول الأهم:

{يَا أَيُّهَا **الرَّسُولُ** بَلِّغْ مَا **أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67)} المائدة.

مِن هنا نفهم لماذا كان لنا في "رسول الله" وليس في "نبي الله" أسوةٌ حَسَنة:

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي **رَسُولِ اللَّهِ** أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21)} الأحزاب.

فنحن غير مكلَّفين باستنساخ مجتمع النبي مما سُمِّي لاحقًا بـ "السُّنّة النبوية المطهرة" وإنما نحن مكلفون أن نتخذ "الرسول" وليس "النبي" أسوةً حَسَنة، كما كان الحال مع إبراهيمَ الذي سمَّانا المسلمين مِن قبلُ:

{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4)} الممتحنة.

ما يجب الانتباه إليه أنه لم يرد أمرٌ في القرآن بطاعة النبي؛ لأن النبي لم يكن مصدرَ تشريعٍ أبدًا. بل لم يرد على الإطلاق مركّب "نبي الله" لأن القرآن هو الرسالة ولا علاقة للقرآن بالنبي وإنما بالرسول. بل إن آيات التوجيه والتأنيب في القرآن خاطبت النبيَّ لتدلّل على أنه تصرفٌ شخصيٌّ وليس جزءًا من الرسالة:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ **اتَّقِ اللَّهَ** وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2)} الأحزاب.

لا يستقيم القول إذا كان: "يا أيها الرسول اتق الله" لأن حامل الرسالة بطبيعة الحال منفذٌ لها، لكن النبي مطالبٌ بتقوى الله ممثلاً في رسالته.

{لَقَدْ **تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ** وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117)} التوبة.

مِن هنا نفهم أن النبي بَشرٌ نبَّأه الله بأمورٍ غيبيةٍ لكنه في النهاية عاش حياته مع قومه وفق اجتهاده في فهم الرسالة، وفي ذلك يخطئ ويصيب ويستغفر ويتوب الله عليه. لكن الرسول شخصية اعتبارية ناقلة للرسالة ولا يستقيم معها التوجيه والتأنيب والتوبة وغيرها مما يشكل علاقة المؤمن بربه. لذلك فالتأنيب في سورة التحريم كان للنبي لأنه حَرَّم على نفسه ما لم يحرمه اللهُ عليه في الرسالة:

{يَا **أَيُّهَا النَّبِيُّ** لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1)} التحريم.

والنبي لا يكون إلا بَشرًا -لكن الرسول هو مَن حمل الرسالة- ولفظ الرسول ينطبق على البَشر والملائكة وعلى كل جنود الله الخفية من آليات الكون المطلق التي تنقل الرسائلَ حول الكون.

ختامًا، فقدْ تحدَّثَ القرآن عن "الرسول"، ثم عن "النبي"، وكلاهما شخصية اعتبارية أو وظيفية تقلَّدَها شخصُ محمدٍ بعد النبوة والرسالة، لذلك لم ترد الإشارة لمحمدٍ بالاسم إلا في أربعةِ مواضعَ كانت تشير إليه كمحمدٍ الرجلِ المعروف في قريشَ بعيدًا عن الاعتبارات الوظيفية التي أتت مع الوحي. مثلاً في السياق الاجتماعي أشار إليه باسمه المعروف:

{مَا كَانَ **مُحَمَّدٌ** أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40)} الأحزاب.

مِن هنا يجب تنبيه الناس أن يَحذروا الخلطَ بين اللفظيْن وهُم يتقولون عنه؛ لأن كُلًّا له مدلول: "هل قال نبي الله كذا وكذا"، أم قال رسول الله كذا وكذا" ؟

بعد الهجرة للمدينة ولِدَ ما يُعرَف بالمجتمع النبوي. ولأن الذين عاصروه كانوا يتعاملون مع محمدٍ كما كان قبلَ البعثة، وكانوا أصحابًا للنبي في حياته اليومية وشئون الدنيا، وكانوا فوق ذلك مؤمنين يتَّبعون رسالة الرسول، فقدْ تداخلت الثلاث شخصيات في التعامل مع فئات المجتمع المعقدة جدًا حينها وتحتاج منا لتمييز حتى نستوعب مدلولاتِ الخطاب القرآني في المجتمع النبوي.

المجتمع النبوي:

نبدأ بهذه الآية التي تلقي الضوءَ على مَن كان حول محمدٍ بعد أن أصبح في مِنعةٍ مِن قومه:

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ **وَالَّذِينَ مَعَهُ** أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ

فاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (29)} الفتح.

نلاحظ فيها الجمْعَ بين "محمدٍ" و "رسولِ الله" وليس "نبيِّ الله"، إذ إن المجتمع النبوي كان مرحلة تاريخية، لكن الالتفاف كان حول الرسول والرسالة وليس النبي والنبوءة. أيضًا نلاحظ أن الله لم يُعطِ أي اسمٍ لمن كانوا مع محمد، وإنما وصَفَهم بقِيَم الرسالة التي رسخها بينهم وفيهم وهي التراحم فيما بينهم والتعبد لله ووقوفهم صفًا واحدًا مع محمد ضد الكفار. مركَّب " الذين معه" يفيد الذين معه على الفكرة والمبدأ والعقيدة والرسالة وليس معه جغرافيًّا أو زمانيًّا، إذ إن الكفار والمنافقين كانوا أيضًا معه في الزمان والمكان نفسه. ومِن هنا نبدأ ملاحظة خلو القرآن من مصطلحٍ مبتدَعٍ ظهَر لاحقًا في التراث اسمه "الصحابة". فالذين كانوا مع محمد تكوَّنوا من فئتين كبيرتين هُما المهاجرون والأنصار.

المهاجرون والأنصار:

{**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ** مِنَ **الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ** وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)} التوبة.

{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ **وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ** الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117)} التوبة.

نلاحظ في هاتيْن الآيتين دقة المصطلح القرآني. فالمهاجرون والأنصار هُما النسيج الأكبر لِما عُرِف لاحقا بـ "الصحابة"، لكن القرآن لم يشملهم باسمٍ واحد بل وميَّزَ بين "الهجرة" و"النصرة"، بل وأعطى بُعدًا زمنيًا للتفضيل بينهم، إذ إن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار أعظمُ مكانةً عند الله مِن المتأخرين منهم؛ لأن ساعة العُسرة كانت في بداية تكوين المجتمع وليس في آخره حينما أصبح النبي في مِنعةٍ، وبدأ الإسلام يشكل دولة فيها مزايا دنيوية جَذّبت إليها الكثيرين من أصحاب المصالح الذين قدَّروا أن لحاقهم بركب الإسلام فيه مصالحُ دنيويةٌ مع سرعة تفكك مجتمع المشركين في مكة وغيرها من قبائلِ الصحراء.

ما يهمنا هنا هو أن الله لم يسمِّهم "الصحابة" كما تم إجمالُهم جميعا تحت هذا الاصطلاح الهدام لاحقًا. فالتمييز بين مكونات المجتمع النبوي سِمةٌ بارزةٌ في الخطاب القرآني، وعليها يجب أن يقوم التوثيق الصادق للتاريخ.

المعروف أن المهاجرين في الأساس هاجَروا من مكة، مع وجود بعض الأفراد مِن قبائلَ أخرى لحقوا بالنبي في المدينة وتزايدت الهجرات مع ازدياد قوة مجتمع المدينة السياسية والاقتصادية. أمّا الأنصار فهُم بالضرورة أهل المدينة الذين آووا رسولَ الله وأصحابَه في بداية الأمر. ولا بد من نظرة تحليلية لكل مِن الفئتين.

المهاجرون كانوا ينتمون لكل قبائلِ قريش ومَن كان معهم مِن الرقيق مِن أصول أخرى عربية كانت أو غير عربية. هؤلاء وبحكم الهجرة فقَدوا انتماءَهم القَبَلي والجغرافي، وأصبح أمامهم واقعٌ جديد يتطلب التعايش وفقًا لمبادئ وقيم الرسالة التي مِن أجلها هاجروا، لذلك كان انصهارُهم تحت مسمى "المهاجرين" أكثر انسجامًا من "الأنصار" الذين لم يتغير شيءٌ في واقعهم الجغرافيّ والقَبَليّ غير قبول الرسالة الجديدة.

الأنصارُ كانوا كتلتيْن: قبيلة الأوس وقبيلة الخزرج. هؤلاء هُم سكان يثربَ مِن قديم، وكانت بين القبيلتين نزاعاتٌ حول السيادة في المدينة. مناصرتهم للنبي ومَن هاجر معه وقبولهم للرسالة لم يُفقِدْهم بيوتَهم ولا مزارعَهم ولا مراعيَهم ولا تجارتهم كما كان الحال مع المهاجرين. لذلك فإنه وفي سياق الأفضلية مِن حيث التضحية فإن القرآن يقدِّم "المهاجرين" على "الأنصار"، ويقدِّم السابقين الأولين من الفئتين على المتأخرين منهم؛ لأنه كلما تقدم الزمن قلَّت التضحيات وزادت المصالح مع ازدياد قوة المجتمع المسلِم.

على أن دوافع الأنصار لدعوة النبي والمهاجرين كانت متعددةً ومعقدةً. فأهلُ يثربَ كانوا كبقية العرب وثنيين، لكن وثنيتهم لم تكن دعامة اقتصادِهم وسيادتهم كما كانت الحال مع سَدَنة البيت في مكة. وعليه فإن تغييرَ دينِهم لم يكن ليُفقِدهم وضعا اقتصاديًا وسياسيًا كما كان التحدي أمام قريش. أيضا فإن أهل يثربَ جاوروا اليهودَ قرونًا طويلةً، وكان معلومًا لديهم مفهومُ النبوءة والرسالة من احتكاكهم باليهود، لذلك فإن قبولَ فكرةِ

ظهور "نبيٍ" و"رسولٍ" لم تكن غريبة عليهم على الأقل من حيث الثقافة العامة، على عكس أهل مكة الذين ما كان لديهم علمٌ راسخٌ بالرسالات السماوية لا فيهم ولا في غيرهم. زدْ على ذلك فإن اليهودَ ما سكنوا المدينة من دون سائر مدن الصحراء اعتباطا، وإنما كانوا في انتظار ظهور نبيٍّ آخِرِ الزمان الذي كان مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، وكان معلومًا لديهم أنه سيُبعَث في مكة لكنه سيهاجر للمدينة وتكون هي مقرّه الأخير. ومع اقتراب موعد ظهور النبي المرتقب وثّقَ التاريخُ أن اليهود كانوا يستبشِرون بمقربِ مَقدمِه للمدينة وأنهم سيتّبعونه ويستأثرون بالمدينة معه في فترةٍ كان الأوس والخزرج في صراع سياسيٍّ وتنافُسٍ على السيادة. هذه العوامل مجتمعة هيأت الأوسَ والخزرج لقبول الدعوة والمسارعة باستضافة النبي والمهاجرين ليكون لهم السبقُ آملين أن يكون في مَقدمِه إليهم حلٌ لصراعاتهم ومكسبٌ سياسيٌّ لهم.

من هنا نفهم أن مجتمع المدينة تَشَكل من الأنصار بشقيهم الأوس والخزرج من ناحية، واليهود (بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع) من ناحية أخرى، ثم هبطت عليهم أفواجُ المهاجرين مع النبي ليتكون أول مجتمعٍ فيه مزيج من العِرقيات والثقافات على امتداد الصحراء ولأول مرة في تاريخها. وهنا نحتاج بالضرورة أن نلقي ضوءًا على اليهود في المدينة.

أرض تيمان:

صرَّحَ القرآن بلا شكٍ أن أهلَ الكتاب بشقيهم اليهود والنصارى كانوا على علمٍ تامٍّ بمَقْدِمِ نبيٍّ آخِرِ الزمان. على أنه سَمّى بني إسرائيلَ بالاسم، إذ إن كل الرسالات والنبوءات كانت في بيت إسرائيل بما فيها رسالة المسيح التي أُخرِجت عن سياقها التاريخي لاحقًا وأصبحت دينًا مستقلاً خارج بيت إسرائيل -كما رأينا في باب "في الطريق إلى دمشق"-. مِن هذا السياق يمكننا فهْم هذه الآيات التي تؤكد العلمَ الدقيق لبني إسرائيل بمقْدِمِ النبي وبكل تفاصيله الشخصية والجغرافية وطبيعة رسالته:

{وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ **يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ** (197)} الشعراء.

عِلْمُ علماءِ بَني إسرائيلَ بالحق الذي أُنزل على محمدٍ لا يقتضي بالضرورة عِلْمَ العامةِ منهم؛ لأن طبيعة اليهود أن علماءَهم يُخفون الكثير من تفاصيل الكتاب عن العامة خاصة في تلك الأزمنة البعيدة. لكن إقرارهم أن هذا هو النبي الموعود كان آيةً للعرب الذين لم يكن لهم حظٌ من الكتاب مِن قبلُ، فكانت شهادة علماءِ بني إسرائيلَ عليه آيةً لهم. وفي السياق نفسه، فإن كفرَهم به على علم ليس دليلَ عدمِ مصداقية النبي وإنما يعكس فقط تمردَهم المزمِن وقد طلبوا من موسى أن يريهم اللهَ جهرةً:

{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147)} البقرة.

ليس هناك تعبيرٌ أبلغ من المقارنة بين معرفتهم للنبي كمعرفتهم لأبنائهم، مما يدلل على علمهم بتفاصيلَ دقيقةٍ جدًا عنه كشخصٍ وكَنَبي كأنه واحدٌ مِن أبنائهم.

{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)} الصف.

يجب ألا يختلط علينا أن عيسى-عليه السلام- كان رسولاً لبني إسرائيل، وما تحولت رسالتُه إلى رسالةٍ عالميةٍ إلا بعد تبديلها بالمسيحية البولونية. إلا أن نبوءةَ محمدٍ -عليه أفضل الصلاة والتسليم- ظلت مكتوبة في التوراة والإنجيل إلى حين بعثِه:

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ **مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ** يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)} الأعراف.

سنعيد تعريفَ "النبي الأميّ" بصورة مذهلةٍ -إن شاء الله- في باب "علوم القرآن" إذ إن صفة الأميّ تم تحريفُها بصورةٍ مضحكةٍ وانطلت على العرب إلى اليوم.

ما يهمنا هو أن بني إسرائيلَ كانوا على علمٍ تامٍّ بأدق تفاصيلِ سيرة نبي آخِر الزمان وقد كان هذا أحدَ أهم الأسباب لاستقرار اليهود في يثربَ لعلمهم أنها ستكون مقره الدائم. وقد بقيت الكثير من النبوءات في الكتاب المقدس إلى اليوم لكنها تحتاج لعلمٍ بمفاتيح الكتاب المقدس للانتباه إليها. وهنا أنقل بعض تلك المعالم التي ارتبطت بهجرة اليهود إلى يثربَ بالتحديد. وحتى نفهم التفاصيل لا بد من التعرف على سلالات العرب من ذرية إسماعيلَ وفقًا لتوراة اليهود. فقدْ وصَفَ سِفرُ التكوين ذرية إسماعيلَ كما يلي:

{وهذا سِجل مواليد إسماعيل ابن إبراهيمَ الذي أنجبته هاجَرُ المصرية جارية سارة لإبراهيم. وهذه أسماء أبناء إسماعيل مدوَّنة حسب ترتيب ولادتهم: نَبَايُوت بكر إسماعيل، و**قَيْدَار** وأدبيل و مِبْسام، ومِشْمَاع ودومة ومسَّا، و حَدار و **تَيْمَا** وبِطُور ونافيش و قِدْمَة.} (سِفر التكوين- 25 13-15).

مِن أبناء إسماعيلَ الاثني عشر يهمّنا هنا أن نتذكر ابنَه الأكبر " **نبايوت**" والثاني "**قيدار**" والتاسع "**تيما**". فحسْبَ وصفِ التراثِ اليهودي القديم أن أبناء قيدار انتشروا في غرب الجزيرة العربية، وقد وضعتْ إحدى الخرائط القديمة - وجدتُها في تسعينات القرن الماضي في نسخة قديمة للكتاب المقدس غير متداولة الآن- اسمَ "قيدار" على موقع مكة الحالي. أمّا "تيما" فيقال إن أبناءَه سكنوا منطقة اليمن حاليًا لذلك وحتى اليوم فاليمن في العبرية اسمها "تيمان"، وحسْبَ وصفِ ابن كثير في البداية والنهاية أن مِن اليمن هاجَر "الأوس" و"الخزرج" بعد سيل العرم في القرن الخامس الميلادي شمالاً، واستقروا في واحةٍ خضراءَ قُربَ يثربَ، وامتهنوا الزراعة والتجارة. وحملتْ تلك الواحةُ اسمَ "تيمان" أو "تيماء" لاحقًا وحوْلها نشأت يثربُ المعروفةُ في زمن النبي-صلى الله عليه وسلم- . وفي الخريطة القديمة ذاتِها وجدتُ اسمَ "تيماء" في موقع المدينة المنورة اليوم. ولأن نبوءاتِ الكتابِ المقدس كانت قد حَددتْ بدقة هجرةَ النبي من قيدارَ إلى تيماءَ، ووصفتْ موقعة بدر بشيءٍ من التفصيل فقدْ سكن اليهودُ هناك زمنًا قبل هجرة الأوس والخزرج إليها. إلا أن مصادر التاريخ هنا متضاربةٌ وشحيحةٌ حول هوية وتاريخ سكنى اليهود في يثرب. فقد أشار جواد علي في كتابه "المفصل" إلى هجرتيْن على الأقل؛ الأولى كانت بعد غزو "نبوخذ نصر" الفارسي لفلسطينَ عام 586 قبل الميلاد وأخذِهِ عددًا من اليهود إلى بابلَ ومنها هاجَر البعض إلى مناطقَ مختلفةٍ في الجزيرة العربية. أمّا الهجرة الثانية، فكانت بعد غزو الرومان لفلسطينَ في القرن الأول قبل الميلاد. إلا أن هناك روايةً ثالثة تقول إن هجرة اليهود ليثربَ كانت في زمن موسى -عليه السلام-، حينما أرسَل جيشًا قضى على "العماليق" الذين كانوا يسكنون يثرب، وهُم بنو عملاق بن أرفخشد بن سام بن نوح. وتعتبر بعض مصادر اليهود أن قبائل "بني النضير" و"بني قريظة" كانوا يُعتبَرون أكثرَ يهوديةً من "بني قينقاع" إذ إنهم كانوا يُعرَفون بالكاهنيين نسبة لولد الكاهن بن هارون بن عمران أخِي موسى -عليه السلام-. لكن عموم اليهود كانوا يَعتبرون يهودَ يثربَ بقبائلهم الثلاثة أدنى يهوديةً مِن يهود الشام نسبة لاستعرابهم وانقطاعهم عن الأصل اليهودي، حتى في اللغة التي ما بقيت إلا عند الأحبار الذين كانوا يتلون الكتاب. لا بد من التنبيه هنا إلى أن اليهود معروفون وعلى امتداد تاريخ الإنسانية بتزوير التاريخ، فلكل قصةٍ تاريخٌ حقيقي يعرفونه هُم، وتاريخ كتبوه لغيرهم ليحقق لهم مآربَ مرتبطة بعنصرية "شعب الله المختار"، وما حفرياتُهم الكثيفة تحت بيت المقدس الحالية إلا دليلاً عمليًّا لسعيهم لزرع آثارٍ وهميةٍ اليوم حتى يعاد اكتشافُها لاحقًا ترجِّح أحقيتِهم في الأرض.

ما يهمنا هنا هو أن تواجُدَ ثِقلٍ يهودي في يثربَ لم يكن صدفة، لكن لأن الجزيرة العربية بنص الكتاب المقدس كانت أرضَ العرب من اليمن إلى الشام فإن هجرة الأوس والخزرج ليثربَ هي التي صنعت المدينة لكثرتهم وكونهم امتدادًا عربيًّا في أرضٍ عربيةٍ، لكنها بطبيعة الحال لم تَخلُ من صراعات بينهما من ناحية وبين اليهود من ناحية أخرى، مما جعل مجتمعَ يثربَ في أمَسِّ الحاجة لعلاجٍ سياسي جذري مع بزوغ فَجْر الإسلام في مكة. مِن هنا يمكننا أن نفهم مصادر التاريخ الإسلامي التي ذَكَرت أن اليهود كانوا بانتظار النبي الذي وجدوه مكتوبًا

عندهم في التوراة والإنجيل ليرجِّح كفة الصراع لصالحهم. والرواية التالية لا تدع مجالاً للشك أنها تصِف هجرةً مهمة من "قيدار" مكة إلى "تيماء" المدينة، ثم انتصار المهاجرين على القيداريين "مكة" بعد أقل من عاميْن وزوال هيبةِ مكة في الصحراء:

{نبوءة بشأن شبه الجزيرة العربية: ستبيتين في صحاري بلاد العرب يا قوافلَ الددانيين، فاحملوا يا **أهل تَيْمَاء** الماءَ للعطشان، واستقبِلوا الهاربين بالخبز، لأنهم قد فروا من السيف المسلول، والقوس المتوتر، ومِن وطيس المعركة. لأنه هذا ما قاله لي الرب: في غضون سَنَةٍ مماثلة لسَنَة الأجير **يفنى كل مجد قَيْدار**، وتكون بقية الرماة، الأبطال من أبناء **قيدار** قلة. لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم } (كتاب إشعياء- 21: 13-17.)

واضحٌ إنها نبوءةٌ تخص العربَ وتسمِّي "شبه جزيرة العرب". وواضحٌ إنها تصف هجرةَ مستضعَفين أولاً إلى أرض تيماءَ التي استقبلتهم بكل خير. أمّا صيغة "في غضون سَنة مماثلة لسنة الأجير" فتعبيرٌ يهوديٌّ قديمٌ يَعني أكثرَ مِن عام وأقل من عامين لأن عقد الأجير عندهم يجدَّد كل عام. والمعروفُ أن موقعة بدْر قد وقعت حوالَي عامٍ ونصف بعد الهجرة وفيها هُزمت قريشُ وقُتِل أبطالها "أبناء قيدار". أمّا "الددانيين" فوجدتُها في أحد القواميس المترجمة لمصطلحات الكتاب المقدس وتشير إلى قبائلَ متفرقةٍ انحدرت من ابن إسماعيلَ الأول "نَبَايُوت" كانت منتشرة بين مكة والمدينة. مَن هنا يمكننا تصور منتهى الدقة في وصف تحرك هجرة النبي المرتقَب من قيدارَ عبْر الددانيين إلى تيماء!

مما سبق يمكننا أن نفهم أنه بينما كان العرب يتحركون في ظلامٍ تامٍّ عن التاريخ والمستقبل كان اليهود لديهم عِلمٌ دقيقٌ من نبوءاتٍ قديمةٍ بمجريات الأحداث، لذلك كان استقرارهم في يثربَ زمنًا طويلاً قبْل البعثة. على أن تاريخ اليهود منذ زمن موسى إلى زمن المسيح -عليهما السلام- يؤكد طبيعتَهم في التمرد على أنبيائهم ورُسُلِهم هُم، فكيف بهم يُسلِمون لرسولٍ عربيٍّ فشلوا في استمالته لصالحهم ومصالحهم. هذه الحقيقة ترجِّح ظهورَ قِطاعٍ من المنافقين وسْطَ يهود يثربَ أظهروا إسلامَهم من أجل التعايش مع السلطان الجديد الذي أسلم له غالبية أهل يثربَ إمّا إيمانًا أو نفاقًا. ومن هنا يمكننا أن نفهم أن المجتمع النبوي في المدينة اختلف عن مجتمع المسلمين في مكة في حقيقتيْن: الأولى أن المسلمين في مكة كانوا غالبًا قُرَشيين مضطهَدين وخارج السلطة، لذلك لم يكن بينهم منافقون بل العكس كان هو الصحيح وهو وجود مسلمين أخفوْا إسلامَهم خوفًا من بطش قريش. الثانية هي أن مجتمع المدينة كانت السلطة فيه في يد المسلمين، وكان مجتمعًا مزيجًا من أعراقٍ كثيرةٍ من الأوس والخزرج وقبائلِ اليهود، ثم أضيف إليهم المهاجرون من مكة وغيرها ممن لحق بركب الإسلام. وعليه فإن ظاهرةَ النفاق وسْطَ المسلمين ظهرت في المدينة وليس في مكة وقد وثقها القرآن توثيقًا مفصلاً يحتاج لنظرة مستقلة.

المنافقون:

يتجاهل التاريخُ الإسلامي المزوّرُ الدورَ الفعالَ للمنافقين في "خير القرون" رغم أن الله وثّق وجودَهم بسورةٍ تحمل اسمَهم. وسنكتشف لاحقًا أن هذا التزوير كان ضرورة "نفاق" جديد بعد أن اختُلِق مصطلح "مجتمع الصحابة" الوهميّ في كتب التراث، ثم تقديسه بصفة العدالة المطلقة ،الأمرُ الذي يتعارض مع وجود منافقين بين الصحابة كما سوف نرى. وقد عرَّف اللهَ النفاقَ بإظهار الإسلام عَلَنًا وإنكاره في القلوب، وحذَّر منهم – من المنافقين- النبيَّ لأنهم أخطر الأعداء حينئذٍ:

{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ **هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ** قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4)} سورة المنافقون.

هنا نحتاج للعودة لمُدْخَلَ صدق ومُخْرَجَ صِدْقٍ في قراءة التاريخ الإسلامي: النفاق في القلوب ولا يعلمه إلا الله. ولا يستطيع كائنُ مَن كان أن يحدد المنافِقَ مِن الصادق. أيضًا فإن المنافق لا بد وأن يكون صاحِبَ مصلحةٍ، لذلك يفعل كلما في وسعه ليُخفي نفاقه فيَظهر بذلك أكثر صدقًا وولاءً مِن المؤمن الضعيف. فكيف كان بوسع المؤرخين

تحديدُ هويةِ المنافقين في مجتمع المدينة؟ الشائع في الدراسات الدينية الأكاديمية هو تسمية عبد الله بن أُبَي ابن سلول وفئةٍ قليلة معه بالنفاق حتى يصفو الجو لإطلاق حُكم العدالة على بقيةٍ مِن صَحْبِ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لكن هذه المراوغة تَسقط بقليل من التحليل. فقد وصف الله فئتيْن من المنافقين: فئة كانت معلومة للنبي، وفئة لا يعلمها إلا الله:

{وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ **لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ** سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (101) **وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا** بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102)} التوبة.

بكل أسفٍ، فقدْ خلت كتبُ التراثِ من أي إشارة للمنافقين الذين لم يكن يعلمهم إلا الله وصرَّحَ باللفظ أن النبي نفسه لم يكن يعلمهم. هؤلاء بنص الآية كانوا من الأعراب وليسوا أهلَ الكتاب. فقدْ ركَّزَ التاريخُ على الفئة التي كانت معروفة للنبي في قصة مسجد الضرار، وفي قصة محاولة اغتيال النبي بعد موقعة تبوك التي يقال إن الله كَشَفَ للنبي أسماءَ المتآمرين فيها وأسرَّها النبيُّ لحذيفة بن اليمان. ويقال إن أمْرَ هؤلاء ظلَّ سرًا لا يعرفه إلا النبيُّ وحذيفةُ لدرجة أن عمر بن الخطاب كان لا يصلّي على أحد من الصحابة إلا إذا صلَّى عليه حذيفةُ خشيةَ أن يكون من المنافقين. ويمضي القرآن في آياتٍ كثيرة يوثق وجودَ المنافقين كجزءٍ لا يتجزأ من مجتمع النبي:

{فَمَا لَكُمْ فِي **الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ** وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (88)} النساء.

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ **أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ** (10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا **وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ** (11)} العنكبوت.

مما سبق لا نجد مَخرجًا للذين يزعمون أن المنافقين كانوا فئة واحدةً معلومة للنبي وتمّ التعامل معها. ولا بد من التنبيه إلى أن النفاقَ نوعان: النفاق الشخصيّ، وغالبًا ما ينطلق من منطلقٍ شخصيٍّ يمكن التكهن به كنفاق ابن سلول الذي فقدَ مُلكَه الوشيك بهجرة النبي-صلى الله عليه وسلم- . أمّا النفاق العام فظاهرةٌ سياسية تنتشر في كل المجتمعات مداهِنةً للسلطة الحاكمة من أجل التسلق والمعايش. وأمثال هؤلاء لا يمكن حصرُهم في أي مجتمع ناهيك عن مجتمع حديث التكوين غير مسبوق في الجزيرة العربية حينئذٍ. فالمدينة أصبحت دولة تنمو قوتُها السياسية والاقتصادية كل يوم مع تفككٍ موازٍ في القبائل والمدن العربية الأخرى. طبيعي إذن، أنه وفي نهاية حياة النبيّ -صلى الله عليه وسلم- أصبح لا مفر أمام كل العرب إلا "الإسلام" بمعنى الاستسلام للواقع الجديد ومجاراته ولو نفاقًا، وهذا ربما يفسر هذه الآية:

{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14)} الحجرات.

هؤلاء أسلموا للسلطة الجديدة واستسلموا للواقع، لكن الإيمان لم يدخلْ قلوبَهم بعد. ولم يقفل الله البابَ أمامهم وإنما دعاهم لطاعة الله ورسوله للانتقال إلى الإيمان الحقيقي من حالة النفاق العام التي أسلموا بها. ولفظ الأعراب لا يعني صغارَ البدو الرُحَّل وإنما سادة القوم. وعليه فإنه كلما تقدم الزمن من عمر الرسالة كلما قلّ الصدق وازداد النفاق، لذلك فقدْ حصَّنَ اللهُ بشهادةٍ منه السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كما رأينا؛ حتى لا يتم خلطهم مع طلقاءِ مكة ومَن أسلم بعد الفتح حينما أصبح لا مفر من إعلان الإسلام ولو نفاقًا.

بيْدَ أن النفاق لم يكن بين العرب فقط، فقدْ كان لأهل الكتاب نصيبُهم أيضا من المنافقين:

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73)} آل عمران.

وقد ظلت أسماء اليهود "كعب الأحبار" و"عبد الله بن سلام" و"وهب بن منبه" و"زيد بن اللُّصَيت" موضعَ شكٍ، إذ إنهم لعِبوا دورًا كبيرًا في بث الإسرائيليات في التراث الإسلامي التي تحولت فيما بعدُ إلى أحاديثَ وتفسيرٍ للقرآن، كما سنرى لاحقًا أن أبا هريرةَ قد اتُّهِمَ مِرارًا بأنه يخلِط بين ما سمعه من كعب الأحبار وما سمعه من النبي. ما يهمنا هو النص القرآني الذي لا يكذب في وجود منافقين من أهل الكتاب.

إن مشكلة النفاق ليست غريبة ولا تثير شكًا في أي مجتمع، لكنها تسبب مشكلة للذين قدَّسوا التراثَ الإسلاميّ، إذ إنّ اختلاقَ مصطلحِ "الصحابة" قد شمل كل مَن صحب رسول الله-صلى الله عليه وسلم- في حياته، وإنَّ عِلمَ الحديثِ الذي ابتُكِر لاحقًا قد قام أساسًا على مفهوم عدالة كل الصحابة. وعليه فإن النفاقَ الحالي للحفاظ على هذه المغالطات ألا تَسقط يتطلب إنكارَ- أو على الأقل- التقليل من شأن المنافقين في مجتمع النبي وحصرهم في أسماءَ معدودةٍ رغم ما في هذا من مغالطة للقرآن. وهذا يتطلب مِنا مراجعة مفهومِ الصحبة في القرآن الذي لا يكذب، إذ إن في حدِّه الحدَّ بين الجِدِّ واللعبِ.

الصحبة في القرآن:

مِن المفارقات الغريبة في التراث الإسلاميّ أنه كله يقوم على مجتمعٍ وهمي لم يذكره اللهُ في القرآن أبدًا. بل إن القرآن يشهد على أنه لم يوجَد أصلاً. فلفظ "صحابي" و"صحابية" المتداوَل عندنا كأنه مِن ثوابت العقيدة بعد الشهادتيْن مأخوذٌ مِن الأصل اللغوي "صحب". وقد خُلِق المصطلح لاحقًا ليخدم علمَ الحديث فسُمِّيَ كلُّ مَن صحب رسولَ الله ومات مسلِما "صحابيًا". لكن القرآن يقف كالسد المنيع للتلاعب بالألفاظ إذ إن الله قد سبق علمَ الحديثِ وأطلق لفظ صحابي على المشركين أيضًا، أي أنه استعمل اللفظ لكل مَن صحب رسول الله مؤمنًا كان أو كافرًا، مشركًا أو منافقًا، طالما تمّت الصحبةُ بمعنى المرافقة فهُم أصحابُه:

{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ **صَاحِبُكُمْ** وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)} النجم.

{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا **بِصَاحِبِكُمْ** مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46)} سبأ.

{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا **صَاحِبُكُمْ** بِمَجْنُونٍ (22)} التكوير.

{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا **بِصَاحِبِهِمْ** مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (184)} الأعراف.

مِن السياق نفهم أن المخاطَبين بلفظ "صاحبكم" و"صاحبهم" في كلِّ الآيات السابقة هُم المشركون الذين اتَّهَموا الرسولَ -صلى الله عليه وسلم- بالضلال والغواية والجنون. إذن، هو صاحبهم، كما أنك تُطلِق لفظ "صاحبي" على مَن جلس بجانبك في القطار أو الطائرة طالما تمت الصحبةُ بغض النظر عن العقيدة. وقد تكرر استعمال مفهوم الصحبة بمدلولها اللغوي في القرآن وفي مواضعَ كثيرةٍ تختلف فيها العقيدة:

{قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ **حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ** يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71)} الأنعام.

هذا حيرانُ استهوته الشياطين، وأصحابُه يدعونَه للهدى.

{وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ **وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ** وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (36)} النساء.

الصاحب بالجُنُب هنا ربما تَعني الصحبة العابرة كمَنْ يجلس جوارَك في القطار، فله حق المعاملة الحَسنة بمجرد الصحبة بغض النظر عن عقيدته.

{وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ **تُشْرِكَ بِي** مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا **وَصَاحِبْهُمَا** فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)} لقمان.

هنا نلاحظ أن الوالديْن مشركان لكن ثبتت لهما الصحبةُ الحسنة.

{قَالَ لَهُ **صَاحِبُهُ** وَهُوَ يُحَاوِرُهُ **أَكَفَرْتَ** بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (37)} الكهف.

هذا حوار بين مؤمن وصاحبه الكافر.

وقد ورد لفظ "الصحبة" عشراتِ المرّات بمدلوله اللغويّ فقط في القرآن، ولم يرد على الإطلاق بين مؤمنين إلا في حالتين وكان المدلول اللغويّ أيضًا هو المقصود وإنْ صدف معه الإيمان. ففي قصة موسى-عليه السلام- مع الرجل الصالح ورد:

{إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا **تُصَاحِبْنِي** قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76)} الكهف.

لا تصاحبني هنا لا تدل على خلاف عقائدي، وإنما فراقٌ في الرحلة، كلٌّ يذهب لشأنه. أمَّا في حالة أبي بكر الصدِّيق وصُحبتِه للنبي في غار ثوْر فكانت الصحبة بمعنى المرافقة:

{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ **لِصَاحِبِهِ** لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)} التوبة.

مما سبق نحتاج مرةً أخرى للعودة للدخول مُدْخَلَ صِدْقٍ والخروج مُخْرَجَ صِدْقٍ مع أنفسنا ومع القرآن ومع الله ورسوله ومع أصحابه فنقول بكل مرارة: إن لفظ "صاحب" في القرآن ورد مع المشركين والمنافقين وكلِّ مَن صحب رسولَ الله-صلى الله عليه وسلم-، لكنه لم يرد على الإطلاق كلفظٍ يشير لمجتمع النبي القدسيّ الذي توهمناه بعد تزييف التاريخ الإسلامي. وإنه لمن العجب العجاب أن تقوم العقيدة على الإيمان بالله ورسوله وأن يكون مصدرها جملة وتفصيلاً ما يسمى "الصحابة رضوان الله عليهم" ثم لا نجد أثرًا على الإطلاق لهذا المصطلح في القرآن، بل نجد العكس تمامًا وهو أن المشركين والمشركاتِ والمنافقين والمنافقاتِ قد صحِبوه فكانوا أصحابَه بالمدلول اللغوي.

إن القرآن كما رأينا قد ميز بين أصحاب النبي وفقًا لمعايير الإيمان والمصداقية وليس الصحبة، إذ إنهم جميعًا صحِبوه لكن منهم: مَن كان مشركًا ومَن كان منافقًا ومنهم أيضا المؤمنون وهؤلاء درجات: أعلاها هُم السابقون الأولون مِن المهاجرين والأنصار، وأدناها بطبيعة الحال الذين أسلموا بعد أن رُفعَت الأقلامُ وجفت الصحف وفُتِحت مكةُ ودانت الجزيرة العربية للإسلام صدقًا كان أو نفاقًا. وعليه فإن مَن ابتَكَر مصطلح "الصحابة" ما كان ليكون أبدًا مِن الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ولكنه مِن أدنى القائمة أراد أن يتسلق إلى قمةٍ ليس أهلاً لها فخلط الحابلَ بالنابل وابتكَرَ مصطلحًا يقدِّس كلَّ مَن صحب رسول الله ومات مسلمًا، ناسيًا أن المنافقين كانوا في زمرة المسلمين لأن النفاقَ لا يعلمه إلا الله، مناطِحًا بذلك القرآن على مرأى ومسمعٍ من التاريخ.

وأختِمُ للذين ما زال في قلوبهم شكٌّ، بقصة النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما رفض أن يَقتل المنافقين الذين تخاذلوا في منتصف الطريق وانشقوا عن الجيش فقال: "لا أقتلهم حتى لا يقال إن محمدًا يقتل أصحابَه" وهي قصة وروايةٌ مشهورةٌ وكان على رأس هؤلاء رأسُ النفاق ابن سلول المعروف للجميع، فسمَّاهم النبيُّ أصحابَه.

الغريبُ أن مَراجِعَ الحديث التي ابتَكَرت "عدالة الصحابة" توثق قولاً للنبي إنهم ارتدّوا بعدَه، فقدْ روَى البخاري في صحيحه برقم (6214):

حدَّثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب قال أخبرني يونس عن ابن شهاب عن ابن المسيب أنه كان يحدِّث عن أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم- أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: {يردُ على الحوض رجالٌ من أصحابي فيحلئون عنه فأقول يا رب أصحابي فيقول إنك لا علم لك بما أحدَثوا بعدك إنهم ارتدّوا على أدبارهم القهقري}، و قال شعيب عن الزهري كان أبو هريرةَ يحدِّث عن النبي-صلى الله عليه وسلم- "فيجلون" وقال عقيل: "فيحلئون".

وقد وردت الرواية بالمعنى نفسه في مسلِم وغيره من الصحاح. وما يثير الفضولَ في هذه الرواية هو أنها لو صدقت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فإن مفهوم "عدالة الصحابة" على إطلاقه قد سقط بمضمون هذا الحديث. وإنْ لم يصح عن رسول الله سقطت المراجع التي نَسَبَته للنبي في مصداقيتها. أمّا التاريخ فيشهد على مصداقية عدم العدالة المطلقة بحُكم ما أُحدِثَ بعد النبي من أصحابه، والصحبةُ هنا تشير إلى المؤمنين منهم بطبيعة الحال وليس الصحبة بمعنى الرفقة فقط.

العشرة المبشرات بالجنة:

ما زال البحث جاريًا!

الطُّلقاء:

بعد فتْح مكة في السنة التاسعة للهجرة وعفو النبي عن بقية مشركيها قائلاً لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، أصبح الإسلامُ هو الدين الرسمي للجزيرة العربية التي توحدت بعدها تحت راية واحدة هي راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأصبحت عاصمتها الوحيدة هي المدينة المنورة. فزالت الأوثان والوثنية وانتهى التراث العربي الجاهلي بصورة رسمية. لكن هذا لا يعني أن كل الناس قد آمنوا، وإنما أصبح كل الناس يعيشون تحت سلطان ونظام الإسلام. بطبيعة الحال فإن النفاق حينها أصبح ضرورة حياتية إذ لا مجال للمشركين التعايش مع مجتمع كله مسلم. فدخل الناسُ في دين الله أفواجًا أغلبهم حُسُن إيمانُهم لكن الكثيرين منهم ظلوا يتحينون الفرصَ لإثارة القلاقل والفتن؛ لأن إسلامَهم كان ضمن النفاق العام. وبذلك اتسع ما يُعرَف بمجتمع الصحابة ليشمل عشراتِ الآلاف من الذين صحبوا رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- وشملهم القرار الفقهي الظالم المتأخر بإطلاق لفظ "الصحبة عليهم جميعًا" بلا ضابطٍ، ثم أطلق حكم العدالة المطلقة عليهم جميعًا. من تلك الأمة كَتَب التاريخ لاحقًا يحمل بين طياته "عوراتٍ" لا يمكن نِسبتُها إلا إلى تلك الجريمة الكارثية في التاريخ الإسلامي التي خلقت مجتمعًا قدسيًا بأثر رجعيّ اسمه "الصحابة" وأعطت الكثيرين منهم "عدالةً" ما كانوا أهلاً لها.

ثم مات رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، والقرآن باقٍ يحدِّثنا بما تبع:

{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ **انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ** وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144)} آل عمران.

ليبدأ عصر الخلفاء الراشدين، وكان مِن أبرز معالم فترة أبي بكر الصدّيق ما يُعرَف بحرب السقيفة وحروب الردة.

عصر الخلفاء الراشدين:

مِن أبرز معالم الرسالة التي تَرَكها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه ميَّزَ بين النبوة التي اختص بها ومَن عاصره فيها وبين الرسالة الموجهة للناس كافة. ومِن أبرز معالم التمييز تلك أنه لم يترك أمرًا محددًا عن كيفية الحكم مِن بعدِه ومَن يليه في الحكم. إذ إنه لو فعل لأصبح مِن المستحيل على أي جيل لاحقٍ من المسلمين أن يتفق على نظام حُكمٍ أو شخصٍ حاكم. ما تركه النبي كان أصحابَه الميامين الذين ربَّاهم وأعدّهم أيَّما إعدادٍ لتسيير شئون حياتهم في غيابه وفقًا لمعايير الرسالة الباقية وإنْ غاب النبي عن الدنيا:

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)} آل عمران.

{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (38)} الشورى.

فإنْ لم يكن القرآن قد مهَّدَ لهذه المرحلة بأنْ أَمَر النبيَّ أنْ يعلمهم الشورى وهو حيٌّ بينهم، وإنْ لم ينزِّلِ اللهُ هذه الآية التي تجعل إدارة شئون الحياة شورى بين الناس، لتَفَكَّكَ المجتمعُ المسلم فورَ موتِ النبي. والشورى ليست الديمقراطية بحرفيتها. فالديمقراطيةُ تَمنح كلَّ مواطنٍ حقَّ إبداءِ الرأي حتى وإنْ كان لا يفقه شيئًا. والديمقراطيةُ تَمنح ممثلي الشعب تحليلَ الحرام وتحريمَ الحلال بلا حدود، وهو ما تعاني منه ديمقراطياتُ الغرب اليوم، إذ إنها شاخت وبدأت تتصدع لأن اختراقها سهلٌ طالما لا تقوم على ضوابطَ أخلاقيةٍ أسمى من علم الإنسان. الشورى تمنح الناسَ اختيارَ ما يتراضونه من نظام حكمٍ وتفاصيلِ شئون الدولة مع وجودِ ثوابتَ حدَّدَها الله مسبقًا تجعل من المنظومة صلاحًا لكل زمان ومكان بلا إفراطٍ أو تفريطٍ في استعمال الحرية وإبداء الرأي البنَّاء. والشورى لا تَشترط أن يفتي كل مواطن في كل شيءٍ حتى وإنْ لم يكن أهلاً له، ولكنها تترك الباب مفتوحًا للمجتمع ليحدد مَن الذين يستفتون وفيمَ وكيف. والناظرُ للديمقراطيات الغربية اليوم يجدها كلها قد أخذت من الحضارة الإسلامية مفهومَ الشورى، وفصَّلَه كلُّ مجتمعٍ كيفما يناسبه. فبريطانيا أُمّ الديمقراطية في العالم يقوم نظامُها على سلطانٍ ثابت ممثَّلٍ في العائلة المالكة التي لا تتغير لكنها تملك السيادةَ ولا تحكم المجتمعَ في تفاصيله. أيضا فإن البرلمان المنتخَب يعلو عليه مجلس اللوردات الذي يتم تعيينُه مِن مؤسسة المُلك الثابتة. إذن، فهناك حرية نسبية ومساهمة لعامة الشعب في إدارة شئون الدولة، لكن هناك مؤسسات لا دخل للشعب في اختيارها، ولها دورٌ فاعلٌ في ثبات واستقرار المجتمع. على نقيض ذلك نجد الديمقراطية الفرنسية رئاسية مطلقة، ولا توجد فيها مؤسساتٌ ثابتةٌ غيرُ أجهزة الأمن والاستخبارات السريّة. أمّا أمريكا فتُمسِك العصا من الوسط؛ إذ إن لكل ولايةٍ نظامَها المختلفَ حتى في تفاصيلِ القانون، حيث يُحرَّم الإعدام في ولاياتٍ ويُطبَّق في غيرها والسلطة المركزية تُقِر هؤلاء وهؤلاء. وهكذا فإنّ الديمقراطية نفسَها ليست صيغةً واحدةً؛ لأنها مِن صُنع البَشر، وصُنْعُ البَشر يحتاج لتطوير مع تغير الظروف واختلاف المجتمعات. أمّا الشورى فمِن صُنع الحكيم الخبير لذلك كانت صالحة وما زالت لكلِّ مجتمع في أيّ زمنٍ من الأزمان، إذ إن المُلك لله وأمر الناس شورى بينهم من غير تفاصيل. ولأن التاريخ الإسلاميّ قد وصلنا من "مؤسسة عبد الله بن سبأ" الخيرية لصناعة الأديان فيُستحسَن إلقاء بعض الضوء على هذه الشخصية قبل الانتقال لقراءة تاريخ "خير القرون" فيما بعد موت النبي في قسميْن: "عصر الخلفاء الراشدين" وما بعد الخلافة"

مؤسسة عبد الله بن سبأ:

عبد الله بن سبأ (وليس رأس النفاق المعروف عبد الله ابن أُبي ابن سلول) شخصيةٌ غامضة وجِدت في التراث الإسلاميّ في فترةٍ غيرِ محددةٍ، لكن ذاع صيتُها مع بداية الفتن في خلافة عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، واستفحل وجودها في خلافة علي -كرَّمَ الله وجهَه-. وقد نُسِب لهذه الشخصية التأسيسُ لكلّ الفتن لكن بصورةٍ خارقةٍ لا يصدقها العقلُ لأنّ تواجدَه بين اليمن ومصرَ والحجاز والشام والعراق في آنٍ واحدٍ يدير كل القلاقل أمرٌ يرجِّح أنهم كانوا مجموعة منظَّمة منتشرةً على امتداد الرقعة الإسلامية، لكنّ التاريخ سجَّلَ إجرامَهم كله تحت مسمى "عبد الله بن سبأ". وقد قيل في مراجعِ السُّنّة إنه يهوديٌّ أسودُ مِن اليمن، أظهَرَ إسلامَه وتَشَيّع، وقيل في مراجع الشيعة إنه أصلاً شخصيةٌ وهميةٌ لم توجَد في الواقع، صنعها السُّنّة لتزوير التاريخ. ما يهمنا هو الإلمام بخطورة هذا المسمى إذ إنّ الكثير من التاريخ الذي وصلنا -وبعض الأحاديث- ترجع له. وقد تَحَفَّظَ المؤرخون في النقل عنه، لكن بعد أنْ أَخَذ عنه الطبري في التاريخ عن طريق شخص يسمَّى "سيف بن عمر" فتَح بابًا واسعًا لانسياب أساطيرِ "عبدِ الله بن سبأ" في كتب التاريخ اللاحقة. واختصارًا للمساحة أتركُ القارئَ ليراجع سيرةَ "عبد الله بن سبأ" في الويكيبيديا. وسأشير إليه باسم "مؤسسة ابن سبأ" في باقي هذا الكتاب انطلاقًا من قناعتي الشخصية أنهم مجموعة من اليهود نجحوا في اختراق الصف المسلم وفعلوا بنا الأفاعيل.

الشورى الأولى في السقيفة:

"سقيفةُ بَني ساعدة" كانت مِظلة أو ديوانًا داخل مزرعةٍ في مكانٍ مجاورٍ للمسجد النبويّ يتبع لقبيلة بني ساعدة من الأنصار. الآن هي حديقة تُطِل على السور الغربيّ للمسجد النبوي. بعد موت النبي-صلى الله عليه وسلم- اجتمع نفرٌ من الأنصار حول عبادة بن الصامت في السقيفة وبدأ التشاور حول الخلافة وهل تنتقل للأنصار أم للمهاجرين، وكان أبو بكر وعمر وكبار المهاجرين في المسجد فلما سمعوا بالاجتماع توجهوا إليهم. ولستُ هنا بصدد نقل تفاصيلِ ما قيل فيها من آراء ربما تَصِح أو لا تصح، لكني أودّ أن أنفي أنها كانت حربًا كما يحلو للبعض اليوم تسميتُها "حرب السقيفة" وينسبون إليها بداية تدهورِ المجتمع الإسلامي.

فالنبيّ لم يترك وصية صريحة حول كيفية إدارة أمور الدولة مِن بعده ولم يُسَمِّ خليفة، وإنْ كان قد أمر أبا بكر ليصلّي بالناس في مرضه الأخير. ما عدا ذلك، لم يترك مؤشرًا لهم غير الشورى.

ومِن هنا أقول إن وصف اجتماع السقيفة بأنه كان بداية حربٍ قولٌ غيرُ موفقٍ، وهو نتاجُ عقولٍ لم تتعلم معنى الشورى والديمقراطية وما يتبعهما من خلافٍ في الآراء واحتدامٍ في الحوار والنقاش في واقع اليوم، ناهيك أن تنجح في قراءة تاريخ أول شورى بعد موت النبيّ. فقدْ كان طبيعيًا أن يخشى الأنصارُ على حالهم بعد رحيل النبي إن انفكَّ عقدُ الأمن وتفككت الدولة فتضيع عليهم مدينتُهم وأموالهم وأراضيهم التي منحوها للمهاجرين. وكان طبيعيًا أيضا أن يخشى المهاجرون من ردّة الأنصار فيضيعون بلا شيء بعد أن هَجَروا كلَّ دنياهم وهاجروا في سبيل الله فأصبحت المدينة هي كل ما يملكون. إذن، مِن منظورٍ سياسيٍّ كان لا بد من خوفٍ وحوارٍ وجدالٍ، وتلك ظاهرةٌ صحيةٌ إذا عقِلناها في السياق الزمانيّ والمكانيّ السليم. فالجميع كانوا مجروحين بموت الحبيب محمد الذي كان القاسمَ المشترك بينهم، والجميع كانوا مرعوبين من مستقبل مجهول، والجميع لم تكن لديهم أدنى تجربةٍ في إدارة دولة، إذ إن كل مرجعياتهم الثقافية التراثية كانت قبَلية يتوارث فيها السادةُ في كل قبيلة ما وجدوا عليه آباءَهم، لكن الحال الآن اختلفت. وقد انتهى الخلاف بإجماع الأغلبية على خلافة أبي بكر مع وجود المعترضين الذين رضخوا لرأي الأغلبية وهكذا أصلاً تكون الشورى إذ إنه لا يوجد اتفاق بنسبة 99% في التاريخ.

ما أود التركيزَ عليه هنا، هو إبداء رأيٍ متواضع في أنّ اختيارَ أبي بكر كان الأصوب:

لو تَفكَّرْنا في تركيبة المجتمع حينها، سنجد أنّه كان مِن شقين كبيرين: "المهاجرين" و"الأنصار". المهاجرون بطبيعة الحال كانوا مِن قبائلَ شتّى في تلك اللحظة وإنْ كان السابقون الأولون منهم من مكة. الهجرةُ بطبيعة الحال تَفرض على الناس فقدانَ الهويةِ وتُضعِف الانتماءَ القَبَلي لأدنى درجاته؛ لأن القبيلة ليست مجموعة أفرادٍ فحسب وإنما أرضٌ وتاريخٌ وجغرافيا، وهذه كلها زالت وذابت في مجتمع المدينة مع مَر السنين. إذن، وفي ذلك السياق يمكن أن نعتبر أن كل المهاجرين كانوا كتلةً واحدةً. أمّا الأنصار فما زالت نار الخلاف القَبَلي بينهم تحت الرماد؛ لأنهم ما هجروا أرضهم ولا فقدوا مزارعَهم ولا ماشيتهم ولا تجارتهم. وعليه فإن استخلافَ أيٍّ من الأنصار كان سيكون إمّا من "الأوس" أو "الخزرج" مما يُنذِر ببعث الخلاف القديم، لكن استخلاف مهاجِر كان أقلَّ خطرا من ناحية قبَلية. أيضًا فإن استخلافَ أنصاريٍ كان سيرسِّخ لخوف المهاجرين، وربما يعيد سلطانَ يثربَ قبل الإسلام فينشق المجتمع من جديد لمهاجرين نازحين وأنصارِ أصحابِ الأرض في المستقبل. لكن استخلاف مهاجرٍ كان الضربة القاضية لنهاية منظومة القبيلة والانتماء للأرض، بل ويقدِّم أولَ سابقةٍ من نوعها أن يتولى الحكمَ مهاجرٌ وبذلك تكون الشورى قد أسستْ أولَ قيم الديمقراطية في التاريخ، وهي أن المناصب لمن هو أهلٌ لها وليس للوريث التقليدي. وعليه فإن استخلافَ مهاجِرٍ كان أسلمَ من ناحيةٍ سياسيةٍ لاستقرار الدولة.

ثم إنّ أبا بكر كان قُرَشيًّا لكنه ليس من بني هاشم، وعليه فإن إخراج الخلافة من بيت النبي في أول الأمر كان فيه حصانةٌ للمنصب ألا يتحول إلى مُلكٍ قبَلي مهما علا شأن بني هاشمَ بيتِ النبي في قريش. ثم إنّ المزايا التي اجتمعت في أبي بكر حينها كانت تجعله أكثرَ الرجال أهلية للقبول العام لطول صحبته لرسول الله منذ فَجْر الإسلام إلى يوم رحيله. أمّا المقارنة بينه وبين علي -كرَّم الله وجهَه- فلا تحتاج لتفضيلٍ بين الرجلين وإنما لقراءةٍ سياسيةٍ بحتةٍ. فعليٌّ كان في بداية الثلاثينات والإدارةُ حينها كانت تتطلب نضجًا وخبرةً في الحياة أطولَ مما نال عليٌّ حينها. ثم إن الطبيعة العربية حينذاك كانت تعطي للسن قدْرا كبيرا من الأهمية يمهِّد لطاعة أكبرَ من الرعية.

ثم إن سُنَّة الله في الكون تقتضي أن لعليٍّ وأمثالِه من الشباب حينها دورًا سيلعبونه بعد رحيل جيل الشيوخ. إذن، فاختيارُ أبي بكرٍ ليس فيه قصورٌ، وليس من شأننا أن نتدخل في شورى لم نكن معنيين بها.

ولعل دورَ أبي بكر الأساسيّ كان الإعلانَ عن ميلاد دولة الإسلام. فوجود النبي إلى آخر يوم كان يعني استمرارية المجتمع النبوي الذي يحكمه نبيٌّ رسول. أما إدارة أبي بكر فكانت ضربة البداية لتثبيت دولة اسمُها الدولة المسلِمة. ما سيأتي بعدها سيكون استنساخَ تجاربَ بشريةٍ خاليةٍ من وجود الأنبياء، لذلك فإن التجربة الأولى كان لها ثقلٌ سياسيٌّ عظيمٌ. ومن هنا يمكننا قراءةُ مقولةِ أبي بكر المشهورة الصادمة التي وصَفَها بعض المستشرقين الغربيين بأنها أعظمُ مقولةٍ سياسيةٍ في تاريخ الإنسانية لأبلغ دليلٍ على أنّ أبا بكرٍ كان رجُلَ المرحلة:

{مَن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومَن كان يعبد اللهَ فإن الله حيٌّ لا يموت}

جملةٌ قاتلةٌ قضت على هيستريا عدمِ تصديق موتِ النبي فنقلت كلّ المجتمع من عصر التلقين من النبي إلى عصر التوكل على الحي الذي لا يموت.

حروب الردة:

وأختِم برأيٍ فيما يسمَّى حروب "الردة"، والتي أظنها مِن توثيق "مؤسسة عبد الله بن سبأ" ولم تكن حقيقة في خلافة أبي بكر. فالمعلوم أن القرآن قد حَسَم أمْرَ حريةِ الاعتقاد في حياة النبي نفسه:

{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)} البقرة.

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (100)} يونس.

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29)} الكهف.

إن مقولة إنّ أبا بكر حارب قبائلَ منعت الزكاةَ أمرٌ مثير للريبة من عدة وجوه. أولاً، إنّ الزكاة أمرٌ شخصيٌّ، وعلى صاحبها إنفاقُها في الوجوه التي حددها الله، ولم يفرض اللهُ الخُمسَ إلا في الغنائم، لكن الزكاة تُدفع لأولي القُربى والمساكين وغيرهم. ما فاض عنها يمكن أن يُدفع لبيت المال، لكن الأصل فيها الاختيار الشخصي كيف يزكيها المؤمن. وعليه فإن فرضية محاربةِ أبي بكر لبعض القبائل لأنهم رفضوا دفع الزكاة له فرضيةٌ باطلةٌ. ربما كان هناك تمردٌ سياسيٌّ من بعض القبائل حاولت الانفلاتَ من سلطان الدولة فحسَمَهم أبو بكر حسمًا عسكريًّا كأيِّ حاكم، لكن تسميتها بحروب الردة تُسقِط مصداقية القصة من بدايتها. ولعلّ مؤسسة ابن سلول التي كَتَبت التاريخَ الإسلامي لاحقًا أرادت أن ترسّخ في أذهان المسلمين مفهوما نشازًا هو أنّ السلطان له حق في الزكاة، وأنّ المرتدَّ يُقتَل، بابتكار قصة "حروب الردة"، لكن الفكرة لا أصل لها مِن حيث الشرع، وسأناقش مفهومَ "حدود الله" و"حد الردة" الوهميّ في باب "فقه الكلب".

خلافةُ أبي بكرٍ كانت قصيرةً، لكنها مرحلةٌ فاصلةٌ نقلت المجتمعَ النبويّ إلى مرحلة المجتمع المدنيّ الذي يحتكم إلى الشورى وبسطتْ نفوذَ الدولة في كل الجزيرة العربية مُنهيَةً بذلك عصرَ الشِّرك والقَبَليات. وما كان لأبي بكرٍ أن يُنجِز أكثر مما أنجزَ في عاميْن.

خلافة عمر:

لا بد من تصحيح المصطلحات هنا. فالنبي-صلى الله عليه وسلم- كان له خليفةٌ واحدٌ هو أبو بكر الصدّيق. أمّا عمر فقدْ خَلَف أبا بكر ولم يَخلُفِ النبيَّ وعليه فإن وهْمَ الخلافةِ الإسلامية الذي يتشدق به البعض اليوم ظنًا منهم

أن كل مَن لُقِّبَ بخليفة فقدْ خَلَفَ رسولَ الله فهْمٌ مغلوط. ما ورثه عمر لم يكن المجتمعَ النبويّ وإنما كان المجتمعَ المدنيّ ودولة الإسلام التي بسطت نفوذَها في كل الجزيرة العربية في عصر أبي بكر. ولعل انتقالَ الخلافة لعمرَ كان أيسرَ مِن أبي بكر؛ لأنه بَشَرٌ خَلَفَ بَشرًا لا رسولاً. أيضًا فإنّ الناس كانوا قد مارسوا الشورى عامَيْن فزالت المخاوفُ وانصهر المجتمع أكثر مما كان عليه بعد النبي. ثم إنّ عمرَ كان رجُلَ دولةٍ بامتياز، والتاريخُ يشهد على ذلك اليوم بعد 1400 سنة. فلا يهمنا الدخول في تفاصيلِ الشورى لكن ما يجب علينا هو قراءة النتائج والحكم عليها.

ولعل من أهم المخاطر التي واجهت عُمرَ كانت أنّ الفُرس والروم قد انتبهوا لنفوذ المارد الإسلامي بجوارهم بعد أن تحولت قبائل صحراءِ العرب رعاةُ الشاةِ والبعير إلى دولة منتظمة موحدة. وبدأ التهديد على الدولة المسلمة مما اضطر عُمرَ لمواجهة الفُرس والروم معًا، وهُما أعظم إمبراطوريات ذلك الزمان. وهنا لا بد من التذكير أن لفظ الفتوحات الإسلامية غالبًا كان من ابتكارات "مؤسسة عبد الله بن سبأ"، إذ إنّ عُمرَ صاحبُ المقولة المشهورة "متى استعبدتم الناسَ وقد ولدتهم أُمهاتُهم أحرارا؟"، ما كان له أن يتحول فجأة إلى زعيمٍ عصابةٍ للنهب المسلح يعتدي علي جيرانه المسالمين. لكن سُنَّة الله في الأرض أن القوى العظمى حيثما وجِدت لا تسمح لغيرها بالنمو، وكان طبيعيًا أن الفُرس والروم هُما مَن بادَرَ بالعداء، خاصة وأنّ اليهود كانوا متأصلين في تلك البلاد، ولهم دوافعُهم التي لن تنتهي في القضاء على الإسلام. نقطةٌ أخرى لا بد أن ننتبهَ لها ونعطيها حقها في هذا الزمن الذي تكاثر الحديث فيه عن حقوق الإنسان والركوع تحت أقدام منظمات "الأمم غير المتحدة" طالبين منها الحماية والعدل في كل بلد. فإمبراطوريتا الرومِ والفُرس كانتا إمبراطوريتَي استبدادٍ واستعبادٍ للعباد. بينما الدولة المسلِمة الوليدة كانت نموذجَ الديمقراطيةِ والشورى الوحيد في العالم. وطبيعيّ أن ينتشر الخبر ويبدأ المظلومون المقهورون هنا وهناك الاستنجاد بالعدالة الإنسانية التي اشتُهرت عن تلك الدولة. كلُّ هذه العوامل تشرح لنا لماذا توالت الفتوحاتُ في عصر عُمَر. فالدافع لم يكن نشرَ الإسلام لأنّ هذا لم يكن واجبًا دينيًّا من حيث المبدأ، لكنه كان إمَّا دفاعًا عن النفس أو دفاعًا عن شعوب مغلوبةٍ على أمرها آنَ أوانُ تحريرها، وهو ما لا يعيبه أحد اليوم على القوى العظمى في العالم.

وكان مِن تداعيات اتساع الدولة المسلِمة أن عُمرَ بعد 12 عاما ترك لعثمانَ تِركةً ثقيلة، وهي إدارة إمبراطوريات فارسَ والرومِ ومصرَ مع كل الجزيرة العربية، لذلك لم يكن مستغرَبًا أن خلافة عثمانَ كانت الأقسى والأمَرّ.

عثمان بن عفان:

يبدو مِن التاريخ أن مفهومَ الشورى قد تطور بالتجارب، فقد كان الخيار بعد مقتل عمرَ بين عثمانَ وعليٍّ في أضيق صوره بعدما رَشَّحَ عُمرُ ستةً لاختيار خليفتِه منهم وانتهى باختيار عثمانَ وعمره 67 عامًا تقريبًا. ولا بد من التذكير أن ترتيب الخلفاء لا يعني بالضرورة ترتيبَ أفضليةٍ شخصيةٍ أو أفضليةٍ عند الله إذ إن منصب الخليفة لا يمكن أن ينهض به إلا فردٌ واحدٌ مهما كَثُرَ الفضلاءُ المؤهَلون له. ولعل القدَرَ كان قد ادَّخَر عليًّا ليكون مِسكَ الختام في مسلسل الخلفاء الراشدين لتقوم به الحجة على مَن بعدَه إلى يوم القيامة.

ما يهمنا في فترة حُكم عثمانَ التي كانت حوالي 15 عامًا هي التّرْكةُ الثقيلةُ المذهِلةُ التي ورثها عن عُمَرَ بعد اتساع الدولة وظهور مؤسسات مدنية أسسها عمرُ تقتضي إيجادَ مديرين وولاةٍ مهنيين يتحملون المسئولية معه. ولعل أبرز المآخذ المختلَف عليها بطبيعة الحال في سياسة عثمانَ هي توليتُه أقاربَه مِن بني أمية في عددٍ من المناصب التي استحدثها اتساعُ الدولة التي تئِن تحت ثقلها الجبالُ في زمنٍ كان التواصلُ بين مركز الدولة وأطرافِها يستغرق أسابيعَ إنْ لم تكن شهورًا. أيضًا فإنّه في زمن عثمانَ كان الكثير جدًا من الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار الذين رضي الله عنهم قد رحلوا عن الدنيا، واكتظت الدولة بأجيالٍ ربما لم يشهد بعضهم رسولَ الله إلا في طفولتِه، بالإضافة لدخول الآلاف من غير العرب بثقافاتهم المختلفة بما فيها من محاسنَ تزيد من قوة الدولة ومساوئَ تهدّد استقرارَها. وعليه فإنني حينما أضع نفسي موضعَ عثمانَ في زمانه ومكانه لا أستنكِر الاستعانة بعشيرته من بني أمية في إدارة الدولة، هذا إنْ صَدَق التاريخ، لأنّ الرأيَ الغالبَ هو أن عُمَرَ كان مَن ولّى بعضَ بني أمية وليس عثمان.

في زمنٍ لم تكن فيه أجهزةُ مخابراتٍ ولا وسائلُ اتصالاتٍ فإنّ إدارةَ دولةٍ بذلك الحجم من المستحيلات. وطبيعة الحاجة للولاء للقيادة المركزية تتطلب اللجوءَ للاعتماد على أصحاب الولاء التقليديين من العشيرة أو القبيلة إنْ كانوا مؤهَلين إداريًا، لأنّ صلة القُربى تضاعِف من ضمان الولاء الذي هو حتميةٌ من حتميات الاستقرار. وعليه فلا أظنّ أنّ الفتنة التي قُتِل فيها عثمانُ كان سببها ظهور بني أمية في الساحة، وإنما كان هذا نقدًا من كُتُبِ التاريخ لاحقًا، ومبررًا مِمن دبَّرَ الفتنة أصلاً لذرِّ الرماد على العيون. ولعلَ ظهورَ شخصيةِ عبد الله بن سبأ في عصر عثمان دليلٌ كبير على أن مخططَ تقويضِ الدولة كان مبيَّتًا مهما كانت الأسباب المعلنة. ولستُ هنا بصدد سرد تفاصيلِ الفتن التي يمكن الرجوع إليها في مراجعَ تاريخيةٍ كثيرة، ولكني بصدد الإشارة لِما قد خَفي وأظنه الحقيقة والله أعلم.

وملخص الفتنةِ الأخيرة التي أدت إلى مقتل عثمانَ حسْبَ ما ورد في كتاب "الإمامة والسياسة" المنسوب لأبي قُتيْبَة الدينوري أن أهلَ مصرَ شكوْا مِن ظلم واليه "ابن أبي السرح" وبعد إصرارِ منهم واستشارة مستشاريه بما فيهم عليّ -كرَّم الله وجهَه- قرَّرَ عثمانُ عزلَ ابن أبي السرح وإرسال محمدٍ بن أبي بكر واليًا على مصر. وفي الطريق التقى الركْبُ بغلامٍ أسودَ لم يُفصِح المؤرخون عن هويته كان يمتطي ناقة عثمانَ ويحمل رسالةً عليها خاتم عثمانَ فيها أمرٌ لأبي السرح أن يَبقى واليًا على مصرَ ويقتل محمد ابنَ أبي بكر ومَن معه من الوفد. وتضاربت روايةُ حاملِ الرسالة حول كونِ المرسِل هو عثمان نفسه أو مروان بن الحَكَم مستغِلاً خاتمَ عثمان. وكان مروانُ حينها شابًا وهو قريبُ عثمانَ وله تواجدٌ ملموسٌ داخل إدارة الدولة، وكاتبُ عثمان الذي يحمل خاتمه. فعاد الوفد للمدينة وحاصروا بيتَ عثمان بعد أن أقسَمَ لهم أنه ليس مَن أرسَل الرسالة. فطلبوا منه تسليمَ مروانَ لهم فأبَى شفقة عليه حسْبَ الروايةِ التاريخية. وتصاعدت الفتنة واشتد الحصار رغم حراسة الحَسَن والحُسين لبيت عثمانَ بأمرٍ مِن أبيهما عليّ -رضي الله عنه-، إلى أن اقتحَمَ بيتَه أفرادٌ اختلفت الرواياتُ في هويتهم هل كانوا مِن الكوفةِ أم من مصرَ أم من غيرها فطعنوه والمصحفُ النبويُّ بين يديه وفروا هاربين.

ولعلنا لو استعملنا لغة اليوم في وصف جريمة مقتل عثمانَ فإنه يمكن وصفها أنها ما زالت جريمة قتلٍ غامضة الدوافع مسجلة ضدَّ مجهولٍ. ومثل هذا الغموض لا يُفسَّر إلا أنه أمرٌ دُبِّرَ بليلٍ لقصد أكبرَ مِن عزل والٍ وتوليةِ غيره.

لقد اشتُهر عثمانُ بأنه كان مَن جَمَع المصحفَ لأول مرة ونَسخ منه عددًا من النسخ وزَّعَها على الأمصار المختلفة كأول نسخةٍ رسميةٍ للقرآن المكتوب والمعروفة بـ "الرسم العثماني" إلى اليوم. لكن لو أعاد القارئ الكريم قراءةَ ما أكتبه الآن عن عثمانَ بعد قراءة باب "علوم القرآن" سيستوعب ما أرمي إليه أكثر. ففكرةُ "الرسم العثمانيّ" ليست إلا من صناعة التاريخ المزيف، إذ إن ما قام به عثمان كان نسخَ القرآن من "الرسم المحمدي" الذي خَطَّه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيدِه اليمنى ليكون شاهدًا على الناس، كلِّ الناس إلى آخر الزمن. فقدْ خلُصنا في باب علوم القرآن إلى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يَكتب ويقرأ مِن أول أمرٍ كوْنيٍّ صَدَر له من ربّ العرش العظيم "اقرأ" فأصبح قارئًا كاتبًا، وكان هو الذي يخط المصحفَ بيده وترك نسختَه الرسمية مِن بعده. وتقول قصص التاريخ إن عثمانَ كان قد أحس بخطورة ضياع "النسخة المحمدية" من القرآن العظيم التي كانت بحوزة حَفصة بنتِ عمرَ بنِ الخطاب فأمَرَ الخطاطين بنسخ القرآن منها. ولعل الهدفَ الأساس من إثارة الفتن من قِبَل "مؤسسة ابن سبأ" في نهاية عهده كان محاولةً مستميتة للتخلص من القرآن المكتوب. ولعلّ وصفَ الميتةِ التي ماتها عثمانُ -رضي الله عنه- وهو ممسِكٌ بالمصحف بين يديه تدلّل على أن أحرص ما كان يحرص عليه في تلك اللحظات الحرجة هو إنقاذ النسخة النبوية للقرآن، وكانت بحوزته حين قُتِل وأعيدت إلى حفصة. فقدْ صوَّر التاريخُ أنه كان يتلو من مصحفه حين قتلوه، لكنّ الأرجح أنه كان ممسكًا به إمساكَ المستميتِ ألا يضيع. ويقال أيضًا إنّ تلك النسخة النبوية قد تم الوصول إليها في عصر مروان بن عبد الملك حينما ورث مُلكَ بني أمية، وتم إحراقها. وعليه فقد كان لعثمانَ الفضلُ في نسخها حرفيًا بالرسم النبويّ الذي يميز القرآن عن الكتابة العربية التقليدية. والقارئ لتفاصيلِ الفتن لا يَخفى عليه ظهور اسم مروان في الحدث الأهم وهو كتابة الرسالة المزورة لابن أبي السرح لقتل أفراد الوفد أولاً، ثم فراره فور مقتل عثمان حينما طلبه علي -رضي الله عنه- للتحقيق، ثم لحاقه بعائشة -رضي الله عنها- في مكة، وتأليبها بالمطالبة بدم عثمان، ثم انتقاله والفتنةُ تشتعل على رأس وفدٍ من طلقاء بني أمية للحاق بمعاوية بن أبي سفيان في الشام، ثم كان دور ابنِه عبد الملك بن مروان الذي لا ينكره أحدٌ في هدم الكعبة على يد عامله الحجاج بن يوسف بعد ما ورث ملك بني أمية، لذلك لا أستبعد مصداقية ما رواه عبد

الصبور شاهين صاحب كتاب "تاريخ القرآن" من أنّ النسخة المحمدية للقرآن أخيرًا تمّ حرقها في عصر عبد الملك بن مروان.

ولا بدّ من التنبيه إلى أن ظهور "مؤسسة عبد الله ابن سبأ" في كلّ الفتن التي عاشها عثمان، وأدت إلى مقتله تجعل قراءة التاريخ في تلك الحقبة من أصعب الأمور، لكن يمكن التكهن بأنّ سيطرة اليهود على مسار الدولة المسلمة قد بدت جلية في عصر عثمان، إذ تتابعت الفتن مِن بعده إلى مقتل علي ثم الحسين ثم انقسام المجتمع المسلم إلى "شيعة" و"سُنّة" وتحول الدين إلى مذاهبَ يلعن بعضها بعضًا إلى اليوم، وتبدّل الحكم إلى ممالك يطحن بعضها بعضًا منذ القرن الأول في "خير القرون".

لا بدّ من التنبيه إلى أن رأيي هنا ليس كتابة تاريخ، وإنما نظراتُ ناقدٍ بعد قرونٍ طويلةٍ لِما هو موروث على ما فيه من نقاط ضعفٍ وغموضٍ. ولعله من المهم جدًا التدبرَ في أنّ الاتساع المفاجئ للدولة المسلمة في عصر عُمَرَ كان حتمية فُرضت عليهم بحكم التاريخ، إذ إن إمبراطوريتَي الفُرس والروم كانتا على وشك الانهيار في زمنٍ كان المارد الإسلامي يكبر بسرعة ويطرح بديلاً عقائديًّا ويقدم نموذجًا سياسيًّا جاذبًا للشعوب المقهورة. فتمّ جَرُّ المسلمين إلى معاركَ أدّت إلى توسع الدولة أكبر من مقدرة ذلك الجيل البدويّ القَبَلي في نشأته على إدارتها. فضلا ًعن أن ظهور تيارٍ قويٍّ من الطلقاء وأبناء الطلقاء الذين قالوا آمنا ولمَّا يدخلِ الإيمانُ في قلوبهم وإنما أسلموا بحكم الواقع السياسيّ، كان قد مهَّدَ لصنَّاع الفتن أن يسخِّروا هذا التيار لتغيير مسار الأحداث وسياسة الدولة من دولة تأمر بالمعروف وتَنهى عن المنكر وترسخ لمبادئ العدالة والمساواة بين الناس وتحمي حرية الإنسان و المعتقد والفكر، إلى مطامع مُلكٍ واسع يرث إرثًا لم يكن يحلم به آباؤهم. هذا التيار تم توجيهه بسريةٍ تامةٍ وتخطيطٍ دقيقٍ لتقويض الخلافة، خاصة وأن مَن بقي مِن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كانوا قد شاخوا و ضعُفَ دورُهم في تسيير شئون الدولة. ولعل في رسالة معاوية لعلي -كرَّم الله وجهه- بعد مبايعته، وكان معاويةُ واليًا على الشام حينها، أبلغَ دليلٍ على هذه القراءة. فقدْ ذكَر معاويةُ لعليٍّ ضمن ما ذكَر أنه يحكم شعبًا لا يَعرف فضلاً لأحد، ولا يعرف مكانة المهاجرين والأنصار، ولا يعطي قيمةً لمكانة عليٍّ وقُربه من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-. وعليه فقدْ ورث عليٌّ وهو خير الناس بلا نقاشٍ حينها الحكم ولا يعرف له خيرًا إلا القلة الذين كانوا قد شاخوا وخارت قواهم مما جعل تحدي عليٍّ والحَسَن والحُسين وعائشة -رضي الله عنهم جميعًا- تحديًا لا يمكن مقارنته بحال أبي بكر وعُمرَ وبداية عصر عثمان، إذ إنهم جميعًا كانوا في دوامة خلافاتٍ مع أصدقاء العدو أكثر منهم صدقًا مع الله ورسوله. وهكذا أُسدِل الستار على العصر النبويّ بنهاية خلافة علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- تاركًا أسئلةً لم يُجِب عنها المؤرخون أكثر مما وثقوا في التاريخ الذي انقسم بعد تلك المرحلة إلى تأريخ مذهبيّ كلٌّ يراه مِن زاوية ولائه الجديد.

علي بن أبي طالب:

مِن غرائب ما وجدنا عليه آباءَنا في مذهب أهل السُّنّة أن عليًّا والحَسَن والحُسين أصبحوا مِلكًا خالصًا للمذهب الشيعيّ يرفعهم لمرتبة الأولوهية في أقصى درجات تطرّفه، بينما عيون الريب والشك تطارد مَن يذكر فضائل عليٍّ وهو أول الرجال الذين أسلموا، وإنْ كان حينها طفلاً في بيت النبي. بل هو أحبُّ آلِ بيت النبي له وزوجُ ابنتِه الحبيبة فاطمة الزهراء، ووالد حفيديه سيّديْ شباب أهل الجنة الحَسَن والحُسين -رضي الله عنهم جميعًا-. ففضلُ عليٍّ لا ينتقصه إلا معتوه، وذِكْرُ مقامِه الكريم لا يَستحي منه إلا جبان، لكن هذا لا يعني التشيعَ ولا يعني التنكرَ للسُّنّة. فهذه مذاهبُ أُقحِمت في التاريخ وفُرضت علينا بعد رحيلهم -عليهم رضوان الله-. لكن مِن منظورٍ سياسيٍّ فإنّ تأخير خلافة عليٍّ كان فيها الكثير من الحكمة؛ لأن أسبقية الخلافة لا تعني أسبقية الفضل -كما أسلفت-.

بعد مقتل عثمانَ ظلمًا وفي ظلامٍ بهيمٍ، أجمع أهلُ بدْرٍ على بيعة عليٍّ رغم تحفّظه وإصراره على مشورةٍ أوسع. لكنّ تداعيات الفتن أجبرته على قبول البيعة وهو أهلٌ لها لكنه كان زاهدًا فيها. ويسجل التاريخُ أنّ الخلاف بينه وبين بني أميّة الذين كانت سطوتهم على أطراف الدولة تتسع، قد بدأ مبكرًا، إذ رفض معاويةُ والي الشام مبايعتَه حينها، وتباطأ آخرون مشترطين وعودًا بالمناصب كشرطٍ للبيعة. وهكذا وجد عليٌّ نفسَه مواجَهًا بحلِّ لُغز مقتلِ عثمانَ من ناحيةٍ، ومواجَهًا بأعداءَ من داخل البيت المسلم من ناحيةٍ أخرى، تتضارب أقوالهم وتطغى مطامعهم على مصلحة الدولة وكلٌّ يعلّق حجتَه على قميص عثمان. ولا بدّ من الإشارة إلى أن عائشة -رضي الله عنها-

كانت في مكة حينئذٍ ولم يثبت لدينا أنّه كان لها اعتراضٌ مبدئيٌّ على خلافة عليٍّ، وهي أعلمُ الناس بفضله، وهُما - أي عائشة وعليّ- قريبان في السن وكلاهما نشأ في الإسلام وكانت لهما صحبة الطفولة والصِّبا والشباب في بيت أبي بكر وبيت النبي الذي نشأ فيه عليّ، ثم كان النسب حيث تزوجت عائشة النبيَّ وتزوج عليٌّ فاطمة بنت محمد.

تقول مراجعُ التاريخ المختلفة إنّ عددًا كبيرًا ممّن تخاذل عن نصرة عثمان ندموا على ذلك بعد مقتله، ووقفوا موقفًا متشددًا مِن عليٍّ مطالِبين بالقصاص، لكنَّ عليًّا كان له رأيٌّ سياسيٌّ أراه صائبًا، إذ إنّه آثر تهدئة الفتن أولاً، خاصة وأنّ الثوار الذي شارك بعضُهم في قتل عثمان كانوا كُثُرًا في المدينة حينها. ومع تأجيل عليٍّ قضية القصاص استأذن عددٌ مِن الصحابة في الذهاب للحجّ ومعهم كانت عائشة -رضي الله عنها-. ولعلّ تلك التفرقة التي تمت بحُسن نيةٍ وبنيِّة الحج كانت أصلَ الكارثة، إذّ إنّ السابقين الأوّلين من المؤمنين انقسموا إلى فرقتين بينهما مسافاتٌ شاسعةٌ في ذلك الزمان وبلا وسائل تواصلٍ سريعةٍ بين الفرقتين في زمنٍ كان العدو يتربّص بهم من كلّ ناحية. وهكذا كانت بداية ما عُرِف في التاريخ بموقعة الجَمَل التي تبدو لبعضهم حربًا بين عليٍّ وعائشة وما كانت كذلك. وقد طالبني الكثيرون وأنا أكتب هذا الكتاب أنْ أفصل في موقعة الجمَل، لكني أرى أنّ هذا مِن شأن المختصين في التأريخ ولا مجال له في كتابٍ صغيرٍ هدفُه الأساسيُّ في هذا الباب تصويب مفهوم "خير القرون" لا غير.

موقعة الجمل:

لا بد لنا هنا مِن استحضار العلاقة التاريخية الصلبة بين علي وعائشة -رضي الله عنهما-، وهُما اللاعبان الأساسيان في موقعة الجَمَل اللذان دارت الشبهات حول خلافٍ بينهما. علي بن أبي طالب نشأ طفلاً في بيت ابن عمِّه محمد بن عبد الله الذي يكبره بسنواتٍ كثيرة. وكان عبد الله بن قحافة " أبو بكرٍ الصدِّيق" الصَدِيق الأول لمحمد قبْلَ البعثة. طبيعيٌّ جدًا أنه كانت هناك صلاتٌ طيبة بين الأسَرتين شملت الأولاد فيهما، وهُما علي وعائشة. حينما بُعِث النبي كان أولُ مَن آمَن به مِن الذكور عليًّا وهو صبي، ثم أبا بكرٍ الصدِّيق وآل بيته. إذن، ازدادت الصلة بين الأسرتين بالعقيدة. وطبيعيٌّ جدًا أن نتصور عليًّا وعائشة وقد نشآ معًا وهُما أقرب المقربين للنبي ويمثلان معًا الحلقة الداخلية جدًا حول ميلاد النبوة قبل أن يؤمر النبي بإنذار عشريته الأقربين. وطبيعي إذن، أن عليًّا وعائشة قد شهدا كيف انشقت قريش وعَادَتْ النبيَّ ومَن آمَن به، وأصبحا مِن أكثر الناس عِلمًا بتحديات الدعوة وعِلمًا بأعداء المستقبل مِن صبيان المشركين. ولعل أبْلغَ معالِم تلك الصلة الوثيقة هي أنه في يوم الهجرة قد نام عليٌّ في فِراش النبي بينما كانت أسماء ذاتُ النطاقين تأتي للنبي ولأبي بكرٍ بالطعام في غار ثور. مِن هنا نفهم أن أخطر أسرار بيت النبي في أحلك أيامِه كانت معلومة لعائشة ولعليٍّ معًا. ثم تطورت الصلة حينما تزوج النبي عائشة وتزوج علي فاطمة بنتَ محمد فأصبح بينهما نَسَبٌ ورحِم إضافةً لذلك التاريخ الطويل مِن الصلة الوطيدة.

مِن هذه القراءة السريعة لسيرة علي وعائشة لا بد أن ننتبه إلى أن كل ما يشكك في عدم بيعة عائشة لعلي حينما لم يكن في الساحة أفضلُ منه للخلافة ليس إلا هراء. فبَعدَ موتِ النبي وأبي بكرٍ كان طبيعيًا أن يصبح عليٌّ وليَّ أمرٍ وراعيَ عائشة ليس لصلة النسب والرحِم فحسب وإنما لأنها أقربُ المقربين إليه مِن جيلهم في قريش قبل رحلة الإسلام الطويلة.

بعدَ أن آلَ الأمر لعلي بالخلافة أرى أنه مِن الحماقة السؤال عن موقف عائشة مِن بيعته؛ لأن هذه البيعة معقودةٌ له منذ الطفولة ولم تكن وليدةَ الظرف. لكن لأن مقتل عثمانَ كان قد هَدد بانهيار الدولة فكان طبيعيًا أن تختلف الآراء في أولويات الخليفة وليس حول هويَّتِه. فقدْ روَى التاريخُ أن عائشة كانت ترى الإسراع بالقصاص مِن قتَلة عثمان، بينما رأى علي المحافظة على وحدة الدولة بإعادة هيكلة الولاة وإعادة السيطرة على الأقاليم المتمردة. وهنا استأذنتْ عائشةُ عليًّا كولي أمرٍ في الذهاب إلى مكة مع نفرٍ مِن الصحابة فأذِنَ لهم.

ويبدو لي مِن قراءة التاريخ أن هروبَ مروانَ بن الحَكم إلى مكة ولقائه بعائشة كان بنِيَّةٍ مبيتةٍ لتحفيزها أكثر للمطالبة بالقصاص مِن قتَلة عثمان، إذ إنها كانت ترى أن وأدَ الفتنةِ يتطلب معالجة هذا الواقع سريعًا. بينما عليٌّ كان الخليفة حينها، وعلى كاهلِه أُلقيتْ مَهامٌ جِسامٌ متعددةٌ ، منها وليس كلها ، التحقيق في مقتل عثمان والقصاص له. وهنا يمكن فهْم الخلاف بينهما في إطار تقديم الأولويات وكيفية معالجة الواقع المهتز، وليس خلافًا على البيعة.

ولا ننسى أن مؤسسة عبد الله بن سبأ كانت قد استفحلتْ واستقطبت الكثيرين لجانب هذا الطرف أو ذاك، فأصبحتْ هي المتحكم في أوراق اللعبة السياسية؛ لأن لها هدفًا واحدًا واضحًا هو تأجيج الفتن وليس وأدَها. وهكذا تحركتْ عائشةٌ في جمْعٍ مِن الصحابة نحو البَصرة لظنهم أنها معقِلُ قتلةِ عثمان، ولسوء فهمهم لسياسة وحكمة عليٍّ في تأجيل القصاص حينها. وكان طلحة والزبير بن العوام قد لحِقا بالحجيج في مكة وانضما لوفد المطالبين بالقصاص.

في تلك الأثناء كان عليٌّ قد قدَّمَ أهمية استعادةِ الشام التي بدا أن واليَها معاوية بنَ أبي سفيان قد تَمرد على الخليفة، لكنَّ عليًّا لم يجد إجماعًا ممن حوله. وتقول المصادر إن الجيشَ الذي عُرف بجيش طلحة والزبير وفيه عائشة وصل البصرة وطالبوا واليها " عثمان بن حنيف" بالقصاص مِن قتَلَة عثمان، إلا أنه رفض حتى يأذن له الخليفة علي -رضي الله عنه-. ورغم عدم وجود أدلة أن جيش الزبير وطلحة كان قادمًا لقتالٍ إلا أن مُشعِلي الفتنة أشعلوا حربًا أدّت إلى هزيمة والي البصرة ومقتلِ عددٍ مِن مُشعلي الفتنة. في تلك الأثناء كان عليٌّ قد عَلِم بتوجه جيش طلحة والزبير إلى البصرة، فتحرك بجيشٍ صغيرٍ نحو البصرة لوأدِ فتنةٍ جديدةٍ قبل أن تنشب. ويبدو مِن بعض المراجع أن كثيرين مِن مؤسسي الفتنة لحِقوا بجيش عليٍّ واندسوا فيه وهو لا يعلمهم بالطبع. وعند الكوفة لقيه أبو موسى الأشعري وكان واليًا عليها، وعمد هو والقعقاع بن عمرو على تهدئة الوضع والصلح بين الطرفين واستيضاح نقاط الخلاف. وتم الصلح وبات الجيْشان ليلة هادئة لم تُرض "عبد الله بن سبأ" الذي تُسجل بعض المراجع تواجدَه شخصيًا حينها في ساحة الفتنة. وعليه فقدْ نجح السبئيون في إشعال قتالٍ مفاجئٍ بعد أن أغاروا على جيش عليٍّ ليلاً موهِمين إياهم أن جيش طلحة والزبير قد غدر بهم.

ويسجل التاريخ أن عليًّا وعائشة وكُلًّا منهما في طرف قد بذلا كل جهدٍ لإيقاف القتال الذي أصبح غامضًا، إذ إن الجيشيْن كانا مخترقيْن وخارج السيطرة. ولمَّا نجح عليٌّ في الوصول إلى طلحة شخصيًا تمت السيطرة على الموقف، وتم إنقاذ عائشة التي كانت على ناقتِها تتلقى عشراتِ السهام في محاولات مباشرة لاغتيالها مِن أطراف مجهولة مندسة بين الطرفين حتى وصِفتْ الناقةُ أنها أصبحت كـ "القنفذ" مِن الرماح التي نَخرت فيها. فأمَرَ علي بنحر الناقة وحمْلِ هودج عائشة بعيدًا عن ميدان القتال، وأُرسِلت في حراسة مشددة إلى المدينة صونًا لها. فكانت هي أول حرب أهلية في الإسلام وحملتْ اسمَ موقعةِ "الجمل".

وما يهم فيها هو أنه لم تكن هناك حربٌ بين عليٍّ وعائشة، وإنما تَواجَدَ عليٌّ وعائشة على طرفَي نقيض في زمن كانت فيه وسائل الاتصال معدومة، وفي فترة كان المحرك فيها للأحداث طرفًا ثالثًا أكثر تنظيمًا وتخطيطًا، وهدفه أسهل وهو إثارة الفتن وتقويض نظام الدولة. وما يهم فيها أن عائشة رجعت للمدينة تحت حماية جيش علي -كرَّمَ الله وجهه-. لكن تظل تلك الحادثة مَعْلَمًا بارزًا في التاريخ الإسلامي، إذ إنها توثِّق بداية اختطاف الدولة المسلِمة التي سرعان ما هَوَت بمقتل عليٍّ والحُسين -رضي الله عنهما-. ولعل حجم الفتنة وضبابية الأحداث حينها يعبِّر عنها أحسنَ تعبيرٍ قولُ عليٍّ وهو يَحتضِن ابنَه الحَسن: "يا بُني، ليت أباك مات قبل هذا بعشرين عاما"!

مقتل عليٍّ:

بعيدًا عن تفاصيل التاريخ، التي ليس مجالها هذا الباب، فإنّ مقتلَ عليٍّ -رضي الله عنه- يمثّل نقطة فاصلة في التاريخ الإسلامي. إذ إنّ الحكم بعده انتقل ممّا عُرف بالخلافة إلى تأسيس أولِ مُلك في الإسلام. ثم إنّ عليًّا كان آخر السابقين الأولين في الإسلام وكانت نهاية عصره وحياته على يد أول المعارضين للإسلام في مكة. وكأنّ التاريخ قد بدأ عصر النبوة في بؤرةٍ ضيقةٍ كان فيها رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وبين يديه عليٌّ صبيًّا، يواجه صلف وعلوّ أبي سفيان بن حرب وسادة قريش المشركين، ثم انتهى الأمر إلى خلافٍ بين عليٍّ ومعاوية بن أبي سفيان بعد ما يقارب الستين عامًا.

فبعد وأد فتنة "الجَمَل" نَقَل عليٌّ مقرَّ الخلافة إلى "الكوفة" ثم عمل على إخضاع معاوية والي الشام المتمرد حينها، ورغم انتصار جيشه عليه في موقعة "صِفّين" إلا أن جيش معاوية لجأ إلى حيلة رفع المصاحف لإيقاف الحرب. فقبِلَ عليٌّ حرمة المصحف رغم أنه كان منتصرًا، لكنّ حقن الدماء عنده كان مقدَّمًا على النصر العسكريّ. إلا أنّ كثيرين من أهل العراق الذين كانوا معه اعتبروها خدعة فخرجوا على عليٍّ -رضي الله عنه-، وهنا ظهر اسم "الخوارج" لاحقًا ليشير لتلك الفئة التي جرَّمتْ عليًّا ومعاوية معًا، ورأتْ أنهما ليسا أهلاً للخلافة.

وتطورت الأحداث لخديعةٍ أخرى، حيث اتّفق عليٌ ومعاوية على حسم الخلاف بينهما بخلع نفسيهما وأن يعاد الأمر للشورى من جديد. فكان أن اختار عليٌّ أبا موسى الأشعري ممثّلاً له واختار معاويةُ عَمْرَو بنَ العاص. وعلى غير ما تم الاتفاق عليه فقد خلع أبو موسى الأشعري عليًّا ومعاوية أولاً، فنقض عمرُو بن العاص العهد فخلع عليًّا وثبَّت معاوية خليفةً. واندلعت حربٌ أخرى أدّت إلى انقسامٍ في الدولة المسلمة حيث ظلّ عليٌّ أميرًا للمؤمنين من الكوفة، بينما استقلّ معاوية بالشام. ولم تكن خلافة عليٍّ طويلةً إذ دامت أربع سنواتٍ كانت كلها صراعاتٍ مع متمردين من كل مكان. وكانت النهاية حسب ما ترويها كتب التاريخ على يد الخوارج الذين كانوا معارضين لعليٍّ ومعاوية، فقرّر نفرٌ منهم قتلَ عليٍّ ومعاوية وعمروِ بن العاص في يومٍ واحدٍ. ونجح عبد الرحمن بن ملجم في قتل عليٍّ حسب الموعد المحدد في مسجده بالكوفة، بينما فشل الحجاج بن عبد الله الصريمي في قتل معاوية، وفشل عمرو بن بكر في قتل عمرو بن العاص. وهكذا تسبب الخوارج في إنهاء الخلافة الإسلامية عن قصدٍ أو عن غير قصدٍ وخلا الجوُّ لمعاوية بن أبي سفيانَ ليُعِدَّ العدةَ لتأسيس مُلك بني أُمية.

عصر الملوك:

بعد مقتل عليٍّ بايَعَ الناسُ الحَسنَ بن علي، إلا أنه كان قد ضاق ذَرْعًا من دماء المسلمين التي سالت، فقَبِل تفاوضًا مع معاوية، محتواه أن يبايعَه لتوحيد الدولة المسلِمة بشرط أن يليَ الحَسنُ بن عليٍّ الحكمَ بعده. ورغم أنّ الاتفاق أغضب كثيرين إلا أنه حقن دماءً كثيرةً، وهو ما كان يرجوه الحسن بن عليّ -رضي الله عنه-. وشاءت الأقدارُ أنْ يموت الحسن بن علي -رضي الله عنه- سنة 51 هجرية وبذلك سقط الاتفاق السابق وخلا الجوّ لمعاوية أن يطلب البيعة لابنه يزيد. وبطبيعة الحال فقد رفض ما تبقى مِن السابقين الأولين مِن المهاجرين والأنصار هذا التوريثَ مما حمل معاوية على استعمال القوة لفرض سلطانه ثم توريثه الحكم ليزيد. ومن هنا فقدْ أصبح التاريخُ الإسلاميُّ تاريخَ ممالكَ يَبطِش ملوكُها بكلّ مَن يخالفهم الرأي، ولعل ضربة البداية كانت موقعة "الحرة" المريرة التي يغُضّ خطباءُ السُّنّة عنها الطرفَ وكأنها كانت حدثًا يمكن نسيانه. إذ إنّ معاوية قهَرَ أهلَ المدينة الذين رفضوا بيعة ابنِه يزيد بجيشٍ عرمرمَ قاده مسلم بن عقبة بعد أنْ أحلّ له يزيدُ المدينة المنورة ثلاثَ ليالٍ يفعل بأهلها ما يشاء. فتمَّت إبادة جماعية لمن تبقَّى من المهاجرين والأنصار، وقُتِل كل من كان حيًّا من أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم- الذين شاركوا في بدْر، وكأنّ موقعة الحرة كانت ثأرَ ابن أبي سفيان من هزيمة بدْرٍ التي بدأ بها التاريخُ السياسيّ الإسلاميّ. وتكاد مراجع التاريخ تُجمِع على تفاصيلِ بشاعةِ الكارثة في المدينة، إذ إنّ الأمر كانت فيه روح الانتقام مبيَّتةً، حيث تم التمثيل بالجثث واغتصاب النساء ويقال إنه بعد عامٍ ولِد في مدينة الرسول ألفُ طفلٍ من غير أبٍ.

إلى هنا يمكننا أن نُسدِل الستارَ على أحداث القرن الأول فقط من "خير القرون"، وهو بطبيعة الحال كان "أكثرَها خيرًا" وفقا للترتيب الزمنيّ للمقولة التي زرعت في نفوس المسلمين مركّب نقصٍ يقضي بحتمية التدهور الطبيعيّ للأمّة المسلِمة مع عامل الزمن.

خاتمة:

ما قدَّمتُه في هذا الباب فيه اختصارٌ كبيرٌ للأحداث لا يسعها بابٌ أو كتابٌ، وأخفيتُ فيه عن عمدٍ أنهارَ الدماء التي سالت، وأنْفُسَ أصحابِ محمد التي أُزهِقت والتمثيل بالجثث فيما بينهم رأفة بقلوب الأحداث من القُراء الذين نشأوا عمدًا على تصوّرٍ مغلوطٍ لمفهوم "مجتمع الصحابة". وما كان القصد من الباب التدنيس لمقدساتٍ وهميّةٍ في نفوس المسلمين الذين يحِنّون لـ "خير القرون" ويبذل بعضُهم الغالي والنفيسَ في سبيل إعادة خلافةٍ إسلاميةٍ لن تعود بالتصور الذي نتوهمه. وما كتبتُه من تفاصيلَ ليس مرجعًا تاريخيًّا لأيِّ حدث، وإنما صرخةٌ لاجئ في قرنٍ مِن "شر القرون" أرفعُها باسم جيلٍ تائهٍ لا يطيق الكفرَ بالله، ولا يطيق الإيمانَ بالمتناقضات لعل صداها يتردد فيَصِل أهلَ الاختصاص من علماء التاريخ لينهضوا ويراجعوا كتابة تاريخ الإسلام، إذ إنّ البذورَ التي بذرتها "مؤسسة عبد الله بن سبأ" لصناعة الأديان في "خير القرون" قد أنبتت شجرَها وآتت أكلها اليوم، وأخرجت الناسَ من دين الله أفواجًا.

ولعل أهلَ الاختصاص هؤلاء قد لاحظوا ذكري لمرجعٍ يرفع بعضُهم حواجبَهم حين ذِكره وهو كتاب "الإمامة والسياسة" لابن قتيبة الدينوري. فهذا الكتاب على ما فيه من تفاصيلَ تاريخيةٍ دقيقةٍ وعلى كِبَر حجمِه وشهرتِه،

ظلّ موضعَ شكٍ عند المؤرخين في مصداقية نِسبتِه لابن قتيبة. وهذا أمرٌ يثير الدهشة إذ إنّه دليلٌ على أن تاريخ الإسلام كُتِبت فيه كتبٌ استمرّ تداولُها رغم الغموض في هويّة كاتبيها. لكن الحقائق التي نقلتُها ليست فقط من "الإمامة والسياسة" وإنما هي حقائقُ تاريخيةٌ تكاد تُجمِع عليها كلّ كتب التاريخ الإسلاميّ مثل البداية والنهاية، وتاريخ الطبريّ، وعمدة القارئ، وغيرها مما يَرجع إليه أهلُ السُّنَّة والجماعة.

نقطةٌ أخيرةٌ أذكرها باختصارٍ شديدٍ لأنها تمهِّد للأبواب القادمة، وهي أن معاوية ومنذ دخولِه في الصراع مع عليّ استعان بمعاونين يهود ونَصارى كانوا في الشام منذ زمن الإمبراطورية الرومانية، وعلى رأسهم سرجون بن منصور الرومي الذي جعله كاتبَه ومستشارَه ومستودَعَ سرِّه. وورث المكانة مِن بعدِه ابنُه يوحنا الدمشقي وكان مِن ألدّ أعداء الإسلام، وله مؤلفاتٌ تعلّم المسيحيين كيف يشكّكون المسلمين في دينِهم ويحاجُّونهم. كما ذَكَر الطبري في تاريخه أنه كان له معاونون يهود ومجوس كلهم كان كارهًا للإسلام، ساعَدوه في بناء "المُلك الديني" على غرار الإمبراطورية الرومانية والفارسية سابقًا، حيث يحوَّر الدين ويسخَّر لتركيع الشعوب وبسطِ نفوذ السلطان. وأفاد ابن كثير أن يزيدَ ورثَ عن أبيه هيئة المستشارين المقرَّبين تلك وهكذا بدأ عصرُ ممالِكَ سرعان ما تطاحنت، إذ إنّ العباسيين لمّا قضوا على مُلك بني أمية كان تمثيلُهم وبطشُهم بهم عظيمًا، لكن هذا ليس مجاله هنا، فقط أذكرُ أن كلَّ ذلك كان في "خير القرون".

ولا بد أن أنبِّه إلى أنّ الإسلامَ لا يعيب المُلكَ، إذ إنّ صيغة الحكم متروكةٌ للشعوب. بل التاريخ يشهد أنّ كلَّ الحضارات العظيمة بُنيت في عصر ملوك، لكن ما نستقبحه هو القهر، والظلم، والاستبداد، وتحريف الأديان وتسخيرها لخدمة السلطان.

في الأبواب القادمة سنتدرج بهدوءٍ، غاضّين الطرفَ عن بحار الدم، لنرى كيف تطورت الأحداثُ من القرن الأول،، لتشكّل الفكرَ الإسلامي بهدوءٍ بعيدًا عن الصراط المستقيم، بلا حاجةٍ لتحريف القرآن الذي لا يُحرّف، لكنّه يمكن أن يظلّ على الأرفف، وقد اتَّخَذه الناسُ مهجورًا.... فإلى "علوم القرآن".

الباب السادس

علوم القرآن

كتابُ "أُمِّي كاملةُ عقلٍ ودينٍ" كُتِبَ للدفاع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورَفْع الأذى عنه بتبرئتِه مِن أقوالٍ هدَّامةٍ نُسِبتْ إليه وهو منها براء. وعليه فإنّ محورَ الكتابِ هو تسليطُ الضوء في المقام الأول على التراث الإسلاميّ "السنة و والحديث" وليس القرآن. لكن لمّا كان الإسلامُ أصلاً منبعُه القرآن، وما التراثُ إلا ميراثُ القرون الأولى الذي ورثناه منهم، ولمّا كانت الحربُ على الإسلام تستهدف القرآن الذي هو أصل الرسالة، ولمّا كان الهدف مِن الكذب على رسول الله هو تضليل الأمّة وإبعادها عن القرآن فقدْ كان طبيعيًا أن نناقش بعض الجوانب الأساسيّة في القرآن التي تمت زعزعتُها حتى يجد التراثُ مكانًا مساويًا للقرآن، وفي بعض الأحيان مكانًا أرقى منه في تشكيلِ الفكر الإسلاميّ؛ لذلك فهذا الباب المختصَرُ ليس مرجعًا لأي عِلمٍ مِن علوم القرآن، وإنما هو فقط مفتاحٌ لفهم علاقة القرآن بموضوع الكتاب الذي بين يدَي القارئ. ولعله يكون أيضًا فاتحةً لعقول الأجيال القادمة أنْ تعيد البحثَ في كتاب الله مِن حيثُ انتهى السلفُ تصويبًا لِما أخطأوا فيه وإضافةً لِما عجزوا عنه؛ لأن كتابَ اللهِ هو كلام الحيّ الذي لا يموت ولا يمكن حصر علومه بفترة زمنية أو مكانية محددة.

فقدْ ورثنا - مِن ضمن ما روثنا- القرآن محاطًا بهالةٍ كبيرةٍ من الكتب والاجتهادات التي يجمعها في الغالب مصطلحُ "علوم القرآن". وهذا المصطلح في حقيقته مصطلحٌ فضفاضٌ -كما سنرى- لكنّه في الآونة الأخيرة أصبح فزَّاعة يستعملها البعض لمنع الناس عن تدبر كتاب الله بحجة ضرورة الإلمام بـ "علوم القرآن" الموروثة قبْل إبداء أيِّ رأي في أيِّ آية فيه.

المصطلح لا يعني إلا واحدًا مِن أمريْن أو كليهما معًا:

الأول: العلوم التي انبثقت مِن القرآن: وهذه بطبيعة الحال لا حدودَ لها ولا تعريف. وسيستمر البحثُ فيها إلى يوم القيامة، وما حصرُها في تراث السلف فقط، إلا جريمةٌ وتعدٍّ على حرمةٍ من حُرُمات الله.

الثاني: العلوم التي وضِعتْ لتخدمَ أو "تهدم" فهْمَ القرآن: وهذه بطبيعة الحال ليست إلا اجتهاداتٍ مِن البَشر، ولا يحق لأحد كائنًا مَن كان أن يفرضها على الناس كضرورةٍ من ضرورات تدبر القرآن -كما سنرى-. وهنا، يمكن إضافة آراء المستشرقين والباحثين الأكاديميين غير المسلمين تحت هذا القِسم. فالقرآن أُنزل للناس كافةً، بلْ ويخاطبُ غيرَ المسلمين ويتحدّاهم أنْ يبحثوا فيه وأنْ يأتوا بمثله، وعليه فإنّ ردودَ وتعليقاتِ وبحوثَ الأكاديميين غير المسلمين مهمٌّ الإلمامُ بها وإضافتُها تحت مسمّى علوم القرآن، إذ إنّه كتابُ الله وليس كتابَنا، واللهُ ربُّ العالمين وليس ربَّنا وحدَنا.

ولعله مِن المهم أن أبدأ برأيٍ متناقلٍ بين الأكاديميين المستشرقين حول حقيقة أنّ القرآن الذي بين أيدينا هو نفسه القرآن الذي ترَكه محمد. فقدْ خلصت الموسوعةُ الحرة إلى أنّ كل البحوث مِن خارج البيت المسلِم عجزت عن إثبات تغييرٍ ذي قيمة في القرآن منذ أنْ تركه محمد. هذه الشهادة مهمةٌ لنا ولهم؛ لأن الكتابَ في النهاية هو كتاب الله، وكونُ غيرِ المسلِم يرفضه فهذا حقه، لكن كونه ينصفه في هذه الجزئية فمِن حقهم علينا أنْ نقدِّر هذه الأمانة.

ولعلّ القليلَ الذي أشاروا إلى أنه لا قيمة له في التشكيك في أن قرآن اليوم هو كتاب محمد نفسُه، لعلّ هذا الشك القليل الذي بدا لهم هو مِن إنجازات البخاري ومسلِم "الكتابان لا الشخصان"، إذ إنّ فيهما الكثيرَ مِن الروايات الهدامةِ منسوبةً للصحابة تشكّك في القرآن. ولمّا كانت الأمة العمياء قد قدَّست هذيْن الكتابين وغيرَهما وجعلت لهما سلطانًا على القرآن فليس مستغربًا أن يتشكك الغريبُ عن البيت الإسلامي. وهكذا تكتمل حلقة التآمر بين واضعي الحديث ليصرفوا الناسَ عن كتاب الله ثم ينسبوا لأصحاب النبي شهادتَهم أن القرآن قد تغير.

لا بدّ أن نتذكر أن كِلا المفهومين مقبولٌ؛ العلوم التي تخدم القرآن، أو التي انبثقت منه. إذ إنّ القرآن كتابُ عِلمٍ لا حدود له كما أنه يحتاج لأدواتٍ تُيَسِّر على الناس باختلاف مستوياتهم العلمية والفكرية فهمه وتدبره، وهو فوق ذلك مِن أهم كُتُب التراث الإنسانيّ التي أقامت حضاراتٍ وأسقطت أخرى بغضّ النظر عن رأي الناس فيه. الإشكال في التعامل مع علوم القرآن ينتج حينما يصرّ بعضهم على أنّ هذا كلُّ ما يمكن أخذه من هذه الآية أو هذه السورة، أو يصرّ على أنه ما لم تجلس على يد الشيخ الفلانيّ وتتعلم هذا الفنَّ أو ذاك فلا يحق لك أن تتدبر كتابَ الله، وكأن التواصلَ مع الله يحتاج لمشايخَ يقرِّبونا إليه زلفى. وحتى نتحرر من كل هذه الإشكالات لا بد أن نتذكر حقيقةً واحدةً، وهي أنّ القرآن هو كلام الله ورسالته الأخيرة للناس كافة حسب عقيدة المسلمين. وعليه فليس بين أيّ بشر - كائنًا مِن كان في أيِّ زمان ومكان- وكتابِ الله حجابٌ ولا واسطة ليتحقق أساس التواصل مع الله. وحتى نختبر هذه الحقيقة الموضوعية جدًا أُقدِّم لهذا الباب بتجاربَ مع مَن لم يسمع بالقرآن مِن قبلُ، كيف كان وقعُه عليه أولَ مرةٍ وهو مترجَمٌ وليس بلسانه العربيّ المبين.

لا ريب فيه:

"الله على بُعدٍ واحد مِن كل البشر" هذه حقيقة لا جدالَ حولها لأنها تخص القدرةَ الإلهية وعِلمه الذي وسع السمواتِ والأرضَ ولا علاقة لها بكون الفرد مسلِمًا أو كافرًا، تقيًّا أو عدوًا لله، في خير القرون أو في شرّها. فكلهم يحيون بأمره ويموتون بأمره ويُبعَثون بأمره. وعليه فإن الله محيطٌ بالجميع إحاطة تامةً ومتساوية. ومِن هذا المنطلق فإنّ مداخل الهداية والتواصل مع الله تختلف مِن شخصٍ إلى شخصٍ حسب ظروف الأفراد وليس حسب ظروف الله. وهنا أسوقُ قصةً أبعدَ مِن خيال "أفراد الفرقة الناجية" الذين قالوا كما قال اليهودُ والنصارى "نحن أبناء الله وأحباؤه".

لــورا:

قبْلَ سنواتٍ كنتُ أتصفّح موقعًا اجتماعيًّا في الإنترنت في المدينة التي كنتُ أعمل فيها. وقرأتُ ملفًا شخصيًّا لشابةٍ بريطانيةٍ صغيرةٍ أثار فضولي. فقد كتبتْ: "أنا لا أشك أنّ الله هو الإله الحق وأنّ محمدًا هو رسول الله، وأنه لا كتاب يمكن نسبته لله في الأرض غير القرآن، ولكَمْ ودِدتُ لو أني ولِدتُ مسلِمة." في بداية الأمر ظننتُ أنها اعتنقت الإسلامَ لكنها تودّ لو كانت قد ولِدتْ مسلِمةً وما احتاجت لرحلة البحث الطويلة، لكن لمّا راسلتُها للتعارف فوجئتُ بأنها تظن أن مَن لم يولد مسلِمًا فلا يمكنه الإسلام إلا بطُرُقٍ معقدةٍ وإذْنٍ مِن جهاتٍ كثيرةٍ؛ بمعنًى آخر،هي ظنت أنها مِن "الفرقة المغضوب عليها بالميلاد" على عكس الفرقة الناجية بشهادة الميلاد واسم القبيلة. وكان يومًا

بهيجًا لها حينما علمتُ أنها مسلِمة ومؤمنة وأنّ اللهَ شاهدُها وأنها أقربُ إلى الله وجنّاتِه مِن كثيرٍ ممن ولِدوا مسلمين. لكن ما كان غريبًا عليّ هو كيف دخلت الإسلام.

قالت الفتاة بعد ترددٍ طويل إنها كانت كبقية الشباب تقضي لياليها في عطلة الأسبوع في السهرات والرقص والخمر وغير ذلك، ولا دين لها بعد أن تركت المسيحية كعامة الشعب البريطاني، ولم تكن تفكر أبدًا أنها يمكن أن تقترب مِن أيِّ دين. وذات ليلة استقلت تاكسي مِن ملهًى ليليٍّ وكانت مخمورةً. وقام سائق التاكسي باستدراجها لشقته ثم اغتَصَبها. ولأنها كانت متعلمة وقوية الشخصية فقدْ تجرأت على فتح بلاغ ضده، إلا أنّ المحامي أقنَعَها أن كونها كانت مخمورة وأنّ الحادثَ تم في شقته فغالبًا ما تفقد القضية لأنها تتحمل جزءًا كبيرًا مِن المشاركة فيها. لكنها أصرت أن تخوض المغامرة. وجاء يوم المحاكمة، ووقف المتَّهَم أمام القاضي فسأله القاضي كالعادة عن دينه وطلبَ أن يُخرج كتابَه المقدس مِن بين الكتب التي على الطاولة، وأن يُقسِم عليه أن يقول الحق كلَّ الحق ولا شيء غير الحق. فأجاب بأنه مسلِم وأخرَجَ القرآن وأقسَم عليه. وكان السؤال الثاني مِن القاضي هو: "إن الفتاةَ تتهمك أنك اغتصبتَها فهل أنت مذنِب أم غير مذنِب؟" فأجاب الشاب وهو يبكي: "أنا مذنِبٌ وهي على حق!" طبعًا دُهِل مَن في القاعة، خاصة وأنّ جريمة الاغتصاب في هذه البلاد تُفقِد الرجُلَ الكثيرَ جدًا مدى حياتِه؛ لأنّ اسمَه يُدرَج في سجل "المتوحشين جنسيًا" حتى بعد نهاية فترة السجن، مِن ناحيةٍ أخرى فإن إثباتَ التهمةِ مِن شِبه المستحيلات خاصة في ظروفٍ مثل هذا الظرف. فسأله القاضي لماذا اعترفَ الآن ولم يعترف مِن قبل حينما وُجِّه له الاتهام؟ فقال له: لقد ارتكبتُ جريمة في لحظة ضعفٍ وظننتُ أني يمكن أن أهرب مِن مسؤوليتها، لكني الآن اضطررتُ للقَسَم على القرآن ولا أستطيع أن أتحمل مسؤولية القَسَم عليه كاذبًا!

قالت لورا: شعرتُ بالأرض تدور مِن تحتي، فقدْ قضيتُ أسابيعَ أهيئ نفسي لتحقيقٍ مريرٍ وإهاناتٍ شخصيةٍ واستفزازٍ مِن هذا الوَحش ومحاميه وصدًى إعلاميٍّ، ولم أنم جيدًا عدَّةَ أيامٍ قبل المحاكمة، وكنتُ على شِبه قناعةٍ أنني سأخسر القضية فإذا بها تُحسَم بقَسَم على كتاب. همستْ لورا في أُذن محاميها أن يَطلب مِن القاضي أن يرأف به في الحُكم لأنه ظَلَمها لكنه أيضًا أنصفها. ثم خرجتْ هائمةً على وجهها في شوارع المدينة تبحث عن مجهولٍ إلى أن انتهي بها المطاف في مكتبةٍ كبيرةٍ، فدخلتها لتطلب كتابًا لم تسعفها الذاكرةُ أن تتذكر اسمَه، ثم كان أنْ فشلت في أن تتذكر اسمَ الدين الذي يرمز له. لكنْ بعدَ مجهودٍ مع صاحب المكتبة ومراجعة أسماء معظم الأديان تذكرتْ اسمَ الإسلام، ومِن ثم وجدتْ نسخة مترجَمة مِن القرآن علي يدِ باحثٍ أكاديميٍّ غيرِ مسلِمٍ. بمعنًى آخر اشترتْ أسوأ ترجمةٍ ممكنةٍ.

ومضت لورا تقص عليّ: حينما وصلتْ البيتَ وضعتْ القرآنَ في أعلى رفٍّ؛ لأنه كان في تلك اللحظة أعزَّ صديقٍ لها. وقررتْ ألا تمسّه إلا بعد أن تغتسل وتتطهر احترامًا له. ثم كان أن أُعجِبتْ بسورة الفاتحة وما فيها مِن دعاء، ثم دُهِلتْ مِن جرأة الكاتب في أول سورة البقرة: "ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه"، فقدْ اعتادت على الكثير مِن طبعاتِ الكتاب المقدّس التي يُقدَّم لها بالصعوبات التي وجدها الطابع في الوصول إلى الكتاب الأصلي مما يبدأ بزرع الريب والشك في النفس. ومضت تقرأ والكتاب يتحداها أنه لا ريب فيه، وقالت إنّها وجدت صعوبة في فهم الكثير نتيجة الترجمة، لكن كلّ ما فهمته كان يدلُّ على أنّ الله حقٌّ ومحمدٌ رسول الله وهذا الكتاب لا ريب فيه. وهكذا بدأتْ رحلتَها مع الإسلام فاشترت بعضَ الكتب من هنا وهناك، وسمعت محاضراتٍ مسجلةً في اليوتيوب وحواراتٍ وكان يقينها يزداد كلّ يوم أنّ الإسلام حقٌ وأنّ القرآن أهمُ كتابٍ في حياتها بعد أن وصلت لترجماتٍ

أفضل، لكنها في رحلتها تلك لم يخطر على بالها أنها قد أسلمت منذ زمن، وكان الأسى دائمًا لا يفارقها في أنها ما ولدت مسلمة، ولم يكن لي دورٌ بالطبع في كلِّ هذه الرحلة إلا أن نقلتُ لها الخبرَ السار أنها على رأس قائمة الفِرقة الناجية بإذن الله.

ما يهمنا في هذه القصة ومثلها كثيرٍ جدًا حول العالم، هو أنّ الله تعالى حرم الشِّرْكَ وجعله أكبرَ الذنوب التي لا يغفرها، وهو بالطبع لا يَرضى شريكًا له في كل ما يخصه حتى في كتابه. وما يهمنا هو أنّ اللغة العربية مهمةٌ بطبيعة الحال لاستنباط الأحكام وغيرها، لكنّ التواصل مع الله يتمّ بأيِّ لغةٍ، وأنه طالما أنَّ العبد يتواصل مع الله، فاللهُ في غِنًى تامٍ عن خدمات أفراد "الفِرقة الناجية" ليكونوا وسطاءَ بينه وبين عباده مهما كانت قيمةُ العلوم التي استنبطوها مِن كتابه أو التي وضعوها لتخدم كتابه. الله في غِنًى تامٍ عن خدماتهم.

وأذكرُ جملة قالتها لي لورا حينما أخبرتُها عن سوء الترجمة والفرْق الكبير بين الأصل والمترجَم، قالت لي: "ما أشعر به حين أفتح القرآن هو كأنني أحمل تليفون جوّال ودخلتُ به في مكانٍ فيه شبكة "واي في" إذ إني أشعر بتواصلٍ مباشرٍ مع الله وإلهامٍ لا حدود له يتنزل عليّ".

ما هو القرآن؟

لقد غَرق القرآن في زحمة التراث الإسلامي الذي تراكم خلال 14 قرنًا حتى أصبح المسلِمُ العربيُّ نفسُه في حاجةٍ لإعادة تعريفٍ بكتاب الله. لفظُ القرآن لفظٌ توقيفيٌّ بمعنى أنه مِن الله تعالى وليس ابتكارًا مِن البَشر. فقدْ سَمّى اللهُ الكتابَ الذي أنزله على محمدٍ بهذا الاسم سواءٌ أفهمنا مدلولَه أم لم نفهم:

{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)} الأنعام.

لاحِظْ في هذه الآية أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مأمورٌ بوصف القرآن كما وصفه الله. هذه مِن الملاحظات التي تترك أثرًا عميقًا في نفس القارئ الأعجميّ، إذ إنّ نبرة السيادة الإلهية واضحةٌ في السياق، وتُشعِر القارئَ أن صاحِبَ الكتاب هو المتحدِّث وما الرسول إلا متلقٍ له. على عكس الكتب الدينية الأخرى التي يكون المتحدِّث فيها شخصًا غيرَ الله.

{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204)} الأعراف.

هنا نلاحظ أن مجرد الإنصات لقراءة القرآن فيها "رحمة"، وسأناقِش اسمَ "الرحمن الرحيم" الذي بدأتْ به كل سور القرآن إلا سورةَ التوبة وعلاقته بالرحمة لاحقًا. ما يهمنا هو أنّ الكتاب يسمِّي نفسَه القرآن وليس الاسم مِن خارج الكتاب.

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16)} يونس.

هنا نلاحظ نبرةَ السيادةِ الإلهيةِ مرةً أخرى، تضَع النبيَّ في وضع العاجز أمام تغيير القرآن، إذ إنه ليس إلا متلقيًّا له وناطقًا به لكنه ليس مصدره ولا يد له فيه.

{وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38)} يونس.

{قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89)} الإسراء.

هنا نلاحظ أن الكتابَ نفسَه يتجاوز النبيَّ ويتحدى الإنسَ والجنّ تحديًا ما زال قائمًا إلى اليوم.

{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)} الحشر.

{وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31)} الرعد.

وهُنا نرى الكتابَ يتجاوز كونه خطابًا للبَشر إلى كونه خطابًا للكون بكل مكوناته مِن أصغرها إلى أكبرها.

لو قارَنّا هذه الآياتِ وغيرَها العشرات في القرآن مع محتوى الكتب الدينية الأخرى نجد أن الاسمَ نفسَه جزءٌ من التنزيل. فـ "الكتاب المقدس" مثلاً لدى النصارى واليهود لا علاقة له بمحتوى الكتاب نفسه، إذ إنّ الاسم ابتُكِرَ ليصف كتابًا يظن الناس أنه يشمل ما أنزل على موسى وعيسى والنبيين في بيت إسرائيل. لكن لا علاقة لاسم "الكتاب المقدس" أو "البايْبل" بأولئك المرسلين، وإنما التسميةُ نتاجٌ متأخرٌ بعد أن جُمِعت الكتبُ على حالها الحالي. لكنّ القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يحمل اسمَه الذي نزل به ونَطق به المتلقي الأول. هذه الحقيقة بالطبع لا تقف وحدَها دليلاً على أن القرآن حقٌّ مِن عند الله، لكنها تخاطب فطرةَ القارئ مباشرة ليقلّب الاحتمالاتِ ويراجع نفسه مِن أين أتى هذا الكتاب الذي يتحدث بنفسه وعن مصدره متجاوزًا كاتبه الأرضي مِن البشر الذي ينسب إليه وهو النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- كما يرى غير المسلمين؟

ولأن القرآن الذي بين أيدينا ليس إلا آخرَ مرحلةٍ مِن مراحل التنزيل مِن المفيد للقارئ أن يلمّ بمصادر القرآن قبل التنزيل.

مصادر القرآن:

بين أيدينا كتابٌ يُنسَب إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- أنه مِن عند الله. مِن لا يؤمن بهذه الحقيقة على الأقل لا يغالِط في أنّ مصدر القرآن ككتابٍ في التراث الإنسانيّ هو محمد بن عبد الله. لكنّ المؤمن الذي يتدبر القرآن يلاحِظ أنّ الكتاب الذي بين أيدينا هو الصورة الأخيرة مِن هذه المراحل التي انتقلت مِن ثلاثِ مراحلَ في "عالم الغيب" إلى المرحلة الأخيرة في "عالم الشهادة"، التي نستلهمها مِن هذه الآيات:

<u>القرآن في عالم الغيب:</u>

أولاً: القرآن الحكيم في "أُم الكتاب":

{حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)} الزخرف.

ثانيًا: القرآن المجيد في "اللوح المحفوظ":

{ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1)} ق.

{وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15)} البروج.

{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)} البروج.

مِن الجَمع بين "القرآن المَجيد" و"العرش المَجيد" نفهم أنّ القرآن في اللوح المحفوظ هو النسخة التي عند العرش، وهي بطبيعة الحال في عالمِ غيبٍ أدنى مِن عالم الغيب الذي عنده "أُم الكتاب"، إذ إنّ الله يعلو على العرش وهو سلطان الكون الأعظم كما شرحنا في نظرية "آذان الأنعام".

ثالثًا: القرآن الكريم في "كتابٍ مكنونٍ":

{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (80)} الواقعة.

القرآن الكريم في الكتاب المكنون في عالمِ غيبٍ أدنى مِن العرش المَجيد، وهنا فقط تمسّه الملائكة المطهرة؛ ما هو أعلى مِن ذلك فعِلمُه عند الله وحدَه.

<u>القرآن في عالم الشهادة:</u> القرآن العظيم:

{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87)} الحجر.

القرآن العظيم هو الذي نزل إلى النبي وهو بطبيعة الحال في عالم الشهادة الذي وصل للبَشر.

مِن مجمل هذه الآيات يمكننا أنْ نفهم أنّ القرآن قد فرَّقَ بين وجوده في "عالم الغيب" وهو العالم خارج علم وإدراك الإنسان، وبين وجوده في "عالم الشهادة" وهو العالم الذي ننتمي إليه ونشهده ونشهد عليه ويشهد علينا. وهذا يعني أن القرآن قد وُجِد في عالم الغيب ثم نُقِل إلى عالم الشهادة، وأنّ عملياتِ الانتقال هذه هي عمليات تيسيرٍ نَقَلَ الله فيها "شفرةَ الكون" المتضمَّنَة في عالم الغيب إلى كلامٍ مفهومٍ لعقل الإنسان تم تعريبُه في إحدى مراحل النقل ليكون القرآن العظيم الذي بين أيدينا.

يقول الدكتور عمر محمد سعيد الشفيع، وهو طبيبٌ نفسانيٌّ ومتفكّرٌ لسانيٌّ، في وصف هذه المراحل: إنّ القرآن "الحكيم في أُم الكتاب" عند الله و لَدَيْه، وهذه حال للقرآن فوق إدراك الملائكة. أمّا "القرآن المَجيد" ففي اللوح المحفوظ عند عرش الرحمن، وهو سلطانُ الكون الأعظم، وهذا ربما يفيد أنّ "القرآن المَجيد" هو الشفرة الإلهية التي يَخضع لها الوجود. أمّا "القرآن الكريم" ففي الكتاب المكنون في السماء الدنيا، وهذه هي النسخة التي تمسها الملائكة المطهرة، والقرآن العظيم أوتيه النبي على قلبه مع السبع المثاني.

ولقد وصف اللهُ تيسيرَ القرآن للذّكْر أربع مراتٍ في سورة القمر:

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)}القمر.

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22)}القمر.

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32)} القمر.

{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40)} القمر.

وهذه المراحل الأربع تتوافق مع المصادر الأربع للقرآن، مما يوحي بأنّ القرآن هو كلام الله الذي لا يعلمه إلا هو، ثم يَسَّرَ الله كلامَه إلى "القرآن الحكيم" في أُم الكتاب. ثم في المرحلة الثانية تمّ التيسير إلى القرآن المَجيد في اللوح المحفوظ، وبعدَها القرآن الكريم في كتابٍ مكنونٍ في السماء الدنيا بدلالة النجوم في الآيات السابقة لتلك المرحلة في سورة الواقعة:

{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (80)} الواقعة.

و أخيرًا تمّ التيسير للقرآن العظيم على قلب محمد {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87)} الحجر.

و التيسير هو تخفيفُ شدةِ القدرة حتى تناسب قدراتنا البشرية في الإدراك ومقدرة التواصل مع الله سبحانه وتعالى؛ لأن كلام الله لا يمكن أن نتحمله مِن غير تيسيرٍ.

ولمَّا كان القرآن الذي بين أيدينا قرآنًا عربيًّا، فإنّ تعريبَه قد تم في مرحلةٍ من مراحل التنزيل لا يمكن الجزمُ بها بين المراحل أعلاه، لكن يمكن الجزم أن عروبة القرآن ليست في أصله؛ لأن الله وصفه أنه جعله قرآنًا عربيًّا، والجَّعْلُ كما شرحنا في نظرية " آذان الأنعام" هو إضفاء صفةٍ أو خاصيةٍ جديدةٍ على شيءٍ موجودٍ أصلاً:

{حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِين (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)} الزخرف.

لو تدبرنا هذه الآية نلاحظ أن "الجَّعْلَ" قرآنًا عربيًّا قد تلا وجودَه في أُم الكتاب، مما يوحي أن التعريبَ قد تم في مرحلة القرآن المَجيد في اللوح المحفوظ. ما يهمنا في هذه العجالة هو أن القرآن الذي بين أيدينا هو آخر مراحل الإنزال والتنزيل بعروبته وبيانه، وأنّ هناك مراحلَ سابقةً عِلمُها عند الله وحدَه. هذه الخلاصة تقودنا إلى حقيقة لا جدال فيها وهي أن مفهوم علوم القرآن بحرٌ واسعٌ من الاجتهاد ولا يمكن حدُّه بعلم عالمٍ أو علم جيلٍ واحدٍ، وأنّه مِن المتعة للمتدبر ومِن العبادة أيضًا أن يبحث القارئ لهذا الكتاب في أسرار وألفاظ القرآن، والكلُّ مكلّفٌ أن يتواصل مع الله به، ويقدِّم للناس علمًا جديدًا منه وعنه كلما تيسر ذلك. ولأن هناك لبسًا كبيرًا بين الإنزال والتنزيل لا بد لنا مِن وقفة مع هذيْن المصطلحين في القرآن لأن فهمهما يُيَسِّر على المتدبر استنباطَ الكثيرِ مِن أسراره:

التنزيل والإنزال:

لقد رأينا في باب "خير القرون" أن القرآن ميَّزَ بين الخطاب للنبيّ والخطاب للرسول. فالنبيّ محمد بن عبد الله عاش بين قومه وفي ظروفهم، لذلك كانت هناك آياتٌ تخصُّ مجتمعَ النبوة وحدَه وليست جزءًا مِن الرسالة العالمية للناس كافة، لكن كان الخطاب فيما يخصّ الرسالة يأتي بلفظ الرسول. وحتى نميِّز بين تلك الآيات نحتاج أن نفهم طبيعة نقلِ القرآن مِن عالم الغيب إلى عالم الشهادة في عمليتَيْ "الإنزال" و"التنزيل" لأنّ الفرْقَ بينهما يُعَدُّ أحدَ المفاتيح الرئيسية لفهم الكتاب بشِقيْه "النبوة" و"الرسالة" كما أنّ له علاقةً كبيرةً بمبادئ التأويل.

وهنا ألخِّص رأي الدكتور المهندس محمد شحرور في هذه المسألة بتصرفٍ وتبسيطٍ، ولنأخذ أولاً أمثلةً مِن النصّ القرآنيّ حتى نستطيع ملاحظة الفرق بيت الإنزال والتنزيل:

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)} الحديد.

{خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)} الزمر.

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2)} يوسف.

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) القدر.

نلاحظ في هذه الآيات أن اللفظ هو "الإنزال" رغم أن "المُنزَّل" قد اختلف بين "الكتاب" و"الآيات" وبين الماديّات المجسّدة مثل "الحديد" و"الأنعام". لننظر الآن في بعض الآيات التي تتحدث عن "التنزيل" وحدَه:

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (23)} الإنسان.

{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2)} الجاثية.

{تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)} فصلت.

وننظر الآن لبعض الآيات التي جمعت بين "الإنزال" و"التنزيل" في موضوع واحدٍ:

{وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48)} الفرقان.

{وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9)} ق.

{وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57)} البقرة.

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (80)} البقرة.

نلاحظ من الآيات أعلاه أنّ الماء "أُنْزِل" و "نُزِّل"، وأنّ المنَّ والسلوى "أُنزلت" و"نُزِّلت"، وأنّ الكتاب "أُنْزِل" و "نُزِّل". بينما الحديد والأنعام فقط "أُنزلا" ولم يرد فيهما لفظ التنزيل. فما هو الفرق بين الإنزال والتنزيل؟

يقول الدكتور شحرور:

إنَّ "الهمزةَ" في اللسان العربيّ تعطي معنى التعدّي، وهي في "أنزل" وليس "نزّل". وللمقارنة يَضرب مثالاً على ذلك بلفظ "بلّغ" و"أبْلَغ"، إذ إنّ الفرق يُنتِج مصطلحين هُما "البلاغ" و"الإبلاغ". فإذا تتبّعنا الفرقَ بين آيات "البلاغ" وآيات "الإبلاغ" في القرآن سوف نلاحظ الفرقَ في المدلول:

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ **مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ** مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا **بَلَّغْتَ** رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67)} المائدة.

{مَا عَلَى الرَّسُولِ **إِلَّا الْبَلَاغُ** وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99)} المائدة.

نلاحظ هنا أنّ المخاطَبَ هو "الرسول" محمد -صلى الله عليه وسلم- وليس "النبيّ"، ونلاحظ أنّ الأمر جاء مِن غير "همزة التعدّي" فهو أمرٌ بالبلاغ فقط وليس الإبلاغ (بلغ بلاغًا وليس أبلغ إبلاغًا).

للمقارنة نجد شُعيبًا-عليه السلام- قد كُلِّف بالإبلاغ وليس التبليغ:

{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (93)} الأعراف.

وكذلك الحال مع قوم هودٍ، كان "الإبلاغ" بالهمزة وليس "التبليغ":

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57)} هود.

مما سبق نخلص إلى أن عملية "البلاغ" هي عمليةُ نقلٍ مِن شخصٍ إلى آخر دون التأكد من أنّ الشخصَ المنقولَ إليه البلاغ قد وصله الخبر. فعندما نقول إنّ هناك بلاغًا مِن وزارة المالية إلى المواطنين في الإذاعة حول دفع الضرائب، فهذا البلاغ ينتقل إلى الناس، ولكن لا يشترط أنّ كلّ المواطنين المعنيين بهذا البلاغ قد وصلهم الخبر. لكن عندما يصل محتوى البلاغ إلى إدراك ووعي كلِّ مواطنٍ مقصودٍ به يصبح "إبلاغًا". ولمّا كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- مرسَلاً إلى الناس كافة فقد كانت مهمته "البلاغ" وليس "الإبلاغ". ولو أمره الله بـ "إبلاغ" الناس كافة لوجَب على النبي أن يتأكد مِن أنّ كلّ إنسانٍ معنيٍّ بهذا البلاغ في كلّ زمانٍ ومكانٍ قد أدرك ووعى محتوياتِ البلاغ، وهذا مِن المحال ولم يكن مِن واجبات الرسول -صلى الله عليه وسلم-. ومِن هنا نفهم قولِه -صلى الله عليه وسلم- في حجة الوداع: "اللهم ألا هل (بلَّغت)"، ولم يقُلْ ألا هل (أبلغت).

بالمقارنة مع قوم صالحٍ وهود: نجدهما قد أُرسِلا إلى أقوامهما فقط، أي إلى عددٍ قليلٍ من الناس وهُم قوم عادٍ وقوم ثمود وقوم مَدْيَن، فكانت وظيفتهم هي وظيفة "إبلاغ" أي توصيل البلاغ لكل فردٍ في القرية. وتَبِعَ ذلك إهلاك القوم لأنهم وصلتهم الرسالة ورفضوها، لكنّ رسالة محمد كانت بلاغًا وليس إبلاغًا لذلك توقف إهلاك الأُمَم مِن بعده لأن الله لا يهلك أناسًا لم يدركوا ما هو المطلوب منهم ولم يعلموا بالرسالة.

إذن، رسالة النبي الخاتم اختلفت في كونها لكلّ الناس منذ زمنه إلى يوم القيامة، وعليه اختلفت مسؤولية الرسول؛ إذ لم يكن مطلوبًا منه أكثر من البلاغ وقد بلَّغ ما أمَره به ربه :

{فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا **الْبَلَاغُ** وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (48)} الشورى.

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا **الْبَلَاغُ** الْمُبِينُ (12)} التغابن.

فالبلاغ هو مجردُ عملِ نشرِ الخبرِ أو الأمر. والإبلاغ هو عمليةُ التأكّدِ مِن أن الإنسانَ المقصود تبليغه قد وصله البلاغ وأصبح ضمن مدركاته.

بعد هذا التمييز بين "الإبلاغ" و"البلاغ" يمكننا أن نعود لنتدبر الفرق بين "الإنزال" و"التنزيل". وقد شرح النبي -صلى الله عليه وسلم- الفرق بينهما بقوله:

{أنزِل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نُزِّل بعد ذلك في عشرين سنة} رواه ابن عباس في البرهان في علوم القرآن للزركشي ج1 ص288.

مِن هنا نفهم أن "إنزالَ" القرآن إلى السماء الدنيا تمّ جملةً واحدةً في ليلة القدر، بينما "التنزيل" هو الذي استمرّ إلى آخر عمر الرسالة. من هنا خَلُصَ الدكتور شحرور إلى تعريف الفرق بين التنزيل و الإنزال كما يلي:

فالتنزيل، كـ "التبليغ" مِن غير همزة التعدي: هو عملية نقلٍ موضوعيٍّ لأمرٍ ما مِن خارج الوعي الإنسانيّ إلى محيط إدراكه، لكن لا يشترط وصولها له.

أمّا الإنزال كـ "الإبلاغ": هو عمليةُ نقلِ المادةِ المنقولةِ مِن خارج الوعي الإنسانيّ ووصولها إلى مجال المعرفة الإنسانية.

وبما أن لفظَيْ "الإنزال" و"التنزيل" قد وردا في وصف وصول القرآن إلى النبي فهذا يعني أنه وصله بطريقةٍ مركّبةٍ، فيها تنزيلٌ عموميٌّ وإنزالٌ تفصيليٌّ، وهي أسرارٌ لا يعلمها إلا الله الذي نَزَّلَ وأنْزَلَ القرآن على نبيه -صلى الله عليه وسلم-.

ما يهمنا هو أنه في كِلا الحالتين فإن التنزيل والإنزال يتطلبان بالضرورة وجود المادة المعنيّة في "عالم الغيب" قبل عملية الإنزال والتنزيل إلى "عالم الشهادة". فإذا طبَّقنا هذه الملاحظة على القرآن نخلُص إلى أن الكتاب كان موجودًا قبل الإنزال والتنزيل. وعليه فإنه لم ينزل كردود أفعالٍ لأحداثٍ لاحقةٍ، وبهذا فإنّ ما يسمى علم أسباب النزول يَسقط في ميزان العقل والمنطق وحسب النص القرآني، إذ إن القرآن وُجِد في "أم الكتاب" وفي "اللوح المحفوظ" وفي "الكتاب المكنون" قبل أن ينزل على قلب النبي.

ويمضي شحرور:

إذا كان القرآن موجودًا فعلاً قبل التنزيل والإنزال، فما هو هذا الوجود وبأيِّ صورةٍ كان موجودًا؟ فإذا كان موجودًا بالصيغة اللسانية العربية التي نراه عليها الآن والتي نستوعبه من خلالها وهو كلام الله وآيات الله والقصص، لكان الاستنتاج المباشر لذلك هو أن الله عربيٌّ وهذا محالٌ. إنّ كلام الله هو عينُ الموجودات ونواميسها العامة التي تحكم الوجودَ قد خُزِّنَتْ بشكلٍ ما في لوحٍ محفوظٍ وفي كتابٍ مكنونٍ. ففي كتابٍ مكنونٍ يوجد البرنامج العام للكون، وفي لوحٍ محفوظٍ يوجد هذا البرنامج وهو يعمل. وفي إمامٍ مبينٍ توجد قوانين الطبيعة الجزئية التي يتم التصريف مِن خلالها وأحداث التاريخ بعد وقوعها. فالقرآن في لوحٍ محفوظٍ وفي إمامٍ مبينٍ هو مِن عِلم الله، وعِلمُ اللهِ هو أعلى أنواع علوم التجريد، وأعلى أنواع علوم التجريد هو الرياضيات لذا قال: {لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (28)} الجن.

أيْ أنَّ علم الله بالموجودات هو علمٌ كميٌّ بحتٌ. فالإحصاء هو التعقل، والعدد هو حال الإحصاء. و هذا القرآن موجودٌ في لوحٍ محفوظٍ وإمامٍ مبينٍ بصيغةٍ غير قابلة للإدراك الإنساني ولا يعلم تأويله إلا الله. فعندما أراد الله أن يعطي القرآن للناس، فالمرحلة الأولى كانت تحويله إلى صيغةٍ قابلةٍ للإدراك الإنساني النسبي، أي جرت عملية تغييرٍ في الصيرورة. وهذا التغيير في الصيرورة عبَّرَ عنه في اللسان العربي في فعل "جعل" حينما قال: { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(3)} الزخرف.

أيْ أنّه كان له وجودٌ مسبقٌ قبل أن يكون عربيًا فجعله عربيًا "أي في صيرورته" وهذا معنى "الجعل". ولكنه أيضًا قال:

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2)} يوسف.

والإنزال هو نقل المادة من حالةٍ غير قابلـة لـلإدراك إلـى حالـةٍ قابلـة لـلإدراك. أيْ كـان القرآن غيـرَ مـدرَكٍ "غيـرَ مُشْهَرٍ"، فأصبح مدركًا، وهذا ما جاء في الإنزال. أيْ أنّ: الجعل: هو التغيير في الصيرورة بينما الإنزال: هو النقل مِن صيغةٍ غير مدرَكةٍ إلى صيغةٍ مدرَكةٍ "الإشهار".

والآن لماذا وضع "الجعل" و"الإنزال" على أنّه عربيٌّ؟ أقول إنّ الجعل هو تغيير في الصيرورة فيمكن أن تغير صيرورة القرآن من شكلٍ غير قابلٍ للإدراك إلى شكلٍ آخر غير قابلٍ للإدراك، لذا قال {... إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا..}. هذا يعني أنّه أصبح عربيًّا في مرحلةٍ، لكنه ما زال حينها خارج مقدرة الإنسان على إدراكه. وهنا تم "الإنزال" و هو نقلٌ مِن غير المدرَك إلى المدرَك لذا قال {..إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا..}. إذن، في القرآن تلازَم الجعل والإنزال أيْ جعل وأنزل عربيًا. هذا يعني أن القرآن الموجود بين أيدينا ليس عينَ القرآن الموجود في لوحٍ محفوظٍ وإمامٍ مبينٍ، وليست صيغته الصيغة نفسها الموجودة فيهما. وإنما هو صورةٌ جُعِلت عربيةً ثُمّ تَمّ "الإنزال" إلى داخل عالم إدراك الإنسان، ثم وصلت إلى النبي-صلى الله عليه وسلم-، ماديًا عن طريق الوحي "التنزيل" والنبي -صلى الله عليه وسلم- نقلها آليًا إلى الناس.وقد تم جعل القرآن وإنزاله عربيًا على دفعةٍ واحدةٍ. وهذا ما حصل في ليلة القدْر حين قال تعالى {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)} القدر.

وهكذا نفهم حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه في ليلة القدر أنزل القرآن إلى السماء الدنيا. ولفظ أنزل هنا كلفظ أبلغ، بمعنى أنّ منتهاه المقصود في ليلة القدر كان السماء الدنيا وقد وصلها. وحينها أصبح قابلاً لأن يدرَك مِن قِبَل الناس التي تعيش الحياةَ الدنيا وتمّ إشهارُه. وبما أنّه في ليلة القدْر تمّ إشهار القرآن، فقد قال: { لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)} القدر.

لك أن تذهب بكلمة "شهر" إلى أنها من الشهرة والإشهار القانوني الملزم للبيع والشراء. ولا يلزمك أن تفهم "الألف" على أنها عدد "1000"، بل جاءت مِن فعل "ألَّف" وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعضٍ بشكلٍ منسجمٍ، ومنه جاءت الألفة والتأليف. أي أنّ إشهار القرآن خيرٌ مِن كل الإشهارات الأخرى مؤلفةً كلَّها بعضَها مع بعض. وهذا التأويل ينسجم مع قوله: {حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3)} الدخان، وقوله: { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ... (185)} البقرة.

لاحِظْ في الآيات الثلاث أنّ فيها فعلَ أنزل، والإنزال تم دفعةً واحدةً وكان عربيًا كما في سورة يوسف. أمَّا التنزيل: هو نقلة مادية حصلت خارجَ الوعي الإنسانيّ كالنقل بالموجات الكهرومغناطيسية، ولكنْ حصلتْ عن طريق جبريل إلى النبي-صلى الله عليه وسلم-. وهو الذي تمّ على امتداد عمر الرسالة. ففي القرآن تلازمَ الجعل والإنزال وحصلا دفعةً واحدةً، وافترق التنزيلُ حيث جاء مفرقًا. لذلك بعد "الجعل والإنزال" قال: { كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16)} عبس.

وبما أن القرآن له وجودٌ مسبقٌ وجاهزٌ قبل التنزيل، وحصول التنزيل مفرقًا يبرز السؤالَ التالي: لماذا لم يتم التنزيل "النقلة الموضوعية بعد الجعل والإنزال" دفعةً واحدةً؟ وكان الجواب على هذا: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (32) } الفرقان.

وحتى أُبسِّط مفهوم الإنزال والتنزيل ممّا وصفه شحرور في بضع كلمات أقول: القرآن الحكيم أُنزل مِن أُم الكتاب إلى اللوح المحفوظ في صورة القرآن المجيد. الإنزال بطبيعة الحال تطلّبَ تغييرًا في الشفرة التي نُقِل بها مِن عالم غيبٍ أولٍ إلى عالم غيبٍ ثانٍ، وكِلا العالمين لا يعلمهما إلا الله. القرآن المجيد أُنزل مِن اللوح المحفوظ إلى الكتاب المكنون في صورة القرآن الكريم. والإنزال هنا أيضا تطلّبَ تغييرًا في شفرته لتنتقله مِن عالم الغيب الثاني إلى عالم غيبٍ ثالثٍ. والقرآن الكريم في الكتاب المكنون هنا في عالم الغيب الثالث هو الذي لا يمسّه إلا المطهرون، وهُم الملائكة المختصة به، أمّا ما قبْل ذلك فلا شأن للملائكة به. ثم أخيرًا أُنزل القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدْر في صورة القرآن العظيم وهو الصورة العربية منه التي أدخلت إلى عالم الشهادة. بعدها تم تنزيله مفرَّقًا على قلب النبي إلى نهاية عمر الرسالة.

ويمضي شحرور يطرح سؤالاً موضوعيًّا: هل كان ممكنًا أن يأتي القرآن والكتاب بطريقةٍ أخرى غير الطريقة الصوتية "الذِّكْر"؟ الإجابة هي "نعم"، كان ممكنًا أن يأتي منسوخًا. فكما قلتُ إنّ الكتاب هو الموضوع، وهذا الموضوع يمكن أن ينقله الإنسانُ شفاهَةً "صوتًا" أو " نَسخًا خَطّيًّا". فعندما نريد أن ننسخ كتابًا شفهيًا نحتاج إلى أشياءَ نخطّ عليها مثل الأحجار وجلْد الغزال وورق البردى، ثم الورق العادي ثم شريط التسجيل ثم شريط الفيديو، هذه الأشياء التي يتم تسجيل الكتب عليها ثم نسخها على عدة نسخ لها مصطلح في اللسان العربي وهو "القرطاس"، كما قال المتنبي:

"الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني .. والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ"

إذن، كان يمكن أن ينزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- بطريقةٍ مخطوطةٍ لا منطوقةٍ بدليل قوله تعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7)} الأنعام.

فكل الكتاب جاء منطوقًا لا منسوخًا، ولو جاء منسوخًا لوجَب أن يُنسَخ على القرطاس فعند ذلك يمكن لمسه باليد، فالكتاب المنطوق لا يُلمَس باليد، والكتاب المنسوخ "في قرطاس" يلمس باليد. لذا قال {..فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ.} ولاحظ قوله {..نَزَّلْنَا..} ولم يقل "أنزلنا"، لأن التنزيل هو المرحلة التي انتقل فيها مِن روح القدس إلى قلب النبي. والمعلوم أن الوصايا العشر قد أعطيت لموسى منسوخة على ألواح، أي جاءت في قرطاسٍ وذلك في قوله تعالى: { وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)}الأعراف. لاحظ قوله "الألواح" بمعنى "القرطاس" وكيف أتبعها بقوله: "وفي نسختها".

إن التمييز بين القرآن في "أُم الكتاب" وفي "اللوح المحفوظ" وفي "الكتاب المكنون" ومن ثم الانتباه إلى الفرق بين "الإنزال" أو "التنزيل"، ما كان ممكنًا قبل العصر الحديث، حيث اتّسع أفق عقلِ الإنسان ومقدرته على إدراك الكثير من غيبيات الكون غير المادية التي أصبحت من البديهيات اليوم، من تحميل الصور والأفلام على كاميرا التسجيل، ثم تنزيلها على فلاش ثم تحميلها على كمبيوتر، ثم تحميلها مرة أخرى على اليوتيوب ثم إرسالها حول العالم ليتم التحميل والإنزال آلاف أو ملايين المرات حول العالم سواء في الإنترنت أو البث التليفزيوني. هذه المعرفة الحديثة جعلت من الممكن بداية تأويلَ الآيات التي وصفت خصائص القرآن قبل نزوله بعيدًا عن الخلاف القديم حول كونه مخلوقًا أو غير مخلوقٍ كما حدث في الماضي. أيضًا فإننا اليوم نعلم أن ما نراه على شاشة التلفزيون ليس إلا انطباعًا تترجمه العينُ والأذنُ إلى ما نرى ونسمع بأيٍّ لغةٍ كانت، لكن الحقيقة أن الشاشة لا

شيءَ فيها غير أجهزةٍ كهربائيةٍ عاكسةٍ للضوء وسماعاتٍ تُخرج الصوت. ونعلمُ أيضًا أن كل هذه المعلومات حينما تنتقل مِن وسطٍ إلى آخر فهي ليست إلا موجوداتٍ كهرومغناطيسيةٍ لها ذبذباتٌ وسرعةٌ وطولٌ، ولكن لا لغة لها. كلّ هذه المعلومات اليومية أعانتنا في فهْم أنّ القرآن الذي بين أيدينا والذي "يلمسه" المسلِم والكافر ليس إلا آخر صورةٍ مِن صورِ القرآن الذي لا "يمسه" إلا المطهرون، وهناك فرقٌ بين "المسّ" و"اللمس". و عليه فإنه ليس بوسعنا فقط إعادة النظر في كل ما يسمى بعلوم القرآن، وإنما هو واجبٌ شرعيٌّ يقع على عواتقنا اليوم.

وقبل أن أنتقل إلى مناقشة مفهوم "علوم القرآن" حسْبَ الفهم التراثيّ، مِن المفيد إضافةُ بعض الملاحظات حول القرآن توسِّع آفاقنا ونحن نتدبره ونتدبر كيف تتم الحرب عليه ونحن نيام.

ذلك الكتاب وهذا الكتاب:

قُلنا أعلاه إنّ الفرق بين الإنزال والتنزيل يعني أنّ القرآن الذي بين أيدينا ليس إلا نَسْخًا إلهيًا مِن كتابٍ فيه شفرة الكون، نُقِل عبْرَ مراحلَ إلى السماء الدنيا، ثم تم تنزيله على قلب النبي. استيعابُ هذه الحقيقةِ ييسر علينا فهْمَ لماذا يشير الله للكتاب بلفظ "هذا" للقريب أحيانًا و"ذلك" للبعيد أحيانًا أخرى. وتسهِّل علينا أيضًا التمييزَ بين "القرآن" و"الفرقان". دعونا نتدبر هذه الآيات:

نجد اسمَ الإشارة "ذلك" للبعيد في هذه الآيات:

في أول سورة البقرة: { الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2)} البقرة.

حيث اسم الإشارة "ذلك" للبعيد وهو يرجع إلى " ذلك" الكتاب في "عالم الغيب".

ثم نجد الإشارة بـ " تلك" للبعيد مشيرةً إلى آيات الكتاب في هذه النصوص:

{الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1)} يونس.

{الم (1) تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2)} لقمان.

{الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآَنٍ مُبِينٍ (1)} الحجر.

{طسم (1) تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين (2)} الشعراء.

{طسم (1) تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين (2)} القصص.

{المر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يُؤْمِنُونَ (1)} الرعد.

من هنا نفهم أن هناك كتابًا خارجَ متناول الإنسان مرتبطٌ بالقرآن لا يشار إليه إلا من بعيدٍ. لكن حين الإشارة للقرآن الذي بين أيدينا فيستعمِل اللهُ اسمَ الإشارة القريب: "هذا". ونجد أمثلةً كثيرةً على ذلك في كثيرٍ من آيات القرآن مثل:

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ **وَهَذَا** لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103)} النحل.

{وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً **وَهَذَا** كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (12)} الأحقاف.

واسم الإشارةِ "هذا" يشير هنا أيضًا إلى القرآن العظيم في عالم الشهادة وإحدى صفاته أنه كتابٌ مصدِّقٌ لكتاب موسى لكنّه بلسانٍ عربيٍّ. ومركب "هذا القرآن" باسم الإشارة القريب ورَد في القرآن (16) مرةً ليدلَّ على القرآن العظيم في عالم الشهادة ومثاله هذه الآية:

{وَمَا كَانَ **هَذَا الْقُرْآنُ** أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37)} يونس.

أيضًا فإن الإلمام بمفهوم الإنزال والتنزيل يعيننا على فهْم الفرق بين القرآن والفرقان. فالقرآن قد أنزل كاملاً إلى السماء الدنيا، وبعدَها تمّ تنزيله مفرَّقًا لكن في سُوَرٍ وليس آياتٍ كما نقرأ في معظم العلوم الموروثة، التي قصد فيها مَن ابتَدَع فكرة تنزيل الآيات مفرَّقةً أن يفتح ثغرةً يَحذف بها آياتٍ أو يضيف بها آياتٍ للقرآن. لكن القرآن يتحدث عن "السور" بدليل هذه الآيات:

{وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (البقرة ٢٣)

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (يونس ١٣)

ولو كان قد نزل آياتٍ مفرَّقاتٍ لتحدَّاهم أن يأتوا بآية وليس سورة.

وقد ورد لفظ "سورة" تسعَ مراتٍ في القرآن العظيم ولفظ "سور" بصيغة الجمع مرةً وحيدةً، وكلها تدل أن تنزيل الفرقان جاء سورًا متتابعاتٍ وليس آياتٍ متفرقاتٍ. والفرقان اسم للقرآن في حال نزوله مفرَّقًا لكن لن أدخل في تفاصيله للاختصار.

سور القرآن:

يتكون القرآن مِن 114 سورة. ولفظُ "سورةٍ" نفسُه ابتكارٌ قرآنيٌّ، إذ إنّ العرب ما كانت تعرف لا لفظ "سورة" ولا لفظ "آية" بمعنى وحدة كلامية. السورة ربما أصلها مِن الجذر "سور" الذي يعني المحيطَ أو الحائط حول المنزل. ومِن الجذر اشتَقّ اللهُ تعالى هذا الاسمَ ليعني وحدةً مِن الكلام لها بدايةٌ ونهايةٌ وعددٌ محددٌ من الآيات ووحدة موضوع. وسواء أكانت السورة تقصّ قصةً واحدةً كسورة يوسف مثلاً أم كانت متباينة المحتوى، فإن الله تعالى يعلم أن بين حروفها وموسيقاها وحدةَ موضوعٍ تجعلها سورةً مستقلة لها بدايةٌ ونهايةٌ. ومن هنا انتبه الكثيرُ مِن المفكرين في هذا العصر للبحث في حروف القرآن وترتيبها وأعدادها إلى غيره مما يَظهر مِن بحوث كل يوم

فيما يسمى بالإعجاز العلميّ والرقميّ والعدديّ للقرآن. وهذه الحقيقة ربما تفسّر لنا لماذا تتغير الألفاظ حينما ترد الإشارة للقصة نفسها في سور مختلفة. فالسورة ليست موضوعًا كلاميًا فحسب وإنما تركيبٌ حرفيٌّ وموسيقيٌّ، بل وربما كلُّ حرفٍ فيها ليس إلا شفرةً من شفرات الكون السرية التي يتواصل بها الله مع خلقه ويتواصل بها الخلق مع خالقهم. ولقد ورد ضمن ما ورد في كتُبِ التراث وعلى رأسها صحيح البخاري ومسلِم ما يزرع الشك في النفوس أنّ تجميع القرآن وكتابتَه تَمّا وفقًا لاجتهاد الصحابة، وأنّ أسماء بعض السور مختلفٌ عليها وسنتطرق لهذه المساعي لهدم القرآن لاحقًا. هنا أرى أنه مِن المفيد ملاحظة أن بداية كلّ السور اشتملت على آيةٍ واحدةٍ لم تشذ عنها إلا سورة التوبة، وهي آية البسملة "بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ". والمعلوم أن الله له الأسماء الحُسنى جميعًا، لكنه مِن كل أسمائه الحُسنى قضى أن تبدأ السور باسم الله الرحمن الرحيم.

والمتعارَف عليه أن العربَ كانت تعرف "الرحِم" وتعرف "الرحمة". وكانت تسمي الرجُلَ الذي يرحم غيره رحيما، لكنهم ما كان لديهم عِلم بلفظ "الرحمان"، إذ إنه مِن ابتكارات القرآن. وحتى نستوعب مدلولَ اللفظِ ومِن ثم لماذا بدأت به كل السور ولماذا سبق اسم "الرحيم" نحتاج لسياحةٍ مع بعض الآيات التي ورد فيها اسم "الرحمان" في القرآن.

شفرة " الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ":

لقد قلتُ في نظرية " آذان الأنعام " إن الله لم يتعلم اللغة العربية مِن شاعرٍ جاهليٍّ. ولقد رأينا أعلاه في عملية إنزال القرآن وجعله عربيًا أنّ هذه كانت من أعمال السيادة الإلهية؛ لذلك فكون القرآن جُعِل عربيًا فهذا لا يعني أنه جرى مجرى فهْم وذوق واشتقاقاتِ القبائل العربية فقط، وإنما عروبته وفقَ علم العليم الحكيم بأصل اللغة العربية. ومِن هنا فإن القرآن مصدرٌ لقواعد اللغة العربية، ومصدرٌ لتعريف مصطلحات اللغة العربية واشتقاقاتها، تَخضع له ولا يَخضع لها. مِن هذا المدخل فإن القرآن اشتمل على ألفاظ عربية ما كانت مألوفة للعرب، وهذا يفسر قول المشركين:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60)} الفرقان.

والمعلوم لنا أن لفظ "الرحِم" يعني ذلك الكيس في بطن الأنثى الذي ينمو فيه الجنين. ومِن هذا المعنى جاء مفهوم "الأرحام" والذي يشير للناس الذين انحدروا من رحِمٍ واحدٍ معلومٍ. فالمنطقيّ أنّ كلّ الناس خُلِقوا مِن نفسٍ واحدةٍ في بداية الخلق، لكن البُعد الزمنيّ بيننا وبين تلك البداية لا يصح معه إطلاق لفظ "أرحامٍ" على كل البَشر. فالأرحام هُم أبناء العمومة والأخوال الذين يشتركون في جَدةٍ واحدةٍ معلومةٍ لهم. وصلة الأرحام في كل التراث الإنسانيّ تعلو على كل الصلات، ولا تخضع حتى للاختلافات الفكرية والعقيدية والسياسية في غالب الأحيان. هي صلة تواصلٍ واتصالٍ ذاتيٍّ بغض النظر عن حبِّك أو كراهيتك لمن تجمعك بهم صلة رحمٍ. إذ ليس مستغرَبًا أن يقول أحدهم إنني لم أكلّم أخي منذ عشرين عامًا، لكنه يظل أخاه، لكن لا يستقيم التعبير نفسه لو كان الحديث عن صداقة لأن الصداقة إذا فترت ثم تباعَدَ الأصدقاء فإنها تَسقط بعامل الزمن بطبيعة الحال. مِن هذا المعنى اشتق اسم "الرحمان" ليعني التواصلَ الحتميّ بين "المُوجِد" و"المَوجُودات" بغض النظر عن إيمان الموجودات بوجود الموجِد أو عدمه. هو اشتقاق يفيد حتمية تواصلِ الموجِد بمن وما أوجَد، كما يتواصل الأرحام. ولذلك

فاللفظ لا علاقة له بالرحمة بمعنى الشفقة والعطف وهو مدلول "الرحيم"، وإنما يعني حتمية التواصل. من هنا يمكننا أن نرى بُعدًا جديدًا في هذه الآيات التي يردُ فيها اسم الرحمان مِن دون أسمائه الحُسنى:

{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3)} الملك.

لاحِظْ أنّ الآية في سورة الملك، وذلك يعني السيادةَ والملكوت الأعلى. وهي تصف كلَّ الخلق وعلاقته بالخالق، لذلك اختار مِن دون أسمائه الحُسنى اسمَ "الرحمان" ليعبِّر عن تلك الصلة الحتمية بين "المُوجِد" و"المَوجُودات" التي تشبه صلاتِ الأرحام في عالم البَشر.

{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19) } الملك

هنا أيضًا نلاحظ انتقاءَ اسم "الرحمان" ليكون هو الممسِكَ بالطير ليفصِح عن حتمية إمساك "المُوجِد" بكل "المَوجُودات" باختلاف خصائصها. طبيعي أن "الرحمان" هو "الله" "الواحد" "القهار" "الوهاب" "العليم" "الخبير"، لكن الله ينتقي مِن أسمائه الحُسنى الاسمَ الذي يعبِّر عن الفكرة في السياق. وهنا السياق سياقُ تواصلٍ حتميٍّ لا علاقة له بالخير والشر ولا بالعبادة من عدمها كأنها علاقة رحمٍ.

{تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7)} طه.

لقد ناقشنا باستفاضةٍ في كتاب "آذان الأنعام" مفهومَ "العرش" وأنه سلطان الكون الأعلى أو القانون الأعظم الذي يَخضع له الوجود. وقُلنا إنّ الاستواء لا يعني الجلوسَ كما نجلس على ظهر الدابة، وإنما هو عمليةُ توازنٍ بين الإرادة الإلهية المطلقة التي لا تَخضع للأسباب وبين القانون الأعظم الذي سخَّرَه الله لإدارة شئون الكون. ومن هنا نفهم أن الاستواء على العرش جاء باسم "الرحمان" ليعكس تلك الصلة المباشرة بين "المُوجِد" وكل "المَوجُودات". لاحِظْ أنه أيضا جاء باسم "الرحمان" في آية سورة الفرقان أعلاه: { الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا }.

من هنا نفهم أنّ العرشَ منظومةُ إدارة الكون وأنّ الله له إرادةٌ حرةٌ ليفعل ما يشاء، لكنه شاء أن يُخضِع تلك الإرادةَ الحرة لتتوازن وتستوي مع منظومة حكم الوجود، وعليه فإن أنسب أسمائه الحُسنى تعبيرًا عن هذا التواصل الحتميّ مع الكون هو اسم الرحمان.

{يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)} مريم.

هنا نلاحِظ أنّ إبراهيمَ-عليه السلام- كان يبذل قصارى جهدِه في تليين قلب أبيه ليعبد الله. وكان طبيعيًا أن يختار مِن أسمائه الحُسنى الاسمَ الذي يعكس حتمية الفكرة التي أراد إقناعَه بها. فكأنه يقارن بين حتمية صلة الرحم بينه وبين أبيه مع حتمية وجود الموجِد مع الوجود، فكان اسمُ الرحمان هو الأنسب لهذا الحوار. لاحِظْ في الآية أنّ الله

نفى أنّ الاسمَ له علاقة بـ "الرحمة" وإنما بـ "الرحم"، لذلك استعمله أيضًا في وصف عذاب الرحمان. فالرحمان يعذِّب لكن الرحيم يرحم، لأنّ الرحمان اسمٌ يعبِّر عن حتمية التواصل وليس بالضرورة عن الرحمة والرأفة.

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93)} مريم.

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) } الأنبياء.

{أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20)} الزخرف.

في الآيات أعلاه انتقى اسم الرحمان وهو ينقض فكرة أنّ لله ولدًا أو بنتًا لينفي ويثبت في آنٍ واحد. فهو ينفي أنّ له صلاتِ أرحامٍ " بنين وبنات" كما هي الصلات بين البشر، لكنه اختار اسمَ "الرحمان" ليفيد أنّ هناك صلةً حتميةً بين "المُوجِد" و"المَوجُودات" لكنها ليست صلةَ أرحامٍ وإنما صلةٌ بين الرحمان ومن خَلَق.

مِن هذه المعاني يمكننا الآن الإحساس بخطورة ابتداء القرآن في كل سورة باسم الرحمن الرحيم وغيابه من سورة التوبة.

لاحِظ في الآية أنّ اسمَ "الرحمان" يسبق "الرحيم". وقلنا إن "الرحمان" يعبِّر عن الصلة الحتمية بين الموجِد والموجود، بينما الرحيم تصف رحمته بخلقه. ولأنّ صلته بخلقه أشملُ مِن رحمته بخلقه فإنّ الرحمان سبق الرحيم في الآية. بقي أن نتدبر آية أخيرةً اختار الله فيها مِن أسمائه الحُسنى اسمَ الرحمن:

{قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111)} الإسراء.

هنا نلاحِظ ملاحظةً لطيفةً، فاسم "الله" وهو الاسم المطلق للذات الإلهية معروفٌ لمن وصلتهم الرسالاتُ السماوية، وهؤلاء يدْعون الله. لكن مِن لم تصله رسالةٌ فدعا موجِدَه "الرحمن" بأيِّ لغةٍ تواصَلَ معه بها فقدْ تم التواصل، طالما لم يكن مشركًا؛ لأنّ الدعاءَ والتواصل هنا أمران فطريّان يشترك فيهما كل الناس. لذلك جاء العدل الإلهي أن يكون اسم الرحمان هو كلمة السر المتاحة للجميع في التواصل مع ربهم وليس القهار الوهاب السميع العليم وغيرها مِن أسمائه الحُسنى التي تتطلب وعيًا أكبر وتدبرًا أعمق. "طالما أنا موجود فإني أنادي مَن أوجَدَني"، هذا هو أدنى مستوى من التفكير يمكن أن يتفكر فيه الإنسانُ العاقل بالفطرة، وهو مقبولٌ عند الله لأنّ الله ليس وثنًا يسكن في بيتٍ أو يجلس على كرسيٍّ حتى تكون الأسماء والألقاب هي المعيار الذي يحدد به تواصل العباد معه.

أيضًا: فإن ذِكْرَ اسم الرحمان فيه دلالة على أن مَن فَتَح هذا الكتاب " القرآن" بأيِّ لغةٍ كان وفي أيِّ زمانٍ كان فإنه قد تواصَلَ مباشرةً مع موجِدِه كما تتواصل الأرحام. ومن هنا يمكننا إعادة قراءة قصة "لورا" في أعلى هذا الباب إذ إنّ اسم الرحمان في بداية كل سورة هو مفتاح تواصل "الويفي" - WiFi - مع الله مباشرةً بلا واسطةٍ ولا لغةٍ. أمَّا خلو سورة التوبة عن هذه الآية فواضحٌ أنها تعبيرٌ عن قطْع الصلة مع المنافقين والمشركين الذين هُم أصل السورةِ ومحورها.

وددتُ لو أن القارئ قد لاحظ الفرقَ في كتابة اسم "الرحمان" حسب الرسم القرآني والمطبعي. فحسْب نطقِنا للاسم نكتبه "الرحمان"، لكننا لا ننتبه إلى أنه في المصحف مكتوب " الرحمن" بحذف ألف المد الوسطى. وقد قصدتُ هنا أن أميِّز بين الكتابتين. هذا الحذف أو التغيير في رسم الحروف الذي يتميز به القرآن ليس من اجتهادات الصحابة، وليس مِن إبداعات كَتَبَة الوحي كما حاول التراث الإسلامي المزوّر إيهامَنا، وإنما هو كيفيةُ ما خَطّ النبي-صلى الله عليه وسلم- المصحفَ بيمينه كما أمره ربه. إنّه "الرسم النبوي" للمصحف. فحذْفُ الألفِ من "الرحمن" تفيد ضغطَ الحروف وهذا يعكس الصلة القريبة جدًا بين الموجِد وكلِّ مكونات الوجود، كما شرحنا آية "الكرسي" في نظرية آذان الأنعام. ملاحظة أخرى في السياق ذاته وهي كتابة كلمة " باسم" التي هي في الأصل بـ "اسم"، في "الرسم النبوي" هكذا: "بسم". وحذْفُ الألفِ أيضًا يفيد السرعة والتداخل لأن كل شيء في الوجود يوجد بسْمِهِ ويزول بسْمِهِ. وسنناقش أسطورة "أمية النبي" ووهْمَ"الرسم العثماني" لاحقًا.

إذًا فـ: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" هي كلمة السر التي توصل الويفي - WiFi- مباشرةً بين الموجِد وكلّ الوجود، بها وعليها تَسقط كلُّ الآلهة والأرباب والوسائط بين الله وخلقِه، ولا بد مِن نُطقها وكتابتها لمن استطاع كيفما ورد في " القرآن العظيم" الذي أُنزل إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل على قلب النبي تنزيلاً وعلَّمَه الله كيف يكتبه ليكون القرآن العظيم الذي يخاطب الناس كافة ويلمسه المطهرون وغيرُ المطهرين.

بعد هذا المدخل أنتقِلُ للنظر بصورةٍ مبسطةٍ ونقديةٍ للفزَّاعة التي تُعرَف بـ "علوم القرآن" في التراث الإسلاميّ، والتي يستعملها بعضهم لصدِّ الناس عن كتاب الله ودفعِهم لاتِّخاذ القرآن مهجورًا، ومن ثم اتخاذهم أحبارَهم ورهبانَهم ومشايخهم أربابًا مِن دون الله، وفي هذا يستوي متطرفو السلفية مع متطرفي الصوفية، شيعةً وسُنّة مهمَا بدا التباينُ بينهم.

علوم القرآن

هذا المصطلح الفضفاض يشمل عددًا من العلوم الموروثة التي ظهرت كلها بعد عصر النبوة إمَّا لتخدم فهْمَ القرآن أو لأنها نبعت مِن تدبره، وعليه، فكلها اجتهادات بَشرية تَقبَل النقدَ والنقض. و يدور موضوعُها حول الظروف أو الأحوال التي ارتبطت بالقرآن. ثم إن علومَ القرآن التراثية قد قطعت السور في تنزيلها لأنها تبنت نظرية مفادها أن الفرقانَ تنزَّل آياتٍ متفرقات يقوم النبي بتجميعها في سور. وهذا الاعتقاد بتقطيع الآيات هو أحد أسباب نشوء الوهم حول تطور دلالة النسخ في علوم القرآن؛ أيضًا هو مصدر وضع أحاديثٍ في البخاري ومسلِم تشكك في كيفية تجميع الفرقان، وتشكك في أن الصحابة قد اختلفوا في بعض الآيات، بل وبعض السور كما سنرى لاحقًا.

وفوق ذلك فإن هذه العلومَ التراثية قد خَلطت بين لسان القرآن ولسان العرب كما سوف نبينه لاحقًا. ويمكن إجمالُ ما يسمَّى بعلوم القرآن في الآتي:

لغة القرآن :

ما يتبادَرُ للذهن مِن عنوان "لغة القرآن" هو اللغة العربية فقط، وهذا ما انحصر فيه الفهمُ السلفي. لكن الحديث عن لغة القرآن معقَّدٌ جدًا ويحتاج لبحوث مستقلةٍ وليس بابًا في كتابٍ مهما كبر حجمُه، خاصة أن هذا الجانب من علوم القرآن قد نفذت منه سهامٌ كثيرةٌ سامةٌ إلى جسد الأمة. لكن قبْل أن نتدبر العلاقة بين القرآن واللغة العربية نحتاج أن نسأل أنفسَنا سؤالاً محرجًا ونجيب عليه إجابة أمينة جدًا: لو أن القرآن كما نؤمن به على أنه ملاذُنا ومنقذنا من نار جهنم وبئس المهاد كان قد نزل باللغة الصينية الفصحى، كَم مِنَّا كان سيبذل مجهودًا لأن يعرف عنه شيئًا ناهيك عن أن يؤمِن به؟ ومِن ثم يتعلم اللغة الصينية ويتقنها حتى يُنجِّي نفسه من عذاب الجحيم؟. الإجابة الأمينة عن السؤال هي: "لا أحد بالطبع"؛ لأن العربَ أثبتوا أنهم أكسلُ مِن أن يتدبروا القرآن العربيّ نفسه، وأكسلُ مِن أن يفسروه وإنما اعتمدوا مِن قديمٍ على الخدمات الجاهزة من الإسرائيليات ويستميتون في الدفاع عنها إلى اليوم. فكيف بهم يبذلون جهدًا لمعرفة لغةٍ غريبةٍ عليهم من أجل الله؟ وهنا يصبح السؤالُ العكسُ هو السؤال الموضوعي الذي يطرحه غيرُ العرب على امتداد العالم اليوم في زمن العولمة: لماذا أفهمُ أنا وأنت كلامَ اللهِ مِن غير عناء لأنه نزل بلسان الأم الذي نطقناه منذ الصغر بينما غيرنا سيدخل النارَ خالدًا مخلَّدًا فيها أبدًا لأنه يجهل وسيجهل رغم أنفه ومهما اجتهد أن يفهم القرآن كما هو متاح لنا فهمُه؟ السؤال موضوعيٌّ جدًا ولأن الذين يسألونه غالبا ما يخشون سيوفَ الجلادين فقدْ تحمَّلتُ المسؤولية نيابةً عنهم لطرحه رغم أني لا أُقدّم له إجابة، وإنما دعوة للبحث عن إجابة. هنا نحن أمام خياراتٍ محدودةٍ جدًا:

إمّا أنّ هناك خللاً في العدالة الإلهية، وهذا مُحال.

وإمّا أن فهْمَ القرآن وتدبره لا بد وأن يكون أوسعَ مِن مفهوم التدبر اللغوي العربي وهذا يعني أن عروبة القرآن نفسَها لها مدلولٌ آخر غاب علينا.

ولقد رأينا في باب "خير القرون" أن الله وعدالتَه على بُعد واحدٍ ومتساوٍ مع كل البَشر ولا يستقيم العدلُ الإلهي بتفضيل جيلٍ على جيلٍ فقط لأنهم ولِدوا في هذا العصر أو ذاك، أو نطقوا هذه اللغة أو تلك. هذا التصور للإله العنصري تصورٌ توراتيٌّ وليس قرآنيًا.

مهما يكُن مِن أمرٍ فإنَّ مقدرتي ومقدرتك على قراءة هذا الكتاب وتبادلِ الآراء حوله اتفاقًا أو اختلافًا لا يمكن أن تشكل أي جزءٍ من معايير الحساب في الآخرة التي تحدد مصيرَ العباد، وإلا فإن العدالة الإلهية مختلةٌ لأن غيرَنا الذي لغتُه الأم ليست عربية لا يتاح له ما يتاح لنا من مقدرة على الحوار والبحث في أسرار القرآن.

وعليه فإنني في هذا القِسم سأطرح أسئلةً أكثرَ مما أقدِّم إجابات، لكنها مِن صنف الأسئلة التي لا يستطيع بعضكم أن يسألها لنفسه في خلوة ناهيك عن أن يسألها علنًا.

طبيعي أن الإلمامَ باللغة العربية هو أول علوم القرآن وفقًا لقوله تعالى:

{ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِين (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)} الزخرف.

لقد لَعِب السلفُ دورًا مهمًّا جدًا في استنباط قواعد اللغة العربية وأوجه البلاغةِ والنحو وغيرها من القرآن نفسه، ومما كان شائعًا من أشعارٍ ونثرٍ في زمن التنزيل. لكن هنا يجب تصحيح مفهوميْن مِن غير مكابرةٍ ومغالطةٍ:

الأول: أن القرآن هو الذي صَنَع الأمّةَ العربية وليس العكس. قبل نزول القرآن وانبلاج فَجر الإسلام لم تكن هناك أمةٌ معروفة بالاسم تسمى الأمة العربية، وإنما كانت هناك قبائلُ رُحَّلٌ همجية تجوب الصحراءَ شمالاً وجنوبًا، وتعيش على الاقتتال والنهب المسلح والغزوات بينها على قليل من الزراعة والتجارة البدائية والرعي. نزول القرآن كان بداية تكوين ما يعرف بالأمة العربية. وعليه فإن ما يعرف بالتراث والتاريخ العربي رسميًّا يبدأ مع نزول القرآن وليس قبله.

الثاني: أن القرآن هو الذي صَنَع اللغة العربية وليس العكس. فكلامُ العربِ لم يكن له قواعدُ متَّفَقٌ عليها يمكن تدريسُها، وعليه لم تكن هناك لغةٌ رسميةٌ اسمها العربية، وإنما كان هناك لسانٌ عربيٌّ شائعٌ في الجزيرة العربية بلهجاتٍ متعددةٍ وقد انحدر أو تبلور مِن تداخُل اللغات السامية والحاميّة من بعد نوح.

لمَّا نزل القرآن بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ –وليس بلغة عربية– أصبحت صناعة اللغة العربية ضرورةً فكرية وعلمية ودينية وسياسية واجتماعية واقتصادية.

من هنا لا بد من أن نتذكر دائمًا أن اللغة العربية بما فيها من قواعدَ ونحوٍ وبلاغةٍ ومعانٍ للألفاظ ستخضع إلى يوم القيامة لمفاجآت القرآن، ولا يخضع القرآن أبدًا لضيق أفق وإدراك مَن استنبَط قواعد اللغة العربية ومدلولاتِ الألفاظ في بداية الأمر. تلك كانت مرحلة فقط وليست نهاية للغة العربية.

وفي هذا السياق نحتاج للتمييز بين جعْل القرآن عربيًا، وبين اللسان العربي -من ناحية– وبين اللغة العربية من ناحية أخرى. لنبدأ بتدبر هذه الآيات التي تحدد الإطارَ العام لهذا الموضوع:

{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2)} يوسف.

{ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِين (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)}الزخرف.

{حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (3) فصلت.

مِن الآيات أعلاه نلاحظ ملاحظة لافتة للنظر وهي أن عروبة القرآن تأتي مسبوقة بحروف متقطعة ما زال سرُّها غامضًا في القرآن ولا يَفهم منها العربيُّ شيئًا أكثر مما يفهمه العجمي. فهي ليست إلا أصواتًا: (الر – حم – حم)

نلاحظ أيضًا أن عروبة القرآن مصدرٌ للعِلم وملهمة للعقل ولكنها ليست مصدرَ البيان، إذ إن البيان ورد مع "اللسان" وليس العروبة وحدَها كما في هذه الآيات:

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103)} النحل.

لفظُ اللسان في المعجم يشير إلى "طولٍ لطيفٍ في الشيء غير بائن". وسُمِّي العضو المعروف في الفم باللسان لأنه يطول إذا تم مده. ومنه جاء قياس مدلوله اللغوي لأنه أهم أعضاء الكلام، لكنه أيضًا يفيد كل ما يمكن للسان المعني إخراجه من أصوات وحروف. وعليه فإن اللسانَ ربما يشمل مجموعةً من اللغات يتحدث بها اللسان المعني. أيضًا فإن عددًا من اللهجات واللغات التي تشترك في مخارج الحروف يمكن اعتبارُها لسانًا واحدًا. مِن الآية أعلاه نفهم أن اللسان الذي نزل به القرآن هو اللسان العربي المبين، وليس تشكيلة الكلمات والمفردات العربية المتداولة كما هو مفهوم.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)} إبراهيم.

لمّا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- هو آخر الأنبياء والمرسَلين إلى كل الناس فإن لسانَ قومِه لا بد أن يشمل لسانَ كلِّ الأمم التي هي مكلّفة برسالته. فكيف ينطبق هذا المفهوم مع عروبة القرآن؟

{وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199)} الشعراء.

لاحِظْ أنه "تنزيلُ" ربِّ العالمين، في هذه المرحلة ليس له لغةٌ أو لسانٌ، ثم نزل به الروح الأمين على قلب النبي: وهو وصفٌ يشبه الإنزالَ والتنزيل الذي نعرفه اليوم في عالم الإنترنت، ولم يكن خطابًا يسمعه، ثم كان لسان التنزيل هو اللسان العربي المبين. أيضا فإن القرآن نفسه كان في زُبُر الأولين لذلك علِمَه علماءُ بني إسرائيل. وأخيرًا نلاحظ أنه كان يمكن أن ينزل على الأعجميين: هذا يعني أن مفهوم اللسان العربي المبين لا علاقة له بالقرآن نفسِه، وإنما فقط بالهيئة التي نزل به على قلب النبي.

{وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (12)} الأحقاف.

{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97)} مريم.

لا اختلافَ على كون القرآن عربيَّ اللسان وهو لسان النبي-صلى الله عليه وسلم-، لكن مدلول اللسان يظلُّ غامضًا ويحتاج لبحوثٍ وتدبرٍ مستمر. على أن الآية التالية تُضفي بُعدًا جديدًا لطبيعة "اللسان":

{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22)} الروم.

الذي كان يتبادر للذهن هو اختلافُ اللغات التي تَنطق بها الألسن مع اختلاف ألواننا الظاهرة. لكن في بحثٍ حديثٍ جدًا أثبت بروفيسور عمر عبد العزيز الذي ذكرتُ بعضَ بحوثِه في باب "أفلا تعقلون" أن هناك "بصمة لسانية" و "بصمة لونية" تميز كل بَشرٍ كما يتمايز الناسُ ببصمات الأصابع والحمض النووي. فلا يوجد لسانان متشابهان من حيث التشكيل العضوي وتوزيع الغدد اللعابية فيها، كما أنه لا يوجد شخصان بلونٍ واحدٍ وإنما ألوانُ الناس متفاوتةٌ بدرجاتٍ دقيقةٍ جدًا لا يميزها البصر.

خلاصة القول هنا، هو أن الآياتِ السابقة في مجملها تصف عروبة القرآن مِن نواحٍ عديدةٍ لكنها لم تتحدث عن اللغة العربية إطلاقًا، وإنْ كان هذا ما يتبادر للذهن. ولو بحثنا في كل القرآن لن نجد ذِكْرًا للفظ "لغة" ولا مشتقاته إلا مِن باب "اللغو" وهو الكلام العابث الذي لا فائدة فيه:

{لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (225)} البقرة.

{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3)} المؤمنون.

{وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72)} الفرقان.

{وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55)} القصص.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26)} فصلت.

الملاحظات أعلاه تحتِّم علينا أن نعيد التدبرَ في مدلول الألفاظ التي يُفهَم منها أنها تعني اللغة كلما وردت في القرآن. إذ إن هذا المجال قد توقف البحث فيه وتم قبره منذ أن وضِعتْ قواعدُ اللغة العربية التي لم تكن إلا اجتهادًا عظيمًا في زمانه مِن السلف، وكان الأولى أن يستمر تطور البحث فيه كبقية العلوم لكن حينما دخلنا عصورَ الانحطاط آمَنَّا أنه ليس بالإمكان أفضلُ مما كان، فتم تقديس كل ما وصل إليه السلف مع بساطة إمكانياتهم وعِلمِهم، وأصبح فهمُنا للقرآن يتم من خلال استنتاجاتهم البسيطة حول عروبة القرآن والتي تم توثيقُها في قواميس ومعاجم اللغة فأصبح القرآن كالطائر السجين داخل قفصٍ ضيقٍ اسمه اللغة العربية ويتم استنباط أحكامه ومدلولاته وفقًا للشعر الجاهلي.

مِن أول الملاحظات التي يجب أن نوليها اهتمامًا في هذا السياق هي أن لفظ "عرب" لفظٌ واسع المدلولاتِ حتى في لسان العرب نفسه، إذ إنه يفيد "الإبانة والإفصاح" ويفيد أيضا "النشاط وطِيب النفس" وأخيرًا "الفساد في الجسم أو في عضو فيه". والشائع مِن الاشتقاقات هو المقدرة على الإفصاح بمكنون الأفكار، ومنها أُشتُق مصطلح "الإعراب" في القواعد والبلاغة لاحقًا. ومنها الحركة المستمرة التي أشتق منها اسم "العرب" أنفسهم لأن طبيعتَهم كانت التحرك والترحال المستمر، فتَطوَّرَ اللفظُ مِن هذا الاشتقاق لِتَصِلَ إلى لفظ "العَرَبَة" حديثًا الذي يفيد السيارة المتحركة.

فهل القرآن كتابٌ عربيٌّ قديمٌ كالمعلقات العشر؟ أم أن عروبة القرآن التي وصف بها نفسه لها مدلولات أوسع وأشمل؟

لمزيد من البحث لهذه الملاحظة نحتاج أن نتدبر لفظ "نطق" مقارنة بالألفاظ الأخرى التي يوصَف بها الكلام مِن: تكلَّمَ، وقالَ، وحدَّثَ وغيرها.

ورد لفظ "نطق" ومشتقاته في آيات كثيرة كلها تفيد أن النطق لا يتم بإرادة ذاتية وإنما هو مِن الله تعالى، ثم إن النطق لا علاقة له بلغةٍ محددةٍ، وكأن "النطق" و"المنطق" مِن برمجة الكون وليس مِن مكتسبات الإنسان:

{فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92)} الصافات.

النطق هنا لا يعني الكلامَ وإنما إصدار صوتٍ للتعبير بأيِّ لغةٍ كان.

{وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (62)} المؤمنون.

{هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29)} الجاثية.

الكتاب صامت لكنه ينطق بالحق.

{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)} النجم.

من هنا نفهم أن " وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى" لا تعني الكلام، إذ إن لفظ النطق يشمل كل تعبيرٍ يصدر بصوتٍ كان أو بصمتٍ. وهذا يعني أن القرآن المعني كتابٌ شديد التعقيد في تكوينه، وما نقرأه منه أخيرًا في هيأة كلامٍ عربيٍّ ليس إلا هيئةً مِن هيئاته وليس كلها. أيضًا فإن هذه الآية تقفل البابَ أمام مَن يتوهمون أن كل كلام النبي وحيٌ إذ إنها حصرت الوحيَ في "النطق" وليس الكلام.

{وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21)} فصلت.

جلودُهم لا تتكلم ولا تتحدث وإنما تنطق لتشهدَ عليهم. .فكيف تنطق إذن، وما هو "النطق"؟

{وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16)} النمل.

سليمان عُلِّمَ منطقَ الطير وليس لغته.

مما سبق نفهم أن المنطق مِن الله، وأن لفظ النطق لا يأتي مرتبطًا بالله فهو لا ينطق وإنما يجعل الأشياءَ تنطق. ولفظ النطق يستعمل للكلام أو الإيحاء أو الإعلام ذي الأهمية والخصوصية القصوى. فالطفلُ حينما يُخرج أولَ لفظٍ له يقال نَطق وليس تكلم، لأن النطقَ الأول هو الذي يجعله مِن زمرة الناطقين وأنه آية مِن آيات الله الذي أنْطَق كل شيءٍ. لذلك حينما تُرجِمت الفلسفةُ وهي مصطلحٌ يونانيٌّ قديمٌ يعني التدبر في الطبيعة ومحاولة إيجاد تفسير لظواهرها، حينما تُرجِمتْ كان الاسمُ المقابل هو "عِلم المنطق" إذ إنه العِلم الذي يَبحث في كُنه الأشياء بعيدًا عن تدخل البَشر، وكأنه عِلمٌ يبحث في كيفية نُطق الأشياء لتعرف نفسها بنفسها. وكل ما ليس لبَشر دخْلٌ فيه فهو مِن منظومة "سُنَّة الله" أو قوانين الطبيعة الثابتة التي لا تغيير ولا تبديل فيها. لذلك فالإنسان يتعلم اللغة ويتكلم بما عنده مِن كلام، لكنه لا ينطق إلا بإذن الله الذي أنطق كل شيء.

ولتبسيط الفكرة: لو انفتحت أبوابُ السماءِ بماءٍ منهمرٍ في سوقٍ مزدحمٍ فإن الجميع سيجرون بحثًا عن سقفٍ يقيهم البلل، وفي هذه يشترك المسلِم والمسيحي واليهودي والبوذي والهندوسي والعلماني والملحِد إناثًا كانوا أم ذكرانًا، إذ إن التصرف هنا خاضعٌ للمنطق وليس للفكر أو الدين. والمنطقُ ينطلِق مِن الفطرة. وفطرةُ اللهِ التي فطَر الناسَ عليها هي سُنَّتُه الثابتة في الكون.

لذلك ليس مستغربًا أن تجد اليهودَ والمشركين والوثنيين بأيِّ دينٍ دانوا بما فيهم "الوثنيين المسلمين" يكرهون لفظَ "منطق" ويسعون لتلويث فهْم الناس للمنطق لأنه يثبت أنهم صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ وأنهم كالأنعام بل هُم أضل سبيلاً.

مما سبق يمكننا أن نخلُصَ إلى أن عِلمَنا بلغةِ ومنطق القرآن ما زالا قاصريْن، والآيةُ التالية تؤكد هذه الخلاصة:

{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)} الحشر.

هنا نحتاج لتدبرٍ عميقٍ لحقيقتيْن في الآية: الأولى هي وصف "الإنزال" وليس التلاوة. والثانية هي تفاعلُ الجبلِ الحجري الصامت مع عملية إنزال القرآن. وحتى نقرِّب المعنى فإن الإنزال نمارسه في حياتنا اليومية بفضل علوم التقنية الحديثة من إنزال الملفات من الإنترنت على الكمبيوتر والتليفونات الذكية. عمليةُ الإنزالِ هذه ليست قراءةً ولا كتابةً، وإنما انتقالُ شحناتٍ كهرومغناطيسيةٍ مبرمجةٍ بصورةٍ خاصةٍ تحوي بين مكوناتها الملفَ المقصود مِن صوتٍ وكتابةٍ بأيِّ لغةٍ كانت وموسيقى وصور وغيرها. هذا يَفتح البابَ واسعًا للتدبر في أن القرآن مركَّبٌ فيزيائيٌّ أو طاقةٌ من خارج الكون لا يعلم كنهَه إلا الله، لكن آخر هيئة بيِّنة تصلنا منه هي هذا الكتاب المكتوب والمقروء، لكن هذا ليس كل القرآن. فإنْ كان الجبل يخشع له ويتصدع فإن البَشري لا بد وأن يتأثر به مهما كانت لغته، فقط لو تمت عملية "الإنزال" بصورة سليمة وليس بالاستماع فقط. وهذا يعيدنا لقوله:

{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204)} الأعراف.

هل الرحمة تنال مَن يفهم اللغة أم مَن يُنصِت فقط لصوت قراءة القرآن؟

{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29)} الأحقاف.

هل كانت الجن تفهم اللغة العربية أم أن القرآن وصلهم بلغتهم هُم؟

مجمل الآيات أعلاه تعني أن القرآن أكبرُ مِن كونه كلامًا عربيًّا. فقدْ رأينا سابقًا أن الآياتِ التي وصَفتْ تعريبَ القرآن قد قُدِّمَ لها بأحرفٍ متقطعةٍ لا يعلم سرَّها إلا الله. ولو تعاملنا معها بمنطق اليوم فهي ربما تكون شفراتٍ صوتية أو "كلمات سر" لها علاقة مباشرة بأُم الكتاب وما أنزل منه مِن قرآن إلى اللوح المحفوظ في العرش المَجيد، ثم إلى الكتاب المكنون قبل أن يُعرَّب ويدخل إلى عالم الشهادة في ليلة القدْر. لو قبِلنا هذا الافتراضَ الذي ما كان يمكن أن يخطر على السلف، فيمكننا أن نستلهم بعض المعاني من الآيات أعلاه أن القرآن ككلامٍ فيه أحكامٌ وقصصُ أخبارٍ وتشريعٌ كلها في مجملها تمثل الصراطَ المستقيم الذي ندعو الله أن يهدينا إليه في كل صلاة. والتعبير عن هذه التفاصيل في اللسان العربي أفصح وأدق مِن أي لسان آخر، لكن يمكن ترجمة الخلاصة لأي لغة في العالم. أمّا القرآن كمنظومةٍ وبرمجةٍ صوتيةٍ وطاقةٍ غامضةٍ وشفراتٍ تصل الموجوداتِ بالموجِد "الرحمن" فلَهُ تأثيرٌ مباشرٌ على مكونات الكون حتى الجمادات منها كما وصفت الآيات أعلاه. وعليه فإن عروبة الكتاب تكمن أهميتها في استنباط الأحكام والحُكم منه لمن يجيد العربية. ومَن وَهَبه اللهُ هذه الهبة فقد وقعتْ علي عاتقه مسؤوليةٌ تَئِن مِن ثقلها الجبال، لأن مَن لا ينطق العربية لن يسأله الله عما يَسأل عنه العربي – ورقة الامتحان ليست واحدة- لكن القرآن نفسه وتأثيره على الناس، كلِّ الناس وكلِّ الكون فأوسع مِن اللغة التي فيه لأن منطق الأشياء يقول إن الصوتَ وموسيقى الحروف لهما طاقةٌ أقوى من لغة الكلام.

كما أسلفتُ، فإن عروبة القرآن موضوعٌ يطرح أسئلةً أكثرَ مما يقدِّم أجوبة. لكن طرح السؤال الصحيح دائما نِصْف الطريق نحو الإجابة. وما يمكننا أن نخلص منه هنا هو أن القرآن ليس شِعرًا أو نثرًا جاهليًّا حتي يَخضع لمرحلة من مراحل تطور اللغة العربية، وأن مَن أراد أن يتدبره لا بد أن يترك البابَ واسعًا جدًا لتقبُّل أن في القرآن عروبة ـ بمعنى وضوح وبيان ـ لم تعرفها العرب سواءٌ أفي القواعد أم في مدلول الألفاظ.

ولا بد من التنويه أن القصص التي ارتبطت بمجتمع النبي وبيئته قليلةٌ جدًا مقارنة مع حجم القرآن لذلك فإن الظن أن تفسير القرآن مرتبطٌ بالبيئة العربية سابقًا، وأنَّ كلَّ آية لها سبب نزولٍ ظرفيٍّ ليس إلا مغالطة تلقَّيْنَاها بحُسن نية لكنها فكرةٌ هدامةٌ يجب تصحيحها. وأختم الحديثَ عن لغة القرآن بمراجعة المفردات التي ارتبطت بما نفهمه أنه "كلام" في القرآن وهي متعددة منها:

منها الكلام:

{وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164)} النساء.

بأي لغةٍ كَلَّمَ اللهُ موسى؟

ومنها القول:

{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)} النحل.

{قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69)} الأنبياء.

بأي لغةٍ يخاطِبُ اللهُ مكوناتِ الكون غيرِ الناطقة؟

ومنها النطق:

{وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21)} فصلت. بأي منطقٍ تَنطِق جلودُهم؟

ومنها الإيحاء:

{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11)} مريم.

{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68)} النحل.

{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163)} النساء.

الإيحاء له مدلولاتٌ كثيرةٌ، فوحيُ اللهِ للنحل غيرُ إيحاءِ زكريا لقومه، وهو غير "وحي" الله للرسل.

ومنها لغة الإشارة: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29)} مريم.

وختامًا: منها "الحديث" الذي ينقلنا إلى باب "الحديث":

{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)} الزمر.

تحت عنوان النبيِّ الأُمِّيِّ سنناقش "قول الله" و في باب "الحديث" سنتحدث عن الأبعاد الخطيرة للسرقة الأدبية في "خير القرون" حيث سُرِق لفظُ "الحديث" الذي احتكره القرآن لكلام الله فقط، فوصف به غيره من الكلام الذي يستحيل أن يكون "حديثًا"، وحتى ذلك الحين أرجو أن يتدبر القارئ ولو قليلاً الفرقَ بين "كلام" و"حديث"؟.

عِلم القراءات القرآنية:

وأحدُ تعريفاته أنه: "عِلم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعَزْوِ كل وجهٍ لناقله"، وأساسُ نشوءِ هذا العِلم أحاديثُ نبويةٌ مِن أهمها حديثٌ مؤدَّاه أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وهذا الحديث ورد في رواياتٍ متعددةٍ ناقشَها كثيرٌ من الكاتبين قديمًا وحديثًا ومِن الذين أفردوا لها مبحثًا كبيرًا الدكتور عبد الصبور شاهين -عليه رحمة

الله- في كتابه "تاريخ القرآن"؛ وقد بدأ التأليفُ في عِلم القراءات مع ابن مجاهد في كتابه "السبعة في القراءات" واشتُهر هذا الكتابُ وأصبح عمدةً لِمَن بعده، ثم استقر الفرق بين القراءة الصحيحة والقراءة الشاذة؛ وأركان القراءة الصحيحة هي التواتر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وموافقة ما عُرف لاحقًا بالرسم العثماني، وهو في الحقيقة الرسم النبوي. أيضًا موافقتها لوجهٍ من وجوه النحو فصيحًا كان أو أفصح. أمَّا القراءة الشاذة فهي التي فقدت شرطًا أو أكثر من شروط القراءة الصحيحة. وقد اختار ابنُ مجاهِد في كتابه سبعةً مِن القراء المشهورين، واختار لكل قارئ راويَيْن، وهُم الرواة أو أصحاب الروايات المتواترة اليوم، و إليك أسماؤهم:

ـــ نافع بن عبد الرحمان المدني "نافع المدني"، وراوياه هُما ورش وقالون.

ـــ عبد الله بن كثير المكي "ابن كثير"، وراوياه هُما البزِّي وقنبل.

ـــ أبو عَمْر بن العلاء البصري، وراوياه هُما الدوري والسوسي.

ـــ عبد الله بن عامر اليحصبي "ابن عامر"، وراوياه هشام وابن ذكوان.

ـــ عاصم بن أبي النجود الكوفي، وراوياه هُما حفص وشعبة.

ـــ حمزة بن حبيب الزيات الكوفي، وراوياه هُما خلف وخلاد.

ـــ علي بن حمزة الكسائي، وراوياه هُما ابن الحارث والدوري.

عِلم المكي والمدني:

وهو علمٌ يبحث في معرفة مكان نزول الآية أو الآيات أو السورة أنزلت في مكة أم في المدينة؟ حسب واحدٍ من ثلاثة اعتبارات هي اعتبار "زمان النزول" واعتبار "مكان النزول" واعتبار "المخاطَب". فالقرآن المَكّيّ حسْبَ اعتبار زمن النزول هو ما نزل في مكة قبل الهجرة، والمَدنيّ "المَدْينيّ" هو ما نزل بعد الهجرة إلى المدينة. أمَّا حسْبَ اعتبار مكان النزول فالقرآن المكي ما نزل في مكة، والقرآن المدني "المديني" ما نزل في المدينة، إذ إن النبي عاد إلى مكة بعد أن هاجر منها ونزل عليه فيها بعض القرآن رغم أنه كان عابرَ سبيلٍ فيها. أمَّا حسْبَ اعتبار المخاطَب فالقرآن المكي ما وقع خطابًا لأهل مكة، والقرآن المدني "المديني" ما وقع خطابًا لأهل المدينة.

ولا تعليق لديَّ على التعريف العام المتداول أعلاه، غير أن القرآن نزل سورًا وليس آياتٍ متفرقاتٍ، وأن ما يُسمَّى بعِلم المكي والمديني فيه الكثير من الأخطاء لربطه مكانَ وزمانَ الكثير من الآيات بأحداثٍ تاريخيةٍ معلومةٍ تأثُرًا بما يسمى عِلمَ أسباب النزول. خلاصة القول أنه ليس فيه إلزام إذ إنه كغيره مِن علوم القرآن ليس إلا اجتهادًا خارجيًا لا يمس النصَّ القرآني.

عِلم التفسير:

التفسير مشتقٌّ من الجذر "فَسَرَ" على وزن تفعيل. وقد تعددت تعريفاتُه ولكنها كلها تدور حول "كشف المَعنى". وقد ذكَر العلماءُ في تصنيفاتهم ألوانًا شتَّى من تفسير القرآن للقرآن ومن تفسير السُّنَة للقرآن؛ وبمرور الوقت تكونت المدارس المتقدمة للتفسير في مكة والمدينةِ والشام والعراق، ودُوِّنت المصنفاتُ التي لا تكاد تُحصى في التفسير، كلٌّ على حسْب مشربِ صاحبه سواءٌ في اللغة أو الأحكام أو العقيدة أو التصوف أو الفلسفة.

وحينما نرجع للقرآن نفسه نجد أن لفظ "تفسير" لم يرد في القرآن العظيم إلا مرةً وحيدةً في مركَّب "وأحسن تفسيرًا" :

{وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33)} الفرقان.

ومركَّب "أحسن تفسيرًا" لم يقترن بالقرآن مباشرةً في هذه الآية، ولكنَّ له علاقةً بالآية السابقة التي ذكَرت تمنّي الذين كفروا أن ينزَّل القرآن جملةً واحدة، بالمقابل فإن لفظ "التدبر" وردت تصريفاتٌ كثيرةٌ مِن جذره في القرآن العظيم مثل (أدبر والمدبرات والأدبار ودابر ودبَّر وتدبر)، لكن لا مجال للدخول في هذه التفاصيل التي تفيد في مجملها إعمالَ العقلِ كما أشرنا إلى ذلك في باب "أفلا تعقلون".

وعليه وفي جملة واحدة: فقدْ تكرَّمَ العشرات إن لم يكن المئات بكتابة تفاسيرَ للقرآن عبْر القرون، كلها تحمل أسماءَهم مِن تفسير الطبري إلى ظلال القرآن، لكن المؤمن الوحيد الذي لم يتجرأ في تفسير القرآن ولذلك لا يوجد تفسير باسمه هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين، والذي أوحِيَ إليه القرآن.

لا بد من التوضيح وبكل صرامةٍ وحزمٍ هنا، أن ما يسمَّى بكُتُب التفسير قد لعبت دورًا خطيرًا جدًا في ضلال الأمة وحرفِها عن الطريق، سواء أبحُسن نية أم بسوء نية، فالله وحدَه أدرى بما في قلوب الناس، وهو وحدَه أدرى هل كَتَب أولئك المفسرون ما نُسِبَ إليهم كله؟ أمْ أن كتاباتِهم تم تحريفُها مع ما تم تحريفُه ثم دسُّه على المسلمين في كُتُب التراث؟ مِن حيث المبدأ فلا يوجد شيء اسمه تفسير القرآن ولا يمكن أن يكون. إذ كيف أكتبُ اليوم تفسيرا لخطاب مِن الحي الذي لا يموت لأناسٍ سيسكنون الأرضَ أو المريخ بعد 500 عام؟ إن صلاحية القرآن لكل زمان ومكان تجعل مِن المستحيل وضعَ تفسيرٍ له، وإنما توجِب على كل جيل أن يتدبره ويفهمه في زمانه لأن الوحي فيه لا ينقطع. وعليه فمَن كَتَب كتابًا اليوم سمَّاه تفسير القرآن مِن غير أن يوضح للقارئ بكل أمانة أن هذا اجتهادٌ منه اليوم فقط، فقد كَذَب على نفسه وعلى الله وعلى الناس وارتكب جرمًا عظيمًا.

على أن وجودَ كُتُبٍ تراثيةٍ لما يسمّى بـ "التفسير" جمع فيها ما قيل في القرون الأولى لا يضر إذا قرأناها بعقلٍ متفتح واضعين نصب أعيننا أنها فقط تنقل لنا وجهاتِ نظر مَن سَبَقنا، لكن لا علاقة لها لا بالله ولا برسوله من قريب أو بعيدٍ. وهي توثق لنا أيضًا مقدارَ الشطح الذي تم في فهْم القرون الأولى نتيجة جهلهم بالكون مما يخبرنا بمدى تغيّر مفاهيم الحياة بيننا وبين "خير القرون" وما بعدها. وقد اشتملت كُتُب التفسير على الكثير جدًا من الإسرائيليات وهي ليست نصوصًا توراتيّة كما يظن البعض، وإنما خرافاتُ بني إسرائيل، والكثير منها لم يكن معروفًا أصلاً لليهود لكنهم حشروا أنوفهم وساهَموا في تفسير القرآن بأهوائهم، واعتمدت تلك الأهواء بعضَ -إن

لم يكن كل ـ كُتُبِ التفسير القديمة. وقد نقلتُ مثالاً لتفسير تَساقُطِ الكواكب والنجوم في البحر يوم القيامة الذي لا يستطيع خطيبٌ مهما كان قليلَ الحياءِ مع الناس وقليلَ الأدبِ مع الله أن يردده اليوم ويعتمده تفسيرًا لقول الله، كما ذكرتُ في باب "ملكة النحل" مع شطحات تفسير الحور العين بفقه السراويل.

من الملاحظات المهمة على كُتُبِ التفسير الموروثة أنها خَلَطت بين لسان العرب حين التنزيل وبين لسان القرآن، وكأن اللهَ تعلَّمَ اللغة العربية مِن شاعرٍ جاهليٍّ. وأيضًا خَلطتْ بين كون القرآن مصدرًا مِن مصادر قواعد اللغة العربية، وبين كونه تراثًا عربيًّا يَخضع لها، لذلك ليس مستغربًا أن تجد في بعض كتُبِ التفسير تعليقَ كون الحرفِ هنا زائد أو الكلمة زائدة؛ لأنها حسْبَ فهمهم أو فهْمِ مَن كَذَب عليهم لا مكان لها من الإعراب. ولو أنهم قالوا "الله أعلم لكان خيرًا لهم".

ملاحظة أخرى هي أن معظم المفسرين الأوائل كانوا عجمًا، كما كان المحدِّثون أيضًا وكأن العربَ قد أصابتهم قارعة في خير القرون.

مع تطور الزمن وضحالة الرمال التي يمكن دفْنُ الرؤوس فيها فإن كُتُبَ التفسير اليوم تلعب دوراً كبيرًا في فضح الأقاويل الموضوعة المكذوبة على رسول الله. ولعل مثالاً واحدًا هنا يكفينا في تفسير خلق السموات والأرض في ستة أيام. فقد اختَلَقَ اليهودُ يومًا سابعًا في مسلسل الخلق هو يوم راحة الرب، لكن القرآن صريحٌ وواضحٌ في هذه الأيام الستة، وهي بطبيعة الحال ليست أيامَ الأسبوع وإنما مراحل تطور الخلق. ففي تفسير ابن كثير لهذه الآية التي ورد فيها مفهوم الأيام الستة كما في آيات شبيهة (يونس "3" و "7"، والسجدة "4" والحديد "4") :

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)} الأعراف.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)} الحديد.

نَقل ابن كثير في تفسيره ما يلي:

{فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا حجاج حدثنا ابن جريج أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال أخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه عن حجاج وهو ابن محمد الأعور عن ابن جريج به وفيه استيعاب الأيام السبعة والله تعالى قد قال في ستة أيام ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعًا والله أعلم.}

وسنناقش نقْلَ أبي هريرةَ عن كعب الأحبار اليهودي مِن غير تحفظ والخلط بينه وبين النبي-صلى الله عليه وسلم- في باب "فقه الكلب". ما يهمنا هو لماذا ينقل ابن كثير وغيره مثل هذه الإسرائيلياتِ التي تتناقض مع القرآن عِلمًا بأنه يصرح أن الحديثَ مشكوكٌ فيه عند بعض المحدِّثين رغم اعتماد "مسلِم" له؟. الإشكال في هذه الأضحوكة ليس أن أيام الأسبوع مِن السبت إلى الجمعة سبعة أيام، بينما خلْق السموات والأرض في كل الآيات أعلاه تم في "ستة أيام"، واليوم ليس يومًا مِن أيام الأسبوع وإنما فترة أو مرحلة من مراحل الخلق ربما طالت ملايين أو بلايين السنين فقط، وإنما في كونِ مفهومِ الزمان وبالتالي ظهور الليل والنهار ليتكون يوم وتتكون الأسابيع، هذه الظاهرة ما كان لها أن تكون إلا بعد استقرار الأرض في مدارها وبدء منظومة الشمس والأرض والقمر في مجرتنا تدور دورانها المألوف لدينا اليوم. قبل ذلك لم يكن هناك سبت وأحد وجمعة.

أمّا السرد أعلاه، والمنسوب زورًا وبهتانًا لأبي هريرةَ ومِن ثم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهو نَقْلٌ شِبه حرفي مِن أول إصحاح في سِفر التكوين في توراة اليوم، ولا علاقة له بقول النبي-صلى الله عليه وسلم- شاء مسلِمٌ أم أبى.

وقد اشتُهرتْ تفاسيرُ دونَ غيرها عبْرَ القرون، ليس لأنها أفضل أو أدق مِن غيرها، وإنما وفقًا للهوى السياسي، لذلك أترك للقارئ البحثَ عنها ومقارنتَها إنْ شاء. فالتفسير الوحيد الذي يستمر إلى يوم القيامة هو "تفسير القرآن بالقرآن" وهذا يتطور تلقائيًا مع تطور فهْم الناس في كل جيلٍ للكون والقرآن، فالله هو الذي خلق الإنسانَ وعلّمَه البيانَ وأنزل القرآن. العلاقة بين الحي الذي لا يموت وكل جيل في كل زمن علاقة "الرحمن" بخلقه لا يصيبها القِدَم ولا تعتمد على علاقته بمن سلف. وسأناقش لاحقًا الفهمَ المغلوط الذي يروَّج له عمْدًا لقول الله: {..لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ..} حيث يستميت عباد السلف أن يجعلوا للسُّنَّة والحديث سلطانًا على القرآن بناءً على هذه الآية.

علم أسباب النزول:

هذا العلم يسمى في التراث أيضًا "شأن النزول" و يعرف بأنه العلم المهتم بمعرفة أسباب نزول آيات القرآن والقضايا والحوادث المتعلقة بها، وكذلك وقت ومكان نزول الآية وذلك بغرض معرفة تفسيرها وفهمها فهمًا صحيحًا ومعرفة الحكمة من الأحكام القرآنية. والمؤلفات في هذا العلم كثيرةٌ منها القديم مثل كتاب الواحدي وكتاب النيسابوري، ومنها الجديد مثل كُتُبِ خالد عبد الرحمن العك وخالد المزيني.

عِلم أسباب النزول مِن أقدم علوم القرآن إذ إنه يمثل التأريخَ لنزول سور القرآن. هذا لا يعني بالضرورة صحة ما تحتويه الكتب اليوم، ولا حتى الإجماع عليه من أول يوم وإنما فقط يعني أنه نشأ كجزءٍ من توثيق تأريخ حياة النبي وسيرته. على أن التسمية غيرُ صائبةٍ في رأي علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، فهو كان يرى أنْ يسمى هذا العلم "مناسبات التنزيل" وليس "أسباب النزول"، لأن تنزيل السورة لا يحتاج إلى سبب ولكن يمكن لمن عاصر تنزيل السورة أن يربطه بمناسبة حدثت وقت التنزيل؛ وعلى كل حال فهو مبحَثٌ فرقانيٌّ لا علاقة له بالقرآن العظيم.

لا شك أن بعض الآيات التي خاطبت النبيَّ ومجتمعَه ارتبطت بمناسبات معلومة، لكن هذا لا يعني أن الله كان يُملِي رأيَه وفقًا للظروف. فكل آية وكل حرف في القرآن أنزل لحكمة تستمر ما دام الزمن وإنْ ارتبط محتواها بعلاج حدثٍ محددٍ حين نزولها. وقد اختلط على السلف الكثير في مناسبات التنزيل ووثقت كتب التفسير تلك الاختلافات. ثم كانت اختلافات الجيل الأول مدخلاً لفتح ثغرة نفذت من خلالها أخطر السهام، ليس في تاريخ الإسلام فحسب، وإنما في تاريخ الأديان وتاريخ الإنسانية جمعاء، حيث نجحت "مؤسسة ابن سلول" لصناعة الأديان في الربط بين قصة الإفك في سورة النور وبين عائشة -رضي الله عنها- فجعلتْ مليارات المسلمين يخوضون في عِرض رسول الله ويؤذونه وأهله وفقا لاختلاق أسباب نزولٍ مغلوطةٍ مدسوسةٍ لسورة النور.

خلاصة القول أنّ هناك أحداثًا كبيرةً واضحة يمكن أن نلاحظ علاقةً بينها وبين بعض الآيات كالإشارة لبدر ويوم حنين والأحزاب وغيرها، لكن كُتُب التفسير عجزت حتى عن توثيق ما هي أول وآخر آية نزلت في القرآن، ناهيك عن الربط بينها وبين مناسبات محددة. ومهما يكن من أمر فالعِلم فيه الكثير من الوهم إذ إن معظم القرآن أصلاً لم يرتبط بسبب محدد حين نزول السور.

علم المُحكَم والمتشابه:

يعرف هذا العلم تاريخيًّا بأنّ المحكم والمتشابه لفظان متقابلان، إذا ذُكِر أحدُهما استدعى الآخر ضرورةً، وهُما بحثان رئيسان مِن بحوث القرآن التراثية؛ وقد وردت تعاريفُ متعددة لكلٍّ منهما؛ وقد تم تعريف المحكم بأنه ما عُرف المرادُ منه، أو ما لا يَحتمل إلا وجهًا واحدًا، أو ما استقل بنفسه ولم يَحْتَجْ إلى بيان؛ بينما المتشابه ما استأثر اللهُ بعلمه، أو ما احتمل أكثرَ مِن وجه، أو ما احتاج إلى بيانٍ بردِّه إلى غيره.

على أننا لو تدبرنا محتواه وأصله نجد أنه نبع مِن تفسيرٍ خاطئٍ وقاصرٍ لقوله تعالى:

{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)} آل عمران.

وقد جنح الكثيرون في الماضي لتصنيف ما يفهمونه على أنه محكَم، وما يختلف أو يصعب عليهم على أنه متشابه. ولم يتفق العلماء على تأويلٍ أو تفسيرٍ محددٍ لماهية الإحكام والتشابه في آيات الكتاب.

على أننا لو رَتَّلنا القرآن - أي جَمَعنا الأرتالَ المتشابهة ثم تدبرناها معًا - نَخلُص بكلِّ يُسرٍ إلى أن مفهومَ "المُحكَم" و"المُتَشابه" غيرُ ما ذَهَب إليه الأولون:

{الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1)} هود.

{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)} الزمر.

مِن غيرِ تَنَطُّعٍ يمكننا ملاحظة أن الكتابَ كلَّه "متشابه" وكلَّه "مَثاني" مِن ناحية، وكلَّ آياتِه "مُحكَمة" مِن ناحيةٍ أخرى وكلَّ آياتِه "مفصلة".

هذا التباينُ لا يَعني إلا أن كلَّ آيةٍ في القرآن لها بُعدٌ ظاهريٌّ يمكن ملاحظتُه في الزمان والمكان المحدديْن، ولها أبعادٌ خَفيةٌ تَظهر لِمَن يُظهرُها اللهُ لهم مما يتناسق مع صلاحية القرآن لكل زمانٍ ومكانٍ. وهذا هو المنهج الذي اتبعناه في تدبر القرآن في نظرية "آذان الأنعام".

أمَّا الاكتفاءُ بآيةِ سورة آل عمران لتصنيفِ بعض الآيات "مُحكَمات" فقط وبعضها "متشابهات" فلا يَخفى علينا مدخلُ الهوى فيه، إذ إنَّ بيتَ القصيدِ هو بَتْرُ آخِرِ الآية: {....فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا.....}

لتحريمِ التدبر في القرآن إلا لِمَن كان ممن يسمون أنفسَهم "الراسخون في العلم"، ومَن سِوَاهم يوصَف بأن في قلبه زيغًا ومتبعًا للفتنة، فَصَدَق فيهم قولُ الله {...أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49)} التوبة.

وعليه فقد اختلفت الآراء حول المحكم والمتشابه، ولم يبتعد "العلم" عن الأهواء والسياسة إذ إن تطويع معاني الآيات لتخدم أغراضًا محددةً يسهل بعد تصنيفها كمحكمةٍ أو متشابهةٍ حسب الرغبة والضرورة تمامًا كما سوف نرى مع "الناسخ والمنسوخ". وسأناقِش هذا الموضوعَ مِن زاوية مختلفة مع "بيان القرآن" لاحقًا.

علم الماسخ والممسوخ :

أُقدِّم أولاً تعريفًا "سَلَفِيًّا" لما يسمى بعلم الناسخ والمنسوخ:

(يصنِّف العلماءُ الناسخَ والمنسوخ ضمن علوم القرآن التراثية، وأفرده بعضهم بالكتابة؛ والنسخ في أحد تعريفاته هو رفع الحكم الشرعي بخطابٍ شرعي؛ وعلى هذا الأساس فلا يكون النسخ بالعقل والاجتهاد؛ ومجال النسخ هو الأوامر والنواهي الشرعية فحسب؛ وأنواع النسخ هي نسخ القرآن بالقرآن، ونسخ السُّنَّة بالقرآن، ونسخ السُّنَّة بالسُّنَّة، وأضاف بعضهم نسخ القرآن بالسُّنّة؛ والنسخ في القرآن هو نسخ التلاوة والحُكم معًا، أو نسخ الحُكم وبقاء التلاوة، أو نسخ التلاوة وبقاء الحكم. وكل مبحثٍ من هذه المباحث المتنوعة، قد أُلِّفتْ فيه مؤلفاتٌ بعضها مختصر، وبعضها مفصَّل تفصيلاً واسعًا.). انتهت الخرافة!

في حقيقة الأمر فإن ما يُعرَف بعلم الناسخ والمنسوخ علمٌ وهْميٌّ قصد منه "المسخ" وليس "النسخ"، وقد تم فيه استعباط الأمّة على مدى قرونٍ طويلةٍ، وتم طعنُها مِن خلاله في أقدس مقدساتها. ويبدأ وهْمُه من حرب المصطلح كما شرحنا في باب "خير القرون" إذ إن لفظ "نسخ، ينسخ، نسخًا" نفسه لا يعني أبدًا المعنى المراد به في علم الناسخ والمنسوخ وهو "المحو" أو "الاستبدال". المؤسِف أن أهل الاختصاص الذين يعلمون هذه الحقيقة إما أنهم من الجبن بحيث يجارون ما وجدوا عليه آباءَهم، -وإنْ كان آباؤهم قد فُرض عليهم هذا الطعن في القرآن بحد السيف-، أو أنهم ضالعون في طعن القرآن بأوهامٍ تضلِّل الناسَ إلى اليوم وهُم يعلمون. وما لا يَخفى على غير المختص هو أن تاريخ نشوء العلم غير معروف على وجه التحديد؛ لأن الكثير من التراث الإسلامي قد تم تزويره بأثرٍ رجعيٍّ كما سنرى في الأبواب القادمة. وما لا ينكره أهل الاختصاص وهو أن "العلماء" لم يتفقوا أبدًا لا على عدد الآيات الناسخة ولا عدد الآيات المنسوخة، بل لم يتفقوا حتى على تحديد ماذا نَسَخ ماذا، وكأن مَن ابتكر الفكرةَ قد اختبر الناسَ أولاً، فإنْ هُمُ قبلوا الخطأ اللغوي في تسمية العلم فيزيد طينهم بلة، ويزيد فكرهم بلبلة بتناقضاتٍ لا حصر لها تكاد تخلُص منها إلى أن نصف القرآن ألغَى أو محا نصفَه الآخر. والغريبُ أن مفهوم النسخ نفسه تغيَّر عبْرَ العصور بين فئات العلماء وقد علَّقَ الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه (كيف نتعامل مع

القرآن العظيم) على أنّ مفهوم النسخ قد تطورت دلالتُه واختلفت بين العلماء قديمًا وحديثًا. إلا أنه وبحمد الله وفضله فإن الآية التي قام عليها هذا العلم الوهمي الهدام ما زالت في القرآن العظيم تشهد على جهل مَن يظن أنه عِلمٌ من العلوم، وليس جهلَ مَن ابتكره لأنه بالتأكيد دسيسة مقصودةٌ على المسلمين مِن دسائس الطريق إلى دمشق. يتوهم الكثيرون أن ما يسمى بعلم الناسخ والمنسوخ قد قام على قوله تعالى:

{مَا **نَنْسَخْ** مِنْ آيَةٍ أَوْ **نُنْسِهَا** نَأْتِ **بِخَيْرٍ** مِنْهَا أَوْ **مِثْلِهَا** أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107)} البقرة.

وفي الحقيقة فإنه ما قام عليها، لكن قام على فهمٍ شاطحٍ لا يستقيم لا لغةً ولا منطقًا مع محتوى الآية الثرية. وليس مستغرَبًا أن الكثير من مصادر اللغة العربية قد تأثرت بالمفهوم الخطأ للفظ "نسخ" خاصةً إذا ظن كاتبَ القاموس أن الفهم المغلوط في حقيقته وحيٌ مِن الله. فقدْ وَصَفَ معجم ابن فارس أن لفظ النسخ غيرُ واضح المعنى مما يدلل على أن سوء الفهم له قد أدَّى إلى إضفاء معانٍ إضافية له. وقد قال إن اللفظ صحيحٌ لكنه مختلف في قياسه. وهو إمّا يعني رفْعَ شيءٍ وإثباتَ شيءٍ مكانه، أو تحويل شيء إلي شيء، وضَرَب مثلاً بنسخ الكتاب، وهو مثالٌ لا يستقيم لأن نسخ الكتاب يعني الإتيانَ بصورةٍ شبيهة به أو طِبْق الأصل منه.

والقرآن كالسيف في مثل هذه المتاهات، أصْدَقُ إنباءً مِن القواميس والكتب؛ لأن في حده الحدَّ بين الصدق والكذب. لنتدبر كلَّ الآيات التي ورد فيها لفظ "النسخ" قبل أن نعود للآية الأم التي قام عليها وهْمُ الناسخ والمنسوخ:

{هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29)} الجاثية.

هنا نلاحظ أن الحديثَ عن كتاب الإنسان وسجِل أعمالِه في الدنيا. والعدالةُ الإلهية تقتضي أن كتابَ الإنسان الذي ينطق عليه بالحق لا بد وأن يكون صورةً طِبْق الأصل من أعماله في الدنيا وإلا كان هناك تزويرٌ لا يتفق مع العدالة الإلهية. ويَشهد الإنسانُ أن كتابَه طبق الأصل من أعماله يوم يتذكر الإنسان وأنَّى له الذكرى:

{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)} الأعراف.

إذًا فالكتابُ المستنْسَخ في الآخرة ليس إلا صورةً طِبْقَ الأصل مما فعل الإنسان في الدنيا. وهذا هو المعنى الشائع بلا تكلفٍ في استعمال لفظ " نسخ ينسخ نسخًا" إلى اليوم، إذ إن نسخةً من الكتاب تعني صورة طبق الأصل، وإنْ كان الاستعمال يحتمل أن تكون نسخةً منقَّحَةً أو مُعدَّلةً، بمعنى أن الناسخ يبيِّن مواضعَ التصويب والتعديل فيها لكن يظل الأصل أنها نسخةٌ من الأصل المعني عند الله فالكتاب طبق الأصل ولا تعديل فيه. وهذا المعنى يتوافق مع هذه الآية:

{وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)} الأعراف.

فالألواح كانت مستنسَخةً من كتابٍ علويٍّ عند الله، وهي تحمل صورةً مطابقة لِما استنسخ منه.

من هاتين الآيتين نفهم أن القرآن استعمل لفظ النسخ في مكانين آخرين مختلفين وفي كليهما كان يعني النقلَ الحرفيّ طبق الأصل، ولا يعني التعديلَ ولا الإلغاء، وهو المعنى الشائع للفظ "النسخ" في كل اللهجات العربية إلى اليوم.

أمّا لفظ "آية" فلا يعني المعنى الشائع وهو أنها النص القرآني بين رقمين في السورة، وإنما لفظ الآية له مدلولاتٌ كثيرةٌ جدًا يمكن استنباطُ بعضِها من هذه الآيات:

{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آَيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118)} البقرة.

فالآية التي يطلبها الذين لا يعلمون تعني الدليلَ والعلامة البينة وليست كلامًا. أمّا "الآيات" في {قَدْ بَيَّنَّا الْآَيَاتِ} فسنستنتجها لاحقًا، إذ إن السياقَ يوحي بأن الآياتِ قد تم تبيينها مسبقًا. وفي السياق التالي ومثله كثيرٍ في القرآن تأكيدٌ لهذا المعنى:

{وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آَيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آَيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13)} النمل.

والآيات كما يقول بعضهم هي: "الطوفان" و"الجراد" و "القمل" و"الضفادع" و"الدم"، مضافًا إليها العَصا التي تحولت إلى "حيةٍ تسعى"، ثم الحية "تلقف" عصا السحرة، ثم أخيرًا "شق اليم". ومهما يكن من أمر فالآيات المعنية هي عينياتٌ مِن هذه الشاكلة، وليست تِسْعَ جُمَلٍ كلاميةٍ كما نُسيء فهْمَ مدلولِ لفظ "الآية" في القرآن.

آيات الكون المَمْحُوّة:

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آَيَتَيْنِ **فَمَحَوْنَا آَيَةَ اللَّيْلِ** وَجَعَلْنَا آَيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (12)} الإسراء.

لا مَجالَ للخلافِ عن كون لفظ "آيتيْن" هنا يَعني علامتين أو دليلين مِن أدلة الكون الدالةِ على إبداع الخالقِ وليستا إشارةً لنصوصٍ في كتاب. وحتى أُسهِّل على القُرَّاء فهْمَ الآياتِ "المنسوخةِ" والآياتِ "المَنسية" مِن المُستحسَن مناقشةُ الآياتِ "المَمْحُوّة" "" مِن الكون.

نلاحِظ أن الآية أعلاه تَصِفُ آية الليل بأنها مَمْحُوّة ، رغمَ أننا نَرى الليلَ ونَعلمُ ماذا يَعني اللفظُ، وكأن الأمرَ لا يَحتاجُ إلى نقاشٍ لكِن ستُفَاجَأ بعد قليلٍ أن عقلَكَ غيرُ قادرٍ على تعريفِ الليلِ لأنه آيةٌ مَمْحُوّة

الليلُ هو فترةُ الظلامِ مِن اليوم. الظلامُ هو عدم وجودِ النور. ما يستطيعُ العقلُ التعاملَ معه وإدراكَه هو النورُ الذي يَصنعُ آية النهارِ المُبصِرة، لكنه لا يستطيعُ فَهْمَ كُنْهِ الظلامِ الذي يَصنعُ آية الليلِ المَمْحوّة. فالنورُ طاقةٌ لها موجاتٌ وذبذباتٌ وسرعةُ انطلاقٍ وانعكاس وانكسار، وله ألوانٌ مختلفةٌ وله فوائدُ ومَضَارٌّ. النورُ يمكن قياسُه مِن جوانبَ عديدةٍ، ويمكن صناعتُه مِن النار ومِن الكهرباء ومِن الموادِ الكيمائيةِ إلى ما لا نهاية في الحديث عن النور. لكِنَّ الظلامَ هو حالةُ عدمِ وجودِ نور. هل تلاحظ الآنَ أن العقلَ البَشري لا يستطيعُ وإنْ حَرِص أن يَعرفَ الظلامَ إلا بنفي النورِ عنه؟ الظلامُ لا تعريفٌ ولا قياسٌ ولا مصدرٌ. الظلامُ هو أصلُ الكون. إذا غابت الشمسُ ظَهَر الظلامُ مِن جديد؛ لأنه أصلاً لم يزل أثناءَ النهارِ وإنما طغَى عليه نورُ الشمس. إذا دخلتَ غرفةً مُظلِمةً فإنك تُضِيء المصباحَ فَيَحل النورُ، لكن لا يزول الظلامُ لأنك إنْ أطفأتَ المصباحَ ستجِدُ الظلامَ مكانِه. بالنهار، يكفيك فقط أن تَدخُلَ نفقًا تحتَ الأرض أو غرفةً مُعتِمة الجدرانِ لتَجِدَ الظلامَ الدامِسَ موجودًا أثناءَ النهار؛ لأنه أصلُ الكونِ ولا مصدرَ ولا تعريفَ له إلا بضدِّه وهو النور. وفي هذا السياق لا بد مِن تصحيح الخطأ اللغوي الشائع في الوصف

عندما نقول: "ظلامٌ حالِكٌ وظلامٌ خفيفٌ". فالتدرجُ هنا ليس في درجات الظلام، وإنما في درجة الإضاءةِ أو النور. الأسلمُ أن نقول إضاءةٌ ساطعةٌ أو إضاءةٌ خافتةٌ؛ لأن الظلامَ درجةٌ واحدةٌ إنْ لم يكن هناك أي "فوتون" نورٍ واحدٍ.

آيةُ البرودةِ: البرودةُ آيةٌ مِن آياتِ الكونِ المَمْحوّة أيضًا. البرودةُ ظاهرةٌ نعيشُها ونُحِسُّ بها، لكننا لا نعرفُ كُنهَها ولا يمكننا تعريفها إلا بضدِّها وهو الحرارة. الحرارةُ طاقةٌ كالضوءِ لها موجاتٌ ومصادرُ وأنواعُ حرارةٍ جافةٍ ورطبةٍ وكيميائيةٍ وغيرها. الحرارةُ تنتجُ مِن النارِ ومِن النورِ ومِن الكهرباء ومِن الكيماويات، ويتحكَّمُ الإنسانُ فيها زيادةً ونقصانًا. وهي ضروريةٌ للحياة. أمَّا البرودةُ فهي آيةٌ كونيةٌ مَمْحوّة لا يمكن تعريفها إلا بأنها حالةُ انخفاضِ الحرارة. حينما تزولُ الحرارةُ على مقياسِ الزئبق نقولُ إن درجة الحرارةِ صِفر. إذا انخفضت الحرارةُ تحتَ الصفر نقولُ إنها 10 درجاتٍ تحت الصفر أو مئة أو ألف. مَهْمَا كان البردُ مرعِبًا فإننا لا نستطيعُ قياسَه إلا بقياس السعرات أو الوحدات الحرارية التي يمكن أن تَنقلَ البيئة إلى الصفر. لكنك مِن المستحيلِ أن تَقيسَ البرودةَ نفسَها أو تَعرفهَا بمعزلٍ عن الحرارة؛ لأنها آيةٌ كونيةٌ مَمْحُوَّةٌ. وحتى لا يَحدُثُ التباس: فمُبَرِّدات المياهِ وأجهزةُ التكييفِ والثلاجات لا تَصنعُ البرودةَ وإنما تُخفِّضُ درجاتِ الحرارة فقط، فنستشعِرُ البرودةَ التي هي أصلاً موجودةٌ بصورةٍ أبديةٍ مُطلقةٍ لكِنْ تُبدِّدُها الحرارةُ حينما تَطغى عليها.

أيضًا فالصمتُ آيةٌ كونيةٌ مَمْحُوّة، عَكْسُهَا الصوتُ الذي يقاسُ ويوصَفُ ويُصنَعُ، لكِنْ في حال انعدام أي صوتٍ فإن الصمتَ الأبديَّ يكونُ بلا وصْفٍ ولا تعريفٍ ولا قياسٍ.

والموتُ أكبرُ آيةٍ كونيةٍ مَمْحُوّة تُرعِبُ الإنسانَ. الموتُ لا تعريفَ ولا علاماتِ ولا مقياسَ له. ما نقومُ به في الطب هو قياس وتعريف صفاتِ الحياةِ وليس الموت. فالحياةُ تبدأ بالميلادِ وتستمر إلى أرذلِ العُمُر وتُعرَفُ بالحركةِ والتنفسِ والتغذيةِ والتكاثر وغيرها مِن علامات المخلوق الحَيّ. إذا انعدمتْ صفاتُ الحياةِ عن المخلوق نَفترضُ أنه ميت، لكننا لا نستطيعُ تعريفَ الموتِ بصورةٍ مستقلةٍ، وإنما فقط نَنفي عنه صفاتِ الحياة. فرعونُ ميتٌ موتًا شبيهًا بمَن مات قبلَ قليل، إذ لا يوجَد مفهوم "موتٌ شديدٌ" أو "موتٌ خفيفٌ". أمَّا الحياةُ فيمكن تصنيفُها إلى درجاتٍ؛ فمِن طفلٍ شقيٍّ إلى شيخٍ مُسِنٍّ أو رياضيٍّ كالحصان وآخَر في غيبوبةٍ في غرفة الإنعاش، لكن كلهم تجد فيهم علاماتِ الحياة، فإنْ زالت قُلنَا إن الإنسانَ مات. الحياةُ درجاتٌ متعددةٌ، والموتُ درجةٌ واحدةٌ غامضةٌ هي لحظةُ زوالِ علامات الحياة.

فإذا حاولنا إيجادَ قاسمٍ مشترَكٍ بين الآيات الكونية المَمْحُوّة والآياتِ المُبصِرة أعلاه نجد أن "الظلامَ" و "البردَ" و"الصمتَ" كلها آياتٌ أزليةٌ أبديةٌ في وجودِها وسابقةٌ لأضدادها في الوجود. فالظلامُ كان وما زال هو أصل الكونِ ما عدا مساحةً ضيقةً حولَ الأرضِ وبعضِ الكواكب التي فيها ظاهرةُ نهار. والبردُ هو الأصلُ في الكونِ وكذلك الصمت. الحرارةُ والضوءُ والصوتُ كلها صفاتٌ حيويةٌ وجِدتْ في الأرض بعد أن اتخذت الأرضُ موقِعَها الحالي مِن الشمس. ما قبْلَ ذلك كانت الأرضُ في عالمٍ مُبْهَمٍ لا يمكن وصفُه؛ لأننا لكي نَصِفَ الظلامَ نحتاجُ أن نعرفَ النورَ أولاً، ولكي نَصِفَ البردَ نحتاج أن نعرفَ الحرارةَ، ولكي نَصِفَ الصمتَ نحتاجُ أن نعرفَ الصوت. إذن، لو حاولَ إنسانٌ اليومِ الرجوعَ بعقلِه وخيالِه ليَصِفَ حالَ الأرضِ قبل الآياتِ المُبصِرة فإنه لن يستطيعَ إلا وصفَها بحالة ".... و.... و...." إذْ لا يستطيعُ العقلُ أن يصفَها حينذاك؛ لأن الظلامَ ما كان يمكن تعريفُه قبل النور، والبردُ ما كان يمكن تعريفُه قبل الحرارة، والصمتُ ما كان يمكن تعريفُه قبل الصوت. وهكذا نجِدُ القرآن لم يخطئ حينما وَصَف تسلسلَ الأحداثِ في الكونِ مِن عالم "الآيات المَمْحُوّة" إلى عالم "الآيات المبصِرة" فكان الانتقالُ مِن عالم الموتِ إلى عالم الحياة وليس الخطأ الشائع أن الحياةَ تَسبقُ الموت:

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2)} الملك.

آياتُ الكون المَمْحُوّة عامة وعالم الموتِ خاصة، عالمٌ شديد الغموض، والحديثُ عنه لن يَنتهي. وإنْ شاء الله نُساهِمُ كما ذكرتُ في باب "ملكة النحل" في فكِّ شفرةِ الموتِ والحياة، ونُساهِمُ في كشْفِ إحياءِ المَوتى قبْلَ أن يصلَ إليه غيرُنا، والمدخلُ هو البحثُ في آياتِ الكون المَمْحُوّة. وقد اتَّخذتُ هذا المدخلَ وسيلةً لإثباتِ وجودِ الله بالعقل في كتابي الإنجليزي: "لا شيء: نظرة مِن خلال عيون المَوتى" في رَدِّي على كتابِ داعيةِ الإلحادِ العالمي

بروفيسور ريتشارد دوكينز في كتابه: "وهْم الإله". لكن ما يهمنا هنا هو أنه بجانب "آياتِ الكونِ المَمْحُوّة" فهناك "الآياتُ المَنسوخة" وهناك "الآياتُ المَنسية" وكلاهما تم مَسخُه بوهْـِم "عِلم الماسخ والممسوخ".

آيات الكون المنسوخة والمنسية:

لو عُدنا إلى آية سورة البقرة نجد أن الآيـة التي تتحدث عن النسخ جاءت في سياق الملكوت وسلطان الله على الكون، وليس في سياق تشريع وأحكام. وكما ذكرنا في نظرية "آذان الأنعام" أن نهاية الآية غالبًا ما تحمل مفتاحًا مُهمًّا يعين على فهمها. وهذه الآية تنتهي بـ: {... أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّـهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ...} وعليه فإن "آيـة" هنا تعني علامة ودلالة من العلامات والدلالات المادية الكونية التي تهدي لحتمية وجود الخالق وقدرته المطلقة. إذن، السياق ليس سياقَ تشريعٍ وإنما سياقُ استفزازِ العقولِ للبحث في سرّ "النسخ" و"الإنساء" للآيات الكونية.

لو تدبرنا في تاريخ الكون نعلم أن متغيراتٍ كثيرةً تحدث فيه كل يوم، وكل حدث فيه ليس إلا آية ودلالة على وجود الصانع القدير، مما هو أدنى من الذرة إلى ما هو أكبر من المجرّة. لكن لأن الناس لا ينتبهون إلا للقليل من آيات الله الكونية، إذ إن ثبات قوانين الطبيعية وتعاقُبَ الليلِ والنهار وغيرَها من الآيات تبدو للناس كأنها واقعٌ تلقائيٌّ في الكون لا إبداعَ فيه ولا يدل بالضرورة على وجود خالق مدبر، فإن الآياتِ التي يشير إليها القرآن عادةً تكون حدثًا خارقًا للمألوف، وهو ما يطلق عليه "معجزةً" في لغتنا، أيْ: حَدَثٌ يصدم العقلَ. في هذه الآية يخبرنا الله تعالى بأن الآياتِ الكونية في تغيُّرٍ مستمرّ، لكنها تتعرض لحالتين من التغيير وفقًا للمشيئة الإلهية:

أولاً: ربما تنسخ، أي تزول ثم تعود في ثوبٍ جديدٍ ونسخةٍ جديدةٍ.

ثانيًا: ربما تُنسى، أي تزول من منظومة الكون.

وفي أيٍّ من الحالتين يكون البديل:

أولاً: إمّا أن يأتي بمثلها وهو مدلول النسخ طبق الأصل.

ثانيًا: أو يأتي بخير منها: وهذا يعني التطور.

من هنا يمكننا أن نفهم أن الآياتِ الكونية إما في "ثباتٍ" أو "تطوّرٍ". الآيات الكونية الثابتة هي التي لم تتعرض لا لـ "النسخ" ولا" الإنساء" وأقرب أمثلةٍ لذلك هي آيتَيْ الشمس والقمر، والليل والنهار إذ لم يتغيرا منذ أن عُرف الكون. أمَّا في حالة نسخ الآية الكونية فإن الآية تزول ثم تأتي نسخةٌ جديدةٌ منها إمّا "مثلها" أو"خير منها" ومعايير المثلية والخيرية هنا تعتمد على كُنه وخواص الآية المعنية. بمعنى أن هناك آياتٍ كونية "ثابتة" وهناك آيات نسخت إلى نسخة "مزيدة ومنقحة" ــ كما نصف نسخ الكتب ـ أيْ تطورت من حالٍ إلى حالٍ خيرٍ مما كان. وهناك آيات زالت تمامًا وتم نسيانُها وظهرت آياتٌ خيرٌ منها أيضًا.

إلى هنا، فإن هذا التفسيرَ غيرُ المتكلّف يُسقِط فرضية ما يسمَّى بعلم الناسخ والمنسوخ تمامًا؛ لأنّ هذا العلم المزعومَ قام على فكرةٍ أسوأ مِن فكرة " ولا تقربوا الصلاة" إذ إنه أولاً قام على معنًى خاطئٍ للفظ "النسخ"، وهو ثانيًا قام على فرضية أنّ لفظ "آية" يعني: (مجموعَ كلماتِ الله القرآنية) ، وهذا فهْمٌ خطأٌ للفظِ "آية"، وهو ثالثًا

تناسَى تمامًا محتوى النص القرآني أنّ الآية إمّا أنْ "تُنسَخ" أو" تُنسَى"، فسُمِّيَ علمَ "الناسخ والمنسوخ" وليس علم "المنسوخ والمَنسي" إذ إن مبتَكِرَه استعبط الناسَ واختار له اسمًا يتوافق مع هواه لكنه لا يشمل كل محتوى الآية.

فتناسَى المنافقون كلَّ هذه التفاصيل ثم خرجوا علينا بقائمةٍ لا حصر لها من آيات قرآنية نَسخت أخرى، واختلف الناسخ والمنسوخ بين عالِمٍ وعالِمٍ، ومَذهبٍ ومذهبٍ فأصبح القرآن خاضعًا لأهواء الفقهاء يتحجَّجون بنَسخ ما لا يعجبهم فيه كلما استجد جديدٌ. .ولعلّ التدرُّج في حكم النهي عن الخمر من أشهر النصوص والأحكام التي يُحتَجُّ بها في مفهوم النسخ، لكن أناقِش هنا فقط حقيقة أن آياتِ الخمرِ لو نُسِخت بمعنى أزالها وألغاها -كما هو مفروض علينا أن نَقبَل معنى النسخ بلا فهْم-، فإنَّ المتوقَّعَ إمّا أن يأتي بمثلها: وهذا كلامٌ لا معنى له؛ لأن الإتيانَ بمثلها سيكون تكرارًا لا معنى للإلغاء فيه أصلاً. أو يأتي بخيرٍ منها: وهذا أيضا كلامٌ مناقِض للحكمة الإلهية إذ إن كلامَ اللهِ كله خير.

لكن إذا أخذنا لفظ "آية" بمعنى دليلٍ وعلامةٍ وبرهانٍ على وجود خالق الكون، وليس نصًا تشريعيًا، فإن المعنى يستقيم والآفاق تتفتح بلا حدود. وهنا يصبح مدلول "الخيرية" مرتبطًا بدور الآية الكونية وتأثيرها على المخلوقات، وليس أن كلام الله بعضه خيرٌ مِن بعض. وسأضرب مثالاً واحدًا في هذا السياق بآية الديناصور التي زالت حسب عِلمنا الحالي.

فقد كان الديناصور آية من آيات الله، لم يعلم بها القدماءُ لكن أصبح العلم بوجودها ثم زوالها فجأة قبل 65 مليون سنةٍ في العصر الجليدي الثاني مِن المسلَّمَات اليوم. وكان الديناصور "آية بينة" ما زالت بقاياها مدفونةً في الأرض. في تقديري فإن آية الديناصور "أُنسِيَت" من منظومة الكون، فأتى اللهُ بآيةٍ خيرٍ منها وهي آية الطير. فحسب علم التطور فالطيور تنتمي لفصيلة الديناصور، لكن حصل تطويرٌ في تركيبها وهيأتِها وتنوعها وتفاعلها مع الطبيعة على عكس الديناصور الذي كان مخلوقًا مدمرًا في الأرض يصعب التعايشُ معه. وللاختصار أنقُلُ هذا المقالَ من الموسوعة الحرة عن علاقة الطيور بالديناصور:

أصل الطيور من الوكيبيديا:

{هو موضوع أثار جدلاً واسعًا في البيولوجيا التطورية. تم اقتراح وجودِ علاقةٍ وثيقةٍ بين الطيور والديناصورات في القرن التاسع عشر بعد اكتشاف حفرية الأركيوبتركس، وهي حفرية أحدِ الطيور البدائية في ألمانيا. معظم الباحثين الآن يؤيد الرأيَ القائل إن الطيور هي مجموعة من الديناصورات ذواتِ الأقدام التي تطورت خلال الحِقبة الوسطى (وفيها عصر الزواحف الكبرى بين ما قبل 248 إلى 65 مليون سنة) وظهر فيها عصر الإنسان منذ 65 مليون سَنَة حتى الآن.

الطيور تشترك في كثير من الميزات أو السمات الفريدة مع الهيكل العظمي للديناصورات. وعلاوة على ذلك، تم الكشف في الحفريات أن هناك أكثر من عشرين نوعًا من الديناصورات التي تملك الريش. ويقدم عالِم تطور الطيور "ألان فيدوتشيا" جهة نظرٍ مخالفة لتطور الطيور من حيوان صغير متسلقة على الأشجار أي مِن الأعلى إلى أسفل وليس مِن ديناصورٍ إلى طيرٍ أي من أسفل إلى أعلى، ويَعتبر أن فرض وجهة نظر متعلقة بربط تطور الطيور من الديناصورات عبارة عن استسهال لإجابة سؤال معقد لم يُحَل بعدُ وهنالك عدة فرضيات حوله، وأنكَرَ

أن يكون الأركيوبتركس سلفَ الطيور وحلقة مفقودة بين الديناصورات والطيور، واعتبره مجرد طير ودَوَّنَ ذلك في كتابه (أصل وتطور الطيور) وفي عدد من الأبحاث في مجلات علم الطيور.}

لو حاولنا تطبيق النسخ بالمعنى الذي قام عليه ما يسمى علم الناسخ والمنسوخ أي سحب "آية" بمعنى جزء من كلام الله في القرآن والإتيان بقولٍ أحسن منه نجد الفكرة تتعارض مع كل السياق من نواحٍ عديدةٍ:

أولاً: لو افترضنا أن المقصود هو النصوص القرآنية فإننا نجد علم الناسخ والمنسوخ تَحدَّثَ عن الآيات الناسخة والآيات المنسوخة - حسب ظن الفقهاء - لكنه لم يتحدث أحدٌ عن آيةٍ منسيةٍ كما هو واضح في الآية. أين الآيات التي أنساها اللهُ في القرآن وماذا يعني ذلك؟

ثانيًا: فكرة نسخ النصوص - بمعنى تبديلها- تتعارض مع قول الله الذي لا يحتمل تأويلاً:

{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) } النحل.

لاحِظْ هنا أن النصّ يتحدث عن تبديل آيةٍ مكانَ آيةٍ كما شرحنا مفهوم الآية، وليس عن تبديل قولٍ أو كلماتٍ. أما بخصوص القول والكلام المنطوق في القرآن فقد قفل اللهُ هذا البابَ:

{مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29) } ق

{لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64) } يونس.

{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34)} الأنعام.

{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116)} الأنعام.

{وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27)} الكهف.

ثالثًا: الفكرة تتعارض مع العِلم الإلهي المطلق، إذ إنّ الله يعلم الغيبَ ولا يحتاج إلى تشريع يُستَبدلُ بتشريعٍ. كونَه جعل لكل أُمةٍ شِرْعَةً ومنهاجًا فهذا ليس نسخًا ولا تعديلاً، وإنما تنوُّعٌ في التشريع حسْب الأزمنة والأمكنة وكلٌّ منها كان شرعًا في زمانه ومكانه. وقد ناقشنا الفرقَ بين الخطاب "للنبي" الذي يخص زمانَه ومجتمعه والخطاب "للرسول" الذي يخص كل الناس في باب "خير القرون".

رابعًا: لم يُعرَف عن النبي-صلى الله عليه وسلم- أنه قال إنّ نصوصًا قرآنية نَسختْ نصوصًا أخرى، وإنما هذه أوهامٌ توهّمها الناسُ مِن سوء فهْمٍ للتدرج والتنوع في الأحكام التي اختصّ كلٌّ منها بزمنٍ أو ظرفٍ لكن لم يلغ بعضُها بعضًا.

خامسًا: لم يتفق الفقهاء على عدد الآيات الناسخة والمنسوخة، بل فُتِحَ الباب على مصراعيه ليدَّعيَ كلُّ فقيهٍ نَسخًا لأحكامٍ لا تعجبه تتعارض مع رأي فقيهٍ آخر، ولو جمعناها جميعًا لوجدنا أنّ كلّ القرآن قد نَسخ كلَّ القرآن (باعتبار أن لفظ النسخ يعني الإلغاء) .

ولأن الموضوعَ كبيرٌ وكُتِبتْ فيه كُتُبٌ، فلا أريد أن يَشغل مساحةً في هذا الكتاب، لكني سأنقل مثالاً واحدًا لِما يسمونه النسخَ في القرآن مِن صحيح مسلِمٍ:

باب التحريم بخمس رضعات، حديث رقم (1452):

حدثنا يحيى بن يحيى قال قرأتُ على مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة أنها قالت: { كان فيما أنزل من القرآن عشرة رَضْعاتٍ معلوماتٍ يُحرّمْن ثم نُسِخْنَ بخمسٍ معلوماتٍ فتوفي رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وهُن فيما يُقرأ من القرآن}.

حدثنا عبد الله بن مسلمة القعنبي: حدثنا سليمان بن بلال، عن يحيى - وهو ابن سعيد -عن عمرة أنها سمعت عائشة تقول: وهي تذكر الذي يحرم من الرضاعة، قالت عمرة: فقالت عائشة: { نزل في القرآن: عشرة رضعات معلومات، ثم نزل أيضا: خمس معلومات.}

اخترتُ هذه الرواية الموضوعة عن عائشة في صحيح مسلِمٍ لأنها خيرُ مثالٍ على أن:

أولاً: صحيح مسلِمٍ يخبرنا أن القرآن الذي بين أيدينا اليوم ليس هو القرآن الذي تركه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد مماتِه. وهذا بالطبع يفتح باب الشك هل القرآن الذي بين أيدينا هو نفسه الذي كانت تتحدث عنه عائشة أم أنّه نفسَه قد تغيَّر؟

ثانيًا: حيث إنه لا توجد أيُّ آيةٍ في القرآن اليوم تحدِّد عدد الرضعات المحرمة فهل هذا يعني أن نَسخًا آخر تبع النسخَ الأول؟ أم أنه ضاع نتيجة تحريف القرآن وفقًا لصحيح مسلِمٍ؟

لا بد من ملاحظة أن مواضع التشكيك في القرآن غالبًا ما تنتهج نهجًا يراد منه السوء، إذ إن الطعن في صحة القرآن في موضوع آيات الرضاعة المنسوخة زعمًا فَتَحَ الثغرةَ للزجِّ بخرافةِ رضاع الكبير الذي سأناقِشُه في باب "فقه الكلب".

إن علم الناسخ والمنسوخ لم يُبتَدعْ نتيجة فهْمٍ مغلوطٍ للآية التي تحدثتْ عن تطور الآيات الكونية أعلاه، وإنما صُنِع صناعةً ودُسَّ سُمًّا زعافًا في الفكر الإسلامي حتى إذا ما وجد مكانه المقدس بعد أن صادق عليه "علماء" زمانِه تم زعزعة سورة النور وحَشْر آيةِ الرجم التوراتية فيها، مستعينين على ذلك بأضحوكةِ رجْمِ القِرْدَةِ الزانية، والتي كانت أصلاً بيتَ القصيدِ كما سنرى بالتفصيل في باب "وقولهم على عائشة بهتانًا عظيمًا". أمَّا القرآن الذي بين أيدينا فهو القرآن الذي تلقاه النبي من لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ لا يُبدَّل القولُ لديه ولا مُبدِّلَ لكلماتِه:

{وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)} النمل.

إن حصانة القرآن من التحريف كانت سدًّا منيعًا أمام "مؤسسة ابن سبأ لصناعة الأديان" لذلك فقد تم التشكيك فيه من نواحٍ كثيرةٍ ومِن أهمها ترسيخُ جهل النبي بالكتابة والقراءة أو ما يُعرَف بأُمِّية النبي.

أمّيّة النبي وجمع القرآن:

النبي الأمّيّ

مِن المفاهيم النشاز التي توارثتها الأمّة بكل اطمئنانٍ فكرةُ أن النبيَّ-صلى الله عليه وسلم- كان لا يكتب ولا يقرأ حسْبَ تفسير متأخري السلف لمفهوم "النبي الأمّي". وقد تَرتَّب على هذه العقيدة أنّ كلّ ما ورثناه من رسالة النبي يعتمد على مصداقية أصحابه، ليس الذين كتبوا الحديثَ كما نُسِب إليهم وإنما حتى الذين كتبوا القرآن ورسموه كما هو بين أيدينا. وقد رأينا في باب "خير القرون" أن مفهوم "الصحابة" ليس إلا ابتكارا أدَّى لاختلاط الحابل بالنابل، وتَصدَّرَه الذين ظلت سيوفهم تقطر دمًا لفتكهم بالسابقين الأولين مِن المهاجرين والأنصار الذين رضي الله عنهم وأرضاهم، و ما أسلموا إلا بعدما لم يصبح هناك ملاذٌ غير الإسلام. ثم تبع ابتكارَ المصطلح إضفاءُ حصانةٍ عقيديةٍ وأخلاقيةٍ بأثرٍ رجعيٍّ لكلّ مَن انطبق عليه لفظ "صحابيٍّ" المُبتَدع، وهي مفهوم "عدالة الصحابة" وعليه فقدْ دخل المنافقون بكل سهولةٍ تحت مظلة الصحابة القدسية. إذا جمعنا المفهوميْن معًا فإن هذا يعني أن القرآن العظيم الذي بين أيدينا يعتمد في دقة كتابته ومصداقيته الحرفية للوحي على مصداقية كَتَبة الوحي المجهولين الذين لم يزكّهم اللهُ في القرآن ولم يورد عنهم ذِكرًا. وبذلك تتوقف مصداقيةُ كلِّ الإسلام، لتحلّ محلها الرسالةُ الأخيرةُ على مصداقية قومٍ ليسوا بأنبياءَ ولا رُسُلٍ، ولم يخبرنا الله عنهم حرفًا في القرآن وهُم ما يُعرَفون بـ "كَتَبة الوحي".

في هذه العجالة نناقش مصداقية فكرةِ أن النبي كان لا يكتب ولا يستطيع قراءة ما كَتَبه أصحابه. لنبدأ بطرح أسئلةٍ منطقيةٍ أولاً، ثم لنَنْظُرْ في القرآن والتراث. وأُنَبِّه القارئَ أنني مضطر لاستعمال لفظ "أُمِّيٍّ" لتعني الجهلَ بالقراءة والكتابة في البداية إلى أن نصل للمعلومة الجديدة عن لفظ "أُمِّيٍّ" في نهاية المقال.

لا شك أن محمدًا بن عبد الله بن عبد المطلب لبث في قومه أربعين عامًا لا يَكتب ولا يَقرأ، وهذه الحقيقة ليست مِن التراث وإنما مِن القرآن نفسه كما سوف نرى. لكن هل ظَل النبي لا يَكتب ولا يَقرأ إلى يوم وفاته؟ المشهور المتواتر مِن سيرة النبي أنه في بدْر قد أمَر بإطلاق سراح الأسرى مقابل أن يقوم كلُّ أسيرٍ بتعليم عشرةٍ مِن المسلمين الكتابة والقراءة، وهذا تصرفٌ حكيمٌ وكريمٌ مِن رسول كان أول ما أوحي إليه هو الأمر بالقراءة. لكن هل يَقبَل المنطقُ والعقل أن محمدًا بعد أن عَرَف أن الله قد اصطفاه لأعظم مسؤوليةٍ في تاريخ الإنسانية قد بقي على حاله لا يقرأ ولا يكتب بينما يَحُثُّ أتباعَه على العلم وتعلّم القراءة و الكتابة؟ أيأمر الناسَ بالبر وينسى نفسه؟ وهل يعقل أنه وهو يتوجه بطبيعة الرسالة ليصبح أعظمَ رجُلِ دولةٍ في تاريخ الإنسانية أن يظل جاهلاً بمضمون المعاهدات والمواثيق التي سوف يبرمها مع القبائل والرسائل التي يرسلها للملوك مِن حوله؟ بل: كيف كان له أن يقف أمام الناس ويقول: "اللهم ألا هل بلّغت" بينما الكتاب الذي أوحي إليه قد كَتَبه غيرُه وهو لا يمتلك العلمَ والمقدرة أن يطمئن على صحة ما كُتِبَ؟ أليس هذا الادّعاء غريبًا؟ ثم ما هي الحكمة أن يحول اللهُ بينه وبين القراءة والكتابة وهو يوحي إليه كتابًا يدعو للعلم والتعلم والبحث في أسرار الكون وينطق عن التعلم بالقلم حرفيًا

مراتٍ ومراتٍ بينما حامل الرسالة نفسه لا يهتم بهذا الأمر؟ هل نهاه الله عن تعلم الكتابة أم أنه تَكاسَلَ؟ أم أنها مؤامرة تم دسُّها في التراث ثم بثُّها عبْر القرون حتى أصبحت مِن "الرسومات المسيئة للنبي" التي نرسمها نحن في أذهان العالمين؟

لا يختلف المسلمون على أن أولَ ما نزل على النبي كانت سورة العلق:

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)} العلق.

لو افترضنا أن النبي قد عَلِم منذ أول لحظة أن رسالتَه تقوم على العلم والقراءة والكتابة والتعليم بالقلم وهو محتوى آياتِ سورة العلق، فهناك احتمالان لتفاعل النبي مع هذه الآيات:

الأول: أن يبدأ بنفسه ويتعلم الكتابة والقراءة استعدادًا لتحمل المسؤولية.

الثاني: أن يكون قد تَجاوَز هذه المرحلة من الكلمة الأولى "اقْرَأْ".

إذا تدبرنا صيغة الآيات نجد أن هذا الأمر له أحد مدلولين:

الأول: هو أن الله يأمر مَن لا يكتبُ ولا يقرأُ أن يقرأ، وهذا أمرٌ غريبٌ.

الثاني: هو أن النص هنا ليس أمرًا للنبي وإنما "قولٌ كَوْنيٌّ" كفعل كُن، فكان"، كقوله: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) } الأنبياء.

هل أخبرنا الله أن النار كانت؟ لم يخبرنا لأن أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون!

مِن هنا يمكننا أن نفترض أن الأمر لم يكن لمحمدٍ الذي لا يكتب ولا يقرأ أن يفعل المستحيل، وإنما كان قدرًا مِن الله أن يتحول النبي-صلى الله عليه وسلم- إلى قارئٍ يقرأ ويكتب كأول معجزة مِن الله له هو نفسه: كُنْ قارئًا، فكان!

وهكذا كانت أول معجزة هي تَحَوُّلُ "الأُمِّيِّ" بفعل "كُن" إلى عالِمٍ من أول كلمة نطق بها جبريل. هذا التفسير يدعمه سرٌّ آخر في الآيات قلَّمَا ينتبه له الناس. فآياتُ سورةِ العلق قد تم تحريفُها من الخارج بعد أن ترسخ في أذهاننا أن النبي ولِد أُمِّيًّا وعاش أُمِّيًّا ومات أُمِّيًّا، فأصبحنا أُمِّيِّين لا نفهم ما نقرأ. لو تدبرنا الآياتِ نلاحظ أن الأمر "اقرأ" قد ورد مرتين:

الأول: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)}: وهذا "قولٌ كونيٌّ" جعل النبي قارئًا كاتبًا.

وهنا لا بد من التمييز بين "الأمر" الذي يمكن أن نطيعه أو نعصيه، وبين "القول" الكونيّ الذي يخضع له كل الكون رغم أنفه.

الثاني: { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3)}: وهذا قَسَمٌ إلهيٌّ أنه أصبح قارئًا، أي أن الله يُقسِم بربِّه الأكرم أن يصبح قارئًا، وما أقسَمَ اللهُ عليه فقدْ وقَع بلا شك. ونلاحظ اختيارَ صفة الأكرم للقَسَم لأن الله أكرمه بمعجزةٍ مفاجئةٍ غيَّرَته هو

نفسه. بمعنى آخرَ فإن هذه الآية كقوله: { فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)} الحجر، وقوله {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53)} يونس.

ففي "اقرأ" الأولى قولٌ كونيٌّ ليصبح قارئًا، فكان. وفي "اقرأ" الثانية قَسَمٌ إلهيٌّ أنّ الحدث قد وقع تكريمًا من الله له! ثم مضت الآيات تتحدث عن وسيلة التعليم "القلم" حتى لا نشك أن المقصود بـ"اقرأ" هو قراءة المكتوب فقط، وإنما أصبح يكتب ويقرأ، ثم لم تتحدث عن قراءة العلوم الشرعية وإنما أتت الآياتُ بالعلوم الكونية بدليل "الخلق" و "العلق"، ثم أضافت أن الإنسان يتعلم مِن ربِّه ما لم يعلم مِن قبل، فكيف لا يكون لمحمدٍ نصيبُ الأسد مِن هذا التعليم؟

هذا التفسير الذي يؤكد أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أصبح قارئًا كاتبًا مِن أول لحظة، ينسجم تماما مع حقيقةٍ صريحةٍ في القرآن:

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16)} يونس.

نلاحظ هنا أن الكُفَّارَ طلبوا منه أن يأتيَ بقرآن غير هذا أو يبدله. فهل كان الحديث عن قرآنٍ مكتوبٍ أم منطوقٍ فقط؟ إجابة النبي تدل على أن المقصود هو تبديل الكتابة لأنه قال: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} هذا يعني أنّ هناك وحيًا وهو يتبعه فينتج عنه القرآن المكتوب الذي يرفضون. هذا يعني أنه كان يَكتب ما يُوحَى إليه حرفيًا كيفما يؤمر، ثم هو بعدَها يتلوه عليهم: {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}. مِن هذا الحوار نفهم أن النبي كان يوحَى إليه فيتَّبع ما يوحَى إليه بالكتابة الحرفية، ثم يتلوه عليهم من مصحفه، إذ إن التلاوة تتبع الكتابة. ثم يمضي مستفزًا عقولَهم أنه لبث فيهم عمرًا لا يكتب ولا يقرأ فيها، فهل هذه الحجة ذات قيمة إنْ كان مدلولها فقط أنه يردد ما يسمع؟ إن المنطق يقول إنها لا تكون حجةً إلا إذا كان ما يتحدث عنه ليس معجزة الكلام الشفويّ، وإنما معجزة الكتابة والقراءة التي حدثت فجأة وهُم على ذلك شهود لكنهم لا يعقلون!

الآيات التالية أكثر وضوحًا في موضوع الكتابة بيده اليمين:

{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (47) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51)} العنكبوت.

الآية 47 تخبرنا أن في تلاوة النبي للقرآن "آية" يعلمها علماء بني إسرائيل، وهذه الآية بالطبع آيةٌ عَيْنِيَّةٌ ولا يعقل أن تكون فقط الكلام. أمَّا الآية 48 فتؤكد أن النبي قبْلَها ما كان يتلو مِن كتاب، وما كان يخطه بيمينه، ثم تمضي فتفصح عن أنه لو كان يخط كتابًا مِن قبْلِه بيمينه لارتاب المبطِلون. هذا يعني أن جزءًا من "الآية العينية" أنه

أصبح أمامهم كاتبًا قارئًا ويكتب بيمينه وليس بيساره. وورود لفظ "اليمين" هنا ليس تفضيلاً لليد اليمنى على اليسرى وإنما ليصِف لنا أن النبي كَتَب بيده اليمين وهناك من لا يكتب إلا بيده اليسار. وتمضي الآية 50 لتعلن لهم أن هذه الآية تكفيهم -وهي آية إنزال الكتاب - ثم تلاوته له. وبَيْنَ الإنزال والتلاوة بالطبع كانت الكتابة. إن آية {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} لا يمكن أن تعني أنه ما زال لا يكتب ولا يخط الكتاب بيمينه؛ لأنه في هذه الحالة فقط كان المبطِلون سيرتابون في أنه يتوهم ما يردد مشافهة ، لكن الإعجاز والحجة في كونه أصبح يكتب ويقرأ أمامهم مع علمهم التام أنه ما كان يكتب ولا يخط كتابًا مِن قبل.

إن شبهة عدم مقدرة النبي على القراءة والكتابة نتجت من مجموعةِ عواملَ، أولها بالطبع "مؤسسة عبد الله بن سبأ" لصناعة الأساطير لإضعاف قيمة الكتاب الذي أتى به، لكن بُنِيت الأسطورةُ على فهْمٍ خاطئٍ لعددٍ من الاصطلاحات والنصوص القرآنية التي نُفنِّدها هنا بهدوء. و حتى نُلِمَّ بعمق مدلول "الكتاب" و"القراءة" و"التلاوة" من المهم أن نتدبر الآياتِ الشبيهة في هذا السياق:

أولاً: لفظ "قرأ" "يقرأ" "قراءة" يردُ في القرآن مرتبطًا بالكتاب:

{فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ <u>يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ</u> مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94)} يونس.

{<u>اقْرَأْ كِتَابَكَ</u> كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)} الإسراء.

{يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ <u>فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ</u> وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ <u>عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا</u> غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (74)} الإسراء.

من كل الآيات أعلاه نجد أن لفظ "اقرأ" ما ورد أبدًا ليعني ردِّد مشافهةً ما تسمع، وإنما يأتي مقرونًا بكتابٍ مكتوبٍ يقرؤه الإنسان بنفسه. لكن لو تدبرنا آياتِ سورة الإسراء الأخيرة نجد أنها قدَّمتْ أولاً لقراءة الناس كتابَهم يوم القيامة حتى لا يظنوا أنهم قد ظُلموا. ثم مضت الآيات تعقد مقارنة بين الأعمى في الدنيا والأعمى في الآخرة. وهذه بالضرورة تعني أن المبصرَ في الدنيا مبصرٌ في الآخرة. والقصد هنا ليس عَمَى العيون وإنما عَمَى القلوب. ثم تأتي الآية بمحاولة الكفار فتنة النبي أن يفتري على الله قرآنًا غير الذي أوحِي إليه، فهل الحديث هنا عن قرآنٍ منطوقٍ أم كتابٍ كَتَبه بيمينه وأطلَعَهم عليه فلم يقرأوه لأنهم عميان في هذه الدنيا وسَيُبَعثون عميانًا في الآخرة لكنهم سيقرأون كتابهم حينئذٍ حتى يعلموا أن الله لم يظلمهم؟

أمَّا لفظ "تلاوة" فلم يرد أبدًا ليعني تسميع من الذاكرة وإنما قراءة كتاب:

{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ <u>تَتْلُونَ الْكِتَابَ</u> أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)} البقرة.

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ <u>يَتْلُونَ الْكِتَابَ</u> كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)} البقرة.

مما سبق نتيقن أن المدلول القرآني "للقراءة" و"التلاوة" يتطلب أن يكون القارئ ومَن يتلو ليس جاهلاً بالكتابة، وإنما يقرأ ويتلو مِن كتاب. فكيف إذن، يكون أول أمرٍ مِن الله للنبي أن يقرأ مِن ذاكرته ما لا يعلمه؟ ولعل في آيات سورة البينة ـ التي تُحدِّثُ عن نفسها من طبيعة الاسم الذي يدل على الحقيقة البينة والحجة الدامغة والآية القاصمة لأهل الكتاب- ما يكفي للتأكيد أن أولى معجزات النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت أن صَدَر إليه قولٌ كونيٌّ "كن فكان" أن يقرأ مِن صحفٍ مطهرة فكان قارئًا كاتبًا بأمر الله:

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ **حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ** (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا **جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ** (4)} البينة.

إذن، البينةُ التي أقامت الحجة على أهل الكتاب وفكّت أسْرَهم مِن معتقداتهم القديمة هي ظهور الرسول الذي ما كان يكتب ولا يقرأ فتحوَّل بقول الله "كُن" فكان قارئًا يتلو صحفًا مطهرةً فيها كُتُبٌ قيِّمَةٌ و لا يسترجع مِن ذاكرته ما سمعه مشافهة من جبريلَ كما سعى التراثُ المزوّر للترسيخ في أذهان الناس. إذ كيف يتلو الصحفَ وهو جاهل بالكتابة والقراءة؟ إن تكرار الصحف المطهرة التي كان يقرأ وينسخ منها النبي لا يدَعُ لنا مجالاً للشك أنه أصبح قارئًا، وقد نَسَخ القرآن نسخًا من تلك الصحف المطهرة التي كان يريه إياها جبريل:

{كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16) قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)} عبس.

وهذا التأويل يستقيم بالسهل الممتنع مع ما مَنَّ الله به عليه:

{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113)} النساء.

كيف لنا أن نتصور أن العليم الخبير علّمَه ما لم يكن يعلم وتَفضَّل عليه جل وعلا فضلاً عظيمًا ولا يشمل ذلك الفضلُ أولَ خطوةٍ في التعليم بالقلم وهو الكتابة؟

إن أسطورة جهلِ النبي بالكتابة والقراءة أضاعت مدلولَ "البيان" في القرآن، وتبعًا لذلك فقد فتح الباب للاحتجاج بالأقوال والأفعال المنسوبة للنبي أنها هي تفسر وتبين طلاسم القرآن على لسان النبي، وهذا بالطبع ناتجٌ عن سوء فهم "البيان" في القرآن.

مدلول "البيان" في القرآن:

يلعب الوهم أن النبي كان أُمِّيًّا لا يكتب ولا يقرأ مقرونًا مع سوء فهْم تبيانه للقرآن دورًا هدامًا في ترسيخ أن "السُّنّة" جاءت لتبيِّن ما خَفي في القرآن. لِنَحُل هذه المعضلة المختَلَقة نحتاج فقط لتدبر مدلول البيان في القرآن:

{الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)} الرحمن.

قلت سابقًا إن اسم " الرَّحْمَن" لا علاقة له بالرحمة والرأفة وإنما هو تصريفٌ قرآنيٌّ يدل على الصلة المباشرة بين "المُوجِد" و"الموجودات". بدأتْ هذه السورةُ بإقرار حقيقةٍ كونيةٍ لا واسطة فيها بين "المُوجِد" و"الموجودات"

لذلك اختار مِن أسمائه الحُسنى لها اسمَ " الرَّحْمَن" التي كَتَبها النبي كما علَّمه ربُّه بدون ألفٍ وسطى. هذه الحقيقة هي أن الرحمنَ هو الذي علَّم القرآن وهو الذي خلق الإنسان وهو الذي علَّمَه البيان. تعليم البيان هنا هِبَةٌ مباشرةٌ من الرحمن للإنسان في كل زمانٍ ومكانٍ ولا دَخْلَ للرسل فيها. والبيان هو الوضوح. وقد شرحنا في باب " أفلا تعقلون" أن العقل نفخةٌ مِن روح الله لكل الناس تصلهم صلة مباشرة مع "عالم الأمر" خارج حدود الكون المادي المعلوم، وبه يتلقى الإنسان العلومَ من ربِّه بالتدبر في الكون واكتشاف أسراره واستبانة ما كان غامضًا فيه. نلاحظ مِن ما تبع البيانَ في هذه السورة كله كونياتٍ وغيبياتٍ تحتاج لإعمال العقل للبحث فيها واستيعابها وتسخيرها.

والمُتَتَبِّع لآيات البيان في القرآن لا يشك لحظة أن الله قد تكفل ببيان القرآن بنفسه:

{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)} البقرة.

البيان هنا في القرآن وحدَه، واللهُ هو الذي يبيِّن للناس ولا يحتاج لقرآن موازٍ يزيده بيانًا. وهكذا في بقية الآيات:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) البقرة.

{وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221)} البقرة.

{وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (241) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (242)} البقرة.

{أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266)} البقرة.

{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)} آل عمران.

{يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26)} النساء.

{يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (176) النساء.

في كل الآيات السابقة التي تتضمن تشريعاتٍ اجتماعية وأخلاقية نلاحظ أن صريح اللفظ هو أن الله هو الذي يبيِّن للناس آياتِه، وما الرسول إلا ناقلٌ لذلك البيان. ونلاحظ أيضًا أن آياتِ البيان تأتي متبوعة بمكونات العقل التي ناقشناها في باب "أفلا تعقلون" "يَتَّقُونَ" "تَتَفَكَّرُونَ" "يَتَذَكَّرُونَ" "تَعْقِلُونَ" "تَهْتَدُونَ" مما يدلل على أن التقوى والهداية أمرٌ فطريٌّ مرتبطٌ بالعقل، وأن البيان الشافي مِن الله. وبما أن البيان وصلنا عن طريق الرسل فدوْرُ الرسولِ هنا ليس الشرحَ وإنما توصيلُ البيان كما هو:

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15)} المائدة.

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (19)} المائدة.

{بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)} النحل.

هنا أتوقف "للتفكر" في دور الرسول في البيان:

نلاحظ أن الآيات الأولى لم يرد فيها ذِكرٌ لدور الرسول في البيان كما هو الحال مع هاتين الآيتين اللتين خاطبتا أهلَ الكتاب. لمَّا كان القرآن قد أنزل ونزل على قلب النبي -صلى الله عليه وسلم- وحدَه، ولمَّا كان القرآن اسمه كتابٌ، وليس شريط تسجيل، فإن دور الرسول في تبيين القرآن هو الكتابة والنسخ الحرفيّ له من الصحف المطهرة التي كان يُطلِعه عليها جبريل. فكَتَبَ النبيُّ القرآن كما أُمِر أن يكتبه بعد أن علَّمَه اللهُ البيانَ والقراءة والكتابة. وسنرى لاحقًا كيف أن القرآن له كتابة خاصة ما كانت العرب تعرفها، وما زال الكثير منها غامضًا على مَن لا يتدبر الحروفَ والرسم. إذن، بيانُ الرسولِ ليس بما عُرف لاحقًا بـ "الحديث" وإنما الكتابة الدقيقة للرسم القرآني، إذ إن الله قد تكفل بالبيان بنفسه، كما رأينا سابقًا، لكن دور الرسول كان نَقْلَ ذلك البيانَ بحذافيره المكتوبة في الصحف المطهرة للناس كافةً. ويمضي الله يؤكد أن البيان منه ولا دَخْل لأحد غير الله في بيان آياته وتفصيلها:

{مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75)} المائدة.

{وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106)} الأنعام.

{وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18)} النور.

{تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)} فصلت

{وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37)} يونس.

{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)} يوسف.

{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114)} الأنعام.

و حينما يدخل اسم الرسول مرتبطًا بالبيان فإن دور الرسول هو النقل الحرفيّ وليس أن يكون هو نفسه مصدرَ تشريعٍ أو تفسير:

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)} إبراهيم.

إن دور الرسول بالطبع، هو تبليغ رسالة ربِّه للقوم الذين بُعِث لهم. وفي رسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- فإنه بُعِث للناس كافة، وكان عليه واجبُ "تبليغ" الرسالة وليس "إبلاغَها" للناس كافة. وقد قُلنا سابقًا إن التبليغ يعني اتّباعَ الوسيلة التي تجعل الرسالة متاحة للجميع الوصول إليها، لكن لا يُشتَرط فيه أن تصل الرسالة لكل فردٍ وهو مدلول الـ "إبلاغ". فكيف ضمن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن تصلنا الرسالة؟

إنَّ مِن ضرورات "البلاغ" أن يَترك الرسولُ -صلى الله عليه وسلم- نسخةً من القرآن بخط يدِه اليمنى كما أمره ربُّه كي يبين الآياتِ فيه، حتى تتوارثه الأجيال القادمة ويكون متاحًا لمن بحث. لو ترك الرسولُ كتابة القرآن لغيره فما بلَّغَ رسالة ربِّه:

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ **مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ** مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا **بَلَّغْتَ** رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67)} المائدة.

إلى هنا لا أشك أن القارئ قد حارَ مع بيان هذه الآيات ووصفِ النبي بالأُمِّي.

ماذا تعني الأُمِّية؟

الأُمِّيِّين:

لا شك لديَّ أن فكرةَ جهْل النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقراءة والكتابة ليست إلا افتراءً تم تمريره على الأمة حتى يضرب عددًا من العصافير بحَجَر واحد. فأُمِّية النبي أولاً تُضعِف مِن هيبته في نظر الناس، خاصةً إذا نشأ الإنسان في مجتمع لا يحمل قدرًا من الاحترام لمحمدٍ ناهيك عن التقديس. الأُمية ترتبط بالجهل وغالبًا ما تغلب احتمال الوهم فيما أتى به من احتمال العبقرية. وهناك مقولةٌ شائعةٌ في الأوساط الفكرية الغربية هي أن محمدًا كان أبعدَ ما يكون عن العبقرية، وكغيره من الأُميين السذج استغله ورقةُ بن نوفل وأوهمَه بالقرآن الذي ليس إلا نسخةٌ معدَّلة من التوراة. والأمية ثانيًا تشكك في مصداقية القرآن لأننا نحتاج إلى نظرياتٍ بهلوانيةٍ لإقناع الناس أن هذا القرآن بكل إعجازه الحرفيّ والرقميّ والعلميّ والحفظ من التحريف والأخطاء ليس إلا كتابة أصحابه الذين لم يوحَ إليهم وما كان بمقدور النبي المراجعة و التحقق مما كتبوا. ثم هي ثالثًا تضيف لقائمة الرسومات المسيئة

للنبي في أذهان العالمين، وتفتح الباب واسعًا لأمتِه أن يتبركوا بالأمية ويمجدوا الجهلَ إنْ كان قدوتُهم أُمِّيًا. إذ لا عيب في أن ينشأ محمدٌ في زمانه أُمِّيًا، لكن لماذا لم يتعلم القراءةَ والكتابة طوال سنين دعوته؟

وفي هذا السياق نحتاج أن نتدبر مدلولَ "الأمية" في القرآن قبل إصدار الأحكام على اللفظ. ولعله مِن الافضل أن نبدأ بهذه الآيات لأنها هي التي حملت المعنى المتداوَل. وأفيدُ القارئَ أن هذه ربما تكون آخرَ مرةٍ تقرأ فيها الآية بالصورة الظلامية التي فرضت عليها:

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ **<u>الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ</u>** الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ <u>وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ</u> أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ **<u>وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ</u>** <u>الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ</u> وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)} الأعراف.

لا خلاف على أن المقصود بالنبي الأمي هو محمد بن عبد الله -عليه أفضل الصلاة والتسليم-. لكن لا بد من ملاحظة أن آية الأعراف وصفته بالرسول النبي الأمي مرتين في الآية نفسها، بينما آية سورة الجمعة أدناه وصفتْ قومَه بالأميين ولم تَصِف محمدًا نفسَه بالأمية:

{هُوَ الَّذِي <u>بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ</u> وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ <u>فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ</u> وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)} الجمعة.

لكن المفهوم عمومًا من التراث أن الأميين هُمُ العرب وأن "مِنهم" تعني أنه أُمِّي منهم. فماذا تعني الأمية؟

لا بد من تذوق القرآن وملاحظةِ أن هذا الآياتِ تُسَوِّق النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- في أعظم صورةٍ وأكثرها رقيًا ورونقًا وبهاءً، إذ إنها تتحدث عن خلاصة النبوءات التي وصف بها في التوراة والإنجيل، وتمدح أهلَ الكتاب الذين يقرّون أنه النبي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل. فكيف يكون التسويق بإبراز جهلِه بالكتابة والقراءة بينما أول آية في كتابه كانت "اقرأ" ؟؟ قبْلَ أن نتدبر الآياتِ بالعقل لا بد من الرجوع للأصل اللغوي:

لفظ "أُمِّي" إمَّا أنّه مشتَق مِن "أَمَّ" أو مِن "أَمَم" أُدْغِمتْ فيها الميمات.

ولفظ "أَمَّ" في معجم مقاييس اللغة من أكثر الألفاظ تشعبًا، وكَتَب فيه الرازي سِتَّ صفحاتٍ يتتبع اشتقاقاتِه، لكن ليس بينها على الإطلاق "مَن لا يقرأ ولا يكتب" كما هو شائع. وباختصار فقد ذَكَر الرازي أن اللفظ أصلٌ واحد يتفرع منه أربعة أبواب هي: " الأصل"، و "المرجع"، و " الجماعة" و "الدين"، وهذه الأربعة متقاربة، وبعد ذلك أصول ثلاثة هي "القامة"، و "الحين"، و "القصد".

الأمِّي مِن "الأم" تفيد الأصالة والانتماء إلى أصلٍ كريمٍ في اشتقاقٍ ، وتفيد الذي تعلَّمَ من الحياة أفضلَ ما يتعلمه الطفل من أمِّه في اشتقاقٍ آخر، وتُستَعمل للمدح وليس الذم حيث يوصَف سيّء الخلق بأنه لا أُمَّ له. ولم يرد في المعجم أنها تعني عديم الخبرة بالقراءة والكتابة كما نتصور. أمَّا اشتقاق أُمِّي من "أمَم" فتعني مَن ينتمي لأُمَّة لم يُنَزَّلْ عليها كتابٌ من قبْل ولكن لا يُشتَرط أنها أمة لا تكتب أو تقرأ.

الآنَ نحاول أن نقارن بين تلك المدلولات وبين ورود اللفظ في القرآن.

لو رجعنا لآية سورة الجمعة أعلاه نجد أن فكرةَ الجهلِ بالكتابة والقراءة فكرةٌ نشازٌ مع سياق الآية لأنه: {... بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ..} لأن مَن "يُعلّم الكتاب" و"يتلو الآيات" لا بد أن يكون قد تم تعليمه مسبقًا، علمًا بأن الكتاب كان كتابًا مستنسَخًا من "أم الكتاب" إلى القرآن العظيم في مراحل إنزاله وتنزيله، ولم يرد أنه كان كلامًا. وقد رأينا أن لفظ كتاب في القرآن يردُ بمدلوله الذي نعلمه اليوم وهو كتاب يُكتَب بالقلم ويُمسَك في اليد. بل رأينا أن النبي يتلو صحفا مطهرة فيما سبق. فكيف بنا نقبَل أن معلّم الأميين لا يكتب ولا يقرأ وأن لفظ الأميين هنا يعني الذين لا يقرأون ولا يكتبون؟

ثم مَن الذي زعم أصلاً أن العرب كانوا أُميين بمعنى أنهم لا يكتبون ولا يقرأون؟ إن نسبة الأمية بمعنى الجهل بالكتابة بين العرب اليوم تتجاوز الـ 40 في المئة، وربما كانت النسبة نفسَها في زمن التنزيل..لكن هذا لا يبرر وصفَ العربِ بأنهم أميون بمعنى لا يكتبون، إذ إنها ليست صفة تنطبق على الجميع لا في مجتمع النبي ولا اليوم.

من هنا فإن الاحتمال الأقرب لمدلول اللفظ هو اشتقاقه من "الأم" بمعني الأصالة أو من "الأمم". من المعنى الأول نجد إشاراتٍ في القرآن استعملت اللفظ بهذا المعنى:

{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)} آل عمران

"أم الكتاب" هنا تعني أصله وجوهرَه الكريم. ولقد رأينا أن إنزال القرآن في مراحله المتعددة قد بدأ من أم الكتاب:

{ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)} الزخرف.

{ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39)} الرعد.

إذن، "أمّ الشيء" تعني أفضل وأرقى حالة منه لذلك سَمَّى اللهُ مكة أُمَّ القرى:

{وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92)} الأنعام.

المعلوم أن الرسالة لكل العالم، لكن الله جعل مكة مركزَ العالم هنا وكأنه نشأ منها وحولها وهي الأصل فيه. ولقد ذهبنا في نظرية "آذان الأنعام" إلى أن الحياة مطلقًا نشأت عند مكة، وأن الإنسان مُنِح العقلَ في مِنَى، وأن الحج يمثل مسيرة الإنسان الأول من جنة عرفات إلى بيته المحرم في مكة. مِن هنا فإن لفظ "أم القرى" لفظُ تشريفٍ لمكة ولا علاقة له بالكتابة والقراءة وإنما الأصالة.

وقد ذكر الرازي أمثلة كثيرةً جدًا لاستعمال لفظ "أم كذا" للتشريف، على أنه لم يرد في القرآن تصريفٌ للفظ الأب وشيء آخر مقارنًا بـ "أم القرى" وأم الكتاب" إلا في أبي لهب:

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1)} المسد.

أمّا مِن الاشتقاق الذي يعني "الدين" فقد وردت آياتٌ نذكر منها:

{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)} البقرة.

فهؤلاء الأميون متدينون بجهلٍ إذ إنهم يكتبون الكتابَ بأيديهم وفيه أمانيهم ويقولون هذا مِن عند الله. لاحِظْ الجمْعَ بين كونهم أميين وبين يكتبون الكتاب بأيديهم. أميون هنا تعني عقائديين أو أصحابَ تحجرٍ دينيٍّ.

{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20)} آل عمران.

هنا نلاحظ أن اللهَ فرَّقَ بين الذين أوتوا الكتاب وهُمُ اليهود والنصارى، وبين الأميين وهُم بقية الأديان، لكن لا علاقة للجهل بالكتابة باللفظ هنا.

{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)} آل عمران.

من منظور اليهود فإن كل مَن هم ليسوا على دينهم فهُم على دينٍ واحدٍ باطلٍ لذلك يسمونهم "الأميين" كما في الآية أعلاه. وهذا القول ورد في توراة اليوم كما يلي:

{لا تتقاضوا فوائدَ عمَّا تقرضونه لإخوتكم من بني إسرائيل، سواء كانت القروض من فضة أو أطعمة أو أي شيء آخر. أما الأجنبي فأقرضوه بربا. إنما إياكم إقراض أخيكم بفائدة، ليباركك الرب إلهكم في كل ما تنتجه أيديكم في الأرض التي أنتم ماضون لامتلاكها} سِفر التثنية- 23: 19-20 .

من هنا نلاحظ أن بني إسرائيل ينظرون لأنفسهم على أنهم " أمّة" بمعنى لهم دينهم الذي يخصهم، وأن الأجنبي هو كل مَن ليس مِن بيت إسرائيل مِن بقية الأديان أو الأُمَم " الأميين".

ومن اشتقاقات "أمّ" ورد لفظ "أمّة" الذي يفيد إمَّا قومًا لهم أصلٌ واحدٌ، أو قومًا لهم دينٌ واحدٌ:

{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113)} آل عمران.

والأُمَّة بمعنى "دين" لا علاقة لها بالحق أو الباطل وإنما فقط الانتماء الجماعي:

{بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22)} الزخرف

{وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24)} الزخرف.

بل إن القرآن استعمل اللفظ ليصف به إبراهيمَ وحدَه:

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120)} النحل.

مما سبق يمكننا أن نخلُص للآتي:

أولاً: لفظ "أُمِّيٍّ" بمعنى جاهلٍ بالكتابة والقراءة" مفهومٌ مغلوطٌ تمامًا كلفظ " ناسخ ومنسوخ" أُعطيَ مدلولاً عكس مدلوله القرآني. أُكرِّر: لفظ أُمِّي لم يعن جاهلاً بالقراءة والكتابة إلا بعد ظهور كُتُبِ التفسير وتسويق المفهوم المغلوط للآية فأصبح متداولاً بين "العرب اللاحقة" ليعني الجهل، لكن زمن " العرب العاربة" و"العرب المستعربة" لم يكن مِن معانيه الجهل.

ثانيًا: مفهوم " النبي الأمِّي" يعني إمّا الأصيلَ في مصدر عِلمه مِن "أم الكتاب"، أو الذي ينتمي إلى "أُمَّة" ذاتِ دينٍ محددٍ. ولمَّا كان محمد بن عبد الله -عليه أفضل الصلاة والتسليم- لم يكن على دين أمّتِه، فلا يبقى أمامَنا إلا المدلول الأول، وهو الوصف التشريفي للنبي أنه "أُمِّي" بمعنى أن تعليمَه خاصٌ جدًا إذ علَّمَه ربُّه مِن "أم الكتاب" مباشرة، وليس عن طريق معلّمين في الدنيا. وهنا نعود فنقرأ الآية مرةً أخرى:

{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113)} النساء.

فإذا كان إبراهيمُ -عليه السلام- "أمة وحدَه" بمعنى أنه موحد زمانِه، فإن رسول الله وخاتم النبيين هو أعظم عالمٍ في تاريخ الإنسانية؛ لأنه الوحيد الذي تخرَّجَ في جامعة "أم الكتاب" لعلوم الكون الإلهية التي يملكها مالك الملك وحدَه. "النبي الأمِّي" لا تعني الجاهلَ بالكتابة والقراءة لأن هذا ليس من معاني اللفظ ولا في اللغة العربية أصلاً. النبي الأمِّي تعني النبيَّ الذي تعلَّم مباشرة من "أم الكتاب"، و"أمُّ الكتاب" في عالم الملكوت الأعلى هو مصدر كل علوم الكون وعلم العليم الحكيم. وأم الكتاب أعلى من اللوح المحفوظ. القرآن الحكيم أُنزل من "أم الكتاب" إلى اللوح المحفوظ فكان القرآن المَجيد عند العرش المَجيد. ثم أنزل من اللوح المحفوظ إلى الكتاب المكنون ليكون القرآن الكريم. وهنا فقط أصبح متاحًا للملائكة المطهرة أن تمسه. ما فوق ذلك فهو فوق الملائكة. ومِن الكتاب المكنون أنزل إلى السماء الدنيا في صورة القرآن العظيم. والنبي محمد سيد الأولين والآخرين علّمَه ربُّه متجاوزًا

كل تلك المراحل في عوالم الغيب التي يعلو فيها عالم على عالم، وتعلو فيها عوالم على الملائكة نفسها، تلقَّى تعليمَه من "أم الكتاب" وهو المدلول الأسلم لمفهوم "النبي الأمِّي".

من هنا يمكننا إعادة استشعار القشعريرة التي تسري في الجسم وقد حرمونا منها طويلاً حينما نعيد وضعَ الأمور في نصابها بعد إعادة قراءة الآيات التي أقامت البينة على أهل الكتاب الذين تعاقب عليهم عشرات ومئات الأنبياء والمرسلين، لم يكن بينهم نبي أُمي، مِن تكرار مفهوم "النبي الأمي" الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، إنها صفةٌ تشريفٍ لم يمنحها الله لأحد مِن خلقِه ولا لأحد مِن رُسُلِه مِن قبل، إن الله الذي له ملك السموات والأرض هو معلِّمُه الخاص المباشِر مِن "أم الكتاب" وهو حجته الأخيرة على كل العالمين:

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ **الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ** الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا **النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ** أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ **وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ** الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)} الأعراف.

وقد ورد في كتاب إشعياء في العهد القديم ما يمكن أن يكون هو الإشارة للنبي الأمِّي الذي لم يكن يقرأ لكنه تلقَّى عِلمه مِن مَلك السموات والأرض:

{ابهتوا وتعجبوا. تعاموا واعموا. اسكروا لكن من غير خمر. ترنَّحوا لكن من غير مسكر، لأن الرب قد سكب عليكم روح سبات عميق، فأغلقَ عيونَ أنبيائكم وغطى رؤوس رائييكم. وصارت لكم هذه الرؤيا جميعها ككلمات كتاب مختوم، حين يناولونه لمن يتقن القراءة قائلين: اقرأ هذا. يجيب: لا أستطيع لأنه مختوم. وعندما يناولونه لمن يجهل القراءة قائلين: اقرأ هذا، يجيب: لا أستطيع القراءة.} كتاب إشعياء- 29: 9-12.

فقد كان النبي يجهل القراءة بنص القرآن: { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48)}، فلمَّا صدر القول الكونيّ له: "اقرأ" أصبح معلِّمَ البشرية الأول، وعِلمُه مِن الذي عنده أم الكتاب فكان النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

محمد -عليه أفضل الصلاة والتسليم- كان بَشَرًا بسيطًا لا يعلم الغيبَ ولا يتوقع ما حدث له، لكن لمَّا كان تحوله إلى عالمٍ مِن أم الكتاب، يمكننا أن نفهم اضطرابَه مِن هول المسؤولية التي ألقيت على كتفه. وهذا ما يشرح لنا هذا الأمر للنبي ألا يتعجل حين تلقِّيه للقرءان؛ لأن الجمع والكتابة مِن الله، وعليه بعد ذلك فقط النسخ كما نزل عليه:

{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19)} القيامة.

وحتى نفهم العمقَ في الآيات أعلاه ونفهم لماذا كان النبي يتعجل، تَخيَّلْ أن أحدنا لا يجيد ركوبَ الحمير، فتفتح عليه ليلة القدْر ويصدر الله قوله الكوني " كن" فـ "يكون" فيجد نفسه وبلا مقدمات يقود البسكليتة والدراجة البخارية والسيارة والقطار والسفينة والطائرة ومركبة الفضاء في لحظة واحدة. إن التحدي في التغيير المفاجئ

للنبي -صلى الله عليه وسلم- هو الذي كان يجعله يتعجل لأنه تغييرٌ لا يُصدَّق، لذلك فالله هنا يطمئنه ويهدئه ويهوِّن عليه أن كل شيءٍ على الله: "جمعه" و"قرآنه" و"بيانه".

إذن، فتنزيلُ القرآن مِن الله وجمْعُه مِن الله، وبيانُه مِن الله، وما كان دور النبي في الرسالة إلا أن بلَّغَها مكتوبة بالرسم المحمدي للأمة الذي يشتمل على قمة البيان.

إنَّ فكرةَ أنَّ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- ظلَّ جاهلاً بالكتابة والقراءة تم تسويقُها بقصصٍ ملفَّقةٍ هنا وهناك، منها أنه في يوم صلح الحديبية سأل أحدَ الصحابة أن يُريَه أين كَتَب اسمَ اللهِ ليمحوَه، وأين كُتِبتْ جُملة: رسول الله ليمحوها. لكن لم يوثِّق لنا التراثُ مواقفَ جديرةً بالتقييم والموضوعية تثبت أنه ظلّ جاهلاً بالقراءة والكتابة، بينما النصوص القرآنية أعلاه تشهد أنه كان يكتب ويقرأ. والأمثلة عن "الرسم المحمدي" أدناه تشهد أن رسْمَ المصحفِ ما كان ليكون إلا بيد النبي -صلى الله عليه وسلم-.

هذه الفكرة ستُفرح الكثيرين الذين كانوا يجدون صعوبة في قبول الفكرة المغلوطة. لكنها بالتأكيد ستثير غضبَ "الفِرقة الناجية"؛ لأن عقيدة هؤلاء تتطلب أن يظل الناس جهلاءَ يُساقون كالنعاج، والمحافظة على قدسية الجهل تتطلب قدوةً حَسَنة ومَثَلاً يُحتذَى لذلك سيستميت بعضهم في الدفاع عن جهل النبي بالكتابة والقراءة حفاظًا على قُطعانِهم أن تستيقظ.

بعد أن أسقطنا -بحمد الله وتوفيقه- خرافة أن النبي لا يكتب ولا يقرأ لنتصفح بعض الملامح في نَسخ النبي بيمناه للقرآن العظيم من الصحف المطهرة التي أطلعَه عليها جبريل ليكون بذلك الرسم المحمدي للقرآن.

الرسم المحمدي:

إنَّ أسطورةَ كَتَبَةِ الوحي أسطورةٌ لا يَقبَلُها عقلٌ ولا منطقٌ يتدبر طبيعة القرآن. لو افترضنا أن النبي لا يكتب ولا يقرأ طوال حياته فهو إذن لا يعرف أن حرف " أ " اسمُه ألِف، وحرف "ل" اسمُه "لام" وحرف "م" اسمُه ميم، لأن هناك فرقًا بين صوت الحرف واسمه، وهذه المعلومة البسيطة لا يعرفها إلا مَن يقرأ ويكتب. وعليه فإنه كان سيسمع جبريلَ كما يقول التراث يَقرأ عليه " "ألف لام ميم "، فكيف كُتِبَت "ألم" إذن،؟ لأن توجيهَ كَتَبة الوحي أن يكتبوها مفرَّقةً أو ملتصقة يتطلب بالضرورة أن يكون مَن يملي عليهم يميِّز بين أسماء الحروف وكيفية كتابتها. هنا نجد أنفسنا أمام خياراتٍ مريرةٍ تحتاج لعقيدة الثالوث للإيمان بها بلا عقل: إمَّا أن جبريل هو الذي أوحى لكتبة الوحي مباشرة متجاوزًا مَن لا يفهم الكتابة "النبي"، أو أن النبي كان وسيطًا بين جبريلَ وكتبةِ الوحي ينقل منه ما لا يفهم ويمليه عليهم فيكتبون أيضًا ما لا يستطيع هو قراءتَه. إنَّ الحروفَ المتقطعة وطريقة كتابتِها في الرسم المحمدي وحدَها تقف شاهدًا على أن مَن كَتَب القرآن هو النبي نفسه. والكتاب زاخرٌ بالدلائل التي لا تدع مجالاً للشك أن الكاتب الأول للمصحف هو النبي نفسه وليس كتبة الوحي.

هنا أنقلُ مقالاً للمهندس محمد شملول وهو باحثٌ مصريٌّ له باعٌ كبيرٌ في تدبر حروف القرآن وصاحب كتاب "إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة":

{{حينما تفتح المصحف الشريف تجد أن القرآن العظيم له كتابة فريدة تختلف حروف كلماتها القرآنية في أحيان كثيرة عن الكتابة الإملائية المعتادة وذلك من حيث حذف بعض الحروف من بعض الكلمات القرآنية ؛ مثل: حذف حرف: (الألف، والياء، والواو، والتاء، والنون، واللام). مثال حذف حرف الألف في (الرحمن -- مالك -- صاحبة...) سواء نُطِقت هذه الحروف أم لم تنطق. أو زيادة بعض الحروف في بعض الكلمات القرآنية ؛ مثل زيادة: (حرف الألف، والياء، والواو .) مثل زيادة حرف الألف في (لكنا هو الله ربي) زاد حرف الألف في (لكن)-- كذلك (لا تقولن لشاىء)-- زاد حرف الألف في (شىء) -- في سورة الكهف سواء نُطِقت هذه الحروف أم لم تنطق -- كذلك نجد اختلافًا في رسم الهمزة في بعض الكلمات القرآنية مثل (العلمؤا -- الملؤا -- يبدؤا) كذلك نرى في بعض الكلمات إبدالَ بعض الحروف بحروف أخرى (مثل الصلوة -- استبدلت الألف بحرف (و)--- كذلك نرى وصل بعض الكلمات، أو فصلها في أماكنَ مختلفةٍ -- مثل (إن لا -- إلا)-- (إن ما -- إنما)--(ما ل هذا الرسول). فصل حرف اللام --- وقد حاولتُ بجهدي المتواضع أن أجد إشاراتٍ موحية للأسباب التي وراء حذف بعض الحروف. أو إضافة حروف أخرى، وتغير شكل الكلمة القرآنية بإبدال بعض الحروف. أو وصل الكلمات. أو فصلها؛ وذلك على أساس أن أي حرف في القرآن الكريم له فائدة سواء وجِد، أو حُذِف .

وقد تبين لي بعد التدبر والدراسة أن هناك إعجازًا رائعًا في كتابة الكلمة القرآنية يتمثل في أن حروف الكلمة القرآنية تَرسم صورة صادقة للمعنى المراد سواء بحذف بعض الحروف، أو بزيادتها، أو بإبدالها، أو بوصلها، أو بفصلها .. إن الكلمة القرآنية حينما تُحذَف بعض حروفها تتلاصق وتقترب أكثر من بعضها، فيوحي ذلك بصورة المعنى متلاصقة وقريبة ؛ كما يوحي ذلك بصورة سريعة نظرًا لقلة زمن حدثِ كتابةِ الكلمة ونطقها الناتج عن حذف بعض حروف الكلمة ؛ كما يوحي أيضًا في بعض الأحيان بقلة الشأن نتيجة لتصغير حجم الكلمة. وهذا كله طبقًا للسياق، وأولويات الموضوع .. كذلك فإن الكلمة القرآنية حينما تزيد بعض حروفها عن الحروف المعتادة سواء نُطِقت هذه الحروف، أو لم تنطق ؛ فإن هذا يوحي بصورة للمعنى كبيرة، أو صورة متمهلة تحتاج إلى التدبر والتفقه، ويوحي ذلك بطلب التدبر والتفكر والتمهل. ونضرب فيما يأتي أمثلة لإعجاز كتابة القرآن التي لا يمكن ملاحظتها إلا من الرسم المحمدي للقرآن في المصحف ولا يوجد بعد في الإنترنت:

أمثلة لحذف حرف (الألف) من كلمة (صاحب) في الآية 34 من سورة الكهف :

{ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ }
بدأ مالكُ الجنتين الحوارَ مع صاحبه، وكانا صاحبيْن قريبين من بعضهما البعض لدرجة الالتصاق ؛ لذا جاءت كلمة
" صاحبه" في هذه الآية الكريمة على هيئة "صحبه". أي: بحذف الألف الوسطية ؛ لتبين صورة صاحبين متلاصقين .

ثم تكلم مالك الجنتين، وبدأ يكفُر بالساعة وبالله سبحانه وتعالى، حينئذٍ تغير فورًا رسم وكتابة كلمة "صحبه" بدون ألف وسطية إلى "صاحبه" بألف وسطية ؛ لتوحي بنوع من الانفصال في الصورة، ولتوضح الانفصالَ الايماني، رغم رفقة الزمان والمكان، حيث جاء ذلك في الآية 37 من نفس السورة :

{ قَـــــــالَ لَـــــــــــهُ صَـــــــــــــاحِبُهُ وَهُـــــــــــوَ يُحَـــــــــــــاوِرُهُ}
وجاء رد صاحبه بقوله :{ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً} سببًا مباشرًا للبعد عنـــه، وســـببًا لنـــشوء الألـــف الوســـطية فـــي كلمـــة " صـــاحبه" ؛ لتـــوحي بالانفـــصال .
ولو تدبرنا كل كلمة "صاحب" في القرآن الكريم كله، لوجدناها تأتي بصورتين مختلفتين: إحداهما بدون ألف وســـــــــــطية، والأخـــــــــــــرى بـــــــــــــألف وســـــــــــطية .

وفي حالات وجود الألف الوسطية نجد أن هناك نوعًا من الانفصال ؛ فمثلاً حينما يتكلم القرآن الكريم عن الرســـــــول -صـــــــلى الله عليـــــــه وســـــــلم- وقومـــــــه الكـــــــافرين، يقـــــــول :
{مَـــــــا ضَـــــــلَّ صَـــــــاحِبُكُمْ وَمَـــــــا غَـــــــوَى} الـــــــنجم: 2 ،
{ مَـــــــا بِـــــــصَاحِبِكُم مِّـــــــن جِنَّـــــــةٍ} ســـــــبأ: 46 ،
{وَمَـــــــا صَـــــــاحِبُكُم بِمَجْنُـــــــونٍ} التكـــــــوير :22

وكلها تحتوي على الألف الوسطية الفاصلة، غير أنه حين يذكر القرآنُ الكريم سيدنا أبا بكر صاحِبَ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- تأتي كلمة "صاحبه" بدون ألف ؛ لتبين الصحبة الحقيقية والالتصاق الإيماني :
{إِذْ يَقُـــــــولُ لِـــــــصَحِبِهِ لاَ تَحْـــــــزَنْ إِنَّ اللَّـــــــهَ مَعَنَـــــــا}التوبـــــــة: 40 .

كذلك تأتي كلمة "صاحبته" بمعنى الزوجة بدون ألف على شكل "صحبته" في القرآن العظيم كله ؛ لتبين التصاق الزوجية:

{ وَصَحِبَتِهِ وَأَخِيهِ} المعارج: 12،

{ وَصَحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} عبس: 36

كذلك حين يتكلم القرآن الكريم عن الأبويْن الكافرين، والابن المؤمن، فإنه يخاطب الابنَ، فيقول :

{وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا } لقمان: 15.

حيـــث جـــاءت كلمـــة " صـــاحبهما" بـــألف وســـطية ؛ لتـــوحي بعـــدم وجـــود التـــصاق إيمـــاني.

أمّا حين يتكلم القرآن الكريم في سورة الكهف عن سيدنا موسى -عليه السلام- مع العبد الصالح، فإنه يقول له:
{إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِبْنِي}

الكهف: 76، بحذف الألف ؛ لوجود الالتصاق الإيماني بينهما.

كذلك فإن حذف بعض الحروف من بعض الكلمات القرآنية يوحي بمعانٍ متعددة، حسب السياق القرآني؛ لأن الحذف يقلل زمنَ الحدث، أو زمن الكتابة ؛ لذا فإنه يمكن أن يوحي بالسرعة. فلو تدبرنا كلمة "باسم" في القرآن العظيم كله، لوجدناها تأتي بشكلين: أحدهما محذوفة الألف ؛ مثل :{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} في فاتحة كل السور وفي {بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا } هود: 41.

والثاني بألف وسطية ؛ مثل:

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} في العلق.

{ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} في الواقعة.

فحذف الألف في كلمة "بسم" يوحي بأنه يجب علينا بسرعة الوصول إلى الله تعالى بأسرع الوسائل، والبدء بسم الله بأقصى سرعة. أمَّا الحالات التي جاءت فيها " باسم" بألف الوصل، فإنها جاءت بقصد التسبيح، أو القراءة ؛ وهي أمور تحتاج إلى التفكر والتدبر والتمهل.

كذلك فإن حذف بعض الحروف من الكلمات القرآنية يمكن أن يوحي بقلة الشأن ؛ وذلك حسب السياق؛ لأن انكماش الكلمة يؤدي إلى انكماش الصورة، وانكماش المعنى. ونلاحظ ذلك في كلام صاحِب مالك الجنتين فى سورة الكهف، حين يقول له: { إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا} الكهف: 39، فجاءت كلمة "ترن" أصلاً "تراني" لكنها جاءت محذوفة حرف الألف الوسطى و الياء الأخيرة؛ وذلك ليوحي بأن مالك الجنتين يستصغره، ويراه قليلَ المال، وقليل الولد.

كذلك فإن الحذف يوحي أيضًا بالانكماش والتقوقع حسب السياق ؛ فمثلاً حين يتكلم القرآن عن قواعد البيت، يأتي بالألف الوسطية الصريحة :{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ} البقرة: 127 ؛ لتدل على عمق القواعد، غير أن القرآن حين يتكلم عن القواعد من النساء- أي: مثل العجائز والمعاقات- تأتي "القواعد" بدون ألف صريحة ؛ لتدل على انكماش النساء في الكبر أو في الإعاقة وهمودهن وقلة حركتهن :{ وَالْقَوَعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا } النور: 60.

كذلك فإن الحذف يوحي بعدم الدخول في التفصيل. أمَّا في حالة وجود الألف فيوحي بنوع من التفصيل، فنجد مثلاً كلمة "سموت" قد وردت في القرآن العظيم كله 189 مرة بدون ألفي المد، بينما وردت مرة واحدة فقط "سموات" بألف، ومن العجيب أن تأتي هذه المرة في سورة فصلت، حيث تم تفصيل السموات، وأن لكل سماءٍ أمرَها ؛ وذلك في الآية 12:

{ فَقَضَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا}

كذلك فإن الحذف يوحي بالقرب، حيث نلاحظ أن حرف النداء " يا" ورد في القرآن الكريم كله بدون ألف:

{يَقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ} الأعراف: 59.

{ يَرَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ} الزخرف: 88.

{ يَصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـذَا} هود: 62.

{يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ} البقرة: 12.

{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى} البقرة: 55 .

وهذا يرسم صورة رائعة للقرب، حيث يوحي حذف حرف الألف بكامل القرب، وبأن النداء لابد أن يكون من قريب؛ ليوحي بالألفة، ونرى الإعجاز كاملاً في حذف حرف النداء كله من كلمة "يرب"؛ لتكون فقط "رب"، فتوحي بالقرب الكامل:

{ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيم} البقرة: 127.

{ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} آل عمران:

كذلك فإن حذف حرف الألف يوحي بعدم التوسع في بعض الأمور؛ فمثلاً حينما نتدبر قوله تعالى: "الطَّلَقُ مَرَّتَان" في الآية 229 من سورة البقرة :{الطَّلَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ}، نجد أن كلمة "الطلاق" جاءت بدون ألف؛ لتوحي بأنه مازال هناك في المرتين من الطلاق ارتباط بين الزوجين في فترة العدة ؛ ولتوحي بعدم التوسع في الطلاق. لكنها "مرتان" جاءت بالألف الوسطية؛ لتوحي بانفصال كل مرة طلاق، وبأنه لا يكون الطلاق مرتين، أو ثلاث دفعة واحدة ومن عجائب القرآن: أن تأتي كلمة "الطلق" مرتين لفظيًا في القرآن كله في الآيتين {الطلق مرتان} البقرة 229.

{ وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلَق فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} البقرة 227.

{مصدر الرسم القرآني -- مصحف المدينة النبوية إصدار مجمع الملك فهد}

النسخ العثماني للقرآن :

مما سبق يمكننا أن نعيد فهْمَنا للتاريخ الذي تم تزييفُه، فقدْ تعلَّم النبي الأُمِّي في جامعة أُم الكتاب لعلوم الكون وكان قارئًا وكاتبًا، وقد كَتَب القرآن بيمينه وترك نسخة بالرسم المحمدي الذي ما كان مألوفًا لدي العرب. ومِن تلك النسخة تم تدريب الخطاطين الذين نسخوا منها عددًا من النسخ وتم توزيعُها في عهد عثمانَ بن عفان فسُمِّيت لاحقًا بـ "الرسم العثماني" وأوهمونا أن القرآن برسمه الإعجازي الذي لا حد للبحوث العلمية في أسراره لم يكن إلا مِن إنجاز كتبة الوحي والنبي "الأُمِّي" لا يستطيع مراجعة ما كتبوا؛ علمًا بأن مِن كتبة الوحي هؤلاء كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي يقال إنه ارتدَّ عن الإسلام لاحقًا، وكان بينهم أيضًا يزيد بن معاوية الذي لم يدخل الإسلامَ مع أبيه وأُمِّه إلا بعد أن أصبح لا مجال لهم للبقاء إلا الإسلام.

أعلمُ أن الخبرَ سيصيب الكثيرين بصدمات. البعض سيصاب بنشوة الفرح؛ لأن فكرة أن النبي كان لا يكتب ولا يقرأ وظلَّ طوال عمر الرسالة لم يبذل مجهودًا في تعلم الكتابة والقراءة تبدو أمرًا صعبَ التصديق، واليوم زالت تلك الغمة واتضحت الحقيقة وكأننا نقرأ "قرآنا حديثا" مع العلم أن الذي تغير فقط هو مدلول الكلمات وترتيب الأفكار وعقل القرآن. لكن لا أشك أن البعض ستصيبه صدمةٌ لأنه يمجد الجهلَ ويحارب العلمَ والعقل، وظهورُ مثلِ هذه الحقائق البينة كبيان سورة البينة سوف تهدد أرزاقهم وتزلزل عروشَهم إذ إن قيادة الرعية الجاهلة أسهلُ بكثير من قيادة أُمَّةٍ كل مَن فيها يفكر.

ولا شك أن ظهور هذه الحقائق مِن بين ثنيات ومثاني أفضل الحديث كلام الله ستطرح سؤالاً كبيرًا: كيف تم خداعُ كلِّ الأمة في قضية خطيرة مثل أمِّية النبي؟ الإجابة تحتاج لمزيد من العقل والتحرر من الجهل، التحرر من القرآن الموازي الذي كُتِب لنا تحت مسمّى "الحديث" الذي أمهد له بهذه الآية الصارمة التي تحذر الرسول - صلى الله عليه وسلم- من أن يتقول على الله غير الذي أوحي إليه:

{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48)} الحاقة.

فالآيةُ بيِّنَةٌ لا تحتاج لبيانٍ إضافي: هي تحذّر النبيَّ تحذيرًا قويًا ألا يتقوَّلَ على الله شيئًا خارجَ القرآن. فكيف نشأ ما يُسمَّى "عِلم الحديث" إذن؟

الباب السابع

الحديث

قبْلَ بدايةِ كتابة هذا الباب أسميتُه "علوم الحديث" تماشيًا مع التراث الموروث. لكن لمَّا تبحرتُ فيه ومَن معي مِن الإخوة الأفاضل أهلِ الاختصاص وغيرِ أهل الاختصاص وجدتُ أنه مِن الأمانة أن أرفع عنه صفة "العِلم" لأنه لم يستوفِ تعريفَ "العِلم"، فعدَّلتُ العنوانَ إلى "الحديث" فقط ليشير لِما هو معروف بين المسلمين بهذا الاسم.

مِن المؤسف في عالم اليوم الذي تتسارع فيه الأحداث، وتتغير فيه الأفكار والأحوال أسرعَ مِن أي حقبة زمنية عرفها الإنسان، أن بعض المختصين في الدراسات الإسلامية ما زالوا يفكرون بعقلية القرون الوسطى، ولا ينتبهون إلى أنهم كادوا أو أصبحوا ألدَّ أعداءِ الإسلام بسوء تصرفهم. ففي القرون الوسطى كان "الكتاب المقدس" حكرًا على القساوسة وكبار الكهنة الذين يعلّمون الناسَ ما يروق لهم مِن شؤون دينهم، ويتقبلون منهم التوبة، ويوزعون على مَن يشاؤون صكوكَ الغفران ويمنعون الجنة عمَّن شاؤوا. وكان هذا الاستغلال لسلطة الرب في الأرض يتم بمباركة القياصرة، بل كان هو العماد الأهم في الحفاظ على سلطان القياصرة. فلما ثارت الشعوبُ الأوربية وأسقطت العروشَ القديمة سقط معها الكهنوت، ثم أصبح الكتاب المقدس متاحًا للجميع الاطلاع عليه. وحينما اطّلع الأوروبيون على حقيقة نشأة وتطور وتوثيق المسيحية، تخلّى معظمهم عنها، فعمَّت العلمانيةُ وانتشر الإلحاد الذي نرى اليوم. وهي خطوة إيجابية لأن غالبيتَهم في واقع الأمر "كفروا" و"ألحدوا" بألوهية المسيح، لكنهم لم يجدوا بعد الدين الذي يشبع فضولَهم وتطمئِن إليه قلوبُهم ليتبعوه، فكانت تلك عودة للفطرة السليمة، فأسسوا مجتمعاتٍ يغلب عليها أفضل ما توصلت له الحضارةُ الإنسانيةُ مِن حقوق إنسان وحيوان وحرية وكرامة وتشجيع على الفكر والبحث وإعمار الأرض، وكلها مِن صفات الاستخلاف في الأرض بالمفهوم القرآني، لكنهم فعلوا ذلك كله فقط بالفطرة السليمة بعيدًا عن القيود والأغلال التي كانت مفروضةً عليهم باسم الإله.

"رجال الدين" المسلمون اليومَ لم يتعلموا الدرسَ مِن التاريخ، والأدهى والأمَرّ أنهم لا يعيشون حتى واقعَ اليوم، حيث أصبح ما خفي على المسلمين مِن أسرار تاريخ الإسلام متاحًا للجميع الاطّلاع عليه. وما انتشار الإلحاد بين الشباب المسلِم إلا نتيجة الصدمات التي يتلقاها مَن لم تتجاوز معرفتُه الإسلامية "دينَ المدارس" حينما يتعرضون ليلاً ونهارًا عبْرَ وسائل الإعلام الحديثة والتواصل الاجتماعي في الإنترنت لشطحات الخُطباء الذين نصَّبَهم مَن تبعهم "أربابًا مِن دون الله"، أو يتعرضون لأقوالٍ منسوبةٍ للنبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يُعرَف بكُتُب الصحاح التي ما كان الاطّلاع عليها متاحًا للجميع، ثم لا يجد مِن أهل الاختصاص إلا كل العناد والكِبْر والإصرار على تلبيس النبي الكريم ما لم يقله، فقط للحفاظ على هيبةٍ توارثتها الأجيالُ لكُتُبٍ قديمة، ومجتهدين قدماء أصبح نقدُهم مِن المحرمات التي تبيح الإساءةَ للنبي -صلى الله عليه وسلم- نفسه، عِلمًا بأن النقدَ البنَّاء والبحثَ عن الحقيقة المجردة غالبًا فيه تبرئةٌ لهم مِن أخطاء ربما وقعوا فيها أو ربما نُسِبتْ إليهم زورًا وبهتانًا.

أثناءَ كتابةِ هذا الكتاب طرحتُ على صفحتي على الفيسبوك موضوعًا لنقاشٍ عفويٍّ للمقارنة بين روايتيْن اختَلَف أهلُ السُّنَّة مع الشيعة في تناقلهما. ولأن الاختلافَ بين الروايتين لا يعني إلا أن الرواية أصلاً لم تَرِد عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، أو على الأقل أحد الفريقين مصيب، فقد كانت النية في المدخل مبيتةً للبحث عن الحقيقة وليس التشكيك في ما يسمى ثوابت الدين. لكن لأن السؤال عن الحقيقة أو مناقشتها علنًا يُرْعِب مَن يقوم إيمانُه على التبعية المطلَقة التي تشبه الوثنية، فقد أقام الموضوع الدنيا وما أقعدها. ولأن الرواية لها ارتباطٌ وثيق جدا بما آلت إليه حال المسلمين اليوم، ولأنها تمثل الأساسَ لمكانة "الحديث" لدى المسلمين فقد رأيتُ أن اتخذها مدخلاً لهذا الباب.

لا أشك أن معظمَ مَن نشأوا في بلدان "أهل السُّنَّة والجماعة" قد سمعوا بحديث: " تركتُ فيكم ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلوا مِن بعدي أبدًا: كتابَ الله و سُنّة رسوله".

مضمون الرواية أعلاه، بأي ألفاظ قيلت، أصبحت أقربَ شيوعًا بين الناس من سورة الإخلاص. فيكاد لا تمر خطبةُ جمعةٍ على امتداد العالم "السُّنّي" عربيًا كان أو عجميًا إلا وجَد الخُطباءُ لها مكانًا في خُطبَهم. أهمية هذه الرواية تكمن في أنها تجعل للقرآن نِدًّا في قلوب الناس هو "الحديث" ومن ثم "السُّنّة". ولما كان القرآن هو كتاب

الله تعالى ورسالته الأخيرة للناس، فإن نِدِّيَّة "الحديث" له تفتح ثغرةً لكلام البَشر أن يكتسب سلطانَ الإلهِ على عقول الناس. ولما كان "الحديث" ليس إلا رواياتٍ ظنيةٍ منسوبة للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، تناقلَها الناسُ عبْرَ مسلسل مِن الرواة، وكُتِبتْ بعد قرون مِن وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإن الكثيرين يحتاجون لهذه الرواية لتطمئنهم على الأقل أن خطاباتِهم وفتاواهم، ومن ثم وجودهم له تفويض نبوي. ومِن هنا فإن التشكيكَ في حرفية هذه الرواية يسبب كارثة للكثيرين في معيشتهم وفي معتقدهم، لذلك لا يستهان بخطورة التساؤل عن مصداقيتها.

يفاجَأ المسلِمُ أن رواية شبيهة متداولةٌ بين الشيعة مضمونُها هو:

" تركتُ فيكم ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا: كتابَ الله وأهلَ بيتي أو عِترتي". أيضًا أنقلُ الرواية هنا كما يتداولها العامةُ مشافهةً منسوبة للرسول -صلى الله عليه وسلم- . فالحديث ليس كالقرآن. مِن السهل جدًا أن تقول كلامًا منسوبًا للنبي -صلى الله عليه وسلم- وإنْ تغيرت الألفاظ، وتكتفي بقولك " أو كما قال -صلى الله عليه وسلم- " فيطمئن قلبك أنك لم تكذبْ عليه.

لو قارنَّا الروايتين نجد أن القاسم المشترك هو وصية الرسول -صلى الله عليه وسلم- أنه تَرَك لنا القرآن الذي لن نضِل معه أبدًا. لكن هل أضاف في الرواية " سُنَّتي" أو " أهل بيتي"؟ أم أنه اكتفى بالوصية بالقرآن وحدَه؟ هذا موضوعُ سؤالٍ مهمٍ ولا يثير إلا حفيظة المقتسمين :{كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91)} الحجر. وهُم الذين يأخذون ما شاؤوا مِن القرآن ويتركون ما شاؤوا.

المقارنة تحدِث بلبلة لمَن كان تفكيرهم في الإسلام تفكيرًا كهنوتيًا يَخشى فيه على سُمعة البَشر أكثر مِن خشيته لله. لكنها لن تزيد المؤمنين إلا إيمانًا. مِن الواضح في هاتين الروايتين أن كلَّ زيادةٍ، لها مدلولٌ سياسيٌّ ضاربةٌ جذورُه في التاريخ. فمِن ضربة البداية يشعر أهل السُّنّة أن مجرد المقارنة بين روايةٍ مِن مصدر سُنّي مع الرواية نفسها مِن مصدر شيعي فيها تقرُّبٌ للشيعة وإجازةٌ لمصادرهم التاريخية مِن ناحية، ومِن ناحية أخرى فيها تشكيك في السُّنّة وفتحُ ثغرةٍ خطيرة للتشكيك في مصادرهم التاريخية. لاحِظْ أن القرآن لا يتضرر إذا صحت أي من الروايتين؛ لأن التمسك به ثابتٌ في الروايتين، لكن الخلاف في كون الوصية الثانية لأهل بيته أم لِسُنَّتِه! مِن ناحية شيعية فإن الشيعة يشعرون أن المقارنة تهدد مكانة أهل البيت التي تمثل عمادَ مذهبِهم وتدرُّجَ أئمتِهم، وتبرر للكثيرين منهم لعنَ وسبَّ أصحابِ النبي -صلى الله عليه وسلم- .

شاء "الشيعة" و"السُّنّة" أم أبوْا، فإن المقارنة تظل ضرورةً لا مفر منها اليوم بعد أن بدأ الناس يَخرجون مِن دين الله أفواجًا.

أهمية الرواية للمذهب السني أنها أعطت ما يسمى بـ "الحديث" و"السُّنّة" السلطانَ البَشري على القرآن على مرِّ العصور الإسلامية مِن بعد زمن الخلفاء الراشدين. فقدْ تشبَّعَ الناسُ أن كلام الله "طلاسم" لا يعلم سرَّها ولا تأويلَها إلا هو، لذلك لا خوف مِن القرآن ما دامت "السُّنّة" و"الحديث" هُما اللذان يفسرانه وتستنبط أحكامه منهما بحجة أن الرسول أصلاً قد أُرسِل "ليبين" للناس ما أنزل إليهم. وعليه فإن غير أهل الاختصاص غيرُ معنيين بفهم القرآن بل عليهم بالسُّنّة. وهذه بطبيعة الحال لها أهلها الذين يشرحون لك ما يظنونه كلامَ الله، ويحددون لك ما إذا كنتَ مِن "الفِرقة الناجية" أم لا. مِن هنا نفهم أن مجرد التساؤل عن أي الروايتين أصح، يُشعِر البعضَ بالتشكيك في احتمال عدم مصداقية الرواية السنِّية. التشكيك يعني قربَ انهيار إمبراطورية "الحديث" وزوال سلطانها على رقاب الناس. الغريب في الأمر: حينما تجتهد في تدبر القرآن بالعقل بناءً على قول الله تعالى:

{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97)} مريم.

{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58)} الدخان.

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)} القمر.

تجد مَن يتهمك بأنك تخوض في كتاب الله بالهوى. وتكون الحجة دائمًا أن القرآن لا يعلم تأويله إلا الله، وعلينا اتّباع المفسرين الجهابذة الذين اصطفاهم الله وحدَهم لفهم كتابه، وعليك اتّباع السُّنّة لأنها كلام البَشر الميسَّر للفهم، وأن الرسول قد كُلِّف ليبين للناس ما أنزل لهم. فلمَّا تتساءل عن أحد أشْهَر الأحاديث المروية عن الرسول -صلى الله عليه وسلم-، تصلُك عشراتُ التحذيراتِ مفادها أن المنهج الصحيح في تمحيص الروايات هو أن تُجمَع ثم تُدرَس واحدة واحدة من حيث المتون والأسانيد وعِلم الرجال والجرح و التعديل، حتى نستطيع تمييز حَسَنِها مِن ضعيفها وبيان ما تَصَرَّف فيه الرواة، وهذا عِلم متخصص ويحتاج إلى تتبع واستقصاءٍ وطول نفَس ولا يصبر عليه إلا مَن اصطفاهم الله وكرَّمهم بحمل أمانة تبليغ سُنّة نبيه الكريم فسهروا الليالي وأفنوا أعمارَهم في تمحيص الصحيح من الحَسَن مِن الضعيف مِن الموضوع، أو شيء مِن هذا القبيل مِن التهويل في استحالة فهْم السُّنّة والحديث. إذن، فالمسلِم ممنوع مِن تدبر القرآن لأنه لا يعلم تأويله إلا الله! ومحرَّم عليه الاستفسار عن السُّنَّة والحديث إلا إذا كان مِن المصطفين الأخيار مِن جهابذة أهل العلم والاختصاص.

لهؤلاء أقول: هذا الباب كان مِن أصعب الأبواب كتابةً. فقد تهرَّب عددٌ غيرُ يسيرٍ مِن أهل الاختصاص مِن التعاون معي في كتابته. ثم وَجَد عددٌ غير يسيرٍ مِن المُطَّلِعين أن كتابة ملخص عما يسمى بعلم الحديث بصورةٍ علميةٍ نقديةٍ حياديةٍ أمرٌ شِبهُ مستحيلٍ، لسببٍ خلُصتُ إليه هو أنك لا يمكن أن تنجح في الكتابة بصورة حيادية عن "مجهول"، لذلك ما كان بيدي إلا أن أُسقِط عن هذا "المجهول" مفهومَ "عِلم الحديث"، ثم أكتب بابًا ميسَّرًا عما يسمى بـ "الحديث" مِن ناحيةٍ تاريخيةٍ فقط. وعليه فإن المادة التي تستحق لفظ "عِلْم" في هذا الباب هي "مادة التاريخ"، إذ إن ما أكتبُه ليس إلا تاريخَ ظاهرةِ الحديث والسُّنّة. وقد ساهم في تجميع مادة الباب معي الكاتب السوداني السموءل محمد.

أعلمُ أن هذا المدخل ثقيلٌ على الكثيرين سواءٌ مَن كان إيمانُه ضعيفًا وقد تعلَّقَ ببعض الأحاديث لتنجيه من النار، أو مَن كان مِن المختصين الذين يهمهم أن يظل "العِلم" عِلمًا لأنه مهنةُ ارتزاقٍ، أو ممن كانوا مِن علماء السلطان الذين سيفقدون أهم معاول تركيع الشعوب وهي "قال رسول الله". فمَن كانت نفسُه ضعيفةً فليتركِ البابَ الآن؛ لأن هذا ليس إلا مدخلاً لِما هو أصعب. وعزائي قولُ اللهِ تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159)} البقرة.

وحتى يكون التناولُ موضوعيًا فقد رأيتُ أن أطرح "الحديثَ" على ثلاثة مراحلَ تاريخية:

الحديث في العصر الذهبي: وهو عصر النبي-صلى الله عليه وسلم- والخلفاء الراشدين.

الحديث في عصر الأقاويل: وهي مرحلة ظهور ما يسمى بعِلم الحديث.

الحديث في عصر الأساطير: وهي المرحلة التي تبعت عصرَ المحدِّثين الأوائل وتُعرَف بفترة الجمود أو الانحطاط الفكري وامتدت إلى عصرنا هذا.

(1) "الحديث" في العصر الذهبي

يلاحِظُ القارئ مِن الوهلة الأولى أنه يسمع مصطلحًا جديدًا يصِف عصرَ النبي بالعصر الذهبيّ. هكذا تُصنَع المصطلحات لتعبِّر عن فكرةٍ مبتكرةٍ، ربما يستاء منها بعضهم وربما يستحسنها بعضهم. بعامل الزمن يعتاد عليها الجميع فتصبح مِن الثوابت ثم تدخل كُتُبَ التاريخ فتصبح مِن إبداعات السلف، ثم يتم تقديسُها يومًا ما. هكذا أصلاً تُصنَع الأديان.

الحقيقةُ أنني احتجتُ لابتكار المصطلح لأني أقدِّم فكرةً جديدةً، فلا بد لها من اسم مبتكَر. وأقصِد بالعصر الذهبي الفترةَ التي امتدت منذ بداية الوحي إلى موت علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وهو آخِر الخلفاء الراشدين قبل

أن يتحول أمر المسلمين إلى مُلك بني أمية. وهذا العصر اتَّسَم بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابَه لم يكونوا في كُتُب التاريخ بعد، وإنما كانوا هُم المجتمع المسلِم نفسه.

وحتى ندخل في الموضوع مدخلاً سلِسًا يُستَحسن أن ننظر في مادة "الحديث" و"السُّنّة" مِن نواحٍ لُغوية أولاً، ثم نرى كيف تعامَل معها القرآن الكريم.

"الحديث" في اللغة:

اللغةُ العربيةِ مِن أقدم اللغات التي نَطق بها الإنسان، وربما هي أقربُها على الإطلاق للفطرة والطبيعة، إذ إن الكلماتِ فيها تَكتسِب مدلولَها ليس مِن معناها في القاموس الذي وضِع لاحقًا للتيسير، وإنما مِن عدد الحروف ونوعِ الحروف التي تتكون منها الكلمة وترتيبها. فالحروفُ الحلقية لها مدلولات، والحروف اللسانية لها مدلولات، والحروف الهوائية لها مدلولات وهكذا. وتُجمَع الحروفُ التي نشأت مِن الطبيعة أولاً بترتيبٍ أو نسق محدد يرتبط بمفاهيمَ محددةٍ كلها تشترك في المدلول الطبيعي الذي أدَّى إلى ترتيبها لتتكون الكلمات. عِلم اللسانيات عِلمٌ مستقِل وبحرٌ عميق تعرَّض للجمود كما تعرضت كل العلوم المرتبطة بالتراث الإسلامي لكن هذا ليس مجاله هنا الآن.

ما أودُّ الوصولَ إليه هو أن لفظ "حديث" له مدلولاتٌ كثيرة وأبعادٌ جدُّ خطيرة على الصعيد العقيدي والسياسي الذي نسلّط عليه بعضَ الضوء في هذه العجالة. لنراجع مدلولَ اللفظِ أولاً في المعاجم:

حديث: الحاء والدال والثاء أصلٌ واحد، وهو كونُ الشيء لم يكُنْ. يقال حَدَثَ أمرٌ بَعْد أن لم يكُن. والرجُل الحَدَثُ: الطريُّ السّن. والحديثُ مِنْ هذا؛ لأنّه كلامٌ يحْدُثُ منه الشيءُ بعدَ الشيء. (معجم مقاييس اللغة)
الحديثُ: نقيض القديم. والحديثُ الخبرُ، يأتي على القليل والكثير، ويُجمَعُ على أحاديثَ على غير قياس. قال الفرَّاء: نُرَى أنّ واحدَ الأحاديثِ أُحْدوثَةٌ، ثم جعلوه جمعًا للحديث. (الصحاح في اللغة).

المتعارَف عليه، والشائع بين الناس هو أن لفظ "حديث" يعني إمّا "جديد": بمعنى عكس قديم، أو "كلام": حَدَّث يُحدِّثُ حديثًا، ومنه يَفهم عامةُ الناس أن حديثَ الرسول -صلى الله عليه وسلم- هو "كلامه"، لكنَّ الواقعَ أعمقُ مِن هذه السطحية. وحتى أُسهِّل فَهْمَ ما أرمي إليه أقارنُ بين لفظ "جديد" و "حديث":

لفظ "جديد" يتكون مِن شِقين: "جد" و "يد":

"جد" تُرجِع المعنى للماضي " الأجداد"، و"يد" تفيد القوة الممتدة.

إذن، "الجديد" هو شيءٌ "قديم" تم امتداده للمستقبل، لكنه يحتفظ بصفة القديم "الأجداد". لذلك فحينما نتحدث عن تجديد جواز السفر أو بطاقة الهوية إنما نعني استرجاعَ صلاحيتِها القديمة.

مِن ناحية أخرى فلفظ "حديث" يتكون أيضًا مِن لفظٍ معلوم وحروفٍ لها مدلولاتُها: "حد" يفيد أقصى ما يمكن الوصولُ إليه بالخيال، و"الياء" تفيد الإمعانَ في المد والنمو الذاتي، بينما حرف "الثاء" هو حرف الانبثاق.

إذن، "الحديث" هو الشيء غير المسبوق، يقوم على فكرة مبتكَرة مستحدَثة بأقصى حد للخيال، ولديه قابلية الانبثاق والانتشار مستقبَلاً.

فأنت يمكن أن تصنع سيارة موديل 1900 "جديدة" الصنع، لكنها لن تكون "حديثة" الفكرة. أيضا فإن المولودَ يسمى طفلاً "حديثَ الولادة"، وليس "جديد الولادة"، لأنه حدثٌ مرتبط بالمستقبَل وليس بالماضي. والأطفال يُسمَّون "أحداثًا" لطراوتهم، ولأنهم يحملون روحَ المستقبل والانبثاق فيه، على عكس "الأجداد" الذين أصبحوا في زمرة القديم.

مِن هنا كان لفظ "حديث" بمعنى كلام يفيد فكرةً مبتكَرةً فيها خاصية الانبثاق، ويستمر تناقلها وانتشارها مستقبَلاً.

لاحِظْ: ليستوفي الكلامُ صفة "الحديث" لا بد أن يكون حديث اليوم ولكلِّ يومٍ حديثُه، لأن الكلامَ "المستحدَث" اليوم الذي هو حديث، سيصبح قديمًا غدًا، فتَسقط عنه صفة الحداثة. وعليه فإن دوامَ "الحداثة" في المحتوى الفكري لأي كلام لا يمكن أن يكون إلا مع كلام الله تعالى.

لقدْ حاولنا جهدًا بسيطًا فهْم مدلول "الحور العين" في الباب الثاني "ملكة النحل"، لكن لأن الفكرةَ ليست إلا حدثًا سيقع ليس في مستقبل الأيام في هذه الدنيا وإنما في الآخرة بعد أن تُبَدَّل الأرضُ غير الأرض والسموات، فإن العقل اليوم لا يمكنه استيعاب أحداث الغد مهما وصفت له. وعليه فإنه حتى يوم القيامة سيكون القرآن حديثًا جدًا يشرح لنا واقعَ ذلك العالم. وإنْ كانت تلك الكلمات بين أيدينا الآن فإننا نحتاج لعقل الغد ونحتاج للخروج من محورَي الزمان والمكان والوصول للآخرة حتى نفهم حداثة القرآن في ذلك الزمان القادم رغم أن القرآن بين أيدينا الآن.

"الحديث" في القرآن:

من هذه السياحة الفكرية المختصرة في أصول الكلام ومدلولات الحروف نفهم أن القرآن ليس كلامَ اللهِ كما نفهم الكلامَ في الماضي والحاضر والمستقبل، وإنما سمّاه الله تعالى "حديثًا" لأنه سابقٌ لكل الأزمان ويحمل مضمونَ "الحداثة" كلما أشرقت شمسٌ لا يصيبه القِدَم ولا يسبقه حديث. مِن هذا المدخل يمكننا أن نتدبر بعض الآيات التي احتكرت لفظ "الحديث" للقرآن فقط، لكن حتى تتضح المقارنة في دقة اللفظ، أبدأ بوصف الله تعالى لكلامه مع موسى بالكلام وليس الحديث:

{وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164)} النساء.

{قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144)} الأعراف.

فالكلام حديثٌ حين حدوثه. لكن كلام الله مع كل الرسل وصف بالكلام لأنه محكوم بالإطار الزمني، و لم يحمل صفة ديمومة الحداثة إلا القرآن وحدَه كما في هذه الآيات:

{أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185)} الأعراف.

لاحِظْ أن المحتوى الفكري لهذه الآية لا يرتبط بزمن محدد. فالنظر إلى ملكوت السموات والأرض وخلق الله حدثٌ مستمرٌ إلى يوم القيامة، وكل يوم يحدث فيه اكتشافُ حديثٍ لم يعلمه الأولون، لذلك فالتنبيه لاقتراب الأجل ليس تنبيهًا لمن ماتوا وزالوا، وإنما هو حديث الحي الذي لا يموت لمن يقرأ الآية في أي زمن من الأزمان. وهكذا نجد أن الله تعالى يحتكر صفة الحداثة للقرآن وحدَه:

{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6)} الكهف.

إضفاء صفة "الحديث" على قصص القرآن تعني أن بين طياتها علمًا حديثًا سيكتشفه الناس في كلِّ زمنٍ مستقبليٍّ فيكون حديثًا لهم وليس كلامًا من الماضي.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53)} الأحزاب.

هنا نلاحظ أن لفظ "حديث" الذي يشير لِما كان يدور من كلام في بيوت النبي كان حديثًا حينها، لكنه انحصر في إطار زمانٍ ومكانٍ محددٍ ببيوت النبي، وعليه فقدْ كان حديثًا حين الحدث وما عاد حديثًا اليوم، وإنما تاريخٌ وسيرةٌ.

وعليه فإننا نأخذ من هذه الآية المعلومة التاريخية فقط لكن الأحكام فيها لا تنطبق علينا لأننا لسنا جزءًا من مجتمع النبي. لكن ما زالت الآية حديثًا وفيها مفاجآتٌ حديثةٌ جدًا، أترك التعليق عليها الآن وهي أمامك، لكن سنكتشف فيها أفكارًا حديثًا أكثر من مرة في هذا الكتاب. وعليه فالقرآن بصورته المطلقة هو حديث لا يصيبه القِدَم:

{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)} الزمر.

الآية أعلاه آية سيادية ملكوتية قدسية تحتكر لفظ "حديث" على القرآن وحدَه، ولا يمكن لقول البَشر أن يكون نِدا للقرآن في ديمومة الحداثة معه.

{تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6)} الجاثية.

لاحِظِ النبرةَ الحاسمة السيادية في احتكار لفظ "حديث" لله وآياته، التي تحذر من الإيمان بأي حديث غيره. لا بد من التذكير بأن لفظ آية لا يقتصر بالضرورة على الألفاظ في الآية، وإنما على المحتوى الفكري الذي يهدي إلى الله ويمثل دليلاً على وجود الله وأن هذا كتابه، وقد ناقشنا ذلك في باب "علوم القرآن".

{أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34)} الطور.

هنا لا تدع لنا الآيةُ مجالاً للشك أن لفظ الحديث في القرآن هو القرآن نفسه. فالتحدي هنا أن يأتوا بـ "حديث" مثل القرآن، وهذا محالٌ لأنّ أيَّ كلام مهما كان حديثًا اليوم سيصبح قديمًا غدًا إلا كلام الحي الذي لا يموت.

ولعل المتدبرين لكتاب الله يلاحظون بين الفينة والأخرى أنهم فجأة سيلتفتون إلى معنًى حديثٍ لآية قرأوها عشرات أو مئات المرات من قبل لكنهم يستشعرون رعشة وهُم يطالعونها وكأنها كُتِبت اليوم فقط. ولعلّ محتوى "نظرية آذان الأنعام في الخلق والتطور" خيرُ دليلٍ على هذه الحداثة، إذ إن الألفاظ هي نفسها الألفاظ لكن ما كان للسلف أن يفهموا منها إلا "أذنيها" لأن الآية 119 من سورة النساء لم تكن تخص مَن سبقنا فلما جاء زمانها أصبحت مرئية لنا وللملايين الذين أصابتهم الدهشة معنا، وكأنها أحدثُ ما كُتِب في القرآن. بل من معجزات القرآن لمن يؤمنون به، ومِن تحدياته لمن لا يؤمنون بمصدره الإلهي، أنه يتحدث عن المستقبل بصيغة الماضي. فلا مستقبل ينتظر عند الله، إذ إن كل ما سيحدث معلوم له، لذلك سيكون حديثًا علينا لكنه في علم الله حدث مضى وانتهى ولا تبديل لكلماته، مثلاً:

{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118)} المائدة.

من هنا يمكننا استيعاب التحدي في قول الله تعالى: {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34)} الطور. هل تستطيع أن تكتب سيناريو لقصة ستحدث سنة 3500؟ فالحوار أعلاه بين الله وعيسى والذي أتى بصيغة الماضي سيحدث يوم القيامة بلا شكٍ وسيكون حديثًا حينها لكن من المحال لكلام البشر اليوم أن يكون حديثًا غدًا.

إذن: " فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ" لا تعني أنْ تأتي ببعض الترانيم التي أتى بها أمثال مسيلمة: "الفيل وما أدراك ما الفيل، كرشه كبير وذيله قصير"، وإنما أن تأتي بكلام ثقة وحق عن المستقبل ويكون حينما يأتي المستقبل حديثًا أي سبق الزمان في توثيق الحدث. إنه التحدي الذي لا يطرحه إلا الله وما زال قائمًا.

{أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61)} النجم. الحديث هنا هو القرآن وليس غيره. وتمضي الآيات تؤكد أن "الحديث" هو القرآن وحده:

{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (80) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81)} الواقعة.

{فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45)} القلم.

{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78)} النساء.

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (87)} النساء.

فيما سبق ورد اللفظ ليصف الكلامَ المكتوب والمقروء في القرآن أنه هو الحديث ولا حديث غيره. أمّا الآية التالية فتصف الطبيعة الذاتية للخطاب القرآني أنه دائم الحداثة:

{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2)} الأنبياء.

فالآية أعلاه تصف حداثة الذِّكر الذي أنزله الله، لكن لمّا كان الذِّكرُ حديثًا مُحدثًا في كل الأزمان فإن معناه ينطبق عليهم وعلينا وعلى مَن بعدنا ولا ينطبق مفهوم "ديمومة الحداثة" إلا مع كتاب الله وآياته.

على عكس ذلك نجد لفظ " جديد" يرتبط بما ذهبنا إليه وهو إعادة القديم في ثوب جديد:

{وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10)} السجدة.

لقد رأينا في باب "خير القرون" أن هناك تمييزًا كبيرًا بين الخطاب النبوي والخطاب الرسالي في القرآن حين الإشارة لشخص محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- بـ " يا أيها النبي أو "يا أيها الرسول"، فالنبي كان بَشرًا يأكل الطعامَ ويمشي في الأسواق ويتفاعل مع قومه في حياتهم اليومية كعامة البشر. وكان فوق ذلك الفقيه الذي يستنبط الأحكامَ الشرعية مما أُنزل إليه في القرآن، وكان الحاكمَ الذي ينفذ السياسة الشرعية ويصرِّف شؤون المجتمع، وكان القائدَ العسكري بقدْر ما كان الزوجَ والأب في بيته. وعليه فإن ما كان يصدر عنه من كلام وأفعال لم يكن يُطلَق عليه لفظ "حديث" حيث لا يستقيم اللفظ منطقًا ولا عقلاً إلا بمقدار ما كان يُطلَق على كلام كل البشر مسلِمهم وكافرهم أنه "حدَّثني" بمعنى قال لي. وكل حديث في يوم يصبح كلامًا قديمًا غدًا.

هنا نحتاج لمقارنةٍ تعيد لنا ترتيبَ الأفكار التي تم التلاعب بها قرونًا طويلةً. فقدْ رأينا في باب: " في الطريق إلى دمشق" أنه بعد أن تمت صناعة الدين المسيحي الذي يرتكز على حياة المسيح -عليه السلام- كمخلِّصٍ للبشرية وابن لله، فقد أُطلق مصطلح "العهد الجديد" في الكتاب المقدس ليشمل التراث المسيحي بما فيه الأناجيل المعتمدة ورسائل القساوسة مِن بعد عيسى. بمجرد تسمية تلك المرحلة بـ "العهد الجديد" والتي تعني عهدَ اللهِ الجديد مع الإنسانية، أصبح التراث اليهودي التوراتي وشريعة موسى والأنبياء والمرسلين مِن بعده في بيت إسرائيل، أصبحت هي "العهد القديم". لكن لا يعقل أن موسى في زمانه كان يُسمِّي التوراةَ "العهد القديم". التراث اليهودي والشريعة الموسوية كانت هي عهد الله مع بني إسرائيل على امتداد التاريخ إلى أن ابتُكِر "عهد جديد"، فأصبح منطقيًا حينها فقط أن يطلق على ما تم تعطيله "العهد القديم". لو طبقنا المنطقَ نفسه على زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- فلا يعقل أن أصحابَه وأعداءه على السواء كانوا يطلقون على كلامه اليومي وأحداث حياته اسمًا محددًا؛ لأنه كان حيًا بينهم وواقعًا يعيشونه معه.

لذلك كان القرآن حاسمًا في تخصيص مصدر الهداية منه وحده:

{وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106)} الأنعام.

نلاحظ أن الأمر هنا للنبي نفسه أن يتبع ما أوحي إليه في القرآن، ولم يكن له حق التشريع الذاتي خارج القرآن إلا من باب الاجتهاد في فهْم ما أوحي إليه. دوره كان تنزيل ما أوحي إليه على أرض الواقع في بيئته وزمانه ليتحول إلى نصائحَ وأفعالٍ وأوامر ونواهٍ هي التي تم جمعها ووصفها وتصنيفها لاحقًا في "حرب المصطلح" تحت مسمًى مضادٍّ للقرآن منتزعًا منه صفة الحداثة ومانحًا إياها لأقوالٍ منسوبةٍ للنبي -صلى الله عليه وسلم- التي لم تكن إلا استنباطًا موقوتًا من القرآن حينها. وأقصد بـ "حرب المصطلح" الحرب الفكرية التي تتبنى مصطلحًا له مدلول محدد فتطلقه على مدلولٍ مضادٍّ له حتى تختلط المعاني والمدلولات في الأذهان كما رأينا في باب "حليمة بائعة اللبن". مع بداية تلك الحرب بدأ الطريق يتشعب حينها:

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)} الأنعام.

والصراط المستقيم ليس طريقًا رفيعًا كخيط العنكبوت بين الجنة والنار كما روت كُتُب الأساطير وإنما هو المنهج السليم الذي رسمه الله وحده لتحقيق مفهوم العبودية لله في هذه الدنيا، لكن بعد أن تم تحريف مدلول الصراط المستقيم تحقق ما حذر الله منه، وكان أن تفرقت بهم السبل ثم ورثنا منهم متاهاتٍ لا يحصيها إلا الله تعالى.

{وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155)} الأنعام.

الأمر هنا للنبي نفسه وقومه. فلم يكن هناك مصدرُ تشريعٍ أو وحي غير القرآن وحده. أمّا علاقة كل الناس بالرسول -صلى الله عليه وسلم- فقدْ سماها الله تعالى بالأسوة الحسنة وليس "السنة النبوية المطهرة" كما ورثنا المصطلح المقدس:

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ <u>فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ</u> لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21)} الأحزاب.

الأسوة تعني الاقتداء والتشبه بالشخص المَعني في منهجه وسلوكه لكنها لا تعني أن تتخذه مصدر تشريع مستقل. وهذا يقودنا لمناقشة لفظ "السُّنّة" الذي اتخذ مرادفًا للحديث في التراث الإسلامي لاحقًا حيث يقول العلماء إن التمييز بين مفهوم "السُّنّة" و"الحديث" صعبٌ نتيجةً للتداخل الكبير بينهما. وهذا واحد من الأسباب التي جعلتني أُسقِط لفظ "علوم" مِن مفهوم "علوم الحديث"، لأن لفظ عِلم يدل على علامة بالشيء تميزه عن غيره. بينما ما يُعرَف بـ "الحديث" اليوم لفظ تجنَّى على اللفظ نفسه الذي احتكره القرآن لنفسه، وقد وصف به كلام لا يستوفي الحداثة في كل زمان ومكان، وأخيرًا لا يمكن التمييز بينه وبين مصطلحات "السُّنّة" و"السيرة". وقبل أن نناقش آراء المختصين يستحسن أن نقدم "حديث" الله تعالى في تعريف لفظ "السُّنّة":

"السُّنّة" في اللغة والقرآن:

لفظ "سنَّ" في المعجم يفيد جريانَ الشيء واطّراده في سهولة ومِن هذا الأصل اشتقت قياسات. ولفظ "سُنّة" المتداول يفيد جريان واتصال سيرة شخص ما في الأجيال القادمة. ومنه أيضًا مفهوم "سَنِّ" القوانين والتشريعات التي تسري على المجتمع في اتصال. أمّا القرآن فقد استعمل اللفظ في كل الآيات التي ورد فيها لفظ "السُّنّة" لتفيد تقدير العلي الحكيم وحده وتشريعه الثابت في الكون الذي يسري على الخليقة ومخلوقاتها:

{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (38)} الأنفال.

"سنة الأولين" هنا تعني سنة الله في الأولين. الآية تدعو لأخذ العبرة من قانون الله وحكمه على مَن سبق أنه يسري على مَن هو آتٍ أيضًا:

{لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13)} الحجر.

ولأن سنة الله، أي تشريعه لا تبديل فيه فقدْ صرح القرآن بذلك:

{سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (77)} الإسراء.

من هنا نفهم أن مسار الكون والحياة محكوم بسُنّة وشرع الله الأزلي الذي لن يتبدل أو يتحول:

{وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (55)} الكهف.

فما تم سَنُّه مِن الله للأولين ماضٍ فينا إنْ اتبعنا طريقهم المعوج. تتغير الأجيال لكن السُّنّة ثابتة إن تشابهت الأفعال.

{مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (38) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39)} الأحزاب.

نلاحظ نبرة السيادة الملكوتية القدسية هنا في احتكار لفظ "السنة" لله وحده وأنها تعني تقديرَه لكل أحداث الكون، وأن النبي نفسه محكوم بها وما وظيفته إلا تبليغ رسالة الله واتباع سنة الله في الكون. وهكذا في كل الآيات التي ورد فيها لفظ "سنة" في القرآن نجد أن مصدر السنة أو "السَّن" هو الله تعالى، وأن سُنَّتَه ماضيةٌ على الجميع لا تبديل فيها ولا تحويل:

{سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (62) الأحزاب.

اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (43)} فاطر

{فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85)} غافر.

{سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (23)} الفتح.

{قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138)} آل عمران.

نلاحظ مِن الآيات السابقة أن "سُنة الله" وهي تشريعه وتقديره لمسار الأحداث في الكون ثابتة لا تبديل فيها ولا تحويل. وما التذكير بها إلا لنأخذ العبرة ممن سبقنا، لأن هذا هو "الصراط المستقيم" الذي سَنَّه الله للجميع وهو سبيل الرشاد المنشود الذي فرضه على المرسلين وعلى مَن أرسل إليهم المرسلين سواء بسواء:

{ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26)} النساء.

يمكننا الآن، وقبل أن نخوض في الحقبة الزمنية التي بدأت فيها "حرب المصطلح" و تبدل فيها استعمال الألفاظ، وتغيرت فيها مدلولاتها واختلقت أحاديث غير "أحسن الحديث" وشرعت فيها سنن غير "سنة الله"، أن نخلص للحقائق التالية:

أولاً: القرآن مهيمن على الدين كله، والمصطلح القرآني لا يمكن تغييره والإتيان برديفٍ له في الفقه أو التراث الإسلامي، وإلا كانت النتيجة انحرافًا عن الصراط المستقيم.

ثانيًا: في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان هناك حديث واحد هو القرآن. وكانت هناك سنة واحدة هي سنة الله تعالى. وما حياة النبي ومَن حوله إلا تطبيق بشري للشرع القرآني في واقع وبيئة النبي لكنها ما أشير إليها لا بلفظ "سنة" ولا بلفظ "حديث".

ثالثًا: الرسول نفسه كان ملزما باتباع "أحسن الحديث" كلام الله، وبتطبيق "سنة الله" كما أمره الله وما كان له أن يحيد عنها وإلا فما بلغ رسالته.

الـ "وتس آب":

وقبل أن أختم العصر الذهبي هناك سؤالٌ منطقيٌّ سألني إياه الكثير من الإخوة والأخوات عن تاريخ لفظ "الحديث" يحتاج منا لإجابةٍ عقلانيةٍ بحتةٍ لأن الدلائل التاريخية غير متوفرة إلا ما وثقه القرآن أعلاه. وكما ذكرتُ في باب "أفلا تعقلون" فإن مِن أهم سمات عملية عقل الأمور هي المقدرة على وضع "الحدث" أو "الحديث" في مكانه التاريخي السليم، ومن ثم فهم مدلوله هناك.

لنجيب عن هذا السؤال الموضوعي نحتاج لأن نضرب مثالاً من واقع تطور علمنا في حياتنا اليومية: في أيام الطفولة كان كل منا يتعامل مع "السكّر" و"الملح" و"الماء" و"الكهرباء" و"النور" و"النار" تعاملاً عفويًا تمامًا كما يتعامل معها أجدادنا الذين لم يذهبوا للمدارس، حيث نستعمل كل منها استعمالاً سليمًا من غير التفكير فيما هي. فالسكّر للحلو والملح للطعام والنور للظلام والنار للطهي والكهرباء تشغل أدوات كثيرة في البيت وكفى. مع دراستنا الأكاديمية أدخل لعلمنا مفهوم "الكيمياء" و"الفيزياء" كمصطلحات علمية تندرج تحتها الكثير جدًا مما ألفناه في طفولتنا من غير تصنيف علمي. فأصبح "الملح" في علمنا مركّبًا كيميائيًا يتكون من اتحاد "الكلوريد" مع "الصوديوم"، ثم علمنا أن هناك أملاحًا تُؤكل وأملاحًا تَقتل. و"السكّر" أصبح مركبًا كيميائيًا عضويًا يمكن أن يكون "جلوكوز" أو"سكروز" أو "فركتوز" أو "لاكتوز" أو غيرها من مسميات الكيمياء الحيوية. وأصبح الماء عبارة عن حالة فيزيائية لاتحاد ذرتَي هيدروجين مع ذرة أوكسجين كمركبات كيميائية، ويمكن أن يوجد في ثلاث حالات فيزيائية هي: السائل "الماء" أو الغاز "بخار الماء" أو الصلب "الثلج". وأيضًا أصبح النور والنار يندرجان تحت ما يعرف بالطاقات... إلخ. كل هذه التصنيفات تتم بأثرٍ رجعيٍّ في أذهاننا لشيء كنا نتعامل معه من غير تصنيف علمي من قبل.

لو حاولنا أن نطبق الفكرة نفسها على العصر النبوي في محاولة لفهم كيف تعاملوا مع مضمون "الاصطلاحات" التي ابتكرت بعد عصر النبي بفترة، لكنها الآن تُسمّى "عصر السلف" وتقع بيننا وبينهم، سنجد أن المجتمع النبوي كان يسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية الطبيعية البسيطة، كما سمي جَدّي وجدُّك الملحَ والسكر بأسمائها من غير علمٍ لهم بتصنيفها الكيميائي. فالأفعال تُسمّى كما هي: من أكل وشرب ومشي وركوب ونزول ونوم واستيقاظ وغيرها. والكلام يسمي حديثًا أو قولاً أو كلامًا وهكذا. هذه المفاهيم هي التي كانت سائدة في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- لتصف أعماله وأقواله، لكنها لم تكن تندرج تحت مُسمًّى جامع اسمه "الحديث النبوي الشريف". مجرد ما وجدت هذه التسمية التصنيفية في كتب التراث لا بد أن تتذكر أنها تمت في زمنٍ لاحقٍ وبأثرٍ رجعيٍّ، لكن لو بُعِث أحد أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم- فلن يفهم ماذا تعني. ما كان متداولاً بينهم هو القول الطبيعي: سمعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم- يقول... كنا مع رسول الله ففعل كذا وكذا... لقد فعلنا كذا فنهانا رسول الله... وهكذا. المصدر العلمي والفكري الوحيد الذي كان له اسم في زمن النبي هو "القرآن"، وكانوا يقولون: أوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كذا من القرآن، وهذا لأن القرآن سمّى نفسه القرآن كما ناقشنا ذلك في باب "علوم القرآن"، فأصبح اسمًا علمًا ينطبق فقط على الوحي الذي سماه الله على لسان النبي " القرآن"، لكن كل حياة النبي من أقوالٍ وأفعالٍ خارج القرآن ما كان لها اسمٌ جامع يصفها، تمامًا كما كانت حياة أي فرد في المجتمع. بل النبي-صلى الله عليه وسلم- نفسه لم يكن يرتدي لباسًا يميزه عن بقية الناس، ولا كان له مجلسٌ يميزه وسط أصحابه كما نتوهم اليوم من فرط تأثرنا بفخامة المسجد النبوي في المدينة المنورة. وقد وثق التاريخ رواياتٍ كثيرةً لأعراب أتَوْا يسألون عن الإسلام فبدأوا بالسؤال عن هذا الذي يزعم أنه نبي، فيجيبهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنا هو. وقد اشتُهر أن أبا بكر الصدِّيق قد وضع عباءَته على كتف النبي في لحظة دخولهما المدينة يوم الهجرة لأن أهل المدينة والمهاجرين مِن قبائلَ أخرى ما كان بوسعهم التمييز بين أبي بكر ومحمد حينها. إذن، نحتاج لأنّ نعيد التصور الطبيعي السائد حينها عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وكيف تعامَلَ أصحابُه معه، فقد كان طبيعيًا أنهم كانوا يتبادلون أخبار النبي ومقولاتِه وأفعاله بالصورة العفوية التي تصف الحدث أو تنقل الكلام منسوبًا للنبي-صلى الله عليه وسلم- من غير تصنيف. بمعنًى آخر لم يكن هناك شيءٌ اسمه "الحديث" موازيًا للقرآن وإنما كانت أخبار "محمد" من أفعال وأقوال يتناقلها الجميع: الصديق والعدو. فمحمد -

صلى الله عليه وسلم- لم يكن تاريخًا ولا أسطورةً بعد، وإنما كان بَشرًا يعيش مع قومه وفقًا لظروفهم، فقط كان يوحَى إليه القرآن. وهناك فرق شاسع بين أن تكون أنت الآن كما أنت، وبين أن يُكتَب عنك كتابٌ أو يصور عن قصة حياتك فِلْم سينمائي بعد مئة عام.

والمتعارف عليه في كل الثقافات الإنسانية أن الأحداثَ تصبح تاريخًا على الأقل بعد 25 عاما من الحدث. أي بعد وصول جيلٍ كاملٍ لسِنِّ النضج والمسؤولية وأن يكون هذا الجيل قد ولد بعد حدوث الحدث. فإنْ كان ما يسمى علم الحديث بما فيه السيرة والسنة يوثق تاريخ النبي وأخباره، فإن كل اصطلاحاته الفنية قد ابتُكِرت بعد أن أصبح العصر النبوي نفسه تاريخًا، وبدأت شخصياته تتحول إلى أساطيرَ لدى بعضهم. لكن في زمن النبي لم يكن ذلك التاريخ الذي تمت كتابته لاحقًا جزءًا من حياتهم وما كان له أن يقع في إطار معرفتهم لأنه كان مستقبلاً لم يقع بعد.

هذه الحقيقة نحتاج لاستيعابها جيدًا لأنها تعيننا على التمييز بين الواقع والممكن حين الحدث أو الحديث، وبين ما تم توثيقه لاحقًا حينما أصبح الحدث والحديث تاريخًا. وهنا لا بد من ابتكار مصطلح عصريٍّ سهل الفهم لشباب اليوم يلخص هذه الفكرة؛ لأننا سنحتاج إلى لإشارة إليها في الأبواب القادمة من غير إعادة شرح، ونحن نراجع مصداقية بعض الروايات الخطيرة المنسوبة للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه.

لو كَتَب أحدُهم اليوم مقالاً وذَكَر فيه أنه تلقى رسالة بـ "الوتس آب" من صديق له، فإن غالبية الشباب والشابات المتعلمين في هذا الزمن سيعلمون ما هو "الوتس آب". وأيضا سيعلمون أن هذا المقال لا بد وقد كُتِب بعد سنة 2009 وهو تاريخ ابتكار "الوتس آب". فإذا قرأتَ مقالاً يزعم كاتبه أنه يرجع إلى سنة 1980 وورد فيه لفظ "وتس آب"، ستعلم حينها أن الكاتب كذّاب لأنه استعمل لفظًا ما كان متداولاً ولا معروفًا في ذلك الزمان، وأن المقال لا بد وقد تم تزييفه بأثرٍ رجعيٍّ، ونسي من زيفه أنه استعمل لفظًا لم يكن من ألفاظ الزمن الذي نسب إليه المقال.

هذا الأسلوب في فحص المقالات والوثائق التاريخية أسلوبٌ علميٌّ حديثٌ معروفٌ في الطب الشرعي كما هو معروفٌ في علم الآثار. فالطبيب الشرعيّ كثيرًا ما يُطلب منه تحديد ما إذا كانت هذه الرسالة حقيقةً مِن كتابة المتهم أم مدسوسة عليه. وهنا نأخذ في الاعتبار بجانب التفاصيل الدقيقة عن خط اليد وطريقة الضغط على الحروف كيفما يكتبها المتهم، نأخذ في الاعتبار كل لفظ من ناحية تاريخية متى أصبح مستعمَلاً، وما إذا كان مِن ألفاظ المتهم وزمانه وظرفه الاجتماعيّ ومستواه العلمي والثقافي... وهكذا.

فلا يعقل أن يقف خطيبُ جمعةٍ ويزعم أن الرسول قد حسم معركة أُحُد بسلاح الطيران. الأمر سيكون مضحِكًا للمُصلّين بالبداهة لأن مفهوم "سلاح الطيران" لم يدخل العلم التراكمي للإنسانية إلا بعد 1300 سنة من موقعة أُحُد. لكن الجملة نفسها ربما تكون حقيقية إذا كان الحديث عن حرب أكتوبر 1973.

في مراجعتنا لبعض الروايات الخطيرة في الأبواب القادمة سنكتشف عددًا من الألفاظ والأفكار حُشِرت حشرًا في روايات زعموا أنها من زمن النبي لكنها لم تكن من مصطلحات ولا أفكار زمانه. هذا الحشر سأشير إليه فقط بـ "الوتس آب" للاختصار. ووجود "الوتس آب" في مثل هذه الروايات يفضح أنها مزوّرة، ويمكن بمعرفة متى ظهر المصطلح نفسه أن نفضح تاريخ التزييف. وابتكاري للفظ "الوتس آب" لهذه الوظيفة لأن الكتاب الذي بين يديك يخاطب جيلَ اليوم والأجيال القادمة، ولا أتوقع أن يناقشني فيه ابن تيمية أو ابن حنبل. وفيه أيضا أتّخِذ مِن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أسوةً حسنة في مخاطبة الناس بقدر عقولهم ولسان حالهم وزمانهم لأن المقصد هو وصول المعلومة بصورة ميسَّرة سهلة وليس استعراض عضلات في نقل عمن سبق.

بعد موت النبي -صلى الله عليه وسلم- كان طبيعيًا أن يتناقل الناس ما كان من حاله وما قال من أقوال، لكنها لم تكن دينًا منفصلاً أو تشريعًا موازيًا، وإنما كانت أسوة حسنة يهتدي بها في فهم تطبيق القرآن في كل واقع مستجد.

ظلت الحال كما هي في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي حيث لم تظهر مصطلحات مناقضة أو مرادفة للمصطلح القرآني تجعل من النبي نفسه مصدر تشريع موازيًا للقرآن. لذلك لم يكن هناك علم اسمه علم الحديث، ولم تكن هناك سُنّة تسمي سُنّة النبي، وإنما كانت هناك سيرة حسنة سارها النبي ومِن بعده الخلفاء الراشدون

مصدرهم الوحيد في التشريع هو أحسن الحديث كلام الله في القرآن، ثم الاجتهاد والقياس على ما طبقه النبي في حياته من فهمه القرآن. فلما انهارت الخلافة الرشيدة انفجر الواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي ليبدأ عصر جديد ابتُدِعت فيه مسميات جديدة تصف ما أصبح تاريخًا حينها، فأصبح لفظ "الحديث" يشير بأثرٍ رجعيٍّ لأقوال وأفعال النبي، بينما سيرته أصبحت تحمل اسم السُنّة النبوية، وهذا ما سنناقشه في القسم الثاني في "عصر الأقاويل".

وعليه فإن إطلاق لفظ "حديث" على كل قولٍ أو عملٍ نُسِب للنبي-صلى الله عليه وسلم- منذ بداية "حرب المصطلح" إلى اليوم هو أول "وتس آب" في التراث الإسلامي. ببساطة لأنه لو بُعِث علي بن أبي طالب -كرَّم الله وجهه- وهو أقرب المقربين لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- بصِلة الرحم وبحكم النشأة في بيته، ثم إنه كان أول رجُلٍ آمن به وهو طفل وتزوَّج ابنتَه الحبيبة فاطمة الزهراء وعاصر كل حياته، لو بُعِث علي وسألتَه: {هل مقولة "اطلبوا العلم ولو في الصين" حديث؟} فإنه لن يجيبك " لا، إنها مقولة شائعة لكن رسول الله لم يقلها"، مثل هذا الرد يمكن أن يأتي من عالم اليوم، لكن عليًّا لن يفهم السؤال مِن أصله لأنه لن يفهم ماذا يعني لفظ "حديث" إذ إنه "وتس آب" اختُلِق لاحقًا وما كان معروفا زمن النبي وأصحابه!

فقط أضيف هنا أن عصر الخلفاء الراشدين من ناحية توثيقٍ تاريخيٍّ يندرج تلقائيًا في "العصر الذهبي" حيث كان القرآن هو مصدر التشريع ومصدر العلم الوحيد في الإسلام، وكانت سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- العطرة واقعًا عايشوه معه ولم يكن تاريخًا بعدُ يتلقونه من مصدر آخر غير ذاكرتهم ومعاصرتهم له. لكن سنلاحظ أن الخلفاء الراشدين كانوا قد فطنوا لحقيقة أنه بمجرد أن يصبح العصر النبوي تاريخًا، سيفتح بابًا واسعًا للفتن بالكذب على رسول الله وعلى أصحابه، لذلك كانت مقاومتهم لتلك الفتن قبل أن تقع واضحةً جدًا في سيرتهم كما سنرى.

(2) "الحديث" في عصر الأقـاويـل

هذا المبحَث يبحث فيما يسمَّى بـ "الوتس آب" الذي يُعرَف بـ "علم الحديث" اليوم. ورغم أننا سنعود للبحث في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- من جديد، إلا أننا الآن نقرأ الفترة ذاتها بعد أن أصبحت تاريخًا وبعد أن ظهر ما يسمى بـ "علم الحديث" ليوثّق ما كان من آثار النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحبه الكرام بعد ما عمّت الفتن واسْتَشْرَتْ تجارة الكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فكانت أهم سمات العصر هي "الأقاويل" المكذوبة على النبي وصحبه في غياب توثيقٍ علميٍّ منهجيٍّ لتاريخ العصر الذهبي الذي أصبح كل جيله عند ربهم الآن.

من بين كل الكتب السماوية فإن القرآن العظيم وحدَه هو الذي حُفِظ من التبديل والتحريف؛ لأن الله سبحانه وتعالى كلَّفَ رسولَه بكتابته بخط يده اليمنى كما رأينا في باب "علوم القرآن"، ثم يَسَّرَ للناس حفظه في صدورهم منذ نزوله على النبي-صلى الله عليه وسلم-، ثم نسخه فيما يعرف اليوم بـ "الرسم العثماني" وهو ثاني أهم "وتس آب" في التراث الإسلامي، إذ إن عثمان لم يرسمه وما كان لله أن يترك كتابه لغير رسوله أن يخطه بيمينه وإلا فما بلغ رسالة ربه. والمصحف المعروف اليوم ليس إلا استنساخًا للمصحف النبويّ، وما يزال ملايين الناس حتى الآن يحفظون نصه الكامل في قلوبهم حول العالم. ومِن بين أقوال كل الأنبياء وأحاديثهم وكلامهم وأفعالهم وأحوالهم، بُذِل جهدٌ هائل، وغير مسبوق حتى عصره، في تدوين كل ما ارتبط بحياة النبي من أقوال أفعال وظروف مرت به. هذا التراث الإسلامي تطور تدريجيًا إلى أن أخذ مسمياتٍ أكثر تفصيلاً وتخصصًا، فظهر ما يعرف بالسيرة ثم الحديث والسُنّة، وهُما موضوع هذا الباب.
إن التقدير الذي يقدمه المؤمن لمن قاموا بهذا الجهد الضخم لا يجب أن يعني على الإطلاق تجاوزَ الإخفاقات والنقائص التي تشوب أيَّ عملٍ بشريٍّ، خصوصًا في مجال المرويّات الشفهية التاريخية، وخصوصًا إذا كانت الأدوات المعرفية والمناهج العلمية غيرَ متوفرةٍ في ذلك الزمان، إذ كانت تُبتَكر وتُجَرب مباشرة. فالعرب لم يكن بينهم مؤرخون محترفون، ولم يعتادوا على تدوين التاريخ إلا فيما ندر، ووجد التدوين طريقه للأشعار والنثر. هذا بالإضافة إلى أن أدوات الكتابة والتدوين كانت بدائية وعلى رقاعٍ لا تصمد لوقت كافٍ يجعلها وثائق معتبرة. وإذا أضفنا لذلك أن التنقل والسفر في طلب مَن عاصروا ورووا عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، أولئك الذين تفرقوا في البلدان التي دخلت الإسلام، كانا (أعني أدوات الكتابة والتدوين إضافة إلى التنقل والسفر) عسيرين جدًا ويهدران الوقت الذي هو عامل حاسم في التوثيق والتنقيح.

ويجب ألا ننسى أبدًا الدورَ السلبي الهدام الذي قام به أعداء النبي والإسلام منذ يومه الأول في تحريف أقواله والكذب عليه. فإنْ كان العرب المؤمنين قد احتاجوا لوقت لاستشعار أهمية تدوين التاريخ، فإن اليهود الذين جاوروهم في المدينة أولاً ثم أصبحوا مستشارين لملوكهم في الشام لاحقًا كانت لديهم خبرةُ آلافِ السنين في تحريف وصناعة الأديان، وكان التعاون بينهم وبين المنافقين من الأعراب تعاونًا وطيدًا جدًا بل وأكثرَ منهجيةً وإتقانًا من تدوين العرب لِما صح عن النبي. ولا دليل على ذلك أبلغ من كون الكذب على رسول الله قد بدأ في حياته في المدينة:
{وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (81)} النساء.

اليوم، وبعد أربعة عشرَ قرنًا من وفاة النبي-صلى الله عليه وسلم-، وبعد تاريخ طويل من النزاعات والحروب والمعارك والفِرَق والجماعات والسلاطين والأمراء، وفي واقعٍ مُزرٍ يرزح فيه المسلِمون في كل أنحاء العالم الإسلامي، ويواجه الإسلامُ تحديًا فكريًا وحياتيًا وحضاريًا، ننظر إلى النصوص والمرويّات والفقه (التراث) فنجدها عاجزةً ومعيبةً، ولا تنهض في وجه التساؤلات والفحص العميق، ولا تقدِّم حلولاً للتحديات والمشكلات التي نعيشها ويعيشها العالم. لا شك أن الإسلام دينٌ يناسب الناس جميعًا لكنه بسبب التراث المشوه لا يزال يُقدَّم بشكلٍ منفّرٍ وبغيضٍ. ولا شك أن ما أضافه الناس عبر التاريخ هو العقبة والعيب وليس الدين نفسه. من هذا المنطلق فإن التخفيَ خلف المجهودات الجبارة التي بذلها مَن سَلَف في سبيل حفظ التراث الإسلامي ليست عذرًا لنا أن نتوقف عن المسيرة فنقدس أخطاءَهم ونخذلهم بأن ننشر عيوبهم على العالم ونترجمها للغات أخرى بحجة أنهم سلف هذه الأمة. إن علينا واجبًا لا يقل أهميةً عن واجبهم وهو أن ننقي التراثَ الإسلامي من الحشو والتشويه الذي لحق به في قرون طويلة. وفي هذا الصدد فإن الأولية في التنقية يجب أن تنال ما يُعرف بالسُّنة النبوية والحديث. ورغم أن بعض رجال الدين يستميتون في الدفاع عن رجال الحديث وكُتُبه حتى يكادوا يقولون بعصمتهم، إلا أن هذا السلوك المعوج ليس مستحدَثًا في التاريخ الإنساني، وما من أُمّة بُعِث فيها رسول إلا استمات كهنتُها في الدفاع عن تراث الآباء. ولا بد من التنويه إلى أن هذا الباب يبحث في تاريخ الحديث من مدخل المذهب السُّني وحده إذ إن للشيعة علمَ الحديث الذي يخصهم ويختلف اختلافًا كبيرًا عن المذهب السُّني، لكن لا يمكن المقارنة بين المذهبين في كتاب صغير كهذا.

مدخل نقدي:

قبل أن نغرق في التراث الهائل المرويّ عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، نحن بحاجة إلى مدخلٍ عقليٍّ وموضوعيٍّ توجزه فكرةٌ بسيطةٌ ومنطقيةٌ والأفضل أن تُطرَح في صيغة أسئلة:
ما الذي نتوقع أن نجده فيما ينسَب إلى النبي-صلى الله عليه وسلم- سواءٌ أتحت مسمى السُّنّة أم الحديث؟ كما هو المدخل لأي بحث علمي موضوعي، علينا أن ننظر للمنقول في كتب الحديث من صحاح وسُنن ونطرح أسئلة ثم نبدأ في البحث عن إجابة عليها:
أولاً: هل تتفق كل المرويات عن النبي-صلى الله عليه وسلم- مع الصريح في القرآن العظيم الذي هو رسالة الله للناس؟
ثانيًا: هل تتفق المرويات مع سيرته وتجربته وممارسته للدين وهو النموذج الإنساني والمَثل الذي يُحتَذى؟
ثالثًا: هل تتسق قائمة الرواة مع قائمة أقرب الناس منه وأطولهم صحبةً ورفقةً؟
رابعًا :هل هناك فراغاتٌ في الموضوعات والقضايا والأحداث والتاريخ في حياته ومقاله وكلامه وسنوات عمره، وهل ثمة أشياء غائبة؟
خامسًا: هل تغطي هذه المروياتُ قضايا ذلك العصر على المستوى الإنساني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري والحضاري؟
سادسًا: هل ثمة تناقضٌ واضطرابٌ في ما يروَى عنه أو حتى انتقاصٌ له في السيرة المروية عنه؟
سابعًا: هل ما تذكره هذه الكتب يكافئ عملَ ٢٣ عامًا من حياة النبي-صلى الله عليه وسلم-؟
ثامنًا: هل احتوت السُّنّة على خطابٍ شاملٍ يمثل مصدر تشريع يصلح لكل زمانٍ ومكانٍ بعد النبي؟
تاسعًا: هل كانت هناك ثغرات نفذ خلالها مَن فشلوا في تحريف القرآن أن ليُدخِلوا في كُتُب الحديث ما لا علاقة له بالنبي-صلى الله عليه وسلم- بعد أن عجزوا عن تحريف النص القرآني؟
عاشرًا: هل نجح المحدِّثون في ترك خلافاتهم المذهبية جانبًا وأخلصوا في النقل عن رسول الله بعيدًا عن الميول الشخصية والسياسية؟

إلى هنا ونحن نطرح أسئلةً موضوعية، ومَن كانت نفسه لا تطيق طرح مثل هذه الأسئلة فلا يظنن أنه أكثرُ غيرةً مِنّا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعلى الإسلام، وإنما هو فقط ارتضى أن يكون إمَّعة يتبع ما أُملي عليه.
لنجيب عن هذه الأسئلة نحن بحاجة لمراجعة موضوعية لتاريخ كتابة التراث الذي ارتبط بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، وبالطبع فإن الحديث هو المعني بهذا التراث. هذه المراجعة يجب أن تنطلق مِن منطلق البحث عن إجابات شافية بلا رغبة في الانتقاص من أحد، ولا التستر على أحد، ولا تهتم لأحد سوى موضوعها والرغبة في معرفة الحقيقة وسط الركام الهائل المضطرب والمشوش من التراث.

مَن هو النبي وما قيمة قوله؟ :

لقد رأينا في باب "خير القرون" أن القرآن قد ميّز بين "النبي" و"الرسول" في الخطاب وتوزيع الأدوار. ورأينا أن ما كان مِن تشريعٍ يخصّ الناسَ جميعًا قد ورد الخطابُ فيه باسم الرسول، لأنه هو المعني بالرسالة للناس كافة في كل الأزمان والأمكنة. لكن لمّا كان ذلك الرسول بَشرًا، فقدْ كان أيضًا نبيًّا لقومه الذين عاصروه. ولأن النبوة والرسالة متكاملتان، فقدْ كانت للنبي أقوالٌ وأفعالٌ ارتبطت بشخصه وبزمانه ومكانه وقومه ولا علاقة لها بالتشريع الملزِم لكل الناس. لكن لأن الرسالة نفسها لا يمكن استيعابها كاملة وإعطاؤها حقَّها مِن التدبر والفهم مِن دون العلم بظروف وحياة وفهْم وتطبيق النبي للمشترك بيننا وبين زمانه في كل جوانبها، فقدْ كان توثيق التراث المرتبط بالنبي من ضرورات تواصل الأجيال وضرورات تطور الفهم والاجتهاد حتى وإنْ لم يكن جزءًا ملزمًا من التشريع. ذلك لأن أفضل مَن يطبق الرسالة في نفسه هو مَن أُرسِل بها.
الأنبياء هُم مَن اصطفاهم الله سبحانه وتعالى واختارهم لتبليغ رسالاته وكلامه للناس، سواءٌ أكان هؤلاء الناس جماعةً أو عِرقًا أو أهلَ قرية معينة أو فئة ممن يرتكبون أفعالاً معينة. وكانوا يؤسسون هذه المهمة الإصلاحية على دعوة الناس لعبادة الله الواحد، ويؤكدون أيضًا على أن هذه الدعوة ليست إلا تجديدًا وتذكيرًا وإكمالاً لمهمة مَن سبقهم مِن الأنبياء، وما نادوا به من الرسالات. هذه المهمة الاستثنائية بلغت غايتَها في محمد -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، الذي اختاره ربُّه نبيًا خاتمًا للأنبياء والرسل ولن يأتي بعده نبي. إنَّ ختمَه -صلى الله عليه وآله وسلم- للرسالات يقتضي عالمية دعوته وامتدادها زمانًا ومكانًا.

الأنبياء كما روت السِّيَر عنهم وكما تقتضي الضرورة العقلية، هُم أرجح الناس عقلاً وأكملهم أخلاقًا وأصدقهم لسانًا وأذكاهم وأشجعهم، وذلك لحاجتهم إلى التلقي عن الله رسالته وكلامه، ولحاجتهم مِن بعدُ، لتعريف الناس وتفهيمهم ومجادلتهم وقيادتهم روحيًا واجتماعيًا، ومواجهة الرفض والإنكار والتبخيس والتعدي والأذى. هذه المؤهلات والسمات الشخصية الراقية تقترن أيضًا بالحياة المكرسة بالكامل للقيام بالمهمة الشاقة في تبليغ الرسالة والوقوف بوجه المألوف والسائد والمقبول واحتمال الأذى والتكذيب ومحاولات القتل، وتعليم أتباعهم، وتقديم حلول للمشكلات التي تواجههم، وكيفية تأسيس حياة تنبع من الإيمان وتواجه التحدياتِ اليومية والعادية.
إن معرفتنا بالسمات الشخصية وبالدور الذي نهض به الأنبياء في التاريخ ضرورية لنعرف ما يمكن أن يصدر عن النبي من قول في تأسيس الدين، كرسالة وجدال وأطروحة وفكر ووعي من جهة، وفي تأسيسه كتجربة عملية عبْر توجيه وإرشاد المؤمنين في ما يطرأ من أسئلة وحاجات ومشكلات وتحديات من جهة أخرى.

لكن رغم أهمية معرفة أدق ما يمكن معرفته عن تفاصيل حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإنه ليس مِن الدين في شيء أن نحب جميعًا "الفالوذج" لأن النبي كان يحبه، كما أنه ليس من الدين أن نَلبس جلبابًا وسروالاً عربيًا كما لبس هو. ما نستفيده من معرفة هذه التفاصيل هو أن النبي كان بشرًا له رغباته الخاصة، وكان يعيش في بيئة تفرض زيًّا ملائمًا للمناخ والذوق الاجتماعي حينها، لم يتنطع في تغييره أو التمرد عليه. وعليه فلا بد لكل مِنا أن تكون له شخصية مستقلة في اختيار ما يناسبه من طعام حلال وما يناسبه من لباس يلائم بيئته وزمانه وطبيعة عمله وغيرها من العوامل التي تحدد ما نلبس.

ولقد ناقشنا بشيء من التفصيل علاقة النبي بقومه في باب "خير القرون". تلك العلاقة التي وثّقها القرآن مميِّزًا إياها بخطاب النبوة الذي يختلف عن خطاب الرسالة الذي يخصنا. أما نحن فلسنا قومَه ولكننا أُمَّته، أي الأمة المخاطَبة برسالته وبها ستحاسب يوم القيامة وما علينا من واجب هو فهْم الرسالة واتِّباعها، وليس الوهم في الحياة في زمن النبي وأننا مِن قومه. ولعل مِن المفيد لتيسير الفهم هنا أن أسوق قصة رجُلٍ في زمننا كَتَب على الفيسبوك أن يدعو اللهَ أن يجعله "مِن" العَشَرة المبشَّرين بالجنة. ورغم حُسن نيته وحبِّه للنبي وأصحابه إلا أن الدعاء يعكس قدْرًا كبيرًا من السذاجة. فقال له صاحِبُه وهو يحاوره لو استجاب الله لدعائك فلا بد أن يزيح أحد العشرة المبشرين ويضعك مكانه، وحاشا لله مِن الغدر وإخلاف الوعد. أو أن يضيفك إليهم فيصبحوا أحد عشر لا عشرة. وعليه فإن

المؤمن الذي يعقل التاريخ يسأل الله أن يكون "مع" العشرة المبشرين بالجنة ولكن لا يمكن أن يدعو الله أن يكون "منهم".

الحديث والسُنّة النبوية:

كما أسلفتُ في بداية هذا الباب، فإن الفصل بين مدلول "سُنّة" ومدلول "حديث" فيما يسمى بعلم الحديث أمرٌ جد عسير. فكلا الاصطلاحين قد اقتُبسا من القرآن لخدمة غرض غير الغرض الذي وصفه القرآن. فسُنّة الله هي قوانين الكون الثابتة التي سَنَّها هو ولن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً. حينما يصبح الدين نفسه فيه مصطلح "سُنّة الله" في القرآن ثم "سُنّة النبي" في التراث فإن الخلط بينهما يسبب إشكالاً في فهْم أيٍّ منهما. وبالبلبلة نفسها فإن اصطلاح "حديث" الذي جاء ليصف كل ما أُلحِق بالنبي من قول أو فعل لاحقًا قد طغى على مفهوم الحداثة الذي وصَف الله به القرآن وكونه أحسن الحديث. ولمّا كان لفظ "سُنّة" و"حديث" في التراث يشيران إلى كل ما ارتبط بالنبي فإن التمييز بين هذه المصطلحات فيما يسمى بعلم الحديث يفتقر للأمانة العلمية إذ إنها مصطلحات أضرت أكثر مما نفعت. لكن سنحاول أن نستخرج منها شيئا.

حرب المصطلح:

في كل المناحي العلمية والفلسفية تحمل المصطلحاتُ مدلولها اللغوي من ناحية، وتحمل مدلولاً يرتبط بالفن أو المجال الذي تصبح فيه مرتكزًا يقوم عليه العلم. لقد ناقشنا المدلولَ اللغوي والاستعمال القرآني للفظ حديث، وكغيره من الاصطلاحات له مدلول في علم الحديث:
هنا أنقل تعريفًا ورد في بعض المقالات في الإنترنت منسوبًا لابن حجر العسقلاني في كتابه "هدى الساري في مقدمة فتح الباري في تعريف منشَأ لفظ "الحديث" المنسوب للنبي-صلى الله عليه وسلم- . وأوضِّح بكل أمانة أنني عجزتُ عن الوصول لهذه الفقرة في مقدمة كتاب ابن حجر المشار إليه، وقد استشرتُ الدكتور عدنان إبراهيم فأكَّد لي أنها لم ترد عن ابن حجر في "هدى الساري" على الأقل، فقدْ نُسِب إليه أنه قال:

(لما كان يطلق على القرآن الكريم في صدر الإسلام "القديم"، أطلق لفظ "الحديث" في مقابل ذلك على كل ما أضيف إلى النبي-صلى الله عليه وسلم-.)

هذا التعريف المبسط يحتاج مِنَّا لوقفات مطولة. فهو وإنْ كان في ظاهره تعريفٌ للفظ حديث في المصطلح إلا أنه يُنسِب إلى أهل صدر الإسلام وصفَهم للقرآن بالقديم. لقد اجتهدتُ في الوصول إلى مصدر موثوق به يصف القرآن بالقديم فلم أجد، لكن لا شك أن هذه الصفة إنْ كانت مِن ابن حجر نفسه، أو مِن غيره فهي تعكس فكرة يزعم ناقلها أنها راجت فيما يسمى صدر الإسلام، وإنْ كانت دخيلة على تعريفه فهي تشير إلى أصابعَ خفيةٍ أرادت اليوم أن ترسخ في أذهان الأجيال القادمة أن القرآن محكوم بعامل الزمان وأصبح حين التسمية مِن كُتُبِ الأولين. وقد يتساءل سائل لماذا أنقل هذه الفكرةَ رغم أني أؤكد أنني والدكتور عدنان إبراهيم لم نجد لها سندًا تاريخيًّا، والسؤال منطقيٌّ جدًا. إجابتي هي أن حرب المصطلح ما زالت قائمة، وليل المسلمين ما زال حالكًا وأن التشويش بالنسب للسلف ما زال له عقول تبتكر الجديد كل يوم وتبثه بين الناس. ولأن الفكرة خطيرة جدا فقد لزم التحذير منها قبل أن تتلقفها أفواه تقدس كل ما ينسب للسلف.

لقد ناقشنا سابقًا أن القرآن احتكر لفظ حديث لأحسن الحديث وهو كتاب الله، وشرحنا خطورة وإعجاز هذا اللفظ في كون كلام الله وحده هو السابق للزمان ليظل حديثًا مهما تقدم الزمن. كون الناس في زمن لاحق استعملوا اللفظ نفسه ليصف كلامَ البشر (كلام النبي-صلى الله عليه وسلم-، وكلام مَن وصف النبي وما حوله) فإن تلك زلةٌ كبيرةٌ تفتح بابًا للخلط بين ما لا يصيبه القِدَم وبين كلام البشر الذي كان يجب أن يظل سيرةً وتاريخًا وليس حديثًا بأي حال من الأحوال. لكن كون الرواية تسعى للترسيخ في أذهان الناس أن القرآن أصلاً قد وصِف بالقِدَم فإن الأمر هنا يكون أكبر مِن زلة، ويحتاج منا إلى عودة لاحقًا للمقارنة بين هذه الصفة وبين صناعة "العهد الجديد" مقارنًا مع "العهد القديم" في التراث المسيحي.

السنّة النبوية:

يقسِّم أهلُ الاختصاص مفهومَ السُّنَة إلى ثلاثة أنواع بسيطة: "قولية" و"فعلية" و "تقريرية".
فالقولية هي كل كلام قاله النبي سواءٌ أكان أمرًا أو نهيًا أو ابتداءَ قولٍ أو جوابٍ أو نحو ذلك. هنا نلاحظ أن تعريف السُّنّة القولية هو نفسه تعريف الحديث بمعنى أقوال النبي -صلى الله عليه وسلم- .
أمّا السُّنّة الفعلية فهي ما شهده الحاضرون من الناس أن النبي قد فعله. كأن يصف أحدُهم أن النبي شرب جالسًا أو ركب دابة أو جلس في مجلس بطريقة ما وهكذا. هنا نلاحظ أن هذه السُّنّة الفعلية في حقيقة ألفاظها ليست من كلام النبوة في شيء، وإنما هي ملاحظاتٌ وثقها شخصٌ آخر غير النبي. والمصداقية في دقة الوصف تتوقف على قوة ملاحظة الواصف ومقدرته على التعبير العلمي بلا زيادة أو نقصان، ثم فهمه للحكمة من الحدث. ويجب التنبيه إلى أن كُتُبَ الصحاح فيها الكثير مما يندرج في فهم العامة تحت مسمى "حديث"، لكنه في الواقع لا علاقة له بكلام النبي وإنما هو وصف ممن عاصر النبي. وعليه، فإن كان كل كلام النبي وحيًا كما يظن بعضهم، فليس كل ما في كتب الصحاح أصلاً من كلام النبوة وهذا يشمل بطبيعة الحال كل السنة "الفعلية" و"التقريرية".
أمّا السُّنّة التقريرية فهي ما أقره مِن قولٍ أو فعلٍ كان شاهدًا له. كأن يصف الراوي أننا كنا نأكل كذا فلم ينهنا النبي عن أكله. فعدم النهي هنا يؤخذ على أنه إقرار من النبي او إجازة لِما كانوا يفعلونه. نلاحظ هنا أيضا أن السُّنّة التقريرية ليست من كلام النبوة وإنما توثيق من شخص لموقف وقع من النبي أقر شيئا أو نهى عن شيء، لكن الحكمة منها ثم دقة اختيار الألفاظ في وصف الحدث تتوقف على الراوي ومصداقيته.
ولعل القارئ الآن يجد لنا بعض العذر في رفع اسم عِلم عما يسمى بـ "علم الحديث". فلو قارنا بين الاصطلاح القرآني للفظي "سُنّة" و"حديث" في القرآن مع استعمال الألفاظ نفسها مع النبي-صلى الله عليه وسلم- نجد الدقة البالغة والروعة في اختيار لفظ "سُنّة الله" في القرآن التي تصف قوانينه وتشريعه الثابت الذي يحكم الكونَ ونواميسه مما هو أدنى من الذرة إلى ما هو أكبر من المجرة، وهي قوانين ثابتة لا تبديل ولا تغيير فيها. مفهوم "سُنَّة الله" يختلف اختلافًا جذريًّا عن كون القرآن أحسن الحديث. فسُنّة الله ليست حديثة بأية حال من الأحوال، وإنما هي أقدم ما في الكون والوجود. لكن لفظ الحداثة في القرآن يعني أننا كل يوم نكتشف في القرآن نفسه علمًا حديثًا كأننا نطالع صحيفة يومية تخبرنا بآخر أنباء الكون كل يوم. لكن: استعارة الألفاظ نفسها لتصف كلام النبي وأفعاله أحدثت بلبلة في الفهم أعجزتْ حتى أصحابَ الاختصاص عن التمييز بين "الحديث" و"السُنّة" في حق النبي، ناهيك عن عقد مقارنة بينهما من ناحية وبين الاصطلاح القرآني لهما.
ولو سألتَ أهلَ الاختصاص كيف يكون كلام النبي حديثًا لاتهموك بكل ما يُتَّهَم به الكافرُ الزنديق المضلل المنكر لِما يسمى بـ "سُنّة الرسول" وعليه فإنك منكِر لرسالته ولسوف يخرجونك من المِلة بأسرع الأحكام، ورغم ذلك لا يأتون بإجابة مقنعة للسؤال. لكن يظل السؤال قائمًا: كيف يكون كلام البشر حديثًا غدًا وبعد غدٍ؟ ولماذا تمت تسمية أقوال وأفعال النبي بألفاظ قرآنية سيادية لها مدلولات قاطعة لا يمكن للبشر أن يشترك مع الله فيها؟
السؤال هنا نقدمه لكل مَن يبحث عن الحقيقة ليطرحه على أهل الاختصاص. لكن نواصل بحثنا في التراث الإسلامي.

دور السنة النبوية حسب التراث :

لا يختلف مُسلِمان في أن النبي كان على خُلُقٍ عظيم، وأنه كان خُلُقه القرآن وكان قرآنًا يمشي بين الناس. وعليه فإنَّ فهْمَ النبي-صلى الله عليه وسلم- للقرآن وتطبيقه على نفسه وعلى قومه لا شك كان أرقى فهْمٍ وأفضلَ تطبيق. وعليه فإن في تراث وحياة النبي الكثيرَ الذي يعين الأجيالَ القادمة على فهم الأحكام الشرعية وكيفية تطبيقها في الواقع مقارنة مع فهْم وتطبيق النبي-صلى الله عليه وسلم-. هذا الدور المهم لِما يسمى بـ "السُنّة النبوية" لا خلاف فيه من حيث المبدأ. الخلاف ينتج من الغلو في التفسير والإصرار على أننا كلنا نعيش زمان وظروف النبي، وعليه فإن النبي قد فسَّر لنا القرآن ولا مجال لنا أن نتدبره، بل نستقي ديننا سهلاً ميسَّرًا بالرجوع لكتب الحديث و السنة. الخلاف أيضًا حول ما إذا كان تطبيق النبي للقرآن في حياته الشخصية وفي قومه يمثل تطبيقًا حرفيًّا يجب أن يستنسخ في كل زمان ومكان؟ أم أن ما نحتاجه فقط هو الاهتداء بمنهجه في الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية من القرآن بما يتناسب مع، ويوافق واقع الناس مع تغير الزمان والمكان؟
من الأوهام التي يرددها الذين عشقوا التبعية وتنكروا لنعمة الله في العقل، لدرجة أصبحت أقرب لبعض الأمراض العقلية، هي الإصرار على أن ما يُعرف بـ "السُّنَة" و"الحديث" يفسران القرآن ويشرحان الغامضَ فيه. هؤلاء لا فرق بينهم وبين المسيحيين الذين يؤمنون أن المسيح كان إلهًا حيًا وبَشرًا ميتًا في اللحظة نفسها ولا مجال للعقل في ذلك.
إن ظهورَ كُتُبِ التفسير بعد قرون من وفاة النبي-صلى الله عليه وسلم- لهي أبلغ دليل على أنه لا علاقة للحديث والسنة بتفسير القرآن. والمُطَّلِع على كتب التفسير يجد أن الآياتِ التي أبدى النبي -صلى الله عليه- بعض التفسير لها لا تتجاوز المئة آية من كل القرآن، هذا بتفاؤل كبيرٍ جدًا. كُتُبُ التفسير محشوةٌ باجتهادات الصحابة -أو

اجتهادات منسوبة إلى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين- توهِم القارئ أن الصحابي كان الناطقَ الرسمي باسم النبي، لكن قلّمَا تجد حديثًا من كتب الصحاح يشرح آية قرآنية، كما تطرقنا لذلك في باب "علوم القرآن". ولو كانت السُّنُة مفسرةً للقرآن لمَا لجأ المفسرون للإسرائيليات لسد ما عجزوا عن فهمه فيه. وما أكثر الإسرائيلياتِ في تفسير ابن كثير والطبري وغيرهما.
لقد ناقشنا في باب علوم القرآن الفرْقَ الكبير بين قول الله تعالى: {...وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)} النحل.
وبين "التفسير" و"التأويل". فالقرآن هو كتاب الله وحديثه الذي يصل عبدَه به ويصله بعبده في كل زمان ومكان، لذلك لا يعلم تأويله إلا الله. وعليه فإن النبي ما كان ليشرح لقومه البسطاء في فهمهم للكون والطبيعية بساطة كل الحضارة الإنسانية في زمانهم، ما كان له أن يشرح لهم تفاصيلَ دقيقة في القرآن احتاجت الإنسانية قرونًا طويلة من العلم التجريبي والتراكمي لتصبح مهيئة لاستيعابها. لذلك فكلام الله حديثٌ كلما جدَّ واستجدَّ حديثٌ في علم الإنسانية بالكون، لكن كلام النبي كان يبسط لقومه فقط ما كان واجبًا عليهم فهمه لتستقيم حياتهم في زمانهم وفي بيئتهم تلك. وعليه فإن الزعم أن السُّنّة شرحت القرآن محضُ كذبٍ وافتراء على الله ورسوله ولا دليل على ذلك البتة.

لا شك أن هناك قواسمَ مشتركةً بيننا وبين قوم النبي -صلى الله عليه وسلم- خاصة فيما يخص العباداتِ والشعائرَ من صلاة وصيام وحج. هذه العبادات التي لم يفصل القرآن فيها أخذت تفاصيلها من تطبيق النبي-صلى الله عليه وسلم- لفهمه القرآن فيها. وقد تواترت عنه كيفية الصلاة والصيام تواترًا عمليًا زمنًا قبل أن تكتب كتب الحديث. فقد صلّى الناسُ كما رأوه يصلّي، وصلّى كل جيل كما صلّى الجيل الذي قبله. ولأن هناك متسعًا في تفاصيلِ الصلاة العملية فقد تواترت الاختلافات نفسها بما فيها الرخص وغيرها. وما احتاج أهلُ القرون الأولى إلا لاتّباع ما تواتر عن كيفية تعبُّدِ النبي زمنًا قبل أن تُكتَب كتب الحديث. وإلى اليوم فإن الغالبية العظمى من المسلمين أصلاً يُصلُّون كما رأوا آباءَهم يصلّون، ولم تلعب كتب الحديث دورًا كبيرًا في تعليمهم الوضوءَ والصلاة. هذه السيرة أو الأسوة الحسنة لم يلعب تدوين الحديث فيها شيئًا.

يقول أهل الاختصاص إن السنة والحديث قامتا بتبيين الكتاب وشرحه، ويستدلون على ذلك بأمثلة العبادات والحدود والمعاملات والزواج ونحوها من أمورٍ لم ترد بالتفصيل في القرآن العظيم مثل تحريم الجمع بين المرأة وخالتها في الزواج. وهذا القول فيه نظرات كثيرة تحتاج لمراجعة أمينة. فالمُطّلِع على الفقه الذي نرجع إليه يجد أن معظم ما ينسب للسُّنّة ليس إلا اجتهاداتٍ مقدَّرةً من علماءَ بذلوا ما في وسعهم لتأويل النصوص القرآنية في هذه المسائل بما يناسب زمانَهم هُم، ومكانهم، مستهدين باجتهاد النبي-صلى الله عليه وسلم- في زمانه وباجتهادات أصحابه ثم التابعين -عليهم رضوان الله-. ومما لا شك فيه أن الاجتهاداتِ نفسَها اختلفت في الزمان الواحد باختلاف الظروف والأماكن لذلك ظهرت المدرسة الحنفية والمالكية والشافعية وأخيرا الحنبلية (والمذهب الشيعي بأسره من ناحية أخرى)، لتؤكد أن السُّنّة النبوية لم تكن قالبًا واحدًا ذا مقاسٍ عالميٍّ يطبّق في كل زمان ومكان، وإنما منهجٌ يقاس عليه مع تغير الزمان والمكان. بل إنه معلوم لأهل الاختصاص أن هؤلاء الأئمة اختلفت اجتهاداتهم في المسألة نفسها حينما انتقل بعضهم من مكان إلى مكان آخر. ولا نكِنُّ لأولئك العلماء إلا كلَّ تقديرٍ واحترامٍ لِما بذلوه من جهد، وأجرُهم على الله، لكنَّ اللومَ ،كلَّ اللوم، على مَن أضفى قدسيةً على اجتهاداتهم ونسَبَها كلها "للسنة النبوية" مما أدى لجمود الفقه والفكر الإسلامي فأصبح علماء الأمس، الذين كان يؤخذ ويرد على كلامهم، أربابًا من دون الله يقتتل بعضنا في الولاء لهم اليوم.
إذن، فدورُ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- في شرح وتفسير القرآن وتطبيقه على الواقع كان تجربةً بشريةً ترأسها النبي، ولا خلاف على أنها أسمى وأنجح تجربةٍ في تطبيق القرآن، لكن لا يمكن اعتبارها قالبًا ثابتًا يُفهَم كلُّ القرآن من خلالها، وإلا لمَا ظهرت المدارس والمذاهب لاحقًا، ولمَا ظهرت كتب التفسير والتأويل أصلاً.
وفي هذا السياق من المهم جدًا أن ننتبه إلى أن الأحاديث، حتى الصحيح منها، تظل ظنيَّة الثبوت والورود عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وليس من سبيلٍ للتيقن من صدورها عنه أبدًا. إنّ معاصريه وحدهم هم مَن أمكنهم التيقن من قوله قولاً ما إذا كانوا حاضرين ذلك. وهذا يقودنا لمراجعة تاريخ تدوين الحديث نفسه.

تدوين الحديث:

ذكَر محمد عبد العزيز الخولي في كتابه "مفتاح السُّنّة": {لم تكن السُنَّة في القرن الأول -عصر الصحابة وأكابر التابعين- مدوَّنة في باطن الكتب، وإنما كانت مسطورة على صفحات القلوب، فكانت صدور الرجال مهدَ التشريع، ومصدرَ الفتيا، ومبعث الحكم والأخلاق، ولم يقيدوا السُنَّة بكتاب لما ورد من النهي عن كتابتها}.

هذه الحقيقة البسيطة يجهلها كثير جدًا من الناس اليوم، نتيجة التهويل الكبير الذي أولاه الخطباءُ المعاصرون لِما يسمى بـ "السُّنّة النبوية المطهرة" و"الحديث" على حساب القرآن وتدبره، لدرجة صورت لبعضهم أن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري والإمام أبا الحسين مسلِم بن الحجاج القرشي النيسابوري المعروفين بالبخاري ومسلم اختصارًا، كانا صحابيين يجلسان عن يمين ويسار النبي يدوِّنان كل حرف قاله ويصفان كل فعل فعله. إن ضرورة فهْم أن تدوين سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- تحت أيِّ مسمًى كان هو أمرٌ قد تمّ بعد قرون، أصبحت ضرورةً ملحةً جدًا حتى تتقبل النفوس برحابة صدر نقدَها ومراجعتها وتوقير مَن بذل جهدًا بشريًا فيها، مع الاحتفاظ بالباب مفتوحا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يمكن لومه بناءً على تاريخ كُتِب عنه لاحقًا مهما كانت نية المؤرخين صادقة، ومهما أوتوا من عبقرية في زمانهم. وحتى يتضح البعد الزمني بين زمن النبي-صلى الله عليه وسلم- وعصر تدوين ما يسمّى بعلم الحديث، في ذهن القارئ، فإن الإسلام كان قد وصل جنوب باريس غربًا وحدود الصين شرقًا قبل مئة سنة من ميلاد البخاري.
ثم لا بد من ترسيخ حقيقة أن توثيق القرآن يختلف اختلافًا كبيرًا عن توثيق التراث الإسلامي بما فيه مصطلحات "السيرة" والسنة النبوية" والحديث"، وإلا فتحنا بابًا خفيًّا للشِّرْك حينما يظن البعض أن كل هذه المسميات تعني كلام الله، ولفتحنا بابًا واسعًا للكفر حينما لا يستسيغ البعض أقوالاً وآراء لاحقة، ربما لم تصدر أبدًا عن النبي-صلى الله عليه وسلم- ولا حتى عن أصحابه، وهُم يظنون أنها في درجة القرآن من حيث مصدر الوحي ومن الدقة في التوثيق كما هو حال القرآن، وأنهما معًا وحي من عند الله.
ولعل حقيقة نهي النبي-صلى الله عليه وسلم- عن كتابة أي شيء في حياته عدا القرآن حقيقةٌ يجب أن يعلمها الجميع مهما اختلفت التفسيرات والتبريرات لها.

النهي عن تدوين كلام النبي:

قلتُ في مقدمة الكتاب: إن الفجوةَ العلمية بين مَن يسمون أهلَ الاختصاص اليوم وبين عامة المسلمين الذين غالبًا ما ينتهي تلقينُهم أمورَ دينهم بانتهاء المرحلة الثانوية من الدراسة، أصبحتْ واسعةً جدًا، مما مهّد إلى حالة أشبه بالكهنوت والكهنة الذين يرجع إليهم العامةُ لنيل صكوك الغفران. ولعل مِن أخطر أوجه الجهل التي اسْتَشْرَتْ بين عامة المسلمين الجهلَ بتاريخ توثيق الإسلام قرآنا كان أو سيرة أو أحداثًا تاريخيةً للمرحلة اللاحقة بعد مجتمع النبي-صلى الله عليه وسلم-.
ولأن القولَ عن رسول الله سهلٌ على المنابر، إذ لا يستطيع أحد أن يميز مقدار الخطأ في نقل الألفاظ، هذا إنْ كان الخطيب أصلاً يروي حديثًا، أو حتى لا يستطيع أن يحكم ما إذا كان ما يقال حديثًا عن النبي أم حكمة شائعة، أم كذبًا يتم تأليفه على الهواء مباشرة، فإنّ علم العامة بأن النبي-صلى الله عليه وسلم- كان قد نهى عن كتابة ما عُرف لاحقًا بـ "الحديث والسنة" من الأمور التي تصيب بعضهم بالصدمة. هنا أنقل بعض الأدلة ثم أناقش الحكمة من المنع في تلك المرحلة:
عن أبي سعيدٍ الخُدَري أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: {لا تكتبوا عني، ومَن كتب عني غير القرآن فليمْحُه} صحيح مسلم .
ووردت الرواية نفسها في البخاري (رقم 7434) بألفاظٍ مختلفةٍ عن أبي سعيد الخدري: {لا تكتبوا عني شيئًا إلا القرآن، فمن كتب عني غير القرآن فلْيَمْحُه، وحدِّثوا عني ولا حرج، ومَن كذب عليّ متعمدًا فليتبوّأ مقعده من النار}، وقد صحح الحديثَ الألباني .
أتوقف في ألفاظ نصّ البخاري هنا قليلاً: نلاحظ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم ينْهَ فقط عن الكتابة وإنما أمرهم أن يمحوا ما كتبوه بأثرٍ رجعيٍّ. بطبيعة الحال فالخطاب لا بد وقد كان موجهًا لنفرٍ محددٍ هُم الذين كانوا معه في تلك اللحظة، إذ إنه أَذِن لغيرهم ببعض الكتابة. لكن الملاحظة الأهم هي تمييزه بين "الكتابة" و"الحديث". الكتابة التي نهى عنها ستتحول إلى مرجعٍ منسوبٍ للنبي يصل إلى قومٍ غير معنيين بها لذلك تم النهي عنها، لكن إباحة "الحديث" عنه يشرحها لفظ "حديث" بمعنى الحداثة كما شرحنا سابقًا في "العصر الذهبي". فـ "حدِّثوا عني" تفيد نقل مقالاته بينهم مِن مهاجرين وأنصار وغيرهم؛ لأنهم كانوا حينها تحت إمْرة النبي وكان ما يقوله يعنيهم في زمانهم لذلك كان "حديثًا" حينها. لكن لو كُتِب فسيصبح قولاً قديمًا يخصّ أُمّةً قد خَلَتْ، وربما يضر ولا ينفع لذلك كان التمييز بين النهي عن الكتابة من ناحيةٍ مع إباحة "الحديث عنه" الذي يحكمه بطبيعة اللفظ العامل الزمني إذ إنّ الحديث لا يكون حديثًا إلا على المستوى الأفقي أيْ في وقت صدوره، وهذا يعني أنه يخصّ الأحياء منهم وليس الأجيال القادمة.

وعن أبي سعيد الخدري: {جهدنا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يأذن لنا في الكتابة فأبَى.} وفي رواية أخرى {استأذنّا النبي-صلى الله عليه وسلم- في الكتابة فلم يأذن لنا.}

وعن أبي هريرة: {خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونحن نكتب الأحاديث. فقال: ما هذا الذي تكتبون؟! قلنا: أحاديث نسمعها منك. قال: كتابٌ غيرُ كتابِ الله؟ أتدرون ما ضلَّ الأمم قبلكم إلاَّ بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى.}
مما سبق نعلم، الآن، أنّ عدم وجود كتابٍ اسمه "صحيح محمد" كان أهم معالم سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- ، إذ إنّه هو نفسه قد نهى عن وجود كتابٍ يسجّل ويدوِّن تفاصيل حياته من قولٍ أو فعلٍ.
وعن عوف بن مالك الأشجعي، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {أطيعوني ما كنتُ بين أظهركم، وعليكم بكتابِ اللهِ عز وجل، أحِلُّوا حلالهُ، وحرِّمُوا حرامهُ} أخرجه الألباني في السلسة الصحيحة .

لا بد من التنبيه إلى أن الرواياتِ التي تشير إلى حقيقة النهي عن كتابة آثار النبي كثيرةٌ ومتناثرةٌ في كتب السلف، واليومَ موجودةٌ في الإنترنت. لكن لأنّها تسبب حرجًا للذين اتخذوا القرآن مهجورًا فقد سعى بعضهم إلى تضعيف هذه الروايات مقابلَ تقويةِ الروايات التي أباحت الكتابة. لكن لأننا مطالبون بأن نعقل ما ننقل فإن الحجة البينة التي نقيمها اليوم على مَن يدعون بعصمة الحديث وأنه مصدرُ تشريعٍ موازٍ للقرآن ومهيمنٌ عليه ومفسّرٌ له، فإننا نطالبهم بأن يأتونا بصحيحٍ اسمه "صحيح محمد" تركه النبي -صلى الله عليه وسلم- ليتمم به الرسالة التي كُلّف بها. إن الجدال حول مصداقية الروايات التاريخية لن ينتهي بطبيعة الحال لكن الحقيقة البينة الباقية هي أن الرسول-صلى الله عليه وسلم- ما ترك إلا القرآن لمن بعده.

ولعلّ ما لخَّصَه ابن حجر العسقلاني، وهو مِن أشهر مَن شرحوا صحيح البخاري في كتابه: "فتح الباري في شرح صحيح البخاري"، في مقدمة كتابه "هدى الساري" ما يقفل الجدال حولَ حقيقة النهي عن كتابة آثار النبي-صلى الله عليه وسلم- في حياته. أنقل نقلاً حرفيًّا من تلك المقدمة:

{اعلم، علمني الله وإياك أن آثار النبي-صلى الله عليه وسلم- لم تكن في عصر أصحابه وكبار مَن تبعهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة لأمرين، أحدهما: أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نُهوا عن ذلك كما ثبت في صحيح مسلم خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم، وثانيهما لسعة حفظهم وسيلان أذهانهم، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة، ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء في الأمصار وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكري الأقدار، فأول مَن جمع ذلك الربيع بن صبيح وسعيد بن أبي عروبة وغيرهما، وكانوا يصنفون كل باب على حدة إلى أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة فدوَّنوا الأحكام، فصنف الإمام مالك الموطأ وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز وزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومَن بعدهم، وصنف أبو محمد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة، وأبو عمر وعبد الرحمن بن عمر والأوزاعي بالشام، وأبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري بالكوفة، وأبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار بالبصرة، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسج على منوالهم إلى أن رأى بعض الأئمة منهم أن يفرد حديث النبي-صلى الله عليه وسلم- خاصة، وذلك على رأس المئتين.....}.

نلاحظ هنا أن حقيقة النهي عن تدوين آثار النبي -صلى الله عليه وسلم- في حياته أمرٌ لا خلاف عليه، وقد استمرّ الانتهاء عن التدوين في عصر الخلفاء الراشدين. وما بدأ عصر التدوين إلا حينما أصبح توثيق التاريخ ضرورةً طبيعية أمْلتْها أهمية توثيق أحداث حياة وأقوال سيد الخلق من ناحية، ومن ناحية أخرى بدأ التدوين للحد من الكذب عليه وإدخال ما ليس من الدين فيه عن طريق نسبته للنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما اتسعت الدولة المسلِمة، وأصبح بث الأقاويل عن رسول الله سلاحًا فتاكًا في السياسة والتجارة والخصومات والحروب، وكل صاحب هوى يريد أن يضفي على هواه صبغةً قدسيةً يسارع بتأليف قول عن رسول الله. ونلاحظ أيضًا أن التوثيق بدأ بمجهوداتٍ فرديةٍ بسيطةٍ لا يحكمها ضابطٌ محددٌ ولا منهجٌ واضحُ المعالم، وإنما حُسن النية في التوثيق الذي تطور إلى بداية القرن الثالث الهجري حيث ظهر عصر المحدِّثين الكبار أمثال البخاري ومسلِم، وظهر منهج التوثيق الذي يشار إليه حاليًا بـ "علم الحديث" بما فيه "علم الرجال" و"الجرح والتعديل" الذي سنعطي عنه فكرة مبسطة لاحقًا.

لكن لا بد من وقفة جريئة عند تبرير ابن حجر العسقلاني لسبب المنع في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فالقول إن دافع النهي عن الكتابة كان "... خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم..." قولٌ مردودٌ من عدة وجوه:
أولاً: الله تعالى قد تكفّل بحفظ القرآن، وما كان الله يخشى على ما تكفّل بحفظه من خلل أيادي البَشر. هذه الخشية تشبه الخشية أن يصنع الإنسان حياةً جديدةً تختلط على الناس مع خلق الله. إن الله تعالى وكلّ ما ارتبط به ليس

كمثله شيء ولا يمكن الخشية عليه لا من الضياع ولا من اختلاطه بأعمال الخلق. هذه مسألة عقيدة يجب أن يتوقف عندها المؤمن طويلاً وينتهي عن استعمال هذه المبررات الساذجة.
ثانيًا: إن القرآن الذي يبدو لنا، من ضعف علمنا بلسان القرآن، اليوم شبيهًا بكلام النبي، ما كان شبيهًا به في زمن النبي. فالعرب كانت تواجه أوجهًا من الإعجاز اللغوي في صيغة القرآن وحرفه ولحنه ما جعله مميزًا لا يشبه كلام البشر نثرًا كان أو شعرًا وما كان له أن يختلط به.
ثالثًا: لقد رأينا في باب "علوم القرآن" أن كتابة النص القرآني نفسه كانت إملاءً من الله تعالى للنبي وليس ابتكارًا عربيًّا من كتبة الوحي الذين أضيف إليهم يزيد بن معاوية في رواية، وفي رواية أخرى مَنَحَ فضلَ تنقيطِ الحروف للحجاج بن يوسف. الرسم النبوي للقرآن العظيم لا علاقة له بما يسمى بالرسم العثماني أو ما ألفه العرب إلى اليوم من صنوف الكتابة.
أمّا الحجة الثانية وهي "سعة حفظهم وسيلان أذهانهم، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة"، فهذه أيضًا حججٌ مردودةٌ. العرب كأيِّ مجتمع بشريٍّ كان فيهم الفطن الذكي كما كان فيهم الغبي والأشد غباءً. أيضًا كان فيهم المؤمن والمشرك والمنافق، والأعراب أشد كفرًا ونفاقًا. والواقع الذي لا جدال حوله أن عدد أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- الذين كانوا يحفظون القرآن نفسه كانوا أقلَّ بكثيرٍ ممن كان حفظهم له محدودًا جدا لم يتجاوز السور والآيات التي يصلّون بها. فإنْ كان حِفظُ القرآن نفسه لم يكن سمةً قد تميز بها كلُّ كبار من عاصر النبي فكيف يزعم ابن حجر أن آثار النبي لم تدوَّن لسعة حفظهم وسيلان أذهانهم واصفًا بذلك كل مَن صَحِب النبي؟
أمّا الحجة الثالثة وهي قلة علمهم بالكتابة فهذه أيضًا حُجّةٌ ساقطةٌ بل ومناقِضةٌ للنصوص القرآنية والمنسوبة للنبي التي تؤكد وجود عددٍ يكفي ليكونون كُتّابًا لأقوال وآثار النبي كما كان هناك كُتّاب الوحي. بل إن نصوص الروايات التي تنهي عن الكتابة نفسها تؤكد أنّ هناك مَن كان يجيد الكتابة، وأنهم كانوا يودون الكتابة لكن النبي قد نهاهم عن ذلك.
إن البحثَ عن مبرراتٍ غير منطقيةٍ لنهي النبي -صلى الله عليه وسلم- تدوين تراثه من قولٍ أو فعلٍ تكاد تُدخِل بعضَهم في حربٍ مع الله ورسوله. فلو كانت أقوال الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأفعاله وأوامره ونواهيه من الدين بضرورة القرآن نفسه كمصدر للتشريع كما هو مفروض على المسلمين تصديقه اليوم، ثم نهى النبي عن تدوينها، فهو بذلك ما بلَّغَ ما أُنزل إليه من ربِّه، وما أكمل الرسالة للناس كافةً، بل يكون قد كَتَم ما أنزل إليه من البينات، وهذا محالٌ في حقّ النبي -صلى الله عليه وسلم- . كيف لأمّة مِن أكثر أدعيتها، ترديدُها لشهادة أن النبي قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة، ثم تحتفظ بين كُتُبِ تراثِها على أدلةٍ لا جدال حول مصداقيتها أن النبي ذاته قد نهى عن تدوين ثاني مصدر للتشريع في تلك الرسالة؟ إذ لا يعقل أن تكون آثار النبي في المكان الذي رفعت إليه لاحقًا بينما النبي قد تركها للأجيال القادمة توثق منها ما تستطيع ويضيع منها ما يضيع ويضاف إليها ما يضاف. إن الله الذي رفع السماء بلا عمد وخلق الإنسان وعلّمه البيان ثم أنزل القرآن ما كان ليعجزه أن يدبّر ويقدّر الأسباب لآثار النبي -صلى الله عليه وسلم- أن تُكتَب جنبًا إلى جنبٍ مع القرآن بلا تداخلٍ ولا اختلاطٍ. إن فكرة الخوف من الاختلاط فيها انتقاص لقدرة الله وحكمته وفيها إجحاف بحقّ النبي -صلى الله عليه وسلم- في تبليغ ما كُلّف به، وفيها استهانةٌ بل وجهلٌ بطبيعة القرآن الذي كان لا يشابهه شيءٌ في زمن التنزيل وما زال يقف نسيجًا وحده بين كل كتب التراث الإنساني.
وقد رد على هذا التعليل الشيخُ رشيد رضا صاحب (تفسير المنار) بما يلي: {على أن الأحاديث لو كانت قد كتبت، فإنما ذلك على إنها أحاديث للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وبين الحديث والقرآن لا ريب فروقٌ كثيرة، يعرفها كل مَن له بَصَر بالبلاغة وذوق البيان، ومن ثم كانت تؤثر على هذه الصفة، وإذا كتبها الصحابة بعد انتقاله -صلى الله عليه وسلم- إلى الرفيق الأعلى، ووزَّعوا منها نسخًا على الأمصار، كما فعلوا بالقرآن، فيكون ذلك على أنها أحاديث، ويتلقاها المسلمون على أنها كلام النبي، ويظل أمرها كذلك جيلاً بعد جيلٍ فلا يدخلها الشَوْب، ولا يعتريها التغيير، ولا ينالها الوضع، على أن هذا السبب الذي يتشبثون به، قد زال بعد أن كُتِب القرآن في عهد أبي بكر على ما رووه..}.

على أننا لو تدبرنا حديثَ أبي هريرة نلاحظ أن نهي النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن خوفًا من الاختلاط بين القرآن والسُّنّة كما تضمنت الرواية، وإنما الخشية أن يصبح للقرآن كتابٌ منافسٌ موازٍ له، منسوبٌ للنبي، فيختلط على الناس أمر دينهم الذي هو في القرآن وحده، يختلط مع تجربة النبي واجتهاده التي لم تكن جزءًا من الرسالة وما كانت في كثيرٍ من الأحيان موجهة للأجيال القادمة والناس كافة، وإنما كانت تخصّ مَن عاصروه فقط. إذن، فالخشية من الانشغال عن تدبر القرآن وحفظه كانت المبرر الموثق للنهي عن كتابة مقالات النبي وليس الخشية من اختلاط "حديث" رب العالمين مع "أقوال وأفعال" النبي -صلى الله عليه وسلم- . إن الأمر هنا لا يبتعد كثيرًا عن الشرك بالله تعالى وهو أعظم الحرمات.

بيْدَ أنَّ نهيَ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- عن كتابة أخباره لا يتناقض مع قوله -صلى الله عليه وسلم- : {نضّر الله امرأ سمع <u>مقالتي</u> فحفظها ووعاها حتى يبلغها غيره}، إذ إنّ لكل مقامٍ مقالاً. والتشجيع على تناقل "مقالات

النبي" هنا لم يَعْنِ بأية حال من الأحوال تناقلها عبر الأجيال لتكون مصدرًا للتشريع موازيًا للقرآن، وإنما المعنى هو التناقل الأفقي في زمانه، لأن النبي في زمانه كان هو نفسه المجتهدَ الأول الذي يطبق القرآن في واقعه وواقع قومه، لذلك كان تناقل مقالاته في زمانه من ضرورات المرحلة النبوية وليس من ضرورات الدين والرسالة التي تورث للناس كافة.

إباحة التدوين:

هنا لا بد من التذكير مرةً أخرى بأنه لا النهيُ كان نهيَ تحريمٍ مغلّظٍ، ولا الإباحة كانت على وجه الوجوب وضرورة توثيق أخبار النبي كمصدرٍ للتشريع، وإنما كان النهيُ خشية انشغال الناس عن مصدر التشريع الأوحد، وخشية تشعُّبِ الكتب الموازية لكتاب الله كما حدث مع الأمم السابقة. بالحكمة ذاتها، فإن السماح لبعضهم بالكتابة كان لأسبابٍ فرديةٍ موضوعيةٍ كما نرى في هذه الروايات التي لا تفيد أبدًا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد اختص نفرًا من الكتبة لتوثيق ما يسمى بالسُّنّة تحت إشرافه وتصنيفه، وإنما فقط سمح لبعضهم بكتابة ما أحسوا بالحاجة لكتابته:

1 - عن أبي هريرة: {ما من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أحدٌ أكثر حديثًا عنه مِني، إلاّ ما كان مِن عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب}.

2 - عن عبد الله بن عمرو بن العاص: {كنت أكتب كلَّ شيءٍ أسمعه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أريد حفظه، فنهتني قريش. وقالوا: تكتب كل شيء سمعته عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ورسولُ الله بشر يتكلم في الغضب والرضا! فأمسكت عن الكتابة. فذكرت ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأومأ إلى فيه وقال: اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج منه إلاّ الحق}.

3 - عن أبي هريرة: {أن رجلاً من الأنصار كان يشهد حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلا يحفظه، فيسأل أبا هريرة فيحدّثه، ثم شكا قلّة حفظه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فقال له النبي: استعِن على حفظك بيمنك}.

4 - عن رافع بن خديج: {قلنا: يا رسول الله، إنا نسمع منك أشياء، أفنكتبها؟ قال: اكتبوا ولا حرج}.

5 - وعن أنس بن مالك: {قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: قيّدوا العلم بالكتاب}.

6 - عن أبي هريرة: {لما فتح الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- مكة، قام الرسول -صلى الله عليه وسلم- وخطب الناس، فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه، فقال: يا رسول الله: اكتبوا لي. فقال: اكتبوا له.}

مِن هذه الأدلة التي تنهى والتي تبيح الكتابة، والتي يتداولها كلٌّ من يدافع عن قدسية السُّنّة ومكانها كمصدرٍ ثانٍ للتشريع من ناحية، ويستغلها أيضًا ممن يطالب بإلغاء كل ما يعرف بالسُّنّة، نلاحظ أن النهي لم يكن مطلقًا، كما أن كتابة بعض المقالات وتوثيقَ بعض الأحداث مِن بعض الأفراد لم يكن إلا استثناءاتٍ فرديةً. فكل الروايات أعلاه التي تفيد عدم النهي المطلَق لا تفيد الأمر بالكتابة المطلقة أيضًا، وإلا لكان لدينا كتابٌ اسمه آثارُ النبيّ متّفَق عليه بين جميع أصحابه الذين لازموه طوال حياته وسنوات نبوته، ولانتهى الخلاف حول ما هي السُّنّة وما هو مكانها في التشريع الإسلامي، ولمَا حدث خلاف على القرآن منذ رحيل النبي -صلى الله عليه وسلم-. لكنّ هذا لم يحدث بدليل أن الذين كتبوا آثار النبي في حياتهم لم تتجاوز كتاباتهم إلا القليل جدًا الذي كان يخصّ كل فردٍ حسب حاجته هو وليس كتابًا يورث للناس. وهنا بعض الأمثلة المشهورة لتلك الصحف:

نماذج معروفة للصحف التي كانت تجمع بعض أقوال للنبي :

1 - الصحيفة (الصادقة) التي كتبها عبد الله بن عمرو بن العاص، وقد انتقلت إلى حفيده (عمر بن شعيب) .

2 - صحيفة علي بن أبي طالب، وهي تشمل على مقادير الديات .

3 - صحيفة سعد بن عبادة، وقد جمع فيها طائفة من أحاديث النبي .

4 - صحيفة عبد الله بن أبي الذي كان يكتب الأحاديث بيده.

5 - صحيفة سمرة بن جندب وقد ضمّنها أحاديث عديدة، ورثها ابنه .

6 - صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري.

7 - صحف أبي هريرة الكثيرة التي لم يبق منها إلاّ صحيفة واحدةٌ، رواها عنه تلميذه (همام بن منبه) وهو من التابعين .

لا بد من التنويه إلى أن هذه الصحف لم تكن كتبًا تصف سيرة النبي طوال حياته، وإنما كانت كمذكراتٍ يكتبها التلاميذ أثناء دروسٍ سمعوها من معلّمهم. وكل واحدٍ كتب ما أحسّ أنه ربما يحتاج للرجوع إليه مكتوبًا. وإنه لمِن الوهم، بل مِن الكذب على رسول الله وأصحابه الميامين أن يدَّعي أحدٌ أنّ أيًا مِن تلك الصحف قد كُتِبت لتكون مرجعًا للأمة مِن بعد النبي -صلى الله عليه وسلم-. ويكفيك فقط أن تنتبه إلى أن صحيفة علي بن أبي طالب -

رضي الله عنه- لم تشتمل إلا على مقادير الديات. ربما كتبها عليٌّ لأنها كانت مسألة حساباتٍ آثَر أن يكتبها بدلاً من الاعتماد على الذاكرة فيها.

مما سبق يمكننا التلخيص، أن النهي عن الكتابة لم يكن تحريمًا مغلَّظًا لكنه كان الفعل الذي غلب في حياته مع بعض الاستثناءات الفردية البسيطة، لذلك تبقى الحقيقةُ التي سعى كل مَن حاول هزّ المجتمع المسلم وتحريف القرآن عبْر القرون هي أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قام بنفسه بكتابة القرآن حرفيًّا، ولم يترك ذلك لأقرب المقربين إليه لأنه هو الرسول وليس أحدًا مِن أصحابه، وأيضًا مات -عليه السلام- وهو مطمئنٌ إلى أنه ما سمح لكتاب موازٍ لكتاب الله أن يورث عنه يسمى فيما بعد مصدر تشريع ثانٍ.

استمرار المنع :
المُطّلِع على التاريخ الإسلامي يلاحظ اضطرابَ الرواياتِ في المنع والأمر بالكتابة ومحاولة التوفيق بينها على مرِّ العصور، وأن ترجيح حقيقةِ المنع تجد تعضيدًا كبيرًا إذا أخذنا في الاعتبار ما وثّقه التراث الإسلامي نفسه من استمرارِ المنع في عهد الخليفتين الأولين. بل إن وجودَ صرامةٍ واضحةٍ في عهد عمرَ -رضي الله عنه- وصلت لتخويف ومنع المحدِّثين وحرق بعض المخطوطات يستدعي وقفة أمينة ومراجعة ضمير مِن المولَعين باتخاذ القرآن مهجورًا وعشق القيل والقال. قال الخطيب: {مع ما روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من إباحة للكتابة، ومع ما كُتِب في عهده من الأحاديث على يدي مَن سمح لهم بالكتابة، نرى أن الصحابة يحجمون عن الكتابة، ولا يقدِمون عليها في الخلافة الرشيدة} .

وقد روى شعبة وغيره عن بيان عن الشعبي عن قرظة بن كعب قال: {لما سيّرنا عمر إلى العراق مشى معنا عُمر. وقال: أتدرون لِمَ شيَّعْتُكم؟ قالوا: نعم، تكرمة لنا. قال: ومع ذلك أنكم تأتون أهل القرية، لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جرِّدوا القرآن، وأقلّوا الرواية عن رسول الله... }.
وقد ضرب عمر أبا هريرة بدرَّته المعهودة ووبّخه: {أكثرتَ يا أبا هريرة وأصرٌّ بك أن تكون كاذبًا على رسول الله). وقال له أيضًا: (لتتركن الحديث عن رسول الله، أو لألحقنَّك بأرض دوس}. وأرض دوس هي موطن قبيلة أبي هريرة .
وعن معن بن عيسى، عن عبد الله بن إدريس عن شعبة عن سعد بن إبراهيمَ، عن أبيه: أن عمر حبس ثلاثة، عبد الله بن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصاري. فقال: أكثرتم الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .
وروي عن عائشة بنتِ أبي بكر أنها قالت: {جَمَع أبي الحديثَ عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وكانت خمسمئة حديث، فبات ليلته يتقلب كثيرًا. قالت: فغمَّني. فقلت: أتتقلبُ لشكوى أو لشيء بلغك؟ فلما أصبح قال: أي بُنية، هلّمي الأحاديث التي عندك، فجئته بها، فدعا بنارٍ فحرقها}.
لا بد من التدبر في هذا الأثر. فأبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه وأرضاه هو ثاني رجُل أسلم بعد علي بن أبي طالب، وقد كان صَدِيقًا لمحمد بن عبد الله زمنًا قبل البعثة. ثم إنه أطول الصحابة ملازمة له حتى حينما كان في خلوته في الغار ورحلة الهجرة المشهورة. ثم إنه كان والد زوج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها. ثم إنه كان الرجل الذي صلى بالناس في آخر أيام النبي حينما اشتد به المرض، ثم كان الخليفة الأول الذي انتقلت إلى كاهله كل الأمانة وتبليغ الرسالة، ثم نفاجأ أن أبا بكرٍ هذا ما كان قد كَتَب إلا خمسمئة حديث من عمر 23 سنة هي عمر الرسالة، وربما مثلها قبل الرسالة من طول صداقته مع النبي، ثم نفاجأ أيضًا أن هذه الخمسمئة التي ربما كان فيها مذكرات وذكريات تخص أبا بكر نفسه لذلك كتبها، لكنه لمَّا خشي أن تنتقل منه لمن يجعلها قرآنا موازيًا قام بحرقها. فهل خان أبو بكر حبيبَه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ؟ أم أنه التزم التزامًا حرفيًّا لأمره متأسِّيًا به في حذره ألا يترك مِن بعده للناس مكتوبًا غير القرآن، حتى وإن كان كاتبه هو أبو بكر الصديق نفسه وبخط يده؟

وروى ابن مسعد عن عبد الله بن العلاء قال: {سألتُ القاسم بن محمد أن يملي عليَّ أحاديث، فقال: إن الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب، فأنشد الناس أن يأتوه بها، فلما أتوه بها أمر بتحريقها، ثم قال: مثناة كمثناة أهل الكتاب؟!}.
مَن يسمّون أنفسَهم أهلَ "السُّنّة والجماعة"، ولا أدري بالضبط مَن هُم، يعظّمون عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أيما تعظيم لأنه كان مِن أشد أصحاب النبي موافقًا مع المشركين ومع أصحاب البدع. وأيضًا لأن في تعظيمه إغاظة للشيعة الذين لهم رأيٌ مغايرٌ في عمر بالتحديد، وما زال بعضهم منهم يتبرك عند قبر أبي لؤلؤةَ الفارسي في إيران، وهو قاتل عمرَ بن الخطاب. فهل يَقبل أهلُ السنة والجماعة أن عمر بن الخطاب كان عدوًا منكرًا لسُنّة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأحاديثه؟ لو حرق أحدٌ صحيحَ البخاري اليوم، لا شك سيكفِّره القاصي والداني مِن المسلمين. لكن لو قارنّا صحيح البخاري اليوم -وهو مجهول المصدر ولا دليل أن له علاقة مع صحيح البخاري الأصلي كما سنرى-، لو قارناه مع صحفٍ كتبها أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- بخط

أيديهم وفي حضرة النبي ثم قام عمر بحرقها، فكيف يكون حكمهم على عمر؟ هذا مِن ضمن المواقف والامتحانات العسيرة التي يجد المؤمن فيها نفسَه مخيرًا بين الحقّ المرير أو إعلان النفاق الذي ينكره.

مما سبق يمكننا أن نخلُص إلى أن الفترة الذهبية في خير القرون وهي الفترة النبوية لم يكن فيها تدوينٌ لآثار النبي -صلى الله عليه وسلم- ومقالاته إلا ما كان مِن بعض الأفراد في مناسباتٍ خاصةٍ. ثم لمّا كان عصر الخلفاء الراشدين حرصوا جميعًا على مواصلة المنع، بل وتشددوا فيه لأن بوادر الفتن تحت مسمى "قال رسول الله" بدأت تلوح في الأفق خاصة مع اتساع الرقعة المسلِمة. فلما انتهت الفترة الذهبية بزوال الخلافة وظهور الممالك الإسلامية، فُتِح البابُ على مصراعيه للقيل والقال والتقول على رسول الله لدرجة أصبحت تهدد سلامة المجتمع المسلم، حيث تجاوزت أعداد الروايات الموضوعة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- المليونَ رواية، مما دفع بعضَ الحكماء إلى التفكير في ضرورة توثيق ما يصح لديهم ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من التراث الإسلامي، وهكذا نشأ ما سُمِّي لاحقًا بـ "علم الحديث" تدريجيًا حاملاً بين طياته مشكلاتٍ كبيرةً في السند والرواة والمتون التي ما زالت تسبب خلافاتٍ كبيرةً بين المسلمين إلي اليوم.
لا بد أن نستوعب هذه الحقيقة: ما يسمى علم الحديث لم ينشأ لتوثيق آثار وأخبار النبي -صلى الله عليه وسلم- وآثار صحبه ليكون مصدر تشريع، وإنما نشأ كضرورةٍ حتميةٍ للدفاع عن رسول الله وعن الإسلام أن يؤتَى مِن باب الكذب على رسول الذي استشرى في تلك الفترة بعد عجز المنافقين والمتآمرين عن تحريف القرآن. إذن، فالسابقون الأولون من المحدِّثين لم يكونوا يدوِّنون مصدرًا ثانيًا للتشريع موازيًا للقرآن حينها، وإنما كانوا يبذلون ما في وسعهم لتوثيق ما استوثقوا منه من أحداث حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- توثيقًا تاريخيًا أمينًا وتنقية ما نسب إليه من الأكاذيب المهولة في "عصر الأقاويل".
ثم خَلَفَ مِن بعدهم خلفٌ لم ييأسوا من الكذب على الله فكذبوا على رسوله، ثم لمّا وقف المحدِّثون في وجههم ودافعوا عن رسوله لم ييأسوا أن يكذبوا على أولئك المحدِّثين أنفسهم، فتحول مجهودهم الجبار ذلك بعد الكثير من التحريف إلى مصدر ثانٍ للتشريع موازٍ للقرآن وذلك في "عصر الأساطير" والانحطاط الفكري للأمة المسلمة. ما نناقشه الآن هو توثيق الحديث والسُّنّة في "عصر الأقاويل" وليس "عصر الأساطير" الذي سنناقشه لاحقًا.

كُتُبُ الحديثِ وأقسامها:
مَن لم يطالِع القرآن- مسلِمًا كان أو غيرَ مسلِمٍ- فإن معرفتَه عن الإسلام لا بد أن تكون مِن مصادر التاريخ وما تناقله الناس في الثقافات المختلفة عن الإسلام. ولمَّا كان الإسلام قد بَنى حضارةً لا ينكرها أحدٌ، وإنما الخلاف حول كونها ربَّانية المصدر أو محمدية الهوى، فإن الحضارة الإسلامية اليوم تُعرف للعامة من التراث أكثر مما تعرف من القرآن. وأهم كتبِ التراث بالطبع هي كتب الحديث والسُّنّة. لذلك فإنه مِن المهم، حتى من باب الثقافة العامة، الإلمامُ ولو باليسير بما يسمى علم الحديث، منشأه ورجالاته وكتبه ومصطلحاته.
كما أسلفنا: لمَّا أصبح النيل من الإسلام والتشكيك فيه يتم من خلال تأليفِ أكاذيبَ تنسب للرسول -صلى الله عليه وسلم- فيصدقها الناس خاصة وأن الدولة المسلِمة اتّسعت ودخلت فيها ثقافاتٌ أجنبيةٌ كثيرةٌ، فقدْ كَتَب الرعيلُ الأولُ القليلَ الذي كان بوسعهم كتابته في محاولة لتوثيق التراث. بعدهم انطلقت الكتابة ببطءٍ وتنوعت أنواع المؤلفات ومناهجها وطرائقها، وذلك لأن أصحابها كانوا يبتكرون من غير سابق تجربةٍ معروفةٍ في التراث العربيّ أو اتفاق بين العلماء حينئذاك. وقبل أن نتصفح أشهر كُتُبِ الحديث لا بد من الإلمام بمصطلحين مهمين في علم الحديث:
أولاً- السند: هذا اللفظ يعني مسلسل الرواة الذين انتقلت الرواية منهم إلي المحدِّث الذي كَتَب الكتاب. مثلاً أن يروي البخاري في كتابه: سمعت فلانًا يقول حدَّثني فلان عن فلان عن فلان عن فلان عن الصحابي فلان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.
هذا المسلسل من الأسماء يسمّى "سند الحديث"، أمّا صفات الرجال الذين تناقلوا الحديث في السند ومستوى علمهم ومصداقيتهم وغيرها من الصفات التي تطمئن أو تشكك في مصداقية الرواية فيسمّى "علم الرجال" وينقسم إلى "الجرح" و"التعديل". "الجرح" هو أن تأتي بصفاتٍ ذميمةٍ في الراوي تطعن في أهليته للرواية، أمّا "التعديل" فهو الإتيان بمزايا حسنةٍ تؤكد أهليته لنقل الرواية. بلغة العصر يمكن تشبيه السند بشهادة الميلاد التي توثق هوية المولود.
ثانيًا- المتن: هذا اللفظ يفيد الكلام المنقول بين قوسين في نهاية السند عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا كان الحديث قوليًا، أو منسوبًا للصحابي الذي وصف شيئًا مرتبطًا بالنبي إذا كان الحديث فعلاً أو تقريرًا. من هنا يمكن تشبيه المتن بالمولود والسند هو شهادة الميلاد التي تحدد هويته.
عمومًا في علم الحديث: فإن التحقق من مصداقية أي حديث يقوم على عدالة الرواة الذين نقلوه "السند"، وعلى سلامة "المتن" من حيث المحتوى الفكري واللغوي والعلمي، وأن يكون مناسبًا ولائقًا أن يكون من كلام النبوة. بناءً على هذه المعايير تتباين الأحاديث لأكثر من ستين درجة من حيث التصديق أو التشكيك في مصداقيتها لكن ليس هنا مجال مناقشة تلك المتاهة اللغوية التي تضر – وأضرت - الأمة أكثر مما نفعتها. إذ إن المسلِمَ وغيرَ

المسلِم يهمه في المقام الأول أن يستوثق عن كون القول أو الحدث ثابتًا عن رسول الله أو مكذوبًا عليه، لكن وجود مصطلحات كضعيف وحَسَن وغيرها من مصطلحات ما يسمى بعلم الحديث لا تزيد إلا البلبلة، وتترك المرءَ في متاهة مِن تصديق أو إنكار الرواية عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فما بالك بوجود أكثر من ستين درجة من درجات تصنيف مصداقية الحديث!؟

وعمومًا فالكتب التي وثقت السُّنَّة تنقسم إلى أربعة أقسام رئيسية :

أولاً- المسانيد :

لفظ "مسند" في مصطلح علم الحديث يعني الرواية التي استوثق المحدِّث من وصول سندها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- . وحسب قواعد علم الحديث فإن كل الصحابة عدولٌ، وعليه فاتصال الحديث بصحابيٍّ في نهاية السند يعدُّ عند بعضهم مسندًا بناءً على قاعدة عدالة الصحابة. ولقد ناقشنا عشوائية مفهوم "الصحابة" و"عدالة الصحابة" في باب "خير القرون" وسنعود لها مرةً أخرى لاحقًا حينما نناقش الحديث في عصر الأساطير. ما يهمنا الآن الإلمام بمصطلحات علم الحديث كما يفهمها أصحابها.

"المسانيد" هي الكتب الحديثية التي صنّفها مؤلفوها على مسانيدِ أسماءِ الصحابة؛ أي أنهم جمعوا أحاديث كل صحابيٍّ على حدةٍ. والمسانيد التي صنفها الأئمة المحدثون كثيرةٌ، ربما تبلغ مئة مسندٍ أو تزيد. أمّا ترتيب الصحابة داخل المسند، فقد يكون أبجديًا، وقد يكون على السابقة في الإسلام، أو القبائل، أو البلدان، أو غيرِ ذلك.
وقد يُطلَق المسند عند المحدثين على كتاب مرتبٍ على الأبواب أو الحروف، لا على أسماءِ الصحابة، وذلك لأن أحاديثه مسندةٌ ومرفوعةٌ إلى رسول الله -صلى الله عليه و سلم-؛ مثل مُسند: " بقي بن مخلد الأندلسي (توفي سنة 276 هـ)" فإنه مرتب على أبواب الفقه تمامًا كالسنن .
وقد أحصى الكتاني في " الرسالة المستطرفة " اثنين وثمانين مسندًا ومن أهمها:
مسند أحمد بن حنبل (توفي سنة 241 هـ) .
مسند أبي بكر عبد الله بن الزبير الحُميْدي (توفي سنة 219 هـ).
مسند أبي داود الطيالسي (توفي سنة 204 هـ) .
مسند مسدد بن مسرهد الأسدي البصري (توفي سنة 228 هـ).
مسند أبي يعلي الموصلي (توفي سنة 307 هـ).
مسند عبد الله بن المبارك (توفي سنة 181هـ).
مسند نُعيم بن حماد (توفي سنة 228 هـ).

ثانيًا- المعاجم:

والمعجم في اصطلاح المحدِّثين هو الكتاب الذي تُرتّب فيه الأحاديث على مسانيد الصحابة، أو الشيوخ، أو البلدان أو غيرِ ذلك، والغالب أن يكون ترتيب الأسماء فيه على حروف المعجم. هذا بطبيعة الحال يعني أن "المعاجم" ظهرت بعد عصر "المسانيد". الذي يعنينا هنا المعاجم المرتبة على مسانيد الصحابة. وأشهر المعاجم :
المعجم الكبير: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (توفي سنة 360 هـ)، وهو على مسانيد الصحابة مرتبين على الحروف الأبجدية، عدا مسند أبي هريرة فإنه قد أفرده في مصنف - و يقال إن فيه ستين ألف حديث، وفيه يقول ابن دحية: " هو أكبر معاجم الدنيا، وإذا أطلق في كلامهم "المعجم" من غير تخصيص فالمراد هو معجم أبي هريرة، وإذا أريد غيره قيّد".
المعجم الأوسط: لأبي القاسم الطبراني أيضًا، وهو مرتّبٌ على أسماء شيوخه، وهُم قريب مِن ألفَيْ رجُلٍ، و يُقال إن فيه ثلاثين ألف حديثٍ .
المعجم الصغير: له أيضًا، خرّج فيه عن ألف شيخ من شيوخه، ويقتصر فيه غالبًا على حديثٍ واحدٍ عن كلِّ واحدٍ من شيوخه.
معجم الصحابة: لأحمد بن علي الهمداني (توفي سنة 398 هـ) .
معجم الصحابة: لأبي يعلى أحمد بن علي الموصلي (توفي سنة 307 هـ) .

ثالثًا- الجوامع:

والجامع في اصطلاح المحدِّثين يعني كل كتاب حديثيٍّ يوجد فيه مِن الحديث جميع الأنواع المحتاج إليها من "العقائد" و"الإيمان"، و"الأحكام"، و"الرقائق"، و"الآداب" و"الأكل والشرب"، و"السفر والمقام"، و"السِـيَر" و"التاريخ"، و"الفتن" و"المناقب" و"المثالب"، و"الدعوات"، وغير ذلك .
وأشهر الجوامع هي: الجامع الصحيح للبخاري (والذي أطلق عليه صحيح البخاري فيما بعد). والجامع الصحيح لمسلِم (والذي أطلق عليه صحيح مسلِم فيما بعد)، وجامع عبد الرازق، وجامع الثوري، وجامع سفيان بن عيينة، وجامع الترمذي.

رابعًا- المستخرجات على الجوامع:
تخريج الحديث يعني البحثَ في أسماءِ الرجال الذين رووه من جهات مختلفة. و"المستخرج" عند المحدّثين هو: أن يأتي المصنّف المستخرج إلى كتابٍ مِن كتب الحديث فيخرّج أحاديثَه بأسانيدَ لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب، فيجتمع معه في شيخه أو مَن فوقه ولو في الصحابي، وشرطه ألّا يصل إلى شيخٍ أبعدَ، حتى لا يفقد سندًا يوصله إلى الأقرب، إلا لعُذرٍ مِن علوّ زيادة مهمة. وربما أسقط أحاديث لم يجد له بها سندًا يرتضيه، وربما ذكَرها مِن طريق صاحب الكتاب.

من المستخرجات :
على البخاري: مستخرج الإسماعيلي (توفي سنة 371 هـ). ومستخرج الغطريفي، وابن أبي ذهيل.
على مسلم: مستخرج أبي عوانة الإسفراييني (توفي سنة 316 هـ). ومستخرج الحيري، وأبي حامد الهروي .
عليهما معًا: مستخرج أبي نعيم الأصبهاني (توفي سنة 430 هـ)، ابن الأحزم، ومستخرج أبي بكر البرقاني .
أيضًا، مستخرج قاسم بن أصبغ على سنن أبي داود "، و" مستخرج أبي نعيم الأصفهاني على كتاب التوحيد لابن خزيمة".

أعلمُ أن هذا الجزء من الكتاب ربما يكون مملاً لبعضهم؛ لأننا بطبيعة الحال ابتعدنا عن الله تعالى " القرآن"، ثم ابتعدنا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ودخلنا في متاهاتٍ وغاباتٍ من المصطلحات والمسميات التي لا يعلم منتهاها إلا الله تعالى، لكن مِن المفيد أن أعطي فكرة عن أشهر كتب الحديث عند أهل السُّنّة:

1- صحيح البخاري (توفي سنة 256 هـ):
جمعه الإمام محمد بن إسماعيل البخاري المولود في مدينة بخارى سنة 194 هـ، وقد سماه "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه" وخرجه مِن ستمئة ألف حديث، ولم يضع فيه مسندًا إلا ما صح -وفقًا لمعاييره- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالسند المتصل الذي توفر في رجاله العدالة والضبط. وأكمل تأليفه في ستة عشر عامًا. عدد أحاديثه بالمكرر (7397) حديث، وبحذف المكرر يبلغ (2602) حديث تقريبًا. ويصفه أهل الاختصاص أنه أصحُّ كتابٍ تحت أديم السماء بعد كتاب الله. (سنناقش هذا الوصف في "عصر الأساطير")

2- صحيح مسلِم (توفي سنة 261 هـ):
ويسمّى أيضًا: "المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله". جمعه الإمام أبو الحسين مسلِم بن الحجاج القرشي النيسابوري، أحدُ أئمةِ الحديث، ولِد بنيسابورَ سنة 204 هـ، جمع فيه ما صح -وفقًا لمعاييره- عن رسول الله. وجمع فيه الأحاديث المتناسبة في مكانٍ واحدٍ، ويذكر طرق الحديث وألفاظه مرتبًا على أبواب، لكنه لا يذكر التراجم خوفًا من زيادة حجم الكتاب، وقد وضع تراجمه جماعةٌ من شُرّاحه ومن أحسنها تراجم النووي.
عدد أحاديثه بالمكرر (7275) خمسة وسبعون ومئتان وسبعة آلاف حديثٍ، وبحذف المكرر نحو (4000) أربعة آلاف حديثٍ. ويُعدُّ عند أهل السنة ثانيَ الصحاح بعد البخاري.

3- موطأ مالك (توفي 179 هـ):
جمعه أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي الحميري المدني (93-179هـ / 711-795م) فقيهٌ ومحدِّثٌ مسلِم، وثاني الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب المالكي في الفقه الإسلامي.
لجأ الخليفةُ أبو جعفر المنصور (ت158هـ) إلى الإمام مالك في موسم الحج طالبًا منه تأليفَ كتابٍ في الفقه يجمع الشتات وينظم التأليف بمعاييرَ علميةٍ حدّدها له قائلاً: "يا أبا عبد الله ضع الفقهَ ودوّن منه كتبًا وتجنّب شدائدَ عبدِ الله بن عمر، ورُخَصَ عبدِ الله بن عباس، وشواردَ عبدِ الله بن مسعود، واقصِدْ إلى أواسط الأمور، وما اجتمع إليه الأئمة والصحابة، لتحمِلَ الناسَ إن شاء الله على عملك، وكتبك، ونبثها في الأمصار ونعهد إليهم ألا يخالفوها".
وقد طلب المنصور من الإمام مالك أن يجمع الناسَ على كتابه، فلم يُجبه إلى ذلك، وذلك من تمام علمه واتصافه بالإنصاف، وقال: "إن الناس قد جمعوا واطلعوا على أشياءَ لم نطلع عليها" (من علوم الحديث للحافظ ابن كثير).

4- مسند أحمد (توفي 241 هـ):
مِن أشهر كُتُبِ الحديثِ وأوسعها، يحتوي على ما يزيد على 26 ألف حديثٍ نبويٍّ (40 ألف حسب السيوطي)، وفيه الكثير من الأحاديث الصحيحة التي لا توجد في الصحيحين، ومؤلفه هو الإمام أحمد بن حنبل إمام المذهب الحنبلي. وضع الإمام أحمد بن حنبل، (164 – 241 هـ) هذا الكتابَ ليكون مرجعًا للمسلمين وإمامًا، وجعله

مرتبًا على أسماء الصحابة الذين يروون الأحاديث كما هي طريقة المسانيد، فجاء كتابًا حافلاً كبير الحجم، تكرر منها عشرة آلاف حديث ومن أحاديثه ثلاثمئة حديثٍ ثلاثية الإسناد (أي بين راويها وبين النبي ثلاثة رواة). وقد رتب كتابه على المسانيد فجعل مروياتِ كلّ صحابيٍّ في موضعٍ واحدٍ، وعدد الصحابة الذين لهم مسانيد في مسند الإمام أحمد (904) صحابيٍّ.
كان الإمام أحمد يحفظ ألف ألف حديث (أي مليون) عن ظهر قلب، وقد انتقى المسند من هذا العدد الهائل من محفوظه، ولم يدخل فيه إلا ما يحتج به، وبالغ بعضهم، فأطلق أن جميع ما فيه صحيح، وقد زعم بعض العلماء أن بعض الأحاديث فيه موضوعة، قال بعضهم هي تسعة أحاديثَ، وقال آخرون هي خمسة عشر.

5- سنن النسائي (توفي سنة 303 هـ):
جمعه الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي. ولِد سنة 215 وتوفي سنة 303 هـ. ألّف النسائي كتابه "السنن الكبرى" وضمنه الصحيح والمعلول، ثم اختصره في كتاب "السنن الصغرى" وسماه "المجتبى"، وجمع فيه الصحيحَ عنده، وهو المقصود بما ينسب إلى رواية النسائي من حديث.
و"المجتبى" أقل السنن احتواءً للحديث الضعيف، وأقله للرجال المشكوك في جروحهم، درجته تأتي بعد "الصحيحين"، فهو - من حيث الرجال - مقدَّم على "سنن أبي داود والترمذي" لشدة تحرِّي مؤلفه في الرجال.
قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: "كم مِن رجُلٍ أخرج له أبو داود والترمذي تجنب النسائي إخراج حديثه، بل تجنب إخراج حديث جماعة في الصحيحين".
أصله مِن نسا (بخراسان) جال في البلاد واستوطن مصر، فحسده مشايخُها، فخرج إلى الرملة (بفلسطين) فسُئِل عن فضائلِ معاوية، فأمسك عنه، فضربوه في الجامع، وأخرج عليلاً، فمات سنة (303هـ) ودفن ببيت المقدس، وقيل: خرج حاجًّا فمات بمكة.

6- سنن ابن ماجه (توفي سنة 273 هـ):
محمد بن يزيد بن ماجه الربعي القزويني، أبو عبد الله، أحد الأئمة في علم الحديث. من أهل قزوين ولد سنة (209هـ)، رحل إلى البصرة وبغداد والشام ومصر والحجاز والري في طلب الحديث، وتوفي سنة (273هـ).
كان المتقدمون يعُدُّون الكتب الأصول خمسة: الصحيحين وسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، ثم ألحق بها سنن ابن ماجه لِما فيه من الفقه وحُسن الترتيب، ولِما فيه من الزوائد على الكتب الخمسة الأصول، واستقر الأمر على ذلك في كتب الأطراف والرجال. ومِن العلماء مَن جعل سادس الأصول الستة: موطأ الإمام مالك لقوة أحاديثه، بينما يرى ابن حجر أن الأولى بذلك سنن الدارمي لقلة الرجال الضعفاء فيه ولندرة الأحاديث الشاذة والمنكرة.
يمتاز سنن ابن ماجه بكثرة الأبواب، وعدد كتبه (37) كتابًا، وعدد أبوابه (1500) بابًا. يبلغ عدد أحاديثه (4341) حديثًا، منها (3002) حديث وردت في الكتب الخمسة أو بعضها، أما زياداته على الخمسة فهي (1339) حديثًا، منها (428) حديثًا صحيحًا، و(613) حديثًا ضعيفًا، و(99) حديثًا ما بين واهية الإسناد أو منكرةٍ موضوعةٍ.

7- سنن أبي داود (توفي سنة 275 هـ):
سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، أبو داود، إمام أهل الحديث في زمانه، أصله من سجستان. ولد سنة (202هـ) رحل رحلة كبيرة، وتوفي بالبصرة سنة (275هـ). جمع أبو داود في كتابه هذا 5274 حديثًا، وكتابه السنن صنفه وانتقاه من خمسمئة ألف حديثٍ. وقد وجه أبو داود همَّه في هذا الكتاب إلى جمع الأحاديث التي استدل بها الفقهاء، ودارت بينهم، وبَنى عليها الأحكامَ علماءُ الأمصار، وتسمى هذه الأحاديث أحاديث الأحكام وقد قال المؤلف في رسالته لأهل مكة: فهذه الأحاديث أحاديث السنن كلها في الأحكام، فأما أحاديث كثيرة في الزهد والفضائل، وغيرها من غير هذا فلم أخرجها .

8- سنن الترمذي (توفي سنة 279 هـ):
جمع الإمامُ أبو عيسى محمد الترمذي هذا الكتابَ. اشتهر أيضًا باسم "جامع الترمذي"، ألّفَه الترمذي على أبواب الفقه، وأودع فيه الصحيحَ والحَسن والضعيف، مبينًا درجة كل حديثٍ في موضعه مع بيان وجه الضعف، واعتنى ببيان مَن أخذ به مِن أهل العلم مِن الصحابة وغيرهم، وجعل في آخره كتابًا في "العلل" جمع فيه فوائدَ مهمة.

9- سنن الإمام الدارقطني (توفي سنة 385 هـ):
اسمه "المُجْتَنَا من السُّنن المأثورة عن النبيّ -صلى الله عليه وسلم-، والتَّنْبيه على الصحيح منها والسّقيم، واختلاف النَّاقلين لها في ألفاظها" كتاب ألّفَه أبو الحسن الدارقطني وجمع فيه الأحاديثَ الضعيفة والمضطربة، ويُعد هذا الكتاب مِن أشهر الكتب الحديثية في معرفة علل الأحاديث وغريبها.
كان يورد منها ما انبنى عليه خلافٌ فقهيٌّ، يورده ويتكلم فيه، وكان غالب ما يذكره منها الضعيف والشاذ، ويعقبه بنقده وبيان سبب ضعفه وعلته، فهو أقرب، لأن يكون كتابَ عللٍ مرتبًا على نسق السنن، ويظهر أن الدارقطني

أراد مِن كتابه هذا بيانَ درجة الأحاديث، التي تتعلق بالمسائل الفقهية، وأنها لا تصلح للاحتجاج، وما ورد في كتابه هذا من الأحاديث الصحيحة فهو يذكرها لأنها تخالف الأحاديث التي ضعَّفَها، فهو يستدل بها لتضعيف ما ضعفه، لا للاحتجاج بها وربما يرجع ذلك -واللهُ أعلم- إلى أنه رأى مِن الضروري أن يَخرج عن النمط الذي كان سائدًا قبله مِن إيراد الأحاديث التي تختص بالأحكام دون الاعتناء ببيان الضعيف لتجتنب، وهو أمر تجدر العناية به أكثر من غيره، لأن الحديث الضعيف لا يؤخذ به في الأحكام الشرعية.

10- سنن الدارمي (توفي سنة 255 هـ):
هو كتاب في الحديث لمؤلفه الحافظ شيخ الإسلام بسمرقند أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن التميمي الدارمي السمرقندي (181هـ - 255هـ)، اشتهر بحفظ الحديث وتدوينه حتى قال عنه الخطيب البغدادي: "كان أحد الرحالين في الحديث، والموصوفين بحفظه وجمعه، والإتقان له، مع الثقة والصدق والورع والزهد، وكان يُضرَب به المَثَل في الديانة والحِلم والرزانة". رتبه المؤلف تحت عدد من الكتب، أدرج تحت كل كتاب عددًا من الأبواب. وقد قدَّم بين يدي الكتاب الطهارةَ، فالصلاة، فالزكاة، فالصوم..إلخ، ثم ختم بكتاب فضائل القرآن.
اشتملت سنن الدارمي على أحاديثَ كثيرةٍ عدَّهَا بعضُهم (3455) نصًا مسندًا، في مختلف الأبواب الفقهية، وقد اعتمد فيه مصنفه الدارمي على طريقة الكتب والأبواب، وقد قدَّم بين يدي الكتاب بمقدمةٍ احتوت على عدة أبواب في الشمائل النبوية، وفي اتباع السُّنَّة، وفي آداب الفُتيا، وفي فضل العلم. ثم شرع في الكتاب على الترتيب المعتاد مبتدئًا بكتاب الطهارة، فالصلاة، فالزكاة، فالصوم، فالحج، ثم ختم بكتاب فضائل القرآن. والمؤلف يورد المرفوعَ والموقوف والمقطوع، والمتصلَ والمنقطع، والصحيحَ والضعيف، كل هذا يورده بسنده دون التعرض لنقد الأسانيد. اشتهرت سنن الدارمي عند المحدثين بـ(المسند) على خلاف اصطلاحهم.

11- صحيح ابن خزيمة (توفي سنة 311 هـ):
واسم الكتاب الأصلي هو: (مختصر المختصر من المسند الصحيح عن النبي بنقل العدل عن العدل موصولاً إليه من غير قطع في أثناء الإسناد ولا جرح في ناقلي الأخبار) ويتبين لنا منه أنه مؤلفه ابن خزيمة قد اشترط أنه لا يُخرج فيه إلا حديثًا صحيحًا عنده، رواته ثقاتٌ عدولٌ، وإسناده متصلٌ غيرُ منقطعٍ.
جمعه محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري الشافعي (٢٢٣ هـ - ٣١١ هـ)، ويعتبر بالإضافة إلى صحيح ابن حبان والمستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري من أهم الكتب التي ألفت في الصحيح المجرد بعد الصحيحين للبخاري ومسلم.

12- صحيح ابن حبان (توفي سنة 354 هـ):
المسمى بـ «المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع» كتاب سلك فيه مؤلفه مسلكَ الفقهاء المحدثين في التبويب والترجمة للأحاديث وبيان ما فيها من النبذ الفقهية، وهو في غالب استنباطاته الفقهية شافعي المذهب ما طاوعه الدليل، فإنْ أعياه الأثر أو لم يصح عنده، لم يبالِ بمخالفة المذهب وتمسك بالأثر. وقد رتبه ترتيبًا مخترعًا لا على الأبواب ولا على المسانيد، بل جعل السنن النبوية تقاسيمَ وأنواعًا، فجعلها على خمسة أقسام. ثم جعل تحت كل قِسم عدةَ أنواعٍ تبلغ أربعمئة نوع.
جمعه محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي، أبو حاتم البستي، ويقال له ابن حبان مؤرخٌ، علامةٌ، جغرافيٌّ، محدِّثٌ. ولِد في بست (من بلاد سجستان) وتنقَّلَ في الأقطار، فرحل إلى خراسانَ والشامِ ومصرَ والعراق والجزيرة. وتولَّى قضاءَ سمرقند مدة، ثم عاد إلى نيسابورَ، ومنها إلى بلده، حيث توفي في عشر الثمانين من عمره. وهو أحد المكثرين من التصنيف.

وهناك المزيد من كتب الحديث أسرد أسماءَها فقط:

13- سنن سعيد بن منصور (ت 227 هـ).
14- مسند أبي عوانة (ت 316 هـ).
15- صحيح ابن السكن (ت 353 هـ).
16- مستدرك الحاكم (ت 405 هـ).
17- مسند أبي يعلى الموصلي (ت 307 هـ).
18- مسند الحميدي (ت 219 هـ).
19- مسند البزار (ت 292 هـ).
20- مسند ابن راهويه (ت 238 هـ).
21- مسند بقي بن مَخْلَد الأندلسي القرطبي (ت 276 هـ).
22- الأحاديث المختارة مما ليس في الصحيحين للضياء المقدسي (ت 643 هـ).

23- مصنف ابن أبي شيبة (ت 235 هـ).
24- مصنف عبد الرزاق (ت 211 هـ).

الكتب الموسوعية :
وهي كُتُبٌ جمَع مؤلفوها الأحاديثَ مِن كتبٍ متعددةٍ وخصوصًا السنن مثل :

1- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ابن حجر العسقلاني (توفي سنة 852 هـ):

هذا كتابٌ جمع فيه مصنِّفُه زوائدَ ثمانيةِ مسانيدَ على الكتب الستة، وهذه المسانيد هي: مسند الطيالسي، ومسدّد، والحميدي، وابن أبي شيبة، والعدني، وعبد بن حميد، وأحمد بن منيع، والحارث بن أبي أسامة، وقد رتب المصنِّفُ الكتابَ على الكتب الفقهية، مُفرِّعًا من كل كتاب مجموعةً من الأبواب الفقهية تناسب ما تحتويه من أحاديثَ، وهو في كل باب غالبًا يقدم المرفوعَ ثم الموقوف ثم المقطوع، وهكذا يسير في الكتاب بأجمعه في الجملة.
أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني الكناني، أصله من عسقلان بفلسطين، ولِد بالقاهرة سَنَة (773هـ) ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع الشيوخ، وعلت له شهرةٌ فقصده الناسُ للأخذ عنه، قال السخاوي: «انتشرت مصنفاته في حياته وتهادتها الملوك وكتَبها الأكابر». ووَلِيَ قضاءَ مصرَ مراتٍ ثم اعتزل، (توفي سنة 852هـ).

2- المسند الجامع:
هذا الكتاب عبارة عن موسوعةٍ حديثيةٍ جمعت أكثر من (21) كتابًا من كتب الحديث المسندة، مثل: الكتب الستة، وموطأ مالك، ومسند أحمد بن حنبل، ومسند الحميدي، ومسند عبد بن حميد، وصحيح ابن خزيمة، وسنن الدرامي، وغيرها من كتب السُّنَّة، مما جعل هذا الكتابَ جامعًا لكتب السُّنّة النبوية المطهرة في كتابٍ واحدٍ يغني عن مكتبةٍ بكاملها؛ حيث إنه يجمع كل ما روي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالإسناد الكامل، وقد بلغت الأحاديث الواردة في الكتاب (17802) حديثًا، وبلغ عدد رواتِها (1237) راويًا.
السيد أبو المعاطي محمد النوري، أبو الفضل، مصريٌّ عاش في العراق، وتتلمذ على الشيخ صبحي السامرائي البغدادي، وشارك مع بعض العراقيين في تحقيق بعض كتب الحديث والعلل والرجال والجرح والتعديل، وتوفي سنة (1401هـ/ 1981م).

عِلم مصطلح الحديث:
هو مجموع القواعد والمباحث الحديثية المتعلقة بالإسناد والمتن، أو بالراوي والمرويّ حتى تقبل الرواية أو تُرد.

تاريخ علم الحديث:
هذه أهم مراحل علم الحديث والكتب المؤلفة فيه ومؤلفوها:
1- أول مَن أسس لعلوم مصطلح الحديث الشافعي (150- 204 هـ) في كتابه "الرسالة" وتبعه عبد الله الحميدي (ت 219 هـ) ثم ظهر الجرح والتعديل مِن حيث إنه علمٌ قائمٌ بذاته له أهلـه ورجاله وقواعده بعد عصر التابعين. والجرح يعني إظهار علات الرواة، والتعديل يعني إظهار محاسنهم.
2- أول مَن كتب في قواعد هذا العلم أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار (المتوفى 292 هـ) في جزء له في معرفة من يُترَكُ حديثه أو يُقبَل. وهكذا نشأ هذا العلم، وهو أحد فروع علم الحديث.
3- ومِن أول مَن دوَّن فيـه تدوينًا مستقلاً أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاَّل الفارسي الرَّامَهُرْمُزي، (265 - 360 هـ)، فألَّف فيه كتابَه "المحدث الفاصل بين الراوي والواعي". ونجد كتاب: "المحدث الفاصل" معتمدًا الاعتماد كله على كلام أئمة النقد من أئمة الحديث في القرن الثالث الهجري؛ حيث بيَّن فيه منهجَهم في مسائل "علوم الحديث".
4- وكذلك لأبي عبد الله بن منده (395هـ) "جزء" في شروط الأئمة في القراءة، والسماع، والمناولة، والإجازة ذكره الحافظ سبط ابن العجمي في كتابه: "التبيين لأسماء المدلسين".
5- وكـذا قام أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (405هـ)، بتأليف كتاب: "معرفة علوم الحديث".
6- الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت (392 - 463 هـ) قال عنه ابن نقطة الحنبلي: "له مصنفات في علوم الحديث لم يُسبق إلى مثلها ولا شبْهها عند كل لبيب. إن المتأخرين مِن أصحاب الحديث عيالٌ على أبي بكر الخطيب". وعنه قال ابن حجر: "قلَّ فنٌّ من فنون الحديث إلا وقد صنف فيه كتابًا مفردًا"؛ إلا أن أجلَّ كتبه، وأنفعها في علوم الحديث هو: "الكفاية في علم الرواية".

7- أبو يعلى الخليل بن عبد الله بن أحمد الخليلي (446 هـ)؛ فقد كتب في مقدمة كتابه: "الإرشاد في معرفة علماء الحديث" مقدمة نفيسة تعرض فيها لمصطلحاتٍ مهمةٍ بالشرح والتمثيل لها، وكلامه فيها من معين المحدثين، ومن صافي مشاربهم، ولا أثر فيها لأي علمٍ غريبٍ.
8- وكتب البيهقي (458هـ)، كتابه: "المدخل إلى السنن الكبرى". وقد طبع القسم الثاني من هذا الكتاب، وهو الموجود من مخطوطته، وبقية الكتاب شبه مفقودٍ، فكان مما فُقد من هذا الكتاب القسم الذي خصَّه البيهقي لعلوم الحديث، ومصطلحاته، وأصوله. وقد جعل ابن كثير (701 - 774 هـ) كتاب البيهقي هذا مرجعه الثاني بعد كتاب ابن الصلاح في كتاب: "اختصار علوم الحديث"، كما صرح بذلك في مقدمة كتابه. غير أن محقق كتاب البيهقي: الشيخ محمد ضياء الرحمن الأعظمي قد جمع مجموعة من النقول عن القسم المفقود من "المدخل إلى السنن" من كتب علوم الحديث المتأخر مصنفوها عن البيهقي. فـ "المدخل إلى السنن الكبرى" عبارةٌ عن كتابٍ لإسناد أقوال أئمة الحديث في القرن الرابع فما قبله المتعلقة بأصول الرواية وقواعدها.
9- كما ألف أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر الأندلسي، (368 - 463هـ)، وذلك فيما أودعه في مقدمته لكتابه: "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" في ستين صفحةً. وقد نقل ابن الصلاح كلامَ ابن عبد البر في علم المصطلح في غير موضع من كتابه: "معرفة أنواع علم الحديث".
10- أبو السعادات مبارك بن محمد المشهور بابن الأثير، (544 - 606 هـ) وما كتبه في مقدمة كتابه: "جامع الأصول في أحاديث الرسول"، وذلك في الباب الثالث في بيان أصول الحديث، وأحكامها، وما يتعلق بها.
11- ثم بعد هذا وذاك جاء الحافظ ابن الصلاح: أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشَّهْرَزُورِي، الشافعي (577 - 643 هـ)، فألف كتابه العظيم في علوم الحديث المسمى بـ "معرفة أنواع علم الحديث"، وقد اشتهر بـ "مقدمة ابن الصلاح"، ووقف التأليف في "علوم الحديث"، عند كتابه هذا.
وبقي كتاب الحافظ ابن الصلاح: "معرفة أنواع علم الحديث" المنهل الوحيد المفضل في علم المصطلح نحو مئتي سنةٍ حتى جاء ابن حجر العسقلاني.
12- ألف أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، المشهور بابن حجر (773 - 852 هـ)، رسالته المختصرة الجامعة التي سماها: "نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر"، ثم شرحها بالكتاب الذي اشتهر - أيضًا - باسم: "نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر"، فاتجهت أنظار العلماء إليه، وعوَّلوا في علم المصطلح عليه؛ لاختصاره وتنسيقه، وتمحيصه وتحقيقه، واحتوائه لزيادة جملةٍ هامةٍ من أنواع علم الحديث خلت منها مقدمة الحافظ ابن الصلاح؛ فمن ثم صارت "نخبة الفكر"، وشرحها محل الدرس والنظر من علماء الأثر، فكثر شراحها، ومختصروها، وكاتبو حواشيها، وناظموها، كثرة بالغة كادت تبلغ ما بلغته مقدمة ابن الصلاح؛ فلا يحصى كم ناظمٍ لها ومختصرٍ، ومستدركٍ عليها ومقتصرٍ، ومعارضٍ لها ومنتصرٍ!
(هذا البحث المختصر معظمه من ابن الصلاح وابن حجر العسقلاني).

عِلم الجرح والتعديل:
ويسمى أيضا علم الرجال أو علم رجال الحديث، هو أحد فروع علم الحديث، يبحث في أحوال رواة الحديث من حيث اتصافهم بشرائط قبول رواياتهم أو عدمه.
وقيل في تعريفه أيضًا: هو علمٌ وضِعَ لتشخيص رواة الحديث، ذاتًا ووصفًا، ومدحًا وقدحًا. وقيل أيضًا: هو علمٌ يدرس سير رواة الأحاديث النبوية ليتم الحكم على سندها إذا كانت صحيحةً أو حسنة أو ضعيفة أو موضوعةً.
ما عرضته أعلاه، ليس إلا بحثًا تاريخيًا مبسّطًا فيما يعرف بعلم الحديث لكن -كما أسلفنا- فهو فاقدٌ لمفهوم العلمية إلا مِن باب كونه تاريخًا يُتَّفَق ويُختَلَف على تفاصيله.

ملاحظات على الجرح والتعديل:
يقول الصنعاني: قد يختلف كلام إماميْن مِن أئمة الحديث في الراوي الواحد. فيضعِّف هذا حديثًا وهذا يصححه. ويرمي هذا رجلاً من الرواة بالجرح وآخر يعدله، وذلك مما يشعر بأن التصحيح ونحوه من مسائل الاجتهاد التي اختلفت فيها الآراء. فقد قال مالك في ابن إسحاق: إنه دجَّالٌ من الدجاجلة. بينما قال فيه شعبة: إنه أمير المؤمنين في الحديث. وشعبةُ إمامٌ لا كلامَ في ذلك. وإمامه مالك.
يقول جمال الدين القاسمي في كتابه الجرح والتعديل: وقد تجافى أرباب الصحاح الرواية عن أهل الرأي فلا تكاد تجد اسمًا لهم في سند من كتب الصحاح أو المسانيد أو السنن كالإمام أبي يوسف والإمام محمد بن الحسن فقد لينهما أهل الحديث.

وقد قسَّمَ الذهبي مَن تكلم في الرجال إلى ثلاثة أقسام:
1- مَن تكلموا في سائر الرواة كابن معين وأبي حاتم.

2- مَن تكلموا في كثير من الرواة كمالك وشعبة.
3- مَن تكلموا في الرجل بعد الرجل كابن عيينة والشافعي.

أقسامُ مَن تكلموا في الرجال بالجرح والتعديل:
1- مُتَعَنِّتٌ في الجرح مُتَثَبِّتٌ في التعديل يغمز الراوي بالغلطين والثلاث.
2- متسامحٌ كالترمذي والحاكم.
3- معتدلٌ كأحمد والدارقطني وابن عدي.

رأيهم في رفض الأخذ عن طوائفَ بعينِها:
أهل الجرح والتعديل حكموا على مجموعاتٍ وطوائفَ كاملةٍ بعدم العدالة:
فقدْ وقع الذهبي في كثيرٍ من المتصوِّفة وجرحهم (انظر ميزان الاعتدال). ووقع الجوزجاني في الحوفيين (انظر تهذيب التهذيب). ووقع ابن حجر في الشيعة (انظر مقدمة فتح الباري).
ووقع جميع الفقهاء في المخالفين مِن المعتزلة والجهمية والقدرية ورفضوا رواياتِهم فقط مِن باب المذهبية لا غير.

ويقول ابن الصلاح: أهل الحديث كثيرًا ما يطلِقون على ما أخرجه البخاري ومسلِم جميعًا "صحيحٌ متَّفَقٌ عليه" ويعنون به أنّ اتفاقَ البخاري ومسلِم جميعًا صحيحٌ متّفقٌ عليه. ويعنون به اتفاق البخاري ومسلم لا اتفاق الأمة عليه. لكن اتفاق الأمة عليه لازمٌ من ذلك وحاصلٌ معه، لاتفاقهما على تلقي ما اتفقا عليه بالقبول. وهذا القسم جميعه مقطوعٌ بصحته والعلم اليقينيّ النظريّ واقعٌ به خلافًا لمن نفى ذلك محتجًا بأنه لا يفيد من أصله إلا الظن.
و رَدَّ النووي على هذا الكلام بقوله: وهذا الذي ذكره الشيخ خلاف ما قاله المحققون والأكثرون فإنهم قالوا: أحاديث الصحيحين التي ليست بمتواترة وإنما تفيد الظن. فإنها آحادٌ. والآحاد إنما تفيد الظن لما تقرر، ولا فرق بين البخاري ومسلم وغيرهما في ذلك .

ملاحظات على رواة الحديث:
أول الملاحظات التي ينتبه لها مَن يقرأ كتبَ الحديث هي أن أقرب أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وأطولهم صحبة له، غائبون عن رواية الحديث.
فأطول الناس صحبة له هُم:
(1) السيدة خديجة وقد تزوجها وهو في الخامسة والعشرين من عمره. أم أولاده القاسم وزينب وفاطمة ورقية وأم كلثوم، ورفيقة الأيام الصعبة في مكة. توفيت عام الحزن قبل الهجرة بثلاث سنوات.
(2) علي بن أبي طالب -كرَّم الله وجهَه-، الذي عاش معه في بيته منذ أن كان صبيًا أيْ مِنْ قبل البعثة. أولُ رجل أسلم على الإطلاق. تزوج ابنتَه فاطمة الزهراء وكان كاتبَه ورسولَه وحاملَ لوائه ومِن أحب أهله إليه ووالد حفيديه سيديْ شباب أهل الجنة الحَسن والحسين. صَحِب النبيَّ -صلى الله عليه وآله وسلم- حتى يوم موته في السنة العاشرة للهجرة. لا بد من التذكير هنا أن عليًّا رضي الله عنه روى عنه الكثير في الجانب الشيعي، بينما يكاد يغيب اسمه في كتب السنة. وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن ما رواه عنه الشيعةُ صحّ أو أن السُّنّة لم ينقلوا عنه عن عمدٍ. هي فقط ملاحظةٌ تلمِّح إلى أن ما يسمى بعلم الحديث قد ولِد مِن رحِم المذهبية والأهواء منذ "خير القرون" نفسها.
(3) أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-، صحبه من قبل البعثة وهاجر معه، والد زوجته السيدة عائشة. صحب النبي حتى موته وخلفه مِن بعده. وقد رأينا سابقًا أنه كتب صحيفة فيها حوالي 500 رواية لكنه أحرقها بنفسه ولم يرثها منه أحد.
(4) زيد بن حارثة الكلبي، وَهَبَه حكيمُ بن حزام إلى السيدة خديجة لمّا كان عمره نحو ثماني سنوات، فربَّاه النبي وتبناه وعاش عنده حتى زوَّجَه. قُتِل في السنة الثامنة للهجرة بمعركة مؤتة.
(5) السيدة فاطمة ابنة النبي وقد ولِدت قبل البعثة بخمس سنوات وتوفيت بعد وفاة أبيها بنحو ثلاثة أشهرٍ تقريبًا، وكانت أحبَّ أهلِه إليه وأعلمَهم بأحوال أبيها.
(6) عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، أسلم في السنة الخامسة للبعثة وصحب النبيَّ حتى موته. وكان مِن أشد الخلفاء الراشدين منعًا لتناقل الأقاويل عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .
(7) بلال بن رباح: أسلم في السنة الثانية للبعثة وصحب رسولَ الله طوال حياته وكان مؤذِّنَه الذي حضر معه كل صلاةٍ تقريبًا إلى يوم موته، يوم كان المسجد هو برلمان الأمة، ومؤذِّنُ رسول الله بمثابة الناطق الرسمي باسمه. بلال يكاد اسمه يغيب عن كتب السيرة والحديث.

كعادة مدرسة "التبرير" التي استفحلت في هذا العصر فقد ابتدع أو تَوهم الكثيرون أن الحديث كان له مختصوه زمن الرسول -صلى الله عليه وسلم-، والقرآن كان له مختصوه، والسياسة لها أهلها، والعسكرية لها أهلها، لذلك

يبررون لأنفسهم غيابَ أقربِ المقربين لرسول الله عن كتب الحديث بحجة أنهم كانت لهم أدوارٌ أخرى لذلك تركوا الحديث لغيرهم. هذا الوهم -إن شاء الله- نعالجه مع نقاش "أسطورة البخاري" لاحقًا.
على النقيض مِن غياب مَن لم يغِب عن حياة النبي مِن كتب الحديث، نجد حضورًا مكثفًا لعددٍ غير يسير لمن كان وجود النبي في حياتهم وجودًا عابرًا. وهُم أكثر الناس روايةً عنه :

1- أبو هريرة الدوسي الذي أسلم في وقت متأخر نحو السنة السابعة للهجرة، ولم يشهد الفترةَ الأخيرة من حياة النبي لأن النبي بعثه إلى البحرين مع العلاء الحضرمي لجمع الصدقات. روى عنه في الكتب التسعة 8960 حديثًا، وبعد حذف التكرار تصبح 1475 حديثًا.
قال السرخسي في (كتاب الأصول 1 / 341): {لما بلغ عمر أنّ أبا هريرة يروي بعض ما لا يعرف قال: لتكفّن عن هذا أو لألحقنّك بجبال دوس} .
اعترفَ أبو هريرةَ بذلك فقال: {لقد حدّثتكم بأحاديثَ لو حدّثت بها زمن عمر بن الخطاب لضربني عمر بالدرّة} (جامع بيان العلم للحافظ ابن عبد البر: 399). وروى الإمام ابن قتيبة تكذيبَ عمرَ وعثمانَ وعليٍّ وعائشة لأبي هريرة.
هذا، وقد كان مِن أسباب الطعن في أبي هريرة كثرةُ حديثِه، قال الإمام ابن قتيبة (في تأويل مختلف الحديث 38) في بيان سبب طعن الصحابة في أبي هريرة: {فإنّ أبا هريرة صحب رسول الله نحوًا من ثلاث سنين، وأكثرَ الرواية عنه، وعمّر بعده نحوًا من خمسين سنة... فلما أتى مِن الرواية عنه ما لم يأتِ بمثله مَن صحبه مِن جلّة أصحابه والسابقين الأولين إليه اتّهموه وأنكروا عليه وقالوا: كيف سمعت هذا وحدَك؟ ومَن سمعه معك؟ وكانت عائشة أشدَّهم إنكارًا عليه، لتطاول الأيام بها وبه، وكان عمر أيضًا شديدًا على مَن أكثرَ الرواية...} .

وقد رأينا سابقًا أن "المعجم الكبير" لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني قد أفرد مسند أبي هريرة في مصنفٍ وحدَه لأنه يقال إنّ فيه ستين ألف حديثٍ، و فيه يقول ابن دحية: "هو أكبر معاجم الدنيا!

2- عبد الله بن عمر بن الخطاب روى 2630 حديثًا وقد مات عنه النبي وهو لم يتجاوز العشرين عامًا .
3- أنس بن مالك روى 2286 حديثًا. مات عنه النبي وعمره لم يتجاوز العشرين.
4- السيدة عائشة -رضي الله عنها- وقد روت عنه 2210 حديثًا منها 316 في صحيح البخاري ومسلم. وسوف نرى في باب "وقولهم على عائشة بهتانًا عظيمًا" أن الكثير من الروايات التي يرفضها العقل نُسِبَتْ إلى عائشة كجزء من الحملة التدميرية لشخصيتها.
5- عبد الله بن عباس روى 1660 حديثًا وقد مات عنه النبي و عمره عشر سنوات.
6- جابر بن عبد الله روى 1540 حديثًا.
7- أبو سعيد الخدري روى 1170 حديثًا. مات عنه النبي ولم يتجاوز العشرين من عمره.
8- عبد الله بن عمرو بن العاص روى 684 حديثًا رغم أنه كان يكتب.

الخلاصة:
1- لا يستطيع أحد أن ينكر أن الفترة التي أعقبت نهاية الخلافة الإسلامية قد شهدت تقولاً غير مسبوق عن النبي -صلى الله عليه وسلم- . تعددت الأسباب لكن النتيجة واحدةٌ وهي أن الإسلام مَرّ بعصر "الأقـاويـل". يقال إن أحمد بن حنبل انتخب مسنده من مليون نَصٍّ، والبخاري انتخب صحيحه من 600 ألف نَصٍّ كما في مقدمة صحيح البخاري اليوم، وفي رواية أخرى من سبعمئة وخمسين ألف نَصٍّ. أمّا مسلِم فقد انتقى صحيحه من خمسمئة ألف نَصٍّ. هذه الأرقام الخرافية هي المتداوَلة في كتب التاريخ والحديث، لكننا سنرى لاحقًا أن هذه الأرقام نفسها ليست إلا أساطيرَ مِن إفرازات "عصر الأقاويل". لكن ذِكْرها يدل على الكم المهول من الأكاذيب التي رويت عن رسول الله في تلك الفترة.
2- بدأت حركة تدوين ما يُظَن أنه صَحّ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منذ القرن الثاني الهجري. وكان الدافع في الغالب هو الحدُّ من ظاهرة الكذب على رسول الله، وليس أهمية توثيق ما نهى عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حياته. فأسطورة كون الحديث مصدرًا ثانيًا للتشريع لم تكن قد ابتُكِرت بعد. لكن أهم الكتب تم تأليفها في القرنين الثالث والرابع الهجري وتميزت بدقةٍ وضبطٍ وجودةٍ أعلى مما سبقها رغم تأخرها تاريخيًا وبعدِها عن الزمن الذي تحكي عنه. لكنها سرعان ما تحولت إلى مشكلةٍ أكثرَ من كونها حلاً لمشكلة.
3- مفهوم "الجرح" و"التعديل" الذي يقوم عليه تحديد أهلية مَن ينقل عنهم الرواية ومَن لا تنقل عنهم لم يكن منهجًا واحدًا متفقًا عليه، وإنما كان يعكس رؤية كل محدِّثٍ وعلاقاته الشخصية. وعليه فجملة "صحيح على شرط البخاري" لا يعني بالضرورة أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد قاله، ولكن يعني أن البخاري قد صدَّقَ الرواية. وقد تأثرت حركة التدوين بالنزاع والصراع والمواقف السياسية والفكرية

المذهبية لمؤلفيها في مقابل خصومهم، حيث نلاحظ غيابَ آلِ البيت مِن رواة الأحاديث في معظم كتب السُّنّة وحضورَ خصومٍ لهم ممن هُم أقل عدالةً ومقامًا وصحبةً للنبي -صلى الله عليه وسلم- . وهذا الموقف أصبح جزءًا من المنهج عندما نعرف أن ابن حجر ترك النقل مِن رواة الشيعة، والذهبي وضع المعتزلةَ، في حين قَبِلَ بعضُهم الرواية عن الخوارج بحجة أن انحرافَهم يدفعهم للصدق في الرواية.

4- نشأت ما عُرِفت لاحقًا بعلوم الحديث وتطورت مع مرور الوقت لتبلغ أعلى مستوياتها في وقتٍ متأخرٍ على يد الخطيب وابن الصلاح وابن حجر العسقلاني. لكن كان الوقت قد فات على استخدام هذه المناهج بصرامة في تأليف تلك الكتب. فالكتب انتشرت وبقيت على ما هي عليه إلا من شروحاتٍ وحواشٍ لم تَمَس محتوى الكتب نفسها.

5- لم يجرؤ المتأخرون على تنقيح الكتب المعروفة كما لم يجرؤوا على تأليف كتب أو موسوعات منقحة من الكتب القديمة إلا أعمالٍ محدودةٍ مثل أعمال محمد ناصر الدين الألباني المعاصرة، والتي لم تخلُ مِن التأثر بالسياسة الراهنة والمذهبية أيضًا. مِن الواضح أن المتخصصين في علم الحديث لم يسمحوا لأحدٍ بالاقتراب من ميدان تخصصهم ووقفوا في وجه أيِّ عملٍ نقديٍّ، كما فعل ابن حجر في وجه مَن طَعنوا في رواة البخاري وغير ذلك، وهذا التحجر قد أضرّ بسيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- كثيرًا وأضر بالبخاري وغيره أيضًا.

6- لا بد أنّ أحاديثَ كثيرةً ضاعت بسبب تفرُّق الرواة، الذين عاصروا النبي، في الأمصار وعدم وصول المدونين لهم، وحتى موت معظم الصحابة قبْل أن تبدأ عمليات الكتابة الموسعة. لا بد أن هنالك أحاديثَ كثيرةً صحيحة تم إسقاطها لعيبٍ ما في الزلل أو الرواية أو تجريح الراوي وفق منهج أحد المؤلفين أو الحُفّاظ. لا بد أن هنالك عددًا مقدرًا من النصوص الموضوعة تسربت لكتب الحديث المعروفة، وظن المؤلفون أنها صحيحةٌ حسب الشروط التي وضعوها.

7- بالإجمال بَذَل العاملون الأولون في مجال الحديث جهدًا هائلاً وغيرَ مسبوقٍ في العناية بالتراث النبوي وتنقيته مما لحق به من تشويه على يد الوضّاعين، لكنه جهدٌ بشريٌّ به أخطاءُ واضحةٌ تحتاج إلى تصويبٍ. ويمكننا أن نقول إنه عمل يفتقر للفحص والنقد والتنقيح الشامل. بالمقابل تحجرت العقول وتبع مِن بعدِهم تبعٌ قدسوا أعمالهم وخذلوهم بدلاً من أن ينصروهم وجعلوا منهم أساطير، وأخيرًا فُتِحت مِن خلالهم ثغراتٌ للنيل من الإسلام متمثلاً في التشكيك في القرآن من خلال الحديث الموضوع وتشويه صورة النبي -صلى الله عليه وسلم- وإبعاد المسلمين عن القرآن، بينما كان الهدف الأساس للمحدثين الأوائل هو إعادة الناس للقرآن وإبعادهم عن الكذب على رسول الله.

مما سبق يلاحظ القارئ أن ما يسمى بـ "علم الحديث" ليس إلا متاهاتٍ من الروايات والكتب والمناهج، كلها تسعى للزعم أن النبي قال أو ما قال، ما نُسِب إليه وليس هناك قاعدةٌ يمكن وفقها الحكم على مصداقية أحدٍ في معارضة غيره. هذا بالطبع فيما يعرف بطائفة أو مذهب "أهل السُّنّة والجماعة". أمّا إذا قبلنا أن الشيعة طائفةٌ من المسلمين ومذهبٌ لا يمكن تكفيره بالجملة كما يذهب الكثيرون من أهل السنة فإن مقارنة ما يسمى بـ "علم الحديث" بين "السنة و"الشيعة" يصبح أشبهَ بتوثيق الأناجيل التي يختلف أهلُها على مصداقيتها من حيث المبدأ. على أن ما يسمى بـ "علم الحديث" ما اكتسب مكانة مهمة في الإسلام إلا بعد أن تحول إلى أسطورة في عصر الأساطير.

(3) "الحديث" في عصر الأساطير

ما قدَّمتُه تحت عنوان "الحديث في عصر الأقاويل" هو ملخصٌ للتعريف بما يسمى علم الحديث اليوم مِن غير نقدٍ لاذعٍ أو تهويلٍ أو تقديسٍ. ما سنتعرض له تحت هذا العنوان هو الحقيقة التي يجب أن يتدبر فيها كل مسلم، ويبذل جهده هو في البحث فيها قبل أن يتفوه بكلمة واحدة منسوبة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .
من طبيعة البشر أنه كلما أصبح التاريخ قديمًا أصبح أسطوريًا. والأسطورةُ ليست خرافةً ولا اختلاقًا، وإنما هي حقيقةٌ تم تضخيمها وتهويلها وفق المقتضيات السياسية أو العقيدية أو الاقتصادية أو الثقافية أو حتى مِن باب الفكاهة. فشخصية "جُحا" في التراث العربي أسطورةٌ وليست خرافةً. أغلب الأقوال تؤكد أن الرجُلَ وُجِد وكان شخصيةً هَزْلِيّةً مرحةً انتشرت عنه النِّكات والفكاهة، لكن مع عامل الزمن أصبحت تُروَى عنه أشياءُ لم يقلها فتكونت الأسطورة التي ورثناها اليوم. لذلك نجد المشركين قد وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين:

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32)} الأنفال.

فأساطير الأولين تعني قصص التاريخ الحقيقية لكنها تم تهويلها وتحريفها.

في هذا القِسم سنسلِّط الضوءَ على البخاري وحدَه؛ لأنه أشهرُ كُتُبِ الحديث. ليس لدينا مبررٌ للشك في أن محمد بن إسماعيل البخاري كان رجُلاً عالمًا، وبذل جهدًا بشريًا مقدرًا في تدوين وتوثيق أخبار النبي -صلى الله عليه وسلم- في زمنٍ كان توثيق ما ثبت منها من ضرورات الدين والتاريخ والإنسانية. لكن مما لا شك فيه أيضًا أن تلك الحقبة كانت مكتظة بالصراعات الفكرية والسياسية والعقائدية على مستوى العالم بعد ظهور المارد الذي يسمى الإسلام بلا مقدماتٍ، وابتلع في أقل من قرنٍ كلَّ العالم القديم وحضاراته المعروفة. تلك العوامل لا شك لعبت دورًا كبيرًا فيما وصلنا عن شخص البخاري وما وصلنا مِن كتابه. وقبل أن أناقش الآراء المتناقضة والمتباعدة في حق البخاري "الكتاب" ومحمد إسماعيل البخاري "الكاتب" لا بد من التنبيه إلى أن المسلمين اليوم على الأقل مقسَّمون إلى أربعة أقسام حول البخاري:

أهل السُّنّة والجماعة: يصِفون كتابه بأنه أصح كتابٍ تحت أديم السماء بعد كتاب الله، ويعتبرونه مصدرًا ثانيًا بعد القرآن في التشريع.

الشيعة: أصلاً لا يعتبرون البخاري مرجعًا معتمدًا من مراجعهم في علم الحديث، وهؤلاء يمثلون حوالي 20% من المسلمين.

القرآنيون: هؤلاء تيارٌ فكريٌّ ناشئٌ لكنه ليس مدرسة فكرية محددة المعالم والعضوية أو الانتماء. الغالبية يرون الحديثَ ليس إلا تراثًا، لكِنْ منهم متطرفون يثبتون أن صحيح البخاري الذي بين أيدينا الآن هو الكتاب نفسه الذي كتبه محمد بن إسماعيل البخاري، وبما أنه يحتوي على "أقاويلَ" خطيرةٍ تُخرج المسلِمَ من الملة فبعضهم لا يتردد في تكفير محمد إسماعيل البخاري واتهامه بأنه قصَد محاربة الإسلام بالكذب عمدًا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .

القِسم الرابع من المسلمين وهُم الغالبية: هؤلاء مذبذبون بين هذه المدارس المتباينة، وأزمة التذبذب والشك في اتساع سريعٍ وخطيرٍ نتيجة الانفلات الإعلامي وتناقل المعلومات بين كل الناس في العقدين الماضيين بصورةٍ غير مسبوقة في تاريخ الإنسانية.

وحتى أكون موضوعيًا ما استطعتُ، سأبدأ مناقشة "أسطورة البخاري" مِن حيث واقعها الآن، ثم نحاول أن نجتهد في فهم التاريخ كلما ابتعدنا للوراء. فما بين أيدينا هو الحقيقة الملموسة التي يمكننا على ضوئها وضع افتراضات تشرح ماذا حدث في الماضي.

صحيح البخاري اليوم:

ما لا يعلمه عامة المسلمين الذين يُقهَرون بمصطلحات مثل " متفقٌ عليه"، "صححه الشيخان"، وأجمعت الأمة"، أن ما يسمي بصحيح البخاري اليوم ليس كتابًا واحدًا كالقرآن تحتكر إصدارَه جهة رسمية محددةٌ وتنقل نقلاً حرفيًا من أصلٍ واحدٍ هو مخطوطة الإمام محمد بن إسماعيل البخاري بخط يده. الواقع أبعد من هذا الخيال والوهم بكثير. فما يسمى بالبخاري "الكتاب" عبارة عن طبعات تصدر من جهاتٍ مختلفةٍ، كلٌّ يطبع وفق رؤيته في الترتيب والتبويب والشرح أو الاختصار والمصادر. لذلك فمحمد إسماعيل البخاري رحمه الله بريء من الكتب المتداولة اليوم بين أيدينا التي تحمل اسمَه.

النسخة اليونينية:

وهنا أنقل فقراتٍ من مقدمة طبعة البخاري الصادرة من مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة سنة 2007 تقديم العلامة أحمد محمد شاكر رحمه الله، ترقيم وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي. وهي تعكس أمانة كبيرةً من الكاتب المرحوم أحمد شاكر إذ إنه لم يدَّعِ أبدًا أن ما كتبه هو طبق الأصل، وإنما فقط اجتهد في توضيح الجهد الكبير الذي بذله ليقدم طبعة أقربَ لِما يظن أنه يعكس كتاب البخاري.

المقدمة معنونةٌ بالآتي: مقدمة الشيخ أحمد شاكر "بتصرفٍ يسير": النسخة اليونينية من صحيح البخاري:

{منذ بضع عشرةَ سنة فكرتُ في طبع "صحيح البخاري" بطلب من أحد الناشرين إذ ذاك. ثم لم يقدر أن يتحقق ما أردنا. وكانت الفكرة مبنية على إخراج الكتاب إخراجًا صحيحًا متقنًا موثقًا، عن أصح نسخة وأجلِّها وهي الطبعة

السلطانية التي أمر بطبعها " أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد رحمه الله"، وطُبِعت بمصرَ في المطبعة الأميرية، في سني (1311-1313 هـ) ثم الطبعة التالية لها، التي طبعت على مثالها، في المطبعة الأميرية سنة 1314 هـ}.

{والطبعة السلطانية مطبوعة عن "النسخة اليونينية". وهي أعظم أصل يوثق به في نسخ "صحيح البخاري". و"النسخة اليونينية" هي التي جعلها العلامة القسطلاني "المتوفي سنة 923" عُمدته في تحقيق متن الكتاب وضبطه، حرفًا حرفًا، وكلمة كلمة. وهذه هي أكبر ميزة لشرح القسطلاني المسمى "إرشاد الساري" وهو شرح معروفٌ مشهورٌ عند أهل العلم}.

حتى نتابع هذه المقدمة بدقة، نخلص حتى الآن أن كتاب أحمد شاكر هو عن الطبعة السلطانية – وهذه الطبعة السلطانية قامت أساسًا على مصداقية "النسخة اليونينية" من كتاب البخاري. ومضى الشيخ أحمد شاكر يشرح أصل النسخة اليونينية:

{ اليونيني: نسبة إلى قرية من قرى بَعْلَبَكَّ، اسمها "يونين" بضم الياء وكسر النون الأولى، وسماها ياقوت في معجم البلدان والفيروزآبادي في القاموس "يونان" بفتح النون الأولى، وقال الزبيدي في تاج العروس: " ويقال فيها يونين أيضًا، وهو المعروف". وفي هذه القرية نشأت أسرة الحافظ، قال الزبيدي: "وهُم بيت علمٍ وحديث".}

وبعد أن أسهب في تزكية أسرة الحافظ اليونيني مضى يصف النسخة اليونينية لصحيح البخاري:

{كان الحافظ أبو الحسن شرف الدين اليونيني كثيرَ العناية بصحيح البخاري، طويلَ الممارسة له مهتمًا بضبطه وتصحيحه ومقابلته على الأصول الصحيحة التي رواها الحافظ: حتى أن الحافظ شمس الدين الذهبي حكى عنه أنه قابله في سنة واحدة إحدى عشرةَ مرة.

وقد عقد الحافظ اليونيني **<u>مجالسَ بدمشق</u>**، لإسماع "صحيح البخاري" بحضرة ابن مالك، وبحضرة **<u>جماعة من الفضلاء</u>** وجمع منه أصولاً معتمدةً، وقرأ عليهم اليونيني صحيحَ البخاري في واحدٍ وسبعين مجلسًا، مع المقابلة والتصحيح، فكان اليونيني في هذه المجالس شيخًا قارئًا مسمعًا، وكان ابن مالك - وهو أكبر منه بأكثر من 20 سنة - تلميذًا سامعًا راويًا، هذا من جهة الرواية والسماع، على عادة العلماء السابقين الصالحين، في التلقي عن الشيوخ الثقات الأثبات، وإنْ كان السامع أكبرَ من الشيخ. وكان اليونيني في هذه المجالس نفسها: تلميذًا مستفيدًا من ابن مالك، فيما يتعلق بضبط ألفاظ الكتاب من جهة العربية والتوجيه والتصحيح}.

إلى هنا نفهم أن اليونيني قد نقل البخاري سماعًا وناقشه في مجالس علمٍ متعددة في دمشقَ للاطمئنان على دقة ما يظن الجميع أنه رواية البخاري. لكن لم يفصح لنا كيف وصل البخاري إلى اليونيني نفسه، هل بالسماع من مشايخَ سابقين أو نقلاً عن مخطوطات ترجع للبخاري أو ما بعد البخاري. ما يهم أن الفقرة أعلاه تشرح كيف ظهرت النسخة اليونينية، لكنها لا تفصح عن صلتها بالبخاري. وكلما كان الفارق الزمني بين اليونيني والبخاري كبيرًا أصبح هذا السؤال مُلِحًا: كيف وصل صحيح البخاري لليونيني: شفاهة أم كتابة؟. ومضى أحمد شاكر:

{وقد أرَّخَ القسطلاني في شرحه السَّنَة التي عقدت فيها مجالس السماع بحضرة اليونيني وابن مالك وكتبها بالحروف لا بالأرقام "ست وسبعين وستمائة" وهذا خطأ قطعًا، لأن ابن مالك مات سنة 672، وكنت ظننت أولاً أن هذا خطأ مطبعي، ثم رجعت إلى النسخ المخطوطة من شرح القسطلاني بدار الكتب المصرية، فوجدت هذا التاريخ فيها كما في النسخ المطبوعة، فأيقنت أنه خطأ من المؤلف، اشتبه عليه الأمر حين الكتابة، ولعل صوابَه سنة 666 أو سنة 667 فتكون مكتوبة فيما نقل عن "ستة وستين" فقرأها "ستة وسبعين" ونقلها كذلك، أو تكون مكتوبة أمامه بالرقم هكذا 667، فحين أراد أن ينقل انتقل نظره فقرأ رقم السبعة متوسطا بين الرقمين الآخرين

المتماثلين، والله أعلم بصحة ذلك، فإني قد بذلتُ جهدي في تعرف التاريخ الصحيح لذلك، فلم أجده منصوصًا عليه في أحد المراجع التي وصلتُ إليها}.

ونحن نقول بارك الله في الشيخ أحمد شاكر على الجهد الذي بذل في توضيح التاريخ. ما يهمنا من هذه الفقرة أن تاريخ تدوين شرح القسطلاني عن اليونيني نفسه غير واضح. ورغم أن فرق السنين هنا بسيط إلا أننا نتعامل مع وثيقة في النهاية تعتبر مصدرًا وحيدًا لكتاب كُتِب قبل 400 سنة تقريبًا من هذا التاريخ، إذ إن البخاري توفي سنة 256 هجرية علمًا بأن أكبر ميزة للبخاري هي علم الجرح والتعديل والأسانيد التي بُنِي عليها كتابُه في خير القرون. لكننا هنا نواجه فجوة 400 سنة جديدة بين البخاري نفسه واليونيني الذي نقل عنه العسقلاني تحتاج لعلم رجالٍ وأسانيدَ جديدةٍ وجرح وتعديل كله مسكوت عنه.

فالواضح أن ما يسمى بالنسخة اليونينية التي قامت عليها الطبعة السلطانية كانت نسخة انتقلت بالسماع والاستماع عن مشايخَ تمت تزكيتُهم أيَّما تزكية للإيحاء بحرفية النقل - رغم ذلك فكل سماع يخضع لتدقيق وتصويب. ورغم مزاعم الدقة في التصويب الشفاهيّ السماعيّ نلاحظ أنه حتى تاريخ اليونيني احتاج لتصويب من المؤلف. وعليه فإن مصداقية النقل الشفاهي من اليونيني إلى مَن كَتَب عنه تقوم على مصداقية أولئك الشيوخ الذين سمعوا من اليونيني في مجالِسِه في دمشق. لكن تأتينا مفاجأةٌ أخرى عن الشيوخ الكرام. فقد مضى ابن شاكر يقول:

{**<u>وجماعة الفضلاء</u>** الذين كانوا حاضري هذه المجالس، للسماع والتصحيح والمقابلة، <u>لم أجد أيضًا أسماءهم في شيءٍ مما بين يدي من المصادر</u>، ولا أدري أكُتِبت أسماؤهم في ثبت السماع على النسخة اليونينية أم لم تكتب؟ أما الأصول المعتمدة التي قابل عليها الحافظ اليونيني ومَن معه فقدْ بيَّنَها هو في ثبت السماع، الذي نقله القسطلاني في شرحه ونقله عنه مصححو الطبعة السلطانية}.

إذن: إلى هنا فابن شاكر يشكك في تاريخ اليونيني من ناحية، ومن ناحية أخرى فشل في الوصول إلى أسماء أولئك الفضلاء الذين استمعوا لمجالسه وساهموا في تنقيح النسخة اليونينية التي قام عليها كتابه. لكنه مضى يضرب مثالاً لتأكيد القسطلاني مصداقية النقل:

{سمعتُ ما تضمنه هذا المجلد من صحيح البخاري رضي الله عنه بقراءة سيدنا الشيخ الإمام العالم الحافظ المتقن شرف الدين أبي الحسين على بن محمد بن أحمد اليونيني رضي الله عنه وعن سلفه، وكان السماع بحضرة **<u>جماعة من الفضلاء</u>**، ناظرين في نسخ معتمد عليها، فكلما مَر بهم لفظ ذو إشكال بينت فيه الصواب، وضبطته على ما اقتضاه علمي بالعربية، وما افتقر إلى بسط عبارة وإقامة دلالة، أخَّرتُ أمرَه إلى جزء أستوفي فيه الكلامَ مما يحتاج إليه من نظير وشاهد، ليكون الانتفاع به عاما، والبيان تاما إن شاء الله تعالى. وكتب محمد بن عبد الله بن مالك، حامدًا الله تعالى.}

مما سبق نفهم أن تزكية القسطلاني للنسخة اليونانية المزعومة كان سماعًا وتصويبًا وتصحيحًا وليس نقلاً حرفيًا، لكن يظل أعضاء ذلك المجلس الموقر مجهولين. ونلاحظ أنه يشير إلى نُسَخٍ معتمدٍ عليها لكنه لم يصرح عن هوية تلك النسخ متى كُتِبت ومَن كتبها. ما صرح به أنها هي نفسها احتاجت لتصويبٍ وضبطٍ حسب علمه بالعربية وكأن كاتبيها كانوا عجمًا. ولا ندري بأيِّ معيارٍ يعاد ضبط وتصويب كلام من المفترض أنه كلام مَن أوتي جوامعَ الكلم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأنه المصدر الثاني للتشريع في الإسلام حسب رأي أهل السنة والجماعة، بل وأنه المصدر الأول في تفسير القرآن العظيم نفسه.

ثم مضى بن شاكر ينقل عن القسطلاني عن اليوناني نفسه كيف كَتَب كتابه:

{بلغت مقابلة وتصحيحا وإسماعا بين يدَي شيخِنا شيخ الإسلام، حجة العرب، مالك أزمّة الأدب، الإمام العلامة أبي عبد الله بن مالك الطائي الجياني أمدَّ الله تعالى عمرَه في المجلس الحادي والسبعين، وهو يراعي قراءتي، ويلاحظ نُطقي، فما اختاره ورجحه وأمر بإصلاحه أصلحته وصححت عليه، وما ذكر أنه يجوز فيه الإعرابان أو ثلاثة فأعملتُ ذلك على ما أمر ورجح، وأنا أقابل بأصل الحافظ أبي ذر، والحافظ أبي محمد الأصيلي، والحافظ أبي القاسم الدمشقي، <u>ما خلا الجزء الثالث عشر والثالث والثلاثين فإنهما معدومان</u>، وبأصل مسموع على الشيخ أبي الوقت بقراءة الحافظ أبي منصور السمعاني وغيره من الحُفاظ وهو وقف بخانكاه السميساطي. وعلامات ما

وافقت أبا ذر "هـ" والأصيلي "ص" والدمشقي "ش" وأبا الوقت (ط) فيُعلم ذلك وقد ذكرت ذلك في أول الكتاب في فرخة لـتُعلم الرموز. كتبه على بن محمد الهاشمي اليونيني عفا الله عنه}.

نلاحظ هنا أن اليونيني قد جمع بين النقل الشفاهي وبين الرجوع لمخطوطاتٍ قديمةٍ لكن لم يعلق على تاريخها أو دقتها، بل كان أمينًا جدًا في التصريح بعدم وجود بعض الأجزاء من تلك المخطوطات. رغم ذلك فقد أصبحت تلك النسخة اليونينية نسخة أصلية رغم أنفي وأنفِك، بل ورغم أنف البخاري ورغم أنف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .

ومضى أحمد شاكر يصف كيف تناقل العلماءُ نُسخَ اليونيني الدمشقية واعتبروها أصلاً للبخاري - وشرح كيف أن القسطلاني زعم أنه راجع نسختَه على نسخة منسوخة من اليونيني لكنها أجلُّ منها، هي الفرع المنسوب للإمام المحدِّث شمس الدين محمد بن أحمد المزِّي الغزولي وهي التي اعتمد عليها في كتابة متن البخاري. ومضى يقول عن القسطلاني:

{وقد قابلتُ متنَ شرحي هذا إسنادا وحديثا على هذا الجزء المذكور من أوله إلى آخره، حرفا حرفا، وحكيته كما رأيته، حسب طاقتي، وانتهت مقابلتي له في العشر الأخير من المحرم سنة 917 نفع الله تعالى به، ثم قابلتُه عليه مرة أخرى" " ثم قال: " ثم وجد الجزء الأول من أصل اليونيني المذكور ينادَى عليه للبيع بسوق الكتب، فعرف وأحضر إليَّ، بعد فقده أزيد مِن خمسين سنة، فقابلتُ عليه متنَ شرحي هذا فكملتْ مقابلتي عليه جميعه حسب الطاقة، ولله الحمد}.

نلاحظ هنا أن القسطلاني نفسه قد أنتج كتابه من نسخة هي الفرع المنسوب للإمام المحدِّث شمس الدين محمد بن أحمد المزِّي الغزولي وهي منسوبة لليونيني. رغم ذلك فقد ضاع منها على الأقل جزء لمدة خمسين عامًا،لكنه على أية حال يطمئن الأمة المسلمة أنه بذل كل طاقته ولله الحمد!

ويستدرك أحمد شاكر في شأن الجزء المفقود:

{ولم يذكر القسطلاني ماذا تم على الجزء الأول الذي رآه معروضا للبيع، وما مصيره ومآله؟ وأين مستقره؟ ولكنه ذكر ما يُفهم منه أن الجزء الثاني الذي رآه هو قبل الأول كان موقوفا في عصره بمدرسة أقبغا آص بسويقة العزّى خارج باب زويلة من القاهرة المعزية، وأنه رأى مكتوبا بظاهر بعض نُسخ البخاري الموثوق بها، الموقوفة برواق الجبروت من الجامع الأزهر بالقاهرة: إن أقبغا بذل فيه نحو عشرة آلاف دينار. والمفهوم لي من هذا أن أقبغا حصل على الأصل كله كاملا ووقفه في مدرسته، ثم فقدَ النصف الأول نحو خمسين سنة، إما بالسرقة، وإما بالعارية في معني السرقة، ثم وجد في عصر العسقلاني}.

بعد هذه المتاهة من الوصف لنسخة اليونيني الأسطورية ختم الشيخ أحمد شاكر مقدمته ليصف فيها تمام نسخته هو بقوله:

{وقد قرأ والدي صحيحَ البخاري في هذه النسخة قراءةَ درسٍ مرتين، أتمه كله حينها بالسودان، ولم يتمه في الأخرى بالإسكندرية، وكتب في أولها في المرة الأولى ما نصه: " في يوم الأربعاء التاسع من شهر ربيع الثاني سنة 1318 هجرية والخامس عشر من شهر أغسطس سنة 1900 أفرنكية، شرعتُ في قراءة صحيح الإمام البخاري، بمسجد أمدرمان، وأسأل الله أن يوفقني لإتمامه، إنه سميع الدعاء. كتبه محمد شاكر قاضي قضاة السودان". وكتب في آخرها ما نصه: " بحمد الله تعالى قد فرغت من قراءته بمسجد أمدرمان بعد عصر الأربعاء السابع من شهر ذي الحجة الحرام سنة 1318 - 26 مارس سنة 1901". وكتب في أولها في المرة الثانية: " في يوم الأحد التاسع عشر من شهر ربيع الثاني سنة 1322 هجرية والثالث من شهر يوليو سنة 1904 شرعت بمعونة الله تعالى في قراءة صحيح الإمام البخاري رضي الله تعالى عنه للمرة الثانية بمسجد الأستاذ أبي العباس المرسي بمدينة الإسكندرية، وأسال الله أن يوفقني لإتمامه، إنه سميع الدعاء. كتبه الفقير محمد شاكر شيخ علماء الإسكندرية}!

منقولٌ حرفيًا من مقدمة الشيخ أحمد شاكر لطبعته لصحيح البخاري.

سأعود لمقدمة ابن شاكر والعسقلاني لاحقًا تحت عنوان "صناعة الأسطورة"، لكن من هذه المقدمة الأمينة جدًا يمكننا أن نخلص الآن بسؤالين يحتاجان لبحث:

أولاً: ما هي أقرب وأقدم المخطوطات عن صحيح البخاري؟

ثانيًا: كيف تم النقل الشفويّ خلال 400 سنة من عمر الصراعات الإسلامية التي قامت خلالها ممالكُ وسُحِقت ممالك بين زمن البخاري الذي توفي سنة 256 هجرية وبين اليونيني سنة 666 هجرية؟

الإجابة على أيّ من السؤالين ليست سهلةً ولا يمكن فصلهما عن بعضهما. وما يزيد الأمرَ صعوبة هو رفض أهل الاختصاص التعاون معي بحجة أني طبيب و لن أفهم فنون العلم وأسراره، ولأن نيتي بالطبع هي البحث عن حقيقة ولا تخضع للقدسية التي أحتاجها حتى أبتلع تلك المتناقضات بلا حرج. لكن بعد جهد مضنٍ وتواصلٍ مع باحثين أكاديميين تحصلتُ على هذه المقالات من أصحابها:

من المملكة المغربية:

كَتَب لي الأستاذ رشيد إيلال، وهو صحفيٌ مغربيٌّ بحثًا مختصرًا أنقله حرفيًا عنه:

{يطيب للكثيرين أن يعتبروا ما يسمى بـ "صحيح البخاري" أصح كتاب بعد كتاب الله، وعندما نتحدث عن النسخة الأصلية فإننا لا تنطلي علينا حيلةٌ دأب عليها لعشرات السنين بعضُ المدلسين الذين يكذبون على العامة بقولهم إن النسخة الأصلية أو النسخ الأصلية موجودة، وهي متفرقة على شكل أجزاء في كثير من المكتبات الإسلامية منها أجزاء في مكتبة جامعة القرويين بفاس. والحال أيها السادة الأفاضل أن هؤلاء يكذبون علينا ويستهزئون بعقولنا، لأن النسخ المخطوطة الموجودة الآن مبثوثة ومتفرقة الأجزاء في العديد من المكتبات الإسلامية عبر ربوع الوطن الإسلامي ليست هي النسخة الأصلية لصحيح البخاري، بل هي مخطوطات تعد الأقدم للجامع الصحيح "صحيح البخاري" بخط يدِ مجموعةٍ من العلماء والفقهاء والخطاطين، وليست بيدِ صاحب الصحيح نفسه وهو البخاري. إذ لا توجد في العالم أجمع نسخةٌ واحدةٌ تحمل توقيعَ البخاري، بخط يده، فكيف أمكن لهؤلاء المدلسين أن يستغفلوا الأمة، كل الأمة، وأن يخوضوا حروبًا تكفيرية، باسم البخاري وعبر كتاب اعتبر الأصح بعد كتاب الله، ولا توجد لهذا الكتاب نسخةٌ واحدةٌ بخط مؤلفه، وأقدم نسخةٍ مخطوطةٍ بين أيدينا الآن تعود لحوالي ثلاثمائة سنة بعد وفاة البخاري .

يقول محمد بن عبد العزيز بن الصديق: " ولقد ظلت هذه النسخة " يقصد أقدم نسخة وجدت لمخطوط صحيح البخاري" معتمد الناقلين والناسخين، وجعلوها أصلاً في المقابلة، وعنها كتبت نسخة أبي المحاسن يوسف الفاسي عام 1031 هجرية، بخط الفقيه محمد بن علي بن محمد الحسني المعرف بالجزولي المتوفى سنة 1018 هجرية، وقرئت عليه بعد نسخها، ووقعت المقابلة بينها وبين نسخها الأصلية، حيث كان أبو العباس أحمد بن يوسف الفارسي يسرد الفرع، وعمه أبو زيد عبد الرحمن العارف يمسك الأصل، وتكررت عملية التصحيح والمقابلة حتى أصبحت هاته النسخة الفرعية تنال القيمة نفسها التي كانت للنسخة الأصلية، وصارت هي المنطلق للاستنساخ، وعرفت بسبب ذلك بين رجال العلم بالنسخة الشيخة، الشيء الذي دفع السلطانَ المولى محمد بن عبد الرحمن إلى الأمر بأن يستنسخ منها الجزء الأول الذي ضاع من النسخة السعادية، التي كانت محفوظة بخزانة القرويين، وذلك عام 1228 هجرية".

فحسب النص المنقول من مقالٍ للفقيه نلحظ أن النساخ المغاربة اعتمدوا أقدم نسخة وأسموها أصلية، وأطلقوا عليها أيضًا وصف "النسخة الشيخة" فما هي هاته النسخة؟ نأخذ الجوابَ من محمد بن عبد العزيز بن الصديق أيضًا حيث يقول:" ويمكننا أن نقدم بعض النماذج من صحيح البخاري ومن شروحه لنتعرف من خلال ذلك، على ما بذله المغاربة من جهد في نشر هذا الكتاب بربوعهم، وفي حفظه بخزائنهم، سواء أكان مكتوبًا بخط مغربي أم أندلسي أم شرقي، وسنلاحظ أن كثيرا من النسخ كانت تعتمد ذِكْرَ الناسخ وتاريخ النسخ، وذِكْر الأصول المعتمد عليها والروايات المستمدة منها، إذ من المعلوم أن صحيح البخاري قد روي، عن مؤلفه من طرق شتى، إلا أن

أكثر الروايات انتشارا بالنسبة للغرب الإسلامي، هي رواية محمد بن يوسف بن مطر بن صالح الفربري المتوفى سنة 320 هجرية.

وروايته هاته، انتقلت بواسطة روايات مختلفة أهمها:
رواية أبي إسحق المستملي إبراهيم بن أحمد البلخي المتوفى سنة 376 هجرية، ورواية عبد الله بن حومية السرخسي المتوفى في ذي الحجة من عام 381 هجرية، ورواية أبي الهيثم الكشميهني محمد بن مكي المروزي المتوفى يوم عرفة من عام 381 هجرية. وعن هؤلاء الثلاثة، روى أبو ذر الهروي عبد بن أحمد الأنصاري الخزرجي نزيل مكة، المتوفى عام 434، وهو الذي أصبح فيما بعد من أهم الرواة الذين اعتمد عليهم المغاربة فيما نقلوا.

ومن أشهر الذين أخذوا عنه بمكة، القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المتوفى سنة 474 هجرية، وعن الباجي الفقيه الحافظ أبو علي حسين بن محمد بن فيارة الصدفي المعروف بابن سكرةَ المتوفى سنة 514 هجرية، وعن هذا الأخير أخذ أبو عمران موسى بن سعادة البلنسي المتوفى عقب 522 هجرية، وهو صاحب النسخة الشهيرة التي يجب الاعتمادُ عليها، لأنها قرئت على أبي علي الصدفي نفسه، وهي تحمل خَطه الذي يشهد بأن ابنَ سعادةَ قد سمع منه هذه النسخة، وأنه قرأها عليه".

وسط هذا الكلام الذي جاء من عالم وفقيه كبير معروفٌ باعُه في العالم الإسلامي فهو سليل ابن الصديق الغماري أحد أشهر الحفاظ، هل تجدون أيها القراء الأعزاء نسخة أصلية للبخاري، بخط يده؟ أم مجموعة من الرواة قاموا بنسخ كتبٍ وقالوا للناس إنها عن صحيح البخاري؟ وهنا يبرز السؤال: كيف وصلت إلينا هاته النسخ المأخوذة من روايات شفهية وليست كتابية؟ وعرض بعضها بالسماع أو الإجازة؟ لتصبح فيما بعدُ نسخًا أصليةً رغم أنف التاريخ والحقيقة، وحتى يتأكد القارئ أكثر أُحيله على النص المنقول نفسه عن محمد بن الصديق وهو يحاول أن يبرز لنا أن النسخ "الأصلية" للبخاري معتمدةٌ وإنْ كانت غير أصلية، يقوم بفضح طريقة هؤلاء في اعتماد النسخة الأصلية دون أن يدري هو نفسه، وستنبهرون لمعرفة كيفية نسخ هاته النصوص المسماة أصلية حيث يقول: "وبناءً على ما ذكر، نلاحظ أن ما عرف من هذه النسخة بالمغرب، لم يكن إلا عن طريق الفروع المكتوبة أثناء القرن الثاني عشر، مع أن الجزء الذي نتحدث عنه من خزانة القرويين، قد كُتِب قبل ذلك بسنين متعددة، فهو وإنْ كان عاريا عن تاريخ النسخ، فإنه على أبعد تقدير، قد كتب قبل سنة 1008، أي قبل سنة تحبيسه مِن لدُن أحمد المنصور تغمده الله برحمته.
والنسخة اليونينية، قد اعتمدت وقوبلت في أصلها على أصول أربعة، كما ذَكَر ذلك الأستاذ محمد المنوني في بحثه القيم المنشور بمجلة دعوة الحق العدد الأول من السنة السابعة عشرة مارس 1975.

1- أصل مسموع على أبي ذر الهروي عن طريق أبي العباس أحمد بن الخطيئة.

2- أصل مسموع على عبد الله بن إبراهيم الأصيلي المتوفى سنة 392، وهو أصل يتصل بالفربري عن طريق أبي أحمد الجرجاني، وأبي زيد المروزي.

3- أصل أبي القاسم بن عساكر.

4- أصل مسموع على أبي الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي الهروي، الذي تقدمت الإشارة إليه."

أظن أن القارئ الكريمَ ذا العقلِ الحصيف وقف على حقيقة أن النُّسَخ المسماة أصلية لم تنقل إلا عن أصل نقل عن روايات شفهية، وليس هناك ذِكْرٌ لصحيح البخاري بخط البخاري أصلا .

وأمام هاته الحقيقة المُرة فقد حاول شيوخ السعودية الذين ينتعشون من"الإسلام" المأخوذ من ذلك الافتراء المنسوب زورًا وبهتانًا للشيخ البخاري وأطلقوا عليه صحيح البخاري أو الجامع الصحيح للبخاري، أن يقولوا دون حياء والطريقة الصفيقة نفسها، بأن لديهم صحيحَ البخاري الأصلي، وهنا يمكننا فَـهْم ماذا يقصدون بالنسخة الأصلية، إنهم يقصدون مخطوطاتٍ كُتِبت بعد وفاة البخاري بقرونٍ، ويسمونها أصلية زورًا وبهتانًا، وهنا نرفع

التحدي إلى أقصاه في الإتيان بنسخة كُتِبت بخط يد البخاري، ومما يَفضح كذبهم ما نشره موقع أهل الحديث حول النسخة الأصلية للبخاري والذي سأنسخه لكم حرفيًا لتقفوا على حجم استبلاد الناس:

ورد في موقع أهل الحديث الإلكتروني ما يلي: " بيان بالنسخ الأصلية للجامع الصحيح للبخاري المحفوظة بمكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض. ترتيب النسخ حسب تسلسل أرقام الحفظ. وقد وضعت جدولا بذلك حقوله من اليمين م: أي الرقم المسلسل، الحفظ: أي رقم الحفظ عندنا، تاريخ النسخ: إما منصوص عليه أو مقدر، الجزء: أي وصف لحالة التمام والنقص، والحقل الأخير للملاحظات:

م الحفـــــــــــــظ-- تـــــــــــاريخ النـــــــــــــسخ-- الجـــــــــــــزء --ملاحظــــــــــــــات :
13 1ق10 قطعة منه مغربي --- 16 2ق11 قطعة منه مغربي --- 20 3ق 12 ج10/ج9 مغربي --- 114 4ق 11 ج16 مغربـــــــــي --- 119 5ق 12 ج 23 مغربـــــــــي
148 6ق13 ج 5 مغربي --- 168 7ق 12 قطعه منه مغربي --- 169 8ق 12 قطعه منه مغربي --- 182 9ق 12 ج 3 مغربي ---1228 290 10هـ الربع الثاني ---1299 1217 11هـ ج 1 --- 1279 12ق12 ج 1 ---
1473 13ق 11 ج 1 --- 1520 14ق11 ج 7 ---1230 1691 15هـ من المغازي إلى الأخير --- 1696 16 ق12 قطعه منه --- 1707 17ق11 من المغازي إلى الأخير ---1280 1940 18هـ ج1 أحمد رزق --- 19 1280 1941هـ ج2 أحمد رزق ---1280 1942 20هـ ج3 أحمد رزق ---1280 1943 21هـ ج4 أحمد رزق --- 1124 1952 22هـ ج17 محمد شريف --- 2362 23ق13 كاملة --- 2427 24ق11 كاملة 1063 2673 25هـ ج1 --- 928 2756 26هـ من ج16 إلى الأخير تحذف البيانات والملاحظات --- 27
2828ق13 ج2 تحذف البيانات والملاحظات --- 1185 2963 28هـ ج16 من 30 --- 1186 2964 29هـ ج25من 30 --- 1186 2965 30هـ ج22 --- 1185 2966 31هـ ج24 --- 1185 2967 32هـ ج17 --- 1185 2968 33هـ ج14 --- 1185 2969 34هـ ج13 --- 1185 2970 35هـ ج15 --- 3335 36ق12 ج2 --- 3395 37ق9 قطعة منه --- 3586 38ق 12 الأخير منه --- 1074 3616 39هـ الأخير منه --- 40
3662ق12 ج 14 --- 3671 41ق9 ج3 --- 3892 42ق8 ج1 فرع اليونينية --- 4025 43ق12 قطعة منه مغربي --- 1276 4037 44هـ ج3 --- 1277 4038 45هـ ج4 --- 4049 46ق13 ج2 --- 4129 47 ق9 قطعة منه --- 1084 4130 48هـ ج1 و ج2 نجدي --- 4179 49ق12 ج1 فاتحة مطبوعة --- 4182 50 853هـ ج6من عشرة تعديل الجزء والناسخ --- 1096 4241 51هـ الأجزاء كاملة عائلة ناسخة --- 4331 52 ق12 قطعة من ج8 مغربي --- 1303 4391 54هـ ج4 وهو الأخير --- 819 4445 55هـ الربع الأول تعديل --- 874 4634 56هـ ج3 --- 874 4635 57هـ ج4 --- 4637 58ق11 قطعة منه --- 789 4641 59هـ ج6 --- 4642 60ق9 ج8من 10 خزائنية --- 852 4644 61هـ من التفسير إلى الأخير ناقص الأول --- 62 870 4645هـ ج7 و8 --- 848 4648 63هـ ج4 خزائنية --- 881 4649 64هـ ج1و2 مقابلة بنسخ --- 65
4651ق9 ج4و5 قراءة --- 4652 66ق9 ج6 تعديل الناسخ --- 4653 67ق11 قطعة منه --- 4654 68 ق9 قطعة منه متممة لأخرى سابقة."

لا يحتاج الأمرُ إلى كبيرِ ذكاءٍ لنعرف أن هاته النسخ والتي يمكن اعتبارها قطع غيارٍ غير صالحةٍ ملتقطةٍ ومجلوبةٍ من هنا وهناك، تتصدرها النسخ المجلوبة من المغرب، لنعرف أنها نسخ ومخطوطات ليست بيد البخاري ولا بتوقيعه، وإنما هي لِنُسَّاخ، فكيف أمكن للبخاري أن يدخل المغرب، وهو لم يثبت عليه تاريخيًا أن دخل المغرب لتكون النسخ الأصلية لصحيحه بالمغرب لكن المغاربة وغيرهم من الفقهاء والعلماء يعرفون أن هاته النسخ هي النسخ الأقدم لصحيح البخاري وليس فيها نسخة واحدةٌ مكتوبةٌ بخط البخاري أو تحمل ختمه.}

انتهى نص المقال الذي كتبه الباحث والصحفي المغربي رشيد إيلال. وقد نقلتُه بنبرته الحادة التي إنْ دلت على شيء فهي تدل على أن عامة المسلمين قد وصلوا قريبًا من نقطة الانفجار من كمية الأكاذيب التي بدأت تظهر عن

تراثنا الإسلامي، وأهل الاختصاص أصبحوا كساسةِ أمريكا يلوِّحون بالعصا "جهنم وبئس المهاد" لمن عصى رأيهم، أو الجزرة "الحور العين" لمن تبرك معهم على قبور شيوخهم وما وجدوا عليه آباءَهم.

من جمهوية مصر العربية:

وأضيفُ مقالاً آخر في هذا الصدد كَتَبه المستشار المصري: "أحمد عبده ماهر" وهو محامٍ بالنقض ومحكِّمٌ دوليٌّ وكاتبٌ إسلاميٌّ معروفٌ، وقد استأذنتُه شخصيًا لنقل بعض مقالاته لهذا الكتاب. تحت عنوان:
كتاب البخاري الذي بين أيدينا هل هو ما كتبه البخاري؟ كتب يقول:

(لابد أن نتبين حتى نُنفِّذ قول ربنا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6)} الحجرات، ولقد تَصدَّر الأمرَ الباحثُ العراقي عواد كوركيس عضو المجلس العلمي العراقي، بكتابه (أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم)، وهي المخطوطات المكتوبة منذ صدر الإسلام حتى القرن الخامس الهجري.

ونسخة الكتاب محفوظة بمكتبة جامعة الدول العربية بميدان التحرير بالقاهرة، وهو مِن منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية العراقية عام 1982. وتم توثيق الكتاب بدار الكتب والوثائق المصرية عام 1983. وتجد بالكتاب المعلوماتِ الخطيرةَ الآتية:

أولاً: لا توجد أي مخطوطة لأي كتاب في القرنين الأول والثاني الهجريين سوى مخطوطات القرآن العظيم، ويستثنى مِن هذا التعميم مخطوطة كتاب سيبويه.
ثانيًا: أرجو العلم بأن البخاري يرحمه الله توفي عام 256 هجرية وتوجد لكتاب منسوب له مخطوطات ثلاث هي كالتالي:

1. أولها وأقدمها بالعالم تمت كتابتها عام 407 هـ أي بعد رحيل الإمام البخاري بـ 150 سنة تقريبا وهي الوثيقة رقم 691.

2. ثانيها في القِدَم الوثيقة رقم 692 والتي كتبت بالقرن الرابع أي بعد رحيل الإمام البخاري بـ 240 عام تقريبا.

3. ثالثها في القِدَم الوثيقة رقم 693 والتي كتبت في عام 434 هجرية أي بعد رحيل الإمام بـ 255 عام.

ولم يذكر أي من المخطوطات الثلاث المذكورة والمنسوبة زورا للبخاري اسم الذي قام بكتابتها. كما لم يذكر أيضا أنها مستنسخة من الأصل المكتوب بيد الإمام البخاري وهو الأصل غير الموجود له أثر بالعالم.

وجديرٌ بالبيان أن ابن حجر قد دوَّنَ بكتابه (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) بجزء مقدمة الكتاب بالفصل الثاني صفحة 10 نقلا عن الحافظ أبو إسحق إبراهيم بن أحمد المستملي قال:

(انتسختُ البخاري من أصله الذي كان عند صاحبه محمد بن يوسف الفربري فرأيت فيه أشياءَ لم تتم، وأشياءَ مبيضة منها تراجم لم يُثبت بعدها شيئا، ومنها أحاديث لم يترجم لها، فأضفنا بعض ذلك إلى بعض).

وهو الأمر الذي يؤكد أنه حتى أصل البخاري -الذي لم يكن موجودا- تم العبث به وباعتراف شرّاح الحديث للبخاري، لأن ابن حجر الذي كتب هذا الكلام الأخير قد توفي عام 852 هجرية. أي بعد وفاة البخاري بستمائة سنة، ومع هذا فهو يؤكد العبث بتلك المخطوطات التي لم تكن بخط يد البخاري.

وجدير بالبيان أيضا أنه لا توجد مخطوطة بخط يد الإمام مسلم عن صحيحه، لكن توجد مخطوطة بالعالم كتبت عام 368 هجرية على أنها صحيح مسلم، أي بعد وفاة الإمام مسلم ب 107 سنة.

وهكذا تجدنا نتصارع لأجل أوهام مزيفة على المسلمين بل ونجعلها مصدرا من مصادر الدين، بينما ليس لها أي مصداقية تاريخية تثبت صحتها أو نسبتها لأصحابها."

والمقال يشرح نفسه وعلى مَن يعترض أن يأتي ببينة أقوى. مما سبق نعلم أن الكتاب المتداول بين أيدينا ويسمى صحيح البخاري لا علاقة له بمحمد بن إسماعيل البخاري، وبالتالي فإن محتواه لا يمكن أن يكون مرجعًا حرفيًّا موثوقًا به عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومَن له رأي غير هذا فعليه بالبرهان العلمي: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111)} البقرة.

استغلال الحديث في محاربة العقل:

كغيره مِن الشخصيات المؤثرة في التاريخ الإنساني فإن محمد بن إسماعيل البخاري لا بد وأن له شخصية حقيقية هي التي عاش بها، ثم شخصية أسطورية هي التي تكونت عنه في أذهان الناس عبر العصور من كثرة ما قيل عنه إمّا تعظيمًا أو ذمًّا. هذه الظاهرة تجعل التحقيقَ العلميّ الموضوعيّ عن شخصٍ مثله صعبًا؛ لأن المؤرخين غالبًا ما يميلون لأحد الطرفين النقيضين. لذلك فلن أضيف شيئًا لِما قيل عن سيرة الرجل، لا سلبًا ولا إيجابًا، ولكن ما أنا بصدده هو مراجعة بعض نقاط الضعف الطبيعية والمتوقعة من كتابٍ كاتبُه بَشَرٌ في زمنٍ كانت الكتابة فيه من أصعب المهن نتيجة بدائية الأدوات ووسائل التواصل المعرفي وضرورة السفر الشاقّ لتلقي العلم أو التحقق من رأي هنا أو هناك.

وقد أذِنَ لي الأخ سامح محمد عسكر وهو باحث فلسفي مصري وموظف في شركة أدوية أن أنقل عنه بتصرفٍ هذه الملاحظاتِ عن الظرف الذي ألّفَ فيه محمد إسماعيل كتابَه الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري اليوم:

{{بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- كَثُرَت الأخبار عنه وحكاياته وأقواله، وجاءت مراحلها لأغراض متعددة كان فيها الوضع ينشط حسب الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية. فأثناء كل معركة حربية أو فكرية أو دينية تظهر أقاويلُ منسوبة للنبي تنتصر فيها لأطراف معينة، وكعادة الجمهور فهو يتعامل مع هذه الأخبار بسلبيةٍ سمحت بانتشار هذه الأخبار ورسوخها كتراثٍ دينيٍّ مقدسٍ. وكان طبيعيًا أن يتصدي الحكماء والعقلاء لهذه الظاهرة بما كان متاحًا لديهم من إمكانيات. وقد غلب أسلوبان على مواجهة ظاهرة الكذب على النبي: الأول هو عدم الاعتراف بها والتحذير منها، والثاني هو تحكيم العقل وتشجيع إبداء الرأي في المسائل الدينية.

وقد سلك طريقَ العقل والرأي مجموعاتٌ من المفكرين والفقهاء في صدر الإسلام، لكن لمّا كان السلطان قد تحوَّل إلى ممالك، فإن مِن طبيعة النظم الشمولية الخوفَ كل الخوف من إعمال العقل وإطلاق حرية الفكر، لأن حرية الفكر وإن كانت في القضايا الدينية فهي لا بد أن تلعب دورًا في توعية الرعية، وغالبا ما تهدد سلطانَ الطغاة. لذلك كان رد الفعل الطبيعي هو أن قمَعَتهم آلةُ السلطة وتيار المقلدين بالتكفير وأحيانًا بالقتل أو العزل الاجتماعي. وهكذا أصبح كل مَن يُعمِل عقله في الأشياء يصنَّف ضمن تيارٍ واحدٍ من صفاته الزندقة والشطط. و كان مِن نتائج ذلك أنه وفي أولى الاختبارات الفقهية للأمة نشأت مدرسة الرأي في الكوفة على يد الإمام أبي حنيفة النعمان (80-150هـ) وجاءت هذه المدرسة امتدادًا للحركة الفكرية في عصر الأمويين التي قمَعت فيها السلطةُ تيارَ الجعدِ بن درهم (توفي سنة 105هـ) وغيلان الدمشقي (ت125هـ) والجهم بن صفوان(ت128هـ) ومعبد الجهني (ت80هـ). كل هؤلاء كانوا مفكرين ودعاةَ حرية، ولكن قتَلَهم الاستبداد والتزاوج بين السلطة الشمولية والعنف الديني، ورموهم باتهامات وثقتها آلة التبرير بعد ذلك.

مِن هنا نفهم أن مدرسة الأحناف نشأت كرد فعلٍ على شيوع الوضع والكذب على رسول الله وبداية تحريف الدين الإسلامي. وطبقًا لقاعدة نيوتن "لكل فعلٍ ردُّ فعل" الذي ينسجم مع سُنّة الله في الكون فقدْ نشأ تيار مُعادٍ للأحناف هو الآخر، يطالب هذا التيار بالرجوع للأحاديث التي خاصمها أبو حنيفة بشكلٍ كبير، وتوسع هذا التيار حتى شمل أئمة الفقه في أواخر عصر أبي حنيفة. وبما أن الكوفة كانت عاصمة الأحناف ومصدرَ قوتهم، فقدْ أصبحت البصرة هي عاصمة الخصوم الذين عُرِفوا بعد ذلك بـ: " أهل الحديث".

من هنا أصبحت المعركة بين: "أهل الفكر الحر والرأي والعقل" ممثلين في الأحناف من ناحية، وبين "أهل الحديث" الذين ظهروا بعد ذلك بمذاهبَ متعددة تبلورت في "المالكية" ثم "الشافعية" ثم أخيرًا "الحنابلة". ورغم أن القوة كانت غيرَ متكافئةٍ من حيث الكم والعدد، إلا أن الكيف والجودة العقلية للأحناف خلقت لهم ميزة فقهية يستطيعون بها التقرب للجماهير التي تتوق إلى التيسير والبساطة والمنطقية. فكان على الطرف الآخر مواجهة الأحناف ومفكريهم بسلاح جديد يحجِّم من استعمال العقل، فلجأوا إلى تدوين الحديث وتوسعوا في كتابته بشكل يُقنِع الجماهير، ويرهبهم أن مَن يخالفهم إنما يخالف الرسول -صلى الله عليه وسلم- . وهذا ما حدث بالفعل، ففي أواخر عصر أبي حنيفة بدأ الحديث يأخذ مرحلة التدوين بشكلٍ رسميٍّ بعد أن ظلّ لعقودٍ متصلةٍ يُنقَل شفهيًا، وكان أشهر كتب الحديث التي أسست لتلك المرحلة هو الموطأ لمالك بن أنس(ت179هـ)، إلا أن أخطر انقلابٍ فكريٍّ في تطور المجتمع المسلم في تلك المرحلة كان ما قام به الإمام الشافعي(ت204هـ) الذي وضع إعلانًا دستوريًا فقهيًا بأن الأحاديث هي المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله.ثم جاء ابن حنبل(ت241هـ) وابنُه ليُعلِنا عن ولادة أكبر كتاب حديث بعد مالك وهو المسند.

كان مجموع ما كتبه مالك وابن حنبل حوالي 30 ألف حديث، غير ما كان مُشاعًا بين الناس ووصل إلى مئات الآلاف، وبذلك خرج الوضع عن السيطرة وانتشر الكذب على رسول الله، حتى بات يُهدد ذلك العلماءَ وحياتهم بشكلٍ رئيسيٍّ، فنشأت الحاجة إلى كُتبٍ حديثيةٍ جديدةٍ تحقق شرطيْن اثنين: الأول أن يتصدى فيها المحدثون للكذابين ويستطيعون بها السيطرةَ على عمليات الوضع المتفشية، والشرط الثاني أن تُحقق الكُتب الهدفَ الرئيسي لها وهو مواجهة العقلاء وأصحاب الرأي والفكر الحر، أو ما يُعرفون حينها بالأحناف وكانوا يصفونهم أحيانًا بـ "المرجئة" وأحيانًا بـ "الجهمية".

ثم كانت الثمرة الأولى لهذا الاتجاه هي"صحيح الجامع "، لمحمد بن إسماعيل البخاري(ت256هـ)، فتمت عمليات الفلترة وتنقية لموطأ مالك ومسندِ ابن حنبل وتصانيفَ أخرى بالحذف والإضافة، ثم كان تدوين ما كان يعتقده البخاري من عقائدَ نقلها عن شيوخه، وبعد جهد خرج صحيح الجامع بثلاثة آلاف حديث غير المكرر، ملأ فيها البخاري صحيحَه بآراء فقهية مخالفة للأحناف، وكانت عبْر شيوخ ورواةٍ هُم خصوم وأعداء لأبي حنيفة.

ولتأكيد هذه الحقيقة التاريخية سنكشف مثالاً من ذلك في الأسطر القادمة وكيف أن شيوخ البخاري كانوا ما بين مُكفّر ولعّانٍ لأبي حنيفة، ليكون ذلك دليلاً على أن تأليف البخاري لصحيحه كان ردًا على جهات فكرية بعينها، أراد المحدثون- عن طريقها- مواجهة أصحابِ الرأي والفكر الحر.

سأنقل هنا أحوال 10 رواة وشيوخ للبخاري، رغم أن العدد أكبر من ذلك بكثير، ولكن سنكتفي بعشرة فقط للإيجاز والمثال، ومَن أراد البحث عن غيرهم سيرى أحوال العشرة نفسها.

الراوي الأول هو: "عبد الله بن الزبير الحميدي"(توفي عام 219هـ)

هو مِن أعظم وأجَلِّ الرواة عند البخاري، وكان يقول عنه:"إمام الحديث"، بل إن البخاري قد افتتح كتابه بـ: "حدثنا الحميدي"، هكذا دون مقدمة أو خطبة تمهيدية كسائر الكُتب. وقد روى له البخاري في الصحيح 85 حديثا، كلهم من رواية الحميدي حصريًا. وقد كان الرجل متطرفًا، تكفيريًا. وقد كتب كتاب: "الرد على النعمان"، كفَّرَ

فيه أبا حنيفة. وقد روي عنه "الذهبي" في كتاب "سير أعلام النبلاء" شدة موقفه من الأحناف قائلاً:" واللهِ لأن أغزو هؤلاء الذين يردون حديث رسول الله أحبُّ إليَّ مِن أن أغزو عدتهم من الأتراك"، يقصد الأحناف. وقال:" ما دمت بالحجاز، وأحمد بن حنبل بالعراق، وإسحاق بخراسان، لا يغلبنا أحد"(619/10).

باختصار كان الحميدي حنبليًا يرد على الأحناف، وفي عصره اشتد الخلاف والعداء بين أهل الحديث وأهل الرأي، هذا هو حال أعظم راوٍ عند البخاري كان تكفيريًا مقلدًا، بل كان يعتبر مدرسة أهل الرأي هي مدرسة خارجة عن الملة.

الراوي الثاني هو: "أبو بكر عبد الله ابن أبي شيبة"(توفي عام 235هـ)

وهو صاحب كتاب:"المصنف في الأحاديث والآثار" أو بما يُعرف في الأوساط العلمية بمصنف أبي شيبة،كتب عبد الله بابًا كاملاً في الرد على أبي حنيفة وافتتحه بقوله: " كتاب الرد على أبي حنيفة هذا ما خالف به أبو حنيفة الأثرَ الذي جاء عن رسول الله"، ثم افتتحه بالأخبار عن رجم الزاني والزانية. وهذا دليل على أن الأحناف كانوا لا يقولون بصحة رجم الزاني في عهد ابن أبي شيبة.

الراوي الثالث هو:"نعيم ابن حماد"(توفي عام 229هـ)

وهو مَن يُعرف بـ: "شيخ البخاري" ورغم أنه كان ملازمًا له، إلا أن البخاري روى عنه أحاديثَ قليلة لكثرة طعن الأئمة فيه. وهو صاحب كتاب: "الفتن والملاحم". وهذا يرجح أن تأثر به البخاري ووضع أحاديث في كتابه عن الفتن بأسانيد ابن حماد. نعيم بن حماد كان عدوًا لأبي حنيفة، وقال عنه الذهبي وابن عدي إنه كان يضع الحكاياتِ في مثالبِ أبي حنيفة. وقد وصل به التطرف في عداء أبي حنيفة أن ابن عدي قال عنه إنه متهم في رأيه بسبب موقفه من الأحناف. وقال عنه المزي في تهذيب الكمال(70/29) والذهبي في سير أعلام النبلاء(519/10) إنه وضع كُتبًا في الرد على أبي حنيفة.

الراوي الرابع: "إسحاق ابن راهويه" (توفي عام238ه)-

وكان شيخًا للبخاري، كما أجمع المؤرخون أن البخاري كان تلميذًا لابن راهويه، ولكن!!..ابن راهويه كان تكفيريًا كذابًا، ابتدع فكرة إجماع الصحابة على كُفر تارك الصلاة، وهو مذهب السلفيين وغلاة الحنابلة هذا الزمان. إلا أن الجمهور أفتى بكفر مَن أنكر فرضيتها وليس تاركها خلافًا لمذهب ابن راهويه. مِن هنا نفهم لماذا يحب السلفيون والحنابلة اليوم بالعموم هذا الرجل، بل يضعون في مناقبه أشياءَ لا تجتمع سوى للأنبياء!

ابن راهويه كان عدوًا هو الآخر لأبي حنيفة، وكان شديد التحامل عليه، ويُحكى أنه كان حنفيًا ثم تحنبل وصار متعصبًا للحنابلة وأهل الحديث كما حكى ذلك المروذي في كتاب: ("الورع"، ص 122). ومعنى القصة أن الرجل كان مقلدًا لشيخه "عبد الرحمن بن مهدي"، لكن بعد أن طعن بن مهدي في أبي حنيفة تحول إسحاق بن راهويه إلى الحنابلة، هكذا دون نظر، وهي قصة عجيبة تعكس ضعف عقول هؤلاء، وأنهم كانوا مجرد مجموعات من الجهلة والمتعصبين، أخذ عنهم أشباههم بعد ذلك وجعلوهم سلفًا صالحًا يحرَّم الخروج عن رأيهم!

الراوي الخامس: "محمد بن عرعرة" (توفي عام213هـ)

وكان أستاذًا للبخاري، روى عنه 20 حديثًا دوَّنها في صحيح الجامع، فيها ما يرُد على مدرسة أهل الرأي ويسمونها في المتون "بالمرجئة" وهي التهمة التي نالت أبا حنيفة من قِبَل هؤلاء. ابن عرعرة هو سليل عائلة معادية بالكامل في البصرة لأبي حنيفة، فأبوهم عرعرة ابن البرند وإخوته سليمان وإسماعيل بن عرعرة، وأبناؤه

إبراهيم وإسحاق، كانوا جميعًا يمتهنون رواية الحديث في البصرة، وما بينهم وبين مدرسة الكوفة "أهل الرأي" ما صنع الحداد.

يكفي أن نعلم أن والد محمد، "عرعرة بن البرند"، كان شيخًا لنعيم بن حماد عدو الأحناف الأكبر والأشهر في العراق، وأن أخاه إسماعيل كان صديقًا وشيخًا للبخاري، وكان يضع له رواياتٍ للطعن في أبي حنيفة، دوَّنها البخاري في كتابه "التاريخ الصغير"(41/2). هذا يعني أن عائلةً بالكامل كانت تكره أبا حنيفة جعلها البخاري مصدرًا موثوقًا فيه للأخبار، ثم نسأل لماذا كانت الروايات تخدم بعضها وكان الرواة يُعظّمون أنفسهم حتى بالغوا في وصف البعض بأوصاف لا تحق إلا للآلهة!

الراوي السادس:"أيوب السختياني"(توفي عام131ه)-

روى له البخاري 7 أحاديث، وكان معاصرًا لأبي حنيفة وممن يُكفرونه ويشتمونه، روى عبد الله بن أحمد في "السنة" (223:224/1)، أن السختياني كفّر أبا حنيفة قائلاً: "لقد ترك أبو حنيفة هذا الدين". وفي مشهدٍ آخر رأى أبو حنيفة السختياني في الحرم المكي فأقدَمَ عليه، ولكن السختياني رفض ذلك وقال لأصحابه: "قوموا لا يعدنا بجربه، قوموا لا يعدنا بجربه"، هو لا يقصد أن أبا حنيفة أجرب، ولكن كان يشتمه عن كراهية.

الراوي السابع: "سفيان الثوري"(توفي عام 161ه)-

روى له البخاري 5 أحاديث، وهو مِن أئمة مذهب السنة ويُقال إن له مذهبًا خاصًا. سفيان كان معاصرًا لأبي حنيفة، وشأنه كشأن أيوب السختياني. كان ممن يُكفرون الإمامَ وزعموا استتابته وطالب بطرده من الكوفة، وقد روى ذلك عبد الله بن أحمد ابن حنبل في كتاب: "السنة" بـ 15 طريقًا عن سفيان. وروى شَتْمَ سفيان لأبي حنيفة ابن عدي في "الكامل"(5/7).

الراوي الثامن:"حماد بن سلمة البصري"(توفي عام 167هـ)

روى له البخاري 6 أحاديثَ معلقة، ومعنى التعليق أن له سندًا ومتابعة على الحديث ليس هو السند الأصيل، ولكنه في النهاية سند مقطوع لسقوط بعض الرواة، والمعلق يعني استشهادًا بالرأي كمن يقول حدث كذا وكذا والدليل أن فلانًا قال وصدق عليه، ومضمون التعليق يكشف ثقة البخاري في حماد بن سلمة وأن رأيه في غاية الأهمية سواءٌ أفي النقل أم في الجرح والتعديل.

حماد كان تكفيريًا، متعصبًا للحديث، وقال في شأن أبي حنيفة: "كان أبو حنيفة شيطانًا"، وقد وثق ذلك ابن عدي في "الكامل"(8/7).

الراوي التاسع: "عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي"(توفي عام 157ه)-

روى له البخاري 70 حديثًا فيها بعض الأحاديث المعلقة، وشأنه كشأن سفيان الثوري، هو إمام مِن أئمة السُّنَة ويُقال إن لديه مذهبًا خالف به مالك وأبا حنيفة، ولكنه كان شديدًا على أبي حنيفة من سفيان. كان الأوزاعي ممن يُكفّرون أبا حنيفة في أكثر من موضع وقد اشتهر ذلك لدى المؤرخين وأصحاب الطبقات، وهناك أربعة كُتُبٍ ذكرت تكفيرَ الأوزاعي لأبي حنيفة هي:

1- السُّنّة لعبد الله بن حنبل.

2- المجروحون لابن حبان.

3- تاريخ بغداد للخطيب.

4- الكامل لابن عدي.

الراوي العاشر والأخير:"شعبة بن الحجاج"(توفي عام160هـ)

وهو مِن أكثر الرواة الذين اعتمد عليهم البخاري في تأليف صحيحه، روى له البخاري مئاتِ الأحاديث، وهو بذلك يقترب مما رواه ابن شهاب الزهري الذي فاق الألف حديث وأكثر مما رواه عكرمة 200 حديث..!..تخيلوا..!!راوٍ واحد يروي مئات الأحاديث وكلها صحيحة مدونة دون لبس، هكذا كان البخاري يضع رواتِه في منازل الأنبياء لا يُخطئون ويوثّق كلامَهم عن النبي دون نظر.

شعبة ابن الحجاج كان عدوا لأبي حنيفة النعمان، فقدْ روى العقيلي في "الضعفاء"(491/8) ما نصه مرويًا عن أبي سلمة الخزاعي: "سمعت حماد بن سلمة، وسمعت شعبة يلعنان أبا حنيفة"، وقد تقدم الكلام على حماد وكراهيته للأحناف، وها هو شعبة مِن أعظم رواة البخاري على المنهج نفسه. فكيف يكون الرواة بهذا التعصب المذهبيّ إلا وكان دليلاً على امتهانهم الكذب في حق الله وفي حقّ النبي، بل ويحاربون ويكفّرون ويقتلون مَن يدعوهم للنظر ولتحكيم ضمائرهم وعقولهم كما أمر الله تعالى.

الآن وبعد استعراض 10 من رواة وشيوخ البخاري وموقفهم من أبي حنيفة، أقول إن مَن جرى استعراضُهم هُم عينة تم اختصارها منعًا للتكلف، وإن سردَ موقفِهم يعني أن هناك تيارًا في هذا العصر كان معاديًا لأهل الرأي وحرية الفكر واستعمال العقل.

الأئمة الشافعي ومالك وابن حنبل كانوا أيضًا ممن يطعنون في أبي حنيفة، وقد شاعت مواقفهم في كتب التاريخ والطبقات حتى وصلت بعض الأخبار عنهم بتكفير أبي حنيفة وخروجه من الملة، وهذا يعني في مضمونه صراعًا بين تيار "الحديث" الذي بدأه مالك وأسسه الشافعي ثم ختمه ابن حنبل بمذهبٍ حديثيٍّ وفقهيٍّ متكاملٍ، وبين تيار الرأي الذي كان يمثله العقلاءُ والمفكرون وفقهاء الأحناف، هذا الصراع هو الذي جعل أهل الحديث يضعون الأحنافَ بجوار الجهمية والفلاسفة والمرجئة بل وصل لاتهام الأحناف بالزندقة.

والسبب أن فقهَ أبي حنيفة كان قائمًا على الفكر والنظر دون التقيد بنصوص الرواية، ولهُم أدلتهم في ذلك منصوص عليها في القرآن، ولكن لم يُعجِب ذلك أهلَ الحديث فردوا على أهل الرأي بتأليف كُتب الحديث التي كان فيها صحيح البخاري جزءًا من الحملة الموجهة ضد الأحناف، ويمكن تلمس ذلك في أبواب ومتون البخاري التي جاءت في سياق الرد الفقهي على أهل الرأي، وكذا أن البخاري كان يرد بقوله: " قال الناس أو قال هؤلاء"، بمعنى أنه دَوّن كتابه للرد الفقهي والعقيدي على مَن أشار إليهم.

ختام ابن حنبل لهذه المرحلة كان إيذانًا بسطوع المذهب الحنبلي في الشرق، وهو ما تحقق بالفعل ومعه ظهرت مصطلحات "البدعة" و"الابتداع" و"الفِرق الضالة" و"الفِرقة الناجية" وحاربوا بها كل مفكر، وأصبح كل مَن يخرج عن "الحديث" بالعموم وابن حنبل بالخصوص هو مبتدعٌ مشكوكٌ في دينه، وقد حدثت إرهاصاتُ ذلك في قتل المفسر والمؤرخ الكبير الإمام الطبري بمجرد خلافه مع الحنابلة، حدث ذلك في أوائل القرن الرابع الهجري وهو العصر الذهبي لغُلاة الحنابلة في الشرق، أي أن تأليف كتبِ الحديث جاء في المجمل لصالح الحنابلة والمقلدين، وصبّت في اتجاهٍ آخر مخالفٍ لتعاليم وقيم الإسلام، فكل من أراد القتلَ والذبح فالحديث يكفيه، ومَن أراد أن يأكل أموال الناس بالباطل فالحديث يكفيه، إلى يومنا هذا!

في المقابل كان هناك مَن يترصد للحنابلة في الغرب، وبالتحديد كان المالكية والأحناف والشيعة الإسماعيلية يتأهبون للانقضاض على مَن سَرَق دينَهم في العصر العباسي، وظهر للمالكية مَن يُفتي بكُفر الحنابلة كالقاضي

أبي بكر بن العربي في كتابه، "العواصم من القواصم" وبذلك تحول الصراع ما بين مدرسة الرأي والحديث إلى صراع من لون آخر وهو الصراع المذهبي بين أهل الحديث أنفسهم. فمادة الصراع موجودة في كل فكر وفي كل مكان، ومَن يجنح للصراع في العادة لا يستطيع السيطرةَ عليه.

مِن هذه العجالة لا أشك أن الكثيرين قد أحسوا بتعقيد ما يسمى بعلم الحديث، وأنه عِبارة عن متاهات للتعرف على أحوالِ وظروفِ أشخاصٍ ربما لا وجود لهم في سجل التاريخ الإنساني، وأن هذا ينقل عمن يمدحه ويتجنب الرواية عمن يختلف معه حتى وإن كان ثقة، ثم إن الظروفَ السياسية والمذهبية، وتكالُبَ الأمراءِ والسلاطين على المداحين والقصاصين، وإغداقَ الأموال عليهم حتى يرفعوا مَن والاهم إلى أعلى عليين ويردوا مَن عاداهم أسفلَ سافلين كان عاملاً مهمًا في إحماء الصراعات التي ولِد مِن بين فتنها ما يسمي بـ "علم الحديث".

وهنا لا بد أن يَفرض السؤالُ عن أسطورة البخاري نفسَه: مَن الذي صنعها ولماذا؟

صناعة الأسطورة:

مِن مقدمة ابن حجر العسقلاني "هدى الساري" أنقل وصفه للظروف التي كتب فيها محمد بن إسماعيل البخاري كتابه:

{... فلما رأى البخاري رضي الله عنه هذه التصانيفَ ورواها وانتشق رياها واستجلى محياها، وجدها بحسب الوضع جامعة بين ما يدخل التصحيح والتحسين والكثير منها يشمله التضعيف، فلا يقال لِغَثِّه سمين، فحرَّكَ همتَه لجمع الحديث الصحيح الذي لا يرتاب فيه أمين، وقوى عزمه على ذلك ما سمعه من أستاذه أمير المؤمنين في الحديث والفقه إسحق بن إبراهيم الحمظلي المعروف بابن راهويه وذلك فيما أخبرنا أبو العباس أحمد بن عمر اللؤلؤي عن الحافظ أبي الحجاج المزي أخبرنا يوسف بن يعقوب أخبرنا أبو اليمن الكندي أخبرنا أبو منصور القزاز أخبرنا الحافظ أبو بكر الخطيب أخبرني ابن أحمد بن يعقوب أخبرنا محمد بن نعيم سمعت خلف بن محمد البخاري بها يقول سمعت إبراهيم بن معقل النسفي يقول:" قال محمد أبو عبد الله بن إسماعيل البخاري: كنا عند إسحق بن راهويه فقال: لو جمعتم كتابا مختصرًا لصحيح سُنَّة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، قال فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع الجامع الصحيح". وروينا بالإسناد الثابت عن محمد بن سليمان بن فارس قال: سمعت البخاري يقول رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وكأنني واقف بين يديه وبيدي مروحة أذب بها عنه فسألت بعض المعبرين فقال لي أنت تذب عنه الكذب، فهو الذي حملني على إخراج الجامع الصحيح، وقال الحافظ أبو ذر الهوري سمعت أبا الهيثم محمد بن مكي الكشمهيني يقول سمعت محمد بن يوسف الفربري يقول " قال البخاري: ما كتبت في كتاب الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين" وقال أبو على الغساني "روي عنه انه قال خرّجت الصحيح من ستمائة ألف حديث" وروى الإسماعيلي عنه قال " لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحا، وما تركت من الصحيح أكثر" قال الإسماعيلي: لأنه لو أخرج كل صحيح عنده لجمع في الباب الواحد حديث جماعة من الصحابة، ولذكر طريق كل واحد منهم إذا صحت فيصير كتابا كبيرا جدا، وقال أبو أحمد بن عدي سمعت الحسن ابن الحسين البزار يقول سمعت إبراهيم بن معقل النسفي يقول سمعت البخاري يقول " ما أدخلت في كتابي الجامع إلا ما صح وتركتُ مِن الصحيح حتى لا يطول" وقال الفربري أيضا سمعت محمد بن أبي حاتم البخاري الوراق يقول: رأيت محمد بن إسماعيل البخاري في المنام يمشي خلف النبي-صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يمشي فكلما رفع النبي -صلى الله عليه وسلم- قدمه وضع البخاري قدمه في ذلك الموضع، وقال الحافظ أبو أحمد بن عدي سمعت الفربري يقول سمعت نجم بن فضيل وكان من أهل الفهم يقول، فذكر نحو هذا المنام أنه رآه أيضا، وقال أبو جعفر محمود بن عمرو العقيلي لما ألف البخاري كتاب الصحيح عرضه على أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلي بن المديني وغيرهم فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة إلا في أربعة أحاديث، قال العقيلي والقول فيها للبخاري وهي صحيحة}.

ما سبق منقولٌ حرفيًا من مقدمة "هدي الساري" وسأناقشه بعد نقل سيرة البخاري من مقدمة الشيخ أحمد شاكر لنسخته من صحيح البخاري. وأعتذرُ للقُرَّاء لكن ما أود توضيحه هو كيف تصنع الأساطير تدريجيًا:

{اعلمْ أن البخاري رضي الله عنه ولِد ببخارى يوم الجمعة أو ليلتها ثالث عشر شوال سنة 194، وتوفي ليلة السبت ليلة عيد الفطر سنة 256 هجرية عن اثنين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يومًا. رُوي عنه أنه قال: "خرَّجت كتاب الصحيح من زهاء ستمئة ألف حديث في ست عشرة سنة، وما وضعتُ حديثًا إلا اغتسلتُ وصليت ركعتين". وفضائله أكثر مِن أن تُحصى وأوفر مِن عدد الرمل والحصى. منها أن حَفِظ الحديثَ في صغره وهو ابن عشر سنين وكَتَب عن شيوخ كثيرة. وقد قال رضي الله تعالى عنه كتبتُ عن ألف وثمانين رجلا فيهم إلا صاحب حديث كلهم يقول الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص. وروى عنه رجال كثيرون نحو مئة ألف وعظَّمَه العلماءُ غاية التعظيم حتى مسلما صاحب الصحيح كان كلما دخل عليه يقول له: دعني أقبِّل رجليك يا طبيب الحديث وعلله ويا سيد المحدِّثين. وكان يحفظ وهو صبي سبعين ألف سردًا. وكان ينظر في الكتاب مرة واحدة فيحفظ ما فيه من نظرة واحدة وكان يقوم بعد التراويح في رمضانَ بثلث القرآن. وكان مجاب الدعوة، وصحيحُه رضي الله عنه أصح كتب السُّنة. ولـما دُفن رحمه الله تعالى فاح مِن قبره رائحة الغالية أطيب المسك واستمرت أياما كثيرة حتي تواتر ذلك عن جميع أهل البلاد. وكان يأكل في كل يوم لوزتين وكانت أمُّـه مـجابة الدعوة. وكان رضي الله عنه قد ذهب بصرهُ في صغره فرأت أمُّـه الخليلَ إبراهيم-عليه السلام- في المنام فقال لها: يا هذه قد ردَّ الله على ابنك بصره لكثرة دعائك فأصبح بصيرًا. وعدد أحاديث صحيحه سبعة آلاف ومئتان وخمسة وسبعون وبإسقاط المكرر أربعة آلاف وقيل غير ذلك، وقد تنازع البخاري المذاهب الأربعة، والصحيح أنه مجتهد}.

وقبْلَ مناقشة صناعة الأسطورة حسب ابن حجر، ثم كيف تطورت في زمن ابن شاكر لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر لـ "لـيفي كوهين" على هذه المقدمة التي تفضح الكثير عن صناعة الأسطورة.

نلاحظ مقدارَ التهويل والتعظيم لشخص البخاري في مقدمة ابن حجر، ثم نلاحظ كيف تَضخَّمَ التهويلُ نفسه في مقدمة ابن شاكر. وقد أوقفني وصفُ رائحةِ المِسك التي فاحت مِن قبره وتواترت قصتُها في البلاد إذ إنّ البخاري لم يوثّق لنا مثل هذا الحدث عن دفن سيد الأولين والآخرين ولا أيٍّ مِن أصحابه الميامين في صحيحه.

على أننا نلاحظ أن هناك مشتركًا بين المقدمتيْن هو أن البخاري رأى رسولَ الله في المنام يبارك عمله، وأيضًا غير البخاري رأوا رسول الله في المنام يبارك عمل البخاري. بينما زاد ابن شاكر قصة البخاري سحرًا بأن فضائله أكثُر مِن أن تحصي وأوفر مِن عدد الحصى لذلك اختار أبرزَها، وهو أنه كان أعمى فرأت أُمّه إبراهيمَ-عليه السلام- في المنام أيضًا يبشِّرها برد بصره. ويزيد أحمد شاكر أن البخاري حفظ الحديثَ وهو ابن عشر سنين. لكني أتوقف هنا عند ظاهرة خطيرة هي رؤية النبي في المنام.

رؤية النبي في المنام:

روى الشيخان عن أنس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: { مَن رآني في المنام فقدْ رآني فإن الشيطان لا يتخيل بي}، و للحديث روايات كثيرة لكنَّ واحدةً تفي بالغرض.

لا يعترض مسلِمٌ عاقلٌ على متن الرواية، إذ إن مِن عصمةِ اللهِ للنبي الكريم أن يُحرِّم على الشيطان أن يتخذ صورتَه. لكن مَن كان المخاطَب بالحديث؟

لقد كثُرَ هذه الأيام تداولُ خرافاتٍ عن شيوخٍ رأوا الرسول في المنام أَمَرهم بكذا وكذا، وأَمَرهم بنشر دعاءٍ بين الناس ومَن لم ينقله لغيره فمصيره النار. فهل نكذِّب هؤلاء المعتوهين أم نكذِّب الحديث؟ التوفيق بين المتناقضات بسيطٌ جدًا لقوم يعقِلون. ولقد ذكرتُ كثيرًا أن عقل الأمور يتطلب أن تضعها بين محورَي زمانٍ ومكان سليميْن.

طبيعي أن الذين رأوا رسول الله في حياتهم يتعرفون عليه إنْ رأوه في المنام، وعليه فإن النبي هنا كان يخاطِب أصحابَه الذين يمكنهم تمييزه يقظةً بين ألف رجُل. بل إن المشركين كانوا يستطيعون تمييز النبي عن غيره مِن العرب. لكن كيف لمن لم يرَ رسولَ الله في حياته أن يستوثق أن مَن رآه في المنام يزعم أنه رسول الله هو الرسول نفسه وليس الشيطان يأتيه في صورة عمه أبي جهل أو أبي لهب فيضحك عليه؟ قلتُ في باب " أفلا تعقلون" إن الذاكرةَ "الألباب" تسترجع المخزونَ مِن المعلومات التي خُزِّنتْ فيها. وهذه المعلومات تُخزَّن في اليقظة مِن واقع تفاعل الناس مع الحياة. فمَن لم يرَ رسولَ اللهِ يقظةً فليس لديه صورةٌ حقيقيةٌ عنه في الذاكرة يمكن أن يجزم أنها طبق الأصل لِما رآه في المنام. وعليه فإن محتوى الحديث ينطبق فقط على الذين رأوا رسول الله يقظة وهُم جيله

سواءٌ أكانوا مسلمين أم مشركين. بعد موت النبي فقدَ الحديثُ مفعولَه إلى أبد الآبدين. هذه الرواية مِن أفضل الأمثلة للتمييز بين ما يخص النبيَّ ومجتمعَه، وما يخص الناسَ كافة. الرواية تخص فقط مَن عاصر النبي ورآه يقظة.

وحتى أقطع الشكَّ باليقين في موضوع توهُّمِ رؤيةِ النبي في المنام فقدْ رأيتُ أنا عماد محمد بابكر حسن كاتب هذا الكتابِ من توهمتُ أنه رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- مرتيْن في منامي. المرةَ الأولى حينما كنتُ في الثامنة عشرة مِن عمري، وظلتْ بطبيعةِ الحال عالقةً بذاكرتي طوالَ السنين وإنْ لم أُحدِّثْ بها أحدًا مِن قبل. المرةَ الثانية كانت قبلَ عاميْن وحينَها استيقظتُ مذعورًا؛ لأن مَن زعم أنه رسولُ اللهِ كانت ملامحه مختلفةً عمَّن رأيتُه قبْلَ ثلاثين عامًا. وهكذا وقعَ الشيطانُ نفسُه في فخ معي، إذ إنه نَسي بأيِّ صورةٍ ظهَر لي في الماضي زاعمًا أنه رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- . وحينَها فقط ألهَمَني اللهُ سبحانَه وتعالى أن الحديثَ يَخُصُّ مَن عَاصَرَ النبيَّ ورآه يَقَظةً وليس من بعده.

مِن هنا يمكننا القولُ إن استغلالَ توهُّمِ البخاري وتوهُّمِ غيره أن رسولَ الله قد بارك عملَه في كتابة الحديث أمرٌ لا قيمة له، بل: إنه وثيقة جدُّ خطيرةٌ خاصة إذا كانت غير صحيحة مِن حيث المبدأ، وإنما نُسِبت للبخاري مِن ضمن ما نُسِب له للتهويل ولصناعة الأسطورة. فقدْ رأينا في باب "في الطريق إلى دمشق" أن صناعة المسيحية مِن تراث عيسى بن مريم -عليه السلام- قد تمت في دمشقَ حينما رأى عدو المسيح شاول رؤيا يقظة كما زعم مفادُها ظهور المسيح له دون سواه، وأمَره بتعطيل التوراة وقدَّمَ له الدينَ الجديد الذي هو "المسيحية الحديثة" وبذلك ظهرت المسيحية تحت مسمى "العهد الجديد"، بينما أصبح التراث اليهودي هو "العهد القديم". ثم رأينا أن شاول قد أصيب بالعمى فرأى المسيحَ يأمره بزيارة حنانيا في دمشقَ، وأنه سيرُدُّ إليه بصرَه. وهنا أيضا نرى البخاري كان كفيفًا في صغره فرأت أُمُّه إبراهيمَ في المنام يبشرها برد بصره.

إنَّ ما أتى به القديس بولس "شاول" كان معارضًا تمامًا للعقيدة التي علَّمها المسيحُ في حياته للحواريين. وهنا نفاجَأ برسول الله يظهر في المنام يبارك عملاً نَهى عنه تماما يقظةً في حياته، وانتهى أبو بكرٍ وعمرُ وعثمان وعليّ عنه في حياتهم، فكيف بنا نصدِّق أن الرسول يَظهر في المنام لشخص كائنًا مَن كان وهو لم يعاصره ولم يره يقظة ولم يرَ مَن رآه؟ إذ إن الفرْقَ بينه وبين النبي قرابة القرنين مِن الزمان، ثم يبارك له عملاً كان قد نهى عنه في حياته............ أفلا تعقلون؟

لا أحتاجُ لكثيرِ نقاشٍ عن تهويل ابن شاكر لسيرة البخاري -رحمه الله- لكن أنا شخصيًا لا يهمني كثيرًا كوْنُ البخاري كان يأكل "لوزتين" في اليوم أو "وزتين"، ما يهمني ويهم المسلمين الحيارى اليوم هو: هل توجد نسخةٌ أصليةٌ مِن صحيح البخاري ثاني أصح كتاب بعد كتاب الله تحت أديم السماء كما يسمونه؟

إن تهويلَ السيرةِ الذاتية له أحد مدلولين في علم النفس والاجتماع: الأول هو أنه يعكس ضعفَ حجةِ الكاتب، لذلك يحتاج لقدر مِن التمويه والخداع حتى يَقبل الناسُ ما يقدِّم لهم مِن غير تفكير. وهنا ربما كان تهويل ابن شاكر لشخص البخاري ناتجًا عن علمِه التام أنه هو نفسه غير مطمئن أن ما كتبه يمكن الجزم القطعي بأنه كتاب البخاري. السبب الثاني هو أن يكون الشخص المهول ساقطَ العدالة ساذجًا يصدِّق ما لا يصدَّق ويمكن خداعه بسهولة. وهذه الظاهرة متوفرة هذه الأيام بكثرة بين النقيضين: متطرفي الصوفية الذين يصلِون حد التأليه لشيوخهم والتبرك في قبورهم، وكل السلفيين والوهابية الذين يقدسون كتبَ مَن سلفَ مِن هذه الأمة، ويتبركون كغيرهم بسيرتهم مهما كانت لا تصدق. ولا يمكنني هنا أن أحكم أن ابن شاكر كان يعلم أنه يخدع الأمَّةَ بكتابٍ لا أصل له أم أنه نفسه كان مخدوعًا. وإنْ كان مخدوعًا فهل لأنه مِن متطرفي الصوفية أم السلفية؟ النتيجة واحدةٌ ومتروكةٌ لفِطنة القارئ.

البخاري في ميزان الحساب قبْلَ يوم الحساب:

حَسْبَ سيرةِ البخاري فإنه كَتَب كتابَه في 16 سنةً وقد انتقى أحاديثَه التي جمعها في الجامع الصحيح وهي في المتوسط حوالي خمسة ألف حديث مِن بين 600 ألف حديث، وفي رواية 750 ألف حديث، وقد رأينا أن مالك

انتقى مسندَه مِن مليون حديث. هنا نعرض فقط الـ 600 ألف حديث على علم الرياضيات لنرى مصداقية هذه الأرقام الخرافية مع الفترة الزمنية المحددة وهي 16 سنة:

16 سنة = 5840 يومًا.

منها: 30 يوم رمضان كل سنة = 480 ليلة قيام ليل حسب السيرة أعلاه. مِن الطبيعي أن يقابلها على الأقل نصف يوم نوم بالنهار = 240 يومًا.
مِن هنا نخلُص إلى أن أيام العمل التي كتَب فيها البخاري كتابَه هي ما تبقَّى مِن أيام وهي 5600 يوم.

لو قسَّمْنا الـ 600 ألف حديث على 5600 يوم سوف نخلُص إلى أن البخاري وعلى مدى 16 عامًا متتالية قد راجع في كل يوم 107 حديث على أقل تقدير.

مِن المعلوم أن كل هذا العمل الجبار قد تم في الشرق الأوسط، حيث ساعات اليوم تقريبا 12 ساعة ليلاً ومثلها نهارًا.

لنفترض أنه كان يعمل فقط 4 ساعات للمعايش يوميًا، وساعتين للأكل والصلاة والاجتماعيات، فان الزمنَ المتاحَ لمراجعة الروايات يتقلص إلى ست ساعات. فلو افترضنا أنه كان يسهر بالمصباح الزيتي ساعتين يكون الزمنُ المتاح له لإنجاز الصحيح هو ثماني ساعات يوميًا فقط. هذا بافتراض أنه لم يمرض ولم تشغله تقلباتُ الحياةِ يومًا واحدًا طوال تلك السنوات.
لكن الواقع في ذلك الزمان يختلف إذ إن الحديثَ الواحد ربما يتطلب شهورًا مِن السفر والترحال على ظهور الحمير والإبل للبحث عن راويه ومَن روى عنهم ودراسة سيرتهم والتأكد من مصداقيتهم حسْبَ ما وصفت سيرتُه. فكيف يَقبل عاقلٌ أن البخاري استطاع إنجاز مراجعة 107 حديثًا في اليوم الواحد مِن تلك الستمئة ألف لينتقي منها ما جمعه أخيرًا في كتابه الذي بين أيدينا ويحتوي على حوالي خمس ألف حديث في المتوسط؟

هذا علم رياضيات لا يكذب، وعلى القارئ إعادة الحساب حتى يطمئن قلبُه.
والخلاصة هي:
إما أن البخاري شخصيةٌ خرافيةٌ لم توجَد أصلاً، وهذه فرضيةٌ مستبعَدة نتيجةَ تواترِ ما كُتِب عنه.
وإمّا أن البخاري وجِد حقيقةً لكنه كذب في تهويل مجهوده. وأنا أستبعد هذه الفرضية تمامًا؛ لأن هذا الادعاء فيه استعباط وليس كذبًا فقط.
وإمّا أن ابنَ شاكر وابنَ حجر العسقلاني كاذبان في تضخيم الأرقام: وهذه فرضية مرفوضة لأن المعلومة متداوَلة بين كل كتب الحديث.
الاحتمال الأخير، هو أن أسطورة البخاري قد صُنِعت بأيادٍ خارجية فغيَّبت العقولَ تمامًا وأصبح أصحاب المقامات الكبيرة يرددون عنه بلا تفكير ولا مراجعة، تمامًا كما يَعبد الهندوسُ البقرَ. وهذه هي الحال الشائعة اليوم.
الحقيقة الموضوعية هي أنه ربما لخص كتابه من 10-15 ألف رواية، وأن معظمها نقله عن غيره وفقًا للثقة الشخصية والتقارب المذهبي وأنه لم يبذل أي مجهودٍ خارق كما نتوهم في البحث والتحقيق، لكن صناعة الأسطورة تطلبت تضخيمَ العدد والجهد حتى يصبح البخاري في نظر العميان في مقامٍ خارقٍ يفوق مقدرة الأنبياء والمرسلين. ولعل مقالَ "سامح عسكر" أعلاه يمثل الحقيقة الموضوعية في كون البخاري نَقَل بالجملة عن شيوخه التكفيريين مِن غير تحقيق ولا تدقيق، لكنه هو الذي تحول إلى أسطورة فيما بعدُ ونُسِب إليه أضعافٌ مضاعفةٌ لِما قام به مِن جهد، وتم تقديس كتابه بكل ما فيه مِن عيوبٍ.

ختام الباب:

لا أشكُّ لحظة أن قراءةَ هذا البابِ سبَّبتْ صدمةً لكثيرين. منهم الذين نشأوا يرهبهم "قال رسول الله" في أمورٍ لا يقبلها العقلُ وتتعارض مع القرآن مِن خرافة عذاب القبر وتهويل عقابه على صغائر الأمور وتقليل عقابه على كبائرها. ومنهم الذين نفروا من الإسلام مِن كثرة الشطح الذي استشرى مِن رضاع الكبير، مرورا بمضاجعة الوداع إلى رجم القردة الزانية، تلك الخرافات التي أصبحت مما يفخر بعض الشيوخ بإثارتها محتجين ببعض ما يسمى "أحاديث" وردت فيها. ومنهم مَن يهمه جدًا أن تظل الأمة على جهلها بأسطورة "علم الحديث" لأنها السلاح الذي ركَّعَ الشعوبَ وسَلَبها إرادتَها التي حررها القرآن. كل هؤلاء ربما أصابهم البابُ بصدمة، لكنَّ ما هو آتٍ أشدُّ، وما هذا إلا تمهيد!

عزائي أنه -بإذن الله- سيكون فاتحة خيرٍ تَحول بين الكثيرين الذين لم يلحقوا بالملحدين مِن أبناء وبنات المسلمين بعدُ، هذه الظاهرة التي يغُض عنها أهلُ الاختصاص الطرْفَ؛ لأنها لا تعنيهم في كثير ما دام سلطانُهم قائمًا. ولعل الكثيرين منهم يعلمون حال القرون التي كثر فيها الكذبُ على رسول الله. لكن الأمر لا يهمهم كثيرًا طالما كانت الرعية عمياءَ. وحتى تتضح الصورةُ أكثرَ أنقل في ختام هذا الباب هذه القصة الطريفة التي تضع الكثيرَ مِن النقاط على الحروف، وهي أيضًا من دمشقَ:

فقدْ ذكَر ابنُ الجوزي في كتابه "القصاص والمذكرين" برقم 172، فقال: أخبرَنا المباركُ بن أحمد الأنصاري، قال: أخبرنا محمد بن مرزوق، قال: أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت، قال: أخبرنا الحسن بن الحسين النعالي، قال: أخبرنا أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، قال: أخبرني الحسن بن علي، قال :حدَّثنا ابن مهرويه، قال: حدثني أحمد بن خالد، قال: حدثني عثمان الوراق، قال: {رأيتُ العتابي يأكل خبزًا على الطريق بباب الشام، فقلتُ له: ويحك أمَا تستحي؟! فقال لي: أرأيتَ لو كنا في دارٍ فيها بقر، أكنتَ تحتشم أن تأكل وهي تراك؟ قال: فقلتُ "لا"، قال: فاصبرْ حتى أعلمك أنهم بقر، فقام فوعظ وقصّ حتى كثرَ الزحام عليه، ثم قال لهم: روي لنا مِن غير وجه أن مَن بَلَغ لسانُه أرنبة أنفِه لم يدخل النار، قال: فما بقي منهم أحدٌ إلا أخرج لسانَه يومِئ به نحو أرنبتِه، ويقدِّره: هل يبلغها؟ فلمّا تفرقوا قال لي العتابي :ألم أخبرْك أنهم بقر}.

يعني أنه أوهمهم أنه رُوي عن النبي أنه قال إن مَن لحس طرْفَ أنفِه بلسانه لن يدخل النار ففعلوا جميعا مِن غير التفكير في أنه يَضحَكُ عليهم.

* * *

لقد رأينا كيف صُنِعت المسيحيةُ في دمشقَ مِن تراث المسيح عليه السلام، ورأينا كيف صُنِعتْ أسطورةُ عِلمِ الحديث ليس بعيدًا عن دمشقَ في هذا الباب. ولا يَخفى على أيٍّ فَطِنٍ التقاربُ بين الصناعتين، خاصة إذا قارنَّا الأناجيلَ الأربعة مع المذاهب الأربعة! ولم يكن هذا البحث مِن باب التشكيك ولا الترف العلمي أو استعراض العضلات، لكنه كان ضروريًا لإسقاط أكبرِ بهتانٍ في تاريخ الإنسانية مسَّ أشرفَ بيتٍ في تاريخها. وقبْل أن ننتقل إلى الباب المَعنِي وهو باب: "وقولهم على عائشة بهتانًا عظيمًا" لا بد مِن النظر في طبيعة البهتان على مريمَ؛ لأن بصماتِ القصةِ تشير إلى فاعلٍ واحد هنا وهناك، وقد وثَّقَ القرآن الحدثَ في قوله: {وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156)} النساء.

الباب الثامن

وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا

هذا البابُ يمهدُ للذي يليه. الهدفُ مِن كتابة هذا الباب ليس السخرية مِن محتوى الكتاب المقدس بشقيه " العهد الجديد" الذي يمثل التراثَ المسيحي المقدس و"العهد القديم" الذي يمثل التراثَ اليهودي، كما قد يظن بعضهم، ولكنه بحثٌ في فلسفة مقارنة الأديان يعيننا على استنتاج أدلةٍ موضوعيةٍ لإعادة تشخيص المصدر الذي نبعتْ منه القصصُ الملفقة عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وآل بيته، التي اشتملت عليها كُتُب التفسير فأصبحت مرجعًا للمسلمين على مدى قرونٍ طويلةٍ في سوء فهْم القرآن والاكتفاء بما دَسَّه اليهودُ في التراث الإسلامي بعد أن فَشلوا في تحريف القرآن نصًا أو حرفًا.

في الطب الشرعي الحديث، فإنه مِن السهل جدًا على أهل الاختصاص المقارنةُ بين خط اليد في خِطَابيْن لمعرفة ما إذا كان الكاتبُ شخصًا واحدًا أم لا. بل إن الطب الشرعي وعلماءَ النفس يمكنهم معرفة الكاتبِ من مقارنةِ مجموعةٍ من كتاباته واستنباط أسلوب تفكيره وتعبيره. فالبهتانُ على عائشة -رضي الله عنها- الذي سَمَّمَ الأجيال من المسلمين ظنًا منهم أنه مِن التاريخ- وما هو من التاريخ- ينبع من المصدر نفسِه الذي بَهَت مريمَ -عليها السلام-. الفرْقُ بين البهتانيْن هو أن البهتانَ على مريمَ وَجَد مكانَه داخل الكتاب المقدس نفسِه، ثم نُسِب زورًا لله تعالى، بينما البهتان على عائشة اصطدم بسدٍ منيع حفظ الله به القرآن من التحريف فانتهى به المطاف في كُتُب الحديث التي قام عليها التفسير.

ولقد عايشتُ الكثيرَ من المرارات مع المسيحيين الذين تعاملتُ معهم تدريجيًا إلى أن فتح الله أبصارَهم ليدخل منها نور الله لأول مرة، فيروا الحق حقًا والباطلَ باطلاً، وحينَها يشعرون بمرارة الخيانة ممن كذبوا عليهم وكادوا يُدخِلونهم جهنم وبئس المهاد.

هذا الشعور المرير لسنا بمعزلٍ عنه، ونحن نقلب بواطنَ الكتب ونعيد قراءةَ التاريخ الإنساني في محيطنا الإسلامي، في زمنٍ أصبح فيه تداولُ العِلم متاحًا للجميع، ودفْنُ الرؤوس في الرمال من المحال، فنراه قد تَعرَّض للكثير من التزييف والتزوير الذي مَرَّره بعضُ المشايخ والساسة لمصالحَ شخصيةٍ ومنافعَ دنيوية أدت إلى توريث الأجيال الكثيرَ من اللغط والتناقضات التي أخرجتِ كثيرين من الإسلام اليوم، وتلعب حاجزًا كبيرًا بين كثيرين واعتناق الإسلام، وتلعب العاملَ الأساس في تخلُّف الأمة اليوم وكونها غثاءً كغثاء السيل.

وقصةُ البهتان في حق الصالحين ليست بجديدة على الإنسانية عمومًا وعلى بني إسرائيلَ على وجه الخصوص؛ فقد قالوا على معظم رُسُلِهم وأنبيائهم بهتانًا، لكن القرآن صرَّح بقصة البهتان العظيم على مريمَ ربما لحكمةٍ تتضح لنا ونحن نطالع هذا البابَ والذي يليه.

التساؤلُ عن قصة البهتان الذي قيل في مريمَ -عليها السلام- ظل عالقًا بذهني سنين عددًا، أبحثُ له عن تفسيرٍ يليق بالوصف الذي تَقشعر منه الأبدان: " وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا "، وشاءَ الله تعالى أن دخلتُ ذات يوم في حوار مع صديق مسيحي أدَّى إلى أن أنظر في أنساب المسيح-عليه السلام- مِن أبيه المزعوم يوسف النجار، لأن ذلك النسبَ هو المكان الوحيد الذي أُشِير فيه لمريمَ بالتفصيل في الأناجيل، وكنتُ قبْلَها أظن في بداية بحثي أن البهتانَ هو فقط اتهامُ مريمَ العذراءِ بحمْل المسيح سِفاحًا نتيجة شبهةِ عدم وجود الزوج، و لم أشعرْ في بداية الأمر بقبح التهمة، لأن تفسيرَ الحمْل بلا زواج يثير تساؤلاتٍ كثيرةً في النفس، فضلاً عن أن اليهودَ قد لفقوا لها زواجًا شرعيًا ما عابه أحد من النصارى، بل وانطلى على الكثير من مشايخ المسلمين الذين يحلو لهم الإتيانُ بالنشاز من الإسرائيليات لتزيين خُطَبهم بها، وقد سمعتُ أكثرَ من خطيب يقول إن مريمَ تزوجتْ في آخر عمرها حسب بعض الروايات، ويختم حديثَه بقوله: "والله أعلم"، وهو يعلم أن الله يعلم أنه يكذب في حق مريمَ -عليها السلام- ويروِّج لروايات قُصِد منها تلويثُ سُمعتِها والتشكيكُ في مصداقية المسيح -عليه السلام-، وأن ترديدَه لها ليس إلا مِن باب

"الفهلوة" والتظاهر بعِلم سَبق فيه الناس. إذن: ما لم يفهم الإنسان السوي الحكمة الإلهية والإعجاز في حمل مريمَ العذراءِ مِن غير زواج، يظل المولودُ موضعَ تساؤلٍ طبيعي في كل ثقافات الإنسانية. لكن حينما تطور علمي أصبحتْ قصة الزواج الوهمي هي موضوع البهتان وليس الحمْل نفسه، ومع عامل الزمن أصبحت قصة الزواج الشرعي - على اختلاقه- لا تكفي عندي لتكون قصة "بهتان عظيم" كما وصفه القرآن، وبعد أن دخلتُ في حوارٍ مع صديقي الإنجليزي المسيحي المتشدد سنة 1998 قمتُ بالتدقيق في أنساب ذلك الزوج المزعوم، فأصابتني صاعقةٌ أدت إلى كتاب: "ثالوث يوسف: مريم، الشرف والعرسان الثلاثة" باللغة الإنجليزية.

وصلتُ في تلك الأيام لخلاصةٍ مهمةٍ لم تتغير عندي بعدُ، وهي أن قصة البهتان العظيم تكمن في تفاصيل قصة الزواج المزعوم من مريمَ ليوسف النجار كما سأناقش تلك القصة بالتفصيل في هذا الباب. لكن لم يحدثْ في ذهني ربطٌ بين البهتان على مريمَ والبهتان على عائشة إلا حينما استُدعيتُ لجلسةِ حوارٍ مع عدد من الإنجليز المثقفين حول كتاب " آيات شيطانية" للملحِد البريطانيِّ الجنسية، هنديِّ الأصل، شيعيِّ المذهب قبْل إلحاده "سلمان رشدي". وهنا أسردُ كيف تطورت الأفكارُ عندي ثم تَبِعَها البحثُ العميق في كل فكرة حتى وصلتُ للنتائج التي أتركها بين يدَي القارئ ليحكمَ عليها بنفسه.

الخوميني وسلمان رشدي:

قال بعض الفلاسفة: إن خداعَ الناس عبْرَ أجيالهم أسهلُ من إقناعهم أنهم خُدِعوا، لأن الرد الطبيعي للناس حين اكتشاف الخداع هو قولهم: وما بال القرون الأولى التي تداولت القصة؟ وسنعالج هذه المعضلة لاحقًا إن شاء الله.

في سنة 2001 قدَّمَ لي أخٌ إنجليزي مسلِم "أندرو" دعوةً مِن ابنة خالته، وهي غير مسلِمة، لكني تعرفتُ عليها في بعض مناسبات عائلة أندرو التي توطدت صلتي بها منذ إسلامه، ثم وقوفي معه بشدة في زواجه مِن باكستانية مسلِمة مما جعلهم يعتبرونني فردا من الأسرة. وكانت دعوةُ ابنةِ خالته "جوانا" دعوةً فكرية خاصة جدًا لحضور جلسة مناقشة كتاب سلمان رشدي "آيات شيطانية". وكان لهؤلاء مجلسٌ شهريٌّ يتفقون فيه كل مرة على قراءة كتاب، ثم يعقدون جلسةَ آخرَ الشهر لمناقشته. وهذه الظاهرة الحَسنة التي أرجو أن تَعُم البلدانَ الإسلامية منتشرةٌ بكثافة في بريطانيا، ولا تكاد تخلو قريةٌ من عددٍ من التجمعات لمناقشة الكتب، لكن لأن كتابَ سلمان رشدي كان عن ثقافةٍ لا عِلم لهم بها، وقد أثار ضجةً عالمية حينَها، فقد احتاجوا لمسلِم يشاركهم الحوارَ الهادف ويشرح لهم ما غاب عليهم. اتصلتُ بـ "جوانا" وأعطيتها عنواني لترسلَ لي نسخةً من الكتاب الذي لم أطالعه من قبلُ حتى أستعد للنقاش.

وكان الكتابُ قد أثار ضجةً عالمية بعد إطلاق الخوميني فتوَاه بإهدار دم النكرة مجهول الهوية في عالم الكتابة حينَها سلمان رشدي، مما صَنع من هذا الأخير بطلاً عالميًا ومفكرًا هدَّدته قُوى الرجعية، مما اضطر الحكومة البريطانية لتوفير الحماية له على مدار الساعة لسنوات عديدة بتكلفة ملايين الجنيهات. وهكذا تحول الكتابُ الذي كان يمكن أن يَذهب أدراجَ الرياح مع الكثير مما كُتِب في الإساءة للنبي -صلى الله عليه وسلم- وبيتِه الكريم عبْرَ العصور، إلى كتابٍ يطالعه أهلُ هذه القرية النائية في جبال ويلز ويستعينون بمَن يعينهم على فهم ألغازه.

كانت الرحلة طويلةً بعدد الساعات؛ لأني كنت أعمل وأسكن أقصى جنوب بريطانيا في مدينة "شيشستر" على بحر المانش، بينما قريتُهم معزولة في أقصى شمال ويلز، وكانت طويلة بمقدار القلق الذي انتابني مِن حجم التحدي الذي يواجهني، لأنني هنا أمثّل رسولَ الإسلام بين قوم مُطّلِعين ويبحثون عن الحقيقة بين هذه التناقضات غير المفهومة، وغالبًا سيكون الحوار لا حدود له، وستكون نتائج أخطائي جسيمة في حق هؤلاء، وكان اللوم كلّ اللوم موجهًا للخوميني الذي صنع الإعلامَ والشهرة لهذا الكتاب الذي لا يساوي الحبرَ والورق الذي كُتِب عليه، ووضعني في هذا المأزق الذي كان الهروب منه ضعفًا ربما يصب في المزيد من بلبلة أفكار هؤلاء الذين يَسألون عن الحقيقة، لكن القبول به كان كالمشي فوق الألغام.

شاء الله أن يمر الحوارُ بسلامٍ؛ لأن ثقافتَهم عن الأديان كانت بسيطة ولم تتعدَّ الأسئلةُ الخطوطَ العريضة في القضايا السياسية والخلافات المذهبية. لكن الحوار قادني للحديث عن الشيعة والسُّنَّة بطبيعة الحال، لأن سلمان

رشدي كان ملحِدًا من أصولٍ هنديةٍ ومذهبٍ شيعيٍّ، وفي رحلة العودة بدا ذهني يتفتح لحقيقة مريرة وهي أن الشيعة عمومًا يكرهون عائشة -رضي الله عنها-، فما الذي دَفَع الخوميني لإصدار تلك الفتوى التي سَمع بها كل سكان العالم؟؟؟ بالتأكيد فإن غيرته على عائشة كانت آخرَ الاحتمالات المنطقية لهذا الموقف. لكن لأني أميل لإحسان الظن بالناس، كل الناس، فقد أوجدتُ تفسيرًا سياسيًا للحدث حينَها، وهو أن الخوميني بعد إحكامه القبضة الحديدية على ثورة الشعب الإيراني كان يود إرسالَ رسالةٍ سياسيةٍ للعالم الغربي مفادُها أن القوةَ الإيرانية تتجاوز مدى السلاح التقليدي إلى تحريك الملايين من المسلمين في كل مكان بفتوى منه، وظننتُ حينَها أن الرسالة السياسية قد وصلت، لدرجة أن لفظ "فتوى" قد دخل معظمَ القواميس الانجليزية اللاحقة بصورةٍ مغلوطةٍ وهو: "قرار ديني بإهدار الدم". ولم أفكرْ في الأمر مرةً أخرى إلا حينما أُعلِن عن منْح سلمان رشدي وسامَ "الفارس" مِن ملكة بريطانيا سنة 2007، فظهر الكاتبُ العالمي سلمان رشدي في وسائل الإعلام، ثم ما لبث أن أصبح مِن ضمن المشاهير الذين تتناقل قصصَهم وسائلُ الإعلام العالمية. هنا بدأتِ التساؤلاتُ تعود من جديد، وما عاد التفسير السياسي القديم للحدث مُقنعًا لي.

وكان أن تَغيَّر فهْمي للقرآن وتاريخ الإسلام كُليًا بعد أن ألهَمَنا الله تعالى نظرية "آذان الأنعام في الخلق والتطور" التي نُشِرت أولَ مرةٍ سنة 2007 في السودان.

ثم كان أن شهدتُ المباهلة المتلفزة بين ياسر الحبيب الشيعي و محمد الكوس السني سنة 2010 الذي أقسَمَ فيه الشيعي بالله يمينًا مغلَّظة أن عائشة في نار جهنم. حينَها أطلَّت الفكرةُ القديمة في ذهني من جديد، وأصبح التساؤل مِلحًا عن الحكمة وراء تلك الفتوى التي شهدها العالم أجمع، وعَلِم عن محتواها فقط: "أن سلمان رشدي كَتَب كتابا يَسخَر فيه من الآيات التي نزلتْ في براءة عائشة زوج النبي محمد التي تَزوجها وهي طفلة من تهمة زنا أُلحِقتْ بها"، وكانت الخلاصة التي وصلتُ إليها هنا تَقشعر منها الأبدان.

ثم كان أن مُرِّرَ إليَّ فيديو في الفيس بوك سنة 2012، من تداعيات ما يُسمَّى بـ "الربيع العربي" موضوعُه أنَّ أحد المشايخ الذين يتاجرون بالدين وأعراض الأمم قد ذَهَب كالبطل من بلدِه الثري إلى دولة عربية بينَه وبينها صحارى وبحارٌ وبلدان كثيرة، فسَجَّلَ قصة وهمية عن امرأة زانية دَاهَمها في بيت دعارة، ودعاها إلى الله والتوبة فاهتدتْ وبكت، فنَشر الفيديو البشع تحت عنوان " سريلانكية زانية تتوب إلى الله" - وليست سريلانكية بالطبع- وانتشر الفيديو بين أوساط العوام الذين تَجَمَّدَ الدمعُ في عيونهم وعقولهم وكأنها أولُ امرأةٍ زنتْ في بلاد العرب، وهُم معجبَون بهذا الداعية المخضرم، ولم يَفُتْ عليَّ منذ قراءة العنوان الهدفُ السياسي العفِن وراء ذلك الفيديو الرخيص، فالقصدُ منه في زمن يدمِّر فيه المسلمون بعضَهم بعضًا هو ليس قصة التوبة المضحكة، وإنما الترويج لأن البلدَ المَعني تَفَشى فيه الزنا، وكأنه البلد الوحيد الذي تُلصَق به هذه التهمة.

ثم كانت المناسبة الأخيرة حينما اطَّلعتُ على كتاب لأحد المفكرين الذين ينتمون للقرآنيين يناقش فيه الاختلافَ الكبير بين قصة الإفك المشهورة في سورة النور، التي لا تشير لا إلى عائشة ولا إلى نساء النبي ولا إلى شخصه لا من قريب ولا من بعيد، وبين ما احتوت عليه كُتُب التفاسير والحديث التي كُتِبتُ بعد قرون من الحدث، ورغم اختلافي مع الكاتب في الكثير من النقاط وفي أسلوب العرض وفي عنوان الكتاب نفسِه، إلا أني لستُ ممن يَحكم على الكتاب مِن عنوانه أو بسبب مذهب كاتبه، وإنما بالقاعدة القرآنية: {....قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111)} البقرة..... وهكذا وَضَع لي النقاطَ على الحروف، ووجدتُ فيه ما لم أظن أبدًا أن كان يصل علمي إليه، رغم تحفظي على أسلوب الكاتب. ولأن أصلَ موضوعِنا هو قصة الإفك في سورة النور التي سنناقشها في الباب القادم كان لزامًا أن نناقش قبْلها قصة البهتان على مريمَ لأن إحداها تفسِّر الأخرى، والمتهم هنا وهناك واحد.

عصر الأقاويل:

لننظرْ أولاً في السياق الذي أشار الله تعالى فيه لقصة البهتان العظيم على مريم:

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ **وَقَوْلِهِمْ** قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً (155) وَبِكُفْرِهِمْ **وَقَوْلِهِمْ** عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156) **وَقَوْلِهِمْ** إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ

مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158)} النساء.

نلاحِظ مِن السياق حجمَ الجرائم التي ذُكِر البهتان مِن ضمنِها:

- نقضهم ميثاقهم مع الله: فقد عاهدوا اللهَ مراتٍ كثيرة وتَكرر نقضُهم للعهد معه.

- كفرهم بآيات الله: آيات الله هنا ليست النصوصَ المقروءة كما نتوهم دائمًا، لكنها الآيات الكونية والمعجزات المرئية المحسوسة التي أجراها على أيدي الأنبياء والمرسَلين بمن فيهم موسى -عليهم السلام-، لكنهم كفروا بها أشد مِن كُفر فرعون.

- قتلهم الأنبياء: وهؤلاء قتلوا مع حق العِلم وعِلم اليقين أنهم أنبياءُ بما فيهم يحيى وزكريا -عليهما السلام-.

ثم يتغير السياق من سرد الحقائق إلى فضْح عصر الأقاويل:

- قولهم قلوبنا غلف: هذه قمة الوقاحة في رفض الحق؛ لأن قلوبَهم عقلت ثم كفرت مِن بعد عِلم.

- وقولهم إنا قتلنا المسيح: لأنه مجرد قول وهُم يعلمون حق العلم وعلم اليقين أنهم ما قتلوه وإنما أبدعوا في خلق قصة قتله، ومن ثم صناعة الديانة المسيحية كما رأينا في باب "في الطريق إلى دمشق".

ثم تأتي قصة البهتان مع الكفر في آية مستقلة: "وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا"

إذن، فقد قالوا على مريمَ بهتانًا عظيمًا يرتفع في قبحِه إلى مستوى بقية الأقاويل في الآيات، مما يتوجب عليه أن قولهم على مريمَ كان بهتانًا عظيمًا تتناقله الأجيالُ كما تناقلت بقية الأقاويل المذكورة في الآيات.

قبل أن نتدبرَ تفاصيلَ القصة لا بد مِن تعريف المفردات:

الغيبة: هي أن تقول في أخيك ما يعيبه وراء ظهره.

الإفك: أن تردد ما سمعتَه عن أخيك مِن غير دليل أو برهان. والإفك أشد قبحًا من الغيبة؛ لأنه يحتمل الصحة فيكون غيبة، ويحتمل الكذبَ فيكون بهتانًا.

البهتان: أن تَفتريَ على أخيك ما ليس فيه من العيب، وهو أقبح من الغيبة والإفك.

من هنا يمكننا أن نقارن بين "البهتان" في مريمَ وقصة "الإفك" في القرآن؛ فمِن ظاهر الألفاظ أن قصة الإفك كانت تناقل الألسن لقصة لا برهان لهم عليها، لكنها وصلتهم من مصدر ما كما سنرى. لكن البهتان على مريمَ كان تلفيقَ قصةٍ لا أصل لها في حقها.

التمهيد لإزالة المسيح:

المعلوم لليهود من النبوءات الكبرى للمسيح المرتقب-عليه السلام- كانت أن تحمل به أُمُّه البتول العذراء بأمر الله من غير زوج أو ذكَر، ولأن اليهود أصلاً كانوا وما زالوا في انتظار المسيح ابن البتول العذراء، فقد كان مِن المتوقع أن يصدِّقوا مريم، عِلمًا بأنها كانت فتاة تقية ورعة نشأتْ في المحراب وأجرى الله على يديها الكرامات، مما أهّلها اجتماعيًا أن تكونَ أُمَّ المسيح المرتقب، وأن تكون قصتُها خالية من الشبهات. ولأن اليهود حينها كانوا يعلمون أن عيسى بنَ مريمَ هو المسيح رسول الله المرتقب حقًا، فقد عمدوا للتشكيك في أهلية مريمَ في أن تكون أُمَّ المسيح، وبالتالي تثار الشبهات حول حمْلِها به من غير زوج معلوم، فتَسقط مصداقيتُها أن ابنَها هو المسيح المرتقب.

لكن اليهود أصلاً ما رفضوا عيسى إلا بعد أن صَدَح بدعوته التي لم تُرض طموحاتِهم، وأنه مَهَّدَ لنهاية الرسالات السماوية في بيت إسرائيل، ومَهَّد لمقدم الرسول الخاتم من بيت إسماعيل. هنا كان الرفض له وبدء تنفيذ المخطط.

لكن لأنهم ما كان لهم سابقُ عِلمٍ بما ستكون فيه رسالته، فقد أخفوا تحفظًا معجزةَ حمْل أُمِّه البتول منه، وحَذفوا جميعَ معجزات طفولته من كلامه في المهد إلى خلق الطير من الطين وغيرها مما ذكَره القرآن. هذا الحذف المبكّر كان من باب التحفظ حتى يطمئنوا لرسالته، ثم بعدها يمكنهم الإعلان عن تلك المعجزات إن رضوا برسالته أو حذفها مِن تراثهم إن رفضوا الرسالة حتى يتمكن الشك في نفوس العامة ويمهد الطريقَ لتلفيق البهتان. فلما رفضوا رسالتَه بدأ تنفيذ إعادة كتابة تاريخ مريمَ بالصورة التي تسقط مصداقيتها. ليصلوا لتلك الخلاصة، فقد لفقوا لها قصة تبدو في ظاهرها بريئة جدًا، وهي أنها تزوجت "على سُنَّة الله ورسله" لكن بعد ميلاد المسيح وهي عذراء.

ولأن اليهود عمومًا قد رفضوا عيسى وشككوا في كونه المسيحَ فقد كان - وما زال - معظم مَن آمَن به هم مِن خارج بيت إسرائيل، وعليه فقد سهل عليهم تصديق القصص الملفقة التي تحتاج لمن هو مِن داخل البيت ليكتشف ضعفَها وعدم مصداقيتها.

وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا:

النبوءات المتراكمة عن المسيح في بيت إسرائيل مفادُها أن أُمّه "بتول". وبتول حسب التوراة تعني راهبة وهبَتْ كلَّ حياتِها لله تعالى كما يفعل الرهبان اليوم. وعليه فإنها "لم" و"لن" تتزوج لا قبْلَ ميلاد المسيح ولا بعدَه. لكن لأن قصة البهتان كانت قد بيعتْ لمن هُم خارج بين إسرائيل حينَها - الرومان - فقد فات عليهم أن مَن تزوجت بالحلال لاحقًا، فقد سقطت عنها صفة "البتول" حسب المعنى التوراتي القديم لها، حتى وإنْ كان زواجها شرعيًا. ومَن سقطتْ عنها صفة البتول في متأخر حياتها فستُثار الشبهاتُ بطبيعة الحال عن حياتها الخاصة وهي شابة. فإنْ كانت قد زعمت أن ابنَها كان المسيح، فإن زواجَها المتأخر - وإن كان شرعيًا- وحمْلها إخوةً للمولود الأول، يَفتح البابَ على مصراعيه للتشكيك في براءتها في حملها الغامض الأول. لأن مَن تزوجت لاحقًا، ومارستْ علاقة جنسية شرعية أقربُ لأن يكون حمْلُها الأول كان سفاحًا مِن كونه معجزة حدثت لغير راهبة. وهنا يبقى احتمالٌ واحدٌ لتفسير ظاهرة الابن الأول الذي لا أبَ له. وهكذا يتم الطعن في شرف مريمَ بصورة خفية: ليس باتهامها علنًا بأن مَن زعمت أنه المسيح كان ابنَ زنا، وإنما فقط بإسقاط صفة البتول عنها بتمرير وترسيخ قصة الزواج المزعوم من يوسف النجار، فيصبح المولود الأول أقربَ للشبهةِ منه للمعجزة.

لا بد مِن التنبيه هنا أن اليهودَ يرسمون لمستقبلٍ بعيدٍ وفقًا لعقيدتهم أنهم شعبُ الله المختار الذي يجب أن يسود على الأمم إلى آخر الزمان. وعليه فإن القصة في زمن تلفيقها ربما لم يكن لها صدًى. لكن بطبيعة البشر فإن كتابة التاريخ في مستقبل الأيام غالبًا ما تقوم على الأساطير. والأساطير غير الخرافات. الأسطورة هي قصة فيها شيء من الحقيقة أضيفتْ لها أشياءُ غير حقيقية، بينما الخرافة ليست إلا قصة متناقضة لا أصل فيها من أي صحة. وعليه فقصة مريمَ ومولودِها الأول الغامض عيسى بن مريم كانت حقيقة، لكن المؤرخين لاحقًا وجدوا أمامهم قصة الزواج فقبلوها من غير مقدرة لفهم السم الذي دُس فيها. ومع تقدم الزمن أصبحت الأسطورة جزءًا من العقيدة للأجيال اللاحقة.

إذن، فقصة الزواج البريء نفسها كانت وقاحة كبيرة في حق مريم العذراء، لكن الوقاحة كانت أكبرَ مِن ذلك بكثير!

راوَدَني الفضولُ حينَها أن أُطبق بعضَ أدوات علم الحديث من "جرح وتعديل" على الرجال المذكورين في نَسَب الزوج المزعوم الذي نُسِب له المسيح، وكانت المفاجأة الأولى أن ذلك الزوج، يوسف النجار، له نَسَبان متناقضان أحدهما في فاتحة "إنجيل متَّى"، والثاني في الإصحاح الثالث من "إنجيل لوقا"، ولأن القصة بهتان افتُري في زمن بعيد، فقد تناقضت الأنساب حينما جمعت الأناجيل المختلفة في كتابٍ واحدٍ لتفضح أسرارَ التلفيق. وللاختصار أقول:

إنجيل متَّى أورَدَ نَسَبًا ليوسف النجار ينحدر من إبراهيمَ -عليه السلام- إلى يوسفَ الذي تزوَّج مريم، وكان في هذا النسب أربعون جيلاً بين يوسفَ وإبراهيم. والغريبُ أن النص الذي يَجمع يوسفَ بعيسى ورَدَ هكذا فاضحًا نفسَه لمن يتدبر ما يقرأ:

{وأَلْيُودُ أنجب أَلِيعَازَر. وأَلِيعَازَر أنجب مَتَّانَ. و مَتَّانَ أنجب يَعْقُوب. و يَعْقُوبُ أنجَبَ يُوسفَ رَجُلَ مَرْيَمَ التي وُلِدَ منها يسوعُ الذي يُدعَى المسيحَ.} (إنجيل متّى- 1: 14-15).

لاحِظْ أن النص يصِف يوسف النجار بأنه "رجل مريم التي وُلِدَ منها يسوعُ...". إذن، النص نفسه يعترف أن المسيح هو ابن مريم، لكن يوسف فقط كان رجلَ مريم ولم يكن والدَ يسوع. فكيف يكون نَسَب يوسفَ هو نَسَب المسيح مِن زوج أُمِّه إذن؟

أما إنجيل لوقا فقد تتبع النسبَ مبتدئًا بيوسفَ تصاعديًا إلى إبراهيم، وكانت البداية أيضا تَفضح تلفيقَ النسب:

{ ولمَّا بدأ يَسُوعُ (خدمته)، كان في الثلاثين من العمر تقريبًا، وكان معروفًا أنَّه ابنُ يُوسُفَ بنِ هالي، بنِ متَّثاتَ بنِ لاوِي، بنِ مَلْكِي بنِ يَنَّا، بنِ يُوسُفَ... } (إنجيل لوقا- 3: 23).

نلاحظ أن إنجيل لوقا يعترف بأن نَسب المسيح ليوسف لم يكن إلا إشاعة تناقلها الناس، لكنه عجز عن وصف يسوع بأنه ابن يوسف، وإنما فقط جَمَع بينهما بقوله " وكان معروفًا أنَّه ابنُ يُوسُفَ" وفقا لعصر الأقاويل. وتمضي تناقضات التلفيق تفضح نفسَها:

بمقارنة سريعة لتلك الأنساب في الإنجيليْن كما في الرسم المرفق آخر هذا الباب، نجد أن لوقا أورد 55 والدًا ليوسف النجار بينه وبين إبراهيم، مقارنًا مع أربعين والدًا فقط كما في نَسَب إنجيل متَّى. فلو افترضنا أن كل قرن يتزامن فيه الجَد والابن والحفيد، فإن الزيادة في عدد الآباء (15) تكفي لأن يكون الفارقُ الزمني بين "يوسفَ بن يعقوب" حسب إنجيل متّى، و "يوسف بن هالي " حسب إنجيل لوقا حوالي 500 سنة.وكلا الإنجيلين يزعم أن هذا الـ "يوسف" تزوج مريمَ عليها السلام!

على أن النسبَيْن اتفقا في العشرة أسماء الأولى مِن إبراهيمَ إلى داوُدَ -عليهما السلام- وهي كما يلي منقولة حرفيًا من "إنجيل متى" منحدرًا من إبراهيمَ إلى سليمان:

{ هذا سجل نسب يسوع المسيح ابن داوُد ابن إبراهيم. إبراهيم أنجب إسحق. وإسحق أنجب يعقوب. ويعقوب أنجب يهوذا وإخوته. ويهوذا أنجب فارص وزارح من ثامار. وفارص أنجب حصرون. وحصرون أنجب أرام. وأرام أنجب عميناداب. وعميناداب أنجب نحشون. ونحشون أنجب سلمون. وسلمون أنجب بوعز من راحاب. وبوعز أنجب غوبيد من راغوث. وعوبيد أنجب يسَّي. و يسَّي أنجب داوُد الملك. وداوُد أنجب سليمان من التي كانت زوجة لأوريا} (إنجيل متى 1: 1-6).

"إنجيل لوقا" وثق نفسَ الأسماء الخمسة عشر الأولى أعلاه منتهيًا بداوُد، لكنه رتبها تصاعديًا مبتدئًا مِن داوُد لينتهي بإبراهيم كما ورد في: (إنجيل لوقا الإصحاح الثالث: 32-35). الاختلافُ بين النسبيْن في الإنجيلين بدأ مِن سليمانَ كما هو واضح مِن شجرة النسب المرفقة باللغة الإنجليزية منقولة من كتابي (ثالوث يوسف: مريم: الشرف والعرسان الثلاثة).

الأنساب أعلاه قد تبدو عاديةً لمن لا يتدبر الأسرار، لكن فيها يكمن الجانب الأشد قبحًا في قصة البهتان على مريم.

ثـامـار العـاهـرة:

حسب الجزءِ المشترك من النسبيْن في إنجيل متى وإنجيل لوقا، فإن الأب الخامس منحدرًا من إبراهيمَ هو يهوذا. نلاحظ أن مِن كَتَب هذا النسب كان حريصًا على إظهار الأنثى التي أنجب منها يهوذا ابنَه فارص: { ويهوذا أنجب فارص وزارح من ثامار}. قصة ثامارا نكرةٌ في التراث الإسلامي، لكنها معروفة جدًا في التراث المسيحي اليهودي ويشار إليها بـ: "ثامار العاهرة". فحسب تلاعبِ اليهود بسُمعة وسيرة أنبيائهم ورُسُلهم، فقد لفقوا قصةً مفادها أن يهوذا زنا بزوجة ابنه "ثامار العاهرة" وأنجب منها توأميْن، أحدهما هو "فارص" الذي ظهر ضمنَ أنساب المسيح-عليه السلام- (أنساب أبيه المزعوم يوسف النجار بتعبير دقيق). وقصتها بالتفصيل رُويت في: (سفر التكوين 38: 13-30)، أسردها باختصار كما يلي:

ثامار كانت زوجة ابن يهوذا الأول. لكن لأن هذا الولدَ كان شريرًا حسب وصف التوراة فقد حرمه الرب من الإنجاب، ثم أماته أخيرًا. فقرر أبوه يهوذا الملك أن يحبس زوجتَه ثامار حتى يكبر ابنُه الثاني ليتزوجها؛ لأنه كان حريصًا أن ينجب أحفادًا منها. فكَبر الابنُ الثاني لكنه كان شريرًا كأخيه فحَرَمه الرب من الإنجاب ثم أماته. فقرر الملك يهوذا أن يحبس ثامار حتى يكبر ابنُه الثالث واسمه " شِيلة". لكن لما كبر شِيلة نقض يهوذا عهدَه لثامار ورفض أن يزوجها له. وكانت ثامار حريصةً على أن تَظل في بيت يهوذا وتنجب مِن ذريته، فقامت ذاتَ مرةٍ بلعب دور "عاهرة" وأوقعتْ يهوذا في الفخ فزَنا بها وحملتْ سفاحًا توأميْن أحدهما هو "فَارَص" الذي أصبح جَدًا ليوسف النجار رجل مريم الذي نسبت أنسابه للمسيح عليه السلام. وسأنقل بعضَ تفاصيل القصة لاحقًا. ما يهمنا الآن هو أن فَارَص كان ابنَ زنا محارم حسب القصة.

ولا تنتهي الفاجعة هنا، لكن نفاجأ بأن التوراةَ تحكم على ابن الزنا بأنه مطرود من رحمة الله إلى حفيده العاشر:

{ لا يدخل ابن زنى ولا أحد من ذريته حتى الجيل العاشر في جماعة الرب..}. (سِفر التثنية: 23:2.)

وهذا يعني أن أبناء "فارص" ابن ثامار العاهرة، إلى الحفيد العاشر، مطرودان من رحمة الله. ولا تنتهي المأساة هنا، لأننا إذا حسبنا أحفادَ "فارص" إلى حفيده العاشر نفاجَأ بمفاجأة أكثر غرابة تخص داوُد عليه السلام.

داوُد و "بَـتْشَـبَعَ":

حسْبَ تسلسل الأنساب المزعومة ليوسف النجار في الإنجيلين نجد أن الحفيدَ رقم 10 بالضبط، منحدرٌ مِن ابن "زنا المحارم" المدعو "فارص" هو نبي الله داوُد عليه السلام، وهو بهذا الحُكم الجائر مطرود من رحمة الله، لأن جَدَّه العاشر كان ابنَ زنا من غير حول له ولا قوة. لكن المفاجأة الأخرى تكمن في أن داوُد-عليه السلام- الذي صوروه أنه عاشق النساء، كان قد اغتصب زوجة قائدِه العسكري "أوريا" و اسمُها "بَتْشَبَعَ"، فلما عَلِم أنها حملتْ منه، دبَّرَ لزوجها اغتيالاً في ميدان المعركة، وورث منه زوجتَه التي أنجبت له مِن الزنا نبيَّ اللهِ "سليمان". لاحِظْ للمرة الثانية أن موثِّق تلك الأنساب أيضًا سَمّى زوجة يوريا في نص الإنجيلين: { وداوُد أنجب سليمان مِن التي كانت زوجة لأوريا}، وكأنه يوهِم القارئ على دقة مصداقية القصة. فلو كان سليمانُ ابنَ زنا واغتصاب امرأة متزوجة، فهو أيضًا مطرود من رحمة الله إلى حفيده العاشر وفقا لسِفر التثنية أعلاه. وهُنا يبدأ العد التنازلي من جديد في عدد الأحفاد المطرودين من رحمة الله من ذرية سليمان ونحن نقترب من يوسف النجار الذي تزوج مريمَ ونُسِب إليه المسيح عليه السلام.

النفسُ السوية التي نشأت على حب وتوقير أنبياء الله ورسله لا تطيق مزيدًا من البحث في أسرار بقية النسب الذي ألصِق بمريم، وهذا القدْر يكفينا في بحثنا هذا.

خلاصةُ القصةِ: إنْ كانت شبهة إنجاب المسيح من غير أب صعبة الابتلاع على كل البشرية فإن الأنسابَ أعلاه لا تترك لمن يصدقها مجالاً للشك أن المسيحَ نفسَه كان ابنَ زنا وابنَ زناةٍ عبْرَ أجيال آبائه.

مِن هنا نعلم أن قصة البهتان على مريمَ عليها السلام كانت قصة كثيرة التعقيد، وقُصِد منها أن تنتهي مِن شرفها وكرامتها وكرامة المسيح عبْر الأجيال القادمة التي سترث القصة ولا تستطيع قبولَها أو رفضَها. فالأناجيل أعتُمِدت رسميًا من قِبَل الرومان بعد 300 سنة من رفع المسيح عليه السلام، ولا يدري أحد على وجه الدقة مَن الذي كَتَبها أصلاً. ولأن مِثْل هذه القصص حينما تدخل الكُتُب المقدسة تكتسب قدسية تجعل الناسَ يجدون لها مبرراتٍ غيرَ منطقية خوفًا من تكذيب الكتاب المقدس، فقد بقيت حبيسة الكتب المقدسة. وكلما تراكمت الأجيال التي تتوارثها صَعب تغيير القصة مهما كان تلفيقها بيِّنًا للأعمى؛ فخِداع الناس عبْر أجيالهم أسهلُ من إقناعهم أنهم قد تم خداعُهم عبْر كل تلك القرون التي خلت.

أتيتُ بهذه القصة لثلاثة أسباب:

الأول: هو تسليط الضوء على مقدرة اليهود في فبركة القصص لتشويه سُمعة الصالحين مِن بينهم حتى في زمنٍ سحيقٍ سبق زمنَ المسيح بقرون طويلة.

الثاني: هو مكْر اليهودِ في تلفيق قصص هدامة، لكن لا يظهر تأثيرُها إلا بعد قرون طويلة بعد موت المفبركين. إذن، فتفكيرُهم الاستراتيجي بعيد المدى في الهدم الداخلي لِما يرفضونه مِن دِين أو واقع، كان قديمًا قِدَم قصةِ المسيح الذي سبق الرسولَ -صلى الله عليه وسلم- بستة قرون. فكيف تطورت قُدراتُهم الخبيثة طوالَ تلك القرون؟

الثالث: إنْ كانت قصة البهتان على مريمَ أعلاه قد تم تلفيقُها في حق رسولٍ مِن بيت إسرائيل مِن ذرية مَلِكهم المعظم داؤد عليه السلام، فكيف سيكون حقدُهم على الرسول الخاتم مِن بيت إسماعيل؟؟؟؟؟

مِن هنا يمكننا أن نتدبر قصصَ وليس قصة عائشة -رضي الله عنها- الصدِّيقة بنت الصديق وعلى رأسها ما يُعرَف بحادثة الإفك التي أُلصِقت بها من باب "البهتان" بصورة شبيهة بالبهتان على مريم.

لا بد لنا هنا أن نعيد تدبُّرَ القرآن بحذر مع قراءتنا للتاريخ والتراث الإسلامي الذي ورثناه بلا وعي: القرآن يصِف قصة إفكٍ نَـكِـرة لم يُسَمِّ فيها أحدا. لكن: بعد أن ظهرت كُتُب الحديث، ومِن ثم قام عليها عِلم التفسير، نفاجَأ باسم عائشة يستحوذ على القصة استحواذًا تامًا وكأن اللهَ سبحانه وتعالى قد نَطَق باسمِها في سورة النور.

وقبْلَ أن أختم هذه البابَ الذي يحتاج القارئُ أن يستوعب خطورةَ محتواه في المقارنة بين قصة البهتان على مريمَ وعلى عائشة، مِن الضروري أن أقدِّم دليلاً على الأقل على الدقة في فبركة القصص اليهودية حتى تبدو حقيقة لا يمكن إنكارُها من ناحية، ثم دليل فضح الله للفبركة حينما يطول الزمن ويتدبر مَن يعقل تلك القصص.

دقة الفبركة:

هُنا أعود لأنقل بعضَ تفاصيل قصة ثامار العاهرة، وفيها مفاجأة لا تَسر الناظرين:

{ وبعد زمن طويل ماتت زوجة يهوذا ابنة يشوع. وإذ تعزى بها يهوذا بعدها انطلق إلى جزار غنمه في تِمْنَـة برفقة جيرة صاحبه العدلامي. فقيل لثامار: " هوذا يهوذا حموك قادم لِتِمْنَـة لجز غنمه". فنزعتْ عنها ثيابَ ترملها، **__وتبرقعت وتلفعت__** وجلست عند مدخل عينايم التي على طريق تمنة، لأنها عرفت أنّ شيلة قد كبر وأنها لن تُزَف إليه. فعندما رآها يهوذا ظنها زانية لأنــها كانت **مُحَجَّـبة**، فمال نحوها إلى جانب الطريق وقال: " دعيني أعاشرك". ولم يكن يدري أنها كَنَّـتُه. فقالت: ماذا تعطيني لكي تعاشرني؟" فقال: " أبعث إليك جَدْيَ معزي من القطيع". فقالت :" أتعطيني رهنا حتى تبعث به؟" فسألها :" أي رهن أعطيك؟" فأجابته: " خاتمك وعصابتك وعصاك". فأعطاها ما طلبتْ، وعاشرها فحملت منه. ثم قامت ومضت، **وخلعت برقعها** وارتدت ثيابَ ترملها. وعندما أرسل الجدي مع صاحبه الغدلامي ليسترد الرهنَ من يد المرأة لم يجدها. فسأل أهلَ المكان: " أين الزانية التي كانت تجلس على الطريق في عينايم؟" فقالوا: " لم تكن في هذا المكان زانية". فعاد إلى يهوذا وقال:" لم أجدها"؛ وكذلك قال أهل المكان: لم تكن ههنا زانية". فأجاب يهوذا: "فلتحتفظْ بما عندها، فلستُ أريد أن يسخر الناس مني. لقد بعثت بهذا الجدي أجرة لها لكنك لم تجدها". (سفر التكوين 38: 12- 23).

مِن الرواية أعلاه يمكننا ملاحظة الآتي:

أولاً: أن ثامارا اختارت مكانًا معلومًا تجلس فيه العاهرات في طريق يهوذا حتى تستدرجه. وأنها تبرقعت وتحجبت أي غطت كل جسدها بما فيه الوجه، لذلك لم يتعرفْ عليها حموها، إذ إن ما كان يهمه الجسد. والمعروف أن الحجاب: بمعنى الاستتار عن أعين الناس في مكانٍ محددٍ مع تغطية الوجه كان مظهرَ العاهرات في تراث اليهود القديم. وقد نجحوا في تصدير هذا اللباس لنا تحت مسمًّى الحجاب والنقاب والبرقة وغيرها من المسميات التي يَظن بعضهم أنها من الدين وأنها تعبير عن قمة العفة والشرف. فالكريمات الشريفات في تراث اليهود كنّ يُظهرن وجوهَهن ليُعرَف كل منهن أنها فلانة بنت فلان.

ثانيًا: أن الرواية اشتملت على تفاصيلَ دقيقةٍ بتحديد تفاصيلِ رحلةِ يهوذا ووجهتِه ومَن كان برفقته، ثم اسم المكان الذي جلستْ فيه ثامار، والحوار الذي دار بينه وبينها حتى يتوهم القارئ أنه على الأقل فإن بعض القصة حقيقة.

ويَمضي سِفر التكوين يقص ميلاد فارص جد يوسف النجار:

{ وبعد مُضي ثلاثة أشهر قيل ليهوذا: " ثـامار كنـَّتـُـك زنت، وحبلت مِن زناها". فقال يهوذا: " أخرجوها لتحرق". وعندما أُخرجتْ أرسلتْ إلى حَميِها قائلة :" أنا حُبلي مِن صاحب هذه الأشياء. تحقق لمن هذا الخاتم والعصابة والعصا؟" فأقر بها يهوذا وقال: " هي حقا أبرُّ مني، لأني لم أزوِّجها من ابني شِيلة". ولم يعاشرها فيما بعد. وعندما أزِفَ موعد ولادتها إذا في أحشائها توأمان. وفي أثناء ولادتها أخرج أحدُهما يدا فربطتِ القابلةُ حولها خيطا أحمرَ، وقالت:" هذا خَرَجَ أولا". غيْرَ أنه سَحَبَ يده فخَرج أخوه، فقالت: " أي اقتحامٍ اقتحمتَ لنفسك؟" لذلك دعي اسمه فَارَص (ومعناه اقتحام). وبعد ذلك خَرج أخوه ذو المعصم المطوق بالخيط الأحمر فسمي زَارَح (ومعناه أحمر أو إشراق). (سِفر التكوين: 38 :24-30).

هنا نلاحِظ ملاحظتيْن:

أولاً: أنَّ حُكم الموتِ حرقًا كان مصير الزانية، لكن لأن مَن زنا بها كان كريمًا في قومه فقد أُسقِطت العقوبة فورًا.

ثانيًا: القصة أسهبتْ في تفاصيلَ مملةٍ في وصف عملية الولادة وكأن مَن وثقها كان يشاهد شريط فيديو مما يزيد مِن وهْم القارئ أنه لا بد مِن قدْرٍ مِن المصداقية فيها.

هذه الملاحظات تهمنا جدا لأنها تَعكس عقلية المفبركين مئات السنين قبْلَ زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- . ولا بد أن مقدرتَهم على اختلاق القصص وإيهام الناس بمصداقيتها قد تطورت عبْرَ العصور كما سنرى في الباب القادم.

لا بد مِن التنويه هنا أن في كِتابي الإنجليزي الذي اقتبستُ منه هذه القصة، وجدت يوسفا ثالثا يشتبه في أنه رَجلُ مريمَ المزعوم، لذلك كان اسم الكتاب باللغة الانجليزية: ثالوث يوسف: مـريم، الشرف والثلاثة عرسان.

(Joseph Triangle: Mary, the Pride and the three Grooms)

وأذكر طرفة هُنا: عندما كنتُ بصدد كتابة هذا الكتاب كنتُ ألقي محاضراتٍ في عِلم النفس لطلاب الصف الرابع في إحدى جامعات لندن، وكان الموضوع هو تأثير المصطلحات على ذهن ونفس المستمِع وكيف يتلاعب الإعلام والساسة ورجال الدين بها. وعرضتُ عليهم عنوانَ الكتاب كما هو أعلاه طالبا ملاحظاتِهم. فسارَعَ الغالبية لتصويبي بين لفظ (Pride) الذي يعني "الشرف" ولفظ (Bride) الذي يعني "عروسة"؛ إذ إنهم ظنوا أني قصدتُ مريمَ العروسة والثلاثة عرسان؛ لكن القلة انتبهوا لخطورة تغيير المصطلحات المتشابهة؛ لأن العنوانَ يعني أن زواجَ مريمَ يسيء إلى شرفها؛ فقط باستبدال اللفظيْن الشبيهين في اللغة الإنجليزية.

فضح الفبركة:

هنا أنقل قصة أخرى مِن استهزاء اليهود برُسُل الله وتلفيقهم قصصًا يصعب تصديقُها في حق أي بَشر ناهيك أن يكون من المرسَلين. فقد رَوى سِفر التكوين قصة لوطٍ مع قومه بتفصيل دقيق، وبعد خروج لوط وابنتيْه من القرية لجأوا إلى كهف. فيمضي سِفر التكوين يروي ما حدث تحت عنوان: "خطيئة ابنتَي لوط" ما يلي:

{وغادر لوط وابنتاه بعد ذلك صوغر، واستقروا في الجبل لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فلجأ هو وابنتاه إلى كهف هناك. فقالت الابنة البكر لأختها الصغيرة: " إن أبانا قد شاخ وليس في الأرض حولنا رجل يتزوجنا كعادة كل الناس. فتعالي نسقيه خمرًا ونضطجع معه فلا تنقطع ذرية أبينا. فسقتا في تلك الليلة أباهما خمرًا، وأقبلت الابنة الكبرى وضاجعت أباها فلم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وفي اليوم الثاني قالت الابنة البكر لأختها الصغيرة: " إني قد اضطجعت مع أبي ليلة أمس، فتعالي نسقيه الليلة أيضا خمرًا ثم ادخلي واضطجعي معه فنُحيي مِن أبينا نسلا". فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضا، وأقبلت الابنة الصغيرة وضاجعت أباها. فلم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وهكذا حملت الابنتان كلتاهما مِن أبيهما. فولدت الكبرى ابنا دعته مُواب (ومعناه من الأب) وهو أبو المؤابيين إلى اليوم، أما الصغرى فولدت ابنًا ودعته عمِّي (ومعناه ابن قومي) وهو أبو بني عمَّون إلى اليوم. } (سِفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر: 30-38).

هذا نقلٌ حرفي من الكتاب المقدس ولا شأن لي بتعديل اللغة. ما يهمنا في هذه القصة ليس الجانبَ الأخلاقي منها، ولكن الجانب البيولوجي الطبيعي. نلاحظ المتناقضاتِ التالية في القصة:

أولاً: ابنتا لوط كانتا خارج القرية التي دمرها الله، وهذا لا يعني أن جميع البشر قد ماتوا، فليس هناك منطق يجعلهن يلجأن لاغتصاب أبيهما الشيخ المخمور، إلا إذا كان الراوي يفهم أنه لم يعد هناك ذكور في كل الأرض غير لوط.

ثانيًا: الشيخ العجوز غالبًا ما يكون عاجزًا جنسيًا أو أقربَ للعجز ويحتاج لإغراء كبير وإثارة حتى يستطيع الانتصابَ ومن ثم الإيلاج والقذف ليتم الحمل.

ثالثًا: الخمر معروف أنها مخدر ويتسبب في ارتخاء الجسم وليس انتصابه، ويلعب عائقًا في الممارسة الجنسية لدى الشباب ناهيك عن الشيوخ، فكيف بشيخ شرب حتى الثمالة لدرجة أنه لم يعلم بمضاجعة ابنته له، أن يكون قد انتصب وقذف لتحمل منه ابنته؟

رابعًا: لو افترضنا مِن باب الجدال أن الليلة الأولى نجحت فيها البنتُ البِكر بمعجزةٍ فيما أرادت، فإن تكرارَ العمليةِ في اليوم الثاني يكون أكثرَ استحالة، لكن حسْب القصة تم الاغتصاب بكل سهولة والشيخُ في شبه غيبوبة.

خامسًا: بافتراض أن القصة حقيقة، ماذا كان رأيُ لوطٍ-عليه السلام- بعد أن حملت ابنتاه فجأة وليس في الأرض ذَكَرٌ غيره؟ هذا تُركَ لخيالنا الخصب.

سادسًا: بافتراض أنه لم يكن هناك بَشر بعد دمار كل الأرض غير لوط وابنتيْه، لمْ يخبرنا مؤلفُ القصة كيف واصلَ الولديْن النسلَ لأبيهما وليس في الأرض نساءٌ غير أمهاتِهم؟ هذا أيضا تُركَ لخيالنا الأكثر خصوبة.

لا بد أن نتذكر أن القصص أعلاه ليست مِن تفسير شاطح لنصوص الكتاب المقدس وإنما نقلٌ حرفيٌّ لِما يؤمن به اليهود والنصارى أنه كلام الله. هذه الحقيقة الصادمة لمن لم يسمع بهذه القصص وغيرها في الكتاب المقدس تثير سؤالاً طبيعيًا هو: كيف يصدق اليهودُ والنصارى أن هذا تراثٌ ديني وكلام الله؟ الإجابة المريرة هي: هُم يصدقون تراثَهم المقدسَ ويجِدون له مبرراتٍ كثيرةً كما نصدق نحن الكثيرَ من تراثنا الذي لا يقبله العقل بحجة أنه ما كان عليه آباؤنا، ونوجِد له مبرراتٍ شبيهة. الحجة المشتركة بيننا وبينهم أن الأساطيرَ حينما تصبح مقدسة وتدخل كُتُبَ الدين يفضل "المؤمن" بمصداقية المصدر ألا يشكك نفسَه بحجة "ما بال القرون الأولى" التي أجازت لقصة؟

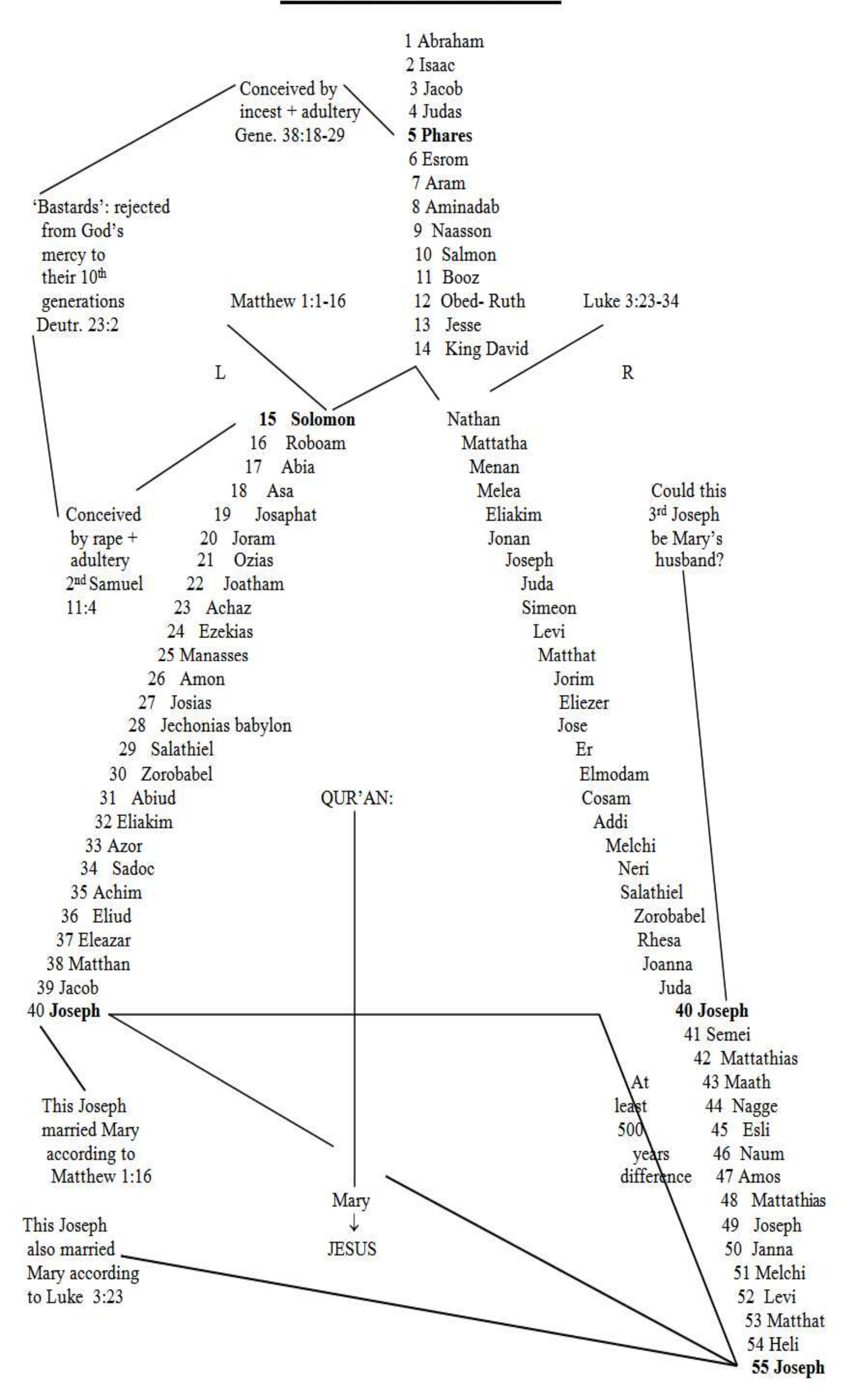
وما بال القرون الأولى:

لا بد أن نستحضر حقيقةً قرآنية غامضة وهي أن بني إسرائيلَ قد فضَّلهم الله على العالمين بنص القرآن رغم كفرهم وعصيانهم. والتفضيل لا يشترط أن يكون خيرية في الدين أو قُربي من الله، فقد فضَّل بني آدم كلهم على كثير ممن خلق، لكن منهم مؤمن وكثير منهم فاسقون. وبنو إسرائيلَ يؤمنون أنهم شعب الله المختار، وأن كل الكون خُلِق لهم. لذلك فهم يخططون لأجيالهم البعيدة حتى في الظلْم. ولعل واقعَ اليوم أكبرُ شاهدٍ على هذه الخاصية، إذ إنهم يخططون لستين عامًا قادمة بينما الأعراب يقومون بثورةٍ عشوائيةٍ اليوم ويندمون عليها غدًا لأنها لم تثمِر. مِن هذا المنطلق يجب أن نفهم أن هذه الأقاويلَ حينما قيلت لم تكن للاستهلاك اليومي وإنما كان مختلِقُها على عِلمٍ تامٍ أنها لن تثمر إلا بعد أن تصبح تاريخًا يصعُب إنكارُه من كثرة التواتر. ولقد رأينا كيف صنعوا أسسَ الدينِ المسيحي التي لم تؤتِ أُكُلَها إلا بعد 314 سنة من رفع المسيح عليه السلام، فأصبح إنكارُها صعبًا جدًا إلى أن أدى استنكار القلوبِ لها برفض الدين كله في أوروبا وانتشرت العلمانية المادية والإلحاد.

لقد شربنا من ذات الكأس الذي شربوا منه، ودخلوا علينا المدخل نفسَه سواء مِن الذين اعتنقوا الإسلام منهم فأدخلوا علينا أساطيرَهم في المتشابه بين القرآن والكتاب المقدس بحُسن نية، أو عن طريق المنافقين الذين خططوا لهدم الإسلام وتحريف القرآن من الخارج بعد أن عجزوا عن تحريف نصه وحرفه. وها نحن اليوم نقترب من رفض الإسلام كما رفضت المجتمعاتُ الغربية الكتابَ المقدس من قبل. الفارق الوحيد هو أن اللهَ تكفَّل

وحدَه بحفظ كتابه، وأمامنا بابٌ واسعٌ لتصويب ما وقع فيه أسلافُنا بحُسن نيةٍ أو بسوء نية. فقد ورثنا قصصًا ملفقة عن عائشة وبيتِ النبي يندى لها الجبينُ خجلاً، وما زال مشايخُنا يبذلون كلَّ الجهدِ في الحفاظ على ما وجدنا عليه آباءَنا بحجة أنه نِتاجُ القرونِ الأولى.

JOSEPH'S TRIANGLE



الباب التاسع

وَقَوْلِهِمْ عَلَى عَائِشَةَ بُهْتَانًا عَظِيمًا

القارئ الكريم:

هذا البابُ سيصيب كثيرين بالرعب، وربما يجعل بعضَ الوِلدانِ شِيبًا. ولقد ترددتُ كثيرًا في كتابته لكن أخيرًا استقرّ رأيي على أنَّ الحقَّ لا بد أن يستبينَ مهما كان مريرًا. فدِينُ اللهِ له ربٌّ يحميه، وما كَلَّفنا اللهُ بالتدليس والكذب أو التستر على الأكاذيب "خشية" أن يصاب البعض بزلزالٍ في عقيدتهم. فالعقيدة التي تقوم على باطلٍ مصيرُها الزوال طال الزمن أم قصُر.

هذا الباب يثبت أن ما تناقله المسلمون عبْرَ قرونٍ طويلة في قصة الإفك في "سورة النور" لا علاقة له بعائشة الصِّدِّيقةِ بنتِ الصدِّيق -رضي الله عنهما- لا مِن قريبٍ ولا مِن بعيد، و إنما الجمْعُ بين عائشة وقصةِ الإفك ليس إلا دسيسة خدعوا فيها وأصبحوا جميعًا يخوضون في عِرض رسول الله وآل بيته ببهتانٍ أكبرَ مِن الإفك في سورة النور نفسه، وهُم يظنون أنهم يُحسِنون صُنعًا، رغم أن القصة كلها تم تلفيقها لإطفاء النور في سورة النور عن المسلمين.

لقد رأينا في باب " في الطريق إلى دمشق" أن صناعة الأديان تتم على مراحلَ متباعدةٍ، تبدأ أولاً بتلفيق قصصٍ وهميةٍ في إطارٍ ضيق. ثم ما تلبث تلك القصص أن تصبح جزءًا من التراث المتداوَل بين الناس. ثم ما يلبث أن يتبناها أهلُ العِلمِ من الكهنة وصنّاع الأساطير فيُضْفون عليها مصداقية، ثم قدسية، ثم تصبح أخيرًا مرجعًا أساسيًا لتفسير الكتاب المقدس. وبعدها يَترك الناسُ الكتابَ ويدينون بالأسطورة التي أصبحت هي دينَهم.

ثم رأينا في باب " الحديث" أن رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- كان قد نَهى أن يُكتَب عنه شيء غير القرآن؛ حتى لا يَشرب المسلمون مِن الكأس ذاتِها التي شرب منها بنو إسرائيل من قبل. وقد انتهى أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلي عن فتح بابٍ للفتنة اسمه "قال رسول الله". فكان مصدر التشريع الوحيد في تلك الحِقبة النيرة من تاريخ الإسلام هو القرآن فقط. لكن بعد وقوع الفتن انتشر الكذب على رسول الله باسم "الحديث" ليبعد المسلمين عن القرآن ويثبت أركانَ السلطان الذي قام على أسس تخالف القرآن. وكان أن انبرى لتلك الظاهرة رجالٌ بذلوا كل ما في وسعهم لضبط وتوثيق التاريخ الإسلامي. وهكذا ظهر ما عُرِف لاحقًا بعلم الحديث. لكن لأن الحرب على الإسلام و القرآن ستستمر إلى آخر الزمان فقد كان علم الحديث هو المنزلق الذي فتح الثغرةَ في التراث الإسلامي لينفذ من خلالها المنافقون واليهود بأساطيرهم التي أصبحت لاحقًا جزءًا أساسيًا من "الحديث"، الذي رُفِع لمرتبة مصدر التشريع الثاني في الإسلام. ولمَّا كان القرآنُ "طلاسمَ" لا يمكن فهمُها، مِن سوء تفسير "وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ"، ولمّا كان العقلُ "مُحرَّما" بعد أن تم الخلط بينه وبين الهوى، فقد أصبح ما يُعرَف بالحديث عمليًا هو المصدر الأول للتشريع لغالبية المسلمين اليوم.

ثم رأينا في باب "علوم القرآن" أن التفاسيرَ وعلومَ القرآن الأخرى نشأت أساسًا بناءً على الموروثات الثقافية المدونة في الحديث، فأصبحت التفاسيرُ هي القرآن الذي ندين به ونتداوله ونظن أنه محفوظٌ من التحريف بل ونستميتُ في الدفاع عنه. وهكذا أصبحت "سورة النور" هي السورة التي نالها نصيبُ الأسدِ من التحريف الخارجي لأسبابٍ ستكون ثقيلة على النفس حينما نعيد تدبرها بعيدًا عن كل المستحدثات في التراث الإسلامي بعد عصر الخلفاء الراشدين.

حتى نشحذ العقولَ ونتحرر تمامًا من القيود والأغلال التي فُرضتْ علينا، دعونا نلقي نظرة سريعة على سورة النور لنستنبط منها "وحدة الموضوع"، وفكرةً عن "الزمان" و"المكان" الذي نزلت فيه حتى نستطيع إعمالَ عقولنا بين محورَي زمانٍ ومكان سليمين.

تأويل سورة النور:

لا أُخفي أن دافعي الأساسي في كتابة كل هذا الكتاب كان هذا الباب، وليس حديثَ "المرأة ناقصة عقل ودين"؛ لأن مَن يقتنع بما في هذا الباب لن يحتاج لحوارٍ طويلٍ حول عدم مصداقية ذلك الحديث موضوع الكتاب. ومَن لا يقتنع على الأقل ببعض المصداقية في هذا الباب فهو أيضًا لا يحتاج لقراءة رأينا في الحديث لأنه سيكون مثل الذين قالوا لموسى:

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55)} البقرة.

لقد رأينا في باب "علوم القرآن" أنّ لفظ "سورة" كان من ابتكارات القرآن، وهو يعني وحدة من الكلام أو الخطاب لها عنوان وبداية ونهاية. ومهما طالت السورة كـ سورة البقرة وآل عمران مثلا فهناك وحدة موضوع بنائية بين موضوعاتها أو ألفاظها أو أحرفها تجعلها سورةً قائمة بذاتها. ولذلك تختلف الألفاظ في الإشارة للقصة نفسِها التي يتناولها القرآن من سورة إلى أخرى لأن اختيار الألفاظ جزءٌ من البناء الخاص بالسورة حتى وإنْ كان الموضوع واردًا في سورتيْن مختلفتين.

ما سأبحث فيه هنا هو محاولة التماس أو تحسس بعض المؤشرات في سورة النور تحدد لنا المحورَ الزماني والمكاني لنزول السورة. لأن فهْمَ مكانِ وزمان نزولها سيعيننا على فهْم الحكمة من آياتها البينات وربطِها بالواقع حين نزولها.

ابتدأت سورة النور بآيةٍ فريدة في القرآن لم تبدأ أيُّ سورةٍ بمثلها:

{سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1)}

سأتركُ القارئَ الآن ليتدبر في هذه الصياغة من غير مناقشة الآية؛ لأني أحتاج لأن يتفتح العقلُ معي وسأعود إليها لاحقًا بعد مناقشة ثلاث آياتٍ أخرى تَفي بالغرض وحينها سيكون مدلول هذه الآية الأولى أكثرَ وضوحًا.

لنتعرف على وحدة الموضوع أو الخلفية الأرضية التي نزلت فيها سورة النور نحتاج لبعض الآيات البينات جدًا نستعملها كـ "الأوتاد" التي يضعها البنَّاء أو المعماري قبل أن يَشرع في البناء فتحدد له المساحة التي يقوم عليه البناء، هذه الأوتاد ستكون أولى معالمِ ظهور الخريطة. وهنا أختارُ ثلاثَ آياتٍ بمثابة أوتاد لتحديد تلك المعالم، وسأترك الوتدَ الرابع مفاجأةً للقارئ في نهاية الباب:

الوتد الأول: الإكراه على البغاء:

{وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ <u>وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا</u> عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33)}

المعلومُ أن الخطابَ هنا موجّهٌ للمؤمنين من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- . والآيةُ تناقِش مشكلة عقباتِ الزواج التي واجهت المجتمعَ، لكن أهم معالمها هي النهي عن إكراه الفتيات على الدعارة من أجل المال وهو عرض الحياة الدنيا. وتُقِرُّ أن الإكراه قد وقع من بعضهم، لأن الله لا ينهى عمّا هو غير موجود، ولأن الآية صرَّحت بنهاية لينة رغم غرابة وفظاعة الجُرم. إذ إن الغفرانَ هنا لمن وقع منهم الإكراه ومَن تم عليهن الإكراه.

السؤال هو: متى يُكره المرءُ السوي فتياتِه على الدعارة مقابلَ المال؟ ولفظ "فتياتكم" لا يعني إماءَكم ولا مستعبداتكم، إنما الفتى هو الشاب، والفتاة هي الشابة في عنفوان الشباب.

{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13)} الكهف.

{سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60)} الأنبياء.

فلفظ "فتياتكم" يصف عنفوانَ الشباب وليس طبقة اجتماعية معيّنة، وعليه فإن " فَتَيَاتِكُمْ" يحتمل أن تكون بناتكم أو أخواتكم. هناك عواملُ نادرةٌ تدفع الأسرةَ لإرغام الفتيات على الدعارة في أي مجتمع إنساني ناهيك عن المجتمع النبوي:

العامل الأول: طبيعي أنه الفَقر المدقِع. في هذه الظروف القاهرة يمكن أن تَسقط كلُّ القِيَم الإنسانية ويصبح المرءُ في ضيقٍ ربما يبرر له الانتحارَ أو إرغامَ الفتيات على الدعارة إنْ كان هناك عَرضٌ وطلب.

لكن الفقر وحده لا يكفي لأنْ يُرغِم الناسُ فتياتِهم على البغاء، لأن الدعارةَ سلوكٌ اجتماعيٌّ منبوذٌ في كل المجتمعات على امتداد التاريخ البشري. الفقر فقط عامل أساسي للميل في اتجاه البغاء، لكن لا بد من عواملَ أخرى بجانب الفقر حتى يستطيع المرءُ أن يرتكب هذا الظلمَ على نفسه وغيره.

العامل الثاني: حالة "هجرة خارجية" أو انتقال من مجتمع إلى مجتمع غريب حيث تسقط الأعرافُ والقيود الاجتماعية، ويشعر المرء أن أحدًا لا يعرفه أو يراقبه من البَشر. هذا العامل الخفي قلَّ ما ينتبه له الإنسان. فمعظم الأعرافِ والمبادئ والقيم التي نؤمن بها وندافع عنها ونموت من أجلها غالبًا ما ترتبط ببيئة معينة، وتكتسب قدسيتَها منها وفيها. فإذا تغيرت البيئةُ غالبًا ما يحدث تغييرٌ في تعامل الإنسان مع الكثير من التقاليد والأعراف التي اعتاد عليها. وما خَلْعُ الكثيراتِ ممن يُفرَض عليهن النقابُ في بلادهن ولبسهن لباسَ أهلِ البلد الذي يزرنه في العطلات أو الدراسة إلا أبلغ دليلٍ على هذه الفطرة الإنسانية. التغييرُ هنا ليس نتيجة نفاقٍ كما يتصور بعضهم، ولكن لأن الإنسانَ مخلوقٌ اجتماعي، ولا يستطيع الانفلاتَ عن العُرف المحيط به حتى وإنْ لم يكن يشكل جزءًا من عقيدته أو قناعته الشخصية. أيضًا غالبًا ما يشعر بضغطٍ للتأقلم السريع مع المجتمع الجديد الذي هاجر إليه. فالمرءُ السوي لا يحب أن يكون نشازًا يشار إليه بالبَنان. إذن، فتغييرُ السلوكِ مع تغيير البيئة أمرٌ فِطري وليس بالضرورة انسلاخًا عن مبادئَ. وحتى تتضح هذه النقطة أضربُ مثالاً بتغيير سلوك الرجال أنفسِهم مع اللباس. فغالبية الأعراب الذين يرتدون - بل ويفتخرون - بالجلباب والعقال في بلادهم الصحراوية الحارة، سرعان ما يلبسون البنطلونَ والجاكيت في بلدان أوربا الباردة، وإنْ كانوا مِن قبلُ يظنون أن هذه هي ملابس النصارى والكُفّار حسْبَ التفكير في بيئتهم. البيئةُ هي التي تَفرض هذه التغييرَ وليس الدين. لكن هذا لا يعني أن كل فقيرٍ يهاجر من بلده إلى بلد غريب سيستسيغ الانفلاتَ من كل القيم والأعراف حتى يصل مرحلة إرغام فتياته على البغاء.

العامل الثالث: حالة "هجرة داخلية" أو سقوط داخلي لكل المنظومة التي تستمد منها النفسُ الضوابطَ التي تَقبلها من "حلال وحرام"، أو "ممكن وغير ممكن". وهذا لا يحدث إلا في حالة انتقالِ الفردِ من عقيدة إلى عقيدة جديدة. فهو إنْ تَرك كل الدين القديم بكل قيوده وحدوده، ثم انتقل لدين جديد لا يعلم عنه الكثير فغالبًا ما يمر بمرحلة فراغ فكري وتِيه.

اجتماعُ هذه العواملِ الثلاثة يمكن أن يجعل المرءَ عرضة لأن يُكره الفتياتِ على البغاء. وهذه الظاهرة نراها إلى اليوم بعد الحروب التي تدمر نسيجَ المجتمع أو بعد هروب أعدادٍ كبيرة لاجئين في بلد جديد، حيث يزول مفهوم الانتماء وثِقَل القيود الخارجية والداخلية التي تردع النفسَ عن الإقدام على ما لا تُقدِم عليه عادةً في بيئتها الطبيعية.

فإذا تدبرنا هذه العواملَ ثم بحثنا في سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- لا بد أن نجد مرحلة محددةً من مراحل تطور المجتمع النبوي اجتمعت فيها على بعض المؤمنين كلُّ هذه العوامل من "فقر مدقِع" و "هجرة خارجية" و "هجرة داخلية".

الوتد الثاني: السكن العشوائي:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29)}

هنا ترسم الآياتُ حالة من الهرج والمرج في التعامل مع حرمات البيوت. وهي أيضًا تخبرنا عن مجموعة من الذين آمنوا كانوا في حالة تشرد وتيه، ويدخلون بيوتًا غير بيوتهم. والآيات تنهاهم عن دخول البيوت المسكونة وأهلُها غير متواجدين فيها إلا بإذنٍ منهم، بينما سمحت لهم أن يدخلوا بيوتا غيرَ مسكونة فيها متاع لهم. فأي واقع تَصِف الآيات؟

البيوت غير المسكونة تكون في حالتيْن:

إما أن أصحابَها قد هجروها، أو أنها بُنيتْ لمن يحتاج لها كبيوتٍ طارئة كمعسكرات اللاجئين مثلاً. لاحِظْ أن الآياتِ قد فرَّقتْ بين "غير المسكونة" وبين " التي ليس فيها أحد"، لأن هذه يمكن أن تكون مسكونة لكن أهلها خرجوا للعمل. وهنا ترك الخيار لأصحابها إمّا أن يضيّفوهم بعضَ الوقت حينما يكون البيت خاليًا، وإمّا أن يقولوا لهم ارجعوا. أيضًا وَصْفُ "غير المسكونة وفيها متاع لهم" توحي بوجود بعض البيوت استُخدِمت لحفظ المتاع ربما مؤقتًا وربما لمجموعات لكنها ليست للسكن الدائم.

هذه الآيات تصِف فترةً كان فيها عدد كبير من المؤمنين يبحثون عن مأوى وفي حالة اضطراب في التعاطي مع مجتمع غريب عليهم، وأن هناك فئات تسعى لتوفير مساكنَ خاليةٍ لأمثال هؤلاء.

فأي فترةٍ من فترات المجتمع النبوي تنطبق عليها هذه الحالة من الاضطراب السكاني والتشرد؟

لا بد من ملاحظة أن آية البغاء تصف حالَ الفقراء، وآيات السكن العشوائي والتشرد هنا أيضا تصف حال الفقراء، لكن نتخذ آية ثالثة تصف حال الطبقة الوسطى أو الثرية في سورة النور نفسها:

الوتد الثالث: العورات الثلاث:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58)}

في المعجم: عور تدل على معنييْن أحدهما يدل على تداول الشيء، والآخر على مرض بالعين، ومنها قياسات كثيرة. ومن تلك القياسات أن العورةَ شيءٌ ينبغي مراقبتُه لخلوِّه. وهنا لا بد من التنبيه أن لفظ "عورة" لا علاقة له بالمرأة. وصْفُ المرأةِ بالعورة مِن نتاج الانحراف الفكري والأخلاقي بعد تحريف الإسلام، لكن في مجتمع النبي لفظ عورة كان يعني الخصوصية ويفهم من السياق. وفي هذه الآية فاللفظ يفيد خصوصيةً زمانيةً لا يحق لأحد تعكيرُ الصفوِ والخلوة فيها.

هنا نلاحظ أن الآية تشرِّع لأسرة تسكن في منزل وفيه "أغراب" و فيه أيضًا " أطفال". لكن نلاحظ أن معالم التشريع بدائيةٌ جدًا وبديهيةٌ. هذا يدل على أن الآياتِ تشرِّع لطائفة من المجتمع مقتدرةٍ من ناحيةٍ ماليةٍ، ومستقرةٍ من حيث المسكن، لكن لديهم فراغٌ فكريٌّ يحتاج لتنظيم في أبسط أبجديات حياتهم، وهو تعامل الأغراب. وأيضًا الأطفال مع خصوصيات الوالديْن في البيت. بمعنى أن الآية تخاطب أُسرةً مقتدرة مستقرة لكنها تعاني أيضا من حالة "هجرة داخلية".

فإذا حاولنا الجمْعَ بين محتوى الآيات الثلاث في مرحلةٍ واحدةٍ من مراحل النبوة نجد أن النتيجة هي بؤرةٌ ضيقةٌ جدًا من حيث الزمان والمكان. فالمكان بالطبع هو المدينة المنورة بعد الهجرة. أمّا الزمان فهو إمّا الأسابيع الأولى

أو بالأكثر الشهور الأولى بعد الهجرة. وهي الفترة التي اجتمعت فيها "هجرة داخلية" شملت المهاجرين والأنصار معًا و "هجرة خارجية" إضافية عانى منها المهاجرون دون الأنصار. لذلك نستنبط أن كل طبقات المجتمع قد تأثرت باضطرابٍ في التنظيم الاجتماعي سواءٌ أمَن كان له بيتٌ يقيم فيه وقد استضاف فيه أغرابًا، أو مَن كان يتحرك مِن مسكن إلى آخر يبحث عن مأوى يؤويه. في هذا الظرف طبيعي أن يزداد الفقراء فقرًا، سواءٌ أكانوا مهاجرين أم أنصارًا؛ لأن المجتمعَ يعاني من حالة فراغ فكري من ناحية، ويعاني من انفجار سكاني من ناحية أخرى. هنا يمكننا أن نستوعب أن بعض فقراء المؤمنين قد أكرَهوا فتياتِهم على البغاء، وتعدَّى بعضُهم على حرمات بيوتٍ مسكونة وغير مسكونة، مِن غير سوء نية، ولكن نتاج ظروف اجتماعية معقدة في غياب تشريع واضح ينير لهم الطريق. في ذلك الظلام البهيم نزلت سورة النور لتنير لهم الطريقَ في أبسط أبجديات الحياة.

وقبْلَ أن أواصل أرجو مِن القُرَّاء الكِرام أن يتوقفوا هنا ويقرأوا سورة النور كاملة وبكل هدوءٍ وتدبرٍ لعلهم يكتشفون الوتدَ الرابع الذي أعنيه.

مِن هنا يمكننا أن نفهم أن سورة النور نزلت في ظرف كان المجتمع المسلِم في أولى خطوات البناء على الإطلاق. وأي بناءٍ مهمَا كان عظيمًا فإنه يقوم على الأساس. فإنْ كان المعماري يود بناءَ ناطحةِ سحاب لا بد أن تكون لديه فكرةٌ دقيقةٌ عن عدد طوابقها ووزنها والصرف الصحي وأسلاك الكهرباء والغاز وأنابيب الماء وغيرها من التعقيدات التي ستأتي بها الطوابق العليا، قبل أن يبدأ في وضع حجر الأساس لذلك البناء. وإنَّ آخِرَ ما يتم في البناء هو الديكور والزينة الخارجية بعد أن يكتمل البناء. سورةُ النور هُنا ترسم مرحلة الأساس البدائية الأولية جدًا للمجتمع النبوي وبالتالي فهي أول نقطة بنائية في كل المجتمع المسلم إلى يوم القيامة، لذلك لن يستوعب محتواها إلا مَن وضعها في هذا الإطار الزماني والمكاني المحدد.

بطبيعة الحال لأن السورة تبني مجتمعًا وليس عمارةً، لذلك فهي تضع اللبناتِ الأساسية جدًا لبناء ذلك المجتمع وهو في حضيض التفكك وما دون القاع. وعليه فإن كل مَن يريد استنساخَ مجتمع النبوة الأول يحتاج لاستيعاب خطورة وحساسية اللبنات الأساسية التي أولاها المولى عز وجل كل الاهتمام لبناء ذلك المجتمع النوراني الذي غيَّرَ مسارَ تاريخ الإنسانية. فهؤلاء القوم لم يكونوا ملائكة تمشي على الأرض كما نتوهم، ولم يكونوا في أرقى سُلَّم الأخلاق والقيم والفهْم. بل كانوا مشرَّدين وكان بعضهم يقتات على إكراه الفتيات على البغاء. والبغاءُ بطبيعة الحال يعني أن هناك فقراء يبيعون الأجسادَ، وأن هناك أثرياء يشترونها. في ذلك الظلام البهيم من تاريخ المجتمع النبوي نزلت "سورة النور" من أحسن الحديث تحمل بين مثانيها الوصفة السحرية لخلق أرقى مجتمع مِن أدنى حالة إنسانية. والأمر ليس فيه لا معجزات ولا عصا سحرية وإنما فقط ترتيب الأوليات وتصحيح المفاهيم.

لو رجعنا لكُتُب التفسير لوجدنا أن بعض الآراء ذهبت إلى أن سورةَ النور نزلت في السنة السادسة أو السابعة للهجرة. والسبب ليس وحيًا أوحي إليهم به ولا عِلمًا عقلوه وإنما سُمًّا زعافًا تشرَّبوه. فغالبُ الرواياتِ قد بَنَتْ تاريخَ نزولِ السورة على قصة الإفك. ولمَّا كانت قصةُ الإفكِ قد نُسِجتْ حول ما يُعرَف بغزوة بني المصطلق في السنة السادسة بعد الهجرة، التي فُقِدت فيها عائشةُ حَسَبَ الخرافة، فقد تَقرر أن سورة النور نزلت بعدها. لكن الحقيقة هي أن قصة الإفك أصلاً لا علاقة لها بعائشة ولا بأيِّ غزوة، وبذلك تَسقط تلك النظرية الموروثة عن تاريخ نزول سورة النور.

مِن الملاحظات المنطقية أعلاه، فإنّ السورة لا بد وقد نزلت في بداية عصر المدينة المنورة. لأن في السنة السادسة أو السابعة بعد الهجرة كان الإسلام قد انتشر في قطاع واسع من ربوع الجزيرة العربية، وأصبحت المدينة أهمَّ مدينةٍ فيها، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- على وشك فتح مكة. إذن، فتلك السنون المتأخرة لا تتفق مع محتوى السورة من وجود مَن يُكره فتياته على البغاء ومَن يَدخل بيوتًا عشوائية ومَن يحتاج لتعليم في أبسط قواعدِ آداب المنزل.

إذا قبلنا هذا التحليلَ على الأقل مِن باب التدبر، فإننا نفاجأ بأن فاتحة سورة النور، التي أجَّلتُ التدبرَ فيها سابقًا، في الحقيقة تؤكد ذلك، وربما كانت أولَ سورةٍ نزلت في المدينة المنورة على الإطلاق. فصيغة الآية الأولى:

{سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1)}

تحمل روحَ البيان رقم (1) في الانقلابات العسكرية أو الثورات السياسية والاجتماعية. إنها تعلن حالة الطوارئ، تعطيل الدستور وفرض الأحكام العرفية. إنها مدخلٌ صارمٌ لفرض نظامٍ جديدٍ في حالة من الفراغ الفكري والثقافي والاضطراب الاجتماعي وانهيار البنية التحتية للمجتمع بكل مكوناتها. لا بد من ملاحظة أن السورة فيها آياتٌ بيّنات لا تحتاج لحديث البَشر لتبيانها. وما قام به مَن وضعوا الحديثَ كذِبًا على رسول الله وأصحابه هو طمسٌ متعمدٌ لِما فيها من بينَّات طوال القرون من بعد ما بينها الله تعالى.

فإذا قبلنا هذا التحليلَ الذي أظنه معقولاً فيمكننا أن نفهم لماذا سُمِّيتْ سورة "النور". فهي السورة البنائية رقم واحد في القرآن التي بها يمكن لأيِّ قومٍ في أي زمن من الأزمان أن يعيدوا ويستنسخوا مجتمعَ النبوةِ الأول الذي نَقَل الناسَ من الظلمات إلى النور. فالظلام كان حالكًا جدًا، والنور الذي حل كان نورَ ربِّهم الذي أشرقتْ بها ظلمات الكون.

ولأن القرآن ليس قديمًا، ولأنه لا توجد أسبابُ نزولٍ للقرآن وإنما مناسبات نزول لا تحتكر محتوى الآيات في سياقٍ تاريخيٍّ محددٍ، وإنما نستلهم من تاريخ نزولها مؤشراتٍ فقط لفهْم بعض مدلولاتها، لكن القرآن يظل حديثَ اليوم وحديثَ الغد بمعنى ديمومة الحداثة، فقد توسطت سورةَ النور آيةُ النور، وهي الآية الوحيدة في كل القرآن التي شَبَّه اللهُ فيها نفسَه بشيء محسوس في الكون وبتفاصيلَ دقيقةٍ، ورد فيها لفظ "النـــــور" خمس مرات وهو ما يزال في انتظار بحث الباحثين.

ما يرجِّح مصداقية تأويلنا هو أن سورة النور هي أكثر سورة تعرضت لمحاولات التحريف الناجحة بامتياز. نعم: لقد تم تحريف السورة بعد أن تم التنويم المغناطيسي لكل الأمّة على مدى أكثر من ألف عام. فقد تمت صناعة "عِلم الناسخ والمنسوخ" وأقنَعوا به "سلفَنا الصالح" في "خير القرون". وهكذا فُتِحت ثغرةٌ تَسمح لحشر "آية منسوخة" في سورة النور هي آية الرجم المزعومة، وبالتالي تزعزع مكانها في قلوب الناس، ويكثر حولها اللغط والجدال فلا ينتبه الناس للسورة نفسِها.

لكن لأن تدبر سورة النور والحوار حولها وتدارسها مِن أخطر وأهم عوامل البناء لمجتمع رباني يَخرج من عمق أحلك الظلمات، فكان لا بد للمخربين من إطلاق غاز كثيف "مسيل للدموع" يصيب عيونَ كل المسلمين على مدى قرون طويلة "اليوم المليار ونصف مليار مسلم" بشِبه العمى. فأصبحت سورة النور من السور التي لا يقرؤها الناس وإنْ قرؤوها عشراتِ أو مئات أو آلاف المرات.

فلو سألتَ المليار ونصف مليار مسلم اليوم فقط ما هو سبب نزول سورة النور؟ لكان الجواب سريعًا وواثقًا ولا نقاش فيه، بل فيه خصام وصراع بين الشيعة والسُّنّة وهو موضوع "براءة عائشة من تهمة الزنا". فالسُّنَة يرون أن سورة النور نزلت في براءتِها، أمّا الشيعة فلا يعترفون بالبراءة، والاتهامُ ثابت عندهم. لكنّ الخصميْن اللدودين بَلَعا الطُّعمَ واتفقا أن عائشة قد اتُّهمتْ بالزنا. الخلاف حول البراءة أو عدمها وليس حول مصداقية التهمة.

ولأن الفكرةَ لا تستسيغها معظم القلوب بالفطرة، ولأن السورة تفاجِئ القارئ بالتصريح بأحكام شرعية كثيرة عن الزنا والعلاقات الجنسية، فإننا كأُمّة "محافِظة جدًا" ولا تسمح بالتلاعب بـ "الشرف" قد تمت برمجتنا على الخجل من التدبر في هذه الأمور. لذلك فالقارئ يتعجل قراءتَها ليتخلص من ذلك الشعور المرير وهو يتصور المدينة كلها تلوك عِرضَ النبي -صلى الله عليه وسلم- . وبذلك نجحوا في فرض هالة من الظلام البهيم عليها حتى نَسي المسلمون أنها السورة الوحيدة التي وصَف الله فيها نفسَه بشيء معلوم؛ آية النور. لكن بكل أسف فقد ظلت حبيسة الغاز المسيل للدموع الذي أبدأ هذا البابَ بإزالته بهدوء إن شاء الله، والذي أرجو أن يدق المسمارَ الكبير في نعش التراث المزيف، والشرف الزائف لأمة لا شرف لها إلا بين فخذَي بناتِها. ولأن ما سنتطَّلِع عليه في هذا الباب ربما يجعل بعض الولدان شيبًا فسأتبع أسلوبًا مبسطًا أقربَ للهجةِ العامية حتى تسهل المتابعة.

قلتُ لقد استعملوا الغازَ المسيل للدموع وأنا أعني ما أقول. افتحْ أيًا من تفاسير القرآن المشهورة وافتح سورة النور. ستجد الغازَ هو أول ما تقع عليه عيناك وهو حديث الإفك. وحتى يكون التسلسل منطقيًا مع تسلسل الأحداث والتاريخ، فقد رأيتُ أن أبدأ بمناقشة "حديث الإفك" كيف صنعه المحدِّثون قبل أن ينتقل لكُتُب التفسير فيصبح تفسيرًا للقرآن ثم يصبح هو القرآن.

وردتْ رواياتٌ كثيرة في حديث الإفك في كُتُب المحدِّثين وفي البخاري. لكن بطبيعة الحال فإن ما ورد في البخاري نال الحظ الأكبر من القدسية، ويحتج به الناس أكثر من غيره، لذلك فإن مناقشة حديث البخاري تغنينا عن تتبع كل ما قيل في قصة الإفك من مصادرَ أخرى.

الحديث الذي نحن بصدده لا يرقى – مِن مفهوم عِلم الحديث - لأن يكون حديثًا عن رسول الله، وإنما هو أثَرٌ مَرويٌّ عن عائشة -رضي الله عنها-. و"الأثَر" كما شرحنا في باب "الحديث" هو الرواية التي يرويها صحابي أو تابعي وليست قولاً منسوبًا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- نفسِه. لذلك إياك أن تجد في نفسك حرجًا في أن تُمعِن التفكيرَ وتتدبر كل تناقضات القصة و ملاحظة "الوتس آب" لأن ما سنناقشه ليس قولاً منسوبًا لرسول الله أصلاً، وإنما هو عمّن هُم دون رسول الله، وهُم بطبيعة الحال برآء من الرواية نفسها براءةَ الذئبِ مِن دم يوسفَ كما سنرى.

حديث الإفك في البخاري:

روى البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب " ولولا إذ سمعتموه...

حديث رقم 4750:

حدثنا يحيى بن بكير: حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة رضي الله عنها، زوج النبي-صلى الله عليه وسلم-، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا_ فبرأها الله مما قالوا، وكلٌّ حدثني طائفة من الحديث، وبعض حديثهم يصدق بعضا، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، الذي حدثني عروة عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- قالت:

{ كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيَّتُهُنَّ خرج سهمها خرج بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعدما نزل الحجاب، فأنا أُحملُ في هَوْدَجِي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة غافلين، أذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم، إنما تأكل العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس فيها داعٍ ولا مجيب، فأممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السُّلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني من قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل علي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيسلِّم ثم يقول: "كيف تيكم؟" ثم ينصرف، فذاك الذي يريبني ولا أشعر، حتى خرجتُ بعدما نقهت، فخرجتْ معي أُم مسطح قبل المناصع، وهو

متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قِبَل الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مِسْطح وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف، وأمُّها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مِسْطح بن أثاثة، فأقبلتُ أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثرتْ أم مِسْطح في مِرطِها، فقالت تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلتِ، أتسبين رجلا شهد بدرًا؟ قالت: أي هنتاه، أو لم تسمعي ما قال؟ قلتُ: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضًا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- - تعني- سلّم ثم قال: " كيف تيكم؟" فقلت أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبرَ مِن قِبَلِهما، قالت: فأذِن لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجئت أبوَيَّ فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فواللهِ لقلّما كانت امرأة قط وضيئة، عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كثرن عليها. قالت: فقلت سبحان الله، ولقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحلُ بنوم حتى أصبحتُ أبكي، فدعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- علي بنَ أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي، يستأمرهما في فراق أهله، قالت: فأمّا أسامة بن زيد فأشار على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله، أهلك وما نعلم إلا خيرا. وأمّا علي بن أبي طالب فقال يا رسول الله لم يضيِّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإنْ تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بريرة فقال: "أي بريرة، هل رأيتِ مِن شيء يريبك؟" قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إنْ رأيتُ عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاستعذر يومئذ من عبد الله ابن أبي بن سلول، قالت: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو على المنبر:" يا معشر المسلمين، مَن يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فواللهِ ما علمتُ على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي". فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إنْ كان مِن الأوس ضربتُ عنقه، وإنْ كان مِن إخواننا الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان قبْلَ ذلك رجلاً صالحًا، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبتَ لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبتَ لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخفضهم حتى سكتوا وسكت. قالت: فمكثتُ يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبَح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوما، لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع، يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هُما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنتْ عليّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلستْ تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم جلس، قالت: ولمْ يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبثتُ شهرًا لا يوحَى إليه في شأني. قالت: فتشهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين جلس، ثم قال: " أمّا بعدُ، يا عائشةُ فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإنْ كنتِ ألممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه". قالت: فلمّا قضى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مقالته قلص دمعي، حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجِب رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- فيما قال، قال: واللهِ ما أدري ما أقول لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-، فقلت لأمي: أجيبي رسولَ الله-صلى الله عليه وسلم-، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- . قالت: فقلت، وأنا جارية حديثة السن لا أقرا كثيرا من القرآن: إني واللهِ لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، واللهُ يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفتُ لكم بأمر، واللهُ يعلم أني منه بريئة لتُصَدِّقُنِّي، والله لا أجد لكم مثلا إلا قول أبي يوسف {فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون} (يوسف:18). قالت: ثم تحولتُ فاضطجعتُ على فراشي، قالت وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، لكن واللهِ ما كنت أظن أن الله مُنزلٌ في شأني وحيا يُتْلى، ولشأني أحقرُ مِن أن يتكلم الله فيَّ بأمرٍ يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رؤيا يبرئني

الله بها، قالت: فواللهِ ما رام رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يومٍ شات، من ثقل القول الذي يُنَزّلُ عليه، قالت: فلما سُري عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، سُري عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: " يا عائـشةُ، أمَّا والله عزَّ وجلَّ فقد برأك" فقالت أمي: قومي إليه، قالت: فقلت: لا واللهِ لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عزَّ وجلَّ، وأنزل الله: { إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه} (11) العشرَ الآيات كلها، فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفق على مِسْطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مِسْطح شيئًا أبدًا، بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: {ولا يأتل أولي الفضل... والله غفور رحيم} (22). قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مِسْطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: واللهِ لا أنزعها منه أبدا، قالت عائشة: وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يسأل زينبَ ابنة جحش عن أمري، فقال: " يا زينب ماذا علمتِ، أو رأيتِ؟" فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، ما علمتُ إلا خيرا، قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعصمها الله بالورع، وطفقتْ أختُها حمنة تحارب لها، فهلكتْ فيمَن هلك من أصحاب الإفك.}.انتهى.

ملاحظات عامة:

رواية قصة الإفك وردت في مراجعَ كثيرةٍ لكني اخترتُ رواية البخاري لأنه "أصح كتاب بعد كتاب الله" كما يزعم الذين صنفوا كتاب الله مع الصحاح. أيضا اخترت هذه الرواية لأنها الأطولُ والأشمل من كل الإشارات لقصة الإفك، رغم أن أجزاء من النص الحرفي للرواية أو المضمون قد وردت في روايات كثيرة أخرى في البخاري.

قدَّم البخاري أن الرواية لها عدد من الرواة "بعضهم أوعى من بعض"، لكنه اختار رواية عروة بن الزبير ربما لأنه ابنُ أسماءَ بنتِ أبي بكر الصديق، وعائشةُ خالته. وهذه القُربى ربما قصد منها البخاري نقلَ الرواية عن "أكثر المصادر وعيًا"، أو: أراد الكذابُ الذي ألّفَ القصة وأدخَلها في صحيح البخاري أن يعطيها مصداقيةً أكبر بنِسْبتِها إلى ابن أُخت عائشة. كلا الاحتمالين وارد.

الرواية مِن المفترَض أنها عن عروةَ بن الزبير عن عائشة كما هو منصوصٌ عليه. هذا يعني أن عروة يروي نصًا حرفيًا أو شِبه حرفي منسوبٍ كله إلى خالته عائشة. لكن لا يَخفى على عاقل أن هناك عددًا من الرواة اشتركوا عن قصدٍ أو عن غير قصدٍ في تكوين هذه القصة التي لا تحتاج لمختص في الطب الشرعي لاستخلاص "أصواتهم" أو "الوتس آب" من بين سطورها.

مِن المنطقي أن بعض الكلام فيها يبدو كأنه كلام عائشة، مثال ذلك: " فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي" وأيضًا: " فقلت لأبي: "أجب رسول الله... فقلت لأمي..."، إذ إنه من الطبيعي أن عائشة كانت تنادي أباها وأمها بـ "أبي وأمي" كعادة كل البَشر، خاصة وأنها كانت " جارية حديثة السن" كما تكرر ثلاث مرات. لكننا نلاحظ على نقيض ذلك صوتًا ثالثًا ربما نسي أن المتحدث " افتراضًا" هو عائشة، فأخطأ مرتين في ذكر أبي بكر:

المرة الأولى: حينما عَرَّفت المرأةَ التي خرجتْ معها للتبرز وَصَفَتها بـ "... وأُمّها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق..."، إذ ليس من الطبيعي أن يكون المتحدث هنا هو عائشة نفسها، تصف أباها بما يصفه به عامة الناس.

المرة الثانية: بعد أن تمت براءتها. أيضا وقع الراوي في الخطأ نفسه: "... فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه..." هنا أيضًا نسي الراوي أنه يمثل دورَ عائشة أو يروي باسمها، أو يكذب باسمها، لكنه ذكَر أبا بكرٍ الصديق -رضي الله عنه- كما يذكره عامة الناس.

ببساطة لأن ابنَ الملكِ ينادي أباه بـ "أبي" وليس "صاحب الجلالة والسمو الملكي"، وابن الرئيس ينادي أباه بـ " بابا" وليس "السيد الرئيس القائد". هنا نلاحظ أن صوت عائشة كان واضحًا حينما تحدثتْ عن أبيها وأُمّها، لكن مَن تحدَّث عن "أبي بكر الصديق "رضي الله عنه" هو صوتٌ مجهولٌ وهو الراوي الأصلي للقصة.

لو أضفنا بُعدًا آخر، لفضح المزيد من الشك في مصداقية الرواية: نلاحظ أنه في حالة الجفوة والشك وسوء الظن، أن عائشة أشارت لأبويها بـ "أبي وأمي"، رغم أن الحالة النفسية والعاطفية حينها كانت تَقبل نوعًا من الرسميات في التعامل، علمًا بأنها وصفت رسولَ الله نفسَه بالآتي: " وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف مِن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اللطفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيسلّم ثم يقول: "كيف تيكم؟"... فإنْ كان الرسول قد جفا معها، وإنْ كان أبوها وأُمّها قد رفضا التحدثَ مع رسول الله لدرجة أنها خرجتْ عن طورها واتهمتهم جميعا بما يدل على الحماقة حينما تحدتهم بقولها: {إني واللهِ لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديثَ حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفتُ لكم بأمر، واللهُ يعلم أني منه بريئة لـتُـصَـدِّقُنـِّي، }. وكأنهم إنما يتبعون الهوى ولن يصدقوها إلا إذا اعترفتْ بجريمة لم ترتكبها، رغم تلك الدراما الممزوجة بالدموع ووصْفِ البكاء المتكرر، إلا أنهما كانا أبويها، فقالت " أُمي وأبي"... بينما حينما انقشعت الأزمة وضَحِك رسولُ الله وبرَّأها الله مِن فوق سبع سموات طباقًا كما يتوهم الأئمة في المساجد ويوهِمون المستمعين، نجد أن الإشارة لأبي بكر الصديق جاءت رسمية مع أن الطبيعي أنه هنا كان يجب أن يقفز من الفرح ويضحك كما ضحك رسول الله ويأخذ ابنتَه في حضنه خاصة وأنها كانت: ".... جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله... " كما وصفتها بريرة الخادمة. أي أنها كانت طفلة ساذجة تنام أثناء العجن حتى يأكل الدجاج العجين. هنا كان مِن المفترض أن يكون لفظ "أبي"، وليس "أبا بكر الصديق رضي الله عنه"، كما وقع الراوي في الفخ وفضح الله كذبه.

وكما ذكرتُ في باب: " أفلا تعقلون" أن بعض الأمراض العقلية ربما تحتاج لوقت طويل من الاحتكاك مع المريض والحديث معه في مواضيعَ متفرقةٍ ومتباينة حتى يكتشف طرف الخيط لموقع وطبيعة الداء. فالكذبُ يخضع للقاعدة نفسها. فمَن كَذَب على رسول الله أو على غيره من الناس في كلمة أو كلمتيْن ربما لا يُفتَضَح أمرُه بسهولة، لكن كلما طالت الرواية كلما ازداد احتمال ظهور تناقضات. هذا الأسلوب يتبعه المحققون في المباحث الجنائية، كما يتبعه المختصون في الأمراض العقلية والنفسية، وهو أسلوب استدراج المتهم أو المريض إلى حوارات طويلة متنوعة المواضيع حتى تتاح لهم أكبرُ فرصةٍ ممكنة لكشف التناقضات.

ثم إن عائشة كانت تعامِل رسولَ الله بطبيعة الحال كزوجٍ وليس معاملةً رسميةً، لكن نسي الراوي في كل الرواية أن يضيف ذلك البعد الشخصي في العلاقة بين عائشة وزوجها، فكانت الإشارة إليه على لسان عائشة دائمًا بـ "رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "، بينما أخطأ مرتين في الإشارة لأبيها بـ " أبي بكر الصديق رضي الله عنه" وإنْ كان قد أصاب مرة واحدة كما أسلفنا .

كانت تلك ملاحظاتٍ عامةً أتخذُها مدخلاً لفضح كذب الرواية من أولها لآخرها. وكما ذكرتُ في باب " أفلا تعقلون" فإنّ مِن أعراض الخلل العقلي أن المريض يختلط عليه "الزمان" و "المكان" ولا يستطيع أن يرجع بخياله 500 سنة للوراء فيصف القاهرةَ وصفًا يتناسب مع ما يتصوره كل الناس عن حالها في ذلك الزمان. هذه الظاهرة يقع فيها الكذابُ أيضًا خاصة حينما يحاول تزويرَ التاريخ فيروي رواية فيها مفردات لم تكن متداولة في ذلك الزمن. ومثله هنا كمثل مَن يُخرج فيلمًا سينمائيًا عن موقعة بدر فينسى أنها كانت بالسيوف ويأتي بمسدساتٍ وبنادقَ فيها.

لفظ " غـزوة":

نلاحظ أن بداية الرواية التي تناقضت مع القرآن من أول فقراتها، تناقضت مع التاريخ أيضا، إذ إن الراوي على لسان عائشة قال: "...فأقرع بيننا في **غزوة غزاها** فخرج سهمي... " أيضا نَسَب إليها: "... حتى إذا فرغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من **غزوته** تلك وقفل..".

لفظ "غزوة" لفظ استُحدِث في التاريخ الإسلامي حينما كَتَب التاريخَ أعداءُ الإسلام وأرادوا لنا وللناس أن نتصور الرسولَ -صلى الله عليه وسلم- "زعيم عصابة" للنهب المسلّح والاغتصاب، كما كان حال القبائل العربية قبل الإسلام، فسمُّوا كلَّ الحروب التي اضطر النبي ومَن معه لخوضها دفاعًا عن النفس والمال والعِرض والعقيدة، وهو الإطار الوحيد الذي أَذِنَ الله تعالى فيه للمسلمين بالقتال، إلى "غزوات"، وهي تعني اعتداءَ عصابةٍ أو قبيلة على أخرى ونهبها. ولعل رأي شيخ الأزهر حديثًا في تاريخ هذا اللفظ يطمئن البعض. فقد كَتَب " لؤي علي " في جريدة اليوم السابع المصرية يوم السبت 28 أغسطس 2010 - عن الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر ما يلي:

{اتفق كل مِن الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، والدكتور محمود حمدي زقزوق، وزير الأوقاف، على أن كلمة "**غزوة**" ليست صحيحة، وأدْرَجَها مؤرخو التاريخ الإسلامي في غير نصابها الصحيح، جاء ذلك خلال احتفال وزارة الأوقاف بذكرى غزوة بدر أمس، الجمعة، بملتقى الفكر الإسلامي.

وأكَّد شيخ الأزهر أن المؤرخين القدامى أطلقوا على المعارك التي خاضها النبي بـ"الغزوات"، وأن هذه الكلمة تزعجه هو شخصيًا، أي شيخ الأزهر، مشيرًا إلى أنه بحثَ في المعاجم القديمة ووجد أن كلمة "غزوة" تطلق على السير إلى لقاء العدو، فمجرد الخروج لملاقاة العدو تسمى "غزوة"، متسائلاً: "هل بدْر كانت غزوة"، قائلاً: "لم تكن غزوةً لأننا لو نظرنا إلى المنطقة التي وقعت بها الموقعة نجدها تقع على بعد 145 كيلو مترًا من المدينة المنورة مكان المسلمين، وعلى بعد 450 كيلو من مكة المكرمة مكان قريش، وسنجد أن المشركين قطعوا مسافة 450 كيلو إلى تلك المنطقة وقابلهم فيها المسلمون، قائلاً: "لو أننا حسبنا المسافة التي قطعها كلا الطرفين لو جدنا أن المشركين قطعوا المسافة الأكبر، أي أنهم هُم الساعون للحرب ولم يَسعَ المسلمون في أي موقعة خاضها النبي للبدء بالعدوان."

وأضاف شيخ الأزهر إن القتال في الإسلام لم يكن للكُفر، بل كان للعدوان، أي أن المسلمين لم يحاربوا الكفارَ لكي يسلِموا بالقوة، لكنهم كانوا يحاربون لكف العدوان عنهم.

من جانبه أكد الدكتور محمود حمدي زقزوق، وزير الأوقاف، عدمَ ارتياحه لكلمة" **غزوة**" لأنها تحمل العدوان، ولكن جميع المواقع التي خاضها النبي كانت دفعًا لاسترجاع الحقوق، مشيرًا إلى أنه عند انتهاء المعركة أسَر المسلمون من المشركين سبعين رجلاً، وكانوا على استعداد إلى دفع الأموال لافتداء أنفسهم، فما كان من الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلا أن رفض وطلب من الأسرى أن يعلّم كلٌّ واحدٍ منهم عشرةً من المسلمين مع أن المسلمين في احتياج إلى تلك الأموال، لكن الرسول وازى بين المال والعِلم، فمحوُ الأميةِ الدرسُ الذي نستفيده من تلك المعركة، لأنه لا يجوز لأمّة أول آية نزلت عليها "اقرأ"، و نجد أكثرَ مِن نِصفهم لا يقرأون وهذا لا يجوز ويجب أن نغيرها بكل السبل والوسائل.}.

وقد أفادني بالمقال المستشار أحمد عبده ماهر وهو محامٍ بمحكمة النقض المصرية ومحكّم دولي وكاتب إسلامي أثناء حوارنا في الفيس بوك، مضيفا أن كلمة "غزوة" قد وردت بصحيح البخاري 21 مرة، لكنها لم تَرِد على لسان رسول الله مرةً واحدة. عِلمًا بأن اللفظ لم يَرِد في القرآن إلا مرةً واحدة يُفهَم من سياقها أن الغزاة كانوا هُم العدو وليس المسلمين، رغم وصف القرآن للكثير من الحروب التي اضطر النبي ومَن معه إلى خوضها بأسمائها الجغرافية فقط مثلاً: " بدر" و "يوم حنين".

وحتى أسهِّل على العامة خطورةَ ورود هذا اللفظ منسوبًا لعائشة في البخاري، أضربُ مثالاً بروايةٍ ملفقةٍ مفادها أن عمرَ بن الخطاب أرسل رسالة "وتس آب" على جوال خالد بن الوليد يحذره من أن الجيش خلف الجبل. هذه الرواية ستضحك كل من يقرؤها لأنها اشتملت على مفردات لم تكن معروفة زمنَ عمر بن الخطاب مما يفضح تزويرها. وعليه فإن وصف عائشة للغزوة يدل على الرواية تم تزويرها لاحقًا ونسبتها إلى عروةَ بن الزبير عن عائشة، لكن الأفاك الذي لفق القصة اختلط عليه الزمان، وفات عليه أن هذه المفردة ما كان لها أن تَرِد على لسان عائشة في ذلك الزمان. وسنرى أدلة التزوير الكثيرة في بقية هذا الباب.

لا بد من التذكير هنا أن لفظ "غزوة" نفسه ليس مستحدَثًا، وإنما المستحدَث هو وصف الحروب التي فُرضت على المسلمين بالغزوات. فالغازي هو المعتدي وليس المعتدَى عليه. وفي كل المعارك التي خاضها النبي كان

المسلمون في حال دفاع عن النفس، لذلك فالغازي كان هو الطرف الآخر. ففي بدْر جاءت قريش للمدينة، وفي أُحُد جاءت قريش للمدينة، وفي غزوة الأحزاب كانت المدينة تحت الحصار والغزاة كانوا هُم المشركين وليس المسلمين المحاصَرين وهكذا. حتى فتْح مكة كان استحقاقًا لنقض قريش عهدَها مع رسول الله وكانت فتحًا سلميًا وليست غزوًا.

الهوس الجنسي:

تبدأ رواية الحديث، أو "الأثــر" في حقيقة الأمر، بوصف أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يقترع بين نسائه فيأخذ مَن تقع عليها القرعة معه للحرب، وكأن الحربَ نزهةٌ أو شهر عسل تتنافس عليه النساء في صحبة النبي. وتقوم كل الرواية على أن القرعة في تلك "الغزوة" كانت من نصيب عائشة. لكن هذه الفكرة تعارض نصوصًا كثيرةً في القرآن، كما تعارض الحكمة والإستراتيجية العسكرية، ما يجعلها أقرب للوهم منها للحقيقة. فقد ورد في سورة آل عمران:

{وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121)} آل عمران.

هذه الآية اختلف المفسرون اختلافاتٍ كثيرةً حول الموقعة التي تشير إليها. فمنهم مَن قال إنها غزوة الأحزاب ومنهم من قال إنها أُحُد ومنهم من قال إنها بدر. وكانت كل الروايات تقوم على لفظ "غدوت" أي توقيت المعركة مع وقت الغداة. لكن المتدبر للقصة في سورة آل عمران يجدها كلها تدور حول موقعة بدر التي ذُكِرت بالاسم بعد هذه الآية.

الآية تقول إن النبي ابتعد عن أهله ليجهز المؤمنين للقتال. ولفظ "الأهل" في لغة العرب وفي القرآن يعني الأسرة وعلى رأسها الزوجة والأولاد. فإن كان النبي هنا يوصف بأنه ترك أهله وذهب للقتال، فإن مقولة عائشة إنه كان يقترع بين نسائه في الخروج معه للغزوات تصبح مناقضة للقرآن، أيًا كانت الموقعة المعنية. ولو كانت الموقعة هي بدر، وهو الرأي الذي نرجحه من سياق الآيات، فإن بدر كانت أول المعارك العسكرية في الإسلام. أيضًا فإن بدر لم يكن مقصودًا منها حرب بقدر ما كان القصد قطع الطريق على قافلة أبي سفيان لاستعادة أموال المهاجرين التي نهبتها قريش، لكنها تحولت من غير تخطيطٍ إلى حربٍ كبيرةٍ حينما قررت قريش غزو المدينة. فلئن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يترك أهله منذ بدر وهو ذاهب للقتال، حتى وإنْ تركَهم في مكان آمن بمنتصف الطريق، فإن قصة الاقتراع بين نسائه حينما أصبحت الحروب أكثر شراسة تصبح في مهب الريح. على أن آياتٍ أُخَر في القرآن تؤكد أن النساء عمومًا كُنَّ يتخلفن عن القتال:

{فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (83)} التوبة.

{وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (86)} التوبة.

{رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87)} التوبة.

في هذه الآيات الثلاث في سورة التوبة نجد ألفاظ "الخالفين" و "القاعدين" و"الخوالف" كلها تشير لمن يتخلفون عن القتال لعذر شرعي، وأن المنافقين كانوا يتخلفون معهم. وإنْ كانت هناك اختلافات في تفسير لفظ " الخالفين" و"القاعدين"، هل تشمل النساء أم أصحاب الأعذار فقط؟ فإن لفظ "الخوالف" يعني النساء. هذا يعني أنه في الغالب العام كانت النساء لا يخرجن للحرب. هذا الحكم ليس بالضرورة حرفيًا لأن المسلمين تعرضوا لغزوات كثيرة لم تكن من تخطيطهم، وكان بعض الصحابيات يشاركن فيها للتمريض والمؤن وحتى حمل السلاح إن اقتضت الضرورة، لكن الحكم العام هو أن النساء لم يكنَّ جزءًا مهمًّا من مكونات الجيش. وهذا القاعدة ما زالت الغالب العام في كل جيوش العالم إلى اليوم.

الحروب حينذاك كانت بالسيوف والرماح والنبال والتشابك بالأيدي، وتبعاتها كانت تشتت الجيش المنهزم وفرار من يستطيع الفرار منهم وسقوط البقية أسرى وسبايا. فإن كان النبي يمثل القائد العام للجيش في كل المعارك، وهو القائد الأعلى بوصفه الحاكم ورأس الدولة المسلمة في منصب الملك أو رئيس الجمهورية، فإنه من غير المعقول عسكريًا وسياسيًا أن يعرض إحدى نسائه لأن تقع سبية في يد المشركين لو هزم جيش المسلمين. إن فكرة إجراء القرعة بين نسائه للخروج معه منبعها ليس سياسيًا ولا ضرورة عسكرية، وإنما نتاجٌ متأخرٌ لكتابة التاريخ الإسلامي متأثرًا بداء "الهوس الجنسي" الذي ألصق برسول الله -صلى الله عليه وسلم- بناء على قصة تعدد زوجاته. هذا التفكير المريض تعضده أحاديثُ نشازٌ وردت في كتُب الصحاح أذكر منها اثنين هنا للاختصار:

فقد روي البخاري في باب: "إذا جامع ثم عاد، ومن دار على نسائه في غُسل واحد" ما يلي:

267- حدثنا محمد بن بشار قال: حدثنا ابن أبي عدي، ويحي بن سعيد، عن شعبة، عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر، عن أبيه قال: ذكرته لعائشة فقالت: { يرحم الله أبا عبد الرحمن، كنت أطيّب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، فيطوف على نسائه، ثم يصبح محرما ينضح طيبا}.

لفظ يطوف على نسائه يعني أنه يجامع نساءه في الليلة الواحدة. وحتى يتضح الأمر، لا بد من ملاحظة أن البخاري أورد الأثر - وليس الحديث - في باب: ("إذا جامع ثم عاد، ومن دار على نسائه في غُسل واحد"). هذا يعني أنه لا يغتسل بين ممارسة الجنس مع امرأة وأخرى، وإنما يكتفي بغُسل واحد بعد نهاية الطواف. ويمضي البخاري في الباب نفسه:

268- حدثنا محمد بن بشار قال: حدثنا معاذ بن هشام قال: حدثني أبي، عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك قال: { كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار، وهُن إحدى عشرة. قلت لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أُعطِي قوة ثلاثين. وقال سعيد عن قتادة إن أنس حدثهم: تسع نسوة.}

لا أدري هل يقصد الراوي أن المقصود أنه يدور على نسائه الإحدى عشرة - أو التسعة - في ساعةٍ واحدةٍ نهارًا ثم يعاود الكَرّة ساعة أخرى ليلاً؟ أم أن الراوي يعني أنه يفعلها في ساعةٍ واحدةٍ سواءٌ أكانت ليلاً أم نهارًا؟ وهل كان هذا دأبه يوميًا حتى يروي الحديث ليكون مَعلَمًا من معالم الحياة الشخصية لسيد الخلق عليه أفضل الصلاة والتسليم؟ لا بد من تذكير القارئ أن لفظ ساعة في ذلك الزمان لم يكن يعني ستين دقيقة وإنما هو لفظ يفيد فترة متصلة من الزمن.

واللهِ إن المرءَ ليعجب كيف يصف هؤلاء النبيَّ الكريم هذا الوصف عِلمًا بأن الراوي، والبخاري أيضا لم يستطيعا أن يستوثقا عن عدد نساء النبي حينئذ هل كانوا "إحدى عشرة" أم "تسعة"؟ لكنه بكل أسف لم يتحرج في رواية الأثر، رغم أن الاختلاف في تحديد عدد نسائه حينئذ يدل على ضعف مصدر الرواية. وهنا أُذكِّر القارئ أن القصة، وإن كانت في صحيح البخاري، وإنْ كانت تسمَّى حديثًا، وإن كان لفظ حديث يوهمنا دائمًا أنه قولٌ منسوبٌ للنبي نفسه، لكن لا يخفى على أحد أن هذه الرواية ليست إلا قولاً رواه أحد الصحابة أو نُسِب إليهم، لكنه ليس قولاً من النبي: "إني كنت أطوف على نسائي" أو " لقد أوتيت قوة ثلاثين".

ولا أدري بأي مقياس تم قياس قدرة النبي الجنسية؟ فالراوي قال: "كنا نتحدث أنه أُوتِي قوةَ ثلاثين"، لكن لم يحدد أعمار وأحجام وسن أولئك الثلاثين الذين اتخذوا مقياسًا لقوته الجنسية. إن هذه القصة المقززة توحي بأن النبي كان مصابًا بالهوس الجنسي، وأن أصحابه لا هَمّ لهم إلا حساب عدد الدورات التي دارها على نسائه في اليوم والليلة. إنها ترسم في ذهن القارئ أقبحَ الصور المسيئة للنبي -صلى الله عليه وسلم- زمنًا قبل أن تتحول تلك الصور إلى رسومات. ولستُ أدري لماذا ضَمَّن البخاري كتابَه وهو ثاني أصح كتابٍ بعد كتاب الله كما يزعمون هذه القصص؟ عِلمًا بأنه ترك مئات الآلاف من الروايات الصحيحة لم يضمنها صحيحَه. إن الأرجح هو أن محمد بن إسماعيل البخاري بريء براءة الذئب من دم يوسف من هذا الكتاب.

المهم، هكذا تم تصوير الهوس الجنسي للنبي في "الحديث"، لكن لو عدنا للقرآن نفسه لوجدنا الأمرَ مختلفًا تمامًا.

فالثابت أن قصة تَعدّد نساءِ النبي قد تمت بعد الهجرة إلى المدينة. وفي المدينة أصبح النبي حاكمًا على دولةٍ متعددة الأعراق والقبائل المتصارعة، وأنها اكتظت بالمهاجرين من كل صوب وحدب، فضلاً عن وجود ثلاثِ قبائلَ من اليهود هُم "بنو قريظة" و"بنو النضير" و "بنو قينقاع"، هذا بالإضافة إلى وجود المنافقين من كل الطوائف الذين تظاهروا بالإسلام وما هُم بمسلمين. وكان على النبي وحدَه إدارة شئون تلك الدولة، وهو عملٌ شاقٌ ما كان ليقوى عليه إلا أعظم رجال التاريخ الإنساني مما يتطلب بطبيعة الحال أن الحاكم حينَها ما كان لديه وقت لا للنساء ولا حتى للطعام. أمّا في ليلِه فقد كفانا القرآن بهذا الوصف:

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (10)}

إلى آخر سورة المزمل:

{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20)}

إذن، فنِصفُ ليلِ النبي أو ثلثه كان قيامًا وعبادةً وليس جنسًا كما صوَّرَه كتابُ البخاري، فإنْ قال قائل إن سورة المزمّل كانت في بداية النبوة قبل أن يفتح الله عليه بتعدد النساء، فإن سورة الأحزاب التي نزلت بطبيعة الحال بعد أن غزا الأحزابُ المدينة تقفل هذا الشك باليقين:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (29)} الأحزاب.

مِن هنا نفهم أن نساء النبي كان عليهن دورٌ عظيمٌ في بناء الدولة المسلمة مع النبي وواضحٌ من الآيات أن ذلك الدور خلا من نعيم الدنيا وملذاتها وشهواتها، وأنه كان دورًا قاسيًا لا تقدر عليه إلا مَن وهبتْ نفسَها لله ورسوله "وليس نبيه" رجاءَ نعيم الآخرة. ولأن الله يعلم أنهن كُن يعانين فَقَدْ يَسَّر عليهن وأعطاهن الخيارَ في أن يخترن نعيم الدنيا بعيدًا عن قسوة مسئولية بيت النبي، أو يخترن الله ورسوله ونعيم الآخرة. لا بد من تنبيه القارئ للتمييز الدقيق بين لفظ النبي والرسول. فنساءُ النبي تزوجن النبي وليس الرسول. وما عرَضَه الله عليهن عرَضَه على لسان زوجهن النبي إن كنَّ يُردن الحياةَ الدنيا وزينتَها ومُتَعَها، أمّا الخيار الثاني ففيه الله ورسوله، وليس الله ونبيه. ولقد ناقشنا الفرقَ بين النبي والرسول في باب "خير القرون".

إن موضوعَ الهوس الجنسي الذي وصِف به النبي -صلى الله عليه وسلم- كبيرٌ وشائكٌ، أنقلُ منه جانبًا آخر وهو قصة سحر الرسول -صلى الله عليه وسلم- من غير تفاصيلَ حتى لا تخرجنا من موضوعنا. فقد روى البخاري ما يلي:

5765 حدثني عبد الله بن محمد قال: سمعت ابنَ عيينة يقول: أول مَن حدثنا به ابن جريج يقول: حدثني آل عروة، عن عروة، فسألتُ هشاما عنه، فحدثنا عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: " كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سُحِر، حتى كان يرى أنه يأتي النساءَ ولا يأتيهن، قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا... "

وهذه الرواية تتعارض تعارضًا حرفيًّا مع قول الله تعالى:

{وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُورًا (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (48)} الإسراء.

{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُورًا (8) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (9) } الفرقان.

ولستُ هنا بصدد إسقاط قصة الظالمين في سحر الرسول على يد يهودي لأن الآياتِ أعلاه تُسقِطها واللهُ يقول:

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67)} المائدة.

فإنْ لم يعصمه من السحر فمِمَّ يعصمه بعدَها؟ لكن ما يهمنا في الرواية هي أنه حتى حينما سُحِر وفقدَ عقله وأصبح يتوهم أشياءَ لم تحدث كان وهْمُه منصبًّا على النساء كما تفضل مؤلف الرواية في البخاري. طبيعي أن أي بَشر حينما يصاب بالوهم أو الهلوسة فإن اهتماماتِه تظهر فيما يتوهمه. فالخبَّاز يتوهم أنه يَخبز، والحدّاد يتوهم أنه يصهر الحديد، والشاعر ربما يهذي ببعض الأبيات. وكانت لي جَدةٌ رحمها الله أصابها الخرف بعد المائة، فكانت تتوهم أنها لم تُصَلي فتقوم وتصلي في منتصف الليل، لكن سيد الخلق حينما سحره اليهودي أصبح يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن.

إن قصة "نساء النبي" وعددهن والسبب في تعددهن تحتاج لبحثٍ مستقلٍ بعيدًا عن التاريخ والتراث الملوث، لكن لا يسعُ المجال للخوض فيه الآن. ما يهمنا هو أن فكرة طواف النبي على نسائه في ساعةٍ من النهار وساعةٍ من الليل بقوة ثلاثين رجلاً من غير غُسل بين امرأة وأخرى ليست إلا نتاج فكرٍ متعفنٍ لم يرَ في النبي إلا رجلاً مهووسًا بالجنس، لذلك لفقت تلك الأقاويل ثم نتج عنها فِريةٌ أنه كان يقترع بين نسائه حين الخروج في عملية نهبٍ مسلّح "غزوة" كما تفضل البخاري في الأثر المنسوب لعائشة رضي الله عنها.

ولعل تعارُضَ هذا الحديثِ في البخاري مع صريح القرآن يقفل هذا الباب المنتن الذي قامت عليه بكل أسف كل الأفلام المسيئة للنبي في الغرب. إضافة لِما سبق فقد وصَف البخاري أن النبي كانت يأتي عائشة وهي حائضٌ، كما روى في باب مباشرة الحائض ما يلي:

رقم 302: حدثنا إسماعيل بن خليل قال: أخبرنا علي بن مسهر قال: أخبرنا أبو إسحق، هو الشيباني، عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه، عن عائشة قالت: { كانت إحدانا إذا كانت حائضا، فأراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يباشرها، أمرها أن تتزر في فور حيضتها، ثم يباشرها. قالت: وأيكم يملك إربه كما كان النبي يملك إربه؟!}

رقم 303: حدثنا أبو النعمان قال: حدثنا عبد الواحد قال: حدثنا الشيباني قال: حدثنا عبد الله بن شداد قال: سمعت ميمونة: {كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه، أمرها فاتزرت وهي حائض. } رواه سفيان عن الشيباني.

لا بد أن تلاحظ أيها القارئ الكريم أن الرواية أيضًا ليست إلا "أثرًا" وإنْ كانت تَرد في صحيح البخاري كحديث، كأنّ القائل هو رسول الله. والأثر هو قول الصحابيّ أو التابعيّ وليس قولَ الرسول. والروايتان منسوبتان لعائشة ولميمونة وليس للنبي نفسه.

أمّا نحن فنقول بحمد الله وتوفيقه، حدثنا الله تعالى في أحسن الحديث كتاب الله ما يلي:

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ (222)} البقرة.

إن مباشرة الحائض أمرٌ يتقزز منه عامة الرجال في كل المجتمعات والأديان، بل وتتقزز منه النساء أنفسهن؛ لأن نفوسهن لا تطيق في الغالب أي نوع من المضايقة ناهيك عن المباشرة الجنسية. وهذا العُرف الإنساني يتفق تمامًا مع النص القرآني الذي يصف الحيضَ بأنه أذى، أي أن المرأة تتعرض فيه للأذى كما قد يتعرض له الرجل، وذلك لأن الحيض ليس إلا تمزقَ جدار الرحم وانكشاف معظمه عن الأغشية المخاطية الواقية من الأمراض كما شرحتُ في باب "ملكة النحل". وقد نهى الله تعالى بصريح اللفظ عن مباشرة النساء في المحيض، وأمَرَ بألا يقربوهن. وهذا لا يعني عدم المودة والملاطفة والممارضة وإنما لا تقربوهن جنسيًا وهو معنى "المباشرة" هنا. فكيف برسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعصي أمرَ الله هذا ويباشر نساءه في الحيض؟ ثم: لو كان النبي لا يصبر على شهوته، هل كانت كل نساء النبي يحضن مرة واحدة؟ أمَا كان من الممكن أن يترك الحائض حتى تطهر ويباشر غيرها؟ أم أن "الطواف" الكامل على كل نسائه في اليوم والليلة كان هو القاعدة الذهبية التي لا يتنازل عنها وإنْ عصى ربه في ذلك؟؟

بقي أن تعلم أيها القارئ أن لفظ "إربه" في: {.... وأيكم يملك إربه كما كان النبي يملك إربه؟!} تعني حاجته، أو شهوته بصريح اللفظ. هذا يعني أن النبي كان لا يقدر أن يتمالك شهوته فيتعدى حدود الله ويباشر الحائض من نسائه.

حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل فيما نُسِب إلى محمد بن إسماعيل البخاري في كتابه في تلك السنين التي اختفى فيها قبل أن يظهر معدّلاً ومزادًا إليه في دمشقَ بعد أكثر من ثلاثة قرون.

أي غزوة؟:

الغريب أن عائشة لم تَذكر أين كانت تلك الغزوة، ولم تذكر أي معلمٍ جغرافي عن الحدث، رغم أنه أصبح قرآنًا يتلى وتفسيرًا وحيدًا لسورة النور. هل هذا النسيان لاسم وتفاصيلِ الغزوة ناتج عن أنها كانت "..جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله..."؟ هذه الرواية الطويلة جدًا جدًا مقارنةً مع الأحاديث عمومًا، والتي اشتملت على تكرار وصف البكاء والدموع أربع مرات، ووصف عائشة بأنها ساذجة حديثة السن لترسخ الانطباعَ أنها كانت طفلة وأن زوجها "البيدوفايل" كان زعيمَ عصابة للنهب المسلح، نسيتْ أن تَروي لنا مكانَ وزمان "الغزوة" حتى يتاح لنا دارسة التاريخ ومراجعة الأحداث لنرى مصداقيتها.

لقد اشتهر بين رواة التاريخ أنها كانت غزوة بني المصطلق في السنة السادسة بعد الهجرة، لكن اختلفت الآراء حول تحديد الغزوة وتاريخها ولم أجد دليلاً موثوقًا في بحثي يرجِّح التوقيتَ بلا ريب. واختلافُ الآراءِ يعني اختلافَ الزمان واختلاف المكان وبالتالي سقوط قدْرٍ كبير من المصداقية التاريخية للحدث. وواضح من هذا الأثر الذي نناقشه أن عائشة لم تحدد الغزوةَ ولا الزمان، وهو الحديث الوحيد الذي قدَّمَه المفسرون في سورة النور، ولو كان لديهم ما هو أكثر حجية ومتانة منه لقدَّموه عليه. بل إن عائشة لم تتحدث عن الغزوة الوهمية أصلاً إلا في بضع كلمات. وهذا يعني أن الجمْع بين قصة الإفك وغزوة بني المصطلق نفسه ليس من الحديث – على علاته- وإنما من التاريخ والأقاويل.

الخطورة في اختلاف الزمان تكمن في توقيت نزول سورة النور. لأن السورة حسب محتواها كانت من أوائل ما نزل في المدينة كما رأينا بعد تدبرنا بعض آياتها البينات. وهذا يعني أنها نزلت زمنًا قبل آية الحجاب في سورة الأحزاب، وبالطبع قبل غزوة الأحزاب على المدينة. وأقول غزوة الأحزاب لأن الأحزاب هُم الذين حاولوا الاعتداء على المدينة وكانوا هُم الغزاة وليس المسلمين.

وطالما أن المحدِّثين قد اختلفوا في تحديد الغزوة فقد أصبحت رواية أي منهم غيرَ ملزمة. أمّا هنا فإن عائشة أو مَن يكذب على لسانها اهتم بالدموع واهتم بتكرار "حداثة السن" واهتم بتصوير الفتن التي تبعت قصة الإفك لتصور بيت النبي ومجتمعَه أنه كان متفككًا اجتماعيًا، مِن قول علي -رضي الله عنه- إن النساء كُثر، وكأن كل ما كان يهم عليًا -رضي الله عنه- من أمر النبي حينها هو استبدال عائشة بأخرى، وليس قصة الإفك نفسها والمساس بعِرض النبي، عِلمًا بأن عائشة المعنية هي بنت أبي بكر الصديق الذي صوَّر التاريخُ المشوه لاحقًا صراعًا بينه وبين علي -رضي الله عنه- على السلطة.

أيضًا فإن القصة تصور احتدامَ الخلاف بين الأوس والخزرج حتى كاد القتال يقع بينهما والنبيُّ على المنبر، ثم تصور ما يشبه "الوقاحة" من عائشة مع أُمها وأبيها ورسول الله باتهامهم: {.. إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة لـتُصَدِّقُنِّي،..} وكأني بها تصفهم بسوء النية وقلة الحكمة وأنهم لن يصدقوا إلا الكذب. بل ولم ينسَ الراوي أن ينقل لنا بالتفصيل الممل كيف وأين ومتى كانت عائشة وأُم مِسْطح تتغوطان، لكنه نسي أن يوثق لنا لـ "اسمَ" و "مكانَ" و" زمانَ" الغزوة التي وقعت فيها قصة الإفك. إنَّ تحديد زمان الغزوة يمثل حدًا فاصلاً بين الحق والباطل في هذه الرواية؛ لأن كل حجة الهودج تقوم على "الحجاب" الذي فُرِض في سورة الأحزاب التي نزلت بعد غزو الأحزاب للمدينة. وسنرى أن قصة "الحجاب" هذه كانت مفصلة للأفاك الذي افترى القصة.

هَوْدَجي يا هَوْدَجي:

تقوم كل قصة الإفك على حدثٍ مضحكٍ لا يستقيم منطقًا ولا عقلاً، وهو أن عائشة -رضي الله عنها- تم نسيانُها في الصحراء بعد إحدى الغزوات، وأتى بها في اليوم الثاني رجلٌ غريب فأشاع المنافقون أنها وقعت في إثم معه.

لقد رأينا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يأخذ معه أهله كضرورةٍ ثابتةٍ للحرب بنص القرآن. وهنا تَسقط كلُّ الأكذوبة. لكن لنفترض أن تأويلنا هذا خاطئ وندرس كل القصة كأنها وقعت فعلاً. لو افترضنا أن النبي أخذ معه عائشة لميدان الحرب فلا بد من سبب لذلك، وهو غالبًا أن يكون أحد أو كل الأسباب التالية:

أولاً: أن تكون عائشة مقاتِلة أو كانت جزءًا من الجيش، تعمل في تمريض الجرحى أو إعداد الطعام والماء مثلاً. في هذه الحالة فإن فكرة الاقتراع لا معنى لها إذ كان من المفترض أن يدعم النبي الجيشَ بكل نسائه.

ثانيًا: أن يكون النبي لا يصبر على عدم مضاجعة نسائه حتى في ليالي الحرب، لذلك يقوم بالاقتراع بينهن.

ثالثًا: أن تكون كل النساء قد خرجن وما كان لزوجة النبي أن تتميز عليهن. وفي هذه الحالة أيضًا لا مبرر للاقتراع إذ إن المنطقي أن يَخرج النبي بكل نسائه وليس واحدة فقط. إذن، فكرةُ الاقتراع غالبًا ابُتُكِرت لترجيح الاحتمال الثاني فقط وهو الهوس الجنسي.

على أي حال: فإن أي سبب من هذه الأسباب يقتضي أنه طالما كانت عائشة في ميدان الحرب، فلا بد وقد كان هناك نساء كُثر أتين مع أزواجهن، وهُنّ أقل شأنًا من شأن "السيدة الأولى" زوج القائد العام والقائد الأعلى للجيش والرئيس والملك والحاكم، وهو فوق ذلك كله رسول الله وخاتم النبيين. فإنْ كان الواقع قد سمح لمن هي في مكانها أن تتعرض لخطر القتل أو السبي في حالة هزيمة جيش المسلمين، فمِن الطبيعي أن مَن هُنّ أقل أهميةً منها كُنّ معها في الغزوة. باختصار: لا يَقبل أي منطق أن عائشة كانت المرأة الوحيدة في تلك " الغزوة" التي تتعرض فيها لاحتمال السبي.

فإنْ كانت هناك نساء معها، وهو أمرٌ حتميٌّ، فمِن الطبيعي أن يكون جزءٌ مِن دورهن السهر على حماية زوجة القائد الأعلى لكيلا تتعرض لسوء؛ لأن اختطاف وسبي زوج رسول الله مِن أقبح وأفدح الأخطاء العسكرية والاجتماعية والسياسية –التي لم تقع بطبيعة الحال– لكن لا يعقل أنَّ الذين كانوا يتسابقون لاختطاف راية النبي لكيلا تسقط كلما سقط قتيل، لأن سقوط الراية يعني هزيمة الجيش، لا يعقل أنهم يتركون ثـغرةَ أن تؤخَذ زوجُ النبي سبية. هذه الضرورة الموضوعية تُسقِط كل قصة الهودج. لأن بُريرة ومَن كان معها من الجواري

والصحابيات بطبيعة الحال كُن سَيْسَعين للاطمئنان على أن عائشة كانت داخل الهودج قبْل رفعِه، ولا داعي لمحاولة خداعنا بأن السبب هو نزول آية الحجاب. فالحجاب كان يخص نساءَ النبي فقط، وكان مفروضًا على الرجال الذكور كما سنرى في باب " فقه الكلب"، وليس على النساء.

إذن، نحن أمام احتماليْن:

الأول: إمّا أن عائشة لم تكن أصلاً في أي ساحة حرب مع رسول الله، والقصة كلها ملفقة.

الثاني: وإما أن عائشة كانت في الميدان، وهذا يقتضي أنه كان هناك معها ما يكفي من النساء المسلِمات لحراستها ورعايتها خاصة وأنها كانت "...جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله...".

أيٌّ مِن الاحتمالين يُسقِط الهودجَ مِن ظهر الناقة، ويُسقِط حجة أن الرهط لم يعلموا هل كانت عائشة داخل الهودج أم لا، بحجة أن الحجاب فُرض عليهنّ حينها. هنا نلاحظ تناقضًا آخر قاتلاً نَسِيَه الكذاب: آية الحجاب في سورة الأحزاب، حسنًا، إذا رجعنا لسورة الأحزاب نجد الآتي في خطاب نساء النبي:

{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الْأُولى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33)} الأحزاب.

إذن، فسورة الأحزاب قد فَرَضت على نساء النبي "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ"، ورغم أن اللفظ له مدلولٌ آخر، لكن حسب العقلية التي أفرزت هذه الأكذوبة فـ "قرن في بيوتكن" تعني عدم الخروج إلا لضرورةٍ قصوى. والحرب أقل تلك الضرورات على الإطلاق.

هذا يعني: لو كانت تلك الغزوة قد وقعت قبل نزول سورة الأحزاب فإن الاحتجاج بالحجاب قصة ملفقةٌ وعليه تسقط كل الرواية.

أما لو كانت تلك الغزوة بعد نزول سورة الأحزاب، فإن آية "وقرن في بيوتكن" تعني أن عائشة لم تكن لتخرج من بيتها للغزوة.

ولو رجعنا لآية الحجاب نفسها نجد أن الاحتجاجَ بها احتجاجٌ ساذجٌ:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53)} الأحزاب.

هنا لا بد من الانتباه إلى أن الحجاب ما كان ليمنع الرهط الذين حملوا الهودج أن يسألوا عائشة وهي بداخله حسب ظنهم: "يا أم المؤمنين هل أنتِ بخير؟ نحن على وشك أن نحمل الهودج". إذ إنّ الله تعالى قد سمح لهم بالكلام مع نساء النبي من وراء الحجاب في بيوتهن الآمنة فكيف يكون الحجابُ عذرًا لعدم الاطمئنان عليها في ميدان القتال؟

من هنا نخلص إلى أن مجرد الاحتجاج بآية الحجاب كما في بداية الرواية فإن القصة كلها تَسقط في ميزان العقل والنقل والمنطق، ويَسقط الهودج من ظهر الراحلة، ويسقط معهما صحيح البخاري الحالي من مرتبة القدسية وكونه أصحَّ كتاب بعد كتاب الله، فيصبح كتابَ تاريخ مجهولِ المصدر رَوَّج لأخطر قصة بـــهـــتــــــان في تاريخ العالم، أفلا تعقلون؟

إنني هنا أدافع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الصورة القبيحة المسيئة إليه، وأدافع عن عائشة بنتِ أبي بكر الصدّيق التي كُذِبَ عليها وعنها، وأدافع عن عروةَ بن الزبير رضي الله عنه لأنه لم يَروِ هذا السخف، وأدافع عن محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه لأنه صحح أقل من 0.01% فقط مما كان متداوَلاً عن النبي في

خير القرون، ولا يعقل أنه استخار الله ثم اطمأن قلبُه لهذه الرواية. أغلب الظن أن هذه مِن ضمن التصويبات التي قام بها العلماء الأفاضل في جلسات السماع في دمشق وأغلب الظن أنهم كانوا شخصياتٍ "سريةٍ جدًا" لذلك لم يستطع أحمد شاكر التعرفَ عليهم ولا ابن حجر العسقلاني مِن قبله كما رأينا في "باب الحديث".

وبسقوط الهودج مِن على ظهر الناقة تنتهي القصة. لكن لو تدبرنا تناقضاتِ السيناريو أكثر لفاحت منه رائحة كريهة.

الغائط:

نلاحظ أن الراوي المجهول قد أسهَب في وصف الليلة التي خرجت فيها عائشة للغائط مع أم مِسْطح، وكيف وصفت كل نسبها ونسب زوجها وابنها، وكيف أنها أسهبت في وصف المكان الذي كانوا يتغوطون فيه، والمكان الجديد القريب الذي اختير أخيرًا ليكون مكانَ متبرَّزهم، وكيف أنها وصفت أنهم ما كانوا يتبرَّزون إلا من الليل إلى الليل. كل تلك التفاصيل الدقيقة عن الغائط وعائشةُ كانت آمنةً مؤمنةً داخل حدود المدينة المنورة لا تخشى أحدًا وهي زوج النبي والحاكم، وقد خرجت في رفقة امرأة ولم تخرج وحدَها. إنْ كان هذا هو الحال في أمن وأمان المدينة، فإنه من الضروري جدًا أن يكون ذهابُها للتبرز بالليل في الصحراء في مكانٍ مجهولٍ وفي مكانٍ محفوفٍ بالمخاطر، في رفقةٍ أكثر أمنًا، وربما في حراسة بعض الجند الذين يرقبون الطريقَ وينتظرون عودتها ومَن في رفقتها. إنَّ تناقضَ تأمين عائشة برفقةٍ في رحلة الغائط داخل المدينة، وعدم تأمينها في رحلة شبيهة في ساحة حرب في ظلمة الصحراء يشبه أن يرتدي رجلٌ بدلةً واقيةً من الرصاص في غرفة نومه، بينما يتمشى في ميدان معركة بالبيجاما. هُم يريدوننا أن نصدق هذا التناقض.

وقبل أن نعود إلى سرِّ الهودج، أريد من القارئ الكريم أن يتدبر هذا الوصفَ لطبع العرب في التبرز حينها كما وصِف على لسان عائشة:

{، فخرجتْ معي أُم مسطح قبل المناصع، وهو متبرَّزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، وأمرُنا أمرُ العربِ الأولِ في التبرزِ قِبَلَ الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا،}، إذ إن في هذا الوصف يكمن مفتاحٌ مهمٌ جدًا في فهْم قصة الإفك الحقيقية، وفيه أيضا يكمن سر فهْم عددِ شهود العيان الذين بهم يقوم عذاب الزنا كما سنرى لاحقًا في تفسير سورة النور. وفيه أيضا سر فهْم غض البصر و آية "..... يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ..." التي سأناقشها مع الحجاب في باب "فقه الكلب". فالرواية وإنْ كانت ساقطة المصداقية عن عائشة إلا أنها روايةٌ عربيةٌ قديمةٌ ترسم بعضًا من واقع الحياة اليومية في المدينة حينئذٍ.

إنَّ محاولة إيهامِ القارئ للقصة بأن الهودج كان السبب في عدم انتباه الرهط الذين كانوا يرحلون لها أنها لم تكن داخله، لا تختلف كثيرًا عن قصة توأمَي "ثامار العاهرة" في باب "وقولهم على مريم بهتانا عظيما"، وكيف أن أحد التوأميْن أخرج يدَه أولاً فسُمِّي "فـَارَص"، هذا مِن ضرب ذِكر تفاصيلَ دقيقةٍ ومبرراتٍ كثيرةٍ تكفي لإلهاء القارئ وتعطيل عقله ليصدق القصة.

لا بد أن نتذكر أن الهودج ليس دبابة أو عربةً مُصفحةً. وحتى نفهم الخدعة في قصة "الهودج" لا بد أن نُعمِل عقولنا ونعودَ عودةً بعيدةً لكنها محْكَمَة في التاريخ الإسلامي. عودةً لمقارنة حال العرب قبل البعثة وحالهم بعد مئة سنة هجرية فقط.

قبْل البعثة كان التمييز بين الأعراب والجراد لا معنى له، ولم يهتم بهم أي من الغزاة في التاريخ أن يأخذ منهم صحراءهم الواسعة رغم أنهم كانوا محاصرين بإمبراطورياتٍ وممالكَ عظيمةٍ من كل مكان. إمبراطورية الروم والفرس في الشرق والشمال كانتا الأعظم، لكن مصر في الغرب كانت تحت سيطرة الرومان على ما فيها من تاريخ عظيمٍ يخصها. الحبشة في الجنوب الغربي كانت مملكة عظيمة، واليمن في الجنوب كان فيها تاريخُ ملكٍ عظيمٍ. أمّا وسط الجزيرة العربية فلا شيء فيه غير البيت واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.

الحال حينذاك يمكن تشبيهه للتقريب فقط بحال دولة الصومال اليوم مقارنة مع أوروبا وأمريكا وروسيا والصين.

بعد مئة عام فقط، كان أبناء وأحفاد العرب أنفسهم قد وصلوا إلى أبواب الصين شرقًا وجنوب باريس غربًا. هذا الانقلاب الفجائي في تاريخ الإنسانية حينها كان أشبه بأن تتوهم اليوم أن الصومال بعد مائة عام سترثُ الصينَ وأمريكا وأوروبا وتحكمها وتتحكم فيها. لكن هذا ما حدث حقيقة بعد رسالة الإسلام.

في ذلك الظرف الغريب وغير المسبوق، فإن جيل العرب المسلمين الذين ولِدوا إبان الممالك الأموية والعباسية، كان وجودهم في دمشقَ والأندلس وقصورها وجناتها أمرًا طبيعيًا ولِدوا ونشأوا فيه. لكن ما كان بوسعهم تصور الحياة البدائية البسيطة التي نبع منها الإسلام. نتيجة لهذا الفارق المفاجئ لكنه ضخم جدًا وأبعد من التصور فإن خداع تلك الأجيال بقصصٍ وهميةٍ عن الرسول وزمانه كان سهلاً جدًا. ومن هنا فإن بناء قصةٍ مفبركةٍ على موضوع الهودج والرهط الذين يحملونه قصة كان يمكن تمريرها على بعض الناس فيصدقونها. وبعامل الزمن تنتشر القصة كقصة "حليمة بائعة اللبن" فتصبح جزءًا من التراث، ثم جزءًا من الدين، ثم تصبح هي الدين نفسه.

الهودج مصنوع من خشبٍ وجريدِ نخلٍ وجلودِ أنعامٍ وسعفٍ ووبر. الهودج ليس من إنتاج مصانع "الرولس رويس" أو "المرسيدس". لا يمكن لمن يحمل الهودج ألا يلاحظ أن بداخله فرخةً أم لا، ناهيك عن أن تكون امرأة. ثم إن الهودج ليس مزودًا بحزام رابط لضمان السلام أو أبواب مصفحة، ولا بد لمن يحمله أن يخاطب مَن بداخله ويخبره أنهم على وشك الحمل، وإلا سقط مَن بداخله. والحجاب بنص القرآن لم يمنع الكلامَ مع نساء النبي وإنما مَنَع التطفل فقط داخل الحجرات. بل إن آية الحجاب نصَّتْ على السماح للرجال بمخاطبة نساء النبي من وراء حجاب كما رأينا. إذن، لا يصدِّق إلا ساذجٌ أن الجند الذين كانوا يعرفون أصل البعير هل هو من اليمن أو مكة أو يثرب من نوع بعره، يمكن أن يحملوا هودجًا ولا يعرفون هل بداخله إنسان أم لا؟ ولا يصدق إلا ساذجٌ أن آية الحجاب كانت هي السبب في كونهم لا يسألونها: يا أُم المؤمنين هل أنتِ بخير؟ تصديق القصة وبقاؤها طوال القرون ناتج من قدسية البخاري وتعطيلها لعقول الناس.

حداثة السن:

حاول الراوي خداعَ الناس بوصف عائشة أنها كانت صغيرةَ السن والحجم، خفيفة الوزن، لذلك فإن وجودَها وعدمه ما كان يمكن ملاحظته:

(...وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم، إنما تأكل العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنتُ جارية حديثة السن...).

هذا الكلام يجافي الحقيقة. لو كان المقصود أن عائشة كانت خفيفة الوزن فالأمر ربما يُقبَل، لكن التعميم على كل النساء لا يُعقل؛ لأن من التراث العربي ما يصف غير ذلك، ولأن السِّمْنة والامتلاء والبدانة كانت صفاتٍ جمالية لدى النساء حينها كما وصَف الأعشى:

غَرّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُها   تَمشِي الهُوَينى كما يَمشِي الوَجي الوَحِلُ

أي لا تستطيع المشي من سمنتها كأنها ثور توحل في طين.

فهل أراد الراوي أن يوهمنا أن كل نساء العرب والمسلمين حين قصة الهودج كانت قد أصابتهم مجاعة جعلت وجود المرأة من عدمه داخل هودج من سعف ووبر وجريد نخل لا يمكن ملاحظته؟

الغريب أن البخاري وغيرَه قد رووا أن عائشة كانت ناضجة تستطيع أن تحمل قِرَب الماء في ميدان القتال في موقعة أُحُد التي كانت في السنة الثالثة للهجرة وقبْل غزوة بني المصطلق المزعومة التي كانت فيها خفيفة الوزن.

فقد روى البخاري: "أنّ عائشة و أمّ سُليم رضي الله عنهما كانتا تنقلان القِرَب على متونهما، ثمّ تفرغانه في أفواه القوم، ثمّ ترجعان فتملآنها، ثمّ تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم"

أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير، باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال(2880)، ومسلم في الجهاد والسير(4786)، والبيهقي(18311) من حديث أنس رضي الله عنه.

والقِرَب معروفة لليوم وهي غالبًا ما تُصنَع من جلود الأغنام أو الأبقار، ولا يقدر على حملها إلا مَن كان وزنه على الأقل يساوي مرتين أو ثلاثَ مرات أضعافَ وزنِ القِرْبة. فكيف بنا نوفِّق بين النقيضيْن في وصف حجم ووزن عائشة حينها؟ حتى أُبَسِّط فهْمَ التناقض: لنفترضْ أنه كان في الهودج قِرْبةٌ مليئة بالماء، هل كان من الممكن للرهط حمله من غير الشعور بها؟ الإجابة هي "لا" لمن يعرف القِرْبة ويعرف الهودج. مِن هنا فإن وجود مَن كانت تحمل القِرَب نفسها وليس قِرْبة داخل الهودج لا يمكن أن يكون وجودًا غير محسوس، اللهم إلا إذا كانت القصة كلها محض خيال ووهْم.

إنّ القصدَ مِن هذه الرواية هو تنويم العقول لتتصور عائشة "بيبي" صغيرةً جدًا، وزوجها لا يشعر بمسئوليةٍ تجاهها، ولِمَ لا وهو يتزوج طفلة ويقتات بالنهب المسلح؟

فقد أورد البخاري في صحيحه في باب: "مَا قِيلَ فِي الرِّمَاحِ" عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه قال { جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي}

ورَوى أحمد بن حنبل الحديث رقم (4868) في كتاب سند المكثرين من الصحابة: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ يَعْنِي الْوَاسِطِيَّ أَخْبَرَنَا ابْنُ ثَوْبَانَ عَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي مُنِيبٍ الْجُرَشِيِّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ }.

ونحن نقول بحمد الله إن الله قد قطع هذا الطريق الذي لا يسترزق منه إلا قُطّاع الطُّرُق بصريح اللفظ في أحسن الحديث:

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (100)} يونس.

لو تدبرنا الرواية في موضوع "حداثة السن" نجد أن هذه الصفة قد تكررت ثلاثَ مراتٍ، وهو تكرارٌ مملٌ مُخِلٌّ بالجمال اللغوي. غير أن الراوي لم يتكرم أبدًا ليشرح لنا ماذا يعني تعبير حديثة السن؟ هل كانت بنتَ خمس سنوات أم سبع أم عشر؟

حسب أقوال المحدّثين فإن عائشة كانت في الخامسة عشرَ حينها، هذا طبعًا بافتراض أن النبي تزوجها وهي بنت ستِ سنين ودَخَل عليها وهي بنت تسع سنين بعد الهجرة وأن غزوة بني المصطلق كانت في السنة السادسة بعد الهجرة، لكن سنناقش سن عائشة حين الزواج لاحقًا. هنا نأخذ رأي المحدّثين على خطيئته لكشف التناقض فقط. فهل شابةٌ بدويةٌ في الصحراء في سن الخامسة عشر توصف بأنها حديثة السن لدرجة لا تفقه فيها شيئا ولا وزن لها في جسدها مهما كان هزاله؟

إنّ الراوي تجرَّأ جرأةً قاتلةً في تركيزه على حداثة سنها لدرجة صوَّرتها كأنها كانت أدنى من سن الفهْم والتعليم حينها، فقد قال:

{..قالت: فقلتُ، وأنا جارية حديثة السن لا أقرا كثيرا من القرآن: إني واللهِ لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة لتُصَدِّقُنِّي، والله لا أجد لكم مثلا إلا قولَ أبي يوسف {فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون} (يوسف:18).}

هنا نجد أنفسنا أمام معضلةٍ فريدةٍ من نوعها. فبعْدَ كل المحاولات للتقليل من شأن عائشة في سنها وحجمها، يصفها الراوي أنها كانت لا تقرأ كثيرا من القرآن. يا سبحان الله! دعونا ندقق في هذه المعضلة ونفترض من باب الجدال فقط أن لفظ "حديثة السن" هنا يعني أنها كانت بنت سبع سنوات فقط، فهل هذا السن أدنى من أن تقرأ القرآن كاملاً؟ يا عجبي: فصحيح البخاري الذي نقلتُ منه هذه الأحاديث، بل وكل المراجع التي تعرف به تصفه وهو عجمي أعمى أنه حفظ القرآن قبل سن التاسعة وحفظ الحديث في سن العاشرة أو قبلها. بل لو رجعنا لسيرة

كل المفسرين وأئمة السلف العجم لوجدنا أن أغلبهم قد حفظ القرآن في السابعة من عمره. فكيف بنا نوفّق بين بنتٍ "حديثة السن" لا تقرأ من القرآن إلا القليل وبين الرواة والفقهاء النوابغ الذين حفظوا القرآن والحديث قبل العاشرة؟ أفلا يعلم هؤلاء أن عائشة المقصودة هذه رضي الله عنها وأرضاها كان الوحي ينزل على رسول الله وهو في فِراشها؟ وأن ما يسمَّى بـ "الحديث" هو أصلاً كلامُ زوجِها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ؟ إن راوي هذه الرواية افتقَدَ أدنى صفات الحكمة في استخدام مصطلح حداثة السن، لذلك لا غرابة في أنه سرعان ما ناقض نفسه حينما استدلت عائشة بآية من سورة يوسف في الفقرة نفسها التي قيل فيها إنها لا تقرأ القرآن.

الطريف في الأمر أن ابن حجر العسقلاني صاحبَ أشهر شرح لكتاب البخاري، قد قال في مقدمة كتابه " هدى الساري" ما يلي:

(اعلمْ، علّمَني اللهُ وإياك أن آثار النبي -صلى الله عليه وسلم- لم تكن في عصر أصحابه وكبار مَن تبعهم مدونة في الجوامع ولا مرتَّبَة لأمرين، أحدهما: أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نهوا عن ذلك كما ثبت في صحيح مسلم خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم. وثانيهما **لسِعة حفظهم وسيلان أذهانهم**، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة،...).

إذن، كلُّ أصحابِ النبي كانوا يتصفون بسعة الحفظ وسيلان الأذهان، ما عدا عائشة -رضي الله عنها- زوج النبي وبنت الرجل الثاني في المجتمع، فقد كانت تفتقر للذكاء والمقدرة على الحفظ !

ولقد رأينا أن عبد الله بن عباس روى 1660 حديثا، وقد مات النبي وعمرُه عشر سنوات ولم يوثق التاريخ صلته بالنبي أكثرَ من مرةٍ حَمَل له إبريقَ الوضوء.

ورأينا أيضا في مقدمة البخاري أن البخاري نفسَه كان يحفظ سبعين ألف سردًا وهو صبيٌّ دون العاشرة.

وناقضَ البخاريُّ نفسَه مرة أخرى في باب - قوله: "بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمَر" عن عائشة قالت: {لقد أُنزل على محمد بمكة، وإني جارية ألعب "بَلِ السّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ" }. لاحظ دقة التعبير أولاً: عائشة هنا تتحدث عن زوجها محمد، مقارنة بـ "رسول الله -صلى الله عليه وسلم- " في الرواية أعلاه! والمعلوم بلا خلاف أن سورة القمر نزلت بعد أربع سنوات من بدء الوحي، أي حوالي سنة 614 ميلادية. وحسب تناقضات البخاري في أمر عائشة فإن سنة 614 كانت هي سنة ميلادها إن لم تكن قبل ميلادها كما سنرى لاحقًا. لكن لنفترض أن عائشة كان عمرها بضع شهور لإخراج البخاري من الحرج، فكيف لها أن تعي وتَفْقه سورة القمر يوم نزولها سنة 614 ، بينما لا تقرأ كثيرًا من القرآن في فترة حادثة الإفك التي وقعت تقريبا سنة 628 ميلادية حسب تاريخ غزوة بني المصطلق؟

وأختِم مناقشة متن هذا "الأثر" وليس "الحديث" الموضوع المنكر في البخاري والذي اعتمَدَ عليه كل المفسرين في الترويج لقصة الإفك وارتباطها بعائشة، أختم بالفقرة التي انتقصتْ من مهابة النبي الكريم.

رسول الله أم البخاري؟:

{... فدعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي، يستأمرهما في فراق أهله، قالت: فأمّا أسامة بن زيد فأشار على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله، أهلك وما نعلم إلا خيرا. وأمّا علي بن أبي طالب فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإنْ تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بريرة فقال: "أي بريرة، هل رأيتِ من شيء يريبك؟" قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إنْ رأيتُ عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله...}.

نلاحظ هنا أن النبي يصوَّر لنا كأنه فاقد الحكمة وفاقد الأهلية ليكون زوجًا وقورًا. إذ كيف يستشير الأغرابَ في سلوك زوجه حتى إن كان قد شك فيها؟ إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن مثلنا في تعامله مع الأحداث اليومية وأحداث الغيب. إنْ كان الوحي قد انقطع عنه شهرًا كما صورت الرواية فهذا يعني أن أمرًا جللاً قد حدث، ويعني أيضًا أن الله سيخبره بالغيب الذي لا يعلمه آجلاً أم عاجلاً، فلا شأن لعلي -رضي الله عنه- وأسامة بن زيد وبريرة في اتهام أو تبرئة عائشة إذن،، اللهم إلا إذا أراد الراوي أن يصور لنا النبي في موقف التيه وفقدان الاتزان حتى يلجأ لهذا الأسلوب. لكن الواضح أيضا أن الراوي أراد أن يخبرنا بهوان شأن عائشة في نظر علي بن طالب -رضي الله عنه-، بل وفي نظر الجارية بريرة التي وصفتها وصفًا يشابه الهبل. فمقولة "تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله" تشبه المَثَل الشعبي في كل الثقافات الذي يحمل المَعنى نفسَه ويُستعمَل في وصف الأحمق أو الأهبل. في السودان يقول المَثَل:" العنزة تأكل عشاءه". أي أنه أكثر سذاجةً من العنزة التي تتغلب عليه وتأكل منه طعام عشائه. ولا ننسى ملاحظة أن عليًا -رضي الله عنه- الذي عرض عليه أن ينسى عائشة ويتزوج غيرها، كان هو مَن وجَّهَه ليستشير بريرة الجارية وكأنه تآمر مع بريرة أن تصِف عائشة بأنها ساذجة.

القارئ الكريم: إن كتابة هذا الباب كانت ثقيلة على نفسي كما هي ثقيلة عليكم الآن. لذلك أكتفي بما قدمتُ من مناقشة لهذا "الأثـــر" الذي لا يدع مجالاً للشك أنه مدسوسٌ على عائشة وعلى مَن رواه زعمًا، بل وربما حتى محمد بن إسماعيل البخاري نفسه بريء منه، وهو إنما أُضيف مع ما أُضيف في تحريف البخاري ليكون قرآنًا مزوَّرًا موازيًا لكتاب الله حتى نتبعه ونتخذ القرآن مهجورًا.

البــهــتــان :

لا بد من التدبر في البعد الخطير للربط بين عائشة وحادثة الإفك في سورة النور. فغيْرُ المسلمِ يصدق التاريخَ لكن لا يؤمن أن القرآن مِن الله. وحينما نُصِرُّ نحن على مصداقية البخاري بما فيها هذه الرواية المضحكة المبكية فإننا نؤكد للعالم أن التهمة وقعت، لكن حينما نقدم لهم القرآن كدليل البراءة الوحيد فإنه غير مقبول إلا لمن يؤمن بأن القرآن مِن الله. مَن يؤمن أن القرآن من إنتاج محمد فسوف يظن بكل بساطة أن القصة حقيقية بشهادة مليار ونصف مليار مسلِم اليوم، "ومليارات المسلمين الذين قضوا منذ تأليف القصة"، لكن لمّا لم يستطع محمد تبرئة زوجته، قام بكتابة براءتها في القرآن الذي يزعم أنه مِن ربِّه. وبهذا تحولت قصة الإفك في سورة النور التي لا علاقة لها البتة بعائشة ولا بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، إلى أقبح "قصة بهتان" نروِّج لها نحن المسلمون ليسمع العالم كله أن زوج النبي اُتهمِت بالزنا ولبستها التهمة.

ولا بد من التنبيه أيضًا إلى حقيقةٍ جدُّ خطيرة. فاتهام الإنسان ببعض التهم ربما يكون شرفًا حتى وإنْ لم تكن التهمة ثابتة، بينما اتهامه ببعض التهم يظل عارًا ثابتًا مهما تراكمت أدلة البراءة. فاتهام المسئولين بسرقة المال العام غالبًا ما يَستاء منه بعضهم لكن أيضًا يحسدهم عليه بعضٌ آخر. وفي كلا الحالتين لا يهتم الناس كثيرًا بالبراءة أو ثبوت التهمة؛ لأن التلاعب بالمال العام أمرٌ شائعٌ ويعتبر من "الشطارة" لدى البعض. واتهام الإنسان بالقتل ربما يجلب له التعاطفَ والشفقة والتعاضد لإثبات براءته من قِبَل أهله ومحبيه، ويكون يوم فرح وعيد حينما تثبت البراءة ويُقبَض على القاتل الحقيقي. أمّا مجرد الاتهام بالزنا فهو كارثة وعيبٌ سيلتصق بذاكرة الناس إلى يوم القيامة عملاً بقاعدة "لا دخان بلا نار". ذلك لأن الجنس أصلاً من الخصوصيات التي يحب الناس الحديثَ عنها وتلوكها الألسن، ويجد الكثيرون متعة وفكاهة في مجرد الحديث عن خصوصيات الآخرين. وأيضا لأن الرغبة الجنسية أمرٌ فطريٌّ وشهوةٌ عنيفة في كل إنسان سَوِيّ ذكَرًا كان أم أنثى، لذلك فوقوع زيد أو عبيد فيها لا يستغربه الناس من حيث المبدأ، على عكس القتل مثلاً. إذن، بقانون الإنسانية الفطري فالجميع معرَّض للوقوع في معصية جنسية، والجميع له خصوصيات لا يعلمها الناس. فإذا ظهر دخان، ولو إشاعة، فإنَّ نفيَه يصبح مستحيلاً. وهكذا فإن أي خطيبٍ يهرِّج من فوق منبر يعلن براءة عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- بناءً على معطيات سورة النور، فهو أولاً يساهم في نشر البهتان عليها، وهو ثانيًا يترك الناسَ بين مصدِّقٍ لقصة البراءة ومكذِّبٍ لها، مهما زعق وكان صوته عاليًا في المنبر.

وقد كان هذا هو موضوع كتاب "آيات شيطانية" للكاتب البريطاني من أصل هندي شيعي لكنه ألحد "سلمان رشدي"، فكَتَب كتابَه الذي وصف فيه أن محمداً لم يجد حيلة لحفظ ماء وجهه غيرَ كتابةِ البراءة في القرآن الذي يزعم أنه مِن ربِّه، والناس تصدقه فبرَّأ زوجتَه من تهمة ثابتة. ونحن نشهد على مصداقية التهمة بناءً على هذا الهراء أعلاه لأنه فقط في صحيح البخاري بعد أن أوهمونا أنه أشبه بكتاب رب العالمين وثاني أصح كتاب تحت أديم السماء، بل وأنه يمثل السُّنّة التي تشرح طلاسم القرآن الذي لا يمكن فهْمُه إلا بالسُّنّة. حسبنا الله ونعم الوكيل!

خلاصة القول: إن الراوية التي نسجت في أذهان المسلمين أن سورة النور نزلت لتبرئة عائشة في قصة الإفك لا أصل لها، وإنما هي رواية مزورةٌ بامتياز. وهذا يعني أن عائشة ما خرجت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في تلك "الغزوة" المجهولة، وأنها ما فُقِدت، وما عاد بها غريبٌ، ولا تحدَّثَ عنها أحد بسوء في المدينة إطلاقًا. بمعنى آخرَ: فقدْ مات النبي الكريم وماتت عائشة -رضي الله عنها-، ومات أبو بكر الصدِّيق ومات عمر وعثمان وعلي -رضي الله عنهم جميعًا- زمنًا قبل أن تَظهر قصة الإفك على عائشة، لذلك فإن الجمْع بين قصة الإفك في سورة النور وبين عائشة يصبح بهتانًا عظيمًا، احذرْ أن تكون من الضالعين فيه بعد قراءة هذا الباب.

أعلمُ أن القارئ ربما يصاب بصدمة مما قرأ حتى الآن، لكن أطمئنه أن القادم أدهى وأمَرّ حينما نتدبر سورة النور "الحديثة". لكن من المهم جدًا في هذه المرحلة أن نتدبر في هوية مَن صَنع هذه القصة ودسَّها على المسلمين. فقصة اتهام زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- بالزنا قصة غاية في الخطورة. ودسُّها في التراث الإسلامي لا بد وقد اجتمعت له رؤوسٌ كثيرةٌ واعتمدوا على خبرة آلاف السنين من تحريف وصناعة الأديان وخداع الشعوب. والعرب ما كانت لديهم هذه الخبرة فضلاً عن أن مِن أبرز سمات العرب قديمًا وحديثًا هو عدم مقدرتهم على الاتفاق منذ زمن داحس والغبراء إلى زمن داعش الغبراء. هذه القصة احتاجت لاتفاقٍ وتنسيقٍ بين مجموعة كبيرة من المتحدثين المحترفين في أماكنَ متفرقةٍ من الرقعة الإسلامية لبثِّها معًا في آنٍ واحدٍ وتكرارها حتى تجد طريقها لكُتُب التراث. وليس صعبًا حينَها كتابة الرواية أعلاه بأثرٍ رجعيٍّ. هذه الخبرات لم تكن متوفرة إلا لمن قال على مريمَ بهتانًا عظيمًا. هنا فقط يمكننا مقارنة أن إقناع كل المسلمين بها على مدى ألف عام لا يختلف عن إقناع المسيحيين على مدي ألفيْن عام بأن المسيح هو الله أو ابن الله الذي مات وبُعِث من أجلهم. وبرأيي هذا لا أقول إن اليهود أشدُّ عداءً لله ورسوله من مشركي العرب، وإنما أقول إن العربَ حتى وإن هُم أرادوا محاربة النبي بهذا المستوى فإنهم يفتقرون للموهبة والحرفية والخبرة. لا شك أن العرب ساهموا في نشر القصة، لكن الصناعة أجنبية. ولا أشك لحظة أن كثيرين من العرب واسمهم أحمد ومحمد وفاطمة وعلي اليوم سيقفون بشدةٍ ضدَّ مجرد إثبات كذب قصة البهتان على عائشة؛ لأن مصالحهم تقتضي بقاءَ القصة ولو كانت تؤذي رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- .

وهنا بطبيعة الحال لا بد أن تطرأ أسئلة عصيبة في ذهن القارئ منها:

أولاً: لماذا حاول البعض تدميرَ سيرةِ عائشة -رضي الله عنها- بهذه الصورة البشعة من دون سائر نساء النبي والمؤمنين؟

ثانيًا: لماذا أُتُّخِذت هذه القصة الملفقة تفسيرًا لسورة النور؟

ثالثًا: ما هو أصل قصة الإفك التي وثقها القرآن ولا مجال لإنكارها في سورة النور إن كانت لا علاقة لها بعائشة؟

لنبدأ بالإجابة على السؤاليْن الثاني والثالث حتى تتضح لنا الرؤية قبل أن نعود لسيرة عائشة وإعداماتها مرة أخرى في ختام الباب. فقد أُعدِمت عائشةُ رضي الله عنها وأرضاها على الأقل ثلاثَ مرات: أعدمت بقصة زواجها وهي طفلة بنت ست سنوات. وأعدمت بقصة البهتان التي يتناقلها المسلمون اليوم. ثم أعدمها معاوية بن أبي سفيان أخيرًا حينما كانت الصخرة التي كاد ينهار تحتها انقلاب بني أمية.

لكن قبل ذلك لا بد للقارئ الكريم أن يمحوَ مِن ذاكرته ولو إلى حين، عِلمَ الحديث وعلومَ القرآن والتاريخ الإسلامي المشوه ويعود بخياله لعصر النبوة منذ بدء الوحي إلى موت النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى نستطيع

أن نتدبر سورة النور بعيدًا عن القرآن الموازي الذي عمد إلى تحريفها وإطفاء نورها ونور الله في السموات والأرض.

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

سورة النور هي السورة رقم 24 في ترتيب سور القرآن، والاسمُ مع الترتيب توقيفي بمعنى أنه تم وفقًا لأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- كما أمره الله تعالى.

سورة " النور" اسمها يشع نورًا وتتوسطها تقريبًا الآية الوحيدة في القرآن التي مثّل الله فيها نوره بشيء معلوم للإنسان بتفاصيلَ علميةٍ دقيقة تجاوزتها كل كُتُب التفسير ولم ينتبه لها إلا القلائل من المعاصرين الذين بدأوا يتدبرون القرآن بعد أن خرجوا من الظلمات التي فرضتها كُتُبُ التفسير عليه قرونا طويلة:

{اللَّهُ **نُورُ** السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ **نُورِهِ** كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا **يُضِيءُ** وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ **نُورٌ** عَلَى **نُورٍ** يَهْدِي اللَّهُ **لِنُورِهِ** مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)} النور

وليس المجال هُنا لتأويل هذه الآية التي لو عَلِم الناسُ بعض ما فيها من أسرار الكون لأصابتهم الصاعقة، إذ إن ما أسعى إليه هنا الآن هو تحرير سورة النور نفسِها من البهتان على عائشة. فالذين عجزوا عن تحريف القرآن من الداخل قد لجأوا لتحريفه من الخارج كما أسلفنا في باب علوم القرآن، وقد نالت سورةُ النور النصيبَ الأعظم من التحريف لأن نزولها كان صاعقة عليهم، لذلك سأدخل في الموضوع مدخلاً صاعقًا.

الصاعقة:

سورة النور هي السورة الوحيدة في كل القرآن التي سماها الله "سورة"، ووصف أنه "أنزلها وفرضها"، رغم أن المضمون ينطبق على كل القرآن، إلا أن التصريح به هنا وجعله قرآنه يُتلى يشبه إعلانَ حالة الطوارئ القصوى التي تتبع الانقلاباتِ العسكرية حيث يعطل الدستور والقانون ويفرض الحاكمُ الجديد سلطانَه وحدَه لقلب كل ما هو مألوف ومتعارف عليه بين الناس، وهكذا نزلت الصاعقة:

{سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1)} النور

هناك فرْقٌ بين "أنزل" و "نزّل" كما شرحنا في باب "علوم القرآن". أنزل تفيد الإنزال الميكانيكي المجسد كأنزل الماءَ وأنزل الحديدَ، وأنزل الأنعام. و القرآن مرَّ بمراحلَ عديدةٍ بين الإنزال والتنزيل. فقد أنزله الله كاملاً في ليلة القدر ثم نـزَّله مفرَّقًا على قلب النبي كما أسلفنا.

سورة النور أنزلها الله مرتيْن: مرة مع الإنزال الأول للقرآن، ومرةً حينما أنزلها كاملة على قلب النبي ليكون لها وقْعٌ خاصٌ وصَفَه بالفرض.

والفرض في اللغة هو الأثر بالشيء، الخاتم أو الدبلة أو الساعة في المعصم تضغط عليه فتترك أثرًا كالحزّ على الجلد يسمّى "فرضًا". ولفظ الفرض في الشرع يفيد العباداتِ التي يُفتَرض أن تترك أثرًا ملموسًا واضحًا في نفس

المتعبِّد. هنا يصف الله السورةَ بأنه فرضها أي أنها تحتوي على توجيهات و قوانين صارمة تترك أثرًا واضحًا في حياة الناس يلغي كل ما كان سائدًا ومتعارفًا عليه قبله. وعليه فهي السورة التي فرض الله تعالى آياتِها البينات في ذلك الظلام البهيم ليؤسس بها أعظمَ مجتمع إنساني أخرج للناس. فما هي تلك اللبنات التي فرضها الله لبناء المجتمع النوراني؟

حصانة المرأة:

قُلنا في باب "علوم القرآن" إن ما يسمَّى بـ "عِلم الناسخ والمنسوخ" ليس إلا بدعة قصد منها العبث بالقرآن وأحكامه وفقًا لأهواء الساسة وفقهاء السلطان الذين يعطلون ما شاءوا من أحكام القرآن بآياتٍ أخرى كيفما يرون بحجة أن هذه نَسخت تلك. بل إنه بعد تقديس الحديث أصبح الحديث في بعض الأحيان ناسخًا للقرآن ومقيدًا له كيفما يشاء الفقهاء. فأصبح عِلم الناسخ والمنسوخ فوضى أدت إلى ضياع فهْم الكثير من أحكام القرآن وحكمته في تدرج الأحكام الشرعية. "النسخ" في اللغة يعني أن تأتي بصورة طبق الأصل من المنسوخ. لكن الذي حدث هو أن القرآن ألغى الكثير مما شرعه الله و فرضه على بني إسرائيل في الشرائع القديمة كما صرح بذلك على لسان عيسى بن مريم أولاً:

{وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)} آل عمران.

نلاحظ دقة اللفظ القرآني هنا: فعيسى-عليه السلام- لم ينسخ التوراة لأنه لو فعل فهذا يعني تثبيت كل أحكامها في نسخة جديدة، لكن الله وصف ما أتى به أنه مصدق، أي يؤكد مصداقية التوراة التي أُنزلت على موسى ومِن بعده من الرسل، لكنه أحلَّ لهم بعض الذي حُرِّم عليهم. إذ إن الله كان قد حرم أشياءَ على بني إسرائيل عقابًا لهم نتيجة تعنتهم وتمردهم على الأنبياء والمرسلين المتكرر لا مجال لذكرها هنا.

ثم جاء الرسول -صلى الله عليه وسلم- برسالة الإسلام الأخيرة مهيمنًا على الدين كله:

{وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)} الأعراف.

إذن، فالنبي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل لم ينسخ التوراة ولا الإنجيل وإنما أتى بأحكام جديدة: {.. يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...}

ولأن القرآن هو الصورة الأخيرة مِن التنزيل مِن الله إلى كل الناس إلى يوم القيامة، فكانت أحكامه هي الأحكام الفطرية المرنة التي تناسب الناسَ في كل زمان ومكان على عكس الأغلال التي عوقِب بها بنو إسرائيل في الشرائع السابقة. وتدخل سورة النور في أخطر مواضع التشريع الرحماني التي أثارت حقدَ اليهود عليه ودفعتهم لتحريف السورة من الخارج كما أسلفنا. فكانت العَشرة آيات الأولى فيها صاعقة الصواعق التي لم يتحدث عنها أيٌّ من المفسرين سابقًا إذ إنهم كانوا منومين مغناطيسيًا بقصة الإفك التي استحوذت على السورة:

{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2)

هنا يفرض الله تعالى عقوبة الزنا في صورتها الأخيرة الباقية ليوم الدين. لكن ما هو الزنا؟

المتدبر للقرآن يعلم أن اللهَ يشير للعلاقات الجنسية غير الشرعية في الكثير من الآيات بالفاحشة. ولفظُ "فاحشة" لفظٌ عامٌ يفيد كلَّ ما استفحش من قولٍ أو فعلٍ، أيْ تجاوز الحد المألوف فاستقبحه الناس. واللفظ لا علاقة له بسلوكٍ محددٍ وإنما فقط يوصف به ما شذّ عن المقبول، لذلك نَصِف الثراءَ الذي يفوق التصور بـ "الثراء الفاحش" لأن فيه تكديسًا للأموال في يدٍ واحدةٍ وحرمان كثيرين منها. العلاقات الجنسية غير الشرعية عمومًا في القرآن تدخل تحت مسمّى الفاحشة، وهذه ليس عليها عقوبات دنيوية وإنما نهي وتحذير من عقاب الآخرة ودعوة للتوبة.

"الزانية" و"الزاني" هُمَا على وزن الفاعلة والفاعل. وهذا يعني استمرارية العمل وامتهانه والمجاهرة به. فمَن مارسا علاقةً جنسيةً من غير زواجٍ شرعيٍّ سرًا في الخفاء فالأمر بينهما وبين ربهما ولا ينطبق عليه لا اسم الزنا ولا عقوبة الجلد أعلاه. هذه الصفة هي للذين يمتهنون المهنة أو يدمنونها ويشتهرون بها. لذلك نلاحظ أن الآية أصلاً لم تشترط أو تصف أي وسيلة إثبات للزانية والزاني. هي عقوبة توقَّع على مُلّاك بيوت الدعارة بصريح اللفظ لذلك لا يَتطلب الأمر فيها شهودًا لأنها أصبحت مهنة لهم.

هذا هو تفسير الظاهر من هذه الآية. لكن البعد المرعب فيها، إذا قبلنا تأويلنا للسورة في بداية هذا الباب، وأنها أول ما نزل على النبي في المدينة، هو أن الله بدأ يقفل أبوابًا تأتي منها رياحٌ تضر المجتمعاتِ ولا تنفعها أبدًا. فقد رفع من سقف تعريف القبيح من العلاقات الجنسية لدرجةٍ عاليةٍ جدًا يصبح من شبه المستحيل معها اتهام واحدٍ أو اثنين أو إثبات تهمة عليهما إلا إذا كانا "عاهرة محترفة" و"قوادًا". ما دون ذلك لا سمّاه ولا وضَع له عقوبة في الدنيا، ولا شأن للناس بالحديث عنه أو البحث عنه. هذا لا يعني رفْعَ صفة الإثم عن الفاحشة، وإنما نتحدث عن العقاب الدنيوي. فالقرآن أصلاً لم يصِف عقوبة للكذب ولا لعقوق الوالدين ولا لأكل الربا، وهي مِن الكبائر. هذه آثامٌ عقابها في الآخرة فقط. وبالمنطق نفسه فقد انطلق البيان رقم واحد في بناء أرقى مجتمعٍ إنسانيٍّ في التاريخ مِن أدنى مستوى حضاري ممكن، بقفل باب الحديث عن القضايا الجنسية حتى يرتفع الناس فوق اهتمامهم بالجوانب الحيوانية لبعضهم بعضًا ويتركوها بين العبد وربِّه. إنها ضربة موجعة جدًا لليهود الذين امتلأ تاريخُهم بقصص المتاهات الجنسية التي أهلكتهم وأنبياءَهم، حسب وصفهم، وأصبحت كل همهم الشاغل.

ما يرجِّح تأويلنا أن لفظَتَي "الزانية" و"الزاني" يفيدان الاستمرارية والاحتراف، وليس ممارسة جنس خارج إطار الزوجية، كما أن هذه الآية أتبعت بآية ترفع أيضًا من سقف مفهوم الزنا لتقارنه بالشِّرْك:

{الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3)}.

فلو كان كل مَن مارس الجنسَ خارج العلاقة الزوجية في سترٍ يسمَّى زانيًا وتنطبق عليه هذه الآية فإن الكثير جدًا مِن الزيجات في المجتمعات المسلِمة تصبح باطلة؛ لأن أحد الطرفيْن قد حُرِّم على الآخر. وهذا ما لم يقُل به فقيهٌ على امتداد التاريخ الإسلامي، إذ إن الجنس غيرَ الشرعي معصيةٌ كبقية المعاصي التي يستر الله فيه الكثيرين ويغفر لهم في الآخرة إنْ هُم استغفروا وتابوا. إذن، المقصود باللفظة هو المحترف المجاهِر وهذا نادر جدًا حتى في المجتمعات غير المسلِمة.

قلتُ كثيرًا: إن العقولَ الكبيرةَ تناقش الأفكارَ، والعقول المتوسطة تناقش الأحداثَ، أمّا العقول الصغيرة فتناقش الأشخاص. المادة الأولى في البيان رقم واحد الذي بنى ذلك المجتمعَ النوراني كانت رفعَ أفق اهتمامات الناس مِن الانشغال بالأشخاص وسلوكهم الخاص للانشغال بالأفكار البنَّاءة. وعليه فقد رفع مِن سقف تعريف العلاقات الجنسية التي تستحق العقوبة الدنيوية إلى منتهاه. رغم هذه المفاجأة، نلاحظ أن العقوبة جاءت عقوبة رمزية لا غير. فالجَلْدُ هو أبسط العقوبات التي يمكن أن يتعرض لها الإنسان وقد كان وما زال هو العقوبة العامة التي يتعرض لها الأطفالُ في المدارس. هذا المدخل الصاعق، في مجتمع اختلطت فيه قبائلُ متباينة مِن غير سابق إعداد، وعَجّ بالهائمين على وجوههم بلا مأوى، قفل البابَ أمام الشيطان أن يشغل الناس بخصوصيات بعضهم بعضًا حتى يتفرغوا للبناء. فجاءت التسمية فقط لأبشع شكل من أشكال الفاحشة "الاحتراف" ثم كانت العقوبة هي أبسط العقوبات التي ألِفها الناس "الجَلْد".

اليوم نحن نعيش في واقع هو العكس تمامًا بعد أن شربنا السم. فالشرفُ ما عاد يعني لنا لا الأرضَ ولا المالَ العام ولا العقيدةَ ولا الحرياتِ العامة والعدالة ولا المساواة أمام القضاء، ولا التكافل الاجتماعي ولا الصدق ولا التفوق العلمي ولا الإبداع الفكري ولا الصناعة ولا التكنولوجيا، ولا ولا. الشرف هو غشاء البكارة فقط. التلفزيون يتحفنا بصناعة الموت ويمجد أحداثَ الدمويين و يخبرنا عن كم قُتِلوا كالجراد كل يومٍ والأمرُ عادي! لكن: "كُلّو إلا الشرف!" لو رأى أختَه يعاكسها ابنُ الجيران يمكن أن يقتلها، هذا بالضبط ما أرادت المادة الثانية من البيان رقم واحد بعد إعلان حالة الطوارئ صرفَ الناس عنه.

هل تذكر كيف فسَّرنا في نظرية " آذان الأنعام " كيف ولماذا نَهى الله مجموعة آدم ألا يقربا هذه الشجرة؟ لأنه أراد لهم أن يشغلوا عقولهم بالتدبر في الكون.

هنا بدأ الله مِن حيث بدأ مع آدم، لكن بطبيعة الحال فتِلْكُما الشجرة معلومة لديهما لكنه فقط أراد وبصرامة أن يجعل الحديث عنها آخر اهتماماتهم التشريعية، لذلك فلا عقوبة إلا للعاهرة والقوَّاد. ما دون ذلك فلا اسم له ولا عقاب في الدنيا.

لا بد أن ننتبه إلى أن مهنة الزنا فيها استفزازٌ للشعور العام لامتهانها عَلَنًا، لذلك جاء العقاب عقابًا جسديًا يشهده طائفة مِن المؤمنين. قفل الباب بأسلوب اجتماعي فيه قدْر من الإهانة يشبه إهانتَهم للجيران والمجتمع بمجاهرتهم!

نلاحظ أيضا أن الآية لم تَصِف الزانية أو الزاني بأنهما محصنان أو غير محصنيْن، إذ إن الحُكم واحد على المتزوج وغير المتزوج وهو الجَلْد مائة جلدة كما سيتضح لنا لاحقًا. وتمضي الآيات المفروضة لترمي صاعقة أخرى:

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)}

كان وما زال سائدًا في كل المجتمعات أن الرجل يمكنه ببساطة أن يتهم امرأةً بسوءِ الخلق أو يرميها بتهمة الزنا لأهواء شخصية؛ لأن مِثل هذه التهم تهدم البيوتَ والأسَر بمجرد إطلاقها ولا تنفع معها البراءة لأن النفس البشرية تميل لقاعدةٍ: لا دخان بلا نار، كما أسلفنا في تعقيبنا على خطورة مجرد الربط بين عائشة وقصةِ الإفك. وهذا كان أصلاً مدخلاً لتلفيق قصة الإفك مع عائشة، كون المسلمين يختلفون في وهْم أن الله برَّأها أم لا، فهذا شيء آخر، لكن في هذه القضايا فإن مجرد التهمة يمكن أن تهدم أسرة أو تقيم حربًا، ومهما تكاثرت أدلة البراءة ستظل التهمة عالقة بالأذهان ويُضرَب بها المَثل. وعليه فإن القصد مِن صناعة البهتان هو فقط جعل المسلمين كالقِرَدة يرددون أن عائشة كانت متهمة. مجرد قبولنا لمصداقية الاتهام تاريخيًا فقد وقع البهتان.

ولم تكن الشرائع سواءٌ أكانت الوضعية أو الدينية قد وضَعت عقوبة صارمة تردع هذا الاستغلالَ لطبيعة الأنثى الحساسة، أو لحساسية مجرد الاتهام. فجاءت سورة النور الصاعقة لتردع مثل هذه الاتهامات وتجعلها من العقوبات المفروضة من أجل تحصين حُرمة المرأة. نلاحظ أن الآية اشترطت الإتيانَ بأربعةِ شهداءَ لإثبات الاتهام. هذا يعني أنه حتى لو مارست امرأةٌ محصنةٌ متزوجةٌ الجنسَ مع غير زوجها ورآها ثلاثةُ شهودٍ عدولٍ ولم يستروها فإن عقابَهم هُم الجَلْد ثمانين جلدة إنْ هُم تحدثوا بما رأوا، ولا عقاب عليها البتة. المضمون الفكري والبعد الاجتماعي لهذا التشريع الذي أنزله الله تحت حصانة "سورة أنزلناها وفرضناها" له أبعادٌ يصعب حصرها في السلوك الإنساني الذي تعارَف عليه الناس في كل المجتمعات حتى المتحررة جدًا في يومنا هذا.

أكرِّر: لمن لم يفهم: إن الآية تمنع منعًا باتًا أن يتفوه شاهِدٌ بما رأى حتى إنْ كان صادقا، وحتى وإن كانوا ثلاثة، ورأوا امرأةً متزوجةً في حالة ممارسةٍ جنسيةٍ لم يسمِّها الله زنا، لأن اللفظ لا يقع إلا إذا اكتمَل عدد الشهود لأربع فتصبح مجاهَرة، فإن عليهم الصمتَ وإلا جُلِدوا ثمانين جلدة، ثم تَسقط عدالتُهم أبدًا إلا أن يتوبوا وينكِروا ما قالوا. لاحِظْ أيضا أن جَلْدَهم هُنا يتم سرًا لأن القصد منه ردعُهم ألا يتفوهوا بما رأوا مرة أخرى، لكن ليس مِن الحكمة فضْحُ مَن سترها الله أصلاً. وسأناقش تحديدَ عددِ الشهود بالأربعة لاحقًا مع قصة الإفك وكشف "الوتد الرابع" الذي أشرتُ إليه في معلم تأويل سورة النور أعلى هذا الباب.

ولا بد مِن ملاحظة أن الآية لم تتحدث عن اتهامٍ مماثل للذكور، وإنما هي آية لتحصين المرأة، لذلك جاء النص صريحًا " وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ" وليس المحصنات و"المحصنين"!

ثم تأتي صاعقةُ الصواعق التي لم أسمع أحدًا يتحدث عنها أبدًا مِن قبْل، وهي أن يَضبط زوجٌ زوجتَه في ممارسة جنسية مع رجلٍ غريبٍ، وبطبيعة الحال ليس في مكانٍ عامٍ وإنما في عُقر داره لذلك أيضًا لم يسمِّها زنا:

{ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10)

هنا يصف الله حالاً مختلفًا وهو أن يَدخل رَجلٌ إلى بيته فيجد زوجتَه مع رَجل آخر وبالطبع لن يكون معه شاهدٌ آخر. الشرعُ هنا لا يتجاهل مقدارَ الجرح والصدمة اللتين يتعرض لهما الزوج، لكنّ الله يعلم حقّ العلم وعِلم اليقين أن مثل هذه الحوادث نادرة الحدوث، لأن مَن تخون زوجها غالبًا ما تتخذ من احتياطات الأمان ما يجعل مصداقية القصة نادرةَ الوقوع. وأيضًا يعلم أن رمي الأزواج لزوجاتهم بالخيانة كان وما زال شائعًا في كل المجتمعات حينما يَمَل الزوجُ زوجتَه أو تتعقد العلاقة بينهما فإنَّ رميَها بالخيانة وسيلةٌ سهلةٌ للانتقام من ناحية، ولتبرير التخلص منها من ناحية أخرى، وفي غالب الأحيان يكون الرمي زورًا وبهتانًا، وتكون الزوجة وأُسرتها وإخوتها وأخواتُها ضحية الاتهام الذي يعْلَق بذاكرة الناس مهما كانت بريئة. لتضييق هذا الباب المنتن حفاظًا على سلامة المجتمع الإنساني من هذه الموبقات الاجتماعية فقد جعل الشرعُ للزوج حقَّ تقديم الشكوى للحاكم أو مَن ينوب عنه في القضاء. وعلى الحاكم أن يأتي بالمتَّهم "الزوج" والمتَّهَمة "الزوجة" ثم يُقسِم كلٌّ منهما. لكن على ماذا يُقسِمان؟ نفاجأ بأن الزوج فجأة يتحول إلى "مُـتَّـهم" بفتح التاء، في مصداقيته، وتختفي القضية الأصلية!

الزوج: يشهد أربعَ شهاداتٍ بالله - أي يُقسِم - أن ما رواه حقيقة، وأنه مِن "الصادقين". ثم يُقسِم القَسَم الأخير أنه لو كان كاذبًا فعليه "لعنة الله"! و "لعنة الله" تعني أنه طواعيةً اختار أن يكون مع إبليس الذي لعنه الله وقفَل أمامه بابَ التوبة إلى يوم الدين. إذن، فالأمرُ جَلَل، وعاقبتُه وخيمة، ولا توبة ولا رجعة عن القَسَم إنْ هو أقدَم على الخامسة وطلب لعنة الله عليه طواعية وهو يعلم أنه كاذب في اتهامه. في عِلم النفس فإن التدرجَ في هذه الشهادات الأربع ربما يُدخِل الشكَّ في نفس الزوج أنه كان واهمًا أو أنهما كانا في خلوةٍ ولكن ليس بينهما جِماع، فيفسح المجال أمامه حتى الرابعة أن يتراجع، أو يراجع نفسه فيسترها، لكن لو كان واثقًا مما رأى مئة في المئة وليس مستعدًا للمسامحة فدَخَل في الشهادة الأخيرة فقد وضع مصيرَه أمام الله يوم القيامة مع الملعونين المطرودين من رحمة الله أبدًا إنْ كان مِن "الكاذبين".

إلى هنا، وفي حال وصول زوج لهذه المرحلة من الإصرار على تأكيد التهمة في حق زوجته، فإن الله يفاجِئ كل المجتمعات الإنسانية أن الأمر لا يُحسَم بشهادة الزوج الذَّكَر فقط، حتى وإن اختار اللعنَ طواعية بالشهادة الخامسة. فاللهُ يُفسِح أمام الزوجة المرأة المجال ويفتح لها البابَ لتدافع عن نفسها ولتشهد شهادة مضادة تُسقِط شهادتَه من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن الله يمنحها حق الشهادة للدفاع عن نفسها، وهو أمرٌ لم يكن وما زال مغيبًا في معظم المجتمعات خاصة المسلِمة منها بناءً على فِريةِ أن شهادةَ المرأة نصفُ شهادةِ الرَّجُل كما سنناقش هذا الجهلَ في باب " أُمِّي كاملة عقلٍ ودين". فالمرأة هنا تشهد وحدَها تدافع عن نفسها. مِن المؤسف أن "فِقه الكلب" الذي ساد منذ العصور الأولى لظهور "الحديث" و "علوم القرآن" و"التفسير" ما زال هو الشرع الذي يرجع له المسلمون بعد أن اتخذوا القرآن مهجورًا. ففي كثير من المجتمعات المسلِمة - وعلى رأسها باكستان- القانون لا يَقبل شهادةَ المرأةِ دفاعًا عن نفسها حتى في حالة الاغتصاب. المضحِكُ المُبكي أن القانون هناك يطالب الفتاةَ المغتَصَبة أن تأتي بأربعة شهودٍ ذكورٍ ليشهدوا لها، وإلا تعاقب هي ويُترَك المجرم المعتدي بحُجة أن شهادتَها ناقصة.

الوجه الثاني: بعد أن أثبت اللهُ لها حقًا مساويًا في الشهادة لتدفع عن نفسها الاتهامَ، فقدْ فَرَض على الحاكم أو القاضي أن يجعلها تشهد أربعَ شهاداتٍ بالله - أي أن تُقسِم - لكن تُقسِم على ماذا؟.

هنا تأتي المفاجأة: اللهُ سبحانه وتعالى وفي هذا الظرف الحالك جدًا يفرض على الحاكم - لأن السورة كلها مفروضة ولا مجال للتلاعب بألفاظها - ألا يُدخِل "مصداقية الزوجة" في محك التمحيص، وإنما تُقسِم على "مصداقية زوجها" هو وليس مصداقيتها هي. بمعنى: أن الحاكمَ أو القاضي ليس له الحق أن يسألها عن تفاصيلِ ما جرى، أو أن تروي القصة مِن وجهة نظرها، لأن في ذلك إحراجًا لها لا داعي له، وإنما تَشهد فقط على عدم مصداقية القصة التي رواها زوجُها. فتُقسِم أربعَ شهاداتٍ بالله أنه - أي زوجها - "مِن الكاذبين". إذن، هي بذلك مُنِحتْ حقًا كاملاً ومساويًا لحقه في الشهادة، لكن مضمون شهادتها هو أن يصبح الزوجُ متَّهَمًا بالكذب فتصبح مصداقية الزوج هي موضوع الشهادة وليس مصداقيتها هي. بمعنى آخر فإنَّ الزوجَ إمَّا "صادق" وإمَّا "كاذب"، لكن الزوجة مُنِحت حصانةً تَمنع إدخالها أصلاً في معادلة الصدق والكذب مِن حيث المبدأ.

لقد لاحظنا في الآية السابقة أن الذين يرمون المحصناتِ ثم لم يأتوا بأربعة شهداءَ، أي لو استطاعوا أن يأتوا بثلاثة شهداءَ فقط فسيتحولون إلى متَّهَمين: يُجلَدون ثمانين جلدة، وتَسقط شهادتُهم أبدَ الآبدين ولهم عقاب الفسوق في الآخرة.

هنا نجد أن الحُكم شبيهٌ في أن الزوج نفسه يتحول إلى متَّهَم، الفرْق فقط في أنه لا جلْدَ عليه إنْ هو تجرَّأ وشكا زوجته، ولكنها لها الحق في إسقاط شهادته رغم أنف كل المذاهب الفقهية.

الوجه الثالث: وهو لا يَسر الناظرين: أنها بعد أن تُقسِم بالله أربعًا أن زوجَها كاذبٌ في ادِّعائه، فإن القَسَم الخامس الحاسم هو أن "غضب الله عليها" - وليس "لعنته" كما في حال الزوج الرجل - إنْ كان مِن الصادقين. والمعلوم أن "غضب الله" أخفُّ مِن "لعنته". وهذا يعني لمن لم يفهم: أنه لو تجرأ الزوج فشَهد أربعًا بالله إنه لمن الصادقين، وشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إنْ كان مِن الكاذبين، ومارست الزوجة حقها المفروضَ في أن تشهد أربعًا بالله أنه مِن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إنْ كان مِن الصادقين، فإنَّ القاضي ليس أمامه إلا أن يفرِّق بينهما، لكن يذهب الزوج بلعنة الله عليه إنْ كان مِن الكاذبين، بينما تذهب الزوجة فقط بغضب الله عليها وليس لعنته إنْ كان زوجها صادقًا في ادِّعائه.

وهنا لا بد مِن وقفة عميقة للتدبر في التمييز بين "لعنة الله" عليه و"غضب الله" عليها.

يردِّد المسلمون بلا وعي أن القرآن صالحٌ لكل زمان ومكان، لكنهم قلَّمَا يقدِّمون أدلة عملية لهذا البعد الكوني في التشريع، بل وتسببوا في سجن القرآن في كُتُبِ التاريخ ومتاحفِ الزمان بإصرارهم أن ما لم يَرد في كتُب التفسير بدعةٌ فَجَنَوْا على أنفسهم و القرآن معًا.

في قضايا الخلاف الاجتماعية فإن طبيعة النفس البشرية وسلوك المجتمعات الإنسانية لا بد أن يأخذ بها الشارعُ حين التشريع. لقد رأينا في باب " ملكة النحل" أن الأنثى هي الأصل في استمرارية الحياة في كل الطبيعة. بل إن كل الطبيعة تدور حول الأنثى، ومَن يحاول إلغاء دورها فكأنما يلغي دورَ ملكة النحل فلا يبقى الا الذكور فتزول المملكة. إن الله يعلم أن المرأة بطبعها أحرصُ على استقرار الحياة الزوجية مِن الرجل في كل المجتمعات وكل الأزمان. ويعلم أن الخيانة الزوجية في الغالب الأعم تأتي مِن الرجل وليس المرأة. أيضًا فإن الله تعالى يعلم تلاعُبَ الرجال والقضاء والمحاكم بالقوانين و التشريعات وتغليب صوت الرجل على المرأة، وإنْ كانت مظلومة. ولعل قصْرَ (لندن بردج) المشهور الذي تحول إلى متحفِ أشباحٍ خيرُ شاهدٍ على هذا البعد الكوني في ظلم الرجال للنساء. ففي هذا القصر أُعدِمتْ الكثيراتُ مِن الزوجات والأميرات والخليلات؛ لأن الملوكَ والأمراء أرادوا استبدالهن بغيرهن فلفَّقوا لهن تُهَم خيانةٍ زوجية ما كان القانون يمنحهن حق الدفاع عن أنفسهن فيُعدَمَن وَفقًا لاتهام الزوج فقط، فأصبح القصر اليوم متحفًا تظهر فيه أشباحُ الضحايا مِن نساء بريطانيا اللائي أُعدِمن ظلمًا فيه.

على أنّ في الفرق بين عقوبة اللعن وعقوبة الغضب بعدًا آخرَ. ففي كل المجتمعات يَجنح الناسُ لتحميل المرأة تبعاتِ خطأ وإنْ كان عابرًا، مدى الحياة، بينما الرجل يفعل ما يشاء. ولعل في مجتمعاتنا المسلِمة اليوم أبلغَ دليلٍ على ذلك وهو أن مفهوم الشرف ارتبط بجسد المرأة بينما الرجل شريف حتى وإنْ لم يكن له شرفٌ على الإطلاق. وحتى أسهِّل الفهْمَ لمن يدَّعون صعوبة الفهم في هذه الأمور: فإن الرجل العربي المسلِم مباحٌ له أن ينام مع مَن شاء مِن البنات منذ بلوغه، حتى إذا ما أراد الزواجَ بَحَثَ عن الشريفة العفيفة التي لا "طلعت" ولا "دخلت" لأن شرفَ البنتِ في بكارتها بينما الرجل لا شرف له أصلاً. وفي كثير مِن مجتمعات "النعام" الذي يدفن رأسَه في الرمال اليوم فإن الفتياتِ يقُمْن بعمليات ترقيع البكارة قبل الزواج إرضاءً لمفهوم الشرف في ذهن الرجل العربي، وهي تجارةٌ رابحةٌ جدًا يعرفها الأطباءُ والممرضون الذين يُجرون هذه العمليات. وقد سمعنا عن كثير جدًا عن نساء تم طلاقُهن بعد الدخلة لأن الرجل الشريف الشهم اكتشف أنها غيرُ بِكرٍ، أو ربما فقط شَكَّ في عدم وجود غشاء البكارة وهو في الحقيقة غير موجود في نسبة كبيرة من الفتيات مِن غير سابق ممارسة جنسية، لكن المسكينة تُهان وتُطلَّق إذا لم تنزف، بينما لم نسمع على الإطلاق بأن رجلاً تَقدَّم لخِطبة فتاةٍ فسأل أهلُها عن شرفه. ولمن لم يفهم بعدُ: فإن الرجل في كل المجتمعات المسلِمة اليوم إذا تقدَّم لأكثر الفتيات شرفًا، ففي الغالب أن أهلَها سيهمُّهم جيبُه وماله أولاً، وغالبًا سيقولون لها مهما كان مجاهِرًا بالفسوق والمعاصي: "يا بنتي إن شاء الله تكوني

سببًا في هدايته". لكن لا نسمع عن شاب تقدَّم للزواج مِن بنتٍ غيرِ عذراءَ ليكون سببًا في هدايتها. هذا الواقع الذي ننكره، لا ينكره الله تعالى، بل يشرع رغم أنف كل المذاهب، كفقهٍ.

وعليه فإن الشارع قدَّرَ أن المرأة المتزوجة في هذه الحالة ربما تابت مما فعلت لكن لو اعترفتْ بجُرم تابتْ عنه فسينالها عقابٌ مدمرٌ لها ولكل الأسرة، بل والمجتمع أكبر مما حدده الله، لذلك جعل لها مَخرجًا في أنها إنْ خشيت على نفسها وشهدت كذبًا، فإنه سينالها "غضب من الله" فقط وليس لعنة كما هو الحال مع الرجل. هذه ليست دعوةً للكذب بطبيعة الحال وإنما تفريقٌ وتمييز بين التبعات التي تلحق بكل من الطرفيْن إنْ ثبتت التهمة عليها. الحُكم هنا أشبه بحكم " فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (145) الأنعام؛ لأن الاضطرار للتهرب مِن الاعتراف قد يصبح ضرورة لإنقاذ حياة المرأة في مجتمعات يتجاوز الرجلُ ومعه القضاءُ فيها كلَّ حدودِ الله فيوقِعون بها عذابًا أكبرَ مما حدده الله إنْ كان الجرم ثابتًا، وما أكثرَ ضحايا قتلِ الشرف إلى يومنا هذا الذي تُقتَل فيه شريفةٌ على أيدٍ أقل لا شرف لها على الإطلاق.

ملاحظة أخرى لا بد من الإشارة إليها، وهي أن الآية أصلاً تُشرِّع للفصل في قضية يَرمي فيها الزوجُ زوجتَه، لكن ليس هناك تشريع محدد مقابل؛ لأنه نادرًا جدًا ما تَتَّهم الزوجةُ زوجَها بالجرم نفسه عِلمًا بأن وقوع الخيانة الزوجية بين الرجال أكثرُ شيوعًا مِن وقوعها بين النساء، لكن الزوجة بطبعها قابلة لأن تَصفح أو تتحمل الألم وتتجنب هدم الأُسرة، لذلك كانت الآيات هنا حماية للنساء مِن مظالم الأزواج التي تقرها المجتمعات ويحميها القضاء الظالم على امتداد التاريخ الإنساني في كل زمان ومكان.

نقطة أخرى لطيفة لا بد من الإشارة إليها. المختصون في عِلم النفس والاجتماع يعلمون أن الفرْق في قوة الملاحظة بين الرجل والمرأة كبيرٌ جدًا. هذه اختلافات فطرية لا دور للدين ولا للثقافة فيها. الفرْق هنا أشبه بالفرق بين مزاج المرأة والرجل في التسوق. أغلب الرجال في العالم يدخلون أي متجَر ويشترون بضاعتهم ثم يخرجون بيْنَا معظم النساء يعشقن الطوافَ على كل المحال قبلَ اتخاذ قرارٍ واحد في الشراء. بالفوارق الفطرية ذاتِها فإنه مِن الطبيعي أن المرأة يمكن أن تَخرج مِن البيت بعباءةٍ بيضاءَ وتعود بأخرى سوداء، وغالبًا لا ينتبه لا الزوج ولا الأولاد، لكن البنات يلاحظن التغييرَ حتى وإنْ كان في شَعرةٍ وليس في كل اللباس. في أوروبا يمكن للمرأة أن تَخرج ببنطال جينز وتعود بـ "ميني جوب" ولا ينتبه الزوج.

على النقيض مِن ذلك فإن المرأة تلاحظ كل صغيرة وكبيرة في مظهر زوجها حتى وإنْ عاد من العمل وهناك علامة صغيرة على قميصه ما كانت موجودة قبل الخروج. قوةُ الملاحظة هذه ليست ناتجةً عن سوء الظن، وإنما هي مِن فطرة الأنثى. مِن هنا يمكننا أن نقدِّر أن المرأة التي تخون زوجَها، والأمرُ واردٌ، فإنها غالبًا ما تتَّبع كل ما هو متاح للتغطية على جريمتها بحيث لن يكتشفها زوجها وإنْ حرص. وعليه فإن معظم دعاوى الخيانة الزوجية ضد المرأة غالبًا ما تكون ملفَّقة؛ لأنها لو فعلتْ، فإن كشفَها صعب. لذلك فالشارع هنا رجَّح الواقعَ وهو أن احتمالَ تلفيق التهمة هو الغالب لذلك ضيَّق الباب ضيقًا شديدًا على الرجال أن يرموا أزواجَهم.

نقطةٌ أخيرة مهمة جدًا لفهْم المغزى العام مِن هذه التشريعات في البيان رقم واحد:

المعروفُ أن نسبة الخيانات بين الأزواج أقلُّ بكثير مِن نسبة المتزوجين الذين لم تقع بينهما خيانة في كل المجتمعات حتى المتحررة جدًا اليوم. والمعروفُ أيضًا أن نسبة أن تكون الخيانة من الزوجة أقلَّ بكثير جدًا مِن أن يكون الزوج هو الخائن. لذلك فإن تحصين المرأة التي تخون زوجَها في هذه الآيات قد يبدو غريبًا وليس توقيته ولا مجتمعه.

الواقع: إن هذه الآياتِ أصلاً لا تشرِّع "للقضاء" بمعنى المحاكم، وإنما تشرع للقضاء على أمراض اجتماعية لكي لا تتسلل للمجتمع النبوي الهش حينئذ، ومن ثم تتخذ هذه المعالجة مقياسًا لصيانة وبناء واستنساخ المجتمع النبوي من جديدٍ متى ما شاء الناس. فالجريمةُ نادرة الحدوث، لكن ما يقدمه البيان رقم واحد هنا يمكن فهمُه بالعامية المصرية التي تقول: " خلّصنا وهات مِن الآخر". وهنا يأتي الله لهم مِن الآخر بأكبر مفاجأةٍ ممكنة:

"يا أيها الرجال: الشرفُ ليس في علاقات المرأة الجنسية، وإنما في أشياءَ أخرى أكبر وأهم". ليوصل هذه الرسالة فقد حصَّن آخر أكبرِ جرائم ما يسمى بالشرف على الإطلاق.

ولنفهم ذلك دعوني أُرتّب مفهوم الشرف في العلاقات الجنسية:

إذا مارس الرجل غير المتزوج الجنسَ فغالبًا ما يرى المجتمعُ أنه من حقوقه الفطرية لأنه "ذَكَر"، لذلك فالحكم عليه في معظم المجتمعات فضفاض. (هو راجل.. فحل)

إذا مارس الرجل المتزوج الجنسَ مع غير زوجته، ستجد الكثيرين يتجاهلون ما فعل، ويعتبرونه أيضا من حقوقه، وستجد الكثيرين يُدخِلونه تحت تعدد الزوجات.

إذا مارست بنتٌ غير متزوجةٍ الجنسَ فقد فقدتْ شرفَها في نظر المجتمعات التي لا شرف لها أصلاً.

أمَّا إذا مارست امرأةٌ متزوجةٌ الجنسَ مع رجلٍ غريبٍ، فهذه قمة العار التي تبيح الرجم، حتى وإنْ كانت بريئة فإن التهمة ربما تودي بحياتها.

في الآيات أعلاه: الله "جاب من الآخر": موضوع الآية ليس تهمة موجهة لامرأة متزوجة فقط وإنما زوج جاء يشكو أنه ضَبَط زوجته مع رجل آخر، فكانت المفاجأة هي ما سبق مِنْ تَحصينٍ لها، قفلاً للباب من تكرار هذه الاتهامات. فإنْ كان الزوج قد تم قفل الباب أمامه أن يلصق تهمة ربما حقيقة رآها في زوجته وفي عقر داره، فكل ما دونها أشد صعوبة في الإثبات وأقل عقوبة إنْ ثبت.

ما الحكمة مِن هذه المفاجأة؟ في أي تشريع هناك قوانين أحيانًا تشرع من باب الردع والتخويف ولكن نادرًا ما تطبق. مثلاً في كثير من الجرائم ربما تجد الحكم يصل للإعدام، لكن نادرًا ما يصدر حكم بالإعدام، وحتى إنْ صدر فإنه سرعان ما يخفف. هذا الحكم له رادع نفسي لكل المجتمع أكثر من كونه عقابًا للأفراد. وهنا يمكن مقارنة هذه الحكم بالأسلحة النووية التي تسمّى أسلحة الردع. فامتلاك أي دولة للسلاح النووي له مدلولان: أولاً، أنها طالما وصلت لصناعة النووي فهي إذن، قد وصلت لكل ما دونه. أيضًا طالما إنها تمتلك السلاح النووي فإنها قد تستعمله عند الضرورة القصوى، رغم أن الضرورة القصوى هذه قد لا تحدث أبدًا.

هنا وفي تلك اللحظة استعمل اللهُ تعالى أبلغَ تشريعٍ لصرف الناس عن الحديث عن النساء وخصوصياتهن لذلك "جاب من الآخر" بكلمات بسيطةٍ جدًا وبليغةٍ جدًا. ولأن المجتمع النبوي كان مجتمعًا ربانيًا قرآنيا، فإن طاعتهم لله وامتثالهم لأمر القرآن كان حرفيًا وصادقًا، وعليه فقد سقطت عن كاهل الشباب الكثيرُ جدًا من الأثقال التي يحملها شباب اليوم على أكتافهم. فالرجل ما عاد يفكر في أن شرَفَه وشرفَ بيتِه وعشيرته وقبيلته بين أفخاذ الإناث من أهله حتى وإنْ كانت زوجته وأُم أولاده. وهنا ظهر مفهوم جديد للشرف يتنافس عليه المتنافسون وهو التعليم والتفكير والإبداع وتطوير الحياة. أيضًا، فقد سقط التكلف المصطنع مع العلاقات الزوجية وغير الزوجية لأنها أصبحت لا سوق لها في الإعلام المحلي، فسهلٌ الزواج وسهلٌ الطلاق لدرجة أصبح معها تكوين أسرة ليس من الأحلام، وإنما من البديهيات التي تحدث ولا يهتم بها أحد. ولذلك كثيرًا ما تَقرأ في كُتُب السيرة والتراث أن فلانة كانت تحت فلان فطلَّقَها فتزوجها فلان بكل بساطة، وكأن الأمر لم يكن فيه تعقيدٌ على الإطلاق ولا يصلح للاستهلاك الاجتماعي والعيب و النميمة وغيرها. ولم نسمع أبدًا في التاريخ الإسلامي أن رجلاً تزوج امرأة فلم يجدها بكرًا فطلَّقَها.

أوضِّحُ هذه النقطة أكثر: بريطانيا إلى اليوم ما زالت تمسك العصا من الوسط لأنها دولة تحمي الكنيسة الإنجيلية في العالم. وحسْب العُرفِ الدستوري إذ ليس هناك دستور مكتوب في بريطانيا وإنما أعراف موروثة، فإن المَلك لا بد ان يكون الرجلَ الوحيد في حياة الملكة، إذ لا يَقبل العُرف أن الملكة قد كانت لها علاقة جنسية سابقة مع أحد المواطنين مهما علا شأنه. أيضًا لا يَقبل العرفُ زواجَ الملك من مطلَّقة. ومجرد وجودِ هذه التعقيدات الساذجة في الثقافة السياسية له انعكاسات وخيمة على مفهوم الشرف والعلاقات الاجتماعية على عامة الشعب البريطاني مقارنة مع بقية المجتمعات الأوروبية.

لذلك، ففي بداية تأسيس المجتمع النبوي في المدينة فإن الله كان يهدف للتحرير المطلق للنفس المسلِمة مِن أي أغلالٍ وقيودٍ اجتماعيةٍ لا معنى لها في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الإسلام. وبالإضافة لِما سبق مِن فرض حصانةٍ عاليةٍ جدًا على المرأة، فقد فرض الله تعالى على النبي نفسه الزواجَ من مطلَّقةٍ، وجعل ذلك قرآنا يُتلى. إذن، فقدْ كانت سورة النور ضربةً واحدةً غيَّرت كل الحياة الاجتماعية التي ألِفَها الناسُ، وقفلت البابَ أمام آفات كبيرة لكي لا تأخذ من وقت الناس واهتماماتهم ليتفرغوا لِما هو أهم.

وأختِمُ هذه الملاحظاتِ بتعليقٍ قرأتُه في أحد المواقع عن أمريكيٍّ يسأل عربيًا في دولة ما عن طموحاته في الحياة، فأجاب العربي إن طموحاتِه هي أن يكون له عملٌ وسكن مستقِل، وزوجة وأطفال، فأجابه الأمريكي: هذه حقوقك الإنسانية الأساسية، لكني أسالك عن طموحاتك.

ما فعله البيان رقم واحد كان صرفَ الناس عن البديهيات في الحياة فخَلَق منهم مجتمعًا مؤهلاً للطموحات الكبيرة الجبارة ومترفعًا عن سفاسف الأمور. اليوم فإن التعقيد في حياتنا الاجتماعية من زواج و طلاق وعزوبية، وما يذخر به إعلامُنا من أفلام ومسلسلات ومجلات وكُتُب ومحاضرات وخُطَبٍ دينية كلها تدور حول المشاكل الاجتماعية، ما هو إلا أكبر دليلٍ على الانحطاط الفكري والاجتماعي الذي انتشل البيانُ رقم واحد به مجتمعَ النبي في بداية تكوينه.

هذه الإجراءات السريعة المفاجئة لتحصين "ملكة النحل" في أولى خطوات بناء المجتمع النبوي كانت نارًا على بني إسرائيلَ الذين أدمنوا هدمَ المجتمعات بالفتن والقصص الجنسية التي غالبا ما تُلفَّق حول النساء؛ لأنها تهدم البيوتَ والمجتمعاتِ ولأنها تشغل الرجالَ الذكور، وقد كان بين سطور الآيات البينات صاعقةٌ أخرى أقسى وأمَرّ.

إلــغـاء عقوبة الرجــم :

وهنا لا بد مِن التنبيه إلى أن مفهوم "العقوبات الحِدية" مفهومٌ ابتدعه الفقهاءُ لاحقًا مِن سوء فهْم لمدلول " حدود الله " الذي وَرَد في القرآن 14 مرة ليس بينها آية واحدة جمعت بين لفظ "حدود الله" وأي عقوبة شرعية في الدنيا. واللفظُ لم يَرِد إلا جمْعًا ولا يوجد شيء اسمُه "حدٌ مِن حدود الله "مِن التي تحولت اليوم لِما يُعرف بالشريعة الإسلامية.

هنا نلاحظ أن عقوبة "الزانية" و"الزاني" أعلاه قد سمَّاها الله باسمها وهو "العذاب"، لأن " الجـَلْدَ " يمس " الجِلْدَ " وهو عذابٌ وألمٌ محسوسٌ. لكن لا يوجد شيء في القرآن اسمه "حد السرقة" أو "حد الزنا" كما ابتدعوا حتى يتعدوا "حدود الله " المنصوص عليها في القرآن بكل سهولة. وسأتطرق لهذا الموضوع في باب "فقه الكلب" إن شاء الله.

نعود للآيات مرةً أخرى لنكتشف بين سطورها البينة بإلغاء عقوبة الرجم التي كانت في شريعة اليهود.

نلاحظ في آية الزنا الأولى التي لم تحدد أن الزناةَ محْصَنين أمْ غير محْصَنين، أنَّ العقابَ - وسمَّاه الله العذاب - هو مئة جلدة إذا ثبتت التهمة. ولم تحدد الآية كيفية ثبوت التهمة؛ لأن اللفظ نفسه يفيد المجاهَرةَ والاحتراف العلني. ومضت الآية تضيف بُعدًا آخر للعقوبة وهو أن يشهد عذابَهما طائفةٌ مِن المؤمنين:

{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2)}

نلاحظ هنا أن الله سمَّى عقوبة الجَلْد بـ " عَذَابَهُمَا"، والعذاب المَعني هنا هو المئة جلدة. و"يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين" يؤكد أن المقصود بلفظ الزنا هو المجاهرة في العملية أو المهنة، وعليه فإن العقاب العلني في البيئة المحيطة بمكان المعصية نوعٌ من الإعلام للتحذير مِن أن الفعلَ ممنوعٌ. و "طائفة من المؤمنين" لا تعني التشهير في التلفزيون أو الإنترنت لأن هذا يتجاوز حدودَ الطائفة من "التَبْعيضيّة"، أي أن العقاب عَلَنًا في مكان الحدث

فقط لأن المعصية كانت علنًا لكنها تظل محصورةً في بيئتها. ما يهمنا هنا هو أن ننتبه للفظ "العذاب" ونقارنه باللفظ نفسه في الآية الأخرى:

{وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8)}

هذه الآية رقم "8" هي التي تتحدث عن رمي الزوج لزوجته.

فإنْ كان بعض أصحاب الأهواء قد شككوا في أن الآية الأولى تقصد فقط الزانية والزاني غيرَ المتزوجيْن، فإن الآية الثانية هذه تصف العقابَ الذي يمكن أن يطال الزوجة إذا ثبتت عليها التهمةُ بلفظ " الْعَذَابَ " أيضًا. هذا يعني أن العقوبة للمتزوجين أيضًا هي مئة جلدة، لأن العقاب في الآيتين اسمه "العذاب".

هذه المقارنة تعضدها آياتٌ أخرى نوردُها هنا حتى تتضح الرؤية. فقد حَذَّر الله تعالى نساءَ النبي بالعقاب إنْ أتيْنَ بفاحشةٍ مبينة وسمَاه أيضا "العذاب":

{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30)} الأحزاب.

مِن هنا نفهم أن هذا "العذاب" المَعني يمكن أن يُضاعَف، عِلمًا بأن المخاطَب هُن نساء النبي المحصَنات. فإنْ كانت عقوبة الزاني المحصَن الرجم فكيف يضاعَف الرجم؟ المضاعَفة هنا تعني مئتَي جَلدة، أيْ ضعف العذاب الذي فرضته سورة النور أعلاه على غير نساء النبي. وهذا يتفق مع آية سورة النساء التي تزيده تأكيدًا:

{وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (25)} النساء.

هنا تتحدث الآية عن امرأةٍ محصنةٍ لكنها مِلكُ يمين، فعقابها هو "نصف العذاب". فإنْ كان العقوبة المعنية بلفظ العذاب هي الرجم فكيف يكون هناك ضعفان للرجم ونصفٌ للرجم؟ الأمرُ لا يحتاج لمكابرةٍ أو عنادٍ في أن سورة النور ألغت حُكمًا كان قد فُرض على بني إسرائيلَ وهو عقوبة الرجم واستبدلته بعقوبة الجَلْد فقط للمحصن والعازب ذكَرًا كان أو أنثى مع ضرورة المجاهَرة بالفعل، وقد تم التضعيف في حق نساء النبي والتنصيف في حق مِلك اليمين التي سنتحدث عنها إن شاء الله في باب "فقه الكلب".

لا عجب إذن، أن اليهودَ قد لاحظوا هذه الكارثة الفكرية التي جعلت التشريعَ الإسلامي أكثرَ تحضرًا ورحمة مِن شريعة اليهود، وأنه أنسب لمستقبل الإنسانية مِن شريعتهم. فضلاً عن أن السورة فرضت حصانة صارمة على سُمعة "المرأة" وقفلت الباب أمام إطلاق الإشاعات التي غالبًا ما تتفشى في المجتمعات المتفككة، أو تلك التي تحت إعادة البناء كما كان حالُ مجتمع المدينة في بدايته. لذلك بذلوا جهدًا جبارًا في طمس معالم هذه السورة بتحريف قصة الإفك وإلصاقها بعائشة زورًا وبهتانًا، ثم ابتدعوا "عِلم الناسخ والمنسوخ" ودسوه عبْر القرون في التراث الإسلامي حتى يخرج علينا الفقهاءُ والمفسرون بعد قرون بفِرية أنه كانت هناك آيةٌ فيها عقوبة الرجم نزلت لكنها نُسِخت، جاعلين مِن شرع الله مسخرةً، وكأن القرآن الذي بين يدينا ناقصٌ ومختلِفٌ عن القرآن الذي أُنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- . وهذا يضع المفسرين الذين تبنوا هذه الفِرية الخطيرةَ موضعَ تساؤلٍ كبير أمام التاريخ والإنسانية قبْلَ سؤالهم أمام الله تعالى يوم لا ينفع مالٌ ولا بنونٌ. فقد تجاهلت كل التفاسير المعتمدة الشرحَ الدقيق الذي قدَّمناه واكتفت بالنقل من الإسرائيليات بلا حرج. وأنقلُ مِن تفسير ابن كثير والطبري ما يلي في تفسير بداية سورة النور:

{..كما قال الإمام مالك حدثني محمد بن شهاب، أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أما بعد، أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمدًا -صلى الله عليه

وسلم- بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمانٌ أن يقول قائل لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على مِن زنى إذا أُحصِن مِن الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف.

أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولاً، وهذه قطعة منه فيها مقصودنا ههنا..}.

نلاحظ هنا السخرية مِن عقول المسلمين في أقصى بجاحتها. فقد رأينا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مِن أكثر الخلفاء الراشدين تشددًا في منع الكلام عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأخباره خشية أن يتجاهل الناسُ القرآن المحفوظ، فكيف به يُطِل علينا ليثبت أن في القرآن آيةً نَزلت ثم حُذِفت؟ هذه وقاحة في حق عمرَ قبل أن تكون وقاحة مع كتاب الله تعالى.

{وروى الإمام أحمد عن هشيم عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس: حدثني عبد الرحمن بن عوف أن عمر بن الخطاب خَطَب الناسَ فسمعته يقول: ألا وإنَّ أناسًا يقولون ما بال الرجم ؟ في كتاب الله الجَلْد، وقد رَجَم رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- ورَجمنا بعده، ولولا أن يقول قائل أو يتكلم متكلم أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه لأثبتها كما نزلت به وأخرجه النسائي من حديث عبيد الله بن عبد الله به، وقد روى الإمام أحمد أيضًا عن هشيم عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: خَطَب عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه فذَكَر الرجمَ، فقال: لا تُخدعن عنه فإنه حدٌّ مِن حدود الله تعالى، ألا وإنَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد رَجَم ورَجمنا بعده، ولولا أن يقول قائلون: زاد عمر في كتاب الله ما ليس فيه لكَتَبتُ في ناحية مِن المصحف وشهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وفلان وفلان أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد رَجم ورَجمنا بعدَه، ألا إنه سيكون مِن بعدكم قومٌ يكذّبون بالرجم، وبالدجال وبالشفاعة، وبعذاب القبر، وبقوم يخرجون مِن النار بعدما امتحشوا.}

هذا الأثر فيه خللٌ كبيرٌ يُسقِطه برُمَّتِه. فإن قبلناه كما هو فهذا يعني أن القرآن تَبدل بعد أن أتمه الله على رسوله وأُسقِطت منه آيةٌ كانت فيه، لكن خَشي عمر أن يعيدها إليه، وهذا هراء وتشكيك في مصداقية القرآن وحفْظِ اللهِ له. أمَّا إنْ كان النبي قد رَجم فأغلب الظن أن الرجم كان على اليهود الذين طَبَّق عليهم توراتَهم، وكان ذلك قبل أن تنزل سورة النور مهيمنةً على الدين كله، فألغت شريعة اليهودِ نفسَها "ولا أقول نَسَخَتها" وفرض القرآن على الجميع. لكن ما ثبت أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- رَجم بعدها وما رَجَم الخلفاءُ الراشدون كما يدَّعي الراوي هنا سعيًا منهم لتزوير التاريخ الإسلامي.

ولعلَّ المَساعي الدؤوبة لإقحام عقوبة الرجم في القرآن تَطلَّبتْ الكذبَ على النبي وأصحابه مِن عدة وجوه، وكان لِعائشة نَصيبٌ وافِرٌ مِن هذا الكذب، وقد تَعاوَنَ معي المهندس ديلمي إبراهيم مِن الجزائر في مراجعة الكثير من الروايات أنقُلُ مِنها طريفتَيْن هنا:

فقدْ رُويَ عن عائشة أنها قالت: {نزلت آية الرجم وإرضاع الكبير عشرًا، ولقد كانت في صحيفة تحت سريري، فلمَّا مات رسول الله،-صلى الله عليه وسلم-، وتشاغلنا بموته دخل داجن فأكلها} (مسند أحمد: 6: 269، سُنن ابن ماجة: 1: 625)

الطريف في هذا الكذب الذي قُصِدَ منه الزجُّ بآية الرجم، وإرضاع الكبير الذي سأناقشه بالتفصيل في باب "فقه الكلب"، أن الداجنَ أصلاً تأكل الحبوب، وربما الحشراتِ الصغيرةَ المرتبطة بالطين؛ لأنها تبلَعُ وليس لها أسنان. والمعروف أن الصحف في زمن النبي كانت غالبًا مِن جِلد الحيوانات الذي لا تأكله إلا الأرضة أو القوارض كالفئران. لكن لا يُعقَل أن الداجن تأكل صحيفة. اللهم إلا إذا كان الكذاب الذي وضع هذه الرواية هو مَن وضع أو ساهَم في وضع قصة الإفك أعلاه وتَأثَّرَ بوجود داجنٍ في بيت النبي يأكل كلَّ شيءٍ مرتبطٍ بعائشة. لا نَنسى بطبيعة الحال أن الرواية أيضا مقصودٌ منها أن القرآن الذي بين أيدينا قد تغيَّرَ مما كان عليه زمنَ النبي -صلى الله

عليه وسلم- . و يبدو أن المَساعيَ لإقحام آية الرجم في القرآن تطلبت مجهودًا أكبرَ أدَّى للاستعانة بالقردة. فقدْ رَوى البخاريُّ في كتاب مناقب الأنصار في باب القَسَامَة في الجاهلية: رقم 3849:

حدَّثنا نعيم بن حمادة: حدثنا هشيم، عن حصين، عن عمرو بن ميمون قال: { رأيت في الجاهلية قِـرْدة، قد زنت، فرجموها، فرجمتُها معهم }.

لقد رأينا في باب الحديث أن البخاري انتقى الجامعَ الصحيح مِن أكثر مِن 600 ألف حديث. أي مِن كل ما يزيد عن مئة رواية عُرضت عليه أجاز واحدةً فقط. فهل نفهم أن فكاهة القِرْدةِ الزانية هذه كانت أهمَّ مما يزيد مِن نصف المليون رواية التي لم يجد ضرورةً لنقلها لأمَّةِ محمدٍ في كتابه؟ لا يَشكُّ عاقلٌ أن مَن حَشَر هذه الأضحوكة في كتاب البخاري كان يرجو أن تَجِد في مستقبل الأيام مِن البُلَهاءِ مَن يتفلسفون ويناقشون عالم القردة ويبررون مصداقيتَها لتعضِّدَ فكرةَ الرجم فيصبح عامةُ المسلمين محاصرين بأدلةٍ وافرة حتى مِن الغابة تؤكد أن القرآن قد تَبدَّل بشهادة القردة. وأتركُ للقرَّاء الاطلاعَ على ردود المُخلِصين جدا للبخاري في الإنترنت وتوثيقهم لهذه الرواية.

لا بد مِن التنبيه إلى أن عقوبة الرجم عقوبةٌ بَشِعة لا تتناسب مع الجُرم، لكن الله كان قد فرض على بني إسرائيل الكثيرَ مِن العقوبات نتيجة تعنتهم وعنادهم، فجاء الإسلام وألغى كل تلك الأغلالِ التي كانت عليهم. لكنهم سرعان ما غلَّفوها باسم "الحديث" ثم أدخلوها علينا في ديننا، فأصبحنا نرزح تحت قسوة وقهر شريعةٍ توراتية ما كان فرْضُها على فئةٍ مِن بني إسرائيل في الماضي إلا عقابًا بَشِعًا لهم.

قصة الإفك الحقيقية:

وتمضي الآيات تتحدث عن واقعٍ مَرّ به المجتمع وهو ما عُرف بقصة الإفك، ثم نُسِب زورًا وبهتانًا لعائشة بالرواية المريضة التي ناقشناها سابقًا:

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (20) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21)

مِن أول الملاحظات على هذه الآيات هي صيغةُ الجَمع في المُتَّهَمين بفتح الهاء وصيغة الجمع في المُتَّهمين بكسر الهاء. أي أن هناك مجموعة وَجهت اتهاماتٍ لمجموعة. أيضًا نلاحظ أن عموم المجتمع أصبح في بلبلة: بعضهم أفاض فيه وبعضهم استغفرَ وتجنَّبَ الخوضَ فيه معتبرًا أنه بهتان عظيم. أيضًا نلاحظ الغيابَ التام لذِكْر "النبي" أو "الرسول" أو أي إشارةٍ لآل بيته في قصة الإفك. وقد خصص الله تعالى الحديثَ عن النبي بالاسم في مواضيعَ أقل أهمية مِن موضوع المساس بعِرضِه كما في سورة الحجرات مثلاً:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)} الحجرات.

بل، إن الله تحدث نيابة عن النبي في أمر قد نراه بسيطًا جدًا لكنه كان يؤذي النبي وهو كثرة الضيوف من غير ميعاد ولا نظام:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53)} الأحزاب.

فكيف يكون التحذيرُ مِن رفْع الصوت في وجود النبي واضحًا ومخصصًا، والنهي عن الفوضى في التعاطي مع بيت النبي وزيارته والكلام مع نسائه واضحًا ومخصصًا، بينما الخوض في عِرضِه واتهام زوجِه بالزنا يتطرق له القرآن بصورة عامةٍ مبهمةٍ لا يوجد فيها ولا مجرد تلميح أن بيت النبي هو المقصود، أفلا تَعقِلون؟

لقد رأينا في بداية هذا الباب مِن فكرة " الأوتاد" أن سورة النور كانت مِن أول ما نزل في المدينة بعد الهجرة، وأنها كانت تنظّم الحياةَ الاجتماعية وتعالج المشكلاتِ التي نتجت عن الهجرة نفسها. وقصةُ الإفكِ كانت مِن تلك المشكلات الاجتماعية التي عالجتها السورة. و لنفهم ما هي قصة الإفك الحقيقية نتخذ هذه الآية البينة مدخلاً:

{إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15)}

نلاحظ هنا أن "مجموعاتٍ" مِن المؤمنين كانت تتناقل أقوالاً بألسنتها عن أمور لا عِلم لهم بها (إشاعات) وهُم يستهينون بتناقلها، هذه الاستهانة تدل على هوية المتهَمين في تلك الإشاعات وأنهم كانوا أضعفَ القوم وأقلَّهم شأنًا، لذلك سَهُلَ تناقلُ الإشاعات عنهم. ولا يعقل أن يستهين المؤمنون بعِرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويحسبونه هينًا، فالنبي في المدينة لم يكن فقط نبيًا رسولاً، ولكنه كان رأسَ الدولة بعد أن دانت له المدينة وآلَ له السلطانُ عليها. ولو تفوَّه أحدهم بكلمة عليه أو على آل بيته لكانت سيوفُ علي بن أبي طالب الذي بات في فراشه فداءً له بمكة يومَ الهجرة، وعمر بن الخطاب الذي روى عنه التاريخ أنه كثيرًا ما سأل رسولَ الله :"أأقطع رأسَه يا رسول الله؟"، لكانت سيوفُهم أسرعَ للإطاحة برؤوس مَن يتفوه بكلمة في حق النبي وآل بيته قبل أن يبلع لسانَه.

وحتى نستوعب ما كان يدور في تلك الفترة نحتاج للتمييز بين مدلول هذه الألفاظ:

الغيبة: هي أن تَذكر أخاك بما هو فيه مِن عيبٍ يكرهه وراءَ ظهره.

الإفك: أن تنقل أخبارا مشينةً عن شخص مِن غير أن يكون لديك دليلٌ على مصداقيتها. "تناقل إشاعات".

البهتان: أن تختلِق قصة مشينة وتنسبها إلى غيرك، وأنت تعلم أنك مَن اختلق القصة.

إذن، ففي حدوث الإفك هناك مِن اختلق البهتانَ أولاً، ثم ردده بعضهم مِن غير تَحَقُّقٍ فأصبح إفكًا. ومَن اختلق البهتانَ أكبرُ جُرمًا مِن الحمقى الذين تناقلوه كإفك.

مِن هنا نفهم أن الإشاعات غيرَ المحددة قد أُطلِقت في حق المستضعفين الفقراء الذين هان أمرُهم على بعضهم، فكان أن استهان المؤمنون بهؤلاء البسطاء، وخاضت الألسنُ فيهم. فإذا عُدنا لبداية الآيات نجد أن "عصبة منهم" جاءت بالإفك ثم تناقلته الألسن في حق أولئك المستضعفين مستهينة بأمرهم. وأيضًا نلاحظ أن الإشاعاتِ كان لها مصدرٌ واحد هو " وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ"، وهو مَن اختلق البهتان، لذلك نلاحظ أن الله خصصه و توعده بـ "لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ"، لكن لم يحدد له عقوبة في الدنيا. وهذا يعني أنه لم يصرح برميٍ صريحٍ يستوجب الثمانين جَلْدة التي سبق أن فرضها الله على الذين يرمون المحصنات، لكنه اختلق قصة يعلم حق العلم عدم مصداقيتها.

حتى نفهم مدلول المفردات في الآيات نحتاج لأن نخلق تصورًا سليمًا للبيئة التي وقع فيها الإفك، خاصة وقد أزلنا بحمد الله الغازَ المسيل للدموع بسقوط الهودج مع سقوط قصة عائشة الوهمية "المحشورة" زورًا وبهتانًا في صحيح البخاري ومسلم.

سلطان المدينة:

إن هجرةَ النبي -صلى الله عليه وسلم- للمدينة المنورة كانت حدثًا غير مسبوق في تاريخ العالم والإنسانية، ليس له ما قبله ولن يكون له شبيهٌ بعدَه.

حينما هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- للمدينة هاجر معه الآلاف مِن مكة ومَن آمن به مِن القبائل الأخرى، وتحولت المدينة بين عشيةٍ وضحاها لأول دولة متعددة الأعراق والأجناس والقبائل في التاريخ الإنساني. ولم تكن المدينة بطبيعة الحال مُعدَّةً بالفنادق والشقق والصرف الصحي والبقالات والمستشفيات والشرطة و.. و.. و... بل كانت مدينة بدائية صغيرة بالكاد تكفي لإيواء ساكنيها، فهبط عليها أقوام مِن كل صوْبٍ وحدبٍ أغلبهم فقراء تركوا كل ما يملكون وراءهم، وأصبحوا تحت رحمة المدينة وإمكانياتها وساكنيها.

صحيح أن التاريخ لم يوثق لنا عدد المهاجرين ولا هوياتهم، لكن لا بد لنا أن نستوعب أن القُرى والمُدن في ذلك الزمان لم تكن معدَّة لاستقبال أعداد كبيرة من الناس أكثرَ مِن القوافل التجارية التي تأتي كل منها بمؤنها وتتحمل مسؤولية إقامتها. إذن، فقدْ كانت الهجرة سابقة غيرَ مألوفةٍ مهما صغر عدد المهاجرين بمقاييس اليوم. فضلاً عن كون الهجرة لم تكن يومًا أو مرة واحدة، وإنما فُتِح بابُ المدينة لكل القبائل حتى قبْل وصول النبي إليها. وهي لم تكن زيارة عابرة وإنما هجرة واستقرار.

مِن الطبيعي أن ينتشر الناس في الخيام وفي العراء، في الوديان والكهوف وقمم الجبال. وهذا التصور هو ما يفسر لنا الآياتِ الأولى التي ناقشناها تحت عنوان "حالة السكن العشوائي". تلك الآيات التي نزلت لتنظم تعامُلَ الناس مع البيوت المسكونة وغير المسكونة.

على الصعيد السياسي والاجتماعي فالمدينة كانت الدولة الوحيدة في التاريخ التي ينزل عليها حاكمٌ وحاشيتُه وهُم أغراب وافدون فيتولون مقاليدَ الحُكم والتشريع فيها مِن أول يوم. فالمعروفُ أن الأوسَ والخزرج كانوا قد بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- على اتّباعِه وإيوائه هو وأتباعِه. وفورَ دخولِه المدينة انهار السلطان وانتقل إلى يدِ النبي. ففقدت القبيلة سلطانَها على العشائر. وفقدت العشيرة سلطانَها على الأسَر. وفقدت الأسرة سلطانَها على الأفراد. وأصبح الجميع تحت إمرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو لا يتصرف وَفقًا لهواه، وإنما وَفقًا لحكمته في التعامل مع الظرف واتّباعًا للوحي الذي ينزل مفرقًا.

إذن، بدخول النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة تحققت الصفتان اللتان ناقشناهما سابقًا مِن العوامل التي يمكن تحت وطأتها أن يُكره البعضُ فَتَياتِهم على البغاء. فقدْ كان عاملُ "الهجرة الداخلية" عاملاً مشتركًا بين المهاجرين والأنصار، وأيضًا كان عاملاً مشتركًا مع المنافقين واليهود. فقد انهارت المنظومة الاجتماعية والفكرية وسلطان العُرف والدين الذي كان يحكم سلوكَهم. وكانت "الهجرة الخارجية" واقعًا مضافًا مع الهجرة الداخلية على المهاجرين مِن مكة وغيرها مِن القبائل الأخرى.

إذن، فعَلى غيرِ ما يصوِّر لنا التاريخُ الرومانسي الذي يتركه في أذهاننا نشيدُ " طلَع البدر علينا مِن ثنيات الوداع" فقد كان الواقع الحقيقي انقلابًا مفاجئًا على كل ما ألـفه البَشر، فاختلطت القبائل وتفككت الأُسَر واختلط الرجال بالنساء أفرادًا وجماعاتٍ ومنهم الكثير مِن المؤمنات اللائي تركن أزواجَهن المشركين وهاجرن للنبي، كانت ثورةً سياسية واجتماعية وعقدية على كل مألوفٍ بكل المقاييس، وأصبح التعايش أهمَّ ضرورةٍ أمنيةٍ وسياسيةٍ. وبالطبع تحمّل الأثرياءُ مسؤولية إيواءِ وإطعام الفقراء والفقيرات.

وكان في المدينة وما حولها منافقون بنص القرآن، بعضهم كان معلومًا للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم لا يعلمهم إلا الله، وكان هناك اليهود، كان هناك كثيرون فقدوا سلطانَهم وضاعت أحلامُهم تحت أقدام الوافدين، فكان طبيعيًا أن تكون هناك ثورةٌ مضادةٌ خفيّةٌ. وقد سجل التاريخ لنا أن عبد الله ابن أُبَيّ بن سلول كان كبيرَ الخزرج، وعلى وشك أن يُتوَّج مَلِكًا كما وصف ابن هشام في السيرة: " فأمّا عبد الله ابن أُبيّ فقد كان قومُه قد نظموا له الخَرَز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله... وهُم على ذلك. فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضَغِن ورأى أن رسول الله قد استلبه مُلكًا. فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مُصرًّا على نفاقٍ وضغن".

بهذا التصور المنطقي كان مِن الطبيعي أن يوجه بعض المنافقين والحاقدين اتهامًا لبعض المؤمنين الذين قدَّموا العونَ للفقيرات مِن المسلِمات بأنهم ما فعلوا هذا إلا بمقابل، أُطلِقت شائعاتٌ مِن شأنها الإحباط والبلبلة والصيد في الماء العكر لتمثل الثورةَ المضادة، فنزلت الآياتُ تبرِّئ الطيبين والطيباتِ مِن المؤمنين والمؤمنات الذين أصابهم الاتهام، ونزلت السورة تعالج هذا الوضعَ الاجتماعي الجديد وتشرِّع لضوابط العلاقات الاجتماعية في هذا المجتمع غير المسبوق.

بعد موت النبي -صلى الله عليه وسلم- وزوال الجيل السابقين الأولين مِن المهاجرين والأنصار، اتسعت الدولة الإسلامية اتساعًا غير مسبوق في تاريخ البشرية، وانتقل سلطان الدولة الجديدة مِن يد الخلفاء الراشدين إلى الفلول وأفراد الثورة المضادة مِن بقايا قريش الذين تأرجح المؤرخون حول إثبات إسلامهم مِن عدمه، بينما تباينت المذاهب الفقهية في ذلك. فالسُّنَّة قد جعلوا مِن معاوية الذي أسلم بعد الفتح حينما لم يكن هناك خيارٌ غير الإسلام، جعلوا منه صحابيًا جليلاً وتوَّجوه كاتبًا للوحي رغم أن سيفَه أوغَر في أجساد المسلمين طوال نزول الوحي. بينما الشيعة يكفّرونه أيما تكفير.

ما يهمنا هو أن المدة الزمنية بين هجرة النبي ووصول الإسلام إلى جنوب باريس غربا وحدود الصين شرقا كانت أقلَّ مِن قرن، في هذا القرن دخلت الإمبراطورية الفارسية بكل تراثها وثرواتها و ثقافاتها وأساطيرها في المجتمع المسلِم، وكذلك الإمبراطورية الرومانية والمصرية وحضارات شمال إفريقيا والشرق الأقصى. واختلطت القصص والروايات عن سيرة النبي وأصحابه، وكثُرَ التدليس والكذب عليه ووضعُ الحديثِ لأغراض مريضة يصعب معها تمييز الحقيقة مِن الكذب، عِلمًا بأنه لم يكن في القرن الأول والثاني توثيقٌ رسمي للتاريخ الإسلامي - وقد حاولتْ القوى الخفية للثورة المضادة اغتيالَ الرسول -صلى الله عليه وسلم- أكثرَ مِن مرة لكنه كان معصومًا مِن القتل - وحاولتْ تحريفَ القرآن فوجدوه محفوظًا مِن التحريف - لكن صراع تلك القوى مع الإسلام كان وما زال صراعًا حضاريًا يمتد إلى أن تقوم الساعة، وهي تعلم حق العلم وعلم اليقين أنه لا نبي بعدَه، فلجأت تلك الأيدي الخفية لاختراق التراث الإسلامي الذي بدأ التأريخ والتوثيق له، لخلق مصادر تشريعٍ موازية للقرآن تقبَلُ التحريف، فبدأ هذا المخطط أولاً بتنظيم القصص المغلوطة عن السيرة والحديث، فبثوا مِن خلالها سمومَهم تدريجيًا ووجدوا مَن أعانهم وما زال يعينهم في إعطائها "أهمية" ثم "شرعية" ثم "قدسية"، ومع عامل الزمن أصبحت مصادر التراث كـ " القرآن الموازي" وسرعان ما أصبحت هي المرجع لتفسير القرآن المحفوظ، وقد كان لسورة النور النصيبُ الأكبر في خلخلة تاريخها وتفسيرها للأسباب التي ذكرناها سابقًا، وهي أنها كانت السورة البنائية التي خَلَقت المجتمعَ النوراني الأول. ومِن خلال التشكيك في سورة النور وصرف العقول عن التدبر فيها بشغلهم بقصة الإفك التي تسيل الدموع، استطاعوا طعنَ عقول المسلمين في أخطر محوريْن:

المحور الأول: هو جعْلُ المسلمين يلوكون شرفَ النبي -صلى الله عليه وسلم- بإلصاق قصة الإفك بعائشة لأسباب سياسية واجتماعية وعقدية ستتبين لنا لاحقًا.

المحور الثاني: تم إضافة التحريف الوهمي الوحيد للقرآن المحفوظ من خلال " القرآن الموازي" وهو الزعم أن هناك آية في سورة النور تم نسخُها. وعليه تم إدخال "آية الرجم التوراتية" التي ابتلعتها الأجيال اللاحقة التي أصلاً قد بلعت ما يسمَّى بعلم "الناسخ والمنسوخ"، فأصبح في القرآن الموازي آيةٌ إضافية شديدة البشاعة يعمل بها المسلمون تحت مسمى النسخ إلى اليوم. وما زال المتطرفون المعتوهون مِن المضللين المسلمين الذين يجدون

فرصة سلطانٍ على غيرهم يسارعون بتطبيق ما يتوهمون أنه شرْعُ الله مِن " رجمٍ" لنساء مغلوبات على أمرهن كما نتابع في "بوكو حرام" النيجيرية وهوس الجماعات الإسلامية في الصومال وأفغانستان وإيرانَ وغيرها. ولستُ أدري ما هو موقف علماءِ المملكةِ العربية السعودية فيما يسمّى بحد الرجم التوراتي إلى لحظة كتابة هذا الكتاب.

لو رجعنا الآن لسورة النور، وفي أذهاننا هذا التصورُ المنطقي لتلك الحِقبة، يمكننا أن نفهم بسلاسة متناهية بقية الآيات:

{وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (22) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ **الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ** لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ **أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ** مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (26)}

نلاحظ هنا أن الآياتِ البيناتِ مضت بعد أن رَفَعت الحرجَ عن المظلومين والمظلومات وبرَّأتهم مِن الاتهام الظالم، أنها عادت لتعالج ردود الفعل. من الطبيعي في ظرف مثل هذا الظرف أن الأثرياء مِن المؤمنين الذين كانوا يقدِّمون العونَ للفقيرات والفقراء أن يشعروا بالحرج ويُحجِموا عن مواصلة مد يد العون. هنا جاءت الآية تحثهم على مواصلة الصدقة والعون لأولئك المحتاجين الذين نالهم الإفك. ونلاحظ أن الله وصفهم بصيغة الجَمع أيضًا "أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ". إذن، فقصة الإفك نسجت على معاملةٍ طيبةٍ من بعض الأثرياء من المهاجرين والأنصار الذين قدَّموا العونَ للمسكينات من المهاجرات. ثم تمضي الآياتُ تؤكد براءة المتهمات بالإفك بصيغة الجَمع التي لا تَخفى على الأعمى: " إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ.."، فهل كان الرمي على عائشة أم على محصناتٍ غافلات مؤمنات؟؟ أفلا تعقلون؟

الغفلةُ لها مدلولاتٌ كثيرة: منها السذاجة والبساطة في التفكير، ومنها حُسن النية وعدم الإحاطة بالمخاطر المحيطة بالفرد. وكلا المعنييْن لا ينطبقان على عائشة، إذ إنها كانت السيدةَ الأولى بمقاييس ذلك المجتمع وزمانه. بل هي السيدة الأولى بمقاييس كل الأزمان. فهي كانت زوجة الحاكم والنبي والرسول، وكانت أيضًا ابنة الرجُلِ الثاني في الدولة أبي بكر الصديق وهو مِن أثرياء المؤمنين. فكيف تكون عائشة مِن الغافلات؟ اللهم إلا إذا بَلَعْنا قصة سذاجتها التي حاول الأفَّاك في رواية البخاري إقناعَنا بها، وأنها كانت تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجنُ فتأكله. وتختم الآياتُ هذه القصة بإضفاء حُكم عام ربَّاني بصيغة جَمْع لا يمكن إنكارُها ولا علاقة للنبي وآل بيته بها:

{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (26)}

أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ: الاتهام كان جماعيًا عشوائيًا وجاءت البراءة أيضًا جماعية.

وهنا نعود لبداية سورة النور لنراجع أنفسَنا: هل شطحنا أم أننا نعالج شطحًا موروثًا؟ لقد وصف الله أنه أنزل فيها آياتٍ بينات، هل الآياتُ بيناتٌ هُنا أم لا؟ وهل لعِب الحديثُ دورًا في بيانها أمْ تلاعَبَ بعقول المسلمين وأدَّى إلى طمسها؟ أفلا تعقلون؟

الشهداء الأربعة:

ما يرجِّح تأويلنا وتصوّرَنا لواقع المدينة حينَها ومصدر قصة الإفك الحقيقية كما وصفناها هو أن الله تعالى لم يَنفِ نفيًا قاطعًا استحالة وقوع ممارساتٍ جنسية خارج إطار الزوجية في تلك الظروف. فالآيات برَّأت المهاجراتِ المؤمناتِ المحصَنات الغافلات اللائي تم اتهامهن، لكنها تركت البابَ مفتوحًا لمن يعيد الاتهامَ أن يأتي بالبينة على قوله وهي "أربعة شهداء"، وليس أربعة شهود:

{لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13)}

قلتُ سابقًا إن المقولة المنسوبة لعائشة رضي الله عنها مقولةٌ تعكِس التاريخَ والبيئة وإنْ كانت ساقطة كحديثٍ يوثق قصة الإفك مع عائشة. ومما احتوت عليه هو وصفها لأمرٍ بديهيٍّ معلومٍ لمن يسكن الصحراءَ والخيام ومعسكراتِ اللاجئين إلى اليوم. وهو أن المساكن حينذاك لم يكن فيها مراحيضُ، وأن الناس كانوا يتبولون ويتغوَّطون في العراء في أماكنَ وأوقاتٍ متعارفٍ عليها. فلمَّا تغيَّر التركيب الاجتماعي والسكاني للمدينة بعد الهجرة أصبح هناك اضطرابٌ حتى في أماكن تبوّلِ كل قبيلة أو حي. هذا لأن هناك مَن سكَن أيَّ مكانٍ مِن غير سابق معرفة لهم بأن هذه المساحة تخص تلك القبيلة أو العشيرة كمتبَوَّلٍ لهم.

مِن هنا نفهم أن المارَّ يمكن أن تقع عيناه على رَجلٍ أو امرأة تتبرز في العراء.

ومِن هنا أيضا يمكننا أن نتصور أن المتزوجين مِن المهاجرين الذين سكنوا العراءَ كان طبيعيا أنهم يمارسون حياتَهم الزوجية في ستر الليل في العراء أيضًا، أو يستترون بما يتوفر لديهم مِن سترِ شجرٍ أو حجرٍ أو كهف أو غيره. هذه لا تحتاج لفلسفةٍ أو دلائلَ تاريخيةٍ لأنها واقعُ البدوِ والرُّحَّل إلى اليوم. ومِن هنا نفهم أن مَن يمارسان علاقة جنسية خارج إطار الزوجية أيضًا يمكن أن يتعثر بهما مارٌّ في الطريق. ومِن هنا نفهم لماذا اشترط الله أن يأتي مَن يرمي المحصَناتِ بهذه التهمة أن يأتي بأربعة شهداء. ولفظ "الشهداء" يعني الذين يشهدون الحدثَ سواءٌ أكان صدفة أمْ بترتيب مسبق كما في آية الدَّيْن التي سنناقشها في باب " أمِّي كاملة عقلٍ ودِين" ولا يشترط أن يكونوا شهودًا في المحكمة. هذا يعني أن مَن يتعثر باثنين في حالة ممارسة جنسية في مكان عام فعليه قبْل أن تسوِّل له نفسُه أن يَفضح أمرهما أن يأتي بأربعةِ شهداءَ قد شهدوا الحدث نفسَه. وفي تقديري فإن طلبَ الشارع إحضارَ أربعةِ شهداءَ ناتجٌ مِن حرصه على أن يقفل باب "الفضائح" وباب "الاتهامات" معًا. لأن مَن مرّ بهما مارٌّ، غالبًا ما يستران أنفسهما قبْل أن يراهما شاهدٌ ثانٍ. لكن مَن كان مستهترًا وواصل فِعلتَه حتى يمر عليه أربعةُ شهداءَ فأولئك أولى بالعقاب ليس على الممارسة نفسها وإنما على الاستهتار بمشاعر العامة وعدم الاكتراث بمرور ثلاثة عليهم، فتَجِب عليه أو عليهما معًا العقوبةُ إنْ واصلا فعلهما علنًا إذا تكرر مرور شاهدٍ رابع، ثم أمكن جمع هؤلاء الشهداء الأربعة. والعقوبة هي العذاب أو المئة جَلدة كما أسلفنا وليس جريمة الرجم التوراتية.

إذا استطعنا أن نستوعب ذلك الواقع الطبيعي البديهي فإننا يمكن نقرأ آياتِ "غض البصر" قراءةً جديدةً ربما تصيب بعضَكم بالدهشة، وهي "الوتــد الرابع" الذي يكمل لنا خارطة المدينة حينَها. وأقول قراءة جديدة لأننا سنرجعها كيفما قرأها مَن نزلت في حالهم تعالج شأنهم مِن الأجداد، لكنها ستكون قراءة حديثة لنا:

{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)}

قُلنا مِن قبلُ إن القرآن بيِّنٌ بنفسه، وقد بيَّنَه الله ولا يحتاج لبيان البشر. فقط يحتاج للتدبر والفهم. وسورة النور صرحت بأنها آياتٌ بيِّناتٌ. مِن هذا المنطلق، ومِن السياق الذي رسمته السورة لحال المجتمع النبوي في بداية الهجرة فإن هذه الآياتِ لا علاقة لها بفرض سلوكٍ عامٍ على المؤمنين بغض البصر في كل مكانٍ وزمانٍ. الظاهر

أن هناك علاقة مباشرةً هنا بين "غض البصر" و "حفظ الفرج". ولا توجد حالة فيها ربطٌ مباشرٌ بين "البصر" و"الفرج" إلا في "غرفة النوم" أو في حالة "التبول والتبرز".

وحتى يتم استيعاب هذه النقطة: ففي قاعات الدراسة المختلطة أو المواصلات والأسواق وغيرها من الأماكن التي تَجمع النساءَ والرجال، لا توجد علاقة بين البصر والفَرْج على الإطلاق. بل حتى في البارات والملاهي الليلية والمَراقِص والكباريهات لا توجد قفزةٌ مباشِرة من البصر للفرْج. في كل هذه الأماكن يمكن أن توجد علاقةٌ بين "البصر" والإعجاب والمغازلة والملاعبة و غيرها من ظاهر العلاقات الاجتماعية أو مقدمات الإثارة الجنسية، لكن لا يوجد وضعٌ في حياة الناس يتم الجمع فيه مباشَرة بين "البصر" و "الفرْج" إلا في حالة تعرٍ تامٍ أو شِبه تعرٍ وهذه لا تحدث إلا في حالة التبرز والتبول، أو في حالة الممارسة الجنسية أو الاستحمام في بركةٍ أو نهرٍ.

وحتى في حالة المعاشَرة الزوجية الشرعية فإن الآية لا معنى لها إلا إذا كان المأمور بغض البصر شخصًا ثالثًا وليس الزوجَ والزوجة؛ لأن هؤلاء لا يؤمرون بغض أبصارهم وحفظِ فروجهم في ذلك الزمان والمكان.

إذن، الآياتُ هنا تنظم السلوكَ العام للمارة في الطرقات إنْ هُم رأوا مَن يتبول أو يتبرز في مكان عام أن يغضوا أبصارَهم، أي عليهم ألا يستغلوا الظرْفَ ويتلصصوا على فروج الآخرين. أيضًا توجِّه المؤمنين أن يتخذوا ستارًا عند التبرز والتبول يستر فروجَهم. هي مجرد آدابٌ عامة كانت في بيئةٍ محددةٍ وظرفٍ محددٍ كان ممكنًا فيه للبصر أن يقع مباشَرة على الفرْج في مكان عام. أيضًا: فإن مَن وقع بصرُه على اثنيْن متزوجين في حالة جِماع فعليه ألا يتلصص.

بصورةٍ أكثر بساطة فالآية تقول للمارّ: "لا تنظرْ." بينما تقول للمتبوِّل أو المتبوِّلة أو المتزوجين: احفظوا فروجَكم مِن أنظار المارة. لذلك قيل قديمًا: النظرة الأولى لك والثانية عليك. المقصود هنا أنك إذا لمحتَ مَن يتبول أو لمحتَ رجلاً وامرأة في حالة جِماع بين أعشاب أو طارت خيمتُهم مع الريح، فلا تنظرْ إليهم مرة أخرى.

مِن المفاتيح المهمة التي ترجِّح هذا التأويلَ هو ختام الآية، ولقد قلتُ مرارًا وتكرارًا منذ "نظرية آذان الأنعام" إن ختام الآيات غالبًا ما يحمل سرًا مهما في فهمها. فقدْ انتهت الآية بــ: " <u>ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ</u> ". فلا يُعقل أنْ يكشف الرجل أو المرأة فرْجَها ثم يأمر الله بستره فقط بقوله " أَزْكَى لَهُمْ "، وكأنه يقول: " هذا أفضل مما سبق". هذا التبسيط لا يتم إلا إذا كان كشف الفرْج في مكانٍ عامٍّ ليس نتاجَ سوءِ أخلاق أو انحلال و إنما هو استجابة لحاجةٍ فطريةٍ وهي التبول في مجتمع بدويٍّ بدائيٍّ، أو متزوجين يسكنون العراءَ أو الخيام، فقط كانوا يحتاجون لتوجيه نحو الطريقة الأفضل. ومِن هنا نفهم قوله: إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ: يعني "لا لوم عليكم لأن الله يعلم بأنه أمرٌ عفويٌّ فطريٌّ،هو فقط يدلكم على سلوك أكثرَ رُقيًا." ومِن هذا المنطلق فإن آية غض البصر الوحيدة في القرآن كانت مرتبطة بهذا الظرف. وليست مِن صفات المؤمن أو المؤمنة أن يمشي مُكِبًّا على وجهه بحجة غض البصر إلى اليوم.

هناك ملاحظة أخرى لا بد من التنبيه لها وهي بداية الآية:

{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ}، المفهومُ بطبيعة الحال أن الأمر مِن الله تعالى للنبي -صلى الله عليه وسلم- ليقُول للمؤمنين، لكن لأن محتوى الأمر لا علاقة له بالرسالة، فلم تبدأ بـ " يا أيها الرسول قل للمؤمنين". وأيضًا لأن محتوى الأمر ليس إلا حدثًا عابرًا ويعكس سلوكًا بدائيًا مِن المؤمنين في فترة محددة، فقد حَذَف الله حتى لفظ النبي، فجاء الأمر كأنه مبهم، ليعبر عن بساطة الأمر المطلوب وبساطة المجتمع الذي كان يتعامل معه. هذه البداية تختلف مثلاً عن قوله:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59)} الأحزاب.

وسنناقش مضمونَ هذه الآية مع الحجاب في باب "فقه الكلب".

ومضت الآية الثانية تضيف مزيدًا من الضوابط العامة للمؤمنات أن يَكُنَّ أكثرَ حيطة في إخفاء المزيد مِن زينتهن - مِن غير تحديد لتلك الزينة، وسأعود لهذه الآيات مرة أخرى مع الحجاب في باب "فقه الكلب".

إن تفسير القرآن بالقرآن هو المدخل الأول للتفسير إذ لا يعلم تأويله إلا الله. ولو رجعنا لاستعمال لفظ الفرْج في القرآن نجده وَرَد في سورة "المؤمنون" في سياق آخر لا يَخفى على أحد:

{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7)} المؤمنون.

فالفَرْجُ في اللغة يعني "الفتحة"، ومنها جاء لفظ "الفَرَج" بمعنى زوال الكُربة أو الضيق كدعائنا: " فرَّجها الله عليك" ومنها جاء لفظ "الفَرْجة " بمعنى الراحة من حزنٍ أو مرض. و"الفُرجة"، اليوم بمعنى الفسحة لإراحة النفس،وهي ما يتفرّج عليه الإنسان ويستمتع برؤيته، وهي من التطور اللغوي والمستحدثات الاشتقاقية للجذر. وهذا "الفرْج" في جسم الإنسان يشير إلى عضوٍ له وظيفتان:

الأولى: هي الغالبة اليومية وهي ضرورية لاستمرار الحياة: هي وظيفة التبول عند الذَّكَر والأنثى.

الثانية: هي وظيفة إضافية وهي إشباع الشهوة الجنسية، وهذه ليست مِن الضروريات اليومية ولا علاقة لها باستمرار حياة الفرد.

لو رجعنا لآيات سورة النور سنجد أن الفرْج المَعني هو العضو الإخراجي لأن السياق لا يتحدث عن علاقات جنسية هنا وإنما ستر الفرج حين التبول. لكن لأن الهوسَ الجنسي أصبح أصلاً مفتاحًا لتفسير كل آيات القرآن إذا ما ورد سياق ما يسمح بذلك فقد أُخِذَ الأمرُ بغض البصر خارج السياق، ثم تحوَّل لصفة ملازمة للمسلمين في كل مكان وزمان. وحتى أُعِين مَن يستغرب هذا التأويل، فإن التبول أمام المارة ما زال شائعًا في كل بلدان العالم بما فيها لندن وباريس ونيويورك. ولعل العربَ في كل البلدان يعلمون جيدًا ماذا تعني هذه الجملة وأين تكتب: " ممنوع البول يا حمار".

أمّا إسهاب الآية في أمر نساء المؤمنين ألّا يُبدين زينتَهن في بقية الآية فسأناقشها مع الحجاب في باب "فقه الكلب". فقط أود لفتَ نظرِ القارئ هنا أن لفظ "زينة" قد ورد ثلاثَ مراتٍ في الآية، فما هي هذه الزينات الثلاث؟

إلى هنا تنتهي قصة الإفك في سورة النور والتي لا علاقة لها على الإطلاق بعائشة رضي الله عنها ولا ببيت النبي. لكنها كانت أكبرَ قصةِ بهتانٍ تم دسه على المسلمين. وبانهيار قصة البهتان على عائشة ينهار كل التراث الإسلامي مِن حيث المصداقية. ولِمَ لا؟ فقد خالف الرماةُ أمرَ النبي في "أُحُد" فدارت عليهم الدائرة، ثم خالفوا أمره في فتح ثغرةٍ في التراث الإسلامي اسمها "الحديث" فكانت تلك هي النتيجة. ويظل القرآن وحدَه هو الفيصل.

وهنا لا بد أن ننتقل من سورة النور التي لا علاقة لها بعائشة للتساؤل عن السبب الذي دفع المنافقين لتشويه صورة عائشة بقصة الإفك من دون نساء النبي ونساء المؤمنين. وسنناقش هذا الموضوعَ في ثلاث مراحلَ كلها قُصِد منها إعدام شخصية عائشة ثم انتهت بإعدام شخصها رضي الله عنها.

قلتُ إن سورة النور كانت السورةَ البنائية الأولى للمجتمع النبوي النوراني. وقد اشتملت على آياتٍ بيِّناتٍ حصنت بها "ملكة النحل" ألا تمس فقفلت أكبر الأبواب التي يأتي منها الريح ويدمر المجتمعات. فإنْ كان المجتمع يرفع المرأةَ في مكان عالٍ مِن الصون والحفظ فإنها هي المصنع لصناعة الأجيال القادمة. وإنْ كان المجتمع قد أنزلها أسفل سافلين فلن يخرج مِن رَحِمِها إلا أشباهُ رجالٍ ولا رجال. الأمر ليس فيه عبقريةٌ ولا معجزات وإنما تنسيق لسلوك الناس لتتماشى مع سُنَّة الله في الخلق. وقد كان.

وحتى نفهم خطورةَ هذا المدخل البنائي، تصوَّرْ فقط أن مدينة القاهرة أو الدار البيضاء يمر عليها أسبوع مِن غير معاكسةِ شبابٍ لشابات، ومِن غير مضايقةٍ أو رصدِ فضائحَ، أو تتبع خصوصيات الناس. حتى مَن رأى أو سمع ما عليه إلا أن يتجاهل كأنه ما رأى ولا سمع. كَم مِن الطاقات سيتوفر ذلك الأسبوع. وكم من الإجراءات الأمنية ووقت وإمكانيات الشرطة والقضاء سيتوفر ويُستَغل في عمل آخر أكثر أهمية؟ وكم مِن الوقت سيتوفر للشباب ليشغلوا أنفسهم بأمور أخرى أكثر جدية؟ وكم مِن الأمن والأمان ستشعر به ملايين النساء حيثما يذهبن؟ بل إن الكثير من المنظمات التي قامت أصلاً لحماية المجتمع من المعاكسات وبوليس الآداب وغيرهم سيجدون أنفسهم بلا عمل. والكثير مِن الخُطباء سيضطرون للبحث عن مادة جديدة يتحدثون فيها وعنها بدلاً من خصوصيات النساء والرجال.

لقد قلتُ في باب " أفلا تعقلون" إن العقلَ االبَشَريَّ نفخة مِن روح الله وهي الوسيط الذي يوصل الإنسانَ مِن عالم الطين إلى "عالم الأمر" النوراني. التواصل بين العقل وعالم الأمر لا يحتاج لعلماءَ ولا فقهاء، وإنما لتفعيلٍ بالتدبر والتأمل في الكون في هدوء وسكينة. وقلتُ في باب " ملكة النحل" إن دورَ الأنثى هو بناء الأجيال واستمرارية الحياة. وهي التي تمنح لسانَ الأمِّ للجيل الجديد في أي حضارة، ولم نسمع بلسان الأب لأن الإنسان تصنعه الأم أو الأنثى. وكل ما فعله البيان رقم واحد " سورة النور" كان تعطيلَ كل الاهتمامات الساذجة للرجال، وصرفهم عن الانشغال بقضايا وأسرار وفضائح وخصوصيات النساء حتى ولو كانت زوجتك، وعليه أصبح أمام العقل متسعٌ هائل من الوقت والجهد للتدبر في الخلق وعظمة الخالق. ثم إن البيان رقم واحد وفَّرَ حصانة غير مسبوقة لـ "ملكة النحل" أن تبدع في أمان. وبهذه الوصفة البسيطة جدًا تواصل ذلك المجتمع مع عالم الأمر مباشرة فكان المجتمع النبوي الذي أعجز الناسَ كيف تم بناؤه.

وحتى أختصر: فإن الذين أرادوا طمسَ نور سورة النور قصدوا ضربَ عددٍ مِن العصافير بحَجر واحد. فقد أقحموا فيها قصة بهتان مزورة تنال مِن عِرض النبي ومِن شخص عائشة بنتِ أبي بكر -رضي الله عنها وأرضاها-؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان قد صنع منها شخصية فولاذية تحمل الراية مِن بعدِه بعدد السنين التي امتد إليها عمرُها بعدَ رحيله. لذلك لا غرابة في أنهم سعوْا لتحطيم شخصيتها تلك بقصة زواجها وهي طفلة، ثم قصة الإفك التي ألصقوها بها، ثم أخيرًا تم إعدامها حينما كانت هي الصخرة الباقية التي صمدت في وجه تيار أعداء الإسلام. ووسط هذا الزحام من الأوهام التي ورثت تحت مسمّى "أسباب نزول سورة النور" و "تفسير سورة النور" و " الناسخ والمنسوخ"، ضاعت السورة الحقيقية عن أذهان الناس وفقدت قيمتها البنائية في المجتمع. ثم أصبحنا نحن المسلمين ألدَّ الأعداء للنبي -صلى الله عليه وسلم- .

الإعدام الثاني: زواج عائشة:

مِن غرائب المناهج التعليمية التي تعرضت لها الأمّة على مدى قرونٍ أنها كانت انتقائية وعدائية للإسلام والنبي وآل بيته. وأقول هذا الرأي بكل أسفٍ لأننا نجد في التراث آراء مختلفة في القصة نفسها، لكننا نجد أن الخطباءَ والفقهاء ومناهج التعليم الحديثة قد أخذت بأقلها منطقية وأكثرها إساءةً للنبي، بينما تركت مصادرَ أخرى لا تُرضي إلا أهواءَهم وإنْ كانت المصداقية فيها أكبر. فزواجُ عائشة وهي طفلة هو الشائع بين المسلمين وكأنه لم يكن في التاريخ الإسلامي ما يشكك فيه. بل إن الأدلة التي تثبت عدم مصداقية هذا الموروث مِن مَراجع ما يسمّى

بأهل السُّنّة والجماعة أنفسهم تكفي لأن نقفل هذا الباب الذي يُسيء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- . لكن كما قدَّمتُ في باب " حليمة بائعة اللبن" فإن الإساءة للنبي أصلاً أصبحت حِرفة احترفها عددٌ غير يسير يجلسون في مواقع اتخاذ القرار، وهُم ألدُّ أعداءِ النبي -صلى الله عليه وسلم- زمنًا قبل الرسومات المسيئة إليه في هذا العصر.

قلتُ سابقًا، إن زمن دفن الرؤوس في الرمال قد ولّى وجاء زمن توفر المعلومات وتناقلها بصورة غير مسبوقة لدرجة شارفت على أن تجعل دراسة الطب والهندسة وقيادةَ الطائرة وهي مجالات عملية تطبيقية بحتة، كادت تصبح ممكنة ومتاحة لأي أحد عبْرَ الإنترنت، فما بالك بالبحث بين كتب التاريخ ومراجعة المصادر التي كانت حكرًا على الكهنة في كل الأديان ومَن والاهم؟

في العقديْن الماضيين زاد فضول الناس في البحث في تاريخ الإسلام، وهذه ظاهرة حَسَنة. لكن فوجِئ المسلِمون بإساءات توجَّه للنبي الكريم في شكل رسوم مقززة سواءٌ أكانت تعبِّر عن "هوس جنسي" أم "بشاعة وإرهاب" أم عن "شذوذ" وولع بالجنس مع الأطفال "بدوفيليا". بطبيعة الحال فإن الفطرة البريئة تستنكر هذه الصور، لكن "رجال الدين" في صمتٍ تامٍّ عن حقيقة أن تلك الصور المسيئة ليست إلا تمثيلاً حرفيًا لِما تحتوي عليه بعضُ مراجِع التراثِ الإسلامي التي أسبغوا عليها كل قدسية وجعلوها في بعض الأحيان مهيمنة على كتاب الله. فرجالُ الدين في كل دين تهمهم دنياهم ومصالحُهم قبْلَ ما ينادون به مِن دين، لذلك جَمَع اللهُ فرعونَ مع هامان:

{فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)} القصص

وما فرعون وهامان وجنودهما إلا رموز تتكرر كلما تكرر الفعل الذي فعلوه.

المؤسف أن أفواهَ الكثيرِ مِن علمائنا – غير علماء السلطان - مغلقةٌ على ما فيها مِن ردود علمية وعملية، مكتفية فقط بتسفيه المنتقدين والتشكيك في نواياهم، وحينما تظهر أصوات العقلاء لتدافع عن الرسول عليه الصلاة والسلام مؤكدة بالتاريخ والروايات الموثقة، على الأقل عدم دقة الكثير من الروايات التي يأخذها بعضهم على الإسلام في علاقات النبي مع النساء وفي معاملاته العسكرية وغيرها من الروايات التاريخية التي تحتاج لبحث ومراجعة تواجهها تلك العقبةُ المقدسة التي تقول بقدسية المناهج الفقهية القديمة، وكُتُب البخاري ومسلِم، وتعصمها مِن الخطأ، وترفض أيَّ محاولةٍ للاجتهاد في تصحيح روايتها حتى ولو كانت محل شك، فهي العلوم وحيدة زمانها التي لا تَقبل التجديدَ ولا الإضافة ولا الحذفَ ولا التنقيح ولا التعقيب ولا حتى النقد.

إن الإصرارَ على قدسية اجتهادات السلف يصوِّر المسلمين مِن بعد القرن الرابع الهجري كأنهم أصبحوا مخلوقاتٍ منزوعة العقل، أصبحوا مسلمين مِن الفئة الثانية لا يُقبَل منهم الاستدراك أو النقد على ما قدَّمه العلماء الأوائل، وكذا هو الحال مع الرواية ذائعة الصيت التي يكاد يعرفها كل مسلِم، وغير مسلِم، والتي جاءت في كتاب البخاري ومسلِم، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو صاحب الخمسين عاما قد تزوج أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها وهي في سن السادسة، ودخل بها وهي تكاد تكون طفلة بلغت التاسعة، وهي الرواية التي حازت ختم الحصانة الشهير لمجرد ذِكْرها في البخاري ومسلِم، رغم أنها تخالف كل ما يمكن مخالفته، فهي تخالف القرآن ومَراجعَ أخرى من التراث الإسلامي، وتخالف العقلَ والمنطق والعُرفَ والعادة والفطرة، وتخالف الخط الزمني لأحداث البعثة النبوية.

هنا أقدِّم بحثًا ساهَم فيه عددٌ غير قليل من المسلمين عربًا وعجمًا ليس بينهم سابقُ اتفاقٍ. فقد غاظ صمتُ أهلِ الاختصاص كثيرين فقاموا بالبحوث المختلفة التي ألخِّصُها في هذا المقال الذي يناقش رواية البخاري في الأساس لأنه "أصح كتابٍ بعد كتاب الله":

هذه الرواية التي أخرجها البخاري جاءت بخمس طُرُق للإسناد وبمعنى واحدٍ للمتن ولطول الحديث سنورد أطرافَه الأولى والأخيرةَ التي تحمل المعنى المقصود:

البخاري - باب تزويج النبي عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها (3894): حدَّثني فروةُ بن أبي المغراء: حدَّثنا علي بن مسهر، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: {تزوَّجَني النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا بنت ست سنين، فقدِمنا المدينة،..... فأسلمتني إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين}.

قبل مناقشة الرواية ًأنبِّه القُرَّاء مرة أخرى أنه ليس كل ما بين دفتَيْ كتابِ البخاري هو كلام النبي. فلو افترضنا أن كل ما نقله البخاري عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وحيٌ معصومٌ كما يتوهم بعضهم، فإن هذه الرواية عن عائشة وليست عن رسول الله نفسه وعليه فهي ليست بحديث كما يفهم الناس لفظ حديث.

بالاستناد لأمَّات كُتُب التاريخ والسيرة المؤصلة للبعثة النبوية (الكامل - تاريخ دمشق - سير أعلام النبلاء - تاريخ الطبري- البداية والنهاية - تاريخ بغداد - وفيات الأعيان، وغيرها الكثير)، تكاد تكون متفقة على الخط الزمني لأحداث البعثة النبوية كالتالي:

بداية البعثة النبوية كانت سنة 610 ميلادية واستمرت 13 عاما في مكة و10 أعوام في المدينة. وكانت الهجرة بالتاريخ الميلادي سنة 623 ميلادية. وتوفي النبي -صلى الله عليه وسلم- سنة 633 ميلادية، أي بعد عشر سنوات في المدينة.

بهذه الحسابات فإن المفهوم مِن حديث البخاري أن النبي قد تزوج عائشة قبل الهجرة بثلاثة أعوام، أي في عام 620 ميلادية وكانت حسْب البخاري تبلغ من العمر 6 سنوات. ثم دخل بها في نهاية العام الأول للهجرة أي في سنة 623 ميلادية وكانت تبلغ 9 سنوات.

هذا الحساب يعني أنها ولِدت سنة 614 ميلادية (623-9) حسْبَ وصفِ البخاري. وسنة 614 ميلادية كانت هي السنة الرابعة منذ بدء الوحي.

الآن نعود للتدبر في هذه المعلومات التاريخية:

أولاً: حساب عمر السيدة عائشة بالنسبة لعُمر أُختِها أسماء بنت أبي بكر (ذات النطاقين) :

تقول كلُّ المصادر التاريخية السابق ذِكْرها بلا اختلاف بينها أن أسماءَ كانت تكبر عائشة بعشر سنوات. كما تروي كل تلك المصادر أن أسماء ولِدت قبل الهجرة بـ 27 عامًا. هذا يعني أن عُمْر أسماءَ عند البعثة سنة 610 ميلادية كان 14 سنة وذلك بطرح 13 سنة هي سنوات مكة مِن عمرها حين الهجرة. مِن هنا نجد أن عُمْر عائشة وهي تصغر أسماءَ بعشر سنوات كان 4 سنوات عند البعثة. هذا يعني أن عائشة ولِدت سنة 606 ميلادية. مِن هنا يمكننا أن نحسب أن النبي حينما خَطَبها في العام العاشر مِن البعثة كان عمرها 14 سنة وليس 6 سنوات.

بمعنى آخرَ أنها ولِدت سنة 606 ميلادية وبدأ الوحي سنة 610 ميلادية، وخَطَبها النبي سنة 620 ميلادية وعمرها 14 سنة. وكما هو متعارف عليه أنه بُنِي بها أي تزوجها بعد ثلاث سنوات وبضعة شهور من الهجرة، مما يجعل عمرها حينذاك أقربَ إلى 18 سنة في سنة 624 ميلادية.

لا بد مِن التوضيح أنني استعملت لفظ خَطَبها هنا لأن مدلول الألفاظ يسبب إشكالاً. فكُتُبُ السلفِ تميِّز بين "تزوجها" وهي بنت ست سنين، و بين "بُنِي بها" وهي بنت تسع. ولفظ " تزوجها " هنا يفيد فقط ما يسمَّى اليوم "كتب كتاب" أو " قراءة الفاتحة" بينما "بُنِي بها" تعني أنه بدأ معاشرتَها "الدخلة". لذلك استبدلتُ " تزوجها "بـ "خَطَبها" حتى يكون الفرْق واضحًا مع اختلاف الثقافات.

ثانيًا: حساب عُمْر عائشة بالنسبة لوفاة أختها أسماء:

اتفقت كل المصادر التاريخية السابقة أن أسماءَ رضي الله عنها توفيت بعد حادثة شهيرة وموثقة وهي مقتل ابنِها عبد الله بن الزبير رضي الله عنه على يد الحجاج بن يوسف عام 73 هجرية. وكانت حينها تبلغ من العمر مئة عام.

فلو قُمنا بطرح سنوات ما بعد الهجرة وهي 73 سنة مِن عمرها وهو 100 عام حين موتها، نصل للنتيجة نفسها وهي أن عمرها كان 27 عامًا حين الهجرة. فإذا طرحنا منها عشر سنوات وهو الفارق بين عمرها وعُمْر عائشة نجد أن عائشة كان عمرها 17 سنة حين الهجرة. فلو رجعنا للمصادر التي تقول إن النبي تزوجها بعد أكثر مِن عام مِن الهجرة نصل للنتيجة ذاتها، وهي أن عائشة كان عمرها على الأقل 18 سنة حين زواجها مِن النبي وليس 9 سنوات كما زعم البخاري. وما يعضد ذلك أيضا أن "الطبري" يُجزم بيقين في كتابه (تاريخ الأُمَم) أن كل أولاد أبي بكر الصدِّيق قد ولِدوا في الجاهلية، وذلك ما يتفق مع الخط الزمني الصحيح، ويكشف ضعفَ روايةِ البخاري، لأن الأرجح أن عائشة قد ولِدت في العام الرابع قبل بدء البعثة النبوية، وليس الرابعَ أو الخامس بعد البعثة.

ثالثًا: حساب عُمْر عائشة مقارنة بعُمْر فاطمة الزهراء بنت النبي -صلى الله عليه وسلم- :

يَذكر ابنُ حجر العسقلاني في كتابه " الإصابة" أن فاطمة ولِدت عام بناء الكعبة، والنبي ابن 35 عامًا حينها. ويَذكر أنها أكبر مِن عائشة بخمس سنوات. هذه الرواية بغض النظر عن ضعفها أو قوتها، إذ إن ابن حجر هو شارح صحيح البخاري، نجدها تخطِّئ البخاري ضمنيًا لأنه إنْ كانت فاطمة قد ولِدت والنبي عمره 35 سنة فهذا يعني أن عائشة ولِدت والنبي عمره 40 سنة. وهذا يعني أن عُمْر عائشة حين الهجرة كان 13 سنة هي سنوات الدعوة في مكة. وهذه الرواية على ما فيها مِن ضعف على الأقل تؤكد اضطرابَ راويةِ البخاري التي أصلاً يقوم عليها كل اللغط في عُمْر عائشة وزواجها.

الآن ننظر في نقد الرواية مِن كُتُب الحديث والسيرة:

أولاً: ذكَر ابن كثيرٍ في " البداية والنهاية" عن الذين سبقوا بإسلامهم: (ومِن النساء أسماءُ بنت أبي بكر وعائشة وهي صغيرة، فكان إسلام هؤلاء في ثلاث سنين ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعو في خِفية. ثم أمَر الله عز وجل رسوله بإظهار الدعوة).

هذه الرواية تدل على أن عائشة أسلمت قبل أن يعلن الرسولُ الدعوةَ عام 4 بعد البعثة، وهو عام 614 ميلادية تقريبًا. هذا يعني أن عائشة أسلمت على الأقل في العام الثالث من البعثة، أي عام 613 ميلادية. فلو أن عائشة قد ولِدت عام 4 بعد البعثة حسْبَ رواية البخاري، فهذا يعني أنها لم تكن قد ولِدت حينما جَهَر النبي بالدعوة، أو أنها كانت رضيعة في أحسن الأحوال، وهذا ما يتناقض مع وصف ابن كثير لإسلامها، وبالطبع يتعارض مع الخط الزمني للأحداث التاريخية الذي ذكرناه سابقًا. لكن كونها ولِدت عام 4 قبل الوحي، أي سنة 606 ميلادية يعني أن عمرها كان 8 سنوات سنة 614 حينما جَهَر النبي بالدعوة.

ثانيًا: أخرج البخاري نفسُه روايةً في باب (جِوار أبي بكر في عهد النبي) أن عائشة قالت: { لم أعقل أبويّ قط إلا وهُما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله طرفي النهار بكرةً وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا قِبَلَ الحبشة...}، هذه الرواية تعني أنها منذ أن عقلت الأمور وجدت أبويْها مؤمنيْن .الملاحَظ هنا أن عائشة كانت تعقل زياراتِ النبي لهم بينما الهجرة للحبشة كانت سنة 5 بعد البعثة بإجماع كُتُب السيرة والتاريخ، أي ما يوازي عام 615 ميلادية. فلو صدَّقنا رواية البخاري أن عائشة ولِدت عام 4 مِن بدء الدعوة، وهو عام 614 ميلادية، فهذا يعنى أنها كانت رضيعة عند هجرة الحبشة، فكيف يتفق ذلك مع جملة (لم أعقل أبويّ) وكلمة "أعقل" لا تحتاج توضيحًا. لكن بالحساب الزمني الصحيح تكون عائشة -رضي الله عنها- في هذا الوقت تبلغ 9 سنوات حين هجرة الحبشة (4 سنوات قبل البعثة مضافًا إليها 5 سنوات بعد البعثة). وهذا

هو العمر التقريبي الحقيقي لها، وليس الرواية التي حازت على إعجاب العلماء. فكِتاب البخاري لا يمكن أن يكون مصيبًا في هذه وتلك. إحداهما خطأ، أو كلاهما خطأ، لكن لا يمكن قبول صحة النقيضين.

لا بد من توضيح تكملة الحديث الطويل الذي اختصرتُه هنا، وفيه أن أبا بكرٍ لم يهاجر وإنما خرج بنيَّةِ الهجرة ثم رجع لحاجة المسلمين له.

ثالثًا: أخرج الإمام أحمد في "مسند عائشة": { لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: يا رسول الله ألا تتزوج، قال: مَن، قالت :إن شئت بِكْرًا وإن شئت ثيِّبًا، قال: فمَن البكر قالت: أحب خلق الله إليك عائشة ابنة أبي بكر }.

هنا يتبين أن خولة بنت حكيم عرضت البكرَ والثيب- المتزوجة سابقًا -، على النبي فهل كانت تعرضهن على سبيل جاهزيتهن للزواج، أمْ على أنّ إحداهما "طفلة" يجب أن ينتظر النبي بلوغَها النكاح؟ المؤكد مِن سياق الحديث أنها تعرضهن للزواج الحالي بدليل قولها (إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا). ولفظ "البكر" يطلق على الفتاة البالغة لكنها غير متزوجة، وليس على الأطفال. لذلك لا يعقل أن تكون عائشة في ذالك الوقت طفلة في السادسة من عمرها وتعرضها خولة على النبي بصفة البكر. هنا لا بد من التنبيه أن الرواية لم تحدد السن لكنها تؤكد أن عائشة كانت بالغة عند موت خديجة -رضي الله عنها-.

رابعًا: أخرج الإمام أحمد أيضًا عن خولة بنتِ حكيم حديثًا طويلاً عن خِطبة عائشة للرسول -صلى الله عليه وسلم- ورد فيه عن أم رومان وهي زوجة أبي بكر الصدِّيق وأُم عائشة: {... قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد ذكرها على ابنه، ووالله ما وعد أبو بكر وعدًا قط فأخلفه... لعلك مصبي صاحبنا..} والمعنى أن مطعم بن عدي وكان مشركًا قد خَطَب عائشة لابنه جبير بن مطعم قبْل النبي -صلى الله عليه وسلم- . وكان أبو بكر لا يريد أن يخلِف وعده، فذهب إليه ووجد زوجته أُم جبير تحاوره وتقول لعله إنْ تزوج ابني مِن عائشة يصبي (أي يؤمن) بدينها. مِن هنا لا بد أن نتعقل ونقدِّر أن عائشة لا يعقل أنها كانت مخطوبة قبل سن السادسة وهو السن الذي خَطَبها فيه النبي حسْبَ رواية البخاري الساقطة، ولا يعقل أن أبا بكر كان قد وافق على خِطبة ابنتِه لمشرك في أحلك سنوات المسلمين عداءً مع مشركي مكة، مما يرجح أن هذا الكلام دار بينهما قبل البعثة أو في بدايتها، ومن ثم يؤكد أن عائشة على الأقل عاشت 4 سنوات قبل بعثة النبي-صلى الله عليه وسلم-، بل هذه الرواية ربما تلمِّح إلى أن عائشة ولِدت زمنًا قبل البعثة وليس أربع سنوات فقط.

خامسًا: أخرج البخاري في باب - قوله: "بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمَرّ" عن عائشة قالت: {لقد أُنزل على محمدٍ بمكة، وإني جارية ألعب "بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ"}. والمعلوم بلا خلاف أن سورة القمر نزلت بعد أربع سنوات مِن بدء الوحي، أي حوالي سنة 614 ميلادية. لو صدَّقنا رواية البخاري الأساسية التي توحي بأن عائشة ولِدت سنة 614 ميلادية أي قبْل ست سنوات مِن الهجرة، فإن عائشة حين نزول سورة القمر تكون: إمَّا أنها لم تولد بعدُ، أو أنها رضيعة حديثة الولادة عند نزول السورة. لكن عائشة تقول (إني جارية ألعب) أيْ أنها طفلة تلعب، فكيف تكون لم تولد بعدُ أو تكون رضيعة؟ هذا يؤكد أن البخاري يناقض نفسه للمرة الثانية فيما يخص عُمْرَ عائشة. إن تضارُبَ رواياتِ البخاري لا يترك أمامنا إلا الحساب المتوافق مع الأحداث الذي يرجح أن عمرها عام 4 مِن بدء الوحي عند نزول السورة كان ثماني سنواتٍ على الأقل، كما بيَّنا في الحساب أعلاه وهو ما يتوافق مع جملة (جارية ألعب).

لا بد من التنبيه هنا أيضًا إلى أن هذه الرواية تناقض راوية قصة الإفك في البخاري التي ناقشناها أعلاه، حينما وصَف الأفّاكُ عن عائشة: "وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن.."، فها هو كتاب البخاري يفضح نفسه بالتناقض في حق عائشة مرة أخرى، إذ إنها كانت تفقه سورة القمر حين نزلت في السنة الرابعة من بدء الوحي، بينما في قصة الإفك بعد حوالي 13 عامًا من نزول سورة القمر نفاجأ بأنها "جارية حديثة السن لا تقرأ كثيرًا من القرآن". فلو تجاهلنا كل المراجع الأخرى والحساب أعلاه، فلا بد من الاعتراف بأن هناك مشكلة كبيرة في توثيق كل ما يتعلق بعائشة -رضي الله عنها- في البخاري الحالي، وأن هناك أصابعَ خفيّة تصر على إظهار

عائشة دائمًا طفلة ساذجة جاهلة، وأن مَن جَمع البخاري أو نسبه إليه قد جمع المتناقضات بلا وعي وهي تفضح نفسَها الآن.

ما سبق ليس إلا قليلاً مِن كثيرٍ وهو يفضح الحملة الشرسة المدمرة التي تعرضت لها سيرة أُمِّنا عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- في أهم كتاب مِن كُتُب أهل السُّنَّة والجماعة. وأيضا يشكك في الرواية المتوارثة والمتناقلة بلا عقلٍ أو ضميرٍ، ويرجّح أن سِنّها على الأقل كانت فوق الثامنة عشرة حين زواج النبي منها. لكن لا بد من الانتباه إلى أن العرب أصلاً لم تكن تهتم بحساب الأعمار، بل لم يكن لديهم تقويمٌ لحساب السنين قبل اعتماد التقويم الهجري في خلافة عُمَر. بل إن الكثير من العرب حتى اليوم لا يعرفون أعمارهم على وجه التحديد. وعليه فإن كل الأحداث السابقة قد تم تقديرها بأثرٍ رجعيٍّ. وفي هذا يدخل عامل الذكاء والنباهة كما يدخل عامل الهوى والسعي للتشويه والتشكيك في توثيق افتراضاتٍ تاريخيةٍ قديمةٍ في حقّ النبي وحقّ عائشة. ولا بد من الإشارة هنا لتأكيد هذه الحقيقة أنه لا أحد يستطيع أن يجزم ويقسِم بالله كم كان عُمْر خديجة حين تزوجها محمد بن عبد الله قبل الإسلام. فالشائع أنها كانت في الأربعين؛ لأن المؤرخين أو المحدِّثين كان يحلو لهم إشهار النشاز من الأخبار. لكن قيل أيضًا إن سِنَّ خديجة كان 25 سنة وقيل 28 سنة وقيل 35 وقيل 40 وقيل 43 سنة. والمنطق يقول إنها أغلب الظن كانت بين 28 و35 لأن فارق السن بينها وبين النبي حينها يكون معقولاً ولا غرابة فيه، وأيضًا لأنها أنجبت للنبي كل أولاده، وهذا يحتاج لسنوات من الخصوبة ربما لا تتفق مع رواية أن سنها كان في الأربعين حين زواجها من محمد قبل البعثة. فإنْ كان هناك فارق 20 سنة بين أدنى وأقصى سنٍّ لخديجة حين زواج النبي منها، فإن تحديد سن عائشة لا بد أن يحتمل أيضًا متسعًا فضفاضًا من التقدير.

نعود لحديث البخاري في زواج عائشة، لكن ننظر للعلّات في سند حديث:

جاء الحديث الذي ذكر فيه سن "أم المؤمنين" بخمس طُرق وهي:
حدَّثني فروة بن أبي المغراء: حدثنا علي بن مسهر، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة.
حدَّثني عبيد بن إسماعيل: حدَّثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه.

حدَّثنا معلي بن أسد: حدَّثنا وهيب، عن هشام بن عروة، عن عائشة.

حدَّثنا محمد بن يوسف: حدَّثنا سفيان، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة.

حدَّثنا قبيصة بن عقبة: حدَّثنا سفيان، عن هشام بن عروة، عن عروة.

وكما نرى تَرجع كل الروايات لراوٍ واحدٍ وهو "عروة" الذي تفرَّد بالحديث عن أم المؤمنين عائشة، وتفرد بروايته عنه ابنُه هشام. وفي "هشام" تكمُن مشكلة تَطرَّق لها أهلُ الاختصاص، حيث قال فيه ابن حجر العسقلاني في كتابه "هدى الساري" و"التهذيب": "وقال عبد الرحمن بن يوسف بن خراش: كان مالكٌ لا يرضاه، بلغني أن مالكًا نَقِمَ عليه حديثَه لأهل العراق، قدم الكوفة ثلاثَ مرات، قدم وكان يقول: "حدَّثني أبي، قال سمعت عائشة"، وقدم الثانية فكان يقول: أخبرني أبي عن عائشة"، وقدم الثالثة فكان يقول " أبي عن عائشة".
وقد عُرف عن هشام أنه كان يدلّس في آخر عمره وهو في العراق. أيضًا فإنه عاش أكثر من خمسين سنة من عمره في المدينة (وقيل 71سنة) لكنه لم يروِ هذا الحديثَ إلا بعد ذهابه للعراق حيث أصبحت روايتُه موضعَ شكٍ نتيجة تقدُّم السن وثبوت التدليس. والغريب أن روايتَه هذه لم يروِها عنه أي محدِّث من أهل المدينة وهُم أدرى بحالها بما فيهم الإمام مالك بن أنس، إذ لم ينقل عن هشام هذه الرواية في الموطأ بينما ظهرت مع كم من المتناقضات في البخاري من مَرْويَّاته في العراق.

إذن، لا بد من الإقرار بأن كل الحسابات السابقة وغيرها في التراث العربي والإسلامي تَبقى ظنية وتحتمل مقدارًا كبيرًا في الخطأ نتيجة التقدير في التواريخ وأعمار الناس من ناحية، ونتيجة عدم الاكتراث بدقة هذه الأمور من ناحية أخرى. بل إن ظاهرة عدم الاهتمام بتواريخ الميلاد وأعمار الناس ما زالت شيئًا مألوفًا إلى اليوم في بعض البلدان العربية والشرقية. على أننا نلاحظ أنه كان هناك اهتمامٌ كثيفٌ بتوثيق "حداثة سن عائشة" وإظهارها

كطفلةٍ ساذجةٍ في الكثير من الروايات التي نُسِبت لها أو تحدثت عنها. ولعل الذين تابعوا حلقاتِ الدكتور عدنان إبراهيم في قناة روتانا في سبتمبر 2013 عن هذا الموضوع يذكرون لطيفةً ذكَرها الدكتور عدنان ارتبطت بعائشة. فقد ورد في عددٍ من الأحاديث عنها أنها قالت "كنتُ جارية صغيرة ألعب بالعرائس"، وفي رواية كان لها "فرس مجنّح". لكن الدكتور عدنان أكد أن أدبياتِ العرب لم يرد فيها أبدًا أن أطفال العرب كانوا يعرفون مثل هذه الألعاب التي غالبًا ما وفِدت إليهم بعد توسع الدولة المسلِمة في العصر الأموي على الأقل. وعليه فإن تلك الإشاراتِ لا تعدو كونها دليلاً إضافيًا أن عددًا غير قليل من الروايات عن عائشة قد كُتِبت بأثرٍ رجعيٍّ، ونسي الكذابون أن تلك الاصطلاحات لم تكن من اصطلاحات زمن عائشة رضي الله عنها " وتس آب"!

وقبل أن أنتقل إلى إعدام عائشة لا بد من كلمةٍ أخيرةٍ لمن يسمون أنفسهم أهل الاختصاص، هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم أوصياءَ على الله ورسوله وتاريخ المسلمين والإنسانية ولا يرضون للمسلمين إلا أن يتخذوهم أربابًا من دون الله: لقد مضى الزمن الذي يساق فيه الناس إلى حتفهم كالنعاج، وانتهي زمن التخصصات إنْ كان في الدين أصلاً تخصص. لقد قرأتُ تقريبًا كلّ ما قيل في موضوع زواج عائشة وهي طفلة في السنوات القليلة الماضية، وكل ما نُشِر في الإنترنت من مقالات ومقالات مضادة. وإنه لأمرٌ مقززٌ أن تكون حجة دعاة الوثنية الدينية الذين يحرِّمون العقلَ في كلّ شيءٍ حتى في النقل مِن كُتُب التراث، أن كاتبَ هذا البحث صحفيٌّ ليس مختصًا، وذاك محامٍ، وهذا طبيب ... وهكذا، لكنهم قلّما ما يناقشون الحقائق بغض النظر عن هوية الكاتب.

الآن أيها السادة إن الكُرَة في ملعبكم، وإن التاريخ لا يتيح هذه الفرصة مرتين: لا يستطيع أحدٌ على وجه الأرض أن يجزم كم كان عُمْر أيٍّ مِن أصحاب النبي في أي مرحلة من المراحل. لكن لا أحد ينكر اليوم أن كل الناس تتقزز مِن فكرة زواج أعظم عظماء التاريخ الإنساني من طفلة عمرها ست سنوات. ببساطة لأن الفكرةَ تتعارض مع الفطرة البشرية، ولن ترضى أنت أن تُزوِّج بنتك وهي طفلة تلعب لرجل في خمسينات العمر. فإنْ كان التاريخ نفسه الذي تنقلون منه تلك الفكرةَ متناقضًا وهناك فيه رأيٌ آخر، فلماذا الإصرار على الفكرة المقززة وعدم طرح الرأي الآخر للنقاش؟ ولعلم الجماهير حتى يصبح الحكم على قصص التاريخ على الأقل موضوعيًا وليس قدسيًا؟ أنا أعلم أن الإصرار على تلبيس النبي -صلى الله عليه وسلم- هذه القصة النشاز ناتجٌ من الرعب كل الرعب من سقوط قدسية أسطورة البخاري التي تشكل مصدرَ رزقٍ كبير في تجارة الدين؛ لأن فيه تجاوزاتٍ تتيح للفقهاء تمريرَ أهوائهم باسمٍ قدسي أكثر مما يتيح لهم القرآن. لا أشك أن أي ذي بصر وبصيرة يختلف معنا على الأقل في أن سن عائشة حين زواجها مشكوكٌ فيه من داخل تناقضات البخاري نفسه، لكن الرعب كل الرعب هو مِن الاعتراف بأن البخاري أقلُّ شأنًا مِن كتاب الله.

بإذن الله فقدْ آن الأوان لأن نبرئ محمد بن إسماعيل البخاري مما أضيف إلى كتابه كما نبرئ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مما نُسِب إليه زورًا وبهتانًا ولو كَره الأعراب، والأعرابُ أشد كفرًا ونفاقًا.

أختِم قصة زواج عائشة بموضوع مهم قد يتساءل عنه البعض. لقد خلُصتْ كلُّ البحوث المتاحة إلى أن عمرها على الأقل كان 18 سنة وربما أكثر حين تزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم- . لكن قد يتساءل البعض: و لماذا يتزوج النبي وهو في الخمسين شابة عمرها 18-20 سنة؟

السؤال هنا موضوعيٌّ جدًا وجديرٌ بالنقاش، لكنه بطبيعة الحال يختلف عن زواج الطفلة. إذ إن كل قوانين العالم اليوم - وليس الأمس فحسب- تبيح زواج البالغين فوق سن 18 مهما كانت أعمار الطرف الآخر لأن هذه تصبح مسألة اختيارٍ شخصيٍّ بين بالغيْن وليس قسْرًا على طفلة. هذه ليست إجابة وإنما توضيح للفرْق بين زواج طفلةٍ قاصرٍ وبين زواج شابةٍ ناضجةٍ عاقلةٍ.

بعد أن فَقَد النبيُّ حبيبة عمره ورفيقة الشباب والأيام الجميلة والدرب الطويل الشاق في بداية الدعوة، حبه الأول والأخير خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها وأرضاها- وهي كانت أول بَشَرٍ آمَن بمحمد -صلى الله عليه وسلم- على الإطلاق، بعد أن فقدها ما كان الزواج يعني له ما يعنيه لي ولك الآن. فقد كان النبي حينَها رسولَ الله وخاتم الأنبياء والمرسلين. كان حاملَ رسالةٍ ورَجُلَ دولةٍ و سياسة، وعليه تقع مسئولية أعظم أمانةٍ حملها بَشر في التاريخ عن ربه. من هذا المنطلق فكل حياة النبي بما فيها حياته الشخصية كانت مُسَخَّرةً لخدمة الدعوة وليس

للمزاج الشخصي. ولعل أبلغَ دليلٍ على هذه الحقيقة هو أن زواجه من زينب بنت جحش قد فُرِض عليه فرضًا بنص القرآن ليغيِّر به اللهُ عُرفًا ساد بين العرب وهو زواج الرجل من زوجة ابنه بالتبني:

{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (37)} الأحزاب.

وكما أسلفتُ فإن زواجَه من زينبَ بنتِ جحش أيضًا فتح الباب على مصراعيه أمام عدم الحرج من زواج المطلَّقة اللهم إلا إذا كان المرء يظن أنه أعلى شرفًا من سيد الخلق جميعًا -صلى الله عليه وسلم- من هنا لا بد أن ننظر لزواجه من عائشة وهي في بداية العشرينات وهو في الخمسينات من منظورٍ فكريٍّ سياسيٍّ وليس هوسًا جنسيًّا كما صوره كتاب البخاري الحالي. وعليه يمكننا أن نفهم أن النبي أراد أن يصنع من عائشة وهي راجحة العقل شديدة الذكاء ومن أصل كريم ونشأت على التوحيد وبنت أقرب المقربين إليه، أراد أن يصنع منها شخصية فولاذية تحمل الراية من بعده لأطول فترة ممكنة بعمر السنين.

هذه الظاهرة لم يكن محمدٌ -صلى الله عليه وسلم- فريدًا فيها وإنما كل عظماء التاريخ ربما مروا بها، خاصة إذا فقدوا زوجاتِهم بعد سنواتٍ من الحب والوئام. ففي كل العالم اليوم نجد رجالَ أعمالٍ ومفكرين وعلماءَ وفلاسفة وفنانين وممثلين وساسة وغيرهم، حينما تضعهم الأقدار في الموقف نفسه بفقد زوجتهم الأولى، نجدهم يميلون لشابةٍ صغيرةٍ تحمل معهم الرسالة أيًّا كان نوعها، وتواصل المسيرةَ مِن بعدهم لسنوات أطول. مِن هنا نفهم أن النبي الكريم لم يكن نشازًا في ذلك وهو صاحب أعظم وأخطر رسالة في تاريخ الإنسانية، لكنه لم يتزوج طفلة وإنما شابة ناضجة في عنفوان شبابها وبِحُرِّ إرادتِها.

إذا نسينا تفاصيلَ ما يُسمَّى بعِلم الحديث وسألنا أنفسَنا سؤالاً موضوعيًّا هو: مَن أقربُ الناس لرسول الله ليكونَ أكثرَ الناس عِلمًا بالإسلام؟ لكانت الإجابة التي لا يقاومها أيُّ عقلٍ وقلب سليم هي أن عائشة -رضي الله عنها- كانت المؤهل الأول لهذا المنصب واللقب. فهي قدْ نشأتْ في الإسلام منذ طفولتِها في بيتِ أقربِ المقربين للنبي، ثم أصبحت زوجتَه في عنفوان شبابها إلى موتِه. وهي بذلك قد تشربت الإسلامَ منه قوْلاً وفِعلاً وعملاً أكثرَ مِن أي مؤمنٍ أو مؤمنةٍ أخرى. طبيعي إذن أن العقولَ والقلوب تَقبلُ قولاً مشهورًا بين الناس يقول فيه النبي: خُذوا نِصْفَ دِينِكم مِن هذه الحُمَيْرَاء، إشارةً إلى عائشة.

لكن لم أستغرب أن هذه الرواية تم الهجومُ عليها بشدة مِن قديم، وازدادَ الهجومُ عليها حديثًا لسدِّ البابِ تمامًا أنها ما صدرت عن النبي، وكأن محتواها سيحل كارثة على أُمَّة محمد، وكأن كُتُبَ الصحاح قد وثَّقتْ كل ما قاله النبي. وفيما بحثتُ فيه لم أَقِف على عالِمٍ واحدٍ قال إن "المَتْنَ" مقبولٌ ولا يتعارض مع عقل، بل كانت حجة الأولين والمتأخرين الوحيدة هي عدم وجود سندٍ للحديث. لكن مثل الرواية التالية وُجِد لها السندُ وتم بحمد الله إعطاؤها شرفَ القدسيةِ في صحيح البخاري:

كتاب الغُسل: باب الغُسل بالصاع ونحوه رقم 251:

حدَّثَنا عبد الله بن محمد قال: حدَّثني عبد الصمد قال: حدثني شعبة قال: حدثني أبو بكر بن حفص قال: سمعتُ أبا سلمة يقول: {دخلت أنا وأخو عائشة على عائشة، فسألها أخوها عن غُسل النبي-صلى الله عليه وسلم-، فدعتْ بإناءٍ نَحْوًا مِن صاع، فاغتسلتْ، وأفاضت على رأسها، وبينَنا وبينَها حجاب}.

هنا لا بد أن نسأل أنفسَنا عددًا مِن الأسئلة:

لماذا يَسأل رَجُلان بالغان عائشة عن غُسل النبي ولا يسألان النبيَّ نفسَه؟

ثانيًا: كيف استطاع الراوي أن يَصِف الغُسلَ عِلمًا بأن عائشة كانت وراء حجاب؟ أي عازلٍ تامٍّ يمنع الرؤية؟

ثالثًا: لماذا يُضمِّن البخاريُّ مثلَ هذه الروايةِ التي بلا شك ترسم في خيال القارئ تصورًا لعائشة وهي تتعرَّى تمامًا لتغتسل على بُعدِ مترٍ أو مترين مِن رَجُلٍ غريب؟

لا شك أن هذا مِن ضمن حملة تحطيم عائشة في سجل التاريخ انتقامًا مِن كونها -رضي الله عنها- كانت الصخرةَ الأخيرة التي كادت أن تتحطم عليها آمالُ الطُّلَقاءِ مِن مشركي بني أمية في تحقيق شهوتِهم في السلطة والانقلاب على الإسلام والانتقام لهزيمتهم في بدر، فما كان لهم إلا أن يُعدِموها.

الإعدام الأخير: إعدام عائشة الصدِّيقة بنت الصدِّيق على يد يزيد:

كَتَب المقالَ باحثٌ مَغربيٌّ:

حقيقة استشهاد أمِّنا عائشة (رضي الله عنها)

{... مِن الأمور التي تشغل العقولَ الباحثة عن الحقيقة أن تستعمل منهجًا علميًا صارمًا، لا ينظر إلى الأشخاص فيتهيب قولَ الحقيقة، حتى لا يقال إن فلانًا قد قدح في فلتان، أو إنه خالفَ علانًا، لأن المنهج الإسلامي في الوصول إلى الحقيقة – وهو المنهج الأكثر علمية- هو أن يُستَدل على الرجال بالحق، ولا يُستَدل على الحق بالرجال، فمنهج الأوائل مع الأسف كان منهجًا لخلق نخبةٍ مقدسةٍ لا يجوز الطعن في آرائها، ولا يجوز مخالفة أفكارها وكأنها وحي السماء ، حتى جاز لبعضهم أن يقول :" ويلك هل لك سلفٌ في هذا؟" وكأن الأول لم يَترك للآخر شيئًا ؟ فجمدت العقولُ عن الاجتهاد وسُدَّ بابُه، فلا رأي إلا رأي السلف الصالح أو الطالح، وابتكرت هاته البدعة التي تخالف تمامًا المنهجَ القرآني في قوله تعالى " أو لو كان آباؤهم لا يعقلون"؟ سؤالٌ استنكاريٌّ نتلوه مِن لدُن ذي العزة والجلال آناء الليل وأطراف النهار، غير أننا لا نعرف كُنهَه ولا معناه، حتى أصبحت تلاوتنا لكتاب الله محضَ تَغَنٍ بغُنَّة وقلقلةٍ وإظهار وإدغام وصوت رخيم وآخرَ شجي نَدي .

هاته المقدمة كان لابد منها كإجابة مسبَّقة عمَّن سيولول ويبكي ويحتج عن مخالفتي للفقيه العدل المعصوم، والشيخ التقي المنزه عن النقد و المخالفة، لذلك واللهُ ولي التوفيق أشرعُ في مناقشة حقيقة استشهاد أمِّنا عائشة، ومَن هو الجاني في عملية استشهادها؟

وحتى لا أُتَّهَم بالتشيع أو بالإلحاد أو بالزندقة أود أن أعتمِد على مصادرنا نحن السُّنَّة ونمحص ما فيها بهذا الخصوص.

ففي البداية والنهاية لابن كثير وكتاب المستدرك للحاكم نجد أنه: "في زيارة معاوية للمدينة لأخذ البيعة لابنِه يزيد عارَضَه الكثير من الصحابة لفسق يزيدَ وجهلِه، وعندما قرر معاويةُ الانتقامَ منهم بالخصوص مِن قتلة عثمانَ بن عفان فأمَر بقتل عبد الرحمن بن أبي بكر وأختِه عائشة بنت أبي بكر وقد قتَل الاثنين غيلة. إذ قتَل عبد الرحمن بالسم وقيل بدفنِه حيًا، وقد يكون معاويةُ قد استخدم الوسيلتيْن معًا، أي سُمًّا ودفنه حيًّا " المصدر: "البداية والنهاية"، ابن كثير 123/8.

وفي البداية والنهاية لابن كثير أيضًا نجد :" وكانت السيدة عائشة قد ثارت على معاوية لقتله أخيها عبد الرحمن وتخاصمت علنًا مع مروان بن الحكم والي معاوية على المدينة فألحقها معاويةُ بأخويها عبد الرحمن و محمد في سـنة 58 هجريـة "

المصدر: البداية و النهاية 96/8 .

وقال صاحب كتاب "المصالت": كان (معاوية) على المنبر يأخذ البيعة ليزيد (في المدينة) فقالت السيدة عائشة رضي الله عنها هل استدعى الشيوخ لبنيهم البيعة، أي هل أوصى أبو بكر وعُمَر لأبنائهم

قـــال: لا

قالـــــــــــــــــــــــــــــت فـــــــــــــــــــــــبِمَن تقتـــــــــــــــــــــــــــــــــــــدي ؟؟

فخجل (معاوية) وهيأ لها حفرةً فوقعت فيها وماتت فقال عبد الله بن الزبير يُعرِّض بمعاوية: "لقد ذهب الحمارُ بأمِّ عمروٍ (يقصد السيدة عائشة) فلا رجعتْ ولا رجع الحمارُ. المصدر: الصراط المستقيم 3 باب 12.

وفي كتاب "الصراط المستقيم": (3/ 47) تعليق الأعمش على قول معاوية: "ما قاتلتكم لِتُصلُّوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا إنكم لتفعلون ذلك ولكني قاتلتكم لأتأمَّر عليكم وعلى رقابكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون! ألا وإني كنت منيَّتُ الحَسَنَ وأعطيته أشياءَ وجميعها تحت قدمي لا أفِي بشيء منها له". قال الأعمش: "هل رأيتم رجُلاً أقلَّ حياءً منه؟ قتَل سبعين ألفًا فيهم عمَّار وخزيمة وحجر وعمرو بن الحمق ومحمد بن أبي بكر والأشتر وأويس وابن صوحان وابن التيهان وعائشة وأبي حسان ثم يقول هذا؟"

قال الحاكم (3: 76): "إنها قالت عند موتها: "الحمد لله الذي يحيي ويميت إن في هذه لعبرةً لي في عبد الرحمن بن أبي بكر ! رقد في مقيلٍ له قاله فذهبوا يوقظونه فوجدوه قد مات فدخل نفسَ عائشة تهمةٌ أن يكون صُنِع به شرٌ أو عجل عليه فدفن وهو حي فرأتْ أنه عبرة لها".

وفي تاريخ الطبري 6\ 50. وتاريخ ابن كثير 7 \ 314. لمَّا بَلَغ عائشة مقتلُ محمد بن أبي بكر جزعتْ علية جزعًا شديدًا وجعلت تقنت وتدعو وتلعن في دبر الصلاة علي معاوية وعمرو بن العاص. .ثم روى الثقفي عن أسماءَ بنتِ عميس أُم محمد بن أبي بكر أن عائشة: "لمَّا أتاها نعي محمد بن أبي بكر وما صُنع به، كظمتْ حزنَها، وقامت إلى مسجدها، حتى تشخبتْ دمًا "وهذا يُظهر سوءَ العلاقة بينها وبين معاوية، هذا وقد حلفتْ عائشةُ لا تأكل شواءً أبدًا فما أكلت شواءً بعد مقتل محمد(سنة 38)حتى لحقت بالله(سنة57) وما عثرتْ قط إلا قالت: تَعِسَ معاويةُ بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج). (الغارات: 287/1، وأنساب الأشراف/403).

قال أحمد في مسنده:92/4: (فقالت له: أمَا خفتَ أن أُقعِد لك رجُلاً فيقتلك؟ فقال: ما كنتِ لتفعليه وأنا في بيت أمان، وقد سمعتِ النبي (ص) يقول:الإيمانُ قيد الفتك. كيف أنا في الذي بيني وبينك، حوائجك؟ قالت: صالح. قال: فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا).

قال البلاذري في أنساب الأشراف/1159: (عن الهيثم بن عدي قال: دخل الحسن بن علي-عليه السلام- على معاوية، فلما أخذ مجلسَه قال معاوية: عجبًا لعائشة تزعم أني في غير ما أنا أهلُه، وأن الذي أصبحتُ فيه ليس لي بحق، ما لها ولهذا يغفرُ اللهُ لها، إنما كان ينازعني في هذا الأمر أبوك، وقد استأثر الله به.)

هاته الروايات التي أوردناها إذا جمعناها متصلة ببعضها وقُمنا بالتسديد والتقريب نجد أن الخيوطَ تتشابك فيما بينها لتتجه صوبَ مقتلِ أم المؤمنين عائشة على يد معاوية، ودَعْكَ مما رواه البخاري من تلفيقات لا تنطلي حتى على الأطفال بأنها ماتت وأمرتْ بان تُدفَن ليلاً كما دُفِن أبوها ليلاً حتى لا تشقّ على الناس، وبعضهم يقول لتعجل بدفنها وكأنها كانت تعلم بساعة موتها، إن ضعفَ روايةِ البخاري بيِّنٌ واضح .

وكأني بأحدهم يقول لي إن ما أوردته مِن نقولٍ لا أسانيدَ له، بل هي أخبار تاريخية لا سند لها، والحال أنه ما كان يقدِر أحد في ذلك الزمان على ذِكْر أسماءِ شيوخِه الذين أخبروه بالواقعة وإلا كان مصيرهم الذبح وقطع الرؤوس، وتلكم سُنَّة أموية يذكرها التاريخ وبئست السُّنّة تلك، وهو الشيء الذي جعل كثيرا من الأتقياء والأولياء يدلّسون في ذِكْر أسماءِ شيوخِهم كتدليس الحَسَن البصري -رضي الله عنه-.

أمَّا قولُهم بأن أبا هريرةَ صلَّى عليها هو وخمسة آخرون وذَكَروا منهم أسماءَ مِن أُسرة أُم المؤمنين عائشة، فحكايةٌ سخيفة، وإلا لكان هؤلاء رُسُلَ التاريخ إلينا لمعرفة قبرها الذي يجهله الناسُ إلى يومنا هذا.}

لم أتصرفْ في البحث، وتركتُه كما قدَّمه صاحِبُه، و هو بطبيعة الحال قد يكون منقولاً مِن غيره بعد مراجعة. لكن المعيار الذي أقيس به الأمورَ اليوم، وربما يتفق معي القارئ:

إنه بعد سقوط أسطورة قصة الإفك وعلاقتها بعائشة، تلك القصة التي ربما لا يختلف عليها اثنان علنًا مِن المليار ونصف مليار مسلِم اليوم، وأقول "علنًا" لأن كثيرًا جدًا من المسلمين لديهم أسئلة وحيْرة، لكن آلة القمع الديني والتكفير والتهويل بعذاب جهنم إنْ هُم خالفوا رأي الجمهور وإجماع الأمة و.. و.. و.. و..و إلى غيره من وسائلِ التسلط التي ما زالت تكتظ بها الساحة الكهنوتية، فإن كل التاريخ الإسلامي يحتاج لمراجعة. لا شك أن الحقيقة دائمًا أكبرُ من الوهم في كل قصة، لكن أحيانًا يكفي أن تضع قطرةَ سُمٍّ فتاكٍ في بركة ماءٍ فتُسمِّم أهلَ القرية. ولقد رأينا أن إلصاق قصة الإفك الموثقة في القرآن بعائشة لم يغير الحقيقة كثيرًا. فقد كانت هناك قصة إفك بنص القرآن، وقد كانت عائشة أصغرَ نساءِ النبي وأحبَّهن إليه بعد خديجة. وكانت عائشة ابنة أبي بكر الصديق ثاني اثنين إذ هُما في الغار وأقرب أصدقاء النبي إليه من قبْل البعثة وأول الخلفاء الراشدين. هذا يعني أن عائشة كان لها حُسَّادٌ كُثر، أو على الأقل أن شخصيتَها تَقبل أن تطلق فيها بعض الإشاعات خاصة في مجتمع خرج للتو من عصر إهانة المرأة فوجد أمامه امرأة تهتز لها الجبال. إذن، لا وهْم في تعرّض شخص عائشة للسهام، ولا وهْم في قصة الإفك في القرآن. الوهْمُ فقط تم بالربط بين الاثنيْن بروايةٍ مضحكةٍ تمت إضافتُها للبخاري بعد أن سُمِّي "صحيح البخاري" ثم أُخرج للناس مقدسًا في عصرٍ لاحقٍ من عصور الانحطاط. فورثنا هذه القصة التي تشبه تمثالَ "أبو الهول": رأسه رأس إنسان، وجسده جسد أسد. قصة "فوتو شوب" لكنها مِن صنعٍ قديم، تمامًا كما صنعت شخصية عبد الله بن سبأ.

لكن: هناك ثوابتُ لا يمكن تجاوزها وهي ثوابت القرآن: فقد فضَّلَ اللهُ السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على غيرهم مهما كانت مكانتهم. وهذا معيار تفضيلٍ ثابتٍ لا يمكن تغييره. وعليه فمهما نُسج من أساطيرَ حول تقديس شخصية معاوية ووصفه بأنه كاتب الوحي، مع أنه أسلم قرابة نهاية الوحي نفسه، فهو ابن أبي سفيان وهو طليق ابن طليق، و إنْ صدَق التاريخُ فأمُّه أكلت كبدَ سيدِ الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وأبوه قاتل المسلمين إلى أن سقطت مكة سلميًا في يدهم. الله يحكم بينهم في الآخرة، لكن نحن لا يمكننا أن نقارن بينهم وبين عائشة، وعلي الذين كانوا مِن ضمن أول 20 مسلِمًا في تاريخ الدعوة ووصفهم الله بـــ:

{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)} التوبة.

{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117)} التوبة.

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (29)} الفتح.

ولقد رأينا في باب "خير القرون" أن مفهومَ الصحابةِ مفهومٌ مُبْتَدَعٌ قصد منه إلحاق المتأخرين بعد الفتح للفضل القرآني في حق السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين كانوا مع محمدٍ إلى الفتح. بعد ذلك رُفِعت الأقلام وجَفت الصحف وظل لفظ "صَحب" يحمل مدلوله اللغوي فقط في القرآن، ويدخل فيه كل مَن صَحِب محمدًا مسلِمًا كان أو مشركًا أو منافقًا بنص القرآن.

و قبل أن أنتقل للباب القادم لا بد من كلمة:

إنَّ قراءةَ هذا البابِ ليس كمطالعةِ صحيفةٍ أو سماع رأيٍ فقهيٍّ في مسألةٍ مُختلَفٌ عليها. هذا البابُ يفضح كذبَ أخطرِ قصةِ إفكٍ وبهتانٍ قُصِد منها أذى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وآلِ بيته على امتداد التاريخ. وإنَّ انخداعَ المسلمين بها طوال القرون يكشف لنا أننا أُمّة تاهت منذ زمن بعيد، وأصبحنا كالنعاج التي قيدت بعيدًا في رحلة طالت قرونًا طويلةً. وإنَّ وصولنا لهذه النتيجة ليس وحيًا من الله تعالى وإنما قراءةٌ بسيطةٌ للقرآن بعد أن حُرِّرت عقولُنا مِن أَسْرِ ما وجدنا عليه آباءَنا، وهو فضلٌ مِن الله ونعمة، لكنه أيضًا مسئوليةٌ كبيرةٌ أُلقيت على عاتقنا. وعليه فإني أحمِّل المسئولية الشخصية لكل مَن يقرأ هذا الكتاب عمومًا -وهذا الباب خصوصًا- أن يبلِّغ كل مَن يعرف أن سورةَ النورِ لا علاقة لها بعائشة. لا أدَّعي أن تأويلي هو عين الحقيقة إذ إنه لا يعلم تأويلَه إلا الله، لكن على الأقل لا بد أن ترفع صوتك عاليًا وتبلِّغ أكبرَ عددٍ من المسلمين أن هناك رأيًا آخرَ، فليتوقفوا عن الخوض في البهتان على عائشة خشية أن يكونوا مِن الذين يؤذون رسولَ الله. إنْ كنتَ بالنهار الآن فلا تَنَمْ حتى تبلِّغ أكبرَ عددٍ مِن أهلك ومعارفك، وإنْ كنتَ بالليل فليكُن برنامج الغد هو التبليغ. وإنْ كنتَ خطيبًا في مسجد فلتكُن خُطبة الجمعة القادمة هي براءة عائشة مِن قصة الإفك كلها. وإنْ كنتَ معلِّمًا فليكُن أولُ درسٍ لتلاميذِك هو تصحيح هذه الكارثة:

{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (58)} الأحزاب.

إنَّ محاولة تحطيمِ شخصيةِ عائشة قصةٌ طويلةٌ جدًا، لكن يكفي القُرَّاءَ هذه الصدمةُ أن قصة الإفك ليست إلا بهتانًا نردِّدُه نحن في حق عائشة ولا علاقة لها بها. وتحطيمُ عائشة ليس لمواقفها السياسية والفكرية فحسب، وإنما لأنها امرأة، لذلك فهي مِن الشخصيات القليلة مِن السابقين الأولين مِن المهاجرين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، الذين يتفق "أهل السُّنّة" و "الشيعة" في محاربتهم بصورةٍ أو بأخرى. لكن لأن كلامَهم يشاقق سُنَّة اللهِ في الخلق والكون فإن الحقيقة ستظهر مهما طال الزمن. ومنها بطبيعة الحال أكذوبة مقولة: "المرأةُ ناقصةُ عقلٍ ودين"، عنوان هذا الكتاب.

أمِّي كاملةُ عقلٍ ودِين

قال حكيم: "ما تَراه بزاويةٍ حادةٍ يراه أهلُ البصيرةِ بزوايا متعددة"

بعدَ تلك الرحلةِ الطويلة التي نرجو أن تكون حيادية تُعين القارئَ على اكتساب قُدرةٍ مستقلةٍ لتقييم الأمور واتخاذ رأيه فيها، إذ إن كلَّ فردٍ فينا سيلقَى ربَّه وحيدًا، فقد آن الأوانُ لا لأن نُبديَ رأيًا عاطفيًا فيما يُسمَّى بحديث "المرأة ناقصة عقل ودين"، ولكن لنناقش بموضوعيةٍ رواياتِ الأكذوبة التي اشتهرت بين العرب والعجم - المسلمين وغير المسلمين- منسوبةً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكأنه ما قال غيرها. لا شك أن شهرةَ الرواية ناتجةٌ عن كونها تُرضي غرورَ وكبرياءَ الذكور، وتضع في يدِهم تبريرًا لكل المَظالم التي يقوم بها الذَّكَر في حق المرأة، وقلَّ ما يتذكر هؤلاء أن الرواية تنطبق على أُمَّهاتهم اللائي حملنَهم وولدْنَهم ثم رعينهم وصنعن منهم ما هُم عليه، ثم زوجاتهم أو أخواتهم أو بناتهم قبل أن تكون امرأةً غريبة. وأيضا اشتهرت الروايةُ بين مَن يطعنون في الإسلام لأنها توفر لهم مادةً دسمةً في الإساءة للنبي -صلى الله عليه وسلم- بأقوال منسوبةٍ إليه، وتنفر منه أكثرَ مِن نصف المجتمع الإنساني، خاصةً وأنها تَجمع أمرًا منفرًا آخرَ هو أن شهادةَ المرأةِ نِصفُ شهادة الرجل. ويصر على تبريرها بمبررات مضحكة مَن يسميهم بعضُهم أهلَ الاختصاص، فقط لأن نَقْضَها يَفتح بابًا واسعًا لنقض الكثير من الروايات المكذوبة على رسول الله في كُتُب الصحاح، مما يُفقِدهم آليةً مهمة في تركيع الشعوب ترهيبًا وترغيبًا بموادّ الحديث التي لا يجدون لها شبيهًا في القرآن، مما يهدد سلطانَهم وسطوتَهم الدينية على العامة.

وحتى نناقش الحديثَ المَعنِي مناقشة علمية موضوعية، لا بد مِن نقل كل رواياته التي وردت في الصحاح المختلفة أولاً. وقد أحصينا له إحدى عشرةَ رواية، ولا ندَّعي أننا قد أحصينا كلَّ المصادر التاريخية، إذ إن ما يُسمَّى بعِلم الحديث يختلف عن القرآن المحفوظ في مصحفٍ واحدٍ تكفَّلَ الله تعالى بحفظه. الحديثُ رواياتٌ بشريةٌ انتشرت بين طبقات مختلفة من الناس في أزمنة مختلفة، ولا يمكن إحصاءُ كل المراجع التي ورد فيها. وقد رأينا في باب "الحديث" أنه لا يستطيع أحدٌ على وجه الأرض أن يجزم أن ما يسمى بصحيح البخاري الذي بين يدينا هو نفسُه الكتاب الذي خطَّه البخاري بيده، فما بالكم بما هو دون البخاري من حيث الرعاية والعناية البشرية؟

لذلك فما جمعناه هنا هو رواية الحديث المَعنِي في أشهر كُتُب الحديث المتداولة بين مَن يسمَّوْن أهلَ السنة. وقد أعطيتُ كلَّ راويةٍ رقمًا يخص هذا الكتابَ؛ حتى أشير لهذا الترقيم لاحقًا في النقاش اختصارًا للمساحة الجغرافية والزمنية. لا بد مِن التنويه أننا لم نجد الحديثَ في كلٍّ من "النسائي" و"الدارمي" و "موطأ مالك".

روايات الحديث:

كل هذه الروايات لها أرقام حسْب ورودِها في الكُتب المعنية، لكني أعطيتُها هنا ترقيمًا إضافيًا من (1) إلى (11) لتسهل الإشارةُ إليها في النقاش.

ورد الحديثُ في صحيح البخاري بروايتيْن:

(1)

الرواية الأولى:

باب: تركُ الحائض الصومَ، رقم الحديث: 302:

حدَّثَنا سَعيدُ بنُ أَبي مَريمَ قال: أخبرَنا محمدُ بنُ جَعفرٍ قال: أخبرَني زيدٌ هوَ ابنُ أَسْلَمَ عن عِياضِ بن عبدِ الّلهِ عن أبي سَعيد الخُدْرِي قال: {خَرَجَ رسولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- في أضحى ـ أو في فِطرٍ، إلى المصلّى، فمرَّ عَلَى النساءِ فقال: يا مَعشرَ النساءِ تَصَدَّقْنَ، فإني رأيتكُنَّ أكثرَ أهلِ النارِ. فقُلنَ: وبمَ يا رسولَ اللّهِ؟ قال: تُكثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكفُرْنَ العَشيرَ، ما رأيتُ مِن ناقِصاتِ عَقلٍ ودِينٍ أذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحازمِ مِن إحداكنَّ. قلنَ وما نُقصانُ دِينِنا وعَقلِنا يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: أليسَ شَهادةُ المرأةِ مِثلَ نِصفِ شَهادةِ الرجُلِ؟ قلن: بَلى. قال: فذلِكَ مِن نُقصانِ عَقلِها. أليسَ إذا حاضَتْ لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟ قلن: بَلى. قال: فذلِك مِن نُقصانِ دِينِها}.

(2)

الرواية الثانية في البخاري:

باب: وجوبُ الزكاة، رقم الحديث: 1444 :

حدَّثنا ابنُ أبي مريمَ أخبرنا محمد بن جعفرٍ قال أخبرني زيدٌ عن عياض بن عبدِ اللهِ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنه: {خرجَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- في أضحى أو فِطرٍ إلى المصلَّى، ثمَّ انصرفَ فوعظَ الناسَ وأمرَهم بالصدقةِ فقال: أيُّها الناس، تصدَّقوا فمرَّ على النساءِ فقال: يا معشرَ النساءِ تصدَّقنَ، فإني رأيتُكنَّ أكثرَ أهلِ النارِ. فقلنَ: وبمَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ؟ قال تُكثِرنَ اللعنَ، وتكفُرْنَ العَشيرَ. ما رأيتُ مِن ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أذهَبَ للُبِّ الرجُلِ الحازمِ من أحداكنَّ يا معشرَ النساء. ثمَّ انصرفَ، فلمَّا صار إلى منزِلِه جاءتْ زينبُ امرأةُ ابن مسعودٍ تستأذِنُ عليه، فقيل: يا رسول اللهِ، هذه زينبُ. فقال: أيُّ الزَّيانبِ؟ فقيل امرأةُ ابن مسعودٍ قال: نعم، ائذَنوا لها، فأُذِنَ لها. قالت يا نبيَّ اللهِ، إنكَ أمرتَ اليومَ بالصدقةِ، وكان عندي حُلِيٌّ لي فأردتُ أن أتصدَّقَ بها، فزعَم ابنُ مسعودٍ أنهُ وولدَهُ أحقُّ مَن تصدَّقتُ بهِ عليهم. فقال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- : صدَقَ ابنُ مسعودٍ، زوجُكِ وولدُكِ أحَقُّ مَنْ تصدَّقتِ بهِ عَلَيْهم}.

(3)

أما في صحيح مسلِم فقد وردت الروايةُ كما يلي:

صحيح مسلِم الجزء الثاني صفحة 56، باب: الإيمان والإسلام والإحسان

رقم الحديث: 203

حدّثنا مُحمَّدُ بْنُ رُمْح بْنِ المُهَاجِرِ المِصْرِيُّ: أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ عَن ابْنِ الهَادِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْن دِينَارٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْن عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ أَنَّهُ قَالَ: { يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الاسْتِغْفَارَ. فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ} فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ، جَزْلَةٌ: وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَكْثَر أَهْلِ النَّارِ. قَالَ: {تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ. وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبَ مِنْكُنَّ} قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ؟ قَالَ: {أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْن تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ. فَهذَا نُقْصَانُ العَقْلِ، وَتَمْكُثُ اللَّيَالِيَ مَا تُصَلِّي، وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ، فَهذَا نُقْصَانُ الدِّين}. وَحَدَّثَنيهِ أَبُو الطَّاهِرِ. أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهَبٍ، عَنْ بَكْرِ بْنِ مُضَرَ، عَن ابْنِ الْهَادِ، بهذَا الإِسْنَادِ، مِثْلَهُ.

(4)

وفي مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 5335

حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، وقال مرةً: حَيوةُ، عن ابن الهادِ، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: {يا مَعْشر النساء، تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ، فاني رَأَيْتُكنَّ أَكْثَر أهلِ النار، لكثرة اللَّعْنِ وكُفْرِ العَشِير، ما رأيتُ من ناقصات عقلٍ ودينٍ أغْلَبَ لِذِي لُبٍّ منكنَّ}، قالت: يا رسول الله، وما نقصان العقل والدين؟ قال: {أما نقصانُ العقلِ والدين، فشهادةُ امرأتيْن تَعْدِلُ شهادةَ رجل، فهذا نقصانُ العقل، وتمكثُ الليالِيَ لا تُصلِّي، وتُفطِر في رمضان، فهذا نقصانُ الدين} .

(5)

وورد في سُنَن الترمذي في باب: ما جاء أُمِرتُ أن أقاتِلَ الناس ،

رقم الحديث: 2679

حدَّثنا أَبُو عَبْدِ الله هُرَيْمُ بنُ مِسْعَرٍ الأَزْدِيُّ التِرْمِذِيُّ، أخبرنا عَبْدُ العَزيز بنُ مُحَمَّدٍ، عن سُهَيْلٍ بن أَبي صَالح، عن أَبيهِ عن أَبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله خَطَبَ النَّاسَ فَوَعَظَهُمْ ثُمَّ قَالَ: {يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنَكُنَّ أَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: وَلِمَ ذَاكَ يَا رَسُولَ الله؟ قالَ: لِكَثْرَةِ لَعْنِكُنَّ، يَعْنِي وَكُفْرِكُنَّ العَشِيرَ قَالَ: وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذَوِي الأَلْبَابِ وَذَوِي الرَّأْيِ مِنْكُنَّ. قَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: وَمَا نقصانُ عقلِها ودينِها؟ قال: شَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ مِنْكُنَّ بِشَهَادَةِ رَجُلٍ. وَنُقْصَانُ دِينِكُنَّ الْحَيْضَةُ، فَتَمْكُثُ إِحْدَاكُنَّ الثَّلاَثَ وَالأَرْبَعَ لاَ تُصَلِّي}. وَفِي البَابِ عن أَبي سَعِيدٍ وَابنِ عُمَرَ.

قال أبو عِيسَى: هذا حديثٌ حَسنٌ صحيحٌ .

(6)

كما ورد في سُنَن أبي داود في باب: شرح السنة، رقم الحديث: 4673

حدثنا أَحْمَدُ بنُ عَمرِو بن السَّرْحِ أخبرنا ابنُ وَهْبٍ عن بَكْرِ بن مُضَرَ عن ابنِ الْهَادِ عن عَبْدِ الله بن دِينَارٍ عن عَبْدِ الله بن عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قالَ: {مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَلاَ دِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبّ مِنْكُنَّ. قالَتْ: وَمَا نُقصَانُ الْعَقْلِ والدِّين؟ قال: أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ فَشَهَادَةُ امْرأَتَيْنِ بِشَهَادَةِ رَجُلٍ، وَأَمَّا نُقْصَانُ الدِّينِ فإِنَّ إِحْدَاكُنَّ تُفْطِرُ رَمَضَانَ وَتُقِيمُ أَيَّامًا لا تُصَلِّي} .

أيضًا ورد في صحيح ابن خزيمة بروايتيْن:

(7)

الرواية الأولى:

الجزء الثالث صفحة 268 في باب: "ذِكر البيان أن صومَ رمضانَ مِن الإيمان"، رقم الحديث: 2043 :

حدَّثنا محمد ابنُ يحيى وزكريا ابنُ يحيى ابنُ أبان قالا حدَّثنا ابنُ أبي مريمَ أخبرنا محمد ابن جعفر أخبرني زيد وهو ابن أسلمَ عن عياض ابن عبد الله عن أبي سعيد الخدري أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:

{ما رأيتُ من ناقصات عقلٍ ودين أذهبَ للب الرجل الحازم من إحداكن يا معشرَ النساء. فقُلن له ما نقصانُ ديننِا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى. قال: ذلك لنقصان عقلها أليس إذا حاضت المرأة لم تصل ولم تصم؟ قال: فذلك من نقصان دينها.}. هذا حديث محمد ابن يحيى.

(8)

الرواية الثانية:

الجزء الثاني صفحة 101، باب: "فرض الصلواتِ الخمسة"، رقم الحديث: 999

ثنا أبو طاهر ثنا أبو بكر ثنا أحمد ابن عبدة ثنا عبد العزيز ـ يعني ابنَ محمد الدراوردي ـ عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة:

{أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خَطَب الناسَ فوعظهم ثم قال: يا معشر النساء إنكن أكثرُ أهلِ النار فقالت امرأة جزلة وبمَ ذاك؟ قال بكثرة اللعن وكفركن العشير وما رأيتُ مِن ناقصات عقل ودين أغلبَ لذوي الألباب وذوي الرأي منكن، قالت امرأة: ما نقصان عقولنا وديننا؟ قال: شهادة امرأتيْن منكن بشهادة رجل ونقصان دينكن الحيضة تمكث إحداكن الثلاثَ أو الأربع لا تُصلّي.}

وورد في صحيح ابن حبان بروايتيْن:

(9)

الرواية الأولى:

الجزء الرابع صفحة 27، في باب "ذِكر العلة التي مِن أجلها حث النساء"، رقم الحديث: 3288 :

أخبرنا الفَضْلُ بنُ الحُباب، حدَّثنا محمَّدُ بن بشَّارٍ، حدَّثنا محمَّد، عن شُعبة، عن الحَكَم، قال: سَمِعْتُ ذرًّا يُحَدِّثُ عن وائلِ بن مُهانة عن ابنِ مسعودٍ، عن النَّبيِّ أنَّه قال للنِّساء: {تَصَدَّقْنَ فإنَّكُنَّ أكثرُ أهلِ النَّار}. قالتِ امرأةٌ ليستْ مِنْ عِلْيَةِ النِّساءِ: بِمَ، أو لِمَ؟ قالَ:{إنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وتَكْفُرْنَ العَشِيرَ}. قال عبدُ اللَّه: ما مِنْ ناقصاتِ العقلِ والدِّينِ أغلب على الرِّجال ذوي الأمرِ على أمرهِم مِنَ النِّساء. قيل: وما نُقصانُ عقلها ودينها؟ قال: أما نُقصانُ عقلها، فإنَّ شهادةَ امرأتين بشهادَةِ رجلٍ، وأما نُقصانُ دينِها، فإنَّه يأتي على إحداهنَّ كذا وكذا مِنْ يومٍ لا تُصلّي فيه صلاةً واحِدَةً.

(10)

الرواية الثانية: تحت عنوان "ذِكر الزجر للنساء عن إكثار اللعن "رقم الحديث: 5646 :

أخبرنا الحسنُ بنُ سفيان، حَدَّثنا محمدُ بنُ يحيى الذُّهلي، حَدَّثنا ابنُ أبي مريم، حَدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ جعفر بن أبي كثير، أخبرني زيدُ بنُ أسلمَ، عن عياض بن عبد الله عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ، قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ في أضحى أو فطرٍ إلى المُصلى، فصلَّى ثُمَّ انصرفَ، فقامَ فوَعَظ النَّاسَ، وأمرهُمْ بالصَّدقةِ، قالَ:{أيُّها النَّاسُ، تَصَدَّقوا }، ثُمَّ انصرفَ، فمرَّ على النِّساءِ، فقال: {يا مَعْشَرَ النساءِ، تَصَدَّقْنَ، فإني أُراكُنَّ أكثرَ أهلِ النَّارِ}، فقلنَ: ولِمَ ذلكَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: {تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وتَكْفُرْنَ العَشِيرَ، ما رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إحْدَاكُنَّ يا مَعْشَرَ النِّسَاءِ }، فقلنَ لهُ: ما نُقصانُ ديننا وعقلِنا يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: {أَلَيْسَ شهادةُ المرأةِ مثلَ نِصفِ شهادةِ الرجلِ}؟ قُلنَ: بلى، قالَ: {فذَاكَ نُقْصَانُ عقلِها، أوَ ليْسَتْ إذا حَاضَتِ المَرْأةُ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ }؟ قلنَ: بلى، قالَ: {فذاكَ نُقْصَانُ دينها }، ثُمَّ انصرفَ رسولُ اللَّهِ، فلما صَارَ إلى منزله، جاءتْ زَيْنَبُ امرأةُ عبدِ اللَّهِ بن مسعودٍ تستأذِنُ عليهِ، فقِيلَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، هٰذهِ زينبُ تَسْتَأذِنُ عَلَيْكَ، فقالَ: {أيُّ الزّيانبِ }؟ قيلَ؛ امرأةُ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعودٍ، قالَ: {نَعَمْ ائذنوا لهَا }، فأُذِنَ لهَا، فقالتْ: يا نَبيَّ اللَّهِ، إنَّكَ أمرتَنا اليومَ بالصَّدَقةِ، وكان عندي حُليٌّ، فأردتُ أنْ أتصدقَ، فزعمَ ابنُ مسعودٍ أنهُ وولدَهُ أحقُّ مَنْ تَصدَّقْتُ بهِ عليهِمْ، فقالَ النبيُّ: {صَدَقَ زَوْجُكِ وَوَلَدُكِ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتِ بهِ عليهِمْ}.

(11)

وأخيرا ورد في سُنَن ابن ماجة: الجزء الثاني صفحة 1327، في باب: "الكف عن مَن قال لا إله إلا الله"، رقم الحديث: 4089:

حدّثنا مُحَمَّدُ بْنُ رُمْحٍ. أَنْبَأَنَا اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، عَن ابْنِ الهَادِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: { يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ مِنْ الاِسْتِغْفَارِ. فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ }. فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ، جَزْلَةٌ: وَمَا لَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: {تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ. مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبَ مِنْكُنَّ }. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ؟ قَالَ: {أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ. فَهٰذَا مِنْ نُقْصَانِ الْعَقْلِ. وَتَمْكُثُ اللَّيَالِيَ مَا تُصَلِّي. وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ. فَهٰذَا مِنْ نُقْصَانِ الدِّينِ}.

ملاحظات عامة:

مِن أهم الملاحظات التي يجب الانتباهُ لها هي أنه لا يوجد شيءٌ اسمه حديث " المرأة ناقصة عقل ودين". ترقيم الأحاديث عادةً يتم وِفقَ تسلسلِها في الطبعة المحددة من الكتاب المَعني تحت عناوينَ مبوبةٍ حسْبَ القضايا التي تندرج تحتها الروايات، لكن نص الحديثِ نفسِه أصلاً لا عنوان له؛ فالرسول -صلى الله عليه وسلم- لم يصعد المنبرَ يومًا ليحدث الناسَ عن حديث "الشفاعة" أو حديث "التأبير" أو حديث "الصلاة" وإنما اُقتُطِعت الرواياتُ مِن سياق كلام، أو مِن حوارٍ دار بينه وبين أصحابه، أو خُطبةٍ ألقاها في جمعٍ ما، ثم أصبح لتلك "المقطوعة" مدلولٌ مستقلٌ يشار إليه بعامل الزمن باسمٍ محددٍ مستنبطٍ من محتوى المقطوعة.

في هذا الحديث فإن تسمية الرواية بـ: "حديث المرأة ناقصة عقل ودين" تندرج ضمن الكذبِ المتعمَّد على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. وذلك لأن التسمية تُرضي هوى مَن يرددها، فتُوهِم المستمعَ وكأنّ الأمرَ حدْثٌ قائمٌ بذاته، خاطَبَ النبي فيه الناسَ تحت هذا العنوان، مما يجعل له أهمية وهمية لم تكن جزءًا من سياق الخُطبة، التي ما كانت أصلاً.

مِن باب الموضوعية في النقاش: لو صدقت القصةُ، لكان الأجدر أن يتداولها الناسُ تحت مسمى "خُطبة الأضحى" أو "خُطبة الفطر"؛ لأن الجزءَ المقتَطع هو جزء من خُطبةٍ لم ينقل باقيها، لكنه ليس خطابًا خاصًا تحت

مسمى " المرأة ناقصة عقل ودين" كما يحلو لبعضهم تسميتُها. هذه التسمية تشبه قطعَ الآيةِ القرآنية "ولا تقربوا الصلاة... ". ولا تصدر إلا مِن صاحِبِ هوًى لا يتحرج في الكذب متعمِّدًا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- . فجميع الصحاح أعلاه لم تُعطِ الرواية اسمًا، وإنما كانت تحت مسمى يرتبط بمحتويات الباب الذي تم تبويبُها فيه. ومِن هنا وقبل أن ندخل في نقاش الحديث يمكن للقارئ أن يُقدِّر أهمية بابِ "حليمة بائعة اللبن" الذي شرحنا فيه البعدَ النفسي في إلصاق الأكاذيب بذهن الإنسان بصورةٍ غير مباشرةٍ. وسيقدِّر القارئُ أيضًا أهمية باب "فقه الكلب" لاحقًا وهو يشرح ألوانًا من الفقه الإسلامي كان منبعها الوحيد هو المزاج الشخصي للفقيه.

لا شك أن البخاري هو أشهرُ الكُتُبِ المسماة بالصحاح ويليه مسلِم. وكما رأينا في باب "الحديث"، فإن لفظ "صحيح" لا يعني على الإطلاق أن الرواية صَحَّتْ عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، ولكنه لفظ " فنّيٌّ" تَعارَف عليه المحدثون ويفيد أن الرواية استوفت شروط الصحة وفقًا للمحدِّث الذي وثقها. وفي هذا السياق فإنه ليس بالضرورة أن ما لم يَرِد في البخاري ومسلِم ليس من كلام النبوة ولا يعني كذلك أن كل ما في البخاري ومسلِم مِن كلام النبوة.

كما شرحنا في باب "الحديث" فإن الحديثَ يتكون من "سند" و "متن". "السند" هو المسلسل الافتراضي للرجال الذين انتقلت الروايةُ عنهم إلى المحدِّث الذي وثقها في كتابه. أما "المتن" فهو عينُ ما نُسِب للنبي -صلى الله عليه وسلم- من قول أو فعل. وقد اشتُهر بين المختصين أنه في حال اختلاف نص الرواية بين البخاري ومسلِم فإن أسانيدَ البخاري ترجح على أسانيد مسلِم، بينما متْنُ مسلِم يرجح على متن البخاري. هذا الاتفاق ناتجٌ عن أن البخاري عُرِف عنه أنه أوْلى تدقيقًا أشد على تفاصيل الرواة ومصداقيتهم في الرواية، بينما مسلِم ركّز على التدقيق في خلاصة الكلام المنسوب للنبي -صلى الله عليه وسلم- أو ما يُعرَف بالمتن.

لو قارنا بين الأسانيد 1-2-3 نجد أن البخاري أتى بتفاصيلَ أكثرَ في "السند" مقارَنة برواية صحيح مسلم. إذ إن البخاري قد نَقل عن الراوي ظرفَ وتوقيت الحديث، بينما مسلِم انتقل مباشرة لنص الرواية. أما المتون بين مسلِم والبخاري فتقريبًا متشابهةٌ في المضمون مع اختلافٍ طفيفٍ في الألفاظ.

مسلِم لم يوثِّق ظرفَ روايةِ الحديث ومناسبته، لكنه اكتفى بتوثيق المحتوى فقط، لذلك لا يمكن أن نجد حجةً في إسقاط وصْف البخاري أن الحديثَ كان جزءًا من خُطبة في عيد أضحى أو فِطر.

أيضًا نرى تعضيدًا لهذا الظرف في رواية ابن حبان (10) إذ إنه ذكَر الجملة نفسَها (أضحى أو فِطر). كذلك ألمَحَ صحيحُ ابن خزيمة في روايته الثانية رقم (8) عن أبي هريرةَ أن النبي (خَطب في الناس ووعَظهم) وكذلك في سُنَن الترمذي رقم (5)..وقد ورد ذِكرُ "العيد" في روايات أخرى نتجاوزها للاختصار لأن البحثَ في مصداقية الحديث متاهةٌ لا حدود لها. هذا التعضيد يبيح لنا مناقشة الظرف كما رواه البخاري.

لكن قبْلَ ذلك لا بد من ملاحظةٍ مهمةٍ جدًا على رواية ابن حبان رقم (9)، إذ إنه وثَّقَ ملاحظة مثيرةً للدهشة تختلف عن كل الروايات التي نقلناها، إذ إنه نَسَب للنبي -صلى الله عليه وسلم- قوله :{تَصَدَّقْنَ فإنَّكُنَّ أكثرُ أهلِ النَّار}، و {إنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وتَكْفُرْنَ العَشِيرَ}، لكنه نَسَب تفسيرَ الرواية لعبد الله بن مسعود إذ إنه هو الذي قال: (ما مِنْ ناقصاتِ العقل والدِّين أغلب على الرِّجال ذوي الأمر على أمرهِم مِنَ النِّساء. قيل: وما نُقصانُ عقلها ودينها؟ قال: أما نُقصانُ عقلها، فإنَّ شهادةَ امرأتيْن بشهادَةِ رجلٍ، وأما نُقصانُ دينِها، فإنَّه يأتي على إحداهنَّ كذا وكذا مِنْ يومٍ لا تُصلِّي فيه صلاةً واحِدَةً). هذا الكلام مِن إضافة عبد الله بن مسعود وليس كلامَ النبي نفسِه حسْبَ سياق رواية ابن حبان.

لا بد أن نستحضر دائمًا أننا لا نناقش نصًا قرآنيًا وعَدَ اللهُ بحفظه، ولا حتى قصةً تواترت بين الناس، وإنما رواياتٍ بشرية منسوبة للنبي-صلى الله عليه وسلم-، تم توثيقُها بعد أكثر من قرنيْن على الأقل من موت النبي، لذلك فالاختلاف في ألفاظها وصياغتها يبيح لنا حتى التحفظ في نسْبتِها للرواة المذكورين فيها، ناهيك عن نسبتِها

لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-. لكن لو افترضنا جدلاً صحة رواية ابن حبان هذه (9)، فإن مَن أضاف الشرحَ هو عبد الله بن مسعود وليس الرسول -صلى الله عليه وسلم- . وهذه الظاهرة كثيرةٌ جدًا في كُتُب الحديث حيث يروي الراوي رواية ثم يضيف المحدِّثُ جملة أنه لا يدري هل هذا جزءٌ مِن كلام النبي أمْ إضافة مِن الصحابي الذي نُسِب إليه الحديث.

ننتقل الآنَ لمناقشة متْن الحديث متّخذين رواية البخاري أساسًا للنقاش مع مقارنتها بغيرها متى اقتضت الضرورة:

في أضحى أو في فِطر:

اشتُهر بين أهل الحديث أن اضطرابَ الراوي يُسقِط الحديث، والاضطراب يُقصَد به عدم وضوح الرؤية لديه في الرواية التي يَنسِبُها للنبي-صلى الله عليه وسلم-، كأن يجهل "متى" أو "أين" أو "كيف" مما يشكّك في مصداقيته في نقل "المتن". ولقد رأينا في باب "أفلا تَعقلون" أن أهم محاور عملية عقل الأمور هُما محورا "الزمان" و"المكان". ومَن عجز أن يتذكر "متى" أو "أين" وَقَع الحدثُ أو قيل الحديث، فإن مقدرتَه على نقل الحديث عليلةٌ لا تَرقى لمستوى التصديق. هنا لا نتهم مَن نَسي الزمانَ أو المكان أنه مُختَل العقل أو مجنون، لكن فقط فإن شهادتَه في هذا الصدد تَسقط؛ لأنه لم يكن حاضرَ الذهن حين الحدث أو الحديث.

في هذه الرواية نلاحِظ أن الراوي لا يدري هل كانت الخُطبة في "عيد الأضحى" أم في "عيد الفطر". قد يبدو الخللُ بسيطًا للوهلة الأولى لأن كليهما عيدٌ للمسلمين، لكن في توثيق الأحداث التاريخية فإن الخلط بين حدث في "عيد الفِطر" أو "عيد الأضحى" لا شك يُسقِط أهلية الراوي للرواية. بل إن هذا الاضطرابَ لا شك يُسقِط شهادةَ أي شاهِدٍ في أي محكمة على امتداد العالم، فكيف به يشهد على رواية غريبة المحتوى، منسوبةٍ لمن أوتِيَ جوامعَ الكَلِم وأجرى اللهُ على لسانه كتابَه الخاتم.

على أن الأمرَ أشدُّ خطورةً من الخلط بين "الأضحى" و"الفِطر" في زماننا حيث يتعاقب العيدان كل عامٍ وتتشابه المراسم وأوجه الاحتفال. فالمعروف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حَج حجة واحدةً هي المعروفة بحِجة الوداع في السنة التاسعة للهجرة. ولم يُعرَف بأنه كان يحتفل بعيد الأضحى المرتبط بالحج أصلاً قبل فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة. بينما صومُ رمضانَ قد غلبت الآراء أنه فُرض في السنة الثانية من الهجرة، مما يرجح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد خَطَب حوالي عشرَ خُطَب "عيد فطر" في المدينة مقابل خُطبة أضحى واحدةٍ في مكة هي المعروفة بحِجة الوداع. ولا بد من التنويه إلى أن هذه كلها مجرد افتراضات إذ إن ما يُسمَّى بعِلم الحديث لم يوثِّقْ لنا ولا خُطبةً واحدةً لا من فِطر ولا أضحى إلا الخطبة المعروفة بحِجة الوداع. بل، مِن المثير للدهشة أن الحديثَ لم يسجِّلْ أيَّ خُطبةٍ مِن خُطَب الجمعة التي يُفترَض أنها تجاوزت المئاتِ في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- .

إذن، فإن الخلطَ بين "الأضحى" و "الفِطر" في حياة النبي خلطٌ كبيرٌ جدًا لا يمكن أن يؤتَمَنَ معه الراوي على مصداقية الرواية.

وما يزيد الطينَ بِلَّةً أن كل خُطَبِ الفِطر كانت - افتراضًا - في "المدينة" - بينما خُطبة الأضحى اليتيمة الوحيدة كانت في "مكة". مِن هنا نلاحظ أن جملة "في أضحى أو في فِطر " تفيد اختلاطًا كبيرًا في "الزمان" و "المكان" في زمنٍ كان الخلطُ فيه بين حدثٍ متكررٍ في المدينة مع حدثٍ وحيدٍ في مكة أكبرَ خللاً من أن يَختلط على أحدِنا أنه التقي فلانًا في صقيع موسكو أم صيف الخرطوم!

إنْ كنتَ لا تدري هل سمعتَ الخُطبة يومَ الجمعة في المسجد الحرام في مكة، أمو كانت وعظًا بعد صلاة التراويح في مسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء، أم أنها كانت في بيت عزاءٍ في لندن فمِنَ الشرفِ والورع والأمانة ألا تُحدِّثَ الناسَ شيئًا عما تظن أنك سمعتَه، لأن مقدرتَك على توثيق الحدث والحديث تؤول إلى الصفر، وقد تصبح كذّابًا محترفًا إنْ تماديتَ في نقل الروايات مجهولة الزمان والمكان.

وقد اطّلعتُ على أحد الردود المسماة بالفتاوى المرقمة التي تصدر عن دار إفتاءٍ سلفيةٍ تَرُدُّ على هذا المأخذ الكارثي في سقوط الرواية مهما كان مضمونُها، بقولٍ مثيرٍ للضحك. فقد قال مصدر الفتوى إن الراوي كان ورِعًا جدًا لدرجة أنه صرَّحَ بعدم علمه أن الحدث في أضحى أو فِطر. بينما لا شأن لنا في ورع الراوي مِن عدمه، فإن عدمَ العلم بـ "متى" و "أين" - إنْ كان ناتجًا عن ورع - كان يلزمه أن يُمسِك عن الرواية عن أبي لهب، ناهيك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .

أيضًا: فإن التاريخَ الإسلامي قد أوْلى اهتمامًا خاصًا بخُطبة حِجة الوداع لأنها اشتملت على الوصايا الأخيرةِ للنبي-صلى الله عليه وسلم-، وفيها أعلن أنه ربما لا يَلقَى الناسَ بعد عامهم هذا. وفيها أيضًا وصَّى الناسَ خيرًا بالضعيفين "المرأة والأسير" كآخر وصاياه في الدنيا. فلو كانت هذه الموعظةُ جزءًا من خُطبة حِجة الوداع كان الأجدرُ أن ترتبط بها، وتَشتهر معها، بدلاً من أن تَرِد منفصلةً بصورةٍ مبهَمةٍ كونها في أضحى أو فِطر.

الإشكاليةُ في ربط الخُطبة بالأضحى أو الفِطر تتعداهما إلى ربطها بالعيد من حيث المبدأ. فالعيد سواءٌ أكان "فِطرا" أو "أضحى"، فهو مناسبة فرحٍ ولهوٍ وبهجةٍ وسرورٍ وتواصل أرحامٍ وغيرها من خواص العيد التي جعلها الله فسحة للمسلمين. ولئِن كان خطباءُ المسلمين على امتداد التاريخ الإسلامي والعالم يتخذون مِن خطبة العيد فرصة للتخفيف عن هموم المسلمين وتشجيعهم على نشر المحبة والتسامح وتبشيرهم بفرحة نهاية الصوم وقبول العمل أو فرحة الغفران في الحج، فإنه من غير المقبول منطِقًا ولا عقلاً أن إمامَهم رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- الذي أُرسِل رحمةً للعالمين، والذي وصَّى خيرًا بالنساء، وكان في ذلك الأسوةَ الحسنة الذي قال: خيرُكم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائه، أنه لم يجد مناسبة غير "فرحة العيد" ليبشِّر نساءَه وبناته ونساء المؤمنين بأنهن "أكثر أهل النار" و"أنهن ناقصات عقل ودين". الأمرُ هنا ليس مسألة تشكيكٍ في مقولة تاريخية تفوح منها رائحةُ الكذب على رسول الله بصورة منتنة، وإنما مسألةُ ضميرٍ في تقييم ما يمكن أن يَصِح في حق النبي الكريم، وما لا يمكن أن يصح؛ لأن الفطرةَ السوية تشمئِز مِن أن تكون هديةُ النبي الكريم للنساء يوم العيد إهانتَهن في الدنيا وتبشيرَهن بالجحيم في الآخرة. هذه البُشرى يرفضها القلبُ السليم.

لنفترض مِن باب الجدل أن مفهومَ "أغلب أهل النار من النساء" وأن "نقصان العقل والدين" سَلِيمان كفكرةٍ أو حقيقةٍ دينيةٍ وعلميةٍ، فإنه لا جدال حول كون هذه المفاهيم تترك في نفس الأنثى حَرَجًا لا يتناسب مع طبيعة خُطبة العيد. فهل نجح كل خطباء المسلمين الذين يتبارون في تزيين خُطبهم يوم العيد بكل ما يُدخِل السرورَ في النفس بينما فَشَل إمامُهم في أن يجد هديةً يُفرِح بها نساءَه في يوم العيد غيرَ تبشيرهن أنهن أغلبُ أهلِ النار بناءً على خواصَّ اختصهن اللهُ بها لا ذنب لهن فيها؟ واللهِ إن هذا لأمرٌ عجاب!

مِن هنا نخلُص إلى أن الرواية مِن حيث الظرف "الزماني" و"المكاني" ساقطة ولا يَقبَلُ نِسبتَها للنبي إلا مِن كان قلبُه أصلاً لا يحمل ذرةَ توقيرٍ له -صلى الله عليه وسلم- . والأمرُ هنا لا يحتاج فلسفةً أو شهادة دكتوراة فيما يُسمى عِلمَ الحديث، وإنما العودة للفطرة السليمة التي تَضَمَّنَها قولُ ابن الجوزي: " وكل حديثٍ رأيته يخالف العقول، أو يناقض الأصول، فاعلمْ أنه موضوع، فلا تتكلف اعتبارَه، أي: لا تعتبر رواته، ولا تنظرْ في جرحِهم". لكن لأن هذه الرواية أصبحت خنجرًا مسمومًا في ظهر الإسلام، ومَسَبَّةً في حق النبي-صلى الله عليه وسلم-، وتناقلتها الألسنُ العربية والعجمية المسلِمة وغيرُ المسلمة تنتقص من حكمة النبي وعدالة الإسلام مع صمتٍ مشينٍ ممَّن يسمون أهل الاختصاص في هذا الشأن، فقد لزم علينا أن نعطيَها بعض التمحيص في الأسانيد رغم قناعتنا التامة أنها ساقطةٌ من حيث المتن مهما علت أسانيدُها في كل كُتُب الصحاح. أيضًا فإنها أصبحت صكَّ "عدم غفران" في يد الكثير من الذكور الذين حَرَمهم الله من الرجولة لاستغلالها لإيقاع أبشع ألوان الأذى والعذاب بالمستضعَفات من النساء. إذن، فضرورةُ فضح كذبها على رسول الله ضرورةٌ عقائديةٌ وإنسانيةٌ ملحةٌ، ولهذا كان اسم هذا الكتاب أصلاً.

سَنَد الحديث:

وقبْلَ أن نناقش المتنَ لا بد من ملاحظةٍ على سند الحديث، من مدخلٍ يختلف عما اعتاد عليه أهلُ الحديث من مراجعة الأسانيد. وما أعنيه بـ "سند الحديث" هنا هو أسماء وهوية الرواة الذين نُسِبت إليهم الرواية، بغض النظر عن الظرف الزماني و المكاني الذي ناقشناه.

لم تصرَّحْ لنا أيٌّ من الروايات الإحدى عشرة أن هذه الخُطبة كانت متميزة للنساء دون الرجال. فلو افترضنا أنها خُطبةُ عيدٍ "أضحى كان أو فِطر" فإن خُطبة العيد كما هي خُطبة الجمعة، خطابٌ واحدٌ يسمعه الرجال والنساء معًا. لكن يبدو مِن سياق الروايات أن النبي قد انفرد بعد هذه الخُطبة العامة ليعِظَ النساءَ وحدَهن في أمرٍ يخصهن. هذا الافتراض تعضده الملاحظات التالية:

فقد وردت جملة " فمرَّ عَلَى النساءِ" في روايتَي البخاري (1) و(2) وفي رواية ابن حبان (10)، بينما وصف ابنُ حبان في الرواية (9) أعلاه: عن "النَّبيِّ أنَّه قال للنِّساء"

هذا الافتراض يجعل الراوية مقتطعة من وعظٍ بعد الخُطبة، خصَّ به النساء دون الرجال. وهذا يعني بالضرورة أن امرأةً أو أكثر قد نقلتها للصحابة الرجال أعلاه لكن لم يذكر أيٌّ منهم مصدرَ الرواية. وهذا يعني أن كلَّ الرواة أدناه قد نقلوا عن امرأةٍ لم يصرّح أيٌّ منهم باسمها:

فقد كانت الروايةُ عن أبي سَعيد الخُدْري في روايتَي البخاري (1) و (2). وكذلك ابن خزيمة (7) وابن حبان(10)

وعن عبد الله بن عمر في راوية مسلِم (3) ومسند أحمد(4) وُسَنن أبي داوُد (6) وسنن ابن ماجة (11)

وعن أبي هريرةَ في سنن الترمذي(5) وابن خزيمة (8)

وعن عبد الله بن مسعود في ابن حبان(9)

بهذه الملاحظة نجد أنفسَنا أمام احتمالَيْن:

الاحتمال الأول: أنها كانت خُطبةً عامة سَمِعها الرجالُ والنساء، لكنه خصَّ محتواها بالنساء. لو صدق هذا الاحتمال فهو مثيرٌ للدهشة أن تمتنع جميعُ الصحابيات اللائي خَطَب فيهن النبي عن نقل روايةٍ تخصُّ النساء، بينما تفرد الرجال غيرُ المعنيين بها برواياتها.

الاحتمال الثاني: وهو الأرجح، أنها كانت موعظةً خصَّ بها النساء بعد الفراغ من الخُطبة العامة. لو صدق هذا الاحتمال وهو أرجح مِن سياق الروايات أعلاه، فإن الحديثَ في كلِّ رواياته يصبح "مرسَلاً". والحديث "المرسَل" هو الحديث الذي سقط منه راوٍ في سلسلة السند، ويُصنَّف ضمن الضعيف عمومًا، لكن أهل الحديث يعتبرون صحة الحديث إذا كان السند قد اتصل بصحابي، لإيمانهم بعدالة الصحابة المطلقة. وقد ناقشنا باستفاضةٍ مفهومَ "الصحابة" في باب "خير القرون" ثم أسقطنا فكرةَ العدالة المطلقة للصحابة في باب " الحديث". على أن عدم وجود امرأةٍ واحدةٍ من شهود الحدث في أيّ من أسانيد هذا الحديث الخاص بالنساء أمرٌ مريبٌ.

حتى يفهم القارئ ما أرمي إليه فإن سندَ الحديث كان يجب أن يكون هكذا:

عن أبي سَعيد الخُدْري عن "فلانة" عن النبي -صلى الله عليه وسلم- .

عن عبد الله بن عمر عن "فلانة" عن النبي -صلى الله عليه وسلم- .

عن أبي هريرة عن "فلانة" عن النبي -صلى الله عليه وسلم- .

عن عبد الله بن مسعود عن "فلانة" عن النبي -صلى الله عليه وسلم- .

في هذه الحالة فإن مصداقية الحديثِ تتوقف على اسم المرأة المحذوف "فلانة" وهي التي سمعته من ضمن النساء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم روته للرواة أعلاه.

إن كان هذا هو الحال فمِن المريب جدًا أن يَرِد حديثٌ مِن أحدَ عشرَ طريقًا كلها مرسَلة، ولم يتكرّم صحابيٌّ واحدٌ أن يُفصِح عن اسم فلانة التي نقلت له الرواية.

لكن: الحديث في النهاية هو "المتن " أيْ ما نُسِب للنبي -صلى الله عليه وسلم- من قول أو فعل، وما "الظرف" و"السند" إلا معلوماتٌ إضافيةٌ تعضد من دقة الرواية. فإن كان السندُ مريبًا لخلوه من امرأةٍ في كل الروايات، وأن الرواية ساقطةٌ من حيث الاضطراب الظرفي "زمانًا" و"مكانًا"، فإن هذا لا يعني بالضرورة أن الرسولَ ما قال ذلك الكلام، وإنما فقط يقدح في أهلية الناقلين له. فالمشرك يمكن أن يَصدُق في قوله ويروي عن رسول الله حقًا. وقد اشتُهرت قصةُ أبي سفيان بن حرب في عنفوان شِركه وغروره حينما كان سيدَ مكة أنه ما قال في رسول الله أمام قيصرِ الروم إلا حقًا. هذه النظرة الموضوعية تدفعنا لتدبُّر متن الحديث لنخلُص إلى أن محتواه أبعدُ ما يكون عن كلام النبوة؛ لأنه يتناقض تناقضًا كبيرًا مع العقل والشرع.

مناقشة متن الحديث:

هنا سنتناول بإذن الله كلَّ نصٍّ الحديث المزعوم وهو جوهر القول المنسوب للنبي الكريم بعد مسلسل العنعنات:

"يا مَعشرَ النساءِ تَصَدَّقْنَ، فإني رأيتكُنَّ أكثرَ أهلِ النار":

لم يَردْ في القرآن بطبيعة الحال تمييزٌ بين النساء والرجال في الثواب أو العقاب كما رأينا بالتفصيل في باب "ملكة النحل". بل إن القرآن وصَف أهلَ الجنة في سورة الواقعة بتعاقب القرون وليس التمايز الجنسي:

{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14)} الواقعة.

بينما لم يَرِد سياقٌ شبيهٌ يصِف أهلَ النار لا بتعاقب القرون ولا بغلبة جنسٍ على آخر، وإنما الوصف دائمًا يشمل أصحابَ الأعمال التي تؤدي إلى لنار من كُفرٍ وشِركٍ وغيرها مما يشترك فيه الذكورُ والإناث.

وعليه فإنّ القولَ المنسوبَ للنبي أعلاه "إن أكثر أهل النار من النساء" لا بد أن له مصدرًا آخرَ غير القرآن. فلو افترضنا جدلاً أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان له مصدرٌ غير القرآن أخبَره بهذه الحقيقة الغيبية التي لم تقع بعد، لأن مكانَها وزمانها في الآخرة وليس الدنيا، فإننا نقف عاجزين أمام فهم الحكمة من هذه الموعظة التي خصّ بها النساءَ دون الرجال.

لنفترض أن المقولة حقيقةٌ أخبَر اللهُ بها نبيَّه بوحيٍ خارج القرآن وهو لا يعلم الغيب، فإن المفهومَ أن النبي قد أشفق على النساء وأراد حثّهن على المزيد من الصالحات ليعتقن رقابَهن من النار. إن كان هذا هو الحال: أمَا كان الأَوْلى أن يأمرَهن بعملٍ صالح يقع في نطاق استطاعتهن إذ لا يكلف اللهُ نفسًا إلا وسعَها؟ الصدقة من الصالحات ولا شك. لكن المعروف في المجتمع الإنساني عمومًا والمجتمعات الشرقية والإسلامية على وجه الخصوص أن المرأةَ غالبًا ربةُ البيت وأن الرجلَ هو الذي يعمل وينفق على بيته بما فيه الزوجة والأخوات والبنات. إذن، فغالب النساء لا مال لهن ليتصدقن به إلا مال أزواجهن. هنا نصطدم بحقيقة أقرّها الفقهاءُ وهي عدم جواز صدقة المرأة من مال زوجها إلا بإذنه:

يقول موقع الإسلام أون لاين في استفسارٍ عن شرعية صدقة المرأة من مال زوجها {والأصل أنه لا يحل للزوجة أن تأخذ من مال زوجها شيئًا إلا بإذنه، ولو كان بغرض الصدقة؛ لِما رَوى أحمد وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال" :لا يجوز لامرأة عَطِيَّةٌ إلا بإذن زوجها"، وعن أبي أمامة الباهلي

أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال" :لا تنفق امرأةٌ من بيت زوجها إلا بإذن زوجها. قيل: يا رسول الله، ولا الطعام؟ قال: ذلك أفضل أموالنا} رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

إذن، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- انفرد بالنساء في يوم العيد ليُبشِّرهن أنهن أكثر أهل النار، ثم إنه قدم لهن نصحًا ربما يعينهن على الخروج من النار، لكنه طريقٌ مسدودٌ لأنه نفسُه -صلى الله عليه وسلم- قد جعل استعمالَ ذلك المَخرج مشروطًا بموافقة الزوج! وكأن الكذابَ الذي وضع الحديثَ يريدنا أن نتصور النبيَّ الكريم يقول للنساء يوم العيد: "يا أيتها المرأة إن مصيرَكِ غالبًا إلى نار جهنم، وإن مَخرجكِ من هذا المصير المشئوم هو الصدقة لكن بكل أسفٍ فإن الصدقة لا تُقبَل منك إلا أن يوافق زوجك"!

ويتضح لنا توثيقُ هذا المَقلب أكثر إذا تدبرنا في رواية البخاري رقم (2) وأيضا رواية ابن حبان رقم (10):

{.......فلمَّا صار إلى منزلِه جاءتْ زينبُ امرأةُ ابنِ مسعودٍ تستأذِنُ عليه، فقيل: يا رسول اللهِ، هذه زينبُ. فقال: أيُّ الزَّيانبِ؟ فقيل امرأةُ ابنِ مسعودٍ قال: نعم، ائذَنوا لها، فأُذِنَ لها. قالت يا نبيَّ اللهِ، إنكَ أمرتَ اليومَ بالصدقةِ، وكان عندي حُلِيٌّ لي فأردتُ أن أتصدَّقَ بها، فزعَم ابنُ مسعودٍ أنهُ وولدَهُ أحقُّ مَن تصدَّقتُ بهِ عليهم. فقال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- : صدَقَ ابنُ مسعودٍ، زوجُكِ وولدُكِ أحَقُّ مَنْ تصدَّقْتِ بهِ عَلَيْهم}.

لا أحتاج للدخول في تفاصيلَ أكثر، فلو قال لهن صُمْن فقد قال الفقهاء إنه لا يجوز لها أن تصوم إلا بإذن زوجها؛ لأنه ربما يرغب في نكاحها، ولو قال لها حُجِّي فالحج يتطلب مالَ وإذنَ الزوج والمَحَرم، و لو قال لها قومي الليلَ فالأمر أيضًا يتطلب وفقا لـ "فقه الكلب" موافقة الزوج؛ لأنه ربما يرغب في نكاحها، وهكذا. من هنا نخلُص إلى حقيقةٍ مريرةٍ وهي أن النبي الكريم قد ألقى على النساء صاعقة يومَ العيد بأن بشَّرَهن أنهن أكثرُ أهلِ النار، ثم كلَّفَهن ما لا طاقة لهن به ليدْرأن عن أنفسِهن هذا الخبرَ الأليم.

إلى هنا فإنّا نظن، وأرجو أن تكون قد اتفقتَ معي أيها القارئ الكريم، أن هذا الحديثَ كله لا أصل له من الصحة، وأنه مِن وضْع كذابٍ خبيثٍ أراد برسول الله ونساء المؤمنين وأُمي وأمك وأختي وأختك وبنتي وبنتك وزوجتي وزوجتك سوءًا في الدنيا والآخرة. لكن لأن بيننا بكل أسف مَن يتشبثون بأصابعهم العشرة في كلّ أكذوبةٍ تم تقديسُها عن رسول الله، فإن المزيدَ من التشريح للحديث يصبح ضرورةً شرعيةً.

"تُكثرْنَ اللّعْنَ، وَتَكفُرْنَ العَشيرَ":

هنا لا بد من تجردٍ ونقاءِ ضميرٍ وليس إبحارًا في النقل عن كُتُب مَن قد سبق لترجيح رأيٍ على رأي. لقد أقرّ القرآن أن الله يغفر الذنوبَ جميعًا إلا أن يُشرَك به، وما وصَف لنا فعلاً يشترك فيه غالب أهل النار إلا "الكفر" و"الشِّرك". كل ما دون ذلك يدخل في باب التوبة والغفران. لكن لو تدبرنا هذا السببَ الذي أبرزه الحديثُ تبريرًا لكثرة النساء في النار لا نملك إلا القول إن مصدرَه مصدرٌ ذكوريٌّ يَنسب للذكر كلَّ الخير ولا يرى في النساء إلا عِلّاتهنّ.

لم يَقُم أيُّ عالمٍ - حسْبَ علمي - بدراسة اجتماعية ليحدد مَن يكثر اللعن ويكفر العشرة "الرجال" أم "النساء". لكن واقع الإنسانية الذي سجله لنا تاريخُ الشعوب والأمم لا يدع مجالاً للشك أن معظم الحروب والفتن في تاريخ البشر كان خلفَها رجالٌ أكثر من النساء، وأن الاحتكاكَ في التجمعات المفتوحة من أسواقٍ وملاهٍ وملاعبَ وسَفرٍ وغيرَها مما يرتادها الذكورُ دون النساء هي أكثر الأماكن التي يكثر فيها السب واللعن، ومن ثم الخصومات والعنف، وفي هذا تتساوى كل الشعوب والأمم عبْرَ تاريخ الإنسانية الطويل من زمنِ حربِ "داحس والغبراء" إلى فتن "داعش الغبراء" وإلى آخر مباراة كرة قدم بين "الأهلي" و"الزمالك".

ولا شك أن كل المجتمعات الحديثة اليوم تعاني من تفككٍ أُسَريٍّ نتاجه كُفران الذكور بالعِشرة وتركهم نساءَهم وأطفالهم والتنقل من عشيقةٍ إلى أخرى أو من زوجةٍ إلى أخرى بينما المرأة دائمًا بطبيعة فطرتها، أحرصُ على

الأمان والاستقرار في بيتٍ واحدٍ. وإذا أخذنا مثالاً للتقريب وليس الإحصاء العلمي، مِن واقع أوروبا العلمانية اللادينية اليوم، نجد جميعَ الدول تضع عقوباتٍ ثقيلةً جدًا على الذكور الذين يَهجرون زوجاتِهم أو صديقاتِهم ومعهن أطفال، وينتقلون لعلاقاتٍ جديدةٍ، للمحاولة من حَدِّ "كُفران العشرة" المُستَشرية بين الذكور ربما أضعاف ما هي بين النساء. ولا يَخفى علينا، وقد فات زمانُ دفنِ الرؤوس في الرمال، ظاهرةُ سَفر الأزواج من دول العرب الثرية إلى دول العالم الفقيرة سواءٌ أكانت عربيةً أو أعجمية، لمعاشرة نساءٍ وفتياتٍ أحيانًا قُصَّر نتيجة الفقر، وهُم بذلك يكفّرون العِشرة تاركين وراءَهم نساءَهم اللائي يظنون أنهم في رحلات عملٍ، وأحيانًا يظنون أنهم في العُمرة أو الحج، فيكفرون بذلك عِشرة زوجةٍ تركوها خلفَهم، وعِشرةَ صَبيّةٍ دفعها الفقر لترتمي في حضن وعودٍ زائفةٍ من "ذَكَرٍ" فاقدٍ للرجولة.

إن فكرة كثرة اللعن عند النساء وكُفران العشير لا يصدقها عاقلٌ إلا مَن نشأ في مجتمع أحاديِّ الجنس لا يرى لأمه أو زوجه أو ابنته أو أخته قيمةً أو وجودًا، وقد أعماه العلوّ الذكوري عن رؤية الواقع الإنساني عبْرَ العصور وعبْرَ القارات اليوم. ولعل التاريخَ الإسلامي نفسَه أفضلُ شاهدٍ على هذا التناقض. فما مِن دولةٍ أو مملكةٍ من ممالك المسلمين بعد نهاية عصر الخلفاء الراشدين إلا واكتظت بالزيجات المتعددة والطلاقات غير المبررة من الذكور للنساء، واستبدالهن حسب الهوى بزوجاتٍ وعشيقاتٍ وخليلاتٍ لا عددَ ولا حصرَ لهن منذ "العصر الأموي" إلى عصر "حريم السلطان" الذي انتهت إليه الخلافة العثمانية.

إن القرآن مليءٌ بوصف الذنوب والمعاصي التي تقود أصحابَها للنار، لكن إفراد هذه الرواية الغريبة لمعصية "كثرة اللعن ونكران العِشرة" التي يتفوق فيها الذكور على الإناث بلا جدالٍ، أمرٌ عجابٌ، ولا يَصدر إلا من نفسٍ أرادت بالمسلمين سوءًا بقلبها للمعادلات الفطرية وإيهام الرجال أنهم بخيرٍ، وتحطيم نفوس النساء ليصبحن أكثرَ ضعفًا و أقلّ حُجّة، مما يفتح البابَ واسعًا أمام شهوات الرجال في ظلمهن وقهرهن تحت شعارٍ منسوبٍ للنبي -صلى الله عليه وسلم- والنبي بريء من كل كلِمةٍ وحرفٍ فيه.

وهنا أُذكّر القارئَ الكريم بالعودة للتمهيد في هذا الكتاب للمقارنة بين سلوك نبي الله سليمانَ-عليه السلام- في إدارته الدبلوماسية للتعامل مع ملكة سبأ التي أبرزها القرآن حكيمةً رقيقةً كَسَبت الجولة بلا قطرة دمٍ واحدةٍ، ثم أسلمتْ أخيرًا مع سليمانَ لله رب العالمين.

ننتقل الآن لـ "الإضافة" التي تفسِّر ما سبق، وأسميها "إضافة" لأن ابن حبان قد نَسَبها في الرواية رقم (9) أعلاه إلى عبد الله ابن مسعود، بينما ضَمَّنَها بقيةُ الرواةِ لمتن الحديث المنسوب للنبي -صلى الله عليه وسلم- . هذه المقولة تنفي نفيًا قاطعًا أن قائلَها ما كان ليكون حكيمًا ناهيك أن يكون رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- .

" ما رأيتُ من ناقِصاتِ عَقلٍ ودِينٍ":

نناقش هنا "نقصانَ العقل" وسنناقش "نقصانَ الدين" لاحقًا:

لقد رأينا في الباب الثاني: " أفلا تعقلون" الفرقَ بين "العقل" و"الدماغ" الذي يحوي المخَ والجهازَ العصبي المركزي. ووضحنا بالتفصيل أن عملية العقل ليست هي وظيفة المخ الذي في الدماغ، لأن كل الحيوانات لها أدمغةٌ وحواسٌ تفوق في حدتها وذكائها قُدراتِ الإنسان. ثم رأينا كيف نفخ الله مِن روحه في البَشر فمنحه المقدرةَ على عقل الأمور بصورة متساوية ذُكرانًا وإناثًا. ثم شرحنا "مفهوم العقل" بأنه منظومةٌ غيبيةٌ وليس عضوًا في جسم الإنسان، وإنما هِبَة من الله تعالى تنسِّق أعمال "القلب" و"المخ" لتجعل الإنسانَ عاقلاً. ورأينا أن اللفظ وَرَد في القرآن 49 مرةً بصيغة فعل ولم يَرد على الإطلاق كاسم. وخلُصنْا إلى أن عملية العقل لا تزيد ولا تنقص، وإنما توجد أو لا توجد، لكن لا توجد مرحلةٌ وسطى بين العقل واللاعقل، وإنما توجد درجاتٌ في الذكاء ومن ثم درجاتٌ في تفعيل عملية العقل. هنا لا نناقش بطلانَ مقولة نقصان العقل من ناحية علميةٍ وإنما من ناحيةٍ عقلانيةٍ وشرعيةٍ.

مِن غرائب الفقه الإسلامي -وليس القرآن- أنه يفرض على الناس التسليمَ بالمتناقضات في عدالة الله سبحانه وتعالى. فالمتَّفَق عليه بين جميع المذاهب الفقهية ويتفق مع القرآن روحًا ونصًّا أن "العقل" هو مناط التكليف، وزوال العقل كُلّيًا أو مرحليًا يتطلب سقوط مقدارٍ مساوٍ من التكليف في الزمان والمكان من حياة الفرد. والتكليف يعني المسؤولية عن الأفعال والأقوال التي تؤدي للحساب، ومن ثم إمّا الجنة أو النار. ومِن رحمة الله على مَن يسقط عنه التكليف أنه يدخل الجنة برحمة الله بلا حساب. فلا صام ولا صلّى لأنه غير مكلف، لكن الله يعوضه بجنةٍ عرضها السموات والأرض عما أصابه من بلاءٍ في الدنيا. رغم ذلك، فإن الفقهَ الإسلاميَّ الذي يقرُّ نقصانَ عقلِ المرأة بناءً على الحديث المزعوم نجده يضع على كاهل المرأة نفسها مسؤوليةً أكبرَ وتكاليفَ أكثرَ تعقيدًا. فالساحة "الخطابية" و "الوعظية" الإسلامية - ولا أسميها "الفكرية" لأنها تخلو ممن يتفكرون بل تعج بمن يحرِّمون التفكيرَ أصلاً - هذه الساحة تعج بالخطباء الذين يتوعدون المرأةَ بعذابٍ أليمٍ في أصغر صغائر الأمور بلا تقديرٍ لنقصان عقلها المزعوم. فلو ظهرتْ شعرةٌ مِن رأسها فهي في النار، ولو عاكسها سفيهٌ لا ذنب لها في سلوكه فهي في النار، بل لو اغتصبها وحشٌ فهي التي تُلام أولاً وفي بعض المجتمعات تُجلد أو تُرجم. الضحيةُ تلام فقط لأنها "خُلِقت عورة" في مفهومهم، وهي مسئولة عن إثارة غريزة ذلك الوحش. لم أسمع يومًا خطيبًا يخفف حُكمًا على أنثى بناءً على شبهة نقصان عقلها، الذي إن كان حقيقة، فلا بد أن تنتقص معه بعض الأحكام ويرفع معه قدْرٌ من اللوم.

إن كُتُبَ الفقهِ القديم والحديث التي اكتظت بالتفاصيل فيما لا شأن لهم بها من الأمور التي تقع تحت مسؤولية الله المباشِرة ورحمته سواءٌ في الدنيا أو الآخرة، لم تنتبه أبدًا إلى احتمال نقصان التكليف لدى المرأة بناءً على نقصان مناط التكليف وهو العقل. فقد أبْحَر بعضُهم في وصف حال أهل الجنة ومَن سيتزوج مَن وماذا يأكلون ويشربون وكيف يمارسون الجنسَ وغيره من المضحكات المبكيات، لكن لم نسمع أبدًا عن زلة لسان فقيهٍ يطرح تساؤلاً رحيمًا في حق أمه أو أخته أو ابنتِه أن الله سيخفف عنها الحسابَ بناءً على "نقصان عقلها". واليوم فإن عدد الخريجين من كليات الشريعة الإسلامية وما شابهها يفوق الخمسين ألف طالبٍ سنويًا، كلهم يقدِّمون بحوثًا يتبارون في الابتكار فيها بـ "تلحين القديم"، لكن لم نسمع يومًا عن طالبٍ رأى أن يبحث في احتمال تخفيف المسؤولية ومن ثم الحساب عن أُمه وأخته وابنته وزوجه بناءً على نقصان عقلها المزعوم.

إن الذي ميَّزَ الإنسانَ العاقلَ المستخلفَ عن بقية الخلق هو العقل، والعقل وحدَه هو مناط التكليف والتكريم الذي كان منزلَقَ إبليسَ الوحيد. وغيابُ العقل تحت أي ظرفٍ، كان وما زال يُسقِط كلَّ التكاليف الشرعية. فالطفل غير مكلَّفٍ حتى يبلغ الحُلُمَ حيث ينضج عقلُه فيحاسَب حينَها فقط على أفعاله. والنائمُ يُرفع عنه القلم لأن العقلَ ينام، وعليه تَسقط التكاليف الشرعية حتى الاستيقاظ. والمجنونُ غير محاسَبٍ لأنه أصلاً لا تكليف عليه، بل تَجِب له الرحمة والرعاية والمعاملة الحَسنة. ويدخل ضمن الجنون - من ناحية طبية - داءُ الخرف الذي يصيب بعضَهم في أرذل العمر حيث لا يعلمون بعد عِلمٍ شيئا، فتَسقط كل التكاليف الشرعية. ويضاف إلى هذا في زماننا مَن كان في حالة غيبوبةٍ أو تحت تأثير مخدرٍ قويٍّ يحافِظ على حياته لكن بلا وعي لفترات قد تطول لمدة شهور.

إذن، فالعقل هو جوهر التكليف، وهو خاصية حساسة جدًا عليها يقوم التكليف وبدونها يَسقط. فإذا حاولنا تدبّر محتوى "متن" الحديث بناءً على هذه الحقيقة التي لا يختلف فيها العامّيُّ والعالِم، نجد صعوبةً في فهم "نقصان العقل" مع "تغليظ التكليف". فإذا افترضنا جدلاً أن "العقل" يَنقص ويَزيد كما توهَّمَ الكذابُ الذي نَسَب هذا القولَ إلى رسول الله، إن المرأةَ حقيقةً "ناقصةُ عقلٍ"، فهذا يستوجب بالضرورة أن يكون أغلب أهل الجنة من النساء، لأنهن معفيّاتٌ عن مقدارٍ من التكليف الشرعي لدرجةٍ أكبر من الرجال. وحتى تتضح هذه المغالطة دعوني أضرب مثالاً:

لو كان في باخرة غَرقت 500 طفل و500 بالِغ، منهم عشرة مجانين ماتوا جميعًا فإن من المنطقي التكهن بأن أغلب الغرقى الذين سيدخلون الجنة هُمُ الأطفال ومعهم مَن رحم الله مِن البالغين. هذا ناتج من أن كل الـ 500 طفل من أهل الجنة بلا حسابٍ، مضافًا إليهم العشرة مجانين، بينما يضاف إليهم بعض البالغين الذين تَغَمَّدهم الله برحمته ذكورًا إو إناثًا.

بذات المقياس فإن نقصانَ عقلِ أمي - إن كان حقيقة- يمنحها حصانةً أكبرَ مِن النار مقارَنة بأبي كاملِ العقل. إذن، فإن العلاقة بين "نقصان العقل" الافتراضي من ناحية، وبين كثرة النساء في النار علاقةٌ متناقضةٌ لا تصدر من حكيمٍ ولا حتى من ذكيٍّ يجيد فنَّ الخداع.

جُملةُ "ما رأيتُ مِن ناقِصاتِ عَقَلٍ" جملةٌ ناقصةُ التركيب والتكوين. فعملية النقصان والزيادة تتطلب معيارًا ثابتًا معلومًا لتقاس عليه. لكن الرواية لم تفصح عن ذلك المعيار، وإنما فُهم منها مِن باب الهوى بطبيعة الحال أنهن ناقصات عقلٍ ودينٍ مقارَنة بعقل ودين الرجل. بمعنى: "ما رأيتُ من ناقِصاتِ عَقَلٍ مقارنة بعقل الرجل."تمت الإشارة لهذه الملاحظة أعلاه. فإنْ كان هذا هو القصد: كيف نعقد مقارنة في معيار نقصانٍ وزيادةٍ بين مجهولَيْن؟ حتى تتضح هذه العلة اللغوية دعونا نعقد مقارنة بين صفات "الذَّكَر" و"الأنثى" في الخصائص التي تميز كلٌّ منهما عن الآخر:

الصفات الظاهرة التي تميز الأنثى هي أن لها فَرْجًا وثدييْن بارزيْن، وفي داخلها رَحِمٌ ومبيضان، بينما الصفات الظاهرة التي تميز الذَّكَر أن له قضيبًا وخصيتيْن وثدييْن غير مكتملين في الصدر. فيما عدا ذلك فالذَّكَر والأنثى متشابهان في الخلق مع بعض الفوارق الدقيقة التي يعرفها أهلُ التشريح البيولوجي كتركيب عظام الحوض مثلاً.

لكن هناك خواصٌّ عامةٌ تغلب على النساء، وخواصٌّ عامةٌ تغلب على الذكور لكنها لا تعتبر تمييزًا للذكورة أو الأنوثة. فمثلاً، الرجال في كل مجتمع عمومًا أطول من النساء وأثقل وزنًا. لكن هذه الخواص لا تميز الذكورةَ عن الأنوثة؛ لأنه في البيت الواحد يمكن أن تكون الأخت أطولَ مِن أخيها، والزوجة أطول من زوجها أو أثقل وزنًا. وعليه فمِن السذاجة وصفُ "المرأة" عمومًا بأنها أقصر من "الرجل" لأن المعيار ليس ثابتًا. بل إن مقارنة شعوبٍ مع شعوبٍ أخرى يُسقِط المقارنة كُليًا. مثلاً، فإن غالبية نساء أوروبا وإفريقيا وأمريكا أطولُ مِن غالبية رجال الصين والشرق عمومًا. وعليه إذا قال أحدُهم "إن المرأةَ أقصرُ من الرجل" فإن المقارنة لا معنى لها على الإطلاق. هذه المقارنات لا تستقيم إلا إذا قلتَ إن "فلانة" أطول أو اقصر مِن "فلان". هنا فقط يكون طول كل منهما معيارًا للمقارنة مع الآخر.

مِن هنا نجد صعوبة في فهم ماذا يقصد القائل بـ: "ما رأيتُ من ناقِصاتِ عَقَلٍ ..." إذ إن الرواية لا تُفصِح عن معيار مقارنة النقصان، وإنما تدخُّلٌ مباشرٌ في تبريره بصورةٍ مضحكةٍ نناقشها لاحقًا. لكن نفترض في هذه المرحلة أن "نقصان عقل المرأة" مقارن بـ "تمام عقل الرجل"، على الأقل حتى نستطيع مناقشة هذه المتاهة اللغوية.

إذا قيلنا مِن باب الجدل أن المقارنة هنا بين عقل المرأة وعقل الرجل، فإن الأمر يزداد تعقيدًا من ناحيةٍ شرعيةٍ. فنقصان العقل الافتراضي يتطلب من الشارع - وهو رسول الله المفترَى عليه -صلى الله عليه وسلم- في هذا الوضع - أن يحدد لنا مقدارَ نقصان عقل المرأة، لأن سقوط الأحكام الشرعية يقوم عليه. فهل المرأة ناقصة 1% أم 10% أم 30 % في عقلها؟ هل الأخت في البيت الواحد ناقصة مثلاً 20% عن أخيها في البيت نفسِه أم أن نسبة النقصان عامةٌ تشمل كل النساء مقارنة مع كل الرجال؟ وهل هو نقصان ثابتٌ أم متغيرٌ بتغير الظروف؟ إن تحديد نسبة النقصان وطبيعتِه ضرورةٌ شرعيةٌ لأنه عليها يحدد مقدار سقوط التكاليف الشرعية، وهذه لا يمكن ترْكُها للذكور لتحديدها حسْب الهوى، ولا يمكن حتى ترْكُها للمرأة نفسها. مثلاً لو تعرتْ فتاةٌ في مكانٍ عامّ - نتيجة نقصانِ عقلها - هل تجب لها الحماية والرعاية أم تحاسَب على سلوكها في الدنيا والآخرة؟

ثم وما هو نوع النقصان؟ لو قلنا مثلاً إن فلانًا ناقصُ البصر، فهذا تعبيرٌ عامٌّ يحتاج لتخصيص، عِلمًا بأن البصرَ حاسةٌ واحدةٌ من خمسة حواسٍّ أساسيةٍ أنعَمَ الله بها على الإنسان والحيوان. نقصان البصر يمكن أن يكون عَمَى الألوان مثلاً، أو طول النظر أو قِصَره. وكل هذه المناقِص لها تبعات. فالمصاب بعمى الألوان يمكن أن يكون بصرُه 6-6 لكنه فقط لا يستطيع قيادةَ طائرة لأنها تحتاج لمقدرة تمييز ألوان فوانيس الإضاءة حين الإقلاع والهبوط وداخل كابينة القيادة من أصفرَ وأحمرَ وأخضر إذ لكلٍّ مدلول. فما هو نوع نقصان عقل المرأة الذي لم يفصح صانعُ الروايةِ عن تحديد معياره ولا تحديد مقداره؟

هل يستقيم مِثل هذا الحُكم أن يكون مِن كلام خير مَن مشى على الأرض -صلى الله عليه وسلم- ؟ لكن غرابة السياق لا تلبث إلا أن تُغْرِقَ قائله في متاهةٍ أعمق كلما تقدمت الرواية:

"أذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُل الحازم مِن إحداكنّ":

المعلومُ منطقًا، أن القوي يغلب الضعيفَ، والعالم يهزم الجاهلَ، والكامل ينتصر على الناقص، وهكذا.فلو افترضنا أن المرأةَ ناقصةُ عقلٍ ودينٍ كما تفضَّل الراوي، أو لنجعل المعادلة أكثرَ وضوحًا ونفترض أنها لا عقلٌ لها نهائيًا ولا دينٌ، كيف تستطيع مَن اتصفت بهذا النقصان أن تذهِب بلُبِّ الرجل الضعيف ناهيك عن الرجل الحازم حسب نص الرواية؟

المفهوم عمومًا من السياق- وفقًا لفقه السراويل الذي تقوم عليه كل الرواية - أن المرأة تذهب بلب الرجل الحازم بالإغراء الجنسي. و"اللب" في اللغة يعني الثابت من الشيء أو خالصُ الشيءِ وشريفه كما ذكرنا في الباب الثاني " أفلا تعقلون"؛ لبُّ الفاكهة هو وسطُها الذي يحمل ثمرتَها وكل قيمتها. أمّا في لغة القرآن فاللب يعني الذاكرة، كأنها أهم جزءٍ وسط الدماغ الذي يحفظ المعلومات، لذلك نجد الكثيرَ من الآيات التي تختم الخطابَ بالإشارة لأولى الألباب أنها تحتوي مواعظ من الماضي تفيد الإنسانَ في استذكارها والاتعاظ منها.

والرجل الحازم - بافتراض أنه كاملُ عقلٍ ودين - فهو الرجل صعب المراس وتصعب مراوغتُه والتغلب عليه. فإنْ كان هذا مدلولَ الألفاظ، فإن المرأة التي تذهب بلبِّ الرجل الحازم لا بد أن تكون أولاً أكملَ عقلاً منه حتى تستطيع الولوجَ إلى كوامن ضعفه واختيار الوقت والأسلوب المناسبيْن للذهاب بلبِّه. لا بد أن نتذكر أن العقلَ لا يتطلب سلامة العقيدةِ ولا حُسنَ السير والسلوك. العقلُ خاصية تميز الإنسانَ الذي يمكنه أن يعقل الأمورَ، لكن لا يُشتَرط أن يختار أفضلَها. فالكافرُ عاقلٌ لكنه اختار الكفرَ والجحود، لذلك استحق العقابَ على اختياره الحُرّ مع تمام عقله. لو كان غيرَ عاقلٍ لسقط عنه التكليف ورفِع عنه القلم.

إذن، هُنا نتحدث عن امرأةٍ عاقلةٍ لكنها ماكرةٌ استطاعت أن تدرس نقاطَ ضعفِ هذا الرجل الحازم رغم تمام عقله وقوةِ ملكاته وحزم شخصيته، فغلبته وأذهبتْ لبَّه ودفعته للطيش. الحَدَثُ هنا يصف وقوعَ الرجل في شَرَك إغراء الأنثى التي تُعطِّل عقلَه. أنا لا أستطيع أن افهمَ مِن هذه الجملة إلا هذا المضمون. وعليه لا أستطيع أن أتصور أن هذا دليلٌ على نقصان عقلها، وإنما هو دليلٌ على خلاعتها من ناحية، وعلى خيبتِه من ناحيةٍ أخرى.

لنُحسِن الظنَ بكليهما ونتصور فقط أن المرأةَ المعنيّة ساحرةُ الجمال لدرجةٍ تذهب بلبِّ الرجل الحازم فيضعف أمامَها، فلا خلاعة في سلوكها ولا خيبة في شخصه، لكن أنعَمَ الله عليها بجاذبيةٍ تُضعِف أقوى الرجال وأكثرَهم حزمًا. مع هذا الافتراض البريء: ما هو الدليل على نقصان عقلها أو دينها؟ أوَ لم يقُل الله تعالى:

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14)} آل عمران.

إذن، فإن ضعفَ الذَّكَر أمام غريزة شهوة الأنثى أمرٌ فطريٌّ لا علاقة له بتمام عقله ولا نقصان عقلها. مع هذه الغرابة في تركيب مبررات "نقص عقل المرأة ودينها" لا أستطيع أن أتصور راوي هذه الرواية إلا "ذكَرًا" يريد أن يَنسِب للنبي -صلى الله عليه وسلم- كلَّ ما يمكن أن يُسقِط هيبتَه في نظر الناس، لكنه عجز عن إخراج فكرةٍ متناسقةٍ حكيمةٍ يمكن ابتلاعُها، ناهيك عن نِسْبَتِها لمن أوتي جوامعَ الكلم.

ولأن الفكرةَ متناقضةٌ فقد سارع مِن افترى الحديث، أو لعلها إضافات ممن أحس بضعف التركيب فاجتهد في تحسينه كما يفعل أصحابُ الأهواء اليوم بإضافاتٍ جديدةٍ، سنتطرق لها لاحقًا- لتحديد تبعات نقصان عقل المرأة من ناحيةٍ شرعيةٍ، وليتَه ما فعل؛ لأن التناقضَ يفضح الكذب. فالنقد اللغوي والمنطقي قد لا يحلو للذين اتخذوا إلهَهم هواهم وبَنَوْا على صحة هذا الحديث منهجَ حياةٍ يقوم عليه دينهم، لكن لجوء الراوي للاستدلال بأدلةٍ شرعيةٍ يبرر بها نقصان عقل ودين المرأة كان المقصلة. فقد اتخذوا من آية الدَين أولاً شرحًا وتفسيرًا لهذا التناقض:

"أليسَ شَهادةُ المرأةِ مِثل نِصفِ شَهادةِ الرجُل؟":

رغم أن الراوي - أو المفتري - لم يفصِح عن نوع الشهادة المعنية هنا، إلا أن كل مِن شرح الحديثَ سارع بالربط بين هذا الإدعاء وآيةِ الدَيْن التي هي أطولُ آيةٍ في القرآن:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282)} البقرة

وقبْلَ أن نناقش تفاصيلَ الآية لا بد مِن شرح بعض مفرداتها:

هناك فرقٌ كبير بين "الشهداء" - و"الشهود": الشهداء هم الذين يشهدون الحدثَ حين حدوثه. هذا "الشهود" له مدلولٌ اجتماعيٌّ في المقام الأول، حيث يطيِّب خواطرَ الطرفيْن ويطمئن كلٌّ منهما أن الديْنَ تم وفق اتفاقٍ عادلٍ تمت مناقشتُه بأكثرَ من عقلٍ. في أغلب حالات الديْن، فإن المستدين يَرُدُّ دينَه في الوقت المتَّفَق عليه وبالطريقة المتَّفَق عليها، ولا يتحول الأمرُ إلى نزاعٍ يصل إلى القضاء. وفي حالاتٍ كثيرةٍ يعجز فيها المستدين عن تسديد الديْن فيعفو عنه الدائنُ لوجه الله وينتهي الأمر. إذن، فالشهداء هنا أشبه بمَن يشهد على عقد زواج أو استخراج وثيقة رسمية، لكن لا يُستَدْعَوْن ليكونوا شهودًا في محكمة قضائية تقوم على شهادتهم البينة. أمّا "الشهود" في المفهوم القانوني والقضائي فهُم الذين يستدعيهم القاضي للإدلاء بشهادتهم في محكمة قضائية يَنتج عنها حُكم. دور الشهود في القضاء والقرائن والأدلة التي يحكم بها القاضي في قضيةٍ موضوعٌ كبيرٌ جدًا، وغالبًا ما يكون دورُ الشهودِ فيه دورًا ثانويًا لأن القاضي في نهاية الأمر يحكم بالبيّنة وليس برأي الشهود ذكورًا كانوا أو إناثًا.

لو تدبرنا آية الديْن من ناحية أخرى نجدها آية نُصح وإرشادٍ، وليست آية حكمٍ شرعيٍّ يَحْرُمُ تجاوزه، لأنها لم تفصح بأن هذا حدٌّ مِن حدود الله أو فرضٌ من الفرائض التي لو لم يتم الالتزامُ بها فقد وقع حرامٌ. فالآية تصف هذا الإجراءَ بأنه: "...ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا..". إذن، هو فقط أسلم لقلوب المتداينين حتى لا يحدث ريبٌ وخلافٌ عند التسديد.

والإجراءُ المَعني في الآية هو نُصحٌ للدائن أن يأتي بمن يشهدون اتفاقية الديْن وشروطَها حتى يتمَّ التفاهم على بينةٍ ووضوحٍ ويقلَّ مدخل الريب حين تسديد الديْن. هؤلاء الشهداء ليسوا شهودًا أمام قاضٍ وما طُلب منهم أحدٌ أن يدلوا بشهادةٍ أصلاً، وإنما طُلِب منهم أن يشهدوا الحدث. وحتى تطمئن قلوبُ الذين يدينون بـ "دِين النقل" وليس العقل فمِن المفيد هنا نَقلُ رأي شيخ السلفية الإمام ابن تيمية رحِمه الله الذي أسهَب في مناقشة هذه الآية كما نَقَل عنه تلميذُه ابنُ القيم الجوزية في كتاب (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) . وألخِص رأيَ ابن القيم الجوزية الذي نَقَله عن ابن تيمية ويتناقله تلاميذُهما حتى اليوم للدفاع عن "هذه الشبهة" التي عادةً ما يثيرها أعداءُ الإسلام في سوء فهْم هذه الآية بصورة مبسطة هنا بما يلي:

{ومصدرُ الشبهةِ التي حَسِب مثيروها أن الإسلامَ قد انتقص من أهلية المرأة، بجعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل: (فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان) هو الخلط بين "الشهادة" وبين " الإشهاد" الذي تتحدث عنه هذه الآية الكريمة، فالشهادة التي يَعتمد عليها القضاء في اكتشاف العدل المؤسس على البينة، واستخلاصه من ثنايا دعاوى الخصوم، لا تتخذ من الذكورة أو الأنوثة معيارًا لصدقها أو كذبها، ومن ثم قبولها أو رفضها، وإنما معيارها تحققُ اطمئنان القاضي لصدق الشهادة بصرف النظر عن جنس الشاهِد، ذكَرًا كان أم أنثى، وبصرف النظر عن عدد الشهود، فللقاضي إذا اطمأنّ ضميرُه إلى ظهور البينة أن يعتمد شهادةَ رجليْن، أو امرأتيْن، أو رجل وامرأة، أو رجل وامرأتين، أو امرأة ورجلين، أو رجل واحد أو امرأة واحدة.. ولا أثر للذكورة أو الأنوثة في الشهادة التي يَحكم القضاء بناءً على ما تقدمه له من البيِّنات.}

ولقد فَقِهَ حقيقة أن هذه الآية إنما تتحدث عن " الإشهاد" في دَيْن خاص، وليس عن الشهادة، وأنها نصيحةٌ وإرشادٌ لصاحب الدَّيْن ذي المواصفات والملابسات الخاصة وليست تشريعًا موجهًا إلى القاضي الحاكم في المنازعات، نقول فَقِه ذلك العلماء المجتهدون قديمًا وحديثًا.

ومِن هؤلاء العلماء الفقهاءِ الذين فقِهوا هذه الحقيقة، وفصّلوا القولَ فيها شيخُ الإسلام ابنُ تيمية (661-728 هجرية /1263 -1328 ميلادية) وتلميذُه العلامة ابنُ القيم (691-751 هجرية / 1292- 1350م) مِن القدماء، والأستاذُ الإمام الشيخ محمد عبده (1265-1323 هجرية) والإمامُ الشيخ محمود شلتوت (1310-1383) هجرية (1893-1963م)، مِن المُحْدَثين والمعاصرين.

وقال ابنُ تيمية فيما يرويه عنه ويؤكد عليه ابنُ القيم عن "البينة" التي يحكم القاضي بناءً عليها التي وَضَع قاعدتَها الشرعية والفقهية حديثُ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم-: "البينة على المدعِي، واليمين على المدَّعَى عليه" رواه البخاري والترمذي وابنُ ماجه :

"إن البينة في الشرع، اسمٌ لِما يبيّن الحق ويظهره، وهي تارة تكون أربعة شهود، وتارة ثلاثة، بالنص في بينة المفلس، وتارة شاهدين، وشاهدًا واحدًا، وامرأةً واحدةً، وتكون نُكولاً "أي مِن غير قَسَم اليمين"، ويمينًا، أو خمسين يمينًا أو أربعة أيْمان، وتكون شاهد الحال.

فقوله -صلى الله عليه وسلم-: "البينة على المُدَّع" ، أيْ عليه أن يظهر ما يبيّن صحة دعواه، فإذا ظهر صدقُه بطريق من الطرق حُكِم له." فكما تقوم البينة بشهادة الرجل الواحد أو أكثر، تقوم بشهادة المرأة الواحدة، أو أكثر، وفق معيار البينة التي يطمئن إليها ضميرُ الحاكم - القاضي-.

باختصارٍ مِن كتاب ابن القيم (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية -ص34. تحقيق محمد جميل غازي. طبعة القاهرة سنة1977 م.).

مما سبق نخلُص إلى أن علماءَ الفقه الإسلامي قديمًا وحديثًا قد اتفقوا على هاتين الحقيقتين:

الأولى: الزعم أن: "شهادة المرأة تساوي نصفَ شهادة الرجل" قراءةٌ خاطئة لآية الديْن، وشبهةٌ يثيرها أعداءُ الإسلام نتيجة الخلط المتعمد أو غير المتعمد بين لفظ "شهداء" وهُم الذين يشهدون الحدثَ، وبين "الشهود" الذين يستدعيهم القاضي للبتّ في قضية محددة.

الثانية: القضاء في النهاية يتوقف على ثبوت البينة لدى القاضي وعلى ضميره في ترجيح الأدلة والبينات.

ونضيف هنا أنه في زماننا فإن القضاءَ يقيم البينة بوسائلَ كثيرةٍ منها الحمض النووي ومنها البصمات ومنها توفر صورةٍ أو أفلام فيديو تسجل الحدث، ومنها خبراء الطب الشرعي الذين يتحققون مثلاً من خط اليد أو أسلوب كتابة الوثيقة أو تشريح الجثة في حالة القتل إلى آخره من مستجدات العلم الحديث التي تقيم البينة التي يطمئن إليها القاضي فيرجح الأدلة بما يرضي ضميرَه. بل: إن البينة لا يُشترط أن تقوم على بَشرٍ ذكَرًا كان أو أنثى، مسلِمًا أو غير مسلِمٍ كما هو معمولٌ به في كل أنحاء العالم اليوم بما فيه البلدان إذ يمكن أن يقيمها الكلبُ بحاسة شمِّه القوية كما سنناقش ذلك في باب: " فِقه الكلب".

مما سَبَق نخلُص إلى أن شبهة "شهادة المرأة تعدل نصفَ شهادة الرجل" مقولةٌ أصلاً ابتكرها أعداءُ الإسلام كما سماهم ابن تيمية وابن القيم الجوزية لأنها مقولةٌ لا علاقة لها لا بمحتوى آية الديْن المعنية ولا بوسائلِ إقامة البينة

في القضاء الإسلامي. هي في حقيقة الأمر "قطع" أو "بتر" خبيثٌ لبعض الألفاظ من آية الديْن أعلاه لا يختلف عن القول: " لا تقربوا الصلاة" أو: "ويل للمصلين".

(وتس آب): لو افترضنا أنَّ ابنَ تيمية الذي عاش في القرن السابع الهجري قدْ قال ما سَبَق فنحن هنا أمامَ خياريْن لا ثالثَ لهما:

إمَّا أنَّ ابنَ تيمية لم يَسمعْ بالحديث بأيٍّ مِن راوياتِه المذكورةِ أعلاه، وهذا قصورٌ كبيرٌ في علمِه. وإمَّا أن الحديثَ لم يكُن قد اُبْتُكِرَ في زمنِ ابن تيمية بعدُ، وأنا أُرجِّحُ هذا الاحتمالَ على الأقل لحفْظِ ماءِ وجْهِ ابنِ تيمية، إذ إن فتْوَاه تَصطَدِمُ برسولِ اللهِ مباشَرة. وعليه فإنَّ تَناقُضَ رأيِ ابنِ تيمية مع مَتْنِ الحديثِ في فهْمِه لآيةِ الدين يفيدنا أن الحديثَ كلَّه ليس إلا (وتس آب) أضيفَ للتراثِ الإسلامي بعْدَ رحيلِ ابن تيمية.

الآن نضع نصَّ الحديثِ المزعوم تحت المقصلة:

هل يَقبل ضميرُك أن رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يقيم حجتَه ليشرح نقصان عقل المرأة المزعوم بناءً على مقولة: "شهادة المرأة نصف شهادة الرجل" وهي جزءٌ لا يتجزأ من نصّ الحديث في البخاري ومعظم الصحاح الأخرى، بينما وصَفَها شيخُ الإسلام "كما يحلوا للسلفيين والوهابية" تسميته في مناقشة آية الديْن أنها مِن اصطناع أعداء الإسلام؟؟؟ هذه الحقيقة وحدَها كفيلةٌ أن تدلل على أن مَن وضَع الحديثَ قصَد به إهانة النبي -صلى الله عليه وسلم- والاستخفافَ بعقولِ المسلمين.

وحتى نزيل المزيدَ من الشبهات عن آية الديْن هذه يُستَحسن أن ننظر في الحكمة مِن ذِكْر "امرأتيْن" مقابِلَ رجُلٍ واحد لشهود الحدث، وليس الإدلاء بشهادة أمام قضاء.

نلاحظ أن الآية تتحدث عن موضوعٍ واحدٍ فَصَّلتْ فيه تفصيلاً لأنه عماد الاقتصاد الذي تقوم به الدول وبه تَسقط. والآية هي أطول آية في القرآن لِما اقتضاه محتواها من تفصيلٍ دقيقٍ شاء الله ألا يتركه لأهواء العامة من الناس أو الفقهاء.

في هذه الآية نجد أن الله اشترط وجودَ شهيديْن وليس "شهادة امرأتين"، لكنه وضَّح السببَ وهو احتمال { أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى} في أمرٍ حساسٍ كالدَيْن. أيضًا نلاحظ أن الله قد وضح الحكمة من إشهاد امرأتيْن وهو احتمال "أن تضلّ إحداهما" ولم يقل إن شهادة المرأة تساوي نصفَ شهادة الرجل. وهذا يتطلب فهْمَ مدلول "الضلال" كما صرحت به الآية، لأنها توحي بأنه إذا لم تضل الأولى فلا أهمية لوجود الثانية. وهذه الملاحَظة تكمن في استعمال لفظ "إِذَا تَدَايَنْتُمْ" في بداية الآية مقارنا بلفظ "أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا"، إذ إنّ "إذا" تفيد القطعَ بوقوع الحدث، لكن "إنْ" تفيد مجردَ احتمالِ وقوع الحدث. هذا يعني أن الأمرَ مرتبطٌ بحتمية وجود ديْن، لكن إشهاد امرأتين مرهون باحتمال أن تضلّ إحداهما، ولا يعني أن امرأةً واحدةً قطعًا لا تفي بالغرض. من هنا نفهم أن الحكمة من هذه النصيحة غير الملزمة، هي تخفيف احتمال الضلال إذ إن ظروفَ المرأة ومشاغلها واهتمامَها بالمال في كل العالم غيرُ ظروفِ الرجل. إذن، هي ليست معادلة تنصيف شهادة المرأة كما يهوى "الذكور" تسميتَها، وإنما معادلة تخص المرأةَ نفسَها إذا ضلت. إذا توفرت قرائنُ تؤكد أنها جديرة بالثقة ولن تضل فإن شهودَها الحدث -وليس شهادتها- يتساوى مع شهود الرجل. وفي النهاية فإن كل الآية غيرُ ملزمةٍ حتى في كتابة الديْن نفسه، وإنما هي من باب النصح لا غير.

وهنا لا بد من التوقف عند لفظ "الضلال" إذ إن الفهمَ العامي له يقود إلى نتيجة غير ما قصده الشرع. "الضلال" يفيد عدمَ وضوحِ الرؤية أو الطريق. الرجل العاقل الحكيم يمكن أن يضل الطريقَ إنْ كان مسافرًا في بلدٍ غريبٍ. لفظ الضلال هنا لا يعني زيغَ العقل أو ضلال العقيدة أو انحطاط الأخلاق كما يتوهم بعضهم، وإنما يعني اختلاطَ الأمور. وقد ورد لفظ الضلال مقترنًا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- من هذا المعنى في مكانيْن في القرآن:

{وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى (7)} الضحى.

بغض النظر عن التأويلات المختلفة لهذه الآية، فإنه مِن المرفوض تمامًا الظن أن الضلال المَعني هنا ضلالٌ في العقيدة أو علة في الأخلاق أو العقل. النبي -صلى الله عليه وسلم- تبرأ مِن وثنية قومه قبْل أن تأتيَه الرسالة، ووجَّهَ وجهَه للذي فطَر السمواتِ والأرض. لكن لأن العِلم بالدين الحق كان يتطلب الرسالة التي لم تنزل بعدُ، فقد كان في مرحلة طلاقٍ مع طريقٍ خاطئٍ وعدم وضوح رؤية للطريق الحق إلى أن أُوحِي إليه فهَداه الله لِما كان يبحث عنه بالفطرة.

ونجد المعنى نفسَه في سورة النجم:

{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)} النجم.

{مَا ضَلَّ} هنا تعني أنه لم يختلط عليه الأمرُ وإنما قد رأى حقًا.

إذن، "أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا" لا تعني أن تنحرف في سلوكها أو عقيدتها، وإنما أن تختلط عليها الأمور في شهود تفاصيل حدثٍ ليس مِن طبعها اليومي في غالب الأحيان.

ولا بد من إضافةٍ أخيرةٍ لظرف كتابة الديْن: الآية يجب أن تُفهَم بقاعدة تدبر "الفرقان" وليس "القرآن" كما شرحنا في باب "علوم القرآن". بمعنى أنها تضمنت التعاملَ مع واقع كان شائعًا في الجزيرة العربية حين نزول القرآن الذي تنزل مفرَّقًا ليناسِبَ البيئة وتستخلص منه مناسبته للبيئات المختلفة في الأزمنة المختلفة. والمعروفُ أن عالَم المال والتجارة كان وما زال عالمًا يغلب عليه الرجالُ ويكثر فيه الجدال والتخوين والمؤامرات وغيرها. في هذا الجو الحساس فإن وجودَ امرأتيْن معًا أرحمُ عليها من وجود امرأةٍ واحدةٍ قد يسعى بعضهم لاستمالتها يمينًا ويسارًا كلٌّ حسْب هواه.

إن موضوعَ الديْن الذي أفرد الله له أطولَ آيةٍ في القرآن فصّل فيها تفصيلاً يدل على علمه تعالى أن على الديْن سيقوم اقتصادُ العالم. والديْن المَعني ليس ما نتوهم أنه استدانة دينارٍ أو ديناريْن فقط، لكن الواقع اليوم أن كل أموال العالم، سواءٌ أكانت لأفرادٍ أو لشركاتٍ أو لدولٍ، في دورة تداخل قروض واقتراض متواصلة. والمُطَّلِع على عِلم الاقتصاد يعلم أن القروضَ فيها مقالبُ كبيرةٌ تستعبد الأفرادَ والشعوب للدائنين؛ لأن عقودَها تُكتَب فيها شروطٌ جزائيةٌ لا ينتبه إليها إلا الخبراء، وحتى هؤلاء تفوت عليهم حين الحاجة، فيتحول الديْن إلى سجن وكارثة تهدم البيوتَ والشركاتِ والدول. في بريطانيا أقرت الحكومةُ في العامين الماضيين قانونًا يراجع كل القروض التي اقترضها الأفراد من البنوك لتصحيح المظالم التي أوقعت فيها البنوكُ المقترضين بأن فرضت عليهم رسومًا لم تكن بائنة أو مفهومةً عند توقيع العقد. والملايين من المواطنين استفادوا من هذا القانون الذي أعاد لكل فردٍ الآلافَ من الجنيهات التي أُخِذتْ منهم مِن غير وجهِ حقٍ في سنوات الاقتراض، وهو ما يُعرف الآن بقضية الـ (PPI) لمن أراد أن يستوثق من هذا الحدث. إذن، فآية الديْن هذه آيةٌ تنظم النظامَ العالميّ الماليّ أيضًا وليس حياةَ البدو في الصحراء فحسب. وعليه فإن اشتراطَ اللهِ تعالى أن تشهد عليه امرأتان خشية أن تضل إحداهما عند الشهادة - أي تختلط عليها الأمور- حُكمٌ مِن عليمٍ خبيرٍ وليس مِن صاحب هوى كلّ همِّه انتقاص قدْر المرأة مقابل الرجل.

ووجودُ امرأتيْن هنا أمرٌ طبيعيٌّ منطقيٌّ لأنه في أغلب المجتمعات الإنسانية فإن غالبية النساء لا يشتغلن بالمعاملات التجارية وأساليب التحايل فيها بقدر ما يشتغل بها الرجل حتى في أوروبا وأمريكا اليوم. وليس من المرفوض أن يقلل الشارعُ احتمالَ الخطأ في فهم شروط وتفاصيل العقد عند الديْن على المرأة، لذلك نَصَح ولم يجعله فرضًا واحدًا شرعيًا، أن تَشهد امرأتان لعل إحداهما تكون أكثر دراية بهذه التفاصيل من الأخرى. وعليه فإن تفسير الآية بأن "شهادة المرأة نصفُ شهادة الرجل" تفسيرٌ باطلٌ، ولا يقبل العقلُ السليم والقلب الطاهر أن يكون تفسيرَ النبي -صلى الله عليه وسلم- .

وبغض النظر عن التفاصيل الفقهية هنا، فإن شهادة المرأة في كل جوانب الحياة الأخرى مِن قتلٍ وزواجٍ وطلاقٍ وجروحٍ وحوادثٍ حركة واستصدار شهادات الميلاد والجنسية والمواقف السياسية والطب الشرعي وغيرها مما يتطلب الشهادةَ أمام القضاء هي شهادةُ إنسانٍ عاقلٍ بالغٍ مكلّفٍ تتساوى مع شهادة الرجل بلا نقاش. إذن، مَن يصِف أن "شهادة المرأة نصف شهادة الرجل" بناءً على آية الديْن هذه ليبرر بها نقصانَ عقل المرآة المزعوم لا يمكن أن يكون رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- نفسه، وإنما "ذَكَرٌ" ناقصُ الرجولة، جاهلٌ بلغة القرآن، وجاهلٌ بالشرع، وجاهلٌ بالعِلم الكونيّ ومفهوم العقل، وكذّابٌ افترى على الله ورسوله كذبًا وهو يعلم.

ولقد رأينا في باب "قولهم على عائشة بهتانًا عظيمًا" في مناقشة ما يعرف بآيات اللعان أن شهادة المرأة الزوج في تلك القضية الخطيرة جدًا تعلو على شهادة زوجها الرجل نفسه مِن وجهين. فهي أولاً، تشهد على "مصداقيته" هو وليس مصداقيتها التي لم يضعها الشرع موضعَ اتهام. وهي ثانيًا، عليها "غضب الله" فقط إن كذبتْ، بينما عليه "لعنة الله" إن كان مِن الكاذبين. إن الذي وضع تلك المعادلة التي غيبها الفقهاءُ هو العليم الخبير، وهو بذلك يعلن أن المرأة كاملةُ عقلٍ وكاملةُ تكليفٍ، وراجحةٌ في مقدرتها على الشهادة ليس على نفسها فحسبٌ وإنما حتى على مصداقية زوجها، وشهادتها تُسقِط شهادتَه مهما علا شأنه، وفي أخطر قضية قد تُقدَّم للقضاء وهي اتهام الرجل لزوجته أنه ضبطها في حالة خيانة زوجية.

بعدَ هذا التحليل لهذه الشبهة: لو رجعنا للنص الحرفي لكل الروايات أعلاه للحديث المَعني نجد جملة: " أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ" قد تكررت في كل الروايات ما عدا راوية ابن حبان رقم (9)، التي نَسَب فيها هذه الجملة النشاز إلى عبد الله بن مسعود وليس النبي. هنا لا نملك إلا أن نقول إن الفكرةَ نفسَها مختلَقة لهوًى في نفس مَن اختلقها، ولا يستقيم أن تكون هذه الزلة الكبيرة مِن الرسول-صلى الله عليه وسلم-، بل وربما أيضًا مكذوبة على ابن عباس نفسه. هذه الجملة وحدَها تكفي لإسقاط كل المتن.

لكن يتمادى الكذابُ في كذبه وسخريته من عقول المسلمين فيأتي بالمزيد من الزلات:

"أليسَ إذا حاضَتْ لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟" :

لا بد أن يَستحضر القارئُ الكريم أن السؤالَ الأساس الذي نسعى للإجابة عليه هو: هل يصح هذا القولُ مِن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ والإجابة التي نحتاج للوصول إليها لا علاقة لها بمَن قال وماذا قيل عنه مِن "جرح" و"تعديل" أو تهويل وتقديس، وإنما تحتاج لضميرٍ نقيٍّ وعقلٍ راجحٍ فقط.

تمضي رواية البخاري الأولى لتَنسِب للنبي قوله: "أليسَ إذا حاضَتْ لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟ قلن: بَلى. قال: فذلِك من نُقصان دِينِها".

هنا نحتاج أن ننظر في مقاصد التشريع، ومصدرُه الوحيد بطبيعة الحال هو الله تعالى. ونحتاج لطرح عدد من الأسئلة لتزيل الصدأ عن عقولنا:

لماذا فَرَض الله علينا الصلواتِ خمسة صلوات؟ هل لو صلينا سبعة سنكون أقربَ لله؟

بطبيعة الحال لو تركنا بعضَ الخمسة سنقصِّر، وربما لا تُقبَل كل الصلاة، لكن ماذا عن الزيادة؟ هل تزيد ديننا؟ إنْ كانت الإجابة هي "لا" بطبيعة الحال، بل سيكون الأمر بدعة ومعصية، فمِن حقنا أن نطرح سؤالاً آخر: ما هي الحكمة من الخمسة صلوات فقط؟ لو طرحتَ السؤالَ على السلفيين لأجابوا بكل ثقة: "إن الله يُعبَد كيفما أمَرَنا أن نعبده".

ولماذا فرض علينا صوم رمضان وليس ربيع الأول مثلاً؟ هل لو صمنا ربيعَ الأول مع رمضان سنكون أقربَ لله؟ بالطبع لا. بل ستقوم قائمةُ السلفيين ليحرِّموا هذه البدعة في الدين التي ما أنزل الله بها مِن سلطان.

طيب: عندما رَخَّصَ اللهُ تعالى للمسافر أن يَقْصُرَ ويجمع الصلواتِ الطوال، هل سيزيد أجره عند الله إنْ تَنازل عن الرخصة وأصر أن يُصليها كاملة؟ بالطبع لا. الرد الحاضر للسلفيين هو أن العباداتِ أصلاً لا تزيد اللهَ شيئًا، ولا تُنقِص مُلكَه إنْ تُركَتْ شيئا، وإنما هي تعبيرٌ عن طاعةٍ وعبوديةٍ لله ويجب علينا أن نؤديها كيفما أمَرنا الله وليس وِفقًا لأهوائنا. والدليلُ حاضر لديهم كما ورد في موقع " الإسلام سؤال وجواب" في مناقشةٍ طويلةٍ لموضوع الأخذ بالرخص التي رخصها الله لعباده، وأن تَرْكَها يدخل ضمن الغرور والكبر، مستدلين بقول النبي -صلى الله عليه وسلم- :

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: {إنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ} رواه ابن حبان في " صحيحه " رقم/354)، قال المنذري في " الترغيب والترهيب " (47!/1): إسناده حَسن. وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (10/3)

في هذا السياق: فإنه مِن تمام خَلق المرأة أنها تحيض في سن الحمْل من البلوغ إلى انقطاع الدورة الشهرية. ومِن تمام دينها أن تؤدي واجباتِها التعبدية وِفقًا لِما فَرَضه عليها خالقُها، وليس قياسًا على ما فَرَضه على الرجل الذي لا يحيض. وعليه فإن الزعمَ أن التزامَها بما فرضه الله عليها مِن رخص عند الحيض نقصانٌ في دينها لا يمكن أن يصدر عن المشرِّع نفسِه وهو الله تعالى، ولا يمكن لنبيه الكريم أن يقول هذه الزلة. وإلا قلنا إن كل الأطفال الذين يموتون قبل سن التكليف مصيرُهم إلى النار؛ لأنهم لا يصلّون ولا يصومون ولا حتى هُم مكلفون بالشهادة. وهذا قولٌ باطلٌ لا يُقِرُّه مسلِمٌ عاقل.

لا نحتاج هنا للإطالة في موضوع الالتزام بالرخص لأنها مِن تمام العبادة، ولكن فقط نخلُص إلى أن الذي يقول هذا القولَ إمّا اختلط عليه مصدر التشريع، وهو الله تعالى وحده، أو اختلط عليه من هو "إله المرأة" هل هو الله تعالى الذي جعلها تحيض ورخص لها عدم الصلاة مع الحيض؟ أم هو الرجل الذي يريد أن يستعبدَها مِن دون الله تعالى؟ الحُكم الأخير في هذه القضية هو ضميرك، والحُكم الأخير في مصدر هذه المقولة: "أليسَ إذا حاضَتْ لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟ قلن: بَلى. قال: فذلِك من نُقصانِ دِينِها" هو ضميرك أيضًا.

ولأن الحديثَ ما كان له أن يبقى ضمن الأكاذيب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا لأنه يخدم أهواءَ "الذكور" مِن "رجال الدين" وغير المتدينين أيضًا الذين لا يحفظون عن رسول الله قولاً إلا ما شابه هذا الحديث، فإن كثيرين في هذا الزمان قد أضافوا المزيدَ من المغالطات المضحِكات المبكيات للحفاظ عليه.

آراء المتأخرين:

أقصدُ بالمتأخرين أنهم متأخرون من حيث الزمن مقارَنة بالسلف، ولكنهم بكل أسفٍ أيضًا متأخرون عقليًا ودينيًا وأخلاقيًا، إذ إن أهواءَهم تغلب على حرصهم على تنقية التراث مما أُضيف إليه من إساءاتٍ للرسول -صلى الله عليه وسلم- . هؤلاء لا يهمهم الكذبُ عليه، بقدْر ما يهمهم تبرير كذبِ مَن سبق أو في أحسن الفروض تبرير أخطاء وزلات مِن سبق. فلا هُم أضافوا للتراث الإسلامي جديدًا، ولا هُم نقّحوا الموروثَ مِن أخطاء مَن قد سبق. وهنا أقصد الذين يتصدون للفتوى والتفسير والتبرير، ولا أعني العامة الذين تفوت عليهم المغالطاتُ بحُسن النية أو لعجزهم عن مقارعة الحُجة بحجة أقوى منها.

ذَهَبَ بعضُ هؤلاء إلى القول: "إنّ المرأة أكثر عاطفةً مِن الرجل"، وهذا حسب زعمهم يفسر نقصانَ عقلها. وحقيقة إن الأمر مضحِكٌ. فالمعيار هنا من ناحيةٍ علميةٍ معيارٌ مختلٌّ أيضًا لأنه لا يوجد معيارٌ عالميٌّ ثابتٌ يحدد ما هو مقدار العاطفة الطبيعية للإنسان حتى نقيس عليه "عاطفة الرجل" من ناحية و"عاطفة المرأة" من ناحية أخرى. صحيح أن المرأةَ أكثرُ عاطفة ورقة وحنانًا من الرجل على وجه العموم. وهذه هِبة من الله تضاف إلى رجاحة عقلها، إذ إنها بعاطفتها القوية تتحمل ما لا يتحمله الرجل، وتصبر على ما لا يصبر عليه الرجال. لكن كما هو الحال في الصفات الظاهرية من طولٍ ووزنٍ فمِن النساء في المجتمع الواحد مِن هن أقسى قلوبًا وأقلُّ عاطفةً مِن الرجال. أيضًا فإن نساء الغرب عمومًا أقلُّ عاطفةً في كثير من الأحيان من رجال الشرق. يكفي أن الأم في بعض البلدان الغربية تطرد بنتَها وولدَها من البيت في سن السادسة عشرةَ للبحث عن حياة مستقلة مهما عرَّضَ ذلك حياتَهم للخطر، بينما الرجل الشرقي يتشبث بأبنائه وحتى أحفادِه.

العاطفةُ هِبةٌ مِن الله تعالى للأنثى لتكتمل بها مهمة استخلافِها في الأرض مِن غير قياس غير منطقي برسالة الرجل. وقد ألمَحَ الله تعالى لهذا التمييز الإيجابي في سورة لقمان:

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)} لقمان.

نلاحظ هُنا أن الله وصَّى الإنسانَ بوالديْه، لكن سرعان ما تجاهلت الآيةُ دورَ الوالد ومضت تصف الدورَ الأكبرَ للأم في استحقاق تلك الوصية، إذ إنها حملته وهْنًا على وهْنٍ وأرضعته عاميْن، ومن ثم أوجبتْ عليه الشكرَ لله وللوالديْن، وبطبيعة الحال فإن شكرَ الوالدةِ أكبرُ مِن شكر الوالد في هذا السياق. حمْلُ المرأةِ وصبرُها على قسوته وآلام المخاض والرضاعة عاميْن ما كانت لتتم لو أن عاطفتَها كانت مساوية لعاطفة الرجل الذي لا يكاد يتحمل بكاءَ الصبي لحظة.

ولقد ناقشنا بشيءٍ من التفصيل في الباب الثاني " ملكة النحل" كيف لعبت المرأةُ الدورَ الأساس في صناعة عيسى-عليه السلام- وصناعة موسى كليم الله الذي وصفه بأنه اصطنعه لنفسه، وأن تلك الصنعة تمت على أيدي نساء ومن خلال عاطفة الأنثى.

فإنْ كان صُنعُ اللهِ لموسى الذي وصفه أنه صُنِع على عينه قد تم بأن تناقلته أيدي النساء من "عاطفة" إلى "عاطفة" أخرى حتى مَر ببنتَيْ من يُظن أنه شُعيبٌ ،اللتيْن مهدتا له ليقضي عشرَ سنواتٍ في بيت نبيٍّ ليكون اللقاءُ المرتقب مع رب العرش العظيم في طور سيناء، كيف تكون العاطفةُ إذن، مِن دلائل نقصان العقل؟

إن حماقة المتأخرين الذين يتشدقون بقشور العِلم الموروث وقشورِ العِلم الحديث تمادت في البحث عن اختلافات بين "مخ المرأة" و "مخ الرجل" ليبرروا بها أكذوبة نقصان عقل المرأة الذي لا علاقة له بالمخ أصلاً، قد قادت بعضَهم منهم لاستدلالاتٍ مضحِكةٍ. فقد رجع بعضُهم لبحوث علميةٍ طبيةٍ قصد منها دراسة تنوع مراكز الحواس والحركة في المخ قامت بها في كثير من الأحيان نساءٌ عالماتٌ في هذا المجال فاستغلها الجهلةُ وسيلة ساذجة للدفاع عن أكذوبة نُسِبتْ للنبي الكريم مِن قِبَل أعدائه القدامى.

ختامًا أيها القارئ الكريم: فإن بين يديك قنبلة إمّا أن تفجرها حماية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتصدح بها بصوتٍ عالٍ أن هذا الحديثَ كذبٌ وشرٌّ مستطيرٌ فات على متأخري السلف، ولا حجة لنا في أن نتركه اليومَ يُنسَب لرسول الله، أو تتجاهل ما قرأتَ فتنفجر عليك القنبلةُ يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنونٌ إلا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ. فإنْ كنتَ معلّمًا فليكن واجبُك غدًا أن تخبر التلاميذَ أن هذا الحديثَ كذبٌ على رسول الله، وترديده حرام شاء البخاري أم أبَى. وإنْ كنتَ إمامًا أو خطيبًا فعليك أن تبرئ نفسَك منه في أول خُطبة تخاطِب فيها الناس. وإن كان لك أي منبرٍ يمكن أن تتحدث منه فافعلْ؛ لأنها أمانةٌ وضِعتْ على عاتقك وسيسألك الله عنها يومَ القيامة. ومهما يكن وضعُك فلا تترك هذا الكتابَ يقف عندك، وإلا فإنك مشاركٌ في جريمةِ الكذبِ على رسول الله في موضوعٍ جدُّ خطيرٍ.

ونحن نَقتربُ مِن النهاية، ربما يتساءل بعضُكم لماذا لم تساهِم أيُّ امرأةٍ في هذا الكتابِ مع العدد الكبير مِن الذكور الذين أشرت إليهم بالأسماء؟ الإجابةُ هي أنهن شاركْنَ بشدةٍ وقوةٍ وعِلمٍ وحكمة، إلا أني آثرتُ أن أتحمَّلَ نيابةً عنهن السهامَ فأخفيتُ أسماءَهن. لكن في ختام هذا الباب الذي حَمَل الكتابُ اسمَه لا بأس مِن نقل وجهةِ نظرِ أُختٍ كريمةٍ مِن مقالٍ لها على الإنترنت. فقدْ نقلت حديثًا منسوبًا للنبي باركَه الأولون والآخرون "مِن الذكور طبعًا":

{ لا تؤذِي امرأةٌ زوجَها في الدنيا، إلا قالت زوجتُه مِن الحور العين: لا تؤذيه قاتَلَكِ الله، فإنما هو عندكِ دخيل، يوشِكُ أن يفارقَكِ إلينا}. فكان ردُّها: لعنةُ اللهِ على مَن كذب على رسول الله فوضَعَ هذه الضلالة وروَّجَ لها، والروايةُ لدينا مِن أحاديثِ "فقه السراويل" الذي لا يَرى قيمة لوجودِ أُمِّي وأُمِّك في الدنيا أو الآخرة، وهو مِن نتاج فكر إلهِ التوراةِ الذي سلَّطَ الرجُلَ على زوجتِه إلى يومِ القيامة، فيُنسب لرسولِ اللهِ زورًا وبهتانًا ليكتَسِب القدسية، فضلاً عن أنه يحتوي على "وتس آب" لا يستقيمُ مع قول النبي وهو تصور الحور العين للشهوة الجنسية كما ناقشنا في الباب الثالث.

أتَّخِذُ هذا مدخلاً للباب الأخير وهو باب "فـقه الكلب"؟

البــاب الـحادي عشــر

فـقـهُ الكَـلْـبِ

لقد رأينا في هذا الكتابِ انحرافًا رهيبًا تعرَّض له تقديمُ الإسلام للعالم في خير القرون، والمسلِمون نيامٌ يتنازعون بينهم على السلطان كما هو حالهم اليوم، والانحرافُ لا بد مِن الاعتراف به قبْلَ السؤال عن كيفية التصحيح؛ وحتى أسهّل على منكري الانحراف، دعوني أضرب مثلاً عصريًا يحسم الجدال: لو وثّق الرادار انحرافَ طائرةٍ عن مسارها فهناك احتمالان: إمَّا أن يكون الانحراف حقيقةً أو أنَّ الرادار مخطئٌ. والوسيلةُ الوحيدة التي يمكن بها معرفة الحقيقة هي اكتشاف منتهى رحلة الطائرة، فلو أقلعت طائرةٌ مِن القاهرة متجهة إلى لندن شمالاً ووثّق الرادار أنها انحرفت جنوبًا، فإن نهاية الرحلة هي الفيصل في الحُكم. لو وصلت الطائرة لندن بسلامٍ فالرادار مخطئٌ، لكن إذا وصلت جنوب إفريقيا فالرادار مصيبٌ.

هذا الكتاب يلعب دورَ الرادار في تشخيص انحراف الفكر الإسلامي عن "الصراط المستقيم" منذ لحظة الإقلاع في "خير القرون": اسألْ نفسك عن حالهم اليوم: هل هُم [خير أمة] أخرجت للناس؟ لو كانوا كذلك فالرادار مخطئ ومعذرةً على سوء التشخيص، لكن إذا كانوا في حضيض الشعوب والأمم فاعلم أن هناك على الأقل انحرافًا من العيار الثقيل حتى لو كنتُ مخطئًا في تشخيصي لطبيعة وأسباب الانحراف في هذا الكتاب.

في هذا الباب سنبحث في "الرادار" من ناحيةٍ أخرى وهي الفِقه الإسلامي، والفقه الإسلامي عادةً يعني مجموعَ الفتاوى أو الخلاصات العلمية التي أفرزتها العلوم التي تبلورت بعد العصر النبوي لتنظم حياة الفرد والأُسْرة والمجتمع في جميع مناحي الحياة باسم الدين؛ فدراسة علوم القرآن وعلوم الحديث لا تتم من باب الترويح عن النفس وإنما لامتلاك الدليل والحُجة ووسيلة استنباط الأحكام التي تتنزّل على أرض الواقع وتُفرَض على الناس باعتبار أن هذا هو "صراط الله المستقيم" ومَن خرج عنه فقدْ هلك؛ مِن ناحية أخرى فالفقه الإسلامي هو مجموع القوانين الدينية التي تمثل أداة السلطان التي يتحكم بها على رقاب العباد باسم الله.

"الفقه الإسلامي" ليس موضوعًا واحدًا ولا مذهبًا واحدًا، وليس مدرسَة واحدَة داخل المذهب الواحد، لذلك فليس مِن المعقول مناقشته سلبًا أو إيجابًا في بابٍ أو حتى في كتابٍ. ولأن هذا الكتاب أصلاً ما كُتِب إلا ليعالج قضايا مرتبطة برفع الأذى عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أقاويلَ هو براءٌ منها، فقدْ كُتِب بصورة تستفزّ عقولَ النشء ليبذلوا قصارى جهدهم لاستبانة الصراط المستقيم. وفي هذا الباب سأتناول الانحرافَ في الفقه الإسلامي بمناقشة بعض القضايا الحساسة المرتبطة بموضوع الكتاب، سأُجمِلُها تحت مسمى "فِقه الكلب" لِما بينها مِن سمات مشتركة بيّنة، راجيًا أن يساهم الجيلُ الجديد في كل مكان في توسيع فكرة "فقه الكلب" ما استطاعوا، لتحرير الأجيال القادمة مِن إصرْهم والأغلال التي فُرضت عليهم باسم "إله التوراة".

مِن الإشكالات التي تراكمت في قرون الانحطاط الفكري هي أن القرآن وهو مصدر التشريع الأول - بافتراض أن هناك مصدرًا ثانيًا للتشريع اسمه السُّنّة كما هو متعارف بين الفقهاء - فيه كَمٌّ هائلٌ من الآيات الكونية التي تصِف تفاصيلَ مذهلة في خلق الكون والسموات والأرض والحياة من نباتٍ وحيوانٍ وتداخلها وتنوعها وتطورها وما إلى ذلك من علوم تطبيقية تحتاج لعِلم كوني، وتحتاج لعقل يفهم البحث العلمي لاستيعابها. هذه الآيات لم ترد في القرآن من باب الترف الفكري كما يعاملها مَن تخصصوا في "فقه السراويل" و"الحلال والحرام" وفقه المعاملات الذي لا يزيد عن بضع آيات في كل القرآن، وإنما هي العامل الأساس الذي يجب استيعابُه لتوسيع أفق العقل الذي يستنبط الأحكامَ الفقهية مِن أدلتها الشرعية التي تنطبق أخيرًا على الإنسان الذي هو جزء مِن هذا الكون، لكن الكون أعظم منه بنص القرآن:

{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض أَكْبَرُ مِنْ خَلْق النَّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ (57) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ (58)} غافر.

فمَنْ كان غير مهتم بفهم الكبير "السموات والأرض" فهو أعجَزُ عن فهْم الصغير "الناس" وهنا لا يَستوي الأعمى والبصير.

وحتى لا يظن البعض ظنًّا سيئًا مِن اسم هذا الباب، فإن المقصودَ به هو الكلب ابن الكلب حقيقةً وليس مجازًا، ذلك الحيوان الذي إذا غضب نَبَح وإذا خاف عضَّ، إنْ تحمِلْ عليه يلهث أو تتركه يلهث، وهو نفسه ذلك الحيوان الوفي الذي وصفه الله تعالى أروعَ وصفٍ في أروع مشهد من أحسن القصص:

{وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18)} الكهف.

ولعلمي أن هذا الكتابَ قد يكون ثقيلاً جدًا على الجميع، ولعلمي أيضا أن "فقه الكلب" لن يخلو من مفاجآت فقد آثرتُ أن أدخل إليه من مدخلٍ قصصي، من واقع تجاربَ شخصيةٍ، آملاً أن يخفف على القارئ مرارةَ الصدمات.

الكلب و"الفلَّاتة":

قلتُ في الباب الأول "حليمة بائعة اللبن" إن مشروع الجزيرة يقع في منطقة شاسعة محصورة بين النيليْن الأزرق والأبيض في وسط السودان. حينما أنشأ الإنجليز هذا المشروعَ استقدموا له الكثيرَ من الأيدي العاملة الرخيصة من خارج السودان. وكان مِن أشهر القبائل التي استقرت في المنطقة قبيلة الفلَّاتة "بتشديد اللام المفتوحة" التي يُختلف في أصلها، هل هُم مِن نيجيريا أو مِن غينيا أو غانا أو تشاد مِن بلاد غرب إفريقيا، لكنهم أصبحوا مِن نسيج المجتمع السوداني الآن. ما يَهُم أن الفلاتة قبيلة مشهورةٌ بالتدين العفوي الذي يختلط بالكثير من الخرافات والبِدَع مِن سحر وشعوذة وغيرها، لكن الدين على أي حال عاملٌ مهمٌ في حياتهم اليومية.

وبطبيعة الحال فقد ظهرت أقوالٌ وحِكَمٌ وأمثالٌ ترتبط بهم كما هو الحال مع كل قبيلة. ومِن أشهر الأمثال في حق قبيلة الفلاتة هو وصف الشخص الذي يقع في ورطة لا مَخرَج منها بأنه: "مزنوق زنقة كلب في سوق أو حي فلاتة"، والمَثل ببساطة يوحي بعداءٍ بالغ بين الفلاتة والكلب، بحيث إذا انعزل كلب في سوق فلاتة فمصيره مشؤوم. والغالبية بطبيعة الحال لا يفكرون في مدلول المَثل إلا من كان فضوليًّا. وشاء الله أن تكون لي معه قصص.

حينما كنتُ في السابعة عشرة من عمري كنت أذهب إلى المساجد المختلفة المحيطة بالحي الذي أسكنه "المزاد بحري" للآذان لصلاة الفَجْر. ومعروف في السودان أن الفلاتة مِن واقع تدينهم ومِن واقع عدم استقرار كثيرين منهم في مكان واحد فإنهم يسكنون المساجد، وغالبًا ما يكون المؤذِّن فلاتيًا لذلك توطدت علاقتي بعدد منهم وكانوا يسمحون لي برفع الآذان. وذات يوم كنتُ عائدًا للمنزل بعد صلاة الفَجر مع المؤذن الفلاتي الذي كان في طريقه لوسط البلد في اتجاه منزلنا. ومررنا بطريقٍ ضيقٍ كان فيه كلبٌ فاجأنا بهجومٍ مباغِتٍ على الفلاتي الذي فرَّ منه بحمد الله وكأنه كان يترقب الهجوم. ترك ذلك الحادثُ في نفسي أثرًا عميقًا إذ إني وقفتُ بأُمّ عيني على عداءٍ حقيقيٍّ بين الكلب والفلاتة، إذ إن الكلب كان أقربَ لي لكنه تجاوزني وهجم على الفلاتي. وبدأت أتساءل عن سر المَثل وعن السر في هذه العلاقة العدائية. وظل التساؤل عالقًا بذهني إلى أن دخلت كلية الطب في جامعة الخرطوم عام 1981. وفي الصف الثاني دَرَسنا مادة الكيمياء الحيوية. وأذكرُ، واللهِ، كأن تيارًا كهربائيًّا سرى في جسمي حينما وَصَف المحاضِرُ هورمون "الأدرينالين" بأنه معروف بهرمون: "الهجوم أو الهروب"، فهو هرمون تفرزه غدة فوق الكلية ويُفرَز مِن أماكنَ مختلفةٍ أخرى في الجهاز العصبي ووظيفتُه أنه يزيد من طاقة عمل معظم أجهزة الجسم في حالات الطوارئ، فيزيد ضرباتِ القلب وسرعة التنفس وسرعة تقلص العضلات، وهكذا يهيئ الجسم إمَّا للهجوم أو الهروب. وقال المحاضِر إن هرمون الأدرينالين له رائحة نفاذة، لكن لا تشمها إلا الحيوانات ومِن بينها الكلاب، لذلك فالكلب غالبًا ما يهاجِم الشخصَ المتوتّر لأنه يَظن أنه ينوي مهاجمتَه فيبادِر بالدفاع عن نفسه، وخيرُ وسيلةٍ للدفاع هي الهجوم.

إلى هنا فقدْ فَسَّر هذا الهرمون الهجومَ المباغت لبعض الكلاب على بعض الناس المتوتّرين، لكن ظل هناك تساؤلٌ عالقٌ بذهني هو: لماذا تهاجِم الكلابُ الفلاتة مِن دون باقي السودانيين عِلمًا بأن معظم الناس تشعر بتوتّر أمام كلبٍ

غريبٍ في مجتمع لا يألف الكلاب؟ وبدأت الإجابة تتضح لي بعد سنوات طويلة حينما هاجرتُ إلى بريطانيا وأصبحتُ أنا نفسي "فلاتيًا" في نظر الكلب.

فحينما قدمتُ إلى بريطانيا عام 1991 نزلتُ ضيفًا على أُسرة خالي -رحمه الله- في بلدة "كيركم" في أقصى الشمال لمدة عام تقريبًا. وكنتُ أخرج مع أبناء خالي للعب التنس في ميدانٍ خلْفَ بيتِهم. وكانت الطريق بين الحي وميدان التنس ضيقةً للمُشاة فقط. وذات يوم ظهر أولاد الجيران في طريقهم إلى الميدان وكان معهم كلبٌ في حجم الفيل كما رأيته حينَها. التعارف بيني وبين الكلب لم يأخذ بضعَ ثوانٍ حتى كان كل منا قد اتخذ موقفه العدائي من الآخر، وقبْلَ أن ينتبه أبناء خالي وأبناء جيرانهم الإنجليز لهذه المفاوضات العدائية السرية، كنتُ قد تسلقت قمة أقربِ شجرة وكان الكلب ينتظرني تحتها مكشرًا عن أنيابه. بعد مفاوضاتٍ طويلةٍ مع دهشة المفاوضين من التغيير المفاجئ في سلوك الكلب الأليف وللسرعة الفائقة التي تسلقتُ بها الشجرة، نجحوا في إقناع الكلب أنني لا أشكّل خطرًا على حياته كما توهم، فاقتنعَ أن يتركني وشأني، أمَّا أنا فاحتجتُ أكثر من عشرين سنة أخرى لأقتنع أنه لا عداء بينه وبيني، واكتشفتُ سر هذا العداء الغامض بين المسلمين والكلب، ومصدرَ المَثل السوداني "مزنوق زنقة كلب في سوق فلاتة" الذي أذيعُه اليومَ للفائدة العامة.

الإجابة لم تحدث بين يوم وليلة بطبيعة الحال، فبعد أن تخصصتُ في طب الأمراض العقلية، وأصبحتُ في مستوى يفرض عليَّ زيارة بعض المَرْضَى في بيوتهم، بدأتْ مشكلة التعامل مع الكلاب تُطِلّ من جديد لأن الإنجليز مشهورون برعايتهم للكلاب في بيوتهم. وقد عالجتُ المشكلة في البداية بأن أصبحتُ أخبر أهلَ البيت أني مصاب بـــ "حساسية"، فإنْ كان لديهم كلبٌ فعليهم حبسه في مكان بعيد أثناء زيارتي. وذات يوم نسيتُ أن أخبر أهلَ بيت وكان كلبُهم أولَ مِن استقبلني مكشرًا عن أنيابه. وأذكرُ أن صاحب الدار اعتذر بشدة وقال لي إنه كلبٌ مدرَّبٌ ولا يتعدى على أحد ولا أدري ماذا جرى له اليوم، فأجرَى الله حينها على لساني ردًا عفويًا هو عنوان هذا الباب، إذ قلت له: المشكلة ليست في كلبِكَ وإنما في الفِقه الذي نشأتُ عليه أنا وهو "فقه الكلب".

فقه الكلب:

مِن الملاحظات التي لا تَخفى على أحدٍ اليومَ بعد أن أصبح الناس قرية واحدةً كما بدأوا قرية واحدةً، أن المسلمين يقفون موقفًا نشازًا في تعاملهم مع الطبيعة عمومًا والحيوان خصوصًا، وما علاقة المسلم أينما كان بالكلب الوفي وصديق الإنسان الأول إلا أبلغَ دليل. فعلاقتنا به علاقةُ كراهيةٍ وحقد على المستوى "الشخصي" و"الديني" و"الرسمي"؛ فعلى المستوى الشخصي تجد غالبية مَن ينشأ في بلاد المسلمين مهما كانت عقيدتهم لا يستلطِفون الكلبَ في أحسن الأحوال، وغالبًا ما يرعبهم وجودُه في الشارع، ولا شك أن كراهية الكلب والتقززَ منه هي السمة المشتركة بين أغلب المسلمين؛ أمَّا على المستوى الديني فقدْ ورثنا بلا نقاش ثقافةً معقدة تجاه الكلب مِن نجاسة وطرد الملائكة وقطع الصلاة، كما يجب غسل الإناء سبعَ مرات الأخيرة منهن بالتراب إذا لعق الكلبُ إناءَ أحدهم إلى غيرها من مكونات ثقافة "فقه الكلب"؛ أمَّا على المستوى الرسمي فإن معظم البلدان المسلمة تقام فيها حملاتُ إبادةٍ جماعية للكلاب بين الحين والآخر، وقد يَستغرب بعض القراء إذا علموا أن التراثَ يوثّق أن الإبادةَ الجماعية للكلاب بدأت مِن زمن النبي "كما زعموا". الغريب في الأمر أن الكلابَ في بلدان المسلمين غالبًا ما تعيش مشرَّدة و تكون أكثر وحشيةٍ من نظيراتها في بلدان العالم الأخرى. والتفسيرُ العلمي الذي وصلت إليه هو أن "فقه الكلب" الذي تشربناه منذ الطفولة في كل بلاد المسلمين يسبب لنا قلقًا لا يمكن إخفاؤه حينما نفاجأ بوجود كلبٍ في مكان ضيق. هذا القلق يؤدي لزيادة تدفق هورمون الأدرينالين في عروق المسلمين دون سواهم. الكلب لا يميز بين الهندوسي أو البوذي أو المسلِم وإنما يتعامل مع "سُنّة الله" في الكون وهي أن الأدرينالين وهو المسمى بـ "هورمون الهجوم أو الهروب" يعني نية سيئة مبيتة تجاهه، وعليه فإنه يبادر بالدفاع عن نفسه. هذا يَحدث في معظم بلدان العالم ويعتمد على مدى قناعة الشخص المسلم بفقه الكلب ومدى تعرض الكلب نفسه لتجاربَ مختلفةٍ مع مسلمين. والمَثل الذي ارتبط بالفلاتة في السودان نتج عن ملاحظات طبيعية، لكن لم يُقدَّم له تفسيرٌ علميٌّ ناهيك عن تفسيرٍ دينيٍّ، فمِن ضمن قناعات الفلاتة الدينية المتطرفة أن الكلب هو ألعن مخلوقات الله في الكون مِن كثرة تدينهم العاطفي وتصديقهم لِما يسمى بـ "سُنَّة النبي" في كراهية الكلب، لكن الكلب لا يعلم شيئًا بطبيعة الحال عما يسمى بـ "سُنّة النبي" وإنما يخضع بالفطرة لـ "سُنّة الله" في الكون لذلك يبادر بالهجوم على مَن تفوح من

جسمه رائحة العداء له، لذلك نشأ العداء المفرط بين الفلاتة والكلب الذي أدى لصناعة المَثل الذي يعكس سوءَ مصير كلبٍ يضل الطريق ويدخل حي الفلاتة لأن مَن سينتقمون منه سيكونون كثرًا.

هنا نترك التجاربَ الشخصية والقصص ونبحث في أصل "فقه الكلب" في التراث الإسلامي، ثم نبحث في مسائلَ فقهيةٍ مماثلة نتجت لأسباب شبيهة بالأسباب التي أنتجت "فقه الكلب". لكن قبْلَ ذلك، مِن المستحسن أن نبدأ بـ "سُنّة الله" في الكون قبل الخوض فيما يسمى بـ " سُنّة النبي" التي أفرزت "فقه الكلب".

الكلب في الطبيعة:

الكلبُ حيوانٌ معروف بصداقته للإنسان مِن غابر الزمن وفي كل الحضارات. والكلبُ ينتمي لعائلة الذئب لكنه تم استئناسُه مع احتفاظه بكل خواصه الوحشية القتالية التي يستعملها عند الضرورة فقط. ويعتقد بعض العلماء والباحثين أن أصل الكلاب هي الذئاب التي كانت تتجمع قربَ مخيمات الإنسان لتلتقط ما يُرمَى من طعام زائد أو ما يسقط منهم من فتات. وقام الإنسانُ بمصاحبة الذئاب التي لم تكن عنيفةً وهكذا بدأت الصداقة والترويض. ويرجع الاختلاف في أشكال وأحجام كلاب هذا العصر إلى تزاوج فصائل مختلفة من الذئاب مع بعضها بعد أن أصبحت تابعة للإنسان وتنقلت معه.

ومِن أبرز عادات الكلاب ما يلي:

1- الكلاب يجب أن تعيش في مجموعات، وبعد ترويض الإنسان للكلاب أصبح الكلب في المنزل يعتبر نفسه جزءًا من الأسرة وإلا تحول إلى وحش.

2- الكلاب مرهَفة الحواس حادة الذكاء لذلك فهي تختار الأقوى والأذكى والأكثر هدوءًا كرئيس للمجموعة، لذلك فالإنسان الهادئ الذي يعرف التعاملَ مع الكلاب ولديه الطعام والماء سيكون رئيسًا يسيطر على سلوكيات كلبه بسهولة.

3- الكلاب تتبع ترتيبًا معينًا للمجموعة في تناول الطعام؛ فرئيس المجموعة يأكل أولاً، أو يأكل ما يختاره دون اعتراض أفراد المجموعة، وهناك مَن يتبعه ثانيًا وثالثًا وهكذا، وهذا يجعل مِن الضروري أن يكون الكلب تابعًا للإنسان وليس قائدًا، وإلا أصبح خارجًا عن السيطرة.

4- يتم توبيخ المخطئ ليس بالعضّ بل بالدفع وباللثم، فالكلاب تستخدم اللثم في التخاطب من غير عضّ، ومَن يقوم بفعل سيءٍ أو غير مرغوب فيه يحصل على دفعة بسيطة باللثم ليعرف خطأه، ويقوم الإنسان باستخدام ثلاثةِ مِن أصابعه لتوبيخ الكلب بوخزه قرْبَ الرقبة أو أعلى قدمه الخلفية.

5- الكلاب تحب أن تعيش في حُفَرٍ أو أوكارٍ تكون فيها فتحةٌ يسهل مراقبتها مع وجود غطاءٍ مِن فوق ومن الجوانب والخلف كوسيلة دفاع وتحصّن، وكلاب المنازل اليوم لديها صندوقٌ تَبقى به بعد خروج الإنسان أو زاوية معينة من البيت.

6- الكلاب التي تربَّى في المنازل تستغل قدرتَها على تحمل عدم التبوّل أو التغوّط في المكان الذي تعيش فيه، وقام الإنسان باستغلال هذه المقدرة لجعلها تخرج في أوقاتٍ معينةٍ للمشي وقضاء الحاجة خارج البيت مرتيْن إلى ثلاث مرات يوميًا.

7- للكلاب عدةُ أنواعٍ من النباح، ولكن النباح قد يكون دليلاً على عدم الاحترام، ويتم تدريب الكلب على عدم النباح في المنزل أو خارجه (إن لم يكن مدربًا على التنبيه عن الأخطار).

8- للكلاب احترام لِمَن يملك منطقة معينة، وهذا بسبب احترامها لترتيب المجموعة ويمكن منع الكلاب التي تريد حماية جزءٍ معين من البيت أو شخص معين فيه بقيام الإنسان بجعل الكلب يرى ويعي أنه هو المسيطر في هذه المساحة فقط.

9- جميع الكلاب لديها عمى ألوان و لا ترى الألوان كما نراها، لهذا يتمّ تدريب الكلاب على تمييز الأشكال، وهناك كلابٌ تميز شكل دُمًى وتجلب الدمية التي ينادى اسمها.

10- الكلاب ليس لها غُددٌ عرقية إلا في أسفل أقدامها لذلك مع نشاطها المستمر فهي تلهث باستمرار لتقوم بتبريد الجسم.

لا يدري أحد متى أصبح الكلب فردًا من أسرة الإنسان على وجه التحديد، لكن تاريخ كل الأمم يوثّق أن الكلاب كانت دائمًا الصديقَ الوفي للملوك والأثرياء لدرجة أن بعض المجتمعات تَفخَر باسم الكلب؛ ولعل مِن الملاحظات التي تهمّنا هنا أن العرب كانت تتشرف به بدليل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ينحدر من "بني كلاب" كما هو معروف في السيرة والنسب الشريف: (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن "كلاب" بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الذي يصل نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم - عليهما الصلاة والسلام). وفي هذا السياق لا بد من تنبيه القارئ المسمَّم بفقه الكلب أن لفظ "كلاب" لم يكن عند العرب اسمَ إهانةٍ، وإنما كان كرامة لِما لدى الكلب من صفات الكرم والوفاء والصداقة والجرأة والذكاء. وقد اعتاد العرب على اتخاذ أسماءِ الحيوانات القوية أسماءً للبَشر مثل اسم "أسد" و"فهد" و"حمزة" و"ضرغام" وغيرها، لذا وجب علينا أن نفهم أن جد النبي "كلاب" جاء من هذا المدخل زمنًا قبل نشوء فقه الكلب.

وحتى لا يحدث التباسٌ فقبيلة "بني كلاب" التي انحدر منها النبي غير "بني كلاب" في الشام الذين تزوَّج منهم يزيد بن معاوية وكوّن منهم جيشَه الذي ساهم مساهمة فعالة في إبادة أهل بدْرٍ في المدينة في موقعة الحَرَّة الأليمة.

ولأن الشهامة وإكرام الضيف كانا مِن أميز صفات العرب فإن الكلب يقاسمهم هذه الصفاتِ، لذلك فوجوده في التراث العربي من قديم قد كان مميزًا، ولعل أبيات الشعر الطريفة المنسوبة إلى الأخطل، ويقال إن البيت الثاني فيها منسوبٌ لعليّ الغراب الصفاقصي، في ذم أسرة بخيلة يعكس ذلك:

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلبَهم ... ... قالوا لأمِّهم بولي على النار

وأمُّهم تحبس البول ضنًّا ببولتها... ... ... ولا تبول على النار إلا بمقدار

ومعنى البيت أنهم وكلبهم بُخَلاءُ لدرجة أن الكلب ينبح إذا أحس بـ "أضياف" وهو العدد القليل من الضيوف، فيسارعون لإطفاء النار حتى لا يجد الأضيافُ طريقهم إليهم، وحتى النار يبخلون عليها بالماء فيطفئونها بالبول، وحتى البول يبخلون به فيتكلون على أمهم في هذه المهمة وأمهم تبخل ببولها فلا تتبول على النار إلا بمقدار ما يطفئها!

والكلاب أنواع كثيرة مما يميزها عن بقية الحيوانات، فمنها كلاب صيد، وكلاب رعاة، وكلاب حراسة، وكلاب بوليسية وكلب الزلاقات (لجرّ العربات على الجليد)؛ كما أنها كانت تُستخدم في الحرب للحراسة وحمل الرسائل؛ وبعض أنواع الكلاب تتسم بحاسة شمٍّ أقوى من غيرها، ولهذا فإنها تُدرّب على مهام أخرى كالكشف عن المخدرات والمفرقعات والديناميت والغرقى في أعماق الماء. ويمكن استعمال الكلاب المدرَّبة في البحث عن المفقودين في الزلازل والحرائق، وبعض الكلاب يمكنها التنصت على الأصوات التي لا يسمعها الإنسان بأذنيه، حتى أن الكلب يستطيع أن يسمع دقات الساعة على بُعد 40 قدمًا. وهناك الكلاب المدرَّبة التي تقود العميان والصُم في الشوارع، والعمل المنزلي كتنبيه الصُم لجرس التليفون أو الباب، أو قيادة الأعمى للتجوّل داخل البيت أو عبور الشارع.

وقد استخدم الإنسان الكلابَ منذ غابر الزمن لحماية الأبقار والأغنام ومنعها من الهرب، وحماية حظائر المواشي من الذئاب، وهي في أصلها ذئاب لكنها من السلالات الأليفة.

وفي معظم بلدان العالم التي لا يحكمها "فقه الكلب" اليوم تقام معارض سنوية للكلاب تقسّم فيها الكلابُ إلى مجموعات عديدة منها الكلاب الرياضية، والكلاب غير الرياضية، والكلاب العاملة، وكلاب الصيد، وكلاب

الحراسة، وكلاب التسلية. وتقسم كل مجموعة إلى عدة سلالات، ومِن المعروف أن هناك كلابًا كبيرة الحجم، وأخرى صغيرة الحجم، وكلابًا ناعمة الشعر، وأخرى مرحة لاهية، وكلابًا ذات أنفة وكبرياء... إلخ.

وحديثًا بدأ استخدام بعض سلالات الكلاب في الاختبارات الطبية والتجارب الدوائية، وحتى في بحوث علم النفس والسلوك، وعلى سبيل المثال، وبعد أن نجح الكلب في تشخيص مرض السكري مبكرًا جدًا بحاسة شمِّه القوية، يقوم الباحثون في جامعة كمبريدج بإجراء تجاربَ على اكتشاف مبكرٍ للإصابة بسرطان البروستاتا (غدة المُوثة)، من خلال تدريب الكلابَ على ملاحظة خلايا السرطان الموجودة في عينات البول. وما زال الإنسان يـــــــــــــــــــــــــــــــــــــدرّب الكـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــلاب

على المزيد من التخصصات.من هنا نخلص إلى أن "سُنّة الله" في الكون قد جعلت الكلبَ حيوانًا مميزًا وله صلة قوية بحياة الإنسان العاقل، لذلك لا نستغرب أن يفرد القرآن له مساحة تليق به وتلفت الانتباه إليه.

علم التَكْلِيب في القرآن:

لقد رأينا في نظرية " آذان الأنعام " أن القرآن كتابٌ يحتوي على أسرارٍ غامضةٍ في الكون في كلمات ظاهرها بسيطٌ جدًا لكنها تظل تولّد مفاجآتٍ "حديثة" كلما تطور علم البشر بالكون وزاد العلم التراكمي للإنسانية. ورأينا في باب "الحديث" أن الله قد احتكر لفظ "الحديث" ومفهوم "ديمومة واستمرارية الحداثة" لكلامه فقط. هنا نتعرض للآيات التي ورد فيها ذِكر الكلب في القرآن لنتدبرها من جديد بعقل حديث. ولعل مِن الأسباب التي رسخت لـ "فقه الكلب" في أذهان المسلمين هي الآية التي جمع الله فيها بين "الكافر" و"الكلب" فتم في أذهان البعض تكفيرهما معًا:

{وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)} الأعراف.

هنا نلاحظ أن الله يصف سلوكَ الكافر متحجّرَ الفكر الذي لا يغيّر رأيَه مهما رأى من آيات ربِّه بسلوك الكلب الذي يلهث في كل الأحوال. ولأن الأمثال في القرآن لها حكمة غالبًا ما تكون بعيدةً جدًا عن مفردات المثل وموضوعه، فإن التدبر يقتضي أن نسأل أنفسنا عن السر في لهاث الكلب المستمر " إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ"، وليس أن نصنف الكلبَ مع الكافر في العقيدة؛ فالكلب حيوانٌ غير مكلفٍ، وبالتالي فهو مسلِمٌ خاضعٌ لفطرة الله وسُنّته في الكون. إذ إن التصنيف العقائدي ينال معشرَ الإنس والجن فقط؛ لأن الله لم يكلّف غيرهم. وعليه فلا توجد شجرةٌ مسلِمةٌ وشجرةٌ كافرةٌ أو جبلٌ مسلِمٌ وجبلٌ كافرٌ أو كلبٌ مسلمٌ وكلبٌ كافرٌ؛ بل لا يوجد حتى طفلٌ كافرٌ إذ إن التكليف، وبالتالي التصنيف العَقَدِيّ، يبدأ بعد بلوغ الحُلُم ونضج العقل. الأطفال جميعهم مسلِمون لله بالفطرة، فما بالنا بالكلب والدجاج؟

إذن، في هذا المثل يلفت المولى عز وجل أنظارَنا لسرٍّ في طبيعة الكلب ليكون لنا آية نتدبر فيها. هذه الآية من طبيعة خلق الكلب لكن تشبيه الكافر بها ليس إلا للقياس في عناد الكافر وليس لوضع اللوم على الكلب كونه يلهث. وقد ثبت علميًا أن الكلب ليس لديه غُددٌ عَرَقِيَّةٌ إلا تحت أقدامه ولأنه حيوان شديد النشاط وكثير الحركة فهو يعرق بلسانه لذلك فهو يلهث في كل الظروف؛ لأن هذه خاصية بيولوجية حياتية فيه وليس عيبًا خَلقيًا (بفتح الخاء) أو خُلقيًا (بضم الخاء).

ومَثل الكلب هنا لا يختلف عن مَثل الحمار:

{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)} الجمعة.

فالعيبُ هُنَا ليس في الحمار الذي يحمل أسفارًا وإنما في الذين حُمِّلوا التوراة ولم يعوها كالحمار. والمثل لا يختلف عن مثل الأنعام إذ إن الذم للذين لا يعقلون مع أنهم منحوا هبة العقل وليس للأنعام:

{أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44)} الفرقان.

إن سوء فهم "مَثَل الكلب" قد قاد كثيرين لتصنيف الكلب مع المغضوب عليهم لذلك جوّزوا "فقه الكلب" بلا حرج، بناءً على جهلهم بالقرآن وجهلهم بالطبيعة "سُنّة الله"، وعنادهم في الكذب على رسول الله. ولو لم يتخذوا القرآن عضين وتدبروا في آيات سورة الكهف لكان رأيهم قد تغيّر، اللهم إلا إذا كان مثلهم أصلاً كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث وكمثل الحمار يحمل أسفارًا.

سورة الكهف من أروع سور القرآن في أثرها على النفس لأن فيها تقلباتٍ كثيرةً وقصصًا متنوعة وبساطة في العرض مع غموض في كثير من المعاني، بل إن القارئ يشعر بالحركة فيها وأحيانًا تزداد ضربات القلب والتنفس عند تلاوتها. ولعل وصف قصة أصحاب الكهف والرقيم تلعب دورًا كبيرًا في فتح شهية القارئ لها مسلمًا كان أو غير مسلم. لكن المميز في هذه السورة أن الكلب شخصية مهمة جدًا من شخصيات أهم قصص سورة الكهف؛ فالمتدبر لتفاصيل القصة يعلم أن أولئك الفتية نالهم رضا من الله عظيم، وجعل سيرتهم قرءانًا يتلى إلى يوم القيامة، رغم أن كل ما فعلوه هو خروجهم من القرية المشركة هائمين على وجوههم هربًا بتوحيدهم حتى آووا إلى الكهف فكان ما كان من قصتهم:

{أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا (16) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17)} الكهف.

هذه اللوحة الفنية الساحرة التي تتداخل فيها قوة الإيمان والتوحيد الفطري مع قمة التضحية في سبيل الله، ثم تدخل القدرة الإلهية لتسخير ناموس الكون لرعايتهم وهُم رقود ليصنع منه آية ثم يجعلها قرآنًا يُتلى، لهيَ قصة زاخرةٌ بملايين أو ربما بلايين الملائكة من كلِّ صنفٍ، كلٌّ يؤدي دوره في تسخير ما كلف به من سُنّة الله في إعمال قوانين الطبيعة للحفاظ على حياة هؤلاء ولصناعة الحدث الذي وصفه الله بـ: "ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا".

وتمضي الآيات القرآنية في "أحسن الحديث" تصف حالهم في تلك الفترة الغيبية من عمرهم، فقد كانوا نيامًا. وكانت الملائكة تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم الأمين يحرسهم مع الملائكة ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعة:

{وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18)} الكهف.

الآية هنا تصور لنا أن حالهم حينها كان خارجًا عن المألوف في الطبيعة، لذلك لفررتَ أنت وأنا منهم، لكنّ الكلب ما فرَّ ولا خان ولا تخاذل؛ ظلّ هو جنبًا إلى جنب مع الملائكة في رعايتهم. ووصف "وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ" يفيد إدراكه أنهم نيام في مكان معزول ومعرَّضون لمخاطرَ جمةٍ، لذلك ما نام وإنما جلس طوال القرون في حالة تأهب لحمايتهم؛ ونفاجأ أن الله يَعُدُّ الكلب معهم إذ إنه أصبح جزءًا لا يتجزأ من المجموعة المكرمة:

{سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22)} الكهف.

قلنا سابقًا إن من طبيعة الكلب أنه لا يستطيع إلا الحياةَ في أسرةٍ أو مجموعةٍ. في عالم الكلاب المتوحشة لأن لها نظامَها في تكوين المجموعة ومَن يرأسها. في حال الكلاب المستأنسة فلا بد أن يشعر الكلب بمكانه المقدَّر، وأنه فرد من أفراد الأسرة وأن الإنسان سيده ورئيسه لذلك يطيعه ويحبه ويحميه ويموت من أجله. وفي قصة أصحاب

الكهف ظلَّ كلبهم باسطًا ذراعيه بالوصيد في تأهب لحماية "أهله" وهُم نيام حتى وإنْ طال نومهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا. إنه لا يخون العيش والملح مهما طال الزمان، فكيف يخونه ربه وينساه من المجموعة؟ لذلك كان كلبهم فردًا منهم مدّ الله عمره طوال القرون، وكان كلبهم أيضا فردًا من الملائكة التي ترعاهم.

أنا أعلم أن الكثير من الأنفس، مسلمين أو مسيحيين، في بلاد المسلمين ربما تجد صعوبة في الاستمتاع بهذه اللوحة الربانية الساحرة التي وضعت الكلبَ مع الملائكة يرعى أولئك الفتية إذ إننا تشرَّبنا في قلوبنا "فقه الكلب" كما تشرَّب بنو إسرائيل في قلوبهم العِجل، لذلك سأعود لاحقًا لأناقش الجانبَ النفسي الذي دفع "مؤسسة عبد الله بن سبأ" الوهمية في هدم الأديان لتأسيس "فقه الكلب" لضرب الأمة المسلمة به؛ فوجود الكلب هنا في القرآن مقصود لذاته لحكمة يعلمها الله تعالى وقد ختم القصة بقوله:

{وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27)} الكهف.

لذلك وجب علينا العودةُ لنرى كيف تم تحريف كلام الله لإلهاء المسلمين عن سرِّ الكلب وعلاقته بالإنسان. لكن قبلَ ذلك نحتاج الآن لمناقشة آيةٍ أخرى ربما تفاجئ الكثيرين أنها حقيقة في القرآن لأنها تدخل في صميم "الحلال والحرام"، وهو الحد الأدنى من الفقه الإسلامي الذي اختُزل فيه كل الإسلام إلى قائمة من الحلال والحرام. فالمعروف أن القرآن لا يتحدث عن الحلال والحرام إلا نادرًا، إذ إن الله ما أنزل قائمة من المحللات والمحرمات كما ندرس مادة التربية الإسلامية في المدارس وكما يحلو للخطباء تقديم الإسلام؛ بل إن الله حذر من استعمال لفظ "حرام" لأن التحريم من صلاحيات الله وحدَه، وقد أطلق لفظ التحريم على قائمة محددة فقط في القرآن لا يجوز لكائن مَن كان أن يتجاوزها:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88)} المائدة.

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140)} الأنعام.

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3)} المائدة.

{قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145) } الأنعام.

{وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116)} النحل.

مِن مجمل الآيات السابقة نجدُ لهجة سيادية غليظة تصرِّح أن كلَّ طعامٍ حلالٌ وطيبٌ إلا قائمة صغيرةً من المحرمات التي صرح الله بها في الآيات. ونلاحظ أيضًا أن الله يصف إطلاق حكم "حرام" بأنه افتراءٌ كاذبٌ عليه؛ أما الحلال فهو كل ما لم يصرح الله بحرمته. ولما سُئل الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن "الحلال" عممه الله نيابة عنه في هذه الآية:

{ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ **مُكَلِّبِينَ** تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (5)} المائدة.

إذن، فالأصل في كل شيءٍ أنه حلالٌ طيبٌ ما لم يرد نص يقيده أو ينهى عنه أو يحرمه (نص مِن الله وليس مِن الكهنة). لذلك فالآية هنا لم تأتِ بقائمة فيها كل ما أُحِلَّ لهم، بل اختصر الإجابة وشمل الحلال كله تحت مسمى واحد هو: الطيبات. والطيبات هي كل ما طاب للنفس في أي زمان أو مكان! وما طاب لك ربما لا يطيب لي والعكس صحيح؛ فالطيبات نفسها مصطلح واسع المعنى، لذلك نجد أشياءَ تتقزز منها النفس لكنها تدخل تحت الطيبات الحلال مثل الضب والجراد. وعليه فإن طعام الصينيين الذي يدخل فيه الكثير مما يصيبنا بالدهشة ليس بالضرورة حرامًا؛ لأنه ما طاب لنا وإنما هو حلالٌ لمن طاب له ما لم يرد نص قرآني يحرمه. الملاحظة المهمة في الآية هي أن الله تعالى أدخل الكلابَ بالاسم في الآية بعد ذلك حتى لا ننسى ما تصطاده من الطيبات.

فالحديث عن قائمة المحللات لا يفيد، لكن المفيد هو الحديث عن وسيلة الحصول على الطعام الحلال. وهنا رفع الله الحرجَ عن الصيد الذي تصطاده الجوارح أنه غير "ميتة"، بل حلالٌ طيبٌ ما دمنا نذكر اسمَ اللهِ عليه. والجوارح هي الحيوانات ذات الأظافر أو الأنياب التي يدرِّبها الإنسانُ على الصيد وأشهرها الصقور والكلاب. لكن الله سمّاها الجوارحَ ثم سمّى الكلب باسمه، بل اشتقّ من عملية صيد الكلب "فعلاً" وهو ابتكار لسانيٌّ في القرآن قلَّ ما ينتبه الناس له، إذ أن " مُـكـَـلـِّـبِـيـنَ" تعني ما يفعله الكلب في الصيد. وفي هذا التصريف اللساني إقرارٌ من الله تعالى أن للكلب عِلمًا قائمًا بذاته في الصيد يسمى "علم الـتـَكـْـلِـيـب". وهنا لا بد أن أذكر أنني ذات يوم ناقشتُ هذه الآية في الفيسبوك، فانتقدني أحد السلفيين بشدة، ثم عاد أكرمه الله ليعترف أنه طالما قرأها " مـُـكـَبـِّـلـيـن"، بتقديم الباء على اللام، أي مقيدين، لأن فكرة الصيد تجعل الذهن يظن أن الفريسة مكبلة. ولأن "فقه الكلب" قد أعمانا تمامًا عن الظن الحَسَن بالكلب لدرجةٍ نخطئ فيها حتى في قراءة القرآن؛ فحمدتُ فيه التواضعَ والاعتراف حينها وأسال الله أن تتحرر الأمة كلها من فقه الكلب وتلحق بركب الأمم في "علم الـتـَكـْـلِـيـب" إذ كان من المفترض أن تكون كل مهارات الكلب التي تكتشف كل يوم قد عرفت في العالم بالتكليب {TAKLEEB} حفاظًا على الملكية الفكرية لأول كتاب علمٍ ودينٍ يشتقّ من اسم الكلب علمًا أسماه " الـتـَكـْـلِـيـب".

إذن،: هُم يسألون عن قائمة المحللات، وهذه قائمةٌ تشمل كل ما في الطبيعة، ما لم يدخل ضمن المحرمات المعلومة في الآية أعلاه، سماها الله "الطيبات"، ثم أضاف عليها ما يبدع الكلب في صيده مضيفًا منه فعلاً للسان العربي سماه " الـتـَكـْـلِـيـب". هذا قولُ أحسن الحديث أن الكلب إذا أمسك أرنبًا أو طيرًا بأسنانه فمات في قبضته فإن أكله حلال حلال. ثم يأتي "فقه الكلب" في "الحديث" ليقنعنا أن الكلب نفسه إذا لعق إناءَ أحدِكم أن نغسله سبع مرات والثامنة بالتراب. أضحك الله سِنَّك يا أبا هريرة فقدْ صحبتَ رسول الله عامين فقط ويقال إنك مِن جعلتَ مِن أمته أمة من "الهرَرة" تخشي الكلبَ لدرجة تقرأ معها "مُكَـلِّـبينَ"، كـ "مكبَّلين"!

إن الحقيقة الكونية أو ما سماه القرآن "سُنة الله" في الطبيعة أن الفأر يخشى الهرة والهرة تخشى الكلب، وليس مستغربًا أبدًا أن أبا هريرة كان يتعرض لمضايقاتٍ كثيرةٍ من الكلاب طالما كان يحمل هرةً دومًا حتى لُقب بها؛ لكن الحقيقة القرآنية التي لا يمكن إنكارها هي أن الكلب كان المخلوقَ الوحيد مع الملائكة في مرقد أصحاب الكهف وأنه المخلوق الوحيد الذي يقوم بدور الإنسان في "الذبح الحلال" وما مات بين فكّيه ملوثًا بلعابه في حالة الصيد فهو حلال بنص القرآن! طبيعي أننا نحتاج إذن، أن نعرف كيف دخل علينا "فقه الكلب" أولاً، ثم نعرف لماذا ثانيًا.

الكلب في "الحديث":

نقيضًا لِما صرَّحَ به القرآن بتحليل صيد " الـتـَكـْـلِـيـب" الذي بطبيعة الحال يتلوث بلعاب الكلب وربما يموت بين فكيه، فإن لِمَا يُسمّى بـ "الحديث" رأيٌ معارضٌ لكلام الله في "أحسن الحديث". والرواياتُ المنسوبة للنبي في هذا الشأن كثيرةٌ ومتناقضةٌ أحيانًا، وأَخْذ الفقهاء بها قد تضارب إذ إن الأمرَ متعارض في كثير من جوانبه مع الفطرة وسُنَّة الله. وتوقيرًا مني للنبي الكريم الذي أُرسِل رحمة للعالمين وكان خُلُقه القرآن، فسأكتفي بالأفكار التي دارت حولها تلك الأقاويل المكذوبة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :

أولاً: وردت مجموعة من الروايات تأمر بغسل الإناء سبع مرات إذا لعقه الكلب.

ثانيًا: ورد عدد من الروايات يأمر بغسل الإناء سبع مرات إذا لعقه كلب والثامنة بالتراب.

ثالثًا: ورد عدد من الروايات يأمر بغسل الإناء سبعًا إذا لعقه كلب الأولى منها بالتراب.

رابعًا: وردت روايات كثيرة منسوبة للنبي تحرم بيعَ الكلب وشراءَه إلا كلب الصيد في بعضها، وفي رواية كلب المزرعة، لكِنَّ أبا هريرة أتهم أنه أضاف "المزرعة" لقول النبي، لأن له مزرعة.

خامسًا: وردت روايات تصف عدم دخول الملائكة البيت إذا كان فيه كلبٌ وتصاوير.

سادسًا: وردت روايات تفيد أن الكلب والمرأة والحمار تقطع صلاة الرجل، وفي بعضها تم تخصيص الكلب الأسود دون غيره كونه يقطع الصلاة، وفي رواية تم تبرير ذلك منسوبًا للنبي بأن الكلب الأسود شيطان.

سابعًا: وفي أبشع التطرف في "فقه الكلب" أن النبي همَّ بقتل كل الكلاب في المدينة وفي رواية قتَلها جميعًا حتى أن امرأة راعية كان معها كلب تم قتله.

إن أمْرَ الكلبِ قد يبدو بسيطًا لبعضهم ولا يحتاج لجدالٍ سواءٌ أصحت الروايات أم لم تصح، لذلك قد يتساءل بعضهم لماذا أفردتُ له بابًا ولماذا ابتكرتُ مفهوم "فقه الكلب" ليدخل المكتبة الفكرية الإسلامية والإنسانية. لنفهم هذا البعد الخطير نحتاج لعودة لأساس نظرية "آذان الأنعام" إذ إن كل ما نُسِب إلى النبي في فقه الكلب لا أشك أنه من إنتاج مؤسسة ابن سبأ لصناعة الأديان:

{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)} البقرة.

فالكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع إعطائه قدسية وحصانة كما ناقشنا في باب "خير القرون" وباب "علوم القرآن" وباب "الحديث" ليس إلا كذبًا على الله ومقدمة لتحريف الكَلِم عن مواضعه، ومِن بعد مواضعه، في القرآن، ومعلومٌ أن التحريفَ غيرُ التبديل، فكلام الله لا يُبدَّل. ولأن الرواياتِ أعلاه كلها أكاذيبُ مدسوسة على النبي الكريم فسأطرح فقط بعض الأسئلة المنطقية لتكشف عن سقوطها جميعًا في ميزان العقل والنقل:

الكلب مخلوقٌ حيٌّ ولا بد أن الملائكة تتحكم فيه بأمر الله. إن الملائكة هُم جنود الله حول الكون ولا يوجد شيءٌ أو مكانٌ في الكون محرّم على الملائكة إلا الملكوت الأعلى وعالم الله القدسي لأنه لا يحتاج للملائكة. وعليه فإن فكرة أن هذا المكان أو هذا المخلوق تنفر منه الملائكة هي أصلاً فكرةٌ توراتيةٌ، إذ إن مفهوم الملائكة هناك يقابله مفهوم "الأرواح الشريرة"؛ فالملائكة في الكتاب المقدس مرتبطةٌ بالخير، لكن الشر من الأرواح الشريرة. لكن في القرآن والعقيدة الإسلامية فالجنة لها ملائكة والنار لها ملائكة. وكل إنسان لديه رقيبٌ عتيد يَكتب خيرَه وشره، والموت له ملائكة. وعليه فإن فكرة خلق منطقةٍ معزولةٍ تنفر منها الملائكة تَفضح من أصلها مصدرَ التزييف. فإذا قارنّا هذه الحقيقة مع قصة أصحاب الكهف: هل الملائكة كانت ممتنعة عن أصحاب الكهف أمْ أن كلبَهم كان استثناءً؟ هل الكلب يمنع ملك الموت والملك الذي صفته رقيب عتيد؟ أم أنه جهل أو" يهودية" من وضع الأكاذيب ونسبها للنبي؟

ثم لماذا النقمة على "الكلب الأسود"؟ هل لأن الإنسان يهاب الظلام أم أنه ترسيخٌ للعنصرية اللونية حتى في الطبيعة التي أصلاً مصدرها التوراة حيث لعن الرب "حام وذريته" وهو أبُ الأفارقة (سِفر التكوين 9: 21-27) ؟ وفي رواية لمّا سُئِل النبي عن الكلب الأسود، قال إنه شيطان؛ لنفترض أنه شيطان، متى أمرنا الله أن نقتل الشيطان؟ ومَن قال إن مرور الشيطان أمامك يبطِل الصلاة؟ إذن، فصلاة المسلمين كلُّها باطلة لأن الشياطين تحيط بنا من كل مكان.

ثم ما هي الحكمة من غسل الإناء بالتراب؟ هل هو لتطهيرٍ معنويٍّ أم حسيٍّ؟ ألا تكفي سبع مرات بالماء الطهور؟ أليس هذا من إنتاج عقلية عاشت في زمن غابر وتشبعت بالخرافات؟

ثم كيف يقطع الحمارُ الصلاةَ؟ هل بصوته المزعج أم بمروره أمام المصلّين؟ عِلمًا بأن الحمير كانت هي وسيلة المواصلات الغالبة في ذلك الزمان وكان النبي يصلّي على ظهر الحمار؟ أم أن إضافة الحمار هو مِن باب تطييب خاطر أُمِّي وأُمِّك أنهن من صنف الحمار والكلب؟

جدير بالذِّكر أن عائشة -رضي الله عنها- استنكرت هذا القولَ واعتبرت أن المقصود منه إهانة المرأة مما يدلل أنه لم يكن من النبي.

وأخيرًا مَن هي المرأة التي تقطع الصلاة؟ الزوجة والأم؟ الأخت والبنت؟ وكيف تقطعها؟ هل بصوتها أم بمرورها أو بملمسها؟ هل هذا كلامُ مَن أوتِيَ جوامعَ الكلم؟

علاقة الإنسان بالطبيعة:

قلنا في "نظرية آذان الأنعام في الخلق والتطور" إن إبليسَ بعْدَ أن رَفَض السجودَ لآدمَ وطلبَ مِن ربِّه أن يمهلَه إلى يوم الدين وكان له ما أراد، أعلن عن نيته في العداء المفرط مع هذا الآدم الذي أمامه (وكانوا اثنين وثلاثين فردًا ذُكرانًا وإناثًا):

{لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119)} النساء.

قلنا في هذه الآية إن الراوي هو الله تعالى إذ إن إبليسَ لا يعلم الغيبَ فروَى اللهُ لنا ما عزم عليه إبليسُ في زمان الحدث و مكانه، أي قبل 300 ألف سنة، كما خلصنا لهذا التاريخ في باب "سفينة نوح" في كتاب " آذان الأنعام " لذلك فقد أعلن حينها قائلاً: "وَلَأُضِلَّنَّهُمْ...... وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ". وقلنا إن إبليسَ حينها لم يكن بوسعه تحديد مفهوم الضلال لأن هذا يتوقف على تحديد الله معالم الصراط المستقيم أولاً، فلو قال الله لهم اتجهوا يمينًا سيكون الضلال توجيههم يسارًا وهكذا، لذلك وفي تلك اللحظة صرح بنيَّتِه في إضلالهم فقط، أمّا التفاصيل فتتوقف على تحديد الهداية مِن الله أولاً؛ كذلك صرح بنيَّتِه إغراقهم في الأمانيِّ الزائفة وهذه لا تتطلب علْمَ غيبٍ وإنما علمًا سابقًا بطبيعتهم؛ لكنه حينما أشار للأنعام حدَّدَ بيتَ القصيد لأن هذه كانت قد نَزلت أمامه وأمامَهم وفَهِمَ أن فيها آياتٍ تهديهم لله " آذان - جمع أذان"، لذلك أعلن عن عزمه انتزاعَ هذه الآذان مِن عقولهم ومن ثم تحويل الأنعام من وسيلة هداية إلى وسيلة ضلال.

مِن هنا نفهم أن الشيطانَ لا يبتكر الضلال، وإنما ينتظر الله ليرسم خارطة الصراط المستقيم فيعلم حينها أنه طريق الهداية، ومن ثم يبذل جهده في دفع الناس للطريق المضاد؛ وهكذا كان دور مؤسسة عبد الله بن سبأ في إنتاج "فقه الكلب".

لقد رأينا أن أحسن الحديث كلام الله قد جعل الكلب رديفَ الملائكة في حراسة أصحاب الكهف الذين جعلهم آية للناس؛ ورأينا أن الله قد ابتكر "فعلاً" من اسم الكلب يمارس به عملية تحليل الصيد بأسنانه ولعابه فألمح إلى أن " التَكْلِيب " هو علم قائم بذاته "تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ". هذا يعني أن هناك توجيهًا ضمنيًا من الله تعالى للإنسان ليخترق عالم الكلب ويعلمه مما علم الله الإنسان؛ فالكلب مهيّأ لإتقان كل علم يتعلمه فيكون بذلك مدخلاً للإنسان لعالم الطبيعة. وفي هذه العملية من التعليم والتعلم يكتشف الإنسان أسرارًا من أسرار الخلق ما كان له أن يكتشفها إلا من خلال " علم التَكْلِيب". إذن، فهي نقطة ومَعْلَمٌ واضحٌ في الصراط المستقيم. وهنا ما كانت مؤسسة ابن سبأ في حاجة لمعرفة التفاصيل إذ إن سياستها هي الإضلال؛ والإضلال يعني قيادة الإنسان عكس الطريق الذي أشار إليه الله، حتى وإن لم تكن معالمه بينة للمُضِلّ. المهم أن الله وجَّهَ الإنسانَ نحو " علم التَكْلِيب" والضلال في هذه الجزئية يكون إبعادهم عنه، فكان أن أدخلوا علينا "أحاديثَ" كراهيةِ الكلب وخلقوا منا أمة من "الهررة" أبحرت في الطريق المعاكس تمامًا، فتأصلت الوحشية في قلوب كثيرين منّا وامتلأت بلداننا من دون بلاد العالم بالكلاب الضالة والمشردة والمتوحشة، بينما غيرُنا قطع أشواطًا كبيرة في " علم التَكْلِيب"

الذي أصبح اليوم جزءًا من الطب وجزءًا مهمًا جدًا من المخابرات وأجهزة الأمن، بل إن الكلاب هي الحيوانات الوحيدة التي لها رُتَبٌ عسكريةٌ وفقًا لدرجة تدريبها وإنجازاتها.

بالإضافة لِمَا قدَّمناه سابقًا عن طبيعة الكلب وخصائصه المتميزة في عالم الحيوان فإن النفسَ البشرية التي تنجح في تأليف الكلاب وتدريبها غالبًا ما تكون أكثرَ رقةً ورأفةً بكل المخلوقات، وهذا مقصدٌ أساسٌ في مفهوم ملة إبراهيمَ السلميةِ التي تقوم على محوريْن أساسَيْن: التدبر والتفكر في الكون، والتسليم لله. ومَن قست قلوبُهم على الكلاب ستكون بلا شك أشدَّ قسوةً على غيرها حتى مِن بَنِي البَشر. والجميع على علم بالرواية المناقضة التي دخل فيها رجلٌ الجنة بعد أن سَقَى كلبًا عطشانَ، ودخلت امرأةٌ النارَ بعد أن حبست هِرةً فمنعتها الطعامَ والشراب. وعليه فإن "فقه الكلب" لعب دورًا خطيرًا في أن نكون ما نحن عليه اليوم من غدرٍ وخيانة وإنكار جميل وقسوةٍ وبشاعةٍ وشهوةٍ في الظلم والاعتداء على غيرنا والتعدي على حرمات الله وإفساد الطبيعة في البر والبحر، بل وأصبحنا أمة تعشق الدم وتحلم بالموت وتصنع الموت باسم الدين.

لقد قصدتُ الحديثَ عن "فقه الكلب" الذي يحتاج لكُتُبٍ منفصلةٍ لمناقشته، حتى أقدم الاسم كابتكارٍ لمصطلح يجمع كل فتاوى الفوضى التي تقوم على هوًى شخصيٍّ أو جهلٍ في فَهْم النصوص، ومن ثم تُشَرَّب بها قلوب المسلمين فيصبحون يدينون بدين غير ما جاء به محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم نتيجة "فقه الكلب" مهما اختلفت مواضيع الفقه نفسه. ولأن هذا الكتابَ أصلاً يناقش قضايا تخص المرأةَ فسأناقش بعض ألوان "فقه الكلب" التي قامت على الهوى وليس الجهل، وإنما الظلم المتعمد للمرأة، وما زال يقف وراءها جيشٌ جرَّارٌ مِن فقهاء "فقه الكلب" رغم أنف النبي ورغم أنف القرآن كما نُسِب للوليد بن عبد الملك قولُه حينما وجد القرآن يدينه في كل صفحة:

أتُوعِدُ كلَّ جبَّارٍ عنيدٍ ... فها أنذاك جبَّارٌ عنيدُ.

ثم مَزَّقَ المصحفَ وقال:

فإنْ لاقيتَ ربَّكَ يومَ بعْثٍ ... فقُلْ يا رَبُّ مَزَّقنِي الوليدُ.

لكن قبل الدخول في بعض أبواب "فقه الكلب" أود هنا تبرئة أبي هريرة من بعض ما نُسِب إليه.

أبو هريرة وكعب الأحبار:

لم أكتب هذا الكتابَ ورأسي مدفون في الرمال، ولا أشك أن أغلبَ مَن سيطَّلِعون عليه ليسوا ممن يدفنون رؤوسهم في الرمال أيضًا. بل: إن الذين اعتادوا على دفن رؤوسهم في الرمال لن يجدوها بعد اليوم؛ لأن تكنولوجيا المعلومات جعلت كل مستور مكشوفًا. وعليه فإن الجميع يعلم أن أصابع الاتهام التي رفعت نحو إكثار أبي هريرة من التقوّل على رسول الله قصةٌ قديمةٌ قِدَمَ أقدَم السلفِ رضوان الله عليهم. فقد أسلم أبو هريرة في السنة السابعة من الهجرة، ثم بعثه النبي للبحريْن لجمع الصدقات في السنة الثامنة للهجرة، وتوفي النبي -صلى الله عليه وسلم- في السنة الحادية عشرة للهجرة، ويقال إن أبا هريرةَ مكث معه ثلاث سنوات باستثناء فترة البحريْن التي لا يعلم أحدٌ كم طالت. ورغم قِصَر صحبتِه للنبي فهو الملقَّب بأحد كبار الصحابة والمشهور بأنه أعظم رواة الحديث، وكأن النبيَّ كان صامتًا طوال العشرين سنة قبل إسلام أبي هريرةَ ومن ثم صحبته له. ففي تلك الفترة الوجيزة جدًا أصبح أشهر رواة الحديث على الإطلاق، وقد سَبَق أن ذكرنا تحذيرَ عُمَرَ له ألا يروي عن النبي في باب "الحديث"، وقد أفرد له مسند أبي هريرة وحده لأنه اشتمل على أكثر من ستين ألف حديثٍ، بينما أبو بكرٍ وعمرُ وعثمان وعليّ وبلال الذين شهد الله لهم أنهم السابقون الأولون ورضي عنهم بنص القرآن ما رووا مجتمعين ومعهم أهل بدْرٍ أجمعين عُشْرَ معشار ما رواه أبو هريرة. هنا لا بد من ترك العناد والكبر وعرض المفارقة على المنطق، إذ إننا نجد أنفسنا أمام خيارات محددة:

أولاً: إمَّا أن أبا هريرةَ نفسَه ضحيةٌ لحملة تزوير كبيرة وَجَدت في شخصيته الهزلية شخصًا مناسبًا يمكن أن يُنسَب إليه ما لم يَقُله، لذلك فهو بريء من معظم ما روي باسمه.

ثانيًا: أو أن أبا هريرةَ كان يكذب على رسول الله متعمدًا.

ثالثًا: أو أن التاريخَ الإسلامي كله أكاذيب، وأن مسند أبي هريرةَ لم يشمل ذلك العدد الخرافي من روايات أبي هريرة.

أنا شخصيًا أرجح الاحتمال الأول، وشيئًا من الاحتمال الثالث، وهذا الترجيح مبنيٌّ على معطياتٍ علميةٍ وليست عاطفية:

فلقَبُ "أبو هريرة" هو اللقب الذي اشتُهر به في كل العالم بين العرب والعجم. واللقب ليس فيه تشريفٌ بل نوع من السخرية ولا شك. ولقد رأينا في باب "علوم القرآن" أن مركّب "أم كذا....." غالبًا ما يفيد التشريف كـ " أُم القُرى" و"أُمّ الكتاب"، بينما مركّب "أبو كذا... " غالبا ما يفيد الذمَّ كـ " أبي لهب"، أو على الأقل هذا ما ورد من هذه المركّبات في القرآن. وفي التاريخ الإسلامي فيمكن إضافة "أبو جهل" للأمثلة. مِن هنا فلا أظن أن لقبَ "أبو هريرة" الذي طغَى على اسمه قبل الإسلام "عبد شمس بن صخر" وعلى اسمِه بعد الإسلام "عبد الرحمن بن صخر الدوسي" حينها كان تشريفًا. ولعلنا يمكننا أن نختبر التفاعل مع الاسم اليوم، وليحاول بعضكم الدخول إلى المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو أيِّ مسجدٍ في الدنيا وبين أيديهم "هِرّة" لنرى هل يرحب الحرسُ بأبي هريرةَ الجديد أم يطرده؟ فقدْ لُقّبَ أبو هريرةَ بهذا اللقب لأن هرّته كانت لا تفارقه. ولا أظن اللقبَ إلا سخرية منه. وقد وُصِف بأنه كان مشاغبًا وفيه غفلةٌ، أي سذاجةٌ، وهذا كله موثّقٌ في كُتُب السيرة عن الرجل. وليس في أي مما سبق ذمّ للرجل ولكنها نقائص خَلقيةٌ اتُّصِف بها. ثم إن أبا هريرة قد لازم كعب الأحبار اليهودي الذي زعم أنه أسلم، لكن ما أتى الإسلامَ منه إلا كلُّ سوءٍ. فقد تسللت مِن خلاله مئاتُ الإسرائيليات لتفاسير القرآن، معظمها عن طريق أبي هريرة. ويقال إن كعب الأحبار وجد فيه شخصية يمكن خداعها فاستغله بحشو فكره بقصصٍ إسرائيليةٍ، وكثيرًا ما اختلط على أبي هريرة ما سمعه من رسول الله أو كعب الأحبار فينسب هذا لذلك أو العكس. من هنا يمكن القول إن أبا هريرة روى الكثير، من مصادرَ كثيرةٍ، إذ إنه عاش طويلاً بعد النبي-صلى الله عليه وسلم-، لكن كان ينسب كل ما سمعه من أي جهة كانت للنبي صلى عليه وسلم. ثم إن كعب الأحبار قد سَخَّرَه لبث ما شاء بثه باسم النبي. ثم لما تمكنت مؤسسة ابن سبأ لصناعة الأديان بعد القرن الثاني الهجري في الإعلام الإسلامي صنعت أسطورة أبي هريرة حَبْر الأمة وعالم علمائها وأحد كبار الصحابة و.. و.. و.. و.. ، ومن خلال اسمه تمَّ خلق جزءٍ كبيرٍ من القرآن الموازي المسمى بـ "الحديث" وأبو هريرة منه براء.

وعليه فأنا لا أنتقِص مِن دين أبي هريرة، ولا أتهمه بالكذب العمد على رسول الله لكني أصدِّق عُمَرَ وأبا بكرٍ وعليًا وعثمان وفاطمة وعائشة أكثر منه، بل ومئات إن لم يكن الآلاف ممن صحبوا رسولَ الله أطولَ منه ولم يرووا عنه شيئًا. أيضًا فإن "فقه الكلب" الذي قُصِد منه التدمير النفسي للأمة المسلِمة كان من السهل تمريره من خلال كراهية هِرَّة أبي هريرة للكلب فرويت له أو عنه الأحاديث التي بثها في كراهية الكلب والله اعلم.

الغريب في أمر السلفيين أو "الحديثيين" الذين يجعلون لِمَا يسمَّى بالحديث سلطانًا على القرآن، هو استعدادهم للتضحية بالله وبرسوله من أجل الحفاظ علي هيبة وسلطة ما يسمى بعلم الحديث. وفي هذا السياق نجدهم يقفون موقفًا غريبًا وهو تصديق أبي هريرةَ في إهانته لكل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار أو ما يسمى "أصحاب النبي العدول" ليبرر لماذا روى الكثيرَ جدًا عن رسول الله مقارنة بغيره، إذ إن الاشتباهَ فيه ليس وليدَ اليوم، وإنما قد ارتبط بسيرته نفسها. فقدْ روى عن أبي هريرة في صحيح البخاري ومسلِم:

{ إنكم تزعمون أن أبا هريرةَ يُكثِر الحديثَ عن النبي، إني كنت امرأً مسكينا صحبتُ النبيَّ على بطني، وكان المهاجرون تشغلهم التجارة في الأسواق، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على جمع أموالهم. فحضرتُ من النبي مجلسا فقال: مَن بسط رداءَه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئا سمعه مني، فبسطت ردائي عليّ حتى قضى حديثَه ثم قبضها إليّ، فو الذي نفسي بيده لم أنسَ شيئا سمعتُه منه} رواه البخاري ومسلم.

فضلاً عن قول الله تعالى:

{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32)} النجم.

فإننا هنا نجد أنفسنا أمام خياريْن: لو صدَّقنا أبا هريرة الذي أسلم في السنة السابعة وصحِبَ النبي ليس أكثر من عامين، فقد رفعناه مكانًا أرفعَ من كل المهاجرين والأنصار الذين رضي الله عنهم وأرضاهم، لأنه بهذه الرواية يزكّي نفسَه عليهم إذ شغلتهم الدنيا وهو اشتغل بحب النبي. إذن، نلغي كل أصحاب النبي ويبقى أبو هريرة. أو نستنكر إهانة أبي هريرة للمهاجرين والأنصار في هذا الأثر فيصبح أبو هريرة ليس متَّهَمًا بتزكية نفسه على حساب سبِّ أصحاب رسول الله فقط، وإنما أيضًا بالكذب. الرواية لا مَخرج معها إلا باختيار أحد التفسيرين. أهل الحديث، وبلا وعي، يتشدقون بهذه الرواية ليدافعوا عن عشرات الآلاف من الروايات التي رواها أبو هريرة مقارنة مع ما يزيد عن الصفر قليلاً مما رواه عشرات الآلاف من أصحاب النبي الذين سبقوا أبا هريرة بالإيمان وبالهجرة وبالنصرة؛ وهُم- أي أهل الحديث-يظنون أنهم بذلك يُحسِنون صُنعًا.

أمَّا رأيي الشخصي فهو أن هذا الأثرَ نفسَه مدسوسٌ على أبي هريرة ولم يَقُله. هذا الرأي ربما يُفرِح بعضهم -لكنهم سرعان ما يكتشفون المَقلبَ فيه وهو أنه موضوعٌ في الصحيحين مضافًا لِمَا ناقشنا من الروايات التي لا تحتمل إلا الوضعَ والكذب في هذا الكتاب منسوبة للبخاري ومسلم.

وترجيحي لوضع الرواية ليس تعاطفًا مع أبي هريرة فحسب، وإنما لأنها روايةٌ ساذجةٌ في محتواها. فلو افترضنا أنها وقعت حقيقةً وحفظ أبو هريرة كل ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- طوال العامين الذين صحبه فيهما، فإن هذا الدعاءَ لن يجعله بأي حال من الأحوال شاهدًا على حياة النبي في العشرين سنة التي سبقت إسلامَه مقارنًا بالمئات والآلاف من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين لم يرووا معشار ما رواه.

إن القصدَ ليس التشهيرَ بأبي هريرة، ولكنه توعيةٌ للأمة أن جزءًا كبيرًا مِن تراثنا الديني مسجَّلٌ ضد مجهول، ولا ندري له مصدرًا، وقد شكل الفقهَ الإسلامي والشخصية الإسلامية على مدى قرونٍ طويلةٍ ونحن ننسبه للنبي ومن ثم لله تعالى.

وكلمةُ حقٍ لا بد مِن قولها: إن خروج الناس من دين الله اليوم أفواجًا ليس سرًا على أحدٍ إلّا مَن يعيش في كهوف الظلام ظنًّا منه أنه في عصر السلف. وإن كل الذين خرجوا عن الإسلام وبدأوا في رفع أصواتهم باسم الإلحاد لا يعلمون عن الإسلام إلا ما درسوه في المدارس وكله من "فقه الكلب" الذي قام على "الحديث" وليس القرآن. وإن الدعواتِ المسعورةَ لزجر الناس عن تدبر القرآن، ممن يخشون على عروشهم إن اكتشفَ الناسُ التناقضَ بين القرآن والحديث، لهيَ المسئولة عن كفر أبناء وبنات المسلمين، ولعَمْري لَهُمُ الفِرقة الهالكة بعينها مهما توهموا أنهم الفِرقة الناجية الوهمية.

فيما تبقى من هذا الباب سأتطرق باختصارٍ لقضايا شاطحةٍ من "فقه الكلب" وأقصد به الفقهَ الذي تم ترسيخه في قلوبنا لكنه قام على أهواءَ شخصيةٍ أو فهْمٍ مغلوطٍ لبعض النصوص:

"الحجاب" في فقه الكلب:

رأيْنَا كيف نشأت "حرب المصطلح" في التراث الإسلامي منذ "خير القرون" وهي الحرب المعنوية التي تقوم على تحميل الألفاظ القرآنية ما لا تحتمل من معنى، أو إقحام اصطلاحاتٍ لم تكن متداولة فتُعطى قدسيةً لتصبح من الدين ثم تصبح هي الدين نفسه.

لفظ "النقاب" بمعنى تغطية الوجه تمامًا وإخفاء الهوية أصبح متداولاً منذ ثمانينات القرن الماضي فقط حسْبَ علمي، لكن كان الخلاف قديمًا حول ضرورة تغطية المرأة وجهها أم لا مِن غير تسمية "النقاب"، منذ ظهور المدارس الفقهية في القرن الثاني والثالث، واختلفوا فيه اختلافاتٍ كثيرة، إذ إن الآراء كلها ما كانت تقوم على دليل صريح، لا مِن القرآن ولا مما نُسِب للنبي -صلى الله عليه وسلم- . لكن لم يستعمل لفظ النقاب في الماضي وإنما اختلفت الآراء حول التفاصيل. أمَّا لفظ "النقاب" وصفته في تغطية الوجه فقد كان لباسَ العاهرات في التراث اليهودي لإخفاء الهوية تمامًا كما رأينا ذلك مِن فعل "ثمارا العاهرة" في باب "وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا"، فالحرائر لدى اليهود لا بد أن يُظهِرْنَ وجوهَهن وشيئًا مِن زينتهن رمز عزة نفس وكبرياء، أمّا العاهرات فكنّ يتنقّبن.

أمّا استعمال لفظ "الحجاب" ليصِفَ الزي الذي ترتديه المرأة المسلمة لتتميز به عن بقية النساء فهو إنتاجٌ حديثٌ في "حرب المصطلح" في "فقه الكلب" بعد أن جعل الله بين المسلمين والقرآن حجابًا مستورًا. ومِن المُضحِكات المُبكِيَات أن الفهم المغلوط للدين يُخرج جيوشًا من الحمقى الذين يعلمون أنهم يستعملون ألفاظًا لا علاقة لها بالحُكم الشرعي المقصود، لكن لأنهم أُشربوا في قلوبهم "فقه الكلب" فهُم يُصرّون عليه وسيُصِرون بعد قراءة هذا الكتاب.

لفظ "حجاب" في اللغة يعني الحاجزَ الذي لا يمكن رؤية ما خلفَه، فـ "الحائط" حجاب بين الناس، و"الستار" في المسرح حجاب، و"السحب" حجاب للشمس، واللهُ لا يكلم الناسَ إلا مِن وراء حجاب. وعليه فإنه من الخَطَل الفقهي أن نسمي زيًّا تلبسه امرأة يراها كل الناس ويعرفون أنها امرأةٌ مسلمةٌ أنه "حجاب". وهنا لا أتحدث عن اللباس الإسلامي أو غيره، لكني فقط أناقش خطلَ الناس في استعمال اللفظ نفسه مما يدلل على أن الفكرة كلها قامت على هوىً لم يمهل صاحبه أن يبتكر لها اسمًا موضوعيًا، بل سعى لتحريف المصطلح القرآني حتى يُكسِب فكرتَه قدسيةً لا أصل لها، وطالما تمت رؤية المرأة، مهما كان نقابها حالكَ السواد تشمئز منه النفس، فهي ليست وراء حجاب. ما يهم هنا هو تأصيل اللفظ حتى نميِّز بين القرآن و" فقه الكلب". وقد ورد لفظ الحجاب في القرآن ثماني مرات، ليس بينها مرة واحدة تفيد اللباس:

{وَبَيْنَهُمَا **حِجَابٌ** وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46)} الأعراف.

الحجاب هنا حاجزٌ كونيٌّ وليس لباسًا.

{فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ **بِالْحِجَابِ** (32)} ص.

توارت بالحجاب يعني اختفت عن الرؤية تمامًا.

{وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا **وَبَيْنِكَ حِجَابٌ** فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5)} فصلت.

حجاب هنا تعني حاجزًا نفسيًا كأن يكون لك عالم ولنا عالم آخر.

{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ **مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ** أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51)} الشورى.

وهنا يعني أن الله لا تدركه الأبصار، ولكن الآية لا تعني أن الله يقف وراء حجاب أو يرتدي حجابًا، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

{وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ **حِجَابًا مَسْتُورًا** (45)} الإسراء.

وهنا تعني حاجزًا نفسيًا بمعنى أن لكلٍّ عالمَه الخاص.

{فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ **حِجَابًا** فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)} مريم.

مريم هنا اختفت عن الأنظار خلفَ ستارٍ طبيعيٍّ ولا يعني أنها ارتدت "حجابًا".

{كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ **لَمَحْجُوبُونَ** (15)} المطففين.

وهذا منتهى الخسران أن يُحجَب الكفار عن ربهم.

مما سبق نلاحظ أن القرآن قد صرّح وأوفى في لفظ "الحجاب" أنه يعني العزلَ التام. وقد ورد في السياق ذاته الذي تم تحريفه أن الحجاب يمكن أن يكون حائطَ بيتِ النبي كما في الآية التي تم التحريف فيها:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا **تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ** إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ** ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53)} الأحزاب.

هنا نلاحظ أن الأمر كان للرجال وليس لنساء النبي، وطبيعة الأمر هي أن الله يُعلِّم العربَ الأدبَ مع بيت النبي وخصوصياته، فأمَرَهم ألّا يسألوا نساءَ النبي شيئًا إلا مِن وراء حجابٍ عازلٍ، أيْ خارج المنزل مِن خلف الحائط بطبيعة الحال. لكن الآية ليست موجهة لنساء النبي أنفسهن أن يرتدين زيًّا اسمه "الحجاب" كما حاول المضلون إيهامَ الناس في الخلط بين هذه الآية وبين ما يسمى "الحجاب" أو "الزي الشرعي" الذي أفرزته أصلاً موجة متابعة الموضة العصرية لفتح أسواق تجارية لملابس النساء المسلمات تحت مصطلح قرآني لا علاقة له بالزي على الإطلاق.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)} ق.

إلى هنا فالدعوة مُقدَّمة لكلّ مَن كان له قلبٌ أو ألقى السمْعَ وهو شهيد أن يكف عن الاستهتار بالمصطلح القرآني، فقدْ رأينا أن استعمالَ اللفظِ نفسِه في مجاليْن مختلفين يخلق إشكالاً، وهذا لا يتم بحُسن نيَّة أبدًا، إذ إنه عِلمٌ يسمى "حرب المصطلح". فإنْ كان الله قد سمى القرآن "أحسن الحديث" فلا علاقة لحديث الله بما يرويه أبو هريرة في الكلب، وليس جديرًا أن يسميه حديثًا. وإنْ كان الله قد سمى الحاجز بينه وبين البَشر حجابًا فمِن الاستهتار بالمصطلح القرآني أن تَخرج امرأةٌ ترتدي برقعًا أو عباءة أو نقابًا أو جلبابًا يَعرف العاقلُ والمجنون المسلم وغير المسلم مِن مشيتها ومِن نقابها المتميز أنها امرأةٌ ثم نزعم أن هذا "حجاب". الحجاب يعني عدم الرؤية تمامًا. والحجاب في القرآن فُرِضَ على الرجال في التعامل مع نساء النبي داخل حجراته، بمعنى أنه مِن ضوابط زيارة بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-. فإذا خرجن فما كُنَّ يخرجن وحولهن أسوارٌ أو حُجُبٌ كونية؛ لأن مخاطبتهن مِن وراء "الحجاب" كان تأدبًا مع حرمة بيت النبي وليس حُكمًا عامًّا فُرض عليهن، وإلا لكان هناك تعارض بين الحجاب والجلباب الذي شمل نساء النبي أيضًا.

وقد كان للنبي -صلى الله عليه وسلم- بيتان: بيت خديجة ومهبط الوحي الأول في مكة "تحول إلى مرحاض مع توسعة الحرم المكي كما رأى الملايين في اليوتيوب، وأرجو أن يكون الخبر كاذبًا أو تم من غير علم المسئولين لأن هذه كارثة"، وحجراته في المدينة التي أصبحت جزءًا من المسجد النبوي. ومات النبي -صلى الله عليه وسلم- وماتت نساء النبي وانتهى الحُكم الذي كان يخص التخاطبَ مِن وراء حجاب مع نساء النبي، إذ إنه خطابٌ نبويٌّ يخص النبيَّ ونساءَه وانتهى العمل به.

ورأينا في باب "وقولهم على عائشة بهتانًا عظيمًا" أن التلاعب بحكم الحجاب كان المقصلة التي فضحت أكذوبة الرواية، إذ إن الراوي حاول استعمال الحجاب عذرًا في أن الرهط حملوا الهودجَ مِن غير أن يعرفوا أن عائشة كانت داخله بحجة أن القصة وقعت بعد نزول الحجاب، فقلنا إن الحجاب ارتبط بوجودهن في البيت لأنه تنظيم لحرمة بيوت النبي وليس فرضًا في كل مكان.

إذن، يمكن لِمَن يعترض على ما سيأتي على الأقل أن يتفق معنا أن استعمال لفظ "حجاب" ليفيد الزي أو اللباس الذي يميز المرأة المسلمة استعمال فيه استهتار بالمصطلح القرآني وضحكٌ على عقول المسلمين. وهذا يقود إلى سؤالٍ حتميٍّ هو: ماذا فَرَض الله على المرأة المسلمة مِن زيٍّ ترتديه؟ الإجابة هي أنه ما فَرض عليها شيئًا كما أنه ما فرض على الرجل شيئًا وأن كل الزوبعة المسماة "الزي الإسلامي"، التي ظهرت في آخر القرن المنصرم مع عالم الموضة والإسلام السياسي الذي يقوم على التمييز الظاهري، ما هي إلا دعاية تجارية وضرْبٌ مِن ضروب "فقه الكلب"، حينما يتحول الهوى إلى دين.

إذا رجعنا للقرآن بحثًا عمَّا يسمى بــ "الزي الشرعي" فإن هناك آيتيْن تَطرَّقتا للباس المرأة وسترتها، الآية الأولى في سورة النور:

{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ **يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ **يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ** وَلَا يُبْدِينَ **زِينَتَهُنَّ** إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ **مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ** أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا **يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ** وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)} النور.

لقد ناقشنا جزءًا مِن هذه الآية مع سورة النور في باب "وقولهم على عائشة بهتانًا عظيمًا"، وقلنا إن سورة النور أصلاً تعرضت لأكبر حملة من التحريف، وزعموا أن فيها آية "نُسخت" بمعنى "ألغيت" وأثبتنا بحمد الله أن كلَّ تفسير السورة ملفقٌ مزيّفٌ وقُصِد منه البهتان على عائشة وبيتِ النبي، وعليه فإن كُتُبَ التفسيرِ التي تبنت البهتان على عائشة ساقطةُ العدالةِ ولا يمكن الرجوع إليها لفهْم هذه الآية.

قلنا إن الآية نزلت لتنظم المجتمع النبوي المدني البدائي، لذلك فالأمرُ بغض البصر وحفظِ الفرج للمؤمنين والمؤمنات مرتبطٌ بالتبول والتبرز وربما الاستحمام في مكان مكشوف، وليس حكمًا شرعيًّا اسمه "غض البصر" كما استنبط الفقهاء؛ وفيما يخص النساءَ مضت الآية تنصح بالمزيد من الضوابط التي لم تجعل التقصير فيها من الكبائر وإنما دعوة للأفضل والفلاح.

ما لا يمكن إنكارُه هو أن الآية وَصَفت زينة المرأة في ثلاثة مستويات مختلفة:

الزينة الأولى: هذه هي الزينة الظاهرة وهي مباحة ومستثناة.

نلاحظ أن الله سماها زينة وليس "عورة"، ثم إنه لم يحدد ماذا يعني "ما ظهر منها" لأن هذا متروك للعُرف أو ما يسمى "بالمعروف" وهو عكس "المنكَر"، والمعروف ما تعارَف الناس في الزمان والمكان المحدد أنه عملٌ طيبٌ مقبولٌ، والمنكَر هو ما استنكره الناس في الزمان والمكان المحدد، وعليه فإن ما ظهر من الزينة فقد تركه الله من غير تعريف.

الزينة الثانية: وهي ما يمكن للمرأة أن تريها المحارمَ المذكورين في الآية، وهذا المقدار من الزينة بالطبع أكثر خصوصية مما وصفه بـ "ما ظهر منها"، إذ إنه يُكشَف للمحارم؛ لكن نلاحظ أن "بعولتَهن" مشمولون في رؤية هذا المقدار من الزينة مما يجعلها أيضا زينة عامة يشترك في رؤيتها الأب والابن و"البعل" الذي هو الكفيل أو الراعي الذي ينفِق عليها، وربما يكون زوجًا سابقًا أو مُحسِنًا تبنَّى أيتامًا في الأسرة أو غيره، وهذه غالبًا ما تُعرَف بملابس البيت، وهذه تختلف من بيئةٍ إلى بيئةٍ ومن مناخ إلى مناخ، وتختلف بين الصيف الحار والشتاء البارد، لكن في كل المجتمعات تسمى ملابس البيت، ونلاحظ أيضًا أن تحديدها تُركَ للعُرف وليس الفقهاء.

الزينة الثالثة: هي الزينة الخيالية أو إثارة الشهوة عن قصد بلفت الانتباه ليتخيل الرجل ما تُخفي المرأةُ من زينة، وهذا باختصار نَهيٌ عن الخلاعة في الأماكن العامة بالمفهوم الحديث.

وعليه فإن الدرجة الأولى من الزينة التي سماها الله "ما ظهر منها" هي درجةٌ تعارفَ عليها الناس أنها زينةٌ ومظهرٌ جماليٌّ للمرأة، لكنه غالب الظهور. وفي كل المجتمعات وكل الحضارات والثقافات بما فيها المجتمع النبوي الذي كانت تخاطبه الآية فإن زينة المرأة الظاهرة في الأساس هي وجهها وشعرها وربما ساقاها، وهذا ربما يبرر لماذا ذَكَر الله لنا عن كَشْفِ ملكة سبأ عن ساقيها في مكان عام في حضرة نبي الله سليمان لنعلم أن هذا جزءٌ مما ظهر من زينة المرأة بالضرورة:

{قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً **وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا** قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)} النمل.

فقد كانت نساء العرب يُظهرن شَعرَهن ولكن يضعن طرحة تزين هذا الشَّعر وغالبًا ما تكون من حريرٍ أو قماشٍ نفيسٍ لأنها أيضًا مقصودٌ بها الزينة وليس التغطية. وسماها الله زينةً لأن هذا من فطرة المرأة أنها تحب أن تتزين،

ولا حرجَ شرعيًّا في ذلك؛ ولَكن يكشفن عن سيقانهن ويلبسن ما كان وما زال يعرف بالخلخال ويضربن به للفت الأنظار؛ وهنا فقط نُهين عن الضرب بالأرجُل لكن لم تتحدث الآية عن طول الجلباب.

نلاحظ أن الآياتِ انتهت بدعوةٍ عامةٍ للمؤمنين للتوبة والفلاح ولم يكن فيها تحذير من عقابٍ أو وعيدٍ بعذاب، وإنما ترغيبٌ في الالتزام بضوابطَ أكثرَ حشمةٍ مع الاحتفاظ بحق المرأة في إظهار درجاتٍ مِن زينتها من زينة ظاهرة للجميع إلى زينة أمام المحارم.

أمَّا الآية الثانية التي أشارت للباس فهي:

{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (58) **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ** قُلْ **لِأَزْوَاجِكَ** وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ **جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ** فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59)} الأحزاب.

هذه الآية في سورة الأحزاب ووردت في سياق تَعَرُّض النبي للأذى من اليهود والمنافقين، وتَعَرُّض بعض المؤمنات للمضايقة من بعض الصعاليك (أو السفهاء) والمتحرشين. وأهم ما يلفت الانتباهَ فيها أنها بدأت بأزواج النبي، وهذا يعني بالضرورة أن أزواج النبي كُنّ يَخرجن وأن مخاطبتَهن من وراء حجاب كانت تنظيمًا للتخاطب معهن وهنَّ داخل بيت النبي فقط، أمّا خروجهن للأماكن العامة فلم يكن فيه تشريعٌ يميزهنّ عن باقي المؤمنات، وإلا فلا معنى أن يطلب الله منهن أن يُدنين عليهن مِن جلابيبهن وهُن وراء حجاب أو سجيناتٌ في بيوتهن. نلاحظ أيضًا أن الآية تخاطِب النبيَّ باللفظ النبوي وليس الرسالي، وهذا ينسجم تمامًا مع ذِكْر نسائه ومع ذِكْر الجلابيب، فخطابُ النبي ونسائه خطابٌ مرتبطٌ بالزمان والمكان وليس أمرًا من الله من خلال "الرسول" للناس والنساء في كل زمان ومكان. ما يؤكد هذا التأويلَ هو أن الجلابيب هي ملابسُ عربية صحراوية فرضتها البيئة الرملية الحارة، وهي لباس الرجل ولباس المرأة في الصحراء إلى اليوم. والمرأة كانت تضع طرحة على شَعرها للزينة ولتغطيته من الغبار وغيره كما كان الرجل العربي وما زال يضع عمامة تطورت اليوم إلى "عقال" على رأسه، إذ إن ما يُعرَف بالزي القومي أو التراثي غالبًا ما تمليه البيئة والمناخ وطبيعة الحياة والحركة اليومية، وفي ذلك يشترك الذكور والإناث في تقارب الزي القومي في كل زمان ومكان.

من هنا نقول إن المولى -عز وجل- لا يَجهل أن بقية نساء العالمين أصلاً لا يرتدين جلابيبَ في مناخات وبيئات غير صحراوية، فكيف يُدنين عليهن من جلابيبهن؟ الإجابة هي أن الآية لا تخص إلا نساءَ النبي والمؤمنات في مكانهن وزمانهن مع النبي "وليس الرسول". ومضت الآية تشرح الحكمة من إطالة الجلباب، وهي للتقليل من احتمال المضايقة ـ والتربص بهنَّ ـ التي سادت في المدينة في فترة من الفترات خاصةً من بعض اليهود. ولا بد من ملاحظة أن الأمر لم يحدد إلى أيِّ مدى يُدْنِين عليهن من جلابيبهن إذ إن هذا متروك للفرد والظرف والزمان، وهو ما يعرف بـ "المعروف"، إنما وضّح الحكمة من هذا الأمر وهي إعطاء صورة ومظهر يقلل من تعرضهن للأذى في ذلك الزمان وذلك المكان. وانتهت الآية أيضًا بأن الله غفورٌ رحيمٌ، بمعنى أن الأمر ليس أمرَ تشريعٍ مَن تَرَكه فالله عزيز ذو انتقام، وإنما إرشاد لسلوك يوفر لهن حماية من المضايقة.

وبحمد الله وتوفيقه فقدْ لاحظنا في نظرية " آذان الأنعام " أن نهاياتِ الآياتِ غالبًا ما تحمل مفتاحًا يكشف بعض أسرارها، فكان أن لاحظنا فظاعة الغضب الإلهي من الصيد أثناء الإحرام:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ <u>وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ</u> (95)} المائدة.

فخلصنا إلى أن الغضبَ ليس في الصيد نفسه وإنما في تقليد شِرك الإنسان الأول بعد أن أُنزلت له الأنعام وحُرِّم عليه افتراس الوحوش، وكانت ملاحظة فظاعة التحذير مفتاحًا لمعرفة هوْلِ المَنهي عنه. هنا نلاحظ العكس تمامًا، فحينما تنتهي الآية بالتعبير عن رحمة الله وغفرانه فغالبًا هي تعطي نصائحَ وإرشاداتٍ عامةً مَن أخَذ بها استفاد في حياته اليومية ومَن غَفَل عنها فالله غفور رحيم؛ لأنها <u>ليست</u> من الأحكام أو التشريع، وإنما هي لتنظيم حياة الفرد لا غير.

إذن، ما يمكن أخذُه من الآية هو أن الله يَحُثُّ على اللباس المحتشم الساتر وفقا لِمَا تعارف عليه المجتمع في الزمان والمكان المحدد، وفي بيئة النبي وزمانه كانت الجلابيب هي اللباسَ البيئي والقومي، لكنه لم يأمر نساءَ العالمين أن يرتدين جلابيب في كل مكان. والقصد في النهاية هو تجنب المضايقة والأذى وليس إظهار المرأة في صورة تتنافى مع فطرتها التي فطرها الله عليها وهي حُب الزينة والحلية:

{أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18)} الزخرف.

نلاحظ من مجمل هذه الآيات أن الله جعل زينة وجَمالَ المرأة، وحبَّها للزينة والحلية سواءٌ أ وُجِدَ حولها رجالٌ أم لا، قرآنًا يُتلى، ولِمَ لا؟ فهو جميلٌ يحب الجمال وهو بديع السموات والأرض الذي أبدع كلَّ شيءٍ خلقه، وهو يحب الإبداعَ مِن عباده، وما الضوابط الاجتماعية في المعاملات بين الذكور والإناث في القرآن إلا ضوابط للمصلحة العامة، تمامًا كما وُضِعت ضوابطُ في اقتناء المال وفي أوجُه صرفِه وفي الحصول على القوة وأوجُهِ استعمالِها، وجمالُ الأنوثةِ ليس عيبًا والاحتفال به ليس ضد الدين في شيء، وما داء الهوس مِن كل ما ارتُبط بالأنثى وزينتِها اليوم إلا نتاج استفحال "فقه الكلب" القديم الذي يبدو أنه أدَّى ببعضهم اليوم لبعض أعراض "السُّعَار"؛ فقدْ قرأتُ مقالاً قبل فترةٍ لشيخٍ يقول فيه إن بعض أسماء البنات هذه الأيام لا تجوز لأنها مثيرة للشهوة! وسَمِعنا أحدَهم يحرِّم ما أحل الله للنساء وهو إبداء "الزينة الثانية" المذكورة في آية سورة النور أعلاه فقال "إنْ كانت الفتاة جميلةً فعليها أن تتحجب أمام أبيها وإخوانها خوفًا من الفتنة"، ولهؤلاء أقول إن الأصح والأصوب هو أن "الذَّكَر" الذي تثير شهوتَه الحيوانية أختُه أو أمُّه أو ابنتُه، حتى وإنْ كانت عارية تمامًا، فعليه عَرْضُ نفسِه على طبيب أمراض نفسية أولاً، أو على طبيب أمراض عقلية ثانيًا، أو يَعرضه أهلُه على "طبيب بيطري" حسْبَ شدة الأعراض. لكنَّ الرجُلَ السويَّ يمكن أن يرى "الجمالَ" و"الزينة" و"الحلية" وليس "الشهوة" في أختِه وابنتِه وأمِّه وليس في ذلك عيبٌ لا فيها ولا فيه، وليس مِن حق كائنٍ مَن كان أن يحرِم الأنثى أن تكون أنثى بكل مقومات الأنوثة الفطرية مِن رغبة في الزينة ورغبة في تنوعها ورغبة في إظهار ما أباحه الله لها مِن زينتها وجمالها.

وهذا يقودنا لمناقشة آية تلخص الحياةَ الاجتماعية في مجتمع النبي لا يتحدث عنها فقهاءُ "فقه الكلب" أبدًا، ويود بعضهم لو لم تنزل:

{لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ **<u>وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ</u>** إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (52)} الأحزاب.

نلاحظ أن الخطابَ هنا كان موجهًا للنبي -صلى الله عليه وسلم- بعد أن أحل الله له ما أحل مِن نساء في الزواج، ثم جاء وقت قفل الباب. ما يهمنا أن الله لا يذكر حرفًا بلا داعٍ. وجملة "**.... وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ....**" تعني أن النبيَّ كان يرى عموم النساء، وأنهن على الأقل كُنَّ غيرَ منتقباتٍ بما يسمى النقاب اليوم، لأنه لا حُسن فيه ولا يُظهر حُسنَ مَن تحته، وأنهن كنّ يُظهرن قدْرًا مِن محاسنهن في حضرة النبي-صلى الله عليه وسلم-، وأن النبي كان يرى ذلك ويعجبه في بعضهن ما يعجب أيَّ رجُلٍ في أيِّ امرأةٍ تلفت نظرَه. إذن، الآية تحرِّم على النبي الزواجَ بعد ذلك التاريخ لكنها تصف تعايشًا طبيعيًا بين النبي والنساء في زمانه وبيئته ومسجده مما يُسقِط كل فرضيات "غض البصر" وفرضيات "النقاب" اليهودي و"الحجاب" الوهمي وما يسمى "الزي الإسلامي" اليوم. ولا بد أن ننتبه أن الآية نزلت متأخرة وليست مبكرة لأن النبي بعدها لم يتزوج.

مما سبق نحتاج لنظرةٍ سريعةٍ للمقاصد العامة للشريعة الإسلامية والتي لا ترسم إلا مبادئَ عامة تعكس ما في القلب والنية وليس النصوص الجامدة أو الشكل والمظهر:

{قُلِ ادْعُوا **اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ** أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (110)} الإسراء.

ولقد ناقشنا مدلولَ "الرحمن" في باب "علوم القرآن" وقلنا إنه اسمٌ اختَصَّ اللهُ به نفسَه بأيِّ لغةٍ نُطق المعنى، طالما كان يفيد التواصلَ الحتمي بين الموجِد والمَوْجودات، وعليه فإن الدعاءَ نفسَه لا يشترط فيه تسمية الله.

{وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)} البقرة.

وهنا قلنا إن التوجه نحو القِبلة ليس إلا رمزًا لا يزيد التقوى والقُرب مِن الله ولا يقلله الجهل بها.

{لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)} الحج.

وهنا قلنا إن العباداتِ بأشكالها لن تنال اللهَ، لكن يناله التقوى منا وليس الشكليات.

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)} آل عمران.

وهكذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليِّنًا رقيقَ القلبِ، والحياة معه بسيطة والتعامل معه أبسط ويخلو من الرسميات والشكليات مما حَبَّب الناسَ فيه وجمعهم حوله.

خلاصة القول في موضوع المَظهر: هذه ليست دعوةَ تَحَلُّلٍ كما سيتوهم البعض، وإنما دعوةٌ لتأصيل المصطلحات وعدم تحميل الشرع ما لم يشرع، فالمَظاهِر لم تكن جزءًا من الدين في شيء زمنَ النبي-صلى الله عليه وسلم-، ولم يكن هناك مصطلحٌ اسمه "الزي الإسلامي" لا للرجل ولا للمرأة، وإنما أرْسَى القرآن ضوابطَ عامة ضرب مثالاً لها من بيئة النبي ووضَّحَ الحكمة منها، وهي الحشمة وفقًا لِمَا تعارف عليه الناس، وبالمقدار الذي يحولُ بين المرأة والمضايقة لا أكثر. وعليه فكل التسميات القديمة والحديثة لِما يلبسه المسلِم أو المسلِمة ليست إلا من إنتاج "فقه الكلب"، والأمرُ ماضٍ في استفحالٍ، إذ إننا كلما اتخذنا القرآن مهجورًا زاد لدينا التشدق بالمظاهر لدرجة أصبحنا لا نرى آياتِ الله الكونية حولنا إلا إذا ظهر ما يشبه اسم الله في ثمار الطماطم أو البطيخ فنكبِّر الله، وكأن الكونَ خالٍ من الآيات. في هذه الجاهلية التي تتوق إلى عبادة "الأوثان" تصورنا مجتمعَ النبي بملابسَ ومظاهِرَ نتوهم أنها مِن الدين، ناسين أو متناسين أن أبا لهبٍ كان عمَّ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- ولا بد أنه كان بينهما تشابُهًا في الملامح ككل الأرحام وأنه كان كريمًا عزيزًا في قومه، وكان لا يَخرج إلا وعلى رأسه عمامة، وله لحية كثة كلحية كل العرب تفوح منه أطيبُ العطور ولا يختلف عن المؤمنين إلا ما في قلبه من شِرك وكراهية للإسلام. ولم يثبت لدينا أبدًا أن "حمَّالة الحطب" كانت تَخرج بكعبٍ عالٍ و"ميني جوب" وتضع "أحمر شفايف"، ليس إلا لأن هذه الزينة لم تكن مِن ثقافة قومها، وأنها كانت تلبس ما كانت تلبسه سائر نساء العرب الحرائر مؤمنات أو مشركات، وأن كُفرَها كان في قلبها وليس في ملابسها.

رضاع الكبير في "فقه الكلب":

ظهرت في وسائل الإعلام فتوى قبل فترة وجيزة من أحد الشيوخ ينصح فيها الموظفاتِ اللائي يَجمعهن العملُ بذكورٍ في حالات خلوة، بالأخذ بفتوى إرضاع الكبير حتى يحرَّم عليها ويزول الحرج. وظن كثيرون أن الشيخَ مبتدِعٌ، لكنهم لم يعلموا أنه فقط أعماه الله بفقه الكلب وأعماه عن سُنَّة اللهِ في الكون فدَانَ بدين سُنّة النبيِّ المزيفة ونَقَل بلا عقل مِن صحيح مسلِم ما يلي:

روي مسلِمٌ في كتاب الرضاع تحت عنوان: "رضاعة الكبير" رقم 1453 ما يلي:

حدَّثنا عمرو الناقد وابن أبي عمر. قالا: حدَّثنا سفيان بن عيينة، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة، قالت: جاءت سهلة بنت سهيل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله، إني أرى في وجه أبي حذيفة مِن دخول سالم - وهو حليفُه-. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- : "أرضعيه" قالت وكيف أرضعه؟ وهو رجُلٌ كبير. فتبسَّمَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- و قال: "قد علمت أنه رجل كبير".

بطبيعة الحال فالرواية ملفَّقة ليس على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فحسْب، وإنما اختاروا لها عائشة لتحمل وزرَها كجزءٍ من حملة تحطيم صورتها كما ناقشنا في باب " وقولهم على عائشة بهتانًا عظيمًا". وهنا لا نحتاج لأن نسأل عن سند الحديث "شهادة الميلاد" وإنما فقط نُسقِطُها بالعقل والفطرة بعد الإطلاع على المتن "المولود" إذ إنه مولودٌ غيرُ شرعيٍّ صُنِع له نَسبٌ وشهادة ميلاد مزورةٌ ليجد مكانه في كتب الصحاح المقدسة. تحتاج فقط أن تتصور عدد العاملات في مكاتبَ مختلطةٍ من مستشفياتٍ ومدارسٍ وشركات ومكاتِبِ دولةٍ وخطوط طيران و

و و و و، ولك أن تتصور أن كل هؤلاء المسلماتِ يُخرِجْنَ أثداءَهن ليُرْضِعْنَ زملاءَ العمل والمهنة حتى يجتنبون جميعا ما يسمى بالخلوة المحرمة! هل يمكن أن تتصور سخرية من النبي الكريم أكبر مِن هذه؟

على أن الفكرةَ ليست إلا "وتس آب" لو عرضناها على حد القرآن البتَّار، إذ إنها تقوم على مفهوم تحريم الإخوّة مِن الرضاعة. لكن لأن مَن زوَّرَ الرواية ونَسَبها للنبي من خلال عائشة لم يفهم مضمون الرضاعة فقد وَقَع في شر عمله. وهنا أنقل رأيًا للدكتور مهندس محمد شحرور في الفَرْق بين "التمام" و"الكمال" كما ورد في التنزيل : التمام هو فعل الشيء دون انقطاع مثال:

{وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187(} البقرة.

أي أن الصوم من الفجر إلى الليل باستمرارية وبدون انقطاع. وقوله: {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27)} القصص، أي استمرارية التأجير من الثمانية إلى العشرة بدون انقطاع، وكذلك: { وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المُفْسِدِينَ (142)} الأعراف.
أمّا "الكمال" فهو إنهاء الفعل مع انقطاعٍ على مراحلَ، مثال:{اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3) المائدة.

فالإسلام بدأ بنوح وخُتِمَ بمحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين، وهناك فترات انقطاع بين الرسل. أما نعمة رب العالمين فلا تنقطع لذا قال { وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}، وفي في الحج من يأثم عليه صيام {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ (196)} البقرة.

أي بالضرورة هناك انقطاعٌ بين الثلاثة والعشرة . ومن يفطر في رمضان عدة أيام عليه أن يصومها بعد رمضان لذا قال {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)} البقرة. فالصائم يفطر يوم العيد على الأقل ليحصل انقطاع.

وذكر التمام والكمال في آية واحدة حين قال: {وَالوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ **حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ** لِمَنْ أَرَادَ أَنْ **يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** وَعَلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233)} البقرة.

وهذا يفيد أن عملية الرضاع متقطّعةٌ بالضرورة خلال حولَيْن كاملين. وعندما يبلغ الرضيعُ سنتين فإن الرضاعة تتم. مما يعني أن إرضاع الكبير هراءٌ لأنه بعد بلوغ السنتين، مهما رضع الطفل فهذا الرضاع لا يبنى عليه أي حرمة، أي أنه لا يعني أيَّ شيء لأن الرضاع تم في سنتين.

مما سبق نستنبط أن الرضاع الذي تتبعه الحرمة وتترتب عليه الأخوة في الرضاع **يتم** في حولَيْن. أي رضاعٍ بعدَه لن تكون له قيمة شرعية أكثر مِن شرب لبن البقر للكبار. وهذا ناتج من أن تحريم الأخوة في الرضاعة مرتبط بفترة تكون وتخلق الأعضاء التناسلية للطفل أو الطفلة في الفترة التي يتغذيان حصريًا فيها من لبن الأم. ما بعد الحولين فإن الطفل يأكل الطعام العادي ويشرب اللبن من مصادرَ أخري ويصبح بيولوجيًا في عداد الكبار، وعليه فإن إرضاعه لن يجعله أخًا للرضاعة لأبناء المرضعة وبناتها. من هنا يمكننا أن نستنج أن مَن وَضَع الحديث أعلاه قد وضعه في فترة متأخرة بعد أن خاض الفقهاء فيما لا يفهمون الحكمة من ورائه لأنها تقوم على حقيقةٍ بيولوجيةٍ، فَشَطح بعضهم في تعميم الرضاع ثم سارع آخرون فصنعوا لهم حديثًا يرجِّح فتواهم. وهنا ربما لا ألوم الكذاب إلا على كذبه لأنه وضع حديثًا مرتبطًا بفردٍ واحدٍ في زمنٍ وبيئةٍ لم يكن الاختلاط والخلوة فيها من

الظواهر اليومية، فَمَرَّ كذبُه بهدوءٍ، لكني أضع كل اللوم على غباء مَن يُفتي بفقه الكلب هذا اليوم ولا يخطر في باله العدد المهول من عمليات إرضاع الكبير في مدينة كالقاهرة أو الدار البيضاء أو الخرطوم أو دُبي لو تُرك وهْمُ تطبيق الشريعة الإسلامية لأمثال هؤلاء. يا لِهَوْلِ "فقهِ الكلب" الذي طمس كل حدود الله بعد أن اتخذ المسلمون القرآن مهجورًا.

حـــدود الله في "فقه الكلب":

لو سألتَ ألفَ مسلمٍ، أو مليونَ مسلمٍ أو مليارَ مسلمٍ عن تعريف "تطبيق الشريعة الإسلامية" ستجد الغالبية العظمى تبدأ بالحديث عن "تطبيق حدود الله". كلامٌ جميلٌ جدًا. ولو سألتَ المليار ونصف مليار مسلِم على وجه هذا الكوكب التعيس عن تعريف "حدود الله" ستكون الإجابة غالبًا هكذا، مُرَتِّبين "حدود الله" "حدًا" "حدًا":

حد السرقة: وهو قطع اليد.

حد الزنا: وهو الجَلْد مئة جَلْدة لغير المحصن، وحد الرجم للمحصن.

حد الخمر: وهو ثمانون جَلْدة.

وحد الحرابة: وهو القتل أو القطع مِن خلاف، أو الصلب أو النفي من الأرض.

حد الردة: وهو القتل.

قد يَحارُ بعض القراء مما أرمي إليه لأن ما سبق يبدو أوضحَ ما يكون وهو القدْر الأدنى من العلم الشرعي الذي يكاد يعرفه كل المسلمين، بل وجعلناه معروفًا لكل العالم أن هذه هي الشريعة الإسلامية التي ننادي بها ونموت من أجل تطبيقها. وهكذا يتجلى "فقه الكلب" في أبشع صوره خاصة إذا حسبنا كَمْ عدد الأنفس التي أُزْهِقت تحت الحروب الأهلية في أفغانستان والصومال والسودان ونيجيريا من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية أعلاه، بل كَمْ مِن المسلمين نَحَر نفسَه ونَحَر معه العشراتِ في موضة العمليات الانتحارية في سبيل إقامة دولة الخلافة الإسلامية وتطبيق "حدود الله" في الأرض.

لكن: لو أعطينا فقط الـ 350 مليون عربي – نترك المسلمين غيرَ العرب - نسخةً من القرآن (ولفظ "نسخة" هنا أرجو أن يفهم الآن بمعناه الصحيح وهو صورة طبق الأصل وليس حسب الخطل في "علم الماسخ والممسوخ" الذي أوهموا به الناس أنه يعني التبديل)، لو أعطيناهم نسخة من القرآن وطلبنا منهم أن يأتونا بآيةٍ واحدةٍ ورد فيها "حـــد" بصيغة المفرد، من "حدود الله" لَمَا أتوْا بها ولو استعانوا بمعشر الجن وكان بعضهم لبعض ظهيرًا، ذلك لأن ما يسمى بالحدود الشرعية أعلاه ليس إلا من إنتاج مؤسسة ابن سلول لصناعة الأديان بعد أن اطمأنت إلى أن هؤلاء القوم ليسوا إلا كالأنعام بل هُم أضل سبيلاً.

لم يَرِدْ في القرآن أبدًا أبدًا لفظ "حـــد الله" بصيغة المفرد، وإنما وَرَدَ مركّب "حدود الله" هكذا:

عشرَ مرات بصيغة "حدود الله"، و مرةً واحدة بصيغة: "حدوده" والضمير راجع لله. ومرة واحدة بصيغة: "حدود ما أنزل الله". هذه ليست المفاجأة وإنما ليس بين كل هذه الآيات وما يُظَن أنه الشريعة الإسلامية أعلاه أدنى علاقة. ما سبق هو حدود الله في "فقه الكلب"، وهو الفقه الذي قام على الأهواء الشخصية والتلاعب المقصود بالمصطلح القرآني وتشرَّبَته الأمة سُمًّا زعافًا. أمّا في القرآن، أحسن الحديث، فقد ورد ذِكْر "حدود الله" في هذه الآيات فقط:

في آيات الطلاق في سورة البقرة ورد المركّب 6 مرات في آيتين مِن بضعة سطور:

{**الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ** فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا **حُدُودَ اللَّهِ** فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا **حُدُودَ اللَّهِ** فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ **حُدُودُ اللَّهِ** فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ

حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا **حُدُودَ اللَّهِ** وَتِلْكَ **حُدُودُ اللَّهِ** يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (230)} البقرة.

وورد مرة واحدة مع تحريم المعاشرة أثناء الاعتكاف في سورة البقرة:

{وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ** فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187) } البقرة.

ثم ورد مرتين في آيات "الميراث" في سورة النساء:

{وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12) **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ** وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (13) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ **وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا** وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (14)} النساء.

و ورد مرة واحدة في سورة التحريم في آيات الظهار:

{ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ **وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ** وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4)} المجادلة.

و ورد مرة واحدة في تصنيف الفائزين المؤمنين من كل القرون:

{التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ **لِحُدُودِ اللَّهِ** وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112)} التوبة.

أمَّا الأعراب فهُم أشد كفرًا ونفاقًا وأجدر ألا يعلموها:

{الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا **حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ** عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97)} التوبة.

لم ترد "حدود الله" على الإطلاق في القرآن في غير هذه المواضع. وعليه فإن أي روايةٍ منسوبة لرسول الله أو أصحابه المؤمنين وفيها مصطلح "حد من حدود الله" بصيغة المفرد أو وصفت عقوبة بأنها "عقوبة حدية" فهي رواية مكذوبة "واتس آب" تمت صناعتُها بعدما تعدَّى المسلمون كلَّ "حدود الله" في الطلاق والمعاشرة والميراث والظهار، ثم تم استبدال المفهوم بالعقوبات في القرآن فأسموها "عقوبات حدية" ثم تحولت تلك "الحدود " الوهمية إلى "حدود فردية" ففصل "فقه الكلب" فيما يسمى "حد السرقة" و"حد الزنا" و "حد الحرابة"، لذلك لا تستغرب من بقاء "حد الرجم" أكثر من ألف عام في أذهان أمة أضل مِن الأنعام.

فعقوبة السرقة وردت هكذا:

{وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (39)} المائدة.

نلاحظ هنا أنه لا وجود للفظ حَدٍّ مِن حدود الله مع مقارنة تكرار مركَّب "حدود الله" ست مرات في آيتَيْ الطلاق. ولقد ناقشنا آية جَلْدِ الزاني وعَرَفنا ما هو الزنا وأسقطنا الآية الوهمية التي اسمُها آية "حد الرجم" في باب "وقولهم على عائشة بهتانًا عظيمًا". إذن، لا يوجد شيء اسمه "حـــد" بصيغة المفرد في القرآن فضلاً عن أن مركَّب "حدود الله" لا علاقة له بالعقوبات، ولا يوجد رجم أصلاً.

أمّا ما هي عقوبة الحِرَابة فقد وردت في هذا الآية:

{إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33)} المائدة.

نلاحظ أن كلَّ هذه عقوباتٌ لجرائمَ معينةٍ لا تحمل اسم "حـد" وليس بينها قاسمٌ مشتركٌ ولم تأتِ مرتبطة بأن هذا شرع الله أو حدوده. لكن مِن مفاجآت "فقه الكلب" أنه جعل مِن الإسلام تمثالاً أشبهَ بأبي الهوْل: رأسه رأس إنسان وجسمه جسم أسد، فقدْ جعلوا بلايين المسلمين يظنون أن "حدود الله" هي مجموعة العقوبات المنصوص عليها في القرآن، وفي هذا الظلام البهيم مِن الجهل التام بـ "حدود الله" الحقيقية فقد تعداها كل المسلمين - إلا مَن رَحِمَ ربُّك - وتعدتها كل المدارس الفقهية بل وأسست على تعدي كل "حدود الله" دينًا بأكمله، وتعدتها مجالس إسلامية ومنظمات وجامعات إسلامية على مدى مئات السنين لأنهم أُشْرِبوا في قلوبهم "فقه الكلب" وعَصَوْا الرسولَ في اتِّباع وهْمٍ أسموه لهم "سُنَّة النبي". ولعل "حـد الردة" لَهُوَ مِن أخطر ما يُفْهَم خطأً على أنه حد مِن حدود الله اليوم، حيث أصبح جَزُّ الرؤوس وهدم البيوت فوق رؤوس ساكنيها وتفجير المساجد والأسواق مِن يوميات أمة "اقــرأ" التي أصبحت لا تَقرأ ولا تفهم ما يُقرَأ لها.

حـد الردة:

مِن المفيد هنا أن أطرح سؤالاً بسيطًا حتى يستطيع القارئ التمييزَ بين "المفرد" و"الجمع" في مركّب "حدود الله". لو سألتَ نفسك سؤالاً: " ما هو حد المغرب"، أو "حد الجزائر"، أو "حد تونس" أو "حد السودان"؟ ألا ترى السؤال ساذجًا؟ لأن اللفظ لا يفرد وإنما الصحيح أن تسأل عن: "حدود المغرب" و "حدود مصر" و"حدود السودان" وهكذا؟؟ ألم أقُلْ إنها حرب المصطلح؟ وقال الله إنهم فقط يحرِّفون الكلمَ عن مواضعه، ومِن بعد مواضعه؟

ولقد أسقطنا وهْمَ ما يسمى بحد الردة في باب "خير القرون" مع مناقشة تزوير حروب الردة المنسوبة لأبي بكر الصدِّيق والتي لم تَظهر في التاريخ إلا حينما ذَكَرها الطبري في تاريخه رواية عن عبد الله بن سبأ شخصيًا.

إلى هنا وبعد هذه الصدمة بطبيعة الحال نحتاج أن نفهم ما هي "حدود الله" إذن. وما علاقتها بالطلاق والميراث والظهار؟ لنأخذ فكرةً مبسطة عن هذا الموضوع نحتاج لمزيد من الفضح لـ "فـقه الكلب".

الطلاق في "فقه الكلب":

إنَّ الأهواءَ والميول الشخصية، وربما المعطيات البيئية، أفرزت فتاوى قديمة، ربما صلحت لزمانها، لكنها لا تصلح لكل الأزمان؛ ولكن الانحطاط الفكري والجمود الفقهي الذي أصاب الأمة بعد أن تم تقديس "خير القرون" جعلنا نتجرع كؤوسَ الألم بما فرض علينا من فقهٍ قديم عقيم ما زدناه إلا تعقيدًا. ولعل مشكلة الزواج والطلاق لَهِيَ مِن أخطر المشاكل الاجتماعية التي يغُض الفقهاءُ عنها الطرفَ ولا يقدمون لها إلا حلولاً كسيحة؛ لأنهم يستمدون أفكارَهم من "فقه الكلب" الموروث في هذا المجال. ولعل مِن أخطر المقولات المنسوبة للنبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا المجال، والتي يُسقِطُها القرآن من غير البحث في سلسلة العنعنات التي وردت بها أو في كتب الصحاح التي أعطتها قدسية، هي مقولة " أبغض الحلال عند الله الطلاق". والرد الفطري لهذا القول هو "أن الله لا يبغض شيئًا أو حكمًا أحله وأنزل فيه آياتٍ تنظمُه". ولعل المقولة من إنتاج "مؤسسة ابن سبأ" لصناعة الأديان للتضييق على المسلمين في حياتهم الاجتماعية وتحويل حياة بعضهم إلى جحيم؛ فارتبط مع عامل الزمن الزواج عندنا بـ "البَكَارة" التي سرعان ما أصبحت هي كل الشرف الذي نموت من أجله بعد ما فقدنا الشرفَ في الفكر والعقل والعقيدة والدم والمال والأرض والعِرض، وأصبح لدينا عارٌ اسمه "مُطلَّقة". فلو نظرنا لسيرة السلف الصالح في زمن النبي، قبل ظهور أسلافٍ تابعةٍ لا تصلح، نجد أن الزواج والطلاق كانا مِن أسهل الأمور التي لا يتحدث عنها الناس كثيرًا لأنها أمرٌ شخصيٌّ، ولم يكن مجتمع النبي يعاني لا مشاكل زواج ولا طلاق؛ بل إن النبي -صلى الله عليه وسلم- نفسَه وهو أشرف الخلق جميعًا ما تزوج بكرًا إلا عائشة وللأسباب التي ناقشناها في باب

" وقولهم على عائشة بهتانًا عظيمًا"، بل إن أحبَّ نسائِه إليه كانت خديجة وقد عرف أنها كان لها زوجان قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- . أمّا القرآن فقد قفل هذا الشرف الوهمي بأن طلّقَ زيدا مِن زينبَ ثم زوَّجَها النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- بأمر من الله:

{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (37)} الأحزاب.

على أن ما أود مناقشتَه في هذه العجالة هو مفهوم الطلاق الذي أحله الله وجعله حلاً شرعيًّا لظرف قد يتعرض له الزوجان ولا ينقص من قدْر أيٍّ منهما شيئًا. وقد شاع بين المسلمين اليوم سوءُ فهْم "الطلاق مرتان" ثم أضافوا عليها الثالثة فأصبح الزوج يطلّق زوجتَه بثلاث كلمات "مرة واحدة".

لنتدبر الآياتِ التي تناولت موضوعَ الطلاق في القرآن:

{لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (226) وَإِنْ عَزَمُوا **الطَّلَاقَ** فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (227) و**الْمُطَلَّقَاتُ** يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228) **الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ** فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آَتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا **حُدُودَ اللَّهِ** فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا **حُدُودَ اللَّهِ** فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ **حُدُودُ اللَّهِ** فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ **حُدُودَ اللَّهِ** فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229) فَإِنْ **طَلَّقَهَا** فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ **طَلَّقَهَا** فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا **حُدُودَ اللَّهِ** وَتِلْكَ **حُدُودُ اللَّهِ** يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (230) وَإِذَا **طَلَّقْتُمُ** النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آَيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (231) وَإِذَا **طَلَّقْتُمُ** النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (232) وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ **ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ** فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آَتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233)} البقرة.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا **طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ** فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ **وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ** وَمَنْ **يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ** فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (1) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ **فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ** بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (5)} الطلاق.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ **طَلَّقْتُمُوهُنَّ** مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (49)} الأحزاب.

{و**لِلْمُطَلَّقَاتِ** مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (241)} البقرة.

موضوع الطلاق في القرآن كما يلاحظ القارئ شائكٌ جدًا ومعقّد وتتخلله آيات "حدود الله" التي أُخرجت مِن سياقها وفُكّكت لمفردات ما أنزل الله بها من سلطان فورثنا "حد الجَلد" و"حد القطع" وغيرَها مِن أوهام "فقه

الكلب". ولعل مِن أبرز إنجازات "فقه الكلب" في الطلاق هو العبث بلفظ "مرتان" الذي ورد في آيات الطلاق أعلاه:

{ **الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ** فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا **حُدُودَ اللَّهِ** فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا **حُدُودَ اللَّهِ** فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ **حُدُودُ اللَّهِ** فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ **حُدُودَ اللَّهِ** فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229) البقرة.

المتدبر لآيات الطلاق يلاحظ هذه الاصطلاحات القرآنية التي لن نتطرق لها جميعًا ولكن فقط نخرجها للعيان حتى نستنبط منها "حدود الله":

أولاً: "الطلاق مرتان".

ثانيًا: "الإيلاء" و"التربص".

ثالثًا: "الطلاق" و"العدة" و"الأجل".

رابعًا: "القُرء" و"الشهر".

خامسًا: "الفيء" و"الإمساك بمعروف" و"الأجل".

سادسًا: "الزوج" و"البعل".

سابعًا :"الفراق بمعروف" و"التسريح بإحسان".

لقد شاع في كلِّ مكانٍ أن الزوجَ يَحِق له أن "يَرمي" كلمة الطلاق على زوجته متى شاء وتصبح نافذة. ولو كررها "مرتين" تبقى لها "كلمة" أخيرة هو قائلها، فإن قالها أصبح "طلاقًا بالثلاث" وانتهت المؤسسة الزوجية هكذا وبكل بساطة. وهذا كله ناتج من "فقه الكلب" الذي أساء مفهوم "الطلاق مرتان".

لنراجع الخطل الفقهي أولاً: لنفترض أن "مرتان" هذه تَعني أن يتفوَّهَ بــ "كلمة" الطلاق مرتين، نفترض ذلك من باب الجدل، فهل سيكون تكرار الطلقتَيْن حقيقةً تكرارًا أم وهْـمًا؟ حتى نلاحظ الوهْم لنستبدل لفظ "طالق" بلفظ "طلق ناري". تخيَّلْ أن أحدَهم أطلقَ طلقًا ناريًا قاتلاً على زوجته فسقطت ميتةً من الطلقة الأولى، فهل ستسقط ميتة مرةً أخرى إذا أردف على جثتها طلقة ثانية أو عاشرةً؟ إذا وقع الموت من الطلقة الأولى فلا قيمة لأيِّ عددٍ من الطلقات التالية؛ لأنها ستصيب جثة ولا يموت الإنسان مرتين.

بالمنطق ذاته: فإنْ كان "فقه الكلب" قد فَهِمَ أن "مرتان" تعني "طالق طالق" وكل منهما تفيد "طلقة" فإنه بعد الطلقة الثالثة لن تحل له إلا أن تنكح زوجًا غيره (وهناك الكثير من التيوس الذين يقومون بهذه المهمة لأن "فقه الكلب" في هذا المجال أصلاً إنتاج أنعام). لو افترضنا أن كلمة "طالق" تفي بالحكم الشرعي وتصبح الزوجة طالقًا بمجرد النطق بالكلمة، فلا يعقل أن يطلق طليقته بتكرار الكلمة مرتين، هذا منتهى الخطل. وعليه فلا يوجد شيءٌ اسمه "طالق بالثلاث" لأنه لو أن "الطلقة" الأولى نفذت فلا معنى لأن يطلق الرجلُ امرأة ليست زوجتَه بإرداف طلقةٍ ثانيةٍ عليها. إنّ المرأةَ ليست سلعة اشتراها بمالِه ويرميها في سلة المهملات متى شاء بالجمع بين كلمةٍ واحدةٍ ثلاث مرات. هذا هو عين تعدي "حدود الله" التي طمسوها عن عمدٍ وقد وصفها الله بالميثاق الغليظ :

{وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ **وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا** (21)} النساء.

"الطلاق مرتان" تعني أن الزوجيْن مِن حقهما الزواج والطلاق بكل خطواته؛ هذه مرة، ثم يمكنهما الزواج من جديد والطلاق مرة أخرى متَّبعيْن كلَّ حدودِ الله في الحقوق والواجبات، ثم يمكن أن يتزوجا، لكن لو فشل الزواج بعد المرة الثانية فلا طلاقَ ثالثًا، وإنما هو "فراق" لا عودة بعدَه إلا إذا تزوجت زوجًا غيره برغبةٍ طبيعيةٍ وحدث بينهما فشلٌ أدى إلى الطلاق من الزوج الجديد، حينها فقط تحلُّ لزوجها الأول. مِن هنا نفهم أنه سواءٌ أقال الزوج

أنتِ طالق مرةً أو عشر مرات فهذا ليس المقصود في الآية؛ لأنه كي تكتمل عملية الطلاق لا بد أن تستوفي "حدود الله" لتكون طلاقًا شرعيًا في كل مرة.

وكما قلنا سابقًا فإن مفهوم "الحدود" يعني الإطار العام الذي فيه نقاطٌ كثيرةٌ متعددةٌ داخله لكن له نهاية لا يجب تعديها. وترتيل القرآن في هذا السياق يتطلب تدبر آيات سورة البقرة في الطلاق حتى تتكامل مع آيات سورة الطلاق، ومِن هذه الآيات مجتمعة يمكن تحديد "حدود الله" في الطلاق وأدناها ثلاثة حدود، لأن لفظ "حدود" لفظٌ جَمَع في اللغة العربية وأقل الجمع ثلاثة، لكن يمكن أن يكون أكثرَ مِن ثلاثة. وبتتبع الآيات نرى أن حدود الله في الطلاق قِسمان بيّنان هُما:

أولاً: الحدود الخاصة بإحصاء العِدة.
ثانيًا: الحدود الخاصة ببلوغ الأجل.

"حدود الله" الخاصة بإحصاء عِدة الطلاق:

أولاً:
الحصول الفعلي للطلاق بدلالة ورود الأداة "إذا" التي تفيد أن الفعل بعدها لا بد أن يحدث، { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ **إِذَا** طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ1} الطلاق. فالآية لم تبدأ بـ "إنْ طلقتم النساء" إذ إنّ "إنْ" تفيد الاحتمالَ في حدوث الفعل بعدها، لكن النص يفيد وجوب الحدود "إذا" تم الطلاق.

ثانيًا: مدة الطلاق هي "العِدة" حتى نهايتها بدلالة "اللام "في: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} ولم يَقُل القرآن "فطلقوهن **في** عدتهن"، و"العِدة" هي فترة التربّص، أي الترقب لوجود حمْلٍ مِن عدمه. وتنتهي العِـدة بالأجل، ويعني نهاية فترة التربّص. و"العِدة" و"الأجل" يتطابقان إلا في حالتين: حالة المرأة الحامل حيث تنقضي العِدة مع نهاية الحمْل سواءٌ تمّ قبل العِدة المنصوص عليها بثلاثة شهورٍ أو بثلاثة قروء، أو بعدَها إنْ كان الحمل ما زال في بدايته. من هنا نفهم أن عملية الطلاق لا تكتمل إلا باستيفاء حدودها المتغيرة وهي انتهاء العِدة لأجلها حسْبَ ظروف الزوجة. ولا يتم الطلاق في العِدة وإنما بعد اكتمال أجلها.

ثالثًا: إحصاء العِدة: نلاحظ أن الله فَرَض لفظ "الإحصاء" ليفيد الحسابَ الدقيق في مراعاة هذا الحدّ الذي أهملناه مع أنه مِن "حدود الله" التي لا ينبغي لنا أن نتعدّاها: {وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ} .وإحصاء العِدة يكون بـ "القُرء" للمرأة الحامل والمرأة التي في طور المحيض: { وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} 228 البقرة.

و"القُرء" هو فترة الإباضة، أيْ أن يمرّ عليها ثلاث دوراتٍ شهرية، إذ إن فترة الإباضة تختلف مِن أنثى لأخرى، وهي فترة تربصٍ ومراقبةٍ لوجود حمْلٍ من عدمه. أمَّا المرأة التي تجاوزت سِنَّ المَحيض أو التي لم تَحِض أصلاً، ليس لأنها طفلة ولكن لعِلّةٍ مريضة، فإحصاء العِدة يكون بعدد ثلاثة شهور:

{وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ 4} الطلاق.

رابعًا: تقوى الله من الحدود وتطبق برعاية الزوجة رعاية تامة وعدم إخراجها من بيت الزوجية إلا إذا أتت بفاحشةٍ مبينةٍ، وليست شبهةً وفقَ مزاج الزوج وظنونه السيئة: {وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (1)} الطلاق.

حدود الله الخاصة ببلوغ الأجل:

أولاً: البلوغ الفعلي للأجل بدلالة "إذا" في: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ}، وبلوغ الأجل يعني انتهاءَ فترةِ العِدة لغير الحامل، أو وضع الحمْل للحامل كما أسلفنا.
ثانيًا: وفي لحظة بلوغ الأجل فالخيار يكون بين "الإمساك بمعروف" أو "الفراق بمعروف": {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}

والفراق هو نهاية العلاقة الزوجية، أمَّا مدلول "الإمساك" ففيه متَّسعٌ مِن التأويل إنْ كان لا يمكن الفراق من حيث المعيشة أو المسكن إلى أجل آخر.

ثالثًا: لا بد من إقامة الشهادة على كل ما يجري بينهما: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ }، لاحِظ الفرْقَ بين أشْهدوا: وتعني إدخالَ أطرافٍ خارجية في تفاصيلِ الاتفاق منذ بداية عملية الطلاق، وهؤلاء الذين أشهدوا عليهم إقامة الشهادة، أي الاستدعاء والإدلاء بشهادتهم أن الطلاقَ بدأ مِن يوم كذا وانتهت العِدة والأجل يوم كذا وتم الاتفاق على كذا.

المتدبر للآيات أعلاه في سورتَيْ البقرة والطلاق يمكنه أن يستنبط عددًا أكبر من "حدود الله" ويمكنه أن يستوعب لماذا جاءت "حدود الله" بصيغة الجمْع، إذ إن الطلاقَ عمليةٌ طويلةٌ، ولها تبعاتٌ اجتماعيةٌ وحقوقٌ وواجباتٌ على الطرفيْن، لكن الواضح أن "حدود الله" فيها كلها لحماية المرأة "مـلكة النحـل" مِن الظلم وأنها ضوابطُ واسعةٌ ومتعددةٌ التأويلات حتى تناسب كل الظروف المحتملة. وأضيف هنا آية أخرى يمكن استنباط المزيد من حدود الله منها وهي آية إدخال الحكام من أهلها وأهله قبل بدء الطلاق:

{وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا **حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا** إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (35)} النساء.

من كل ما سبق يمكن أن نخلص إلى حقيقتين:

الأولى: أنه لا شيء اسمُه "طالق بالثلاث" لأن الطلاق عمليةٌ طويلة المدى، ولها حدودٌ لا بد من استيفائها ليقع، وعليه فكلمة "طالق" حتى مرةٍ واحدةٍ لا معنى لها وفيها تعدٍ لحدود الله.

ثانيًا: أن "حدود الله" التي تكررت في آيات الطلاق لا علاقة لها مِن قريب أو بعيد بقوانين العقوبات في الإسلام، وإنما كان ذلك عبثًا للتعدي على "حدود الله" في الطلاق لقهر وظلم المرأة من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى لابتداع مصطلح "حد الردة" لتبرير إعدام الخصوم السياسيين في زمن السلاطين، والذي حوَّلَ المسلمين في آخر المطاف إلى وحوش يَقتل بعضُهم بعضًا بوهْم الارتداد عن الإسلام.

وحتى ألخص مفهومَ "الطلاق مرتان" والتمييز بين عملية "الطلاق" و"الفراق" وبينهما "حدود الله" المتعددة يمكن التدبر في هذا الترتيب ثم المخطط المرفق في آخر هذا الباب:

المرة الأولى:

الاتفاق على الطلاق بعد المشاورات، نهاية العِدة وإحصاء الأجل: إمّا الإمساك بمعروف، وإمّا الفراق بمعروف.

بعد فترة يراودهما الحنين ويعاد الزواج، فيفشل مرة أخرى.

المرة الثانية:

الاتفاق على الطلاق بعد المشاورات، نهاية العِدة وإحصاء الأجل: إمَا الإمساك بمعروف، وإما الفراق بمعروف.

بعد فترة يراودهما الحنين ويعاد الزواج، لكن يفشل للمرة الثانية:

الاتفاق على الطلاق بعد المشاورات، نهاية العِدة وإحصاء الأجل، وهنا يكون "الفراق" وليس "الطلاق"، وبعد الفراق إمّا الإمساك بمعروف، وإما التسريح بإحسان.

من هنا فقط نفهم أنه في العلاقة الزوجية وما قد يلازمها من خلافات فإن "الطلاق مرتان"، فإن لم يوفِّق اللهُ بينهما فإن النهاية اسمُها "الفراق" ولا توجد مرحلة طلاق ثالث. وعليه فإنه بعد "الفراق" فلا تَحِل له حتى تنكح زوجًا غيره.

القارئ الكريم: اسألْ نفسَك وأجِب بكل أمانة: هل تجد ما يسمى بالسُّنّة قد شرحت القرآن وفسرته؟ أم أنها قامت بتحريفه وطمست بساطته ويُسْرَه؟

"التـركــة" في "فقه الكلب":

{وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ **لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ** فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ **وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ** وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ **لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ** فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ **وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ** وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ **وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ** غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12) **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ** وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (13) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ **وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا** وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (14)} النساء.

أذكرُ أن صحافيًا إنجليزيًا مرموقًا كَتَب مقالاً في صحيفة بريطانية قبْل شهريْن في ردٍ على بعض الأصوات التي احتجت على إقدام الحكومة البريطانية اعتماد الشريعة الإسلامية مرجعًا قانونيًا يَحكم به القضاءُ في مسألة الميراث. وكان كل الاحتجاج مبنيا على آية {فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} التي روَّجَ لها "فقه الكلب" الذي لا يَعرف معظمُ المسلمين غيرَه. فكان مقاله قاتلاً إذ قال إنه رجع لآيات الميراث في القرآن فوجدها أكثرَ تفصيلاً من أي قانون، وما يميزها وهو ما غاب عن "فقه الكلب" هو ضرورة وجود "وصيةٍ مسبقةٍ" غير مقيدةٍ بتفاصيلَ، والرجوع إليها يسبق النظرَ في كل التفاصيل التي تتبعها.

ففي الآيات أعلاه نجد الله يصف توزيعَ التّركة في ظروفٍ متباينة، لكن في كل ظرف فإن التفاصيلَ لا تطبق إلا بعد مراجعة "الوصية" و"حلِّ الدَّيْن"، بمعنى أن المسلِم، ذَكَرًا كان أو أنثى مسئول عن ماله حيًّا وميتًا ينفقه كيف شاء. ويجب عليه تَرْك وصيةٍ، ومِن حقه أن يوصي بما شاء لمن شاء، لكن لا بد أن تحكمه قيم العدالة الإنسانية ومراعاة حاجة المحتاجين أولاً، والعدل لأن هذه "حدود الله" ومَن يتعداها فله نارُ جهنمَ خالدًا فيها. إذن، فالتحذير مغلَّظ مِن التلاعب بـ "حدود الله" في التّرْكة. أمَّا ما تجاهله "فقه الكلب" فهو أهم الحدود وهو الوصية. وتَدَخَّلَ الفقهاءُ بأهوائهم فحددوا الوصية بالثلث رغم أن الله تركها مفتوحة بحيث لو كان للميت بناتٌ أو أقاربٌ أو أيتامٌ يرعاهم وهُم فقراء بينما أولادُه أثرياء فعليه أن يراعي الحاجة وليس التساوي والمجاملة، لأن التساوي هنا فيه مَظلَمة. ولا تحديد في الوصية لا مِن حيث الأسماء ولا مِن حيث المقدار. ما تَبَقَّى بعد الوصية يوزَّع وفقَ التفاصيل في الآية. وقال الصحافي إن الوصية في الإسلام تختلف عن القانون البريطاني في أنها لا بد أن تكون عادلةً وترعاها أخلاقٌ دينيةٌ وتحذيرٌ من عذابٍ أليمٍ، بينما الوصية في القانون البريطاني وكل القوانين الغربية تسمح للمتوفى أن يترك كلَّ ثروتِه لكلب الجيران إنْ شاء. وخلص إلى أن العدلَ الإلهي الذي جعل الوصية وما فيها وما يتبعها "حدود الله" أكثرُ عدلاً من الوصية البريطانية التي لا حدود لها إلا الهوى.

لابد من ملاحظة أن مصطلح "**لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ**" و "**لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ** " لا تعني الذَّكَر وإنما المولود، فالله تعالى لم يلِد ولم يولَد ولم يكن له ولد، وهذا لا يعني احتمال أن يكون له بنت، وإنما "الولد" هنا يعني مولودًا أو ذرية، تمامًا كما نستعمل المصطلح في قِسم الولادة في المستشفيات إذ لا يوجد قِسم "للولادة" وقِسم "للبَنَاتَة"، إذ إن "الولد" هو كل مَن يولد، ذكَرًا كان أو أنثى، فلو كان ذكَرًا سُمِّي ولدًا مِن غير تخصيص؛ لأن اللغة العربية لا توجَد فيها علاماتُ تذكير، لكن لو كان المولود أنثى أعطيت صفة إضافية فسميت "بنتًا"، ولعل لفظ البنت قريب من المنبت على الأقل من حيث نوع الحروف.

يجب التنبيه إلى أن الوصية والتي غالبًا ما لا يهتم بها المسلمون ويذرون خلافاتٍ ومظالمَ مِن بعدِهم، هي مِن "حدود الله" وما في الوصية ينفَّذ أولاً، ثم ما تبقى يُنظر فيه وفقًا للتفاصيل المذكورة في الآية؛ أمّا "فقه الكلب" فقدْ تجاهل الآية أعلاه في أغلب الأحيان واكتفى بالآية التالية التي تختلف في سياقها، وأرجو أن ينتبه القارئ لأهم محتوياتها قبْلَ أن أشرحها:

{ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ **لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ** وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا **إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ** فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً **فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ** يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (176) } النساء.

الآية أعلاه والتي سبَّبتْ مظالِمَ كثيرةً على مَرِّ العصور تُقسِّم التَّرْكة التي يتركها **مَن ليس له ولد**. بمعنى أن المقولة المشهورة: "فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ" هذه تنطبق على الأخوات والإخوة في حالة وجود تِرْكة مِن غير وصية والميت، ذكَرًا كان أم أنثى، ليس له ولد؛ فإن كان له ولد (ذكَر أو أنثى) فهذه الآية لا تنطبق عليهما.

أيضًا نلاحظ من مجموع الآيتيْن أن مفهوم الأنوثةِ يدخل في كل الحالات المتباينة؛ لأن الأمَّ أنثى، والزوجة أنثى، والبنت أنثى، وفي حالة نجد أن الأختَ وهي أنثى تَرث نِصفَ ما تَرَك أخوها إن لم يكن له ولد، وإنْ كانتا اثنتيْن فلَهُمَا الثلثان مما تَرَك هذا الأخ. إذًا ففكرة: "فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ" حينما تُستَقطَع خارج السياق الذي وردت فيه فلا تَختلف عن "ولا تقربوا الصلاة" لكن بكل أسفٍ فقدْ وَقَع فيها "فقه الكلب" بكل مدارسه ضاربًا عُرضَ الحائطِ بـ "حدود الله" في الآية، ثم إنها تستغل استغلالاً ساذجًا مِن الذين يحاربون الإسلامَ مِن بَني جِلدتِه مما يدلل على جهلهم التام بحدود الله.

من هنا يمكننا إعادة فهْم هذه الآية:

{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي **أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ** فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً **فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ** وَإِنْ كَانَتْ **وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ** وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ **الثُّلُثُ** فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ** آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11)} النساء.

الملاحَظ أن "للذكر مثل حظ الأنثيين" ليس إلا حالةً من حالات كثيرة في الآية نفسِها ومنها أنهن إنْ كُنَّ فوق اثنتيْن فلهُن ثلثا ما تَرَك، بينما الثلث الباقي يخضع للتقسيم بين البقية، لكن ما يهم في الآية أن كل هذه التفاصيل في نهاية الأمر محكومة بـ: " مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ"، فتبقى الوصيةُ هي المعيارَ الذي تقوم على أساسه كل تفاصيل التركة كما قلنا سابقًا، وهي ليست مما ينتبه له المسلمون اليوم.

من هنا أدعو الذين يُطلَق عليهم "علمانيون وشيوعيون وملحدون" من أبناء المسلمين أن يتفكروا في أن الكفر مِن حقهم حقًا مشروعًا كفله لهم القرآن ولا يوجد شيء اسمه "حد" بصورة مفردة ناهيك عن "حدود الله" التي ليست إلا تفاصيلَ مواثيق في الطلاق والتركة. وعليه ليس هناك حد للردة، ولكن ليس هناك مبرر للجهل والخطل. فمَن أراد أن ينتقد الإسلامَ فليناقِش مصدرَ تشريعِه الأوحد وهو القرآن ويبين لنا الظلم فيه، لكن لا بد أن يعلم أن "فقه الكلب" لا يمثل الإسلامَ، بل هو أول عدوٍ لله ورسوله وأول ما رسخ للتعدي على "حدود الله".

وأختِم هذا البابَ، ومن ثم كتاب "أُمِّي كاملةُ عقلٍ ودين" بطرح موضوع للحوار العام، موضوعٌ جدُّ حساسٍ ونحتاج لفهمه اليوم أكثرَ مِن أي زمن مضى؛ لأن فيه تيسيرًا على المسلمين في العلاقات الجنسية الشرعية، لكن "فقه الكلب" ما زال ينبح وقد طمسه طمسًا شنيعًا وأصبحت حاجة المسلمين والمسلمات لفهمِه اليوم أكثرَ مِن أي يوم مضى نتيجة تعقيدِ الحياة الاجتماعية مع تغير الزمن وكثرة الهجرات وتغير أنماط الحياة التي أصبح فيها، في كثير من الأحيان، الزواجُ المتعارَف عليه لا يمكن تحقيقه مما يَترك عَنَتًا ومعاناةً في نفوس الناس، والنتيجة عند هؤلاء الناس إمَّا أن يقصدوا إلى الحرام، وإما أن يصابوا بالعُقد النفسية، بينما في القرآن وشرع الله متسعٌ معطل بـ "فقه الكلب" وهو نِكاح مِلك اليمين.

نكاح مِلك اليمين:

"مِلكُ اليمين" مصطلحٌ ورَدَ في القرآن في آيات كثيرة، وهو مِلك يمين للذَّكَر وللأنثى، لكن يبدو لي أنه في الأزمان الماضية لم تكن الحاجة لفهمه ضرورية، لذلك خلط الفقهاء عمدًا بين "مِلك اليمين" وبين "العبيد والإماء"، وهي ظاهرة اجتماعية زالت بعامل الزمن. دعونا نتدبر الآيات التي قام عليها الخلط أولاً بين "العبد " و"الأمَة" وبين "مِلك اليمين":

الإماء والعبيد:

{وَأَنْكِحُوا **الْأَيَامَى** مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ **عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ** إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (32)} النور.

{وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ **وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ** خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا **وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ** خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221)} البقرة.

نلاحظ من هاتيْن الآيتين أن مفهومَ "العبد" الذَّكَر و"الأمَة" الأنثى هو المفهوم المعروف في إطار الرقيق والعبودية الذي كان شائعًا في كل المجتمعات الإنسانية إلى عصرٍ قريب، وما زال موجودًا في بعضها بصور ودرجات مختلفة. والعبودية ظاهرةٌ معقدةٌ لا يمكن إلغاؤها بقرارٍ سياسيٍّ؛ لأن هذا سيقود إلى مَظلمة أكبر من الاستعباد نفسه. فمَن لم يَعتدِ على الحياة الحُرة يحتاج لحماية بعد التحرر حتى يستطيع الاندماج في المجتمع بصورة مستقلة، لذلك دمج اللهُ العبيدَ في المجتمع بتدرج حرَّرَهم أخيرًا مع حمايتهم من الضياع. ما يهمنا هو أن القرآن ميَّزَ باللفظ بين "العبد" و"الأمَة" وبين "مِلك اليمين"، ذلك المصطلح الذي تكرر كثيرًا يصف علاقة جنسية مباحة تختلف عن الزواج كما في هذه الآيات:

ملك اليمين:

{وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ **مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (3)} النساء.

نلاحظ أن ما "ملكت أيمانكم" هنا علاقة نكاحٍ شرعيٍّ تختلف عن الزواج، وهي أقل مسؤوليةً وتبعاتٍ بدليل أنها قُدِّمَت كبديل في حال عدم المقدرة على العدل في الحقوق الزوجية.

{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ **إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ **فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ** إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (24)} النساء.

هنا نلاحظ أن نكاح "مِلك اليمين" له شروطٌ وحقوقٌ مفروضةٌ يتم فيها التراضي بين الطرفيْن مِن غير تفصيل.

{وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ **مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ** وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ **فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (25)} النساء.

ونلاحظ هنا أنها علاقةُ نكاحٍ مُعلنٍ بإذن أهلهن وفيها أجرٌ بالمعروف، والمعروف هو ما تعارف عليه الناس مِن خير وعدل لكن لا تفصيل فيه.

{وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ **وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ** نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (33)} النساء.

نلاحظ هنا أن مِلك اليمين لهم نصيبٌ فيما تَرَك الوالدان أيضًا، مما يدلل على أنها علاقة اجتماعية موجودة داخل محيط الأسرة.

{وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ **وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (36)} النساء.

وهنا "ملك اليمين" مِن نسيج المجتمع المعزَّز المكرَّم ولهم حق الإحسان.

{وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ **وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33)} النور.

وهنا نلاحظ أن "مِلك اليمين" تتم العلاقة معهم بالمكاتَبة على حقوق مَرْضية بالمعروف.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ **الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58)} النور.

وهنا نلاحظ إمكانية تواجد "مِلك اليمين" في البيت، لكنهم ليسوا جزءًا من العلاقة الزوجية.

{ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ **مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28)} الروم.

وهنا نلاحظ أن علاقة "مِلك اليمين" يمكن أن تصل مرتبة المشاركة في الرزق، وكذلك في الآية التالية:

{وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا **مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71)} النحل.

وقد أخرج اللهُ العلاقة الجنسية بصريح اللفظ مع "مِلك اليمين" من التحريم:

{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى **أَزْوَاجِهِم** أَوْ **مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6)} المؤمنون.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى **أَزْوَاجِهِم** أَوْ **مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31)} المعارج.

ففي آيات سورة المؤمنون وسورة المعارج فإن التمييز بين الأزواج ومِلك اليمين في العلاقة الجنسية واضحٌ بيِّنٌ وحلال، علمًا بأن الآية تخاطِب المؤمنين ذكورًا وإناثًا.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ **أَزْوَاجَكَ** اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ **وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ** مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (50)} الأحزاب.

{لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ **أَزْوَاجٍ** وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا **مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ** وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (52)} الأحزاب.

هنا "مِلك اليمين" غير الأزواج حتى في بيت النبي.

{وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ **أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ** أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)} النور.

وهنا التصريح بأن للمرأة "مِلكَ يمينٍ" واضحٌ لا يَخفى على أحد كما هو في الآية التالية أيضًا:

{لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا **مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ** وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (55} الأحزاب.

مما سبق نلاحظ أن هناك علاقة جنسية شرعية لم يُسَمِّها اللهُ زواجًا، وميَّزَ بينها وبين الأزواج في اللفظ وفي طبيعة العلاقة من مكاتبة، إلى إذن الأهل، إلى الأجر والمعروف. ولفظ اليمين يرد في القرآن بمدلول التكريم، مقارنًا بلفظ الشمال، ويرد أيضًا بمدلول الميثاق والعهد الذي يجب الوفاءُ به:

اليمين:

{لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا **عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ** فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ **أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ** كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)} المائدة.

{يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ **أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71)} الإسراء

{وَلَا تَتَّخِذُوا **أَيْمَانَكُمْ** دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94) وَلَا تَشْتَرُوا **بِعَهْدِ اللَّهِ** ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95)} النحل.

من كل ما سبق يمكننا أن نخلُص لهذه الملاحظات:

أولاً: أن مفهوم الرقيق "العبد" الذَّكَر و"الأمَة" الأنثى غيرُ مفهوم "مِلك اليمين".

ثانيًا: أن لفظ "اليمين" في القرآن يفيد التكريمَ ويفيد أيضًا القَسَم أو العهد واجب الوفاء به؛ لأنه عهدٌ وميثاق يَشهد عليه الله.

ثالثًا: أن "مِلك اليمين" علاقةٌ فيها ميثاقٌ وعهد وليس استعبادًا.

رابعًا: أن "مِلك اليمين" مركَّب لا تذكيرَ ولا تأنيثَ فيه إلا بما يلمح إليه السياق، إذ إن للذَّكَر "مِلكَ يمين" كما أن للأنثى "مِلكَ يمين".

خامسًا: أن الله تعالى أباح علاقة نكاحٍ غير الزواج مع "مِلك اليمين" ولها ميثاق واتفاق بتراضٍ بين الطرفيْن حسْبَ المعروف، لكنها علاقة تم تمييزها عن الزواج بدليل أنها وردت في الآيات أعلاه كعلاقة متوازية مع الزواج أحيانًا أو بديلاً عنه إن صَعُبَ الزواج.

إنَّ فَهْمَ مدلولِ "مِلك اليمين" في القرآن لا يتأتَّى إلا مِن القرآن الذي هو غير قابل للتحريف كما تم ويتم كل يوم تحريفُ ما نُسِب ويُنسَب للنبي -صلى الله عليه وسلم- كلما احتاج "فقه الكلب" لتشريع أو تحريم جديد وفقًا للأهواء. وعلاقة "مِلك اليمين" تحمل في منطوقها ميثاقًا وعهدًا كريمًا يباح فيه النكاح غير الزواج؛ لكن حتى تستطيع الأمَّة أن تتدبر الحكمة من هذا التشريع ومِن ثم تفعيله تحتاج لإعادة صياغة نفسية واجتماعية كبيرة بعد أن تَسمَّمْنَا بموروثاتٍ فقهية قديمة صدرت في أزمان غير زماننا، ولأسباب أغلبها سياسية أو تحت ضغط ورغبة السلاطين ليشرِّعوا لهم مِن الدين غير ما أنزل الله. ونحتاج لإعادة تعريف "الشرف" و تعريف "الإنسان" الذي يخاطبه القرآن بكل مكوناته النفسية والروحية والجسمية إناثًا وذكرانًا، قبل أن نعيد تدبر حقوق الإنسان في القرآن الذي اتخذناه مهجورًا:

{وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30)} الفرقان.

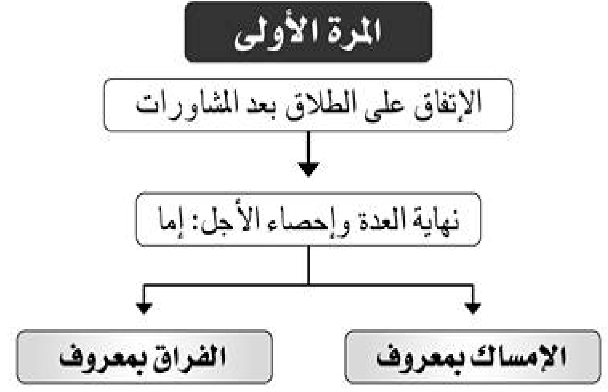
فهذا الكتابُ "أمِّي كَامِلَة عَقْلٍ وَدِينٍ" ومِن قبلِه كتاب "آذان الأنعام" يَشهدان على مقدار هجرنا للقرآن.

ولنصل لبداية تلك الثورة لا بد مِن مراجعة كل ما كُتِب بأيدي الناس ونَسبوه إلى الله في شخص رسوله، والذي يشكل أساسًا كبيرًا لِما نسميه الدينَ الإسلامي الذي ندين به اليوم ونحن نرى بأُمِّ أعيننا أننا أُمَّةٌ تَهوي في كل المجالات في هاوية سحيقة، ونحن نتوهم أن الآية التالية نزلت في أهل الكتاب فقط وما هي كذلك، إذ إنها تحذِّر كلَّ مَن يفتري على الله كذبًا:

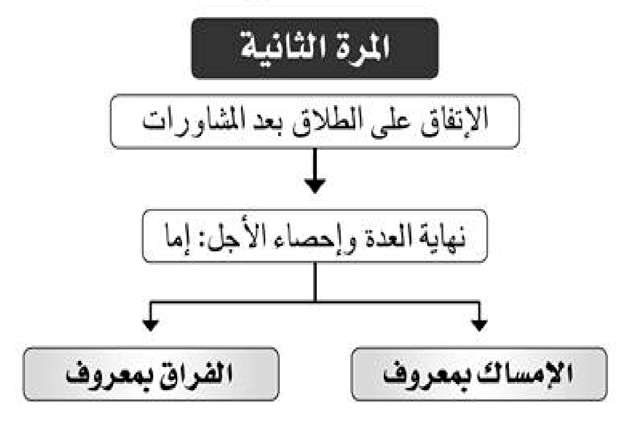
{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)} البقرة.

****

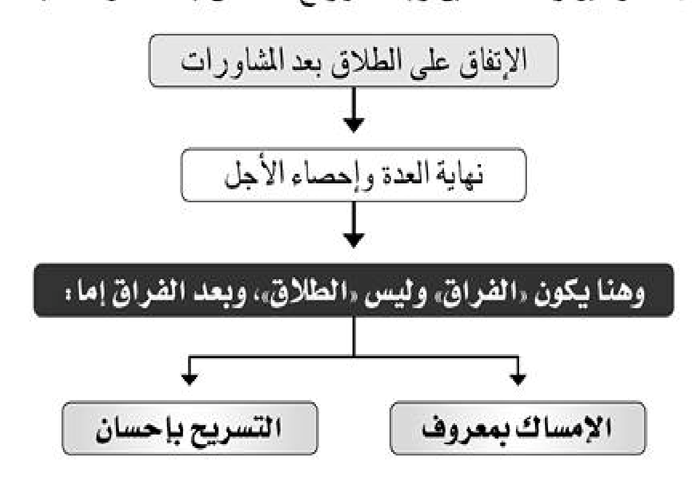
مخطط يوضح مفهوم «الطلاق مرتان» والتميز بين عملية «الطلاق» و«الفراق» وبينهما «حدود الله» المتعددة:



بعد فترة يراودهما الحنين ويعاد الزواج... فيفشل مرة أخرى.



بعد فترة يراودهما الحنين ويعاد الزواج... لكن يفشل للمرة الثانية:



من وحي نظرية آذان الأنعام .. كتاب: «أمي كاملة عقل ودين» باب: «فقه الكلب» للدكتور: عماد حسن ، تصميم: كمال يوسف

البداية والنهاية

"البداية والنهاية" مِن أكثر عناوين الكتبِ القديمةِ التي تروقُ لي؛ لأن فيه ابتكارًا يستفز العقل. وهو كتاب تاريخ لابن كثير صاحبِ تفسير ابن كثير المشهور. والكثيرُ مما نقلناه مِن معلوماتٍ تاريخيةٍ وَرَد في "البدايةِ والنهايةِ" و "تاريخ الطبري" وهُمَا مِن كبار المفسِّرين. مِن المفارقات العجيبة أن السلفيين ومَن يُسمّون أنفسهم أهلَ السُّنّة والجماعةِ لا يحبون "الفضائحَ" ويفضلون التسترَ على ما احتوت عليه تلك الكتبُ مِن تاريخ رغم أنهم يصدِّقون خرافاتِ كاتبيها في تفسيرهم للقرآن. هذا مِن أفضل الأمثلة في التمييز بين "العقل" و"الهوى". فالهوى وحدَه هو الذي يحدِّد ماذا يأخذ الناسُ مِن ابن كثيرٍ والطبري: التاريخَ الذي هو تَخَصّصهم؟ أمْ تَقَوَّلهم على الله ورسولِه في كتب التفسير؟

البداية:

كما ذكرتُ دائمًا أن ما أُقدِّمُه ليس إلا تجاربَ حياة، ولأني موحِّدٌ على مِلة إبراهيمَ ولا أؤمِنُ بآلهةٍ أو أربابٍ بيني وبين الله، ولأني أؤمِنُ أنني سآتي اللهَ يومَ القيامةِ فردًا كما قال في سورة مريم { إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)}، فإن تجاربي التي أُقدِّمها للناس جزءٌ مِن سجل أعمالي في الآخرة.

وبدايةُ فكرةِ هذا الكتاب كانت أيامَ المدرسةِ الأولية حينما استنكرتُ قصصَ "حليمة بائعةِ اللبن ومحمود الكذاب وطه القُرَشي" لكن لم أدرِ كيف أتصرف معها. ثم استنكرتُ بالفطرة قصة الإفكِ المنسوبة إلى عائشة، وشعرتُ بتناقضٍ بينها وبين سورة النور. ثم شاء الله أن أقف على انحرافٍ ممنهجٍ في العقيدة والأخلاق والإنسانية والوطنية للجماعة الإسلامية في السودان وبيْع الدين كله بالدنيا في وضح النهار في بداية ثمانينيات القرن الماضي، فسقطت الكثيرُ مِن القدسيات عندي، وأصبح كل شيء قابلا للبحث. ومع التطور العلمي وتجارب الحياة وتعمقي في القرآن بعيدًا عن تأثير التفاسير، ومع بزوغ فَجر نظرية " آذان الأنعام " التي تزامنتْ مع تسارع مظاهرِ انهيارِ المجتمع المسلِم في العقديْن الأخيرين أصبح جَلِيًّا للعميان أن المسلمين قد خرجوا عن الصراط المستقيم خروجًا بعيدًا، فكان لا بد مِن وقفةِ حزمٍ وحسمٍ أمام التاريخ، ودعوةٍ جريئةٍ لمراجعته قبل أن تهلك الأمة تمامًا. فكان هذا الكتاب الذي لا يدعو لا إلى إلحادٍ ولا إلى تقوُّلٍ على ما جعله اللهُ مقدسًا، وإنما فقط يدعو لإسقاط القدسية عن الأرباب التي أصبحت تُعبَد مِن دون الله.

يقول الطبيبُ الأمريكي المسيحي "فرانسيس كولنج" مهندس مكتبة "الجينوم البَشري" في كتابه الإنجليزي" لغة الرب": "إنه ما دام احتمال الموت 100% لكلِّ نفسٍ حيّةٍ فستظل قضية الأديان تؤرق الإنسانية". في هذا السياق فإن الجيلَ الحالي مِن المسلمين منازَعٌ بين الكفر بالله - وهو أمرٌ صعبٌ- وبين رفض الإسلام المتداوَل بصورة تشمئِز منها الأنفس. وهذا الكتاب يقدم بحثًا مبسطًا في أصل الداء، ويقدم دعوةً موضوعيةً للدواء موجهة للشباب الذين أصبحوا مهددين بدعوات الإلحاد. إن العلة ليست في القرآن الذي هو أصل الإسلام، وإنما في التاريخ المغلوط والمناهج الهدامة التي انتهت صلاحيتها وآنَ أوانُ تجديدِها بحزم وحسم. ورغم وضوح الحقيقة إلا أن قضية العنادِ والكِبْر والعنصرية الفكرية ستظل حاجزًا بين كثيرين و قبولِ الواقع والبيناتِ التي بيَّنَها الله في القرآن. ستظل فئةٌ مِن اليهود والنصارى والمسلمين عنيدةً لا تتبع إلا ما وجدتْ عليه الآباء. هؤلاء لو بُعِث لهم موسى لقال اليهود منهم لن نؤمِنَ لك حتى نرى اللهَ جهرة، ولو نزل عيسى للنصارى فاستنكر تحريفَ رسالتِه لصَلَبه بعضُهم بتهمة الكُفر، ولو بُعِث محمد وأنكر ما يُنسَب إليه في التراث لحَكَم عليه المتحجرون فكريًا بالردة.

النهاية:

قال المفكر الأمريكي جيمس ألبرت مشنر (James A Michener) في مقالٍ بعنوان :" الإسلام تلك الديانة التي أسيء فهمها" ما يلي:

{في كل شيء كان محمدٌ واقعيًا وعمليًا. حينما مات ابنه الحبيب إبراهيم تزامن مع خسوفٍ للقمر فانتشرت إشاعات أن الله يعلن الحِداد على موت إبراهيم. فكان رد محمد أن الخسوف ظاهرة كونية ومِن الغباء أن يُنسَب لعزاء الإله في موت بشر. وفي يوم موت محمد اهتزّ كبار أصحابه وأنكر بعضهم حقيقة موته، لكن الرجل الذي

أعدَّه محمدٌ ليقود الأمة مِن بعده قتَل الهستيريا بأعظم مقولةٍ في تاريخ أديان الإنسانية: " مَن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومَن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت"}

وخلاصة هذا الكتاب هي مَن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت!

إن ثورةَ التحريرِ مِن الأَصُرِ والأغلال التي فرضت علينا لا بد أن تبدأ من البيان رقم واحد في القرآن: قلتُ إن سورة النور نزلت في فترة كان المجتمع في القاع مِن حيث الفكر والتركيب الاجتماعي والسياسي، لكنه كان في قمته مِن حيث الإيمان بالله وطاعته وطاعة رسوله. فسارعتْ سورة النور بمعالجةِ أكبرِ معضلةٍ يمكن أن تدمر الفردَ والأسرة والمجتمع وهي مشكلة اختلاق مفهوم "الشرف". فرفعتْ سقفَ تعريفِ العلاقات الجنسية خارج الإطار الشرعي إلى أقصى درجةٍ، فعرَّفتْ "الزنا" بالمجاهَرة والاحتراف، ثم جعلتْ عقوبة ذلك أدنى عقوبة و هي "الجَلْد"، ثم قفلت البابَ تمامًا أمام الاتهامات حتى وإنْ كانت حقيقة في حق الزوجة، ثم جاءت آيات "حدود الله" الصارمة لتجعل مِن "الطلاق" تجربةً رومانسية لها إطارٌ واسعٌ من الحدود الرقيقة الوديعة الطيبة التي حرم اللهُ تعديها، فسَهَّلَ اللهُ العلاقاتِ الحميمة في الزواج أو مِلك اليمين للذَّكَر والأنثى، ثم سَهَّلَ الطلاقَ إلى أبسط صورة ممكنة بحيث ينتهي بسلامٍ إمَّا إمساكٍ بمعروف أو فراقٍ بإحسان، وكلاهما خيرٌ ولا عيبَ فيه. فكان نتيجة ذلك أن تَرَفَّعَ الناسُ عن البحث في الأمور الشخصية، وابتعدوا عن الحديث عنها فتوجهتْ اهتماماتُهم نحو مِلة إبراهيمَ مِن تدبرٍ في الكون والفكر والبحث العلمي والتطور الثقافي والإبداع في بناء حضارة ليتحقق التسليم لله.

ثم جاءت مؤسسة عبد الله بن سبأ للتحريف؛ فصنعتْ مفهومَ "الشرف" وحَشَرته في عكس موضعه تمامًا. وحتى نفهم هذه الكارثة التي تعاني منها الأمة أقدِّم لها بمثال:

تخيَّلْ أن الطفلَ - ذكَرًا أو أنثى- ينشأ في بيئة تبرمجه أن قمة الشرف في أنه إذا بلغ الحادية والعشرين فعليه ألا يتبول ولا يتغوط إلا مرةً في الشهر. فيتم شحن الأطفال بهذا الرعب الذي سيُسقِط عنهم الشرفَ في تلك السن. حينما يصلون إلى سن الحادية والعشرين تبدأ المعاناةُ النفسية في الصراع بين "الشرف الوهمي" وبين الطبيعة الحيوية البيولوجية التي لا تستمر الحياة دونها. وسرعان ما يتحول هذا الجيل المنكوب إلى جيلٍ مريضٍ نفسيًا وجسمانيًا مصابٍ بالإمساك وحبْس البول لأيام عديدة، ثم بعدَها يصبح كله جيلاً لا شرفَ له؛ لأنه نَاطَحَ المستحيل، التمثيلُ قد يستغربه البعض لكن نعود لنظيره في التحريف:

نقلت المؤسسة مفهومَ "حدود الله" المغلَّظ الذي قُصِد منه تيسير الطلاق، نقلته إلى مكانٍ دمويٍّ، فأصبحت "حدود الله" عقوباتٍ صارمةً، على عكس ما أراد الله الذي تركها للاجتهاد في كيفية وزمان تطبيقها، فتحولت العقوباتُ التي أطلق عليها "الحدود" إلى أصلٍ في الدين وواجهةٍ للشريعة والعقيدة، وتحوَّلَ "شرع الله" إلى مفهومٍ دمويٍّ بشِعٍ بعد أن ابتدعوا معه حدَّ الردة وحدَّ الرجم الذي استدلوا عليه بالقردة.

ثم تركوا العلاقاتِ الحميمية الفطرية التي لا تستقيم الحياةُ بدونها مِن غير حدود بعد أن حرَّفوا " الطلاق مرتان" إلى الطلاق كلمتان" وضعوها في يد الذَّكَر يقولها أنَّى شاء، فتحولت العلاقاتُ الاجتماعية إلى كابوسٍ مزعِجٍ يشغل الناس: الزواجُ مرعبٌ، والطلاقُ مرعبٌ، والحبُّ مرعبٌ، والجنسُ عيبٌ و"لفلفوا" كلَّ ذلك بغطاء "الشرف". فأصبح الولد ينشأ برعب مِن ضياع شرفه في أُخته وأُمِّه، ويكبر بالرعب الذي ينتقل معه لزوجتِه وابنتِه. وأصبحت البنتُ تنشأ على أنها قنبلةٌ موقوتةٌ لو زلَّتْ لنسفتْ شرفَ العائلةِ والقبيلة. فكان أن ضاع الشرفُ مِنا في كل مناحي الحياة الأخرى، لذلك لا غرابة أن تجد معظمَ جوازاتِ السفر في الدول التي سبقتنا في الالتزام بسُنَّة الله في الكون مكتوب عليها: " إن الدولة على استعدادٍ لتحريك كل أساطيلها وإفناء آخر جندي مِن جنودها في الدفاع عن حامل هذا الجواز"، فكان الشرفُ عندهم هو إنسانية مواطنيهم وليس خصوصيات حياتهم التي تركوها للحرية الشخصية. أمَّا عندنا فجواز السفر مكتوب عليه: " في حال ضياع هذا الجواز يغرم صاحبه مبلغ كذا من المال"، وصاحبه هذا "مفرومٌ" في ليله ونهاره مِن الرعب مِن ضياع شرف الأسرة الذي زرعوه بين فخذَيْ بناتها.

لو قرأتَ هذا الكتابَ مرة أخرى سترى الآتي:

أحسن الحديث "حديث الله" تحوَّلَ إلى حديث البَشر، فتعطل التدبر في القرآن وظهر التحجر في التعبد إليه بأقوال البشر الظنية التي فُتِح فيها البابُ لأوسع نطاق للكذب على رسول الله.

"حدود الله" نقلت من حماية "الحرية الاجتماعية الشخصية" ووضعت مكان "العقوبات"، فأصبحت الأولى فوضى والثانيةُ مجزرة.

آيات الله الكونية "المَمْحُوّة والمَنسوخة والمَنسيّة" أصبحت في طيِّ النسيان، وبدل التدبر فيها وفي عظمة الكون وخلق السموات والأرض كما كانت مِلة إبراهيم، انشغل الآلاف مِن الكهنة في البحث عن كلام الله الذي غيَّرَ رأيَه فيه وبدله تحت مسمى عِلم "الماسخ والممسوخ". فتعطلت العقولُ وسقطت هيبة القرآن. ومِن هذا المدخل حَشَروا ما شاءوا مِن ضلالات باسم النسخ لتصبح جزءًا أساسيًّا مِن ديننا: الرجم والردة، فتحوَّلَ المجتمعُ مع مَرِّ السنين إلى مجتمع فَظٍّ غليظِ القلب دمويٍّ في أفضل حال تمسكه بشرع الله، ومصابٍ بحبْس بول وإمساك في أفضل حال تمسكه بالشرف، أو إلى تائهٍ لا يَدري بالضبط ما هو الصراط المستقيم، وفي هذا الضنك والقهر الفكري والنفسي والاجتماعي تتطور الأمراض فيبحث الشباب عن متنفسٍ لغرائزهم فلا يجدوه إلا بالنحر والانتحار في سبيل الوصول إلى وهْم الحور العين.

إننا نعيش في "مَفرمةٍ" فكريةٍ اجتماعيةٍ، لذلك لا غرابة أننا لا وقت لنا للإبداع في الحياة ولا في إعمار الأرض؛ لأننا ننشأ في رعب مِن الشرف، وهمومٍ تهدُّ الجبالَ في البحث عن الزواج المستحيل، وهمومٍ أكبر رعبًا مِن الطلاق البشِع.

قياسًا على هذه المتاهات الاجتماعية التي اخترتُها لأنها ترتبط بموضوع الكتاب، يمكن أن تبحث في كل مناحي الحياة الأخرى لتجِدَ أوجهَ الضياع والتيه في المجال الاقتصادي والسياسي والعلمي والاهتمام بالبيئة والطبيعة، وكلِّ ما كان يجب أن يكون مَحطَّ أنظارنا ومركزَ اهتمامنا، لكننا نسيناه بعد أن تُهنا في متاهات "فقه الكلب" لألف عام.

إن حالَ الأمةِ اليومَ في وصفٍ مبسطٍ، أنها تعيش انفصامًا بين حُكامٍ كلهم يُقسِم على المادة الثانية في الدستور أن الإسلامَ هو مصدر التشريع - بل هذه المادة تُسفَك في سبيلها الدماء - لكن في الواقع لا يَدري أحدٌ - حكامًا ومحكومين - ما هو الإسلام وما هو التشريع - أمَّا الشعوبُ فمُقسَّمةٌ إلى فئاتٍ: فئةٍ مِن أفظاظ القلوب ترى الشريعة هي الحدود بمعناها المحرَّف الدمويّ في فقه الكلب "العقوبات" وتنادي بها، وفئةٍ ترفض عَلَنًا هذه الشريعة لأنها لا تطمئن أن هذا حقيقة هو ما جاء به محمدٌ نبيُّ الرحمة، وفئةٍ بين هؤلاء وهؤلاء لا تتجرأ على ترْك دينها ولا تستطيع قبوله بالشكل المفروض عليها مِن الكهنة، فأصبح مثلنا مثل سيارةٍ فيها أربع عجلات: عَجَلة تسير أمامًا، والثانية خَلْفًا، والثالثة يسارًا، والرابعة يمينًا، والمهندس يضحك على الركاب الذين يتعاركون داخلها ويمدهم بالسلاح ليقتل بعضُهم بعضًا.

أين الحل:

حينما فهمتُ عام 1982 مِن أستاذي في علم الحديث الشيخ محمد نجيب المطيعي رحمه الله أن لفظ "صحيح" يعني فقط أنه استوفى شروطَ الصحة لدى المحدّث المَعني لكنه لا يفيد بأي حال مِن الأحوال صحة نِسبتِه للنبي، لم يتبدل ديني ولم يتطور إلا إلى الأفضل. وعليه فإن الضرورةَ اليومَ تقتضي أن نرفع القدسية الوهمية عن تاريخ مَن يسمون بالسلف، ونعيد النظرَ في مستجدات حياتنا، ونجتهد في إكمال ديننا بما يرضي اللهَ عنا اليوم وليس كما رضي عمن سلف في زمانهم؛ لأن رسالتَه إليهم اختلفت عن رسالتِه إلينا، وتَعَبُّدنا إليه حتمًا يختلف عن تَعَبُّدِهم له وبذلك يكون معيار العدالة الإلهية ثابتًا ويقوم على أداء كلٍّ بما خلق له في زمانه ومكانه فتتم نعمتُه علينا.

ولا أتوقع ممن يتفقون معي في محتوى هذا الكتاب أكثرَ مِن تغيير النظرة لكتب الحديث والتاريخ الإسلامي ومراجعتِها بعيدًا عن القدسية، لكن سيظل القرآن الذي هو كلام الحي الذي لا يموت وحيًا حديثًا كلما أشرقت شمسُ يومٍ جديد، وسيظل هو المرجع، وسيظل التاريخ والتراث عامليْن مساعدين للفهم وليسا مصدرًا موازيًا للتشريع.

ولا أتوقع أن تتحولَ المجتمعاتُ المسلِمة فجأة إلى مجتمعاتٍ محبَّةٍ للكلاب؛ لأنها وإن قررتْ ذلك فلا بد من المرور بعلم التكليب الذي تعطَّلَ عندنا قرونًا طويلة، فضلاً عن أنه لا بد وأن تطمئن الكلابُ نفسُها أن المسلمين عادوا لِسُنَّة الله وأصبحوا أكثرَ رحمة. ما نحتاجه الآن هو تشخيص الأدواء بُغية التمهيدِ للحلول التي تتطلب أجيالاً.

ولا أتوقع أن يؤخَذ رأيي في مسألة الحجاب المغلوط كدعوةٍ للعُري؛ لأن اللباسَ أصلاً تحكمه أعرافٌ في كل مجتمع مسلِمًا كان أو غيرَ مسلِم، ولباسُ الرجلِ والمرأة يختلف من بلدٍ مسلمٍ إلى آخرَ اليوم، بل إن حرية المرأةِ وما يباح لها اليوم يختلف من بلدان تقود فيها المرأةُ الطائرةَ إلى بلدانٍ ما زالت تشك في شرفها إنْ قادت سيارة. ما أدعو له فقط أن يعيد الناسُ فهْمَهم للمسميات والمصطلحات القرآنية والأحكام الشرعية بعيدًا عن التحريف أو التقديس الذي ما أمر الله به.

ما نحتاجه حقيقة هو رحابة صدرٍ في تقبُّلِ النقدِ الذاتي، والاعتراف أن معيشتنا أصبحت ضنكًا، وأن العيبَ فينا وليس في اللهِ أو رسولِه أو القرآن.

الحلُ يكمن في العودة للقرآن من البيان رقم واحد، والقبول أن الشرفَ ليس بين فخذَيْ نسائِنا، وأن حدودَ اللهِ هي ضوابط العدالة الاجتماعية، وأن الدينَ حريةٌ فكرية، وأن التراثَ تاريخٌ غير ملزم، حينَها فقط تَتَّحِدُ عجلات سيارة الأمة في تناسقٍ لتتحرك في اتجاه واحد وصراطٍ مستقيم.

بلُغَةِ العصر فإن "كلمة السر" يمكن أن تتحول إلى مستحيلٍ لو تَغير فيها حرفٌ واحد ولقد غيَّرتْ مؤسسة ابن سبأ بضعة حروفٍ فبقي الإسلام سجينَ القرآن لا نستطيع الولوجَ إليه لأننا ندخل إليه مدخلاً خطأً.

دينُنا أصبح كتمثال أبي الهول: رأسه رأس إنسانٍ وديع، وجسده جسد أسد، لا تدري هل تعانقه مِن وجهه؟ أم تهرب مِن جسده؟!

لقد أسقطت "ملكة النحل" مِن مكانها المَلكي في الخلية، ولا يمكن أن نتوقع شهدًا من خليةٍ اكتظت بالذكور المعتوهين وإنْ حرصنا؛ لأن هذا ضد سُنَّة اللهِ التي لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً.

وختامًا: فإنَّ كلَّ ثورةٍ لا بد فيها مِن ضحايا، لكن ضحايا ثورةِ التغيير أقلُّ عددًا وأشرفُ هدفًا مِن ضحايا الجمود والتحجر.

اللهمَّ هذا قَدَري فيما أملِكُ فلا تَلُمْني فيما تَملِكُ ولا أمْلِك.

وآخِرُ دَعْوَانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين

20-5-2014